المركز القومى للترجمة



دوجلاس ليتل

الاستشراق الأمريكى

الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ 1945

ترجمة وتقديم : طلعت الشايب

1500



زار الرئيس الأمريكى باراك أوباما الشرق الأوسط، بعد ستة أشهر من توليه مهام منصبه، حاملا خطابا مختلفا. جاء كما قال بحثا عن بداية جديدة بين بلاده والعالمين العربى والإسلامى. قال إن جزءًا من مسئولياته هو التصدى للصورة النمطية السلبية عن العرب والمسلمين فى بلاده، نافيا كذلك أن تكون الصورة النمطية عن أمريكا الإمبراطورية حقيقية.

تطرق إلى أمور محددة يعتقد أن "علينا معا" مواجهتها بجهد مشترك. لم يتحدث بلغة "نحن" و"هم"، خرج عن قاموس سلفه والمحافظين الجدد ومصطلحاتهم الغاشمة مثل "محور الشر" و"الدول المارقة" و"الخطر الأخضر" و"الفاشية الإسلامية"، وغيرها. لم ينس أوباما أن يستشهد بآيات من القرآن ثلاث مرات. هل هى بداية جديدة حقا؟

الكتاب الذى بين يديك يتقصى جذور الاستشراق الأمريكى ويعرض لك قصة العلاقة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها بما يؤكد أن خطاب الرئيس الأمريكى الرابع والأربعين من جامعة القاهرة لم يكن سوى تنويع على لحن أساسى، وحلقة جديدة من مسلسل النموذج الأمريكى للاستشراق بإخراج مبهر... أو قل هى خمر قديمة قدمها فى آنية جديدة فى صحة سياسات ثابتة تتنوع أساليب التعبير عنها مع تغير الظروف والأحوال... والرؤساء!

(المترجم)

تصميم الغلاف: نسرين كشك

الاستشراق الأمريكى

الولايات المتحدة والشرق الأوسط

منذ ١٩٤٥

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1500
- الاستشراق الأمريكى
- دوجلاس ليتل
- طلعت الشايب
- الطبعة الأولى 2009

هذه ترجمة كتاب:

AMERICAN ORIENTALISM:
THE UNITED STATES AND THE MIDDLE EAST SINCE 1945,
THIRD EDITION
by Douglas Little

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤-٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
E. Mail: egyptcouncit@yahoo.com **Tel:** 27354524-27354526 **Fax:** 27354554

الاستشراق الأمريكى

الولايات المتحدة والشرق الأوسط

منذ ١٩٤٥

تأليــــــف : **دوجلاس ليتل**

ترجمة وتقديم: **طلعت الشايب**



2009

ليتل، دوجلاس
الاستشراق الأمريكي: الولايات المتحدة والشرق الأوسط / تأليف:
دوجلاس ليتل، ترجمة وتقديم: طلعت الشايب.
ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩
٧٣٠ص؛ ٢٤سم
١- الولايات المتحدة الأمريكية - العلاقات الخارجية - الشرق الأوسط
٢- الشرق الأوسط - العلاقات الخارجية - الولايات المتحدة الأمريكية
٣- الاستشراق والمستشرقون
أ - الشايب، طلعت (مترجم ومقدم)
ب- العنوان ٣٢٧,٢٣٥٦

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٢٢٧٢٠
الترقيم الدولى: 978-977-479-748-0

المحتويات

مقدمة المترجم

تنويع على لحن أساسى

"نحن الأمريكيين متفردون وشعب مختار، إننا إسرائيل زماننا، نحمل سفينة حريات العالم. لكم تشككنا فى نظرتنا إلى أنفسنا ولطالما ساورنا سؤال عما إذا كان المسيح السياسى قد جاء، ولكنى الآن أقول إنه قد جاء متمثلا فينا ولا يبقى سوى أن نعلن خبر مجيئه"

"هيرمان ميلفيل"[١]

فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى پاريس فى سنة ١٩٧٤، تم الاتفاق على التوقف عن استخدام مصطلح "الاستشراق"، بعد ملاحظة أنه كان يتسم بقدر غير قليل من الغموض والتعميم إلى جانب أنه نسبى، فنحن نقول عن الشىء إنه يقع شرقا أو غربا بالنسبة لموقع ما. وبالرغم من أن مصطلحى "الاستشراق" و"مستشرق" ما زالا مستخدمين فى العديد من المؤسسات الأكاديمية والأدبيات التى تتناول الموضوع، نجد (المستشرق!) "مكسيم رودنسون" يقول إن كلمة "الاستشراق" لم تعد تعنى شيئا، كما يرى أنه لا يوجد "شرق" وإنما توجد شعوب ومجتمعات وثقافات تميزها، وعليه لا يوجد "استشراق" وإنما "أنظمة علمية لها موضوعاتها وإشكالياتها النوعية مثل علم الاجتماع والاقتصاد السياسى والألسنية والأنثروپولوچيا وغيرها"[٢]، ويخلص إلى أن المصطلح متناقض مع حقائق الواقع و"لا تفهم منه شيئا".

أما "إدوارد سعيد"، صاحب الكتاب الأشهر "الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق"، فيعنى المصطلح بالنسبة له عدة أمور يعتمد بعضها على بعض وتبدو غير

مترابطة يستخلص منها أيسر "التعريفات المقبولة"، وهو أن الاستشراق "مبحث أكاديمى"، والمستشرق "كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء البحوث فى موضوعات خاصة بالشرق سواء كان ذلك فى مجال الأنثروپولوچيا (علم الإنسان) أو علم الاجتماع أو فقه اللغة، وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة... والاستشراق إذن وصف لهذا العمل"[٣]، ويعترف "سعيد" بأن المصطلح "لم يعد يتمتع بالحظوة القديمة" بعد أن أصبح المتخصصون يفضلون استخدام مصطلح "الدراسات الشرقية" أو مصطلح "دراسات المناطق"، مضيفا أن للاستشراق "معنى أعم وأشمل يتصل بهذه التقاليد الأكاديمية [....] أقدارها وهجراتها وتخصصاتها وأحوال بثها، فالاستشراق أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودى والمعرفى بين ما يسمى "الشرق" وما يسمى فى معظم الأحيان "الغرب".

أما "الشرق" فكان بالنسبة لأوروبا فى البداية هو تلك الأراضى الآسيوية الممتدة بطول سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية حتى الهند والصين، وفى القرن التاسع عشر كان مصطلح الاستشراق يطلق على الدراسات المعنية بلغات ومعتقدات وثقافات هذه المنطقة، مع اعتبارها مكونة من وحدتين: الأولى هى "الشرق الأدنى – **The Near East**" وتشمل جنوب شرق أوروبا والليڤانت والأجزاء القريبة من أوروبا، والثانية هى "الشرق الأقصى – **The Far East**" وتضم الهند وجنوب شرق آسيا والصين واليابان. وفى ١٩٠٢ ظهر مصطلح "الشرق الأوسط – **The Middle East**"، ويرجع الفضل فى ذلك للمؤرخ العسكرى الأمريكى "ألفريد ثاير ماهان – **Alfred Thayer Mahan**" (١٨٠٤–١٩١٤)، وهو الذى "حدد فى كتاباته ومحاضراته عن الاستراتيچية العالمية حدود الشرق الأوسط بأنها تمتد من شبه الجزيرة العربية عبر فارس وأفغانستان، وحتى حدود باكستان الحالية، وبالمقابل حدود الشرق الأدنى بأنه يتضمن البلقان (وكانت أجزاء منه ما زالت آنذاك داخل الإمبراطورية العثمانية)، وغربى الأناضول الذى كان فى تلك الفترة يحتوى سكانا كثيرين يتحدثون اليونانية وأراضى شرقى المتوسط"[٤]؛ ومصطلحا "الشرق الأدنى" و"الشرق الأوسط" مستخدمان بالمعنى نفسه وإن كانت قد راجت مصطلحات مستحدثة للإشارة إلى

أجزاء بعينها من هذه الأراضى نفسها مثل "العالم العربى" و"الوطن العربى" و"المشرق العربى" و"المغرب العربى"؛ وفى بعض الأحيان تشير الأمم المتحدة والهيئات الدولية الأخرى إلى الإقليم رسميا بجنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا "فى محاولة لتجنب المركزية الأوروبية، غير أن هذا الاسم الأكثر حيادية لم يصبح شائعا"(٥).

تعريف الشرق الأوسط فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا يجعل مؤلفه يضم "إسرائيل والدول العربية وإيران وأراضى المسلمين من الصحراء الكبرى إلى ممر خيبر ومن الجزائر إلى أفغانستان"، وهو المسرح الواسع الذى سيعرض عليه رؤيته لكل الاعتبارات السياسية والثقافية والاقتصادية التى أثرت وما زالت تؤثر فى سياسة الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ إلى اليوم.

لفهم طبيعة اللقاء (المواجهة) بين أمريكا والشرق الأوسط بعد ١٩٤٥ يتفحص المؤلف ما حملوه معهم من متاع ثقافى وفكرى (تلك الصور الذهنية النمطية التى يصفها بالاستشراقية) وهم ذاهبون إلى هناك. بنظرة سريعة إلى الثقافة الشعبية الأمريكية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نجد أن المسلمين واليهود ومعظم شعوب الشرق الأوسط الأخرى كان يتم تصويرهم - من منظور استشراقى - باعتبارهم متخلفين ومتعصبين ومخادعين وليسوا أهلا لأى ثقة... وأنهم هكذا بالفطرة، وحتى سنة ١٩٠٠ كانت المشاعر المعادية للسامية وللإسلام هى السائدة.

هذه النظرة الاستشراقية السلبية دعمها فى أوائل القرن العشرين رجال الأعمال والمبشرون والآثاريون، ساعدهم فى ذلك مجلات مثل "ناشونال جيوجرافيك". بعد الحرب العالمية الثانية والهولوكوست وإعلان دولة إسرائيل خمدت مشاعر العداء للسامية نوعا ما حيث تم "غربنة" اليهود و"شيطنة" العرب والمسلمين باعتبارهم إرهابيين معادين للغرب رافضين لكل ما له صلة به. هذه الرسائل الاستشراقية الجديدة كان يتم تكريسها عن طريق السينما ووسائط الاتصال المختلفة. أما تغير النظرة إلى اليهود وإعادة رسم الصور الذهنية عنهم فيعود لأسباب جذرية عمرها أربعة قرون من الزمان.

"البيوريتانز" الذين أسسوا "إسرائيل الرب الأمريكية" على خليج ماساشوستس جاءوا حاملين معهم إعجابا وافتتانا شديدين بالأرض المقدسة وفكرة غائمة غير واضحة عن أولئك "الكفار" الذين يعيشون هناك، معظمهم مسلمون وبعضهم يهود. على ظهر السفينة "أرابيلا" التى كانت تحمل مجموعة من "البيوريتانز" إلى العالم الجديد، كان القس البروتستانتى "صمويل ويكمان" يقول لهم وهو يعظهم إن "أورشليم كانت.. أما نيو إنجلند فهى الموجودة الآن. اليهود كانوا... ولكنكم أنتم شعب الله المختار.. أنتم البروتستانت المتطهرون شعب الله المختار الآن.. وعهده معكم.. فضعوا اسم نيو إنجلند مكان اسم أورشليم". أما المجموعة الثانية التى وصلت إلى شاطئ نيو إنجلند على ظهر السفينة "ماى فلاور" فى ١٦٢٠، فقد وقع أعضاؤها فيما بينهم "عهد ماى فلاور" معلنين أسس مجتمعهم المثالى فى أورشليم الجديدة.. كنعان الجديدة.. وأسلوب الحياة التى يريدونها، فإذا كان العبرانيون القدماء قد فروا من ظلم فرعون مصر إلى أرض الميعاد، فهم كذلك قد فروا من ظلم "جيمس الأول" إلى أرض الميعاد الجديدة.

فى سبعينيات القرن الثامن عشر كان مصدر الصورة الشاحبة عن الشرق الأوسط لدى الأمريكى العادى، هو إنجيل "جيمس الأول" وحكايات شهرزاد فى ألف ليلة وليلة. فى تلك السنوات كان القليل من الأمريكيين هم الذين يستطيعون أن يحددوا مكان مدينة مثل بغداد أو بيروت على الخريطة، وكان أقل القليل منهم قد شاهدوا أهرام الجيزة أو مياه نهر الأردن.. ولكن معظمهم كانوا يعرفون إنجيل متى وقصة "على بابا والأربعين حرامى"... والغالبية تأسى لأن الأرض المقدسة يسكنها غير المؤمنين... من مسلمين ويهود. فى أواخر القرن الثامن عشر كان طيف الإسلام أوضح قليلا من طيف اليهودية فى الثقافة الشعبية الأمريكية، وكان من الممكن أن تجد على أرفف المكتبات من واشنطن إلى شارلستون قصة حياة "نبى المسلمين" التى تصوره مؤسسا لسلالة شريرة وبربرية منتشرة من الجزيرة العربية إلى الشمال الأفريقى تخير الشعوب بين التحول إلى الإسلام أو الموت.

رجال الدولة "الثوريون" الذين "اخترعوا" أمريكا في الربع الأخير من القرن الثامن عشر كانوا يعتبرون العالم الإسلامي مصابا بالاستبداد الشرقي والتخلف الاقتصادي والتحجر الفكري، في مقابل النزعة الجمهورية التي تعهدوها بشرفهم المقدس. بعد قرنين تقريبا بدأوا يتنبهون إلى فكرة "تحسين العالم" من حولهم. العالم كله وليس الشرق الأوسط فقط. هذه الفكرة مؤسسة على الافتراض بأن الولايات المتحدة "يمكن وسوف ويجب" أن تصل إلى الخارج لمساعدة الأمم الأخرى في المشاركة في الحلم الأمريكي. ثلاثة عقود من الحروب مع القراصنة البربر ساعدت في تكريس الصورة السلبية عن العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر وجعلت النظرة إليه أكثر دونية. عندما ثار اليونانيون على السيطرة التركية في ١٨٢١ وصفت مجلة "نورث أميريكان ريڤيو" ذلك بأنه حرب الهلال ضد الصليب، و"حيث توجد أسلحة السلطان يتم تسوية الكنائس بالأرض أو تدنيسها بـ"المحمدية". المبشرون الذين كانوا يحاولون نشر الإنجيل في الإمبراطورية العثمانية في عشرينيات القرن التاسع عشر، مثل "هاريسون جراي أوتس دوايت"، كان لديهم نفس المشاعر ويعودون لنقل الصور نفسها وتنميطها. عندما ذهب هذا المبشر لزيارة "چون كوينسي آدمز" في أوائل ١٨٣٩ رسم له صورة كئيبة عن شعوب الشرق الأوسط "كما رآها".. عن الأتراك واليونانيين والأرمن واليهود. بعد ذلك كتب "آدمز" في مذكراته – نقلا عن "دوايت"، أن اليهود كانوا هم الأسوأ بسبب حقدهم الشديد على المسيحيين. المشاعر نفسها كانت لدى النخبة الأمريكية الأنجلوساكسون في القرن التاسع عشر حيث كان معظمهم يعتبرون "اليهودي" مزيجا من "يهوذا الاسخريوطي" الذي خان المسيح، و"شيلوك" المرابي الجشع، ويعتبرون اليهود بعامة شعبا ليس فوق مستوى الشك والشبهات... وذلك لأنهم مرتبطون بقيم ثقافية واقتصادية "غير أمريكية"؛ وبالرغم من أن المائة وخمسين ألف يهودي الذين جاءوا إلى الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية، كانوا قد فروا من الاضطهاد في ألمانيا وكانوا يتوقون لأمركة أنفسهم بالتخلي عن كثير من عاداتهم في العالم القديم، ظل اليهود الأمريكيون هدفا للتنميط القبيح الذي يصورهم على نحو سلبي.

بالرغم من هذه المشاعر المعادية للسامية، كان معظم المواطنين المسيحيين فى "إسرائيل الرب الأمريكية" يشعرون بدرجة من النسب والقربى مع اليهود. الإحيائيون من البروتستانت الإنجيليين كانوا يفهمون "سفر الرؤيا" باعتبار أن الألفية ستحل بمجرد أن يعود اليهود إلى الأرض المقدسة، وكان مئات الحجاج الأمريكيين يتجهون شرقا للتعبد فى الأماكن المقدسة فى القدس والناصرة. فى يناير ١٨٥٥، كتبت "هاربرز ماجازين": "إننا نعرف عن أرض اليهود أكثر مما يعرف العرب المنحطين الذين يشغلونها".

فى القرن التاسع عشر، كان مثل هذه الافتراضات الاستشراقية الواضحة والمعلنة فى مجلات مثل "هاربرز ماجازين" موجودا بشكل مضمر فى كثير من جوانب الثقافة الشعبية الأمريكية. الطبعات الكثيرة المصورة من ألف ليلة وليلة كانت حافلة بالصور الغرائبية عن الشرق، ومتاحة لأجيال كاملة من تلاميذ المدارس. كتاب كثيرون مثل "واشنطن إيرفنج" نشروا كتبا عن النبى "محمد" وخلفائه مرصعة بصور استشراقية نمطية عن عالم إسلامى لا يناسب سكانه سوى الأنظمة الثيوقراطية والأوتوقراطية التى "تليق بهم ويليقون بها" وليس الديمقراطية الأمريكية. رسامون ورحالة ومبشرون وتجار كلهم نقلوا وابتدعوا صورا عجيبة. فى سبعينيات القرن التاسع عشر كان التجار الأمريكيون يشترون نصف محصول تركيا من الأفيون لإعادة بيعه فى الصين، بينما يزودون الإمبراطورية العثمانية بكل شىء.. من السفن الحربية إلى الكيروسين، وفى ١٨٧٩ كان أحد الدبلوماسيين الأمريكيين يقول متباهيا "حتى المصابيح المقدسة التى تضىء قبر نبيهم فى مكة تعمل بزيت من بنسلفانيا".

فى الوقت نفسه كان جيل جديد من المبشرين الأمريكيين يشق طريقه إلى أرمينيا وسوريا وغيرهما من أركان الإمبراطورية العثمانية حاملين معهم الإنجيل وأفكار العالم الجديد. بعد الحرب العالمية الثانية سوف تشكل الصور النمطية التى كرستها السينما والمجلات والكتب والمعارض عن اليهود الشجعان الذين نجوا من المذابح النازية ليقيموا حياة جديدة، وعن العرب الغرائبيين الذين يعيشون خارج التاريخ، سوف تشكل هذه الصور جزءا كبيرا من تناول الأمريكيين للشرق الأوسط وتعاملهم مع كل ما يتعلق به.

فتش عن البترول

زاد اهتمام السياسة الخارجية الأمريكية بالشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية وبعد أن تأكدت أهمية البترول فى الحرب، البترول الأمريكى على وجه التحديد، بعد أن انقطعت الطرق بين بترول الشرق الأوسط وميادين القتال فى أوروبا. وبمجرد أن وضعت الحرب أوزارها كان لابد من الزحف المنظم نحو موارده فى ما وراء البحار بعد إرهاق مواردها واحتياطياتها. كان صانعوا السياسة الأمريكية قد اكتشفوا أهمية البترول ومدى احتياجهم المستقبلى إليه أثناء الحرب، ففى تقرير كتبه "هارولد آيكس" وزير الداخلية الذى كلفه الرئيس "روزفلت" برئاسة إدارة البترول أثناء الحرب فى أواخر ١٩٤٢، كان ينبه الإدارة إلى الأهمية الاستراتيچية لهذه السلعة "الحيوية فى الحرب والضرورية فى السلم واللازمة للنفوذ الأجنبى"، مشيرا إلى أن الولايات المتحدة مهددة بأن تتحول إلى مستورد، ولابد من أن تكون مستعدة لمواجهة هذا الوضع المحتمل. بعد ذلك كتب "آيكس" فى مذكراته يقول إنه وكبار مستشارى الرئيس كانوا يجلسون فى البيت الأبيض أثناء مناقشة عالم ما بعد الحرب، و"كنا نضع البوصلة على أى موقع فوق مائدة الاجتماع، وحيثما وضعناها كانت الإبرة تقفز تلقائيا ناحية الشرق الأوسط"(٦). وعندما سأل وزير الخارجية "چيمس بيرنز" رئيسه عن الحصة التى ينبغى أن تسيطر عليها الحكومة الأمريكية، صمت فترة وقال: "چيم... ليس أقل من ١٠٠٪"(٧).

بمرور الوقت وتشابك المصالح أصبحت الشركات الأمريكية فى الشرق الأوسط عمالقة بترول وسياسة، ويتضح ذلك من تشكيل مجالس إداراتها التى كانت - دائما - تضم مسئولين سابقين فى وزارة الدفاع وهيئة أركان الحرب المشتركة وأجهزة الاستخبارات والأمن القومى ووزارات الخزانة والطاقة، إلى جانب رجال النفط فى تكساس ورجال المال فى وول ستريت.

بعد الحرب العالمية الثانية، كانت الدول المستقلة حديثا تحاول الحد من النفوذ الاقتصادى والسياسى للمستعمرين السابقين، وتحقيق تنمية اقتصادية سريعة مع

انتهاج سياسات اجتماعية لصالح أغلبية الشعب، وظهرت شعارات الإصلاح والعدالة الاجتماعية التى حملتها القوى السياسية والاجتماعية الجديدة فى تحد للنخب القديمة التى ارتبطت بمرحلة ما قبل الاستقلال. فى الوقت نفسه حرصت الولايات المتحدة على أن تحل محل القوى الاستعمارية القديمة (مبدأ ملء الفراغ) ضمانا للاستقرار السياسى وتدفق البترول، وكان ذلك يتطلب أن يبقى أكبر عدد من دول الإقليم (وبخاصة الدول العربية الغنية بالنفط وإيران) تحت سيطرة حكومات صديقة تقوم بدور الوكيل؛ ففى تحليل أجراه مجلس الأمن القومى الأمريكى فى ١٩٥٢ بشأن أهداف الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط نقرأ:

"يجب أن نحاول استخدام الوسائل الاجتماعية والاقتصادية المتوفرة لدينا بأساليب تقلل من الطاقة الانفجارية للقوى الضاغطة من أجل تغيير ثورى إلى الحد الذى يمكن فيه إنجاز التغييرات الضرورية مع تجنب عدم الاستقرار الخارج عن السيطرة، وربما يعنى هذا غالبا أن يكون علينا أن نعمل مع الجماعات الحاكمة القائمة ومن خلالها، وأن نستخدم نفوذنا ونحن ندعم قبضتها على السلطة فى إغرائها بالتكيف بالقدر الضرورى مع القوى البازغة"(٨).

لتحقيق هذه الأهداف، كان يتم استخدام وسائل متنوعة بعضها علنى، مثل القواعد العسكرية وتمويل وتسليح وتدريب الجيوش وقوات الأمن الداخلى والمساعدات الاقتصادية، أما الأجهزة السرية للعمل فى الشرق الأوسط فكانت تضم خليطا من جواسيس الحرب العالمية الثانية السابقين ووكلاء الشركات والأكاديميين والصحفيين الذين تابعوا أحداث المنطقة فى فترة الحرب، "ثم أحاط بهؤلاء جميعا عدد من المتطوعين العرب الذين رأوا الشمس البريطانية تغرب وشمسا أمريكية أخرى على وشك الصعود فراحوا يدورون فى الفلك الجديد بحثا عن مكان لهم فيه"(٩). بالتوازى مع ذلك كانت الترسانة الثقافية والإعلامية قد أخرجت أثقالها بعد أن وضعت الحرب "الساخنة" أوزارها، لكى تمحو من الأذهان فكرة أن أمريكا "صحراء ثقافية" وتزرع فيها فكرة جديدة، مفادها أن العالم كان فى حاجة إلى "سلام أمريكى" وإلى عصر تنوير جديد وأن ذلك كله سيكون اسمه "القرن الأمريكى".

في كل الأزمات الكبرى التي مر بها العالم العربي - والشرق الأوسط كله - بعد الحرب العالمية الثانية كان البترول حاضرا. عندما أُعْلِنَت دولة إسرائيل في ١٩٤٨ فكرت جامعة الدول العربية في استخدامه وسيلة للضغط على الغرب لكي لا يتجاهل الحقوق العربية في فلسطين[١٠]؛ وكان موجودا في أزمة السويس (١٩٥٦) بحكم أن القناة كانت أهم المعابر آنذاك كما كانت المنطقة هي مسرح القتال، وكان موجودا في حرب ١٩٦٧ وإن بشكل جزئي عندما تم الاكتفاء بأن تقوم الدول النفطية بدعم دول المواجهة. بعد ذلك كانت سلسلة من حروب البترول تمثل كلها خطا متصلا بعد أن قام صدام حسين باحتلال الكويت في أغسطس ١٩٩٢. "ديك تشيني" (نائب چورچ دبليو بوش) الذي انتقل من البنتاجون إلى مجلس إدارة شركة "هاليبيرتون" في هيوستن في منتصف التسعينيات كان مصرا على تطبيق مبدأ أن الشركة الخاصة لابد من أن تسير يدا في يد مع السياسة العامة للدولة. في أواخر ١٩٩٩ قال أمام معهد لندن للبترول "سنكون في حاجة إلى خمسين مليون برميل من النفط يوميا" في غضون عشر سنوات حيث إن الاحتياطي يتناقص، "فمن أين ستأتي تلك الكمية؟"، وكانت الإجابة الوحيدة عند "هاليبيرتون" وغيرها من الشركات العملاقة هي: من الشرق الأوسط.. حيث يوجد ثلثا نفط العالم بأقل سعر. تقرير مستقبل الطاقة الأمريكية الذي قدمه "تشيني" لرئيسه في مايو ٢٠٠١ أوصى بأن تضع إدارة "بوش" هذه الجائزة الكبرى الموجودة في الشرق الأوسط نصب عينيها. بعد عامين، كان استيلاء الأمريكيين على حقول النفط العراقية يحقق توصيات "تشيني". تطورات الأسابيع الأولى من الحرب أثبتت أن إدارة "بوش" كانت تضع عينيها على مخزون الخام العراقي، وربما لم يلحظ كثيرون أن اهتمام الأمريكيين بحماية الحقول والمصافي كان أكبر من اهتمامهم بحماية المدن والمرافق العامة والمتاحف. قليلون هم الذين لاحظوا أن هاليبيرتون كانت من أوائل الشركات التي وقعت عقدا بنصف بليون دولار لإعادة بناء البنية الأساسية النفطية، ولم يرف لأحد جفن عندما أرسل البيت الأبيض "فيليب چ. كارول" رجل النفط في تكساس إلى بغداد في أواخر أبريل خبيرا لوزارة النفط الجديدة في العراق. "كارول" ومستشاروه كانوا يتوقعون أن العراق في غضون شهرين سوف يضخ

١,٥ مليون برميل من الخام يوميا، وهو ما يمثل ٦٠٪ من رقم ما قبل الحرب، وأنه فى غضون ثلاث سنوات سيزيد عن ٣ مليون برميل سوف يصدر معظمها لسد تكلفة إعادة الإعمار بعد الحرب. بحلول صيف ٢٠٠٣ كان إنتاج العراق فى حدود ٩٠٠٠٠٠ برميل يوميا مع ارتفاع السعر العالمى. "فرانسيس بروك"، مستشار البترول كان يلمح إلى أن الأمريكيين إذا صبروا فإن صادرات النفط العراقية سوف تكسر تحالف الأوبك الذى تسيطر عليه السعودية وتبدأ حقبة جديدة من الزيت الرخيص "بعد أن أصبح لنا حليف جديد فى الشرق الأوسط... حليف علمانى... حديث... مؤمن بالسوق الحرة". منتجو النفط الآخرون كانوا مستعدين للتعاون، ففى ديسمبر ٢٠٠٥ أعلن المسئولون الكويتيون عن مشروعات لدعوة الشركات الأمريكية للاستثمار فى "مشروع الكويت" لزيادة إنتاج الدولة، وفى ٢٠٠٦ كانت إدارة "بوش" تشجع الشركات الصغيرة من أذربيجان إلى اليمن لضخ أكبر كمية من النفط.

مثل النفط، كانت العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل ملمحا رئيسيا فى سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط فى عهد "چورچ دبليو بوش". بالرغم من أنه نادرا ما كان يسافر إلى الخارج قبل دخوله البيت الأبيض، قام بزيارة إسرائيل فى ديسمبر ١٩٩٨ حيث زار القدس القديمة وصعد التل فى الجليل "حيث ألقى المسيح موعظة الجبل"، ووعد بتصحيح أخطاء الإدارة السابقة فى الشرق الأوسط ليكون الميزان فى صالح إسرائيل، كما أبلغ مستشاريه فى ٣٠ يناير ٢٠٠٢.

على مدى السنوات الست التالية سيؤكد ما وعد به، والحقيقة أن دعم أمريكا لإسرائيل لم يكن أوسع ولا أعمق مما كان مع دخول الألفية الجديدة، ففى الكونجرس كان الديمقراطيون يؤكدون دعمهم التقليدى للحلم الصهيونى، بينما كان الجمهوريون يوثقون علاقاتهم بالجناح اليمينى الإيڤانچيليكى باحتضان جماعات مثل "المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل" الذين كانوا يعتبرون دعم أمريكا لإسرائيل هو "سياسة الرب الخارجية". شبكة محكمة من جماعات المصالح الموالية لإسرائيل وجماعات المفكرين والأكاديميين من ذوى العلاقات بالبنتاجون والخارجية ساعدت على أن تكون آراء "شارون" وخليفته "أولمرت" مسموعة فى واشنطن.

عندما أرسل "أولمرت" قواته وطائراته إلى لبنان فى يوليو ٢٠٠٦ لضرب "حزب الله"، رفضت وزيرة الخارجية "كوندوليزا رايس" أن تدين ذلك العدوان ووصفت الدم المسفوك بأنه "مخاض شرق أوسط جديد"!

الخطر ألوان

عندما توقف "چورچ دبليو بوش" فى "أيوا" فى يناير ٢٠٠٠ أثناء حملته الانتخابية، ألمح إلى تغير لون الخطر الذى يواجه الولايات المتحدة من الأحمر (الشيوعية العالمية) إلى الأخضر (الإسلام)، وفى الوقت نفسه كان مفكرون ومثقفون [ومستشرقون] أمريكيون مثل "برنارد لويس" و"صمويل هنتنجتون" و"دانييل پاييس" يعتبرون الإسلام الراديكالى أخطر الأيديولوچيات الشمولية فى القرن العشرين، وينحون باللائمة على إدارة "كلينتون" التى أولت العولمة الاقتصادية اهتماما زائدا وأغفلت الأصولية الإسلامية. بعد أيام قليلة من دخوله المكتب البيضوى وضع "چورچ دبليو بوش" برنامجا للدعم الفيدرالى للجمعيات الدينية التى تقدم خدمات اجتماعية، ومنها إنشاء مكتب فى البيت الأبيض للمبادرات القائمة على الإيمان ومراكز فى خمس وزارات لتسهيل تنفيذ هذا البرنامج، وعندما رفض الكونجرس إصدار تشريع لتنفيذ ذلك، أصدر (بوش) أمرا تنفيذيا فى ديسمبر ٢٠٠٢ يحظر على الولايات الفيدرالية استبعاد المنظمات الدينية من تلقى أموال لحساب البرامج والخدمات الاجتماعية، وأعلن أن أيام التمييز ضد الجماعات الدينية، لمجرد أنها دينية، على وشك أن ينتهى، وهو التصريح الذى وصفته "نيويورك تيمز" آنذاك بأنه كان يحتوى على إشارات عدة خاصة بالإيمان، وقد بنى حول فكرة أن الدين يمكن وينبغى أن يحتل مكانا بارزا فى الحياة العامة والخاصة"[١١].

قبل ذلك بكثير، كان "بوش الابن"، عندما فشل أبوه فى الحصول على فترة إدارة ثانية وخسر أمام "كلينتون" فى سنة ١٩٩٢، يعتقد أن السبب الرئيسى فى ذلك الفشل هو عدم قدرة الأب على تعبئة القاعدة المسيحية الإيڤانچيليكية فى الحزب الجمهورى. مع صدور كتاب "الحرب العالمية الرابعة" لـ"نورمان بدهورتز" فى الذكرى

السادسة لأحداث الحادى عشر من سبتمبر، أخذ "الخطر الأخضر" اسما لافتا هو "الفاشية الإسلامية". فى هذا الكتاب يقدم المؤلف وصفة صريحة للقضاء على الراديكاليين المسلمين فى الداخل والخارج، معتبرا عمل الولايات المتحدة لتحقيق هذا الهدف بمثابة حرب عالمية رابعة، مطالبا الأمريكيين بأن يقدموا للبيت الأبيض كل الأدوات اللازمة لتحقيق الانتصار فى هذه الحرب. قبل ذلك بعشر سنوات كان "بدهورتز" أحد المشاركين فى تأسيس مشروع القرن الأمريكى الجديد، كما كان من بين الموقعين على إعلان مبادئه كثيرون ممن قبلوا بعد ذلك مناصب رئيسية فى إدارة "چورچ دبليو بوش".

دخل "چورچ دبليو بوش" المكتب البيضوى فى ٢٩ يناير ٢٠٠١ ووراءه نائبه "دونالد رمسفيلد" و"كولن پاول" و"ريتشارد پيرل" و"پول وولفوفيتز" و"كوندوليزا رايس"، ليمسك الفريق الإمبراطورى فى الحزب الجمهورى مرة أخرى بمقاليد الأمور ومفاتيح القرار حسب أچندة واضحة هى الاحتفاظ بتفوق أمريكى دائم والسيطرة على موارد النفط فى الشرق الأوسط وحوله، أما الغطاء "القانونى والأخلاقى" لذلك فهو تحالف عالمى مضاد للإرهاب.

بعد ١١ سبتمبر مباشرة دُعِىَ "برنارد لويس" إلى لقاء مع الرئيس ونائبه وأعضاء مكتب سياسات الدفاع ليقدم لهم فهمه للشرق الأوسط والعالم الإسلامى والدور الذى تستطيع ويجب أن تلعبه فيهما الولايات المتحدة، وفى هذه المناسبة أقر "المستشرق" استخدام القوة العسكرية الأمريكية للإطاحة بـ"صدام حسين" ونظامه مؤكدا لمستمعيه أنه بعد تحقيق ذلك سوف تستطيع الولايات المتحدة، دون صعوبة تذكر، سبك وتشكيل العراق ليكون نموذجا ديمقراطيا للمنطقة. فى الأشهر السابقة على غزو العراق وإسقاط نظام "صدام حسين"، كان "تشينى" نائب الرئيس حريصا على أن يكون "لويس" ضيفه الدائم على العشاء بحثا عن "غطاء استشراقى" وذريعة فكرية لعملية "حرية العراق"، وقدم مؤرخ پرنستون مقدمة منطقية لتغيير النظام فى بغداد تأسيسا على ما حدث قبل ثمانين عاما فى تركيا؛ عندما قام "أتاتورك" بـ"ثورة

من أعلى" لغربنة بلاده سياسيا واقتصاديا، وكما قال "لويس" فى تصريح صحفى بعد سقوط "صدام حسين": إن "العالم الإسلامى يقف الآن عند منعطف القرن الخامس عشر" بينما "العالم الغربى عند منعطف القرن الواحد والعشرين"، كما خلص إلى أن "أفضل ترياق للإسلام الراديكالى هو "أتاتورك عربى" يطلق عملية إصلاح ويأخذ العراق وجيرانه إلى العالم الحديث.

أثناء الحرب العالمية الثانية، كان هناك مكتب الخدمات الاستراتيجية الذى سوف تحل محله وكالة المخابرات المركزية، هذا المكتب كان يتبعه أول مركز لدراسات المناطق بهدف رئيسى هو "إنتاج معرفة مرتبطة بالسياسة"، وفى سنة ١٩٤٦ أنشأ "مجلس بحوث العلوم الاجتماعية" لجنة بحوث مناطق العالم التى كانت مهمتها الأولى تحديد المناطق الأجنبية المهمة بالنسبة للأمن القومى الأمريكى، وفى ١٩٥١ أنشأت لجنة خاصة بالشرق الأوسط تعمل على تطوير البحوث الاجتماعية الخاصة به، كما شهدت السنوات التالية للحرب توسعا فى هذا النوع من الدراسات بدعم من مؤسسات كبرى مثل "روكفلر" و"كارنيجى" و"فولبرايت"، ثم كانت الطفرة الكبرى فى نشاطها بدخول مؤسسة "فورد" إلى المجال وإعادة تحديد مهامها فى أوائل الخمسينيات ليكون من بينها تعزيز السلام والتنمية فى الدول المستقلة حديثا فى آسيا وأفريقيا حتى لا يجرفها المد الشيوعى؛ وفى أواخر الخمسينيات بدأت الحكومة الفيدرالية فى تمويل "دراسات المناطق" (الاسم المتطور للاستشراق) فتدفقت الأموال من المؤسسات المانحة والحكومة على الجامعات لتأسيس مراكز دراسات الشرق الأوسط وجذب هيئات التدريس والباحثين. فى البداية كان يقوم بتأسيس هذه المراكز الجديدة وإدارتها باحثون مستقدمون من أوروبا والشرق الأوسط، ففى سنة ١٩٤٤ مثلا "كان المؤرخ اللبنانى فيليب حتى رئيسا لقسم پرنستون للغات والآداب الشرقية، وبعد ثلاث سنوات أنشأ برنامجا لدراسات الشرق الأدنى فى پرنستون كان الأول من نوعه والنموذج الذى اتبعته بقية الجامعات"[١٣]. كما جاء المستشرق "هاملتون جب" رئيسا لمركز دراسات الشرق الأوسط فى "هارڤارد"، وبعده جاء "جوستاف ڤون جرنباوم" من ڤيينا ليدير مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة كاليفورنيا. أما

"برنارد لويس" فترك بريطانيا إلى جامعة پرينستون ليحل محل "جب" فى السبعينيات عميدا للاستشراق الأنجلو أمريكى.

فى تلك الفترة - أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات - كانت التطورات فى منطقة الشرق الأوسط مؤرقة للپنتاجون والمخابرات المركزية فاستمرا فى تمويل المشروعات البحثية الخاصة بالسياسة ولخدمتها، سواء بشكل مباشر أو من خلال مؤسسات مثل "راند" وغيرها. فى الحرب الباردة كان العدو واضحا ومحددا وهو الاتحاد السوڤيتى ودول المنظومة الاشتراكية، وللتصدى لهذا العدو اعتمدت الولايات المتحدة مبدأ "الاحتواء" العسكرى والسياسى والفكرى. كان الاحتواء العسكرى يتمثل فى تحديث الترسانة العسكرية وتطويرها وبناء حلف شمال الأطلنطى، والاحتواء السياسى يتمثل فى بناء شبكة تحالفات مع دول مختلفة مستخدمة لذلك الحوافز العسكرية والاقتصادية، أما الاحتواء الفكرى فكان يتمثل فى منهجية مزدوجة للتشويش على الأفكار الشيوعية وسلبيات تطبيقها الاقتصادية والسياسية، وفى الوقت نفسه الترويج بكافة الوسائل لأسلوب الحياة الأمريكى. نجحت سياسة الاحتواء وسقط الاتحاد السوڤيتى وانفردت الولايات المتحدة بالعالم، ولكن من هو العدو الجديد؟ العدو الجديد هو "الإرهاب العالمى" والمبدأ الجديد هو: "من ليس معنا، فى التصدى له، فهو ضدنا". ولأن الحرب على الإرهاب ممتدة فى الزمان والمكان فهى إذن حرب متحركة؛ ومع هذا التصور الفكرى الجديد ظهرت مفاهيم الحرب الوقائية والحرب الاستباقية والحرب الاختيارية.

المؤكد أن دول وشعوب العالم تعاطفت مع الولايات المتحدة بعد أحداث الحادى عشر من سپتمبر، ولكن هذا الشعور سرعان ما تلاشى بعد غزو أفغانستان والعراق وتحول القوة الوحيدة فى العالم من قائد كونى يسعى - كما يعلن - لجعل العالم مكانا آمنا مستقرا، لتصبح مصدرا كونيا لتهديد النظام العالمى. وإذا كان الخطاب هو المنطلقات الفكرية والسلوك معا، فما حدث يؤكد أن الولايات المتحدة قدمت للعالم خطابا بالغ التناقض بين المنطلقات الفكرية التى لا خلاف عليها مثل الحرية

والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، وبين أن تحمل هذه المبادئ إلى شعوب العالم على دبابة.

بمناسبة الذكرى الأولى لهجمات الحادى عشر من سبتمبر أعلن الرئيس "چورج دبليو بوش" فى ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢ عن استراتيچية الأمن القومى الأمريكى، وفى ١٢ ديسمبر ٢٠٠٢ أعلن وزير خارجيته "كولن پاول" ما يسمى بمبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط. (انظر الملاحق فى آخر الكتاب)؛ وفى هاتين الوثيقتين على سبيل المثال "تتحدد أهم مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط منذ الخمسينيات وحتى يومنا هذا، فى إعادة رسم خريطة المنطقة بصورة تضمن بسط الهيمنة الأمريكية السياسية والاقتصادية والثقافية عليها وحماية المصالح الاستراتيچية للولايات المتحدة فى المنطقة وفى مقدمتها ضمان تدفق النفط بأسعار مناسبة وضمان أمن إسرائيل باعتبارها الركيزة الأولى للولايات المتحدة فى المنطقة"[١٣].

بعد إعلان فوز "باراك أوباما" برئاسة الولايات المتحدة فى ٥ نوفمبر ٢٠٠٨ كان كثيرون يتصورون أن هناك أمريكا جديدة تخرج من تحت أنقاض وركام إدارتى "چورج دبليو بوش"، وأن بإمكان الرئيس الرابع والأربعين أن يحدث تغييرا ما فى السياسة الخارجية الأمريكية من خلال مراجعة مبادئ سلفه ومحاولة إصلاح ما أفسدته سياساته التى كان يرسمها له المحافظون الجدد.

بعد ستة أشهر من توليه مهام منصبه، زار "أوباما" الشرق الأوسط، حاملا خطابا جديدا نصحه مستشاروه أن يطلقه من داخل العالم الإسلامى. ذهب إلى أنقرة وتكلم فى مجلس النواب التركى، ذهب إلى الرياض "لأخذ المشورة قبل أن يخاطب العالم الإسلامى من القاهرة" على حد تعبير الصحافة السعودية، ثم جاء إلى مصر لكى يخاطب العالمين العربى والإسلامى من جامعة القاهرة "فى وقت يشوبه التوتر بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى، وهو توتر تمتد جذوره إلى قوى تاريخية تتجاوز أى نقاش سياسى راهن"، كما قال. (نص الخطاب موجود بالملحق رقم ١٣ فى آخر

الكتاب). تحليل خطاب "أوباما" يؤكد أننا "أمام تغيير فى التعبير وليس تغييرا فى السياسات، كما يقول الكاتب الصحفى "محمد حسنين هيكل"، فـ"التعبير الجديد موجه إلى العالم الإسلامى أو دعوة للعالم الإسلامى لأن الحرب الإمبراطورية فى عالمنا تحت شعار "الحرب ضد الإرهاب" وصلت لطريق مسدود"(١٤). قال إنه جاء بحثا عن بداية جديدة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى، تحدث عن الصورة النمطية السلبية (الاستشراقية) عن الإسلام وأن جزءا من مسئوليته أن يتصدى لها، نافيا كذلك أن تكون الصورة النمطية عن أمريكا الإمبراطورية حقيقية. أكد أن الإسلام جزء لا يتجزأ من أمريكا وأن الحرية التى فى بلاده لا يمكن أن تنفصل عن حرية إقامة الشعائر الدينية. ثم تطرق إلى أمور محددة يعتقد أن "علينا" مواجهتها بجهد مشترك، وهى التطرف العنيف بكل أشكاله، وأن الإسلام ينبغى ألا يكون جزءا من حل هذه المشكلة، وأن القوة العسكرية وحدها لن تكفى لحل المشكلات فى كل من أفغانستان وباكستان. تحدث عن حرب العراق التى يعتقد أنها حدثت بصفة اختيارية وكيف أن بلاده تتحمل مسئولية مزدوجة: مساعدة العراق على بناء مستقبل أفضل ثم تركه لأصحابه. تحدث عن الوضع بين الإسرائيليين والفلسطينيين والعالم العربى، وعن المحرقة "التى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ" وكيف أن التهديد بتدمير إسرائيل أو تكرار الصور النمطية "الحقيرة" عن اليهود هما "أمران ظالمان للغاية". تحدث عن معاناة الفلسطينيين الذين يجب أن يتخلوا عن العنف والتركيز على ما يمكنهم إنجازه. تحدث عن الاهتمام المشترك بحقوق الدول ومسئولياتها بالنسبة للأسلحة النووية والديمقراطية والحرية الدينية وحقوق المرأة والتنمية الاقتصادية. خمر قديمة فى آنية جديدة، أو حملة علاقات عامة من خلال خطاب مختلف فى محاولة لترميم ذلك الخطاب الاستشراقى الذى عبرت عنه إدارة سلفه من خلال صور نمطية بشعة لها جذورها الضاربة فى الثقافة الشعبية الأمريكية. لم يذكر كلمة "الإرهاب" ولا "الإرهابيين"، لم يتحدث بأسلوب "نحن" و"هم"، خرج عن قاموس المحافظين الجدد ومصطلحاته: محور الشر – الدول المارقة – الخطر الأخضر – صدام الحضارات – الأصولية الإسلامية – الفاشية الإسلامية....إلخ، ولم ينس أن يستشهد بآيات من القرآن ثلاث مرات.

هكذا تكلم "أوباما" من القاهرة فى ٤ يونيو ٢٠٠٩، هكذا جاء خطابه تنويعا على لحن أساسى هو الاستشراق الأمريكى المؤسس على أسطورة "القدر الواضح"، قدر أمريكا "العالم الجديد"، الذى "ليس لها فيه اختيار وليس بوسعها أن تفر منه وهو قيادة العالم نحو المدنية والفضيلة" أو "أمركة العالم"، كما قال "تيودور روزفلت" عام ١٨٩٨.

طلعت الشايب

مدينة نصر - القاهرة -

نوفمبر ٢٠٠٩

هوامش وإشارات ومكتبة المترجم:

"اعتدت قبل القيام بترجمة عمل ما يستهوينى موضوعه ومضمونه (وكل ترجماتى من اختيارى)، أن أحتشد له بقراءة أو إعادة قراءة المتيسر لدى (ولدى الأصدقاء) من مادة وثيقة الصلة به، وفى ما يلى ثبت بمجموعة من الأعمال التى رجعت إليها وأفدت منها كثيرا، قبل الترجمة وفى كتابة المقدمة التى لا أدعى أنها جمعت فأوعت، أتمنى أن يعود إليها من يريد المزيد لعلها تلقى بعض الضوء على موضوع هذا العمل المهم الذى يطرح من الأسئلة أكثر مما يقدم من إجابات، فكل الإجابات عمياء ووحدها الأسئلة هى المبصرة كما يقال. الإمبراطورية الأمريكية سادرة فى غيها والعرض مستمر وما خطاب الرئيس الأمريكى الرابع والأربعين فى جامعة القاهرة فى شهر يونيو الماضى سوى حلقة جديدة من مسلسل النموذج الأمريكى للاستشراق؛ ويجد القارئ فى آخر الكتاب مجموعة من الملاحق النوعية أضفتها إلى الطبعة العربية من أجل حوار أكثر شمولية بين المؤلف والمترجم والقارئ".

...

(١) روائى أمريكى رائد (١٨١٩ - ١٨٩١) وهو صاحب الرواية الشهيرة "موبى ديك". والاقتباس نقلا عن:

Robert Hewett, The Captain America Complex (Philadelphia: The Westminister-press, 1971)

(٢) "**حوار الاستشراق: من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب**" - أحمد الشيخ - المركز العربى للدراسات العربية - ١٩٩٩.

(٣) "**الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق**" - إدوارد سعيد - ترجمة محمد عنانى - رؤية للنشر والتوزيع - ١٩٩٥.

(٤) "**تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط**" تأليف "زاكارى لوكمان" - ترجمة: شريف يونس - دار الشروق - ٢٠٠٧.

(٥) المصدر السابق.

(٦) "**حرب الخليج: أوهام القوة والنصر**" - محمد حسنين هيكل - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ١٩٩٢.

(٧) يقول "محمد حسنين هيكل" فى كتابه "حرب الخليج: أوهام القوة والنصر" إن "أيكس" كتب بعد ذلك للرئيس يقول: إن الشرق الأوسط مجرة كونية هائلة من حقول البترول لا يعرف أحد نظيرا لها فى العالم [....] والسعودية بمثابة الشمس فى هذه المجرة، فهى أكبر بئر بترول فى الشرق الأوسط والظروف فيها الآن مناسبة، وملكها ابن سعود يريد شيئين: مالا ينفق منه، وضمانا يكفل استمرار العرش فى أسرته، وأن الولايات المتحدة يجب أن تكون هى التى تمنحه المطلبين. وحصلت أمريكا بالفعل على بترول السعودية بموجب اتفاق وقعه الملك مع مجموعة "أرامكو" المكونة من أربع شركات أمريكية (نيو چيرسى - سوكونى - سوكال - تكساكو) بنسبة ٢٥٪ لكل منها، أى بنسبة ١٠٠٪ لأمريكا.

(٨) "**تاريخ الاستشراق وسياساته...**" - مصدر سابق.

(٩) "**حرب الخليج - أوهام القوة والنصر....**" - مصدر سابق.

(١٠) **حرب الثلاثين سنة: ملفات السويس** - محمد حسنين هيكل - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ١٩٨٦.

يروى هيكل هنا قصة طريفة جديرة بإعادة التذكير بها لدلالتها، وهى أن عبد الرحمن عزام باشا، أبرز مؤسسى الجامعة، ذهب لمقابلة الملك عبد العزيز آل سعود وعرض عليه الأمر، ولكن الملك الذى لم يكن يرى صلة بين البترول والضغط على الغرب ختم المناقشة "بصراحة بدوى عجوز قائلا: إننى لا أفهم ما تتحدث عنه، إننا لم نكن نعرف أن البترول موجود بأرضنا وجاء الأجنبى فقال لنا إنه موجود، ولم نكن نعرف كيف نستخرجه وجاء الأجنبى فاستخرجه لنا من باطن الأرض، ولم نكن نعرف كيف نذهب إلى الأسواق ونبيعه فأخذه للأسواق وباعه وأخذ نصيبه بعد البيع وأعطانا نصيبنا، فلماذا تطلب منى الآن أن أعاقبه؟".

(١١) "**من نحن؟ المناظرة الكبرى حول أمريكا**" - تأليف صمويل هنتنجتون - ترجمة أحمد مختار الجمال ومراجعة السيد أمين شلبى - المركز القومى للترجمة - ٢٠٠٩.

(١٢) "**تاريخ الاستشراق وسياساته**" (...مصدر سابق ٤، ٩).

(١٣) "**العرب والنزعة الإمبراطورية الأمريكية**" - أحمد ثابت وخليل العنانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٧.

(١٤) حوار فى جريدة "الشروق" المصرية – ٨ يونيو ٢٠٠٩.

(١٥) **الإمبراطورية الكونية: الصراع ضد الهيمنة الأمريكية** – السيد يسين – طبعة مكتبة الأسرة – ٢٠٠٤.

■ جاء الصيف ومضى، السذاجة لا يمكن أن تدوم...
أيقظنى عندما ينتهى سبتمبر

(فريق جرين داى - "الأمريكى الأبله" - ٢٠٠٥)

■ من الذى فعل ذلك بنا؟ سؤال لم يؤد سوى إلى التخيلات العصابية ونظريات المؤامرة؛ السؤال الآخر "أين الخطأ الذى ارتكبناه؟" كان من الطبيعى أن يؤدى إلى سؤال غيره: "وكيف يمكن أن نصلح الأمر؟"، فى هذا السؤال وفى الإجابات المتعددة عنه توجد أفضل الآمال فى المستقبل.

(برنارد لويس، فى كتابه "أين الخطأ؟"- ٢٠٠٢)

مقدمة المؤلف للطبعة الثالثة:

أين الخطأ؟

● أيقظنى عندما ينتهى سبتمبر:

وضعت اللمسات الأخيرة للطبعة الأولى من هذا الكتاب بعد أشهر قليلة من هجمات الحادى عشر من سبتمبر. بنهاية سنة ٢٠٠٠، كان "چورج دبليو بوش George W.Bush" قد نجح فى حشد الدعم فى أمريكا وفى العالم لما اتفق عليه معظم المراقبين أنه حرب عادلة ضد "أسامة بن لادن" وتنظيم القاعدة والنظام الإسلامى الراديكالى فى أفغانستان الذى كان يأويهم. ومن أوروبا الغربية إلى شرق آسيا، ومن أمريكا اللاتينية إلى أفريقيا جنوب الصحراء، كان يمكن أن تسمع الناس يقولون: "كلنا أمريكيون" إلا أنه بعد مرور ست سنوات، يظل "أسامة بن لادن" طليقا، وطالبان - مستعيدة قوتها - تهدد بإسقاط حكومة كابول المدعومة من الولايات المتحدة، كما أن هناك ١٩٦٠٠جندى أمريكى وسط نيران متقاطعة فى حرب أهلية دموية فى

العراق، نشبت فور قرار إدارة "بوش" بإسقاط "صدام حسين"، واليوم أصبحت الولايات المتحدة مكروهة لدرجة أن بعض الأمريكيين الذين يسافرون إلى الخارج يقولون "نحن كنديون". هذه الطبعة الثالثة من كتاب "الاستشراق الأمريكي" تقدم فرصة لاستكشاف "الخطأ" في سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط في الفترة من سبتمبر ٢٠٠١ إلى سبتمبر ٢٠٠٧.

تتضمن المقدمة والفصول من الأول إلى السادس تحديثا إضافيا يصف بعض أهم التطورات التي أثرت في المنطقة منذ صدور الطبعة الأولى. لم أقصد هنا أن أعيد الكتابة لكي أضمّن العمل تلخيصا مفصلا لكم هائل من الدراسات الجديدة الصادرة مؤخرا، ولا لتوزيع القبعات البيضاء والسوداء على الخبراء الذين تجد تفسيراتهم المتضاربة حول مواجع الشرق الأوسط طريقها في أجهزة الإعلام. هنا، أحاول بالأحرى أن ألفت انتباه القراء إلى أن الصور النمطية الاستشراقية ما زالت حية وموجودة، وأن العلاقة بين رجال النفط والمسئولين الحكوميين ما زالت مؤثرة في سياسات الولايات المتحدة الخاصة بالطاقة على نحو واضح، وأن قضية ما إذا كانت إسرائيل أصلا أمريكيا ثابتا أم دينا مستحقا، تظل غير محسومة. كما أقول إن التفكير بأسلوب ثنائية "نحن" و"هم" التي راجت أثناء خصومة الحرب الباردة الطويلة بين واشنطن وموسكو ما زالت قائمة في حقبة التعددية القطبية، حيث أصبح لاعبون جدد مثل الصين والهند معنيين كذلك بالشرق الأوسط.

وبالمثل فإن توجس أمريكا الدائم في القومية الثورية، واقتناعها الثابت أيضا بأن التحديث يمكن أن يأتي بالسلام والتقدم للعالم الإسلامي، ما زال موجودا بعد مرور زمن طويل، أصبح فيه "عبد الناصر" وشاه إيران في ذمة التاريخ.

وعلى العكس من ذلك، تحتوي الأجزاء الأخيرة من الفصلين السابع والثامن على إضافات واسعة. وبالرغم من الزعم بأن أمريكا قد تخلصت أو شفيت من "أعراض فيتنام" التي تبعت حرب الخليج في ١٩٩١، يؤكد الكثير من المراقبين أن فشل إدارة "بوش" الحالي في العراق – من وجهة نظر الأهداف والتكتيكات

والاستراتيجية – ما هو إلا مثال قريب جدا لعَرَضٍ مختلف وصفه "يوجى بيرا Yogi Berra" بأنه سبقت رؤيته بدرجة ما، فإن أخطاء بوش فى حرب الخليج الثانية، كانت نتيجة قرار واع "بعدم استيعاب" دروس الماضى فى جنوب شرق آسيا، وعلى امتداد خطوط مماثلة فإن المفاوضات بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية وصلت إلى طريق مسدود بعد العام ٢٠٠١، مطلقة العنان لدورة عنف جديدة معروفة جيدا لصناع السياسة الأمريكية الذين شهدوا على مدى عقود كيف كان الطرفان يفقدان الفرصة بعد الفرصة فى السلام؛ ومنذ الحادى عشر من سبتمبر، تحاول الولايات المتحدة أن تمنع كلا من العرب واليهود من عدم استيعاب الدرس الرئيسى للدبلوماسية الأمريكية فى الأرض المقدسة على مدى نصف القرن، وهو أن مبادلة الأرض بالسلام هى السبيل الوحيد لوضع نهاية لسفك الدماء.

التغيير الأهم فى هذه الطبعة الثالثة من الكتاب، على أية حال، تجده فى النهاية، حيث قمت بحذف الاستنتاجات التى عفا عليها الزمن وكذلك التعقيب النهائى ووضعت بدلا منهما فصلا جديدا يتناول عن كثب حرب الولايات المتحدة فى العراق ومواجهة أمريكا للإسلام الراديكالى ومبدأ "بوش".

فى عصر تسوده العولمة، من السهل أن ننسى أن الشخصية والمزاج الخاص ما زال لهما معنى. "چورچ دبليو بوش" جاء إلى "١٦٠٠ پنسلفانيا أڤنيو" بخبرة أقل كثيرا ومعرفة أقل كثيرا بالشئون الدولية من معظم من شغلوا البيت الأبيض، ولكنه تولى المنصب فى ٢٠ يناير ٢٠٠١ وكله ثقة من أن "الرب مع الولايات المتحدة".

ورغم أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر هزت ثقته لفترة، فإنها مهدت الطريق كذلك لحرب كونية على الإرهاب، وقودها "عقيدة قتالية" كانت شدتها تفوق أحيانا تلك الحماسة الدينية التى كانت ترفد جهاد "أسامة بن لادن" ضد الولايات المتحدة.

ورغم تأكيد "بوش" أهمية العقيدة فى مواجهة الخبرة، فإن جوانب عدة من أسلوب تعامله مع الشرق الأوسط تشبه إلى حد بعيد تلك السياسات التى كان

ينتهجها من سبقوه؛ ولأن أضخم احتياطات النفط فى العالم ما زالت هناك على شواطئ الخليج الفارسى، فإن ذلك الجمهورى القادم من تكساس كان لابد من أن يعطى أولوية عالمية لضمان الاستقرار السياسى فى المملكة العربية السعودية وجيرانها الأغنياء بالنفط، وأن يشجع المؤسسات الأمريكية متعددة الجنسية لكى تقوم بدور أكبر فى جلب كميات أكبر من خام الشرق الأوسط للسوق بأسعار معقولة. ولأن "بوش" كان يقدر قيمة العلاقة الخاصة الطويلة بين إسرائيل والولايات المتحدة، كان لابد من أن يهتم بأن تستمر الدولة اليهودية فى تلقى كميات سخية من المعونات العسكرية والاقتصادية الأمريكية، وأن يرحب بالإسرائيليين حلفاء أساسيين فى المعركة ضد الإرهابيين الإسلاميين. ولأنه كان يدرك أن التقدم الحقيقى على طريق التسوية الإسرائيلية الفلسطينية سوف يساعد على تقليل حدة العداء للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، فسوف يقر حل الدولتين على أساس مبدأ الأرض مقابل السلام.

بالرغم من ذلك، تظل هناك جوانب أخرى فى سياسة بوش الخارجية تمثل قطيعة مع الماضى، إذ على مدى نصف قرن بعد سنة ١٩٤٥ كانت الولايات المتحدة مشغولة بـ"**الخطر الأحمر**" للشيوعية الدولية الذى كان يشل حركة النفوذ الغربى فى العالم العربى من حين لآخر، وبعد انتهاء الحرب الباردة بدأ القلق يساور بعض المراقبين فى الشرق الأوسط، إذ كان الخطر يتحول من اللون الأحمر إلى اللون الأخضر... لون الإسلام، ومع بدايات الألفية الجديدة كانت إدارة "بوش" تزعم أنها تخوض "حربا طويلة" ضد نوع جديد من الشمولية الوحشية، الخطرة تماما مثل الستالينية هو "**الفاشية الإسلامية**". كان أحد أساليب دحر "**الخطر الأخضر**" للإسلام الراديكالى هو أن تحل أنظمة ديمقراطية محل الأنظمة الدكتاتورية بزعم أن الانتخابات الحرة هى التى تصنع شعوبا حرة فى النهاية. من أجل هذه الغاية، بدأ "چورچ دبليو بوش" يتكلم مثل "وودرو ويلسون **Woodrow Wilson**" وألزم أمريكا بأن تجعل الشرق الأوسط آمنا من أجل الديمقراطية، وليكن ذلك فى العراق فى البداية، وربما فى إيران وسوريا بعد ذلك. الفارق الكبير بين "بوش" ومن سبقوه بدا واضحا فى سبتمبر ٢٠٠٢ عندما رفض الرئيس الأمريكى الثالث والأربعين مبادئ الحرب

الباردة فى الاحتواء والردع باعتبارها غير كافية لمحاربة الإرهاب العالمى وأعلن أن الولايات المتحدة سوف تمضى فى طريقها، عملا بمبدأ أن الهجوم الجيد هو خير وسيلة للدفاع. وانطلاقا نحو هدف أبعد من "**الحرب الاستباقية**" التى لابد من أن يكون هناك فيها دليل قومى على خطر وشيك واضح على الأمن القومى، تبنى مبدأ "بوش" أسلوب "**الحرب الوقائية**"، بمعنى الضرب أولا أو "الرمى عند أول بادرة شك" كأفضل وسيلة لتفادى تكرار هجمات الحادى عشر من سبتمبر.

كان العراق هو أول فرصة لاختبار مبدأ "بوش" عمليا، وبزعم أن "صدام حسين" كان يطور أسلحة للدمار الشامل ويحرض ويدعم إرهابيين مثل أسامة بن لادن، شنت إدارة "بوش" حربا وقائية ضد الدكتاتور العراقى فى مارس ٢٠٠٣ ثم حاولت أن تقيم مؤسسات ديمقراطية تكون نموذجا للدول الإسلامية الأخرى. كان تغيير النظام فى بغداد أسهل من بناء الدولة، ورغم ذلك سرعان ما أطلق الغزو الأمريكى نبوءة بتحقيق الذات، فانضمت الجماعات الإسلامية الراديكالية مثل القاعدة فى بلاد الرافدين، التى لم تظهر إلى حيز الوجود إلا بعد سقوط "صدام حسين"، انضمت إلى جماعات الوطنيين العلمانيين العراقيين لتصعيد حركة مناهضة معادية للأمريكيين. الحرب الأهلية الوحشية، والصراع الطائفى الدموى الذى عم العراق وراح ضحيته أربعة آلاف جندى أمريكى، لم يحقق سوى القليل من أجل تحسين آفاق الديمقراطية فى الشرق الأوسط، ولكنه حقق الكثير لتقوية وتعزيز الصور النمطية الاستشراقية الموجودة منذ زمن بعيد، وهى أن المسلمين "آخرون"، يرهبون الأجانب، وطغاة... وفاسدون... وأنهم ميالون بالفطرة إلى العنف والأعمال الإرهابية مثل "نطح ناطحات السحاب بالطائرات"!

فى الثانى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، كنت مسئولا عن حلقة دراسية عن السياسة الخارجية الأمريكية لطلبة الدراسات العليا الذين كانوا فى حالة من الذهول على أثر هجوم تنظيم القاعدة على أمريكا صباح اليوم السابق. كانت تعليقات طلابى المتكررة هى أن "كل شىء قد بات مختلفا الآن". بعد ثلاث سنوات، وعندما كنت أقوم

بالتدريس فى الدورة نفسها، كان تركيزنا على الحرب التى كانت تتعمق فى العراق، والتى كان كثير من الطلاب يعتبرونها ردا مفرطا على أحداث الحادى عشر من سبتمبر، ولعل فريق الروك "جرين داى" هم أفضل من التقطوا هذه الحالة وعبروا عنها فى "أيقظنى عندما ينتهى سبتمبر" إحدى أغنيات ألبومهم "الأمريكى الأبله"! وفى أوائل ٢٠٠٢ كان كتاب صغير بعنوان "أين الخطأ؟" يتصدر قائمة الكتب الأكثر مبيعا. واشنطن "چورج دبليو بوش" استقبلت الأفكار المتشددة لهذا الكتاب الذى وضعه "برنارد لويس – Bernard Lewis" الخبير البارز بشئون الشرق الأوسط باهتمام واحترام بالغين. وفى تعليق كتبه بعد أيام قليلة من قيام تنظيم القاعدة بتدمير مركز التجارة العالمى، كان "لويس" يؤكد أن حلزون الكراهية والحقد النازل الذى يزعم أنه كان يسود العالم الإسلامى على مدى أكثر من خمسة قرون، لن ينعكس اتجاهه حتى يتوقف العرب والإيرانيون عن التساؤل: "من الذى فعل ذلك بنا؟" ويسألوا "ما الخطأ الذى ارتكبناه؟" و"كيف يمكن أن نصلح الأمر؟" .(p.159). كان "لويس" يريد أن يصل السؤالان الأخيران إلى مسامع المسلمين، ولكن حيث إن أمريكا تغوص أعمق فأعمق فى مستنقع العراق، ربما يكون من الأفضل أن يوجههما إلى أصدقائه فى إدارة "بوش".

هذه الطبعة الجديدة من الاستشراق الأمريكى، تحاول أن تقدم بعض الإجابات... غير النهائية.

شكر وعرفان

رغم أننى لست مغرما بإطلاق العنان للتعبير عن الشكر والامتنان، حيث يكيل الكاتب الثناء للكل ويستثنى من ساعدوه على طول الطريق، فإن هذا المشروع قد شغلنى لفترة طويلة جدا وإلى الدرجة التى تجمعت معها علىّ ديون ثقافية وشخصية كثيرة.

أعرف جيدا أنه ما كان لى أن أكمل هذا المشروع سوى فى جامعة كلارك Clark. أولا: كان أحد أساتذة هذه الجامعة (احتفظ لنفسى باسمه) هو الذى ألهمنى فكرة تحويل بؤرة اهتمامى من أفريقيا إلى الشرق الأوسط قبل ثمانية عشر عاما، عندما قدم ورقة بحثية عادية عن ج.ف.كينيدى - JFK وإسرائيل أقنعتنى بأنه لابد من أن يكون هناك للقصة جوانب أخرى غير تلك التى قرأت. هناك أيضا أربعة طلاب قدموا لى مساعدات بحثية رائعة، هم: پاميلا فيليبس - Pamela Phillips وماريسارا ميليندز - Marisara Melendez وإميلى دوجلاس - Emily Douglas ولاى چين - Lai Jin، أما الخامس فهو نيكول ديپو - Nichole Dupont الذى قام بمراجعة الهوامش ومتابعة المراجع وقراءة المخطوطة بكاملها، وكان دائما ما يذكرنى بأن أضع جمهور القراء فى الاعتبار أثناء الكتابة، والسادس هو هيثرسينسبو - Heather Sensibaugh الذى قام بتأكيد المعلومات فى المرحلة الأخيرة، وثلاثة من طلبة الدكتوراه هم مارجريت مانشستر Margaret Manchester وتيريزا توماس - Teresa Thomas وچون مورنان - John Murnane الذين قرأوا جزءا مما كتبت واستمعوا بصبر جميل إلى أفكارى، كما سمحوا لى باقتراض بعض أفكارهم. أما زميلى چورچ لين George Lane فقد شارك بما رواه عن ليبيا ولبنان واليمن عندما كان سفيرا، كما ساعدنى فى الاتصال بأصدقائه فى الخارجية الأمريكية. العاملون الرائعون فى مكتبة جودارد Goddard وأخص بالذكر منهم مارى هارتمان - Mary Hartman وايرين وولش - Irene Walch وإد مكدرموت - Ed McDermott وراشيل شى - Rachael Shea الذين

ساعدونى فى الحصول على المادة المطلوبة، كما قامت آن چبسون Anne Jibson من قسم المعلومات الجغرافية بجامعة كلارك برسم الخريطة، أما صندوق دعم تطوير جامعة كلارك ومدرسة هيجنز للإنسانيات – Higgins School for the Humanities فقد أسهما فى تحمل نفقات السفر إلى أماكن الأرشيف على جانبى الأطلنطى. مساعدتى الإدارية إيلين ستابلز – Ellen Staples كانت تنظم مواعيدى ولقاءاتى حتى لا تختلط بأوقات الكتابة، كما أنقذتنى من مقاطعات عدة وكانت تضحك على تعليقاتى المازحة. ثلاثة من أصدقائى القدامى، پول روپ Paul Ropp ودرو ماكوى – Drew McCoy وچورچ بلياس George Billias (بالأخص) كانوا يشدون من أزرى ويحفزوننى عندما دخل الكتاب مرحلته الثالثة. أربعة أصدقاء جدد هم فريد جريناواى – Fred Greenaway وديڤيد أنجل – David Angel وديبى ميريل – Debbie Merrill وأندريا مايكلز – Andrea Michaels كانوا يغفرون لى نزقى لكى أبدو إداريا جيدا عندما كنت أقوم بالمراجعة الأخيرة للمخطوطة.

لقد كان من حسن حظى أن يكون لى أصدقاء ممن جعلت تعليقاتهم وملاحظاتهم هذا الكتاب يخرج على نحو أفضل مما كان يمكن أن يكون عليه دونهم. آندى روتر Andy Rotter وكليابنش Clea Bunch قامتا بمراجعة الجزء الخاص بالاستشراق، آن هيس Ann Heiss راجعت الفصل الخاص بالنفط. ديڤيد لانجبارت David Langbart راجع بعين ناقدة الجزء الخاص بإسرائيل كما زودنى – وهو الأهم – بوثائق جديدة عن موضوعات مختلفة. چيم جود – Jim Goode وبوب ڤيتاليس – Bob Vitalis، وهما عونى الكبير فى كل ما يتعلق بالشرق الأوسط، كان لهما تعليقات نقدية على الجزء الخاص بالقومية والتحديث وأنقذانى من أخطاء مخجلة. ريتش إيمرمان – Rich Immerman وچيرى هاينز – Gerry Haines ومارك جازيوروڤسكى – Mark Gasiorowski قرأوا تلك الأجزاء الخاصة بالأعمال السرية وهى موزعة فى ثنايا النص. بوب بوزانكو – Bob Buzzanco راجع الجزء الخاص بالتدخل العسكرى كما ساعدنى هو و بيل ووكر – Bill Walker على "استطعام" قرارات ليندون چونسون – Lyndon Johnson السيئة الخاصة بالعالم الثالث وكذلك

أفضل "شواء" فى أوستن. سالم يعقوب – Salim Yaqub ومات چيكوبز – Matt Jacobs ساعدانى بنتائج أبحاثهم وكنت أغبطهما إجادتهما للعربية. ستيف راب Steve Rabe ساعدنى أن أميز بين التحديث فى أمريكا اللاتينية وفى الشرق الأوسط وذلك فى جلساتنا الليلية فى أماكن لا تنسى من الشمال الأمريكى.

كما قام پيتر هان Peter Hahn وبوب مكماهون – Bob McMahon بقراءة المخطوطة كاملة وقدما نصائح ممتازة للتخلص من بعض الإطناب والإسهاب دون إخلال بالمادة، كذلك شجعتنى ديانا كونز Diane Kunz على كتابة هذا العمل الضخم بدلا من كتابة ملخص يصف ما يقوله موظف آخر. بوب ديڤاين – Bob Divine كان يحثنى على التوسع فى البحث بخصوص فترة أواخر الستينيات وما بعدها، أما وولت لافيبر Walt LaFeber فكان يحفزنى بهدوئه المعتاد على أن أفكر فى عمل كبير وأقنعنى بأن بالإمكان إعادة تجميع الكتاب بعد عملية جراحية لإزالة مائتى صفحة!

كان العمل مع هيئة إدارة النشر فى جامعة نورث كارولينا تجربة رائعة، حيث كانت تشرف پاولا وولد – Paula Wald وأماندا مكميلان Amanda McMillan وستيفانى وينزل – Stephanie Wenzel على التفاصيل وسط جو من المرح؛ بل كان من حسن الطالع أن أعمل مع محررين رائعين معنيين بنشر التاريخ الدبلوماسى. ليو باتمان – Lew Batmann تركنى أقرص أذنه بسبب هذا المشروع على مدى سنوات قبل أن يرى كلمة واحدة منه، وبعد قراءة ثلاثمائة ألف كلمة كان يذكرنى بأن "القليل غالبا ما يكون أكثر ثراء". شاك جرينش Chuck Grench كان حريصا على ألا يكون المشروع يتيما، فأشرف على مراجعة الكتاب مرتين قبل النشر. شاك وليو، وكل من جاء ذكرهم من قبل مسئولون عن معظم ما هو جيد فى هذا الكتاب. الأخطاء تخصنى وحدى.

وهذا الكتاب مهدى إلى كولين – Colin وأليسون – Alison اللذين شبا وأصبحا راشدين بالرغم من أب كان نسيانه للعالم من حوله مصدرا لدهشة بلا نهاية. لقد وافقا على عدم كشف أى سر من أسرار الدولة، ووافقت على أن أغفر لهما

اهتمامهما بالعلم أكثر من التاريخ. وأخيرا، وليس آخرا، هناك پات Pat التى أضاءت حياتى على مدى ثلاثين سنة بطيب المعشر والذكاء والصبر الجميل. وبالرغم من أنها تجد التاريخ الدبلوماسى مادة جافة وتضع خطوطا تحت بعض العبارات أثناء قراءة البروفات، فإنها وافقت على المقدمة والنهاية، وهنا الفرق.

• عن هذه الطبعة الثالثة

رغم محاولتى تقديم الشكر لكل من ساعدونى، فإن ديونى للأصدقاء وللأسرة على المستويين الفكرى والشخصى كانت مستمرة فى التراكم على مدى السنوات العديدة الماضية. تظل جامعة كلارك مجتمعا مدهشا حيث يسير التعليم والتعلم يدا بيد، كما أننى ممتن لعدد من طلابى مثل ديڤيد هافنر - David Haffner الذى كشف لى بحثه السينمائى عن واحد من أسوأ الأفلام السينمائية فى التاريخ وهو فيلم مغامرة فى العراق - Adventure in Iraq، ومدين بالفضل لأصدقاء مثل جوين آرثر - Gwen Arthr أمين مكتبة الجامعة الذى كان يبتكر من الوسائل الخلاقة ما يدعم عملى، كما كان من حسن الطالع أن يكون لى زملاء مثل نانسى بدويج - Nancy Budwig وأندريه مايكلز - Andrea Michaels اللذين استمعا إلى أفكارى عن الشرق الأوسط، ومدين لزملاء مثل پول روپ - Paul Ropp الذى قرأ الفصل الجديد عن مبدأ بوش وساعدنى فى عقد المقارنة بين ما حدث فى ڤيتنام وما يحدث فى العراق.

كذلك، تلقيت مساعدات قيمة فى موضوعات متنوعة، إذ قدمت لى كليابنش - Clea Bunch وآن هيس - Ann Heiss المعلومات عن الصلات المتبادلة بين الاستشراق الأمريكى ونزعة العداء لأمريكا فى الأردن وسوريا والعراق، كما ساعدنى پيترهان - Peter Hann على فهم خصائص العلاقة الخاصة التى تربط الولايات المتحدة بإسرائيل، بينما شارك توبى دودچ - Toby Dodge بحكاياته عن الحرب فى العراق ونحن نتناول كؤوس الويسكى الفاخر فى دبلن. أما ستيف رابى - Steve Rabe فكان يذكرنى دائما بأن أتذكر أن الرئيس الأمريكى الثالث والأربعين ما هو إلا رجل من تكساس أولا وأخيرا، وألا ننسى كم نحن محظوظون لأن چورچ دبليو بوش عندما قرر أن يشترى فريق بيسبول اختار "تكساس رينچرز" وليس "بوسطن رد سوكس".

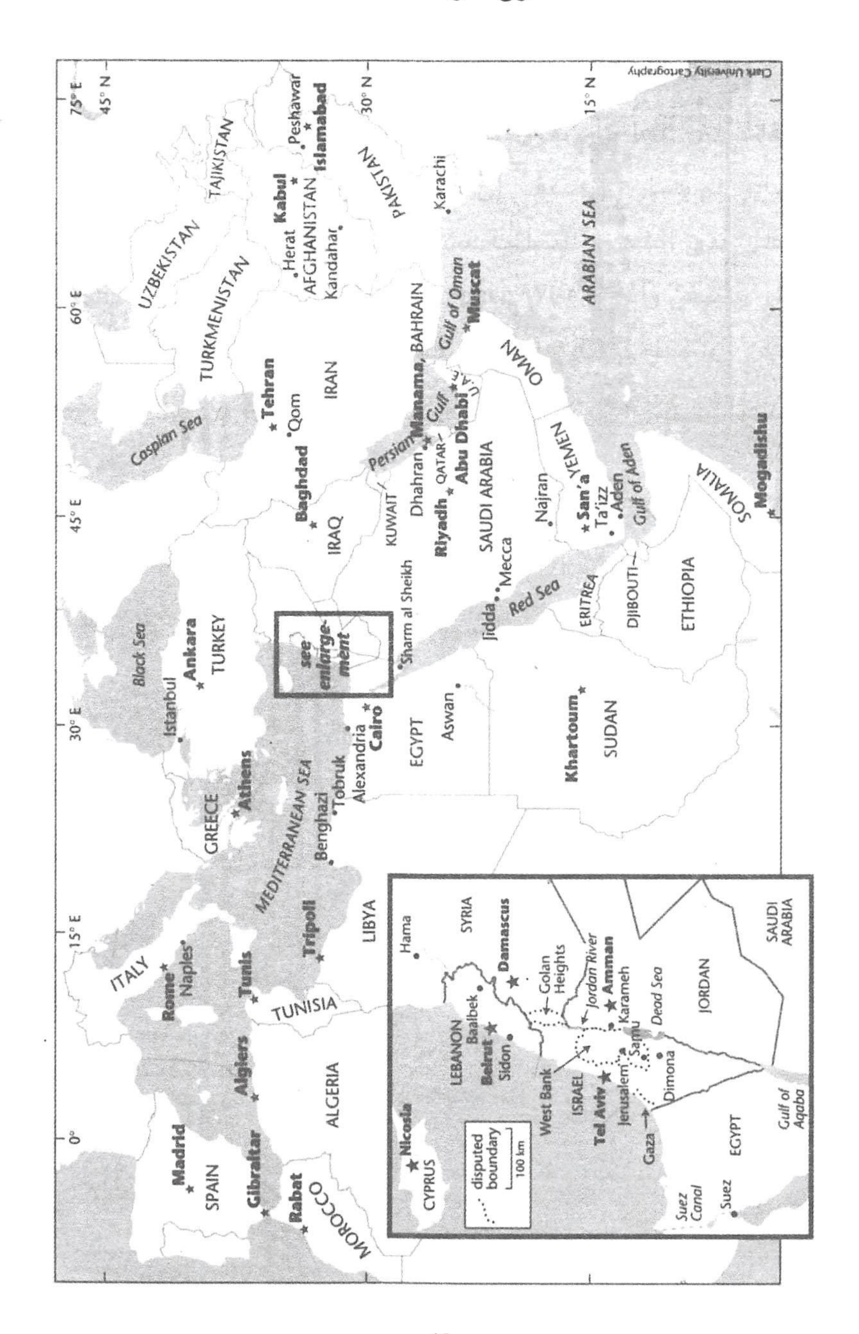
ومرة أخرى، لقد قامت تشك جرنش - Chuck Grench وكل إدارة النشر فى جامعة نورث كارولينا بجهد رائع فى هذا المشروع، وبخاصة تيما لارتر - Tema Larter التى كانت تقوم بالاتصالات التليفونية وتتابع رسائل البريد الإلكترونى وطرود الفيدكس دون كلل أو ملل، بينما كان رون مانر Ron Maner يقوم بتنقيح النسخة الأخيرة ويضبط أسلوبى فى وقت قياسى.

وكالعادة قبل كل من پات وكولين وآليسون المعنى الحقيقى لما أقصده عندما أقول إن نزق الشخص الغريب يخفى تحته دائما شعورا بالمحبة والمودة ولا يكون خطرا إلا عندما يستخدم أدوات القوة. إنهم يعرفون جيدا أن لولاهم، لما كان هذا الكتاب.

الاستشراق
الأمريكى

خريطة

الشرق الأوسط - ٢٠٠٨



■ كان الناس فى كل مكان يحدقون فينا .. ونحن نحدق فيهم.. كنا، بصفة عامة، نجعلهم يشعرون بالضآلة أيضا قبل أن نفرغ منهم، لأننا نزلنا عليهم بكل عظمة أمريكا حتى دمرناهم....

لو قدر لأبناء إسرائيل فى فلسطين أن ينسوا متى جاءت عصابة جدعون من أمريكا إلى هناك، لحقّت عليهم اللعنة.. والضياع مرة أخرى. ربما كان ذلك المشهد هو الأكثر ندرة لكى يصيب من يراه بالذهول!"

مارك توين (السذج خارج الوطن) – ١٨٦٩

■ سحقا للولايات المتحدة الأمريكية".

كتابة على حائط فى كراتشى – باكستان عن
(نيويورك تيمز – ٢٠ سبتمبر ٢٠٠١)

استهلال:

عصابة جدعون فى الأرض المقدسة

• لم نعد فى كانساس!

فى صباح يوم ثلاثاء منعش، وتحت سماء صافية فى سبتمبر ٢٠٠١، اندفعت مثل البرق فى أفق نيويورك طائرتان من طراز بوينج ٧٦٧ يقودهما إرهابيون عرب، لتصطدما بمركز التجارة العالمى. بعد تسعين دقيقة انهارت الأبراج المشيدة من الصلب والزجاج لتقتل نحو ثلاثة آلاف من العاملين فى المكاتب ورجال الإطفاء والمارة، ولتقضى فى الوقت نفسه على أية أوهام جماعية عن البراءة أو القدرة الكلية التى قد تكون لدى الأمريكيين. بأساليب لا يمكن أن تدور بخلد أحد، كان "أسامة بن لادن"

وتنظيم القاعدة الموجود فى أفغانستان قد جاءوا بالشرق الأوسط إلى أمريكا. وبينما كان عمال الإنقاذ يُعْمِلُون مجساتهم فى نثار الحجارة التى يتصاعد منه اللهب والدخان جنوبى مانهاتن، وبينما كان صناع السياسة فى واشنطن يضعون الخطط للانتقام العسكرى من "بن لادن" وحلفائه فى طالبان، طرح الرئيس "چورچ دبليو بوش"[1] سؤالا كان معظم الأمريكيين يطرحونه على أنفسهم وهو: "لماذا يكرهوننا؟".

بعد تسعة أيام من المأساة جاءت إجابة الرئيس عن هذا السؤال فى خطاب متلفز "إنهم يكرهون ما لدينا من حريات، حرية العقيدة، حرية التعبير، حرية التصويت والاجتماع والاختلاف فيما بيننا". كان ذلك ما أكده "بوش" فى ٢٠ سبتمبر، وكله إصرار على أن "أولئك الإرهابيون لا يقتلون لمجرد القتل، وإنما لكى يخربوا أسلوب حياتنا ويقضوا عليه" كما أنهم ضدنا لأننا نقف فى طريقهم"[2]. ورغم أن ملاحظات بوش كانت تبدو وكأنها تلمس حقيقة معاصرة، فإن الإجابة الكاملة عن سؤاله كان لها جذور فى الماضى؛ وكانت بعض مفاتيحها الأساسية قد ظهرت قبل مائة وثلاثين عاما، عندما جاء "مارك توين - **Mark Twain** " ومجموعة من الرحالة متجهين من بوسطن وسانت لويس وبعض المناطق الغربية بالولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط لأول مرة. فى شهر يونيو ١٨٦٧ كان "مارك توين" يحث الخطى عبر "وول ستريت" ويصعد بصعوبة إلى الباخرة كويكر سيتى - **Quaker City** المتجهة إلى الأرض المقدسة، لكى تحملهم أقدامهم متعثرين فى أراض مجهولة بالنسبة لهم. ورغم أن رحلته قد حدثت قبل أكثر من قرن من الزمان وقبل أن يصبح الشرق الأوسط هاجسا مقلقا على المستوى القومى، فإن "توين" زود الأمريكيين بصورة باقية عن منطقة كان من المتعذر التنبؤ بما فيها، منطقة لا تنسى، وفى لحظة فارقة كانت الولايات المتحدة بادئة فى الظهور كقوة عالمية.

صحيح أن المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط قد تعمقت منذ أن أبحر "مارك توين" عبر الأطلنطى لأول مرة، ولكن المواقف الأمريكية من بعض الجوانب الأخرى، لم تتغير كثيرا منذ القرن التاسع عشر، والمرجح أن الشعب الأمريكى يستقى

معلوماته على نطاق واسع من الـ سى.إن. إن CNN ونيويورك تيمز New York Times أكثر منه من كتب الرحلات مثل "السذج خارج الوطن – Innocents Abroad لمارك توين، كما أن مئات الطلاب الذين درسوا فى الجامعة العبرية بالقدس أو الجامعة الأمريكية فى بيروت، وآلاف المهاجرين الذين بدأوا لأنفسهم حياة جديدة فى إسرائيل، وعشرات الألوف من السائحين الذين لمسوا حائط المبكى أو تأملوا الآثار المصرية القديمة فى الأقصر، كل هؤلاء ساعدوا فى صنع صورة مختلفة إلى حد ما للشرق الأوسط فى الولايات المتحدة الأمريكية؛ كما أن كبار العاملين فى مجال النفط وخبراء الأمن القومى والأكاديميين الذين يضعون سياسة الولايات المتحدة اليوم، لديهم الآن، دون شك، فكرة أفضل عن القوى الدافعة للعمل، ثقافيا وأيديولوچيا وتجاريا فى الشرق الأوسط، مما كان لدى أولئك الذين حملتهم "كويكر سيتى" على متنها.

بالرغم من ذلك، يظل كثير من الأمريكيين فى أوائل الألفية الجديدة، يؤرقهم المعدل البطىء للتغير الاجتماعى الذى تعوقه الأوتوقراطية السياسية، كما يروعهم رهاب الأجانب الشديد لدى جماعات مثل القاعدة، ذلك الرهاب المنبعث من منطقة من العالم تظل أهميتها الاستراتيچية والاقتصادية لا نظير لها. منذ فجر الحرب الباردة وشفق القرن العشرين، كان صناع السياسة الأمريكية يؤكدون أكثر من مرة أن الراديكاليين العرب ورؤساء الحكومات فى إسرائيل والطغاة العراقيين... كانوا كلهم يسيئون فهم النيات الحسنة لأمريكا، وأن الفهم الأفضل لابد من أن يؤدى إلى علاقات أفضل. وعلى مر السنوات، فإن المنتقدين من تل أبيب إلى طهران كانوا بالرغم من ذلك يقولون إنهم يفهمون تلك النيات جيدا، وأن مزيج الجهل والغطرسة الذى يميز السياسة الأمريكية هو الذى يمنع الأمريكيين من الفهم الجيد للمنطقة وشعوبها.

كانت الهجمات الإرهابية فى السادس عشر من سبتمبر ٢٠٠١ تذكرة موجعة بمدى اختلاف الشرق الأوسط عن الغرب الأوسط، كما كانت تأكيدا مذهلا أننا "لم نعد فى كانساس" كما تقول دوروثى – Dorothy لـ توتو Toto فى "ساحر أوز– The Wizard of Oz". بعد أن أمضى فترة الصبا على الجانب الآخر من نهر ميسورى –

Missouri، كان لابد من أن يعرف ذلك بالسليقة، والحقيقة أنه كان أوائل من فهموا علاقة الولايات المتحدة بالشرق الأوسط باعتبارها منتجا فرعيا لكونين متناقضين: دافع لا يقاوم لإعادة صنع العالم على نموذج الصورة الذهنية الأمريكية، وتناقض عميق حول تلك الشعوب التى يعاد صنعها. على الصفحات التالية سأحاول تقصى تلك المفارقة الساخرة.

إن تعريف الشرق الأوسط المستخدم هنا تعريف واسع، وهو لا يضم إسرائيل والدول العربية وإيران فقط، وإنما يشمل أيضا منطقة الصحراء الكبرى إلى ممر خيبر، ومن الجزائر إلى أفغانستان. ورغم أن من بين أهداف هذا الكتاب أن يكون ذا فائدة للمتخصصين فى التاريخ الدبلوماسى ودراسة المنطقة، فهو معد كذلك لكى يزود القارئ العام بفهم عريض للاعتبارات السياسية والثقافية والاقتصادية التى أثرت فى سياسة الولايات المتحدة الأمريكية منذ ١٩٤٥. لقد ظهرت فى السنوات الأخيرة بعض الدراسات المهمة التى تتناول موضوعات مثل النفط متعدد الجنسية والعلاقة الخاصة بإسرائيل والثورة الإيرانية[٣]، كما قدمت دراسات حالة جيدة عن أزمة السويس وحرب الأيام الستة والصراع فى الخليج الفارسى[٤]، وكانت معظم الرؤى الخاصة بسياسة الولايات المتحدة طويلة ممتدة فى التاريخ الزمنى، قصيرة مقتضبة فى التحليل، وغالبا ما كانت تضحى بالعمق لصالح العرض[٥].

هذا الكتاب يحاول الجمع بين أفضل ما فى الأسلوبين من خلال تسلسل فى ثمانية فصول لكل منها فكرته الرئيسية، بحيث تقدم قراءتها على التوالى قصة علاقة أمريكا بمنطقة بالغة التعقيد. كل فصل يتناول موضوعا واحدا وتمت صياغته على نحو تجعله يمكن أن يقرأ مستقلا، له بداية ووسط ونهاية، ولكن كل فصل أيضا يلمس جانبا أوسع من التاريخ الدبلوماسى ذى الصلة الممتدة إلى ما هو أبعد من الشرق الأوسط. (مثل استمرارية الأنماط العرقية والثقافية وبروز ظاهرة الأمن القومى وتحديات العولمة فى العالم الثالث)، فالكتاب بمجمله، إذن، يساعد على فهم التوجهات والمواقف والمصالح المعقدة التى تبدو أحيانا غير مترابطة، ولكنها تكرر سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة.

المقدمة المنطقية الرئيسية لـ: **الفصل الأول** هى أن من يريد أن يفهم المواجهة بين أمريكا والشرق الأوسط بعد ١٩٤٥ عليه أن يعرف المتاع الثقافى والصور النمطية العرقية التى حملها الأمريكيون معهم عندما ذهبوا إلى هناك. إن نظرة سريعة على ثقافة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تبين أن المسلمين واليهود ومعظم الشعوب الأخرى فى الشرق الأوسط كانوا يوضعون فى إطار استشراقى مع اعتبارهم شعوبا متخلفة ومتفسخة وغير جديرة بالثقة، وفى سنة ١٩٠٠ كانت مشاعر العداء للسامية وللإسلام مشاعر أمريكية... مثل فطيرة التفاح. وفى أوائل القرن العشرين كان رجال الأعمال وعلماء الآثار والبعثات التبشيرية يعمقون هذه النظرة الاستشراقية بمساعدة المجلات المنتشرة مثل "ناشونال چيوجرافيك – National Geographic، ومع قدوم الحرب العالمية الثانية والهولوكوست وقيام دولة إسرائيل خمدت حدة معاداة السامية نوعا ما وأصبحت النظرة إلى اليهود "نظرة غربية" بينما ظلت صورة العرب شيطانية باعتبارهم إرهابيين معادين للغرب. وفى أواخر التسعينيات كانت هذه الرسائل الاستشراقية الأكثر تعقيدا تنعكس، ليس فقط على شاشات السينما الأمريكية من خلال أفلام ضخمة مثل "قائمة شندلر" و"أكاذيب حقيقية" فحسب، وإنما كانت تجد طريقها أيضا إلى غرف المعيشة الأمريكية عبر أشرطة الأخبار التلفزيونية التى كانت تقارن بين المعتدلين الإسرائيليين بالعرب القساة أو الأغنياء أو الراديكاليين لإبراز الفرق.

على الرغم من هذا التصوير الاستشراقى، لعل أبرز الرموز التى كان يمكن التعرف عليها من الشرق الأوسط هى بئر النفط. وبعد تتبع سريع لظهور صناعة النفط العالمية، يتوقف **الفصل الثانى** عند بعض المصالح التى كانت تخدمها المؤسسات متعددة الجنسية، فعلى مدى ربع قرن بعد ١٩٤٥ انتهج صناع السياسة وكبار خبراء النفط وتجاره علاقة تكافلية تسمح للولايات المتحدة بأن تقدم المعونات وتمارس النفوذ فى العالم العربى مع الحفاظ على حقوق حملة الأسهم وأصدقاء إسرائيل سعداء نسبيا، فما كان جيدا بالنسبة لشركات مثل إكسون – **Exxon** وتكساكو – **Texaco**، كان لابد من أن يكون جيدا بالنسبة لأمريكا والعكس بالعكس، إلا أن المصالح الوطنية

والمؤسسية تباعدت بحدة مع ظهور منظمة الدول المصدرة للبترول - OPEC بعد ١٩٧٠. كان الكثيرون فى مين ستريت Main Street وكاپيتول هيل - Capitol Hill يعزون جلبة الطاقة الناشئة إلى التواطؤ بين الشيوخ العرب الجشعين والمؤسسات المتعددة الجنسية المتعطشة للربح، الذين تآمروا لخفض الإنتاج ورفع الأسعار وسلب المستهلكين الأمريكيين، مستغلين انشغال صناع السياسة بأزمة الحرب الباردة.

مستائين بسبب الشك فى ولائهم، كان رجال النفط يصرخون متذمرين، فأقحموا الأمور الوطنية فى علاقاتهم العامة، كما كانوا يعزون مشكلات الطاقة الأمريكية فى الأساس للعلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

هناك بالطبع علاقة خاصة لأمريكا بإسرائيل، وهى التى تسببت فى كثير من المشكلات مع الدول العربية النفطية، وقد كان الإيمان المشترك بالقيم الديمقراطية والاعتماد غير العادى على سياسات مجموعات المصالح هو ما يجمع بين الأمريكيين والإسرائيليين منذ أواخر الأربعينيات. **الفصل الثالث** يوضح كيف أن تطوير إسرائيل لأسلحة نووية، وإمكانية أن تكون حليفا استراتيجيا لأمريكا فى الشرق الأوسط، كان رغم ذلك كله، هو الذى يجعلها علاقة خاصة. بمجرد أن أصبحت الولايات المتحدة مقتنعة بأن لدى إسرائيل الإرادة والوسيلة التى تمكنها من صنع قنبلة ذرية، أصبحت مبيعات الأسلحة التقليدية جزءا من جهد أمريكى منسق ولكنه فى نهاية الأمر لا يكفى لتحويل إسرائيل إلى شريك إقليمى ولا لمنعها من أن تصبح دولة نووية. وبالرغم من أن الإسرائيليين لم يتقبلوا أبدا فكرة أن ما هو جيد بالنسبة للولايات المتحدة كان لابد من أن يكون صالحا للدولة اليهودية بالضرورة، فإن الجانبين أثناء حرب الخليج فى ١٩٩١ كانا يدركان تماما أن المصالح الجيوسياسية على الأقل، مهمة مثل سياسات جماعات المصالح فى رسم هذه العلاقة الخاصة وإعطائها الشكل المناسب.

لقد كان زرع إسرائيل حليفا سياسيا، يبدو ضروريا أكثر فأكثر أمام صناع السياسة، وهم يصارعون لمنع الاتحاد السوفيتى من ملء الفراغ الناجم عن انسحاب بريطانيا البطىء من إمبراطوريتها شرق السويس بعد ١٩٤٥.

أما **الفصل الرابع** فيتتبع جهود الولايات المتحدة لاحتواء الاتحاد السوڤيتي باستخدام "حالة الأمن القومي" التي خلقتها الحرب الباردة ولكي تفرض ما وصل إلى مستوى مبدأ مونترو للشرق الأوسط. كان مبدأ "مونترو" - **Montre Doctrine** أن تقدم المملكة المتحدة القوة العسكرية، والولايات المتحدة القوة المالية، لنظام أمن إقليمي يمتد من تركيا إلى باكستان؛ إلا أن أزمة السويس كشفت عن أن مصالح الدولتين لم تكن متطابقة، وتحركت الولايات المتحدة لتحويل المملكة المتحدة إلى شريك صغير تحت مبدأ ايزنهاور - **Eisenhower Doctrine** في أواخر خمسينيات القرن. وبموجب قرار حزب العمال البريطاني بتصفية بقايا الاستعمار البريطاني في الستينيات، وضع كلا الرئيسين "چون.ف.كينيدي - **John F.Kennedy**" و"ليندون ب.چونسون - **Lyndon B.Johnson**" الأساس لما سيصبح "مبدأ نيكسون **Nixon Doctrine**" وهو سياسة "تقوم على عمودين" تكون فيها إيران والسعودية بمثابة وكيلين محليين لمعاداة السوڤيت؛ ولكن بعد أن كشفت الثورة الإيرانية والغزو السوڤيتي لأفغانستان في ١٩٧٩ عن محدودية هذا الإجراء قرر المسئولون الأمريكيون الوقوف بمفردهم تحت مبدأ كارتر **Carter Doctrine**، وهي سياسة تذكرنا بأسلوب الرئيس "هاري ترومان"... ولكن أمريكا تقوم فيه بدور بريطانيا.

وبالرغم من أن هذا التفكير، الذي يستند إلى مبادئ بعينها. ربما يكون قد ساعد في بقاء السوڤيت خارج المنطقة، فإنه لم يستطع أن يوقف المد المتصاعد للقومية العربية الذي اندفع من مصر ليجتاح العالم العربي بعد ١٩٤٥. ونرى في **الفصل الخامس** كيف كان رد فعل أمريكا على ثورة "عبد الناصر" الوطنية في مصر متضاربا، وكيف أنه كان متجذرا في شكوك عميقة بخصوص التغيير السياسي الراديكالي تعود إلى القرن التاسع عشر. بعد تمكن "عبد الناصر" من السلطة في ١٩٥٢، كان المسئولون الأمريكيون يتمنون أن يصبح "توماس چيفرسون - **Thomas Jefferson** شرق أوسطي"، ولكن طلاقه المثير من "وايت هول - **White hall**" بسبب أزمة السويس وغزله العلني للكرملين بعد ذلك، جعل إدارة "دوايت دي ايزنهاور - **Dwight D.Eisenhower**" تعتبره على أحسن الفروض معادلا مصريا لـ"ألكساندر

كيرنسكى – Alexander Kerensky"، وعلى أسوئها معادلا لـ: ڤلاديمير ايليتش لينين – Vladimir Ilyich Lenin، وبالرغم من بوادر تعاطف قصير مع الشيطان فى سنوات إدارة "كينيدى"، فإن "ليندون چونسون" ومستشاريه كانوا يعتبرون "عبد الناصر" وأمثاله من الوطنيين الثوريين معادلا عربيا للـ: ڤيتكونج – Viet Cong، ورحبوا بمحاولة إسرائيل تحجيمه فى يونيو ١٩٦٧.

أما فى **الفصل السادس** فنرى كيف كانت الولايات المتحدة تأمل فى تجنب تكرار ما حدث فى مصر، وذلك بتحديث وإصلاح المجتمعات الإسلامية التقليدية من شمال أفريقيا إلى الخليج الفارسى؛ وباعتمادهم على نظريات التحديث الشبيهة بتلك المتمثلة فى تحالف "چون ف. كينيدى" من أجل التقدم فى أمريكا اللاتينية، كان صناع السياسة الأمريكية يضللون أنفسهم، وذلك لاعتقادهم أنهم ببدء تغيرات تقدمية فى العراق وليبيا وإيران يمكن أن تصبح التغيرات الثورية غير ضرورية. فى بغداد مثلا، عملت إدارة "إيزنهاور" مع بريطانيا من أجل إصلاح النظام الملكى الهاشمى، لمجرد إطلاق العنان لثورة توقعات صاعدة عبر سلسلة من الانقلابات الدموية التى جاءت فى النهاية بـ"صدام حسين" إلى السلطة. فى طرابلس شجع المسئولون الأمريكيون الملك "إدريس السنوسى" لكى يُحَدِّثَ نظامه، ولم يؤد ذلك سوى إلى تمرد على الغرب يقوده معمر القذافى. فى إيران كان "كينيدى" و"چونسون" و"نيكسون" يستثمرون بقوة فى "الثورة البيضاء للشاه" لكى يحصدوا فى النهاية ردة فعل إسلامية عنيفة يقودها "آية الله روح الله الخمينى". وباختصار، فإن محاولات أمريكا لتحديث الشرق الأوسط جاءت بنتائج عكسية لتفجر تلك الثورات نفسها التى كان من المفترض أن تخمدها، وأشعلت حربا دموية فى الخليج الفارسى بين الخمينى "التقليدى" وصدام حسين "الحداثى".

انتهت الحرب الإيرانية العراقية بورطة كبرى فى ١٩٨٨ دون تدخل عسكرى رئيسى من الولايات المتحدة، إلا أن الرئيس "چورچ دبليو بوش" سوف يدفع بعد عامين بما يقرب من نصف مليون جندى إلى السعودية بعد قيام "سفاح بغداد" بغزو الكويت.

ويوضح **الفصل السابع** كيف أن من الضرورة بمكان أن نفهم حرب الخليج (١٩٩٠-١٩٩١) ليس باعتبارها مجرد رد على أسلوب "صدام حسين" في التدمير والسلب والنهب، وإنما - أيضا - كرد فعل على "أعراض فيتنام" التي أدت إلى تقلص التدخل العسكري الأمريكي في الصراعات الإقليمية لمدة عقدين تقريبا. لقد كان الشرق الأوسط بمثابة ساحة اختبار للتطبيق الباكر لمبدأ **"الحرب المحدودة"** في ١٩٥٨، عندما أرسل "إيزنهاور" قوات المارينز إلى بيروت لكي يعودوا بعد مائة يوم فقط، ولكن التصعيد المحكوم الذي كان عاملا رئيسيا في نجاح "آيك - Ike" في الشرق الأوسط جاء بكارثة في جنوب شرق آسيا حيث جعلت حرب "چونسون" الخاسرة كلا من الشعب وصناع السياسة في الولايات المتحدة يحذرون التدخل العسكري في أي مكان؛ أما سنوات "رونالد ريجان Ronald Regan" في البيت الأبيض فكان يميزها مساع محبطة لتغيير هذه الذهنية من جبل الشوف في لبنان إلى القنوات البحرية في الخليج الفارسي. ومع النجاح الساحق لعملية **"عاصفة الصحراء"**، كان البيت الأبيض يزعم أن أمريكا قد شفيت أخيرا من أعراض فيتنام، ولكن تردد "چورچ بوش" في التقدم نحو بغداد في ١٩٩١ وسياسات "بيل كلينتون Bill Clinton" الملتبسة في البلقان بعد ثمان سنوات، كانت توحي بأن سياسة عدم التدخل كانت ما تزال حية وباقية في واشنطن.

إذا لم يكن انتصار الولايات المتحدة في حرب الخليج قد قضى تماما على أعراض فيتنام، فإنه بالتأكيد قد مهد الطريق لمفاوضات السلام الإسرائيلية الفلسطينية في تسعينيات القرن العشرين. **وفي الفصل الثامن** نرى أن الصيغة الأمريكية لتسوية عربية إسرائيلية كانت تعتمد على مدى أكثر من خمسين سنة على حقيقة بسيطة واحدة، وهي أنه لكي يكون هناك نهاية لسفك الدماء، لابد من أن يقبل كل من العرب والإسرائيليين مبدأ **"الأرض مقابل السلام"**. من ١٩٤٧ حتى ١٩٦٧ كان العرب يرفضون هذا المبدأ، وكما كان يقول "أبا إيبان - Abba Eban" "لم يضيعوا فرصة لكي يضيعوا فرصة". "ترومان" و"إيزنهاور" و"كينيدي"، كلهم طرحوا أشكالا مختلفة لصيغة الأرض مقابل السلام ولم يلقوا سوى تعنت عربي، وبعد أن احتل الإسرائيليون سيناء والضفة الغربية ومرتفعات الجولان في حرب يونيو ١٩٦٧، فقدوا

هم أيضا الاهتمام بالصيغة الأمريكية. وبعد عدة سنوات من نشاط التوسع السافر من "مناحم بيجن **Menachem Begin**" إلى "اسحق شامير – **Yitzhak Shamir**"، يأتى "اسحق" الآخر (رابين) ليضع إسرائيل أخيرا على طريق التسوية باتفاقيات أوسلو ١٩٩٣.

بالرغم من الآمال لدى كلا الجانبين بأن السلام والتسوية كانا يلوحان فى الأفق، فإن السنوات الأخيرة من الألفية الماضية جاءت معها بفصل من الإحباطات المتصاعدة. لا شك أن قيام سلطة فلسطينية يقودها "عرفات جديد" يبدو براجماتيا، قد جدد الأمل بأن إسرائيل وجدت، أخيرا، شريكا فى التفاوض يمكن الاعتماد عليه، إلا أن اغتيال "رابين" فى نوفمبر ١٩٩٥ وضع الدولة على الفور بين قطبين: بنيامين نيتانياهو – **Benjamin Netanyahu** الانتهازى اليمينى الذى تملص من صيغة الأرض مقابل السلام فى أوسلو، و"إيهود باراك – **Ehud Barak**" الذى جمع الناخبين الإسرائيليين تحت شعار السلام فى مايو ١٩٩٩ بمساعدة الجالس فى المكتب البيضوى. ولكن عندما عقد "بيل كلينتون" قمة مصغرة فى كامب ديفيد بعد ذلك بأربعة عشر شهرا، كان العرض الذى قدمه باراك أقل بكثير من مطالب "عرفات" الدنيا فوصلت محادثات السلام إلى طريق مسدود وراح الإسرائيليون والفلسطينيون الاتهامات بالمسئولية عن الفشل. عندما هزت أعمال العنف الضفة الغربية وغزة بمباركة ضمنية من "عرفات"، تحولت الأصوات الانتخابية نحو المتشددين مثل "آرئيل شارون – **Ariel Sharon**"، الذى كان فوزه فى انتخابات ٢٠٠١ بداية تحول من استراتيجية "الأرض مقابل السلام" إلى "السلام من خلال القوة".

كان لدى "چورچ دبليو بوش" أمل ضئيل فى عملية السلام المتعسره عندما دخل البيت الأبيض، وبعد ست سنوات كان ما زال يتساءل ما إذا كان اليمينى "إيهود أولمرت – **Ehud Olmert**" خلف "شارون" والمعتدل "محمود عباس" الذى أصبح رئيسا للسلطة الفلسطينية بعد موت عرفات فى ٢٠٠٤، قادرين على تحقيق سلام دائم. ويتناول الفصل التاسع سياسات "بوش" فى الشرق الأوسط، ليس على الجبهة

الإسرائيلية الفلسطينية فحسب، وإنما فى العراق والعالم الإسلامى كذلك. كانت هذه السياسات تمثل، من بعض جوانبها، إنجازات نصف قرن من الدبلوماسية الأمريكية فى المنطقة، كما كانت من جوانب أخرى بمثابة قطيعة درامية مع الماضى. بعد عدم اهتمام مطلق بالشئون الدولية قبل دخوله البيت الأبيض، فإن الرئيس الأمريكى الثالث والأربعين كان يعتمد على عقيدته الدينية وعلى النصح المستمر من فريق للأمن القومى متمرس، من بينه "ديك تشينى **Dick Cheney**" و"كولن پاول **Colin Powell**" و"دونالد رمسفيلد **Donald Rumsfeld**" و"كوندوليزا رايس – **Condoleeza Rice**". ثلاثة من الافتراضات الأساسية لدى إدارة "بوش" بخصوص الشرق الأوسط كانت متداخلة نسبيا: •حاجة أمريكا التى لا تشبع من الوقود التى كانت تتطلب المزيد من النفط المستورد من العراق والسعودية وجيرانهما •قوة إسرائيل العسكرية التى جعلت منها حليفا استراتيجيا فى منطقة تموج بالعداء للولايات المتحدة •بدون تسوية إسرائيلية فلسطينية تقوم على مبدأ الأرض مقابل السلام فلن يكون نفط الخليج الفارسى مضمونا ولا الدولة اليهودية آمنة على المدى البعيد.

بعد صدمة الحادى عشر من سبتمبر، كان لدى "بوش" ثلاثة افتراضات أخرى عن الشرق الأوسط مختلفة تماما الاختلاف عما كان مألوفا • أولا: كان هو ومعظم مستشاريه مقتنعين بأن المتطرفين دينيا مثل "أسامة بن لادن"، والراديكاليين العلمانيين مثل "صدام حسين"، شركاء فى مؤامرة إسلامية فاشية تمثل خطرا أكبر بكثير مما كان للشيوعية العالمية • ثانيا: لابد من أن تكون الولايات المتحدة على استعداد لتصدير الديمقراطية لكل العالم الإسلامى والترويج لفكرة أن الانتخابات الحرة والأسواق الحرة هى التى تصنع الشعوب الحرة • ثالثا: لابد من أن تكون أمريكا مستعدة لشن حرب وقائية ضد "**محور شر**" جديد (كوريا الشمالية – إيران – العراق) لكى لا يحصل الإرهابيون المسلمون على أسلحة الدمار الشامل. بالرغم من أن هذه الافتراضات الراديكالية الجديدة ربما كانت تبدو معقولة للمنظرين من المحافظين الجدد فى البنتاجون، فإنها جاءت عند التطبيق بكارثة فى العراق، حيث إن عدم المرونة الأيديولوچية والثقة البيروقراطية المفرطة والتخطيط السيء كانت تعنى أن "بوش"، رغم

انتصاره فى معركته ضد "صدام حسين"، سوف يخسر الحرب الأوسع من أجل الاستحواز على عقول وقلوب العرب.

بحلول خريف ٢٠٠٧ كان الجنود الأمريكيون المنهكون يلعبون لعبة القط والفأر الدموية مع المتمردين العراقيين، بينما كانت ميليشيات السنة والشيعة منهمكة فى حرب طائفية، والانتحاريون الإسلاميون يملؤن شوارع بغداد بالأشلاء والدماء. مشهد العنف المؤسف هذا كان يدعم الصور النمطية الاستشراقية الموجودة بالفعل فى الثقافة الأمريكية عن العرب باعتبارهم متوحشين وسفاحين ومتعصبين دينيين لا يقيمون وزنا للحياة الإنسانية على خلاف الآباء والأمهات الأمريكيين الذين يريدون أن يروا أبناءهم يعيشون فى سلام. التخبط الأحمق الهائل فى العراق وانبعاث النزعة الاستشراقية كان يمكن ألا يكون مفاجأة بالنسبة لـ"مارك توين – Mark Twain" الذى جال فى الشرق الأوسط قبل "چورچ دبليو بوش" بثمانين عاما. كان توين خبيرا بالشخصية الإنسانية وساخرا كبيرا، لاحظ أنهم كأمريكيين كانوا أينما حلوا فى تجوالهم من دمشق إلى القدس إلى القاهرة يميلون إلى التقليل من شأن العرب واليهود بينما يبالغون فى الإعلاء من شأن أنفسهم كأمريكيين، وكان ذلك يبدو بالنسبة له مدعاة للإحباط الذى قد يغرى العم سام بأن ينزل بكل ثقله، بعظمة أمريكا على هذه الشعوب حتى يدمرها. استسلمت الولايات المتحدة بدرجة كبيرة لهذا الإغراء بعد ١٩٤٥، مطلقة أسلوبا فى التحرك كانت أبرز تبعاته غير المرجوة محاولة "أسامة بن لادن" الوحشية تدمير أمريكا فى الحادى عشر من سبتمبر، ومهمة "چورچ دبليو بوش" الحمقاء فى العراق. هذا الكتاب يتحرى تأثير ذلك التحرك على سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط على مدى ستة عقود.

■ "أن ترى قافلة من الجمال تحمل طيب الجزيرة العربية ومنسوجات فارس النادرة تتهادى عبر مجازات السوق الضيقة.... فذلك أحد تجليات الشرق الأصيلة. الصورة لا ينقصها أى شىء. إنها تعيدك على الفور إلى طفولتك المنسية لتعيش مرة أخرى أحلام ألف ليلة، ومرة أخرى يكون الأمراء رفاقك وأميرك "هارون الرشيد" وخدمك مردة وجان يأتون وسط الدخان والرعد والبرق ويختفون كما تختفى العاصفة!"

مارك توين – السذج خارج الوطن (١٨٦٩)

■ "معظم الأمريكيين يعرفون الآن أكثر مما يجعلهم يلجأون إلى تعميمات بغيضة عن الجماعات العرقية أو الدينية. الصور النمطية المهيمنة – اليهودى البخيل والصينى المتسلل والأيرلندى الغبى والأسود الكسول – كلها الآن صور غير مقبولة لدرجة أنها تصدمك عند سماعها.

وبفضل السياسة الدولية السائدة، يبقى رغم ذلك أحد أشكال التعصب العرقى الأعمى محتفظا بقدر من التقدير فى الولايات المتحدة وهو التحامل على العرب، ومن يشك فى ذلك عليه فقط أن يستمع إلى أغنية "الليالى العربية" فى فيلم الكرتون الغريب "علاء الدين" من إنتاج ديزنى"

افتتاحية نيويورك تيمز، ١٤ يوليو ١٩٩٣

الفصل الأول

الاستشراق على النمط الأمريكى

• الشرق الأوسط فى عقل أمريكا

الراسخ بعمق فى الخيال الشعبى الأمريكى، مناطق قليلة من العالم مثل الشرق الأوسط، فالپيوريتانز الذى أسسوا "إسرائيل الرب الأمريكية" على خليج ماساشوستس قبل أربعة قرون تقريبا كانوا قد جاؤوا حاملين معهم افتتانا عاطفيا بالأرض المقدسة وتناقضا عميقا فى الرؤى عن "الكفار" - معظمهم مسلمون وبعضهم يهود - الذين كانوا يعيشون هناك. ولأنهم شبوا على قصص الإنجيل والحكايات الدينية المطرزة - ليبراليا - بروح الرسالة التبشيرية المسيحية وروح ٧٦ الأمريكية القوية، كانت لدى مواطنى إحدى الدول الأحدث فى العالم الجديد رؤية رومانسية نمطية عن بعض الحضارات الأقدم فى العالم القديم، فالبعثات التبشيرية والسائحون والتجار الذين أبحروا من أمريكا فى البحر المتوسط الشرقى خلال القرن التاسع عشر، أدهشتهم التذكارات المسيحية والمشاهد الإنجيلية، ولكنهم فزعوا للحكومات المستبدة والمجتمعات المتفسخة التى التقوا بها من القسطنطينية إلى القاهرة. الدبلوماسيون ورجال النفط والعسكريون الذين كانوا يحافظون على مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ويدافعون عنها خلال القرن العشرين، حولوا هذه الافتراضات الثقافية الباكرة والصور النمطية العرقية إلى موجز فكرى عصى على المقاومة فى فهمهم للمسلمين "المتخلفين" واليهود "العنيدين" الذين كانت أهدافهم كثيرا ما تصطدم بأهداف أمريكا.

هذا الموجز الفكرى الذى ينعكس فى كل شىء، من الأفلام السينمائية والروايات الرائجة إلى المسلسلات السياسية والمجلات الشعبية، كان له أثر عميق فى "مين ستريت" وفى العاصمة، وعلى مر السنوات كان الناس وصناع السياسة فى الولايات المتحدة كثيرا ما يستخدمون ما يطلق عليه المؤرخ "مايكل هنت - **Michael Hunt**" تراتبية عرقية فى التعامل مع ما اصطلح على تسميته بـ"العالم الثالث". منذ ١٩٠٠ كان "هنت" يقول إن العرقية الأنجلو ساكسونية والداروينية الاجتماعية قد تفاعلت فى العقل الجمعى الأمريكى لتوليد خريطة ذهنية قوية، متوقع أن تتحكم القوى

المتحضرة فيها - الولايات المتحدة وأوروبا الغربية - فى جماعات دنيا من المتخلفين وربما البدائيين من الآسيويين واللاتين والهنود الأمريكيين والأفارقة.

وبالرغم من أن هنت يتناول الشرق الأوسط عرضا دون أن يتوقف عنده، فإن إشارته الموجزة توحى بأن صناع السياسة الأمريكية كانوا يميلون إلى وضع العرب واليهود بالقرب من القاع وليس على أعلى سلم التراتبية العرقية(١).

قبل أكثر من عقد كان إدوارد سعيد يتساءل عن سبب ذلك، واستنادا إلى التاريخ الفكرى والنقد الأدبى والفيلولوچيا السياسية بين كيف أن المسئولين البريطانيين فى القرن العشرين كانوا يتبنون الاستشراق رؤية لخدمة أغراضهم، تجعلهم ينظرون إلى الأسيويين والأفارقة والعرب باعتبارهم متفسخين ومغايرين وأقل شأنا، وهى الرؤية نفسها التى استخدمها فيما بعد "وايت هول - Whitehall" لعقلنة طموحاته الإمبريالية الخاصة، من شبه القارة الهندية إلى شواطئ النيل، وبالنسبة للمستشرقين البريطانيين فإن الاستبداد العثمانى والظلامية الإسلامية والدونية العرقية العربية... كل ذلك أسهم فى إنتاج ثقافة متخلفة، كانت فى حاجة ماسة إلى وصاية أنجلو ساكسونية، ومع ضعف قوة بريطانيا وتعاظم قوة أمريكا بعد ١٩٤٥ حدث شيء ما أشبه باستشراق "إدوارد سعيد"، ليشكل دون وعى توجهات الولايات المتحدة الشعبية وسياساتها الخارجية تجاه الشرق الأوسط(٢).

منذ عهد قريب جدا، شرحت كل من "كاترين لوتز - Catherine Lutz" و"چين كولينز - Jane Collins"، وهما من علماء الأنثروپولوچيا، كيف وجد الاستشراق سبيله إلى الثقافة الشعبية الأمريكية. اعتمادا على أفكار النظرية الاجتماعية لما بعد الحداثة والصحافة المصورة والأنثروپولوچيا الثقافية، تتبعت "لوتز" و"كولينز" العملية التى تولدت من خلالها الصور الذهنية الاستشراقية عن الشرق الأوسط وانتشرت عن طريق إحدى المجلات الأكثر توزيعا فى الولايات المتحدة وهى ناشونال چيوجرافيك - National Geographic حيث تبدو الرسائل المضمرة واضحة فى الصور الجذابة

والقصص المثيرة. العرب والأفارقة والأسيويون الذين تزين صورهم صفحات ناشونال جيوجرافيك متخلفون، ومخلوقات غريبة، وخطرون أحيانا، ومحتاجون دائما إلى معونة وإرشاد الولايات المتحدة لكي يمضوا على طريق التحديث السياسى والثقافى بنجاح[٣].

بمجرد أن وجدت الذهنية الاستشراقية لبريطانيا الاستعمارية طريقها إلى البيت الأبيض والبنتاجون و"فوجى بوتوم" فى أربعينيات القرن العشرين، وبمجرد أن وجدت الرؤية الاستشراقية العالمية التى رسمتها ناشونال جيوجرافيك طريقها إلى موائد القهوة الأمريكية وشاشات السينما فى السنوات الأولى من الخمسينيات، تشكلت توجهات وسياسات الولايات المتحدة نحو الشرق الأوسط على نحو يمكن التنبؤ به. متأثرين بأنماط عرقية وثقافية كامنة، بعضها مستورد والبعض الآخر نما محليا، كان الأمريكيون يرون العالم الإسلامى متفسخا وأقل شأنا، كما كان صناع السياسة من "هارى ترومان" إلى "چورچ بوش" يرون الطموحات العربية لتقرير المصير بدائية سياسيا، ومريبة اقتصاديا وعبثية أيديولوچيا. فى الوقت نفسه كان الرواد الصهاينة الأوائل يعملون بإصرار على تحويل حلم الدولة اليهودية إلى حقيقة فى الشرق الأوسط بالدم والعرق والدموع، وسرعان ما جعل الحلم والحقيقة الأمريكيين يتخلون عن بقايا معاداة السامية ليعتبروا أبناء "إسحق"، الذين أصبحوا الآن غربيين أكثر منهم شرقيين، حلفاء استراتيچيين فى مواجهة أمريكا التى تزداد بشاعة مع أبناء إسماعيل.

مع اقتراب القرن العشرين من نهايته، كانت هوليوود تؤكد أن الاستشراق على النمط الأمريكى قد ضرب جذوره عميقا فى الثقافة الشعبية الأمريكية، ففى عام ١٩٩٢ أطلقت ديزنى فيلم علاء الدين وهو الفيلم الأحدث فى سلسلة من الكلاسيكيات الكرتون، أما الأغانى فتوقظ صورا ذهنية باقية عن العالم الإسلامى مع عبارة تعبر عن الأفكار الاستشراقية "أنه شىء بربرى، ولكن... هاى! إنه الوطن". قبل مائتى عام، ما كان الأمريكيون العارفون بالشرق الأوسط ليختلفوا عن ذلك.

● عن القراصنة والأنبياء والسذج خارج الوطن

فى سنة ١٧٧٦ كان القدر اليسير الذى يعرفه المواطن الأمريكى العادى عن الشرق الأوسط وشعوبه له مصدران: إنجيل الملك چيمس وحكايات ألف ليلة وليلة على لسان شهرزاد. كان قليل من الأمريكيين هم الذين يمكنهم أن يحددوا مكان بغداد أو بيروت على الخريطة، وعدد لا يذكر منهم كانوا قد تسلقوا أهرام الجيزة أو خوضوا فى مياه نهر الأردن المقدسة. ولكن معظم الأمريكيين كانوا يعرفون إنجيل متى وحكاية على بابا والأربعين حرامى ويتذكرون الصَلْب والحروب الصليبية أما الغالبية فكانوا حزانى لأن الأرض المقدسة يقطنها كفار وغير مؤمنين، مسلمون ويهود خارج نطاق المسيحية(٤).

ولأنه كان يجمع بين تعاليم القرآن الدينية والسلطة العلمانية للسلاطين والشيوخ من تركيا إلى المغرب، كان طيف الإسلام يلوح أكثر حجما من طيف اليهودية فى الثقافة الشعبية الأمريكية فى أواخر القرن الثامن عشر. إلى جانب ألف ليلة وليلة على أرفف المكتبات من بوسطن إلى تشارلستون كنت تجد قصة حياة النبى محمد، التى تصور رسول الله الإسلامى باعتباره مؤسسا لعقيدة بربرية شريرة، انتشرت من الصحراء العربية إلى الشمال الأفريقى لتضع الشعوب المقهورة أمام خيار التحول إلى الإسلام أو الموت. رجال الدولة الثوريون الذين اخترعوا أمريكا فى ربع القرن التالى سنة ١٧٧٦ كانوا يعتبرون العالم الإسلامى بما يحفل به من الاستبداد الشرقى والفساد الاقتصادى والحماقة الفكرية نقيضا للنظام الجمهورى الذى تعهدوه بشرفهم المقدس(٥). ثلاثة عقود من الحروب البحرية المتقطعة مع القراصنة البربر، ساعدت على انتشار هذه الصورة الذهنية الاستشراقية بين الجمهور العريض من خلال سرديات الأسْر مثل رواية كالب بنجام – **Caleb Bingham** "عبيد فى البربرية" ومسرحيات مثل "عبيد فى الجزائر" لـ"سوزانا روسن – **Susana Rowson**"(٦).

الإلمام الأمريكى الواسع بالعالم الإسلامى فى القرن التاسع عشر يبدو أنه نشر كراهية أشد عندما تمرد اليونانيون على الحكم التركى لأراضيهم فى ١٨٢١، ووصفت

"نورث أميركان ريفيو – North American Review" المجلة واسعة الانتشار هذا النضال بأنه كان حرب الهلال ضد الصليب"، كما زعمت أنه "حيثما توجد أسلحة للسلطان فإنه يتم تسوية كنائس القرى القديمة بالأرض أو تدنيسها بالأحقاد المحمدية"(٧)؛ ومن المؤكد أن البعثات التبشيرية الأمريكية التى كانت تسعى لنشر الإنجيل فى الإمبراطورية العثمانية فى أواخر عشرينيات القرن التاسع عشر، مثل "هاريسون جراى أوتيس دوايت – Harison Gray Otis Dwight كانت تشارك فى نشر وتقوية هذه المشاعر(٨). والحقيقة أن "دوايت" عندما ذهب إلى واشنطن وزار "چون كوينسى آدمز John Quincy Adams" فى أوائل ١٨٣٩ رسم "صورة بائسة" لشعوب الشرق الأوسط لرجل الدولة الطاعن فى السن، وبأن تلك الشعوب "مكونة من أتراك ويونانيين وأرمن ويهود"، وبعد ذلك فضفض "آدمز" فى مذكراته وكتب أن "اليهود أسوأهم لأن أحقادهم وكراهيتهم للمسيحيين" كانت فى رأى دوايت "تفوق أى تصور"(٩).

لم تكن معاداة دوايت للسامية أمرا غريبا بين النخبة الأنجلو ساكسون الأمريكية فى القرن التاسع عشر، إذ كان معظمهم يعتبرون اليهودى شخصا يجمع بين صفات يهوذا وشيلوك ويعتبرون اليهود شعبا مشبوها تشده مجموعة من القيم الثقافية والاقتصادية التى تبدو غير أمريكية. وبالرغم من أن معظم المائة وخمسين ألف يهودى الذين جاءوا إلى الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية كانوا قد فروا من الاضطهاد فى ألمانيا وكانوا متلهفين على أمركة أنفسهم بالتخلى عن معظم عاداتهم فى العالم القديم، كانوا مع ذلك هدفا لتنميط عرقى قبيح يصورهم على أنهم "جشعين ولزجين وطماعين"(١٠).

وبالرغم من مثل هذه الأوصاف الساخرة المعادية للسامية كان كثير من المواطنين والمسيحيين فى "إسرائيل الرب الأمريكية" لديهم شعور خاص بالقرابة مع اليهود، وكان الإحيائيون من البروتستانت الإيڤانچيليكيين يفسرون سفر الرؤيا على أساس أن الألفية سوف تحل بمجرد عودة اليهود إلى الأرض المقدسة، كما كان المئات

من الحجيج الأمريكيين يتجهون شرقا للتعبد فى الأماكن المقدسة فى القدس والناصرة[١١]، وفى يناير ١٨٥٥ كانت مجلة مثل "هاربرز ماجازين - Harper's Magazine يمكن أن تكتب بكل صلافة: "إننا نعرف عن أرض اليهود أكثر بكثير مما يعرفه العرب المنحطون الذين يشغلونها"[١٢].

الافتراضات الاستشراقية التى كانت واضحة معلنة فى "هاربرز ماجازين" كانت مضمرة فى الكثير من ثقافة القرن التاسع عشر الشعبية فى أمريكا؛ حيث كانت طبعات جديدة من ألف ليلة وليلة وكتب "ماكجفى - McGuffey" تعيد تسليط الضوء أمام جيل جديد من أطفال المدارس على الشرق الأوسط "الشرير" و"الغريب". كتاب شعبيون مثل "واشنطن ايرفنج - Washington Irving" نشروا أعمالا مثل "محمد وخلفاؤه - Mohamet and His Successors" تقدم صورا نمطية عن العالم الإسلامى الذين كان سكانه أكثر استعدادا وتقبلا لنظم حكم ثيوقراطية وأوتوقراطية أكثر مما هو للديمقراطية على النمط الأمريكى[١٣]. المصورون أيضا مثل "مينور كيلوج - Minor Kellogg" و"إدوارد تروى - Edward Troye" كانوا يرسمون مشاهد من الشرق الأوسط مليئة بالآثار التوراتية، مسكونة بالبدو الهمج وغيرهم من الشرقيين المجردين من الفضائل[١٤]. رسام البورتريه "فردريك آرثر بردجمان - Frederic Arthur Bridgman" رسم عشرات اللوحات المشحونة بالجنس على نموذج لوحات معلمه المستشرق الفرنسى "چان - ليون چيروم - Jean - Léon Gérôme" مثل "ساحر الثعابين" و"العبد".

ولم يكن غريبا أن يكون أكثر المعروضات جذبا للأبصار فى معرض كولومبيا الدولى فى ١٨٩٣ فى شيكاغو، تلك الخيمة العثمانية الكاملة بما فيها المسجد والسوق والحريم والراقصات الشرقيات لدغدغة مشاعر الأمريكيين الفيكتوريين[١٥].

لعل "مارك توين" هو أبرز من صوروا الشرق الأوسط فى القرن التاسع عشر، إذ باع كتابه الملىء بالسخرية السوداء عن جولته الكارثية بالأرض المقدسة، ما يقرب من مائة ألف نسخة فى العامين التاليين لنشره فى ١٨٦٩. وباعتباره سيدا من سادة التهكم والسخرية، جعل عنوان عمله عن تجواله الطويل فى الشرق "السذج خارج

الوطن"، وقدم فيه صورا وصفية لاذعة عن رفاقه فى الرحلة الذين كان معظمهم يتسم بالعجرفة وعدم اللباقة وما قد يطلق عليه نقاد القرن العشرين "الاستعمار الثقافى"(١٦).

ربما يكون ما بقى فى عقول من قرأوا "مارك توين"، على أية حال، هو تلك الأوصاف السامة للسكان المحليين، فالمسلمون "شعب بطبيعته وثقافته قذر وهمجى وجاهل ومتخلف.... ويؤمن بالخرافات"، كما وصف الإمبراطورية العثمانية بأنها نظام أهم ما يميزه "الاستبداد والجشع والدم". وجد توين فرقا كبيرا بين "الصورة الشرقية الرائعة التى أثارت إعجابى ودهشتى آلاف المرات"فى "الليالى العربية"، والواقع الفظ الذى وجده فى أيامه العربية. وجد عرب فلسطين يعيشون فى مستنقع قذر "لا يعبأون بالجهل ولا الوحشية، كما أنه لم يحب المصريين وطلبهم الملح "للبقشيش فى شوارع القاهرة الخلفية"، وفى نهاية رحلته يلاحظ أن العرب لا يستحقون كل هذا التقدير فى مصر"(١٧). المؤكد أن يكون بعض من قرأوا توين قد أعجبتهم سخرية الكاتب اللاذعة ولكن الكثيرين ربما يأخذون "السذج خارج الوطن" وما فيه من صور ذهنية استشراقية عن شرق أوسط مسكون بالقراصنة والأنبياء والمعوزين على محمل الجد(١٨).

●أمركة الشرق الأوسط:

بدأ الشرق الأوسط فى الظهور على نحو أكثر وضوحا فى الأفق الدبلوماسى والثقافى الأمريكى فى ما يدعوه مارك توين "العصر الذهبى": ليس لأن البعثات التبشيرية الأمريكية كانت تحاول إنقاذ المزيد من الأرواح فحسب، وإنما لأن التجار الأمريكيين كانوا يحاولون أيضا توسيع نطاق التجارة. بحلول سبعينيات القرن التاسع عشر، كان التجار الأمريكيون يشترون نصف محصول أفيون تركيا تقريبا لإعادة بيعه فى الصين، وتزويد الإمبراطورية العثمانية بكل ما تحتاج إليه... من السفن الحربية إلى الكيروسين، ففى ١٨٧٩ كان أحد الدبلوماسيين الأمريكيين يتباهى قائلا: "حتى المصابيح المعلقة فى الأماكن المقدسة فى مكة كانت تعتمد على زيت بنسلفانيا"(١٩).

فى الوقت نفسه، كان جيل جديد من المبشرين الأمريكيين يشق طريقه إلى أرمينيا وسوريا ومناطق أخرى من العالم العثمانى ينشر الإنجيل... ومعه أفكار العالم الجديد الانقلابية. وما حدث هو أنه بحلول تسعينيات القرن التاسع عشر كانت مؤسستان للتعليم العالى أقامتهما البعثات التبشيرية قبل ثلاثة عقود، قد أصبحتا مستنبتات مهمة معادية لتركيا. المؤسستان هما: "روبرت كولدچ – Robert College" فى ضواحى استنبول، و"الكلية البروتستانتية السورية – Syrian Protestant College". بدأ العرب والأكراد والأرمن يحلمون ويخططون للحصول على الاستقلال الوطنى[٢٠]. وبعد جيل، كان المستشرق المغامر البريطانى ت. إى. لورانس – T.E.Lawrence يرى أن هاتين الكليتين كانتا "دون قصد تماما" تعلمان الشعوب التابعة للإمبراطورية العثمانية الثورة[٢١].

وبينما يبدو أن معظم المراقبين الأمريكيين كان من رأيهم أن تلك الدراسة كانت مفيدة بالنسبة لمسيحيى أرمينيا وسوريا، فإن عددا قليلا من رجال الكنيسة أو الدبلوماسيين كانوا يتوقعون أنها بما تحتوى عليه من أفكار ثورية ستكون كارثة على العالم الإسلامى، فعندما ثارت جماهير الطلبة والمزارعين الإيرانيين ليسقطوا الحكومة الملكية ويجبروا الشاه على إعلان حكم دستورى مثلا فى ١٩٠٦، كانت قراءة السفير "ريتشموند پيرسون Richmond Pearson" المشوبة بنكهة الاستشراق ترى "أن التاريخ لم يسجل حالة واحدة لحكم دستورى ناجح فى دولة كان الإسلام فيها هو الدين الرسمى"[٢٢]، كذلك فإن السفير "چون ليشمان – John Leishman" نظيره فى تركيا لم يكن أكثر تفاؤلا بشأن حكم دستورى فى تركيا حيث كان الضباط الإصلاحيون – "الشبيبة التركية" – قد قاموا بانقلاب وكبحوا نفوذ السلطان فى يوليو ١٩٠٨، "فالعناصر المتعصبة" بين الطلبة المسلمين والجنود والملالى، كما قال "ليشمان" بعد تسعة أشهر، أطلقت العنان لعمليات شغب وتمرد معادية لنظام الحكم وفى داخل الجيش "وعهدا من الإرهاب وسلسلة من أعمال القتل"[٢٣].

حتى الرئيس "تيودور روزفلت Theodore Roosevelt"، الذى كان قد عين "پيرسون" و"ليشمان" كان أكثر تشككا فى إمكانية الإصلاح والتقدم فى الشرق

الأوسط؛ وباعتباره من أشد المؤمنين بالتراتبية العرقية، التى لابد من أن تضطلع فيها "الدول المتحضرة" مثل الولايات المتحدة بـ"عبء الرجل الأبيض" وتحاول "غربنة" الشعوب "المتخلفة" فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، اعترف "روزفلت" فى سنة ١٩٠٧ على نحو غير معلن بأنه "من المستحيل أن نتوقع أى تقدم أخلاقى أو فكرى أو مادى فى مجتمع تسوده المحمدية"؛ فالمصريون مثلا "شعب من الفلاحين المسلمين لم يمارس فى تاريخه أى نوع من الحكم الذاتى"، وأضاف "روزفلت" أن اللورد "كرومر – Cromer" البريطانى كان "واحدا من أعظم رجال الإدارة الاستعمارية الذين تعاملوا مع مصر حسب مقتضى الحال فيها بالضبط" – احتلال عسكرى ووصاية أجنبية وصبر مسيحى[٢٤].

وإذا كان روزفلت قد وضع مصر عند أسفل التراتبية العرقية فإنه وضع اليهود بالقرب من القمة، ولا شك فى أنه مثل معظم النخب الأرستقراطية التى كانت ما تزال تحكم أمريكا عند منعطف القرن، كانت تحكم نظرته بعض الصور النمطية الهجومية للأمريكيين اليهود[٢٥]؛ ولكنه كان شديد الانتقاد أيضا لموجة معاداة السامية التى كانت تجتاح تركيا وروسيا أثناء الحرب العالمية الأولى كما كان من أوائل المؤيدين لفكرة إنشاء دولة يهودية فى الأرض المقدسة. فى يوليو ١٩١٨ كان يرى أن الولايات المتحدة وحلفاءها "ينبغى أن يتعهدوا ألا يعقدوا سلاما إلا بعد طرد الأتراك من أوروبا.... وأن يتمكن اليهود من فلسطين"، وبعد شهرين كان يضيف إلى ما سبق، أنه يبدو "من الملائم تماما الشروع فى إقامة دولة صهيونية حول القدس"[٢٦].

عندما اقتربت حرب إنهاء كل الحروب من نهايتها، كان إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين قد أصبح هدفا يشارك فيه كلا جانبى الأطلنطى. كانت فلسطين المشهورة أساسا بآثارها الدينية وصادراتها من الفاكهة قد ظلت إلى وقت قريب أكثر قليلا من مجرد منطقة هادئة منعزلة تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية المحتضرة. بين أغلبية مسلمة، كان هناك ما يقرب من خمسة وعشرين ألف يهودى من التعداد الكلى الذى يصل إلى ثلاثمائة ألف نسمة فى ١٨٨٠[٢٧]. بعد خمسة عشر عاما نشر

تيودور هرتزل – Theodore Herzl (وهو يهودى من مواليد بودابست، عمل بالمحاماة ثم تحول إلى الصحافة وكان فى الخامسة والثلاثين من العمر) ما يمكن اعتباره أول بيان صهيونى. غاضبا بسبب المذابح فى روسيا وبولندا ومروعا لامتداد موجة معاداة السامية غربا فى فرنسا، كان "هرتزل" ينبه إخوانه على صفحات "الدولة اليهودية" إلى أنهم بإنشاء وطن قومى فى فلسطين، يمكنهم فقط أن يكونوا فى مأمن من الاضطهاد. عاملا دون كلل، استطاع أن يجمع عددا من اليهود من ١٧ دولة بما فيها الولايات المتحدة والبرازيل وسويسرا ليؤسسوا فى أغسطس ١٨٩٧ "المنظمة اليهودية العالمية" بهدف محدد وهو تسريع عملية الهجرة اليهودية إلى فلسطين بشراء الأراضى من العرب؛ وسرعان ما أثمرت الجهود الصهيونية التى ساعدت على زيادة المجتمع اليهودى فى فلسطين إلى ٨٥٠٠٠ نسمة أى بما يعادل ١٢٪ من التعداد الكلى عشية الحرب العالمية الأولى[٢٨].

وبالرغم من أن المهاجرين الذين جاءوا من الولايات المتحدة كانوا قلة، فإن الصهاينة الأمريكيين كانوا يتمنون أن تطبق تعهدات الرئيس "وودرو ويلسون Woodrow Wilson" أثناء الحرب بجعل العالم آمنا من أجل الديمقراطية، على الطموحات اليهودية فى الأرض المقدسة. قبل أن تدخل الولايات المتحدة الحرب فى أبريل ١٩١٧، كان "لويس براندیز Louis Brandeis"، الإصلاحى خريج هارفارد الذى عينه ويلسون ليكون أول قاض يهودى فى المحكمة العليا، قد نقل إلى البيت الأبيض الأهداف الصهيونية فى فلسطين، وعلى الشاطئ الآخر من الأطلنطى كان كيميائى لامع وقيادى صهيونى بريطانى هو "حاييم وايزمان – Chaim Weizman" فى لندن، يدفع "آرثر بلفور – Arther Balfour" وزير خارجية المملكة المتحدة للمصادقة على فكرة الدولة اليهودية عندما كانت القوات البريطانية تصارع لانتزاع السيادة على فلسطين من يد الأتراك العثمانيين. وخشية أن تتبنى الحكومة الألمانية الحركة الصهيونية فى محاولة للتقليل من دعم المجهود الحربى للتحالف بين اليهود البريطانيين والروس والأمريكيين، أعد "وايت هول – Whitehall" مسودة ما أصبح يعرف بـ"**تصريح بلفور**" ليكون واحدا من أشهر الصياغات الملتبسة والمتناقضة فى تاريخ

الكتابة "إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى"(٢٩).

قبل إصدار **تصريح بلفور** طلبت الحكومة البريطانية مباركة الأمريكيين. لم تكن الولايات المتحدة رسميا فى حالة حرب مع الإمبراطورية العثمانية، ولم يكن ويلسون - Wilson مستعدا لأن يرى القوات الأمريكية المتورطة فى ما كان يبدو مؤكدا أنه سيكون نزاعا ثلاثى الأطراف بين الأتراك والعرب واليهود. إلا أنه عندما تحقق من أن البريطانيين كانوا يقصدون أن يكون **تصريح بلفور** إعلان مبادئ أكثر منه وصفة لسياسات محددة، أرسل "ويلسون" كلمة عبر الأطلنطى تفيد أنه "موافق على الصيغة المقترحة من الضفة الأخرى"(٣٠)، وبعد شعوره بالارتياح للحصول على موافقة الولايات المتحدة كشف وزير خارجية بريطانيا عن أسلوب تناول بريطانيا الجديد لمسألة فلسطين فى الثانى من نوفمبر ١٩١٧، وذلك فى رسالة إلى اللورد "ليونيل وولتر روتشيلد - Lionel Walter Rotschild"، الذى كان قد تحول حديثا إلى الصهيونية ويعمل على نحو وثيق مع كل من "وايزمان" و"برانديز"(٣١).

بعد أن ذهب "وودرو ويلسون" ورئيس الوزراء البريطانى "ديڤيد لويد چورچ - David Lloyd George" إلى ڤرساى بعد ذلك بأربعة عشر شهرا للتفاوض حول ما أطلق عليه أحد المؤرخين "سلام يضع نهاية لكل سلام"، وجدا أن من الصعب جدا ترجمة **تصريح بلفور** من مجرد مبدأ دبلوماسى إلى واقع سياسى؛ ومما لاشك فيه أن "ويلسون" أعاد تأكيد التزامه بوطن يهودى فى رسالة مفتوحة (أغسطس ١٩١٨) للحاخام "ستيفن وايز - Stephen Wise"، وهو صهيونى ممن يشغلون البيت الأبيض، كما أعطى "لويد چورچ" أذنا صاغية متعاطفة لـ"حاييم وايزمان" لفترة قصيرة فى ربيع ١٩١٩، ولكن المزاعم اليهودية والعربية المتصارعة فى فلسطين، وكذلك الضغوط

المتصاعدة من الأرمن والأكراد والشعوب الأخرى التى كانت تطالب بالاستقلال التام والكامل عن الحكم التركى، كل ذلك جعل صناع السياسة يواصلون عملهم بحذر شديد(٣٢).

وقبل أن ينتهى فصل الصيف سيرسل "ويلسون" بعثة تقصى حقائق إلى الشرق الأوسط برئاسة "چيمس هاربرد – **James Harbord**" الذى سيجىء بأخبار جيدة وسيئة من بين بقايا الإمبراطورية العثمانية، والذى كتب فى تقريره فى أكتوبر ١٩١٩ يقول: "دون زيارة للشرق الأوسط، لن يستطيع أى أمريكى أن يدرك، ولو بقدر بسيط، مدى الاحترام والثقة والحب التى تحظى بها بلادنا فى المنطقة"، و"بفضل السمعة العالمية عن تعاملنا المنصف.... والتأثير التبشيرى والتعليمى غير الأنانى المبذول على مدى قرن، فإن ذلك هو شعور واحد يكنه لنا سواء المسيحى أو المسلم، اليهودى وغير اليهودى، الأمير والمزارع فى الشرق الأدنى". ولكن "هاربرد" – لسوء الحظ – ينبه واشنطن إلى أن ثقة شعوب الشرق الأوسط ببعضهم قليلة، وعليه فإن أمريكا – باختصار – إذا كانت تريد أن تكون أكثر ارتباطا بالشرق الأوسط فإن صناع السياسة سيكون عليهم أن يواجهوا النزاعات المألوفة بين شعوب تشترك فى تراث واحد هو التراث اليهودى المسيحى، كما سيواجهون ميولا "متعطشة للدماء.. عنيدة وانتقامية" لدى كل من الأتراك الكسالى الساعين وراء الملذات، والأكراد والعرب الرحّل، الذين ستكون "الرغبة فى الثأر لأخطاء سابقة قوية بينهم على مدى جيل قادم على الأقل"(٣٣).

●عن الشيوخ وأباء الهول والحلول النهائية:

على خلفية اعتقاد داروينى اجتماعى بالدونية العرقية للعرب والأكراد والأتراك استمر بسبب الإيمان بتفوق الولايات المتحدة، أصبح الاستشراق على النمط الأمريكى مادة للثقافة الشعبية فى عشرينيات القرن العشرين، وذلك من خلال وسائط إعلامية مثل الأفلام السينمائية والكتب الأكثر مبيعا والمجلات الواسعة الانتشار. أفلام ضخمة من صناعة هوليود مثل "الشيخ" (١٩٢١) و"لص بغداد" (١٩٢٤) و"بادرة جميلة"

(١٩٢٦) حملت "رادولف ڤالنتينو – R.Valentino" و"دوجلاس فيربانكس – D.Fairbanks" و"رونالد كولمان – R.Colman" إلى النجومية، بينما عززت الصور النمطية للعرب باعتبارهم متخلفين ثقافيا وفاسدين جنسيا وجانحين للعنف بالفطرة[٣٤]. وفى ١٩٢٧ كان "تمرد فى الصحراء – Revolt in the Desert"، الصيغة المختصرة من العمل الكبير "أعمدة الحكمة السابعة – Seven Pillars of Wisdom" تأليف "ت. إى. لورانس – T.E.Lawrence" واحدا من الكتب الأكثر مبيعا فى الولايات المتحدة، التى تكرس الصورة النمطية للعرب باعتبارهم قوما بدائيا متوحشا ولكنه شجاع "صورة المتوحش النبيل" فى حاجة ماسة دائما لوصاية الغرب وإرشاده[٣٥].

كثير من الصور النمطية الاستشراقية عن العرب التى قدمتها الأفلام والكتب، كانت تدعمها المجلات الشعبية مثل "ناشونال چيوجرافيك" التى أصبحت فى عشرينيات القرن نافذة ملايين الأمريكيين من الطبقة المتوسطة على العالم. عدد مايو ١٩٢٣ بأكمله على سبيل المثال كان مخصصا لمقبرة "توت عنخ آمون" التى كانت قد اكتشفت حديثا، ولعجائب أخرى من العالم الإسلامى، كما كانت مقالات مثل "مصر: الماضى والمستقبل" و"شرق استنبول" تشبه عظمة الحضارة القديمة بحضارة العصور الإسلامية الوسطى وتقارن بينها ووقائع القرن العشرين، وفى "زيارة إلى ثلاث ممالك عربية" قام محررو المجلة بجولة فى ثلاث دول كانت قد حصلت على الاستقلال مؤخرا وهى شرق الأردن والعراق والحجاز (التى ضمها فيما بعد الملك "عبدالعزيز بن سعود" إلى ما يسمى اليوم بالمملكة العربية السعودية)، تحكمها الأسرة الهاشمية التى كانت رأس حربة التمرد فى الصحراء كما أرخ لها "ت. إى. لورانس". وبالرغم من التشظى السياسى للمنطقة، كان المقال يؤكد كيف كان العرب متحدين منذ القدم، يربط بينهم العرق واللغة والدين، وكيف أنه قد "أضيف إلى ذلك كله رابطة جديدة أعرض بين الشرق والشرق الأوسط ورفض لسيطرة الأجناس البيضاء فى الغرب" كما نبهت المجلة قراءها إلى أن "النار تحت الرماد"[٣٦].

على امتداد العقد التالى نشرت "ناشونال چيوجرافيك" ١٢ مقالا تلقى الضوء على الفجوة الثقافية المتسعة بين الشرق والغرب، ففى عدد ديسمبر ١٩٢٧ ظهر مقال

بعنوان "شرقى السويس إلى جبل الوصايا العشر" كان التركيز فيه مثلا على العرب الجبريين الذين لا يشعرون بالمسئولية، يجولون صحراء سيناء مثل الجمال الصغيرة رافضين التكنولوجيا الغربية، قانعين بالخرافات المحمدية"[٣٧]. بعد ثلاث سنوات كان هناك تحقيق مصور عن ليبيا حيث كان "بنيتو موسولينى – Benito Mussolni" يشن واحدة من أكثر الحروب الاستعمارية وحشية فى القرن العشرين، وكان التحقيق يؤكد أهمية الغربنة والتحديث دون اهتمام بالمجزرة الإمبريالية فى الصحراء الليبية، "اليوم تبسط إرادة إيطاليا الجديدة سيادتها على هذه الأراضى التى طال إهمالها، والمزارعون الإيطاليون يعلمون البربر والعرب والسودانيين أساليب جديدة للزراعة"[٣٨]. وفى عدد أكتوبر ١٩٣٢ نجد مقالا آخر بعنوان "فى حضرموت المحترقة" يسرد تفاصيل رحلة شاقة فى جنوب غرب الجزيرة مستوحاة من قصص شهرزاد "أن تكون الجزيرة العربية قادرة على الاحتفاظ بأسرارها كل ذلك الزمن أمام الغربى الفضولى، فإن ذلك يرجع فى جزء منه إلى الملامح الفيزيقية للبلاد، وفى جزء أخر إلى التعصب الدينى لأهلها القليلين المبعثرين هنا وهناك"[٣٩].

لم يحدث أن ظهر التعصب الدينى والراديكالية المعادية للغرب على نحو أكثر وضوحا فى أى مكان، أكثر منه فى فلسطين، ففى خمس مقالات متتالية نشرت بين عامى ١٩٢٦ و١٩٣٨ تتبعت "ناشونال جيوجرافيك" وقوع الأرض المقدسة فى صراع طائفى بين العرب واليهود، وقبل ذلك كان هناك ثلاث مقالات تركز على بيت لحم والقدس، وتقدم صورة مألوفة لمعظم الأمريكيين مثل أحدث إنجيل عن أرض استطاعت "ثلاث عقائد عظيمة" أن تعيش عليها فى تآلف نسبى[٤٠]، ولكن بحلول منتصف ثلاثينيات القرن العشرين كان قراء المجلة يعرفون أن التحديث السريع للأرض المقدسة كان سبب تولد قدر هائل من التوترات الدينية والثقافية. "فلسطين المتغيرة" مقال مصور فى عدد أبريل ١٩٤٣ يصف كيف كان مئات الموظفين البريطانيين وآلاف المستوطنين اليهود يحولون "أرض اللبن والعسل" إلى قاعدة غربية متقدمة شرقى المتوسط، "فى فلسطين، وعلى نحو أكثر دراماتيكية منه فى أى مكان آخر فى العالم، كانت المخترعات والوسائل الحديثة" التى تم توزيعها على العرب "تنقل شعبا رعويا إلى كوكب حياة أرقى"[٤١].

في ديسمبر ١٩٣٨ عندما نشرت "ناشونال چيوجرافيك" مقال "التغيير يصل إلى بلاد الكتاب المقدس"، لم تكن أمريكا الوسطى قد فهمت تماما ضراوة العهد القديم الذى يذكى الصدام بين العرب واليهود، وأشارت المجلة إلى أن "**تصريح بلفور** وموجات معاداة السامية فى أوروبا جاءت بألوف المهاجرين الجدد وبخاصة من ألمانيا" وكيف أن هؤلاء الحجاج استطاعوا أن يحولوا مساحة كبيرة من الأراضى الوعرة والسهوب الرملية إلى "أول مدينة جديدة فى العالم.. يهودية مائة بالمائة" وهى تل أبيب. "تدفق اليهود من أرجاء العالم أثار عداء العرب" الذين صورتهم المجلة باعتبارهم جماعة من البدائيين المتخلفين يمارسون عنفا غير عادى. على أنه "بالرغم من أن الإرهاب العربى قد أصاب كل فلسطين بالشلل فى صيف ١٩٣٨"، كان الكثير من قراء المجلة بعد أن يفرغوا منها يكونون على ثقة من أن الهجرة اليهودية الكبيرة من المرجح أن تحافظ على موجة النمو الاقتصادى والتقدم الاجتماعى التى سرعان ما سوف تجعل الأرض المقدسة "أشبه بـ كاليفورنيا الجنوبية"[٤٢].

قبل أن ينتهى عام ١٩٣٨ ستطلق التطورات على بعد ألف وسبعمائة ميل فى شمال غرب برلين موجة عاتية من معاداة السامية ستكون محصلتها فى المذابح الجماعية والإبادة بما يقدم صورة درامية للصهاينة على ضفتى الأطلنطى مفادها أن إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين قد أصبحت بالفعل مسألة حياة أو موت. على مدى العقدين السابقين كان عدد أقل فأقل من الأمريكيين يتذكرون وعود "وودرو ويلسون" أثناء الحرب لكل من "لويس برانديز" و"ستيفن وايز"، وبدلا من ذلك كان الأكثر فالأكثر من الانعزاليين، من الساحل إلى الساحل، يصفقون استحسانا لـ"وارن هاردنج – **Warren Harding**" و"كالڤن كوولدج – **Calvin Coolidge**" و"هربرت هووڤر – **Herbert Hoover**" بسبب تخفيض ارتباطات أمريكا السياسية فى الخارج إلى حدها الأدنى، سواء فى أوروبا الغربية أو الشرق الأوسط. فى الوقت نفسه فإن المسئولين البريطانيين مثل وزير المستعمرات "ونستون تشرشل – **Winston Church-ill**"، الذين كانوا مسئولين عن إدارة الانتداب فى فلسطين التى تسلمتها بريطانيا من

عصبة الأمم المنشأة حديثا، كانوا يتباعدون عن **تصريح بلفور** أمام المقاومة العنيفة من العرب لإنشاء وطن قومى لليهود بينهم[٤٢].

مع انخفاض الحماسة لإنشاء دولة يهودية فى فلسطين فى كل من "البيت الأبيض" و"وايت هول" فى عشرينيات القرن العشرين، فإن صعود الأهلانية أدى إلى انخفاض دعم "مين ستريت" للحلم الصهيونى؛ ومن أطلانطا إلى أناهيم كانت عصابات "كوكلوكس كلان" تحرق الصلبان وتعقد الاجتماعات الحاشدة لإرهاب وتخويف الأمريكيين من ذوى الأصول الأفريقية والكاثوليك واليهود، بينما على ضفاف البوتوماك كان الكونجرس يقدم حصصا محدودة ليوقف تدفق اليهود وغيرهم من الجماعات "غير المرغوب فيها" من أوروبا الشرقية. وخوفا من احتمال أن يأتى النجاح الصهيونى فى فلسطين بنتيجة عكسية وهو وضع ولاء كل المجتمع اليهودى فى أمريكا موضع المساءلة، كان عدد من اليهود الأمريكيين النافذين مثل "آرثر هايز سلزبرجر – Arthur Hays Sulzberger"، ناشر "نيويورك تيمز"، ينأون بأنفسهم بعيدا عن جهود اللوبى الصهيونى فى كابيتول هيل.

وبحلول ثلاثينيات القرن العشرين هبطت عضوية المنظمة الصهيونية الأمريكية، وهى وكالة مظلة أنشأها "برانديز" و"وايز" قبل جيل، من ١٧٥٠٠٠ عضو إلى ٢٥٠٠٠ مع اقتناع النخبة فى وزارة الخارجية وخبراء شئون الشرق الأوسط المعادين للسامية بتجاهل هذا النشاط الصهيونى للتأثير فى سياسات مجموعات المصالح[٤٤]، وفى أواخر ١٩٣٦ كان "والاس موراى – Wallace Murray" قد أقنع زملاءه فى الخارجية الأمريكية بألا يفعلوا شيئا «قد يورطنا على نحو أو آخر فى مشكلة فلسطين شديدة الحساسية"[٤٥].

جاءت مذكرة "موراى" بعدم التورط أو التدخل فى أسوأ توقيت بالنسبة للصهاينة الأمريكيين ورفاقهم فى أوروبا. ويزعم أن تدفق ٢٥٠٠٠٠ يهودى أوروبى خلال العقد ونصف العقد منذ الحرب العالمية الأولى كان أكثر من طاقة النظام الاقتصادى والسياسى لفلسطين الذى كان مثقلا بالفعل، قام العرب بثورة عنيفة

لمقاومة الصهيونية. وبينما كان الفلسطينيون يقاومون الهاجاناة والجيش اليهودى السرى فى شوارع القدس وتلال نابلس، كانت تتوالى فى ألمانيا أحداث تنذر بما هو أسوأ، حيث كانت سياسات "هتلر" المعادية للسامية تبدو أكثر صراحة ووضوحا. منذ وصوله للسلطة فى أوائل ١٩٣٣ صبغ الدكتاتور النازى اليهود بفرشاة الشيوعية وجردهم من حقوقهم المدنية معتبرا إياهم كباش فداء لمشكلات الرايخ الثالث الاقتصادية. وبعد أن دخلت الدبابات النازية ڤيينا فى مارس ١٩٣٨، وبعد أن دخلت قوات هتلر "العاصفة" فى حملة عاتية من معاداة السامية فى برلين بعد ثمانية أشهر، حاول الألوف من اليهود الألمان والنمسويين اللجوء إلى الخارج، بعضهم إلى بريطانيا.. والبعض إلى أمريكا.. والغالبية إلى فلسطين[٤١].

فى الوقت الذى كان فيه يهود أوروبا شديدى الاحتياج إلى ملجأ أمن فى وطن قومى، تحركت الحكومة البريطانية نحو خفض الهجرة اليهودية إلى فلسطين بحدة، وبعد أن كانت قد انتهت من حملة استمرت عامين لقمع الثورة العربية أصدر "وايت هول" تقريرا رسميا فى ١٧ مايو ١٩٣٩ يحدد العدد الكلى للاجئين اليهود المسموح لهم بدخول الأرض المقدسة خلال السنوات الخمس التالية بـ٧٥٠٠٠ مواطنا، وكل ما يزيد عن ذلك يكون بموافقة الفلسطينيين. كان من بين أشد منتقدى التقرير البريطانى "ديڤيد بن جوريون – David Ben Gurion" (٥٣سنة) القائد الكاريزمى غير الرسمى لـ"ييشوف – Yishuv" (كما كان يطلق على المجتمع اليهودى فى فلسطين آنذاك) البالغ عدد أعضائه ٣٥٠٠٠٠يهودى. مقتنعا بأن محاولة إثناء وايت هول عن ذلك التقرير الرسمى ستكون غير مجدية، كان "بن جوريون" ورفاقه يأملون أن يكون الصهاينة الأمريكيون أكثر توفيقا فى البيت الأبيض حيث كان "فرانكلين د. روزڤلت – Franklin D.Roosevelt" يعد العدة للحصول على فترة إدارة ثالثة (غير مسبوقة) بدعم من الليبراليين اليهود[٤٧].

بعد أن كان متعاطفا لفترة طويلة مع أهداف **تصريح بلفور**، كان "روزڤلت" يبدو مضطربا فى أواخر الثلاثينيات بسبب مؤشرات كانت توحى بأن بريطانيا تريد

التملص من التزامها بوطن قومي لليهود، وكما يتذكر "كنت في فرساي وأعلم أن البريطانيين لم ينكروا أنهم وعدوا اليهود بإعطائهم فلسطين، فلماذا ينكثون الآن بعهدهم؟"[٤٨] تصرفات بريطانيا خلال ربيع ١٩٣٩ أثارت المزيد من التساؤلات: "لقد قرأت بمزيد من الاهتمام.. والضيق.. قرارات الحكومة البريطانية حول سياستها الخاصة بفلسطين" كما كان يقول "كوردل هل – Cordell Hull" وزير الخارجية، في منتصف مايو: ثم يسارع ليضيف "إن هذا التقرير الرسمي شيء لا يمكن أن نوافق عليه"[٤٩] على مدى الشهور الثمانية عشرة التالية كان صهاينة من ذوي الصلات الجيدة مثل "ستيفن وايز – Stephen Wise" و"فيلكس فرانكفورتر – Felix Frank-furter" (كان "روزفلت" قد عينه مؤخرا لشغل مقعد "برانديز" في المحكمة العليا) يشجعون الرئيس في هدوء للضغط على وايت هول للوفاء بالتزاماته بخصوص فلسطين؛ وفي الخارجية كان "هل – Hull" ومستشاروه ما زالوا على رأيهم بأن تطفل الولايات المتحدة لن يخدم سوى التقليل من شأن بريطانيا وإضعاف موقفها في الشرق الأوسط، في الوقت الذي كانت قد أصبحت فيه هي المانع الوحيد أمام اكتمال سيطرة النازي على أوروبا في أعقاب سقوط فرنسا في يونيو ١٩٤٠؛ وعندما أعاد "روزفلت" حساباته ووجد الاعتبارات الجيوسياسية أكثر أهمية من السياسات الداخلية، احتفظ لنفسه بشكوكه في التقرير الرسمي البريطاني ونجح في الحصول على فترة إدارة ثالثة بفارق كبير[٥٠].

سرعان ما سيصبح الألوف من اليهود الأوروبيين، الذين لم يستطيعوا أن يجدوا ملجأ في الخارج، من بين أوائل ضحايا الهولوكوست. خلال عامي ١٩٣٩ و١٩٤٠ كان النازيون يستهدفون يهود أوروبا المحتلة لإعادة تجميعهم في معسكرات للاعتقال في پولندا، وبعد الغزو الألماني للاتحاد السوفيتي في يونيو ١٩١٧ بدأت عمليات الجستاپو (پوليس هتلر السري) بشكل منظم لاغتيال اليهود الروس الذين كانوا يقعون في أيديهم. كانت الأخبار عن مجزرة الجستاپو المعادية للسامية تتسرب إلى الولايات المتحدة عندما كان اليابانيون (حلفاء الألمان) يهاجمون پيرل هاربر في ٧ ديسمبر ١٩٤١، وفي يناير ١٩٤٢ وافق "هتلر" رسميا على "حل نهائي للمشكلة

اليهودية" وسمح لكتائب "الشوتز ستافيل - Schutzstaffel" (أو الـSS)، وهى كتائب نخبوية من الجيش الألمانى كان قادتها ينطقون باسم "قابيل"، سمح لهم ببدء عمليات الإبادة الجماعية لمئات الألوف من اليهود المعتقلين فى معسكرات "أوشفتز - Ausch-witz" و"بوخنوالد - Buchenwald" وغيرها، وستشهد السنوات الثلاث التالية قتل ما يقرب من ستة ملايين يهودى بين رجل وامرأة وطفل(٥١).

هذه المذابح الجماعية الرهيبة التى قام بها النازيون فى أوروبا المحتلة أزالت أى بقايا للتردد والشك بين معظم اليهود الأمريكيين عن أهمية وطن قومى لليهود فى فلسطين. وفى مايو ١٩٤٢ اجتمع ٦٠٠ صهيونى أمريكى فى فندق بلتيمور فى نيويورك سيتى وأصدروا قرارا بالإجماع بأن "يؤسس فى فلسطين كومنولث يهودى يكون مدمجا فى بنية العالم الديمقراطى الجديد"، وبينما كان بعض المتنفذين مثل "ستيفن وايز" يحاولون كسب دعم البيت الأبيض لإعلان بلتيمور، أسس آخرون من خارج المجموعة مثل "أبا هيليل سيلفر - Abba Hillel Silver"، وهو حاخام نشط من كليفلاند من مواليد ليتوانيا درس فى "كلية الاتحاد العبرى"، مجلس الطوارئ الصهيونى الأمريكى الذى استطاعت أفرعه المائتين من جمع نصف مليون دولار لتمويل الجهود التى يبذلونها فى واشنطن(٥٢).

كان ١٩٤٩ عام انتخابات، وكان الأمريكيون المدافعون عن إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين يعملون دون كلل للحصول على دعم الحزبين لمشروعهم، واعتمادا على علاقته الوثيقة بالسيناتور "روبرت تافت - Robert Taft"، وهو جمهورى من أوهايو، تمكن "آبا هيليل" من إقناع الحزب الكبير القديم بأن يُضَمِّنَ برنامجه بندا يدعو إلى التنفيذ الفورى لـ"**تصريح بلفور**". ولكى لا يخسر الحزب فى الانتخابات حرص الصهاينة الديمقراطيون على أن يوافق الحزب فى مؤتمره العام فى شيكاغو على إقامة "كومنولث ديمقراطى حر" فى فلسطين(٥٣). وبالقرب من نهاية حملته الانتخابية من أجل فترة رابعة كرر "روزفلت" علنا دعمه لـ"**تصريح بلفور**" وتعهد "لو أعيد انتخابى فسوف أعمل على تحقيقه"(٥٤).

وبعد أيام قليلة من تصويت الناخبين لـ"روزفلت" وحصوله على فوز جديد فى ٧ نوفمبر، بدأ الصهاينة الأمريكيون يستشفون دلائل على هشاشة التزام الرئيس بأهدافهم... تماما مثل حالته الصحية، وبعد أسبوع واحد من يوم الانتخاب، حذرت إدارة "روزفلت" الحاخام "ستيفن وايز" بأنه "سيكون من الخطأ إثارة الأمور الآن" ومحاولة الحصول على قرار من الكونجرس يدعو لإقامة دولة يهودية فى فلسطين. وعندما ضغط السيناتور "روبرت ڤاجنر – Robert Wagner" (وهو ديمقراطى من إمپايرستيت) على البيت الأبيض للوفاء بوعوده للصهاينة أثناء الحملة الانتخابية فى نوفمبر الماضى، رد عليه "روزفلت" بأنه سيكون من غير الحكمة "صب الزيت على النار فى فلسطين" حيث "يوجد هناك بالفعل حوالى نصف المليون يهودى، وربما مليون آخرون يريدون الذهاب وعلى الجانب الآخر هناك قرابة سبعة ملايين مسلم يريدون قتلهم بمجرد أن تطأ أرجلهم الأرض هناك"[٥٥].

كان "روزفلت" قد عرف مدى ضراوة المعارضة العربية للصهيونية عندما التقى "عبد العزيز بن سعود" ملك السعودية، وفى اجتماع بينهما يوم عيد القديس ڤالانتين استغرق ثلاث ساعات، طلب العاهل السعودى أن توقف الولايات المتحدة وبريطانيا الهجرة اليهودية مؤكدا أن "العرب يفضلون الموت على تسليم أراضيهم لليهود"، ومأخوذا إلى حد ما بسبب كلام "ابن سعود" أكد له "روزفلت" أن الولايات المتحدة "لن تفعل شيئا لمساعدة اليهود ضد العرب ولن تقوم بأى تحرك معاد للشعب العربى"[٥٦]. بعد عودته إلى واشنطن، لم تهتز فى ذهن الرئيس المرهق الطاعن فى السن صورة العاهل السعودى الأشبه بالصقر وهو جاثم على كرسى العرش الذهبى يحيط به ستة من العبيد، وهو يرعد ضد المخطط الصهيونى لإقامة كيان فى فلسطين. فى ١٤ مارس ١٩٤٥ قال "روزفلت" لأحد مساعديه إن "ابن سعود" لا يجد أى مشكلة مع يهود فلسطين المحليين ولكن الهجرة من أوروبا كانت أكثر مما يحتمل، وأن الأمور إذا سارت على نحو خطأ فإن ملايين العرب المحيطين بهم من السهل أن يعلنوا حربا مقدسة وبذلك لن تكون هناك نهاية للمتاعب"[٥٧].

بالرغم من ذلك، كان روزفلت أكثر تفاؤلا عندما زار الحاخام "ستيفن وايز" البيت الأبيض في اليوم التالي؛ إذ إنه رغم "شعور لحظي بالفشل" بعد لقائه بابن سعود، بقي الرئيس ملتزما "بإقامة كومنولث يهودي ديمقراطي حر"(٥٨)، وبعد أن نقل "وايز" هذه الأخبار إلى المجتمع اليهودي كما طلب منه "روزفلت"، كان المسئولون في الخارجية الأمريكية يتوقعون جوا عاصفا ضد مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وكان "والاس موراي – Wallace Murray" ينبه رؤساءه إلى أن "التصريح الذي سمح البيت الأبيض لـ"وايز" أن يدلي به من المؤكد أن يحدث ذعرا في العالم العربي... وكثيرا من الضرر بوضعنا" وأن «دعم الرئيس المستمر للصهيونية على هذا النحو قد يؤدي إلى سفك دماء فعلي في الشرق الأدنى وربما يهدد أمن امتيازاتنا البترولية الواسعة في السعودية"(٥٩)، وفي محاولة لحصر نطاق الضرر ذكر "روزفلت" بعد عدة أسابيع أن الولايات المتحدة كانت ما تزال لديها النية للتشاور مع العرب قبل اتخاذ أي قرار بشأن فلسطين، ولكن قلب الرئيس خذله قبل أن يرى ما إذا كانت رسالته المهدئة ستمنع العاهل السعودي من إعلان الجهاد.

في الأسابيع الأولى من فترة إدارته، كان "هاري ترومان – Harry Truman" أكثر اهتماما بإنهاء الحرب الساخنة في أوروبا منه بتجنب حرب مقدسة في الشرق الأوسط. قبل يوم واحد من قيام "ترومان" بأداء اليمين، كانت دبابات ومدرعات الجيش الثالث الأمريكي بقيادة الجنرال "جورج باتون – George Patton" قد دخلت "بوخنوالد – Buchenwald" أحد معسكرات الموت بالقرب من "ڤايمر" في وسط ألمانيا حيث اكتشف الجنود الأمريكيون أدلة مرعبة على وحشية النازي. المناظر الفوتوغرافية من "بوخنوالد" و"أوشڤتز" وغيرهما من معسكرات الاعتقال طبعت في ذاكرة العالم على نحو لا يمحى صورا مروعة لجثث مكدسة مثل الحطب وحزم من البشر المهزولين أو "المرحلين" كما كان يطلق على الناجين من الهولوكوست. كانوا من الضعف لدرجة العجز عن المشي أو الكلام، وبعد أن سكتت المدافع في ٩ مايو ١٩٤٥، سيبلغ عدد "المرحلين" الذين كانوا في عهدة القوات الأمريكية في الأسابيع والأشهر الأولى ٢٥٠٠٠٠ من اليهود الذين كانوا يريدون – بشدة – الهجرة إلى فلسطين(٦٠).

ومثلما كانوا يفعلون مرارا عندما تواجههم أهوال الحرب والثورة كان محررو "ناشونال چيوجرافيك" يقومون بالتركيز على نشر قصص تلمح إلى أن أفضل الحلول للناجين من مذابح حل "هتلر" النهائى هو إقامة دولة يهودية فى الأرض المقدسة، وكانوا يتجاهلون معسكرات الموت النازية، فالقارئ الذى يتصفح عدد يوليو ١٩٤٥ لابد أن تقع عينه على ذلك التقرير المصور بعنوان "الأمريكيون يساعدون أوروبا المحررة لكى تحيا مرة أخرى" ولا يجدون الصور المروعة للضحايا فى "بوخنوالد" التى التقطت قبل ستة أسابيع وإنما صورا "موحية" لجنود مهندمين يساعدون الناس فى فرنسا وبلچيكا وألمانيا يبدأون إعادة بناء بلادهم؛ ولا يذكر التقرير شيئا عن معاداة "هتلر" للسامية، ولا معسكرات الاعتقال كما لا تتضمن قائمة ضحايا النازية اليهود الذين قام بإبادتهم، والحقيقة أن قليلا من القراء هم الذين أدركوا أن ربع عدد "اللاجئين والمرحلين" الذين شملتهم جهود إعادة التسكين والإغاثة التى كان يقوم بها الحلفاء كانوا من اليهود(٦١).

وعندما عادت "ناشونال چيوجرافيك" فى نهاية الأمر للاعتراف بالهولوكوست بعد ذلك بستة عشر شهرا، كان ذلك فى تقرير بعنوان "فلسطين اليوم" وهو تقرير واقعى عن يهود مستغربين إلى حد ما يستعيدون مكانهم الشرعى فى الأرض المقدسة من أيدى عرب مستشرقين. فى إحدى الصور على سبيل المثال يظهر "عدد من الشاردين من معسكرات الاعتقال يغنون ويهللون" وهم يسيرون تحت نجمة داود فى أرض موعودة، حسب المجلة هى بمعنى عام الولايات المتحدة فى ثمانينيات القرن التاسع عشر "كما أنها كاليفورنيا اليوم"، وفى صورة أخرى تبدو مجموعة من الشرف مبنية على الطراز الغربى فى حيفا، تستقبل نسمات الشرق على ساحل المتوسط حيث "يعيش اليهود منذ العصور التوراتية". من ناحية أخرى نجد صور العرب التى يظهر فيها أناس بسطاء مبتسمين يرتدون الثياب المحلية ويحملون سلال الفاكهة أو يقومون بجمع المحصول وأعمال تافهة أخرى.

معظم من يقرأون هذا المقال من الأمريكيين لابد من أن يخرجوا منه بانطباع أن الحلم الصهيونى لم يكن ليختلف كثيرا عن حلمهم، فاللاجئون اليهود الذين جاءوا

إلى فلسطين، هم فى نهاية الأمر مثل البيوريتانز الذين استقروا فى نيو إنجلند قبل ثلاثة قرون وكانوا ضحايا الاضطهاد الدينى وأصروا على أن يبدأوا لأنفسهم حياة جديدة. كما حرصت المجلة أن تؤكد للقراء أن "زيارة لفلسطين اليوم تشبه إلى حد كبير زيارة لأمريكا الأمس"، وهناك فى آخر المقال لقطتان لا تتركان مجالا للشك حول من تقدمه الصورة باعتباره "پروسپرو" ومن باعتباره "كاليبان". فى الصورة الأولى تظهر فتاة جميلة "ربما يكون والداها من بين اليهود الذين ذبحوا فى أوروبا" وهى تغرس شتلات الطماطم فى أرض فلسطين، وتحت الصورة عبارة تقرأ "بوخنوالد وبلسن وراءها: إحدى الناجيات من معسكرات الرعب تفلح أرض حلمها"؛ وفى الصورة الثانية مزارع عربى فظ، يرتدى كوفية يعلق على صدره سيفا للزينة ويشرف على ثلاثة فلسطينيين يقومون بعمل تافه، وتحت الصورة عبارة "الاقتصاد شبه الإقطاعى هو السائد فى المجتمعات الزراعية العربية المعزولة"(٦٣). هذه الصور التى كانت تنقلها المجلات الواسعة الانتشار إلى غرف المعيشة الأمريكية عن يهود شجعان جسورين نجوا من حل "هتلر" النهائى لكى يصنعوا حياة جديدة على أرض قديمة، وعن العربى "الغرائبى" – الذى جزء منه شيخ وجزء شريك فى المحصول – هذه الصور لابد من أن يكون لها دخل كبير فى تشكيل أسلوب فهم الولايات المتحدة للشرق الأوسط بعد ١٩٤٥ والتعامل معه.

●ديڤيد وجولياث والصراع العربى الإسرائيلى (١٩٤٨-١٩٦٧)

خلال السنوات التسعة عشر ما بين إنشاء دولة إسرائيل فى مايو ١٩٤٨ والانتصار الإسرائيلى الساحق فى حرب الستة أيام فى يونيو ١٩٦٧، كان الشعب الأمريكى وصناع السياسة ينظرون إلى مواجهة الدولة اليهودية الصغيرة لخصومها العرب الأكبر منها باعتبارها تكرارا للقصة التلمودية عن "ديڤيد وجولياث". وكما تقدمها الكثير من وسائل الإعلام الأمريكية باعتبارها كانت لعنة على جيرانها الشرقيين بسبب قيمها الغربية، فإن إسرائيل كانت تعتمد على البراعة والجسارة والأسلحة الغربية بشكل متزايد لإلحاق الهزيمة بشعوب، عقيدتهم الإسلامية وثقافتهم

القبلية تبدو لمجلات مثل "ناشونال چيوجرافيك" بعيدة كل البعد عن حقائق القرن العشرين. عدد المجلة الصادر فى نوفمبر ١٩٤٨ على سبيل المثال يقدم استطلاعا مصورا عن رحلة "بيان"، وهو غليون ذو أشرعة يتتبع طريق تجارة العبيد والتوابل القديم من عدن عند مدخل البحر الأحمر إلى زنزبار عند ساحل أفريقيا الشرقى. الوصف الذى يقدمه طاقم "بيان" يعيد تأكيد الأسطورة الاستشراقية الكلاسيكية عن ابن البلاد الأصلى أو "البدائى السعيد". نقرأ تحت إحدى الصور عبارة "مثل القردة... يتسلق العرب الأشجار بسرعة مذهلة" وتحت صورة أخرى "أجرهم ضئيل، وطعامهم هزيل ومع ذلك تجدهم مبتهجين"(٦٤).

التناقض الحاد بين الإسرائيليين المتغربنين والعرب المتخلفين الذى خرجت به "ناشونال چيوجرافيك" لقرائها يبدو شديد الوضوح فى مقالين فى خريف ١٩٤٧. فى مقال بعنوان "نظرة عالم أركيولوچيا لفلسطين" نجد صورا لهياكل عظمية من العصر البرونزى وآثارا تلمودية تتعاقب مع لقطات لمشروعات الرى الصهيونية "التى تخضر الصحراء"، كما نرى مرتادى الشواطئ فى تل أبيب بثيابهم الحديثة(٦٥). الصور الملونة فى آخر المقال تقدم الأراضى العربية الغربية ناحية الشرق حيث يجلس عدد من "شيوخ قبيلة المجالى البدوية الغنية فى استرخاء على الأكلمة الملونة والوسائد الطرية أمام خيمتهم"، كما هو مكتوب تحتها، وبعد صفحات قليلة تطالعك صورة محارب صحراوى أردنى يلهو ببندقية ومسدس وحزامين عريضين يرصعهما الرصاص والخنجر وهو يحدق فى الكاميرا متوعدا من تحت كوفيته ذات المربعات الصغيرة الحمراء(٦٦).

النظرة الأطول والأعمق لبدائية العالم العربى وتخلفه تشكلت لدى قراء "ناشونال چيوجرافيك" فى أكتوبر ١٩٤٧ مع نشر "اليمن: أرض العجائب الجبلية فى جنوب الجزيرة العربية" وهو تحقيق مصدر أعده "هارلان ب.كلارك – Harlan B.Clark" أحد كبار العاملين وكان مقيما فى محمية عدن البريطانية. فى لقطة من الجو يظهر الإمام يحيى يستعرض قواته وهى "تؤدى رقصة الخنجر" بين الجمال المسرعة والخيول السوداء، وهى مشاهد يشبهها "كلارك" بأخرى من ألف ليلة وليلة،

وفى آخر المقال صورة للرئيس "هارى ترومان" فى حلة ذات صفين يثرثر فى المكتب البيضوى مع الأمير "سيف" الابن الأصغر للإمام "يحيى" الذى وصل إلى البيت الأبيض حاملا المسبحة، مرتديا الطربوش والشال(٦٧).

ما من شك فى أن زيارة "سيف" فى يوليو ١٩٤٧ ساعدت فى إقناع "ترومان" بأن العرب كانوا، بالفعل، شخصيات غرائبية خارجة للتو من صفحات "السذج خارج الوطن". بعد لقائه مع "عبد الله سليمان" وزير مالية "ابن سعود" فى أغسطس ١٩٤٦ ربط ترومان بين ثانى أقوى رجل فى السعودية، "وتلمودى عربى حقيقى آخر بلحية كثة على جانبى الوجه وثوب أبيض وجديلة شعر ذهبية... وكل شيء". عندما طلب "سليمان" مساعدة الولايات المتحدة فى مشروع سعودى للرى، كان رد "ترومان" أنه سيكون عليه أن "يرسل فى طلب موسى ليحفر فى الصخر فى أماكن عدة مع رجاله وسيكون ماء كثير"(٦٨).

كان هناك مسئولون أمريكيون كبار آخرون ينظرون إلى العرب نظرة أقل احتراما، إذ عندما كادت السعودية أن تنجح هى وحلفاؤها العرب فى إثناء الولايات المتحدة عن الاعتراف المبكر بإسرائيل فى ربيع ١٩٤٨ مثلا، كان "كلارك كليفورد – Clark Clifford" مستشار البيت الأبيض يدفع فى اتجاه اتخاذ إجراء حاسم، وكتب فى مارس يقول لـ"ترومان": "يبدو موقف الولايات المتحدة غريبا، وكأنها ترتعد أمام تهديدات قلة من القبائل الصحراوية الرعوية، لماذا نترك دولا مثل روسيا أو يوغوسلافيا وغيرها تعاملنا باحتقار بسبب مهادنتنا للعرب وترددنا أمامهم؟"(٦٩) حتى فى "فوجى بوتوم" حيث كان معروفا عن رجال الخارجية المسئولين عن الشرق الأوسط أنهم أكثر تعاطفا مع العرب عنهم مع اليهود، أصبح كبار المسئولين يعتبرون جيران إسرائيل غير منطقيين وغير واقعيين. هناك مثلا "روبرت ماك كلينتوك – Robert McClintock" المسئول عن مكتب فلسطين، صاحب اللسان اللاذع. الذى كان يزمجر فى "١" يوليو "بالنسبة لمشاعر العرب فأنا لا أقيم وزنا لذلك ولو بمقدار سنام جمل ضامر، المهم جدا من أجل مصالح هذا البلد ألا يضر أولئك المهتاجون والمتعصبون

بمصالحنا الاستراتيجية من خلال الانتقام من استثماراتنا النفطية"(٧٠)، ومثل "ماك كلينتوك" كان "چورچ كينان – George Kennan" المسئول فى الخارجية عن الشئون السوفيتية، وكان قد عين حديثا رئيسا لقسم تخطيط السياسات. كان "كينان" يتساءل عن الحكمة فى دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، ولكنه فى الوقت نفسه لم يكن يخشى العرب الذين تركوا لديه انطباعا باقيا منذ زيارته للعراق أثناء الحرب بأنهم شعب "مجبول على الأنانية والغباء" و"التعصب الدينى الأعمى"(٧١).

قليلون من صناع السياسة الأمريكية هم الذين يجدون سببا للاختلاف مع فهم "كليفورد" أو "كينان" الاستشراقى لسلوك المسلمين إبان فترة إدارة "ترومان" الثانية. وحسب صورة نفسية رسمتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى سنة ١٩٤٩ للشرق الأوسط، لم يكن العرب غير مبدعين وبطيئين فى تحويل الأفكار إلى سلوك و"مهرة فقط فى الهروب من العمل الجاد"، لم يكونوا كذلك فحسب، ولكنهم كانوا أيضا "قادرين على القيام بأعمال مدهشة.. فى الخيانة وعدم الأمانة"(٧٢). "كارلتون كوون – Carleton Coon" من الخارجية الأمريكية، وهو شخص شديد المهارة كان أول عمل له بالخارج فى دمشق فى أوائل الخمسينيات، كان يتذكر بعد ذلك أن السوريين كانت لديهم عقدة نقص سابقة على إنشاء إسرائيل(٧٣)، أما "أدولف بيرل – Adolf Berle" وهو ديمقراطى مطلع خدم فى مطبخ حكومة "ترومان"، فألح على نحو غير علنى فى صيف ١٩٥٢ إلى أن تلك الصورة الموثقة جيدا لعدم الاتزان كانت ممتدة إلى المسلمين من غير العرب مثل الإيرانيين، كما سجل فى يومياته فى ١٣ أغسطس: "يبدو أن "القومية المحمدية" سوف تطيح شاه إيران، فاتحة الباب أمام "استيلاء شيوعى على السلطة" فى طهران، واستنتج بأسى أنه كان هناك خطرا حقيقيا بأن "يصبح الروس على الخليج الفارسى قبل عيد الميلاد"(٧٤).

وباختصار، عندما كانت فترة إدارة "ترومان" تقترب من نهايتها، كان المسئولون من القاعدة إلى القمة فى هرم صنع السياسة الأمريكية مقتنعين بأنه لا يمكن التنبوء بسلوك شعوب العالم الإسلامى وبأن ولعهم وميلهم إلى التطرف الدينى والسياسى تمثل خطرا بالغا على مصالح الولايات المتحدة فى المنطقة. الحقيقة

أن معظم صناع السياسة الأمريكية كانوا أكثر ميلا إلى تأييد التقييم الاستشراقي الذى قدمه سفير بريطانيا فى العراق إلى حكومة بلاده فى ١٩٥٢، ففى برقيته إلى "وايت هول" كتب السير "چون تراوتبيك – John Troutbeck" فى ٣١ أكتوبر يقول: "العراقى، مثل معظم العرب، موغر الصدر ومحبط ومتعصب، وحيث إنه لا يرى حوله سوى البؤس والفساد والركود فإنه لن يعترف حتى لنفسه بالحقيقة الواضحة وهى أنه ينتمى إلى جنس عاجز، لا يقدر المسئولية"(٧٥).

الرجل الذى حل محل "هارى ترومان" فى المكتب البيضوى فى يناير ١٩٥٣، كان مستريحا بالمثل لتلك الصور النمطية الاستشراقية عن الشرق الأوسط. رؤية "دوايت ايزنهاور – Dwight Eisenhower" للعالم الإسلامى كانت متأثرة بتجاربه فى شمال أفريقيا، حيث كان قد حاول قبل عقد – وفشل – أن يجسر الهوة بين المستعمرين الفرنسيين والوطنيين الجزائريين. فى نوفمبر ١٩٤٢ كان يرى العرب "كما متقلبا، سريع الانفعال، يملؤهم التعصب وغير جديرين بالثقة"، كما أن "كثيرا مما يحدث هنا وقد يبدو غريبا وشاذا هو لمجرد منع العرب من الانفجار بثورة"(٧٦). لم تفلح المواجهة المباشرة بين إيزنهاور والعرب فى الخمسينيات فى التخفيف من حدة تقييمه الباكر. كان يشكو فى مذكراته أنه بالرغم من "برنامج بريطانيا الجديد لاستقلال الدول التى كانت جزءا من الإمبراطورية" فإن الرئيس المصرى "جمال عبد الناصر" أطلق العنان لحملة شعواء من "القومية العدائية غير العقلانية" التى يبدو فيها "ما يدل على التدخل الشيوعى"(٧٧).

وَضْع "عبد الناصر" يده على قناة السويس فى صيف ١٩٥٦ قوى من اعتقاد "إيزنهاور" بأن العرب لا عقلانيين ويشكلون خطرا على المصالح الغربية، وفى ٣١ يوليو قال "آيك – Ike" إن "عبد الناصر يجسد المطالب العاطفية لشعوب المنطقة من أجل الاستقلال و"توجيه لطمة للرجل الأبيض ترديه أرضا"(٧٨). وعندما أرسل إيزنهاور قوات المارينز إلى لبنان بعد ذلك بشهرين لإنقاذ نظام موال للأمريكيين كان يحاصره منشقون موالون لـ"عبد الناصر"، نجده يذكر مجلس الأمن القومى بأن "التفكير العربى الأساسى" متجذر فى "العنف والانفعال والجهل"(٧٩).

وعند اقتراب فترة إدارته من نهايتها، كان "آيك" يشكو من أن "عبد الناصر" وأمثاله من القوميين ليسوا أكثر من طغاة شرقيين و"لو قدر لك أن تذهب لتعيش مع أولئك العرب فسوف تجد أنهم لا يمكن أن يفهموا أفكارنا عن الحرية أو الكرامة الإنسانية"، كما قال أمام مجلس الأمن القومي في يونيو ١٩٥٩. "لقد عاشوا ردحا طويلا من الزمان في ظل دكتاتوريات مختلفة، فكيف لنا أن نتوقع أنهم سوف يريدون حكما حرا بنجاح؟"(٨٠).

مشاعر وتصريحات كبار مستشاري "إيزنهاور" كانت رجع صدى إحباطات إيزنهاور المتزايدة عن العرب، فبعد فترة قصيرة من تسلمه العمل في "فوجي بوتوم" مثلا قام "چون فوستر دالاس - John Foster Dulles" برحلة تقصى حقائق إلى الشرق الأوسط أكدت مخاوفه المشيخية من المسلمين "الكفار" المعادين للنصرانية. وبعد زيارة للقاهرة وغيرها من العواصم العربية في مايو ١٩٥٣، أعلن وزير خارجية "إيزنهاور" رأيه في "عبد الناصر" وأمثاله من القوميين العرب بأنهم "مرضى" في ارتيابهم وتشككهم في القوى الغربية وآرائهم "مغفلين" في ثقتهم بالكرملين(٨١)، كما لم يكن غريبا ولا مفاجئا أن يصف "دالاس" أثناء محادثاته السرية مع المسئولين البريطانيين في يوليو، رئيس الوزراء الإيراني المعادي للغرب "محمد مصدق" بأنه "مراوغ شرقي"(٨٢) عندما هزت أعمال العنف المعادي للغرب كلا من بغداد وبيروت وعمان بعد ذلك بخمس سنوات، قام "روبرت ميرفي - Robert Murphy" أحد خبراء البيت الأبيض بجولة "بساط سحري في ذلك الشرق الأوسط الأسطوري استغرقت ٢٩ يومًا "بتوجيه من "إيزنهاور" الذي كان يعمل معه من أجل كبح ضجر أبناء شمال أفريقيا المسلمين أثناء الحرب العالمية الثانية. وبعد زيارة مناطق واسعة بائسة من العراق، حيث كان عنف الدهماء الذي يفوق كل تصور قد هدأ قليلا، أبلغ "ميرفي" رئيسه في أغسطس ١٩٥٨ بأنه لم يطرأ سوى تغير قليل منذ أوائل الأربعينيات(٨٣).

الدبلوماسيون الذين عملوا في الشرق الأوسط ساعدوا في تقوية آراء "إيزنهاور" و"دالاس" و"ميرفي" الاستشراقية. عندما وجد السفير "هنري ڤيلارد - Henry Villard" نفسه غارقا في مستنقع تفاوض لا قرار له حول قاعدة جوية أمريكية

فى يونيو ١٩٤٥ أبرق إلى واشنطن بما يفيد أن أساليب الليبيين كانت تصل إلى حد الابتزاز ولا تختلف كثيرا عن أساليب القرصنة البربرية"[٨٤]. بعد ذلك بعامين كان "هنرى بايرود – Henry Byroade" سفير الولايات المتحدة فى مصر يؤكد أن "عبد الناصر" والذين معه شخصيات متقلبة ودونكيشوتيون لا يمكن التنبؤ بسلوكهم، كما نبه "دالاس" فى ١٤ مارس ١٩٥٦ إلى أن "العرب قادرون على أن يجتمعوا على شيء ما فى كل ما يتعلق بإسرائيل" لأنهم بطبيعتهم ميالون إلى محاربة طواحين الهواء"[٨٥]. بعد ذلك بأربع سنوات كانت هناك دراسة للبيت الأبيض تؤكد أهمية "العوامل النفسية" فى علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، وأن على المسئولين الأمريكيين – كما أشار الذين صاغوا قرار مجلس الأمن القومى رقم ٦٠١١ – أن يفهموا أن "تجربة العرب وخوفهم من السيطرة الغربية" قد ولدت العداء والشك اللذين قد تعمقا بدورهما "مع اعتقادهم أن الولايات المتحدة هى الصديق الخاص لإسرائيل وأنها هى التى تحميها"[٨٦].

وعند تقاعد "إيزنهاور" فى مزرعته فى ضاحية جتسبرج – پنسلڤانيا، فى يناير ١٩٦١، كان العرب قد أصبحوا يدركون أن إسرائيل لم تكسب فقط مكانة خاصة فى قلوب الأمريكيين العاديين الذين توحدوا مع وضعية دولة جديدة كانت ضحية للاضطهاد، وإنما قد انتزعت الاحترام كذلك من صناع السياسة الأمريكية الذين أدهشتهم كفاءتها العسكرية[٨٧]. ومثلما كان الأمر فى منتصف الأربعينيات، كان كذلك أثناء فترة إدارة "إيزنهاور"، فكثير من الأمريكيين كانوا يعتبرون تعاطفهم مع إقامة وطن قومى لليهود فى الشرق الأوسط شكلا من أشكال التكفير الرمزى عن أنهم لم يفعلوا سوى القليل... والمتأخر جدا... لمنع الهولوكوست فى أوروبا. ولعل أكثر ما كان يذكر الولايات المتحدة فى الخمسينيات بمذبحة الإبادة الجماعية التى نفذها "هتلر" هو تلك الصورة (بالأبيض والأسود) لتلميذة يهودية منشورة على غلاف قصتها عن الحياة والموت فى هولندا تحت الاحتلال النازى، التى صدرت بعد موتها. بعد نشرها لأول مرة فى ١٩٥٢، سرعان ما أصبحت "آن فرانك: يوميات فتاة صغيرة" من أكثر الكتب مبيعا، وبنهاية العقد كانت "طلة" آن فرانك المؤرقة أكثر رسوخا فى الثقافة

الشعبية الأمريكية. كانت البداية عند تحويلها إلى مسرحية حصلت على جائزة "بوليتزر" واجتذبت جمهورا واسعا عند عرضها فى "برودواى" فى ١٩٥٦، ثم عند تحويلها إلى عمل سينمائى كبير فى هوليوود، حصل على جائزتى أوسكار بعد ثلاث سنوات(٨٨).

كان الربط بين الأعمال الأدبية والسينمائية وكابوس الهولوكوست يبدو أكثر وضوحا للقراء وجمهور السينما فى أمريكا "إيزنهاور"، وعلى نحو خاص فى أعمال الروائى وكاتب السيناريو "ليون أورس – **Leon Uris**". عدد قليل من الأعمال الروائية حقق مبيعات تصل إلى أربعة ملايين نسخة فى وقت قصير، ولكن أكثر الأعمال انتشارا وترحيبا نقديا كان "الخروج"، وهو قصة روائية عن إدخال الطعام والسلاح واللاجئين اليهود إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية. كان الكتاب الذى نشر فى ١٩٥٨ يحكى قصة الناجين من معسكرات الاعتقال النازية، ويهاجم البريطانيين الاستعماريين وبيروقراطيتهم، والديماجوجيين العرب شديدى القسوة وذلك على خلفية رسالة تعلن الانتصار النهائى للخير على الشر، ولم يمض وقت طويل حتى قدمت هوليوود عملية إنشاء دولة إسرائيل الأشبه بالعمل البطولى، ففى ديسمبر ١٩٦٠ أنتجت "يونيتد أرتستس" فيلم "الخروج" فى شريط مدته أربع ساعات بطولة نجم الشاشة الشاب "بول نيومان – **Paul Newman**" فى دور اليهودى المقاتل الذى لا يقهر من أجل الحرية. ظهرالفيلم بعد سبعة أشهر من عملية أغرب من الخيال، حظيت بحملة دعائية واسعة، عندما قامت المخابرات الإسرائيلية باختطاف "أدولف إيخمان – **Adolf Eichman**"، أحد مهندسى الحل النهائى من شوارع بيونس أيرس ونقلته إلى القدس لتتم محاكمته كمجرم حرب نازى، فكان تذكرة للجماهير الأمريكية أنه بإنشاء دولة يهودية فى الأرض المقدسة فإن "آن فرانك" لم تمت عبثا(٨٩).

بعد ثمانية عشر شهرا من إبهار "بول نيومان" أصدقاء إسرائيل بنظراته الجسورة فى فيلم "الخروج" كان "بيتر أوتول – **Peter O'toole**" يخرج مثل العاصفة من قلب الجزيرة العربية بثوبه الأبيض ليظهر على شاشات العرض من الساحل إلى

الساحل فى دور "ت. إى. لورانس". من إخراج البريطانى "ديڤيد لين – David Lean"، تم تصوير الفيلم فى الصحراء بالقرب من "سيڤيل – Seville" حيث كان الإسپان قد تمكنوا من طرد المسلمين نهائيا من أوروبا فى ١٤٩٢. كان فيلم Lawrence of Arabia يستعيد القصة والمغامرة والاستشراق فى مهمة بريطانيا بين العرب أثناء الحرب العالمية الأولى. وبالرغم من مهارة وشجاعة المقاتلين البدو فى الفيلم، فإن ملايين المشاهدين كانوا يعودون إلى منازلهم مقتنعين بأنه لولا مساعدة "لورانس" لما استطاع العرب أن يتخلصوا من نير الحكم العثمانى. على خلاف الصهاينة فى فيلم "الخروج" الذين كان إجماعهم على الهدف وإخلاصهم له ضمانا لإقامة دولة يهودية قوية مستقلة، نجد العرب فى فيلم "لورانس والعرب" يرون أحلامهم بتقرير المصير يحبطها ولعهم المدمر بالصراع القبلى والمكائد السياسية. كانت الرسالة الاستشراقية واستخدام الكاميرا المبهر والممثلون الموهوبون هى أسباب حصول "لورانس والعرب" على ستة جوائز أوسكار، بما فيها جائزة أفضل ممثل وأفضل مخرج وأفضل مصور.

صور الإسرائيليين النبلاء يحيط بهم عرب جامحون التى قدمتها هوليوود، كانت تدعمها مجلات شهرية واسعة الانتشار مثل "ناشونال چيوجرافيك" التى زاد توزيعها فى أوائل الستينيات. عدد ديسمبر ١٩٦٣، على سبيل المثال، كان ضمن مادته مقال مصور بعنوان "الأرض المقدسة اليوم" يصف الإسرائيليين الأوائل "المال فى يد والتوراة فى اليد الأخرى" يقومون على نحو منهجى "بعكس المسار العادى للتاريخ" عن طريق تحويل الأطلال والخرائب القديمة إلى مجتمعات سكنية"[٩٠]؛ وعلى سبيل المقارنة نجد فى عدد مارس من المجلة نفسها استطلاعا عن اليمن يبدأ هكذا: "بعد أن دمرتها الحرب الأهلية، أرض عربية قديمة تكافح لكى تجد مكانا لها فى عالم القرن العشرين". مجرد نظرة سريعة على قبائل الجبليين ذوى العيون الوحشية وهم يلوحون بالخناجر والمدافع الرشاشة، أو على جموع المصلين الملتحين "الذين يتدفقون من عاصمة ألف ليلة وليلة اليمنية" لابد من أن تكون قد أقنعت كثيرا من القراء الأمريكيين بأن اليمنيين لا يمكن أن يفوزوا فى هذا الكفاح دون عودة ثانية إلى ت. إى. لورانس[٩١]، أما القراء الذين يقلبون صفحات تحقيق مصور عن إسرائيل فى عدد

مارس ١٩٦٥ فإنهم" يكتشفون "أرض الميعاد حيث الطرق الواسعة الجديدة عامرة بحركة السيارات والحقول الخضراء تلمع وسط الصحراء القديمة القاحلة"(٩٢).

ومثل محررى "ناشونال چيوجرافيك" فإن المطلعين على الأمور الذين كانوا ينصحون "چون ف كينيدى" و"ليندون ب. چونسون" حول الشرق الأوسط، فيبدو أنهم، على نحو لا شعورى، كانوا يؤمنون بتراتبية عرقية وثقافية يضعون فيها العرب فى مرتبة أقل من الإسرائيليين، إذ نجد تقرير تقدير موقف للمخابرات المركزية الأمريكية عن علاقة الولايات المتحدة بعبد الناصر يتوقع أن يقوى ذلك النوع من القومية الذى يؤمن به الرئيس المصرى، لأنه يجد فى اتهام القوى الكبرى بالشر "عذرا يغطى به قدرا كبيرا من أوجه النقص وعدم الكفاءة فى المجتمع العربى"(٩٣). لم يكن مستبعدا أن يلجأ "عبد الناصر" إلى "تكتيك شرقى فى المساومة"، كما كان يشكو "روبرت كومر - **Robert Komer**" خبير الشرق الأوسط بالبيت الأبيض لكينيدى فى نوفمبر ١٩٦٢، كلما كان فى حاجة إلى أن ينتزع نفسه من مأزق أو ورطة عسكرية أو دبلوماسية(٩٤)، وكان من المهم أيضا كما كان "كومر" يقول بعد عام "أن يوضع فى الاعتبار بشكل كاف مستوى الجندى العربى الضعيف مقارنة بمستوى الجندى الإسرائيلى"(٩٥). ولعل أهم الأفكار الاستشراقية التى تم الإفصاح عنها تلك التى جاءت على لسان الدبلوماسيين الأمريكيين الذين كانوا يخدمون فى الخارج مثل "هارولد جليدن - **Harold Glidden**" الذى عمل فى العراق. "لو قدر للعرب أن يستولوا على العالم فسوف يبدأون من فورهم فى تمزيقه إربا"، هكذا كان "جليدن" يقول لأحد الصحفيين بعد انقلاب عسكرى دموى هز بغداد فى أوائل ١٩٦٣، "لأن القيم العربية عن الثأر والكرامة وهوس الضغينة لم تتأقلم مع المجتمع المدنى"(٩٦).

ثقيل الحركة الذى جاء من تكساس لكى يخلف "كينيدى" فى المكتب البيضوى فى ذلك العام ما كان ليختلف مع هذا التقويم الخشن. الرئيس "ليندون چونسون" وهو صديق متحمس للدولة اليهودية وعدو صريح للقومية العربية الراديكالية منذ أن كان زعيما للأغلبية فى مجلس الشيوخ فى أواخر الخمسينيات، كان يعتبر الشرق الأوسط

ركنا غرائبيا ومتخلفا من العالم، خارجا من بين صفحات ألف ليلة وليلة وفي حاجة ماسة إلى الغربنة. في عشاء في البيت الأبيض في أبريل ١٩٦٤ مثلا، رفع "جونسون" نخب الملك حسين "الذى نقل تلك البلاد القديمة.. بلاد الجمال والتمر والنخيل ليضعها على عتبة المستقبل المشرق المليء بالأمل"[٩٧]؛ من ناحية أخرى فإن "ليندون جونسون" لم يكن ليثق في – أو يحب – القيادات الثورية العربية مثل "عبد الناصر" الذى كان يبدو بالنسبة له هجينا من "هوشي منه – Ho Chi Minh" و"جيرونيمو – Geronimo". مشاعر "جونسون" أصبحت أكثر وضوحا عندما قام الطلبة المصريون بمظاهرة مناهضة للولايات المتحدة وأحرقوا مكتبة وكالة المعلومات الأمريكية (USIA) في القاهرة في ١٩٦٤، بعد ذلك بوقت قصير كان "جونسون" يقول أمام مجموعة من أعضاء الكونجرس "أحد وسائل الرد هو أن نقول لـ"عبد الناصر": فلتذهب إلى الجحيم!"[٩٨].

حسب رواية "محمد حسنين هيكل" الصحفي المصرى البارز وأحد المستشارين المقربين من عبد الناصر، فإن الشعور كان متبادلا، فبعد أن هدد "جونسون" بتعليق المعونة الاقتصادية الأمريكية لمصر انتقاما لإحراق المكتبة رد "عبد الناصر" ردا موجعا: "اللى موش عاجبه يشرب م البحر" وذلك في ٢٣ ديسمبر، "سوف نقطع لسان كل من يتكلم عنا بهذا الأسلوب السيء"(*)، ولكى يفهم "جونسون" المقصود أضاف "عبد الناصر" "لن يقبل أعمال العصابات التى يقوم بها الكاوبوى"[٩٩] هذا الجيشان ساعد على أن يضع مواجهة أمريكا مع العرب في إطار يمكن أن يقبله أى مواطن من تكساس معتد بنفسه: "رعاة بقر وهنود". وبينما لا تلقى مذكرات "جونسون" ولا أوراقه الخاصة الضوء على ما إذا كان قد وضع المشكلة بوضوح على أنها الحضارة الغربية في مواجهة البربرية الشرقية، كانت منظمة التحرير الفلسطينية الوليدة تذكره بـ"الفيت كونج – Viet Cong"[١٠٠]. عندما أشعلت غارات المنظمة على القرى الإسرائيلية بامتداد الجبهة السورية فتيل حرب الأيام الستة في ربيع ١٩٦٧ حددت إدارة جونسون من كان يرتدى القبعات البيضاء ومن يرتدى السوداء؛ ولعل "جون روش –

(*) للمزيد انظر الملحق رقم ٨ في آخر الكتاب.

John Roche"، أحد المعاونين فى البيت الأبيض، هو خير من عبر عن ذلك فى أواخر مايو قائلا: أعترف بأننى أنظر إلى الإسرائيليين باعتبارهم من تكساس و"عبد الناصر" من سانتا آنا"(١٠١).

انتصار إسرائيل المذهل على القوات المصرية والأردنية والسورية مجتمعة فى يونيو ١٩٦٧، كان يبدو مؤكدا رأيا قدمه المستشرقون البريطانيون عن الشرق الأوسط قبل قرن من الزمان. قد يعيد "عبد الناصر" ذكرى "صلاح الدين الأيوبى" ويلجأ إلى "سيكولوچية "الحرب المقدسة" فى العالم العربى". هكذا كان يتنبأ "دين راسك – Dean Rusk" وزير الخارجية بينما كانت عقارب الساعة تقترب من ساعة الصفر فى أوائل يونيو، ولكن فى مواجهة قوة نيران غربية متفوقة كان لابد من أن يفر المصريون(١٠٢).

استيلاء إسرائيل السريع على سيناء والضفة الغربية ومرتفعات الجولان بمباركة "ليندون چونسون" أثار موجة غضب ومعاداة لأمريكا من القاهرة إلى الكويت، ربط "چون بادو – John Badeau" سفير "كينيدى" إلى القاهرة بينها وبين انتفاضة الـ"Boxer" فى الصين قبل سبعة عقود(١٠٣).

اتضحت تماما متضمنات حرب الأيام الستة بالنسبة لصناع السياسة فى الولايات المتحدة بعد عدة سنوات، فى دراسة للمخابرات المركزية الأمريكية عن الصراع العربى الإسرائيلى، حيث استنتج خبراؤها فى أواخر ١٩٧٣ أن "حرب ١٩٦٧ كانت تستحضر مرارا بواسطة المحللين كدليل على أن كثيرين من العرب، باعتبارهم كذلك، لم يكونوا على مستوى متطلبات الحرب الحديثة وأنهم كان ينقصهم الفهم والدافعية، وربما الشجاعة، فى بعض الأحيان"(١٠٤).

دروس حرب الأيام الستة بالنسبة للولايات المتحدة نمت من الثقافة الشعبية أكثر منها من السياسة الخارجية وربما تكون قد سارت فى اتجاه "ديڤيد وجولياث" مضافا إليها الهولوكوست. كانت استطلاعات الرأى التى أجريت بعد توقف القتال تشير إلى أن أعداد الأمريكيين المتعاطفين مع إسرائيل تفوق أعداد المتعاطفين مع العرب بنسبة ١٩:١(١٠٥). لأن معظم الأمريكيين كانوا ميالين للوقوف إلى جانب

المظلوم، كان يبدو أنهم يعتبرون انتصار إسرائيل الحاسم جاء تحقيقا لنبوءة تلمودية. أحد الأعمال الأدبية الأكثر مبيعا كان كتاب "چيمس ميشنر - James Michener" بعنوان "المنبع" (The Source) وهو عمل ملحمى يروى قصة ألفى عام من الاغتراب اليهودى والعذاب والافتداء الأخير الذى يرمز إليه قيام دولة إسرائيل. رافضا فكرة أن بلاده لابد من أن تظل "مقاطعة صغيرة محاطة ببلاد أجنبية تخلب لب العالم لأن مقاتليها يدافعون عن أنفسهم ضد حلقة الحصار العربية"، يصر البطل الإسرائيلى فى ملحمة "ميشنر" على أن الدولة اليهودية استطاعت أن تكون "منارة للضوء النقى الساطع، تنير المنطقة كلها وتكون تحالفا مع عالم عربى مزدهر"(١٠٦). القراء الذين يتصفحون التحقيق المصور الذى نشرته "ناشونال چيوجرافيك" على خمس عشرة صفحة بعد ستة أشهر يتذكرون كيف كان ذلك الضوء قريبا من الانطفاء "أنا العضو الوحيد فى عائلتى الذى نجا من بوخنوالد"، هكذا كان التعليق بجوار لقطة لمقاتل إسرائيلى من الذين شاركوا فى هزيمة ثلاثة جيوش عربية، "هذه المرة معى مدفع أحارب به... ووطن وقضية أعمل فى خدمتهما"(١٠٧).

باختصار، فإن الانتصار العسكرى الإسرائيلى فى ١٩٦٧ أكمل بالنسبة للأمريكيين تحويل اليهود من ضحايا إلى منتصرين، بينما دمغ العرب بالعجز والإهمال والضعف؛ وبالنسبة لجيل كان يعتبر "التسوية" كلمة قذرة، أغلقت حرب الأيام الستة كتاب "آن فرانك" وحققت حلم "الخروج". الدبابات المحترقة المبعثرة فى صحراء سيناء المصرية ومرتفعات الجولان السورية والجماهير الغاضبة التى أحرقت دمى وتماثيل "العم سام" من خليج سدرا إلى شواطئ الفرات، كانت تؤكد لأمريكا أن العرب لم يكونوا يعانون عقدة الشعور بالنقص وإنما كانوا بالفعل ناقصين وأقل شأنا. عندما تقاعد "ليندون چونسون" مبكرا على أثر أحداث ڤيتنام فى مزرعته فى يناير ١٩٦٩ كان انتصار الكاوبوى فى الشرق الأوسط هو الشىء الوحيد الذى يخفف من خيبة أمله بسبب انتصار الهنود فى جنوب شرق آسيا.

• أكاذيب حقيقية؟:
من سبتمبر الأسود إلى عاصفة الصحراء.

ربما تكون الصورة الأكثر سوادا ورهبة والخارجة من الشرق الأوسط قبل الحادى عشر من سبتمبر بالنسبة لكثير من الأمريكيين، هى تلك التى كانت فى سبتمبر ١٩٧٢. عندما كان "ريتشارد نيكسون" يتقدم نحو الفوز فى سعيه لفترة إدارة ثانية، تمكنت مجموعة صغيرة من الفدائيين الفلسطينيين من دخول مقر البعثة الأوليبية الإسرائيلية فى "ميونخ"، تلك المدينة التى كانت قبل أربع وثلاثين سنة مرادفا للشمولية والتسوية؛ وبينما كان العالم كله يشاهد ما يحدث وهو فى حالة رعب، قتل سبعة إرهابيين من "أيلول الأسود" أحد عشر رياضيا إسرئيليا عزل فى تبادل للنيران مع الشرطة الألمانية فى المطار. على مدى العشرين سنة التالية ستكون كل التوجهات الشعبية والسياسية الخارجية الأمريكية بخصوص الشرق الأوسط مشغولة بمقاومة الإرهابيين الفلسطينيين ومن يدعمونهم مثل الدكتاتور العراقى "صدام حسين".

مثل معظم الأمريكيين، روعت "نيكسون" أخبار ميونخ الفاجعة، وبعد مشاهدة المأساة الأولبية على الهواء عبر الأقمار الصناعية شجب بشدة منظمة "أيلول الأسود" باعتبارها "مجموعة من الخارجين على القانون لن يتورعوا عن فعل أى شيء لتحقيق أهدافهم"، ودعا لمساعدة الإسرائيليين للقضاء على الإرهابيين الفلسطينيين الذين لا حدود لوحشيتهم"[١٠٨]. والحقيقة أنه رغم لومه اليهود أحيانا بلغة كانت تبدو صادمة لبعض المنتقدين مثل مستشار الأمن القومى "هنرى كيسنجر – Henry Kissinger" لأنهم كانوا ينتقدون أداء إدارته، كان "نيكسون" صديقا قويا للدولة اليهودية، وهذا "كيسنجر" يقول فى مذكراته "فى كل أزمة كان "نيكسون" يقف بكل حزم بجانب إسرائيل، أكثر من أى رئيس أمريكى آخر باستثناء "هارى ترومان"، "كان يحترم شجاعة إسرائيل، كما يحترم دفاع قادتها العنيد عن مصالحهم الوطنية [......]، ويعتبر براعتهم العسكرية ذخرا للأنظمة الديمقراطية"؛ ومتحدثا بالأصالة عن نفسه، كان "كيسنجر" يعترف بأن إسرائيل كانت أيضا قضية شخصية، إذ يكتب بأسى "لا يمكن أن أنسى أن ثلاثة عشر شخصا من عائلتى ماتوا فى معسكرات الاعتقال"، و"لم

يكن لدى القدرة على التشجيع على هولوكست آخر عن طريق سياسات حسنة النية يمكن أن تخرج عن السيطرة"(١٠٩).

كان ذلك يعنى بالنسبة لكيسنجر ونيكسون العمل بهدوء ومن وراء ستار لرعاية هدنة عربية إسرائيلية مع معتدلين مثل الرئيس المصرى "أنور السادات"، وفى الوقت نفسه عزل متطرفين مثل عصابة "أيلول الأسود"؛ وبالرغم من دوره كعقل مدبر للهجوم المصرى السورى على إسرائيل فى أكتوبر ١٩٧٣، فإن "السادات" بنهاية العقد كان فى نظر معظم الأمريكيين وكثير من الإسرائيليين مثالا للعربى الطيب، وأثناء مفاوضات فك الارتباط المصرية الإسرائيلية التى امتدت على مدى ثلاث إدارات أمريكية فاجأ "السادات" صناع السياسة الأمريكية كداهية پراجماتى، على استعداد للقيام بمخاطرات جسورة من أجل السلام، كما امتدح "نيكسون" "مهارة "السادات" العظيمة وحنكته" ووصفه بأنه "شخصية ذات تأثير بناء وضرورى لأى مفاوضات مستقبلية بخصوص الشرق الأوسط"(١١٠). "چيرالد فورد - **Gerald Ford**"، الذى رفع نخب "السادات"، ذات غفلة، باعتباره "قائد الشعب العظيم لحكومة إسرائيل"، كان معجبا بروح الدعابة التى يتحلى بها الرئيس المصرى وبأسلوبه المباشر الصريح ومرونته السياسية"(١١١). "چيمى كارتر - **Jimmy Carter**" الذى لولا مساعدة "السادات" لما بدأ عملية السلام فى كامپ ديڤيد فى سبتمبر ١٩٧٨، كان كذلك معجبا بصديقه المصرى "أكثر من أى زعيم آخر" ووصفه بأنه "رجل يمكن أن يغير التاريخ"(١١٢).

"كارتر" و"فورد" و"نيكسون" ومعظم الأمريكيين كانت صدمتهم كبيرة وحزنهم شديدا عندما اغتيل "السادات" فى السادس من أكتوبر ١٩٨١ فى القاهرة بأيدى مسلحين مصريين، أو "العرب الأشرار" المرتبطين بالجماعة الإسلامية المبهمة. جنازة "السادات" بعد ثلاثة أيام هيجت ذكريات مثيرة عن موت "ڤالنتينو" قبل أربعة وخمسين عاما لدى "باربرا وولترز - **Brbara Walters**" التى ظهرت على الشاشة بعيون حزينة وهى تقوم بتأبين صديقها "أنور" - بشكل غير رسمى - وتنقل ذلك إلى ملايين غرف

المعيشة الأمريكية. فريق "ناشونال جيوجرافيك" الذين شهدوا اغتيال "السادات" ولم ينسوا "الجمال الاستثنائى لوجهه الأسمر بملامحه المنحوتة مثل وجه فرعون" عندما نهض فى مواجهة القتلة، ولم يغفروا فعلة البدو الذين كانوا يحتفلون بما قامت به الجماعة الإسلامية الشريرة[١١٣]. كان تعليق "جيمى كارتر" عندما سمع الأخبار السيئة: "كان السادات رجلا عظيما، أعداؤه الألداء المتطرفون المعادون للغرب كانت تملؤهم الكراهية والحقد على أهدافه السلمية"[١١٤]، وبعد أربع سنوات أضاف "كارتر" أن السادات باعتباره آخر الفراعنة المصريين "مات على يد متعصبين دينيين ضالين"[١١٥].

رغم أن قلة من الأمريكيين كانوا يعرفون أن كلمة Assassin[*] هى فى الأصل كلمة عربية، فإن الكثيرين كانوا يعتقدون أن الأعمال الإرهابية الوحشية فى شوارع القاهرة والإغارة الدموية التى قامت بها منظمة أيلول الأسود فى "ميونخ" قبل تسع سنوات كانت كلها أعمالا متسقة مع طبيعة الشخصية العربية. قبل المجزرة الأولمبية بسبعة أشهر، كان أحد خبراء الشرق الأوسط المتقاعدين فى الخارجية الأمريكية قد نشر دراسة نفسية قصيرة تحذر من أن عمليات الإذلال المتكررة التى تقوم بها إسرائيل قد تطلق "رغبة جمعية فى الانتقام" لها جذورها فى الثقافة العربية، ففى فبراير ١٩٧٢ كتب "هارولد جليدن – Harold Glidden": "ليس من السهل وصف عمق الرغبة العاطفية فى الثأر المتأصلة فى نفوس العرب ولكن يكفى القول إن الإسلام نفسه يجيزها، كما أنها قوية اليوم مثلما كانت قبل الإسلام"[١١٦].

وابل من الانتقادات والشتائم الاستشراقية كان ينهمر بلا توقف، فهذا "رافائيل باتاى – Raphael Patai" عالم الأنثروبولوجيا الذى تعلم فى إسرائيل وكان يقوم بالتدريس عن الشرق الأوسط فى پرنستون وكولومبيا وغيرهما من الجامعات الأمريكية يقدم لقرائه رؤية كئيبة عن التخلف والاضمحلال.. بل الجمود والتحجر

(*) الحشاش (واحد الحشاشين) والكلمة تستخدم بمعنى القاتل المستأجر أو القاتل بدافع من تعصب.

الثقافى "للعالم العربى فى ١٩٧٣، ويشرح كيف أن العلاقة المضطربة مع الغرب كانت نتيجة لكل شىء بدءا من فترة الرضاعة الطويلة إلى عدم تعلم كيفية استخدام دورات المياه، وكلها أمور أدت إلى عقدة نقص مؤرقة فى العقل العربى وهو ما جعل التخلص من هذا الركود صعبا"(١١٧)؛ وبعد عامين كان المستشرق البريطانى "چون لافين – John Laffin" يقول للأمريكيين إن "العنف موجود فى الحياة العربية على كل المستويات"، وذلك أساسا بسبب "الفقر والإحباط الجنسى والاقتصادى والسياسى" مضيفا أن "التاريخ قد أدار ظهره للعرب" منذ القدم وتركهم يتبعون القوى الغربية، ويخلص إلى أن "الصدمة الناجمة عن ذلك كانت سببا رئيسيا للمرض النفسى الشديد الذى حل كالوباء على الجنس العربى"(١١٨). "وليم براون – William Brown" وهو دبلوماسى أمريكى عمل فى القاهرة وبيروت فى الستينيات أكد تشخيص كل من "پاتاى" و"لافين" الاستشراقى فى ١٩٨٠ فى عمله "الحملة الأخيرة"، فالقومية العربية فى رأيه كانت "خارج سيطرة أى جهاز فى أى دولة" وتحمل "خاصية تفاعلية نابعة من تجربة العرب مع الغرب" كما أن "المنظور النسبى المتسامح مستحيل فى العالم العربى بسبب الإيمان المطلق"(١١٩).

نقاد مثل إدوارد سعيد هرعوا للرد على هذه الافتراضات الاستشراقية. كان سعيد، منذ ١٩٧٨، يرى بإصرار أن مثل هذه الصور النمطية المرضية عن العرب ليست أكثر من تبريرات ذاتية لخدمة الإمپريالية الثقافية والاقتصادية، كما أشار بكل وضوح ومباشرة إلى أن "خطر الجهاد يتوارى خلف كل هذه الصور الذهنية" و"بالتالى خوف من أن يستولى المسلمون (أو العرب) على العالم" الأثر النهائى لهذا الخوف هو الجهل كما يستنتج "سعيد" فى الفصل الأخير من كتابه "الاستشراق"، الجهل الذى يبدو مقدرا لإبقاء المنطقة وشعوبها عاجزة مفهوميا ومختزلة فى "توجهات" و"مواقف" و"إحصائيات" وباختصار "مجردة من الإنسانية"(١٢٠). على امتداد الثمانينيات وفى أوائل التسعينيات وسع "إدوارد سعيد" نقده مؤكدا أن اعتياد أمريكا النظر إلى العرب باعتبارهم "آخر" بالأساس وبشكل فطرى، إنما هى رؤية تعكس نغمة عصرية واضحة بتقديمها العربى كشخصية معادية للديمقراطية وعنيفة ورجعية، وهذا، كما يشير

"سعيد" فى "الثقافة والإمبريالية (١٩٩٣)" أسهم فى نشأة القطبية بين إسرائيل الديمقراطية والعالم العربى اللاديمقراطى بطبيعته الذى أصبح فيه الفلسطينيون الذين طردتهم وشردتهم إسرائيل يمثلون "الإرهاب" وما هو أكثر منه[١٢١].

على الرغم من نقد "إدوارد سعيد" الحاد، كان جمهور القراء معرضا لوجبة مستمرة من الاستشراق على النموذج الأمريكى أثناء إدارة كل من "ريجان" و"چورچ بوش". فى طبعة منقحة من "العقل العربى" ظهرت فى ١٩٨٣ لم يكن "رافائيل پاتاى" يرى أملا كبيرا فى السلام أو التقدم فى الشرق الأوسط إلا إذا استطاع أبناء إسماعيل أن "يكرسوا أفضل مواهبهم، ليس لمصارعة طواحين الهواء وإنما لبناء الإنسان العربى الجديد"[١٢٢]. بعد ست سنوات نشر "ديڤيد پرايس - چونز - David Price-Jones - وهو محارب عنيف شارك فى حرب السويس ومدعى استشراق، نشر كتابه "الدائرة المغلقة" وهو نقد موجع مضاد للعرب أعاد فيه تدوير كثير من الصور النمطية التى روجها "چليدن" و"پاتاى" و"لافين". ولأن العرب ظلوا أسرى مجتمع قبلى قاس، مجتمع أبوى "يؤمن أفراده بالفعل بحقهم الثابت فى أن يقوم أشخاص من بنى جنسهم باستغلالهم"، يستنتج "پرايس چونز" أن الأوتوقراطية، وليس الديمقراطية، هى ما سوف يكون له الغلبة دائما: "الهدم بدلا من البناء والإتلاف بدلا من الإبداع والخصومات بدلا من الوحدة"[١٢٣]، وربما تكون أهم الأفكار الاستشراقية انتشارا فى هذا العقد هى ما جاء فى مقال "برنارد لويس - Bernard Lewis" الرئيسى الذى نشره فى عدد سبتمبر من "أتلانتك منثلى" بعنوان "جذور الغضب الإسلامى". "لويس" المولود فى بريطانيا، والمقيم فى پرنستون وأحد الآباء المؤسسين لفرع دراسات الشرق الأوسط يعزو موجة العداء لأمريكا التى اجتاحت العالم الإسلامى إلى حقد غير عقلانى على الحضارة اليهودية - المسيحية، يؤججه استدعاء و"إحياء الانحيازات القديمة" بين المتطرفين المسلمين. مذكرا قراء "أتلانتك منثلى" بأن "أمريكا أصبحت هى العدو الرئيسى وعنوان الشر" بالنسبة للمتعصبين المدنيين من لبنان إلى إيران، تنبأ "لويس" بأن "حرب الإسلام ضد الحداثة" يمكن أن تتصاعد لتنتهى "بصدام بين الحضارات"[١٢٤].

كل من يتأمل غلاف المجلة الذى يظهر عليه مسلم معمم ملتح، ونظراته، الحاقدة العابسة مثبتة على النجوم والخطوط فى العلم الأمريكى، لابد من أن يستنتج أن الصدام كان قد انطلق بالفعل، وكل من يقرأ التعريف الموجز بالمقال فى فهرست العدد الذى يصر على أن "الرفض الواسع والعنيف للغرب ليس سوى الأحدث فى "سلسلة طويلة من الهجوم والهجوم المضاد والحملات العنيفة والجهاد والغزو وإعادة الغزو"، كل من يقرأ ذلك لابد من أن يتساءل ما إذا كان "لويس" يتنبأ بما حدث. والحقيقة أن نقادا مثل "چون إسپوزيتو – John Esposito"، من جامعة چورچ تاون، يرون أن المستشرقين الأكاديميين والإعلام الأمريكى، وكأنهم شهرزاد القرن العشرين، هم الذين استحضروا جان التمرد والثورة "الأصولية الإسلامية" كخطر يملؤون به الفراغ الناجم عن سقوط الاتحاد السوڤيتى وانتهاء الحرب الباردة[١٢٥].

إن نظرة سريعة على الطريقة التى يتم بها تصوير العرب على مدى العشرين سنة الماضية، سواء فى الأدب المكتوب أو على الشاشة، تؤكد أن الاستشراق على النمط الأمريكى ظل حيا ومنتشرا فى كل من الثقافة الشعبية والإعلام الجماهيرى. "ليلة سبت مشتعلة" محاكاة تهكمية أثناء أزمة الوقود فى ١٩٧٩ تشاهد فيه مجموعة من البدو المساكين المنقولين إلى كاليفورنيا، وأثناء قيام "عبدول" رئيس العصابة بإطلاق النار على بعض اليهود، ينبثق من الرمل خام الزيت فجأة"[١٢٦]. كان العرب هدفا للسخرية والتهكم فى أواخر السبعينيات فى عدد كبير من المسلسلات التى يقدمها الجميع.. من "سونى – Sonny" و"تشير – Cher" إلى "آرشى بنكر – Archie Bunker" فى "كل العائلة". مغضبا بسبب المعاملة الرديئة التى تلقاها من عامل تنظيف جاف عربى، يقول آرشى لـ:"إيديث": إياك والاقتراب من هذا العربى مرة أخرى... إلا إذا كان لديك جمل قذر تريدين غسله"، وعندما يعترض زوج ابنته على هذه الصورة النمطية الرديئة يرد عليه آرشى قائلا: "إنهم مولودون هكذا... قراصنة... كلهم!"[١٢٧].

حظ العرب كان أفضل قليلا مع الرسوم المتحركة. عندما يهين طرزان دون قصد شيخا عربيا أجرد فى الثمانينيات، يصرخ عربى آخر مشهرا سيفه: "ليس سوى

هذا السيف ليشفى غليلى... ليسيل دمك الجبان". بعد ذلك كان هناك – فى العقد نفسه – مسلسلات مثل "الجندى چو وجماعة الكوماندوز" حيث نجدهم ينقذون جنديين كانا محتجزين كرهائن لدى حاكم عربى "معروف عنه أنه يقطع رؤوس قطاع الطرق"؛ وفى سنة ١٩٨٥ قدم أحد صناع الكرتون السياسى صورة رديئة للعقل العربى فى مسلسل ينطوى على كثير من "الثأر" و"التعصب" و"الابتزاز". فى مسلسل آخر يخرج جرذان من وسط القمامة زاحفين بينما يسأل شخص: ما الفرق بين "عرفات" والجرذ؟ فيرد عليه آخر: الجرذ له أصدقاء كثيرون؛ ويرسم فنان آخر لوحة بدون تعليق يظهر فيها جلاد فى ثوب أبيض نموذجا للكرة الأرضية وهى تنزف فى يد، وفى يده الأخرى سيف معقوف يقطر منه الدم(١٢٨).

هذه الصور الاستشراقية المتخيلة لم تكن أقل انتشارا بين الكتاب ومحررى الصحف والأعمال التلفزيونية. فى أوائل ١٩٨٢ كان "چيم هوجلاند – Jim Hoag-land" – من واشنطن پوست – يقول: "أصبح من الواضح بالنسبة لى أنه "كانت هناك صورة مشوهة تماما فى الكتابة الغربية بشكل عام –ليس فى الصحف فقط وإنما فى الكتب كذلك وفى أفلام الكرتون بالتأكيد – "عن شرق أوسط" مأهول بعرب ينسلون والسكاكين بين أسنانهم"(١٢٩). بعد ذلك بعام كان "چون كولى – John Cooley" – من كريستيان ساينس مونيتور – يقول: "المؤكد أن العرب يتم تصويرهم بشكل غير مَنصف "سواء فى المطبوعات أو وسائل الإعلام الإلكترونية، مضيفا "لعل العرب هم الجماعة الوحيدة التى ما زال أى شخص يتجاسر على تصويرهم على نحو ازدرائى"(١٣٠) منذ ١٩٧٥ يعترف "پيتر چيننجز – Peter Jennings" أحد مخرجى شبكة ABC بأن "هناك بالتأكيد تحاملا وانحيازا ضد العرب فى أمريكا". وهو ما أدى "لسوء الحظ، إلى تنميط فى وسائل الإعلام"(١٣١)، وفى أوائل الثمانينيات كان "چيم ليهرر – Jim Lehrer" المقدم المشارك لأخبار المساء فى تلفزيون PBS متفقا كذلك مع الرأى الذى يقول إن اهتمام وتركيز شبكات التلفزيون على الإرهاب والصراع الطائفى فى الشرق الأوسط "يغذى الصور النمطية عن العرب، لدى الأمريكيين، باعتبارهم شعبا دمويا يشغلهم طوال الوقت قتلهم بعضهم البعض"(١٣٢). وعندما سأله أحد

المشاهدين عن اقتراحاته لما يمكن أن يقوم به العرب، والمسلمون بشكل عام، لمعادلة مثل هذه الصور النمطية، كان "ليهرر" واضحا فى رده: "ليست مشكلة صورة علاقات عامة" وعندما قال ذلك كان فى ذهنه بالتأكيد الاثنين وخمسين أمريكيا الذين كان قد أطلق سراحهم فى إيران بعد احتجاز دام ٤٤٤ يوما، كما كان فى ذهنه الحرب الأهلية اللبنانية التى كانت تبدو بلا نهاية... "ليست مشكلة صورة علاقات عامة، إنها مشكلة واقع"(١٣٣). "أنتونى لويس – **Anthony Lewis**" – من نيويورك تيمز كان من نفس الرأى، فكما قال لـ"إدموند غريب – **Edmund Ghareeb**" المستشار الإعلامى (من أصل عربى) "عندما يظهر السيد عرفات فى برنامج تلفزيونى أمريكى يقدمونه خليطا من ذلك النموذج العربى الصحراوى الذى تحدثت عنه.. ولكن مجردا من الرومانسية"، وعندما رد "غريب" أن كثيرا من الأمريكيين يعتقدون خطأ أن عرفات "إرهابى متعطش للدماء"، قال "لويس" بحدة: "ولكنك تعرف أنه يبدو متعطشا للدماء بدرجة ما"(١٣٤).

ما وصفه "ليهرر" بأنه "مشكلة واقع"، فاقم منه على أية حال أسلوب تصوير العرب فى الأدب المكتوب. كانت البداية فى ١٩٧٥ بنشر عمل "توماس هاريس – **Thomas Harris**" يوم الأحد الأسود "الذى يدور حول مؤامرة إرهابية للاستيلاء على أهداف عسكرية؛ كما ظهر سيل من الأعمال الأدبية المكتوبة لمجرد الربح تحمل عناوين مثل "الجهاد" و"العنقاء" و"على الحافة" تصور العرب – بشكل نمطى – كسفاحين قساة أو كشيوخ شرهين متعطشين للدماء. أما الرواية التى كانت الأكثر قراءة فى الأسواق فهى "الحج" التى كتبها "ليون أوريس – **Leon Uris**" بعد ربع القرن من نشر "الخروج". "الحج" ومسرح أحداثها الأرض المقدسة فى الثلاثينيات تقدم الفلسطينيين من خلال لغة تجعل أكثر القيادات الإسرائيلية يمينية مثل "مناحم – بيجن" يحمرون خجلا. فى الرواية يقول ضابط بريطانى لبطل "أوريس" الإسرائيلى: "كل عربى أخير هو سجين مجتمعه، والعرب لن يحبوك مهما جلبت لهم من خير... إنهم، ببساطة، لا يعرفون كيف يحبون... يعرفون الكراهية... يا الله! هل هم قادرون على الكراهية!".

وخشية ألا ينتبه القارئ إلى هذه الفكرة المهمة، يؤكد "أوريس" هذا الرأى الاستشراقى بمضامين تسبق تلك التى سوف يستخدمها "برنارد لويس" بعد ست سنوات. لدى العرب "حقد عميق دفين لأنك، بلكمة واحدة، جردتهم من أوهام العظمة وأظهرتهم على حقيقتهم، شعبا متفسخا متوحشا، تحكمهم عقيدة نزعت عنهم كل طموح إنسانى... إلا قلة قاسية بما يكفى... متغطرسة بما يكفى لكى تقودهم كما يقود المرء جماعة من الغوغاء". هذه العبارات المعادية للعرب تنتهى برسالة ليس المقصود بها صهاينة الثلاثينيات فحسب وإنما الأمريكيين فى الثمانينيات كذلك: "إنك تتعامل مع مجتمع مجنون ومن الأفضل أن تتعلم كيف تحكمه"، ومن خلال مليون نسخة من "الحج" كانت قد طبعت بحلول عام ١٩٨٥، يبدو أن الرسالة وصلت وأن جمهور القراء استقبلها جيدا[١٣٥].

ومثلما كان الأمر على مدى أكثر من جيل، كانت صناعة السينما تقوم بنقل الصور النمطية الاستشراقية من الصفحات المطبوعة إلى الشاشة الفضية فى الثمانينيات والتسعينيات، ومنذ ١٩٧٧ عندما أصبح "يوم الأحد الأسود" قنبلة الموسم الفنية، كان يتم تصوير عرب هوليوود باستمرار باعتبارهم متعصبين نزاعين للقتال، وأحيانا كشخصيات هزلية كما فى فيلم "العودة إلى المستقبل" ذلك العمل الضخم فى ١٩٨٥ عن قتلة ليبيين أغبياء يخرجون لسرقة كمية من البلوتونيوم لصنع قنبلة ذرية، يقتلون كريستوفر لويد Christopher Lloyd ويعيدون "مايكل چى فوكس – Michael J.Fox" إلى عام ١٩٥٥.

الأرجح كان أن يقشعر بدن الجمهور الأمريكى بدلا من أن يضحك كلما يظهر عربى على الشاشة. فى فيلم "القوة دلتا" وهو أحد أفلام "الأكشن" فى ١٩٨٦ الذى يعتمد، مع تصرف، على جريمة قتل وحشية لبحار أمريكى على متن طائرة TWA مختطفة قبل عام فى بيروت، نجد "تشك نوريس – Chuck Norris" ومجموعة من الكوماندوز ينقذون مجموعة من الأمريكيين كانت جماعة إرهابية فلسطينية قد احتجزتهم رهائن. بعد تسع سنوات نجد "سوبرمان" من المخابرات الأمريكية يحبط بمفرده محاولة عصابة "الجهاد القرمزى" التى كانت تخطط لشن هجوم نووى على

ميامى من قاعدتهم فى جزر فلوريدا(١٣٦)، وكان يقوم بالدور "آرنولد شوارزنجر – Arnold Schwartzenegger" فى فيلم "أكاذيب حقيقية"؛ وبالرغم من احتجاجات الأمريكيين العرب كانت صناعة السينما فى أواخر القرن العشرين مستمرة فى تقديم "وجبات" استشراقية مثل "قرار تنفيذى – ١٩٦٩" و"المومياء – ١٩٩٩" وغيرهما، تقدم العرب فى صورة المتعصبين أو العاجزين أو غير المبالين أو الانتهازيين ذوى الرائحة الكريهة، فعلى صفحات "نيوزويك: مثلا، كان "راى حنانيا – Ray Hanania" يشكو فى أواخر ١٩٩٨: "العربى فى نظر هوليوود هو ذلك الذى يسىء معاملة زوجته، الذى يريد أن يشترى منزل "ستيف مارتن" فى الجزء الثانى من "أبو العروسة"، كما أننا "العرب الذين يقتلون ركاب الطائرات الأبرياء فى "قرار تنفيذى" لمجرد أن ذلك يجعلنا نشعر بالرضا"(١٣٧).

على العكس من ذلك، كانت هوليوود والإعلام الجماهيرى يقدمون الإسرائيليين بشكل أفضل من العرب نوعا ما، ولكن المؤكد أن "نيويورك تيمز" وشبكات التلفزيون الرئيسية كانت شديدة الانتقاد لكل من الغزو الإسرائيلى للبنان فى يونيو ١٩٨٢ ولقمعها الانتفاضة الفلسطينية فى الضفة الغربية فى ديسمبر ١٩٨٧، وقام كل من "زئيف شافيتس – Ze'ev Chafets" و"ستيفن كاريتزكى – Stephen Karetzky" بالرد على ذلك بنشر بيانات فضائحية لاذعة تكشف ازدواجية المعايير الإعلامية، وتساءلا عن سبب التغطية الإعلامية الواسعة عندما قام المسيحيون اللبنانيون المتحالفون مع إسرائيل بذبح أكثر من ألف فلسطينى فى مخيمات صبرا وشاتيلا فى سبتمبر ١٩٨٢، بينما كان هناك صمت تقريبا على مذابح أكثر فظاعة قبل سبعة أشهر فى مدينة "حماة" السورية على بعد مائة ميل شمالى دمشق، عندما أمر الرئيس السورى "حافظ الأسد" قواته بقتل ما يقرب من عشرة آلاف سورى، كانت جريمتهم الوحيدة هى معارضة دكتاتوريته(١٣٨). كذلك كان رد فعل وزير الخارجية "موشى أرينز – Moshe Arens" وزير الخارجية الإسرائيلى على الانتقادات التى وجهتها الولايات المتحدة لهجوم إسرائيل على الضفة الغربية، فـ"التغطية الإعلامية للانتفاضة" كما قال أمام القيادات اليهودية الأمريكية فى أوائل ١٩٩٨، "استطاعت بنجاح أن تحول بؤرة

الاهتمام من الصراع العربى الإسرائيلى الذى كانت فيه إسرائيل وكأنها "ديڤيد" الصغير، إلى الصراع الإسرائيلى الفلسطينى الذى جعلت إسرائيل تبدو فيه وكأنها "جولياث"(١٣٩).

إلا أنه بالرغم من ميل بعض النقاد المدافعين عن إسرائيل بشدة مثل "نورمان بدهورتز - Norman Podhoretz" فى "كومنترى" إلى اعتبار الشخصيات الإعلامية التى تنتقد الدولة اليهودية معادين للسامية فى قرارة أنفسهم، فإن صحفيين فى NBC و"نيوزويك" و"لوس أنجلوس تيمز" كانوا ينتقدون إسرائيل بسبب ما تقوم به فى لبنان والضفة الغربية، وليس لأن معظم مواطنيها يهود؛ وعلى أية حال فإنه بالرغم من شكوى "آرينز"، فإن معظم الأمريكيين كانوا ما زالوا يميلون إلى تعريف إسرائيل بأنها أقرب إلى "ديڤيد" منها إلى "جولياث". معظم أسباب ذلك ربما يرجع إلى هوليوود، فالفيلم التلفزيونى "ماسادا - Masada" على سبيل المثال، وهو من إنتاج ١٩٨١ يعيد رواية القصة الأسطورية لقلعة يهودية محاصرة على شواطئ البحر الميت، كان المدافعون عنها مثل "ديڤى كروكيت - Davy Crockett" فى "آلامو" قد فضلوا الموت على الخضوع للاستعمار الرومانى قبل ألفى عام تقريبا.

إلا أن الهولوكوست، رغم ما يثيره تذكره من ألم ومعايشة مرة أخرى بفضل هوليوود، ربما كان له الفضل فى تثبيت وضعية إسرائيل على نحو لا شعورى فى عقول وقلوب معظم الأمريكيين باعتبارها ضحية. الهولوكوست الذى تم تقديمه فى مسلسل من ثمانى ساعات ببطولة "ميريل ستريپ - Meryl Streep" كفتاة جميلة أشبه بـ"آن فرانك" حصل على جائزة الشبكة التلفزيونية فى ١٩٧٨ ثم بثمان جوائز أخرى فيما بعد؛ وبعد أربع سنوات حصلت "ستريپ" على الأوسكار لأدائها المؤثر فى "اختيار صوفى - Sophie's Choice" عندما قامت بدور إحدى الناجيات فى معسكر للاحتفال كان عليها أن تختار أحد طفليها للموت فى "أوشفتز". بمجرد أن يتحول مشاهدو التلفزيون أو السينما عن هذه القصص التاريخية المشحونة بالعاطفة عن الهولوكوست ويعود إلى الظروف الراهنة هنا والآن فى الشرق الأوسط، لابد من أن

يكون الكثيرون منهم قد استراحوا لمعرفة أنه مهما كانت أخطاء إسرائيل فإنها تظل أفضل ضمان متاح لعدم تكرار حل هتلر النهائى.

ظهرت معالجة سينمائية للهولوكوست أكثر جذبا للانتباه بعد عقد، مع العرض الأول لفيلم "قائمة شندلر – Schindler's List" فى ديسمبر ١٩٩٣. التصوير تم فى موقع بالقرب من أوشفتز (أبيض وأسود) والمخرج هو عبقرى هوليوود "ستيفن سپلبيرج – Steven Spielberg". "قائمة شندلر" يحكى قصة "أوسكار شندلر" رجل الأعمال الألمانى الذى تقوده شكوكه وهواجسه المتنامية عن النازية وإنسانيته البسيطة، بكل عفوية، لأن يغامر بكل شىء من أجل إنقاذ بضع مئات من العمال اليهود المعتقلين فى معسكر الموت. بالرغم من حصول الفيلم على سبع جوائز أوسكار بما فى ذلك جائزة أفضل مخرج وأفضل مصور، فإن الفيلم تم منعه من العرض فى أبريل ١٩٩٤ فى كثير من الدول الإسلامية، وليس ذلك بسبب بعض مناظر العرى أو مشاهد العنف القليلة المؤذية لمشاعر المسلمين، وإنما لأن رسالته المضمرة كانت ضد مشاعر بعض الجماهير العربية من المعاديين للسامية ولإسرائيل(١٤٠).

قبل ذلك بعام، كان هناك فيلم مختلف من إنتاج "ديزنى" وهو :علاء الدين" الذى فاز بجائزتى أوسكار وأغضب كثيرين من الأمريكيين العرب. الفيلم عبارة عن قصة حب (بالرسوم المتحركة) عن اثنين من العرب المستغربين: علاء الدين والأميرة ياسمين اللذين يتحدثان بإنجليزية جيدة. معظم الشخصيات الأخرى فى إماراتهم الشرقية المتخيلة هم قطاع طرق يلبسون العمائم ويحملون الخناجر ويتحدثون بلهجة ثقيلة. هذا الفيلم الذى كتبه "آلان منكن – Alan Menken" و"هوارد أشمان – Howard Ash-man" يلخص استشراق علاء الدين المضمر على نحو بارع. الأغنية الأولى "ألف ليلة" افتتاحية خارجة مباشرة من "السذج خارج الوطن"... "آه.. أنا قادم من بلاد... من مكان بعيد بعيد... حيث تجول قوافل الجمال... حيث يقطعون أذنك إذا لم يعجبهم وجهك... بربرية نعم! لكن آه!.. إنه الوطن!". اللحن الثانى "عالم جديد تماما" فاز بجائزة أغنية العام فى مارس ١٩٩٣. مستدعيا صورا من الماضى الشرقى الأبوى، والمستقبل الغربى الذى يتسم بالمساواة يغنى علاء الدين لياسمين ويعدها "بنظرة

جديدة رائعة»، فقط إن هى جعلت قلبها يقرر؛ وبالرغم من أن الاحتجاجات المتكررة من اللجنة العربية الأمريكية لمناهضة التمييز أقنعت "ديزنى" بحذف الأغانى المسيئة من أفلام الڤيديو التى كانت توزع فى أواخر ذلك العام، فإن النسخة المنقحة من "علاء الدين" ما زالت تعبر عن النظرة الاستشراقية المضمرة فى الثقافة الشعبية الأمريكية فى القرنين السابقين(١٤١).

كان رهاب الأجانب شيئا طبيعيا بالنسبة لمعظم مواطنى الولايات المتحدة الوليدة الذين كان يحيط بهم الاستعماريون الإسپان والمستفزون البريطانيون والهنود الوثنيون، الذين كان يبدو أنهم يريدون تدمير إسرائيل الرب الأمريكية؛ ولأن اليهود والمسلمين لم يكونوا مسيحيين ولا أنجلو ساكسون، فإن الجماعتين كانتا موضوع ارتياب فى نظر معظم الأمريكيين الذين كانوا على مدى القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين يعتمدون تراتبية عرقية ثقافية فى تعاملهم مع الأجانب الذين يبدون مختلفين ويصلون بشكل مختلف. البعثات التبشيرية والتجار والآثاريون الذين شكلوا فهم أمريكا للشرق الأوسط من حروب البربر إلى اكتشاف مقبرة "الملك توت" كانوا يؤكدون الصور النمطية الاستشراقية منذ الحملات التى كانت تصور العرب باعتبارهم نماذج غريبة، متعصبة ميالين بالفطرة إلى الاستبداد. على نفس المنوال كانت النخب الأمريكية ذات الدم الأزرق وقوة العمل الكادحة التابعة لها، عادة ما تستقبل ملايين اليهود المهاجرين الذين كانوا يجيئون إلى الولايات المتحدة بين الحرب الأهلية و"**تصريح بلفور**" بأوصاف معادية للسامية وافتراءات عرقية.

بدءا من عشرينيات القرن العشرين أخذت الصور الذهنية النمطية عن المسلمين واليهود كما هى ممثلة فى الثقافة الشعبية الأمريكية فى التباعد بشكل واضح، وفى الربع الأخير من القرن كانت الأفلام والكتب والمجلات تواصل تصوير العرب كبدائيين وغير جديرين بالثقة وكشخصيات مملوءة بالحقد ينبغى مراقبتها والحذر منها. على عكس ذلك فإن تلهف القادمين الجدد من اليهود على الاندماج فى التيار العام لـ"مين ستريت" بالإضافة إلى فظاعة الهولوكوست، كل ذلك ساعد على تخفيف مشاعر معاداة

السامية لدى الأمريكيين وحفز الولايات المتحدة لدعم إنشاء إسرائيل والحفاظ عليها بالرغم من الاعتراضات العربية.

ومع بداية التسعينيات كانت وسائل الإعلام الضخمة مثل "ناشونال جيوجرافيك" واستوديوهات ديزنى تقدم "شرق أوسط" تظهر فيه إسرائيل باعتبارها "ديفيد" غربى، بينما يقدم العرب والمسلمون بوجه عام باعتبارهم "جولياثات" شرقية. كان من المتوقع بالطبع أن يذهب أوسكار أفضل فيلم وثائقى لـ"ذات يوم فى سبتمبر" وهى القصة الفاجعة للأبطال الأولمبيين الإسرائيليين الذين قتلوا فى "ميونخ" قبل ثمانية وعشرين عاما. فى الوقت نفسه كان الفيلم الذى حقق أعلى نسبة مشاهدة هو "قواعد الارتباط – **Rules of Engagement**" الذى يظهر فيه "صمويل ل. جاكسون – **Samuel L.Jackson**". مكشرا، ينظر شذرا وازدراء إلى جماعة من المتطرفين الإسلاميين فى اليمن يتطاير الشرر من عيونهم، وكذلك فيلم "نلسون دى ميل – **Nelson DeMille**" "لعبة الأسد – **The Lion's Game**" المأخوذ عن عمل أدبى كان على قائمة نيويورك تيمز للكتب الأكثر مبيعا ويروى قصة إرهابى ليبى.

بالرغم من ذلك، كانت هناك فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر الإرهابية، مؤشرات على أن الحياة لا تحتاج دائما إلى الفن المقلد. قبل ثلاث سنوات كانت "فوكس للقرن العشرين" قد أنتجت فيلما رؤيويا مخيفا عن إرهاب إسلامى يتصاعد فى شوارع مانهاتن ينتهى بجماعة تشبه تنظيم القاعدة تصدم ناطحة سحاب بشاحنة مليئة بالمتفجرات لتقتل ستمائة مواطن فى نيويورك. "لابد أن تعرف نتيجة أن تقول للعالم كيف يعيش"، هذا ما يقوله الإرهابى رئيس الجماعة لـ"دينزل واشنطن – **Denzel Washington**" ضابط الـ **FBI**، وهى العبارة التى لابد من أن تكون قد جعلت "أسامة بن لادن" يبتسم. بعد ذلك بفترة وجيزة يقوم "بروس ويلس – **Bruce Willis**" (من البنتاجون) بجمع الأمريكيين العرب واحتجازهم فى مراكز الاعتقال لفترة.

رغم وقوع عدد كبير من القتلى نتيجة هجوم بن لادن الحقيقى على مركز التجارة العالمى، فإنه كان سببا فى رد فعل استشراقى معتدل تجاه مسلمى أمريكا؛

ومما يؤسف له أن كانت هناك مبالغات فى التدقيق الأمنى فى المطارات، وبعض الأعمال والسلوكيات الدالة على الكراهية وربما حالة أو حالتى قتل، ولكن لم تكن هناك انتهاكات كبيرة أو شاملة للحقوق المدنية للأمريكيين العرب، وأثناء زيارة للمركز الإسلامى فى واشنطن فى ١٧ سبتمبر، كان "چورچ دبليو بوش" يذكر الأمريكيين بأنهم "لابد من أن يعاملوا بعضهم البعض باحترام" بصرف النظر عن العرق والدين. وبعد ذلك بثلاثة أيام كان يقول أمام جلسة مشتركة للكونجرس. "الإرهابيون خونة لعقيدتهم... إنهم يحاولون اختطاف الإسلام نفسه"[١٤٢].

إلا أنه كان هناك شعور كامن وراء كلمة بوش عن التسامح ونبض يوحى بتصوير الإسلاميين على نحو شيطانى بما يعكس المقولات الاستشراقية السابقة، فهؤلاء الإرهابيون "بتضحيتهم بالحياة الإنسانية خدمة لرؤاهم الراديكالية، وبتجنبهم لكل قيمة باستثناء إرادة القوة فإنهم يسيرون فى طريق الفاشية والنازية والشمولية"، هكذا تكلم الرئيس الأمريكى الثالث والأربعين واستنتج أنهم "سوف يمضون فى نفس الطريق إلى نهايته، إلى مقبرة التاريخ حيث الأكاذيب المنبوذة"[١٤٣]. عندما تكلم "بوش"، كانت المهمة الحزينة لاستخراج الجثث من تحت الأنقاض قد بدأت لتوها، وكان المرجح أن توقظ شاحنة متفجرات هنا أو اختطاف طائرة هناك كل التحيزات القبيحة المعادية للعرب وتستدعيها من الماضى غير البعيد. نجاح إدارة "بوش" الكبير فى منع المزيد من العنف الإرهابى داخل الولايات المتحدة ساعد فى وضع المشاعر الاستشراقية الدفينة تحت السيطرة، ولكن مسلسل أعمال العنف والإرهاب فى أرجاء العالم تقريبا... الذبح والقتل والأعمال الانتحارية التى تلت غزو واحتلال العراق بعد ٢٠٠٣ كان ذلك كله يبدو كأنه يؤكد الكثير من الصور النمطية القديمة عن شهوة الدم والفساد عند المسلمين. بمجرد أن بدأ المتمردون فى تفجير أنابيب النفط وإعدام عمال البترول الأجانب، فإن كلا من الجمهور وصناع السياسة الأمريكية راحوا يشبهونهم بالراديكاليين العرب السابقين الذين كانوا يهددون أمن إسرائيل ويتحدون السيطرة الغربية على بترول الشرق الأوسط بعد ١٩٤٥.

الفصل الثانى

فتح الباب

■ لا يمكن تجاهل حقيقة أن الموارد المنقولة من وادى الرافدين كانت مثيرة لاهتمام الرأى العام فى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وغيرها من الدول باعتبارها موضوعا محتملا للصراع الاقتصادى... حكومة الولايات المتحدة تفترض وجود اعتراف عام بأن الاحتياجات البترولية أكثر من الإنتاج، كما تعتقد أن فرص استكشاف وتنمية الموارد البترولية فى العالم، أينما وجدت، لابد من أن تكون متاحة أمام الجميع ودون تمييز، حيث إن مواجهة احتياجات العالم لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال التنمية المستمرة لهذه الموارد.

باينبردج كولبى – Bainbridge Colby

٢٠ نوفمبر ١٩٢٠

■ هناك قضايا مبدئية حيوية على المحك. صدام حسين يحاول أن يمحو دولة من الوجود... المصالح الاقتصادية الحيوية على المحك أيضا. العراق نفسه يتحكم فى ١٠٪ من احتياطى النفط فى العالم. العراق والكويت يتحكمان فى ضعف ذلك. إذا سُمِحَ للعراق بابتلاع الكويت فسوف تتحقق له القوة الاقتصادية والعسكرية، إلى جانب الغطرسة، لإرهاب وإخضاع جيرانه الذين يتحكمون فى نصيب الأسد من باقى احتياطيات العالم من النفط. لا يمكن أن نسمح بأن يسيطر شخص أخرق على مورد بمثل هذه الأهمية... ولن يحدث.

چورچ بوش – ١١ سبتمبر ١٩٩٠

• البيزنس والدبلوماسية
وحصة أمريكا فى نفط الشرق الأوسط

بينما كانت الصور الذهنية الباكرة عن الشرق الأوسط فى العقل الأمريكى نتيجة لقصص التلمود التراثية التى عبرت عنها أدبيات القرن التاسع عشر الاستشراقية والثقافة الشعبية للقرن العشرين، فإن الرمز الأشهر الذى يستدل به على الشرق الأوسط ربما يكون بئر النفط. فى سنة ١٩٠٠ كان كبار رجال الأعمال والمسئولون الحكوميون يتوقعون - بما يشبه التنبؤ - أن الذهب الأسود الذى يرشح من غرب پتسلفانيا إلى شرق تكساس سيكون فى النهاية قاطرة الولايات المتحدة إلى التفوق الصناعى والعسكرى. اكتشاف حقول ضخمة من النفط فى إيران والعراق والسعودية خلال النصف الأول من القرن العشرين حفز الشركات البترولية الأمريكية الكبيرة للحصول على امتيازات فى الشرق الأوسط وأن تحول نفسها أثناء ذلك إلى مؤسسات عملاقة متعددة الجنسية.

هذه الشركات البترولية الضخمة المتعددة الجنسية، التى أنشأها وأدارها رجال أعمال ومقاولون يفضلون تعظيم أرباحهم عن طريق خفض الضرائب وتخفيف النظم الإدارية إلى حدودها الدنيا، بقيت بعيدة عن سياسة الولايات المتحدة الخارجية لتمارس دبلوماسيتها الخاصة فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية مباشرة. وحرصا على تجنب الانزلاق إلى خصومات استعمارية ونزاعات سياسية فى الخليج الفارسى كان "وودرو ويلسون - **Woodrow Wilson**" ومن جاؤوا بعده قانعين بفتح الباب قليلا إلى بترول الشرق الأوسط لشركات مثل "ستاندارد أويل أف نيو چيرسى - **Standard Oil of New Jersey**" و"تكساكو - **Texaco**" ومراقبته وهو يغلق وراءهما؛ وفى أواخر ١٩٣٩، كان قد أصبح لكبار رجال النفط نفوذ أكبر وأوسع فى بغداد والرياض مما كان للدبلوماسيين الأمريكيين.

حربان، إحداهما ساخنة والأخرى باردة، أكدتا أهمية نفط الشرق الأوسط بالنسبة للأمن القومى الأمريكى، وغيرتا العلاقة بين رجال الأعمال وصناع السياسة

جذريا. بترول الخليج الفارسى هو الذى سيزود قوات الحلفاء التى هزمت دول المحور بالطاقة، وهو الذى سيدعم مشروع مارشال الذى سيساعد على الإنعاش الثقافى والاقتصادى لأوروبا الغربية، وفى نهاية المطاف سوف يتدفق فى سيارات الملايين من "لونج أيلاند" إلى "لوس أنجلوس" بعد أن كان الطلب قد بدأ يفوق الاحتياطى الأمريكى. ولأن كلا من الاستقرار فى الخارج والرفاهة فى الداخل كانت تبدو رهنا بالوصول الآمن والمضمون إلى خام الشرق الأوسط، قامت الولايات المتحدة على الفور بإفساح الطريق أمام خطوط أنابيب جديدة ودعمت إنشاء أسطول ناقلات عملاقة وأعفت الشركات الأمريكية متعددة الجنسية من قوانين مكافحة الاحتكار، كما كانت واشنطن تعمل بالتنسيق مع "وول ستريت" أثناء أزمة السويس وحرب الأيام الست من أجل حماية الامتيازات البترولية الأمريكية، ومنع الدول المنتجة للنفط من عرقلة تدفقه إلى المستهلكين فى أوروبا وآسيا.

المنافسة المتزايدة فى صناعة النفط العالمية وتعقد الأوضاع فى الدول النفطية الإسلامية سرعان ما أضعف هذه الشراكة غير الرسمية بين الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية وصناع السياسة بعد ١٩٧٠. بعد سيطرة طويلة من "الشقيقات السبع – **Seven Sisters**" (وهو اتحاد شركات أمريكية بريطانية عملاقة كان من بينها "جيرسى ستاندارد – **Jersey Standard**" و"رويال داتش شل – **Royal Dutch Shell**")، كان خام الشرق الأوسط مستهدفا فى أواخر الخمسينيات من قبل منافسين أصغر حجما وأكثر مغامرة، وبتقديم عروض أكثر سخاء من عروض منافسيهم الأكبر، فازت شركات مستقلة مثل "أوكسيدنتال بتروليوم – **Occidental Petroleum**" بحق استغلال حقول نفط غنية جديدة مثل حقول ليبيا. مع زيادة العرض هبطت الأسعار والأرباح وهو ما أدى بدوره إلى انخفاض العائدات التى كانت الدول المنتجة قد أصبحت معتادة عليها وشجعتها على إنشاء "الأوبك – **OPEC**" فى ١٩٦٠، وبعد عقد من الجدل المالى، استطاعت دول الشرق الأوسط الأعضاء فى الأوبك أن تنتزع التحكم فى التسعير والتوزيع من الشركات الكبرى المتعددة الجنسية فى السبعينيات،

وبحلول عام ١٩٨٠ كانت كل عمليات النفط فى المنطقة، تقريبا، قد أممت بفضل جهود الأويك.

وحيث إنها فقدت قدرتها على التحكم فى كل من السعر والعرض نأت شركات البترول بنفسها عن الحكومة الأمريكية، وعندما وقعت بعض الشركات العملاقة اتفاقيات تكرير وتوزيع مربحة مع بعض الدول المنتجة فى أوائل الثمانينيات. كان النقاد يرون أن النفط الكثير كان يقدم الربح على الأمن القومى الأمريكى. إلا أنه إذا كان الأفضل بالنسبة لـ:"ستاندارد أويل" لم يكن كذلك بالنسبة لأمريكا أثناء سنوات "ريجان"، فإن مصالح الشركات تلاقت مع المصلحة القومية مرة أخرى فى أواخر التسعينيات عندما نسقت الشركات الأمريكية متعددة الجنسية مع صناع السياسة لمقاطعة الخام العراقى بعد قيام "صدام حسين" بغزو العراق فى محاولة طائشة لاحتكار بترول الخليج الفارسى.

قبل ذلك بسبعين عاما، وفى أعقاب أول حرب عظمى فى هذا القرن، كانت إدارة "ويلسون Wilson" قد فتحت الباب أمام شركات النفط الأمريكية فى الشرق الأوسط، وفى ١٩٩١ سوف يشن "چورچ بوش" آخر حروب القرن العظمى لمنع إغلاق هذا الباب.

• عن الأبواب المفتوحة وآبار النفط: ١٩٠٠-١٩٤١

مع حرارة ورطوبة صيف آخر فى واشنطن، كان الرئيس "وليم ماكنلى - Wil-liam McKinley" ووزير خارجيته "چون هاى - John Hay" يرقبان بصبر نافد فى يوليو ١٨٩٩ المنافسين التجاريين للولايات المتحدة وهم يتقدمون لإدخال شرق آسيا مجال نفوذهم؛ وبضغط من المسئولين فى الخارجية الذين كانوا مصرين على "الاحتفاظ بالباب مفتوحا أمام التجارة العادية فى الصين"، أرسل "هاى" بمباركة من "ماكنلى" مذكرات دبلوماسية إلى كل من بريطانيا وروسيا والقوى الكبرى الأخرى معلنا أن الولايات المتحدة لن تسمح بأى تمييز ضد تجارة أو استثمارات لها فى

المملكة الصينية. بعد انتهاء القرن كانت مبادرة "هاى" مثمنة باعتبارها "سياسة الباب المفتوح"، أو النجم الهادى للأجيال المتوالية من رجال الأعمال والدبلوماسيين الأمريكيين الذين كانوا يربطون المصلحة الاقتصادية فى الخارج بالرخاء فى الداخل[١].

من بين الشركات التى كانت تعمل فى الصين عندما أعلن "جون هاى" سياسة الباب المفتوح "ستاندارد أويل كومپانى - **Standard Oil Company** التى كانت تقدم معظم الكيروسين الذى يضىء "شانغهاى" و"بكين". هذه الشركة تأسست فى ١٨٧٠ على يد "چون د. روكفلر - **John D.Rockefeller**" رجل الأعمال الداهية الذى كان يستخدم أساليب شديدة العنف ضد منافسيه، وسرعان ما أصبحت محتكرا، حقيقيا، تتحكم فى كل تفاصيل صناعة النفط من الحصول على الامتيازات إلى الحفر وبناء مصافى التكرير وشبكات التسويق. مقتنعة بأن "ستاندارد أويل" كانت قد أصبحت غنية وقوية أكثر مما ينبغى أصدرت المحكمة العليا حكما فى ١٩١١، يعتبر نقطة تحول، وهو تفكيك مجموعة روكفلر العملاقة ليحل محلها عدد من الشركات المنفصلة كان أكبرها "ستاندارد أويل أوف نيو چيرسى - **Standard Oil of New Jersey**" التى تم تجريدها من معظم احتياطياتها من الخام المحلى واضطرت للبحث عن موردين جدد وراء البحار[٢].

كانت أفق تعويض احتياطيات "چيرسى ستاندارد" واعدة فى البداية فى أمريكا اللاتينية ولكن سرعان ما عرف كبار المسئولين فى الشركة أن أغنى حقول النفط فى العالم تقريبا كانت هناك فى الخليج الفارسى. أول بئر رئيسية غزيرة التدفق تم اكتشافها فى مايو ١٩٠٨ فى "مسجدى سليمان" جنوب غرب إيران بواسطة شركة النفط الإنجليزية الفارسية - **Anglo-Persian Oil Company** وبمجرد أن قررت البحرية الملكية تحويل سفنها الحربية من الاعتماد على غلايات تعمل بالفحم إلى محركات ديزل، حصلت الحكومة البريطانية على حصة ٥١٪ فى الشركة الإنجليزية الفارسية، مما سيعطى "وايت هاوس" فرصة لاحتكار النفط الإيرانى على مدى السنوات الأربعين التالية، كما كان يقال إن هناك ترسبات بترولية أكبر فى منطقة

الموصل القريبة، أحد أركان الإمبراطورية العثمانية التى سوف تضم فى النهاية إلى شمال العراق. ولأن الألمان كانوا متلهفين كذلك لتأمين النفط اللازم لآلتهم العسكرية المتنامية، أخذ المقاولون الألمان زمام القيادة لتأسيس شركة البترول التركية Turkish Petroleum Company (TPC) التى كانت مدافع أغسطس ١٩١٤ قد عطلت اكتشافاتها الباكرة فى الموصل. على أثر هزيمة ألمانيا بعد أربع سنوات، حصلت "الشركة الإنجليزية الفارسية" و"رويال داتش شل" على حصة حاكمة فى شركة البترول التركية ونقلت حصة الألمان إلى الفرنسيين وتحركت لكى تضع النفط العراقى فى دائرة النفوذ الاقتصادى البريطانى تماما[٣].

وبالرغم من أن "چيرسى ستاندارد" وغيرها من شركات النفط، كانت تعتقد أن احتياطياتها فى نصف الكرة الغربى قد لا تكون كافية لتلبية الاحتياجات الأمريكية فى المستقبل المنظور، كانت إدارة "ويلسون" تتوقع نقصا فى الخام بعد الحرب وضغطت على بريطانيا لتسرع بفتح الباب لإسهام الولايات المتحدة فى كونسورتيوم شركة البترول التركية. متجاهلين تذمر "العم سام"، التقى القادة البريطانيون والفرنسيون فى "سان ريمو" على الريڤييرا الإيطالية، حيث وقعوا اتفاقا رسميا فى أبريل ١٩٢٠ يستبعد الولايات المتحدة رسميا من النفط العراقى. مغضبا من اتفاق "سان ريمو" كان وزير الخارجية "باينبردج كولبى – Bainbridge Colby" يذكر المسئولين البريطانيين بعد سبعة أشهر بأن أمريكا كانت ما تزال ملتزمة بمبدأ مفاده أن فرص استكشاف وتنمية الموارد البترولية فى العالم، أينما وجدت، لابد من أن تكون متاحة أمام الجميع دون تمييز"[٤]. وخشية أن يقوم منافسوهم فى الولايات المتحدة باستغلال وضعهم الاحتكارى فى إيران والعراق لبدء حرب أسعار عن طريق إغراق السوق بخام الشرق الأوسط منخفض التكلفة، استجابت "چيرسى ستاندارد" لدعوة كولبى لسياسة الباب المفتوح وبدأت عمليات البحث عن امتيازات نفطية فى الخليج الفارسى[٥].

كانت شركة ستاندارد أويل كومپانى – نيويورك – Standard Oil Company of New York. (Socony) هى أكثر الشركات الأمريكية ضغطا من أجل سياسة الباب

المفتوح، وكانت إحدى الشركات التى تفرعت عن "مجموعة روكفلر" التى أصدرت المحكمة العليا قرار تفكيكها كما ذكرنا من قبل، ولأن أفق توقعات حصول "سوكونى – Socony" على النفط فى الشرق الأوسط كانت قد أصيبت بالإحباط بسبب اتفاق سان ريمو، أقنعت الشركة وزارة الخارجية بزيادة الضغط على البريطانيين للسماح للشركات الأمريكية متعددة الجنسية بالشراء فى شركة البترول التركية (TPC)(٦). ولأن "وايت هول" كان قلقا من أن يثير التمييز ضد شركات البترول الأمريكية الرغبة فى الانتقام من التجارة البريطانية، عرض على الشركات الأمريكية حصة كبيرة فى البترول العراقى فى أواخر ١٩٢٢؛ وعندما نجح فريق حفر بريطانى فى اكتشاف أول بئر غنية غزيرة الإنتاج على بعد مائتى ميل شمال بغداد بعد ذلك بخمس سنوات كان اسم شركة البترول التركية قد تغير إلى "شركة البترول العراقية Iraq Petroleum Company (IPC) وتمت إعادة هيكلة ملكيتها. "سوكونى" و"چيرسى" اندمجتا لتحصلا معا على ٢٣,٧٥٪ من إجمالى حصة "IPC"، الإنجليزية الفارسية حصلت أيضا على ٢٣,٧٥٪ "رويال داتش شل" على ٢٣,٧٥٪، "الشركة الفرنسية للبترول": (CFP) Compagnie Française des Petroles المملوكة للدولة ٢٣,٧٥٪ الباقى ومقداره ٥٪ كان من نصيب "كالوست جلبنكيان – Calouste Gulbenkian" السمسار الأرمينى الناعم الذى عقد الصفقة والذى كان قد ساعد فى الحصول على الامتياز الأصلى من الأتراك(٧).

بعد أن انسلتا من الباب المفتوح إلى بترول الشرق الأوسط تحركت كل من "سوكونى" و"چيرسى ستاندارد" بسرعة لإغلاقه وراءهما. فى أواخر العشرينيات كان العالم مغرقا بالنفط. كانت الشركات داخل كونسورتيوم الشركة الإيرانية تخشى انخفاض الأسعار والأرباح بشدة فى حال تدفق الخام العراقى فى الأسواق. وفى يوليو ١٩٢٨ تفتق ذهن ممثلى الشركتين الأمريكيتين وشركائهم فى شركة البترول الإيرانية عن اتفاق خاص بهدف تقييد الإنتاج وتأخير عمليات الاستكشاف فى معظم مناطق الشرق الأوسط. وبناء على خريطة قديمة للشرق الأوسط تعود إلى العام

١٩١٤ رسم "كالوست جلبنكيان" خطا أحمر عريضا حول الإمبراطورية العثمانية قبل الحرب وهى مساحة كانت تضم العراق والسعودية ولا تضم إيران والكويت واقترح أن يحجم كل أعضاء الشركة الإيرانية عن الحصول على امتيازات جديدة داخل هذه المساحة إلا بموافقة جماعية من الشركاء فى المجموعة. "چيرسى ستاندارد" و"سوكونى" قبلتا اقتراح "جلبنكيان" بلهفة شديدة، كما قبلته كل من "الإنجليزية البريطانية" و"رويال داتش" والفرنسية .CFP. كانت إدارة كوولدچ – **Coolidge** المشغولة بالمفاوضات حول ديون الحرب الأوروبية تبدو راضية بأن تترك صنع سياسة أمريكا الخارجية الخاصة بالنفط فى أيدى الشركات الخاصة، وعن طريق كبح جماح المنافسة بمباركة ضمنية من واشنطن، كان اتفاق الخط الأحمر الذى رسمه "جلبنكيان" يضمن للشركات الأمريكية والبريطانية المتعددة الجنسية ما كانوا يرغبون فيه بشدة: مصادر آمنه للإمداد من الشرق الأوسط وأسعار مستقرة(٨).

الشركات الأصغر الأقل تعطشا للخام مثل ستاندارد أويل – كاليفورنيا: **Standard Oil of California (Socal)**، وهى شركة فرعية أخرى من نتاج تفكيك إمبراطورية روكفلر، كانت أقل رضا بمشروع جلبنكيان. ولأنهم كانوا مصممين على أن تكون الشركات خارج كونسورتيوم الشركة الإيرانية حرة فى البحث عن آبار جديدة داخل الحزام الأحمر، قام المسئولون فى "سوكال – **Socal**" بالاتصال بملك السعودية عبد العزيز بن سعود فى أواخر ١٩٣١، وبعد جدال، وافقت "سوكال" على أن تدفع له ٣٥٠٠٠ جنيه استرلينى ذهبا مقابل امتياز لمدة ٦٠ عاما فى المنطقة الممتدة من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر. ولكى تساعد نفسها على تحمل تكلفة الاستكشاف وضمان أسواق مستقبلية قامت "سوكال" بعد ثلاث سنوات ببيع ٥٠٪ من فرعها المشارك مع السعودية **California Arabian Standard Oil Company (CASOC)** إلى شركة **Texaco** وهى شركة متعددة الجنسية مقرها هيوستن كانت متلهفة على الحصول على خام الشرق الأوسط. فى مارس ١٩٣٨ نجح مهندسو **CASOC** الذين كانوا ينقبون بالقرب من الظهران فى اكتشاف نفط على عمق ميل فى

الصحراء السعودية، وفى سنة ١٩٤٠ كانت "سوكال" وفرع تكساكو تضخان ٥ ملايين برميل سنويا من مملكة ابن سعود حيث كانت الاحتياطيات تقدر بما يفوق مثيلتها فى العراق وإيران[٩].

بينما كانت "سوكال" و"تكساكو" تسحبان من بحر نفط كبير داخل الحزام الأحمر فى العربية السعودية، كانت "جلف أويل – Gulf Oil"، ومركزها بتسبورج، تحاول الحصول على امتياز مربح مماثل بجوارهما فى الكويت، وبالرغم من أن المشيخة الصغيرة الواقعة على رأس الخليج الفارسى كانت خارج خط "جلبنكيان" الأحمر، كان البريطانيون يمارسون حماية على الكويت منذ ١٨٩٩ ولم يكونوا متلهفين على فتح الباب للشركات الأمريكية المتعددة الجنسية، إلا أن "جلف أويل" كانت ذات صلات جيدة على جانبى الأطلنطى؛ كان "أندرو ميلون – Andrew Mellon" مالك الأسهم الرئيسى فى الشركة سفيرا لبريطانيا العظمى أثناء فترة إدارة "هوفر" ولم يكن لديه مشكلة فى الحصول على دعم وزارة الخارجية لمبادرة شركة "جلف" فى أوائل الثلاثينيات. بعد عودة "ميلون" إلى بلاده بفترة قصيرة، سمح "وايت هول" لجلف أويل بالدخول فى شراكة مناصفة مع الإنجليزية الفارسية فى الكويت. مثابرة شركة "جلف" أتت أكلها فى ١٩٣٨ عندما اكتشف مهندسوها حوض نفط كبيرا جنوب شرق الكويت، وبالرغم من أن شركاءها البريطانيين كانوا مصرين على إبقاء خام الكويت خارج السوق لفترة غير محددة، فإن "جلف أويل" كسبت ما كان يسعى إليه "أندرو ميلون" دائما، وهو: إمكانية الوصول إلى كميات غير محدودة من الإمداد النفطى من الشرق الأوسط[١٠].

بحلول عام ١٩٤١ كانت خمس شركات أمريكية متعددة الجنسية قد نفذت من الباب المفتوح لكى تنقب فى الشرق الأوسط، هذه الشركات هى: "جيرسى ستاندارد" و"سوكونى" و"سوكال" و"تكساكو" و"جلف"، وبمساعدة عرضية من الخارجية الأمريكية تكبدت قرابة بليون دولار فى الامتيازات البترولية فى العراق والسعودية والكويت. كانت الولايات المتحدة، مع كل احتياطياتها الداخلية الهائلة فى تكساس وأوكلاهوما

وكاليفورنيا تستورد القليل من النفط عشية الحرب العالمية الثانية، ولكن الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية كانت تتوقع أن تحقق مكاسب ضخمة فى النهاية من بيع خام الشرق الأوسط للمستهلكين فى أوروبا وآسيا؛ حتى عندما لاحت سحب الحرب فى الأفق كانت إدارة "روزفلت" تفضل أن تترك كلا من مشكلات وأرباح نفط الخليج فى أيدى الشركات الخاصة. والحقيقة أن رؤساء "كاسوك" عندما التمسوا مساعدة الولايات المتحدة المالية لإنقاذ امتيازاتهم فى السعودية، كان من رأى "روزفلت" أن "وايت هول" ربما يكون الأنسب للقيام بهذه المهمة، أكثر من البيت الأبيض. كانت تعليمات "روزفلت" لأحد مستشاريه فى ١٨ يوليو ١٩٤١ "عليك أن تنقل للبريطانيين تمنياتى بأن يهتموا بملك السعودية لأن هذا أمر بعيد عنا إلى حد ما"[١١]، ولكن البيت الأبيض سيكون شعوره مختلفا خلال السنوات التالية.

• النفط والحرب والأمن القومى (١٩٤١-١٩٤٧)

ألقت احتياجات أمريكا المتزايدة من الطاقة أثناء الحرب العالمية الثانية الضوء على العلاقة الأكيدة بين النفط والأمن القومى، لتقنع إدارة "روزفلت" بأن القرارات الخاصة بنفط الخليج الفارسى من الأهمية بحيث ينبغى ألا تترك بالكامل فى أيدى المؤسسات الخاصة؛ وقبل الهجوم المفاجئ على "بيرل هاربر" بفترة قصيرة كان كبار المسئولين الأمريكيين قد أدركوا أن طموحات اليابان الإمبرايالية فى جنوب الباسفيك والمحيط الهندى، كان يقوى منها إلى حد بعيد إصرارها على السيطرة على جزر الهند الشرقية الهولندية الغنية بالنفط، ورغبتها فى أن يكون لها منفذ إلى خام الشرق الأوسط. لم يغب كذلك عن "روزفلت" ومستشاريه ملاحظة أن سعى "أدولف هتلر – Adolf Hitler" إلى الشرق كان نابعا لدرجة كبيرة من هاجس نازى لحل مشاكل الطاقة الألمانية بالاستيلاء على حقول النفط فى رومانيا وروسيا، وربما فى العراق وإيران كذلك[١٢].

وبهدف توضيح سياسة أمريكا الاستراتيجية الخاصة بالنفط فى الخليج الفارسى وأماكن أخرى، طلب "روزفلت" من وزير الداخلية "هارولد أيكس – Harold

Ickes" أن يرأس إدارة النفط الخاصة بالحرب، التى كانت قد أنشئت حديثا فى أواخر ١٩٤٢. وباعتباره مقاتلا بيروقراطيا سريع الغضب وأحد أساطين "البرنامج الجديد" كان "أيكس" يعتقد أنه لكى تضمن الولايات المتحدة الوصول إلى النفط الذى تريده لكى تكسب الحرب وتضمن السلام الذى سوف يتبع ذلك، لابد من أن تكون لها اليد العليا فى "وول ستريت" وعلى "وايت هول" فى الشرق الأوسط. فى البداية رحب رجال الأعمال الأمريكيون والدبلوماسيون البريطانيون بتناول "أيكس" للمشكلات الخارجية المتعلقة بالنفط. كانت جماعات الضغط فى "كاسوك" قد حثت إدارة روزفلت مرارا وتكرارا على أن تقدم معونات اقتصادية مهمة للعربية السعودية منذ ١٩٤١[١٣] اقتناعا منهم بأنه بدون مساعدة واشنطن لابن سعود لكى يحل مشكلاته المالية بسبب الحرب فإن "مملكته المستقلة، وربما العالم العربى كله، يمكن أن تعمها الفوضى"، كذلك كان صناع السياسة الأمريكية قلقين خشية انتقال الفوضى إن هى دبت فى بيت "آل سعود" الذى يتحكم فى الأماكن المقدسة فى مكة، إلى المراكز الاستعمارية البريطانية من فلسطين إلى الهند. بعد فترة قصيرة من تسلمه مهامه فى إدارة النفط الخاصة بالحرب، كان لـ"أيكس" الفضل فى الحصول على موافقة "روزفلت" فى ١٨ فبراير ١٩٤٣ على قرار مثير للجدل يجعل السعودية، التى لم تشارك فى الحرب، جديرة بمعونة أمريكية تقدر بملايين الدولارات بموجب قانون الإقراض والتأجير فى زمن الحرب "Lend Lease Act"، وهو القانون الذى كانت الولايات المتحدة تقدم بموجبه مختلف المساعدات المادية للدول الحليفة التى تحارب ألمانيا وإيطاليا.

قبل انتهاء الحرب بوقت طويل كان "أيكس" قد فقد مكانته فى "وول ستريت" و"وايت هول". بدأت المتاعب فى يونيو ١٩٤٣ عندما أقنع "روزفلت" بإنشاء "مؤسسة الاحتياطيات البترولية – Petroleum Reserves Corporation. (PRC)"، وهى وكالة حكومية لديها الصلاحية للتوسع فى إمدادات النفط الأمريكية عن طريق الحصول على امتيازات فى ما وراء البحار. مصمما على ضرورة أن تحصل الولايات المتحدة على حصة رسمية فى بترول الشرق الأوسط تعادل حصة الحكومة البريطانية أجرى "أيكس" اتصالاته بالمسئولين فى كل من "سوكال" و"تكساكو" فيما بعد لكى تبيعا

نصيبهما فى الفرع السعودى لمؤسسة الاحتياطيات البترولية (PRC)، وبعد صده من كلتا الشركتين اللتين لم يكن لهما أى مصلحة فى تشجيع إنشاء مؤسسة مملوكة للحكومة، كشف "أيكس" عن مشروع أكثر طموحا فى فبراير ١٩٤٤، وراح يتساءل ما إذا كانت بريطانيا على استعداد أن تنقل حصتها فى حقول الكويت وهى ٥٠٪، كسداد جزئى لما حصلت عليه من الولايات المتحدة بموجب قانون الإقراض والتأجير فى زمن الحرب.

كان الرد الموجز الواضح هو "لا"، رفضت الحكومة البريطانية و"جلف أويل" المالكة للنصف الآخر العرض على الفور، وحذرتا من مناورات "أيكس" البيروقراطية التى كانت خطرا على جهود الحرب. لم ييأس مهندس الصفقات العنيد فأعاد الكرة فى الخريف نفسه بفكرة جديدة وهى إنشاء خط أنابيب يمتد ألف ميل لنقل الخام السعودى والكويتى إلى شرق المتوسط حيث تقيم مؤسسة الاحتياطيات البترولية (PRC) منشأة ضخمة للتخزين. وبالرغم من أن الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية والمسئولين البريطانيين كانوا يجدون مشروع "أيكس" الأخير أكثر جاذبية من أفكاره السابقة، فإن شركات النفط المحلية الصغيرة كانت تخشى أن يغرق خط الأنابيب المملوك للحكومة الأسواق بخام رخيص من الشرق الأوسط يجعلهم يخرجون من سوق العمل، وكان ذلك أيضا هو موقف أعضاء الكونجرس من تكساس وأوكلاهوما الذين أجبروا أيكس على سحب اقتراح خط الأنابيب فى يونيو ١٩٤٤[١٦].

أثار فشل مساعى "أيكس" للحصول على حصة للحكومة فى نفط الخليج الفارسى مشاعر متضاربة بين منافسيه البيروقراطيين فى وزارة الخارجية. وزير الخارجية "كوردل هل - Cordell Hull" وهو ديمقراطى مسن من تينسى كان قد أمضى حياته يبشر بالمؤسسات الحرة وسياسة الباب المفتوح، وضع معظم مشروعات مؤسسة الاحتياطيات البترولية موضع المساءلة باعتبارها - على الأرجح - تدفع فى اتجاهات للسيطرة الاقتصادية تضر بتوسع التجارة والاستثمارات العالمية؛ إلا أن "هل" وكبار مستشاريه، كانوا مثل "أيكس"، متفقين على أن الاحتياطيات النفطية

الأجنبية بشكل عام، والستة والعشرين بليون برميل من الخام المقدر أنها موجودة فى الشرق الأوسط بشكل خاص كانت شديدة الأهمية، ليس من أجل الاستمرار فى الحرب بكفاءة، وإنما من أجل الأمن القومى بعدها أيضا. بدون ضمان الوصول إلى تلك الاحتياطيات، كما كان "هربرت فيس – Herbert Feis" المستشار الاقتصادى لوزارة الخارجية يحذر "هل" فى مارس ١٩٤٣ فإن الولايات المتحدة ستجد نفسها فى مواجهة المخاطر التالية: (أ) سيكون عليها أن تدفع ثمنا اقتصاديا أو سياسيا لضمان الحصول على النفط، أو (ب) الفشل فى الحصول عليه[١٧]. وفى آخر الأمر، أشار "إى. إل. دى جولير – E. L. De Golyer" فى أوائل ١٩٤٤ إلى أن "مركز جاذبية إنتاج النفط العالمى كان يتحول من منطقة الكاريبى إلى الشرق الأوسط – إلى الخليج الفارسى[١٨].

إلا أنه بينما كان "هل" و"فيس" يشاركان "أيكس" تشخيصه بشأن المخاوف الأمريكية التى كانت تلوح فى الأفق بالنسبة للنفط، رفضا الأسلوب الذى اقترحه للعلاج؛ ولأن وزارة الخارجية كانت مقتنعة بأن التدخل الحكومى الزائد فى نفط الشرق الأوسط ربما يستثير نقدا عنيفا من الشركات الصغيرة فى الداخل ومن الزعامات الوطنية فى الخارج، قامت بالضغط من أجل التوصل إلى اتفاقية نفطية أنجلو-أمريكية للاحتفاظ بالباب مفتوحا أمام المؤسسات الأمريكية الخاصة. ومن أجل التوصل إلى حلف بترولى مع "وايت هول" حصل "هل" ومستشاروه على دعم قوى من الجالس فى البيت الأبيض، الذى كان منزعجا لأن "البريطانيين كانوا يرغبون فى المشاركة فى الاحتياطيات النفطية السعودية" ومن الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية التى كانت امتيازاتها عرضة لأطماع المملكة المتحدة[١٩].

بهذا الهدف، رتب "هل" و"روزفلت" سلسلة من الاجتماعات فى واشنطن، حيث تمكن خبراء النفط البريطانيون والأمريكيون بمساعدة كبار المسئولين فى الشركات من التوصل إلى حل وسط. فى الثامن من أغسطس ١٩٤٤ تم توقيع اتفاقية النفط الأنجلو-أمريكية التى أكدت احترام الامتيازات القائمة واعترفت بأهمية ومكانة "وايت

هول" فى الشرق الأوسط، وفى الوقت نفسه أكدت، نتيجة إصرار "هل" و"روزفلت"، ضرورة تطبيق "مبدأ الفرصة المتساوية" بالنسبة لأى شركة نفطية أمريكية تريد أن تدخل المنطقة. المسئولون فى الخارجية الأمريكية ورجال النفط فى الشركات المتعددة الجنسية كانوا يريدون أن يستخدموا هذه الاتفاقية كوسيلة رخيصة نسبيا لحماية وتنمية المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط ولكن منتجى النفط المحلى وأصدقاءهم فى "كابيتول هل" اتهموا إدارة "روزفلت" بأنها كانت تريد أن "تنشئ تكتلا تجاريا متميزا يدفع تكلفته الشركات الصغيرة ومستهلكو الطبقة الوسطى"[٢٠]، كما قال "چوزيف پيو – **Joseph Pew**" من شركة "صن أويل – **Sun Oil**"؛ وفى وجه معارضة شديدة فى الكونجرس قام "إدوارد آر. ستيتينيوس – **Edward R.Stettinius**" الذى خلف "هل" بإلغاء هذه الاتفاقية – على مضض – فى يناير ١٩٤٥[٢١].

ربما يكون المعترضون فى "كابيتول هل" قد قتلوا خطة "روزفلت" من أجل اتفاقية بترولية رسمية بين واشنطن ولندن فى الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الثانية، ولكن جماعات الضغط الداخلية لم تستطع أن تمنع إدارة "ترومان" من محاولة دمج خام الخليج الفارسى فى استراتيچية الحرب الباردة الأمريكية، وبالرغم من أن عددا قليلا من الأمريكيين فى أوائل ١٩٤٥ كانوا يتوقعون نقصا خطيرا بعد الحرب، فإن كبار المسئولين فى الخارجية والپنتاجون كان لديهم شعور بأن الولايات المتحدة التى كانت تقدم ٨٥٪ من البليون برميل من الخام الذى كانت تستهلكه قوات الحلفاء منذ ١٩٤١ لابد من أن يكون لديها إمكانية الوصول الآمنة إلى مصادر النفط الأجنبية لكى تعوض احتياطياتها الداخلية الناضبة. "چون لوفتس – **John Loftus**" رئيس إدارة النفط فى الخارجية الأمريكية عبر عن محتوى هذا الخط الفكرى بعد ذلك فى ربيع العام نفسه مشيرا فى مايو ١٩٤٥ إلى أن الأمن القومى للولايات المتحدة كان "يتطلب زيادة نسبية فى معدل استغلال الاحتياطيات النفطية فى نصف الكرة الشرقى (وبخاصة فى الجزء الشرق أوسطى منه) مع تناقص نسبى فى معدل الاستغلال فى النصف الغربى"؛ ولتحقيق هذا الهدف، أوصى "لوفتس" بأن تسعى إدارة "ترومان" لوقف التدخل السياسى البريطانى فى عمليات الحصول على امتيازات نفطية فى

الخليج الفارسى لكى تتمكن الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية من العمل بحرية أكبر فى المنطقة"[٢٢].

الجهود الأمريكية للإفادة من الاحتياطيات النفطية للشرق الأوسط على نحو أكثر كفاءة، تعرقلت بسبب التفكك السريع لتحالف الحرب الكبير، وهو ما أدى إلى إعادة تأجج الخصومات التجارية مع بريطانيا وإشعال صراعات سياسية واقتصادية متفجرة مع روسيا. المسئولون الأمريكيون، على سبيل المثال، كانوا أكثر استعدادا لمزيد من الاعتماد على الخليج الفارسى وأقل منه على نصف الكرة الغربى لتلبية احتياجات المستهلكين الأوروبيين من الطاقة، ولكن "وايت هول" كان مترددا أن يفتح الباب أكثر من ذلك أمام الشركات النفطية الأمريكية التى كانت تسعى إلى الدخول إلى الشرق الأوسط. ومما جعل الأمور أكثر سوءا تصاعد الدلائل على أن الاتحاد السوفيتى، الذى كان قد مارس نفوذا ضخما فى طهران أثناء الحرب العالمية الثانية، قد يحاول مجددا أن يسحب السيطرة على النفط الإيرانى من بريطانيا، وهو ما "قد يعنى امتداد النفوذ السوفيتى إلى شواطئ الخليج الفارسى بما يخلق خطرا محتملا على ممتلكاتنا النفطية الغنية الواسعة فى السعودية والبحرين والكويت"[٢٣]، كما حذر "والاس موراى – Wallace Murray" سفير الولايات المتحدة لدى إيران فى واشنطن فى ٢٥ سبتمبر ١٩٤٥.

منافسة القوة الشديدة التى كانت تتصاعد فى الخليج الفارسى كانت تؤكد أهمية نفط المنطقة فى نظر كبار صناع السياسة الأمريكية. "لو حدث أن دخلنا فى حرب عالمية أخرى، فمن المحتمل جدا ألا تكون لدينا إمكانية الوصول إلى احتياطيات الشرق الأوسط، ولكن، فى الوقت نفسه، استخدام هذه الاحتياطيات سوف يمنع نضوب الاحتياطى لدينا، وهو نضوب ربما يكون حادا خلال السنوات الخمس عشرة التالية"[٢٤]، كان ذلك ما أشار إليه "چيمس فورستال – James Forrestal" وزير البحرية فى الخامس من أبريل ١٩٤٦. ومع استهلاك أمريكى من النفط بعد الحرب يصل إلى حوالى ٢٠٪ من مستويات ما قبل الحرب، وباحتياطيات أمريكية مؤكدة

تصل إلى ٧٪ فقط، كان يبدو أن الأمن القومى يزداد اعتماده على التوسع فى إنتاج الشرق الأوسط. وبالرغم من أن الولايات المتحدة كانت ما تزال تنتج نفطا أكثر من استهلاكها، فإن وزير الخارجية "چون لوفتس" كان يتنبأ بأن "فى خلال سنوات قليلة سنصبح بسبب الحاجة، دولة مستوردة للنفط بالفعل"، وللتقليل من درجة التعرض لهذا الخطر، كان على الولايات المتحدة أن تستنزف "المناطق الغنية بالنفط فى الشرق الأوسط" وتقلل من "استنزاف احتياطيات نصف الكرة الغربى"، وهو ما كان يميز نمط تجارة النفط فى الماضى"، الأمر الذى يعنى "مساعدات دبلوماسية ودعما للشركات الأمريكية فى تعاملاتها مع الحكومات الأجنبية" فى الخليج الفارسى[٢٥].

• واشنطن و"وول ستريت" ونفط الشرق الأوسط: (١٩٤٧-١٩٥٤)

بحلول ربيع ١٩٤٧ كانت إدارة "ترومان" وأكبر الشركات النفطية الأمريكية المتعددة الجنسية قد تمكنت من تأسيس ما يمكن وصفه بأنه شراكة غير رسمية مبنية على اقتناع مشترك بأن الأمن القومى والربحية المشتركة كانا يتطلبان توسيع إمكانية الوصول الأمريكى إلى الاحتياطيات النفطية فى الشرق الأوسط. كان من بين الخطوات الأولى لتأمين ذلك إلغاء اتفاق الخط الأحمر الخاص بكونسورتيوم شركة بترول العراق (IPC) الذى منع على مدى عشرين سنة تقريبا عملاقين من شركات النفط الأمريكية ("چيرسى ستاندارد" و"موبيل" - سوكونى سابقا-) من توسيع عملياتهما داخل الإمبراطورية العثمانية السابقة. عندما اقترحت الشركتان إزالة ذلك الخط الأحمر فى أواخر ١٩٤٦ - وكانتا تحت سيطرة بريطانية - أذعنت لذلك "الإنجليزية الفارسية" و"رويال دتش شل"، شريكتاهما فى الامتياز العراقى، ولكن CFP (وهى ملكية فرنسية) عارضت بشدة، كما عارض بشدة كذلك "كالوست جلبنكيان" المشهور بـ"مستر ٥٪". وعندما أعلن المسئولون الفرنسيون أنه كان يتم استبعادهم بطريقة فجة من نفط الشرق الأوسط، فردت وزارة الخارجية راية الباب المفتوح البالية، وردت بأن اتفاقية الخط الأحمر وأى اتفاقية أخرى تقوم على "تقييد

المنافسة" سوف تعتبر من الآن فصاعدا "ضد السياسة الاقتصادية الخارجية" للولايات المتحدة[٢٦]. محبطين نتيجة موقف واشنطن، بدأت **CFP** كما بدأ "جلبنكيان" معركة قانونية طويلة مع شركائهما فى بترول العراق **"IPC"** قبل تسوية الأمر فى المحكمة فى نوفمبر ١٩٤٨[٢٧].

بعد الهرب من الخط الأحمر بمساعدة "فوجى بوتوم"، أصبحت "چيرسى ستاندارد" و"موبيل" حرتان فى السعى نحو خطط للتنسيق مع "سوكال" و"تكساكو" اللتين كانتا تبحثان عن رأسمال جديد من أجل توسيع عملياتهما فى مناطق قريبة فى السعودية؛ ومتلهفتين على زيادة عائداتهما ومستحقاتهما بحكم الامتياز لشركتهما الجديدة التى أصبح اسمها "أرامكو – **ARAMCO**" (شركة الزيت العربية الأمريكية **Arabian-American Oil Company**)، كشفت "سوكال" و"تكساكو" فى منتصف ١٩٤٥ عن مشروع خط أنابيب ينقل الخام السعودى من الظهران إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط. وللمساعدة فى تمويل خط الـ**"TAPLINE"** **(Trans-Arabian Pipe-line)** عرض آباء أرامكو (سوكال وتكساكو) حصة أقلية على كل من "چيرسى ستاندارد" و"موبيل" فى الامتياز السعودى فى أوائل ١٩٤٦. لم تكن أى من الشركتين راغبة فى الانضمام إلى كارتل أرامكو إذا لم تقم إدارة "ترومان" بالكف عن إقامة الدعاوى بموجب قوانين مكافحة الاحتكار، وفى مارس ١٩٤٧ أعلنت وزارة العدل أن "ليس لها أى اعتراض قانونى على الصفقة"، وبعد ثمانية عشر شهرا، قبلت "چيرسى ستاندارد" و"موبيل" عرض "سوكال" و"تكساكو" لتصبحا شريكين كاملين فى "أرامكو"[٢٨].

تخلى "ترومان" ومستشاروه عن قوانين مكافحة الاحتكار وأذعنوا فى عملية اتحاد المنتجين المسهمين فى نفط السعودية، وذلك لأنهم كانوا يعتبرون كلا من "أرامكو" و"تابلاين" على نفس الدرجة من الأهمية بالنسبة للأمن القومى الأمريكى فى السنوات الأولى من الحرب الباردة. وبينما كانت "سوكال" و"تكساكو" و"چيرسى ستاندارد" و"موبيل" يستعدون لتجميع مواردهم فى الظهران، كان صناع السياسة

يضعون اللمسات الأخيرة لما سوف يصبح "مشروع مارشال"، وهو برنامج يقدر ببلايين الدولارات لإعادة إعمار أوروبا الغربية التى مزقتها الحرب. ولتمويل برنامج الإنعاش الأوروبى الذى كشف عنه وزير الخارجية الأمريكى "چورچ مارشال – George Marshall" فى يونيو ١٩٤٧، كانت إدارة "ترومان" تنوى الاعتماد ليس على حقول النفط فى شرق تكساس أو فنزويلا، وإنما بالأحرى على الثلاثمائة ألف برميل التى سوف تضخها أرامكو من خام السعودية كل يوم عبر خط "التاپلاين". وعندما عادت جماعات الضغط المحلية وأصدقاؤهم فى "كاپيتول هيل" إلى نغمة أن نفط الشرق الأوسط الرخيص سوف يطرد المنتجين الأمريكيين من سوق العمل، عاد "چيمس فورستال – James Forrestal" وكان قد تولى وزارة الدفاع المنشأة حديثا، إلى تكرار الحديث عن الأهمية الاستراتيچية والاقتصادية لمشروع خط الأنابيب. خط التاپلاين كما قال أمام لجنة من مجلس الشيوخ فى يناير ١٩٤٨ سوف ينقل النفط الذى سيكون "معظمه تقريبا إلى أوروبا والشرق الأقصى، وبقدر ما سيكون نفط الشرق الأوسط متوفرا بالنسبة لأوروبا فإن ذلك سوف يرفع العبء عن كاهلنا"[٢٩]. كما أن هذا العبء إذا لم يرفع عن كاهلنا – كما دون فى مفكرته – "ففى غضون ثمان سنوات" سيجد منتجو السيارات أنفسهم مجبرين على التحول إلى سيارات ٤ سلندر"[٣٠]. ولضمان أن تظل الروفر و"الستروين" و"الفولكس فاجن" تجرى على طرق أوروبا الغربية، وإنتاج السيارات الكبيرة "V-8" يتدفق من خطوط التجميع فى "ديترويت"، كانت إدارة "ترومان" تفسح الطريق لخط التاپلاين، وأظهرت دراسات الجدوى السياسية والطوبوغرافية أن خط الأنابيب كان لابد من أن يمتد غربا ثم شمال غرب الظهران عبر الصحارى السعودية ولسان الأراضى الأردنية ومرتفعات الجولان السورية إلى الساحل اللبنانى[٣١]. المسئولون الأمريكيون وفى "أرامكو" عملوا معا للحصول على الحقوق الضرورية لمرور خط الأنابيب وكان أسهل أجزاء هذه المهمة فى لبنان حيث نظام الحكم الموالى للغرب، ومع صفقة تدفع "أرامكو" بموجبها رسوما سنويا قيمتها ١٥٠ألف دولار للحصول على حق بناء رصيف نهاية خط الأنابيب ومجمع تكرير فى صيدا على بعد مائة ميل جنوبى بيروت. وعلى بعد مائة ميل شرقى

عمان كان من السهل أن يوافق الأمير "عبد الله" على مرور الخط عبر مملكته بمجرد تلقيه عرضا من "أرامكو" بأن تدفع له رسوم عبور قيمتها ٦٠ألف دولار سنويا، وفى دمشق القريبة لم تفلح جهود الدبلوماسيين أو رجال الأعمال فى التوصل إلى اتفاق مع الرئيس "شكرى القوتلى"، العربى القومى القوى، الذى كان يرى أن خط التاپلاين كان فى حاجة إلى سوريا أكثر مما كانت هى إليه وبعد إحباط استمر عامين من الشد والجذب حول مرور الخط شجعت إدارة "ترومان" رئيس الأركان السورى "حسنى الزعيم" سرا للقيام بانقلاب عسكرى على نظام "القوتلى" فى ٣١ مارس ١٩٤٩، وبعد ستة أسابيع منح الزعيم "أرامكو" حق المرور المريب ليزيل بذلك "آخر عقبة فى طريق بناء خط الأنابيب الذى يمر بالدول العربية وبقى معلقا لفترة طويلة"(٣٢).

بمجرد أن أصبح الطريق عبر سوريا والأردن ولبنان مفتوحا وممهدا بمساعدة واشنطن استكملت أرامكو بناء الخط فى ديسمبر ١٩٥٠ طبقا للجدول الزمنى ودفعت "تاپلاين" على الفور حصصا نسبية ضخمة للمستهلكين الأوروبيين وإدارة "ترومان" وبيت "آل سعود". كل يوم كان يمر ٣٢٠٠٠٠برميل من الخام السعودى عبر أنبوب من الصلب لمسافة ١١٠٠ميل من الظهران إلى صيدا، وبدوره قلل ذلك من اعتماد أوروبا على نفط نصف الكرة الغربى ومكن خبراء التخطيط الاستراتيچى الأمريكيين من تكديس احتياطيات نفطية من تكساس إلى ڤنزويلا من أجل الاستهلاك المحلى فيما بعد. بربط حقول النفط فى الظهران بالأسواق المباشرة، ساعدت "تاپلاين" على زيادة تقدر بـ٦٠٪ فى الإنتاج السعودى (من ٤٧٧٠٠٠ إلى ٧٧٠٠٠٠ برميل يوميا) وطفرة تقدر بـ١٣٥٪ فى العائدات التى تضخ لابن سعود، وبحلول عام ١٩٥٤ كانت مدفوعات "أرامكو" لبيت آل سعود قد وصلت إلى ما يزيد عن ربع بليون دولار وهو أربعة أمثال ما دفعته الشركة قبل خمس سنوات فقط(٣٣).

الارتفاع الضخم فى عائدات النفط التى حصلت عليها الحكومة السعودية لم يكن منبعه التاپلاين فقط، وإنما التغير الذى طرأ على العلاقات المالية لأرامكو مع كل من الرياض وواشنطن. تحت شروط الامتياز الأصلى كانت "أرامكو" ملزمة بأن تدفع

جعلا لابن سعود بما يعادل ١٢٪ من صافى أرباحها، وبالرغم من أن الملك المتعطش للمال كان يضغط على الشركة باستمرار من أجل تحسين الصفقة، لم يكن حريصا على التفاوض مع أرامكو حول الترتيبات المالية حتى نوفمبر ١٩٨٤ عندما أعلن "خوان پابلو پيريز ألفونسو – Juan Pablo Perez Alfonso" وزير النفط الڤنزويلى أن بلاده قد أجبرت أفرع "چيرسى ستاندارد" و"رويال داتش شل" على أن تقسم أرباحها مناصفة مع الحكومة فى كاراكاس. قليلون فى واشنطن هم الذين كانوا يتوقعون أن يغفل ابن سعود ما تضمنته خطوة "پيريز ألفونسو"، وكما ذكر "چورچ مكچى – George McGhee" فإن "السعوديين عرفوا أن الڤنزويليين يحصلون على نسبة ٥٠:٥٠، فما الذى يمنع أن يطلبوا هم ذلك أيضا؟"

سرعان ما أعلن الملك ومستشاروه أنهم كانوا يريدون الحصول على نسبة أكبر وضغطوا على "أرامكو" لكى تقبل صيغة مشاركة فى الأرباح على نموذج الصيغة الڤنزويلية. كان مسئولو الشركة على استعداد لتلبية طلب بيت آل سعود بشرط أن يوافق "العم سام" على إجراء أشبه بهدنة ضرائبية. حسب قواعد "إدارة العائدات الداخلية – Internal Revenue Service - (IRS)" لم يكن من حق الشركات الأمريكية العاملة فيما وراء البحار أن تطالب باعتماد ضرائب خارجية عن العائدات المدفوعة للحكومات المحلية، وإذا حصلت "أرامكو" على اعتماد يوازن المدفوعات المتزايدة يمكنها بالرغم من ذلك أن تقسم أرباحها مناصفة مع السعوديين مثلما حدث مع ڤنزويلا، وبالرغم من أن البعض من صناع السياسة عبروا عن قلقهم بسبب ما قد "يعتبر دعما لوضع "أرامكو" فى السعودية يتحمله دافع الضرائب الأمريكى"، اقتنع المسئولون فى وزارتى الخارجية والخزانة فى نوفمبر ١٩٥٠ بأن ضمان الضريبة الخارجية كان أمرا مهما بالنسبة لأمن الولايات المتحدة القومى؛ وبعد الحصول على مباركة إدارة "ترومان" على ترتيب أطلق عليه النقاد وصف "الحيلة الذهبية"، وقعت "أرامكو" اتفاقا فى أواخر ديسمبر يضمن لابن سعود نصف أرباح الشركة؛ وبعد خمس سنوات أكدت "IRS" رسميا أن المشروع كان قانونيا، وهو حكم وفر للشركة فى النهاية ما يزيد عن بليون دولار من ضرائب الولايات المتحدة[٣٦].

القلق نفسه على الأمن القومى الذى حفز وزارتى الخارجية والخزانة على دعم "الحيلة الذهبية" لأرامكو فى السعودية، سرعان ما جعل البيت الأبيض يلوى رقبة قوانين مكافحة الاحتكار لمساعدة الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية العاملة فى الشرق الأوسط. بعد بحث استمر ثلاث سنوات أجرته الشركات الأمريكية المنتجة للنفط فى الخليج الفارسى أصدرت لجنة التجارة الفيدرالية تقريرا شديد الانتقاد يوصى بإقامة الدعوى الجنائية بناء على قوانين مكافحة الاحتكار، ضد خمس شركات ("چيرسى ستاندارد" و"سوكال" و"موبيل" و"تكساكو" و"جلف") بسبب التلاعب فى الأسعار إلى غير ذلك من الممارسات التجارية غير المستقيمة، فكان أن قامت الشركات بقيادة "چيرسى ستاندارد" بهجوم مضاد بزعم أن مثل تلك الدعاوى القضائية من شأنه أن يضر بأمن أمريكا القومى؛ وفى أواخر ١٩٥٢ كان متحدث باسم إحدى الشركات يحذر الچنرال "چيمس ب ماكجرانرى – James P.McGranery" النائب العام الأمريكى أن "چيرسى ترى أن الهجوم الحالى على شركات النفط قد أضر بالفعل بمصالح أمريكا النفطية فى الشرق الأوسط"، مضيفا أن "الشركات الأمريكية بعد أن تخلت عنها وجحدتها حكومتها، كما ينظرون إليها فى الشرق الأوسط، أصبحت هدفا للهجوم والأعمال العدائية من القوميين والشيوعيين وفصائل دينية مختلفة، وما كان ذلك ليحدث لو أنهم وجدوا هذه الشركات تحظى بحماية وثقة حكومتها"[٣٧]. على أية حال، لم تتحرك وزارة العدل واستمرت القضية ضد "چيرسى ستاندارد" والشركات الأربع الأخرى[٣٨].

مع هيئة محلفين كبيرة وعلى وشك تقديم صحيفة الاتهام، حث المسئولون فى وزارات الخارجية والدفاع والداخلية الرئيس "ترومان" فى ٦ يناير ١٩٥٣ على أن يهرع لحماية شركات النفط من مواصلة الدعوى الجنائية؛ وذَكّرت الوزارات الثلاث رجل البيت الأبيض بأنه "بإعطاء قوة للزعم أو الادعاء بأن النظام الأمريكى نظام امتياز واحتكار وظلم واستعمار"، فإن هذه القضية التى تقيمها وزارة العدل يمكن أن تخرب مشروعات الإنعاش الاقتصادى لأوروبا الغربية، وتقضى على آمال التنمية الاقتصادية فى الشرق الأوسط، وتعود بالفائدة على الاتحاد السوڤيتى، كما تعود

علينا بالضرر"(٣٩)، أما وزارة العدل فردت من جانبها بتقرير يحث "ترومان" على السماح بمواصلة السير فى القضية كما هو مقرر(٤٠). بعد ثلاثة أيام قام الرئيس بتسوية المسألة فى اجتماع لمجلس الأمن القومى. وزارات الخارجية والدفاع والداخلية أكدت "الآثار الضارة على أمننا القومى" بينما "قدمت وزارة العدل، بشكل عام، قضية ضعيفة". بعد الاستماع إلى كلا الجانبين وافق "ترومان" على أن كفة اعتبارات الأمن القومى كانت هى الأرجح "وأعطى تعليماته للنائب العام بأن "يغلق ملف القضية الجنائية" ضد الشركات متعددة الجنسية وأن يعد بدلا منه "إجراء مدنيا"(٤١).

قرار "ترومان" الذى جاء فى آخر لحظة ليوقف إجراءات الدعوى رحبت به شركات النفط الأمريكية التى أصبح بإمكانها أن تحول اهتمامها من الصراع ضد لجنة التجارة الفيدرالية ووزارة العدل فى الداخل إلى مواجهة نظام وطنى فى الطرف الآخر من العالم تقريبا، فى إيران حيث كان هجوم على عمليات النفط البريطانية لا يبشر بالخير بالنسبة للأمريكيين الذين يقومون بنشاط تجارى فى المنطقة. على مدى نصف قرن تقريبا كانت الشركة البريطانية (التى كان قد أعيد تسميتها بشركة النفط الإنجليزية – الإيرانية – (Anglo - Iranian Oil Company - AIOC) لديها امتياز حصرى فى إيران وتضخ بليون برميل من خام الخليج الفارسى فى المخزون الاستراتيجى للبحرية الملكية، كما تضخ أرباحا ضخمة فى الاحتياطى الاسترلينى لـ"وايت هول" بينما تدفع جعلا سنويا يقدر بـ٣٥ مليون دولار فقط. بعد غيظ مكتوم استمر عدة عقود اشتعل الاستياء الإيرانى ضد الاحتكار البريطانى للنفط ليتحول إلى مواجهة شاملة فى أوائل الخمسينيات عندما دعا "محمد مصدق"، الزعيم الوطنى المتحمس، إلى تشريع يجبر "AIOC" على اقتسام أرباحها مناصفة مع إيران، كما كانت "أرامكو" قد فعلت مؤخرا مع السعودية على الضفة الأخرى من الخليج الفارسى. الشركة البريطانية التى اعتبرت اقتراح "مصدق" يتسم بالرعونة رفضت أن تتزحزح عن موقفها. وهى على ثقة من أن شاه إيران صاحب الميول الغربية المعروفة يمكن أن يوقف الإنجراف نحو التأميم. بعد سلسلة من الاضطرابات والأعمال العدائية ضد البريطانيين وبعض الاغتيالات فى أوائل ١٩٥١ صدق البرلمان الإيرانى فى

منتصف مارس على قانون جديد صارم خاص بالنفط مجبرا الشاه بعد شهر على تعيين "مصدق" رئيسا للوزراء[٤٢].

وقبل نهاية عام ١٩٥١ أصاب رئيس الوزراء الجديد "وايت هول" بالذهول عندما أصدر مرسوما بمصادرة ملكية شركة AIOC دون تعويض وطلب من رجال الأعمال والعسكريين البريطانيين مغادرة البلاد بأقصى سرعة ممكنة. بعد محاولات استمرت شهورا لإقناع البريطانيين بأن ترتيبا للمشاركة فى الأرباح على نمط ما حدث فى ڤنزويلا والسعودية كان أمرا حتميا فى إيران، كان كبار المسئولين الأمريكيين محبطين بسبب أسلوب وضع الرأس فى الرمال الذى انتهجته AIOC بخصوص نفط الشرق الأوسط، وكما عبر عن ذلك، غاضبا، "دين أتشسون – Dean Acheson" وزير الخارجية بعد ذلك عندما قال: "لم يحدث أن خسرت قلة مثل هذا القدر من الخسارة، بمثل هذه الحماقة وهذه السرعة"[٤٣]، وبمجرد أن واصل مصدق خططه لإنشاء الشركة الوطنية الإيرانية للنفط – National Iranian Oil Company المملوكة للدولة فى أواخر ١٩٥١، تبخر كل أمل فى التوصل إلى تسوية. المسئولون الأمريكيون الذين كانوا يدركون أن أساليب الذراع القوية لمصدق يمكن أن تمثل سابقة خطيرة تهدد امتيازات الولايات المتحدة النفطية فى الشرق الأوسط كله، كانوا يشجعون "چيرسى ستاندارد" وغيرها من الشركات الأمريكية متعددة الجنسية بهدوء، لمساعدة AIOC فى تنظيم مقاطعة شاملة للخام الإيرانى فى العالم كله؛ وعندما سلم "هارى ترومان" البيت الأبيض إلى "دوايت إيزنهاور – Dwight Eisenhower" فى يناير ١٩٥٣ كانت صادرات النفط الإيرانية قد هبطت من ٦٦٦٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ برميل فى اليوم[٤٤].

تحت ضغط الحاجة إلى العائدات، لجأ مصدق إلى طلب المساعدة المالية من الولايات المتحدة ملمحا إلى أن المقاطعة قد تجبره فى آخر الأمر إلى البحث عن أسواق للنفط الإيرانى داخل الكتلة السوڤيتية. منزعجة لوجود دلائل على تنامى نفوذ اليسار فى طهران، رفضت إدارة "إيزنهاور" طلب مصدق وعملت – بدلا من ذلك – فى السر لإطاحته فى أغسطس ١٩٥٣ على يد ضباط يمينيين من الموالين للشاه، ومقتنعة

بأن النفط الإيرانى لابد من أن يجد طريقه مرة أخرى إلى السوق العالمية فى حال استعادة الشاه والعناصر الأخرى الموالية للغرب لليد العليا لتوجيه الدفة، تحركت واشنطن فورا من أجل التوصل إلى حل وسط بين "AIOC" والحكومة فى إيران. كان "هربرت هوفر الابن – Herbert Hover Jr." خبير النفط الدولى هو الشخصية المحورية فى هذه المفاوضات، وكان أبوه قد شغل المكتب البيضوى قبل ربع قرن؛ وبعد عدة رحلات مكوكية بين طهران ولندن استطاع هوفر أن يعقد تسوية تحصل بموجبها AIOC على ٩٠ مليون دولار مقابل التنازل عن ثلاثة أخماس امتيازها الحصرى لمنافسيها الأمريكيين والموافقة على السماح للشركة الوطنية الإيرانية للنفط بالإشراف على العمليات اليومية فى حقول النفط الإيرانية[٤٥]؛ ولأن اقتراح "هوفر" تحويل الاحتكار الإيرانى الذى تقوم به "AIOC" إلى كونسورتيوم متعدد الجنسية كان يتطلب إسهام عدد من شركات النفط الأمريكية الكبرى المتعددة الجنسية، كان لابد من أن تزن إدارة إيزنهاور – مثل سابقتها – اعتبارات الأمن القومى فى الخارج مقابل قوانين مكافحة الاحتكار فى الداخل. كانت وزارة الخارجية تفضل التحايل على القوانين ولكن وزارة العدل لم تفعل، وبعد نقاش سريع فى اجتماع لمجلس الأمن القومى بتاريخ ١٤ يناير ١٩٥٤ انحاز "أيك" إلى "فوجى بوتوم" ووافق على أن ينصح النائب العام بأن مصالح الأمن القومى الأمريكى كانت تتطلب إسهام شركات النفط الأمريكية فى كونسورتيوم دولى لكى تتعاقد مع حكومة إيران داخل منطقة الامتياز السابقة لشركة "AIOC"[٤٦]؛ وبعد تسعة أشهر سيوافق شاه إيران على كونسورتيوم نفطى تحتفظ فيه AIOC بحصة قدرها ٤٠٪ وخمس شركات أمريكية (هى "چيرسى ستاندارد" و"موبيل" و"سوكال" و"تكساكو" و"جلف") بـ٤٠٪ أخرى، و"رويال دتش شل" بـ١٤٪، أما الـ١٦٪ المتبقية فكانت من نصيب "CFP" الفرنسية[٤٧].

وبفضل التعاون الوثيق بين واشنطن و"وول ستريت"، انضمت إيران، بحلول عام ١٩٥٤، إلى القائمة التى كانت تتنامى، قائمة الدول الشرق أوسطية التى أصبحت حقولها النفطية مُسْتَوْعَبَة فى إمبراطورية الأمن القومى الأمريكى. بإفساح الطريق أمام "تاپلاين – Tapline" ومواجهة القوميين والوطنيين من دمشق إلى طهران بحسم،

ساعد صناع السياسة العامة الشركات الخاصة على نقل عبء تمويل عملية الإنعاش الاقتصادى لأوروبا الغربية خلال العقد الأول من ١٩٤٦ من نصف الكرة الغربى إلى الخليج الفارسى. بمد قانون الضرائب الخاص بإدارة العائدات الداخلية (IRS) والتخلى عن قوانين مكافحة الاحتكار، كانت إدارتا "ترومان" و"إيزنهاور" تعتقدان أنهما حولتا شركات النفط الأمريكية المتعددة الجنسية إلى أدوات غير رسمية فى يد السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط.

• الأوبك وزحف التأميم (١٩٥٥-١٩٦٧)

الشراكة بين رجال الأعمال والدبلوماسيين، التى ساعدت على تقوية سيطرة الولايات المتحدة على خام الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية، ستكون عرضة لاختبار عسير خلال العقد الأول من ١٩٥٦ بسبب التغيرات الجذرية التى طرأت على صناعة النفط العالمية، وفى سياسات الدول المنتجة له. تحرك الشركات الأمريكية الأصغر حجما والأكثر مغامرة فى ما وراء البحار، واكتشاف احتياطيات كبيرة جديدة فى شمال أفريقيا، كل ذلك كان يعنى زيادة حدة المنافسة وهبوط الأسعار وتناقص عائدات بيت آل سعود والأنظمة الأخرى الغنية بالنفط حول الخليج الفارسى، التى تجمعت فى سبتمبر ١٩٦٠ لإنشاء "الأوبك - OPEC". التوسع الكبير فى إنتاج الشرق الأوسط من النفط فى أوائل الستينيات لمواجهة الطلب المتزايد، ليس فى أوروبا الغربية واليابان فحسب وإنما فى أمريكا أيضا، زاد من احتمال قيام الأوبك والدول النفطية الأكبر بتأسيس شراكة غير رسمية خاصة بها، الأمر الذى قد يلحق الضرر بمصالح الأمن القومى الأمريكى فى الخليج الفارسى.

ربما تكون المرة الأخيرة التى تلاقت فيها المصالح المشتركة والأمن القومى فى الشرق الأوسط، هى تلك فى أواخر العام ١٩٥٦ عندما استطاعت واشنطن و"وول ستريت" منع أزمة السويس من إلحاق الضرر بأسواق النفط العالمية. بعد سلسلة من التبادلات الدبلوماسية الحادة مع بريطانيا والولايات المتحدة أمم الرئيس المصرى "جمال عبد الناصر" قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦، وكان يمر منها ثلاثة أرباع

النفط الذى تستهلكه أوروبا الغربية؛ وعندما لجأت بريطانيا وفرنسا – بمساعدة إسرائيل – إلى التدخل المسلح فى أوائل نوفمبر أغرق عبد الناصر عددا من السفن فى الممر المائى الضيق، بينما فجر حلفاؤه فى سوريا خط الأنابيب التى تنقل الخام العراقى إلى لبنان حيث يتم شحنه إلى مصافى التكرير فى أوروبا. كان "إيزنهاور" يهدر غضبا قبل انتهاء أزمة السويس بوقت قصير "لو أغضبنا العرب فسوف يقومون بحظر كلى على النفط" ويفجرون بذلك أزمة طاقة"(٤٨).

تفادى هذا السيناريو الكئيب كان يتطلب تعاونا بين الشركات النفطية الأمريكية العملاقة لخرق سياسة الخطوط الإرشادية التى وضعتها وزارة العدل. وهو أكثر اقتناعا من أى وقت مضى بأن الأمن القومى الأمريكى لابد من أن يكون فوق اعتبارات مكافحة الاحتكار، سمح "إيزنهاور" فى أوائل نوفمبر بتشكيل "لجنة طوارئ الشرق الأوسط – **Middle East Emergency Committee**" وهى لجنة دائمة مكونة من صناع السياسة الأمريكية ومدراء الشركات المتعددة الجنسية الذين تلاعبوا بعقود النفط وجهزوا لتحويل نفط نصف الكرة الغربى عبر الأطلنطى. وفى ٨ نوفمبر كان "إيزنهاور" يقول لمستشاريه ووجهه تعلوه ابتسامة: "لو انتهى الأمر بروؤس مدراء هذه الشركات فى السجن أو بدفع غرامات باهظة فسوف أعفو عنهم"، وبمجرد أن سحبت بريطانيا قواتها من مصر فى أوائل ديسمبر، بدأت "جيرسى ستاندارد" وغيرها من شركات النفط الأمريكية عملية "نقل نفطى" ضخمة برعاية لجنة الطوارئ، أنقذت أوروبا الغربية من أزمة طاقة كاملة كانت وشيكة(٤٩).

كشف أزمة السويس عن قدرة القيادات المعادية للغرب على عرقلة تدفق خام الخليج الفارسى إلى المستهلك الأوروبى، جعل صناع السياسة يبحثون عن وسائل أكثر ضمانا للإمداد، وكان أحد البدائل التى وضعت فى الاعتبار: بناء خط أنابيب جديد من العراق وإيران يمر عبر تركيا إلى ساحل المتوسط متفاديا سوريا حيث كان يوجد نظام موال لـ"عبد الناصر"(٥٠). ولأن مثل هذا الخط لم يكن ليحقق الكثير من أجل تقليل اعتماد الغرب على شحنات النفط التى تمر عبر قناة السويس، كان

المسئولون الأمريكيون ينصحون منذ نوفمبر ١٩٥٦ بضرورة "تنفيذ برنامج لبناء عدد من الناقلات العملاقة فى أحواض بناء السفن الأمريكية" تكون قادرة على نقل خام الشرق الأوسط بأمان إلى أوروبا الغربية عن طريق رأس الرجاء الصالح[٥١]؛ وبنهاية ١٩٥٧ كانت وزارة الخارجية قد باتت واثقة من أنه "باستكمال سفن أسطول الناقلات سواء الموجودة حاليا فى الأحواض أو فى مرحلة التصميم سيكون الغرب فى وضع أكثر قوة" بخصوص نفط الخليج الفارسى[٥٢].

اكتشاف آبار نفط غنية فى ليبيا والجزائر فى أواخر الخمسينيات كان يعد بتقليل اعتماد الغرب على القنوات وخطوط الأنابيب والناقلات العملاقة أكثر من ذلك، ولأنها كانت تحتوى على نسبة كبريت أقل وأقرب من نفط الخليج الفارسى بألف ميل، كان الخام الليبى والجزائرى كأنما جاءا للوفاء باحتياجات أوروبا المتزايدة من الطاقة فى العقد القادم. وفى وقت الأزمة كان المسئولون الأمريكيون يسارعون، وخاصة كما حدث فى أغسطس ١٩٥٩، إلى القول إن ليبيا تحديدا، وعلى رأسها الملك إدريس السنوسى الموالى لأمريكا لديها "احتياطى نفطى للطوارئ يمكن الوصول إليه على نحو أكثر سهولة من الوصول إلى المناطق الموجودة شرق قناة السويس". وبمجرد أن بدأ وصول النفط الليبى إلى المستهلك الأوروبى بكميات تجارية فى منتصف الستينيات، كان بالإمكان تخصيص احتياطيات نصف الكرة الغربى حصريا لإمداد السوق المحلية الأمريكية التى كانت تتنامى على نحو سريع[٥٣].

كان الملك إدريس يتمنى أن يمنع الشركات الكبيرة المتعددة الجنسية من السيطرة الاحتكارية عن طريق دعوة الشركات الأمريكية الأصغر للاستثمار فى مملكته. شركة "كونتيننتال أويل كومپانى – **Continental Oil Company (Conoco)**" مثلا وافقت على العمل دون توقف خلال عامى ١٩٥٩، ١٩٦٠ لكى تضخ أكبر كمية ممكنة من الصحراء الليبية، ولكن ما كان جيدا بالنسبة لـ"**Conoco**" وليبيا، لم يكن جيدا بالضرورة للشركات الأمريكية والبريطانية الكبيرة العاملة فى الخليج الفارسى ولا بالنسبة للحكومات التى كانت تلك الشركات تدفع عائدات لها؛ وأمام فائض عالمى

متزايد من الخام، قامت الشركات المعروفة بالشقيقات السبع "The Seven Sisters" ("چيرسى ستاندارد"، و"موبل"، و"سوكال"، و"تكساكو"، و"جلف" و"رويال داتش شل"، و"برتش بتروليم – AIOC سابقا –" بتخفيض أسعارها فى أغسطس ١٩٦٠ كما خفضت، فجأة، مدفوعاتها للدول النفطية بنسبة ٧٪. مغضبين بسبب هذا التحكم الشديد فى ثروات بلادهم، اجتمع وزراء النفط فى السعودية وإيران والعراق وڤنزويلا فى بغداد على عجل فى ١٤ سبتمبر ١٩٦٠ وأنشأوا الأوپك – "OPEC"(٥٤).

على مدى العامين السابقين كان صناع السياسة الأمريكيون قلقين خشية وصول الأمور إلى هذا الحد، كما كان "چون فوستر دالاس – John Foster Dulles" قد صرح بشكل غير رسمى فى يناير ١٩٥٨ بأن "الوحدة العربية قد تجعل الأمر أكثر صعوبة على الشركات النفطية لكى تحتفظ بوضع مقبول فى الشرق الأوسط"(٥٥)؛ وبعد ستة أشهر فى أعقاب الانقلاب المفاجئ على النظام الموالى للغرب الذى كان يقف على رأس احتياطيات النفط العراقى الضخمة، كان المسئولون الأمريكيون القلقون يحذرون من أن "عدم اعتراف "الشقيقات السبع" على نحو أكثر واقعية بحاجة الدول صاحبة العلاقة إلى نصيب أكبر فى الاحتياطى النفطى وإلى توزيع أفضل لهذه الموارد من أجل أهداف إجتماعية واقتصادية، فإن الوصول الغربى للنفط فى المنطقة سيكون عرضة للخطر فى المستقبل"(٥٦).

وخشية أن "يجمع قادة الخليج الفارسى على سياسة بترولية واحدة" فى الجلسة الافتتاحية لمجلس البترول العربى الجديد الذى كان سينعقد فى القاهرة، راح "إيوچين هولمان – Eugene Holman" رئيس "چيرسى ستاندارد" يذكر "كريستيان هيرتر – Christian Herter" وزير الخارجية فى ١٨ مارس ١٩٥٩ بأنه "كان من المهم جدا أن يؤكد المسئولون الأمريكيون "حرمة العقود"(٥٧)، ولكن مدراء "أرامكو"، على العكس من ذلك، كانوا يعتقدون أن "هولمان" يبالغ وأكدوا للدبلوماسيين الأمريكيين فى أواخر أبريل أن موضوع القاهرة "لم يكن ليلحق ضررا كبيرا بمصالح الشركات الغربية المنتجة إلى الدرجة التى يخشى منها"(٥٨).

ما لم تعرفه "أرامكو" هو أن وزير النفط الفنزويلي الأسطوري "خوان پابلو پيريز ألفونسو - Juan Pablo Perez Alfonso" كان قد عقد سلسلة محادثات طويلة في القاهرة مع الشيخ عبد الله الطريقي، مدير شئون النفط السعودي الذي كان عاقدا العزم على الحصول على مزيد من الضغط على "الشقيقات السبع"، وكمهندس بترول درس في جامعة تكساس عمل لفترة قصيرة مع "تكساكو"، ترك الطريقي انطباعا إيجابيا لدى الوزير الفنزويلي كشخصية وطنية شديدة الحماسة. مقتنعين بأن تجمع الدول المنتجة يمكن أن يجبر الشركات العملاقة المتعددة الجنسية على دفع عائدات أعلى، قام "الطريقي" و"ألفونسو" بإقناع قرينيهما الكويتي والإيراني بالتوقيع بالأحرف الأولى على "اتفاق چنتلمان" يدعو لإنشاء لجنة استشارية للنفط تكون بمثابة جبهة مشتركة في مواجهة "الشقيقات السبع"(٥٩)، وبعد عودته إلى الرياض أشار "الطريقي" إلى أن "شركات النفط تجأر بالشكوى من أنها قد أصابها الدمار رغم أنها ما زالت تعمل في ڤنزويلا، وأن صناعة النفط لم يصبها الانهيار ولن تنهار في الشرق الأوسط عندما يحصل العرب على أكثر مما يحصلون عليه"(٦٠).

مع ميل ميزان القوى في الشرق الأوسط بشدة بعيدا عن الشركات المتعددة الجنسية واتجاهه نحو الدول المضيفة، بذل صناع السياسة الأمريكية كل ما يستطيعونه من جهد من أجل خفض الضرر الذي لحق بمصالحهم إلى حدوده الدنيا، وعلى المدى القصير كانت أمامهم خيارات جيدة قليلة، "فما دام سعر نفط الشرق الأوسط رخيصا كما هو"، كما أخبر "إيزنهاور" أعضاء مجلس الأمن القومي في ١٣ مايو ١٩٥٩، "لا يتبقى أمامنا سوى القليل الذي يمكننا القيام به لتقليل اعتماد أوروبا على الشرق الأوسط"(٦١). كل ما استطاع المسئولون الأمريكيون عمله على أية حال، كان إعادة تأكيد رغبتهم في أن تظل شركات النفط الأمريكية متحدة في وجه الضغط المتصاعد الذي تمارسه الدول المنتجة؛ وكان ذلك يعني سد الطريق أمام خطط وزارة العدل لكي لا تستأنف الدعاوى الجنائية، بموجب قانون مكافحة الاحتكار، ضد الشركات الأمريكية الخمسة في أوائل ١٩٦٠. مجرد التلويح بأن المدعي العام سوف يعيد فتح ملف القضية، كما حذر "لويس چونز - Lewis Jones" مساعد وزير

الخارجية، كان يمكن أن يغرى السعودية "بتعريب" صناعة النفط، الأمر الذى لابد من أن يطلق العنان "لتداعيات تعيد طرح موضوع عدالة شروط الامتيازات النفطية بشكل عام وتقلل من إمكانية توفر خام الشرق الأوسط للغرب بشروط معقولة"(٦٢).

لم يمر وقت طويل حتى وافق إيزنهاور على أن المخاطر المرتبطة باقتراح وزارة العدل كانت ترجح أى مكاسب ممكنة، كما قدم خبراء النفط فى الخارجية حججا إجبارية فى اجتماع لمجلس الأمن فى ٩ مايو ١٩٦٠ وهى أن الدعوى القضائية المقترحة قد تعنى "تقليصا لسيطرة الولايات المتحدة على إمدادات النفط إليها ولسد احتياجات العالم الحر" كما أنها قد "تقدم ذخيرة دعائية لليساريين والقوميين والوطنيين والاتحاد السوفيتى، الذين يحاولون جميعا إضعاف الثقة بالشركات الأمريكية العاملة فيما وراء البحار". بعد أربعة أيام أبلغ إيزنهاور النائب العام ألا يتقدم بطلب الدعوى دون موافقة وزارتى الخارجية والدفاع(٦٣). بهذا التلميح من البيت الأبيض تمكن "فوجى بوتوم" و"البنتاجون" من إخماد محاولات وزارة العدل، ولعل "روبرت أندرسون – Robert Anderson" وزير الخزانة، وهو أحد كبار رجال النفط الأغنياء فى تكساس، هو الذى لخص على نحو محكم كيف كانت المخاطر فى الخليج الفارسى، حيث أبلغ مجلس الأمن القومى فى ١٥ يوليو ١٩٦٠ بأن "نفط الشرق الأوسط كان ضروريا من أجل الأمن المتبادل شأن الرؤوس الذرية تماما"(٦٤).

الأخبار التى جاءت بأن الدول النفطية الخمس المنتجة للنفط والأكثر أهمية (السعودية وإيران والعراق والكويت وفنزويلا) قد تجمعت بعد شهرين لتأسيس "الأوبك" لم تكن تبشر بالخير بالنسبة للمصالح الأمنية الغربية فى الشرق الأوسط على المدى البعيد، والمؤكد أن "إيزنهاور" سخر من مدى الخطر الذى يمكن أن يمثله تكتل "الأوبك" الجديد، مصرا فى أواخر سبتمبر على أن "أى شخص يمكنه أن يشق هذه المنظمة لو أنه عرض زيادة ٥ سنت على كل برميل، على أى من تلك الدول"(٦٥) كان المسئولون فى "چيرسى ستاندارد"، بالمثل، يتوقعون بعض المتاعب من قبل تكتل المنتجين على المدى القصير بشرط أن تكون إدارة "إيزنهاور" على استعداد "لاستخدام نفوذها لحث دول الأوبك على ألا تسرع فى استكمال المنظمة وتنفيذ برنامجها"(٦٦).

أما على المدى الطويل فكان معظم المسئولين الأمريكيين يتوقعون ارتفاعا فى الطلب بين المستهلكين الغربيين مع زيادة المد القومى بين القادة العرب فى النهاية بما يجعل للأوپك اليد العليا على الشركات النفطية المتعددة الجنسية؛ وفى تقرير استخباراتى كان قد تم إعداده قبل شهر من ترك "إيزنهاور" لمنصبه، كان خبراء وكالة المخابرات المركزية يتوقعون فى تقييمهم "أن تعمل الدول المنتجة على نحو أكثر كفاءة من خلال الأوپك للضغط على الشركات، أكثر مما كانت تفعل فى الماضى"، ورغم أن المصادرة الكاملة لممتلكات الشركات الكبرى العاملة فى الشرق الأوسط لم تكن أمرا واردا، حذرت الوكالة المركزية من أنه قد يحدث زحف لعمليات التأميم تتراجع معه أوضاع الشركات لتصبح مجرد وكالات إدارية للحكومات المحلية"[٦٧].

وبالرغم من أن المخابرات المركزية لم تكن تتوقع تحديا خطيرا فى الشرق الأوسط للشقيقات السبع على مدى عقد أو أكثر، فإن سرعة التوجه نحو التأميم فى دولة عربية واحدة على الأقل - العراق مثلا - كانت تهدد بتحول الزحف إلى وثبة فى أوائل الستينيات. بعد الاستيلاء على السلطة فى يوليو ١٩٥٨ بانقلاب عسكرى دموى أسقط نظاما مواليا للغرب فى بغداد، راح الكولونيل "عبد الكريم قاسم" يحرك بلاده باضطراد نحو اليسار. قاسم القومى المتقد الحماسة استهدف شركة البترول العراقية (IPC) التى كان آباؤها البريطانيون والأمريكيون قد جنوا أكثر من بليون دولار أرباحا خلال العقود الثلاثة منذ أن بدأت حقول الموصل الإنتاج. كان "قاسم" قد كشف عن نيته لمواجهة "IPC" فى سبتمبر ١٩٦٠ عندما أقسم بعد استضافته مؤتمر الأوپك التنظيمى فى بغداد أن العراق سيكون "شوكة فى أعين من ينحرفون عن الطريق المستقيم"[٦٨]، ومصمما على إجبار "IPC" على العودة إلى "الطريق المستقيم" طالب الشركة أن تتنازل عن الأرباح غير المستخدمة من امتيازها وأن تكون ملكية الحكومة العراقية ٢٠٪ بالإضافة إلى ٥٥٪ من الأرباح، وعندما رفض الكونسورتيوم الأنجلو-أمريكى أصدر "قاسم" مرسوما عاما (رقم ٨- بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٦١) لو أنه طبق فى موعده فى فبراير ١٩٦٣ كان يجرد "IPC" من ٩٩,٥٪ من امتيازها ويفرض ضرائب كانت تعتبرها "الشقيقات السبع" أقرب إلى المصادرة، وإنشاء شركة مملوكة للدولة "شركة البترول الوطنية العراقية" للإشراف على صناعة النفط فى البلاد[٦٩].

الهجوم على "IPC" الذى استقبله العراقيون بحماسة شديدة ولقى ترحيبا من الكرملين، أشعل غضب المسئولين البريطانيين والأمريكيين الذين فهموا المرسوم ٨٠ باعتباره دليلا على اندفاع "عبد الكريم قاسم" السريع فى المدار السوفيتى. معتبرا المصادرة المقترحة لشركة IPC خرقا من جانب واحد لترتيب غربى رئيسى مع العراق، كان "فيليبس تالبوت – Phillips Talbot" مساعد وزير الخارجية الأمريكى ينتظر أن تحث "چيرسى ستاندارد" وغيرها من الشركات الأمريكية إدارة "كينيدى" على "الانتقام من "عبد الكريم قاسم" ووضع المزيد من القيود عليه"[٧٠]؛ ولكن الحكومة الأمريكية، كما قال "چون چيرنيجان – John Jernegan" السفير الأمريكى فى العراق بعد ذلك، لم تكن راغبة فى استدعاء السفن الحربية كلما غير شخص ما شروط أى امتياز أو حتى فى حال المصادرة ما دامت هناك جهود تبذل لدفع تعويضات"[٧١] ولكم بمجرد أن اتضح أن "عبد الكريم قاسم" كان ينوى القضاء على "IPC"، بدأت إدارة "كينيدى" فى هدوء تشجيع ضباط الجيش المنشقين على الاستيلاء على السلطة[٧٢]. وفى ٨ فبراير ١٩٦٣، أى قبل أيام قليلة من بدء تنفيذ المرسوم "رقم ٨٠"، تمت الإطاحة بـ"عبد الكريم قاسم" وإعدامه على يد خصوم عسكريين صارمين، سرعان ما أبعدوا أنفسهم عن الاتحاد السوفيتى "وأظهروا الرغبة فى الحصول على دعم غربى"، ووافقوا على استئناف التفاوض مع "IPC". وفى أوائل ١٩٥٦ أعاد النظام الجديد بشكل غير رسمى سيادة "IPC" على أكبر وأغنى حقول النفط العراقية، الموصل فى الشمال والرميلة فى الجنوب. وهكذا، بالتعاون بينهما تمكن رجال الأعمال الأمريكيون وصناع السياسة من منع بغداد من مصادرة "IPC"، وهو العمل الذى كان يمكن أن يمثل سابقة أمام دول الجوار الغنية بالنفط[٧٣].

كان إحباط الهجوم العراقى على "IPC" جزءا من جهد أمريكى أوسع أثناء سنوات إدارة "كينيدى" و"چونسون" لمنع الأوپك من أن تصبح قوية أكثر مما ينبغى. فى أوائل الستينيات ضم كارتل الأوپك إلى صفوفه ليبيا وإندونيسيا وقطر (والأخيرة مشيخة صغيرة عبارة عن نتوء على الخليج الفارسى على شكل إبهام اليد)، ليصبح مصدر نصف النفط المنتج فى العالم الحر هم أعضاء الأوپك الثمانية[٧٤]. مدركين

تماما أن الإنتاج النفطى كان يتزايد بسرعة شديدة فى العالم العربى اجتمع وزراء الخارجية والمسئولون فى الشركات المتعددة الجنسية فى يناير ١٩٦٥ لبحث "برنامج يهدف إلى الهجوم على فكرة أن الدول المنتجة للنفط فى الشرق الأدنى يمكن أن تسيطر ومن ثم تتحكم فى سوق الطاقة العالمية الآن وفى المستقبل على السواء"، ورغم أن المسئولين الأمريكيين كانوا يشعرون "أن هذه المهمة كانت، ولابد من أن تظل، المسئولية الرئيسية للشركات النفطية، فإنهم كانوا يعترفون بضرورة أن "تقوم واشنطن بدور أوسع لتكملة جهود الشركات" من أجل إقناع السعودية وغيرها من منتجى الأويك بإعادة النظر فى مطالبهم المغالى فيها؛ كما اعترف "توماس بارجر – **Thomas Barger**" رئيس أرامكو بأنه كان هناك دور ملائم لحكومة الولايات المتحدة يهدف إلى منع الاستخدام الأخرق للنفط كسلاح سياسى من قبل الراديكاليين العرب"[٧٥].

بعد عامين فقط، ظهر جليا وعلى نحو درامى مدى أهمية هذا الدور عندما أشهر العرب سلاح النفط عشية حرب الأيام الستة، ففى ٢٤ مايو ١٩٦٧ حذر السعوديون شركة "بارجر – **Barger**" بأنه "إذا قامت الولايات المتحدة بدعم إسرائيل مباشرة يمكن أن تتوقع أرامكو أن يتم تأميمها، وإذا لم تنأى الولايات المتحدة بنفسها عن هذا الصراع فلن يكون لها وجود فى الشرق الأوسط"[٧٦]. غاضبة بسبب هجوم إسرائيل المباغت على مصر بعد ذلك بإثنى عشر يوما، أمرت السعودية شركة "أرامكو" بأن توقف تصدير النفط إلى الولايات المتحدة وبريطانيا فورا، وفى ٧ يوليو أبلغوهم بأنه "ينبغى التأكد من تنفيذ ذلك بكل دقة وسوف تكون شركتكم مسئولة تماما عن أى قطرة من نفطنا تصل إلى أراضى الدولتين المذكورتين"[٧٧]، وفى غضون أيام قليلة تبعت العراق ودول الأويك الأخرى خطى السعودية. فى الوقت نفسه أجبر عمال النفط المضربون جميع الشركات الأمريكية والبريطانية المتعددة الجنسية العاملة فى الكويت وليبيا على أن توقف عملياتها، وبحلول منتصف يونيو كانت صادرات النفط العربية إلى الغرب قد هبطت بنسبة ٦٠٪ عن مستوياتها قبل الحرب[٧٨].

لم يفاجأ صناع السياسة الأمريكيون ولا كبار المسئولين فى شركات النفط بالحظر العربى، فقد كان المسئولون فى "أرامكو" على دراية بأن المصريين يضغطون على البيت السعودى منذ أشهر لكى يضعوا مواردهم البترولية فى خدمة القضية العربية الأوسع، وقبل أسبوع واحد من نشوب حرب الأيام الستة كان "وولت دبليو روستو – Walt W.rostow" مستشار البيت الأبيض للأمن القومى يتنبأ بأنه "قد يكون على الولايات المتحدة أن تواجه مواقف مثل إلغاء عقود نفطية"(٧٩)، ولتجنب مثل هذه الأمور ولمواجهة آثار الحظر الذى مورس فى يونيو، شكلت إدارة "جونسون" اللجنة الخاصة بإمدادات النفط الأجنبى، ودعت مجموعة من خبراء النفط إلى واشنطن حيث تمكنوا بهدوء من أن يزيدوا صادرات الخام من نصف الكرة الغربى إلى أوروبا الغربية عوضا عن التخفيض الذى قام به المنتجون العرب، كما عمل المسئولون الأمريكيون عن كثب مع "منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية – (OECD) Organization for Economic Cooperation and Development"، ومقرها باريس، لمواجهة احتياجات المستهلكين الأوروبيين من الطاقة(٨٠).

وبينما تضافرت جهود صناع السياسة وشركات النفط المتعددة الجنسية والمسئولين الأوروبيين لإعادة ترتيب أساليب التوزيع الأوروبية، بدأ العرب يتشاحنون مع بعضهم، ففى ١٨ يونيو اكتشفت أجهزة الاستخبارات صدعا خطيرا بين الراديكاليين المصريين والسوريين الذين كانوا مصرين على أن حظرا طويلا قد يجبر الولايات المتحدة وبريطانيا على التخلى عن إسرائيل، وصدعا آخر بين المعتدلين السعوديين والكويتيين الذين كانوا يخشون أن مثل هذه الأساليب لن يؤدى سوى إلى تقليص الأسواق والعائدات من نفط الخليج الفارسى؛ وفى أوائل يوليو كانت الكويت على استعداد لاستئناف شحنات النفط إلى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، وكان السعوديون يشكون من أن "تقييد صادرات النفط يضر بالمنتجين العرب أكثر منه بالدول المقاطَعَة"، وبنهاية فصل الصيف كان الحظر قد أخفق وفى سبتمبر ١٩٦٧ كانت الصادرات قد زادت بنسبة ٨٪ عما كانت عليه عشية حرب الأيام الستة(٨١).

سلاح النفط العربى تم تحييده خلال العقد التالى لأزمة السويس بسبب مجموعة من الظروف المعقدة، وبالرغم من الخلافات العرضية كانت واشنطن

و وول ستريت قادرتين دائما على تنسيق جهودهما للحفاظ على الأمن القومى الأمريكى فى الشرق الأوسط خلال عام ١٩٦٧. وبالرغم من الدعوات الصاخبة التى كانت تتصاعد من القاهرة ودمشق لتدمير إسرائيل لم يكن السعوديون ولا دول الجوار الغنية بالنفط راغبين فى ربط مواردهم النفطية بالأچندة السياسية للراديكاليين العرب، وبالرغم من الدلائل المتزايدة على أن الطلب العالمى على النفط كان سيفوق العرض فى وقت قريب، فإن إجمالى الفائض فى الستينيات مَكَّن الحكومات الغربية والشركات المتعددة الجنسية من استخدام منتجى الشرق الأوسط ضد المنافسين من غرب أفريقيا وأمريكا اللاتينية؛ وخلال العقد القادم فإن التغيرات الاقتصادية والسياسية الكبيرة سوف تغير توازن القوى بين الحكومات الغربية والشركات النفطية الكبرى المتعددة الجنسية والدول المضيفة على نحو لم يكن ليتخيله كثيرون فى يونيو ١٩٦٧.

• صناعة أزمة طاقة (١٩٦٧-١٩٧٣)

لم يلحظ المواطن الأمريكى العادى تقريبا الحظر العربى المجهض على النفط خلال حرب الأيام الستة، إلا أن الأمريكيين - وبألم شديد - سيصبحون على علم فى غضون خمس سنوات بأزمة طاقة كانت متجذرة فى اعتمادهم المتزايد على نفط الشرق الأوسط. مع تقديرات للاحتياطى الداخلى من النفط تزيد عن ٢٥٠ بليون برميل، ظلت الولايات المتحدة مكتفية ذاتيا إلى حد كبير خلال العقد الأول بعد ١٩٤٦ ولكنها فى أواخر الخمسينيات كانت تستورد ٣٥٠ مليون برميل سنويا معظمها من كندا وفنزويلا لتمويل العدد المتزايد من السيارات التى تنهب الطرق السريعة التى شيدت خلال سنوات "إيزنهاور". وعلى أمل منع أمريكا من أن تصبح معتمدة بدرجة تزيد عن المعقول على النفط الأجنبى قام "أيك - Ike" فى ١٩٥٩ بتحديد الواردات، باستثناء تلك من كندا، إلى ١٠٪ من إجمالى استهلاك الولايات المتحدة. هذه الصيغة سوف توقف تدفق النفط إلى الولايات المتحدة من خارج أمريكا الشمالية عند حوالى ٤٥٠مليون برميل سنويا فى الستينيات[٨٢].

خلال سنة ١٩٦٩ كان أقل من ربع تلك الواردات يأتى من الشرق الأوسط، ولأن احتياج أمريكا من النفط كان يفوق إنتاجها المحلى بسرعة، قررت إدارة "نيكسون" أن تحدد شكل حصص الاستيراد. بحلول سنة ١٩٧٢ كان استهلاك الولايات المتحدة السنوى من النفط المستورد قد ارتفع بشدة إلى ٨١١ مليون برميل وكان ثلثه تقريبا يأتى من الشرق الأوسط. وخلال الأشهر التسعة الأولى من سنة ١٩٧٣ استوردت الولايات المتحدة ٤١٣ مليون برميل وهو ما يعادل ١٠٪ تقريبا من إجمالى وارداتها من الخليج الفارسى وشمال أفريقيا[٨٣].

وبينما كان الطلب الأمريكى المرتفع على الخام الأجنبى يساعد على تحويل فائض متواضع إلى نقص عالمى، كان أعضاء الأوپك يعدون العدة لانتزاع السيطرة على التسعير وإنتاج النفط من "الشقيقات السبع"، وعندما اجتمع ممثلو المنظمة فى "ڤيينا" فى يونيو ١٩٦٨ استطاع العراقيون والسعوديون تمرير القرار **XVI 90** "إعلان سياسة النفط"، الذى أكد أن الدول المنتجة وليس الشركات الأمريكية والبريطانية هى التى ستحدد وتنظم إنتاج بترول الشرق الأوسط فى غضون خمس سنوات[٨٤]. وبعد ثلاثة أشهر فى بيروت، قام وزراء النفط فى دول الخليج الفارسى وشمال أفريقيا بتأسيس منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول – **"OAPEC" Organization of Arab Petroleum Exporting Countries** التى كان أول مدير لها "أحمد زكى يمانى"، وهو تكنوقراطى سعودى درس فى "هارڤارد" وكان يريد أن يعظم عائدات "بيت آل سعود" وغيره من الدول الأعضاء. بلحيته الصغيرة المشذبة بعناية وأسلوبه التفاوضى الذكى سرعان ما سيصبح يمانى – الذى خلف "الطريقى" وزيرا للنفط السعودى – شخصية معروفة للمستهلكين فى الغرب[٨٥].

الاضطرابات التى حدثت فى ليبيا فى صيف ١٩٦٩ سرعان ما وضعت نفوذا أكبر فى يد يمانى ومنتجى النفط الأعضاء فى الأوپك، وبعد إطاحة "السنوسى" الموالى للغرب فى سبتمبر تبنى "العقيد القذافى" أسلوبا عدوانيا تجاه الشركات النفطية المتعددة الجنسية العاملة فى بلاده وصمم على رفع سعر الخام الليبى بحدة لتمويل

مشروعاته التنموية الطموحة. بالرغم من أن شركات عملاقة مثل "إكسون" – چيرسى ستاندارد سابقا – استطاعت أن تتجاهل مطالب "القذافى" فإن "أوكسيدنتال بتروليم" (وهى شركة متوسطة الحجم مقرها كاليفورنيا كان يترأسها "آرماند هامر – Armand Hammer" البالغ من العمر ٧١ عاما) لم تستطع الصمود فى المجال دون الاحتياطى الذى كانت تعتمد عليه فى ليبيا[٨٦].

كان "القذافى" على علم بوضع "أوكسيدنتال" الضعيف، وفى أوائل – ١٩٧٠ حذر "هامر" بأنه إذا لم تقم الشركة برفع الأسعار بنسبة ١٥٪ وزيادة نصيب ليبيا من الأرباح إلى ٥٥٪ فإنه سوف يلغى الامتياز الممنوح لها. وعندما حرنت "أوكسيدنتال" قرر القذافى تخفيض إنتاج الخام الليبى مما أحدث نقصا فوريا فى أسواق أوروبا الغربية فى شهرى مايو ويونيو. وعلى أمل منع نظام "القذافى" من أن يضع سابقة قد تكررها دول أخرى من أعضاء الأويك، حاول "هامر" أن يجد مصادر بديلة فى حال إجبار شركته على وقف عملياتها الليبية بالكامل. وبعد أن رفضت "إكسون" أن تضمن لـ"أوكسيدنتال" ما يكفى من الخام لمواجهة خسائرها المتوقعة، عكس "هامر" المسار وطار إلى طرابلس فى أواخر يوليو ليقبل بكل مطالب "القذافى"[٨٧].

منزعجين لقصر نظر "إكسون" ومذهولين لاستسلام "أوكسيدنتال"، طلب المسئولون فى الخارجية الأمريكية من "چون چ. ماكلوى – John J.McCloy"، وهو محام ضليع ويعتبر الأب المؤسس للمؤسسة الأمريكية، أن يأتى بمجموعة من كبار المسئولين فى الشركات المتعددة الجنسية إلى "فوجى بوتوم" فى أواخر سبتمبر لمناقشة أفضل السبل لحصر الضرر فى أضيق نطاق. لم يكن من الصعب على مجموعة "ماكلوى" وخبراء النفط تشخيص طبيعة المشكلة. وبعد عدة سنوات كان "ماكلوى" يقول: "كان يبدو من الواضح أن الحكومة الليبية تحاول أن تمارس ضغطا تدريجيا على الشركات لتجبرها على القبول الذى يمكن أن يكون نقطة انطلاق نحو شركات أخرى"، وأنه إذا لم تتحرك واشنطن و"وول ستريت" بسرعة فالمؤكد أن تقوم الدول الأعضاء الأخرى فى الأويك باتباع خطى "القذافى"[٨٨].

كان وضع صيغة يمكن أن يقبلها صناع السياسة ورجال الأعمال أمرا أكثر صعوبة كما اتضح. كان الجميع متفقين - كما فى الماضى - على أن وزارة العدل لابد من أن تتخلى عن قوانين مكافحة الاحتكار حتى تتمكن الشركات المتعددة الجنسية من التصرف ضد ليبيا وغيرها من الدول المنتجة، ولكن خلافات تكتيكية بدأت فى الظهور فى أوائل ١٩٧١؛ ومقتنعين بأنهم سيكونون "أشبه بمن يلقون بأنفسهم إلى التهلكة إذا لم يتحدوا معا" من أجل "إدارة التفاوض مع الأوبك ككل"، فضلت شركات النفط أن تسعى إلى اتفاق قصير المدى مع كارتل المنتجين يغطى الشرق الأوسط كله. من جانب آخر، كانت وزارة الخارجية قلقة لأن أسلوبا شاملا كهذا كان من شأنه أن يقوى الأوبك بالتقريب بين المعتدلين فى الخليج الفارسى والراديكاليين فى شمال أفريقيا، وكانت تفضل أن تقوم الشركات بالتفاوض على صفقات طويلة المدى مع كل من الدول المنتجة على حدة(٨٩).

تلمسا لتسوية، استقرت إدارة "نيكسون" وشركات النفط على أسلوب مزدوج المسار فى يناير ١٩٧١ يدعو لجولتين من الحوار، الأولى فى طهران والثانية فى طرابلس. ومع إصرار أعضاء الأوبك على أسعار أعلى ونسبة أرباح أكبر كانت تلك وصفة تؤدى إلى كارثة، ففى ١٤ فبراير وقعت الشركات بالأحرف الأولى اتفاقا فى طهران يرفع أسعار خام الخليج الفارسى بمقدار ٤٠ سنتا للبرميل مع زيادة نصيب الدولة المضيفة إلى ٥٥٪، وبعد ستة أسابيع أجبر "القذافى" شركات النفط على رفع سعر الخام الليبى بمقدار ٩٠سنتا للبرميل، وأن تسلم ليبيا ٦٠٪ من أرباحها، وعلى الفور كان ضغط فى طهران لرفع أسعار خام الخليج الفارسى مرة أخرى ليتناسب مع الأسعار فى طرابلس. الأسوأ، أنه قبل أن ينتهى العام أعلنت ليبيا والجزائر عن خطط لتأميم شركات النفط الأجنبية مثل "برتش بتروليم BP" و"CFP" الفرنسية العاملة فى شمال أفريقيا(٩٠).

وفى أوائل ١٩٧٠ رعت الخارجية الأمريكية تشكيل اللجنة الاستشارية القومية للبترول الأجنبى - **National Advisory Committee of Foreign Petroleum**، بهدف

زيادة نفوذ الحكومة الأمريكية على الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية العاملة فى الشرق الأوسط. وفى ٢١ يناير أبلغ "چيمس آكنز – James Akins" خبير النفط فى فوجى بوتوم "چان ماكلوى": "كنا فى يوم جديد، وعصر جديد، وكان هناك سعى متنام نحو التأميم أو المشاركة وكان لابد من الاعتراف بالواقع فى العالم الذى نعيش فيه". و"لأن موقف الشركات النفطية لم يكن قويا أمام الأوپك" كانت إدارة "نيكسون" متلهفة على وضع سياسة قوية لحماية الحصص القانونية للولايات المتحدة فى نفط الشرق الأوسط. وبالرغم من أن "ماكلوى" رحب بمساعدة الولايات المتحدة فى المنطقة، كان يقلقه أن يجعل التقارب الشديد بين واشنطن و"وول ستريت" عملاءه "أكثر عرضة للفعل السياسى من قبل الدول المنتجة للنفط، التى لم توافق على بعض سياسات حكومة الولايات المتحدة". وبدون حتى ذكر اسم إسرائيل كانت لـ"ماكلوى" نبوءة، سيوضح تحققها بعد ثمانية عشر شهرا كيف كان الأمن القومى الأمريكى والمصالح الأمريكية قد أصبحا متباعدين[٩١].

خلال عام ١٩٧٢ نأت الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية بنفسها عما كانت تعتبره سياسة الولايات المتحدة الموالية لإسرائيل واتجهت نحو التقارب من الدول العربية المنتجة للنفط. ففى ١٢ مارس مثلا ألمحت "أرامكو" إلى أنها كانت مستعدة لإعطاء بيت آل سعود ٢٠٪ من الملكية لكى تحتفظ باستغلال طويل المدى لحقول الظهران؛ وفى غضون أيام قليلة أعلنت أفرع "تكساكو" فى الكويت وغيرها من الدول النفطية عن ترتيبات مشابهة مع الحكومات المضيفة. وفيما بعد، فى فصل الخريف نفسه، فاجأ النظام العسكرى فى بغداد كلا من "إكسون" و"موبيل" بتأميم فرعهما العراقى "IPC" دون أى تعويضات، وهو التطور الذى أغرى "يمانى" وغيره من المعتدلين فى "الأوپك" لكى يضغطوا من أجل "تعريب – Arabization" جميع الشركات المتعددة الجنسية العاملة فى الشرق الأوسط[٩٢]، أى أن تصبح نسبة ملكية الدول المنتجة ٥١٪. كان "يمانى" يحذر كبار المسئولين فى الشركات النفطية من أن هناك "توجها عالميا نحو التأميم، ولا يمكن أن تقف السعودية بمفردها ضد ذلك، كما أن الصناعة لابد من أن تكون مدركة للوضع وتتوصل إلى تفاهم لإنقاذ أقصى ما يمكن

إنقاذه فى ظل هذه الظروف"، وعملا بنصيحته وقعت الشركات الأمريكية "اتفاق شراكة" مع السعودية وجيرانها فى الخليج الفارسى فى اكتوبر ١٩٧٢، أدى على الفور إلى زيادة ملكية الدول المضيفة إلى ٢٥٪ مع تفاهم لرفع النسبة إلى ٥١٪ خلال عشر سنوات.

فى أوائل ١٩٧٣ لم يكن المسئولون فى الخارجية الأمريكية مستريحين لتزايد اعتماد أمريكا على نفط الشرق الأوسط وتصاعد ضغوط الأوبك على الشركات والإحباط العربى المتنامى بسبب علاقة واشنطن الخاصة بإسرائيل، وكان يساورهم القلق إذ قد يكون ذلك كله سببا فى تفجير أزمة نفطية. وفى مقال مثير للجدل بعنوان "هذه المرة.. الذئب هنا" نشر فى عدد أبريل ١٩٧٣ من مجلة "فورين أفيرز" كان "چيمس آكنز" (فى فوجى بوتوم) يتنبأ بأن استهلاك العالم الغربى المتسارع من النفط مع الركود السياسى المقيم فى الشرق الأوسط سوف يؤديان حتما إلى مضاعفة أسعار النفط وإلى نقص شديد فى الوقود؛ كما أشار "آكنز" إلى أن "عربا فى مراكز مسئولة أو مؤثرة أطلقوا ما لا يقل عن خمسة عشر تهديدا مختلفا باستخدام النفط كسلاح ضد أعدائهم"؛ وأنهم كلهم تقريبا قد حددوا الولايات المتحدة "عدوا رئيسيا"، وأن هذا العدد من التهديدات كان فى العام السابق فقط. حتى بيت "آل سعود" الذى كان أكثر الأنظمة موالاة لأمريكا لزمن طويل بدأ يتباعد عن واشنطن، "فالملك فيصل الذى كان يقول مرارا وتكرارا أنه يريد أن يكون صديقا للولايات المتحدة، والذى يعتقد أن الشيوعية خطر قاتل على العرب"، كما ذَكَّر "آكنز" قراءه، "كان يؤكد لكل زائر له أن "سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط التى يصفها بأنها منحازة لإسرائيل، "سوف تدفع العرب فى النهاية إلى أحضان المعسكر الشيوعى"(٩٤).

ويبدو أن نبوءة "آكنز" المخيفة مرت دون أن يلتفت إليها أحد فى المكتب البيضوى، حيث كان "ريتشارد نيكسون" مشغولا بفضيحة "ووترجيت" فى الداخل وبذوبان الجليد مع الاتحاد السوفيتى فى الخارج. وعندما نقلت "إكسون" إلى البيت الأبيض فى مايو ١٩٧٣ أن الراديكاليين العرب ربما يدفعون "الملك فيصل" مرة أخرى

إلى إشهار سلاح النفط، قيل لهم إن "جلالته يصرخ: الذئب!! الذئب!! بينما لا وجود لذئاب إلا فى خياله"[٩٥]. ولكن العاهل السعودى سوف يثبت قبل نهاية الصيف أن ما كان يعتبره صناع السياسة الأمريكية خطرا من صنع الخيال، كان فى الواقع حقيقة مؤكدة. فى الثانى من سبتمبر سأل صحفى أمريكى الملك فيصل ما إذا كانت السعودية يمكن أن تستخدم النفط سلاحا ضد أمريكا، وكان رده "نحن لا نرغب فى تقييد صادراتنا إلى الولايات المتحدة على أى نحو، ولكن كما أشرت للتو فإن انحياز أمريكا الكامل للصهيونية ضد العرب يجعل من الصعب جدا علينا أن نمد الولايات المتحدة بالنفط"[٩٦].

ملاحظات الملك فيصل أرسلت موجات صادمة إلى واشنطن. وبعد ثلاثة أيام كان مراسل صحفى آخر يسأل فى مؤتمر صحفى فى البيت الأبيض "ماذا أنتم فاعلون بالضبط لمواجهة تلك التهديدات من الدول العربية باستخدام النفط كعصا لفرض التغيير على سياساتنا فى الشرق الأوسط؟"، وكان "نيكسون" شديد الوضوح فى رده ملمحا إلى أنه سوف يتناول التهديدات الجديدة بالأسلوب نفسه الذى تعامل به "إيزنهاور" مع الراديكاليين الإيرانيين الذين تحدوا السيطرة الغربية على نفطهم قبل عقدين، كما أضاف غاضبا "النفط دون أسواق، كما عرف مصدق قبل سنوات، لا يكون فى صالح الدولة، نحن وأوروبا السوق، وأعتقد أن القادة العرب المسئولون سوف يرون.... أنهم إذا استمروا فى رفع الأسعار، إذا استمروا فى المصادرة، إذا صادروا دون تعويض منصف فإن النتيجة الحتمية هى أنهم سوف يخسرون أسواقهم وسوف تتم تنمية مصادر أخرى"[٩٧]. ويبدو أن ما لم يكن "نيكسون" يدركه هو أن الشرق الأوسط كان مكانا جد مختلف فى ١٩٧٣ عما كان عليه فى ١٩٥٣ وأن المستهلكين فى الولايات المتحدة كانوا قد أصبحوا أكثر اعتمادا على خام الخليج الفارسى عن ذى قبل، وأن الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية كانت أقل استعدادا عما كانت عليه فى الماضى لأن تستخدم كأدوات فى يد السياسة الخارجية الأمريكية. رجل البيت الأبيض والشعب الأمريكى كانوا على وشك أن يتلقوا درسا فى سياسات النفط.

• الأرباح الخاصة والسياسة العامة وبترول الأوبك منذ ١٩٧٣

فى الساعات الأولى من السادس من أكتوبر ١٩٧٣، وبينما كان كبار المسئولين فى "إكسون" وغيرها من شركات النفط الأمريكية المتعددة الجنسية فوق الأطلنطى متجهين إلى اجتماع بالغ الأهمية مع وزراء نفط "الأوبك" فى ڤيينا، أطلقت القوات المصرية والسورية طلقاتها الأولى فى ما عرف بعد ذلك بحرب أكتوبر. وعندما كان رجال النفط الأمريكيون جالسين مع وفود "الأوبك" فى العاصمة النمسوية بعد أربعة أيام كانت حكومة الولايات المتحدة تنقل جوا عتادا عسكريا كانت إسرائيل فى أشد الحاجة إليه لصد الهجوم العربى المزدوج. قبل أسابيع قليلة كان "أحمد زكى يمانى" الذى أصبح رئيسا للتكتل العربى قد أشار إلى أنه كان ينوى بذل قصارى جهده للحصول على صفقة صعبة فى ڤيينا – زيادة ١٥٪ فى السعر لمواجهة انخفاض قيمة الدولار الأمريكى الأخيرة، والحصول على حصة أكبر من الأرباح لصالح الدول المنتجة. منزعجين بسبب تلميحات "يمانى" عن "عمل منفرد"، اجتمع ممثلو "الشقيقات السبع" فى نيويورك سيتى للتشاور مع "چون ماكلوى" الذى كان يعرف أن تحرك إدارة "نيكسون" المكشوف لمساعدة إسرائيل كان يعنى أن "إمدادات النفط كانت معرضة للخطر مثل وضع أمريكا كله فى الشرق الأوسط"؛ ومتلهفين على منع الأمور من الخروج عن السيطرة، حاولت الشركات المتعددة الجنسية عقد صفقة سريعة تقبل برفع السعر بنسبة ١٥٪ دون نقاش. ضحك "يمانى" وقال معلقا، بعين على الصراع العربى الإسرائيلى والأخرى على زيادة الطلب الغربى، إن "الأوبك" كانت تفكر فى زيادة بنسبة ١٠٠٪ لعلها تكون أوفق[٩٨].

مذهولين بسبب اقتراح "الأوبك" الأخير، توقف رجال النفط عند نسبة الـ١٥٪ وجمعوا أوراقهم عائدين إلى بلادهم فى ١٢ أكتوبر، وصرح "جمشيد أموزيجار – Jamshid Amouzegar" وزير النفط الإيرانى للصحفيين قائلا: "لقد ارتكبوا خطأ جسيما برفضهم تحسين عرضهم"؛ وبعد ساعات قليلة أعلن "يمانى" قيام تكتل الدول المنتجة (الأوبك) من جانب واحد برفع متوسط سعر خام الخليج الفارسى بنسبة ٧٠٪

أى من ٣:١٠.٥ دولار للبرميل، ثم كان الأسوأ فى الكويت بعد أربعة أيام حيث وافق الأعضاء على خفض الإنتاج تدريجيا بنسبة ٥٪ كل شهر مع حظر كل صادرات النفط إلى الولايات المتحدة حتى تقدم إسرائيل تنازلات رئيسية بالنسبة للأراضى، وبعد أن فقدت الشركات المتعددة الجنسية السيطرة على التسعير والإنتاج كانت تخشى تجريدها من امتيازاتها تماما إن هى لم تصل إلى تفاهم مع "الأوبك". مقتنعة بأن بإمكانها تمرير الأسعار التى ارتفعت إلى المستهلكين الغربيين وتقليل النقص فى الولايات المتحدة إلى حدوده الدنيا عن طريق زيادة الإنتاج فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية، أذعنت الشركات العملاقة فى لعبة القوة التى أدارها يمانى. وبعد جولة أخرى من المناقشات بين "الأوبك" وشركات النفط فى منتصف ديسمبر صعد متوسط سعر خام الخليج الفارسى إلى ١١.٦٥دولارا للبرميل، أى بما يقارب أربعة أمثال ما كان عليه فى السادس من أكتوبر(٩٩).

وبينما أغلق المستهلكون الأمريكيون الترموستات وأصبحوا ينتظرون فى طوابير طويلة من أجل الحصول على الجازولين كان رجال السياسة يدرسون خيارات مختلفة. أزمة الطاقة، كما اعترف وزير الخارجية "هنرى كيسنجر – **Henry Kissinger**" بعد ذلك بعام، فاجأت واشنطن وهى غير مستعدة لها. مستنيمة لشعور زائف بالأمان والطمأنينة على مدى ربع قرن من الرفاهية التى يمولها نفط وفير ورخيص و"مترددة فى التدخل فى عملية تسويق كانت تبدو ذات كفاءة ومتوافقة مع مصالحنا البعيدة المدى" فإن إدارة "نيكسون" مثل سابقتها كانت قانعة بترك سياسة النفط فى الشرق الأوسط فى يد الشركات الكبرى إلى حد بعيد. كما اعترف "كيسنجر" بأن المسئولين فى الإدارة الأمريكية تأخروا طويلا لكى يدركوا أن نقصا حادا فى النفط العالمى وخطط الأوبك فى موجة التأميم الزاحفة يمكن بكل سهولة أن "تهبط بشركات النفط الكبرى وتحولها إلى مجرد مؤسسات تسويقية وإدارية" لتصبح "أدوات فى أيدى الدول التى لا تتطابق مصالحها مع مصالحنا بالضرورة"(١٠٠)؛ ومعتمدا على سحر دبلوماسيته الأسطورى تمكن "كيسنجر" فى أوائل ١٩٧٤ من إقناع "الأوبك" برفع الحظر، إلا أن سعر خام الشرق الأوسط واصل الصعود فى منتصف السبعينيات

وكذلك الاستهلاك الأمريكى، والحقيقة أن واردات الولايات المتحدة من نفط الخليج الفارسى وشمال أفريقيا تضاعفت ثلاث مرات بين ١٩٧٤ و١٩٧٧ إلى أعلى مستوى فى تاريخها وهو ١٠٣ بليون برميل سنويا. وعندما ترك "هنرى كيسنجر" "فوجى بوتوم" كان ربع كل البترول المستهلك فى الولايات المتحدة يجىء من الشرق الأوسط، وهى تذكرة دائمة لصناع السياسة الأمريكية بأن النفط يمكن أن يتكرر استخدامه "سلاحا للابتزاز الاقتصادى"(١٠١).

لأن ارتفاع أسعار خام الشرق الأوسط فى منتصف السبعينيات تصادف مع تزايد أرباح شركات النفط الأمريكية المتعددة الجنسية، كان كثير من الأمريكيين يشكون فى أن يكون منتجو الأوبك هم وحدهم المتورطون فى عملية الابتزاز الاقتصادى. ارتفع متوسط الأرباح بالنسبة لشركات النفط الأمريكية الكبرى بنسبة ٧٠٪ فى ١٩٧٣ ثم صعد بزيادة أخرى تقدر بـ٤٠٪ فى ١٩٧٤، وهو ما جعل "كابيتول هيل" يطالب غاضبا بالتحقيق فى الأمر. وافق "فرانك تشيرش – **Fran Church**" وهو ديمقراطى من "إيداهو"، وكان يرأس لجنة فرعية فى مجلس الشيوخ خاصة بالمؤسسات المتعددة الجنسية كانت قد شكلت حديثا – وأعلن أن اللجنة سوف تبحث أمورا أكثر شمولا ناجمة عن العلاقة المتشابكة بين المؤسسات الخاصة والأمن القومى الأمريكى فى الشرق الأوسط. وحيث إنه كان قد مثل "إكسون" و"جلف" و"موبيل" و"سوكال" و"تكساكو" فى المحاكم وأمام الكونجرس على مدى عدة سنوات، حمل "چون ماكلوى" على "تشيرش" مقللا من أهمية الصراع العربى الإسرائيلى لكى "يركز اللوم الرئيسى على شركات النفط" بسبب رفع الأسعار الأخير الذى قامت به "الأوپك" وكذلك على محنة أمريكا بالنسبة للطاقة.

من ناحية أخرى، كان "فرانك تشيرش" مصرا على أن أزمة الطاقة كانت نتيجة "مؤكدة" لقرارات كانت تتخذ على مدى ربع قرن، تقوم على أسطورة أن مصالح الشركات النفطية لابد من أن تكون متسقة تماما مع متطلبات الأمن القومى الأمريكى، وذكَّر "ماكلوى" أن إدارة "ترومان" سمحت فى ١٩٧٤ "لأربع شركات أمريكية بأن

تكون لها السيطرة الكاملة على أكبر حقول النفط العالمية الموجودة فى السعودية"، كما أن مجلس الأمن القومى ووزارة الخارجية وإدارة العائدات الداخلية (IRS) كانوا يتدخلون على مدى عقدين لصالح الشركات المتعددة الجنسية لدى المحاكم والأجهزة الإدارية بالداخل، بينما كان البيت الأبيض والپنتاجون ووكالة المخابرات المركزية يساعدون فى حماية الشركات النفطية العملاقة من الأنظمة الراديكالية فى الخارج؛ وفى أواخر الستينيات - كما أشار تشيرش - كانت تسيطر على إنتاج الخليج الفارسى حفنة من عملاء "ماكلوى" المتنفذين، الذين كان رضوخهم أمام الطلب المتزايد والإمدادات الكاسدة وموجة القومية الصاعدة قد اضطرهم فى النهاية للاستسلام للأوپك فى أكتوبر ١٩٧٣. وانتهى "تشيرش" إلى أن "جذور مشكلات أزمة الطاقة الحالية لدينا، إنما تعود، بكل صراحة، إلى ذلك الافتراض الأساسى لسياسة النفط الأمريكية بعد الحرب، وهو أن ما هو جيد بالنسبة للمؤسسات العالمية الراسخة، هو بالضرورة جيد بالنسبة للدولة"(١٠٣).

لا "چون ماكلوى" ولا عملاؤه كانوا على استعداد لقبول رأى "تشيرش"، وهو أن بعد النظر الحكومى كان يمكن أن يشفى سياسة النفط الأمريكى مما ألم بها فى الشرق الأوسط. جميع ممثلى صناعة النفط تقريبا، الذين أدلو بشهاداتهم أمام لجنة "تشيرش" الفرعية كانوا مصرين على أن تَعَقُّد الصراع العربى الإسرائيلى، وليس التواطؤ بين الأوپك والشركات، هو الذى فجر أزمة الطاقة؛ إذ قال "چورچ پيرسى - George Piercy" مثلا، وهو مدير عمليات "إكسون" فى الشرق الأوسط، لـ"تشيرش" وزملائه "الحقيقة أنه حتى ١٩٧٠، ١٩٧١ لم تكن هناك حاجة ضرورية تستدعى تدخلا نشطا من جانب الحكومة، كان النفط يتدفق بكميات متزايدة وبأسعار منخفضة"(١٠٤). وعلى نهج "پيرس" كان "ماكلوى" يتحدى تأكيد "تشيرش" أن أهداف الشركات لم تكن متسقة مع متطلبات الأمن القومى فى الخليج الفارسى "مصالح الصناعة الأمريكية ورفاهة البلاد مرتبطة ببعضها البعض، وفى هذه الحالة فإن تدفق النفط بأسعار معقولة إن لم تكن منخفضة على مدى فترة طويلة، يؤكد أن المصالح كانت متطابقة"(١٠٥). وحيث إن هذا المنطق لم يؤثر فى لجنة "تشيرش" الفرعية، فإنها

توصلت إلى حكم مختلف عندما بلغت جلسات الاستماع نهايتها في ١٩٧٥: "في الدول الديمقراطية لا يمكن أن تترك المسائل المهمة المتعلقة بالسياسة الخاصة بسلعة حيوية مثل النفط، التي هي بمثابة دم الحياة للمجتمع الصناعي، في يد الشركات الخاصة التي تعمل وفقا لمصالح خاصة ودائرة صغيرة من موظفي الحكومة"[١٠٦].

ومما يدعو للسخرية، أن توجها منظما من "الأوبك" لتأميم ممتلكات جميع شركات النفط الأجنبية العاملة في الشرق الأوسط سيحصر الجدال بين "ماكلوي" و"تشيرش" في الإطار النظري. على خطى العراقيين الذين استولوا على "IPC" في ١٩٧٢، قام القذافي بعد عام بنزع ملكية اثنتي عشرة شركة أمريكية وبريطانية وإيطالية كانت تضخ النفط الليبي على مدى أكثر من عقد، وفي ١٩٧٤ أعلن شاه إيران أن الشركة الوطنية الإيرانية للنفط – National Iranian Oil Company ستكون المسيطرة بالكامل على كل جوانب إنتاج النفط في بلاده، وهي خطوة أدت إلى تقليص وضع الكونسورتيوم المتعدد الجنسية الذي كان قد تأسس في سنوات إدارة "إيزنهاور" ليصبح مجرد وكالة تسويق، وفي غضون اثني عشر شهرا، أقنعت الكويت شركتي "برتش بتروليم" و"جلف أويل" بالتنازل عن امتيازهما المشترك مقابل ٥٠ مليون دولار تعويضا عنه، وبعد عام من المفاوضات المرهقة مع يماني، وافقت "إكسون" و"موبيل" و"سوكال" و"تكساكو" على تسليم "أرامكو" للحكومة السعودية مقابل حق تسويق ٨٠٪ من إنتاج حقول الظهران، وبنهاية العقد كانت – حتى – المشيخات الصغيرة على الخليج الفارسي مثل قطر، تسير على النهج نفسه[١٠٧].

بعد أن انتزعت الدول المضيفة في الخليج الفارسي السيطرة الكاملة من الشركات المتعددة الجنسية، ومع استمرار الطلب الغربي على النفط المستورد أصبح المسرح معدا من جديد لـ"صدمة نفطية" ثانية، فبين ١٩٧٤ و١٩٧٨ ارتفع متوسط سعر البرميل من خام الخليج الفارسي من أقل من ١٢ دولارا إلى ما يزيد عن ١٥ دولارا بقليل، وبعد ذلك هزت إيران ثورة أسقطت الشاه في ١٩٧٩ وعرقلت إنتاج النفط مما أدى إلى ارتفاع شديد في الأسعار لتصل إلى ٢٨دولارا للبرميل، كما أن

اندلاع الحرب الإيرانية العراقية جعل هذا الرقم يرتفع إلى ٣٤ دولارا فى يناير ١٩٨١؛ وخلال العام التالى كانت الولايات المتحدة ما زالت تستورد ١٨٪ من احتياجاتها النفطية من الشرق الأوسط بالرغم من أن أسعار الخام السعودى والكويتى كانت قد تجاوزت الأربعين دولارا للبرميل فى بعض الأسواق الأوروبية[١٠٨].

ورغم أن بعض المسئولين فى إدارة "ريجان" التى كانت قد بدأت عملها حديثا، ألحوا بتكتم إلى تدخل عسكرى لمنع المزيد من الابتزاز "الاقتصادى"، فإن صناع السياسة وخبراء النفط كانوا يفضلون الاعتماد على "سحر السوق" لمواجهة مشكلات أمريكا المتعلقة بالطاقة فى الثمانينيات؛ ومقتنعين بأن أسعار الخليج الفارسى يمكن أن تظل مرتفعة بشكل مصطنع فى وجه المنافسة العالمية، حولت "إكسون" وغيرها من الشركات الكبرى أنظارها إلى الداخل وبدأت تعتمد بقوة على مصادر إمداد أرخص وأضمن نسبيا فى كل من كندا والمكسيك وفنزويلا، وبين ١٩٨٠ و١٩٠٠ هبطت واردات الولايات المتحدة السنوية من نفط الشرق الأوسط بنسبة ٢٥٪ لتصل إلى ٦٨١ مليون برميل، بينما زاد تدفق خام نصف الكرة الغربى بنسبة ٢٤٠٪ ليصبح ٧٢٩مليون برميل. وفى مواجهة تقلص حصتها فى السوق خفضت "الأوپك" متوسط أسعار نفط الخليج الفارسى المنقولة بنسبة ١٥٪ لتصل إلى ٢٩ دولارا للبرميل فى مارس ١٩٨٣، ثم خفضتها مرة أخرى بعد ثلاث سنوات بنسبة ٤٠٪ تقريبا.

وبينما هبطت عائدات الحكومة من النفط بشدة فى أواخر الثمانينيات، نشبت الاتهامات والاتهامات المضادة بين العراق، التى كانت مشروعاتها التنموية وطموحاتها العسكرية تتطلب تدفقا متزايدا من البترودولارات نتيجة ارتفاع الأسعار، وبين الدول النفطية ذات الكثافة السكانية القليلة فى شبه الجزيرة العربية، حيث كانت الأسعار المنخفضة كافية لسد احتياجاتها المتواضعة. وفى أوائل ١٩٩٠ كانت الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية تدفع ١٨ دولارا ثمنا للبرميل من خام الشرق الأوسط، وهو رقم عندما تخصم منه نسبة التضخم، يصبح أقل بمقدار ٢٥٪ عن ذلك الذى كانت "الأوپك" قد فرضته إبان الصدمة النفطية الأولى قبل ١٧ سنة وهو

١١,٦٥دولارا؛ وراضخة أمام ضغوط الرئيس العراقى "صدام حسين" قامت دول "الأوبك" برفع أسعار نفطها إلى ٢١ دولارا للبرميل فى شهر يوليو، وبعد أقل من شهر اجتاحت الدبابات العراقية الكويت وسط شائعات بأن هدف بغداد التالى كان السعودية، فارتفع سعر البرميل من خام الخليج بشدة إلى ما يقرب من ٣٠ دولارا للبرميل فى السوق الفورية(١١٠).

على الطرف الآخر من العالم، فى البيت الأبيض، كان "چورچ بوش" يفكر فى الخيارات الأمريكية. يانكى منتزع من تربته الأصلية فى كونيكتكت، كان قد وضع ثروة صغيرة فى نفط غرب تكساس قبل أن يشغل سلسلة من المناصب العليا فى واشنطن، لم يكن لدى "بوش" النية أن يبقى ساكنا بينما يقوم "صدام حسين" بإغلاق باب نفط الشرق الأوسط الذى كان رجال الأعمال والدبلوماسيون الأمريكيون قد فتحوه قبل سبعين عاما. فى "سبتمبر ١٩٩٠ كان بوش يخاطب الشعب الأمريكى" لو سمح للعراق بابتلاع الكويت فإن القوة العسكرية والاقتصادية بالإضافة إلى الغطرسة، سوف ترعب وتجبر دول الجوار، الجيران الذين يتحكمون فى نصيب الأسد من احتياطى النفط المتبقى فى العالم"، "من المستحيل أن نترك شخصا أحمق يسيطر على مصدر حيوى كهذا، ولن يحدث"(١١١)؛ وقبل نهاية العام أرسل "بوش" أكثر من نصف المليون جندى إلى الخليج الفارسى وحصل على موافقة الأمم المتحدة بفرض عقوبات اقتصادية على بغداد، وبمساعدة من كبرى شركات النفط الأمريكية نظم مقاطعة لصادرات النفط العراقية شديدة التأثير، وعندما رفض "صدام" التراجع عن توجهه، دفع تحالف تقوده الولايات المتحدة بقواته عبر الحدود العراقية فى فبراير ١٩٩١ متقدما نحو الكويت حيث كانت سحب الدخان الأسود الكثيف الخانق تملأ الأفق نتيجة النيران المشتعلة فى المئات من آبار النفط.

بالرغم من ادعاء "بوش" بأن الحملة العسكرية الناجحة ضد العراق فى ١٩٩١ كانت تعبر عن إيمان أمريكا الواضح بـ"نظام عالمى جديد – **New World Order**" يقوم على القيم الديمقراطية، فإن حرب الخليج أعادت تأكيد التزام ثابت بباب مفتوح

على نفط الشرق الأوسط كان هو الذى شكل السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية على مدى قرن تقريبا. بعد أن ساعدوا على الانتصار فى الحرب العالمية الأولى، كان صناع السياسة يعملون بضراوة لمنع حلفائهم البريطانيين والفرنسيين من استبعاد الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية من الدول العربية الغنية بالنفط التى حلت محل الإمبراطورية العثمانية المهزومة. وبعد العمل معا على نحو وثيق لمنع نفط الخليج الفارسى من الوقوع تحت سيطرة النازية أثناء الحرب العالمية الثانية، عقد الدبلوماسيون ورجال النفط الأمريكيون شراكة غير رسمية خلال ربع القرن بعد ١٩٤٥ لضمان تدفق كميات متزايدة من خام الشرق الأوسط قليل التكلفة إلى المستهلك الغربى على كلا جانبى الأطلنطى.

إلا أن الطلب الأمريكى على النفط الذى كان يبدو كبيرا فى السبعينيات، بالإضافة إلى سعى "الأوپك" الدائب للحصول على أسعار أعلى، أحدثا أزمة طاقة وترت العلاقة بين واشنطن و"وول ستريت". كثيرون فى "كاپيتول هيل" و"مين ستريت" كانوا يلومون الجشع الزائد الذى جعل الشركات المتعددة الجنسية تقدم ربحيتها على متطلبات الأمن القومى الأمريكى؛ ومن جانب آخر كان خبراء النفط يلومون الدبلوماسية قصيرة النظر التى يزعم أصحابها أنها جعلت الشعب الأمريكى وقادته أكثر انحيازا لإسرائيل وابتعادا عن منتجى النفط العرب. تعاون الشركات النفطية فى مقاطعة صادرات خام العراق فى ١٩٧٠ بَيَّن أن مصالح الشركات يمكن أن تظل متطابقة مع مصالح الدولة ككل تحت الظروف الملائمة، كما أثبتت قدرة الولايات المتحدة على تأمين دعم سعودى فاعل لحرب الخليج فى ١٩٩١، بالرغم من التزام أمريكا الواضح بإسرائيل، أن النفط أغلى من الدم، على الأقل بالنسبة لبعض العرب.

أوائل التسعينيات سوف تأتى معها بأسعار أقل لنفط الشرق الأوسط وآمال أكبر فى السلام العربى الإسرائيلى وثقة متزايدة بأن السياسة العامة والمؤسسة الخاصة قد حلت مشاكل الدولة المتعلقة بالطاقة، إلا أنه مع اقتراب نهاية العقد كان حب رياضة سباق السيارات يتزايد فى أمريكا بينما كانت دول الأوپك التى عادت

للانتعاش تقلل العرض؛ وبحلول صيف ٢٠٠٠ كان سعر النفط حوالى ٣٠ دولارا للبرميل، كما كانت أسعار الجازولين فى الولايات المتحدة تقترب من دولارين للجالون ومحادثات السلام الإسرائيلية الفلسطينية متعثرة[١١٢]. بعد أن تولى "چورچ دبليو بوش" منصبه فى ٢٠ يناير ٢٠٠١ بإدارة مكتظة بالخبراء من "هاليبيرتون" و"إنرون" وغيرهما من شركات الطاقة العملاقة فى تكساس، كان القليل من الأمريكيين هم الذين يتوقعون انخفاض أسعار النفط فى وقت قريب.

بعد ثمانية أشهر، أعادت هجمات الحادى عشر من سبتمبر شبح أخطر أزمة للطاقة على مدى ربع القرن، وبالرغم من عدم وجود نفط فى أفغانستان كانت "طالبان" تدعو إلى ثورة إسلامية فى المناطق التى يوجد بها مثل تركمانستان وأذربيچان، والنتيجة أن القلق أصبح يساور بعض المراقبين من أن تدفع الحرب الجوية الأمريكية ضد القاعدة التى يأويها الأفغان، الراديكاليين الإسلاميين فى أماكن أخرى من آسيا الوسطى للهجوم على المنشآت النفطية أو تفجير خطوط الأنابيب التى تنقل البترول والغاز الطبيعى من حوض القزوين إلى شرق المتوسط. اهتمام واشنطن الأكبر، على أية حال، كان مركزا على السعودية مسقط رأس "أسامة بن لادن" ومعظم مختطفى الطائرات الذين هاجموا البنتاجون ودمروا مركز التجارة العالمى؛ وكما قيل فإن الهدف التالى للقاعدة كان "بيت آل سعود" الذى يتحكم فى أكبر بركة للذهب الأسود، والذى بقى المصدر الرئيسى لإمداد الولايات المتحدة بالنفط؛ كما كان يتنبأ أحد خبراء النفط فى الخليج فى أواخر العام "لو أن القاعدة قامت بعملية مماثلة فى السعودية فسوف يرتفع سعر برميل النفط إلى مائة دولار"[١١٣].

وبالرغم من الخوف من أن يقوم "أسامة بن لادن" بإسقاط أقرب أصدقاء الولايات المتحدة فى الرياض، فإن قرار إدارة "بوش" الخاص بالسعى لتغيير النظام فى بغداد فى ربيع ٢٠٠٣، هو – فى حقيقة الأمر – الذى أحدث الفوضى فى أسواق النفط. عقد من عقوبات الأمم المتحدة بعد حرب الخليج الأولى كان قد أصاب صناعة النفط العراقية بالشلل، فكان إنتاجها أقل بكثير من طاقتها لأن "صدام حسين" لم يكن

يستطيع أن يشترى معدات جديدة من الخارج. الغزو الأمريكى وعواقبه أوقف عمليات النفط العراقية فى اللحظة التى كان فيها الطلب على النفط يتزايد بشدة فى أماكن مثل الصين والهند، وهو ما رفع الأسعار إلى ٥٠ دولارا للبرميل فى صيف ٢٠٠٤.

بعد أربع سنوات انزلقت الولايات المتحدة إلى فخ فى العراق أشبه بمستنقع ڤيتنام، وبالتدريج تخطت الأسعار ٨٠ دولارا للبرميل فى السوق الفورية.

فى الوقت نفسه كانت قناة الجزيرة الفضائية وغيرها من وسائل الإعلام الخبرية تنقل على الهواء صور الموت والدمار من بغداد والبصرة إلى ملايين غرف المعيشة العربية، حيث كان المشاهدون يعقدون الصلة بين الاحتلال الأمريكى للعراق والاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية وغزة؛ ومن بواعث السخرية، حتى بالرغم من أن "القاعدة" لم تقترب من قلب نظام الحكم السعودى فإن العنف الذى أفرخته حرب العراق والصراع العربى الإسرائيلى كانا، فى آخر الأمر، يولدان ضغطا على السعودية لكى تستخدم نفطها سلاحا دبلوماسيا كما حدث قبل جيل.

وباختصار، فإن صناع السياسة وخبراء النفط كان عليهم، عند فجر الألفية الجديدة، أن يتساءلوا ما إذا كانت العلاقة الخاصة بين أمريكا وإسرائيل فى ظل الظروف الخطأ، يمكن أن تؤدى إلى تعقد - مرة أخرى - الأخطار الاقتصادية والسياسية - المعقدة بالفعل - التى تواجه الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط.

■ نحن الأمريكيين... نحن الصفوة... الشعب المختار... إسرائيل هذا الزمان، نحن حملة فُلْك حريات العالم.

هيرمان ميلفى – Herman Melville

(١٨٤٠)

■ الولايات المتحدة، كما قال الرئيس، تربطها علاقة بإسرائيل فى الشرق الأوسط أشبه بتلك التى كانت تربطها ببريطانيا بشأن أمور عالمية كثيرة.

چون. اف. كينيدى – John F.Kennedy

(٢٧ ديسمبر ١٩٦٢)

الفصل الثالث

صناعة علاقة خاصة

• أمريكا وإسرائيل

بينما كان إغواء النفط يبدو كبيرا فى عيون كبار رجال الأعمال والدبلوماسيين الذين شكلوا سياسة الولايات المتحدة إزاء الشرق الأوسط خلال العقود التالية للحرب العالمية الثانية، فإن رؤية دولة يهودية مستقرة آمنة فى الأرض المقدسة كانت تبدو أكبر فى عيون بقية الأمريكيين. فى منتصف الأربعينيات انضم غير اليهود الذين روعهم صمت واشنطن إزاء الهولوكوست إلى اليهود الأمريكيين الذين كانوا على علم بمعاداة السامية، فى حملة لكسب دعم الولايات المتحدة للطموحات الصهيونية فى فلسطين. وبالرغم من بعض الصراع البيروقراطى الضارى بين كبار مستشاريه، منح الرئيس "هارى ترومان" بركته لإسرائيل باعترافه بالدولة الجديدة بعد دقائق من إعلانها فى ١٥ مايو ١٩٤٨.

خلال نصف القرن التالى أصبحت إسرائيل والولايات المتحدة مرتبطتين على نحو أعمق "بعلاقة خاصة" شديدة التعقيد كان بعض المراقبين يشبهونها بتحالف متين غير رسمى وآخرون بزواج عرفى غير مستقر. وبالرغم من أن واشنطن جعلت العلاقات رسمية بفتح سفارة فى تل أبيب عاصمة إسرائيل الإدارية فى ١٩٤٩، فإن شهر العسل بين الحكومتين كان قصيرا؛ إدارة ترومان اشتبكت مرارا وتكرارا مع رئيس الوزراء "ديفيد بن جوريون – **David Ben Gurion**" حول طموحات إسرائيل الإقليمية، وكاد "دوايت إيزنهاور – **Dwight Eisenhower**" أن يفرض عقوبات على الدولة اليهودية فى أعقاب أزمة السويس. وفى أواخر الخمسينيات على أية حال، جعلت رغبة مشتركة فى احتواء القومية العربية إسرائيل والولايات المتحدة تتقاربان، وتسارعت تلك العملية فى أعقاب انتقال "جون إف. كينيدى – **John F.Kennedy**" إلى البيت الأبيض فى ١٩٦١. دعم الولايات المتحدة العسكرى والدبلوماسى للدولة اليهودية أثناء سنوات "جونسون" و"نيكسون" أقنع كثيرين فى "مين ستريت" وكابيتول هيل" بأن إسرائيل بمثابة أصل استراتيجى ثابت لأمريكا فى السبعينيات. بعد برود فى عهدى "فورد" و"كارتر" ودفء فى عهد "ريجان"، ثم برود مرة أخرى فى أوائل

التسعينيات فإن هذه "العلاقة الخاصة" بين إسرائيل والولايات المتحدة كانت تبدو راسخة فى عهد "كلينتون" وبخاصة فى ما يتعلق بالسياسة الخارجية الأمريكية.

على مدى أكثر من جيل كان الباحثون يحاولون تحديد النبع الرئيسى للعلاقات الإسرائيلية الأمريكية، منتقدو العلاقة الخاصة كانوا يعزون استمرارها لحسابات عام الانتخاب والسياسة الداخلية، ورغم أن عددهم كان دائما صغيرا نسبيا بشكل عام، ورغم أن أراءهم فى الكثير من القضايا كانت متنوعة نسبيا كذلك، فإن الناخبين اليهود كانوا متعاطفين مع إسرائيل تماما وكانت دوائرهم الانتخابية مهمة فى ولايات مثل نيويورك وإلينوى وكاليفورنيا، بالإضافة إلى أن صعود جماعات ضغط قوية مثل "لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية – (AIPAC) American Israel Public Affairs Committee" منذ الستينيات قد عزز نفوذ كل من الناخبين اليهود والدولة اليهودية فى "كابيتول هيل" و"البيت الأبيض".

مؤيدو العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل من ناحية أخرى كانوا مقتنعين تماما بأن حسابات الحرب الباردة وسياسات الدول الخارجية أهم من حسابات الأصوات الانتخابية فى أول ثلاثاء بعد الاثنين الأول من نوفمبر، وبالفعل فإن المسئولين فى الولايات المتحدة الذين كانوا مصرين على احتواء السوفيت دون التورط فى فيتنام أخرى كانوا عادة يعتبرون إسرائيل بتقاليدها الديمقراطية وقوتها العسكرية شريكا جذابا فى الشرق الأوسط، بالإضافة إلى أن الكثير من المحللين فى واشنطن كانوا يأملون أن يجعل الدعم الدبلوماسى والعتاد العسكرى التقليدى إسرائيل أكثر ميلا لقبول تسوية إقليمية مع جيرانها العرب وأقل ميلا نحو تطوير قاعدة نووية. التفحص الدقيق لذلك التحالف غير الرسمى المتأرجح الذى قام بين الولايات المتحدة وإسرائيل خلال السنوات الخمسين بعد ١٩٤٥، يكشف عن أن كل أنواع الحسابات كانت – فى غالب الأمر – مستخدمة، الحسابات البسيطة وحسابات التفاضل والتكامل.

كان لإسرائيل دائما مكانة خاصة فى الخيال الأمريكى. منذ لحظة رسو "أرابيلا" فى خليج ماساشوتس فى ١٦٣٠، كان "البيوريتانز – Puritans" يُعَرِّفون

أنفسهم بأنهم مواطنو إسرائيل الله الأمريكية المنذورة للعظمة "مدينة على التل"(١). بعد قرنين من الزمان حَدَّث "هيرمان ميلفى – Herman Melville" هذه الكلمات فى واحدة من رواياته الباكرة "نحن الأمريكيين... نحن الصفوة... الشعب المختار... إسرائيل هذا الزمان، نحن حملة فلك حريات العالم"(٢)، هكذا كتب فى سنة ١٨٤٩ مرددا ما كان يقوله أسلافه البيوريتانز. وبالرغم من أن انعزاليى القرن العشرين والمعادين للسامية كانوا يرفضون الصهيونية فإن أمريكيين كثيرين كانوا يجدون مغزى دينيا فى استرداد اليهود لبيتهم القديم فى فلسطين، كما أن معظمهم كان يعترف بأن إسرائيل هى إحدى الدول المفضلة لديهم.

وبالرغم من ذلك فإن علاقة أنكل سام الخاصة بإسرائيل لم تكن تستطيع أن تدعى شرف المكان ولا كانت إسرائيل أول دولة أجنبية تحظى بهذا الفضل فى عيون أمريكا، هذا الشرف كان من نصيب فرنسا التى كانت قد ساعدت مستعمرات بريطانيا الأمريكية فى الحصول على استقلالها بعد ١٧٧٦.

بعد أن هزت الثورة باريس، كان "چورچ واشنطن – George Washington" يخشى أن يجر الارتباط الفرنسى أمريكا إلى الحروب التسعة التى أصابت أوروبا لتستقطب السياسات وتضعف دعائم الحكومات المستقرة(٣). وعندما كان يستعد لترك منصبه، حدد أول رئيس أمريكى – على نحو متحفظ – ما كان يقلقه بخصوص العلاقات الوثيقة أكثر من اللازم مع فرنسا. وفى رسالة وداعية عرفت بـ"خطاب الوداع" حذر "چورچ واشنطن" الشعب الأمريكى فى مايو ١٧٩٦ من أن "الارتباط العاطفى بدولة أخرى تنجم عنه شرور عدة"، كما حذر من "المعزة الدائمة" لدولة أجنبية. خلفاء واشنطن كانوا يعون تحذيره، ففكوا التحالف مع فرنسا وتوصلوا إلى أن الفرنسيين – بالفعل – لم يكونوا استثنائيين بالمرة(٤).

ما حدث هو أن الولايات المتحدة أقامت بعد مائة وخمسين عاما علاقة خاصة مع دولة واحدة فقط هى بريطانيا العظمى. ولأنهم كانوا يتكلمون اللغة نفسها ويشتركون فى كثير من القيم الثقافية والسياسية فإن "فرانكلين روزفلت" و"وينستون

تشرشل – Winston Churchill" استطاعا أن يعقدا صلحا أثناء الحرب العالمية الثانية، مما قوى الآمال على جانبى الأطلنطى فى أن تدوم الثقة المتبادلة والمودة التى أحدثها ذلك "التحالف الكبير – Grand Alliance"، ولكن ما أن وضعت الحرب أوزارها حتى عاد إلى الظهور مجددا عدد كبير من المشكلات التى كانت قائمة قبل الحرب لتعمل ضد أن تكون هناك علاقة خاصة(٥).

من بين أبرز المسائل الخلافية التى واجهت صناع السياسة الأمريكيين والبريطانيين كان أسلوب كل منهما فى تناول قضية فلسطين. بالرغم من أن "حاييم وايزمان – Chaim Weizmann" كان يدفع البيت الأبيض فى أوائل ١٩٤٥ ليرفع الحظر الذى فرضته "الورقة البيضاء – White Paper" قبل ست سنوات على الهجرة اليهودية، كان "تشرشل" يبدو أكثر إصرارا منه فى أى وقت مضى على أن يظل الباب إلى الأرض المقدسة مغلقا. على الجانب الآخر من الأطلنطى كان "ف.د.روزفلت" يبدو أكثر تقبلا للطموحات الصهيونية بالرغم من الاتهامات الحادة من القادة العرب مثل ملك السعودية(٦). وفى الثانى عشر من أبريل، بعد أربعة أسابيع من إصداره بيانا، تمت صياغته بعناية شديدة، يقر قيام دولة يهودية فى الأرض المقدسة، مات "روزفلت" على أثر سكتة دماغية قاسية، تاركا "هارى ترومان" ليقرر ما إذا كانت التزامات سلفه الغامضة بشأن فلسطين يمكن تحويلها إلى علاقة خاصة مع إسرائيل بالرغم من الاعتراضات العربية والتحفظات البريطانية.

• قابلة من ميسورى: "هارى ترومان" وولادة إسرائيل

كان "هارى ترومان" سياسيا داهية وصديق عمر للضحية الذى كان يضع وزنا أكبر بالفطرة للوعود التى أعطاها "روزفلت" للصهاينة أكثر مما كان يضع على تلك التى أعطاها للعرب. أثناء الأسبوع الأول للديمقراطى القادم من "ميسورى" إلى السلطة، اجتاحت القوات الأمريكية ألمانيا لتحرر "بوخنوالد – Buchenwald" وغيره من معسكرات الموت التى كان نزلاؤها اليهود يحلمون ببدء حياة جديدة فى فلسطين. وفى أواخر يونيو أرسل "ترومان" الإيرل "چى هاريسون – G.Harrison"، المفوض

الأمريكى السابق لشئون الهجرة إلى أوروبا لتقييم احتياجات الناجين من الهولوكوست[٧]. مروعا لاكتشافه أن الكثيرين من بين ربع المليون يهودى أوروبى الذين لا حول لهم ولا قوة كانوا محتجزين فى منشآت نازية مهجورة، أوصى "هاريسون" فى أغسطس بأن يقوم البيت الأبيض بمساعدتهم فى أن يجدوا مأوى لهم فى الأرض المقدسة؛ وما دامت "الورقة البيضاء" البريطانية الصادرة عام ١٩٣٩ ما زالت سارية فإن فلسطين ستكون مفتوحة أمام مجموعة صغيرة فقط من اليهود، وأكد "هاريسون" "بالنسبة لأى زائر لمعسكرات الاعتقال استطاع أن يتحدث مع الناجين اليائسين، فإن التفكير فى إغلاق أبواب فلسطين بسرعة ليس أقل من كارثة"[٨].

مقتنعا بأن "أمريكا لا يمكن أن تقف مكتوفة اليد بينما ضحايا جنون "هتلر" لا يجدون فرصة لبدء حياة جديدة"، حث "ترومان" البريطانيين على إلغاء ورقتهم البيضاء الصادرة قبل الحرب والسماح لمائة ألف لاجئ يهودى بالهجرة فورا إلى فلسطين[٩].

لم يلق اقتراح "ترومان" أى ترحيب من وزارة الداخلية ولا وزارة الخارجية البريطانيين، وبلهجته الصارمة كان "إيرنست بيفن - **Ernest Bevin**" وزير الخارجية فى حكومة حزب العمال البريطانية الجديدة يعتقد أن زيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين وهى تحت الانتداب البريطانى من شأنها أن تضعف نفوذ المملكة المتحدة بين العرب، ورفض بوضوح توسط البيت الأبيض فى شأن كان يعتبره خاصا بـ"وايت هول". على الجانب الآخر من الأطلنطى كان كبار المسئولين فى الخارجية الأمريكية يحثون "ترومان" على التريث فى ما يخص الأرض المقدسة منذ اللحظات الأولى له فى المكتب البيضوى. "إدوارد ستيتينيوس - **Edward Stettinius**" وزير الخارجية حذر الرئيس الجديد فى ١٨ أبريل بأن "المسألة الفلسطينية بالغة التعقيد وتنطوى على ما هو أبعد مما حل بيهود أوروبا"[١٠]، وبعد خمسة أشهر كان خبراء الشرق الأوسط فى الخارجية الأمريكية ما زالوا يقولون لـ"ترومان" إنه "ينبغى أن نظل بعيدين عن كل ما من شأنه إغضاب العرب"[١١]. أمام المعارضة الشديدة من "وايت هول" والتردد الواسع فى الخارجية، طوى "ترومان" مشروع الهجرة فى أواخر الخريف، وقبل

اقتراحا بريطانيا بتشكيل لجنة أنجلو أمريكية لتقصى الحقائق حول مسألة فلسطين، وخلال الأشهر الثلاثة الأولى من ١٩٤٦ عقد أعضاء اللجنة الاثنى عشر (٦ بريطانيين و٦ أمريكيين) جلسات استماع في واشنطن ولندن وزاروا معسكرات اللاجئين في ألمانيا، وذهبوا إلى فلسطين حيث أذهلتهم إنجازات الرواد الصهاينة، واستمعوا إلى مفتى القدس وهو يقسم أن العرب سوف يلقون باليهود فى البحر؛ وبعد العودة إلى لندن أوصت اللجنة بالسماح للمائة ألف لاجئ يهودى بدخول فلسطين فورا مع إبقاء المجال مفتوحا أمام هجرة مستقبلية مرتبطة بالطاقة الاستيعابية للأرض. لم تذكر اللجنة شيئا عن إنشاء وطن قومى مستقل لليهود واقترحت دولة ثنائية القومية مكونة من مقاطعتين إحداهما يهودية والأخرى عربية تكون تحت الإدارة البريطانية بوصاية الأمم المتحدة[١٢].

قليل من الصهاينة هم الذين أيدوا المشروع الثنائى، والحقيقة أن "حاييم وايزمان – Chaim Weizman" حاول أن يقنع رفاقه بقبول توصيات اللجنة كخطوة أولى نحو كومنولث يهودى مستقل، ولكن "ديڤيد بن جوريون" ومعظم القيادات الصهيونية الأخرى في داخل فلسطين كانوا مصرين على أنه بتقسيم الأرض بين البحر الأبيض ونهر الأردن إلى دولتين مستقلتين فإن اليهود لن يكون لديهم أمل أبدا فى أن يدافعوا عن أنفسهم ضد العرب. من ناحية أخرى كانت قلة من المتحمسين المتشددين مثل "مناحيم بيجن – Menachem Begin" (البولندى المولد مؤسس المنظمة العسكرية الوطنية "إرجون تسڤاى ليومى – Irgun Zvai Leumi")، ترفض التقسيم وتؤيد الأساليب الإرهابية لطرد كل من البريطانيين والعرب من فلسطين لإفساح الطريق أمام دولة يهودية توسعية[١٣].

مقتنعين بأن أساليب "بيجن" العنيفة قد ذهبت إلى مدى بعيد بينما لم يذهب أسلوب "وايزمان" التوفيقى إلى المدى الكافى، انحاز معظم اليهود الأمريكيين إلى "بن جوريون". أيدت القيادات اليهودية التقسيم فى العلن، أما فى السر فكانت تأمل أن يرفض "ترومان" الصيغة الثنائية التى كانت اللجنة الأنجلو أمريكية تفضلها، وعندما

رضخ "ترومان" وأصدر بيان ٣٠ أبريل ١٩٤٦ الذى يزكى توصية اللجنة بالسماح لمائة ألف لاجئ يهودى بدخول فلسطين مع تجاهل اقتراحها الخلافى بوصاية ثنائية، استشاط المسئولون البريطانيون غضبا وعمت الاحتجاجات المعادية لأمريكا العواصم العربية. رد فعل "ترومان" كان فظا ومُعْلَنًا حين قال لأحد منتقديه فى وزارة الخارجية "علىّ أن أقدم حلا لمئات الألوف من المتلهفين على نجاح الصهيونية، ليس لدى مئات الألوف من العرب فى دوائرى الانتخابية"(١٤).

مع التوترات التى ظهرت بين واشنطن وموسكو خلال ربيع وصيف ١٩٤٦ كان على الرئيس ومستشاريه أن يفكروا مرتين فى سياسة بالنسبة لفلسطين، كانت تَعِدُ بإبعاد حلفاء الحرب الباردة الأمريكية فى بريطانيا وتهدد بدفع العرب بكل ما لديهم من نفط إلى المدار السوفيتى. فى منتصف يونيو ابتكر "هنرى اف. جرادى – **Henry F.Grady**" خبير "ترومان" المتخصص فى حل مشكلات الشرق الأوسط، و"هربرت موريسون – **Herbert Morrison**" أحد أقرب مستشارى وزير الخارجية "بيڤن – **Bevin**" مشروعا ملتبسا يقترح إقليمين فى فلسطين يتمتع كلاهما بحكم ذاتى فى اتحاد فيدرالى، أحدهما عربى والآخر يهودى وتمارس عليهما بريطانيا وصاية من الأمم المتحدة لفترة غير محددة(١٥).

بينما كان المسئولون فى الخارجية يرون مشروع "جراى – موريسون" خطوة فى الاتجاه الصحيح، كان الصهاينة الأمريكيون ومؤيدوهم فى "كابيتول هيل" يعتبرون ذلك خيانة لالتزام أمريكى بوطن يهودى. مستعرضا خياراته خلال اجتماع وزارى فى ٣٠ يوليو، استبد الغضب بـ"ترومان". وزير التجارة "هنرى والاس – **Henry Wallace**" (وهو ليبرالى من "أيوا" ومن مؤيدى التقسيم) حذر من أن مشروع "جراى – موريسون" كان "ملغوما بالديناميت السياسى" وذَكَّره بأن "اليهود كانوا يتوقعون أكثر من ألف وخمسمائة ميل مربعا"، ورد "ترومان" بأنه كان قد "ضاق ذرعا باليهود" مضيفا أن "المسيح فشل فى إرضائهم عندما كان هنا على الأرض، فكيف يتوقع أحد أن يحالفنى الحظ فى ذلك؟". مستغلا إحباط "ترومان"، حذر "چيمس فورستال –

James Forrestal" وزير البحرية من أن "دعم إنشاء دولة يهودية فى فلسطين قد يعرض إمكانية وصول الولايات المتحدة إلى نفط السعودية للخطر، حيث كان "ابن سعود" قد وصل إلى ذروة الغضب، لكن الرئيس لم يكن مشغولا بالسياسات النفطية. ويذكر "هنرى لورانس - Henry Lawrence" فى مذكراته أن "ترومان" قال إنه كان يريد أن يتناول تلك المشكلة، ليس من زاوية الحصول على النفط وإنما من زاوية ما يراه صوابا"(١٦).

بحلول خريف ١٩٤٦، كان "ترومان" قد بات مقتنعا بأن تقسيم الأرض المقدسة هو عين العقل. ومع سنة غير انتخابية كانت تلوح فى نوفمبر، ومع الديمقراطيين الذين كانوا يعتبرون، على نطاق واسع، لينى العريكة مع الشيوعية ومخطئين فى الاقتصاد، كانت أصوات اليهود أهم من النفط العربى. عندما بدأت الحملة الانتخابية كان "برنارد باروخ - Bernard Baruch" وهو من أبرز أعضاء الحزب الديمقراطى وأحد المتنفذين فى البيت الأبيض، كان يقول لزميل صهيونى "أعطنى أصوات اليهود فى نيويورك وأنا أجيء لكم برأس ابن سعود على طبق" مضيفا "الإدارة سوف تبيع الدول العربية السبع إذا كانت المسألة هى الاحتفاظ بالدعم... دعم يهود نيويورك فقط، أما بالنسبة لبقية البلاد فلا تقلق"(١٧).

يبدو بالرغم من ذلك أن الاعتبار الحاسم فى ميل إدارة "ترومان" إلى التقسيم كان السلام فى الأرض المقدسة وليس الفوز يوم الانتخاب. وفى ٧ أغسطس ١٩٤٦ نصح "ناحوم جولدمان - Nahum Goldman" (أحد مدراء الوكالة اليهودية وهى المجموعة التى تأسست فى ١٩٢٩ على يد "حاييم وايزمان" لمساعدة اليهود الأوروبيين المعدمين الذين كانوا يريدون الهجرة إلى فلسطين) وزارة الخارجية بأن الصهاينة لن يسمحوا للعرب باستكمال ما بدأه النازيون. كان كثيرون من اليهود فى فلسطين يتسلحون بالفعل ضد مشروع "جراى - موريسون" كما قال "جولدمان"، وبدون تقسيم "سيفوز المتطرفون". قبل ذلك بأسبوعين كانت "إرجون - Irgun" التى يرأسها "بيجن" قد فجرت قنبلة فى فندق الملك داود بالقدس، مقر قيادة العمليات العسكرية البريطانية

فى فلسطين فقتلت ٩١ شخصا وجرحت ٤٥ آخرين. كان "جولدمان" يقول بأسى: "سيكون إرهاب، سوف أقدم استقالتى أنا و"وايزمان"، وستكونون فى ورطة شديدة، سيكون عليكم أن تساعدوا الإنجليز ليحاربوا اليهود بعد "أوشفتز"، أو ماذا أنتم فاعلون غير ذلك؟". "جولدن" سيحصل على الإجابة عشية "يوم كيبور" عندما يصدر "جولدمان" تصريحا يزكى قيام كومنولث يهودى مستقل فى فلسطين(١٨).

نتيجة للغضب الشديد بسبب ما اعتبروه دليلا واضحا على أن البيت لأبيض كان يعطى أولوية لاسترضاء دوائره اليهودية على ترضية حلفائه البريطانيين فى فبراير ١٩٤٧، أعلن "وايت هول" أنه يسلم القضية الفلسطينية المعقدة برمتها للأمم المتحدة؛ أما إدارة "ترومان" التى فاجأها القرار البريطانى رغم تلهفها على تجنب التورط فى النزاع، فراحت تعمل من وراء الستار مع سكرتير عام الأمم المتحدة "تريجف لاى – Trygve Lie" الذى أقنع الجمعية العامة فى ١٣ مايو لتشكيل لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين: United Nations Special Committee on Palestine (UNISCOP) المكونة من دبلوماسيين من "إحدى عشرة دولة محايدة نسبيًا" تقدم توصياتها قبل الأول من سبتمبر ١٩٤٧(١٩).

عندما وصل ممثلو UNSCOP إلى القدس فى ١٦ يونيو لبدء عملهم كانت فلسطين على شفا حرب أهلية. خلال الربيع كان "بيجن" و"الإرجون" قد صعدوا حملتهم الهجومية ضد البريطانيين الذين ردوا بفرض الأحكام العرفية؛ وفى الوقت نفسه كان العرب الفلسطينيون يحشدون قوتهم، بمباركة من مفتى القدس، لمنع المزيد من الهجرة اليهودية وإحباط الجهود الصهيونية لشراء المزيد من الأراضى. بعد خمسة أسابيع فى فلسطين كان بعض أعضاء UNISCOP قد اقتنع بأن اقتراح الدولة الثنائية الذى كان يؤيده كثيرون فى لندن والبعض فى واشنطن يمكن الأخذ به، وبعد اجتماع آخر فى چنيف بسويسرا، وافقت اللجنة على مشروع يدعو لتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين تماما مع التفاهم على أن تظل القدس مدينة دولية لا يحكمها العرب ولا اليهود وإنما تدار بواسطة قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة(٢٠).

أشعلت توصيات "UNISCOP" معركة برلمانية ضارية في "ليك سكسس"، ضاحية لونج آيلاند، الواقعة على بعد عشرين ميلا شرقي نيويورك سيتي التي كانت تستخدم مقرا مؤقتا للأمم المتحدة، بينما كان المهندسون المعماريون عاكفين على تصميم ناطحة سحاب في "مانهاتن". ولأنهم كانوا في حاجة إلى أغلبية الثلثين لتنفيذ اقتراع التقسيم، كانت جماعات الضغط الصهيونية تستخدم كل الوسائل لكسب أصوات الدول المتذبذبة مثل الفيلبين وليبيريا، وبينما كان المطلوب أقلية لا تزيد عن ثلث زائد واحد لرفض تقرير اللجنة، كانت الدول العربية الخمسة، أعضاء الأمم المتحدة تجد في طلب دعم جيرانها المسلمين في تركيا وإيران ودعم الدول الجديدة المحايدة مثل الهند. وفي أوائل نوفمبر كانت الاتهامات العربية تتردد في الجمعية العامة بأن خصوم اليهود كانوا يشترون الأصوات واتهامات مضادة بأن الدول العربية النفطية كانت تبتز الدول المترددة التي تعتمد على استيراد نفط الشرق الأوسط.

النشاط السياسي العربي والصهيوني بين الكواليس في "ليك سكسس" جعل من يقومون به يكتشفون أن النتيجة كانت متوقفة على توجهات الثلاثة الكبار: بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة؛ وبالرغم من أن المسئولين البريطانيين بقوا على اقتناعهم بأن التقسيم قد يضعف وضع المملكة المتحدة في العالم العربي، امتنع "وايت هول" عن التصويت ليتجنب تكبيل الأمم المتحدة بمعارضة تقرير "UNISCOP" ومتطلعا للصيد في المياه العكرة أيد "الكرملين" التقسيم لأنه كان يبدو أنه سيضعف النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط بكل تأكيد. وعندما كان موعد التصويت الحاسم يقترب كانت سياسة الولايات المتحدة تجاه فلسطين ما تزال غامضة مثلما كانت على مدى الاثني عشر شهرا السابقة. كان المسئولون في الخارجية الأمريكية ما زالوا يرون أن أسلوب عدم التدخل هو الأفضل لتفادي الصراع المدني والتخريب السوفيتي في المنطقة. مساعدو البيت الأبيض مثل "ديفيد نيلز – David Niles" على أية حال، التفوا على "فوجي بوتوم" باهتمامهم بأن الخصوم الأشداء للتقسيم من "إدي چاكبسون – Eddie Jacobson" (وهو رجل أعمال من كانساس سيتي وشريك تجاري للرئيس) إلى

"حاييم وايزمان" (أشهر صهيونى فى العالم) كانوا يستطيعون عرض قضيتهم مباشرة على "هارى ترومان" شخصيا. وبفضل هذا الضغط المنظم فى المكتب البيضوى، كانت الولايات المتحدة من بين الدول الثلاث والثلاثين فى "ليك سكسس" التى أيدت التقسيم فى ٢٩ نوفمبر، وليس ضمن الإحدى عشر الذين امتنعوا عن التصويت أو الثلاث عشرة الذين اعترضوا؛ وهكذا بصوتين فقط حقق الصهاينة أغلبية الثلثين[٢١].

بدا تطبيق قرار الأمم المتحدة بالتقسيم شديد الصعوبة. بعد التصويت بيوم واحد أطلق العرب الفلسطينيون النار على حافلة يهودية بالقرب من تل أبيب لتكون علامة على بداية حرب أهلية دموية، ومع العنف الذى سرعان ما تصاعد أعلنت الحكومة البريطانية فى ١١ ديسمبر أنها سوف تنسحب من فلسطين قبل ١٥ مايو ١٩٤٨. جو الفوضى والإرهاب السائد جعل "روبرت ماكاتى - Robert Macatee" القنصل العام الأمريكى يحذر رؤساءه من القدس ليلة رأس السنة الجديدة. ومع إصرار بريطانيا على التخلى عن الانتداب وتلهف روسيا وتطفلها على المسألة الفلسطينية، كان الكثيرون فى "فوجى بوتوم" يساورهم القلق خشية أن تلجأ الأمم المتحدة إلى الولايات المتحدة فى حال الاحتياج إلى قوات لاستعادة السلام والأمن فى الأرض المقدسة[٢٢].

فى أوائل ١٩٤٨ كان مسئول كبير واحد على الأقل فى "البنتاجون" يشكو من أن أسلوب تناول الولايات المتحدة لمسألة فلسطين كانت تمليه الاعتبارات السياسية لعام الانتخابات وليس مصالح ومتطلبات الأمن القومى؛ وبوصفه للأزمة المتفاقمة فى فلسطين بأنها "تنطوى على خطر عظيم على هذا البلد إذا تركناها محصورة فى نطاق السياسة الداخلية" كان "جيمس فورستال - James Forrestal" (الذى كان قد رقى حديثا لمنصب وزير الدفاع) يخشى أن يكون التقسيم سببا فى "خسارة دائمة لعلاقاتنا مع العالم الإسلامى"، بل ربما يؤدى إلى ما هو أسوأ بالنسبة للولايات المتحدة وهو أن "تزل بها قدمها إلى حرب"[٢٣]، ولم تكن الحرب سواء فى الشرق

الأوسط أو وسط أوروبا احتمالا بعيدا فى نظر المسئولين الأمريكيين. فى ٢٥ فبراير استولى الشيوعيون المتشددون الذين كانت تربطهم علاقة وثيقة بموسكو على السلطة فى تشيكوسلوفاكيا، معمقين المخاوف من احتمال هجوم عسكرى سوفيتى ضد القوات الأمريكية المجاورة فى ألمانيا على نحو مفاجئ. مشغولا بخطر الحرب فى أوروبا ومتلهفا على تجنب الإنزلاق إلى رمال ناعمة عسكرية فى الشرق الأوسط، أعطى "هارى ترومان" الصلاحية لوزارة الخارجية لإحياء مشروعاتها القديمة من أجل وصاية ثنائية فى فلسطين فى أواخر الخريف، إذا ما ارتأت الأمم المتحدة أن التقسيم لم يعد ذا جدوى، ولأن "ترومان" لم يكن راغبا فى استبعاد احتمال إنشاء دولة يهودية مستقلة، أكد لـ"وايزمان" فى ١٨ مارس ١٩٤٨ فى لقاء غير رسمى فى المكتب البيضوى "كنت أعرف ما يريد"(٢٤).

كان ذلك ما فعله أيضا مسئولو الخارجية إلا أنهم أوضحوا فى اليوم التالى أنهم كانوا أقل ميلا من "ترومان" لتبنى الطموحات الصهيونية، ففى ١٩ مارس أبلغ "وارن أوستن – **Warren Austin**" سفير أمريكا لدى الأمم المتحدة مجلس الأمن بأن الولايات المتحدة كانت قد باتت مقتنعة بأن التقسيم غير عملى وأنها يمكن أن تكون مع "وصاية مؤقتة" بدلا من ذلك. "ترومان" الذى استشاط غضبا كان يقول: "وزارة الخارجية عكست سياستى المتعلقة بفلسطين" رغم التطمينات الأخيرة لـ"وايزمان"، "وأنا الآن فى موقف الكذاب والغشاش" و"هناك أشخاص من الدرجة الثالثة والرابعة فى الخارجية يريدون أن يدمرونى... وينجحون فى ذلك"(٢٥).

بعد ساعات قليلة قام الرئيس باستدعاء "كلارك كليفورد – **Clark Clifford**" وهو محام شاب بارع من "سان لويس" كان يكمل عامه الثانى مستشارا قانونيا خاصا فى البيت الأبيض، إلى المكتب البيضوى لبحث أفضل السبل لإيقاف النزف. طلب "ترومان" من "كليفورد" أن يعيد قراءة "قانون الشغب" على وزارة الخارجية وكان الأخير سعيدا بأداء هذه المهمة(٢٦). ورغم أن "كليفورد" كان دائما مقتنعا بأن الاعتبارات السياسية الداخلية لم يكن لها دور فى تشكيل توجهات البيت الأبيض بخصوص مسألة فلسطين، فإنه كان كذلك، يعرف جيدا أن رئيسه يجىء دائما بعد

مرشح الجمهوريين "توماس إى. ديوى – Thomas E.Dewey" (من نيويورك) فى معظم الدوائر، وأنه كان أمام معركة صعبة فى محاولته الحصول على فترة رئاسية ثانية فى نوفمبر؛ وكما اعترف "كليفورد" بصورة شخصية بأن الرئيس سوف يكون فى حاجة إلى كل صوت يمكن الحصول عليه، وأن كل يهودى "كان يعتبره ابن كلب"(٢٧) فى أعقاب تردده المفاجئ بخصوص "المسألة الفلسطينية".

مع بدء سخونة الحملة الانتخابية الرئاسية، رفض "بن جوريون" ورفاقه الصهاينة رسميا وصاية الأمم المتحدة، وأعلنوا عن خطة لتشكيل حكومة مؤقتة فى تل أبيب بمجرد مغادرة آخر فوج من القوات البريطانية فى ١٥ مايو. مقتنعين بأن "بن جوريون" كان يساوم، كان مساعدو "ترومان" يعتقدون أنه بالاعتراف الفورى بالدولة التى لم يكن اسمها قد تحدد بعد، يمكن أن يستعيد الرئيس تأييد الصهاينة الأمريكيين المستائين قبل يوم الانتخاب؛ وفى ٥ مايو كان أحد الديمقراطيين البارزين فى "إمپايرستيت" يحذر البيت الأبيض "بصراحة شديدة، الرئيس لا يستطيع أن يفوز فى ولاية نيويورك فى الظروف الحالية... التصويت اليهودى ضده سيكون ساحقا"(٢٨).

فى غضون أقل من أسبوعين ستكون لفرص وآفاق ترومان انعطافة درامية نحو الأفضل، ففى ١٢ مايو قام الرئيس بتحكيم مناظرة بين وزير الخارجية "چورچ سى. مارشال" و"كلارك كليفورد" حول الشأن الفلسطينى، كان الأخير مصرا على أن "دولة إسرائيلية منفصلة أمر حتمى". وحيث إنه كان من المرجح أن يقدم "الكرملين" على إقامة علاقات مع النظام الجديد "الآن وليس غدا" كان "من الأفضل أن نعترف الآن ونحرز بذلك تقدما مباغتا على الاتحاد السوڤيتى". معتبرا ذلك "مراوغة صريحة لكسب بضعة أصوات"، رد "مارشال" بأن "النصيحة التى يقدمها مستر "كليفورد" تقوم على اعتبارات سياسية داخلية، بينما المشكلة التى نواجهها مشكلة عالمية"، بالإضافة إلى أن "الرئيس إذا عمل بنصيحة مستر "كليفورد" وكان علىَّ أن أدلى بصوتى فى الانتخابات فسوف أصوت ضده"(٢٩). كان ذلك هو رد وزير الخارجية الذى كان معروفا عنه اعتدال الطبع. وبعد انتهاء الاجتماع، كما قال "كليفورد" بعد ذلك بفترة

قصيرة "يبدو أن انتقادات مارشال "العنيفة"، ذلك المعمدانى الأخلاقى"، كانت تصب فى اتجاه عدم الاعتراف(٣٠).

بعد لحظات من انصراف "مارشال" ومساعديه جفل "ترومان" وهو يقول: حسنا! كان حوارا فظا مثل قطعة من الصخر، لم يسبق أن رأيت الچنرال غاضبا هكذا!"؛ على أية حال بقى الرئيس جادا بشأن الاعتراف بالدولة اليهودية. قال "ترومان" لـ"كليفورد": "لنترك الغبار يهدأ قليلا ونرى ما إذا كان بالإمكان تحقيق هذا الأمر"، وفى المساء نفسه زار "كليفورد" وكيل الخارجية "روبرت لوفيت – Robert Lovett" الذى كان يأمل أن يتم تفادى فراقا علنيا مربكا بين "ترومان" و"مارشال"، ومثل رئيسه كان "لوفيت" يعتقد أن "الاعتراف بالدولة اليهودية قبل الأوان أشبه بشراء خنزير فى كيس"(٣٢).

كان رأى "كليفورد" مختلفا: "بوب... ليس هناك أى احتمال أن يغير الرئيس رأيه فى هذا الموضوع، هو يريد أن يعترف بالدولة الجديدة"، وهو يرتشف كأسا من "البوربون" كان المستشار الخاص للبيت الأبيض يحث وزارة الخارجية على التراجع. بعد ذلك قال "كليفورد" معقبا "كل ما أستطيع أن أقوله إنه إذا كان لأحد أن يعطى شيئا فإنه سيكون الچنرال مارشال، لأننى أستطيع أن أقول أن الرئيس لن يعطى بوصة واحدة"(٣٣).

خلال الساعات الست والثلاثين التالية استطاع "لوفيت" أن يقنع وزير الخارجية بأن يعطى ميلا، وبالتدريج تغلب وفاء "مارشال" للمسئول الرئيسى على سورة غضبه مع الديمقراطى القادم من "ميسورى". قبل الساعة الرابعة من ظهر يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٤٨ حصل البيت الأبيض على ما كان يريده. "لوفيت" أبلغ "كليفورد": "لقد تحدثت مع الچنرال، هو لا يستطيع أن يؤيد موقف الرئيس ولكنه وافق على ألا يعارضه"(٣٤)، وبدوره، نقل كليفورد الأخبار السعيدة إلى "ترومان" الذى كان رده... "وهذا هو كل ما نريد".

بعد ساعتين، أصدر البيت الأبيض بيانا يعترف فيه بدولة إسرائيل وذلك بعد إحدى عشرة دقيقة من إعلانها. معتبرا ذلك انتصارا للمهارة السياسية قصيرة المدى

على المصالح القومية بعيدة المدى، قام "لوفيت" صباح الإثنين بتشريح جثة قرار الاعتراف بإسرائيل. "يبدو أن اعتراضاتى على الإجراء المتعجل وتحذيراتى من نتائج ذلك على العالم العربى لم ترجح اعتبارات أخرى لا أعرفها، وفى النهاية يمكن فقط أن أقول إن المستشارين السياسيين للرئيس بعد أن فشلوا بعد ظهيرة الأربعاء الماضى فى أن يجعلوه أبا للدولة الجديدة، صمموا أن يجعلو منه القابلة، على الأقل"[٣٥].

كان "لوفيت" بالطبع يعرف جيدا، كما كان يعرف مستشارو البيت الأبيض أن الاعتبارات السياسية الداخلية قد تجلت واضحة فى قرار "ترومان" بالاعتراف بإسرائيل. وخلال الساعات الأخيرة قبل الإعلان التاريخى فى ١٤ مايو، قام "كليفورد" بإبلاغ "لوفيت" بأن "الرئيس كان تحت ضغط غير عادى لكى يعترف بالدولة اليهودية على الفور"، وبأن القضية كانت ذات أهمية قصوى بالنسبة للرئيس من وجهة النظر الداخلية"[٣٦]. بعد عام، كان "لوى هندرسون – Loy Henderson" رجل "فوجى بوتوم" الذى سبق أن حذر البيت الأبيض مرارا من أن الاعتراف بإسرائيل يمكن أن يلحق الضرر بمصالح الولايات المتحدة، كان ما زال يتذكر رد "ديفيد نيلز" الحاد "لوى... انتبه! أهم شىء بالنسبة للولايات المتحدة هو أن يعاد انتخاب الرئيس"[٣٧].

لم تكن سياسات العام الانتخابى على أية حال هى العامل الوحيد فى اتخاذ هذا القرار. مؤكدا "هدفى الوحيد فى المسألة الفلسطينية كان هو الحيلولة دون سفك الدماء" يبدو أن "ترومان" كان يعتقد بالفعل أن الاعتراف بإسرائيل من شأنه أن يقضى على المضاربات التى لا نهاية لها، التى ساعدت على أن يظل العرب واليهود شوكة فى حلق كليهما على مدى جيل كامل. لأنه كان شديد القلق من احتمال قيام السوفيت بانتهاكات فى الشرق الأوسط، يبدو كذلك أنه كان يعتبر دولة يهودية فى المنطقة يمكن أن تكون متراسا أقوى ضد الشيوعية من أى شىء يمكن أن يقدمه العرب[٣٨]، يضاف إلى ذلك أنه كانت هناك اعتبارات أخلاقية نابعة من عدم تحرك الولايات وسلبيتها أثناء الهولوكوست. كانت فظائع "أوشفتز" و"بوخنوالد"، فى نظر الرئيس، هى التى جعلت دعم الولايات المتحدة لأهداف الصهيونية فى الأرض المقدسة

أكثر ضرورة، غير أن "ترومان" وكان سياسيا داهية، لم يدرك أن اعترافه بإسرائيل في الربيع سوف يجنى أرباحا من اليهود قبل أن ينتهى العام. فى ٢ نوفمبر ١٩٤٨ حقق "ترومان" واحدة من أكبر الصدمات السياسية المذهلة فى تاريخ الولايات المتحدة بفوزه على "ديوى - Dewey" وحصوله على فترة رئاسة ثانية، وكالعادة لم تكن هناك قضية واحدة يمكن اعتبارها العامل الحاسم فى النتيجة النهائية، وبالرغم من ذلك يمكن أن نفترض، بكل صواب، أن أصدقاء إسرائيل اليهود والمسيحيين أعطوا أصواتهم لـ"ترومان" بأعداد ساحقة.

●سنوات النفور (١٩٤٨-١٩٥٧)

بالرغم من أن إدارة "ترومان" قامت بدور القابلة فى عملية ولادة الدولة اليهودية، فإن العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل فى منتصف الخمسينيات كانت أشبه بصراع قوى بين زوج أم مسيطر وابن زوجة من أب آخر، متمرد.

علامات النفور بين واشنطن وتل أبيب ظهرت منذ صيف ١٩٤٨ عندما تعقدت الخيوط بين "بن جوريون" وصناع السياسة الأمريكية حول الحدود الملائمة للدولة اليهودية. مقتنعين بأن إسرائيل كانت تسيطر على مساحة كبيرة جدا من الأراضى على أثر انتصارها الساحق، كان المسئولون فى الخارجية الأمريكية يشجعون الأمم المتحدة فى هدوء على ترسيم حدود أكثر إرضاء للعرب؛ وفى أواخر أغسطس عمل الكونت "فولك برنادوت - **Folke Bernadotte**" وهو أرستقراطى سويدى، وسيطا للأمم المتحدة بخصوص فلسطين وكان يضغط على إسرائيل لكى تعيد صحراء النقب للعرب، الأمر الذى رفضه على الفور كل من "بن جوريون" و"موشى شاريت - **Moshe Sharett** " وزير الخارجية؛ ومصرين على إحباط هذا الاقتراح، قام متطرفون يمنيون فى الحكومة الإسرائيلية باغتيال الكونت "برنادوت" وهو يقود سيارته فى القدس فى ١٧ سبتمبر ١٩٤٨[٣٩].

وهى مصعوقة لعملية الاغتيال، أدركت إدارة "ترومان" أن مشروع "برنادوت" ولد ميتا، وفى سلسلة من التصريحات عشية الانتخابات كان رجل المكتب البيضوى

يؤكد علنا تأييده لدولة يهودية "كبيرة بما يكفي.. حرة بما يكفي.. قوية بما يكفي.. لجعل شعبها معتمدا على نفسه وآمنا على نفسه". على نحو شخصى كان "ترومان" على أية حال يعتبر المزيد من التوسع مسألة مفروغا منها وهو ما أوضحه بعد أن حاولت إسرائيل الحصول على حق الوصول إلى البحر الأحمر دون اعتراض، وذلك بالاستيلاء على جزء من شبه جزيرة سيناء المصرية فى أواخر ديسمبر. وفى ٣٠ ديسمبر أشار "ترومان" إلى أن ذلك "لم يكن مناورة عارضة، وإنما عملية عسكرية صريحة ومخططة"، محذرا "بن جوريون" أنه إذا لم تنسحب إسرائيل فورا "فلن يكون أمام الولايات المتحدة سوى أن تعيد النظر فى موقفها تجاه إسرائيل"(٤٠). مصرا على أن الحافز على عملية سيناء كان الدفاع عن النفس، وغير مستعد للمخاطرة بتكدير العلاقات الودية مع الولايات المتحدة أكد "بن جوريون" للبيت الأبيض فى أول أيام العام الجديد أن "الأوامر صدرت بالفعل للقوات الإسرائيلية بالانسحاب"(٤١).

بالرغم من أن "ترومان" كان مشغولا فى فترة إدارته الثانية بأزمات أخرى أكثر حدة فى الصين وكوريا، ظلت طموحات إسرائيل الإقليمية مصدر قلق مستمر بالنسبة له، وعندما تفجرت أعمال العنف على الحدود السورية فى ١٩٥١ مثلا، كانت إدارة ترومان تعتبر إسرائيل مسئولة وأدانتها لمحاولتها احتلال المنطقة المنزوعة السلاح التى أقامتها الأمم المتحدة لحفظ السلام بين العرب واليهود. وبينما كان العام ١٩٥٢ عام انتخابات فإن "ترومان" المرهق بسبب الحرب والملوث بالفضائح قرر عدم السعى لفترة رئاسية أخرى، وبالتالى كان أقل حساسية للضغط من الجماعات الموالية لإسرائيل مثل "المجلس الصهيونى الأمريكى - **American Zionist Council** " وهو منظمة صهيونية ضاغطة تأسست فى ١٩٥١ سوف تتمخض فى النهاية عن الـ"**AIPAC**"؛ وباختصار، عندما أعد ذلك الديمقراطى القادم من "ميسورى" العدة لتسليم البيت الأبيض لـ"دوايت إيزنهاور" فإن العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة كانت أكثر برودة عما كانت عليه قبل أربع سنوات(٤٢).

الإدارة الجديدة التى بدأت عملها فى ٢٠ يناير ١٩٥٣، سرعان ما ظهر أنها كانت أكثر اهتماما بشكاوى أعداء إسرائيل العرب وأقل حساسية بالنسبة لأصدقاء

الدولة الجديدة من الأمريكيين. وبالرغم من أن إيزنهاور كان معترفا بالتزام أمريكا الأخلاقى تجاه إسرائيل، كان فى الوقت نفسه مصرا على ضرورة أن تنظر الولايات المتحدة فى ما يقلق العرب. ظهر الخلاف بين إدارة إيزنهاور وإسرائيل فى منتصف مايو عندما وصل وزير الخارجية "جون فوستر دالاس – **John Foster Dulles**" إلى تل أبيب كجزء من رحلة تقصى حقائق إلى الشرق الأوسط تستغرق أسبوعين. وكمحام بارع وحذر، يعتبر الولايات المتحدة "إسرائيل الرب الأمريكية" وهى الرؤية التى تنافس رؤية "البيوريتانز"، كان "دالاس" شديد الإعجاب بالإسرائيليين لحيويتهم الرائدة وحماستهم المتقدة ضد الشيوعية، ولكن ساءه أسلوبهم المتشدد ضد العرب وتدخلهم السافر فى سياسات جماعات المصالح فى "كابيتول هيل". هذا الموقف المتناقض اتسع ليصبح عداء سافرا بعد أن رفض "بن جوريون" مجرد التفكير فى تسويات حدودية. محبطا بسبب ما كان يعتبره تعنتا إسرائيليا، كان "دالاس" مصرا على أن السلام والاستقرار فى الشرق الأوسط معلقين على مداواة مظالم العرب الذين كانوا "يشعرون أن إدارتى "روزفلت" و"ترومان" كانتا خاضعتين للنفوذ اليهودى وأنهما تجاهلتا وجهات النظر العربية"، كما أضاف "دالاس" بوضوح وحدّة أن إدارة "إيزنهاور" لن تتخذ قرارات بخصوص النزاع العربى الإسرائيلى "تحت ضغط من الجماعات اليهودية الأمريكية"(٤٣).

لم يحاول "دالاس" ولا الرئيس الذى كان يعمل معه إخفاء رغبة الإدارة الجديدة فى ترميم أسلوبا أمريكا فى الشرق الأوسط، كما أخبر "دالاس" الشعب الأمريكى فى خطاب متلفز فى الأول من يونيو بأن "سياسات الولايات المتحدة ينبغى ألا تكون منحازة وذلك لكى تكسب احترام وتقدير الشعب الإسرائيلى والشعب العربى أيضا"، كما أبلغ "إيزنهاور" مجلس الأمن القومى بعد ذلك بخمسة أسابيع أن صناع السياسة الأمريكية لابد من يسألوا أنفسهم "ما إذا كنا صارمين مع الإسرائيليين كما نحن مع أى دولة أخرى"، وفى ١٤ يوليو ١٩٥٣ وافق "إيزنهاور" على توجيه مجلس الأمن القومى (**NSC-155/1**) الخاص بسياسة الشرق الأوسط، الذى يدعو إلى "عكس التوجهات المعادية لأمريكا فى الرأى العام العربى" وذلك عن طريق توضيح أن إسرائيل لن تحصل على معاملة تفضيلية لمجرد كون سكانها من اليهود"(٤٤).

قبل نهاية العام سوف تثبت إدارة إيزنهاور أنها كانت تعنى ذلك بالفعل، فعندما رفضت الدولة اليهودية تنفيذ مناشدة الأمم المتحدة بإيقاف العمل فى أحد مشروعات الرى فى "بنات يعقوب" فى المنطقة الخالية التى تفصل إسرائيل عن سوريا فى أوائل سبتمبر، قامت واشنطن - بكل هدوء - بتجميد معونة اقتصادية قيمتها ٤٠ مليون دولار كان "ترومان" قد خصصها لإسرائيل قبل أن يترك موقعه. المسئولون الأمريكيون أكدوا رسميا تجميد المعونة بعد خمسة أسابيع من غارة دموية انتقامية شنتها إسرائيل على القرى الأردنية فى "قبيا" فى منتصف أكتوبر خلفت ٦٦ قتيلا من فلسطينى الضفة الغربية[٤٥]؛ وبعد لقاء مع ممثلى اللجنة اليهودية الأمريكية والمجلس الصهيونى الأمريكى و"بناى برث - **B'nai B'rith**" فى ٢٦ أكتوبر، اقترح "چون فوستر دالاس" ببرود شديد "ضرورة أن تعمل المجموعة بعض الوقت مع ممثلى الحكومة الإسرائيلية فى محاولة لجعلهم يغيرون سياستهم فى وضع العالم أمام "الأمر الواقع". وبالرغم من أن إدارة "إيزنهاور" وافقت على الإفراج عن معونة فنية تقدر بستة وعشرين مليون دولار بعد أيام قليلة، فإن العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل ظلت باردة فى أواخر ١٩٥٣[٤٦].

بالرغم من التلويح بالتهدئة من وقت لآخر، كانت درجة حرارة العلاقة الأمريكية الإسرائيلية بنهاية فترة إدارة "إيزنهاور" الأولى تقترب بسرعة من المعادل الدبلوماسى للصفر المطلق، وبعد أن جاء "موشى شاريت" رئيسا للوزراء فى ديسمبر ١٩٥٣ خلفا لـ"بن جوريون" المرهق، كان بعض المسئولين الأمريكيين يتوقعون أن يصبح الموقف التفاوضى الإسرائيلى أكثر مرونة. كان "شاريت" (٥٧ عاما) من مواليد روسيا، نشأ فى قرية عربية بعد أن هاجر والداه إلى فلسطين فى ١٩٠٦، كان معارضا صريحا للـ"إرجون"، كما كان يفضل أن يرى إسرائيل تحقق أهدافها من خلال الدبلوماسية بدلا من قوة السلاح. واضعا ذلك فى اعتباره، بدأ "شاريت" مفاوضات القنوات الخلفية مع "جمال عبد الناصر" فى أوائل ١٩٥٤ وسعى إلى دعم من الولايات المتحدة لتقليل التوترات العربية الإسرائيلية؛ ولكن المتشددين فى حكومة إسرائيل بزعامة وزير الدفاع "پنحاس لاڤون - **Pinhas Lavon**"، أحد أتباع "بن جوريون" قاموا سرا

بالإعداد من خلال المخابرات اليهودية بتفجير عدد كبير من المنشآت الأمريكية فى القاهرة على أمل تسميم العلاقات بين الولايات المتحدة ومصر وبين "عبد الناصر" و"شاريت". اكتشفت مخابرات "عبد الناصر" المؤامرة فى يوليو ١٩٥٤ وألقت القبض على ثلاثة عشر يهوديا مصريا تم إعدام اثنين منهم فى أوائل العام الجديد. فى الوقت نفسه طلب "شاريت" بعد أن أذهلته المفاجأة، استقالة "لافون" فاتحا الباب أمام عودة "بن جوريون" وزيرا للدفاع فى ١٧ فبراير ١٩٥٥(٤٧).

بعد أحد عشر يوما هاجمت القوات الخاصة الإسرائيلية بأوامر من "بن جوريون" المنشآت العسكرية المصرية فى قطاع غزة وقتلت سبعة وثلاثين من العسكريين واثنين من المدنيين. هنا كان صناع السياسة الأمريكية يعتقدون أن هذه الغارة الانتقامية "بداية لسياسة أقل اعتدالا" ربما تمكن "بن جوريون" فى نهاية الأمر من أن تصبح له اليد العليا على "شاريت"(٤٨). قرار "عبد الناصر" بتقوية ترسانته بمقايضة القطن المصرى بالسلاح السوفيتى فى سبتمبر ١٩٥٥ زاد موقف الحمائم الإسرائيليين ضعفا، مثل "شاريت" الذى ترك منصب رئيس الوزراء لـ"بن جوريون" الأكثر تشددا فى ٢ نوفمبر. ورغم بقاء "شاريت" فى الحكومة وزيرا للخارجية، فإن المتشددين من أمثال "موشى دايان – **Moshe Dayan**" رئيس الأركان، أحد المؤيدين صراحة لحرب وقائية ضد مصر، سيطروا على أذن "بن جوريون". والحقيقة أن شاريت استطاع أن يحشد الحكومة فى أواخر ١٩٥٥ ضد "العملية أومر – **Operation Omer**" وهى خطة "دايان" للهجوم على "عبد الناصر" قبل أن يتمكن من إدماج الأسلحة السوفتية فى الترسانة المصرية، وعلى أية حال كان "دايان" على المدى الطويل يرى أن ضربة استباقية ضد مصر قد تكون حتمية. وحده، كان "شاريت" قد يئس فى ٥ ديسمبر ١٩٥٥ قائلا إن"إسرائيل سوف تتحرك فى الوقت والمكان الملائمين"(٤٩).

خاب أمل إدارة إيزنهاور بشدة ولكنها لم تفاجأ كثيرا عندما قرر "بن جوريون" بعد أحد عشر شهرا أن الوقت الملائم قد حان. "عبد الناصر" نفسه هو الذى أشعل

الفتيل فى يوليو ١٩٥٦ عندما انتزع قناة السويس من بريطانيا وفرنسا اللتين تفاهمتا مع إسرائيل بشأن عمليات مشتركة ضد مصر. فى منتصف أكتوبر طار "بن جوريون" و"دايان" إلى باريس؛ حيث حصلا على موافقة فرنسا وبريطانيا بشن هجوم مفاجئ على "عبد الناصر". قلقا لاحتمال تطور الحريق العربى الإسرائيلى إلى قضية قوى كبرى، حذر "إيزنهاور" بن جوريون فى ٢٧ أكتوبر من أن "مبادرة قسرية" فى هذا الظرف الحرج "قد تشكل خطرا على السلام والصداقة بين دولتينا"(٥٠)؛ وفى اليوم التالى، مع "دليل جديد على تعبئة إسرائيلية واسعة "ومع عدم وجود أية بوادر لرد من "بن جوريون"، دخل "إيزنهاور" مستشفى "وولتر ريد" لإجراء فحوصات على المعدة والأمعاء. كان "آيك" يتشكى متذمرا "إسرائيل والباريوم... تركيبة مناسبة!"(٥١)، وفى مناشدة اللحظات الأخيرة كان الرئيس يحث "بن جوريون" "ألا يفعل شيئا من شأنه أن يهدد السلام". إيزنهاور تلقى الرد قبل العشاء فى ٢٩ أكتوبر، عندما جاءت الأخبار بأن القوات الإسرائيلية قد احتلت قطاع غزة وسيناء(٥٢).

عند سماع الأخبار فقد إيزنهاور... شهيته..... وصوابه. مع ملاحظة أن الإسرائيليين قاموا بالهجوم والحملة الانتخابية الرئاسية على أشدها فى الولايات المتحدة، تحرك "آيك" بسرعة ليحصل على قرار إدانة للدولة اليهودية من الأمم المتحدة معلنا أنه لا يهتم "مثقال ذرة سواء أعيد انتخابه أو لا"(٥٣)؛ وفى ٧ نوفمبر ١٩٥٦، أى بعد أربع وعشرين ساعة من الحصول على فترة رئاسية ثانية بانتصار ساحق على "أدلاى ستيفنسون – **Adlai Stevenson**" والديمقراطيين، أرسل "إيزنهاور" مذكرة شديدة اللهجة لـ"بن جوريون" يطلب فيها إذعان إسرائيل لسلسلة من القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة التى تدعو إسرائيل إلى انسحاب فورى من جميع الأراضى المصرية(٥٤)، ومتجنبا إحداث صدع كبير فى العلاقات مع الولايات المتحدة، رد "بن جوريون" فى اليوم التالى بأنه "عند الوصول إلى ترتيبات مرضية مع الأمم المتحدة" سوف يقوم هو وحكومته "بسحب قواتنا تلقائيا"(٥٥).

على مدى الشهور الأربعة التالية سوف يكتشف "إيزنهاور" و"داج همرشلد – **Dag Hammarskjöld**" السكرتير العام للأمم المتحدة أن إرضاء "بن جوريون" لم يكن

أمرا سهلا، وبالرغم من أن الإسرائيليين لم يحترموا نداء الأمم المتحدة لبدء انسحاب من سيناء على مراحل فى منتصف سبتمبر، كان معدل التقدم بطيئا لدرجة أن بعض المسئولين الأمريكيين كان يعتقد أن الدولة اليهودية من الصعب أن تقبل العودة إلى الوضع الإقليمى الذى كان قائما قبل ١٩٥٦. ولأن "إيزنهاور" كان مقتنعا بأن عدم استعداد إسرائيل للانسحاب من غزة وسيناء يمكن أن يفاقم مشكلات الولايات المتحدة القائمة مع الراديكاليين الموالين لـ"عبد الناصر" ويسفر عن توترات جديدة مع الدول العربية المحافظة الغنية بالنفط، قام "إيزنهاور" بتحذير رئيس الوزراء الإسرائيلى فى ٣ فبراير من أن استمرار احتلال الأراضى المصرية من المؤكد أن يؤدى إلى إجراءات أكثر من جانب الأمم المتحدة بما فى ذلك فرض عقوبات(٥٦).

كان لكلمات "إيزنهاور" تأثير شديد فى كل من تل أبيب وواشنطن، فانفجر "بن جوريون" غضبا بعد تلقى رسالة الرئيس: "قل له أن يضربنا بالصواريخ الموجهة!"، "إن لديه صواريخ ذرية فلماذا لا يضربنا؟، دعهم ينفذون عقوباتهم" وسواء بالتهديد أو بدونه فإن الدولة اليهودية، كما أخبر "إيزنهاور" فى ٨ فبراير، سوف تنسحب من الأراضى المذكورة، ولكن بعد أن تتخذ الأمم المتحدة الخطوات اللازمة لمنع المزيد من الغارات الفلسطينية التى تنطلق من غزة، وأن تضمن للسفن الإسرائيلية حق المرور الحر عبر مضايق تيران عند فم خليج العقبة(٥٧). عندما انتشرت أخبار الصدع بين أمريكا وإسرائيل انهالت الرسائل والاتصالات التليفونية على إدارة إيزنهاور معارضة للعقوبات، وفى الوقت نفسه كان "أى.إل." سى" كينين – **I.L. "Si" Kenen**" مدير المجلس الصهيونى الأمريكى يقوم بتعبئة أصدقاء إسرائيل فى مجلس النواب الأمريكى. وفى أوائل فبراير كان كل من زعيم الأغلبية "ليندون ب. چونسون – **Lyn-don B.Johnson**" (النائب الديمقراطى القادم من تكساس) وزعيم الأقلية "وليم نولاند – **William Knowland**" (النائب الجمهورى القادم من كاليفورنيا) يحذران من أن فرض عقوبات على إسرائيل يمكن أن يقلل من دعم سياسة "إيزنهاور" الخارجية فى "كابيتول هيل"(٥٨).

بعد ذلك بأربعة أيام تفاقمت الأزمة عندما رفض "بن جوريون" مذكرة معونة أمريكية تعرض دعما غير مباشر للوضع الإسرائيلى بالنسبة لغزة وخليج العقبة فى مقابل أن تقبل إسرائيل نداء الأمم المتحدة بالانسحاب من كل الأراضى المحتلة. طار "دالاس" إلى "توماس - ڤيل - چورچيا"، حيث كان "إيزنهاور" يقضى إجازته لكى ينقل إليه الأخبار السيئة، فى ١٦ فبراير. قال "دالاس": "لقد ذهبنا إلى أبعد مدى ممكن محاولين أن نجعل الانسحاب أمرا سهلا ومقبولا بالنسبة لإسرائيل، والمؤكد أن المضى أبعد من ذلك سوف يعرض النفوذ الغربى كله فى الشرق الأوسط للخطر". العقوبات التى يمكن أن تتضمن حظرا على كل المعونات الأمريكية الخاصة لإسرائيل (وكانت قد وصلت إلى ما يقرب من مائة مليون دولار فى ١٩٥٦)، كان يبدو أنها الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن تجعل الإسرائيليين ينسحبون من الأراضى المصرية(٥٩).

وافق "إيزنهاور" وأسرع عائدا إلى واشنطن حيث راح ينشد دعما من الحزبين فى الكونجرس لسياسة جديدة صارمة مع إسرائيل. وفى ٢٠ فبراير، أبلغ "آيك" زعماء المجلسين بأن "لا أحد كان يحبذ العقوبات" وإنما كانت هناك بعض الخيارات الأخرى، وأضاف "دالاس" أن "معظم العالم بما فى ذلك الحكومة الإسرائيلية كان يرى أن إسرائيل استطاعت فى لحظات حاسمة أن تتحكم فى سياسة الولايات المتحدة، ولو وجد العرب أى تأكيد لهذا الاعتقاد فسوف يتجهون إلى روسيا". "ليندون چونسون" وعلى وجهه "تعبير كأنما يقول إنه لن يتنازل عن أى بوصة"، كما وصفه أحد المراقبين، لم يتحرك، كما لم يتحرك "وليم نولاند" الذى عاد إلى استعراض "أسلوبه المعهود فى التحدى". "فى بعض الأحيان كان على الكونجرس أن يعبر عن رأيه"(٦٠) كما قال الديمقراطى القادم من تكساس.

غير مكترث بموقف الكونجرس، ظهر "إيزنهاور" على شاشة التلفزيون الرسمى بعد ساعات قليلة ليشرح وجهة نظره. إن قبول المنطق الإسرائيلى بأن الهجوم المسلح يمكن أن يحقق هدف من يقوم بالهجوم على النحو الملائم "يمكن أن يكون ضربة لسلطة ونفوذ الأمم المتحدة"، ولذا فإن الولايات المتحدة لم يكن أمامها من خيار سوى

أن تدعم عقوبات الأمم المتحدة ضد إسرائيل[٦١]. مصدوما بسبب حديث إيزنهاور، أصدر "بن جوريون" تعليماته للسفير الإسرائيلي "أبا إيبان – Abba Eban" بأن يحصل على أفضل مقايضة في واشنطن. كان الإسرائيليون مستعدين "لإصدار بيان غير مشروط بأنهم سوف ينسحبون" كما أبلغ "أبا إيبان" وزير الخارجية الأمريكي في ٢٤ فبراير، «بشرط أن يقدم "همرشلد" تطمينات معقولة بأن قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة سوف تمنع الفدائيين الفلسطينيين من العودة إلى غزة»[٦٢].

ولأن "همرشلد" كان لا يثق بالإسرائيليين، توقف فجأة عن أن يأخذ على عاتقه مسئوليات مفتوحة هكذا لحفظ السلام وكان يبدو مصمما على فرض العقوبات. ولكسر هذا الجمود الذي وصل إليه الموقف التقى "دالاس" في ٢٨ فبراير بـ"أبا إيبان" وبوزيرة الخارجية "جولدا مائير – Golda Meir" (روسية المولد، أمريكية التعليم) التي شغلت المنصب بعد "شاريت". وعد "دالاس" أن يدعم «حق مرور إسرائيل "البريء" في مضيق تيران وحرية تصرفها للدفاع عن حقوقها» في حال تدهور الأوضاع في غزة. مقتنعا بأن مبادرة اللحظات الأخيرة الأمريكية هذه يمكن أن تجعل المخاطر تحت السيطرة، وافق "همرشلد" على وضع قوات لحفظ السلام تابعة للأمم المتحدة في كل من غزة وسيناء بمجرد أن يكمل الإسرائيليون انسحابهم. أكدت جولدا مائير" التفاهم الأمريكي الإسرائيلي أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في اليوم التالي متجنبة، بالكاد، تصويتا على العقوبات[٦٣]. وبالرغم من أن الولايات المتحدة وإسرائيل تفاديتا صراعا مكشوفا، فإن صدامهما الحاد في أوائل ١٩٥٧ كشف عن مستوى من عدم الثقة المتبادل وعن نفور دبلوماسي، كان يبدو غير وارد أحيانا، ولكنه، الآن، كان يبدو حتميا.

• المصالحة الإسرائيلية الأمريكية (١٩٥٨ – ١٩٦٨)

برغم النفور الذي كان واضحا بينهما في منتصف الخمسينيات، لم تكن الولايات المتحدة ولا إسرائيل راغبة في طلب الطلاق. كلا الطرفين كان يعرف أن المستفيد الوحيد من قطيعة أمريكية إسرائيلية سيكون الراديكاليون المعادون للغرب

مثل مصر عبد الناصر. الحقيقة أنه منذ ١٩٥٨ كان "إيزنهاور" و"بن جوريون" قد بدأ يتقدمان نحو مصالحة دبلوماسية لكى تساعد فى دعم الأنظمة المعتدلة فى لبنان والأردن، التى طالما كانت موالية للغرب والأقل عداء لإسرائيل من بين الدول العربية. وعندما بدا أن الراديكاليين المسلمين يمكن أن يستولوا على السلطة فى بيروت، رحب الإسرائيليون بقرار واشنطن بإرسال "المارينز" إلى لبنان فى ١٥ يوليو، وعندما طلب الملك حسين المساعدة ضد المخربين الموالين لـ"عبد الناصر" فى عَمَّان بعد ذلك بيومين، لبى "بن جوريون" طلب "إيزنهاور" بالسماح لبريطانيا بنقل قواتها جوا من قبرص إلى الأردن عبر المجال الجوى الإسرائيلى[٦٤].

بالرغم من ذلك، كان رئيس الوزراء الإسرائيلى يعتبر هذه العمليات إجراءات مؤقتة على أحسن تقدير، وقبل أن ينتهى الشهر اقترح "بن جوريون" تحويل إسرائيل من احتمالية استراتيجية إلى أصل استراتيجى ثابت بربطها بـ"حلف طرفى" مكون من الأنظمة غير العربية الموالية للغرب مثل إيران وإثيوبيا وتركيا[٦٥]. مبتهجا بهذا العرض للمساعدة فى وضع مصدات أمام المد الراديكالى للقومية العربية، أكد "جون فوستر دالاس" لـ"بن جوريون" فى الأول من أغسطس أن الولايات المتحدة "يسعدها أن تشجع جهود إسرائيل لكى تقف على قدميها"[٦٦]. بعد ثلاثة أسابيع وافقت إدارة "إيزنهاور" على بيع أسلحة لإسرائيل (مائة مدفع عديم الارتداد وكميات لا بأس بها من العربات المدرعة نصف المجنزرة) وذلك لأول مرة[٦٧]، وبنهاية العام، كما ذكر "أبا إيبان" بعد ذلك، كان قد بدا أخيرا "شعور بالهدف المشترك" يظهر بين إسرائيل والولايات المتحدة بعد عقد من التباعد والنفور[٦٨].

أصدقاء إسرائيل فى "كابيتول هيل" أضافوا أصواتهم إلى الجوقة التى كانت تدعو لعلاقات أكثر توافقا وانسجاما خلال ١٩٥٩، وفى شهر فبراير بدأت "AIPAC"، كما أصبحت تسمى، الضغط بشدة من أجل الحصول على المزيد من المعونات للدولة اليهودية[٦٩]. فى أواخر الربيع اقترح "ليندون چونسون" زعيم الأغلبية فى مجلس الشيوخ اعتبار إسرائيل مؤهلة للحصول على معونات عسكرية باعتماد يصل إلى

ملايين الدولارات وذلك فى إطار "برنامج الأمن المتبادل[٧٠] – Mutual Security Programme" إدارة "إيزنهاور" التى كانت مترددة فى إبرام صفقة تسليح كبيرة مع الإسرائيليين، وافقت بعد ذلك – فى الصيف نفسه – على تقديم مساعدات فنية ومالية بما قيمته مائة مليون دولار على مدار العامين التاليين، وهو مبلغ أكبر من كل المبالغ السابقة فى أى مساعدات لإسرائيل منذ ١٩٤٨[٧١].

فى مارس ١٩٦٠، كان هناك دليل آخر على أن ذوبان الجليد بين الولايات المتحدة وإسرائيل كان حقيقيا، عندما وصل "بن جوريون" إلى واشنطن يطلب عتادا عسكريا بما فى ذلك صواريخ "هوك". وبالرغم من أن "إيزنهاور" اعترض على الرغبة فى أن تصبح الولايات المتحدة ترسانة لإسرائيل ورفض إعطاء أى صواريخ من طراز "هوك"، فإنه وافق قبل نهاية العام على بيع إسرائيل أسلحة رادار متطورة بما قيمته ١٠ ملايين دولار[٧٢]. وبينما لم يعط "إيزنهاور" لـ"بن جوريون" كل ما كان يريد، كان يبدو (كما ذكر "أبا إيبان" بعد سنوات) أن الرجلين خرجا فى نهاية الأمر من نزاع وخلاف ما بعد السويس "بالعناصر الأساسية للشراكة الأمريكية الإسرائيلية دون خسائر"[٧٣].

سرعان ما واجهت هذه الشراكة توترات جديدة على أية حال، ففى أواخر ١٩٦٠ كان كثير من المراقبين فى واشنطن يخشون أن تستخدم إسرائيل المفاعل النووى الذى كانت تقوم ببنائه، بمساعدة فرنسية فى "ديمونة" فى صحراء النقب، لتطوير أسلحة ذرية. كانت وكالة المخابرات المركزية "CIA"، تعتقد أنه بعد استكماله سيكون قادرا على إنتاج من ٨:١٠كجم من البلوتونيوم سنويا، وهى كمية كافية لإنتاج قنبلة ذرية واحدة[٧٤].

وبالرغم من التأكيدات الإسرائيلية غير الرسمية أن المنشأة فى ديمونة كانت تستخدم لأغراض سلمية فقط، كان للدولة رأى آخر. عندما طلب "إيزنهاور" فى منتصف يناير من إسرائيل أن "تعلن صراحة أنه ليس لديها أى مشروعات لإنتاج أسلحة ذرية" رفض "بن جوريون"، ومصرا على أن المفاعل كان ضروريا لمواجهة

احتياجات إسرائيل المتزايدة من الطاقة، أبلغ "أوجدن ريد – **Ogden Reid**" سفير الولايات المتحدة حانقا "إما أن تتكلموا معنا كأنداد أو لا تتكلموا معنا بالمرة"(٧٥).

ترك "إيزنهاور" منصبه بالطبع فى نهاية الشهر تاركا "چ. إف. كينيدى" للقيام بما تبقى. هذا الديمقراطى القادم من ماساشوستس، والمعجب القديم بالحلم الصهيونى وصف إسرائيل بأنها "الضوء الساطع الآن فى الشرق الأوسط"، وبعد زيارة لـ"تل أبيب" فى ١٩٥١ سوف يكسب "كينيدى" قلوب "وأصوات" كثير من اليهود الأمريكيين بعد تسع سنوات. فى خطاب له فى الفترة الانتقالية فى ٦ ديسمبر، قال الرئيس المرشح لإيزنهاور إن أى تطور ذرى فى إسرائيل أمر مثير للقلق"(٧٦). قلق "كينيدى" كان يتصاعد فى ربيع ١٩٦١ بعد أن عرف أن إسرائيل كانت تنتوى شراء قاذفات فرنسية متوسطة المدى قادرة على حمل أسلحة ذرية، ففى ٢٩ مايو قال "ماك چورج بندى – **McGeorge Bundy**" مستشار الأمن القومى للرئيس كينيدى "بالرغم من أن المفاعل نظيف اليوم مثل صفارة، فإنه يمكن توجيهه أى وجهة قذرة فى أى وقت"(٧٧).

كما هو متوقع، كان مفاعل "ديمونة" أول قضية أثارها "كينيدى" عندما التقى "بن جوريون" فى اليوم التالى فى فندق "والدورف أستوريا" فى نيويورك سيتى. أكد "بن جوريون" أن إسرائيل لم تكن تقوم بتطوير أى أسلحة ردع نووية، وإنما كانت تنوى استخدام الطاقة فى معالجة مياه البحر، وبعد أن اطمأن "كينيدى" وهدأت مخاوفه أقنع رئيس الوزراء الإسرائيلى بالسماح للفيزيائيين الأمريكيين بزيارة "ديمونة" من وقت لآخر وأن يطلعوا القادة العرب القلقين على النتائج، وفى المقابل تمنى "بن جوريون" أن يكون "كينيدى" أرحب صدرا لطلبات إسرائيل من "الأسلحة الدفاعية" مثل صواريخ "هوك". كان "كينيدى" يخشى أن تؤدى موافقة الولايات المتحدة على ذلك إلى "تصاعد سريع" فى سباق التسلح فى المنطقة بأن يطلب العرب أسلحة أكثر تطورا من "الكرملين"، "نحن مترددون فى إعطاء صواريخ لإسرائيل كما تفهم، ولكننا سنكون فى غاية الانزعاج إذا أصبحت إسرائيل فى وضع يتطلب أن تقوم

بالهجوم"، على أية حال أكد كينيدى لـ"بن جوريون" أن "سيكون هذا الأمر فى اعتبارنا دائما"(٧٨).

بعد أن حصل على تطمينات من "بن جوريون" بالنسبة لمفاعل ديمونة، وعَلَّقَ موضوع صواريخ "هوك"، بدأ "كينيدى" يتحرك حثيثا نحو علاقات ودية مع مصر التى كان يرى أنها تمسك بمفتاح التسوية الشاملة فى الشرق الأوسط، التسوية التى يمكن أن تفعل أكثر مما تفعله القنابل الذرية أو الصواريخ أرض جو لدعم أمن إسرائيل. بالاعتماد على الدبلوماسية الشخصية والمعونات الاقتصادية استحوذ "كينيدى" على إعجاب عبد الناصر وأبدى الكثير من حسن النوايا، حتى أن الإعلان عن بيع واشنطن ثمانية بطاريات هوك لإسرائيل لم يتسبب فى أى مظاهرات معادية لأمريكا فى مصر؛ وفى ١٨ أغسطس ١٩٦٢ توجه "ماير فيلدمان – Myer Feldman" مستشار البيت الأبيض وضابط اتصال "كينيدى" غير الرسمى مع المجتمع اليهودى الأمريكى إلى تل أبيب ليعرض على إسرائيل الصواريخ المضادة للطائرات التى كانوا يتمنونها، فى مقابل تطمينات جديدة بخصوص منع الانتشار النووى(٧٩). وحسب ما يقول "ماك چورچ بندى"، وافق "بن جوريون" على أن "تسمح إسرائيل بزيارات منتظمة لمفاعل ديمونة لكى يتأكد الأمريكيون بأنفسهم ما إذا كانت المنشأة جزءا من برنامج تسليح أو لا"(٨٠)، وبعد أسابيع من عودة فيلدمان إلى واشنطن قام فريق من خبراء الفيزياء الأمريكيين بتفتيش المفاعل وأكدوا أنه "لا يوجد دليل على الإعداد لإنتاج أسلحة نووية"(٨١).

ببيع الأسلحة الدفاعية للإسرائيليين والعمل فى الوقت نفسه على كبح جماح "عبد الناصر"، كانت إدارة "كينيدى" تأمل فى أن تجعلهم أكثر استعدادا لتقديم تنازلات للعرب وأقل ميلا للمضى فى الطريق النووى. بهذا الهدف، دعا "كينيدى" رئيسة وزراء إسرائيل "جولدا مائير" إلى المقر الشتوى للبيت الأبيض فى "پالم بيتش" فلوريدا، بعد أعياد الميلاد وأبلغها أن "هناك علاقة خاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل فى الشرق الأوسط مثل تلك التى كانت بينها وبين بريطانيا"، وكان من

الواضح أنه "فى حال أى اعتداء فإن الولايات المتحدة سوف تدعم إسرائيل". فى مقابل ذلك كان "كينيدى" يتمنى أن "تعطى إسرائيل اعتبارا لمشكلاتنا بالنسبة لهذا المفاعل" ليس لأننا "ضد الانتشار النووى فحسب، وإنما لأن سباق تسلح فى المنطقة يمكن أيضا أن يعوق التقدم فى قضايا الشرق الأوسط الأخرى"، وذَكَّر "كينيدى" رئيسة الوزراء الإسرائيلية بأن "علاقتنا لابد من أن تكون طريقا ذا اتجاهين"، وقبل مغادرتها أكدت هى أنه "لن تكون هناك أية صعوبة بيننا بالنسبة للمفاعل النووى" ولا بالنسبة للمشكلة الفلسطينية(٨٢).

على أية حال لم تحرز إدارة "كينيدى" تقدما كبيرا على أى من الجهتين خلال العام الجديد. فى أوائل ١٩٦٣ كانت الجماهير الفلسطينية الغاضبة المعارضة لسياسات الملك حسين المعتدلة تجاه إسرائيل على وشك إسقاط العرش الهاشمى، ولكى تزداد الأمور سوءا استولى ضباط موالون لـ"عبد الناصر" ومعادون لإسرائيل على السلطة فى العراق أولا، ثم فى سوريا، لتزيد مخاوف إسرائيل من أن تصبح مطوقة بالراديكاليين العرب. كان من المؤكد أن تبدأ إسرائيل الضغط من أجل الحصول على ضمانات أمنية أكثر وضوحا، فى غيابها كانت وكالة المخابرات المركزية تتوقع أن تقوم إسرائيل بتطوير الأسلحة الذرية "لتخويف العرب". ونتيجة لقلقه الشديد بسبب متضمنات خيار إسرائيل النووى، شكل "كينيدى" مجموعة عمل داخلية فى الوكالة من أجل اتخاذ خطوات وتطوير أفكار لإحباط محاولات إسرائيل تطوير أسلحة متقدمة فى الشرق الأدنى(٨٣).

فى الوقت نفسه أعاد "كينيدى" ومستشاروه تأكيد التزامهم بأمن الدولة اليهودية، وفى أوائل مايو أكد الرئيس بنفسه لـ"بن جوريون" أن "مشكلة إسرائيل الدفاعية فى بالنا بكل تأكيد"، بينما وعد "ماير فيلدمان" المسئولين فى "AIPAC" بأن تساعد واشنطن تل أبيب على الفور فى حال "أى هجوم غير مبرر على أراضيها"(٨٤)، ولكن مؤيدى إسرائيل فى مجلس الشيوخ كانوا يريدون ما هو أكثر من ذلك. وفى السادس من مايو علم "كينيدى" أن "چاكوب چاڤيتز – **Jacob Javits**" نائب نيويورك

"وهيوبرت همفرى – Hubert Humphrey" نائب مينسوتا، كانا ينويان اقتراح "ترتيبات دفاع مشترك مع إسرائيل"، وعندما وصل "موردخاى جازيت – Mordechai Gazit" القائم بالأعمال الإسرائيلى إلى البيت الأبيض بعد ذلك بأسبوع، أخبر "روبرت كومر – Robert Komer" خبير "كينيدى" لشئون الشرق الأوسط بأن "الضجة" المثارة فى "كابيتول هيل" من المحتمل أن تتطور إلى الأسوأ إذا لم نفعل "شيئا" يفى بمتطلبات إسرائيل الأمنية". مثل كثيرين فى إدارة "كينيدى" كان "كومر" يعتقد أن جازيت ورؤساءه يبالغون فى الخطر العربى كجزء من حملة لتبرير قيام إسرائيل بتطوير أسلحة نووية"[٨٥].

لحسن الحظ، فإن مجموعة العمل التى كان "كينيدى" قد شكلها فى مارس الماضى كانت تضع اللمسات الأخيرة على خطة لوقف "تصعيد التسلح النووى" فى الشرق الأوسط، ولتحقيق هذا الهدف أوصت المجموعة فى ١٤ مايو بأن يقوم "كينيدى" بإيفاد "جون ج. ماكلوى – John J.McCloy" منسقه الخاص لنزع السلاح فى مهمة "جس نبض سرية للغاية" للحصول على وعد "بعدم التسلح النووى"، من مصر أولا ثم من إسرائيل بعد ذلك"، ولو سارت الأمور حسب الخطة فإن البيت الأبيض، بحلول منتصف الصيف، سيكون على الطريق نحو "ترتيبات تحديد السلاح وضمانات أمنية" مصرية إسرائيلية[٨٦]. كان المسئولون فى الخارجية الأمريكية يعتقدون أن "عبد الناصر" سوف يرحب باقتراحات منع الانتشار الأمريكية كأفضل وسيلة لتجنب الاختيار بين إسرائيل نووية وزواج إكراهى من "الكرملين"؛ وعندما وصل "ماكلوى" إلى القاهرة فى آخر الشهر كان الرئيس المصرى أقل ترحيبا به مما كان "فوجى بوتوم" يتوقع وعاد مبعوث "كينيدى" بخفى حنين إلى واشنطن دون –حتى –أى داع للتوقف فى تل أبيب[٨٧].

صد "عبد الناصر" لـ"ماكلوى" زاد خطر سباق التسلح النووى فى الشرق الأوسط وجعل إصرار إسرائيل على الحصول على ضمانات أمنية فى مقابل الوعد بالامتناع عن الأسلحة النووية لا يخلو من معقولية. "ليفى إشكول – Levi Eshkol" المعتدل المعسول اللسان، الذى خلف "بن جوريون" المولع بالقتال رئيسا للوزراء فى ١٦

يونيو ١٩٦٣، استغل الشقاق المتنامي بين واشنطن والقاهرة ليكرر أن إسرائيل لم تكن تقوم بتصنيع قنبلة ذرية في "ديمونة"[٨٨]، وهكذا سرعان ما أدى تعاون "إشكول" الجديد ورفض "عبد الناصر" المتكرر إلى تأكيدات جديدة بأن الولايات المتحدة "سوف تساعد إسرائيل في حال أصبحت فريسة للعداون"[٨٩].

"كينيدي" نفسه أوضح ذلك في رسالة إلى "إشكول" بتاريخ ٢ أكتوبر ١٩٦٣ لم يرفع عنها الحظر إلا حديثا. مكررا "إصرار أمريكا على أن ترى إسرائيل مزدهرة، مستقرة آمنة في الشرق الأدنى ومقبولة من جيرانها" أوضح الرئيس للأسطول السادس الأمريكي أن "قواتنا للتعامل السريع في البحر الأبيض المتوسط" دليل على أننا "نستطيع أن نحمي تعهداتنا". هذه الضمانات الأمنية غير الرسمية على أية حال كانت مرتبطة بوعد من إسرائيل بالتراجع عن تطوير الأسلحة النووية، وهو تعهد كان "كينيدي" ومستشاروه يعتبرونه محل شك. في ٢١ ديسمبر كان "روبرت كومر" خبير شئون الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي يقول لـ"مردخاي جازيت": "كان يبدو غريبا بالنسبة لي أن تتظاهر إسرائيل بالخجل دائما وهي تصف خططها وبرامجها الدفاعية لضامنها وممولها وأقوى أصدقائها في العالم، فهل يمكن أن يخفي أسلوب التملص هذا أية نوايا للحصول على قدرات نووية؟"[٩٠] وبالرغم من أن "چون ف. كينيدي" لم يتلق أية إجابة غير ملتبسة عن هذا السؤال، فإنه ذهب إلى قبره وهو ملتزم تماما بعلاقة أمريكا الخاصة المتنامية مع إسرائيل.

"ليندون چونسون" سوف يكمل عملية المصالحة التي بدأها "إيزنهاور" وتسارعت مع "كينيدي". كان اللوبي الصهيوني يعتبر السيناتور "چونسون" أحد أبرز الأصدقاء في "كابيتول هيل" في أواخر الخمسينيات، ويعد "چونسون نائب الرئيس" من بين أوفى الحلفاء في إدارة "كينيدي". لم يخيب "الرئيس الجديد" الأمل، فقد أكد لـ"جولدا مائير" في حفل الاستقبال بعد جنازة "كينيدي" في ٢٥ نوفمبر ١٩٦٣ أن "الولايات المتحدة سوف تستمر في صداقتها الدافئة مع إسرائيل التي يمكن أن تطمئن لذلك"[٩١].

خلال الشهور التالية وضع "چونسون" عددا آخر من أصدقاء إسرائيل فى مناصب رئيسية، فاختار "هيوبرت همفرى"، وهو أحد أشد الداعين لعلاقات أمريكية وثيقة بالدولة اليهودية، ليكون أحد معاونيه الدائمين فى ١٩٦٤، كما عين "آرثر جولد بيرج – Arthur Goldberg" قاضى المحكمة العليا، وهو صهيونى متحمس، سفيرا لأمريكا فى الأمم المتحدة وعين الأخوين "روستو – Rostow" الموالين لإسرائيل فى مراكز مؤثرة فى اتخاذ القرار: الاقتصادى "والت دبليو روستو – Walt W.Rostow" (من "MIT") مستشارا للأمن القومى، والمحامى "إيوچين روستو – Eugene Rostow" (من "Yale") وكيلا لوزارة الخارجية للشئون السياسية[٩٢].

بالرغم من تشكيل إدارته الموالية لإسرائيل، لم يكن الرئيس الجديد متلهفا على توسيع مجال المساعدات العسكرية الأمريكية للدولة اليهودية، فعندما طلبت إسرائيل ٢٠٠ دبابة (M-48) فى أوائل ١٩٦٤ كان مترددا؛ إذ أن "دين راسك – Dean Rusk" وزير الخارجية حذر من أن بيع إسرائيل أسلحة هجومية متقدمة من هذا الطراز من شأنه أن يشعل سباق التسلح فى المنطقة[٩٣]، ولكن اثنين ممن احتفظوا بمناصبهم حاولا إقناع الرئيس بأن يزود إسرائيل بالدبابات". "ماير فيلدمان" ذَكَّر بالتزام أمريكا الأخلاقى لإسرائيل، و"روبرت كومر" أشار إلى الحملة الانتخابية الرئاسية القادمة. وفى مايو ١٩٦٤ قرر "چونسون" أن يكون للاعتبارات الجيوسياسية الأولوية على السياسات المحلية... مؤقتا على الأقل، وبدلا من تزويد إسرائيل بدبابات أمريكية اختار أسلوبا غير مباشر للمساعدة عبر الألمان الذين حثهم على بيع دبابات M-48 لإسرائيل[٩٤].

بعد الفوز الساحق على "بارى جولدووتر – Barry Goldwater" فى انتخابات ٣ نوفمبر، كان لـ"چونسون" نظرة أخرى ممعنة للتوازن العسكرى فى الشرق الأوسط. على مدار عدة شهور كان العرب يقومون بتكديس أسلحة سوڤيتية ويدعون إلى شكل من أشكال "حرب التحرر الوطنى" التى يدعمها "الكرملين" مثل تلك التى كانت تهز ڤيتنام، وهى توجهات كان من المؤكد أن تجعل الدولة اليهودية تكثف مساعيها للحصول على قنبلة ذرية.

مثل سلفه، أعطى "چونسون" أولوية لمنع الانتشار النووى، وأبلغ رئيس الوزراء "ليفى إشكول" بهذا الهدف فى اجتماع بالمكتب البيضوى فى ١ يونيو ١٩٦٤ وأنه كان "بصراحة شديدة وراء إسرائيل فى كل ما من شأنه أن يؤثر على أمنهم القومى"، ولكنه فى الوقت نفسه كان "ضد الإنتشار النووى تماما"؛ وفى مقابل مساعدة الولايات المتحدة فى تأمين حصولهم على الدبابات من ألمانيا الغربية، طلب "چونسون" من إسرائيل أن تعيد تأكيد تعهدها بعدم صنع أسلحة نووية. وافق "إشكول" ولكن "جر الرِّجل" الألمانى وصليل السيوف المصرى أديا إلى طلبات سلاح أخرى من الولايات المتحدة عندما قام بزيارة "أڤريل هاريمان – Averell Harriman" سفير "چونسون" لدى إسرائيل فى فبراير ١٩٦٥. عاد "هاريمان" بقائمة مشتريات تتضمن ليس فقط ٢١٠ دبابات (M-48) بل و٧٥ قاذفة قنابل متوسطة من طراز (B-66)، مما أدى إلى الشك بأن الدولة اليهودية كانت "تتحسس الطريق نحو طائرة تستطيع حمل سلاح نووى إسرائيلى متطور"(٩٥).

مصرا على تجنب سباق تسلح نووى فى الشرق الأوسط، تحرك البيت الأبيض فى أواخر مارس ليجعل إسرائيل جديرة بأى سلاح تقليدى فى الترسانة الأمريكية. وافق الأمريكيون بسرعة على تقديم ٢١٠ دبابات (M-48) ولكنهم أجلوا القرار بشأن طلب "إشكول" لسرب طائرات (Skyhawk A-4) حتى تقرر إسرائيل ما إذا كان بالإمكان أن توفر فرنسا طائرات مشابهة(٩٦)؛ وبعد صدهم فى پاريس عاد الإسرائيليون إلى واشنطن فى أكتوبر ١٩٦٥ يطلبون إما (Skyhawk A-4) أو (F-4) القادرة على حمل أسلحة نووية. بعد شهور من الجدال مع المسئولين فى البيت الأبيض وافق الإسرائيليون فى النهاية قبول ٤٨ طائرة Skyhawk الأبطأ نوعا ما من الفانتوم الأسرع من الصوت(٩٧). لم يكن مفاجئا لأحد أن تلقى الصفقة "انتقادات حادة من العرب"، ولكن عندما ذَكَّرت وزارة الخارجية الرئيس "چونسون" بعد أربعة أشهر عشية اجتماعه بـ"زالمان شازار – Zalman Shazar" "إذا لم تستطع الحصول على احتياجاتها من الأسلحة التقليدية، سوف يجد المدافعون عن حصول إسرائيل على أسلحة نووية بيئة أكثر خصوبة لأفكارهم فى إسرائيل"(٩٨) مقتنعين بأن إسرائيل كانت

عازمة على امتلاك أسلحة ذرية سواء تسلمت أو لم تتسلم دبابات أو طائرات أمريكية، بدأ العرب فى أواخر العام ١٩٦٦ يستعدون لمواجهة عسكرية؛ وفى نوفمبر قام الفدائيون الفلسطينيون بسلسلة من الغارات الدموية ضد إسرائيل منطلقين من قواعد فى الضفة الغربية، بينما كان الراديكاليون السوريون يحثون "الكرملين" للإسراع بتسليم أسلحة سوفيتية متقدمة بما فيها طائرات (MIG-21). غاضبة بسبب هذه الاستفزازات العربية ملأت إسرائيل سماءها بالطائرات الحربية فى ربيع ١٩٦٧ وأسقطت ست طائرات "ميج" سورية فى ٧ أبريل فى قتال عنيف فوق هضبة الجولان؛ أما "عبد الناصر" الذى لم يكن قد فعل الكثير حتى ذلك الحين سواء لمساعدة الفلسطينيين أو السوريين، فحذر إسرائيل بعد ذلك فى الشهر نفسه من مهاجمة دمشق وبدأ تعبئة القوات المصرية لحسم الموقف.

على أمل تلافى حرب واسعة النطاق، قام "هارولد سوندرز - **Harold Saunders**"، أحد خبراء البيت الأبيض، بمهمة تقصى حقائق فى الشرق الأوسط. كانت المخاطر كبيرة وأفق السلام ملبدة بالغيوم؛ وحيث إن "سوندرز" كان يعرف جيدا أن الرئيس "چونسون" كان لديه "حاجة سياسية إلى جانب الرغبة الشخصية فى الحفاظ على علاقة خاصة مع إسرائيل" كان تقريره يقول إن الإسرائيليين كانوا يرون "الإرهاب العربى أكبر تهديد لأمنهم الآن" وإنهم كانوا يفعلون كل ما فى استطاعتهم لمقاومته، وينتهى تقريره بأن "حرب التحرر الوطنى كأسلوب قد وصلت إلى الشرق الأوسط". وبعد أن وجدوا "چونسون" يستثمر الكثير من الدم والمال "ليظهر أنه لن يسمح بمثل هذا النوع من العدوان" فى جنوب شرق آسيا، فإن أصدقاء أمريكا سوف يطرحون السؤال التالى على الفور: "وكيف يمكنه التصدى للهجمات الإرهابية فى ڤيتنام وليس فى إسرائيل؟"(١٠٠).

علاوة على أن الولايات المتحدة إذا لم تقف ضد الراديكاليين العرب فكيف يمكن أن يتوقع "چونسون" أن توقع إسرائيل على اتفاقية منع الانتشار النووى **Non Proliferation Treaty (NPT)** التى كان يحاول أن يبيعها لـ"تل أبيب" وغيرها؟

"سوندرز" كان يتوقع أن إسرائيل قبل أن توقع "ستكون فى حاجة إلى تطمينات من الولايات المتحدة والاتحاد السوڤيتى بأن أكبر موردى السلاح لن يضيفا شيئا إلى مخزون الدول العربية، بينما يظل الميزان التقليدى فى صالح إسرائيل". بالرغم من ذلك كان قليلون فى إسرائيل أو الولايات المتحدة هم الذين يتوقعون أن تمارس موسكو هذا المستوى من الكياسة السياسية؛ وفى ١٦ مايو أشار "سوندرز"، وهو يبدو مهموما "إن هذا يزيد الضغط علينا لنشارك فى مواجهة مع "عبد الناصر" مع توقع أن تخسر الولايات المتحدة مكانتها فى المنطقة إذا رفضنا وفشلنا فى إيقافه هو والاتحاد السوڤيتى وجيوش التحرير"(١٠١).

فى اليوم التالى تصاعد الضغط بشدة بعد أن أرسل عبد الناصر قوات لتحل محل قوات طوارئ التابعة للأمم المتحدة التى كانت تراقب الحدود المصرية الإسرائيلية منذ فبراير ١٩٥٧، وعندما أعلنت إسرائيل التعبئة لتجنب هجوم مصرى حذر چونسون الإسرائليين ألا يفرطوا فى رد الفعل، وعملا بذلك أمسكوا عن الاندفاع. فى ٢٢ مايو أغلق "عبد الناصر" مضايق تيران فى وجه السفن الإسرائيلية، وهى الخطوة التى اعتبرتها تل أبيب عملا من أعمال الحرب. حث "چونسون" الإسرائليين على التحلى بالصبر بينما أعد أسطولا صغيرا لمواجهة حصار "عبد الناصر"(١٠٢).

لم يكن للصبر متسع فى حكومة "إشكول"، وعندما ذاعت أخبار حصار "عبد الناصر" كان "إفرايم "إيپى" إيڤرون – Ephraim 'Eppie' Evron"، الدبلوماسى الإسرائيلى وصديق "چونسون" القديم، يقول لمسئولى الخارجية: "آخر ما كانت تريده إسرائيل هو الحرب، ولكن لأن العرب كانوا يشعرون أن الولايات المتحدة لن تتحرك" ستكون الحرب هى الخيار الوحيد أمام إشكول"(١٠٣). ويتذكر النائب الديمقراطى البارز صديق سرائيل الواضح "أبراهام فينبيرج – Abraham Feinberg" أنه قال للرئيس "چونسون" عندما اشتدت الأزمة "لاحظ أن خليج العقبة هو الممر الذى يأتى من خلاله كل النفط الإيرانى"، ولو ترك "إشكول" عبد الناصر يقطع شريان الحياة النفطى هذا "فسيكون ذلك بمثابة عملية إخصاء اقتصادى لإسرائيل"(١٠٤). كانت تلك

هى عبارات "فينبيرج" التى لابد من أن تكون قد جعلت "چونسون" يجفل؛ بالرغم من ذلك بذل "چونسون" ومساعدوه كل ما فى وسعهم لإثناء "إشكول" عن القيام بالضربة الأولى ضد "عبد الناصر". "لو قامت الدولة اليهودية بهجوم استباقى فسوف تتم مقاطعة الولايات المتحدة فى العالم العربى باعتبارها مؤيدة لإسرائيل"[١٠٥]، كان ذلك هو تحذير "ريتشارد هيلمز – Richard Helms" مدير المخابرات المركزية أمام مجلس الأمن القومى فى ٢٤ مايو.

بقدر ما استمرت أزمة الشرق الأوسط كان الاهتمام بإثناء إسرائيل عن القيام بالضربة الأولى يقل، وعندما زار "أبا إيبان" وزير الخارجية البيت الأبيض فى ٢٦ مايو لمراجعة خطط "سباق زوارق البحر الأحمر" لكسر الحصار المصرى مثلا، لم يقل "چونسون" على نحو قاطع إن الولايات المتحدة سوف تفسخ الشراكة مع إسرائيل إن هى شنت حربا استباقية على مصر، وإن كان قد أشار ثلاث مرات وبشكل مضمر إلى أن "إسرائيل لن تكون وحدها إلا إذا قررت أن تكون وحدها"[١٠٦]، كان لديه أمل ضئيل فى أن تكبح كلماته جماح إسرائيل لفترة طويلة. والحقيقة أنه أثناء جلسة استخلاص معلومات فى وقت متأخر، كان يحضرها "چون روش – John Roche" كاتب خطب البيت الأبيض، عندما انتقل الحوار إلى التساؤل عن الإجراء الذى يمكن أن يقوم به الإسرائيليون، بدت الجدية على وجه الرئيس وهو يقول "سيضربون "عبد الناصر"، ونحن لا نملك أن نفعل شيئا إزاء ذلك"[١٠٧].

على مدى الأيام العشرة التالية لم تفعل إدارة "چونسون" شيئا لإثناء الإسرائيليين، بل ربما تكون قد شجعتهم من خلال قنوات خلفية على ضرب عبد الناصر بقوة، والواقع أن "دين راسك" كان ينصح بالتريث عندما التقى السفير الإسرائيلى "أفراهام هارمان" فى ٢ يونيو مؤكدا أن "مسألة من سيكون البادئ بالضرب ستكون مهمة"[١٠٨]؛ ولكن عندما وصل "هارمان" إلى المطار الدولى متأخرا بضع ساعات عن رحلة كانت متجهة إلى تل أبيب، تلقى مكالمة تليفونية من "أبى فورتاس – Abe Fortas" أحد قضاة المحكمة العليا ومحل ثقة الرئيس وصديق

إسرائيل المخلص، وحسب رواية أحد العاملين بالشئون القانونية، قال "فورتاس": "دين راسك سوف يعزف على القيثارة وإسرائيل تحترق، فإذا كنت ستنقذ نفسك فافعل ذلك بنفسك"(١٠٩).

مثل هذه التعليقات "الملتبسة"، كما ذكر "أبا إيبان" فيما بعد، كان لها تأثير شديد وفورى فى داخل حكومة "إشكول". لقد أثنى "فورتاس" على كظم غيظنا فى الماضى دون أى تلميح على ضرورة استمراره فى المستقبل"، تاركا شكا قليلا فى تل أبيب أن أى إجراء عسكرى إسرائيلى" سوف يقابل بارتياح صامت حتى فى واشنطن"(١١٠)، ويتذكر "إيبى إيفرون" بالمثل كيف أن التفكير فى ذلك بشكل نهائى هو أن البيت الأبيض كان فى آخر لحظة يميل نحو إسرائيل. "من ضوء أحمر معارض للحرب فهمنا أن الضوء قد تغير إلى الأصفر" كما قال "إيفرون" لأحد الصحفيين. "لم يعطنا الأمريكيون ضوءا أخضر بأن نذهب إلى الحرب ولكنهم أعطوا إشارات تدل على أنهم لن يكرروا ما فعلته إدارة "إيزنهاور" فى ١٩٥٧"(١١١).

بعد فجر ٥ يونيو مباشرة حلقت الطائرات التى تحمل نجمة داود على مستوى منخفض على دلتا النيل لتضرب القوات الجوية المصرية على الأرض، ويزعم "دين راسك" أنه "فوجئ بهذا الهجوم وشعر بالاستياء" وأبرق سريعا إلى نظيره السوفيتى "أندريه جروميكو – Andrei Gromyko" "كانت لدينا تأكيدات من الإسرائيليين أنهم لن يكونوا البادئين بالعدوان وعرقلة المساعى الدبلوماسية"(١١٢)، إلا أن الدعم الأمريكى لم يتوقف خلال حرب الأيام الستة، الواضح أن تعامل "ليندون جونسون" مع الأزمة كان متأثرا فى جزء منه بضغط من أصدقاء إسرائيل فى الكونجرس على العاملين فى البيت الأبيض وبين المجتمع اليهودى الأمريكى، كما أنه كان يتمنى أن يكون دعمه لإسرائيل شعبيا بما يكفى لكى يساعد على إخماد الانتقادات المتصاعدة لسياساته غير الشعبية فى جنوب شرق آسيا، ولكن السياسات الديمقراطية لم تكن سوى جزء من القصة، إذ يبدو أنه كان يجد متعة بديلة فى قدرة إسرائيل على إحباط حرب تحرير وطنية عربية لا تختلف عن تلك التى واجهتها الولايات المتحدة فى فيتنام(١١٣).

كان "چونسون" وكبار مساعديه لديهم أمل فى أن إسرائيل قوية واثقة من عدم قدرة أحد على قهرها يمكن أن تكون أكثر قدرة على التسوية مع العرب المعتدلين، وأقل احتمالا أن تمضى فى الطريق النووى. بعد وقت قصير من توقف القتال فى ١٠يونيو كان "دين راسك" يبحث شروط السلام مع "أبا إيبان"؛ ولأن "راسك" كان مستاء لعلمه أن إسرائيل كانت تنوى الاحتفاظ بجزء كبير من الأراضى التى استولت عليها أثناء حرب الأيام الستة، كان يُذَكِّر "أبا إيبان" بأن بلاده كانت تنكر دائما وجود أى طموحات إقليمية لديها، وكان رد "أبا إيبان" "لقد غيرنا رأينا". قلقا لاحتمال أن تغير إسرائيل رأيها كذلك بالنسبة للقنبلة الذرية رد "راسك" بسرعة: "لا تكونوا أول قوة تدخل الأسلحة النووية إلى الشرق الأوسط". ليقول "أبا إيبان" مبتسما: "ولكننا لن نكون الثانية"(١١٤).

كان هذا الحوار يرمز إلى الشراكة الصعبة التى نشأت بين إسرائيل والولايات المتحدة فى ١٩٦٧. الانتصار الإسرائيلى على الراديكاليين العرب المدعومين من السوڤيت كان يبدو كأنه براءة ذمة لإيزنهاور وبن جوريون اللذين كانا يتصوران دولتيهما حلفاء فى صراع من أجل كبح نفوذ الكرملين منذ ١٩٥٨. القوات الإسرائيلية المزودة بأسلحة أمريكية أظهرت للعدو وللصديق على السواء أن حروب التحرر الوطنى فى العالم الثالث قد لا تكون ناجحة دائما، إلا أن خطر احتمال قيام الإسرائيليين بتطوير أسلحة ذرية جعل المسئولين الأمريكيين دائما فى حالة ترقب. كتب "هارولد سوندرز" إلى "وولت روستو" فى ٢٩ ديسمبر يقول: "سوف نتأكد من أن إسرائيل ستحصل على دعمنا السياسى وعلى العتاد الذى تحتاجه لكى تدافع عن نفسها، إلا أننا لا نستطيع أن نقيد أنفسنا بقلعة إسرائيل" وبخاصة "إذا حصلت على صواريخ "SSM" (أرض - أرض) أو قررت بناء أسلحة نووية"(١١٥).

فى يناير ١٩٦٨ وصل "ليڤى إشكول" إلى مزرعة "ليندون چونسون" يطلب ٥٠طائرة فانتوم (F-4)، وبالرغم من أن "چونسون" واجه معركة صعبة من أجل دورة ثانية فى غضون عشرة شهور، كان يبدو أقل اهتماما بسياسات عام الانتخابات منه

بأفق السلام الملبدة بالغيوم فى الشرق الأوسط. "لا نستطيع أن ندعم إسرائيل متعنتة" كما أبلغ "إشكول" فى ٧ يناير، وإذا لم تبد إسرائيل حسن النية "بالتوقف عن التحرك الدائم فى الأراضى المحتلة" وتتخلى عن الكذب حول "الأسلحة والصواريخ النووية" فلن تكون هناك فانتوم(١١٦). وهكذا.. لم تكن هناك فانتوم بالرغم من أحد أشرس الانتخابات الرئاسية فى القرن العشرين. المؤكد أن المشكلات المتفاقمة فى جنوب شرق أسيا دفعت "جونسون" خارج الحلبة فى مارس ولم تترك له وقتا طويلا لمشكلات كانت تبدو أقل ضغطا فى الشرق الأوسط. الإسرائيليون وأصدقاؤهم فى واشنطن ألحوا بالطبع إلى أن تقديم الطائرات قبل يوم الانتخاب قد يضمن لـ"البطة العرجاء"، جونسون أصواتا إضافية تكفى لتحقيق فوز ديمقراطى(١١٧). وبالرغم من ذلك لن "يفرج" جونسون عن الفانتوم، كما قام "دين راسك" بإبلاغ السفير "إسحق رابين – **Yitzhak Rabin**" فى منتصف سبتمبر حتى "تزيل إسرائيل الغموض" حول برنامجها النووى، وتوضح مصير الأراضى العربية التى تم الاستيلاء عليها خلال حرب الأيام الستة(١١٨).

لان موقف "جونسون" نوعا ما بعد ذلك فى خريف العام نفسه بعد أن أقنعت "**AIPAC**" سبعين نائبا أمريكيا بتوقيع خطاب يؤيد بيع الفانتوم (**F-4**) لإسرائيل، ولكن "لامنطقية محاولة تحقيق السلام من خلال القوة فقط "استمرت فى دفع الرئيس فى الطريق الخطأ. فى ٢٣ أكتوبر كان الرئيس الأمريكى يذكر "إشكول": "لقد أثبتت تجربتنا الخاصة أن السلام الحقيقى لا يوجد وحده على جدران قلعة – ولا تحت مظلة قوة جوية – ولا خلف درع نووى"(١١٩). ظلت صفقة الفانتوم مجمدة حتى ٢٥ نوفمبر أى بعد ثلاثة أسابيع من فوز – بشق الأنفس – حققه "ريتشارد نيكسون" على "هيوبرت همفرى – **Hubert Humphrey**" الشديد الموالاة لإسرائيل. بقيت المشكلة كما هى لمدة عام تقريبا، وفى المراحل الأخيرة من مفاوضات الفانتوم قال "بول وارنكل – **Paul Warnkle**" مساعد وزير الدفاع للسفير "إسحق رابين": "نحن قلقون بشأن مشروعات إسرائيل النووية والخاصة بالصواريخ، ولذلك نحن فى حاجة إلى أن تعيدوا تأكيد موقفكم لنا بهذا الخصوص"(١٢٠).

أفضل تأكيد بالطبع كان أن توقع إسرائيل على اتفاقية منع الانتشار وهو ما لم يحدث واستكانت واشنطن فى النهاية إلى تعهد تل أبيب - مجددا - بألا تكون الدولة الأولى فى الشرق الأوسط التى تمتلك قنبلة ذرية. كان ذلك انتصارا أجوف لصناع سياسة مثل "وارنكل" الذى أشار بعد فترة طويلة إلى ذلك قائلا: "فى ذلك الوقت كنت أعتقد، كما كانت المعلومات اللاحقة تؤكد تقريبا، أن إسرائيل قد قامت بالفعل بتطوير ترسانة صغيرة من الأسلحة النووية"[١٢١]؛ ومن المثير للسخرية أن السعى إلى منع الانتشار كان مهما، على الأقل، مثل السعى إلى أصوات انتخابية، فى تدعيم علاقات وثيقة وإتمام المصالحة بين الولايات المتحدة وإسرائيل فى الستينيات.

• أصل استراتيجى ثابت أم دين مستحق؟: إسرائيل والولايات المتحدة منذ ١٩٦٩

عندما سلم "ليندون جونسون" البيت الأبيض لـ"ريتشارد نيكسون" ترك وراءه صداقة خاصة مع إسرائيل ستصبح على مدى السنوات الثلاثين التالية محل جدال واسع بين صناع السياسة الأمريكية الذين لم يستطيعوا أن يتفقوا على ما إذا كانت الدولة اليهودية تمثل أصلا استراتيجيا ثابتا أم دينا ومسئولية دبلوماسية مستحقة؛ وباعتباره جمهوريا متمرسا استطاع أن يساعد فى تنسيق المصالحة الأمريكية الإسرائيلية بعد السويس من موقعه كنائب للرئيس "إيزنهاور"، تسلم "نيكسون" منصبه كرئيس فى ١٩٦٩ وهو يعرف أن ٨٥٪ من الناخبين الأمريكيين قد صوتوا لصالح "هيوبرت همفرى"[١٢٢]. وهو أقل تقبلا لأصدقاء إسرائيل من سلفه الديمقراطى وقع الرئيس الجديد بسرعة مذكرة دراسة للأمن القومى National Security Study Mem-orandum2) تدعو لمراجعة شاملة لوضع الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. كان "نيكسون" يتساءل: "هل يتآكل بشكل كبير؟ هل تسوية عربية إسرائيلية أمر ضرورى من أجل الحفاظ على وضع الولايات المتحدة؟"[١٢٣]؛ وبينما لم يكن اتجاه المراجعة واضحا، أدلى "نيكسون" بتصريحات واضحة فى مؤتمر صحفى فى ٢٧ يناير ١٩٦٩، عندما قال أمام جمع غفير فى القاعة الشرقية: "أعتقد أننا فى حاجة إلى مبادرات

جديدة وقيادات جديدة من جانب الولايات المتحدة بهدف التهدئة فى الشرق الأوسط، الذى أعتبره برميل بارود شديد الانفجار لابد من نزع فتيله"[١٢٤].

نزع فتيل برميل بارود الشرق الأوسط كثيرا ما كان يضع "نيكسون" على طريق الصدام مع إسرائيل أثناء الشهور الثمانية عشر الأولى له فى منصب الرئيس. منزعجا فى أوائل ١٩٦٩ بسبب وجود دلائل على أن إسرائيل كانت تقوم بتطوير قنبلة ذرية فى "ديمونة"، ومحبطا بسبب عدم اكتراثهم بجهود الأمم المتحدة لبدء عملية السلام التى كانت قد وصلت إلى طريق مسدود، أرجأ نيكسون إلى أجل غير مسمى تسليم طائرات الفانتوم (F-4) التى كان "نيكسون" قد وعد إسرائيل بها قبل مغادرة موقعه مباشرة؛ وبالقرب من نهاية العام كان يشكو للمقربين منه: "لقد بدأت أفكر... لابد من أن نفكر فى اتخاذ خطوات قوية من جانب واحد لإنقاذ إسرائيل من تدمير نفسها"[١٢٥].

كانت هذه الخطوات القوية هى – بالضبط – ما أوصى به "وليم روجرز – William Rogers" وزير الخارجية. محام من "وول ستريت" كان قد شهد تشابك واشنطن مع تل أبيب قبل عقد من مثوله على رأس وزارة العدل فى عهد "إيزنهاور"، بدأ اتصالاته بالإسرائيليين كما لو كانوا أهدافا فى مهمة عدائية؛ وبحلول خريف ١٩٦٩ كان الإسرائيليون قد علموا أن وزارة الخارجية كانت تنوى اقتراح تسوية قبل نهاية العام قد تتطلب إعادة كل الأراضى المصرية المستولى عليها فى حرب الأيام الستة فى مقابل محادثات سلام مع "عبد الناصر". أحد المطلعين على الأمور فى البيت الأبيض أبلغ "إسحق رابين" فى أوائل أكتوبر "أنتم مقبلون على وقت صعب، لقد قررت الإدارة الموافقة على انسحاب إسرائيلى كامل من سيناء على الأقل"[١٢٦]. بعد شهرين كان وزير خارجية "نيكسون" يؤكد أن مستقبل علاقة الولايات المتحدة بإسرائيل يتوقف على استعداد إسرائيل لقبول تسويات إقليمية ترسمها وزارة الخارجية"[١٢٧].

استشاط الإسرائيليون غضبا. "جولدا مائير"، التى كانت قد خلفت "إشكول" وزيرا للخارجية قبل عشرة أشهر، وصفت الاقتراح الأمريكى بأنه "كارثة بالنسبة

لإسرائيل" وقالت غاضبة: إن "أى حكومة إسرائيلية تتبنى أو تطبق مشروعات من هذا القبيل إنما تخون وطنها". نقل "إسحق رابين" رسالة "مائير" إلى البيت الأبيض، وأبلغ "هارولد سوندرز مستشار الأمن القومى فى أواخر ديسمبر" دعنى أقول لك بكل صراحة، إنكم ترتكبون خطأ كبيرا عندما ترعون حلا مفروضا ستقاومه إسرائيل بكل ما تملك من قوة"، وبينما كان يهم بالمغادرة أعلن أنه "سوف يعمل كل ما هو ممكن فى إطار القانون الأمريكى لإثارة الرأى العام ضد تحرك الإدارة"(١٢٨).

ومصداقا لكلماته، كان "رابين" سعيدا لخروج أصدقاء إسرائيل ضد مبادرة "روجرز" فى مطلع العام الجديد، فكما قال "سى كينين – **Si Kenen**" (من **AIPAC**) بعد ذلك: "فى ٢٥ و٢٦ يناير" جاء ما يقرب من ألف وأربعمائة من كبار اليهود الأمريكيين البارزين قادمين من ٣١ ولاية إلى واشنطن للتعبير عن احتجاجهم"(١٢٩). وفى الأسابيع التالية انضم إلى جوقة الغضب حلفاء "كينين" فى "كابيتول هيل" مطالبين البيت الأبيض بأن يجهض مشروع السلام وأن يسلم الفانتوم (**F-4**) التى طال انتظارها للقوات الجوية الإسرائيلية، وفى أوائل مارس أجل "نيكسون" الإفراج عن الطائرات مرة أخرى(١٣٠)، وهو فى حالة ازدراء لما كان يعتبره "توجها مواليا لإسرائيل عنيدا وقصير النظر كان منتشرا على نطاق واسع وفى قطاعات مؤثرة فى المجتمع الأمريكى اليهودى وفى الكونجرس وفى وسائل الإعلام والدوائر الثقافية والفكرية".

كان قرار "نيكسون" ناجما عن اقتناعه بأن علاقة أمريكا بإسرائيل لابد أن تعبر عن المصلحة القومية وليس عن سياسات أصحاب المصالح فحسب، وبعد أن بدأ الغبار يهدأ فى أواخر الربيع كان يقول: "مصالحنا فى الأساس مع الحرية وليست مع إسرائيل فقط بسبب أصوات اليهود، نحن مع إسرائيل لأنها، فى رأينا، الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط التى تقف إلى جانب الحرية، كما أنها الخصم المؤثر بالنسبة للتوسع السوفيتى"، ومتلهفا على تبديد كل شك عن قوة الولايات المتحدة المتبقية فى جنوب شرق آسيا، تعهد "نيكسون" بأن "يعارض سياسة اللوذ بالفرار".

"هذا هو نوع الصديق الذى تحتاجه إسرائيل وسوف تبقى محتاجة إليه عندما يصبح الطريق أكثر وعورة فى السنوات الخمس التالية"(١٣١).

وعندما أصبح الطريق أكثر وعورة بأسرع مما كان "نيكسون" يتوقع، أثبتت إسرائيل أنها كانت الصديق الذى تريده الولايات المتحدة أيضا. خلال ربيع وصيف ١٩٧٠ الكرملين ثمانين بطارية صواريخ "أرض - جو" وسرب طائرات "ميج٢١" إلى مصر، ثم أرسل عدة ألوف من المستشارين والخبراء العسكريين ومئات الطيارين السوفيت للتأكد من انتهاء المصريين من تجهيز العتاد الجديد للعمليات بأسرع وقت ممكن. قرار موسكو بتصعيد سباق التسلح فى الشرق الأوسط، بينما كانت واشنطن تعمل على تقليص تورطها العسكرى فى جنوب شرق آسيا لم يرق لـ"نيكسون" ولا لـ"هنرى كيسنجر" مستشاره للأمن القومى، الذى سجل فى مذكراته "بمجرد أن وطد السوفيت أنفسهم بدور قتالى فى الشرق الأوسط وقبلنا نحن ذلك، كان يمكن أن يتغير التوازن السياسى جذريا وأن ينقلب التوازن العسكرى فى اللحظة التى يختارها السوفيت"(١٣٢). منزعجة لتنامى النفور الروسى، ومغضبة لقرار "عبد الناصر" بتحريك معداته العسكرية الجديدة إلى مسافة تسمح بالضرب على المواقع الإسرائيلية فى صحراء سيناء، وافقت إدارة "نيكسون" أخيرا فى ١سبتمبر ١٩٧٠ على تسليم سرب طائرات الفانتوم (F-4) التى كانت إسرائيل تريدها على مدى عام ونصف العام(١٣٣).

إسرائيل سوف ترد الجميل عندما تنفجر الحرب الأهلية فى الأردن القريبة فى الشهر نفسه. فى غضون أسابيع من إفراج "نيكسون" عن الفانتوم، اختطف فدائيون فلسطينيون ثلاث طائرات ركاب - أمريكية وبريطانية وسويسرية - وأجبروها على الهبوط فى مطار مهجور على بعد ثلاثين ميلا من عمان واحتجزوا مئات الركاب كرهائن، كان كثيرون منهم من الأمريكيين المدنيين؛ وعلى أمل إشعال ثورة على "الملك حسين"، قام الفدائيون بإطلاق سراح الرهائن دون أذى وفجروا الطائرة بينما كانت كاميرات التلفزيون تنقل الحدث. بمباركة من واشنطن، رد "الملك حسين" بقوة فارضا الأحكام العرفية ودافعا بالجيش الأردنى إلى معسكرات اللاجئين التى تطوق عَمَّان

لنزع سلاح الفدائيين والقبض على قياداتهم. بينما كان الملك عاقدا النية على تصفية "خصومه" الفلسطينيين، تحرك النظام الموالى للسوفيت فى دمشق لمساعدة "أصدقائه" الفلسطينيين، ومع دخول الدبابات السورية شمال الأردن فى ٢٠ سبتمبر اجتمع "هنرى كيسنجر" بالسفير الإسرائيلى "إسحق رابين" الذى أكد استعداد بلاده للقيام بهجمات برية وجوية إذا ما ارتأت واشنطن أن ذلك يمكن أن يكون مفيدا لإنقاذ عرش الملك "حسين". نقل "كيسنجر" الأخبار إلى رئيسه فى المكتب البيضوى، الذى وافق بسرعة على دعم إسرائيل. صباح ٢١ سبتمبر، بعد الإفطار مباشرة، قال نيكسون "لقد قررت" قل له [لرابين].. تقدم!"[١٣٤].

الآن، وقد غدا الشرق الأوسط على شفا حفرة من حرب سورية إسرائيلية يمكن أن تتصاعد بكل سهولة لتتحول إلى صراع بين القوى العظمى، يبدو أن موسكو أوعزت لدمشق بأن تتوقف؛ ومع طائرات إسرائيل المتأهبة للهجوم عكست الطائرات السورية وجهتها وخرجت من سماء الأردن فى ٢٢ سبتمبر. أما الملك المنتعش باستعراض القوة الإسرائيلى الأمريكى هذا، فهب لطرد الألوف من الفدائيين الفلسطينيين وأسرهم من الأردن فى عملية أطلقت عليها منظمة التحرير الفلسطينية اسم "سبتمبر الأسود". نتيجة هذه الأزمة الأردنية أكدت لكبار صناع السياسة الأمريكية ما كان يردده "بن جوريون" و"إشكول" و"جولدا مائير" على مدى أكثر من عقد وهو أن إسرائيل ستكون فى خدمة الولايات المتحدة باعتبارها أصلا استراتيجيا ثابتا، أما "كيسنجر" فسوف يبلغ "رابين" فى ٢٥ سبتمبر ١٩٧٠: "إن الرئيس لن ينسى دور إسرائيل فى منع تدهور الأوضاع فى الأردن، وقال إن من حسن حظ الولايات المتحدة أن يكون لها صديق مثل إسرائيل فى الشرق الأوسط"[١٣٥].

على مدى السنوات الثلاث التالية سيؤكد "نيكسون" و"كيسنجر" أكثر من مرة أنهما كانا يعنيان ما يقولانه؛ ففى عام ١٩٧١، على سبيل المثال، أجهض البيت الأبيض محاولات من وزارة الخارجية لإجبار إسرائيل على إعادة الأراضى المصرية التى تم الاستيلاء عليها فى حرب الأيام الستة، وفى فبراير ١٩٧٢ وافقت الولايات

المتحدة على أن تبيع إسرائيل ٤٢ طائرة (F-4) أخرى و٨٢ سكاى هوك (A-4)، وبحلول صيف ١٩٧٣ كانت المخابرات المركزية الأمريكية والـ"موساد" يتبادلان المعلومات حول الإرهابيين الفلسطينيين والراديكاليين العرب[١٣٦].

الاختبار الصعب للعلاقة الاستراتيچية بين إدارة "نيكسون" وإسرائيل سيأتى فى خريف ١٩٧٣، عندما يقوم المصريون والسوريون بهجوم مفاجئ على الدولة اليهودية فى "يوم كيپور"، وبينما كان الجيش السورى ينذر بخطر استعادة الجولان، والقوات المصرية تنزل خسائر فادحة بالقوات الإسرائيلية فى سيناء، طلبت رئيسة الوزراء الإسرائيلية "جولدا مائير"، على نحو عاجل، أن تمد الولايات المتحدة جسرا جويا ينقل إلى إسرائيل كل ما يحتاجون إليه من الأسلحة الصغيرة إلى الدبابات لاستعواض ما دمره العرب من معدات قتالية. وبعد سلسلة من الاجتماعات على مدار الساعة مع "كيسنجر" وغيره من مسئولى مجلس الأمن القومى، وافق "نيكسون" على طلب مائير فى ١٤ أكتوبر وأعطى تعليماته للـ"پنتاجون" "بإرسال كل ما يمكن نقله جوا"[١٣٧]، وبانتهاء عمل الجسر الجوى فى ١٥نوفمبر ١٩٧٣ كانت القوات الجوية الأمريكية (C-5A) و(C-130) قد نفذت ما يقرب من ٧٠٠ نقلة وحوالى ١١٠٠٠ طن من العتاد العسكرى لإسرائيل[١٣٨].

يبدو أن سياسات جماعات المصالح كانت أقل أهمية من اعتبارات الجغرافيا السياسية فى قرار "نيكسون" بإعادة تسليح إسرائيل أثناء حرب أكتوبر. المؤكد أن وفدا مشتركا من الحزبين، من الشيوخ والنواب المؤيدين لإسرائيل زار البيت الأبيض يوم ١٠ أكتوبر. كانت الـ"AIPAC" قد قامت بتعبئة المنظمات الأمريكية اليهودية لدعم جسر الطوارئ الجوى فى الأيام التالية لذلك، كما أن "نيكسون" أكد لأصدقاء الدولة اليهودية فى "كاپيتول هيل": "لن نترك إسرائيل تنهزم"[١٣٩]؛ ولكن قضايا أكبر كان لها تأثير أكبر على المداولات فى إدارة "نيكسون". كان بعض صناع السياسة الأمريكية، حسب رواية وزير الدفاع "چيمس شليزنجر – James Schlesinger"، يخشون ما إذا لم تقم الولايات المتحدة باستعواض الأسلحة الإسرائيلية وإعادة ملء ترسانتها أن

تلجأ إسرائيل إلى الأسلحة النووية لتفادى الهزيمة. بعد ذلك كان "شليزنجر" يقول "كلما فكرنا كان أمامنا دائما افتراض أن إسرائيل تملك بعض الأسلحة النووية، وكان هناك أيضا احتمال أن تستخدمها فى حال الانهيار"(١٤٠)؛ بالإضافة إلى أنه فى أجواء فضيحة "ووترجيت" التى كانت تقوض سلطة "نيكسون" شيئا فشيئا فى الداخل وتؤدى إلى تآكل مصداقيته فى الخارج، كان "شليزنجر" وغيره من كبار المسئولين الأمريكيين يعتبرون الجسر الجوى الواضح إلى إسرائيل أفضل وسيلة لتوصيل رسالة للعالم مفادها أن الولايات المتحدة لم يكن لديها النية للتخلى عن أصدقائها فى الشرق الأوسط(١٤١).

فى ١٦ يونيو ١٩٧٤ هبطت الطائرة الرئاسية "Air Force One" بالقرب من تل أبيب ليكون "نيكسون" أول رئيس أمريكى يقوم بزيارة إسرائيل. استقبله بترحيب وحياه بوقار "إسحق رابين" الذى كان قد خلف "مائير" رئيسا للوزراء قبل فترة قصيرة، كما أكد "نيكسون" لمضيفهما أنهما كانا يعتبران الدولة اليهودية أصلا استراتيجيا ثابتا، ويتذكر "كيسنجر" أنه قال لـ"رابين"، إن إسرائيل صديق وحليف وقد وقفنا معا فى الأزمات الشديدة". وقبل عودته إلى واشنطن، أكد "نيكسون" بالمثل "استعداده لاستمرار المعونات الاقتصادية والعسكرية على المدى الطويل" وإن كان قد أضاف بسرعة أنه "كان فى المقابل يتوقع بعض المرونة من جانب إسرائيل على طاولة المؤتمر"(١٤٢)؛ وعندما كان يستعد لترك منصبه كان "نيكسون" يتذكر إنجازاته الكثيرة فى الشرق الأوسط مدركا أنه قد ترك خلفه إرثا متناقضا فى تلك المنطقة المضطربة، فقد فضفض فى يومياته: "سنجعل إسرائيل قوية بما يكفى حتى لا تخشى التفاوض، ولكن ليس إلى المدى الذى يجعلهم يشعرون بأنهم ليسوا فى حاجة إلى التفاوض"(١٤٣).

كان الإبحار وسط مخاوف إسرائيل واحتياجاتها أمرا لابد من أن يشغل "جيرالد فورد – Gerald Ford" وهو يكمل الشهور التسعة والعشرين الأخيرة من فترة "نيكسون" الثانية. هذا الجمهورى القادم من "ميتشجن" كان قد حقق سمعة طيبة كصديق هادئ، ولكن ثابت، لإسرائيل أثناء سنواته الثمانية زعيما للأقلية فى المجلس

التشريعى وشهوره الثمانية فى "بلير هاوس". فى أوائل ١٩٧٥ كان القلق يساور الرئيس "فورد" إزاء بعض مواقف رئيس الوزراء الإسرائيلى "إسحق رابين" مثل "توقفه عند بعض الصغائر" و"قصر النظر" بالنسبة للمفاوضات مع مصر وسوريا، وكان يخشى أن يعرقل ذلك جهود الولايات المتحدة الأوسع الرامية إلى خفض التوترات فى الشرق الأوسط[١٤٤].

وعندما علم الرئيس أن جولة "كيسنجر" المكوكية الأخيرة فى الدول العربية وإسرائيل قد وصلت إلى طريق مسدود فى تل أبيب، كتب إلى "رابين" فى ٢١ مارس معبرا عن "خيبة أمل شديدة بسبب توجه إسرائيل أثناء المفاوضات" ومعلنا عن "إعادة تقييم سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة بما فى ذلك علاقتنا بإسرائيل"؛ وملمحا بحدة إلى أن الدولة اليهودية كانت تتحول بسرعة لتصبح دَيْنًا ومسئولية دبلوماسية مستحقة، أجل فورد - وبحدة أيضا - أى قرار بالنسبة لطلب إسرائيل الأخير لشراء سرب طائرات (F-15) إلى أن يتم الانتهاء من إعادة التقييم[١٤٥].

وضع "فورد" الأساس المنطقى لقراره المؤلم بعد أسبوع، فَذَكَّر مجلس الأمن القومى فى ٢٨ مارس "منذ تسلمى مهام منصبى ونحن نعمل مع إسرائيل محاولين التوصل إلى تسوية، ولكننا عندما وضعنا الأوراق على الطاولة لم يظهروا مرونة كانت ضرورية للحوار"؛ ومؤكدا أنه "يقدر ويحترم الشعب الإسرائيلى دائما" اعترف "فورد" أنه "لم يصادف خيبة أمل" فى حياته مثل الآن مع الزعماء الإسرائيليين الذين بدوا "غير قادرين على إدراك أننا نحاول أن نفعل شيئا لمصلحتهم كما هو لمصلحتنا"، ومؤكدا أن "المزيد من المرونة الإسرائيلية سيكون فى صالح السلام"، اختتم كلامه بأن "الوقت قد حان لنظرة جيدة.. صعبة" للعلاقة الخاصة، مضيفا "أعرف أننى سأُصْلَى نار موقفى هذا، ولكن التزامنا فى التحليل الأخير هو بالولايات المتحدة"[١٤٦].

النار التى خَلَّفَتها إعادة تقييم "فورد" لعلاقة الولايات المتحدة الخاصة بإسرائيل سرعان ما أمسكت به. لم يكن الإسرائيليون ومؤيدوهم الأمريكيون سعداء بذلك، كما أنهم لم يفاجأوا به. تصرف "فورد"، كما ذكر "رابين" فى مذكراته

فيما بعد "كان نذيرا بفترة من أسوأ الفترات فى العلاقات الأمريكية الإسرائيلية". "موريس أميتاى – Morris Amitay"، عضو الكونجرس المتشدد السابق الذى خلف "سى كينين" مديرا للـ"AIPAC" قبل أشهر قليلة، قاد حملة شرسة موالية لإسرائيل ضد "كاپيتول هيل". فى ٢١ مايو ١٩٧٥ تسلم "چيرالد فورد" رسالة موقعة من ٧٦ نائبا من جانبى القاعة ينصحونه بأن "يستجيب لطلبات إسرائيل الاقتصادية والعسكرية العاجلة" وأن يحذر وعود العرب بالسلام، وأنهى النواب رسالتهم بقولهم "نحثك لكى تكون واضحا مثلنا، وأن أمريكا وهى تعمل من أجل مصالحها القومية هى التى تقف بثبات إلى جانب إسرائيل فى البحث عن السلام". "فورد" الذى وقف شعر رأسه لما كان يعتبره محاولة إسرائيلية شديدة الوطأة لممارسة "ضغط سياسى من الجبهة الداخلية"، وجد نفسه فى "اختبار إرادات" مع "رابين" فى صيف ١٩٧٥. "فورد" يشكو فى مذكراته "كان الإسرائيليورن يصرون دائما على أن نزودهم بعتاد عسكرى أكبر مما كان خبراؤنا يعتقدون أنهم فى حاجة إليه"(١٤٧)، ويرد "رابين" فى مذكراته بأن الأمريكيين كانوا يصرون دائما على "اعتبار إسرائيل وحدها المتهم الرئيسى فى المأزق الدبلوماسى فى الشرق الأوسط"(١٤٨).

بعد شد وجذب طوال فصل الصيف وقَّع "فورد و"رابين" صفقة فى ١ سبتمبر ١٩٧٥ مكنتهما من التغلب على خلافاتهما؛ ففى مقابل مساعدات عسكرية أمريكية تقدر بـ١,٥ بليون دولار، وتعهد بوضع ٢٠٠ مراقب أمريكى مدنى فى صحراء سيناء، وعد الإسرائيليون بالجلاء عن حقول النفط ومواقع استراتيچية أخرى كان قد تم الاستيلاء عليها من مصر. مرتاحا لأن العلاقات الأمريكية مع الدولة اليهودية أخذت أخيرا منحى إلى الأفضل، أكد "فورد" لزعماء الكونجرس بعد ثلاثة أيام أن "إسرائيل فى وضع جيد جدا" وتعهد بـ"إننا سنواصل إمدادها بالأسلحة الدفاعية التى تحتاج إليها"(١٤٩)، لكن بالرغم من التعاون الأكبر فى السعى من أجل السلام والتنسيق الوثيق فى المعركة ضد الإرهاب، لم ينجح "فورد" و"رابين" فى إعادة إذكاء السحر الدبلوماسى الذى كان "چونسون" و"إشكول" قد بدآه فى أواخر الستينيات وأكمله "نيكسون" و"مائير" فى أوائل السبعينيات.

نتائج الانتخابات فى كل من الولايات المتحدة وإسرائيل هبطت بالعلاقة الخاصة أكثر مما كانت، ففى ٣ نوفمبر ١٩٧٦ خسر "چيرالد فورد" بفارق ضئيل أمام "چيمى كارتر - Jimmy Carter" الذى صدم الإسرائيليين ومؤيديهم من الأمريكيين بعد تنصيبه بفترة قصيرة بتزكيته العلنية لمفهوم الوطن الفلسطينى(١٥٠). "إسحق رابين" الذى خاض حزبه (العمل) معركة صعبة ضد "مناحيم بيجن" (تحالف الليكود اليمينى) فى الانتخابات الإسرائيلية المحدد لها ربيع ١٩٧٧ قال "ربما يكون على إسرائيل أن تتحمل الكثير إلى أن تكتسب الحكومة الأمريكية الجديدة الخبرة والنضج السياسى"، ولكن هذا الثمن كان باهظا بالنسبة لكثير من الناخبين الذين اختاروا "بيجن" رئيسا للوزراء بهامش ضئيل فى ١٧ مايو. فهم "رابين" النتيجة باعتبارها مؤشرا على طقس دبلوماسى سيىء قادم، "فإذا لم تكن إسرائيل قادرة على الاعتماد على الولايات المتحدة كصديق وحليف" كما شرح فى تحليل له بعد الانتخابات "سيكون عليها أن تعهد بمصيرها لقيادة "صارمة"، "لا تتنازل"، من أجل حماية مصالحها الحيوية"(١٥١).

مناحم بيجن كان "صارما" و"لم يتنازل" فى ١٩٧٧ مثلما كان قبل ثلاثة عقود عندما قاد الـ"إرجون" للقتال إبان حرب إسرائيل من أجل الاستقلال؛ وباعتباره توسعيا عنيدا لم يخف نيته ضم الضفة الغربية (التى كان يحلو له أن يطلق عليها "يهودا والساماريا") إلى إسرائيل عاجلا وليس آجلا. فى مفكرته سجل "چيمى كارتر" بتاريخ ٢٣ مايو "كان من المخيف أن تراقب موقفه المتصلب فى قضايا كان لابد من أن تحل، إذا كان لابد من تسوية فى الشرق الأوسط". خلال النصف الثانى من ١٩٧٧ وفى أوائل ١٩٧٨ تعقدت الأمور بين "كارتر" و"بيجن" فى كل شىء... من تنازلات إسرائيل بالنسبة للأراضى فى سيناء إلى السلاح الأمريكى للسعودية. لم تكن مهمة "كارتر" سهلة أبدا بسبب الشكاوى من "كابيتول هيل" و"مين ستريت" من أن الإدارة الجديدة كانت تبدو مائلة نحو العرب. كان الديمقراطى القادم من "چورچيا" يحاول تدعيم "قاعدته السياسية المعطوبة بين أصدقاء إسرائيل الأمريكيين" بتأكيده لأعضاء بارزين فى الكونجرس وللقيادات اليهودية أن الولايات المتحدة كانت ما تزال ملتزمة

تماما بالأمن الإسرائيلى[١٥٢]، ولكن عندما اقترح "كارتر" بيع طائرات فانتوم للسعودية ومصر فى فبراير ١٩٧٨ انفجرت عاصفة نارية سياسية فى "بلتواى" حيث اتهم "موريس أميتاى" (مدير AIPAC) البيت الأبيض بخيانة إسرائيل. وبالرغم من أن الرئيس حصل على موافقة الكونجرس على صفقة بيع السلاح فى مايو، صوت كثيرون من أصدقاء إسرائيل لصالح الجمهوريين فى الانتخابات التى أجريت بعد ستة أشهر، احتجاجا على ما كانوا يعتبرونه سياسات "كارتر" الموالية للعرب والمعادية لإسرائيل[١٥٣].

لم يهدئ شىء من التوترات فى العلاقة الخاصة بين أمريكا وإسرائيل فى سنوات إدارة "كارتر" أكثر من اتفاقيات كامب ديفيد فى سبتمبر ١٩٧٨. بعد شهور من الحث والتزلف قبل "مناحم بيجن" (إسرائيل) و"السادات" (مصر) دعوة "كارتر" لبدء محادثات سلام فى استراحة الرئيس فى جبال "كاتوكتن – ميريلاند". وبعد أسبوعين من المفاوضات المضنية تمكن "كارتر" من أن يتوسط فى تسوية اللحظة الأخيرة التى وافقت فيها إسرائيل على الانسحاب من سيناء وبدء محادثات الحكم الذاتى للفلسطينيين فى غضون ثلاث سنوات فى مقابل اتفاقية سلام رسمية مع مصر. بالرغم من أن "كارتر" لم يكف عن الابتسام وهو يرى "بيجن" و"السادات" يوقعان الاتفاقية بالأحرف الأولى فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨، فإنه كان قلقا بينه وبين نفسه خشية أن تكون إسرائيل حريصة على صلح منفرد مع مصر أكثر من حرصها على سلام دائم مع الفلسطينيين. وبعد سلسلة من الاتهامات الدبلوماسية المتبادلة مع إسرائيل، اختارت إدارة "كارتر" فى مارس ١٩٨٠ أن تدعم قرارا من الأمم المتحدة يؤكد الحقوق العربية فى الضفة الغربية والقدس الشرقية. كثيرون من أصدقاء إسرائيل الأمريكيين أحجموا عن التصويت لصالح الديمقراطى الچيورچى بعد ثمانية أشهر وساعدوا فى توسيع هامش "رونالد ريجان – Ronald Regan" للفوز يوم الانتخاب[١٥٤]، والسبب أنهم كانوا متأثرين بدعاوى "AIPAC" بأن "كارتر" خان الدولة اليهودية.

أعادت إدارة "ريجان" الروح قليلا إلى علاقة أمريكا الخاصة بإسرائيل بعد أن كانت فى حالة متردية. "رونالد ريجان"، ذلك الجمهورى القادم من كاليفورنيا، الذى

طالما أشاد بالإسرائيليين لإقدامهم ومثابرتهم يعترف في مذكراته "لم يكن فى حياتى إيمان أكثر رسوخا من إيمانى بأن الولايات المتحدة لابد من أن تضمن بقاء إسرائيل"، كما لم يكن مستغربا أن يصف الدولة اليهودية إبان ترشحه للرئاسة بأنها "أصل استراتيجى ثابت"، بالإضافة إلى أنه لم يصدم أحدا عندما اعتبر "بيجن" رئيس وزراء إسرائيل حليفا فى معركة ضد الإرهاب الدولى[١٥٥].

وزير الخارجية "ألكساندر هيج – Alexander Haig"، أحد أقطاب الحرب الباردة الذى سبق أن عمل رئيسا للأركان فى عهد "نيكسون"، كان يسعى هو الآخر للحصول على دعم إسرائيل فى أوائل ١٩٨١ من أجل "إجماع استراتيجى" معادٍ للشيوعية ومكرس لمقاومة الكرملين وعملائه.العرب، وفى ٣٠ نوفمبر ١٩٨١ كشف "ريجان" و"بيجن" النقاب عن مذكرة تفاهم أمريكية إسرائيلية جديدة تبشر بـ"علاقة أمن متبادل" هدفها "تفعيل التعاون الاستراتيجى لردع أى أخطار من جانب الاتحاد السوفيتى" فى الشرق الأوسط[١٥٦].

وعلى الرغم من خطابهما المشترك المعادى للسوفيت، فإن صناع السياسة الأمريكيين والإسرائيليين اختلفوا بحدة حول أفضل أساليب التعامل مع العالم العربى. ولأن إدارة "ريجان" كانت مقتنعة بأن "آل سعود" كانوا يطلبون طائرات "أواكس – AwacsA": (Airborn Warning And Control System) متقدمة لحماية أنفسهم من جيرانهم الراديكاليين فى إيران والعراق، حاربت معركة ضارية. وانتصرت فيها فى "كابيتول هيل"، حيث كانت الـ"AIPAC" قد حاولت فى خريف ١٩٨١ بمباركة من "بيجن"، ولم تنجح، أن تمنع موافقة الكونجرس على صفقة سلاح للسعودية تقدر بـ٨,٥ بليون دولار. قرب نهاية العام فشل البيت الأبيض كذلك فى منع الدولة اليهودية من ضم مرتفعات الجولان رسميا، وهى أرض يعتبرها الإسرائيليون ضرورية لحمايتهم ضد النظام الراديكالى فى سوريا. وعلى أمل إجبار "بيجن" على إعادة النظر فى سياساته أحادية الجانب، ألغى البيت الأبيض مذكرة التفاهم الأخيرة قبل أعياد الميلاد مباشرة وقام بتجميد معونة عسكرية تقدر بـ٣٠٠ مليون دولار،

وبالرغم من ذلك كله ظل "بيجن" على موقفه المتعنت؛ ففى ٢٠ ديسمبر كان يقول بازدراء لـ"صمويل لويس - Samuel Lewis" سفير الولايات المتحدة، "ما هذا الكلام - "معاقبة" إسرائيل؟ هل نحن جمهورية موز؟"، ثم أجاب بنفسه عن سؤاله على الفور: "لقد عاش شعب إسرائيل بدون مذكرة التفاهم لمدة ٣٧٠٠ سنة، وسوف يواصل الحياة بدونها ٣٧٠٠ سنة أخرى"[١٥٧].

قرار "بيجن" غزو لبنان بعد ستة أشهر كان يهدد بمزيد من الجفاء بين إسرائيل والولايات المتحدة. في ديسمبر ١٩٨١ كان "أرئيل شارون - Ariel Sharon" وزير الدفاع الإسرائيلى قد حذر "فيليب حبيب" أحد خبراء الخارجية الأمريكية الذين أرسلتهم لبحث أزمة الشرق الأوسط، أنه إذا لم يوقف الفدائيون الفلسطينيون عملياتهم فى شمال إسرائيل من تلك المخيمات عبر الحدود اللبنانية" فلن يكون أمامنا من خيار سوى أن نمحوهم تماما من لبنان (و) تدمير البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية هناك". مذهولا لتهديد "شارون" باستئصال منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان"، حاول "حبيب" أن يظهر له الضوء الأحمر قائلا: "جنرال شارون، نحن الآن فى القرن العشرين، الزمان تغير ولا تستطيع أن تغزو الدول هكذا كما يحلو لك، تنشر الدمار وتقتل المدنيين"[١٥٨].

غير مبال بدرس التاريخ هذا، طار "شارون" إلى واشنطن فى مايو ١٩٨٢ ليبلغ رئيس حبيب - بكل بجاحة - بأن إسرائيل كانت على وشك "توجيه ضربة قاضية لمنظمة التحرير الفلسطينية". يذكر "هيج" وزير الخارجية أنه قال لزائره الإسرائيلى "على انفراد وبأوضح أسلوب ممكن" أنه "إن لم يكن هناك أى عمل استفزازى يعترف به العالم، وإن لم يكن انتقام إسرائيل متناسبا مع هذا الاستفزاز فإن أى عمل هجومى إسرائيلى فى لبنان سيكون له تأثير مدمر فى الولايات المتحدة"[١٥٩]. هذه الإشارة الدبلوماسية التى كان "هيج" يعتبرها "حمراء"، كان لونها مختلفا فى نظر زملاء آخرين، فقد ذكر السفير "صمويل لويس" فيما بعد: "كان أمامنا ضوء أصفر يميل إلى الحمرة... واضح وساطع".

الضوء البرتقالي أغرى زعماء إسرائيل بالبحث عن ذريعة لغزو لبنان، وكان ذلك هو أيضا رأي "ريموند تانتر – Raymond Tanter" أحد خبراء شئون الشرق الأوسط في البيت الأبيض في فترة إدارة "ريجان"، الذي قال في لقاء صحفي "كان من رأي المسئولين في واشنطن أن تسير العلاقة الأمريكية الإسرائيلية بما يتفق وقواعد الطريق الصحيحة لكي لا يتركوا ثغرة يمكن أن ترعد الدبابات الإسرائيلية من خلالها"[١٦٠].

وفي يونيو ١٩٨٢ كانت الدبابات الإسرائيلية ترعد على طول الطريق المؤدية إلى بيروت بعد محاولة الإرهابيين الفلسطينيين قتل أحد الدبلوماسيين الإسرائيليين في لندن. وبنعتها بأنها كانت "ضربة جراحية" لاستئصال البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية، سرعان ما أصبحت "عملية السلام من أجل الجليل" ورطة عسكرية ملطخة بالدماء. فجرت العملية عنفا طائفيا مدمرا بين المسيحيين اللبنانيين واللاجئين الفلسطينيين ودفعت إدارة "ريجان" إلى إرسال كتيبة من قوات المارينز لحفظ السلام في لبنان سيصبح أفرادها قبل نهاية العام أهدافا للمتطرفين المسلمين. دخلت العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل مرحلة انحسار جديدة في يناير ١٩٨٣ عندما دخلت القوات العسكرية والأمريكية في سلسلة من الأعمال التنافسية بالقرب من بيروت حظيت بإعلام واسع[١٦١].

بعد أن جاء "إسحق شامير" خلفا لـ"بيجن" المنهك في خريف ١٩٨٣ كانت إدارة "ريجان" تتمنى أن يأخذ الوضع منحى جديدا نحو الأفضل. في ٢٩ أكتوبر وافق "ريجان" على قرار لمجلس الأمن القومي يقترح إحياء الإجماع الاستراتيجي السابق بين إسرائيل والولايات المتحدة، وبعث وكيل الخارجية "لورانس إيجلبيرجر – Law-rence Eagleburger" إلى القدس برسالة عاجلة إلى "شامير": "الرئيس وكل من في الإدارة يريدون الجلوس معكم ويتحدثون بالفعل عن التعاون الاستراتيجي في المستقبل – في لبنان وفي الشرق الأوسط عموما، وفي كل مكان آخر"، مؤكدا له أن "بيننا صداقة طويلة وهذا هو وقت ظهورها بوضوح"[١٦٢]. كان رئيس الوزراء الجديد،

على أية حال، ممن يؤمنون بقوة بالعمل الانفرادى والاعتماد على الذات... ورفض عرض "ريجان"، بل إنه أصر بدلا من ذلك على منطقة آمنة فى جنوب لبنان ووسع المستوطنات الإسرائيلية فى الضفة الغربية وقطاع غزة ووافق للمخابرات الإسرائيلية أن تشترى أسرارا عسكرية أمريكية من "جوناثان پولارد - Jonathan Pollard". أحد صغار المستخدمين فى البنتاجون، الذى كان إلقاء القبض عليه فى ١٩٨٥ سببا لغضب واستياء أصدقاء إسرائيل الأمريكيين. كذلك كان فشل دور إسرائيل كوسيط فى أزمة "إيران - كونترا (السلاح مقابل الرهائن) أكثر مدعاة للغضب[١٦٣].

الخلافات الحادة بين "شامير" و"چورچ بوش" الذى خلف "ريجان" حول التوسع فى المستوطنات اليهودية فى الأراضى المحتلة تركت انطباعا بأن العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل لم تكن علاقة خاصة بالمرة؛ والحقيقة أنه بعد أن وصف وزير الخارجية "چيمس بيكر" علنا تناول "شامير" لقضية المستوطنات "بعدم الواقعية" فى مايو ١٩٦٩، كان أصدقاء وأعداء إسرائيل على السواء يتساءلون (فى حيرة) ما إذا كانت إدارة "بوش" متجهة نحو صدام مع الدولة اليهودية لم يسبق له مثيل منذ عهد "إيزنهاور". وبالرغم من التعليقات الشائكة من كل من "بوش" و"بيكر" فى بعض اللحظات الحاسمة فى أوائل التسعينيات، استطاعت إسرائيل والولايات المتحدة أن تعيدا الدفء إلى العلاقة نوعا ما. ولأن كلا الجانبين كان يدرك أن تورط إسرائيل فى حرب الخليج كان يمكن أن يقلل من شأن الدعم العربى للتحالف الكبير الذى كانت الولايات المتحدة تحشده ضد "صدام حسين"، اتفق المسئولون الإسرائيليون والأمريكيون على ضرورة أن ينشر "البنتاجون" صواريخ پاتريوت "أرض - جو" لحماية تل أبيب من صواريخ "سكود" العراقية. بعد توقف إطلاق النار فى الخليج الفارسى أرسل "شامير" وفدا إلى مدريد لاستئناف عملية السلام مع الفلسطينيين[١٦٤].

مع انتخاب "إسحق رابين" رئيسا للوزراء فى يونيو ١٩٩٢ فحسب، ظهرت بوادر التحسن على العلاقة الخاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة، وفى غضون

أسابيع قليلة كان "رابين" يؤكد لوزير الخارجية "چيمس بيكر" أنه سوف يخفض الوجود الإسرائيلي في الأراضي المحتلة[١٦٥]. بعد عام، وبمساعدة وتشجيع من الرئيس "بيل كلينتون" الذي كان مؤيدا على طول الخط للدولة اليهودية، وافق الإسرائيليون على تجميد الاستيطان في الضفة الغربية مهيئين المسرح بذلك للقاءات حديقة الورد بين "رابين" و"عرفات" في سبتمبر ١٩٩٣؛ وبعد لحظات قليلة من المصافحة التاريخية ذَكَّر "كلينتون" الجميع بأن "الولايات المتحدة ملتزمة بأمن إسرائيل"، مصرا على "إننا نريد أن نقوم بالمزيد من التفكير الاستراتيچي المشترك"، ملمحا إلى أنه "قد ينتهي الأمر بعمل الكثير في مجال التكنولوچيا المشتركة"[١٦٦].

اغتيال "رابين" في نوفمبر ١٩٩٥، وهزيمة خليفته "شيمون بيريز – Shimon Peres" في الانتخابات بعد ذلك بستة أشهر أدى بكثيرين في إدارة "كلينتون" للشك بأن العلاقة الخاصة لابد من أن تكون في خطر. "بنيامين نيتانياهو – Benjamin Netanyahu"، الصقر الذي درس في الولايات المتحدة والمؤيد القديم لمشروعات "بيجن" و"شامير" من أجل "إسرائيل الكبرى" لم يفعل أي شيء لإزالة هذه الشكوك عندما نأى بنفسه عن مبادرة "رابين" للسلام أثناء زيارته الأولى للبيت الأبيض في يوليو ١٩٩٦. فيما بعد كان "إيتامار رابينوفيتش – Itamar Rabinovich" سفير إسرائيل يقول: "خرج كلينتون من الاجتماع وهو يقول إن "نيتنياهو" كان يتصرف ويتكلم وكأنه لا يعرف أن "كلينتون" كان رئيسا لقوة عظمى صديقة، وأن "نيتانياهو" كان زعيما لدولة صغيرة في حاجة إلى دعم القوة العظمى"، كما أن رئيس الوزراء الإسرائيلي فشل في أن يجعل الرئيس يحبه عندما أشار في تهكم إلى الولايات المتحدة باعتبارها أصل استراتيچي ثابت بالنسبة لإسرائيل بعد ذلك بعام[١٦٧].

بالرغم من ذلك كان "نيتانياهو" يؤكد ضرورة إعادة صياغة العلاقة الخاصة بين الدولتين بحيث تعبر عن مصالح إسرائيل والولايات المتحدة المتباعدة قبل أن يصبح رئيسا للوزراء بوقت طويل. كان من رأيه في مايو ١٩٩٣ أن "واجب قادة إسرائيل هو محاولة إقناع الحكومة الأمريكية بأن من مصلحة الولايات المتحدة انتهاج سياسات

تكون متسقة مع مصالح إسرائيل وليس العكس"، مضيفا أن "الإدارة والكونجرس والرأى العام بخاصة" كانوا "مهيئين لهذا الاقتناع" وأن إسرائيل "لديها فرصة كافية لمحاولة إقناع كل منهم بعدالة قضيتها"(١٦٨).

صناع السياسة الأمريكية الذين لم ترق لهم فظاظة "نيتانياهو" كانوا يأملون أن يتم انتخاب "إيهود باراك – Ehud Barak" رئيسا للوزراء فى مايو ١٩٩٩. بعد شهرين من فوز ساحق قام بتنسيقه "چيمس كارڤيل – James Carville"، قام "باراك" بزيارة المنتصر لواشنطن حيث أكد التزامه بعملية السلام ووقع صفقة سلاح لخمسين قاذفة مقاتلة (F-16) تقدر بـ٥, ٢ بليون دولار، ولكنه لم ينس أيضا أن يُقَرِّعَ "كلينتون" لتوجهه "الراعى" مصرا على أن الولايات المتحدة ينبغى ألا تكون أبدا "الشرطى والقاضى والمحكم" فى علاقات إسرائيل مع العرب(١٦٩). قرار "باراك" بسحب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان فى مايو ٢٠٠٠ أظهر أنه كان على استعداد للمغامرة من أجل السلام، كما كان تلهفه على محادثات قمة مع "ياسر عرفات" بعد ذلك فى الصيف نفسه. بالرغم من ذلك، عندما جلس المسئولون الإسرائيليون والفلسطينيون والأمريكيون فى "كامپ ديڤيد" فى منتصف يوليو كان الشرر يتطاير، ليس لأن "عرفات" بدا متصلبا منذ البداية فحسب، وإنما أيضا لأن "باراك" تراجع فى آخر لحظة عن وعد بنقل ثلاث قرى من ضواحى القدس للسيادة العربية؛ ولأنه كان قد أكد للفلسطينيين أن العرض الإسرائيلى كان صفقة منتهية شعر "كلينتون" بالإهانة بسبب نكوص "باراك" وقال له مغضبا إنه قد أصابه التعب من معاملته له "مثل هندى غبى يطيع الأوامر"(١٧٠).

بالرغم من جهود "كلينتون" المكثفة، فشلت القمة، وعاد "باراك" و"عرفات" وسط اتهامات متبادلة واشتعل العنف فى الأرض المحتلة؛ وبنهاية العام كان عدد من قتلوا من الفلسطينيين يقترب من المائتين كما ابتليت إسرائيل بعمليات القنابل البشرية وكان "شارون" الذى خلف "نيتانياهو" زعيما لليكود يندد بعملية السلام التى ترعاها الولايات المتحدة وكيف أنها ليست سوى محاولة للتهدئة. فوز "شارون" على "باراك"

فى فبراير ٢٠٠١، والذى جاء بعد ثلاثة أسابيع من انتقال "چورچ دبليو بوش" إلى المكتب البيضوى دفع الإدارة الجديدة لإعادة تقييم علاقة أمريكا الخاصة بإسرائيل. بعد سبعة شهور، وبينما كانت واشنطن تستعجل تأمين دعم عربى لتحالف مضاد للإرهاب بعد الهجوم على مركز التجارة العالمى، صدمت إدارة "بوش" زعيم الليكود عندما أعلنت أن الولايات المتحدة كانت على استعداد لقبول إقامة دولة فلسطينية؛ وفى حديث عاطفى أثار ذكريات الهولوكوست شبه رئيس الوزراء الإسرائيلى "چورچ دبليو بوش" بـ"نيڤى تشمبرلين – Neville Chamberlain"، فكان "شارون" يرغى ويزبد فى ٤ أكتوبر قائلا: "لا تكرر الغلطة الشنيعة فى ١٩٣٨ عندما قررت الديمقراطيات الأوروبية المستنيرة التضحية بـ"تشيكوسلوڤاكيا" من أجل حل مؤقت ملائم.. لا تحاول استرضاء العرب على حسابنا". وبالرغم من أن "شارون" سارع بالاعتذار عن "هذه الاستعارة غير الموفقة" بعد وصف البيت الأبيض لأقواله أنها "ليست مقبولة"، كان بعض الإسرائيليين والمراقبين الأمريكيين يتساءلون ما إذا كانت الدولتان متجهتان نحو مواجهة أخرى مثل تلك التى كانت بين "إيزنهاور" و"بن جوريون" قبل خمس وأربعين سنة(١٧١).

الحرب الكونية على الإرهاب التى شنها البيت الأبيض فى خريف ٢٠٠١، على أية حال، دعمت الروابط بين الولايات المتحدة وإسرائيل اللتين كانتا مستهدفتين من "أسامة بن لادن" وحلفائه. وأثناء الأشهر التالية للحادى عشر من سبتمبر كان "بوش" و"شارون" يتبادلان المعلومات الاستخباراتية عن "القاعدة" و"حزب الله" وغيرهما من الجماعات الإرهابية، كما رفضا لقاء "عرفات" إذا لم، وإلى أن يثبت أنه قادر على لجم المتطرفين الفلسطينيين، كما كانا يتبادلان المذكرات حول أفضل السبل لمنع إيران من إحراز أسلحة نووية.

ولأن عددا كبيرا من مستشارى "بوش" كانوا يقيمون علاقات وثيقة مع المسئولين الإسرائيليين، كان بعض المراقبين يعتقدون أن دافع واشنطن الحقيقى لتغيير النظام فى بغداد لم يكن لمجرد جعل الشرق الأوسط مكانا صالحا للديمقراطية

فحسب وإنما لجعل العالم العربى أكثر أمانا بالنسبة لإسرائيل كذلك؛ وخلال ربيع ٢٠٠٦ أثار اثنان من علماء السياسة هما "جون ميرشيمر - John Mearsheimer" من جامعة شيكاغو و"ستيفن وولت - Stephen Walt" من هارفارد، ضجة كبيرة بزعمهما أن "AIPAC" وغيرها من جماعات المصالح الموالية لإسرائيل كانت هى الأسباب الرئيسية وراء حمى الحرب التى انتشرت من البيت الأبيض إلى "كاپيتول هيل" قبل ثلاث سنوات.

بعد مواجهة عاصفة عاتية من الانتقادات بما فى ذلك اتهامات مقبولة ظاهريا بأنهما كانا معادين سريين للسامية، قدم "ميرشيمر" و"وولت" تقييمهما "الواقعى" عن تلك العلاقة الخاصة بأن نشرا تقريرا بحجم كتاب بعنوان "اللوبى الإسرائيلى والسياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية" وذلك فى خريف ٢٠٠٧. يرى المؤلفان أن معاملة الدولة اليهودية الجائرة للفلسطينيين فى الأراضى المحتلة وأسلوبها فى اعتبار "الهجوم أفضل وسيلة للدفاع" فى تعاملها مع الأنظمة التى لا تعتمد عليها أو غير الصديقة فى لبنان وسوريا، يواصل تسميم العلاقة بين الولايات المتحدة والدول العربية. "ميرشيمر" و"وولت" يؤكدان أن الـ"AIPAC" وحلفاءها استطاعوا من خلال العمل السرى الذى لا يهدأ فى واشنطن أن يمنعوا صناع السياسة الأمريكية من ممارسة أى ضغوط دبلوماسية أو اقتصادية جادة على إسرائيل لكى تغير نهجها. وعندما ينظر المرء إلى ما هو أبعد من كل الغلو والاتهامات نجد أن المؤلفين قد اختارا أن يطرحا، بشكل علنى، سؤالا كان المسئولون الأمريكيون والإسرائيليون يطرحه كل منهما على الآخر فيما بينهم من وقت لآخر على مدى أكثر من عقد، السؤال هو: الآن... بعد أن جاءت الحرب الباردة وانقضت، هل الشراكة بين واشنطن وتل أبيب هى لصالح الطرفين بالفعل؟

وباختصار... بعد نصف قرن من مساعدة "هارى ترومان" لوضع الدولة اليهودية على الخريطة فإن العلاقة الخاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة يعاد هيكلتها، وبالأخص لأن أيا من الطرفين لا يمكن أن يقرر ما إذا كانت إسرائيل ينبغى

أن تكون شريكا أو مجرد وكيل. كل الإدارات من "ترومان" إلى "بوش" كانت تعتقد أنها تملك القوة الاقتصادية والعسكرية لإجبار إسرائيل على الموافقة على كل شيء بدءا من مشكلة اللاجئين الفلسطينيين إلى قضية الأسلحة النووية. من ناحية أخرى فإن كفاءة الـ"AIPAC" السياسية وقوة إسرائيل العسكرية أقنعت "ديڤيد بن جوريون" وخلفاءه بأن بلادهم ليست فى حاجة دائما لأن تفعل ما تريده أمريكا، فمن وجهة نظر واشنطن كانت إسرائيل أحيانا أصلا استراتيجيا ثابتا وفى أحيان أخرى كانت بمثابة دين أو مسئولية سياسية مستحقة؛ ومن وجهة نظر موسكو كانت العلاقة المعقدة بين الولايات المتحدة وإسرائيل تبدو وكأنها تقدم فرصة غير متكافئة لنشر النفوذ السوڤيتى وإضعاف المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط. على مدى العقود الخمسة التالية للحرب العالمية الثانية سوف يبلور قادة الولايات المتحدة سلسلة متوالية من المبادئ الاستراتيچية تثبت أن "الكرملين" كان على خطأ.

■ إذا كنت تريد الحرب.. عليك أن تتبنى مذهبا. المذاهب هى أكثر الطغاة التى يصبح الناس عرضة لهم، فهى تتغلغل فى منطق الإنسان.. وتخونه وتحوله ليصبح ضد نفسه؛ والمتحضرون من الناس هم الذين خاضوا حروبهم الشرسة من أجل المذاهب.

"وليم جراهام سمنر – W.Graham Sumner"

[الحرب – ١٩٠٣]

■ المنطقة التى تهددها القوات السوڤيتية الآن فى أفغانستان ذات أهمية استراتيچية، فهى تحتوى على أكثر من ثلثى النفط المصدر للعالم.

فليكن موقفنا واضحا تماما: إن أى محاولة من أى قوة أجنبية للسيطرة على الخليج الفارسى سوف تعتبر اعتداء على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية، وسوف يتم التصدى لهذا الاعتداء بكل الوسائل الممكنة بما فى ذلك القوة العسكرية.

"چيمى كارتر" يوضح مذهب " كارتر"

[١٩٨٠]

الفصل الرابع

قصة أربعة مبادئ

• أمن الولايات المتحدة الأمريكية والخطر السوفيتي والشرق الأوسط

بالرغم من الوعد بأن تكون إسرائيل هى الأصل الاستراتيچى الثابت لم يتحقق أبدا، فإن سعى واشنطن لمثل هذه العلاقة كان جزءا من رغبة أكثر طموحا؛ وهى بناء دفاع إقليمى ومنع التغلغل الشيوعى فى الشرق الأوسط بعد ١٩٤٥؛ ولأن صناع السياسة الأمريكية من "هارى ترومان" إلى "چيمى كارتر" كانوا مشدودين إلى مبدأ متطور عن الأمن القومى، يعتبر الاتحاد السوفيتى خطرا مدمرا على الولايات المتحدة ويملى عليهم اليقظة والانتباه للتخريب الشيوعى المدعوم من الروس، فإنهم شنوا حربا باردة ضد الكرملين من الشواطئ الغارقة فى الشمس شرق المتوسط إلى الجبال ذات القمم المغطاة بالثلوج فى أفغانستان. بعض المؤرخين يشيرون إلى خروج الجيش السوفيتى المتأخر من إيران فى ١٩٤٦ ووصوله المفاجئ إلى "كابول" فى ١٩٧٩ كدليل على سعى موسكو للسيطرة على الشرق الأوسط، كما يشير مؤرخون آخرون على أية حال إلى مبالغة قادة الولايات المتحدة فى رد فعلهم على الضغوط الروسية الدبلوماسية فى أواخر الأربعينيات، ومبالغتهم فى تقدير المسئولية السوفيتية عن مشاعر العداء للغرب الجياشة التى هزت العالم الإسلامى فى العقود التالية لذلك. وبينما لابد من أن تنتظر الإجابات النهائية بخصوص الدوافع السوفيتية المزيد من الكشف فى الأرشيفات الروسية، فإن الفحص المدقق لسجل الوثائق الأمريكية يؤكد أن اعتماد "أنكل سام" على وصفات مذهبية لعلاج الشعور بعدم الأمان الدبلوماسى، له جذور ضاربة فى عمق الماضى الأمريكى.

وباعتبارها جمهورية هشة فى عالم تسيطر عليه قوى إمبراطورية مثل بريطانيا العظمى، كانت الولايات المتحدة المستقلة حديثا تعتمد على البعد الجغرافى أكثر منها على الاستعداد العسكرى لكى تدافع عن نفسها جيدا فى القرن التاسع عشر؛ ولكن فى ديسمبر ١٨٢٣ دفع شبح التعاظم الأوروبى من شمال غرب "الپاسيفيك" إلى "كيب هورن" الرئيس "چيمس مونرو – **James Monroe**" إلى أن يربط سعى أمريكا نحو مجال نفوذ فى نصف الكرة الغربى بمبدأ يحمل اسمه. معلنا أن الدول المستقلة فى

العالم الجديد كانت "من الآن فصاعدا لن تعتبر عرضة للاحتلال فى المستقبل من قبل أى قوى أوروبية"، أعلن "مونرو" كذلك أن الولايات المتحدة سوف تعتبر أى محاولة من جانبها [القوى الأوروبية] لبسط نظامها إلى أى جزء من نصف الكرة هذا خطرا على سلامنا وأمننا"[1]. أكبر تحد لـ"**مبدأ مونرو**" جاء من البريطانيين الذين كانت مخططاتهم بالنسبة لـ"تكساس" و"ڤنزويلا" و"كوبا" قد فجرت صدامات من وقت لآخر مع الولايات المتحدة خلال تسعينيات القرن التاسع عشر. بنهاية القرن، كانت بريطانيا على أى حال قد فقدت اهتمامها بنصف الكرة الغربى وحولته إلى أمور أكثر إلحاحا وأكثر فائدة، مثل الحصول على امتيازات نفطية فى الخليج الفارسى وخطوط اتصال إمبراطورية شرق المتوسط[2].

كان من بين أوائل الأمريكيين الذين أدركوا قيمة الأهمية الاستراتيچية للشرق الأوسط بالنسبة للبريطانيين الكاتب "ألفريد تاير ماهان – **Alfred Thayer Mahan**" وهو مؤرخ بحرى كان كتابه عن القوة البحرية قد أصبح من أكثر كتب العصر الذهبى مبيعا؛ والحقيقة أنه – ودون قصد منه – هو الذى أعطى المنطقة اسمها الحديث. فى سنة ١٩٠٢ كتب "ماهان" وكأنه يتنبأ "الشرق الأوسط، إن كان لى أن أتبنى مصطلحا لم أره، سوف يكون ذات يوم فى حاجة إلى مالطة وجبل طارق"، عندما كان يفصل جهود بريطانيا التى لا تتوقف لكى تبقى على روسيا بعيدا عن شرق المتوسط والمحيط الهندى. كما توقع "ماهان" أن يوسع البريطانيون قاعدتهم البحرية فى عدن عند مدخل البحر الأحمر وإقامة نقاط مراقبة أمامية جديدة فى المشيخات الصغيرة على الخليج الفارسى. أما الحصن الأهم بالنسبة لـ"وايت هول" فى المنطقة فكان – بكل تأكيد – هو برزخ السويس الذى تشطره قناة تحت سيطرة بريطانية، ليس لأهميتها التجارية والعسكرية البالغة، فى نظر "ماهان"، مثيل فى نصف الكرة الشرقى[3]. وبالرغم من أن "وايت هول" استطاع أن يحقق معظم نبوءة "ماهان" خلال العقدين الأولين من القرن العشرين، فإن الحرب العالمية الثانية ألحقت ضررا كبيرا بالإمبراطورية البريطانية وغيرت ميزان القوى فى الشرق الأوسط بشكل أساسى.

وحيث إن "**مبدأ مونرو**" كان حجر الزاوية فى الدبلوماسية الأمريكية فى نصف الكرة الغربى على مدى أكثر من مائة عام، يبدو أنه أصبح، على نحو لا شعورى حجر مغناطيس فكرى لصناع السياسة الأمريكية الذين كانوا يسعون إلى الحفاظ على توازن الشرق الأوسط بعد ١٩٤٥. وعلى أمل تجنب حدوث فراغ فى منطقة كانت أهميتها الاستراتيجية تتزايد، وافق البيت الأبيض فى مارس ١٩٤٧ على أن يحمل على عاتقه التزامات بريطانيا القديمة فى اليونان وتركيا تحت "**مبدأ ترومان**"، مع تفهم بأن "وايت هول" سوف يحتفظ بمسئولية أولية للدفاع عن العالم العربى؛ وبعد عقد من المواجهات الإنجليزية العربية المروعة التى أضعفت أمن المنطقة واستدعت التطفل السوفيتى، كشف صناع السياسة الأمريكية عن "**مبدأ إيزنهاور**" الذى جعل من واشنطن العضو الرئيسى فى الشراكة الأنجلو أمريكية فى الشرق الأوسط. وعندما أجبرت مشكلات بريطانيا "وايت هول" فى النهاية على تصفية مراكزه الإمبراطورية المتقدمة فى شبه الجزيرة العربية والخليج الفارسى فى أواخر الستينيات جنح المسئولون الأمريكيون نحو ما أصبح يعرف بـ"**مبدأ نيكسون**" الذى تصور وكالات إقليمية مثل إيران والسعودية تخدم كشركاء صغار ضد الكرملين؛ وعندما أثبتت الأحداث فى إيران وأفغانستان أن الوكلاء الأمريكيين لم يستطيعوا القيام بالعمل أعلن الرئيس كارتر عن "**مبدأ كارتر**" مع التحية لـ"هارى ترومان"، كما أبلغ العالم فى يناير ١٩٨٠ بأن الولايات المتحدة لها مصالح أمنية حيوية فى الشرق الأوسط، على استعداد للقتال من أجلها، سواء كان لها وكلاء أو شركاء يعتمد عليهم أو لا.

●مبدأ ترومان وما بعده (١٩٤١-١٩٥٢)

عندما أدى "هارى ترومان" اليمين قبل خمس وثلاثين سنة، كان يتمنى أن يبقى البريطانيون شركاء يعتمد عليهم فى الشرق الأوسط. فى السنوات الأولى من الأربعينيات كانت إدارة "روزفلت" تفترض أن بريطانيا الخارجة من الحرب سوف تستمر فى القيام بدورها التاريخى كضامن رئيسى للأمن فى المنطقة، وكان "روزفلت" قد أبلغ رئيس الوزراء البريطانى "ونستون تشرشل - **Winston Churchill**" فى مارس

١٩٤٢ فى تلخيص للخطة الأنجلوأمريكية للمعركة ضد المحور بأن "المحيط الهندى والخليج الفارسى والبحر الأحمر وليبيا والبحر الأبيض المتوسط سوف تكون تحت مسئولية بريطانيا مباشرة"(٤). ولكن "هتلر – Hitler" جعل مهمة "تشرشل" بالغة الصعوبة، وسرعان ما كان المسئولون الأمريكيون يتساءلون ما إذا كان "وايت هول" قادرا على الاضطلاع بواجباته الإقليمية؛ وبعد زيارة لمصر فى مايو ١٩٤٣ كان "پاتريك هيرلى – Patric Hurley" أحد سفراء "روزفلت" الجوالين، يقول "لم تعد بريطانيا العظمى تمتلك وحدها مقومات القوة المطلوبة للحفاظ على دورها التقليدى باعتبارها صاحبة النفوذ السائد فى منطقة الشرق الأوسط"(٥).

تشخيص "هيرلى" أكده التآكل المضطرد فى وضع "وايت هول"، كما أكدته الدلائل الدقيقة على أن "الكرملين" كان يعد العدة فى هدوء لملء الفراغ الناجم. بدءا من أوائل ربيع ١٩٤٤ كان المراقبون الأمريكيون ينقلون فى تقاريرهم أن "السياسة السوفيتية فى العالم العربى يبدو أنها تهدف إلى تقليص النفوذ البريطانى فى المنطقة والاستحواذ على ميزان القوة"(٦). وبحلول يوم النصر "V-Day" كان خبراء الخارجية قد انتهوا إلى أنه إذا كانت بريطانيا لم تعد قادرة على منع الاتحاد السوفيتى من الصيد فى الماء العكر، فلربما كان ينبغى على الولايات المتحدة أن تضطلع بمسئولية "تعزيز التقدم الاقتصادى لشعوب الشرق الأوسط" و"حماية الحرية من التدخل والاستغلال الأجنبى"(٧).

ما من شك فى أن الاتحاد السوفيتى كان يسعى لمد نفوذه بطول الحد الجنوبى لروسيا بعد الحرب العالمية الثانية، وفى النهاية فإن "چوزيف ستالين – Joseph Stalin" الدكتاتور الوحشى الذى استبد بالسلطة فى موسكو على مدى عقدين تقريبا، أرسل الآلاف من الجنود السوفيت إلى شمال إيران فى ١٩٤١، وكان قد صعَّد الضغط الدبلوماسى مؤخرا على تركيا التى رفضت السماح للبحرية الحمراء بالمرور فى مضائق الدردنيل التى تصل البحر الأسود بالبحر الأبيض المتوسط؛ وبالرغم من أن طبيعة أهداف "ستالين" النهائية بقيت غير واضحة، فإن صناع السياسة الأمريكية،

بحلول عام ١٩٤٥، كانوا يفضلون توقع الأسوأ. "الإنجليز يعترفون على نحو معلن بأنهم لم يعودوا قادرين على الحفاظ على النظام فى الشرق الأوسط دون مساعدتنا"، كما كان المسئولون فى الخارجية يحذرون البيت الأبيض فى منتصف أكتوبر، و"روسيا السوفيتية تبدى اهتماما واضحا بالمنطقة" و"إذا لم ترد الولايات المتحدة بحزم وعلى نحو كاف" كما خَلُص خبراء "فوجى بوتوم": "فلربما تطور الوضع فى الشرق الأدنى على نحو قد يؤدى إلى حرب عالمية أخرى"(٨).

"لوى هندرسن – **Loy Henderson**" أحد مرجعيات الخارجية الأمريكية عن السياسة الخارجية السوفيتية، لخص متضمنات الأزمة المحدقة فى الشرق الأوسط، فى مذكرة مزودة برسم تخطيطى وجدت طريقها إلى المكتب البيضوى فى وقت باكر من العام الجديد. "الأهداف القومية للقوتين العظميين، أو الاتحاد السوفيتى وبريطانيا العظمى"، كما أشار فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٥ "تتصادم رأسا برأس فى هذه المنطقة". كان "وايت هول" ما زال "يحاول استخدام منطقة الشرق الأدنى كسد هائل أمام التدفق الروسى نحو الجنوب". من ناحية أخرى كان الكرملين "يبدو مصرا على تدمير الكيان الذى كانت بريطانيا العظمى تحتفظ به، وذلك لكى تتمكن القوة والنفوذ السوفيتى من الاندفاع دون عوائق عبر تركيا ومن خلال الدردنيل إلى البحر الأبيض المتوسط، وعبر إيران ومن خلال الخليج الفارسى إلى المحيط الهندى". كان "هندرسن" يعتقد أن واشنطن قد لا تستطيع أن تسمح لموسكو بالنجاح، وكما استنتج "فإن عائقين كانا قد أزيلا من أمام التوسع السوفيتى خلال السنوات الخمس الأخيرة، وهما بالتحديد ألمانيا فى الغرب واليابان فى الشرق"، و"بحكم الأحداث الأخيرة فى الشرق الأدنى تبدو روسيا الآن مركزة على إزالة عائق ثالث فى الجنوب"(٩). بالنسبة لـ"إدارة ترومان" و"إدارة مونرو" قبل مائة وعشرين عاما كانت قوة أوتوقراطية عالمية قديمة تبدو وكأنها تمثل خطرا على مصالح الولايات المتحدة الأمنية الحيوية فى منطقة كانت شعوبها فى طور الحصول على الاستقلال من الحكم الاستعمارى.

لم يستغرق الأمر وقتا طويلا لكى يتبلور إجماع فى واشنطن على أن الولايات المتحدة لابد من أن تؤسس دولة قادرة على إيقاف الزحف السوفيتى فى الشرق

الأوسط ومناطق أخرى من العالم. كان الاهتمام الأكثر إلحاحا على "إدارة ترومان" هو الوضع فى إيران حيث كان الجيش الأحمر يحكم قبضته على مقاطعة أذربيچان الواقعة على بعد مائتى ميل شمال غرب طهران، بالرغم من تأكيدات الكرملين على العكس. وعندما فشل "ستالين" فى الوفاء بتعهده إبان الحرب بسحب قواته من إيران قبل ٢ مارس، أطلقت الولايات المتحدة احتجاجا شديد اللهجة يندد بالاحتلال السوڤيتى الطويل باعتباره "انتهاكا فادحا" لسيادة إيران ووحدة أراضيها وينطوى على "معان خطيرة كثيرة"(١٠).

كان حامل ملف واشنطن أثناء الأزمة الإيرانية هو "چيمس اف. بيرنز – James F.Byrnes" (ديمقراطى من ساوث كارولينا) الذى كان قد رأس مكتب "روزڤلت" للتعبئة للحرب إلى أن عينه "ترومان" وزيرا للخارجية بعد يوم النصر بوقت قصير. بمجرد أن اتضح تجاهل السوڤيت للاحتجاج الأمريكى وأنهم كانوا يعززون الجيش الأحمر ويشجعون حركة يسارية انفصالية فى أذربيچان، كان "بيرنز" يخبط قبضة يده بكفه الأخرى وهو يهدر فى ٦ مارس "الآن سنعطيها لهم من خلال ماسورتى مدفع"(١١). الماسورة الأولى كانت قرارا من الأمم المتحدة، برعاية الولايات المتحدة، يعتبر وجود الكرملين فى شمال إيران خطرا يهدد السلام العالمى، أما الماسورة الثانية فكانت عبارة عن إشارات وتلميحات غائمة إلى أن الولايات المتحدة مستعدة لاستخدام القوة المسلحة لطرد السوڤيت من أذربيچان، وهو السيناريو الذى ولد موجة هائجة من العناوين التى كانت تتنبأ بحرب عالمية ثالثة. طلقة "بيرنز" المزدوجة، على أية حال، اتضح أنها كانت أقل تأثيرا من المفاوضات البارعة المحددة الهدف لرئيس الوزراء الإيرانى "أحمد قاڤام – Ahmad Qavam" الذى طار إلى موسكو فى منتصف مارس ليقنع "الكرملين" بسحب كل قواته من أذربيچان مقابل تطمينات بتمكين السوڤيت من الوصول إلى احتياطيات النفط.

وبالرغم من أن كثيرا من الباحثين قد فسروا مؤخرا الانسحاب السوڤيتى فى ٦مايو ١٩٤٦ باعتباره دليلا على أن أهداف السوڤيت كانت محدودة نسبيا، فإن

"ترومان" وكبار مستشاريه كانوا يعتبرون الوجود الممتد للجيش الأحمر فى شمال إيران عملية جس نبض تسبق هجوما روسيا أشمل فى الشرق الأوسط؛ وكان "چورچ كينان – George Kennan" القائم بالأعمال الأمريكى فى موسكو (وهو شخص ذو بصيرة نافذة)، قد حذر واشنطن فى ٢٢ فبراير عندما وصلت المواجهة السوڤيتية الأمريكية فى إيران إلى ذروتها، فى "برقيته الطويلة" الشهيرة بأن "نظرة الكرملين العصابية للشئون العالمية" و"الشعور السوڤيتى والغريزى بعدم الأمان" كان من المرجح أن يسببا متاعب شديدة لدول الجوار الأخرى مثل تركيا. بعد ذلك بستة أشهر كشف "ستالين" عن اقتراح يدعو إلى سيادة سوڤيتية تركية مشتركة على الدردنيل؛ وخشية أن تكون موسكو مستعدة للجوء إلى القوة المسلحة إذا ظلت المضايق مغلقة، طلب الأتراك المساعدة من بريطانيا والولايات المتحدة[١٢].

الشعور الأمريكى التقليدى والغريزى بعدم الأمان ساعد على تأكيد أن صناع السياسة الأمريكيين كانوا يتبنون سيناريو الوضع الأسوأ فى تعاملهم مع الطلب التركى؛ وفى اجتماع فى المكتب البيضوى فى ١٥ أغسطس انتهى "ترومان" وكبار مستشاريه إلى أن "الهدف الأولى للاتحاد السوڤيتى كان هو الاستيلاء على تركيا". مستبعدين احتمال أن يكتفى السوڤيت بضمان المرور الآمن من الدردنيل، كان القلق يساور المسئولين الأمريكيين من أن نصرا روسيا فى تركيا سيجعل "من الصعوبة البالغة، إن لم يكن من المستحيل، أن يمنعوا الاتحاد السوڤيتى من السيطرة على اليونان وعلى كل الشرق الأدنى والأوسط"[١٣]. كان صناع السياسة فى المملكة المتحدة مصرين مثل نظرائهم الأمريكيين على منع التسلل السوڤيتى إلى تركيا وغيرها من الأماكن فى المنطقة؛ وبالتنسيق بينهما نصح "وايت هول" و"البيت الأبيض" الأتراك بأن يرفضوا لعبة القوة الإنفرادية التى يقوم بها الكرملين، واقترحا بشكل معلن ن يتم تقرير مصير المضائق التركية فى مؤتمر دولى تحضره كل القوى البحرية بما فيها بريطانيا والولايات المتحدة[١٤].

على الرغم من السيناريوهات الغامضة التى كانت دائرة على جانبى الأطلنطى، انتهت الأزمة التركية السوڤيتية بتذمر أكثر منها بضربة عنيفة، وعلى الرغم من أن

موسكو استمرت فى إزعاج أنقرة دبلوماسيا، لم يحاول "ستالين" المرور عنوة من الدردنيل، ولا احتل الجيش الأحمر شرق تركيا؛ بل إن "ستالين" - حتى - لم يبد أى رغبة فى حضور مؤتمر دولى بخصوص المضائق لأنه كان متأكدا من أنه لن ينجح أمام تصويت الولايات المتحدة وبريطانيا. مع اقتراب نهاية العام كان يبدو أن الدعم الاقتصادى والدبلوماسى الأمريكى بالإضافة إلى المساعدة العسكرية البريطانية قد هدأت من قلق الأتراك. بالرغم من ذلك كانت "إدارة ترومان" على دراية جيدة بأن سياستها فى تركيا وفى المنطقة ككل معلقة على شريك واشنطن المتردد فى لندن، "وإذا ظهرت ظروف تكون فيها بريطانيا فى وضع لا يمكنها من تقديم السلاح الضرورى والعتاد العسكرى" للأتراك أو جيرانهم، كما لاحظت وزارة الخارجية الأمريكية فى ٢١ اكتوبر ١٩٤٦، فسوف يكون على الولايات المتحدة أن "تفكر فى تقديم إمدادات معينة على الفور"[١٥].

مثل هذه الظروف ظهر بعد أشهر قليلة على الضفة الأخرى من بحر "إيجه" فى أثينا حيث أجبرت أزمة سياسية متفاقمة واشنطن على الاضطلاع بكل مسئوليات لندن تحت شعار "**مبدأ ترومان**"، وبحلول خريف ١٩٤٦ كانت اليونان متورطة فى حرب أهلية دموية بين جماعات مسلحة يقودها الشيوعيون وحكومة يمينية تسلحها وتمولها بريطانيا. فى أوائل ١٩٤٧ أبلغ المسئولون فى المملكة المتحدة "إدارة ترومان" بأن المشاكل الاقتصادية الحادة كانت تستدعى تخفيضا كبيرا فى دور لندن فى أثينا، كما طلبوا من واشنطن "تقديم معونة مالية لليونان بحجم يكفى لسد احتياجاتها الدنيا مدنيا وعسكريا"[١٦]. فى الوقت نفسه كان صناع السياسة الأمريكيون، الذين كانوا يرقبون الوضع المتدهور على مدى أكثر من عامين يعترفون بينهم وبين أنفسهم بأن معظم مشكلات اليونان كانت من إفراز الداخل وليست مستوردة من موسكو؛ ولكن المسئولين الأمريكيين كانوا على دراية كذلك بأن انتصارا يساريا فى الحرب الأهلية اليونانية سوف يترجم على نطاق واسع على أنه انتصار للكرملين.

فى ١٧ فبراير أبرق "مارك ايثردج - **Mark Ethridge**" ممثل الولايات المتحدة فى فريق المراقبين التابع للأمم المتحدة الموجود فى أثينا، إلى "فوجى بوتوم" يقول: "إن

السوڤيت يشعرون بأن اليونان تفاحة ناضجة على وشك السقوط فى أيديهم فى غضون أسابيع قليلة"[١٧]؛ ولم يكن "دين آتشسون - **Dean Acheson**" وكيل الخارجية ليوافق على ما هو أكثر من ذلك. "إن استسلام اليونان للسيطرة السوڤيتية بسبب افتقاد دعم من الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى" كما أشار بأسى فى ٢١ فبراير، "قد يتمخض فى النهاية عن ضياع كل الشرق الأدنى والشرق الأوسط والشمال الأفريقى[١٨].

رئيس "آتشسون" كان متشائما بالدرجة نفسها؛ وفى ٢٤ فبراير كان وزير الخارجية "چورچ مارشال - **George Marshall**" يتحسر لأن انسحاب "وايت هول" من اليونان "كان بمثابة تخلى بريطانيا عن الشرق الأوسط بمتضمنات واضحة لمن سيخلفهم هناك"[١٩]. بعد ثلاثة أيام دعا "هارى ترومان" زعماء الكونجرس إلى البيت الأبيض حيث أحاطهم "مارشال" و"آتشسون" بالموقف الغامض شرق المتوسط، وحيث أذهل "آتشسون" المشرعين بقوله إن "الضغط السوڤيتى على المضايق وعلى إيران وعلى شمال اليونان أوصل البلقان إلى نقطة تجعل اختراقا سوڤيتيا محتملا جدا قادرا على فتح ثلاث قارات للتغلغل السوڤيتى" و"مثل تفاح فى برميل به تفاحة معطوبة، فإن الفساد الموجود فى اليونان قد ينقل العدوى إلى إيران وكذلك إلى كل الشرق"[٢٠]. والأمر كذلك، أبلغ الرئيس زائريه بأنه "قرر تقديم المساعدة لكل من اليونان وتركيا"، وعبر عن أمله "فى أن يقدم الكونجرس الوسائل التى تضمن أن تكون هذه المساعدة كافية وأن تأتى فى التوقيت المناسب"[٢١].

بعد ظهيرة ١٢ مارس ألقى "ترومان" كلمة، فى ثمانية عشرة دقيقة، أمام جلسة مشتركة للكونجرس معلنا أن الأمن القومى الأمريكى كان يتطلب احتواء الاتحاد السوڤيتى؛ ومعلنا ما أصبح يعرف بـ"**مبدأ ترومان**" تعهد الرئيس بأنه "لابد من أن تكون سياسة الولايات المتحدة هى دعم الشعوب الحرة التى تقاوم الخضوع لقلة مسلحة أو لضغوط خارجية"، وحصل على موافقة سريعة من الكونجرس على معونة عسكرية واقتصادية بما قيمته ٤٠٠ مليون دولار لدعم القوات المناهضة للشيوعية فى

اليونان وتركيا[٢٢]، ثم قامت "إدارة ترومان" بتوسيع الأجندة فى أوائل يونيو باقتراح برنامج للإنعاش الأوروبى بتكلفة تصل إلى بلايين الدولارات، وهو ما أصبح يعرف فيما بعد بـ"مشروع مارشال" (Marshall Plan)، وفى ٢٥ يونيو أقر الكونجرس قانون الأمن القومي، وهو معلم تشريعى أنشئ بموجبه مجلس الأمن القومى National Security Council (NSC) ووكالة المخابرات المركزية Central Intelligence Agency (CIA) وهو الذى وضع الأساس لإنشاء وزارة واحدة للدفاع، وبحلول خريف ١٩٤٦، كان "**مبدأ ترومان**" وغيره من مكونات الأمن القومى فى مكانها الصحيح فى الحرب الباردة[٢٣].

فى منتصف أكتوبر دعا كبار مستشارى "ترومان" صناع السياسة البريطانيين إلى جلسات حوار فى "البنتاجون" للتفكير فى أفضل السبل لاستخدام هذه المكونات الجديدة فى الشرق الأوسط؛ ومع تقدم المباحثات بدأ إجماع تقريبى فى التبلور. أوراق وزارة الخارجية كانت تشير إلى أن "اليونان وتركيا، من الناحية السياسة والاستراتيچية، هما الحصون الشمالية الغربية للشرق الأوسط، وأن المسئولية الرئيسية لمساعدة هذه الدول تقع الآن على الولايات المتحدة"؛ ومن جانبهم فإن خبراء التخطيط الاستراتيچى البريطانيين سيكون لديهم الحرية "للتركيز على تلك النقاط فى الشرق الأوسط، التى هى اهتمامنا الرئيسى" مثل حقول النفط فى الخليج الفارسى وقناة السويس[٢٤]، كان هذا الترتيب جذابا بالنسبة للأمريكيين الذين كانوا مشغولين بمقاومة "الكرملين" فى أوروبا وآسيا؛ ولأنهم كانوا قد وضعوا فى اعتبارهم أن المصالح الغربية الحيوية فى الشرق الأوسط جعلت "من الضرورى احتواء التوسع السوڤيتى فى المنطقة"، كان المسئولون فى وزارة الخارجية يأملون فى وضع بريطانيا موضع الشريك الرئيسى "مع مسئولية أولية عن الأمن العسكرى" فى كل العالم الإسلامى[٢٥]. بعد بلورة الأوراق الخاصة بكل الأوضاع من أفغانستان إلى اليمن، أكد الوفدان رغبتهما المشتركة فى "انتهاج سياسات متوازية" وأن "يتعاونا ويدعم كلاهما الآخر فى المنطقة"[٢٦].

الشراكة الأنجلو أمريكية التى ألمح إليها **"مبدأ ترومان"**، وتبلورت أثناء محادثات "البنتاجون"، ستكون موضع اختبار فى الشهور التالية. مضطلعا بدور الشريك الأكبر المظلوم، كان "وايت هاوس" يشكو على مدار عام ١٩٤٨ وأوائل ١٩٤٩ من أن الدعم الأمريكى لإقامة دولة إسرائيل كان يضعف الأمن الغربى فى المنطقة بإغراء العرب بأن يطلبوا مساعدة السوفيت؛ ولاعبا دور الشريك الأصغر المحبط كان رد "فوجى بوتوم" أن عدم مرونة البريطانيين فى التعامل مع طموحات المسلمين فى الحكم الذاتى، هو على نفس الدرجة من الأهمية لدفع القادة الموالين للغرب فى مصر وإيران نحو الكرملين، وعندما اجتمع خبراء الولايات المتحدة والمملكة المتحدة فى واشنطن فى نوفمبر ١٩٤٩ كان مساعد وزير الخارجية الأمريكى "چورچ مكچى – George McGhee" يتساءل ما إذا كان ذلك هو الوقت الملائم لإعادة تقييم شاملة للوضع المتفجر فى الشرق الأوسط، وكان رد نظيره البريطانى السير "مايكل رايت – Michael Wright" هو "إذا اختارت الولايات المتحدة الاضطلاع بمسئولية أكبر فى المنطقة، فإن المملكة المتحدة سوف ترحب بهذا القرار باعتباره قرارا من أجل المصلحة المشتركة"(٢٧).

كانت دعوة "مكچى" لإعادة النظر فى أسلوب تعامل الولايات المتحدة مع ملف الشرق الأوسط مجرد جزء من عملية تقييم أوسع لسياسة الأمن القومى، بدأت فى التبلور مع نهاية العام. ويسبب الإحباط الناجم عن سلسلة من الانتكاسات غير المتوقعة فى النصف الثانى من ١٩٤٩ (امتلاك الكرملين لأسلحة نووية فى أغسطس، والكساد الاقتصادى الأمريكى المفاجئ والحاد فى سبتمبر وانتصار الشيوعية فى الصين فى أكتوبر)، كان كثيرون فى واشنطن يخشون انقلاب المد بحدة فى الحرب الباردة ضد الولايات المتحدة. كان "هارى ترومان" من بين الذين أصابهم الاضطراب فأصدر تعليماته فى ٣١ يناير ١٩٥٠ لوزارتى الخارجية والدفاع "بالقيام بإعادة دراسة أهدافنا فى كل من السلم والحرب وتأثير هذه الأهداف فى خططنا الاستراتيجية"(٢٨).

بعد عشرة أسابيع من شحذ العقول الذى لم يتوقف أرسل "البنتاجون" و"فوجى بوتوم" إلى الرئيس "ترومان" فى ٧ أبريل تقريرا من مجلس الأمن القومى يحمل رقم "NSC-68" مكونا من ٦٦ صفحة يوصى بمضاعفة الإنفاق الأمريكى على الدفاع أربع مرات بهدف عولمة سياسة الاحتواء التى جاءت خطوطها العامة فى "**مبدأ ترومان**". وحيث إن التقرير كان معدا باعتباره خطة لمبادرة استراتيجية لكسب الحرب الباردة، فقد كان يدعو إلى التطوير السريع لأسلحة نووية وإلى حرب نفسية ضد الشيوعية فى الداخل والخارج وإنشاء تجمعات دفاعية إقليمية مضادة للشيوعية على نمط منظمة حلف شمال الأطلنطى "NATO" الذى كان قد أنشئ حديثا. ورغم أنهم ذكروا إيران وتركيا واليونان، فإن من كتبوا التقرير "NSC-68" أكدوا أن "الجهود السوفيتية الآن موجهة نحو السيطرة على منطقة أوراسيا" كما نبهوا إلى أن الكرملين ربما كان يعد العدة "للتقدم نحو المناطق الغنية بالنفط فى الشرقين الأدنى والأوسط"(٢٩).

كان المأزق الذى واجه المسئولين الأمريكيين فى ربيع ١٩٥٠ وهم يعيدون النظر فى سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة هو كيف يمكن تقوية الدول العربية ذات المواقع الاستراتيجية والأهمية الإقتصادية دون إذكاء سباق تسلح فى الشرق الأوسط وتعريض أمن إسرائيل للخطر. وفى دراسة برقم NSC-65 سرى للغاية" عن متطلبات الأمن فى الشرق الأوسط كانت قد استكملت قبل عشرة أيام فقط من صدور "NSC-68" رحب مستشارو البيت الأبيض بمشروعات "وايت هول" لتزويد مصر بالسلاح كجزء من شراكة عسكرية إنجليزية مصرية للمساعدة فى الدفاع عن الشرق الأوسط فى حال أى عدوان سوفيتى"، ولتجنب ظهور أى خلل فى توازن القوى فى المنطقة ربما يغرى العرب بالهجوم على إسرائيل، أوصى التقرير "NSC-65" بأن تعمل واشنطن بالتنسيق مع لندن لتنظيم تدفق العتاد العسكرى على المنطقة بكل دقة(٣٠). كان "ترومان" الذى استعرض التقرير "NSC-65" فى اجتماع للحكومة فى ١٤ أبريل "كان شديد الاهتمام بهذه الفكرة(٣١). بتوسيع مجال اقتراح لكى يشمل كل من المواد العسكرية البريطانية المقررة للعرب والأسلحة الفرنسية المقررة لإسرائيل كشف

الدبلوماسيون الأمريكيون عن مشروع متعدد الجوانب فى أول مايو مخصص لتقليل خطر اشتعال المنطقة؛ وفى ٢٥ مايو ١٩٥٠ وقعت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الإعلان الثلاثى الذى تعهدت بموجبه القوى الثلاث بدعم مبادئ منع التسلح والسلامة الإقليمية فى الشرق الأوسط[٣٢].

نشوب الحرب الكورية بعد ذلك بشهر، قوى دعم "كابيتول هيل" لبرامج الأمن القومى الباهظة التى جاءت فى التقرير "NSC-68" كما أثار الاهتمام فى البيت الأبيض مجددا حول الاعتداء السوفيتى المحتمل من الخليج الفارسى إلى شرق المتوسط. ولأنهم كانوا قد شهدوا عملاء الكرملين يشنون هجوما مفاجئا على كوريا الجنوبية، أحد أكبر الأنظمة الموالية لأمريكا فى المنطقة، فإن المسئولين فى "إدارة ترومان" كانوا فى شك ما إذا كان المطلوب شيئا ما أهم من الإعلان الثلاثى لضمان الأمن والاستقرار فى الشرق الأوسط، حيث كانت المشاعر المعادية للغرب تنتشر متأججة؛ وفى أواخر أكتوبر كان صناع السياسة فى المملكة المتحدة والولايات المتحدة يناقشون مبادرة دفاع ضد السوفيت فى المنطقة ستعرف فى النهاية باسم قيادة الشرق الأوسط **Middle East Command (MEC)**. مشيرين إلى أن "أيا كان المتحكم فى الشرق الأوسط، فهو الذى يتحكم فى إمكانية الوصول إلى ثلاث قارات"، طلب السير "أوليفر فرانكس – **Oliver Francs**" السفير البريطانى والفيلد مارشال "وليم جى. سليم – **William J.Slim**" رئيس الأركان الإمبريالية مساعدة الولايات المتحدة لتكون مصر شريكا صغيرا فى تحالف ثلاثى يمكن أن يصنع حاجزا أمام الغزو الإسرائيلى يصعب اختراقه[٣٣]؛ وأبدى الجنرال "عمر برادلى – **Omar Bradley**" رئيس هيئة الأركان الأمريكية المشتركة **Joint Chiefs of Staff (JCS)**، اهتماما كبيرا بخطة "وايت هول" التى تركز على مصر من أجل الأمن الإقليمى، ولكن الجنرال "لوتون كولينز – **Lawton Collins**" بعين على الصراع المتصاعد فى سوريا وأخرى على التوتر الناشئ فى أوروبا، كرر قوله "إن الشرق الأوسط" من وجهة نظر البنتاجون "مسئولية بريطانية فى حال نشوب حرب ساخنة[٣٤].

التقى المسئولون البريطانيون والأمريكيون مرة أخرى فى أوائل ١٩٥١ لبحث إنشاء قيادة شرق أوسطية "MEC" على غرار الـ"NATO"، كان التصور أن تتكون من "دائرة داخلية" من مصر ودول عربية أخرى تحت قائد أعلى بريطانى، تكون مرتبطة بدائرة خارجية أوسع ممتدة على الحدود الروسية الجنوبية من اليونان إلى إيران. "إدارة ترومان" التى كانت مقتنعة بأن هذه المبادرة البريطانية الجديدة يمكن أن تساعد فى "بناء إرادة المنطقة لمقاومة الشيوعية" بالعمل على تقوية "كل إرادة الشرق الأدنى لتدافع عن نفسها وأن تنضم إلى الغرب، وافقت على تقديم كميات متواضعة من المساعدات الأمريكية العسكرية للدول العربية الرئيسية بموجب برنامج أمريكا الجديد للأمن المتبادل "Mutual Security Program"[٣٥].

بالرغم من تشكيل جماعة عمل إنجليزية أمريكية فى يونيو لتكون مسئولة عن بث الحياة فى القيادة الأمنية الإقليمية الجديدة، فإن القيادة الشرق أوسطية "MEC" ولدت ميتة فى ديسمبر. الضربة القاضية للمنظمة جاءت من المصريين فى منتصف أكتوبر، الذين اعتبروا اهتمام الولايات المتحدة وبريطانيا وقلقهما بشأن الخطر السوفيتى بمثابة ورقة تين مفتعلة لإخفاء خطر أكبر على الاستقلال العربى وهو الاستعمار البريطانى. رفض مصر القاطع لقيادة الشرق الأوسط "MEC" وطلبها من "وايت هول" الجلاء عن القاعدة العسكرية المستقرة على قناة السويس - كما استخلص مجلس الأمن القومى قبل أعياد الميلاد بيومين - كان دليلا على "التداعى المتسارع لقدرة المملكة المتحدة على الحفاظ على المصالح الغربية والدفاع عنها فى مناطق أخرى من الشرق الأوسط"، الأمر الذى كان يشير إلى "اضمحلال قدرة الولايات المتحدة كقوة عالمية عاجلا قبل أجلا"؛ "ولتشككهم فى قدرة الولايات المتحدة أو بريطانيا - أو فى قدرتهما معا - على الحفاظ على المصالح الغربية والدفاع عنها فى المنطقة بأسلوب القرن التاسع عشر" كان مستشارو "ترومان" يعتقدون أن "الغرب عليه أن يعمل... من أجل صداقة من نوع جديد" مع دول الشرق الأوسط[٣٦].

لن يأتى العام الجديد على أية حال سوى بخمر قديم فى آنية جديدة! على أمل تهدئة وتسكين جرح قديم مع القادة العرب الذين أثارت فيهم كلمة "قيادة" ذكريات

الاستعمار البريطاني أعاد البريطانيون تسمية القيادة الشرق أوسطية في يونيو ١٩٥٢ ليصبح اسمها منظمة دفاع الشرق الأوسط Middle East Defence Organization (MEDO)[٣٧] وبصرف النظر عن المسميات والتلاعب بالعناوين، كان الهدف الرئيسي لـ"MEDO" مثل سابقتها هو احتواء الاتحاد السوفيتي، وهو الشيء الذي كان يسرى سريان القول الأجوف في مسامع العرب الذين كانوا يعتقدون أن لديهم ما يخشونه من "وايت هول" أكثر مما يخشونه من الكرملين. بعد ذلك، في فصل الصيف نفسه كان كبار المسئولين الأمريكيين يعترفون بأن أمن المصالح الغربية في الشرق الأوسط يمكن أن يتطلب، ليس تغيير المسميات فحسب، وإنما عكس الأدوار الإنجليزية الأمريكية كذلك. مشيرا إلى أن بعض أجزاء المنطقة كانت تذكره إلى حد كبير بالوضع في الصين، نَبَّه "هنرى بيرود – Henry Byrode" مساعد وزير الخارجية، الرئيس "ترومان" في ٨ أغسطس إلى أن "هناك فرصة كبيرة.. فقد نرى انسحابا عاما للبريطانيين من الشرق الأوسط" قبل ظهور المنظمة الدفاعية الجديدة إلى حيز الوجود"، مضيفا "وإذا حدث ذلك فقد تواجه الولايات المتحدة بعض القرارات المهمة حول ما يمكن القيام به لكى نساعد في ملء الفراغ الذي سينجم عن ذلك، ونحافظ على وضع الولايات المتحدة في المنطقة ونقويه". منزعجا بسبب مؤشرات على عدم الاستقرار في دلتا النيل والخليج الفارسي، "وافق "ترومان" على هذا التحليل العام، معبرا عن اعتقاده أن الولايات المتحدة كانت ستواجه مثل هذه الظروف عاجلا"[٣٨].

وحيث إنه كان قد قرر عدم السعى إلى إعادة انتخابه في نوفمبر، لا شك أن هذا الديمقراطي الميزورى كان مستريحا لمعرفة أن غيره هو الذي سيكون مسئولا عن ملء الفراغ في الشرق الأوسط، إلا أن الرجل الذي كان قد صاغ "مبدأ ترومان" في مارس ١٩٤٧ كان يساوره قلق كثير. بعد تحرك جسور دام خمس سنوات لاحتواء الكرملين في اليونان وتركيا وإيران، كانت واشنطن تبدو منذورة للاطلاع بمسئوليات لندن لمنع التوسع السوفيتي في العالم العربي كذلك، وبحلول عام ١٩٦٠ ستحل الولايات المتحدة محل بريطانيا العظمى لتكون العضو الرئيسي في الشراكة الأنجلو أمريكية في الشرق الأوسط.

●● صعود وسقوط "مبدأ إيزنهاور" (١٩٥٣-١٩٦٠)

لأن "دوايت إيزنهاور" و"چون فوستر دالاس" كانا شديدى الانتقاد لإدارة "ترومان" بسبب وسوستها المفرطة إزاء المبادرات البريطانية فى الشرق الأوسط وردودها القاصرة على الخطر السوڤيتى، فإنهما بدآ فترة إدارتهما متلهفين على تأسيس دور تكون فيه الولايات المتحدة الشريك الأكبر فى المنطقة. كان الرجلان يعتمدان بداية على أن هذا الهدف يمكن أن يتحقق بسهولة بمواصلة السعى نحو إقامة برنامج الدفاع الإقليمى الذى أقدم عليه سلفهما، ولكن "جمال عبد الناصر" أعلن فى منتصف مايو أن العرب كانوا يعتبرون فكرة "MEDO" قد ولدت ميتة. نقل "دالاس" إلى "إيزنهاور" أن پاكستان وتركيا فقط كانتا الدولتان الوحيدتان المهتمتان بوجود NATO شرق أوسطى تقوده بريطانيا كما أبلغه فى ١ يونيو ١٩٥٣ أن "فكرة MEDO القديمة كانت فى حكم المنتهية" وأوصى بـ"مفهوم جديد للدفاع" يعتمد على "مشاركة الشعوب الأصلية فيه"[٣٩].

عملت إدارة "إيزنهاور" على مدى الشهور الثمانية عشرة التالية على إقناع "وايت هول" لكى يحول سياسته للأمن القومى من الدفاع فى العمق بمركز عربى إلى دفاع محيطى الشكل بامتداد الحد الشمالى من تركيا إلى باكستان؛ ولكن سير "ونستون تشرشل" الذى كان قد عاد رئيسا لوزراء بريطانيا فى أواخر ١٩٥١ كان أقل اهتماما بتقوية تركيا وباكستان من تمسكه بالمراكز البريطانية الإمپريالية الخارجية على مسافة أبعد جنوبا فى الخليج الفارسى وبرزخ السويس، وبالمثل كان "أنتونى إيدن – Anthony Eden" يؤكد أن بريطانيا لن تتخلى عن قواعدها العسكرية فى مصر دون تأكيدات صريحة من "عبد الناصر" لحقها الباقى بالدفاع عن قناة السويس[٤٠].

عندما وصل "تشرشل" و"إيدن" إلى البيت الأبيض فى يونيو ١٩٤٥ كان قد حدث تغير فى المبدأ الاستراتيچى لـ"وايت هول" أقنعهما بالتفكير فى تصفية بطيئة لوضع بريطانيا فى مصر، وكان المخططون العسكريون البريطانيون قد أدركوا أن تطوير القنبلة الهيدروچينية قد جعل من القواعد الاستراتيچية الكبيرة مثل تلك فى

السويس عرضة للهجوم المدمر، مما يجعلها غير صالحة بالفعل. ليلة مغادرته إلى واشنطن أبلغ "تشرشل" الحكومة بأن "احتياجاتنا الاستراتيجية فى الشرق الأوسط تغيرت جذريا بتطور الأسلحة النووية الحرارية"[٤١]، وبالرغم من ذلك لم يكن البريطانيون على استعداد للانصراف تماما من المنطقة كما أبلغ "إيزنهاور"، وقال غاضبا "لابد من تجنب الموقف الذى قد يعتقد فيه أن الولايات المتحدة قد طردت المملكة المتحدة من مصر"[٤٢]. باختصار، توصل "إيزنهاور" و"تشرشل" إلى ترتيب يحفظ ماء الوجه تقوم فيه بريطانيا "بسحب كل قواتها العسكرية" من السويس فى غضون أربعة وعشرين شهرا بشرط أن يوافق المصريون على عملية "صيانة مستمرة للقاعدة عن طريق مقاولين مدنيين" تستخدمهم الشركات البريطانية. هذه التسوية التى تمت فى اللحظة الأخيرة كانت هى المكون الرئيسى فى اتفاق قاعدة قناة السويس الذى تم توقيعه بالأحرف الأولى من المفاوضين البريطانيين والمصريين فى ٢٧ يوليو ١٩٥٤ والتصديق عليه بعد أربعة أشهر[٤٣].

كانت التسوية الإنجليزية المصرية أخبارا طيبة بالنسبة للبيت الأبيض حيث كان "إيزنهاور" و"دالاس" يأملان أن يساعد اتفاق "وايت هول" على سحب قواتهم من السويس فى تمهيد الطريق أمام نظام الدفاع الإقليمى مدعوم من الولايات المتحدة. الخطوة الملموسة الأولى فى هذا الاتجاه جاءت فى ٢ أبريل ١٩٥٤ عندما وقعت تركيا وباكستان اتفاقية ثنائية للأمن المتبادل مكتوبة على نحو غير واضح، فقد توصل محللو أجهزة المخابرات الأمريكية فى ٢٢ يونيو إلى أن "الاتفاقية التركية الباكستانية تضع أساسا جديدا لبناء تجمع دفاعى فى الشرق الأوسط غربى التوجه، وسيكون أقل عرضة لأن يوصم بأنه تحت السيطرة الغربية المباشرة، مما كانت عليه قيادة الشرق الأوسط "MEC" ومنظمة دفاع الشرق الأوسط "MEDO"[٤٤]. هذه الرؤية لم تكن غائبة عن الذين كتبوا تقرير مجلس الأمن القومى "NSC-5428"، وهو عملية مراجعة سرية للغاية لسياسة الولايات المتحدة، وافق عليه "إيزنهاور" بعد شهر؛ وبحسب هذا التقرير فإن أفضل استراتيچية للمنطقة كانت تعتمد على "الحزام الشمالى" الذى يضم تركيا وباكستان وإيران والعراق"[٤٥].

وبالرغم من أن نظام الدفاع الخطى المسيطر عليه محليا كما بينه التقرير "NSC-5428" كان من الناحية النظرية يبدو وسيلة مؤثرة جدا فى دعم المصالح الغربية فى الشرق الأوسط، فإن الخلافات التكتيكية بين بريطانيا والولايات المتحدة والخصومات المريرة بين الأتراك والإيرانيين والعرب جعلت تطبيق مشروع الحزام الشمالى أشبه بكابوس دبلوماسى. بحثا عن وسائل لإعادة تأكيد حضورهم وإعادة بناء كبريائهم فى المنطقة على أثر قرار التخلى عن قاعدتهم العسكرية فى السويس، تجاهل البريطانيون النصيحة الأمريكية بأن يظلوا بعيدين، وتوجهوا بدل ذلك نحو عضوية رسمية فى المنظمة الأمنية الإقليمية الناشئة[٤٦]. وبتشجيع هادئ من لندن بدأ العراقيون يهونون من مفهوم الحزام الشمالى فى خريف ١٩٥٤ ويتحركون نحو حلف أمنى عربى جماعى موجه ضد إسرائيل وليس روسيا[٤٧]. شاه إيران الذى كانت مملكته تمثل الجسر البرى الچيوپوليتكى الوحيد المتاح الذى يمكن أن "يغلق الثغرة التركية الپاكستانية" الممتدة من المحيط الهندى إلى بحر قزوين أبلغ واشنطن فى ١٥ ديسمبر أنه لم يكن يستطيع، حتى، أن يفكر فى المشاركة فى تجمع دفاعى إقليمى إلا إذا حصل على حزمة مساعدات عسكرية أمريكية تقدر بملايين الدولارات[٤٨].

بالرغم من الخداع العربى والابتزاز الملكى استطاعت إدارة إيزنهاور خلال سنة ١٩٥٥ أن تبيع أصدقاء الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط فكرة الحزام الشمالى. أخذ الاقتراح الأمريكى شكلا محددا فى ٢٤ فبراير عندما وقعت تركيا والعراق اتفاقية للدفاع المتبادل المعادى للسوڤيت عرفت بـ"حلف بغداد"، ثم فعلت پاكستان مثلهما بعد سبعة شهور بعد تلقيها وعودا بزيادة المعونة العسكرية، وكذلك فعلت إيران التى أصبحت جزءا رسميا من المشروع الدفاعى الإقليمى فى ٣ نوفمبر، فى مقابل التزام واشنطن بالمساعدة فى تدعيم وترقية ترسانة الشاه. بالرغم من ذلك كانت هناك صعوبات وتعقيدات، كان من أهمها قرار "وايت هول" بالانضمام إلى حلف بغداد فى ٥ أبريل ١٩٥٥، وهو التحرك الذى فهمه كبار صناع السياسة الأمريكية باعتباره محاولة غير بارعة من بريطانيا لإعادة تأكيد دورها التقليدى كشريك غربى أكبر فى الشرق الأوسط. كانت إدارة "إيزنهاور" ترى على الأقل عنصرين متضمنين

فى هذا التدخل البريطانى الكبير فى أمن المنطقة. "فى المقام الأول كان البريطانيون يرغبون فى تأكيد أنفسهم فى مسئولية القيادة فى المنطقة فى حال وجود صعوبات"، كما أبلغ وكيل الخارجية الأمريكية "هربرت هوڤر الابن - Herbert Hoover Jr." مجلس الأمن القومى فى ٥ مايو، و"ثانيا، كان البريطانيون يتوقعون أن تدفع الولايات المتحدة فاتورة الحساب المطلوب لوضع المنطقة فى وضع الدفاع إلى حد ما"(٤٩).

كان المتضمن الثالث الأكثر إلحاحا هو أن عضوية "وايت هول" فى حلف بغداد استبعدت بقوة أى مساهمة من جانب "جمال عبد الناصر" فى مصر، الذى كانت عدم ثقته الشديدة بالبريطانيين وشكه المتصاعد فى الإسرائيليين عوامل تجذبه بقوة نحو الكرملين؛ وبالرغم من خطاب موال للعرب كان يتصاعد باضطراد بدأ صناع السياسة السوڤيت بعد موت "ستالين" فى مارس ١٩٥٣ يولون الشرق الأوسط أهمية أقل من وسط أوروبا أو شمال آسيا مثل نظرائهم الأمريكيين. وبالرغم من أن "نيكيتا خروشوف - Nikita Khrushchev" الزعيم الروسى الجديد تعهد بشن هجوم أيديولوچى ودبلوماسى معاد للغرب بين الدول المستقلة حديثا، من شمال أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا، كان السوڤيت فى أواخر صيف العام ١٩٥٥ يستطيعون عد قلة من المتحولين إلى الشيوعية فى العالم الإسلامى ولا يستطيعون عد نظام شرق أوسطى واحد فى مجموعتهم الصغيرة من دول العالم الثالث(٥٠). دعم الولايات المتحدة لحلف بغداد ومشاركة بريطانيا فيه، على أية حال، أطلقت رد فعل عكسى فى دمشق والقاهرة حيث نشر المروجون للكرملين دعاية تقول إن "الترتيبات الأمنية المدعومة من الغرب تمثل شكلا تنكريا للاستعمار، يورط دول الشرق الأوسط فى تحريض ضد الاتحاد السوڤيتى"(٥١). كان هذا المنطق المعادى للاستعمار بمثابة عنصر محفز على صفقة سلاح تقدر بـ"٨٦ مليون دولار" مقابل القطن المصرى بين "خروشوف" و"عبد الناصر" بوساطة تشيكية فى ١٩٥٥.

كان القرار السوڤيتى بتزويد مصر بالعتاد العسكرى يوحى بأن السوڤيت قرروا القفز من فوق الحزام الشمالى إلى قلب العالم العربى، الأمر الذى قد يستدعى مساءلة فكرة "الدفاع الخطى" التى كان يقوم عليها حلف بغداد وأسلوب أمريكا للأمن

الإقليمى فى الشرق الأوسط. كان صناع السياسة فى أمريكا والمملكة المتحدة يأملون فى معادلة تحرك "خروشوف" الجسور بتقديمه مساعدات اقتصادية وفنية للمصريين فى ديسمبر ١٩٥٥ لبناء السد العالى فى أسوان فى صعيد مصر، ولكن هذه المبادرة الأنجلو أمريكية أقنعت "عبد الناصر" بأنه يمكن أن يوقع الشرق ضد الغرب، وهو التكتيك الذى أغاظ الدول المعادية للشيوعية الأعضاء فى حلف بغداد، وهم الذين كانوا دائمى الشكوى فى النصف الأول من ١٩٥٦ من أن غزل القاهرة لموسكو كان تأثيره والعائد منه أفضل فى واشنطن أكثر من إخلاصهم الأيديولوچى. بعد أن توترت علاقات أمريكا مع دول الحزام الشمالى دون كبح اندفاع مصر نحو الكرملين، كان كبار المسئولين الأمريكيين يلومون "وايت هول" الذى فشلت مكائده السياسية وجاءت بنتائج عكسية أضعفت الدفاع الإقليمى بدلا من تقويته، وفى ٧ أبريل كان "دالاس" يشكو: "المشكلة هى أن البريطانيين تولوا أمر حلف بغداد وأداروه كأداة للسياسة البريطانية وبذلك دفعوا مصر إلى الصفقة مع الروس"(٥٢).

عدم الاتفاق فى وجهات النظر بين الولايات المتحدة وبريطانيا حول أفضل السبل للحفاظ على الأمن الإقليمى، ومنع التطفل السوڤيتى على الشرق الأوسط سوف يظهر على نحو مؤلم قبل نهاية العام. بعد التشاور مع المسئولين البريطانيين سحبت "إدارة إيزنهاور" فى ٢٠ يوليو ١٩٥٦ عرضها بمساعدة مصر لتمويل السد العالى وبعد ستة أيام رد "عبد الناصر" منتقما بانتزاع السيطرة على قناة السويس من أيدى البريطانيين والفرنسيين، وبالرغم من إصرار "إيزنهاور" على أن تسوية من خلال التفاوض لأزمة السويس كان يمكن أن تكون مجدية، فإن "أنتونى إيدن"، الذى كان قد خلف "تشرشل" رئيسا للوزراء قبل عام، تحرك بعناد فى خريف ١٩٥٦ فى اتجاه تدخل بريطانى مسلح لاستعادة القناة بمساعدة فرنسية إسرائيلية. مذهولا لدرجة الصدمة بسبب قرار "إيدن" بقصف القاهرة ونقل قوات بريطانية جوا إلى السويس فى أوائل نوفمبر، استخدم "إيزنهاور" قوة النفوذ الدبلوماسية والمالية الأمريكية ضد بريطانيا التى انسحبت من مصر على مضض بمجرد أن جاءت قوات حفظ السلام لتحل محلها بعد شهر.

كانت متضمنات انقلاب واشنطن الدبلوماسي ضد لندن واضحة بالنسبة لصناع السياسة على جانبي الأطلنطي، وفي أواخر نوفمبر كان وزير الخارجية "هوفر" يتساءل ما "إذا كان ضروريا بالنسبة لنا أن نتصل بالبريطانيين ونقول إن الأمر يبدو وكأنهم "قد انتهوا" في المنطقة، وما إذا كانوا يريدوننا أن نتسلم تعهداتهم"(٥٣). لم يضيع المسئولون الأمريكيون وقتا طويلا للإجابة عن سؤال "هوفر" الملغوم. ممرورا بسبب ما كان يعتبره سوء نية من جانب أمريكا، وعلى حافة انهيار عصبي في أواخر نوفمبر طار رئيس الوزراء "إيدن" إلى جامايكا للتفكير في المزيد من تقليل الوجود البريطاني في الشرق الأوسط. في الوقت نفسه فإن "هارولد ماكميلان – Harold Macmillan" وزير المالية الذي كان كثيرون في واشنطن يعتبرونه وريث "إيدن" فهم نتائج أزمة السويس بما يعني أن بريطانيا قد سلمت الشعلة للولايات المتحدة، وفي ١٢ ديسمبر كان "ماكميلان" يقول لـ"دالاس": "لقد كان التصرف البريطاني هو الزفرة الأخيرة لقوة في حالة اضمحلال"، وربما تعرف الولايات المتحدة بعد مائتي عام "كيف كان شعورنا"، وفي الوقت نفسه كان يحث الأمريكيين على التفكير في "مشروع أكثر إبداعا للشرق الأوسط"(٥٤).

كانت إدارة "إيزنهاور" تفكر بالفعل في عدة خطوط ممكنة للسير عليها من أجل ملء الفراغ المحتمل حدوثه بانسحاب المملكة المتحدة الوشيك من الشرق الأوسط، وكان "دالاس" قد نصح "إيزنهاور" في ٧ ديسمبر، بأن "هناك ثلاثة بدائل، فالولايات المتحدة يمكن أن "تنضم إلى حلف بغداد"، أو أن "تخلق تجمعا جديدا تحت ميثاق الأمم المتحدة" أو أن "تتعامل على أساس دولة مع دولة" بموجب سلطة يمكن أن يمنحها لها الكونجرس". كلاهما، "دالاس: و"إيزنهاور" استبعدا البديل الثاني باعتباره أبطأ من اللازم وناقشا مزايا الخيارين الآخرين. كان "إيزنهاور" يعتقد "أننا يمكن أن نتقدم "بوترين في قوسنا" – أو الاقتراحين الأول والثالث". إلا أن "دالاس" ذكر الرئيس بأنه "سيكون هناك عداء في الكونجرس لحلف بغداد" وبخاصة من "جاكوب جافيتز – Jacob Javits" نائب نيويورك وأمثاله من الحزبين "الذين يريدوننا أن نعطي تطمينات لإسرائيل". ولأنه لم يكن مستعدا لإعطاء مثل هذه التطمينات خلص

"إيزنهاور" إلى "ربما يكون علينا أن نمضى مع الخيار الثالث"(٥٥). ومع اقتراب العام من نهايته كان "إيزنهاور" وكبار مستشاريه قد وضعوا تفاصيل مبدأ استراتيچى أمريكى جديد يتطلب، كما أشار "دالاس" بسرعة، "الذهاب إلى الكونجرس وطلب قرار "يسمح للرئيس باستخدام القوة العسكرية ومعونة اقتصادية تصل إلى ٤٠٠ مليون دولار كوسيلة لتدعيم وضعنا فى الشرق الأوسط"(٥٦).

فى أول أيام العام ١٩٥٧ دعا "إيزنهاور" مجموعة من الحزبين مكونة من تسعة وعشرين شخصية من زعماء الكونجرس إلى قاعة مجلس الوزراء لتقديم عرض غير مسبوق عن الشرق الأوسط استمر أربع ساعات، حيث رسم الرئيس ووزير خارجيته صورة كئيبة للمنطقة المضطربة التى كانت تتطلب اهتماما عاجلا من الولايات المتحدة. كانت أزمة السويس قد قضت على النفوذ البريطانى التقليدى فى العالم الإسلامى، كما شرح إيزنهاور، مما حفز القومية العربية الراديكالية وفتح الباب أمام تطفلات سوڤيتية جديدة. وبناء على "الطموحات السوڤيتية التقليدية" فى المنطقة" و"عدم إمكانية قيام فرنسا وبريطانيا الآن كثقل مضاد» كان "إيزنهاور" مصمما على أن "الولايات المتحدة لا يمكن أن تترك فراغا فى الشرق الأوسط وتفترض أن روسيا ستظل بعيدة"، وبعد توضيح مدى خطورة الوضع، قال "آيك" إنه سوف يطلب من الكونجرس اعتمادا اقتصاديا خاصا، وتفويضا باستخدام القوة العسكرية عند الضرورة. وبهدف تلافى "معاناة فقدان هذه المنطقة لصالح الروس"، قال "إيزنهاور": "لابد من أن تجعل الولايات المتحدة العالم كله يرى أننا على استعداد للتحرك فورا"(٥٧).

وأثناء إدلائه بشهادة "سرية" أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ فى اليوم التالى، شرح "دالاس" باستفاضة أكثر الأساس المنطقى لما سوف يصبح معروفا باسم "**مبدأ إيزنهاور**". كانت مشكلات أمريكا القائمة فى الشرق الأوسط "تعود بالأساس إلى انهيار القوة والنفوذ البريطانيين فى المنطقة" كما قال لمستمعيه، كما شرح لهم "دالاس" كيف كانت "سياسة بريطانيا فى المائة عام الأخيرة تعمل على إبقاء روسيا خارج المنطقة وأنهم نجحوا فى ذلك جيدا حتى الآن، ولكنهم انتهوا إلى وضع

يشبه إلى حد بعيد ذلك الذى كان فى تركيا واليونان" قبل عشر سنوات، وإذا لم تقدم الولايات المتحدة التزامات مهمة جديدة "فمن المحتمل أن تقع المنطقة تحت النفوذ السوفيتى وسيكون ذلك كارثة كبرى". تفويض "إيزنهاور" مسبقا باستخدام القوة العسكرية كما أوضح "دالاس" سوف يساعد على "ردع الهجوم المسلح الصريح" من قبل السوفيت، كما أنه سيطمئن أصدقاء أمريكا القلقين فى إيران والعراق وتركيا، إلى جانب ذلك - كما أضاف - فإن المساعدات المالية التى ستقدمها الولايات المتحدة سوف تساعد "فى بناء الدول الحرة هناك" وتمنع التخريب الشيوعى[٥٨].

بالرغم من حيل "دالاس" المسرحية أبدى كثير من النواب تشككهم البالغ فى **مبدأ إيزنهاور**، فهذا "ريتشارد راسل - **Richard Russell**" نائب چورچيا الديمقراطى. الذى كان رئيسا للجنة الخدمات العسكرية فى مجلس الشيوخ، يبدى قلقه لأن البيت الأبيض كان على وشك التعهد بالتزام عسكرى مفتوح آخر دون تقدير للعواقب. "هيوبرت همفرى - **Hubert Humphrey**" كان من نفس الرأى وعنف "دالاس" بسبب طلبه إعلان حرب مسبق منا"، وكان نائب مينسوتا مصمما على ضرورة طمأنة حلفاء أمريكا المسلمين بمجرد الانضمام إلى حلف بغداد[٥٩]. بعد وقت طويل فى حوار مضن مع المشرعين من أمثال "راسل" و"همفرى"، الذين كانوا يتساءلون عن الحكمة فى قيام الولايات المتحدة بدور بريطانيا فى الشرق الأوسط، استطاع "دالاس" و"آيك" أن يحصلا على موافقة صعبة على "**مبدأ إيزنهاور**" فى أوائل مارس. وبفروق ضئيلة تصل إلى نسبة ١٩:٧٢ فى مجلس الشيوخ و٣٥٠:٦٠ فى مجلس النواب فوض الكونجرس الرئيس لاستخدام القوة العسكرية و٢٠٠ مليون دولار (معونة اقتصادية) لمساعدة أى دولة فى الشرق الأوسط "تطلب المساعدة ضد العدوان المسلح من قبل أى دولة أخرى تحكمها الشيوعية العالمية"[٦٠].

"چيمس آر ريتشاردز - **James R.Richards**"، وهو ديمقراطى من "ساوث كارولينا" كان رئيسا للجنة العلاقات الخارجية فى مجلس النواب قبل أن يصبح مساعد "آيك" لشئون الشرق الأوسط، سرعان ما علم أن "**مبدأ إيزنهاور**" أثار المزيد

من التناقض فى العواصم الإسلامية أكثر منه فى "كابيتول هيل". ففى أثناء جولة دائرية له فى خمس عشرة دولة فى مارس وأبريل ١٩٥٧، وجد "ريتشاردز" الأتراك والإيرانيين واللبنانيين متلهفين على المزيد من الدعم الأمريكى المباشر للأمن الإقليمى[٦١]، أما فى الأردن فاضطرته المظاهرات المعادية للولايات المتحدة والموالية لعبد الناصر لإلغاء لقائه بالملك "حسين"، وفى ليبيا والسعودية واليمن كان العرب المحافظون يحتفظون بمسافة تجنبا لوصمهم بالعمالة للولايات المتحدة، بينما رفضت الأنظمة الراديكالية فى مصر وسوريا مجرد توجيه الدعوة له[٦٢].

بعد أربعة أشهر من عودة "ريتشاردز" إلى واشنطن صدمت سوريا "إدارة إيزنهاور" بإعلانها عن صفقة قمح مقابل السلاح مع الكرملين، وراحت دمشق وواشنطن تتبادلان الاتهامات القبيحة بالتآمر السياسى وسوء النيات الدبلوماسية فى منتصف أغسطس. كان هناك "دليل فى سوريا على تطور مخطط خطير وكلاسيكى"، كما حذر "دالاس" الرئيسى الأمريكى فى ٢٠ أغسطس، وهو مخطط كان يؤكد أن "الدولة فى طريقها للوقوع تحت سيطرة الشيوعية العالمية وأن تصبح من توابع الاتحاد السوفيتى التى تخضع لإملاءات موسكو"[٦٣]. مقتنعا بأنه كان عليه أن يتصرف بسرعة "وإلا خسر الشرق الأوسط كله أمام الشيوعية"، أمر الرئيس البنتاجون بأن يجهز لعمل عسكرى متوقع، وأكد لجيران سوريا أنه كان يقف بكل ثبات لكى يطبق "**مبدأ إيزنهاور**" كما أنه "سيهرع لمساعدة أى منهم فى حال أى اعتداء سورى أو روسى"[٦٤].

كانت تصرفات "إيزنهاور" عرضة لتقييمات مختلطة من أصدقاء أمريكا وحلفائها، ففى تركيا مثلا كان "عدنان مندريس" رئيس الوزراء يرى "خطرا حقيقيا فى أن تصبح سوريا دولة تابعة للاتحاد السوفيتى"، وأبلغ المسئولين الأمريكيين بأن "تركيا ستكون مستعدة عند الضرورة أن تكون فى الصورة" لمنع ذلك[٦٥]. من ناحية أخرى كان صناع السياسة فى لندن يعتقدون أن واشنطن تبالغ فى الأمر، وكان رئيس الوزراء "ماكميلان" يبرطم "الأمريكيون كانوا يفسرون **مبدأ إيزنهاور** الجديد بحماسة

محدثين" من أجل تبرير "أشد الإجراءات عنفا -أزمة السويس معكوسة"(٦٦)؛ بينما كان "دالاس" يعتبر الأزمة السورية "ميونخ أخرى" وليس "سويس ثانية"، كما كان مصرا على أن "خروشوف" أقرب إلى أن يكون "هتلر"، منه إلى أى زعيم سوفيتى آخر عرفه من قبل"(٦٧). وبالرغم من أن "إيزنهاور" "لم يكن يريد أن يكرر نمط الضغوط نفسها التى استخدمت فى تشيكوسلوفاكيا لإجبارهم على قبول مطالب هتلر" فى ١٩٣٨، ولا كان يريد أن يكرر الأخطاء التى حولت أزمة صغيرة فى الشرق الأوسط إلى جائحة كونية فى ١٩١٤(٦٨). بعد أن فوجئ بموقف بريطانيا و"عوقب" بإنذار ردىء من السوفيت الذين كانوا قد أجروا أول تجربة حديثة على الصواريخ البالستية العابرة للقارات، بدأ البيت الأبيض يبتعد عن تطبيق "**مبدأ إيزنهاور**" فى سوريا مع اقتراب نهاية الصيف(٦٩).

بالرغم من أن الرئيس قاوم إغراء معادلة أحداث دمشق فى ١٩٥٧ بأحداث "براغ" قبل تسعة عشر عاما، فإن كثيرين فى واشنطن كانوا يتوقعون أن يجبره ضعف النفوذ البريطانى وتزايد النفوذ الروسى فى آخر الأمر على تطبيق **مبدأ "إيزنهاور"** لتجنب ميونخ شرق أوسطية. "كان لابد من أن يكون الأمل على المدى البعيد" كما قال "دالاس" لماكميلان، أن يخفف الروس من طموحاتهم نوعا ما"، وحيث إنه لم تكن هناك دلائل كثيرة فى ذلك الوقت على مثل هذا التخفيف من الطموحات أو الاعتدال فيها، كان "دالاس" يعتقد "أننا فى حاجة إلى ما توصلنا إليه فى حوارات الشرق الأوسط وهو: "الاحتواء+"، وهى استراتيجية موضوعة بهدف إيقاف وعكس اتجاه المكاسب السوفيتية الأخيرة فى العالم العربى"(٧٠).

على أية حال، كان صناع السياسة الأمريكية - فى قرارة أنفسهم لديهم شكوك بأن "البريطانيين كانوا أول من يدركون أنه لم يعد لهم وضع متميز أو اليد الطولى فى المنطقة" كما أشارت إدارة التخطيط فى وزارة الخارجية فى ٣٠ أكتوبر ١٩٥٧. "العقبات فى سبيل تحقيق أهدافنا عظيمة، والقوى التى تعمل على إضعاف وضع الولايات المتحدة فى المنطقة قوية، لدرجة أننا لا نستطيع أن نستبعد مواجهة

مجموعة من الظروف الجديدة التى تضعنا مباشرة أمام خيار: إما اللجوء إلى القوة للحفاظ على وضعنا فى المنطقة أو أن نراه يختفى تماما"(٧١).

بعد تسعة أشهر سوف تقدم ثورة يسارية فى العراق، وانقلاب فاشل فى الأردن، وحرب أهلية رديئة فى لبنان لإدارة "إيزنهاور" ما يصل إلى أن يكون "خيار هوبسون" فى الشرق الأوسط. فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ استولى ضباط معادون للغرب على السلطة فى بغداد بينما كان متآمرون يشبهونهم على وشك إسقاط النظام فى عَمَّان. مواجها بالصراع الطائفى المتصاعد فى لبنان بين المسيحيين والمسلمين، ومقتنعا بأن العناصر الموالية للغرب فى لبنان سوف تلقى المصير نفسه فى القريب مثلما حدث لأقرانهم فى العراق، طلب الرئيس اللبنانى "كميل شمعون" من "إيزنهاور" إرسال قوات أمريكية إلى بيروت لإعادة النظام ومنع الفوضى. فى الوقت نفسه كان الملك حسين يصرخ فى عمان طلبا لمساعدة الولايات المتحدة أو بريطانيا لإنقاذ عرشه. كبار المسئولين فى الخارجية الأمريكية والبنتاجون والمخابرات المركزية الذين هرعوا إلى المكتب البيضوى لاجتماع بالغ الأهمية (أشبه بيوم سقوط الباستيل) مع "إيزنهاور"، كانوا يعتقدون أن الولايات المتحدة لابد من أن ترد بسرعة(٧٢)، وكذلك كان رأى "آيك". مدركا أن الثورة العراقية قد هزت أصدقاء أمريكا على امتداد الحزام الشمالى بعنف، قال الرئيس إن علينا أن نتحرك وإلا سيكون علينا أن نخرج من الشرق الأوسط تماما"، كما أعد العدة لإرسال قوات من "المارينز" إلى لبنان "فورا"(٧٣).

ولأنه كان على علم بالشكوك الدائرة فى "كابيتول هيل" حول الحكمة فى "**مبدأ إيزنهاور**"، وجه الرئيس الدعوة إلى ثلاثين من زعماء الكونجرس للحضور إلى البيت الأبيض بعد ساعات قليلة، ومصرا على أن ذلك "لم يكن مجرد قرار تم اتخاذه"، طلب من "دالاس" أن يضع الأساس المنطقى للتدخل. أكد "دالاس" أن الأزمة اللبنانية كانت اختبارا رمزيا لمصداقية الولايات المتحدة، ليس فى الشرق فحسب وإنما فى العالم الثالث بأسره. شرح "دالاس" الوضع: "تركيا وإيران وباكستان سوف يشعرون، إن لم نتصرف، أن عدم تحركنا يعود لخوفنا من الاتحاد السوفيتى؛ وفى أماكن أخرى من المغرب إلى الهند الصينية، سيكون عدم التحرك بالغ الضرر بالنسبة لنا". بعض

المشرعين وضعوا هذه الوصفة الأخيرة التى اقترحها البيت الأبيض للدفاع الإقليمى موضع المساءلة، وكان يساورهم القلق بأن تكون الولايات المتحدة متورطة فى حرب أهلية. قلة مثل "ج. وليم فولبرايت"، النائب الديمقراطى من أركانساس، كانوا مصممين على أنه إذا لم يقدم الرئيس دليلا حقيقيا على التخريب الشيوعى. فإن "**مبدأ إيزنهاور**" لا يمكن تطبيقه فى لبنان، وكان رد "آيك": "السؤال الحاسم هو ماذا يرى الضحايا؟، شمعون يرى أن الشيوعية السوفيتية هى سبب مشاكله"[٧٤].

بعد حفظ كلام "فولبرايت" وغيره، أكد "إيزنهاور" قراره السابق بإرسال "المارينز" وأبلغ "هارولد ماكميلان" بالأخبار، وكان "ماكميلان" يمزح "لقد لعبت علىَّ لعبة السويس"، و"بريطانيا سوف تدعم بالطبع تحرك الولايات المتحدة فى بيروت" كما أضاف على نحو أكثر جدية، ولكن "ماكميلان" وجدها فرصة كذلك لقلب الطاولة على المسئولين الأمريكيين الذين كانوا يلمحون على مدى أكثر من سنة إلى ضرورة أن يوطن "وايت هول" نفسه على دور أصغر بكثير فى الشرق الأوسط[٧٥].

مع ملاحظة أن الملك "حسين" كان قد جدد طلبه قوات بريطانية وأن الحكام الكويتيين كان من المحتمل أن يلجأوا إلى "وايت هاوس" من أجل مساعدة عسكرية كذلك، كان "ماكميلان" يضغط على البيت الأبيض من أجل الحصول على ما أسماه "دالاس" "شيك على بياض" لدعم تدخل المملكة المتحدة فى الأردن والخليج الفارسى[٧٦]. وافقت واشنطن، بعد تردد فى البداية، على تقديم "دعم معنوى ولوچستى" بعد وصول القوات البريطانية إلى عمان فى ١٦ يوليو[٧٧]. وبعد يومين كان "إيزنهاور" يبلغ "ماكميلان" بأن "أيا كان ما يحدث فى العراق وأى أجزاء أخرى من المنطقة" فإن بريطانيا والولايات المتحدة لابد من أن تعملا معا فى أماكن مثل لبنان والأردن والكويت لضمان أن يبقى الشرق الأوسط "فى المدار الغربى"[٧٨].

وبحلول آخر يوليو، كان قليلون فى واشنطن هم الذين يعتقدون أن تفعيل "**مبدأ إيزنهاور**" كان هو الأسلوب الأكثر تأثيرا للاحتفاظ بالمنطقة داخل المجال الأنجلو أمريكى؛ وللتأكيد فإن تركيا وإيران وباكستان قد فهموا "قرار إيزنهاور المُرْضى"

بالتدخل فى لبنان، كما أطلق عليه وزير الخارجية التركى "فاطن زورلو – Fatin Zor-lu"، باعتباره "ضمانا للدفاع عنا عند الضرورة"[٧٩]. نجح المارينز الأمريكيون فى استعادة النظام فى بيروت فعلا دون طلقة واحدة، كما منعت قوات المظلات البريطانية انقلابا معاديا للغرب فى عَمَّان[٨٠]. ولكن شيئا من ذلك لم يغير حقيقة بسيطة كان "إيزنهاور" نفسه قد اعترف بها عندما نزلت قوات المارينز إلى الشواطئ اللبنانية، إذ كان قد قال لـ"ريتشارد نيكسون – Richard Nixon" نائب الرئيس فى ١٥ يوليو: "المشكلة هى أن هناك حملة كراهية ضدنا، ليس من الحكومات وإنما من الشعوب.. الناس مع عبد الناصر"[٨١].

وبينما طار "دالاس" إلى لندن فى آخر الشهر لطمأنة أصدقاء واشنطن فى حلف بغداد، طلب "إيزنهاور" من مجلس الأمن القومى إعادة تقييم أداء أمريكا فى الشرق الأوسط. لم تكن السياسة الجديدة التى نشأت فى خريف ١٩٥٨ تمثل قطيعة كاملة مع الماضى، إذ بقيت الولايات المتحدة أكثر إصرارا منها فى أى وقت مضى على منع السوفيت من اجتياح الحزام الشمالى. وعندما جاءت تصريحات "دالاس" مثلا بأن الثورة العراقية قد قضت على حلف بغداد وافق "إيزنهاور" بسرعة على سلسلة من الترتيبات التنفيذية مع إيران وتركيا وباكستان وضعت الأساس لنظام دفاعى إقليمى جديد، هو "منظمة الحلف المركزى[٨٢] – Central Treaty Organiza-tion" ولكن بحلول أوائل أكتوبر، كانت مجموعة عمل البيت الأبيض المكلفة بدراسة الوضع فى الشرق الأوسط قد توصلت إلى أن "**مبدأ إيزنهاور**" "لابد من أن يعتبر قديما"، وينبغى أن تكون هناك بعض التغييرات الرئيسية[٨٣]. وبينما كان "آيك" يقلب صفحات تقرير مجلس الأمن القومى رقم "NSC-5820" الخاص بـ"سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأدنى"، وجد حججا قوية لتأسيس "علاقة عمل مؤثرة مع القومية العربية"، كانت تؤكد "معارضة واشنطن للسيطرة الخارجية وانتهاك السيادة المحلية"، وكان ذلك يعنى أن الولايات المتحدة لابد من أن تنأى بنفسها عن بريطانيا وأنها لابد

من أن "تحتفظ بحق العمل منفردة" عندما لا تتطابق أهداف الولايات المتحدة وبريطانيا(٨٤).

السياسات المتجسدة فى "NSC-5820" كانت كفيلة بأن توتر علاقات واشنطن بشريكها الأصغر فى لندن. عندما كان "كريستيان هيرتر – Christian Herter" الذى كان قد خلف "دالاس" – المحتضر – وزيرا للخارجية، يراجع أسلوب تعمل أمريكا مع المسئولين البريطانيين فى أبريل ١٩٥٩، قال "سلوين لويد – Selwyn Lloyd" وزير الخارجية: "إن قلقه الرئيسى كان سببه أن المملكة المتحدة والولايات المتحدة ينبغى ألا تتباعدا بالنسبة لسياساتهما تجاه الشرق الأوسط"(٨٥). بعد أربعة عشر شهرا وافق إيزنهاور على ورقتين خاصتين بالسياسة تدلان على أن قلق "سلوين لويد" كان له أساس. كانت الورقة الأولى توحى بأن تدهور بريطانيا كقوة فى الشرق الأوسط سوف يتسارع فى القريب العاجل. "المتوقع أن تحدث القومية العربية على مدى فترة زمنية ضغطا متزايدا على الوضع البريطانى فى مختلف الدول التابعة للمملكة المتحدة فى الخليج الفارسى" كما أشار من كتبوا تقرير "NSC-6011" فى ١٧ يونيو ١٩٦٠(٨٦)، أما الورقة الثانية فحددت مرشحا رئيسيا ليخلف بريطانيا كشريك أصغر للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. وكما يقول التقرير، فإن مراجعة للعلاقات الأمريكية الإيرانية كانت قد أجريت فى أوائل يوليو كانت تدل على أن "إيران يساورها قلق شديد بسبب نزعة العروبة، باعتبارها عقبة أمام الطموحات الإيرانية فى الخليج الفارسى"، وأنها تعتبر نفسها الوريث المنطقى للنفوذ البريطانى الحالى فى المنطقة(٨٧). خلال العقد القادم سيكون على خلفاء "إيزنهاور" أن يعملوا بكل جد لتحويل إيران والأنظمة الإسلامية المحافظة الأخرى إلى وكلاء إقليميين لأمريكا.

• عمد ووكلاء: صناعة مبدأ نيكسون (١٩٦١ : ١٩٧٢)

عندما ترك "أيك" منصبه كان "**مبدأ إيزنهاور**"، وهو السياسة التى كانت مصممة للدفاع عن الشرق الأوسط بالجمع بين العضلات العسكرية الأمريكية والخبرة

السياسية البريطانية، قد أصبح غير ذى صفة بسبب صعود القومية العربية على طريقة "عبد الناصر" وسقوط الإمبراطورية البريطانية غير الرسمى؛ وبالرغم من أن الدفاع عن الشرق الأوسط كان يحتل موقعا متأخرا على قائمة أولويات "چون ف. كينيدى – John F.Kennedy" فى ربيع ١٩٦١، فإن هذا الديمقراطى القادم من ماساشوستس كان شديد الانتقاد لـ"**مبدأ إيزنهاور**" منذ رئاسته (لفترة محدودة) للجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ فى أواخر الخمسينيات. مقتنعا بأن هوس "دالاس" بمعاداة الشيوعية ودبلوماسية "آيك" التى تعتمد على السفن الحربية قد جاءا بردود فعل مناوئة بين الوطنيين العرب الذين كانوا يعتبرون التدخل الأمريكى مجرد تناسخ للاستعمار البريطانى، كانت إدارة كينيدى تتمنى أن يملأ شاه إيران أو البيت السعودى الفراغ الناجم عن الرحيل النهائى لـ"وايت هول" من المنطقة.

كل الشكوك حول أهمية ملء الفراغ عاجلا قبل آجلا قد تلاشت فى أوائل ذلك الصيف عندما أدى قرار بريطانيا إغلاق منشآتها العسكرية فى الكويت إلى أن يحيى العراق مطالباته بتلك المحمية البريطانية الغنية بالنفط. "پاركر هارت – Parker Hart" سفير أمريكا الجديد فى السعودية حذر "كينيدى" فى أواخر يونيو بأنه "إذا كانت مشيخات الخليج الفارسى ستفك ارتباطها التقليدى بالمملكة المتحدة، فإنها ستكون قد أصبحت – بمعنى ما – "فرصة متاحة" أمام القوى الإقليمية الأكبر المجاورة لكى تؤكد مطالباتها ومزاعمها"(٨٨). على المدى القصير، لم يكن أمام "كينيدى" سوى أن يشجع بريطانيا على أن تعيد تأكيد وجودها العسكرى فى الشرق الأوسط؛ كما أن الولايات المتحدة، كما أكد للمسئولين البريطانيين فى يونيو ١٩٦١، سوف "تقدم كل الدعم السياسى واللوچستى اللازمين" للقوات البريطانية التى يتم إرسالها إلى "الخليج الفارسى"، وذلك "من أجل إحباط أى محاولة عراقية للاستيلاء على الكويت عنوة"(٨٩). أما على المدى البعيد فقد كان صناع السياسة الأمريكية يفضلون "حلا عربيا" للأزمة، كما رحبوا بقرار السعودية فى منتصف يوليو بوضع بضع مئات من جنودها تحت تصرف حكومة الكويت؛ ومع اقتراب فصل الصيف من نهايته كانت خطط الرياض "لأن يحل محل البريطانيين قوات من الدول الأعضاء فى جامعة الدول العربية " قد

أثمرت، مع وصول القوة المشتركة بقيادة سعودية إلى الكويت مما ساعد "وايت هول" على إعادة جنوده إلى بلادهم فى ١٩ سبتمبر(٩٠).

بالرغم من أن إدارة "كينيدى" كانت ممتنة لمساعدة السعودية فى بلورة حل عربى لأزمة الكويت، فإن معظم المسئولين الأمريكيين كانوا يتساءلون ما إذا كان البيت السعودى قويا بما يكفى أو يمكن التعويل عليه لملء الفراغ الناجم عن انسحاب بريطانيا النهائى من الخليج الفارسى بمفرده. كان الملك "سعود"، الابن الأكبر لـ"عبد العزيز بن سعود" مؤسس الأسرة، قد "ترك انطباع سيئا" فى واشنطن، كما قال "پاركر هارت" بعد ذلك، بسبب "سفهه وسفه أبنائه بخاصة وعدم رغبته - وربما عدم قدرته -فى السيطرة عليهم وهدر الأموال بلا حساب"(٩١). الأسوأ من السفه والتبذير كان تقلب الملك الذى ظهر منذ مارس ١٩٦١ عندما ألغى عقد إيجار مطار الظهران مع البنتاجون، وهو أحد تسهيلات الترانزيت المهمة التى كانت تربط العمليات العسكرية الأمريكية فى أوروبا الغربية بشرق آسيا على مدى خمسة عشر عاما(٩٢).

ولأنهم لم يكونوا مستعدين للاعتماد فقط على بيت آل سعود الفاسد الذى لا يمكن التنبؤ بما يمكن أن يفعله لدعم المصالح الغربية المترنحة فى الشرق الأوسط، فإن مهندسى سياسة "كينيدى" للأمن القومى ضمنوا مشروعهم "عمودا" ثانيا يمكن الاعتماد عليه وهو إيران، والحقيقة أن أفق تهيئة شاه إيران لكى يخلف "چون پول" ويكون أحد خفراء "أنكل سام" فى الخليج الفارسى كانت تبدو كئيبة فى السنوات الأولى من فترة إدارة كينيدى. ذلك المستبد البالغ من العمر اثنين وأربعين عاما، الذى كان يجلس على عرش الطاووس فى طهران، كان مثل نظيره فى الرياض أوتوقراطيا ومزاجيا، كما كانت مملكته فى حاجة ماسة إلى الإصلاح مثل العرش السعودى تماما؛ وبالرغم من مشكلاتها السياسية الداخلية المعقدة، ظلت إيران عضوا نشطا فى منظمة الحلف المركزى، وكان لديها واحد من أكبر الجيوش فى المنطقة، كما كانت متلهفة على القيام بدور أكبر فى الدفاع الإقليمى. وعندما كان البريطانيون "يقومون بتنقيح تخطيطهم العسكرى ويتحركون جنوبى السويس" فى اتجاه المحيط الهندى،

أكد الشاه لـ"دين راسك – Dean Rusk" وزير الخارجية فى أبريل ١٩٦٢ استعداد إيران للدخول لملء الفراغ الناجم، شريطة أن تقدم الولايات المتحدة ما يكفى من الأسلحة والدولارات فى إطار "برنامج كينيدى للمساعدات العسكرية"(٩٣).

وخشية أن تؤدى طموحات الشاه الإقليمية إلى إبطاء الإصلاحات التى طال انتظارها، وأن تحول الموارد عن المشروعات التنموية المطلوبة بإلحاح، طلب "كينيدى" من نائبه "ليندون ب. چونسون" أن يزور طهران أثناء رحلته إلى الشرق الأوسط بعد أربعة أشهر. "چونسون" الذى توقف كذلك فى أثينا وأنقرة، أكد أن اليونانيين والأتراك "يظلون يقظين ومخلصين بالرغم من الأخطار والابتزازات الشيوعية"، وأوصى بمزيد من الدعم الاقتصادى لضمان أن تكون "هذه الدول الحدودية" قادرة على الاحتفاظ بقوات مسلحة قادرة بامتداد البطن السفلى للكتلة السوفيتية". كان "چونسون" يرى أن جزءا كبيرا من المعونة لابد من أن يجد طريقه إلى الجالس على عرش الطاووس، ونصح رئيسه فى ١٠ سبتمبر ١٩٦٢ قائلا: "فى إيرن علينا أن نقبل الشاه بكل عيوبه، كأصل ثابت، مهم وقيم بالنسبة لنا"، و"لابد من أن نقرر، بعناية شديدة، الإمكانيات العسكرية للقوات المسلحة للشاه فى الحاضر والمستقبل وأن نخصص لها مساعدات فى إطار المصالح الأمنية الكونية للولايات المتحدة"(٩٤).

إلا أنه فى إطار كونى، لم تكن علاقات أمريكا بإيران أو السعودية من بين الأولويات على قائمة "كينيدى" خلال العام الأخير من إدارته. الحقيقة أن وقت وجهد "كينيدى" خلال نوفمبر ١٩٦٣ كانا مكرسين لقضايا أخرى أكثر إلحاحا مثل معاهدة حظر الأسلحة النووية مع روسيا والمنافسة الدبلوماسية المليئة بالضغائن مع الرئيس الفرنسى "شارل ديجول – Charles de Gaulle" حول مستقبل منظمة حلف شمال الأطلنطى (NATO) والمستنقع العسكرى الناشئ فى ڤيتنام؛ وبالرغم من ذلك كله كان "كينيدى" فى الأشهر السابقة على وفاته يفكر بجدية فى مشروع مقترح من قبل "روبرت كومر – Robert Komer"، خبير البيت الأبيض لشئون الشرق الأوسط، من أجل "تقوية قدراتنا فى المحيط الهندى والخليج الفارسى والبحر الأحمر"، كما يشير

"كومر" فى ١٩ يونيو ١٩٦٣ إلى "أننا قد تركنا الدفاع عن هذه المناطق للبريطانيين إلا أن قواهم تضعف فى الوقت الذى نواجه فيه استعراض قوة أو احتياجات قتال حقيقى ممتدة من السعودية إلى الخليج الفارسى وإيران عبر الهند وبورما وماليزيا". وعن طريق إعادة نشر قوة مهام بحرية من غرب الپاسيفيك إلى المحيط الهندى يمكن أن يقدم كينيدى "عنصر دعم" لأصدقاء أمريكا، ويظهر "مصداقية أكبر تؤكد قدرتنا على مساعدتهم على نحو مؤثر عند الحاجة"[٩٥]. بعد أن أثار اقتراح "كومر" اهتمامه حوله "كينيدى" إلى "البنتاجون" مع رسالة صغيرة "ما رأيكم؟"[٩٦] راقت للبحرية الأمريكية فكرة أن يكون لها أسطول فى المحيط الهندى، كما أبلغ "كومر" رئيسه فى ٦سپتمبر، "لأنها تحقق لنا مصداقية فى البحر الأحمر والخليج الفارسى وإيران وپاكستان والهند وبورما وماليزيا وإندونيسيا - وذلك كله بثمن واحد"[٩٧].

إلا أنـه كـان ثـمـنـا لم يـكـن كل من فى الـبـيت الأبـيض مـتـلـهفـا عـلى دفـعه، فـ"روبرت ماكنمارا - Robert McNamara" وزير الدفاع الذى كان مشغولا بالوضع سريع التدهور فى ڤيتنام مثلا، أصيب بالإحباط بسبب تحمل أعباء عسكرية إضافية فى الشرق الأوسط، ولكنه كان عليه أن يستجيب لاقتراح البيت الأبيض عندما غادر "كينيدى" المستشفى إلى دالاس فى منتصف نوفمبر. وبالرغم من أن "ليندون چونسون" كان يشارك "مكنمارا" التركيز على ڤيتنام، فإن الرئيس الجديد وافق فى مارس ١٩٦٤ على انتشار بحرى مرحلى فى المحيط الهندى على أمل أن يقوى ذلك من خط الدفاع الغربى الضعيف، الممتد شرقا من الخليج الفارسى إلى سنغافورة[٩٨].

وبالرغم من الجهود الحقيقية لـ"ليندون چونسون" فإن هذا الخط الدفاعى ظهرت عليه علامات ضعف أكبر بنهاية العام، عندما بدأت حكومة حزب العمال الجديدة فى بريطانيا إعادة تقييم كل التزامات بريطانيا العسكرية فى الشرق الأوسط. ولاقتناعهم بأن "الوضع البريطانى" فى المنطقة سوف يستمر فى التآكل "كان المخططون فى وزارة الخارجية فى أواخر ١٩٦٥ يحثون على "إعطاء اهتمام أكبر لتوفير إمكانيات أخرى "فى الأفق" لمواجهة الاحتياجات المستمرة، لكى يستطيع الغرب التصرف بقوات صغيرة بسرعة فى الأزمات المحلية فى الخليج الفارسى الغنى بالنفط وفى غيره من

الأماكن فى المنطقة"[٩٩]. أحد هذه الإمكانيات التى كانت تبدو أكثر جاذبية كانت تقع فى المحيط الهندى على بعد ٢٥٠٠ ميل جنوبى مضيق هرمز عند "دييجو جارسيا"، وهى جزيرة صغيرة تحت سيطرة البريطانيين، الذين سرعان ما سمحوا للپنتاجون بإقامة قاعدة بحرية على هذه الجزيرة المرجانية التى تشبه حرف "V"[١٠٠].

فى ٢٢ فبراير ١٩٦٦ كشف "وايت هول" عن "ورقة بيضاء" تقترح شيئا أكثر أهمية من قاعدة بحرية فى "دييجو جارسيا" لملء الفراغ الناجم عن تدهور بريطانيا المؤكد كقوة إقليمية. العجز الناشئ فى الموازنة وهبوط قيمة الاسترلينى، كما أبلغ رئيس الوزراء "هارولد ويلسون – Harold Wilson" الرئيس "ليندون چونسون" فى اجتماع فى المكتب البيضوى قبل شهرين، كان يتطلب "إعادة هيكلة الوضع الدفاعى البريطانى شرق السويس"؛ وبالرغم من أن "ويلسون" كان مصرا على أن "الدور البريطانى على مستوى العالم سوف يتم الإبقاء عليه"، فإنه أوضح أن انكماش بريطانيا فى الشرق الأوسط كان من المستحيل تجنبه". كانت حكومة حزب العمال، كما أبلغ چونسون، تستعد للتخلى عن مستعمرة التاج فى عدن جنوب شرق السعودية، كما كانت تبحث عن وسائل "لتخفيف الوجود البريطانى فى الخليج الفارسى"[١٠١]. بمجرد أن أصبحت قرارات "وايت هول" معلنة فى أوائل ١٩٦٦، لم يضيع المسئولون الأمريكيون وقتا طويلا للكشف عن متضمنات السياسة الأمريكية فى المنطقة، ففى ٢٣ مايو كان القائم بالأعمال "فيليپ كايزر – Philip Kaiser" – ينصح "فوجى بوتوم" بأن "لا أحد يستطيع أن ينكر أن القوة والنفوذ البريطانيين قد ضعفا نسبيا" وأن "المعدل المتسارع لتقلص المصالح البريطانية قد أطلق بالفعل مصاعب كثيرة مقلقة، ذات صلة ببقايا سيطرة بريطانية استعمارية متلاشية تؤثر علينا بعدة أساليب مباشرة وغير مباشرة"[١٠٢].

بحلول صيف ١٩٦٦ كانت إدارة چونسون قد بدأت تواجه بعض هذه المصاعب المقلقة بتبنى سياسة "تعتمد على عمودين" فى الخليج الفارسى، تستدعى أن تقوم السعودية وإيران بالاضطلاع بكثير من مسئوليات بريطانيا للدفاع عن المنطقة،

وعندما زار الملك "فيصل" البيت الأبيض في يونيو مثلا طلب "چونسون" المساعدة من السعودية لملء الفرا غ الذي سيتركه البريطانيون جنوبي الجزيرة العربية والخليج الفارسي"، وبعد أن ألمح "فيصل" إلى أن ذلك قد يتطلب أن تطور المملكة ترسانتها، وافق "چونسون" على بيع عتاد عسكري "غير مهلك" تصل قيمته إلى مائة مليون دولار، - معظمه ناقلات وسيارات چيب - لتقوية الشراكة الأمريكية الناشئة مع بيت آل سعود(١٠٣).

كان أكثر المرشحين حماسة لخلافة "چون بول" ليكون شرطي المنطقة هو شاه إيران، الذي كان يحلم بالجمع بين ثروة بلاده النفطية الهائلة والسلاح الأمريكي المتقدم لاستعادة أمجاد قورش العظيم. في أعقاب الورقة البيضاء الصادرة عن "وايت هول" في فبراير ١٩٦٦، كان القلق يساور شاه إيران، مثل "فيصل" و"ليندون چونسون"، لأن البريطانيين سوف ينسحبون في آخر الأمر من الخليج الفارسي" حيث كان السوفيت وعملاؤهم من العرب متلهفين على الصيد في الماء العكر؛ وبحلول منتصف يوليو كان العاهل الإيراني مصرا على أن تبيعه واشنطن سرب فانتوم **F-4** مثلما كانت موسكو قد وعدت مؤخرا كلا من القاهرة وبغداد بطائرات **MIG-21**. وبالرغم من أن ثمن هذه الصفقة الذي كان يصل إلى ٥٠ مليون دولار كان عبئا ثقيلا على ميزانية طهران، فإن "وولت دبليو روستو - **Walt W.Rostow**"، مستشار الأمن القومي، ذكّر الرئيس "چونسون" أنه "بانسحاب البريطانيين من جنوب الجزيرة العربية والتمركز في الخليج" وبتورط الولايات المتحدة في ڤيتنام الذي كان يتصاعد على نحو سريع، فإن تقوية ترسانة الشاه تكون أفضل وسيلة جديرة بالإنفاق عليها لتقوية دفاع الشرق الأوسط. "چونسون" لم يوافق على بيع الفانتوم لطهران في أوائل أغسطس فحسب، بل إنه قدم قرضا بما قيمته ٢٠٠ مليون دولار لتمويل مشتروات إيران من السلاح مستقبلا(١٠٤).

جاء العام الجديد بدلائل جديدة على أن السعودية وإيران ربما يكون عليهما الاضطلاع بأدوارهما الجديدة كشرطة للمنطقة عاجلا قبل أجلا. وبينما كانت الأبصار

معلقة على المواجهة المصرية الإسرائيلية التى بلغت ذروتها فى حرب الأيام الستة فى يونيو، كان خبراء شئون الشرق الأوسط الأمريكيون يرقبون "وايت هول" وهو يحارب معركة خاسرة ضد تنظيمات مبهمة مدعومة من السوفيت مثل جبهة تحرير جنوب اليمن والجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل.

مصابة بتمدد استعمارى مفرط من الخليج الفارسى إلى جنوب شرق آسيا، وببطالة حادة فى الداخل، اتجهت حكومة حزب العمال فى بريطانيا على نحو أكثر عمقا نحو تصفية المتبقى من الإمبراطورية شرقى السويس، مقتنعة بأن مثل هذا الإجراء القاسى سوف يعزز الانطباع المتنامى فى واشنطن عن "إنجلترا صغيرة"، كل أهميتها تكمن فى "الأكواخ القش والحرس الملكى والتنورات القصيرة والبيتلز"، حذر السفير البريطانى "پاتريك دين – Patrick Dean" رؤساءه فى أواخر أكتوبر من أن سياسة الهرولة السريعة من البحرين إلى سنغافورة يمكن أن تسفر عن تغير نوعى فى العلاقات الأنجلو أمريكية(١٠٥).

بالرغم من تحذيرات "پاتريك دين"، اتخذت الحكومة البريطانية سلسلة من الإجراءات القاسية خلال الأشهر الثلاثة التالية، ففى ١٨ نوفمبر خفض "وايت هول" قيمة الجنيه الاسترلينى بنسبة ١٥٪ فى محاولة لعلاج مشكلات ميزان المدفوعات، وفى ٢٠ ديسمبر فاجأ "روى چنكنز – Roy Jenkins" وزير المالية، الحكومة بما يشبه الصدمة بأنهم إذا لم يقتطعوا ثلاثمائة مليون جنيه من الموازنة "فإننا سنكون قد وصلنا إلى نقطة الهزيمة على طريق الاقتصاد"، وفى ٣ يناير ١٩٦٨ وافق "هارولد ويلسون – Harold Wilson" و"چورچ براون – George Brown" وزير الخارجية على أن الطريقة الوحيدة لإنجاز هذه التخفيضات الكبيرة بالنسبة لبريطانيا كانت تقليل الخسائر شرقى السويس: ومقتنعة "بأننا لا يمكن أن نبقى فى الخليج الفارسى بعد انسحابنا من الشرق الأقصى"، توصلت الحكومة البريطانية إلى أن "إعلانا باكرا قد بات ضروريا"، لكى نعد "الإدارات المحلية المعنية لحماية المنشآت النفطية الأجنبية"(١٠٦).

بعد أسبوع عبر "چورچ براون" الأطلنطى حاملا الأخبار السيئة إلى إدارة چونسون التى لم يكن رد فعلها إيجابيا بشأن الانسحاب البريطانى المتوقع من الخليج الفارسى والشرق الأقصى باستثناء هونج كونج فى غضون ثلاث سنوات، وفى ١١ يناير أبرق "براون" إلى "وايت هول" بأنه "كان لقاء بالغ السوء فى واشنطن هذا الصباح مع "دين راسك"" الذى كان يزمجر "لقد أخطأنا فى تحديد أولوياتنا"، وكان يتوسل "أستحلفكم بالله... كونوا بريطانيا"(١٠٧) قال "راسك" بغضب إن ما كان مطلوبا هنا كان يصل إلى درجة انسحاب بريطانيا من الشئون العالمية، ولابد من أن يعرف "براون" أن "الولايات المتحدة لم تستطع ولن تستطيع أن تملأ الفراغ"(١٠٨).

مرددا ما قاله وزير خارجيته، كان "چونسون" مصرا على أن "انسحاب بريطانيا السريع من قواعدها فى كل من الشرق الأقصى والخليج الفارسى سوف ينجم عنه مشكلات خطيرة لأمن العالم الحر بأسره"، وناشد "هارولد ويلسون" أن يؤجل أى خطوات نهائية "شرقى السويس" إلى أن يتم عمل ترتيبات أخرى أكثر استقرارا"(١٠٩).

السفير "ديڤيد بروس – **David Bruce**" الذى نقل قلق "چونسون" إلى لندن كان يشك فى أن يكون لدى حكومة حزب العمال البريطانية أى مصلحة فى التأجيل. يقول فى برقيته إلى واشنطن فى ١٥ يناير إن قرارات "وايت هول" "الكارثية، المدمرة، الأنانية [و] قصيرة النظر" فى الخليج الفارسى والشرق الأقصى قد أفرزت أكثر ما يرثى له من قرارات اتخذتها أى حكومة بريطانية على مدى المائة والخمسين عام الأخيرة، فيما عدا ميونخ"(١١٠)؛ وفى غضون ساعات قليلة تلقى "ليندون چونسون" رسالة مؤثرة، "عزيزى ليندون"، من "هارولد ويلسون" تصف التخلى عن الإمبراطورية شرقى السويس باعتباره "أصعب وأثقل" قرار يمكن أن يتذكره هو وغيره من البريطانيين. كان "ويلسون" يقول إن ذلك "لا يعنى انسحابا بريطانيا من الشأن العالمى"، بل بالأحرى أن "الشعب البريطانى كان سئما ومرهقا ويرفض أن يظن به أنه يتحايل على العيش بأموال مقترضة"، وأنهى "ويلسون" رسالته بالقول "وبجعل

التزاماتها تتناسب مع مواردها، فإن بريطانيا يمكن أن تجد لها مكانا جديدا على المسرح العالمى، وهو ما أعتقد بشدة أن الشعب البريطانى يريده"(١١١).

فـى المساء نفسه على الجانب الآخر من الأطلنطى كان "آفريل هاريمان - Averell Harriman" صديق "ديفيد بروس" القديم الذى عمل مع كل الرؤساء الديمقراطيين منذ "فرانك روزفلت" خبيرا "وحلال عقد" دبلوماسية، كان يجرى حوارا باردا مع ممثل "هارولد ويلسون" فى واشنطن. "هاريمان" الذى كان يكنى بالتمساح لأنه لم يكن يهتم باختيار كلماته قال للسفير "باتريك دين": "من المستحيل أن نقبل هذا القرار باعتباره نهائيا، لابد من عكسه"، ورد عليه الدبلوماسى البريطانى: حسنا! ولكنه صدر". مصمما على أن الولايات المتحدة لا يمكن أن تكون القوة العالمية الوحيدة التى تقف إلى جنب العالم الحر" كان "هاريمان" يذكّر "دين"، مشاكسا، بأن "حكومتهم لها مصالح هائلة فى الشرق الأوسط" وبأن انكماش المملكة المتحدة "يفتح الباب بسهولة أمام الروس لكى يحلوا محلكم ويطردونا إلى ما هو أبعد من ذلك"(١١٢).

بينما عامل التمساح السفير بازدراء، تحرك "وولت روستو" الذى كان له نفوذ كبير على سياسة "ليندون جونسون" للعمل، متبنيا شعار "لا تبك على اللبن المسكوب... نظم!". فى ١٦ يناير أبلغ "روستو" الرئيس "جونسون" بأن هيئة مجلس الأمن القومى كانت قد بدأت تفكر فى "إمكانية أن تقوم الدول فى الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا بملء الفراغ الناجم عن انسحاب البريطانيين، وذلك بتشجيع منا"؛ وبالرغم من أن "روستو" كان يتوقع أن يبقى خط الدفاع على امتداد حد الپاسفيك مرنا إلى حد بعيد، فإنه كان يتوقع كذلك أن تقوم أستراليا وإندونيسيا واليابان فى آخر الأمر بدور "وايت هول" الاستراتيجى من مضايق "مالاكا" إلى بحر الصين. من جانب آخر كان الموقف فى الخليج الفارسى قد أصبح واضحا بالفعل. إيران والسعودية وكلاهما غنى وصديق مؤتمن، "كانتا متلهفتين على القيام بأدوار واسعة فى الدفاع الإقليمى ولكنهما "لم تكونا تعرفان كيف تبدآن"، وكان "روستو" يعتقد أن الإيرانيين والسعوديين "لو شجعتهما الولايات المتحدة وباعتهما السلاح" يمكن أن تقوما بملء الفراغ الذى سيخلفه رحيل بريطانيا من الشرق الأوسط(١١٣).

أدرك "ليندون چونسون" إيجابيات مشروع "روستو" فورا، وبسرعة وافقت واشنطن على طلبات الملك "فيصل" من السلاح بما فيها الطائرات النفاثة، كما وافقت على طلب الشاه الأخير لشراء معدات عسكرية، وتوسطت لحل نزاع معقد على حقوق التنقيب عن البترول البحرى فى الخليج الفارسى، وكان نزاعا يهدد بتسميم العلاقة بين السعودية وإيران(١١٤). فى نهاية هذا الخريف نفسه دعا "چونسون" كلا من الشاه وولى العهد السعودى الأمير "خالد" إلى البيت الأبيض لبحث قضايا الخليج الفارسى الأمنية(١١٥). كان للتعاون الوثيق بين الشاه و"فيصل" أهمية بالغة "كما أكد مسئولو الخارجية الأمريكية فى لقاءاتهم"، وذلك لضمان الاستقرار فى منطقة الخليج بعد انسحاب بريطانيا"(١١٦)، والحقيقة أن مستشارى "چونسون" ظلوا على قلقهم من ألا تكون السعودية وإيران على مستوى المهمة وأبلغوا المسئولين البريطانيين فى سپتمبر ١٩٦٨ "إذا بدأ الوضع فى التدهور بالفعل فإن الولايات المتحدة وكل من يهمه الأمر سوف يتجه نظره إلى البريطانيين"(١١٧)؛ ولكن عندما غادر "چونسون" البيت الأبيض بعد ذلك بأربعة أشهر، كانت أسس استراتيچية أمريكا الجديدة لضمان الاستقرار فى الشرق الأوسط كما هى. فى أوائل ١٩٦٩ بدأت البحرية الأمريكية عملا تمهيديا لمنشأة فى "دييجو جارسيا"، كما كانت السعودية وإيران فى الطريق إلى اتفاق خاص بمسئولياتهما المشتركة فى الخليج الفارسى، وكميات متواضعة من السلاح الأمريكى فى الطريق إلى الرياض وطهران.

بالرغم من إدارة "چونسون" كانت هى التى أعدت مسودة الاتفاق، فإن "ريتشارد نيكسون" هو الذى أعطى اسمه للمبدأ الاستراتيچى الأمريكى الجديد فى الشرق الأوسط. هذا الجمهورى القادم من كاليفورنيا والذى كان يعزو فوزه الصعب فى انتخابات نوفمبر ١٩٦٨ إلى الإحباط المتزايد بسبب حرب "چونسون" المكلفة وغير المجدية فى ڤيتنام، دخل البيت الأبيض فى ٢٠ يناير على أمل تقليل مخاطرة التورط العسكرى فى العالم الثالث، وذلك بالاعتماد على وكلاء محليين موالين للغرب، تقوم الولايات المتحدة بتسليحهم وتمويلهم. كان أول وأفضل مثال على هذا التوجه هو

نموذج "الفتنمة" الذى ظهر فى آسيا. على مشارف قمة مصغرة فى "جوام" فى أوائل منتصف الصيف مع رئيس فيتنام الجنوبية "نجوين ڤان ثيو – Nguyen Van Thieu"، أعلن "نيكسون" أن أصدقاء الولايات المتحدة الآسيويين كانوا سيضطلعون بجزء كبير من المبادرة ويتحملون كذلك القدر الكبير من عبء الحفاظ على أمن المنطقة أكثر مما كانوا فى الماضى، وعندما تطرق الأمر إلى "الدفاع العسكرى باستثناء خطر قوة كبرى يتضمن أسلحة نووية" قال خليفة "نيكسون" للمراسلين فى ٢٥ يوليو ١٩٦٩، بكلمات سرعان ما أصبحت تعرف بـ"**مبدأ نيكسون**"، إن "الولايات المتحدة سوف تشجع، ومن حقها أن تتوقع أن يتم تناول هذه المشكلة باستمرار وسوف تتحمل مسئولياتها الدول الآسيوية نفسها"(١١٨).

وبينما كان البنتاجون يتحرك بالتدريج نحو فتنمة الحرب البرية فى جنوب شرق آسيا والبدء فى سحب نصف المليون جندى كان "جونسون" قد أرسلهم إلى الهند الصينية، تحرك البيت الأبيض بسرعة لتطبيق **مبدأ "نيكسون"** فى الشرق الأوسط. قبل أن يطير "نيكسون" إلى "جوام" بأسبوعين كان قد وافق على فكرة دراسة لتناول "المشكلات الناجمة عن الانسحاب البريطانى من الخليج الفارسى"، وفى سبتمبر ١٩٦٩ قررت مجموعة العمل أن الخيار الأكثر جاذبية كان هو الاعتماد على نحو أكبر على السعودية الغنية بالنفط وعلى إيران باعتبارهما خفراء أمريكا فى المنطقة(١١٩). متلهفا على توسيع دوره الاستراتيچى فى الخليج الفارسى بين ١٩٦٩ و١٩٧٢ استخدم البيت السعودى عائداته النفطية المزدهرة فى مضاعفة دفاعاته من ٧٠٠ مليون دولار إلى ١,٤ بليون دولار، كما استخدم نفوذه الدبلوماسى للمساعدة فى إقناع ست مشيخات صغيرة فى جنوب شرق الجزيرة، كانت تحت الحكم البريطانى سابقا، لإنشاء اتحاد فيدرالى موال للغرب (الإمارات العربية المتحدة)؛ وبمباركة من إدارة "نيكسون" أنشأ الملك "فيصل" أيضا أكاديمية عسكرية للنخبة، تقدم تدريبا راقيا للضباط والطيارين السعوديين، كما اشترى عتادا عسكريا غربيا متنوعا، بما فى ذلك مقاتلات – قاذفات أمريكية من طراز "F-5E"(١٢٠).

أكثر العناصر حماسة لـ"**مبدأ نيكسون**" الجديد فى الشرق الأوسط كان شاه إيران، الذى كان حلمه الكبير لتحويل مملكته إلى قوة كبرى متسقا مع رغبة واشنطن فى نقل تكلفة الدفاع الإقليمى من على كاهل دافع الضرائب الأمريكى إلى كاهل وكلاء مستقرين مسلحين جيدا فى العالم الثالث. منذ أكتوبر ١٩٦٩ كان الشاه قد لخص للمسئولين الأمريكيين خططه لاستخدام رصيده المتنامى من البترودولارات لتمويل بنية عسكرية، يبدو إلى جوارها الجهد السعودى الموازى الذى كان قد بدأ على الخليج الفارسى، قزما صغيرا[١٢١]. فى سبتمبر ١٩٧٠ كانت المخابرات المركزية الأمريكية تصف الشاه بأنه "حاكم مستبد، قوى وواثق من نفسه" ويبدو "مصمما على أن يحقق لإيران وضعا قويا وقياديا فى الخليج الفارسى بعد الانسحاب البريطانى"[١٢٢]، وبعد ستة أشهر كان "وليم پ. روچرز – William P. Rogers" وزير الخارجية يصفه بأنه "رجل دولة" ويصف مملكته بأنها "قوة بَنَّاءة فى المنطقة"، ويحث إيران والسعودية ودول الخليج الأخرى على التعاون فى دعم الاستقرار والتقدم" فى المنطقة كلها[١٢٣]. و"الواقع" أن "چيمس نويز – James Noyes" مساعد وزير الدفاع وهو خبير بشئون الشرق الأوسط، كان يساعد "فوجى بوتوم" لوضع أسس "**مبدأ نيكسون**" فى ١٩٧١، كما ذكر فيما بعد، "كانت السعودية وإيران تتلقيان دعما من الولايات المتحدة من أجل قواتهما الخاصة ولحفظ السلام فى المنطقة"[١٢٤].

فى ٣٠ مايو ١٩٧٢ حلقت طائرة الرئاسة "Air Force One" عاليا فوق بحر قزوين وهبطت بالقرب من طهران. كان "نيكسون" و"هنرى كيسنجر" مستشاره للأمن القومى عائدين من اجتماع قمة مع الزعيم السوڤيتى "ليونيد بريچنيف – Leonid Brezhnev" فى موسكو ويتمنيان أن يكون "أحد حلفاء أمريكا المقربين وهو شاه إيران" قادرا على المساعدة لمنع الكرملين من الإفادة من "سحب وايت هول التاريخى لقواته وحمايته العسكرية للخليج الفارسى"[١٢٥]. قبل ثلاثة أسابيع كان خبراء الخارجية قد اقترحوا على الرئيس أن "يمتدح الشاه لبعد نظره واعترافه بمسئوليات إيران كقوة إقليمية، وأن يقول إن ذلك هو ما كان فى ذهنه بالتحديد عندما أعلن مبدأ

نيكسون"[١٢٦]. زائرا الشاه كانا مصممين على أن إيران لابد من أن تقوم بدورها كوكيل أمريكى عاجلا وليس آجلا، وكما يقول أحد المسئولين الأمريكيين، فإن "نيكسون" نظر فى عينى مضيفه وقال بكل بساطة "احمنى"[١٢٧] ولأنهما كانا يدركان جيدا أنه "لم تكن هناك أى إمكانية لتخصيص أى قوات عسكرية أمريكية للمحيط الهندى فى خضم حرب ڤيتنام والجراح المصاحبة لها" شعر "نيكسون" و"كيسنجر" بالارتياح "لأن إيران كانت على استعداد للقيام بهذا الدور". كل ما كان الإيرانيون ينتظرونه فى مقابل ذلك هو إمكانية الوصول إلى العتاد العسكرى غير النووى فى ترسانة الولايات المتحدة بما فى ذلك طائرات "F-14" و"F-15"؛ ولأن "الشاه كان على استعداد لأن يدفع ثمن هذه المعدات من عائدات النفط عنده"، ولأنه كان "حليفا مهما يحمل أعباء كان علينا أن نحملها" وعده "نيكسون" بأن يبيع الطائرات لإيران "وأضاف فقرة فى العقد بما يفيد أن طلبات إيران المستقبلية سوف يتم تلبيتها على الفور"[١٢٨].

بعد عودتهما إلى واشنطن، سرعان ما أثبت "نيكسون" و"كيسنجر" أنهما كانا يعنيان ما قالاه إذ وافق البيت الأبيض فى الحال على صفقة سلاح كانت تتضمن طائرات أسرع من الصوت وطائرات هيليكوپتر مقاتلة وقنابل موجهة بالليزر، وكان على البنتاجون أن يقوم بتسليمها "بأسرع ما يمكن"، وللتعجيل بالتسليم فإن قرار الحصول على المعدات كان متروكا للحكومة الإيرانية"[١٢٩]. عندما جاءت طلبيات الشراء فى خلال السنوات التالية لم يكن معروفا أن الشاه عليه أن يدفع ١٦،٢ بليون دولار – وهو مبلغ يقترب من سبعة أمثال ما كان قد أنفقه على مدى العقدين السابقين – ثمنا لطائرات ودبابات وسفن حربية وغير ذلك من الأسلحة المتقدمة. لم يضيع الشاه وقتا طويلا لكى يؤكد ويظهر تلهفه على حماية المصالح الغربية فى الخليج الفارسى، فعندما احتاج سلطان عمان إلى المساعدة لإخماد انتفاضة فى إقليم ظفار مدعومة من السوڤيت فى أوائل ١٩٧٣، أدخل الشاه البهجة على إدارة "نيكسون" باستخدام طائرات الهيليوكپتر الأمريكية – التى كان قد حصل عليها حديثا – لنقل ١٢٠٠ من جنود الكوماندوز الإيرانيين إلى جنوب شرق الجزيرة العربية. "نحن نحاول

أن نقضى على النفوذ السوڤيتى أينما ظهر، وأن نستنزفهم فى أى مغامرات يقومون بها". قبل نهاية العام، سوف تساعد إيران الولايات المتحدة فى تحقيق هذه الأهداف فى عمان(١٣٠).

بفضل الدعم الحماسى من أصدقاء أمريكا فى الرياض وطهران إذن، كان **مبدأ نيكسون** يبدو أكثر فعالية وأقوى تأثيرا فى الشرق الأوسط منه فى جنوب شرق أسيا بحلول منتصف التسعينيات وكان الشرق الأوسط أول موقع يطبق فيه. على خلاف النظام العميل لواشنطن فى ڤيتنام الجنوبية الذى تهاوى فى إبريل ١٩٧٥ مثل منزل من الورق المقوى بعد عامين من خروج آخر جندى من مطار "ثان سون نهوت" كانت السعودية وإيران تقفان برسوخ كعمودين أمريكيين قويين فى العالم الإسلامى؛ والحقيقة أنه عندما كان "چيرالد فورد" و"هنرى كيسنجر" يستعدان لاجتماع فى البيت الأبيض مع الشاه بعد أسبوعين من سقوط سايجون، كانا يشعران بالارتياح الشديد لأن السياسة الأمريكية فى الخليج الفارسى كانت تبدو راسية فى مياه أكثر أمانا من خليج تونكين، ففى ١٣ مايو ١٩٧٥ كان "هنرى كيسنجر" يؤكد لرئيسه فى المكتب البيضوى لو بقى الشاه فى مكانه لعدد كاف من السنوات، فلا شك فى أنه سيكون له دور أساسى، إن لم يكن الدور الحاسم، بين القوى الإقليمية للمساعدة فى ضمان الاستقرار فى منطقة الخليج الفارسى" و"إنها نقطة أساسية فى سياستنا على مدى السنوات الأخيرة أن نشجع إيران على زيادة تعاونها مع الدول المعتدلة الأخرى المعادية للشيوعية فى منطقة الخليج، وبخاصة المملكة العربية السعودية"(١٣١).

فى أواخر ١٩٧٦، كانت مصالح الولايات المتحدة الاستراتيچية فى الشرق الأوسط تبدو أكثر أمانا منها فى أى وقت مضى منذ بدأ البريطانيون انسحابهم البطىء قبل ثلاثين عاما. الخفراء المسلمون الموالون لأمريكا، المسلحون جيدا، كانوا يقفون حراسا على ضفتى الخليج الفارسى، بينما كانت البحرية الأمريكية تستكمل إنشاء ميناء ومركز اتصالات على دييجو جارسيا. وبالرغم من شحنات السلاح الروسى التى كانت قد سلمت قبل فترة قصيرة للعراق واليمن الجنوبى، كانت

المخابرات الأمريكية تشعر بالاطمئنان لأن "الثروة الزائدة أتاحت تأكيدا جديدا للذات لدى الدول المحلية الرئيسية، السعودية وإيران، اللتين كانتا مصممتين على إيقاف الزحف السوفيتي". بعد شهر من فشل "چيرالد فورد" فى أن يصبح رئيسا، أشار خبراء وكالة المخابرات المركزية إلى أن "إيران بخاصة، بفضل التنامى السريع لقوتها العسكرية، عبرت عن التزامها بأن تكون شرطى الخليج، وأن تطرد الدخلاء الأجانب". لم يكن الخطر الرئيسى، بالنسبة لعملاء أمريكا كما رأى محللو أجهزة الاستخبارات هو التدخل الأجنبى، كان الخطر بالأحرى هو عدم الاستقرار الداخلى؛ ورغم بعد الاحتمال فإن أى انقلاب راديكالى كان يعنى أن "الأبواب المغلقة الآن سوف تفتح أمام السوفيت فى أماكن أخرى فى الخليج، وأنهم سوف يوسعون وجودهم"[١٣٢]. وبالرغم من أن "فورد" و"كيسنجر" وغيرهما من كبار المسئولين الأمريكيين ظلوا واثقين من أن "**مبدأ نيكسون**" قد احتوى الكرملين، ووضع أساسا راسخا للنظام والتقدم فى الشرق الأوسط، فإن خلفاءهم سوف يشهدون أسوأ سيناريو للمخابرات المركزية الأمريكية.

● أمريكا تقف وحيدة: مبدأ كارتر

انتخب "چيمى كارتر" رئيسا فى نوفمبر ١٩٧٦، ربما لأن الناخبين كانوا يرونه أكثر أمانة من "ريتشارد نيكسون" وأكثر ذكاء – جدا – من "چيرالد فورد". وقد أكد هو نفسه هذه التصورات أثناء حملته الانتخابية عندما وعد بالقضاء على الفساد السياسى الداخلى المتمثل فى فضيحة "ووترجيت" الخاصة بـ"نيكسون"، وكذلك بكشف غموض كان يحيط بالوفاق السوفيتى الأمريكى الذى كان يتمثل فى أخطاء سياسة "فورد" الخارجية فى عام الانتخاب. أحد المجالات التى لم ينأ بنفسه عن سياسات أسلافه فيها كان الخليج الفارسى. "كارتر" تبنى "**مبدأ نيكسون**"، وواصل الاعتماد على شاه إيران للحفاظ على الاستقرار السياسى ومنع تدخل أو تطفل الكرملين. ولكن شهية الشاه التى كانت تبدو مفتوحة للعتاد العسكرى الأمريكى أعطت الرئيس الجديد فرصة للتأنى. الثورة المعادية للغرب التى هزت إيران وأسقطت أسرة "بهلوى" فى أوائل ١٩٧٩ جعلت صناع السياسة الأمريكية يتدافعون من أجل استراتيچية جديدة

فى المنطقة. بعد أن أرسل الروس قوات عسكرية إلى أفغانستان فى نهاية العام، كشف البيت الأبيض عن **مبدأ كارتر**، مشيرا إلى أن الولايات المتحدة - بعد لأى - كانت مستعدة - وإن على مضض - أن تتحمل عبء حماية المصالح الغربية فى الخليج الفارسى، ذلك العبء الذى حملته بريطانيا العظمى فى أوائل السبعينيات.

كانت السياسات التى ورثتها إدارة "كارتر" عن "نيكسون" و"فورد" تبدو لأول وهلة متمثلة فى أساليب محسوبة التكلفة وقليلة المخاطرة لمنع المتاعب فى جزء من العالم له أهمية استراتيجية. جهود الولايات المتحدة "لمساعدة وتشجيع إيران لكى تصبح قوة إقليمية تتحمل مسئوليات أمنية محدودة وتقوم بدور أكثر نشاطا بوجه عام يدعم مصالحنا المشتركة"، نجحت إلى حد بعيد، كما يشير تقرير لوزارة الخارجية بتاريخ ٣ يناير ١٩٧٧. "لقد قبلت إيران هذا الدور - لأنه كان متسقا مع رؤية الشاه لوضع إيران الرئيسى فى المنطقة - واستخدمت قواتها المسلحة (فى عُمَان) وقوتها المالية (فى قروض للهند وباكستان وأفغانستان ومصر والأردن وسوريا)، ونفوذها العام وذلك لتسوية النزاعات الإقليمية"[١٣٣]. "سايروس ڤانس - Cyrus Vance" الذى انتقل إلى الطابق السابع فى "فوجى بوتوم" بعد ثلاثة أسابيع كان يرى منطقا ما، فى سياسة الولايات المتحدة الجديدة فى المنطقة. "إصرار الشاه على أن إيران لابد من أن تتحمل مسئولية أكبر فى الخليج، كان يتصادف مع تبنى "**مبدأ نيكسون**" الذى كان يتصور الدول الرئيسية فى المنطقة كوكلاء للقوة العسكرية الأمريكية فى الحفاظ على النظام وسد الطريق أمام الزحف السوفيتى"، وهو ما ذكره "ڤانس" فى مذكراته: كما أن "إدارة كارتر" "كانت مدركة لأهمية إيران فى الشئون الأمنية الخاصة بالخليج الفارسى"[١٣٤].

"زبيچنيو بريچنسكى - Zbigniew Brzezinski" مستشار الأمن القومى الذى لم يكن يأخذ "ڤانس" على علاته فى كل شىء من حقوق الإنسان إلى نزع السلاح النووى، كان يشارك وزير الخارجية إيمانه بـ"**مبدأ نيكسون**" فى الخليج الفارسى. "بريچنسكى" الذى امتدح سلف "كارتر" لأنهم "بنوا" إيران والسعودية لتكونا "عمودين للأمن الإقليمى مدعومين من أمريكا" كان متفقا فى الرأى بأن الشاه كان قد أصبح

"الأصل الاستراتيجي الثابت والرئيسى لنا بعد فك الارتباط البريطانى شرقى السويس" أثناء سنوات "نيكسون" و"فورد"؛ وبعد سنوات كان يشير إلى أن "إدراكنا للأهمية المركزية الاستراتيچية لإيران جعلنا نختار الاستمرار فى هذه السياسة والموافقة على مبيعات سلاح مهمة" للشاه الذى كانت مملكته "محورا يحمى تلك المنطقة من الخليج الفارسى الغنية بالنفط من تدخل سوڤيتى محتمل"(١٣٥). "جارى سيك – Gary Sick" وهو أحد المسئولين الذين بقوا من "إدارة فورد" وبرز بسرعة ليكون أهم المتخصصين فى الشأن الإيرانى فى البيت الأبيض فى عهد "كارتر"، أكد أن سياسة نيكسون – كيسنجر بوضع مصالح الولايات المتحدة الأمنية فى الخليج فى يد الشاه بالكلية، كانت مستوعبة تماما من قبل بنية الإدارة والقوة الأمريكية"، ولكن الهبوط إلى "**مبدأ نيكسون**" كان واضحا بالنسبة لـ"سيك" الذى لاحظ بعد ذلك بفترة طويلة أن "الولايات المتحدة الآن ترقد عارية تحت الغطاء الخفيف للأمن الإيرانى"، مضيفا "عندما جاء الرئيس "كارتر" إلى البيت الأبيض، شئنا أم أبينا كانت إيران هى ذيل الكلب الوحيد الذى يتحرك فى المنطقة"(١٣٦).

بكل المعايير، كان رضا "چيمى كارتر" عن ذلك يقل بمرور الوقت فى البيت الأبيض، ولأنه كان قلقا من أن بيع السلاح المتواصل للشاه وغيره من العملاء المستبدين فى العالم الثالث فى ظل "**مبدأ نيكسون**" قد يحول الموارد عن التنمية الاقتصادية ويقلل من احترام حقوق الإنسان ويضعف الاستقرار السياسى على المدى الطويل، أرسل "كارتر" وزير الخارجية "سايروس ڤانس" إلى طهران فى مايو ١٩٧٧ على أمل تطوير "أسلوب أفضل لتحديد احتياجات إيران العسكرية فى المستقبل وأفضل الطرق لتلبيتها". أكد "ڤانس" للشاه أن إدارة "كارتر" كانت ما تزال راغبة فى العمل معه عن كثب من أجل خطة "لحرمان السوڤيت من فرص زيادة نفوذهم" فى الخليج الفارسى، كما أكد له أن واشنطن سوف تسلمه المقاتلات "F-16" وطائرات الاستطلاع الإلكترونى "أواكس – AWACKS"، التى كانت إيران قد طلبتها من قبل، ولكن ليس "F-18"، وبمودة شديدة ذكَّرَ الشاه بأن الديمقراطى الچيورچى كان يعتبر "أولوية حقوق الإنسان هدفا قوميا".

وبالرغم من أن "ڤانس" عاد من طهران مقتنعا بأن الزيارة قد تمت بشكل معقول، حاول ذيل الكلب أن يهتز على الفور، فكان "أردشير زاهدى – Ardeshir Za-hedi" سفير الشاه يشكو فى ٢٨ مايو من أن قيود "كارتر" الصارمة على مبيعات السلاح جاءت "مخيبة للآمال"، على ضوء تحالف إيران غير الرسمى مع الولايات المتحدة، كما كان يتساءل بينه وبين نفسه "وهل هذه علاقة خاصة؟!"، وكان رد "ڤانس" هو أن واشنطن كانت تنوى بالفعل مواصلة تزويد طهران "بأسلحة متقدمة لتعويض العيوب النوعية وغيرها وذلك لكى تحافظ على التوازن فى المنطقة"؛ والواقع أنه ذَكَّر "زاهدى" بأن "مبيعاتنا من السلاح هذا العام لإيران، ستكون أكبر منها لأى دولة أخرى، وحوالى نصف إجمالى الكمية"، وليطمئن "زاهدى"، باختصار، أن "هناك صداقة خاصة بين الولايات المتحدة وإيران وأن هذه الصداقة سوف تستمر"(١٣٨).

عندما زارر "محمد رضا بهلوى" الولايات المتحدة بعد ذلك بستة أشهر كانت هناك علامات تدل على فتور العلاقة بمرور الوقت، وعندما كان يخطو فى حديقة البيت الأبيض الجنوبية فى ١٥ نوفمبر وبجانبه الرئيس "كارتر" كانت فى استقباله هتافات عدائية من ألوف الإيرانيين الذين تدفقوا من الجامعات والمعاهد للتعبير عن سخطهم وإحباطهم بسبب الحكم المستبد فى بلادهم. على وجه السرعة حاولت الشرطة المرتبكة تفرقة الجموع مستخدمة قنابل الغاز المسيل للدموع الذى حمله الهواء فى اتجاه الرئيسين لينسحبا إلى الداخل وعيونهما تدمع؛ وبمجرد دخولهما، وبعد أن جفف الشاه عينيه قدم عرضا مبهرا لكارتر وكبار مستشاريه "بتحليله الرائع للوضع المضطرب فى الخليج الفارسى" حيث كانت إيران تستخدم العتاد العسكرى الأمريكى لحماية المصالح الغربية؛ ولكن عندما أشار "كارتر" إلى أن الملالى والطلبة من أبناء الطبقة الوسطى كانوا يجعلون من حقوق الإنسان قضية أساسية فى إيران وطلب من الشاه التفكير فى "تخفيف بعض الإجراءات والسياسات البوليسية"، كان صمت مطبق، ثم رد الشاه وهو بادى الحزن "لا أستطيع أن أفعل شيئا، لابد من تطبيق القوانين الإيرانية التى وضعت لمقاومة الشيوعية"، كما كان مصمما على أن "المنشقين

مثل أولئك الذين كانوا يهتفون: الموت للشاه خارج البيت الأبيض" كانوا "شرذمة ضئيلة ليس لها أى تأييد من الشعب الإيرانى"[١٣٩].

رغم تشككه فى أن سياسات الشاه البوليسية الثقيلة سوف تنتهى فى آخر الأمر، كان "كارتر" ما زال يأمل فى الأفضل. وعلى عشاء فى البيت الأبيض فى المساء نفسه راح يهون من شأن حديث الصباح "غير الملائم" مازحا: "هناك شىء واحد يمكن أن أقوله عن الشاه، وهو أنه يعرف كيف يجتذب الجماهير"، كما حيا ضيف الشرف باعتباره "عنصر توازن.. فى أرجاء الخليج الفارسى والمحيط الهندى، وبدرجة متنامية من النفوذ فى العالم الغربى"[١٤٠]. بعد ذلك بستة أسابيع، وفى احتفال أقامه الشاه ليلة رأس السنة فى طهران، كان الديمقراطى الچيورچى يرفع نخب الملك الفارسى باعتباره حليفا قويا وصديقا وفيا، و"بفضل القيادة العظيمة للشاه، فإن إيران جزيرة استقرار فى واحد من أكثر بحار العالم اضطرابا"[١٤١]. كانت تلك كلمات "كارتر" التى تدفقت والتى سرعان ما سيتضح خواؤها.

حتى عندما هزت الثورة الإسلامية عرش الطاووس فى النصف الأول من عام ١٩٧٨، كان قليل من المسئولين الأمريكيين على استعداد للاعتراف بأن أحد العمد المركزية لمبدأ نيكسون كان على وشك الانهيار، وكان "جارى سيك"، خبير الملف الإيرانى فى مجلس الأمن القومى يتذكر أن "استراتيچية أمريكا لأمن الخليج الفارسى والمحيط الهندى وكل جنوب شرق آسيا كانت على مدى أكثر من عقد مؤسسة على فرضية أن إيران كانت، وسوف تظل، قوة إقليمية قادرة ومستقرة تتطابق مصالحها مع مصالح الولايات المتحدة". وعندما وصل "آية الله الخمينى" بالثورة الإيرانية إلى تصعيد كبير فى أوائل ١٩٧٩، كان مستشارو "كارتر" يسألون أنفسهم: "كيف يمكن الحفاظ على مصالح السياسة الأمريكية فى حال سقوط الشاه؟"[١٤٢].

قبل نهاية العام سوف يجعل الغزو السوڤيتى لأفغانستان الإجابة عن هذا السؤال أكثر صعوبة... وأكثر أهمية كذلك. وباعتبارها أرضا مجدبة.. ودون منافذ بحرية.. ومملكة جبلية، كانت أفغانستان دائما دولة حاجزة: فى البداية بين

الإمبراطوريتين التوسعيتين البريطانية والروسية ثم بين العالم الحر والكتلة السوفيتية بعد ١٩٤٥. ومثلما كان الحال فى طهران القريبة، فإن التحديث السريع ولد غليانا سياسيا خطيرا فى "كابول" حيث استولى الشيوعيون الأفغان على السلطة بانقلاب دموى فى أبريل ١٩٧٨؛ وبالرغم من أن ما حدث فى أفغانستان كان أخبارا طيبة بالنسبة للكرملين، كما كان "سايروس ڤانس" يذكر فيما بعد، "لم يكن لدينا أى دليل على تواطؤ السوڤيت فى هذا الانقلاب"[١٤٣]. لم يكن "ڤانس" ولا زملاؤه سعيدين باستيلاء الشيوعيين على السلطة فى كابول، وبعد ثورة أبريل كان "جارى سيك" يقول: "إن أفغانستان حتمية مثل فنلندا، ولكن هنغاريا أفغانية خطر إيجابى على الاستقرار بعيد المدى فى المنطقة بأسرها"[١٤٤].

بحلول ربيع ١٩٧٩ كانت الأخبار القادمة من أفغانستان تبدو كأنها قادمة من بودابست أكثر منها من هلسنكى؛ وبعد أن وجد نفسه متورطا فى حرب طاحنة فى الميليشيات الإسلامية طلب النظام اليسارى فى كابول مساعدة موسكو التى أرسلت مئات المستشارين العسكريين فى مارس. فى قمة مع "بريچنيڤ" بعد ثلاثة أشهر كان "كارتر" يلمح إلى أن المزيد من التدخل الروسى فى أفغانستان يمكن أن يفسد الوفاق السوڤيتى الأمريكى، وفى ١٧ يونيو أشار إلى أن "هناك مناطق معينة ذات أهمية حيوية... فى الخليج الفارسى وشبه الجزيرة العربية" وإلى أن "هناك مشكلات كثيرة فى "إيران وأفغانستان"، ومن جانبها "فإن الولايات المتحدة لم تتدخل فى الشئون الداخلية لهذه الدول" كما قال لـ"بريچنيف"، الذى لم يرتح لذلك وقال متذمرا: "إن الزعماء السوڤيت من جانبهم حريصون تماما على عدم تصنيف الولايات المتحدة "خصما" أو "عدوا"، كما أننا نريد المعاملة نفسها من جانبكم"[١٤٥].

قبل أن ينتهى العام ستصبح العلاقة بين واشنطن وموسكو عدائية بشكل واضح؛ وبينما كان "كارتر" و"بريچنيف" يتبادلان الرأى حول أفضل السبل لمراجعة اتفاقية "SALT II" وأهمية وضع لواء عسكرى فى كوبا، كان الوضع فى أفغانستان يسير من سيىء إلى أسوأ، وبينما كان القتال دائرا بين شيوعيين منقسمين على

بعضهم مما أضعف الحرب ضد الراديكاليين كما أضعف التأثير السوفيتى، نقل الكرملين ليلة عيد الميلاد الآلاف من الكوماندوز الروس إلى أفغانستان لتثبيت نظام موال للسوفيت تماما فى السلطة. بعد أسبوع أبلغ كبار مستشارى "بريچنيف" المكتب السياسى بأنه "على ضوء هذا الوضع السياسى بالغ الصعوبة الذى يتهدد مكاسب ثورة أبريل ويشكل خطرا على مصلحتنا فى الحفاظ على أمننا القومى، تم اتخاذ قرار بإرسال ما هو ضرورى فقط من القوات السوفيتية إلى أفغانستان"، وبالرغم من احتمال وجود دلائل على غير ذلك فى الأرشيفات الروسية، فإن ما أُفْرِجَ عنه من وثائق حتى الآن يدل على أن التدخل السوفيتى فى كابول، ربما كان مناورة دفاعية، ولم يكن الخطوة الأولى فى خطة رئيسية للكرملين لطرد الولايات المتحدة من الخليج الفارسى(١٤٦).

بالرغم من ذلك كان الموقف يبدو مختلفا من وجهة نظر واشنطن. على مدى أكثر من عام كان "بريچنسكى" مستشار الأمن القومى يحذر "چيمى كارتر" من "قوس أزمة" ممتد من القرن الأفريقى إلى الخليج الفارسى حيث كان رحيل بريطانيا وسقوط الشاه والتدخل الروسى كلها عوامل تهدد مصالح الولايات المتحدة. بعد ساعات قليلة من وصول الجيش الأحمر إلى كابول أبلغ "بريچنسكى" رئيسه بأن "السوفيت إذا نجحوا فى أفغانستان فإن حلم العمر بالنسبة لموسكو بالوصول إلى المحيط الهندى سيكون قد تحقق" على حساب أمريكا، مضيفا أن "البريطانيين، تاريخيا، كانوا بمثابة العائق أمام هذا المسعى، كما كانت أفغانستان هى الدولة العازلة، وقد اضطلعنا بهذا الدور فى ١٩٤٥ ولكن الأزمة الإيرانية أدت إلى انهيار ميزان القوى فى جنوب شرق أسيا ويمكن أن تسفر عن وجود سوفيتى على ضفتى الخليج العربى وخليج عُمَان"(١٤٧). كان على "كارتر" أن يتحرك بحسم من أجل صنع "حزام أمنى جديد" وكان ذلك أيضا هو رأى "بريچنسكى" فى أيام الضعف فى ١٩٧٩، ليس من أجل "إعادة تأكيد قوة الولايات المتحدة ونفوذها فى المنطقة فحسب"، وإنما أيضا بهدف "إظهار صلابة موقفها"(١٤٨). من ناحية أخرى كان وزير الخارجية "سايروس ڤانس" يؤثر ضبط النفس، إذ يقول فى مذكراته: "كان من رأيى أن موسكو تصرفت على ذلك

النحو لحماية المصالح السوفيتية السياسية فى أفغانستان، التى كانوا يرونها معرضة للخطر، كانوا يخشون أن تحل حكومة إسلامية أصولية محل النظام القائم، وكان ذلك يمكن أن يتبعه بالتالى انتشار "حمى الخمينى" وانتقالها إلى دول أخرى على امتداد الحدود الجنوبية الروسية"(١٤٩).

ولأن "كارتر" كان مشغولا بأحداث إيران واحتجاز الراديكاليين الإيرانيين لاثنين وخمسين أمريكيا كرهائن، ولأنه كان أمام بيانات من الدوائر الانتخابية تشير إلى أن الناس كانوا يعتبرونه ضعيفا وبالتالى فإن إعادة انتخابه فى نوفمبر ليست مضمونة، أخذ موقف مستشاره للأمن القومى. فى ٢٧ ديسمبر أخبر "هاميلتون چوردان – **Hamilton Jordan**" رئيس أركان البيت الأبيض بأن "هذا عدوان متعمد يضع الوفاق موضع المساءلة، وكذلك أسلوب تعاملنا مع السوفيت على مدى العقد الماضى"(١٥٠). "لقد كانت تلك هى المرة الأولى التى يستخدمون فيها قواتهم العسكرية لتوسيع مجال نفوذهم منذ أن أطاحوا حكومة تشيكوسلوفاكيا فى فبراير ١٩٤٨"، كان ذلك ما ذكره "كارتر" فى مذكراته.. مع التحية لـ"هارى ترومان"، "استيلاء ناجح على أفغانستان سيعطى السوفيت فرصة للتغلغل العميق بين إيران وباكستان ويشكل خطرا على حقول النفط الغنية فى منطقة الخليج الفارسى"(١٥١).

فى ٢ يناير ١٩٨٠، كان ذلك الديمقراطى الچيورچى المستعد للمعركة ومجلس أمنه القومى يتبنون خطا متشددا إزاء ما كانوا يعتبرونه عملا عدوانيا غير مسبوق من قبل السوفيت. الولايات المتحدة ستفرض حظرا على صادرات القمح إلى روسيا، وسوف تنسحب من دورة الألعاب الأوليمبية الصيفية التى ستعقد فى موسكو، وسوف تشكل "قوة انتشار سريع" قادرة على نقل قوات أمريكية إلى الخليج الفارسى فورا، كما جعل الرئيس "**مبدأ كارتر**" الجديد محور خطابه عن حالة الاتحاد بعد ذلك بثلاثة أسابيع؛ وكما قال للأمة فى ٢٣ يناير "إن ما ينطوى عليه الغزو السوفيتى لأفغانستان يمكن أن يمثل التهديد الأكثر خطورة على السلام منذ الحرب العالمية الثانية".

مرددا صوت الديمقراطى الميسورى الذى كان فى الموقف نفسه قبل جيل، أصدر الرئيس "كارتر" دعوة للسلاح وقال جادا: "فليكن موقفنا واضحا، إن أى

محاولة من أى قوى أجنبية للسيطرة على منطقة الخليج الفارسى سوف تعتبر عدوانا على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية، وسوف يتم صد مثل هذا العدوان بكل الوسائل الضرورية بما فى ذلك القوة العسكرية"(١٥٢).

لم تكن الإشارة إلى "**مبدأ ترومان**" كما ذكَّر "بريچنسكى" الرئيس "كارتر" فى أول يناير "لديك الفرصة لعمل ما عمله الرئيس "ترومان" بالنسبة لليونان وتركيا" و"ربما يكون عليك أن تفكر فى مبدأ لـ"كارتر"(١٥٣). بعد عدة سنوات سوف يزيل "بريچنسكى" ما تبقى من شكوك عن هذا الأمر عندما يكتب صراحة فى مذكراته أن "**مبدأ كارتر** كان على نمط مبدأ ترومان"(١٥٤).

كما ألمحت المذكرات إلى أنه كان هناك جانب سرى فى "**مبدأ كارتر**" بالنسبة لأفغانستان. قبل تسعة أشهر من دخول الجيش الأحمر "كابول"، كان "بريچنسكى" يعبر عن "قلقه بسبب التدخل السوڤيتى المتزايد فى أفغانستان"، وكان كله إصرار على أن واشنطن لابد من أن تكون "أكثر تعاطفا مع أولئك الأفغان الذين كانوا مصممين على الحفاظ على استقلال بلادهم"(١٥٥). "وولتر سلوكومب – Walter Slocombe" الخبير بـ"البنتاجون" كان من رأيه، كما كان يتساءل، ما إذا كان الدعم الأمريكى السرى للعصابات الإسلامية سوف ينجح فى "استدراج السوڤيت إلى مستنقع ڤيتنامى"(١٥٦). فى ٦ أبريل ١٩٧٩ أعطت لجنة التنسيق الخاصة، وهى مجموعة داخلية كان يرأسها "بريچنسكى"، تعليماتها للمخابرات المركزية بوضع خطة شاملة لحرب سرية فى أفغانستان مدعومة من الولايات المتحدة تتراوح بين "المساعدات المالية غير المباشرة للمتمردين" و"الدعم بالسلاح"، وبعد ثلاثة أشهر وقع الرئيس "كارتر" قرارا يسمح للوكالة بالبدء فى مساعدة المجاهدين الأفغان كما كان المتمردون المسلمون يطلقون على أنفسهم، وذلك بواسطة الدعاية والمال والإمدادات غير العسكرية، وسرعان ما وضع الرئيس الباكستانى "محمد ضياء الحق" الذى تشترك بلاده مع أفغانستان فى حدود طويلة ومفتوحة تقريبا جهاز استخباراته **(ISI) (Inter - Services Intelligence Agency)** فى خدمة تهريب السلاح للعصابات المعادية للسوڤيت المجاورة

له[١٥٧]؛ وبفضل هذه المساعدات السرية من باكستان والولايات المتحدة كان المجاهدون مستعدون فى ديسمبر ١٩٧٩ لمقاومة السيطرة السوفيتية[١٥٨].

على مدى السنوات العشر التالية سوف تضخ إدارتا "كارتر" و"ريجان" ما يقرب من ٣ بلايين دولار فى أفغانستان لمساعدة المقاومة الإسلامية فى الحرب ضد الرئيس "بابراك كارمال – **Babrak Karmal**" الموالى للسوفيت وخليفته المماثل "محمد نجيب الله" وقوات سوفيتية خاصة قوامها مائة ألف مقاتل.

بحلول يوليو ١٩٨٠، كانت واشنطن تزود المجاهدين بكل شىء، من مدافع "**AK-47**" السوفيتية الهجومية المستولى عليها، إلى منصات إطلاق الصواريخ الصينية وذلك عبر خط إمداد برعاية الـ"**CIA**" والـ"**ISI**" يمر بـ"بشاور"، المدينة الباكستانية الحدودية القريبة من ممر خيبر. بعد أن أصبح الاحتلال السوفيتى لأفغانستان قضية ساخنة فى حملة الجمهوريين الانتخابية فى فصل الربيع التالى التى نجحت فى النهاية فى جعل "كارتر" رئيسا لفترة واحدة، كشف "ستانسفيلد تيرنر – **Stansfield Turner**" مدير وكالة المخابرات المركزية عن أن وكالته "كانت تدفع بكل ما كان الباكستانيون مستعدين لاستلامه من خلال خط الإمداد"[١٥٩].

لم يضيع "رونالد ريجان" ومدير مخابراته المركزية "وليم كيزى – **William Casey**" وقتا طويلا لابتكار طرق لتقديم الدعم المالى والسلاح والاستشارات للمقاتلين الأفغان، ففى أواخر ١٩٨٢ مثلا سأل "روبرت ماكفرلين – **Robert McFarlane**" نائب مستشار الأمن القومى الأمير "بندر بن سلطان"، ممثل البيت السعودى فى واشنطن، ما إذا كانت حكومة بلاده على استعداد للمساعدة فى تمويل حرب المجاهدين ضد السوفيت، وقال فيما بعد: "كان السعوديون مدركين أن مصالحنا فى صد الماركسية تتطابق مع مصالحهم"، ومع الوقت سيقومون هم أيضا بضخ ما يقرب من ٣ بليون دولار فى حملة المخابرات المركزية السرية فى أفغانستان.

ومن بين أوائل الذين وضعوا مثل هذه الأموال للاستخدام ضد الجيش السوفيتى كان "أسامة بن لادن"، وهو مهندس سعودى، كان آنذاك فى أواخر

العشرينيات من العمر[١٦٠]. في الوقت نفسه أصدر البيت الأبيض في أوائل ١٩٨٣ قرار مجلس الأمن القومي رقم ٧٥، الذي جعل من الحرب الأفغانية مركزا لما أصبح يعرف بـ"**مبدأ ريجان**" كما كان بمثابة مسودة لزعزعة "إمبراطورية الشر". كان هدف أمريكا الرئيسي في أفغانستان، كما أكده من وضعوا القرار هو "الحفاظ على ضغط مستمر على موسكو من أجل الانسحاب وضمان أن تظل التكلفة السياسية والعسكرية السوفيتية باهظة ما بقي الاحتلال"[١٦١].

باقتراب العقد من نهايته كان السوفيت وعملاؤهم قد أدركوا أنهم كانوا يحاربون معركة خاسرة ضد المجاهدين، وبحلول عام ١٩٨٦ كانت إدارة "ريجان" قد سربت ٦٠ جنديا من قوات العمليات الخاصة إلى أفغانستان حيث قاموا بتنسيق تدفق الإمدادات إلى جيش العصابات الذين ارتفع عددهم إلى ثلاثين ألفا، وكانوا يدربون المتمردين على استخدام الأسلحة المتقدمة مثل صواريخ "ستنجر" المحمولة على الكتف والتي كانت تسقط مروحيات السوفيت المسلحة. بمجرد أن قرر الكرملين أن يقلل خسائره واللجوء إلى السلام بعد ثلاث سنوات، كانت مسألة وقت لكي يتحطم نظام نجيب الله الموالي للسوفيت في أبريل ١٩٩٢. في مذكراته التي نشرت بعد وفاته يقول "تشارلز كوجان - Charles Cogan" الرئيس السابق لقسم الشرق الأوسط في الوكالة إنها "كانت حرب المخابرات المركزية الأمريكية، لم تكن هناك قوات عسكرية أمريكية متورطة ولم يقتل فيها جنود أمريكيون[١٦٢].

في أوائل التسعينيات كان "كوجان" ومساعدوه يقللون من أهمية طول الحرب وتكلفتها لكي يؤكدوا نجاحها. قلة هم الذين سوف ينكرون أن انتصار واشنطن السري في أفغانستان ساعد في الإسراع بانتهاء الحرب الباردة، إلا أن الكشف عن أن الإرهابيين المسلمين الذين فجروا مركز التجارة العالمي في نيويورك في أوائل ١٩٩٣، متطرفو طالبان الذين أنشأوا جمهورية إسلامية شديدة العداء للولايات المتحدة في "كابول" في أواخر ١٩٦٩، قد تعلموا حرفتهم عندما كانوا يساعدون المخابرات المركزية في مقاومة الجيش الأحمر في أفغانستان، وهم الذين جعلوا

العمليات السرية الناجحة للوكالة مليئة بالثقوب[١٦٣]، والحقيقة أن بعض خبراء الحرب الباردة كان من رأيهم أن الانسحاب السريع من ساحة الحرب الأفغانية كان ثمنا قليلا لهزيمة الكرملين. فى أواخر ١٩٩٨ عندما سؤل "بريچنسكى" ما إذا كان لديه أى شعور بالندم لمساعدة المجاهدين قال: "على مدى عشر سنوات تقريبا كان على موسكو أن تستمر فى حرب... جلبت الانهيار المعنوى وانهيار الإمبراطورية السوڤيتية فى آخر الأمر، فما الأكثر أهمية فى تاريخ العالم؟ طالبان أم تحرير أوروبا الوسطى وانتهاء الحرب الباردة؟"[١٦٤]، وبالرغم من ذلك فإن الإجابة عن هذا السؤال الإنكارى بالنسبة لمعظم الأمريكيين كانت تبدو أقل وضوحا بعد ١١ سپتمبر ٢٠٠١ عندما هاجم "أسامة بن لادن" صديق الأفغان نيويورك سيتى وواشنطن، أكثر منها عندما كشف "بريچنسكى" عن "**مبدأ كارتر**" لأول مرة قبل عقدين من الزمن.

كان مبدأ أمريكا الاستراتيچى قد اكتمل منذ أن بدأت الولايات المتحدة – على مضض – الاضطلاع بعبء كانت بريطانيا العظمى تحمله شرق السويس بعد الحرب العالمية الثانية. كيف يمكن احتواء الاتحاد السوڤيتى والحفاظ على الأمن الإقليمى، وربما بلغة المجاز، كيف يمكن تطبيق "**مبدأ مونرو**" على الشرق الأوسط؟ كان ذلك هو اللغز الذى أرهق صناع السياسة الأمريكية على مدى أكثر من خمسين عاما.

مشغولا بسلسلة من الأزمات فى أوروبا الوسطى وشرق آسيا، كان "هارى ترومان" يأمل فى منع زحف جديد من "الكرملين" فى الشرق الأوسط، بالجمع بين دولارات الولايات المتحدة وبراعة ودهاء بريطانيا لإطلاق منظمات جماعية دفاعية مثل "MEC" و"MEDO"، وبمجرد أن لطخ دور بريطانيا الكبير مثل هذه المبادرات برائحة الاستعمار، ضغط "إيزنهاور" على "وايت هول" لكى يحددوا مسئولياتهم عن الخليج الفارسى، ويبنى سياسة التدخل الأمريكى العسكرى المنفرد أمام المكاسب السوڤيتية فى أماكن أخرى من المنطقة. وبعد أن لطخ "**مبدأ إيزنهاور**" الولايات المتحدة نفسها بفرشاة الامپريالية، تحول "چون كينيدى" و"ليندون چونسون" نحو التوكيلات المحلية مثل إيران والسعودية، لإحباط الراديكاليين الموالين لروسيا، واضعين بذلك ما أصبح

يعرف بـ"**مبدأ نيكسون**". وبعد أن شكلت الفورات الإسلامية خطرا على هذه التوكيلات وحرضت التدخل السوڤيتى فى أفغانستان أعملت واشنطن "**مبدأ كارتر**" ووقفت بمفردها ضد موسكو فى جنوب شرق أسيا.

على مستوى ما، تبدو المبادئ الأربعة وكأنها انتهت نهايات سعيدة، بالولايات المتحدة تقوم بدور بريطانيا وبالخليج الفارسى أمنا مطمئنا بعيدا عن متناول الكرملين. خلال عقد الثمانينيات ومطلع التسعينيات كان خليفة "چيمى كارتر" يحاول أن يحسن من أسلوب تعامله مع ملف الشرق الأوسط. "**مبدأ ريجان**" وسع دعم الولايات المتحدة السرى "لمقاتلى الحرية" المعادين للسوڤيت فى أفغانستان. "**مبدأ پاول**" الذى أكمله "چورچ بوش" ورئيس أركانه العامة فى ١٩٩١ قَوَّى استراتيچية "كارتر" للدفاع عن الخليج الفارسى. ما يسمى بـ"**مبدأ كلينتون**" أدخل واشنطن منطقة ما بعد الحرب الباردة مع سياسة "الاحتواء المزدوج" الموجهة نحو إيران والعراق، وهما الدولتان المارقتان الأكثر احتمالا لخلافة موسكو كخطر رئيسى على مصالح الولايات المتحدة فى المنطقة، كما كان يرى المسئولون الأمريكيون.

بحلول أواخر عقد التسعينيات كان من الواضح أن التعلق المرضى بمقاومة الخطر السوڤيتى قد أدى بجيل من صناع السياسة الأمريكية إلى أن يغفلوا النزعة القومية الثورية والإسلام الراديكالى بين شعوب العالم الإسلامى. لم يكن من قبيل المفاجأة أن القاعدة عندما كانت تستكمل خططها من أجل الحادى عشر من سپتمبر فى صيف ٢٠٠١، كان "چورچ بوش" وفريقه الجديد من المستشارين الذين جاء بهم إلى واشنطن مشغولين بصواريخ الدفاع البالستية وبالتوسع السوڤيتى على امتداد الحزام الشمالى وبقضايا قديمة أخرى تعود إلى أخر سنوات الحرب الباردة.

هجوم "أسامة بن لادن" على الأراضى الأمريكية كان على الأقل صدمة كبيرة لمديرى الأمن القومى فى "إدارة بوش"، مثل استيلاء الشيوعيين على السلطة فى الصين والحرب الكورية بالنسبة لسلفهم قبل نصف القرن، وكان ردهم هو الدعوة إلى حرب كونية على الإرهاب كان مجالها وأهدافها وخطابها تعكس دعوة "ترومان"

لعسكرة الاحتواء، مع تبنى قرار مجلس الأمن القومى رقم "٦٨" فى ربيع ١٩٥٠ – فى سبتمبر ٢٠٠٢ كشفت "إدارة بوش" عن استراتيچية جديدة للأمن القومى هدفها مقاومة "الخطر الأخضر" للإرهاب الإسلامى باللجوء إلى تكتيك واحد على الأقل، لم يكن "هارى ترومان" مستعدا أبدا لاستخدامه ضد "الخطر الأحمر" للشيوعية العالمية وهو الحرب الوقائية.

"**مبدأ بوش**" الجديد هذا، وضع الأساس المنطقى لغزو العراق بعد ستة أشهر وللاحتلال الذى تبع ذلك. منذ خريف ٢٠٠٧ كان الحكم على الأمور ما زال معلقا... هل يمكن أن يكون "التحرير" أكثر فعالية من "الاحتواء" للحفاظ على مصالح الولايات المتحدة وحمايتها فى الشرق الأوسط؟ ربما تكون المبادئ الأربعة المصممة لاحتواء الشيوعية العالمية قد منعت التوسع السوڤيتى فى فترة الحرب الباردة، ولكن الذى اتضح هو أنها لم تكن فعالة إلى حد كبير فى منع الهبّات والفورات الوطنية، من مصر إلى ليبيا ومن إيران إلى العراق، التى أربكت المسئولين الأمريكيين خلال العقود الأربعة بعد ١٩٤٥.

بـ"تحرير" العراق من حكم "صدام حسين" الوحشى، الذى كان لقوميته العلمانية أوجه شبه كثيرة باشتراكية "عبد الناصر" العربية أكثر منها بتطرف أسامة بن لادن، فإن إدارة بوش خلقت، دون قصد، أرضا خصبة لجماعات إرهابية مثل القاعدة فى بلاد الرافدين، لم تكن موجودة قبل مارس ٢٠٠٣. "چورچ دبليو بوش" مثل "دوايت إيزنهاور" و"چون كينيدى" من قبله، كان يتعلم درسا قاسيا، مفاده أن: فى الشرق الأوسط، أكثر منه فى أى مكان آخر... الشيطان الذى تعرفه أفضل من ذلك الذى لا تعرفه.

■ بالرغم من أن الأمريكيين يعدلون أو يلغون بعض قوانينهم باستمرار، فإنهم يعبرون عن عواطف ثورية يمكن ملاحظتها بسهولة من اليقظة التى يكبحون بها جماح أنفسهم ويهدئون من روعهم عندما يصبح هياج العامة مزعجا، وفى اللحظة التى تتأجج فيها المشاعر، فهم يخشون ثورة على أسوأ الفروض وكل منهم موطد العزم داخليا على القيام بتضحيات لتجنب مثل هذه الكارثة.

"ألكسس دى توكفى – Alexis de Tocqueville"

(1931)

■ من منظور تاريخى، أعتقد أن الثورة المصرية ستكون بالنسبة للشرق الأوسط مثلما كانت الثورة الفرنسية بالنسبة لأوروبا، فهى أيضا كان لها زعماؤها الذين لا يفكرون سوى فى أنفسهم ودوائر قوتها وقوميتها السياسية، ولكنها أطلقت القوى التى غيرت فى النهاية نمط الحياة الاجتماعية فى معظم أرجاء أوروبا.

هذا ما بدأت الثورة المصرية تفعله فى الشرق الأوسط، وسبب إشعالها النار على نحو أو آخر فى كل بلد.

"جون اس. بادو – John S.Badeau"

(1958)

الفصل الخامس

تعاطف مع الشيطان؟!

• أمريكا وعبد الناصر والقومية العربية الثورية

كل الإدارات الأمريكية من "ترومان" إلى "ريجان" كانت تتبنى علنا مبدأ الاحتواء، الذى كان يحدد التوسع السوفيتى باعتباره الخطر الرئيسى الذى يتهدد المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط، ولكن خلف الأبواب المغلقة كان صناع السياسة يتساءلون ما إذا كانت موجة القومية الثورية التى اجتاحت العالم الإسلامى بعد ١٩٤٥ تمثل تحديا أعظم. كان لدى الأمريكيين دائما مشاعر متناقضة بخصوص الثورة، فبالرغم من أن رجال الدولة من "توماس چيفرسون – **Thomas Jefferson**" إلى "چون اف. كينيدى – **John F.Kennedy**" كانوا يعلنون عن أملهم فى أن تكون روح ١٧٧٦ (التمسك بالنظام الجمهورى ومعاداة الاستعمار والاعتدال) مرشدا على طريق ثورات أخرى فى بلاد أخرى، فإنهم بينهم وبين أنفسهم كانوا يخشون عدم حدوث ذلك، والحقيقة أن الثوار الأجانب نادرا ما كانوا يجيئون على مستوى توقعات الولايات المتحدة، وكانت حركاتهم غالبا ما تتسم بالاشتراكية ورهاب الأجانب وكل ما يوقع الرعب فى النفوس. الفورات العنيفة التى هزت فرنسا بعد ١٧٨٩ وروسيا بعد ١٩١٧ وكوبا بعد ١٩٥٩ كانت توحى بأن الثورة الأمريكية كانت إلى حد بعيد غير ذات صلة بالمجتمعات المستقطبة بين أغنياء وفقراء، بين ملاك أراض ومزارعين أو بين مستعمرين ومستعمرين، وفى التسعينيات كان هذا التناقض نفسه هاجسا للأمريكيين وهم يتأملون موجة الثورات فى أوروبا الشرقية التى وضعت نهاية للحرب الباردة.

بالرغم من ذلك فإن شعوب آسيا والبلقان والشرق الأوسط عندما بدأت نضالها من أجل تقرير مصيرها الوطنى بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية كانت تستلهم، وبقدر لا يستهان به، روح ١٧٧٦ كما حدَّثها "وودرو ويلسون – **Woodrow Wilson**" و"فرانكلين د. روزفلت – **Franklin D.Roosevelt**". هذه الروح كانت تروق على نحو خاص للراديكاليين العرب الذين تبنى كثير منهم النقاط الأربعة عشر أو ميثاق الأطلنطى باعتبارها نصوصا مقدسة فى نضالهم لتحرير دولهم من الاستعمار الأوروبى، إلا أن الثورات المناهضة للاستعمار فى الشرق الأوسط كانت فى نظر

معظم صناع السياسة الأمريكية سلاحا ذا حدين، وكثيرا ما كان الأمل فى تغيير ثورى على النمط الأمريكى يتنافس مع الخوف من زلزلة روسية.

لم تتضح دقة ذلك فى مكان آخر أكثر منه فى مصر، حيث ستجد الولايات المتحدة نفسها على مسار تصادمى مع "جمال عبد الناصر"، الزعيم الثورى الرائد فى العالم العربى. بعد الاستيلاء على السلطة بانقلاب يوليو ١٩٥٢، أطلق "عبد الناصر" نداء التغيير الاجتماعى والاقتصادى الثورى الذى سرعان ما تردد صداه فى المنطقة ليؤرق السياسة الخارجية الأمريكية على مدى عقدين تقريبا. قبل أن يصبح سفيرا لـ"جون اف. كينيدى" فى القاهرة بثلاث سنوات، كان "جون اس. بادو - John S.Badeau" قد تنبأ بأن "الثورة المصرية ستكون بالنسبة للشرق الأوسط مثلما كانت الثورة الفرنسية بالنسبة لأوروبا"[١]. أما السؤال الذى لم تكن هناك إجابة عنه، فكان ما إذا كان الأمريكيون سوف يستقبلون هذه الأفكار... بخوف أم بفزع.

●الحشو بالديناميت: تقرير المصير والقومية العربية

كان العقد الثانى من القرن العشرين بالنسبة لـ"وودرو ويلسون" ومعظم الأمريكيين مرادفا للحرب والثورة؛ وبينما كانت الإمبراطوريات الأوروبية تترنح نحو الوقوع فى ورطة الحرب العالمية الأولى، انفجرت فى المكسيك والصين وفى كل أركان الكرة الأرضية تقريبا حركات راديكالية تسعى إلى إعادة توزيع الثروة والسلطة. أكثر مواجهات أمريكا إزعاجا مع الثورة جاءت مع روسيا المرهقة من الحرب حيث أسقط "ألكساندر كيرنسكى - Alexander Kerensky" والديمقراطيون الدستوريون أسرة "آل رومانوف" وحصل على تقدير "ويلسون" لأنه أسس جمهورية مؤقتة تعد بانتخابات حرة، ولكن بعد ستة أشهر استطاع "ڤلاديمير إيليتش لينين - Vladimir Ilyich Lenin" ومجموعة صغيرة من ثوار البولشڤيك المدعومين من المزارعين والعمال، الذين يريدون الخبز والسلام والأرض، أن يطيحو "كيرنسكى" ويعلنوا دكتاتورية البروليتاريا وينادوا بحركات للتحرر الوطنى فى الدول شبه المستعمرة مثل الصين وإيران وتركيا وكل المستعمرات"![٢]

مصمما على أن يوازن دعوة "لينين" للثورة العالمية، ضَمَّن "ويلسون" مبدأ تقرير المصير الوطنى فى النقاط الأربعة عشر التى أعلنها فى يناير ١٩١٨. كانت النقطة الثانية عشرة التى تنص على أن "الجنسيات الأخرى الخاضعة الآن للحكم التركى لابد من أن يكفل لها حق الحياة فى أمان وفرصة مطلقة تماما للتقدم المستقل" ذات أهمية خاصة بالنسبة للعرب الذين كانوا قد قاموا مؤخرا بتمرد كبير ضد الأتراك العثمانيين[٣]. كان الفوران القومى الذى هز العالم العربى أثناء الحرب العالمية الأولى نتاج تيارات داخلية وخارجية قوية تفت فى عضد الحكم العثمانى على مدى أكثر من جيل. إحياء العربية كلغة للأدب فى أواخر القرن التاسع عشر لم يثمر فقط عن تدفق شعرى فى منتديات القاهرة، بل وعن وعى متنام فى منتديات دمشق بالإنجازات السياسية العربية الماضية.

بعد أن شهدوا الألمان ثم الطليان ثم الأتراك أنفسم فى ١٩٠٩ يقومون بثورات وطنية، تبنى المثقفون العرب أيديولوچية التحرر الوطنى؛ وعندما أعلنت تركيا الحرب على بريطانيا وفرنسا فى ١٩١٥، فإن عملاء بريطانيا استحثوا مساعدة الشريف "حسين بن على" القيم على الأماكن المقدسة فى مكة لطلب الاستقلال للعرب، وعلى الفور انتزع "الحسين" وابنه الأمير "فيصل" حكم غرب الجزيرة العربية من الأتراك وساعدا فى تحرير سوريا، التى كانت معقلا قوميا، من تحت الحكم العثمانى[٤].

بمجرد انتهاء القتال، أرسل "حسين" ابنه "فيصل" إلى "ڤرساى" فى أوائل ١٩١٩ ليعرض قضية تقرير المصير العربى أمام صناع السلام وجها لوجه، وفى ٦ فبراير أبلغ فيصل المسئولين البريطانيين والأمريكيين "الآن وقد انتصر الحلفاء فى الحرب فإن الشعوب الناطقة بالعربية ترى أن الاستقلال من حقها وأنها جديرة به" وأن ذلك "يتسق مع المبادئ التى وضعها الرئيس "ويلسون" وقبلها كل الحلفاء"؛ إلا أن "ويلسون" كان قد بدأ يعيد النظر فى حق تقرير المصير، وحث "فيصل" على التفكير فى السماح لعصبة الأمم المتحدة أن تقيم نظام انتداب من أجل إعداد العرب للاستقلال تحت وصاية أوروبية[٥]. كان قلق "ويلسون" نابعا فى جزء منه من اكتشاف مزعج قبل عامين من إصدار نقاطه الأربعة عشر، وهو أن بريطانيا وفرنسا كانتا قد

وقعتا سرا اتفاقية "سايكس – بيكو: Sykes-Picot" التى خلفت منطقة نفوذ بريطانى فى العراق وفلسطين ومنطقة نفوذ فرنسى فى سوريا ولبنان(٦).

هذه التعقيدات الدبلوماسية ربما كانت أقل أهمية بالنسبة للقرار الأمريكى بالابتعاد تدريجيا عن الاستقلال العربى، منها عن التحفظ بشأن تقرير المصير. "روبرت لانسنج – Robert Lansing" وزير خارجية "ويلسون" كشف دون لبس عن طبيعة هذه التحفظات عشية مؤتمر فرساى. "كلما فكرت فى إعلان الرئيس بشأن حق تقرير المصير أجدنى أكثر اقتناعا بخطورة هذه الأفكار على عقول أجناس بعينها"، كانت تلك عبارات "لانسنج" الغاضب فى ٣٠ ديسمبر ١٩١٨ "ألن يكون ذلك سببا فى الشقاق والفوضى والتمرد؟ ألن يركن إليه مسلمو سوريا وفلسطين وربما المغرب وطرابلس؟". خلص "لانسنج" إلى أن مفهوم تقرير المصير كان "بكل بساطة محشوا بالديناميت"(٧)؛ وبالرغم من أن "ويلسون" ظل أكثر تفاؤلا من "لانسنج" كان هو الآخر قلقا من النزعة التدميرية للقومية الثورية، ووافق على مضض على حذف الإشارات الصريحة لمبدأ تقرير المصير الوطنى من معاهدة فرساى فى فبراير ١٩١٩(٨).

بعد خمسة أسابيع حصل "ويلسون" على موافقة كل من بريطانيا وفرنسا على تشكيل لجنة خاصة من الحلفاء يرأسها أمريكيان هما "هنرى كنج – Henry King" و"تشارلز كرين – Charles Crane"، اللذان كان عليهما أن يقوما بزيارة للشرق الأوسط فى عملية استقصاء للمشاعر والتأكد ما إذا كانت الشعوب العربية مهيأة للحكم الذاتى. بعد ستة أشهر من التنقل والدراسة المستفيضة توصلت لجنة "كنج – كرين" إلى أن الاستقلال الكامل للعرب ربما كان سابقا لأوانه، وأوصت، بدلا من ذلك، بأن تضطلع الولايات المتحدة بانتداب من عصبة الأمم على سوريا وفلسطين(٩).

بعد وقت قصير من رسو تقرير "كنج – كرين" على مكتب "ويلسون" فى خريف ١٩١٩، دهمت الرئيس أزمة قلبية حادة أصابت سياسته الخارجية بالشلل ومكنت بريطانيا وفرنسا من إقامة نظامهما الخاص بالانتداب (بريطانيا فى فلسطين والعراق وفرنسا فى سوريا ولبنان) مما خيب آمال العرب فى الاستقلال(١٠).

على خلاف معظم الأمريكيين الذين سرعان ما ألقوا بفكرة تقرير المصير إلى كومة نفايات مثالية "ويلسون"، تبنى الراديكاليون العرب أيديولوچية للتحرر الوطنى فى العشرينيات تتحدى الاستعمار البريطانى والفرنسى. كانت الانتفاضات والهبات الوطنية المتقطعة فى العراق وسوريا وفلسطين تدفع بريطانيا وفرنسا إلى استخدام تكتيكات الأرض المحروقة لسحق الثوار؛ وكانت أكثر الحركات الوطنية ديناميكية فى العالم العربى هى تلك الموجودة فى مصر، حيث كانت الحماية البريطانية مفروضة على كل وادى النيل من السودان إلى البحر الأبيض المتوسط منذ ١٨٨٢. وبعد أن رفض "وايت هول" السماح لوفد مصرى بالتوجه إلى ڤرساى لعرض قضيته من أجل الاستقلال فى أوائل سنة ١٩١٩، لجأ "سعد زغلول"، وكان من أشد مناهضى الاستعمار، إلى طلب مساعدة الولايات المتحدة. فى ٦ يونيو أكد "سعد زغلول" لـ"وودرو ويلسون" أن "الرغبة فى سلام ديمقراطى دائم" يقوم على مبدأ تقرير المصير كانت "متجذرة فى قلوب أبناء كل الشعب المصرى" الذين كانت "ثقتهم فى النقاط الأربعة عشر قوية وراسخة"؛ وعندما اتضح أن ثقة "ويلسون" لم تكن نهائية وأنها أكثر ميلا للبريطانيين مما كان متوقعا، أسس "سعد زغلول" حزب الوفد وشن حملة وطنية قوية إلى أن وافته المنية فى ١٩٢٧. بعد تسع سنوات، وَقَّع "وايت هول" اتفاقية تعد الملك "فاروق" (١٦ سنة) وخلفاء "زغلول" فى الوفد بأن بريطانيا سوف تنسحب فى غضون عقدين[١١].

استخدم "فاروق" والوفد هذا الانتصار الرمزى على بريطانيا لتحويل الاهتمام عن القضايا الأكثر إلحاحا إلى الشأن الداخلى، ففى أواخر الثلاثينيات كان معظم المصريين مكدسين فى الوادى بينما ثلثا الأراضى الزراعية فى أيدى قلة من الباشوات الأثرياء ويعمل عليها الكثرة من الفلاحين المعدمين، وكان هناك عدد قليل من المصانع الصغيرة لصناعة الأحذية والمنسوجات والسجائر يملكها المصريون أما القطاعات الرئيسية فى الاقتصاد (السكك الحديدية والبنوك والمرافق العامة) فكانت مملوكة للشركات الإنجليزية. متجاهلين هموم البلاد الاجتماعية، كان زعماء الوفد منصرفين للتلاعب بالانتخابات وتغيير الحكومات وتحقيق المكاسب الشخصية، بينما كان الملك

يزداد سمنة وانغماسا فى الرذائل والملذات؛ وبالرغم من أن التنظيمات الشيوعية السرية الضئيلة تسللت على نحو ضعيف بين الطلبة والعمال، فإن التحدى الأخطر للنظام القائم كان من جانب الإخوان المسلمين، تلك الجماعة السرية التى كان أعضاؤها البالغ عددهم ما يقرب من نصف المليون مواطن عاقدين العزم على تطهير البلاد من الفساد الغربى تمهيدا لقيام دولة إسلامية(١٢).

نشوب الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ أكد الأهمية الاستراتيجية لملكة فاروق التى تشطرها قناة السويس وتضربها رياح الوطنية. متلهفا على منع النازيين من استغلال مشاعر المصريين المعادية للاستعمار، وغيرهم من الشعوب المستعمرة فى آسيا وأفريقيا، تحرك "فرانكلين روزفلت" لإحياء حق تقرير المصير الوطنى كمبدأ هاد للولايات المتحدة عشية دخولها ساحة الصراع العالمى؛ وبهذا الهدف كان إصراره على أن يتضمن ميثاق الأطلنطى (وهو إعلان مشترك عن أهداف الحرب الأنجلو-أمريكية فى ١٤ أغسطس ١٩٤١) التزاما بـ"احترام حق جميع الشعوب فى اختيار شكل الحكم الذى يريدون أن يكونوا تحته"(١٣).

خلال السنوات الأربع التالية لم تقدم "إدارة روزفلت" سوى الكلام المعسول عن حق تقرير المصير فى الشرق الأوسط، فعندما حاول الملك "فاروق" مثلا أن يعلن استقلال مصر الدبلوماسى عن لندن فى فبراير ١٩٤٢ برفضه تعيين حكومة شديدة العداء للنازية، حاصرت المملكة المتحدة القصر الملكى بالدبابات وأجبرته على الرضوخ، بينما كان صناع السياسة الأمريكيون يؤكدون أن مصر "ضمن مجال النفوذ البريطانى"(١٤). كان عدد قليل من الأمريكيين يعتقدون أن العراقيين أكثر استعدادا إلى حد ما من المصريين للحكم الذاتى، والأقل منهم كانوا يتصورون أى شىء آخر غير الحماية البريطانية فى فلسطين الممزقة بالنزاع، ولم يكن هناك أحد - تقريبا - فى واشنطن يشارك الجنرال "باتريك هيرلى - Patrick Hurley" سفير "فرانكلين" المتجول فى الشرق الأوسط، حماسته لتصدير "نموذج الحكم الذاتى الأمريكى" لإيران، الدولة غير العربية التى كان النفوذ البريطانى قد ظل كبيرا

فيها"[١٥] كان اقتراح "هيرلى" ينطوى على "نزعة مسيحية كلية" كما قال وزير الخارجية "دين أتشسون – Dean Acheson" هازئا فى ٢٤ يناير ١٩٤٤، "الأمن العسكرى والسياسى والتجارى للولايات المتحدة يتطلب استقرارا ونظاما فى هذه المنطقة المترامية الأطراف من كازابلانكا إلى الهند وما بعدها، والتى تشكل العالم الإسلامى والهندوسى"، وإذا كانت الولايات المتحدة تريد أن تتجنب الفوضى السياسية والفراغ العسكرى، كما توصل "أتشسون"، فلابد من أن تعمل مع بريطانيا على توجيه النزعة الوطنية والقومية فى الشرق الأوسط فى اتجاهات بناءة[١٦].

فى الأسابيع التالية كان المد القومى يغمر الساحة تقريبا، ففى نوفمبر ١٩٤٥ أبلغ "چورچ وادزورث – George Wadsworth" سفير أمريكا فى بيروت الرئيس "ترومان" بأنه "يبدو من الضرورى الاعتراف بأن العالم العربى كله فى حالة اختمار وبأن شعوبه على أعتاب نهضة جديدة [و]، كل منها يريد أن يدير شئونه بنفسه" و"إذا حدث أن خذلتهم الولايات المتحدة فسوف يتجهون صوب روسيا وسيكون فى ذلك خسارة لحضارتنا"[١٧]. وبالرغم من الميزانيات الضيقة والمشكلات الضاغطة فى أوروبا وآسيا أعلن الرئيس فى النهاية "**مبدأ ترومان**" كما أعلن عن نيته على مساعدة "وايت هول" للقيام بما يراه من أجل الاستقرار فى الشرق الأوسط؛ وفى سپتمبر ١٩٤٧ التقى كبار المسئولين الأمريكيين والبريطانيين فى واشنطن وتوصلوا إلى حكم كئيب عن العالم العربى مفاده أنه "فى حال تصاعد النزعة القومية البازغة فى الشرق الأوسط وتحولها إلى عداء للغرب" فإن طموحات القوة الكبرى والخصومات والسخط المحلى والأحقاد... ربما تؤدى فى النهاية إلى حرب عالمية ثالثة[١٨].

الحرب التى انفجرت فى فلسطين بعد ثمانية أشهر كانت نذيرا بسلسلة من ردود الفعل والعلاقات المتوترة بين واشنطن ولندن، فقد كان البريطانيون مصرين على أن دعم الولايات المتحدة للدولة اليهودية يشعل رد فعل مضاد للغرب بين الراديكاليين العرب الذين يمكن – بمساعدة السوڤيت – أن يحولوا الشرق الأوسط إلى "صين أخرى"[١٩]، بينما كان الأمريكيون، من ناحية أخرى، يعتقدون أن قرنا من الاستعمار الأوروبى قد تسبب فى ما هو أكثر من المشاركة فى بناء دولة صهيونية على مدى

عشر سنوات، وذلك بإطلاقه موجة القومية العربية التى كان "الكرملين" يركبها[٢٠]. فى خريف ١٩٤٩ أبلغ "چورچ ماكچى - George McGhee" مساعد وزير الخارجية الأمريكى المسئولين البريطانيين أنه فقط بمساعدة العرب للحصول على احترامهم لأنفسهم ومكانتهم بين الأمم فى العالم "فلربما يصبح لدى بريطانيا والولايات المتحدة أمل فى جمع القوى القومية فى الشرق الأوسط ضد الشيوعية وأن ترشدهم إلى قنوات صديقة للقوى الغربية"[٢١].

إرشاد القومية العربية فى مياه أكثر هدوءا، على أية حال، كان عملا خطرا فى أوائل الخمسينيات. فى وجود راديكاليين عرب نافدى الصبر يعزون كل محن المنطقة "للممارسات الاستعمارية والامپريالية"، أشارت دراسة للبيت الأبيض فى أواخر ١٩٥١ إلى أن "منع الثورة الاجتماعية يبدو مستحيلا"[٢٢]؛ وفى أبريل ١٩٥٢ أكد "هارولد ب. هوسكنز - Harold B.Hoskins" أحد كبار المسئولين فى الخارجية الأمريكية أن المصالح الغربية فى الشرق الأوسط كانت غارقة "بسبب مد القومية العالى". "هوسكنز" الذى كان قد عمل بجد من أجل ميثاق الأطلنطى قبل عقد، كمبعوث خاص لـ"فرانكلين روزفلت" إلى المنطقة، كان من رأيه أن الولايات المتحدة لابد من أن تقدم دعما "حذرا" من أجل تحقيق المصير العربى، كما توصل إلى "إننا لا نستطيع حتى أن نقدم دعما ضمنيا لأشكال مختلفة من استعمار القرن التاسع عشر الذى كان عادة مرتبطا بالعناصر الرجعية التى ما زالت فى السلطة فى كثير من دول المنطقة"، كما "أننا من ناحية أخرى لا نستطيع أن نقدم دعما ضمنيا لكل أشكال القومية، وخاصة ذلك الشكل المتطرف الذى يربط بين مطلب الحرية المباشرة الكاملة، والمعارضة المَرَضية لكل أشكال أو آثار المصالح الأجنبية"[٢٣]. بعد ثلاثة أشهر ستواجه الولايات المتحدة ثورة فى مصر تضعها فى هذا المأزق بالتحديد.

• مثل طوفان فى زورق تجذيف: أمريكا والثورة المصرية

فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢، استولت جماعة تطلق على نفسها اسم "الضباط الأحرار" يقودها "جمال عبد الناصر" (٣٤ سنة) على السلطة فى القاهرة، دافعة

بمصر نحو طوفان من الثورة الاجتماعية والتحرر الوطنى. كان التوتر يتصاعد على مدى أكثر من عامين بين البريطانيين الذين كانوا يريدون أن يسمح لهم الملك "فاروق" بالاحتفاظ بقاعدتهم العسكرية الكبيرة فى السويس إلى ما بعد الموعد النهائى الذى حددته الاتفاقية وهو ١٩٥٦، والوطنيين المصريين الذين كانوا يضغطون على العرش لإغلاقها عاجلا أو آجلا. وبينما كان "فاروق" مترددا مرتعدا، لم تسفر محادثات الغرف المغلقة عن اتفاق سواء حول مصير قاعدة السويس أو مستقبل السودان حيث كانت كل من بريطانيا ومصر تناور للسيطرة على منابع مياه النيل. فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ ألغى رئيس الوزراء "مصطفى النحاس" الذى خلف "سعد زغلول" فى رئاسة حزب الوفد معاهدة ١٩٣٦ بين بريطانيا ومصر من جانب واحد، وأصر على انسحاب بريطانى فورى من السويس مشعلا بذلك فتيل الثورة دون أن يدرى. قبل انتهاء الشهر بدأت جماعات الفدائيين عمليات الإغارة على المواقع البريطانية على امتداد قناة السويس بينما كانت قوات الشرطة المصرية تغض الطرف عن ذلك، وفى الوقت نفسه كان رئيس الوزراء البريطانى "ونستون تشرشل – **Winston Churchill**" يعد العدة، على ضفاف التيمز، لسياسة صارمة تجاه المصريين فى منتصف ديسمبر عندما زمجر، بعد عدة كؤوس من الويسكى فى وجه وزير خارجيته "أنتونى إيدن – **Anthony Eden**": "قل لهم إننا إذا تعرضنا للمزيد من الوقاحة فسوف نطلق عليهم اليهود ونلقى بهم فى بالوعة المجارى التى لن يخرجوا منها أبدا"(٢٤).

صناع السياسة الأمريكيون بدأوا يستعدون لما هو أسوأ. السفير "چيفرسون كافرى – **Jefferson Caffery**" وهو دبلوماسى محنك كان قد ساعد فى إنقاذ الحكومة الفرنسية من خطر شيوعى فى ١٩٤٧ قبل أن ينتقل إلى القاهرة بعد ذلك بعامين، حذر "فوجى بوتوم" فى ١٩٥١، بعد عيد الشكر مباشرة، بأن القاهرة مرشحة للانفجار فى وقت غير بعيد مع سلسلة متوقعة من ردود الفعل من الاحتلال والثورة... ثم سيطرة شيوعية فى نهاية الأمر"(٢٥)، وعندما زار "تشرشل" و"إيدن" واشنطن فى مطلع العام الجديد. أكد رئيس "كافرى" أن الأزمة المصرية كانت عَرَضا ينذر بمأزق غربى رئيسى فى الشرق الأوسط. وفى ٥ يناير كان "دين أتشسون" وزير الخارجية يقول لـ"هارى

ترومان" وهما فى نزهة بحرية باليخت الرئاسى "وليمزبيرج" على اليوتوماك: "نحن الآن أمام وضع ربما كان "ماركس" ليصفه على النحو التالى: جماهير عريضة فقيرة، لا وجود لطبقة متوسطة عمليا... يوجد طبقة صغيرة مالكة تحكم... عاجزة وفاسدة، ووجود أجنبى المهيجون يستثيرون الناس ضده، وبعد استثارتهم وقيامهم بتدمير المصالح الأجنبية يمكن استخدامهم من أجل المجىء بنظام شيوعى"، وإذا استمرت الولايات المتحدة وبريطانيا فى الجلوس هكذا "مكتوفتى الأيدى، فسنكون أشبه بحبيبين متعانقين.. فى زورق على وشك الدخول على شلالات نياجرا" وأنهى "أتشسون" تحذيره بقوله إن الوقت قد حان "لقطع العناق والإمساك بالمجاذيف"[٢٦].

قبل أن يستبين قادة الولايات المتحدة نصح "أتشسون" وجدوا أنفسهم وقد انجرفوا فى دوامة ثورية فى مصر. ازدادت الأزمة عمقا فى يناير وسط اتهامات مصرية بأن بريطانيا لن توافق على الانسحاب من السويس، واتهامات مضادة من "وايت هول" بأن الشرطة المصرية كانت متواطئة مع الفدائيين المصريين فى أعمالهم العدائية ضد البريطانيين؛ وبعد مصرع جنديين بريطانيين بقنبلة بالقرب من الإسماعيلية فى ٢٥ يناير، دفع البريطانيون برتل من المدرعات إلى ثالث أكبر مدينة مصرية لتجريد رجال الشرطة من أسلحتهم، وبعد توقف إطلاق النار فى الاسماعيلية كان عدد القتلى قد وصل إلى اثنين وأربعين جنديا مصريا وأربعة جنود بريطانيين؛ وما إن وصلت الأخبار إلى القاهرة حتى خرجت الجماهير فى أنحاء العاصمة فى ذلك "السبت الأسود"، السادس والعشرين من يناير، لتحرق فندق "شپرد" ورموزا أخرى للسيادة البريطانية وتقتل ستة وعشرين غربيا من بينهم ثمانية من البريطانيين. معتبرا "مصطفى النحاس" والوفد مسئولين عن أعمال العنف هذه، حل الملك فاروق الحكومة وعين "على ماهر"، المصلح السياسى الذى يحظى بقبول من الجيش، رئيسا للوزراء[٢٧].

بالرغم من صدمة كبار المسئولين الأمريكيين لأحداث "السبت الأسود"، كانوا يعتقدون أن بريطانيا لابد من أن تتخلى عن دبلوماسية السفينة المسلحة وأن تسرع

بعقد صفقة مع "على ماهر" رئيس الوزراء الجديد تفاديا لتفاقم الأوضاع؛ وفى ٢٧ يناير كان "دين أتشسون" يقول لأحد الدبلوماسيين البريطانيين: "يبدو أن قعقعة السلاح لا توقف الأمور كما يقال لنا من وقت لآخر"[٢٨].

مرددا كلام رئيسه، أبرق السفير "چيفرسون كافرى" إلى واشنطن بعد شهر بأن "هذا ليس شيئا يمكن أن يكسبه البريطانيون بالخداع" لأن "إعادة الاحتلال والتمرد والثورة... كلها أمور واردة في مصر اليوم"[٢٩]، ولأنهم لم يكونوا على استعداد للاعتراف بأنهم كانوا يضعون يدهم فى يد خاسرة، شجع البريطانيون "فاروق" فى أوائل مارس على عزل "على ماهر" وإحلال "نجيب الهلالى" محله، وهو سياسى انتهازى بمعنى الكلمة كان يبدو أكثر إذعانا من سلفه لسيطرة بريطانية طويلة المدى على قناة السويس[٣٠].

قلة من الأمريكيين هم الذين كانوا يرون ما يدعو للتفاؤل. كان رئيس الوزراء "الهلالى" والملك فاروق "جالسين على بركان" كما نبه السفير المصرى "محمد رحيم" مسئولى الخارجية الأمريكية فى أوائل مارس "مع احتمال انفجار وشيك لم تكن أحداث شغب ٢٦ يناير سوى نذير به"، وفى الأشهر الأربعة التالية تصاعدت النذر بأن الحمم كانت على وشك الاندفاع بالفعل. وكما لاحظ "كافرى" فى ١٤ أبريل، فإن "ضغوط السخط الاجتماعى والصعوبات الاقتصادية وعدم الأمان الثقافى، كانت كلها "رؤية رومانسية لكفاح وطنى بطولى من أجل "التحرر" بين الراديكاليين من الطلبة والمتطرفين الإسلاميين. كانت التقارير القادمة من القاهرة فى منتصف يوليو تقول إنه حتى الفلاحين كانوا يستجيبون "لما يقوله الشيوعيون وما يعدون به من آمال زائفة" وكما كتب "دين أتشسون" فى مذكراته "كان من الواضح أن النظام القديم يحتضر وأن اختمارا جديدا معاديا للأجانب تنفخ فيه موسكو يتزايد كل يوم"[٣١].

موت النظام القديم جاء على نحو مفاجئ وبشكل مثير، ففى أواخر يونيو أجبر الملك "فاروق" رئيس الوزراء "نجيب الهلالى" على تقديم استقالته ليعين مكانه "حسين سرى" المقرب من القصر. وفى تقرير له بتاريخ ٣ يوليو يقول "كافرى" إن "الحكومة

الجديدة هى الأضعف إلى حد بعيد حتى الآن، كلها مكونة تقريبا من سياسيين وتكنوقراط من الدرجة الثانية"(٣٢). من وجهة نظر "عبد الناصر" و"السادات" وغيرهما من الضباط الأحرار، فإن ذلك وَضَعَ رئيس الوزراء الجديد وزملاءه فى مرتبة أعلى قليلا. بعد سقوط وزارة "سرى" بعد ذلك بأسبوعين قام "عبد الناصر" بانقلاب أبيض فى ٢٣ يوليو، ونصبوا اللواء "محمد نجيب" (أحد كبار ضباط الجيش والمعروف بأفكاره الليبرالية) رئيسا للوزراء وشكلوا مجلسا لقيادة الثورة من تسعة أعضاء؛ وعندما شعر الملك بالذعر وطلب مساعدة البريطانيين والأمريكيين للتصدى للانقلاب لم يحرك البيت الأبيض ولا "وايت هول" ساكنا، وفى ٢٦ يوليو وضع الضباط الأحرار "فاروق" على يخت بطىء يحمله إلى نابولى، ثم اتجهوا نحو المهمة الصعبة وهى "القضاء على الفساد"(٣٣).

كان رد الفعل الأمريكى الأولى على هذه التطورات إيجابيا. فى ١٨ أغسطس تنبأ "كافرى" بأن "الخطوة الحالية سبقت الفوضى وربما الانقلاب الشيوعى الذى كانت البلاد متجهة نحوه وكأنها منومة مغناطيسيا"(٣٤). "أتشسون" - بالمثل - كان يشيع التفاؤل ويقول للصحفيين فى أوائل سبتمبر إنه كانت هناك "بعض التطورات المشجعة فى مصر" فى الأسابيع الأخيرة متمنيا لقيادة النظام الجديد "كل النجاح فى جهودهم لحل المشكلات الداخلية لبلادهم"(٣٥). بالرغم من ذلك، بدأ كبار المسئولين الأمريكيين قبل نهاية العام يجدون أنفسهم مختلفين مع الجوانب الأكثر راديكالية فى مشروع "عبد الناصر" للتغيير: إصلاح زراعى سريع، تأجيل الانتخابات الحرة، ونظام حزب واحد طويل: والحقيقة أن "أتشسون" كان من الواضح أنه يحاول اكتشاف علامات شبه بين أحداث ١٩٥٢ فى القاهرة وتلك فى موسكو قبل خمس وثلاثين سنة: "انقلاب المصرى" كما جاء فى مذكراته "كان يبدو لنا مشجعا إلى حد ما كما كانت ثورة فبراير ١٩١٧ الروسية تبدو تقريبا للرئيس ويلسون"، ولكن "أتشسون" يلاحظ فى النهاية أن "جهل العصبة العسكرية المطبق وانعدام الخبرة ونزوع الخارجية البريطانية إلى الشك" كل ذلك جعل التقدم نحو التغيير السلمى أمرا بالغ الصعوبة"(٣٦).

إلا أن "أتشسون" كان يدرك أن الضباط الأحرار كانوا هم البديل الوحيد للفوضى الشاملة... بالرغم من جهلهم المطبق وانعدام الخبرة لديهم. ولما كان ذلك كذلك، حاول باكرا أن يقنع "هارى ترومان" فى مطلع العام الجديد بأن يوافق على صفقة سلاح كانت تقدر بأحد عشر مليون دولار طلبها اللواء "محمد نجيب"، وهو الذى كان يعتبر صاحب تأثير معتدل على "عبد الناصر" ومجلس قيادة الثورة. كان "أتشسون" يعرف بالطبع أن الإسرائيليين لابد من أن يعترضوا وكذلك البريطانيون، وبالرغم من ذلك كان من رأيه القاطع أن أمن المنطقة كلها "سيكون فى خطر شديد بسقوط نظام "نجيب" وصعود موجة من الشعور الوطنى لا يمكن السيطرة عليها فى مصر". غير متأثر بخط "أتشسون" الفكرى، رفض "ترومان" فى ٧ يناير تقديم أى مساعدة عسكرية لمصر(٣٧)، وبعد أسبوعين سلم المكتب البيضوى لـ"دوايت إيزنهاور"، الذى كان وزير خارجيته الجديد "جون فوستر دالاس" يرى معظم ثوار العالم الثالث أدوات فى أيدى السوفت، كما كان يعتبر "محمد نجيب" أكثر قليلا من "كيرنسكى مصرى".

• كيرنسكى بطريوش: "نجيب" و"عبد الناصر" و"دالاس".

وصل "دالاس" إلى القاهرة فى ١١ مايو ١٩٥٣ ليقدر وزن الثورة المصرية. عقد اجتماعا استمر ثلاث ساعات مع رئيس الوزراء "محمد نجيب"، الذى كان مصمما على أن "علاقة السيد بالعبد" بين بريطانيا ومصر لابد من أن تنتهى، ومؤكدا فى الوقت نفسه أن "الروس ليسوا أصدقاءنا"(٣٨). وعندما التقى "دالاس" بـ"عبد الناصر"، رئيس مجلس قيادة الثورة فى اليوم التالى تطاير الشرر. مؤكدا أن "الولايات المتحدة تريد أن تكون مصر حرة"، قال "دالاس" إن الروس كانوا يمثلون الخطر الأكبر على حرية مصر أكثر من البريطانيين"، ورد عليه "عبد الناصر"قائلا إن "الشعب المصرى كله يعتبر كل من يقول مثل هذا الكلام مجنونا"، مضيفا أن مجلس قيادة الثورة والشعب المصرى متفقون على مبدأ واحد وهو أن "النفوذ البريطانى لابد من أن يزول تماما"(٣٩). استأنف الرجلان جدلهما الجيوبوليتيكى مساء على العشاء فى السفارة الأمريكية. غير منزعج من شبح الهيمنة السوفيتية على الشرق الأوسط الذى كان

يطارد دالاس، كان "عبد الناصر" مصرا على أن الاستعمار البريطانى وليس "التخريب السوفيتى" هو الذى كان يمثل الخطر الأعظم على استقرار المنطقة. "أعتقد أنك تُعَقِّد المباراة، لقد انتهى الاستعمار، والمباراة الآن بين فريقين: الشيوعية والقومية وإذا كنتم مصرين على اللعب فسوف تفسدون المباراة على الآخرين"(٤٠).

عاد "دالاس" إلى بلاده فى آخر مايو ليحذر رئيسه بأن واشنطن إذا لم تتحرك بسرعة لرعاية اتفاق إنجليزى مصرى بشأن قاعدة السويس، فالمؤكد أن "عبد الناصر" مصمم على تغيير قواعد اللعبة، كما أبلغ "دالاس" رئيسه فى ١ يونيو بأنه "قد اتضح أن "نجيب" ليس هو الرجل القوى فى مصر، وإنما هو واجهة يمارس من خلفها أربعة من أعضاء مجلس قيادة الثورة السلطة الحقيقية"(٤١). ترقية "نجيب" إلى منصب الرئيس بعد ثلاثة أسابيع وتعيين "عبد الناصر" فى الوقت نفسه نائبا لرئيس الوزراء أكد أن الثورة المصرية كانت تقف فى مفترق طرق. كان نجيب "يجلس فوق سطح يغطى رغبة عارمة فى طرد كل أجنبى من مصر"، هكذا حذر "آيك" رئيس وزراء بريطانيا "ونستون تشرشل" فى ٦ يوليو، و"أن ذلك لا يمكن تجنبه إلا فى حال موافقة بريطانيا على الانسحاب من السويس عاجلا وليس آجلا"(٤٢).

وبينما كانت المفاوضات المصرية البريطانية تتجه نحو تسوية بشأن السويس فى أواخر ١٩٥٣، كان "نجيب" و"عبد الناصر" يعدان العدة للمكاشفة بينهما. سعيا إلى تحجيم سلطة مجلس قيادة الثورة وزيادة سلطته شخصيا، دعا الرئيس المصرى فى أوائل العام الجديد إلى استفتاء عام وانتخابات برلمانية وإنهاء الحكم العسكرى. وبعد أن رفض "عبد الناصر" هذه الاقتراحات على الفور قدم "نجيب" استقالته فى ٢٥ فبراير ١٩٤٥ مفجرا بذلك أزمة سياسية(٤٣). وبهدف تجنب صراع مدنى وتعطيل مباحثات السويس مع بريطانيا، وافق مجلس قيادة الثورة، على مضض، على عودة "نجيب" رئيسا فى أوائل مارس. "ولكن تصفية حسابات نهائية مع "نجيب" فى المستقبل كانت تبدو حتمية" كما قال "عبد الناصر" للدبلوماسيين الأمريكيين فى ٢٣مارس، لأن مجلس قيادة الثورة لا ينوى أن يبقى متفرجا، تاركا عناصر المعارضة تهدم ما أنجزه النظام الحالى"(٤٤).

أحد إنجازات "عبد الناصر" الكبرى جاء بعد سبعة أشهر فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ عندما وقع مع "أنتونى نتنج - Anthony Nutting" بالأحرف الأولى اتفاقا، كاسرين بذلك الجمود الذى كانت عليه مشكلة قاعدة السويس. تعهد "وايت هول" بالانسحاب من القاعدة العسكرية الكبيرة فى غضون عشرين شهرا، ووافق المصريون على أن تعود قوات المملكة المتحدة فى أى وقت خلال سبع سنوات فى حال وجد البريطانيون أمن منطقة القنال معرضا للخطر؛ وعندما استنكر الإخوان المسلمون التسوية معتبرينها خيانة للوطنية المصرية اتخذ مجلس قيادة الثورة إجراءات صارمة، ليس ضد المتطرفين الإسلاميين فحسب، وإنما ضد كل معارضيهم بمن فى ذلك "محمد نجيب" نفسه الذى تم تجريده من سلطاته على نحو مهين ووضعه تحت الإقامة الجبرية فى منزله فى منتصف نوفمبر(٤٥).

بمجرد أن انتقل "عبد الناصر" إلى منصب الرئيس الذى خلا، اقتربت المرحلة الأولى من الثورة من نهايتها. كان معظم المراقبين الأمريكيين يتوقعون أن تكون المرحلة الثانية أشد عصفا من الأولى، وربما يكون "سيروس إل. سلزبيرجر - Cyrus L.Sulzberger" (نيويورك تيمز) هو أفضل من عبر عن ذلك فى ١٧ نوفمبر عندما شبه "محمد نجيب" بـ"كيرنسكى بطربوش"، ونبه محذرا إلى أنه كما حدث روسيا قبل جيل "فإن الثورة المصرية قد تأكل بعض أبنائها الآخرين"، ومقتنعا بأن "نجيب" كان "كيرنسكى" الثورة المصرية تنبأ "سلزبيرجر" بأن "عبد الناصر" - بالتأكيد - سيكون هو "لينين" هذه الثورة(٤٦).

كشف "عبد الناصر" لأول مرة عن المعنى الكامل للقومية العربية الراديكالية التى كان ينتهجها فى أغسطس ١٩٤٥ عندما نشر "فلسفة الثورة"، وهو كتيب مثير اطلع عليه كل من "سلزبيرجر" وكبار صناع السياسة الأمريكية. ابن موظف البريد، الضابط المحترف، العصامى، كان "عبد الناصر" كله إصرار على أن الجيش فقط هو القادر على تحرير مصر من الفساد السياسى والتخلف الاقتصادى والسيطرة الأجنبية. بالانتصار على "الإقطاع" و"الاستعمار" ستكون الثورة المصرية نموذجا

للدول الناشئة حديثا من الخليج الفارسى إلى رأس الرجاء الصالح، وبـ"عبد الناصر" على الدفة فإن مصر القوية المستقلة ستكون فى محور ثلاث دوائر متحدة المركز - العالم العربى وأفريقيا والحضارة الإسلامية - سوف تشكل القومية الثورية كلا منها[٤٧]. نسخة موجزة من رسالة "عبد الناصر" وصلت إلى جمهور أمريكى أوسع فى يناير ١٩٥٥ عندما ظهر مقال "بعنوان" الصورة المصرية "فى مجلة "فورين أفيرز". بالرغم من أن عبد الناصر لم يقتبس عن "لينين"، ورغم أنه كان ينأى بنفسه عن "الكرملين"، فإنه عنف الأمريكيين الذين كانوا يحاولون صد الوطنيين فى العالم الثالث "خشية إغضاب بعض القوى الاستعمارية"[٤٨].

بدأ التباعد والجفاء بين مصر والولايات المتحدة فى خلال ١٩٥٥، وكان السبب فى معظم الأحيان هو تصرفات "عبد الناصر" الصادمة لإدارة "إيزنهاور" والتى كانت تعتبرها غير منطقية. "عبد الناصر"، أولا، رفض المشاركة فى مبادرة سلام سرية بين بريطانيا والولايات المتحدة كانت تدعو إسرائيل إلى تقديم تنازلات فى الأراضى مقابل اعتراف عربى بحق الدولة اليهودية فى الوجود[٤٩]. ثانيا، أزعج "عبد الناصر" كلا من "آيك" و"إيدن" الذى كان قد خلف "ونستون تشرشل" فى رئاسة الوزراء، بمعارضته مساعى الولايات المتحدة وبريطانيا لإنشاء حلف بغداد. ثالثا: عزز "عبد الناصر" صورته كزعيم ثورى مناهض للاستعمار بحضوره مؤتمر دول عدم الانحياز فى "باندونج" فى أبريل ١٩٥٥ حيث تضامن مع حياديين مثل "جوزيف ب.تيتو - Jozef B.Tito" وشيوعيين مثل الزعيم الصينى "شو ان لاى - Zhou En-Lai"، والأهم من ذلك كله أنه قبل فى أواخر سبتمبر عرضا من الكرملين بتقديم عتاد عسكرى له يقدر ثمنه بحوالى ٨٦ مليون دولار مقابل مائة ألف طن من القطن المصرى[٥٠].

بالرغم من أن صناع السياسة على ضفتى الأطلنطى كانوا على علم بأن الدبلوماسيين السوفيت والمصريين كانوا يبحثون صفقة "السلاح مقابل القطن" على مدى عدة شهور، فإن المسئولين الأمريكيين والبريطانيين كانوا يعتقدون أن "عبد الناصر" كان يقوم بعملية خداع؛ وبعد أشهر قليلة من تلقى الأخبار المزعجة فى

٢٦ سبتمبر ١٩٥٥ بأن مصر قد قبلت عرض الكرملين اجتمع "چون فوستر دالاس" بوزير الخارجية البريطانى "هارولد ماكميلان – **Harold Macmillan**" فى الأمم المتحدة فى نيويورك سيتى للتفكير فى الخطوة التالية؛ وبصرف النظر عن عقاب "عبد الناصر"، كان الدبلوماسيان يأملان فى إقناعه بالرجوع عن الصفقة مقابل معونات اقتصادية غربية. وفى أواخر أكتوبر كان "دالاس" و"ماكميلان" يدرسان تقديم ٢٠٠ مليون دولار للمساعدة فى تمويل مشروع السد العالى، وهو مشروع كانت تكلفته تصل إلى ١,٣ بليون دولار يوسع رقعة الأراضى الزراعية ويتحكم فى مياه الفيضان ويزود البلاد بالطاقة الكهربائية التى كانت فى أمس الحاجة إليها[٥١]. ومثل "دالاس" و"ماكميلان" كان "إيزنهاور" يخشى أن يلجأ "عبد الناصر" إلى روسيا فى حال تراجع بريطانيا والولايات المتحدة عن مساعدته. عازما على تحجيم "الكرملين"، وافق "آيك" على المرحلة الأولى من مشروع أسوان فى ١ ديسمبر ١٩٥٥، وكان نصيب الولايات المتحدة فيها ٥٦ مليون دولار وبريطانيا ١٤ مليونا والبنك الدولى ١٣٠ مليونا[٥٢].

كان "عبد الناصر" حريصا على هذه الصفقة التى تؤمن لمصر مساعدة قيمتها ٢٠٠ مليون دولار، إلى أن عرف فى وقت باكر من العام الجديد أن السماح بالدعم الأمريكى كان معلقا على تسوية سياسية مع إسرائيل. مثل هذا الإجراء كان غير وارد بالنسبة لعبد الناصر الذى هاج وماج لأن من معه كانوا سيعتبرونه قد "باع القضية للقوى الغربية"؛ وعندما وصل "إيدن" ووزير خارجيته الجديد "سلوين لويد – **Selwyn Lloyd**" إلى البيت الأبيض فى أواخر يناير، كان قليلون فى واشنطن أو لندن متفائلين؛ وتساءل "آيك" "كيف تصف عبد الناصر؟"، وكان رد "سلوين لويد" أنه "شخص طموح"، "يحلم بإمبراطورية عربية من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى"[٥٤]. كان الطموح "أمرا محمودا يمكن اللعب عليه" كما علق "دالاس"، و"لو أن "عبد الناصر" تحول بالفعل إلى أداة فى يد الروس فسوف يكون علينا أن نعيد النظر فى سياستنا بالكامل"[٥٥].

سرعان ما اتفق "إيزنهاور" و"دالاس" ونظراؤهما البريطانيون على أن الوقت كان قد حان لإعادة النظر تلك، أما بالنسبة لـ"وايت هول" فقد جاءت لحظة الحقيقة فى ١مارس فى عَمَّان عندما رضخ الملك حسين للمتظاهرين الموالين لـ"عبد الناصر" وطرد السير "چون جلوب – John Glubb" قنصل الأمر الواقع البريطانى الذى كان يتمتع بصلاحيات واسعة، ونقل قيادة الفيلق العربى ذى التدريب البريطانى لضباط أردنيين. بعد ذلك كان "إيدن" يقول مغتاظا: "منتهى الوهم أن نتصور أن "عبد الناصر" يمكن استرضاؤه"(٥٦). أما بالنسبة للبيت الأبيض فجاءت لحظة الحقيقة كذلك بعد أيام قليلة فى القاهرة حيث رفض "عبد الناصر" دعوة "إيزنهاور" لبدء محادثات سلام مع إسرائيل، وكتب "آيك" فى مفكرته فى ٨ مارس: "يبدو أن مصر، تحت قيادة عبد الناصر، لن تقوم بتحرك من أى نوع للقاء الإسرائيليين"، "كما أن العرب الذين يحصلون على كميات كبيرة من الأسلحة من السوفيت يزدادون غطرسة وعنادا يوما بعد يوم غير عابئين بمصالح أوروبا الغربية والولايات المتحدة فى الشرق الأوسط"(٥٧).

خلال الأسابيع الثلاثة التالية طور المسئولون الأمريكيون خططا لاستراتيجية عنيفة ضد "عبد الناصر"، ففى ٢١ مارس قال "سلوين لويد" لـ"چون فوستر دالاس": "مثل موسولينى من قبله"، "عبد الناصر" "أصبح مدينا بالفضل لقوة غاشمة"، وأنه لم يترك أمام بريطانيا والولايات المتحدة سوى خيار واحد وهو "سحب عرضنا بتمويل سد أسوان"(٥٨). لم يكن هناك أى مجال للشك فى أن "عبد الناصر" وصل إلى نقطة اللاعودة"، كما قال خبراء شئون الشرق الأوسط البريطانيون لنظرائهم الأمريكيين فى لندن فى اليوم نفسه، كما أن "خطه الموالى للمسلمين والمعادى للبريطانيين دائما" أصبحت تشوبه فى الفترة الأخيرة نغمة جديدة تهاجم كل ما هو غربى بالإشارة بنوع خاص إلى النفط، بمعنى الإيحاء بأن نفط الدول العربية لابد من أن يكون فى خدمة مصالح الشعوب العربية وليس الأجانب"(٥٩).

وعندما اجتمع "إيزنهاور" وكبار مستشاريه فى ٢٨ مارس لاستعراض الوضع فى الشرق الأوسط كان أول ما يشغل تفكيرهم هو "عبد الناصر" والنفط والقومية

العربية، فقال "وليم رونترى – William Rountree" مساعد وزير الخارجية إن "موارد الشرق الأوسط بالغة الحيوية بالنسبة للمصالح الأمنية للولايات المتحدة وللغرب بشكل عام، لدرجة أننا لا يمكن أن نقبل وضعا يمكن أن يكون الوصول فيه إلى هذه الموارد عرضة لسيطرة معادية"، وفى نهاية الاجتماع وافق "إيزنهاور" على ضرورة أن تبدأ كل من بريطانيا والولايات المتحدة ممارسة الضغوط السياسية والاقتصادية على مصر بما فى ذلك التجميد الفعلى لتمويل السد العالى(٦٠). ويذكر "آيك" فى يومياته أن "أحد العوامل الأساسية فى المشكلة كان طموح "عبد الناصر" المتزايد والشعور بالقوة الذى اكتسبه من ارتباطه بالسوڤيت [و] اعتقاده بأنه يمكن أن يبرز كزعيم حقيقى لكل العالم العربى"(٦١).

تصاعد التوتر بين القاهرة وواشنطن خلال الأسابيع التالية، ففى ٣ أبريل لاحظ "إيزنهاور" أن مصر كانت قد "اتخذت توجها مقلقا" بسبب "عبد الناصر" الذى كان يصنع "تكتلا عربيا" يمتد من پاكستان إلى داكار بحكومات ضعيفة وغير مستقرة مما ينتج عنه سهولة التعرض للاختراق السوڤيتى ونفوذ الكرملين(٦٢). وبعد خمسة أسابيع كان يقول مغتاظا "سوف نصحو ذات صباح لنجد أن مصر قد انسلت خلف الستار الحديدى(٦٣)، وفى ١٧ مايو ١٩٥٦ صحت "إدارة إيزنهاور" على أخبار اعتراف مصر "عبد الناصر" بجمهورية الصين الشعبية ولم يكن هناك ما يزعج "چون فوستر دالاس"، الشديد العداء للشيوعية، أكثر من ذلك، فقال لـ"أحمد حسين" ممثل عبد الناصر لدى واشنطن إن "كل ما تقوله وتفعله مصر هو لطمة على وجه الولايات المتحدة"، وأضاف أن كثيرا من الأمريكيين "يعتقدون تماما أن عبد الناصر قد عقد صفقة مع الشيطان على أمل تنمية سلطانه وإنشاء امبراطورية ممتدة من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى"، وحذر "أحمد حسين" بأن أصدقاء إسرائيل ولوبى القطن والمتشددين من أقطاب الحرب الباردة سوف يضموا الصفوف مع "كاپيتول هيل" لإيقاف تمويل السد العالى... ما لم يغير "عبد الناصر" توجهاته"(٦٤).

لم يكن "وايت هول" أقل غيظا من البيت الأبيض بسبب توجهات "عبد الناصر"، ومع اقتراب فصل الصيف كانت لجنة "إيدن" الخاصة بالشرق الأوسط تفكر ما

إذا كان الوقت قد حان لكى توقف، بشكل معلن، كل المساعدات الغربية لمصر. فى ١١ يونيو أبلغت اللجنة الحكومة بأن "سلوك "عبد الناصر" قد أصبح عدائيا بشكل واضح بحيث إننا اتفقنا مع الأمريكيين على ألا نساعده أكثر من ذلك، وبالتحديد على أن نترك المفاوضات حول مشروع تمويل السد العالى "تموت ببطء" دون أن نبلغه بذلك". مدركة أن لندن وواشنطن كانتا تحتالان من أجل التأجيل كانت مصر تضغط من أجل الحصول على رد واضح ومحدد مما خلق مازقا جديدا وجعل اللجنة المعنية بملف الشرق الأوسط تشير إلى أن "إذا اضطررنا للإعلان عن أننا ضد تنفيذ تعهدنا فسوف نعطى "عبد الناصر" الفرصة لكى ينتقم منا أكثر من انتقامه من الأمريكيين" وبخاصة "فى قناة السويس والخليج الفارسى"، أما والأمر كذلك فسيكون من الأفضل أن يبدأ الأمريكيون"[٦٥].

مستبقا الأمريكيين والبريطانيين، دعا "عبد الناصر" وزير الخارجية السوفيتى "ديمترى شيبيلوف – Dimitri Shepilov" فى منتصف يونيو لمناقشة التمويل الروسى للمشروع، وطبقا لمصادر المخابرات المركزية الأمريكية عرض "شيبيلوف" على "عبد الناصر" قرضا سوفيتيا لبناء السد العالى، وأعطى "عبد الناصر" تعليماته لسفيره "أحمد حسين" بأن يسأل "چون فوستر دالاس بشكل مباشر ما إذا كانت الولايات المتحدة وبريطانيا والبنك الدولى ما زالوا على استعداد للوفاء بعرض الـ"٢٠٠ مليون دولار"[٦٧]، وكان الإجماع فى واشنطن على أن الإجابة لابد من أن تكون "لا" قاطعة. ولعل "چورچ آلن – George Allen" (من وزارة الخارجية) هو الذى وضع هذا الرد على نحو أفضل فى مذكرة محكمة أعدها لـ"چون فوستر دالاس" فى منتصف يوليو. كان "آلن" يرى أن "خلافنا مع مصر ليس لأنها تنتهج مسارا محايدا" برفضها تحديد موقفها سواء مع الشرق أو الغرب، فـ"عبد الناصر" لا توجهه اعتبارات "الحرب الباردة" وإنما رؤيته الخاصة... زعامة مصر للعالم العربى أولا ثم أفريقيا.. ثم العالم الإسلامى ككل" وأن أفضل السبل لمقاومته مثل هذا الطموح الثورى، كما أنهى آلن تحليله، هو سحب العرض الغربى لتمويل السد العالى مما سيجبر "عبد الناصر" على التوجه إلى الكرملين وفضحه فى الشرق الأوسط كألعوبة فى يد السوفيت"[٦٨].

الإعلان الرسمى عن انسحاب واشنطن جاء فى ١٩ يوليو ١٩٥٦، بعد الفطور مباشرة اجتمع "دالاس" و"إيزنهاور" الذى وافق على "أننا لابد من أن نسحب العرض الأمريكى". بعد ساعة أبلغ "دالاس" السفير البريطانى "روجر ماكينز – Roger Ma-kins" بأن الولايات المتحدة كان "ترى الآن أن المشروع لم يعد ذا جدوى" وأنهم كانوا على وشك الإعلان عن ذلك(٦٩). لم يفاجأ "ماكينز" ولا رؤساءه بخطوة الولايات المتحدة، وبعد أن استمع إلى الأخبار قال "أرشيبالد روس – Archibald Ross" من وايت هول": "لقد اتخذ مستر "دالاس" القرار نيابة عنا، لم نكن متفقين تماما فى اللحظة الأخيرة ولكن الاختلاف بيننا كان طفيفا: رفض مباشر أم رفض ضمنى"(٧٠). وفى وقت متأخر من المساء نفسه أبلغ "دالاس" السفير المصرى "أحمد حسين" أن سياسات مصر شديدة العداء للغرب، كما أن مشاكلها الاقتصادية المتفاقمة اضطرت الولايات المتحدة إلى سحب عرضها السابق بالمساعدة. بعد ذلك قال وزير خارجية "آيك" أنه "ليس هناك اليوم مشروع أقل ترحيبا من سد أسوان" فى "كاپيتول هيل"(٧١)، ويبدو أنه كان لابد من أن يضيف: ولا أى ظاهرة سياسية كانت تثير الشك وعدم الثقة فى البيت الأبيض كما كانت الثورة المصرية. صباح اليوم التالى سأل "عبد الناصر" سفير الولايات المتحدة فى مصر "هنرى بيرود – Henry Byrode" الذى خلف "چيفرسون كافرى": "هل سمعت الأخبار؟" وكانت الإجابة: "نعم!" فقال "عبد الناصر": "ستكون هناك أمور كثيرة نتكلم فيها"... كان كل تفكيره فى قناة السويس(٧٢).

• المشى على حبل مشدود: أزمة السويس

قبل دقائق من غياب شمس السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦، وفى الذكرى الرابعة لتنازل "فاروق" عن العرش، ذهب "عبد الناصر" إلى ميدان المنشية وسط الإسكندرية، وفى خطاب حماسى استمر أكثر من ساعتين شجب الاستعمار الغربى بعامة وندد بسحب الولايات المتحدة عرضها لتمويل مشروع السد العالى بخاصة، ودوى صوته "سندافع جميعا عن قوميتنا وعروبتنا، وسنعمل جميعا حتى يمتد الوطن العربى من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى"، وقال للمصريين إنه لذلك سوف

يؤمم شركة قناة السويس(*) ويستخدم عائداتها لتمويل السد العالى وغيره من المشروعات التنموية التى تحتاجها البلاد بشدة[٧٣]. وبالرغم من أن "عبد الناصر" وعد بتعويض حملة الأسهم البريطانيين والفرنسيين عن خسائرهم، ورغم أنه تعهد بأن تظل القناة مفتوحة للملاحة، قابل المسئولون البريطانيون الأخبار بما يشبه الصدمة وعدم التصديق والغضب الشديد. وفى اجتماع طارئ للحكومة البريطانية استمر لما بعد منتصف الليل، اتفق "أنتونى إيدن" رئيس الوزراء وزملاؤه بسرعة على أن "مصالحنا الأساسية فى المنطقة لابد من حمايتها... وربما بعمل عسكرى ضد مصر إذا تطلب الأمر ذلك"، كما أن "فشلنا فى الاحتفاظ بقناة السويس سوف يؤدى حتما إلى فقدان مصالحنا وأصولنا الثابتة فى الشرق الأوسط بالتدريج"[٧٤].

خطوة "عبد الناصر" المذهلة قوبلت بكدر شديد أكثر منها بالغضب على ضفة الأطلنطى الأخرى، فـ"جون فوستر دالاس" الذى كان قبل أسبوع يقول بشماتة إن سحب الولايات المتحدة عرض تمويل بناء السد العالى كان "نقلة كبيرة مهمة على رقعة الشطرنج كما كانت تفعل الولايات المتحدة دائما"، كان الآن يرغى ويزبد بأن "محاولة مصر الخرقاء لمصادرة استثمار عالمى ضخم" تؤكد حكمة إلغاء العرض الأمريكى[٧٥]؛ أما بريطانيا فلم تكن لتقف مكتوفة الأيدى أمام التوجه المصرى لإيقاف تدفق "ثلثى نفط الشرق الأوسط" مرورا بقناة السويس، كما نصح "هربرت هوفر الابن" وكيل الخارجية الرئيس الأمريكى فى ٢٧ يوليو[٧٦]. بعد أربعة أيام كانت المخابرات المركزية الأمريكية تحذر من أن استيلاء مصر على قناة السويس "لن يكون له تأثير بالغ الخطورة فى تأجيج المشاعر القومية العربية فحسب"، بل إنه "قد يشجع كذلك على خطوات مستقبلية نحو التأميم أو اتخاذ إجراءات أخرى ضد خطوط الأنابيب والمنشآت النفطية الأجنبية"[٧٧].

لم يشك "إيزنهاور" للحظة فى أنه سيكون هناك عواقب وخيمة إذا نجح "عبد الناصر" فى الربط بين السويس والنفط والقومية العربية، كما تنبأ فى ٣١ يوليو بأنه

(*) للمزيد انظر الملحق رقم ٦ فى آخر الكتاب.

إذا أصبحت له السيطرة على قناة السويس فسرعان ما سيصبح قادرا على "حشد وتنظيم العالم من داكار إلى جزر الفيلپين ضدنا"، كذلك كان "چون فوستر دالاس" يرى أنه لابد من إجبار "عبد الناصر" على "إعادة ما سرقه". كان التحدى الماثل أمام الولايات المتحدة على أية حال هو تحقيق ذلك دون اللجوء إلى التدخل العسكرى الغربى ودون تأجيج مشاعر الغضب فى العالم العربى بأسره"، وبهذا الهدف أصدر الرئيس تعليماته لـ"دالاس" بأن يطير إلى لندن للتشاور مع المسئولين البريطانيين[٧٨].

أثناء الرحلة الطويلة فوق الأطلنطى، وضع "دالاس" اللمسات الأخيرة على خطة تطلب من بريطانيا وقوى بحرية أخرى الحضور على طاولة المؤتمر مع مصر بحثا عن حل سلمى للأزمة. لم يكن صناع السياسة البريطانيون متحمسين لهذا الاقتراح الأمريكى، حيث أبلغ "سلوين لويد" وزير الخارجية الأمريكى "چون فوستر دالاس" فى ١أغسطس أن "عبد الناصر شخصية مصابة بجنون العظمة وله نفس تفكير هتلر"، وأن بريطانيا إذا بلغت بها الحماقة لتقبل الاستمرار فى التفاوض لفترة طويلة بخصوص مستقبل القناة "فإن اقتصادنا سوف يختنق ببطء"[٧٩]. كذلك كان رئيس الوزراء "إيدن" فظا عندما التقى "دالاس" بعد ذلك فى اليوم نفسه، وأوضح كيف أن "إجراء قويا فوريا كان ضروريا، لأن "عبد الناصر" إذا فعل ذلك دون أن يقابل بإجراء حاسم فسيكون ذلك بمثابة كارثة على مصالح بريطانيا فى الشرق الأوسط كله، وأن فرنسا كان لديها نفس الشعور بالنسبة لمصالحها فى شمال أفريقيا"؛ إلا أن "دالاس" كان متخوفا من أن "أى مجازفة عسكرية من قبل بريطانيا وفرنسا قد يتم تصويرها على أن وراءها مطالع إمپريالية واستعمارية" ويمكن أن تخلق وضعا يجعل "كل العرب وأجزاء من العالم الإسلامى تتراص ضد المملكة المتحدة؛ وفى النهاية وافق "إيدن" على مضض "بعد مناقشة وافية للحجج المؤيدة والمعارضة" على أن بريطانيا "ستكون مستعدة لتجربة المؤتمر إذا كان بالإمكان الإسراع به"[٨٠].

كان تردد "إيدن" يستند إلى أسباب قوية، لأن "عبد الناصر" أعلن – قبل أن ينتهى الأسبوع – أن مصر لن تشارك فى مؤتمر مستخدمى قناة السويس الذى

سيعقد فى لندن فى منتصف أغسطس. وفى اجتماع لمجلس الأمن القومى الأمريكى فى ٩ أغسطس قال "إيزنهاور" إن "مصر قد تمادت"، وتساءل غاضبا كيف يمكن "أن نتوقع أن تظل أوروبا تحت نزوة دكتاتور؟"، كما أشار "دالاس" إلى أن قراءة جيدة لكتاب عبد الناصر "فلسفة الثورة" تكشف عن أنه "كان يحلم ببناء كبير للقوة العربية وتقليص مماثل للقوة الغربية" منذ عدة سنوات، أما "إيزنهاور" فأومأ محذرا من أن هيبة "عبد الناصر" سوف تتزايد إذا تمكن من اقتناص قناة السويس" و"سوف تعم الفوضى الشرق الأوسط لفترة طويلة"[٨١].

وبينما كان "إيزنهاور" وكبار مستشاريه فى حالة غضب شديد كانت الأمور فى العالم هادئة تقريبا. مدركا أن بريطانيا وفرنسا كان من المحتمل أن تشيرا إلى اضطراب فى شرق المتوسط كذريعة لإرسال قوات عسكرية، بذل "عبد الناصر" جهدا كبيرا ليؤكد أن قناة السويس كانت مستمرة فى العمل بكفاءة وأن الناقلات التى تحمل نفط الخليج الفارسى كانت تعبر الممر المائى المتنازع عليه دون عقبات فى طريقها إلى أوروبا الغربية، وكانت تلك أخبار طيبة بالنسبة للناقلين البريطانيين والفرنسيين، وفى الوقت نفسه سيئة بالنسبة لصناع السياسة الأمريكيين الذين كانوا يجدون صعوبة متزايدة فى إقناع "كابيتول هيل" بإجراء متشدد ضد "عبد الناصر"[٨٢].

عندما توجهت لجنة من حزبى الكونجرس إلى البيت الأبيض فى ١٢ أغسطس لمناقشة أزمة السويس طرح ديمقراطيون مثل "سام راى بيرن – **Sam Rayburn**" وجمهوريون مثل "وليم نولاند– **William Knowland**" نائب كاليفورنيا السؤال نفسه. الآن وقد أثبت المصريون قدرتهم على إدارة القناة بأنفسهم، لماذا كانت هناك. إذن، حاجة لأن تفكر بريطانيا وفرنسا فى إبطال قرار "عبد الناصر" بالتأميم؟؛ ومشيرا مرة أخرى إلى كتاب "فلسفة الثورة" قال "إيزنهاور" إن "عبارات "عبد الناصر" العدوانية تبدو شبيهة بعبارات "هتلر" فى "كفاحى"، الكتاب الذى لم يصدقه أحد"، وأضاف "دالاس" أن البريطانيين والفرنسيين كانوا مقتنعين بأن "عبد الناصر" شخص متهور، يلوح بفأس مهددا، وعليهم ألا ينتظروا حتى يضرب بها"[٨٣].

إلا أن "دالاس" عندما وصل إلى لندن بعد ذلك بثلاثة أيام لحضور مؤتمر الثمانى عشرة دولة بخصوص أزمة السويس حذر رئيس الوزراء "إيدن"، ووزير خارجية فرنسا "كريستيان بينو - Christian Pineau" ألا يتصرفا وفق هذا الاقتناع؛ وفى ١٦أغسطس أبرق "دالاس" إلى "إيزنهاور" يخطره أن البريطانيين والفرنسيين كانوا الآن - وعلانية - يبدون أقل إصرارا على مهاجمة مصر، وأكثر وعيا "بحجم مهمة التدخل العسكرى" أما بينهم وبين أنفسهم فلم يكونوا مستريحين لفكرة أن تتحكم مصر فى تدفق النفط من الخليج الفارسى، ولا يثقون فى التوصل إلى تسوية عن طريق التفاوض(٨٤). "إيدن"، الذى لم يكن محبذا لإرسال لجنة دولية برئاسة "روبرت منزيس - Robert Menzies" رئيس وزراء أستراليا إلى القاهرة للتباحث مع "عبد الناصر" تنبأ بأن "وايت هول" سرعان "ما سيواجَهُ بخيار قبول الاختناق البطىء لاقتصادنا أو اتخاذ إجراء قد لا يرحب به أصدقاؤنا"(٨٥). صديق "إيدن" فى المكتب البيضوى، بالطبع، واصل ضبط النفس؛ وفى ٢ سبتمبر كان "إيزنهاور" يحذر "إيدن" بأن بريطانيا إذا لجأت إلى التدخل العسكرى فى مصر "فإن شعوب الشرق الأدنى وشمال أفريقيا، وربما فى آسيا وأفريقيا كلها سوف يتحدون ضد الغرب لدرجة أخشى أن يكون من الصعب التغلب عليها على مدى جيل وربما على مدى قرن، وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار قدرة الروس على إحداث أى ضرر"(٨٦).

إلا أن "إيزنهاور" - كما كتب - كان يعى جيدا أن الأمل فى حل دبلوماسى لأزمة السويس كان يخبو بسرعة.

وصلت لجنة "منزيس" إلى القاهرة فى أوائل سبتمبر(*) من أجل مباحثات ليست ذات منهج استمرت يومين، ذكَّر "عبد الناصر" أثناءها زائرية بأن المرور فى القناة كان مستمرا دون مشكلات منذ أن تولى المصريون الأمور قبل ستة أسابيع، وفى ٥سبتمبر كان يتساءل عن الحاجة حتى إلى التفكير فى مراقبة دولية على الممر المائى، وكان رد "منزيس" أن مستخدمى القناة لا يثقون فى مصر، فرد عليه

(*) للمزيد انظر الملحق رقم ٧ فى آخر الكتاب.

"عبد الناصر" بأن "الثقة ثنائية الاتجاه، وأنا أيضا لا أثق فى اللجنة المقترحة من المستخدمين"، مضيفا أنه كذلك لا يثق فى "أنتونى إيدن" ولا فى "چون فوستر دالاس"، وأنه "إذا كانت هناك محاولة لفرض حل، فمعنى ذلك أنه ستكون هناك مشاكل"(٨٧).

لم يفاجأ كثيرون فى واشنطن بفشل مهمة "منزيس" فى القاهرة، ولكن الكل تقريبا يقلقهم أن فشله ربما يغرى "وايت هول" ببدء عملية عسكرية فى المستقبل القريب. وفى ٦ سبتمبر كان "دالاس" يرى أن البريطانيين يشعرون أن "عبد الناصر" إذا خرج بغنيمته سالما فإن ذلك سيطلق سلسلة من الأحداث فى الشرق الأدنى تؤدى إلى التقليل من شأن المملكة المتحدة لتصبح هولندا أو برتغالا أخرى" و"إن مشكلتنا على المدى البعيد هى كيف نرشد الدول الجديدة على طريقها من الاستعمار إلى الاستقلال بطريقة منظمة". أما بالنسبة لـ"دالاس" فكانت الوصفة واضحة: "لابد من تحول... وليس ثورة"، وتحقيق ذلك قد يتطلب عملية مؤلمة تقوم فيها الولايات المتحدة "بدور الوسيط بين القوى الأوروبية الغربية والدول الجديدة فى آسيا وأفريقيا، وهو وضع غير مستحب تماما إلا أنه ضرورى من أجل انتقال منظم"(٨٨).

عاد "دالاس" مرة أخرى إلى لندن فى منتصف سبتمبر لحضور مؤتمر ثان للقوى البحرية حيث كان ينوى أن يضاعف جهوده للوساطة، ووسط شائعات عن الحرب حصل وزير خارجية "إيزنهاور" على موافقة بريطانية على مضض على إنشاء هيئة للمنتفعين بقناة السويس **Suez Canal Users Association** يسمح لها بتحصيل رسوم مرور عن السفن التى تمر بالممر المائى إلى أن يقبل "عبد الناصر" بنظام المراقبة الدولية. وبالرغم من أن "دالاس" عاد إلى واشنطن فى ٢٢ سبتمبرا محبذا إنشاء هيئة المنتفعين كأفضل وسيلة لحل الأزمة سلميا، فإن "هارولد ماكميلان" وزير الخزانة البريطانى أوضح عندما جاء إلى "فوجى بوتوم" بعد ثلاثة أيام أن البريطانيين كانوا يرون الأمور على نحو مختلف. شرح لهم "ماكميلان" كيف كان التدخل العسكرى يبدو احتمالا سريعا لأن "وايت هول" لا يستطيع أن يترك "عبد الناصر" يتحكم فى قناة السويس دون حدود. وكما يقول "ماكميلان" فإن "دالاس" أدرك تماما

أننا قد يكون علينا أن نلجأ إلى القوة" و"كان يرى أن تلويحنا باستخدام القوة أمر حيوى سواء نفذنا ذلك أم لا لكى يظل "عبد الناصر" منزعجا". ثم بعد ملاحظة أن السويس لم يكن لها الآن دور كبير فى الانتخابات الرئاسية فى ١٩٥٦، طلب وزير خارجية "إيزنهاور" من وزير الخزانة البريطانى معروفا "هل بالإمكان أن نحاول تأجيل الأمور إلى ما بعد السادس من نوفمبر؟"(٨٩).

بعد أكثر من شهر بقليل سيتضح أن الإجابة المختصرة كانت "لا"، فمع عدم وجود أى دليل على أن هيئة المنتفعين بقناة السويس أو الولايات المتحدة أو الأمم المتحدة استطاعت أن تقنع المصريين بقبول المراقبة الدولية على قناة السويس، بدأت الخيارات تضيق أمام "إيدن" سريعا فى أوائل اكتوبر؛ ومقتنعين بأن التعبئة العسكرية المفتوحة يمكن أن تؤدى إلى إفلاس بريطانيا دون تخويف "عبد الناصر" كان المحافظون اليمنيون سواء داخل أو خارج الحكومة مصممين على أن رئيس وزرائهم لابد من أن يلجأ إلى القوة عاجلا وليس أجلا. على الشاطئ الآخر من القنال الإنجليزى كان "جى موليه – Guy Mollet"، رئيس الوزراء وزملاؤه الاشتراكيون فى باريس يرددون ما يقوله معارضو "إيدن" من المحافظين. غاضبا بشدة بسبب دعم "عبد الناصر" للثوار المسلمين الذين يسعون لتحرير الجزائر من الحكم الفرنسى، وعازما على ألا يسمح له بالتحكم فى المر المائى الذى تستورد فرنسا عن طريقه ثلاثة أربا ع نفطها، أجرى "موليه" اتصالات سرية بزعماء إسرائيل مقترحا استرداد قناة السويس عنوة؛ وعلى أمل تسديد ضربة قاضية لنظام "عبد الناصر" قبل أن يستوعب المصريون الطائرات والدبابات التى كانوا قد تسلموها من السوفيت حديثا، وافق رئيس الوزراء الإسرائيلى "ديفيد بن جوريون" على لقاء "سلوين لويد" و"كريستيان بينو" فى "سيفرس"، إحدى ضواحى باريس الحديثة، فى ٢٣ اكتوبر.

فى اليوم التالى وافقت كل من إسرائيل وبريطانيا وفرنسا على خطة معقدة للتدخل العسكرى، وتحت شروط بروتوكول "سيفرس" كان على إسرائيل أن تهاجم مصر فى خلال أسبوع دون إنذار، وأن تتقدم فى صحراء سيناء حتى ضفة قناة

السويس، بعدها تصدر بريطانيا وفرنسا إنذارا لكل من إسرائيل ومصر بسحب قواتهما إلى مسافة عشرة أميال من القناة. باتفاق مسبق سوف يرضخ الإسرائيليون على الفور، أما "عبد الناصر" فمن المؤكد أنه سيرفض الإنذار باعتباره انتهاكا لسيادة مصر، معطيا بذلك لـ"إيدن" و"موليه" ذريعة كانا فى حاجة إليها لإرسال القوات البريطانية والفرنسية لحماية الممر المائى. لم تكن بريطانيا أو فرنسا على استعداد للمخاطرة بإبلاغ الولايات المتحدة مسبقا، وفضلتا، بدل ذلك، أن تضعا إدارة "إيزنهاور" أمام أمر واقع عشية انتخابات ١٩٥٦.

أخبار ضربة إسرائيل الخاطفة فى سيناء وصلت واشنطن مساء الإثنين ٢٩ أكتوبر فى نهاية يوم صعب لـ"إيزنهاور" فى حملته الانتخابية، وفى اجتماع عقد فى المكتب البيضوى بعد ساعات قليلة عبر الرئيس عن غضبه الشديد لتجاهل إسرائيل مناشدته فى اللحظة الأخيرة ألا تكون البادئة بالعدوان، وراح "آيك" يزأر: "اللعنة! فوستر أبلغهم... سنوقع عقوبات... سنذهب إلى الأمم المتحدة... سنفعل كل ما فى وسعنا لكى نوقف ذلك"[٩٢]. ومما زاد من غضب "إيزنهاور" وجود دلائل على تواطؤ بريطانيا: كان يزمجر "لابد من أن يعلموا فورا أنهم محقون فى نزاعهم مع المصريين إلى حد بعيد، ولكن لا شىء يبرر خيانتنا"[٩٣].

على مدى أسابيع كان السفير "روچر ماكينز - Roger Makins" يحذر بأن معارضة أمريكا الطويلة للاستعمار ستجعل من الصعوبة الشديدة على إدارة "إيزنهاور" أن تدعم استعراضا إمبرياليا للقوة العسكرية فى مصر، كما حذر "لويد" فى سبتمبر "أما بخصوص الإجراء العسكرى... فإن محاولة القيام به دون دعم معنوى وعسكرى أمريكى كامل، يمكن بكل بساطة أن يؤدى إلى كارثة"[٩٤]. بعد شهر قام "ماكينز" بإبلاغ "إيدن" "لقد لاحظت من قبل أن هذا الشعور العميق بشأن الاستعمار الذى هو شائع بين كثير من الأمريكيين، كان يتفجر أحيانا داخل "فوستر" (دالاس) مثل الحمم فى بركان ساكن"[٩٥]. ودون شك، فإن بعض الأمريكيين كانوا يعتقدون دائما أن التدخل العسكرى الغربى كان هو الأسلوب الأفضل لحل أزمة

السويس. "دين أتشسون" على سبيل المثال،لم يكن يحمل سوى شعور بالازدراء نحو "عبد الناصر" الذى سيصفه فيما بعد بأنه "كليوباتره ذكر، تخدع القوتين الكبريين"، وغير خجل من نظرته للعالم التى تحكمها مركزية أوروبية، نجد وير خارجية "ترومان" يقول لـ"سيروس سالزبيرجر" على عشاء فى چورچتاون فى ١٧ اكتوبر ١٩٥٦، إن "بريطانيا وفرنسا كان ينبغى أن تقوما بغزو مصر فى غضون أسبوعين بدلا من إضاعة الوقت سدى على قضية قناة السويس"(٩٦).

على أية حال، كان "دالاس" بمزاجه البركانى، وليس "آتشسون" بنزعته الإنجليزية المتبلدة، هو من يحتل المنصب الأعلى فى "فوجى بوتوم"، كما كان "دالاس" هو الذى على صلة مباشرة بشاغل المكتب البيضوى الغاضب عندما توقفت بريطانيا وفرنسا عن إضاعة الوقت بعد أسبوعين. مقتنعين بأن الفرنسيين والإنجليز "سيعتبرهما العالم معتدين ومتورطين فى حرب ضد العرب وضد الآسيويين"، كان "دالاس" و"إيزنهاور" يعملان بكل قوة صباح ٣٠ أكتوبر لترتيب وقف إطلاق النار بين الإسرائيليين والمصريين قبل أن يتمكن "إيدن" و"موليه" من إرسال قواتهما(٩٧)؛ وقبل نهاية اليوم اتصل "دالاس" برئيسه تليفونيا ليبلغه بالأخبار الفاجعة. كانت بريطانيا وفرنسا قد وجهتا لتوهما "إنذارا لمصر لمدة ١٢ ساعة، إنذارا فظا وعنيفا بدرجة لم يسبق لها مثيل"(٩٨)، ولأن ذلك كان من المؤكد أن يؤدى إلى قطع النفط القادم من الخليج الفارسى، جلس "إيزنهاور" مع "آرثر فليمنج – **Arthur Flemming**" مدير مكتب التعبئة من أجل الدفاع لمناقشة ما إذا كان عليهم أن يعيدوا تخصيص الإمدادات النفطية من نصف الكرة الغربية لأوروبا الغربية؛ و"لأنه كان فى قمة الغضب من كل من البريطانيين والفرنسيين للقيام بهذا العمل" كان الرئيس يتكلم بكل وضوح" "من بدأ هذه العملية ينبغى تركه يحل مشكلاته المتعلقة بالنفط... أى أن يحترق فى زيته"(٩٩)، كماقال لـ"فليمنج".

تصرفات "إيزنهاور" سرعان ما أكدت أنه كان يعنى ما يقول بالفعل. مساء ٣١ أكتوبر قامت القاذفات البريطانية "كانبرا" الموجودة فى "مالطا" و"قبرص" بضرب

المواقع المصرية فى منطقة القناة وتدمير قوات "عبد الناصر" الجوية، وكما قال أحد المراقبين بعد ذلك "كان البيت الأبيض يمور بلغة الثكنات العسكرية" التى كان إيزنهاور صاحب النصيب الأكبر منها. كان "آيك" يرعد: "قصف من السماء! ماذا يظن أنتونى أنه يفعل؟"(١٠٠)، وفى خطاب الشعب الأمريكى منقول تلفزيونيا فى المساء لم يخف "إيزنهاور" غضبه لقيام البريطانيين بتعطيل قرار بوقف إطلاق النار فى مجلس الأمن، كما تعهد التقدم باقتراح مماثل للجمعية العامة حيث لا يوجد "ڤيتو" من الدول الكبرى، وأنهى "إيزنهاور" خطابه قائلا "من المستحيل أن يكون هناك سلام دون قانون، ومن المستحيل أن يكون هناك قانون إذا كنا سنطبق مدونة سلوك دولى خاصة بمن يعارضوننا وأخرى خاصة بأصدقائنا"(١٠١).

إلى حد بعيد، كان تعهد "آيك" بحل أزمة السويس تحت ظل القانون الدولى بالرغم من اعتراضات أصدقاء أمريكا، مخططا لكى يسحب الأرضية الأخلاقية من تحت الاتحاد السوفيتى خصم أمريكا الرئيسى، الذى كان يطبق قانون الغاب فى شوارع بودابست. لمدة عام تقريبا كان الرئيس السوفيتى "نيكيتا خروشوف" ينتهج أسلوب "نقض الستالينية"، الذى كان محاولة جسورة من أجل تحول سياسى ليبرالى داخل روسيا. أخبار برنامج "خروشوف" أحدثت ثورة فى أفق التوقعات بين الدول التابعة للكرملين فى أوروبا الشرقية. وبينما كان بقية العالم أشبه بالمنوم مغناطيسيا فى أغسطس وسبتمبر بسبب أزمة السويس التى كانت تبحث عن حل بطئ، قاد "إيمرى ناجى – Imre Nagy" الزعيم الوطنى البالغ من العمر ٦٠ عاما حركة للإصلاح وتقرير المصير فى المجر، وبعد أن أصبح رئيسا للوزراء فى أواخر أكتوبر ألغى نظام الحزب الواحد وأقنع الكرملين بسحب قواته الموجودة فى المجر فورا. استقبل "إيزنهاور" الأخبار الطيبة من بودابست قبل أن يلقى خطابه مباشرة، الخطاب الذى سيدين فيه العدوان البريطانى الفرنسى على مصر. مشبها "نقض الستالينية" فى أوروبا الشرقية بـ"زمن الثورة الأمريكية"، أشار كذلك إلى تشابه ضمنى بين "رجال اللحظة" فى ١٧٧٦ والمقاتلين من أجل الحرية مع "ناجى" فى ١٩٥٦، وامتدح "شعبه الشجاع" الذى قدم حياته من أجل الاستقلال عن "السادة الأجانب"(١٠٢).

فى الصباح التالى، وبينما كان "إيزنهاور" يستعد لاجتماع مجلس الأمن القومى الذى سيقرر سياسة الولايات المتحدة فى السويس، كان لسادة المجر الأجانب موقف مفاجئ إذ أرسلوا أرتال دباباتهم تدمدم عائدة فى اتجاه بودابست لحسم الأمور مع "ناجى". والقنابل تتساقط على القاهرة، والدبابات تهدر فى شوارع بودابست، والانتخابات على الأبواب (بعد أسبوع)، لم يضيع "چون فوستر دالاس" الغاضب المحبط وقتا لكى يلخص ورطة أمريكا الكبرى: "لم يكن الموقف أكثر تراچيدية فى أى وقت مما هو الآن فنحن على أبواب انتصار طال انتظاره على الاستعمار السوڤيتى فى أوروبا الشرقية، لابد من أن نكون مضطرين للاختيار بين اتباع خطى الاستعمار الأنجلو - فرنسى فى آسيا وأفريقيا أو أن تتفرق بنا السبل"، وعلى مدى أكثر من عقد كانت "الولايات المتحدة تمشى على حبل مشدود بين جهد يبذل للحفاظ على علاقاتنا القديمة القيمة مع حلفائنا البريطانيين والفرنسيين من جهة، ومحاولة طمأنة أنفسنا بصداقة وتفاهم مع الدول المستقلة حديثا من جهة أخرى"؛ كما حذر "دالاس" زملاءه بأن واشنطن إذا لم تستطع أن تقنع لندن وباريس بالانسحاب من السويس "فسوف تكون النظرة إلينا - وإلى الأبد - باعتبارنا مقيدين بالسياسات البريطانية والفرنسية"، كما أن الدول الجديدة فى آسيا وأفريقيا "سوف تدير ظهرها لنا وتتجه نحو الاتحاد السوڤيتى لزعامة العالم"، واختتم قوله "فوزا أو خسارة... سوف نشارك بريطانيا وفرنسا المصير نفسه"[١٠٣].

لم يكن أى من الجالسين حول طاولة الاجتماع أكثر تلهفا على القفز من فوق الحبل المشدود من "دالاس"، فوزير الخزانة "چورچ همفرى" على سبيل المثال كان يرى أنه قد يكون من الحكمة الاعتماد على وساطة الأمم المتحدة لحل المشكلة. وزير الدفاع "تشارلز ويلسون - Charles Wilson" كان يخشى أن يتسبب شجار بين الولايات المتحدة وحلفائها فى إضعاف حلف شمال الأطلنطى على نحو خطير. المستشار الرئاسى "هارولد ستاسين - Harold Stassen" اقترح أن يدير "إيزنهاور" ظهره حتى ينتهى "إيدن" و"موليه" من القضاء على "عبد الناصر". مندهشا إلى حد ما لموقف "ستاسين" المتشدد، سأل الرئيس: "وكيف يمكن أن ندعم بريطانيا وفرنسا إذا كنا

بذلك نخسر كل العالم العربي؟"؛ ومعترفا بأنه كانت هناك مخاطرة في كلتا الحالتين قال "إيزنهاور" إن "فكرته هي عمل ما هو لائق وصواب، ولكن علينا ألا نكون أكثر غضبا مما ينبغي ونحن ندين"؛ وفي نهاية الاجتماع أضاف "إيزنهاور" أنه "كان قد أبلغ "إيدن" قبل أسبوع بأن البريطانيين إذا قاموا بما يقومون به الآن، ودخل الروس الشرق الأوسط فإن الزيت سيكون قد تم صبه بالفعل على النار"(١٠٤).

على مدى الأيام الأربعة التالية وفي مناسبات مختلفة، كان الزيت المصبوب على النار على وشك الاشتعال ليتحول إلى جحيم كوني: ففي الساعات الأولى من فجر الثاني من نوفمبر أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا يدعو إلى الوقف الفوري لإطلاق النار والانسحاب العاجل لكل القوات الإسرائيلية من الأراضي المصرية. رافضتين الانصياع للقرار، حاولت كل من بريطانيا وفرنسا صرف الانتباه عن هجومهما الجوي والبحري الوشيك على مصر، بالمطالبة بإجراء فوري من الأمم المتحدة لوقف الاعتداء السوفيتي على المجر. كان "دالاس" شديد الغضب من البريطانيين والفرنسيين وقال لـ"هنري كابوت لودج – **Henry Cabot Lodge**" سفير أمريكا لدى الأمم المتحدة "منتهى الاستهزاء أن يجيئوا والقنابل تتساقط على مصر ليستنكروا قيام الأمم المتحدة بعمل ليس بذلك السوء"(١٠٥).

بعد ست وثلاثين ساعة، علم "دالاس" و"إيزنهاور" أن الكرملين قام بالفعل بما هو أسوأ. قبل فجر الرابع من نوفمبر بقليل فتحت الدبابات السوفيتية النار على بعض المليشيات ذات التسليح الخفيف المعادية للشيوعية في قلب بودابست، كما قصفت مبنى البرلمان المجري، وأمر "خروشوف" بإلقاء القبض على "إيمري ناجي" الذي تم نقله سرا إلى موسكو ليتم إعدامه في أوائل العام الجديد، وعندما توقف القتال في أواخر الشهر كان هناك أربعة آلاف قتيل من المجريين، كما فر نصف المليون مواطن عبر الحدود إلى النمسا المحايدة، وأعاد "جانوس كادار – **Janos Kadar**" الذي خلف "ناجي" في رئاسة الوزراء دولة بوليسية على النمط الستاليني يدعمها الجيش الأحمر(١٠٦).

وبينما كان العالم ما زال فى حالة ذهول بسبب المذابح الفظيعة فى شوارع بودابست، كان ستمائة من جنود المظلات البريطانيين (الدفعة الأولى مما سيصبح قوة احتلال إنجليزية فرنسية قوامها ٢٢٠٠٠ جندى) قد هبطوا فى صمت على ضفتى قناة السويس فى ٥ نوفمبر. وعى أمل أن يرضخ "إيزنهاور" فى اللحظات الأخيرة حاول "أنتونى إيدن" أن يضع الهجوم على مصر فى إطار احتواء القومية العربية الثورية، وأبرق إلى "آيك": "إذا تركنا الأمور تفلت سيصبح "عبد الناصر" أشبه بـ"موسولينى مسلم"، وتتم الإطاحة بأصدقائنا فى العراق والأردن والسعودية... وحتى فى إيران، بالتدريج"(١٠٧).

لم يكن هناك خلاف فى واشنطن على أن "عبد الناصر" كان يشكل خطرا داهما على الأنظمة الموالية للغرب فى المنطقة كلها؛ والواقع أن "إيزنهاور" كان فى قرارة نفسه مبتهجا لأن الهجوم الجوى البريطانى قد وضع "نابليون العرب" فى حالة "يأس"، وكان يسخر "قولوا لـ"عبد الناصر" إننا سنكون سعداء أن نضعه فى سانت هيلينا ونعطيه مليون دولار"(١٠٨).

إلا أن الرسالة التى تسلمها "إيزنهاور" من الرئيس السوفيتى "نيكولاى بولجانين – Nikolai Bulganin" لم تكن مزحة. اقترح "بولجانين" عملية سوفيتية أمريكية مشتركة لحفظ السلام فى الشرق الأوسط، كانت توحى ضمنا بأن الولايات المتحدة إذا رفضت المشاركة، فإن الكرملين سوف يقوم بذلك منفردا، وأبلغ "آيك" كبار مساعديه بأن "السوفيت عندما وجدوا أن وضعهم وسياستهم قد فشلت هذا الفشل الذريع فى الدول التابعة لهم، مستعدون الآن للقيام بأى "مغامرة شرسة"؛ وعلى ضوء ذلك كله خلص "إيزنهاور" إلى ضرورة إقناع بريطانيا بقبول قرار وقف إطلاق النار الصادر عن الأمم المتحدة فورا وذلك لمنع تصاعد أزمة السويس إلى مواجهة شاملة بين القوى العظمى، ثم قال متهجما إن على المسئولين الأمريكيين أن يسألوا العرب: "هل تريدون أن يقوم السوفيت فى الشرق الأوسط بما يقومون به الآن فى المجر؟"(١٠٩).

كان الثلاثاء السادس من نوفمبر هو يوم الانتخابات، ولكن "إيزنهاور" كان أقل اهتماما بالتصويت فى أمريكا الوسطى منه بصوت الرصاص فى الشرق الأوسط. الأخبار عن أن بريطانيا وفرنسا قد قبلتا وقف إطلاق النار بعد ظهيرة اليوم قوبلت بارتياح شديد فى البيت الأبيض، وعلى الفور اتصل الرئيس تليفونيا بـ"أنتونى إيدن" ليؤكد له أهمية الانسحاب السريع للقوات البريطانية والفرنسية من السويس، وشرح كيف أن التباطؤ "قد يعطى مصر فرصة للمراوغة" ويؤدى إلى المزيد من التدخل السوفيتى فى العالم العربى. "إيدن" وعد بالانسحاب بمجرد وصول قوة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة التى كان يفضل أن يكون معظمها من القوات الأمريكية، وذلك لضمان أمن القناة: وخشية أن يستغل الكرملين هذا الإجراء كذريعة لإرسال قوات "حفظ سلام" سوفيتية إلى الشرق الأوسط، كان "إيزنهاور" يفضل "ألا يرى أيا من الدول العظمى ممثلا فيها" وإلا كما حذر "إيدن": "أخشى أن يطلب الغلام الأحمر أن يكون له نصيب الأسد فيها"(١١٠).

مقتنعا بأن انسحابا بريطانيا على هذا النحو المندفع والسريع بعد احتلال مصر كان يعنى سقوط حكومته، حرض "إيدن" مجبرا "إيزنهاور" على أن يستخدم الوسائل الاقتصادية على مضض - ضغط مضطرد على الجنيه الاسترلينى وحظر غير رسمى على نفط نصف الكرة الغربى - ضد بريطانيا. وفى ظل التقلص السريع للذهب البريطانى ولاحتياطيات النفط، وفى ظل تفكير "إيدن" فى الاستقالة، أخذ "هارولد ماكملان" وزير الخزانة زمام المبادرة للتوصل إلى صفقة مع إدارة إيزنهاور فى آخر الشهر: وبمجرد أن بدأت القوات البريطانية انسحابها من السويس فى ٣ ديسمبر، بدأت الدولارات والنفط تتدفق إلى بريطانيا من الولايات المتحدة(١١١).

متلهفة على ترميم علاقتها بـ"وايت هول"، أكدت إدارة "إيزنهاور" أن التزامها بمناهضة الاستعمار ينبغى ألا يساء فهمه أو اعتباره قومية ثورية على الطراز العربى. ومنزعجين «لاستقلالية "عبد الناصر" ولعدم الثقة به، ومتشككين فى "طموحاته المفرطة" كان المسئولون الأمريكيون يقلقهم أن الثورة المصرية، إن هى ظلت هكذا دون تحجيم،

فلربما قلبت ميزان القوى فى المنطقة وأشعلت صراعا أوسع، مثل سلفها الثورة الفرنسية قبل قرن ونصف القرن(١١٢). فى ١٢ ديسمبر وصل "دالاس" إلى پاريس لحضور اجتماع لحلف شمال الأطلنطى، حاملا تعليمات من إيزنهاور لكى يذكر حلفاء الولايات المتحدة بـ«إننا نعتبر "عبد الناصر" نفوذا شريرا» تهدد أيديولوچيته الراديكالية المصالح الغربية فى الشرق الأوسط كله. وأضاف آيك "لقد أوضحنا تماما أننا بينما نشارك البريطانيين والفرنسيين الرأى فى "عبد الناصر" بشكل عام، إلا أنهما اختارتا توقيتا وحدثا سيئين للقيام بعمل تأديبى"(١١٣). كان اختيار الوفد المناسب لمثل هذا الإجراء مسألة مربكة لواشنطن مباشرة بسبب موت "عبد الناصر" فى سپتمبر ١٩٧٠.

• العشاء مع الشيطان: أمريكا وعبد الناصر (١٩٥٧-١٩٧٠)

إذا كان تناول "إيزنهاور" لأزمة السويس قد بين أن الولايات المتحدة كانت تعتبر الاستعمار الأوروبى من بقايا الماضى، فإن السياسات التى انتهجها "آيك" خلال السنوات الخمسة عشر التالية أكدت أن أمريكا لم تكن تعتبر الثورة القومية موجة المستقبل. بالنسبة لكل من شغل البيت الأبيض من "إيزنهاور" إلى "نيكسون"، فإن التعامل مع عبد الناصر كان بمثابة تناول العشاء مع الشيطان؛ وعن طريق مزج المكافآت الاقتصادية بالتهديدات العسكرية كانوا يأملون فى صرف شيطان الناصرية وحماية الأنظمة الموالية للغرب من التغيير الثورى.

رفض "عبد الناصر" القاطع لمبدأ "إيزنهاور" فى أوائل ١٩٥٧ كان يوحى بأن عملية "صرف الشيطان" كانت مؤلمة وأنها ستأخذ وقتا طويلا. زاعما أنه "ليس هناك خطر من العدوان الشيوعى" فى العالم الإسلامى، كان "عبد الناصر" مصرا فى ١٠ يناير على أن سياسة "إيزنهاور" الجديدة كانت تستهدف القومية العربية وليس الشيوعية العالمية(١١٤). "دالاس" كان مختلفا، إذ أكد بعد أربعة أيام أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ أن "هناك دلائل كافية على تسلل الشيوعية إلى مناطق معينة، وأن المصريين إنما يخدعون أنفسهم لو أنهم كانوا يظنون خلاف

ذلك"[١١٥]. كما أكد وزير خارجية "إيزنهاور" فى ٥ فبراير "إننا لم نكن ضد القومية وإنما دعمناها، إلا إننا لم ندعم ذلك النمط من القومية الذى يمكن أن يؤدى إلى "فقدان الاستقلال وبخاصة - كما أكد - فى الشرق الأوسط"، وخلص إلى أن الدول التى تنتهج سياسة "تعتمد على الشيوعية" تعزل نفسها وتموت"، كما أن "فلسفة عبد الناصر ستكون لها هذه النتيجة"[١١٦].

على مدى الأشهر التالية سيكتشف "دالاس" و"إيزنهاور" علامات كثيرة على أن الناصرية رغم أنها كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، كانت على وشك أن تنقل عدواها إلى سوريا، إذ بالرغم من دعم الولايات المتحدة لاستقلال سوريا فورا بعد الحرب العالمية الثانية، فإن المناخ السياسى فى دمشق كان قد أصبح مسمما ضد أمريكا بسبب فترة إدارة "إيزنهاور"، وذلك فى المقام الأول بفضل صعود حزب البعث الذى كان زعماؤه يمتدحون "عبد الناصر"، وينادون "بالوحدة والاشتراكية والحرية"، ويتبنون سياسة أكثر قربا من موسكو[١١٧]. وبحلول صيف ١٩٥٧ كانت سوريا تدار بواسطة مجلس قيادة بعثى ثورى على غرار مجلس قيادة الثورة فى مصر، يرأسه "عبد الحميد السراج"، أحد أصدقاء "عبد الناصر" وأحد أعداء **مبدأ إيزنهاور**. الأخبار عن أن سوريا سوف تقايض فائض القمح لديها بعتاد عسكرى سوفيتى فى أواخر يوليو دفع الولايات المتحدة للإسراع بأعمالها السياسية السرية فى دمشق؛ وفى منتصف أغسطس حث "دالاس" رئيسه بالفعل على أن يفكر فى تدخل عسكرى صريح، مؤكدا "إننا لا نستطيع أن نتحمل وجود دولة تابعة للسوفيت ليست مجاورة لهم فى وسط هذا الوضع الدقيق فى الشرق الأوسط"[١١٨]. وبالرغم من أن "إيزنهاور" رفض إرسال "المارينز" فإنه كان يعتقد أن نظام "السراج" كان أكثر عرضة للاختراق الشيوعى من مصر"، وتحرك سرا فى أوائل سبتمبر لتسليح العديد من جيران سوريا و"عبد الناصر" المعادين للشيوعية[١١٩].

مقتنعا بأن الوحدة العربية كانت أفضل إجراء مضاد للتهديد الغربى، طار "السراج" إلى القاهرة فى يناير ١٩٥٨ ليتحدث مع "عبد الناصر" عن اتحاد كونفدرالى

سورى مصرى يسمى الجمهورية العربية المتحدة؛ وبالرغم من علمه بأن النموذج المصرى للقومية لم يكن يحظى بقبول شعبى فى دمشق، وبأن الاقتصاد السورى الحر من المرجح ألا ينسجم مع اشتراكية الدولة فى مصر، فإن "عبد الناصر" كان يعتقد أن إعلان الجمهورية العربية المتحدة يمكن أن يدعم بروزه كزعيم حقيقى للعالم العربى ويظهر نيته على الاحتفاظ بمسافة بعيدا عن كل من موسكو وواشنطن؛ ومقتنعا بأن الإيجابيات كانت ترجح السلبيات، أعلن "عبد الناصر" أن الكونفدرالية الجديدة سوف تخرج إلى حيز الوجود فى شهر فبراير[١٢٠].

كان خبراء الخارجية الأمريكية يعتبرون هذه التطورات سلاحا ذا حدين، فعلى المدى القصير ربما تعنى خطوة "عبد الناصر" القضاء التام على النفوذ الشيوعى فى سوريا، بينما على المدى البعيد فمن المؤكد أن إعلان الجمهورية العربية المتحدة "سوف يسهل سيادة مصر على العالم العربى"، الأمر الذى يمكن أن تكون له عواقب ثورية بالنسبة لأصدقاء أمريكا فى المنطقة[١٢١]. ومن مجثمه فى القاهرة، رد "ريموند هير - Raymond Hare" سفير الولايات المتحدة فى مصر أن وحدة مصر وسوريا، وهى عملية معقدة، قد تجبر "عبد الناصر" على تحويل اهتمامه وتركيزه من تصدير الثورة إلى إدارة الشئون الداخلية[١٢٢]. وبالرغم من أن قليلين فى واشنطن هم الذين كانوا واثقين مثل "هير" من أن انشغال "عبد الناصر" بتدعيم الجمهورية العربية المتحدة سيؤدى به إلى أن يؤخر طموحاته العربية، اعترفت إدارة "إيزنهاور" بالجمهورية العربية المتحدة فى ٢٥ فبراير ١٩٥٨، بالرغم من تذمر العراق وغيره من الأنظمة الموالية للغرب[١٢٣].

خلال العامين التاليين ستبدأ العلاقات بين أمريكا والجمهورية العربية المتحدة فى الميل نحو السخونة. واصلت إذاعة القاهرة بالطبع وصف القيادات العربية الموالية للغرب (مثل كميل شمعون فى لبنان والملك حسين فى الأردن) بأنهم عملاء لأمريكا، كما استمر صناع السياسة الأمريكية فى طمس الفرق بين الناصرية والشيوعية، ولكن بعد أن أدان "عبد الناصر" الكرملين بسبب التدخل فى العراق واعتقل الشيوعيين

المصريين فى مطلع ١٩٥٩، قدمت له إدارة "إيزنهاور" قمحا أمريكيا بما قيمته ١٥٠ مليون دولار بموجب القانون رقم "PL-480" الخاص ببرنامج "الغذاء مقابل السلام". ما من شك فى أن "أيك" سيظل يقول لـ"هارولد ماكميلان" رئيس وزراء بريطانيا الجديد إن "عبد الناصر" لم يكن بالشخص الذى نكن له الاحترام، كما سيظل يومئ برأسه عندما يقول "سلوين لويد" وزير خارجية بريطانيا السابق: إن تناول العشاء مع الشيطان يتطلب ملعقة طويلة"[١٢٤]؛ كما سيظل "عبد الناصر" يدعم ثوار الكونغو فى محاولة صيف ١٩٦٠ الفاشلة لإسقاط المحافظين الموالين للغرب، الذين كانوا يحكمون المستعمرة البلچيكية السابقة المستقلة حديثا. ولكن "إيزنهاور" سوف يبتسم كذلك عندما يقوم الزعيم الثورى للعالم العربى بزيارته الوحيدة للولايات المتحدة بعد ذلك فى العام نفسه. والحقيقة أنه بعد أن اعترف "عبد الناصر" فى سپتمبر ١٩٦٠ بأنه "كان يريد إقامة علاقات طيبة مع الولايات المتحدة منذ ١٩٥٢ عندما تولى السلطة"، كان رد "إيزنهاور" أن الشعور كان متبادلا[١٢٥].

بعد أن استقر "چون ف.كينيدى" فى "١٦٠٠ پتسلڤانيا أڤينيو"، كان يأمل فى توسيع محاولات التقارب المتواضعة السابقة مع "عبد الناصر" من خلال "خلطة" من الدبلوماسية الشخصية والمعونة الاقتصادية. فى أوائل ١٩٦١ قال كينيدى لـ: "ريتشارد جودوين – Richard Goodwin" أحد مساعديه فى البيت الأبيض «"عبد الناصر" لديه مشكلاته ولدى مشكلاتى ولن أقنعه بأن يعمل ضد مصالحه... ولن أحاول، حتى أن أفعل ذلك؛ ولكن لا ضرر فى أن يفهم كلانا الآخر على نحو أفضل قليلا»[١٢٦]. بهذا الهدف عين "كينيدى" الرئيس السابق للجامعة الأمريكية بالقاهرة "چون بادو – John Badeau"، وكان يتحدث العربية، سفيرا له لدى الجمهورية العربية المتحدة. وباعتباره كان مراقبا جيدا لـ"عبد الناصر" لفترة طويلة، كان "بادو" مقتنعا أنه بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن تغير الثورة المصرية الشرق الأوسط كله كما غيرت الثورة الفرنسية أوروبا كلها قبل قرنين؛ وبهذا الهدف أيضا وعد "بادو" بتقديم المزيد من القمح بموجب القانون "P.L.480" السابق ذكره، خلال النصف الثانى من ١٩٦١ لكى يقنع "عبد الناصر" «بوضع القضايا الساخنة مثل فلسطين "فى

الثلاجة"، ووضع القضايا الأكثر إلحاحا مثل التنمية الاقتصادية فى مصر "على الشواية"»[١٢٧].

فى أوائل ١٩٦١ كانت العلاقات المصرية الأمريكية قد أصبحت أفضل مما كانت عليه فى أى وقت آخر على مدى عقد؛ وبعد زيارة للقاهرة استغرقت خمسة أيام، أكد "شستر باولز – Chester Bowles"، سفير "كينيدى" المتجول فى الشرق الأوسط، أن مصر بقيادة "عبد الناصر" كانت تقف فى مفترق طرق. فى ٢١ فبراير، أبرق "باولز" إلى البيت الأبيض: "إذا استطعنا أن نجعل عبد الناصر يتخلى عن الميكروفون لحساب البولدوزر، فلربما أصبح بإمكانه القيام بدور رئيسى لإدخال الشرق الأوسط سلمًا إلى عالمنا الحديث، وبعد أربعة أيام وقع المسئولون فى الولايات المتحدة والجمهورية العربية المتحدة اتفاقا فى واشنطن بخصوص القمح مدته ثلاث سنوات، تقدر قيمته بحوالى ٥٠٠ مليون دولار. والكل مبتسما... كان "باولز" و"بادو" وغيرهما من مراقبى شئون مصر فى إدارة "كينيدى" يتمنون أن يكون عبد الناصر قد أصبح أخيرا مستعدا لأن "يتخلى عن حلته الثورية ويرتدى حلة العمل"[١٢٨].

إلا أن قائد الثورة المصرية سوف يكشف فى خريف ١٩٦٢ عن أنه كان يفضل الدبابات على البولدوزر، فعلى مدى عام تقريبا كان "عبد الناصر" يضمد "أنا جريحة" بسبب انفصال سوريا على أثر انقلاب يمينى فى سبتمبر ١٩٦١؛ وعندما هز انقلاب يسارى اليمن، تلك البلاد المتخلفة عند مدخل البحر الأحمر، بعد عام تقريبا، وجدها "عبد الناصر" فرصة لاستعادة كاريزميته. وبعد أن ألغى الضباط الموالون لـ"عبد الناصر" فى صنعاء النظام الملكى فى بلادهم وأعلنوا الجمهورية العربية اليمنية وطلبوا مساعدة مصر، أرسل "عبد الناصر" قوات عسكرية ودبابات وطائرات مقاتلة إلى رفاقه الثوريين فى جنوب غرب الجزيرة العربية فى اكتوبر ١٩٦٢[١٢٩].

ولأن إدارة "كينيدى" لم تكن على استعداد لإحباط العلاقة الواعدة بين أمريكا ومصر، كانت تهون فى البداية من شأن دور "عبد الناصر" فى ثورة اليمن واعترفت بالجمهورية العربية اليمنية قبل أعياد الميلاد مباشرة، إلا أن صناع السياسة الأمريكية

كانوا يعترفون بأن "عبد الله السلال" رئيس الجمهورية العربية اليمنية كان يذكرهم بـ"عبد الناصر" بعد انقلابه على الملك فاروق. وفى ٣ يناير ١٩٦٣، صرح "رودجر ديڤز - Rodger Davies" الخبير بشئون الشرق الأوسط فى الخارجية الأمريكية، لأحد الصحفيين بأن "اليمن كانت ناضجة للثورة"، وأنها "كانت واحدة من أكثر دول العالم تخلفا وبدائية، دولة ثيوقراطية... ومفارقة تاريخية.... حتى فى العالم العربى. كان لابد من أن تروق الناصرية للسلال وغيره من قادة الجمهورية العربية اليمنية الذين كانوا متلهفين على تحديث بلادهم"، وكان "ديڤز" يقول إن "ما كان يحدث فى مصر كان أقرب ما يكون إلى ثورة اجتماعية فى المنطقة"[١٣٠].

لم يكن احتمال امتداد الثورة الاجتماعية من اليمن إلى السعودية المجاورة أمرا مريحا للأمير "فيصل" وزير الخارجية السعودى. منزعجا بشدة لوجود القوات المصرية والطائرات المقاتلة فى اليمن، انهالت مساعدات "فيصل" على العصابات الملكية، كما كان يشكو مر الشكوى من أن "عبد الناصر" قد فسر ميل واشنطن إلى القاهرة باعتباره "رخصة صيد لمطاردة السعودية"[١٣١]، أما "وايت هول" الذى كانت محميته فى عدن قد أصبحت مستهدفة من الراديكاليين الموالين لـ"عبد الناصر" المدعومين من الجمهورية العربية اليمنية فكان يردد شكوى "فيصل". كان "كينيدى" متعاطفا، وفى أواخر يناير كتب إلى "هارولد ماكميلان" رئيس الوزراء البريطانى يقول: "إن المخاطرة الكبرى كما نراها هى أن "عبد الناصر" وأخاه الصغير "السلال" فى ما هم فيم من إحباط، قد ينتهجون خطا أكثر تطرفا، فإذا قام "عبد الناصر" بالتصعيد، وقام السعوديون بالرد باستخدام طيارين مرتزقة فقد يشتعل الشرق الأوسط و"أعتقد أن ذلك سيكون مواتيا بالنسبة للسوڤيت؛ ولكننا، أنا وأنت، سنكون الخاسرين"[١٣٢].

وبالرغم من أن الأمور لم تتصاعد لتصل إلى حريق شامل، فإن الحرب بالوكالة جنوب غرب الجزيرة استمرت إلى ما يزيد عن خمس سنوات، وفى النهاية ساعدت على تخريب التقارب الأمريكى مع "عبد الناصر". خلال فصل ربيع ١٩٦٣ وفى فصل

الصيف كانت إدارة "كينيدى" تضغط على الجانبين لتبنى مشروع من الأمم المتحدة يدعو "آل سعود" لوقف مساعداتهم للملكيين اليمنيين، ويدعو "عبد الناصر" لسحب قواته ودباباته وطائراته بالتدريج؛ وبالرغم من المساعى الحميدة للولايات المتحدة ودبلوماسيى الأمم المتحدة استمر القتال فى اليمن. وفى أوائل الخريف كان "كينيدى" قد أصبح مقتنعا بأن جذور المشكلة كانت فى القاهرة وليس فى الرياض وقال ذلك لـ"عبد الناصر"، ففى ١٩ أكتوبر أشار "كينيدى" إلى أن التدخل المصرى فى اليمن "كان حتما يُعَقِّدُ - فى الكونجرس على الأقل - مسعاى للاستمرار فى سياسة التعاون الودى فى المجالات ذات الاهتمام المشترك مع الجمهورية العربية المتحدة"(١٣٣). ما كان يقصده "كينيدى" غدا واضحا بسرعة، ففى السابع من نوفمبر قام مجلسا الشيوخ والنواب بتعديل قانون المعونة الخارجية السنوية، وتم حظر المعونة لأى دولة "متورطة أو تعد لأعمال عسكرية عدوانية" ضد الولايات المتحدة أو أصدقائها. وبالرغم من أن البيت الأبيض تعهد باحترام التزامه مع مصر بالنسبة للعامين الأخيرين بموجب قانون "الغذاء مقابل السلام"، كان "عبد الناصر" بعد يومين "يتكلم بعنف وبإسهاب ضد أسلوب الولايات المتحدة فى استخدام المعونة كوسيلة للضغط عليه"(١٣٤).

كان "ليندون چونسون" دائما يعتبر انفتاح "كينيدى" على "عبد الناصر رسالة شخص أحمق لابد من أن تفشل، بسبب نفاق مصر وسذاجة الولايات المتحدة. لم يكن تشكك چونسون نابعا من تعاطفه مع إسرائيل فحسب، وإنما، كذلك، من دعم "عبد الناصر" للثورة فى الشرق الأوسط وأماكن أخرى من العالم الثالث، نبى التحرير فى مصر لم يكن أكثر من كولونيل عادى أمضى وقتا طويلا يحاول أن يسيطر على العالم العربى" ووقتا قليلا جدا لتحسين ظروف شعبه"(١٣٥)، كما كان "چونسون" يصفه بعد سنوات. وبحلول صيف ١٩٦٤ كان مسئولو الخارجية الأمريكية يؤكدون أن "عبد الناصر" كان ما زال موجودا بقوة فى اليمن وما زال يدعو إلى "تصدير الثورة" إلى ليبيا والأردن والسعودية وغيرها من "الأنظمة القبلية التقليدية والملكية" فى المنطقة(١٣٦). بالإضافة إلى أن وعد "عبد الناصر" فى أوائل سبتمبر بمساعدة منظمة

التحرير الفلسطينية التي كانت قد أعلنت حديثا، بتدريب جيش من الفدائيين، وتعهده في منتصف أكتوبر بالاستمرار في مساعدة ثوار الكونغو في كفاحهم ضد الاستعمار الغربي، كل ذلك لم يترك مجالا كبيرا للشك في أنه كان ينوى تصدير ثورته بالفعل، حتى على نطاق أوسع من ذلك(١٣٧).

قبل أن ينتهى العام اقتحمت مجموعة من الطلبة الأفارقة الوافدين مكتبة وكالة الاستعلامات الأمريكية - United States Information Agency (USIA) في القاهرة وأشعلوا فيها النار، وعندما رفض "عبد الناصر" الاعتذار لجأ "جونسون" إلى وسيلة الضغط الاقتصادية، وقبل الخريف كان يتكلم بحدة مع سفير مصر "مصطفى كامل": "كيف يمكن أن أطلب قمحا من الكونجرس وأنتم تحرقون مكتبتنا؟"(١٣٨). "جونسون" أجاب عن سؤاله باكرا في العام الجديد بوقف مشروع تجديد صفقة "الغذاء مقابل السلام" (PL-480) التي كان "كينيدى" قد عقدها مع مصر؛ وفي ٢٢ يناير كان "جونسون" يقول لزعماء الكونجرس: «لابد من تعليم "عبد الناصر" وغيره من ثوار العالم الثالث مثل "أحمد سوكارنو" (إندونيسيا) و"كوامى نيكروما" (غانا) ألا يعضوا اليد التي تمتد إليهم بالطعام"؛ ومرددا كلمات رئيسه، كان من رأى "دين راسك" أن الوقت قد حان لتوجيه رسالة واضحة أنه "لن تكون هناك اتفاقيات جديدة مع "عبد الناصر"»(١٣٩).

وباللجوء إلى أسلوب الضغط الاقتصادى في ١٩٥٦، أغرت إدارة "جونسون" عبد الناصر بالمضى قدما في تطاوله الثورى، ففي فبراير وجه الدعوة لـ"تشى جيفارا - Che Guevara"، الذى كان منغمسا في غرس نموذج الثورة الكوبية في قلب أفريقيا، لزيارة القاهرة لمناقشة أفضل السبل لإسقاط النظام الموالى لأمريكا في الكونغو(١٤٠). كان صناع السياسة الأمريكية أكثر انزعاجا في هذا الخريف عندما كشف "عبد الناصر" عن "خطة لتحرير فلسطين"، كانت تدعو إلى "العمل العربى الثورى" ضد إسرائيل(١٤١). هذه التطورات أحدثت قلقا بالغا لـ"ليندون جونسون"، الذى كان لابد من أن يقف شعر رأسه عندما أبلغه "فوجى بوتوم" في سبتمبر أن "الشرق الأوسط لم يصل بعد إلى مرحلة فيتنام في الثورة المضادة للغرب ولكن

المستشارين السوفيت قد تغلغلوا بالفعل داخل الدوائر العسكرية فى كل من مصر وسوريا واليمن"(١٤٢).

أصبحت العلاقات المصرية الأمريكية أكثر برودة فى صيف ١٩٦٦، ففى أبريل سمح "عبد الناصر" لـ"فيت كونج – Viet Cong" بفتح مكتب لهم فى القاهرة، فى لمحة أكدت "تعاطفه إن لم يكن دعمه للثوار... باعتبارهم حركة وطنية تقدمية وليست بالضرورة شيوعية"(١٤٣). وبعد شهر عرف "جونسون" أن المصريين كانوا يثيرون المزيد من القلاقل فى الشرق الأوسط، فقد نقلت وكالة المخابرات المركزية فى تقرير لها بتاريخ ٢١ مايو أن "عبد الناصر" قد هاجم شاه إيران مباشرة فى خطابه الأخير، وأنه متورط فى نشاط تخريبى فى مشيخات الخليج الفارسى"(١٤٤)، كما كانت الوكالة تشك أيضا أن الكرملين كان "يعد للعمل على نحو أكثر قربا من "عبد الناصر" عما كان عليه فى الماضى لرعاية نهجه فى القومية والاشتراكية ومعارضته للنفوذ الغربى"(١٤٥).

ومع اقتراب فصل الصيف، كان بعض صناع السياسة الأمريكية يميلون إلى شطب "عبد الناصر" تماما باعتباره قضية خاسرة. "وولت روستو"، الذى كان قد أصبح مستشار "جونسون" للأمن القومى مؤخرا، برز كناقد متشدد للجمهورية العربية المتحدة نظرا لكرهه الشديد لحروب التحرر الوطنى المدعومة من السوفيت فى العالم الثالث، أكثر منه بسبب تعاطفه مع إسرائيل؛ ففى ١٨ يونيو قال لرئيسه إنه لم يكن هناك أى معنى لاستئناف معونة "الغذاء مقابل السلام" مع مصر، "نحن نوصى بهذا الخط مع بعض الأسف، لكن "عبد الناصر" لم يترك أمامنا خيارا كبيرا". كان من السهل التنبؤ بقائمة خطايا "عبد الناصر"، لقد تحدانا علنا ألا نجدد اتفاقنا، ووبخنا بشدة بسبب فيتنام، ويواصل إثارة الأوضاع فى اليمن وجنوب الجزيرة العربية"(١٤٦). بذلك كله كان "روستو" يذكر رئيسه.

لم تكن أخبار الشرق الأوسط الأخرى أكثر تشجيعا، ففى دمشق حيث كان حزب البعث قد قام بانقلاب فى فبراير، كان شباب الضباط المتهورين مثل "حافظ

الأسد" ينافسون "عبد الناصر" على زعامة العالم العربى وينادون بالحرب ضد إسرائيل. يقول "چونسون" فى مذكراته "حكومة راديكالية جديدة فى سوريا صعدت الغارات الإرهابية ضد إسرائيل بإرسال الفدائيين العرب عبر الحدود" فيما يعتبر "خرقا صريحا للقانون الدولى" يذكرنا بهجمات الـ"ڤيت كونج" على القوات الأمريكية فى ڤيتنام الجنوبية"، وعندما طلب "چونسون" "دراسة خاصة عن الاختراق السوڤيتى فى الشرق الأوسط" فى أواخر ١٩٦٦، أكد مستشاروه أن هناك "تقدما خطيرا" ليس فى دمشق فحسب وإنما فى القاهرة كذلك، حيث كان "عبد الناصر" مشغولا "بإحلال الروبل محل الدولار"(١٤٧).

ولتقدير حجم الخطر الذى كان يمثله "عبد الناصر" والاتحاد السوڤيتى على الولايات المتحدة، أرسل البيت الأبيض "هارولد سوندرز – Harold Saunders" الخبير بشئون الشرق الأوسط إلى تل أبيب وعدد من العواصم العربية فى أوائل ١٩٦٧. تقرير "سوندرز" يقدم قراءة كئيبة، حتى بعد أربعين عاما من هبوطه على مكتب "چونسون" فى منتصف مايو. ملاحظا أن حروب التحرر الوطنى المدعومة من السوڤيت كانت آخذة فى التشكل والتطور من الضفة الغربية إلى عدن، كان "سوندرز" قلقا ومنزعجا وخاصة بسبب "الانشقاقات السياسية التى تتعمق" فى الشرق الأوسط، ليس بين العرب والإسرائيليين فقط، وإنما بين الدول المعتدلة (السعودية والأردن ولبنان) والدول الموالية لـ"عبد الناصر" كذلك. هذه الانشقاقات بنوعيها السابق ذكرهما كانت تتقاطع فى القاهرة. بالنسبة للإسرائيليين كان "عبد الناصر" أشبه بـ"هتلر على النيل" وبالنسبة للملك فيصل (السعودية) كان "عبد الناصر" عميلا للشيوعية يريد أن يسقط الأنظمة المعتدلة فى المنطقة كلها" بمساعدة السوڤيت؛ وخلص "سوندرز" فى ١٦ مايو إلى "لو أن مصر تخلصت من فوبيا الثورة وعقد النقص فإن شعبها المكون من ثلاثين مليون نسمة، بموروثها الاقتصادى ورغبتها فى الزعامة وزهوها بالإنجاز، قوتها العسكرية، كل ذلك سيجعل منها القوة العربية دون منازع"؛ ولكن الآن فإن "المرء مضطر" للموافقة مع أصدقائنا الإسرائيليين والعرب على أن اللغة الوحيدة التى

يفهمها "عبد الناصر" هى الحزم المدعوم بالقوة العسكرية الواضحة والاستعداد لاستخدامها"[١٤٨].

وقبل أن يجف الحبر الذى كتب به هذا التنبؤ الكئيب، اتخذ "عبد الناصر" خطوات جعلت أعداءه يهرعون للتعامل معه باللغة التى كان يبدو أنه يعرفها أفضل من غيرها، ففى تتابع سريع للأحداث أجبر قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة على سحب مراكز المراقبة التابعة لها فى صحراء سيناء ووضع قوات مصرية على طول الحدود مع إسرائيل وأغلق مضائق تيران على فم خليج العقبة فى وجه الملاحة الإسرائيلية[١٤٩]، وفى آخر مايو ١٩٦٧ كان "چونسون" ومجلس الأمن القومى يفكرون فى أفضل السبل لجعل عبد الناصر يتراجع. كان "وولت روستو" يقول بحسم ووضوح إن "القضية الأساسية فى الشرق الأوسط اليوم هى ما إذا كان "عبد الناصر" والدول الراديكالية والسوفيت من ورائهم سوف يسيطرون على المنطقة"، و"قضية أخرى ذات صلة بذلك هى ما إذا كانت الولايات المتحدة ستقف مع أصدقائها المعتدلين أم ستتراجع كقوة سياسية فى الشرق الأدنى" فى الوقت الذى يحاول فيه الكرملين البحث عن نقاط الضعف. "قبل أسبوعين كنا نتوقع أن يكون جنوب الجزيرة هو الاختبار، ولكن الأزمة العربية الإسرائيلية عجلت به أسرع مما كنا نتوقع"[١٥٠].

كانت روح المغامرة اليسارية لـ"عبد الناصر" تقلق أصدقاء أمريكا فى الشرق الأوسط بشدة، وهم الذين كانوا فى أوائل يونيو أكثر تلهفا على التخلص من الزعيم الثورى للعالم العربى. لم يكن بالإمكان توقع أن يظل الإسرائيليون ينتظرون إلى الأبد أن يثب "عبد الناصر" إلى رشده ويعيد فتح المضايق، كما قال "روستو" للرئيس الأمريكى قبل اندلاع القتال بخمس عشرة ساعة. على نفس الدرجة من الأهمية كذلك كان استياء المسلمين المعتدلين من بيروت إلى طهران بسبب إثارة "عبد الناصر" للجماهير العربية وتحريضها؛ ففى ٤ يونيو أبلغ "روستو" رئيسه: «تحت السطح مباشرة تبدو هناك إمكانية لمرحلة جديدة من شرق أوسط معتدل والتركيز على التنمية الاقتصادية والتعاون الإقليمى والقبول بإسرائيل كجزء من الشرق الأوسط، ولكن ذلك كله يتوقف على تحجيم "عبد الناصر"»[١٥١].

ويبدو أن هذا الضرب من التفكير كان هو دليل سياسات "چونسون" وأصدقائه في الشرق الأوسط أثناء حرب الأيام الستة ونتائجها السريعة. الكل في إسرائيل تقريبا كان يتمنى تحجيم "عبد الناصر" وحبذا لو تم ذلك عاجلا وليس آجلا(١٥٢)، وكذلك كان أعداؤه من المسلمين مثل شاه إيران. والحقيقة أن الشاه قال لوكيل الخارجية الأمريكية "أفريل هاريمان" في اجتماع لهما في باريس عقد بعد ساعات قليلة من نشوب القتال، إنه كان يعتبر "الهدف البعيد لكل من الولايات المتحدة وإيران هو "كيف يمكن تدمير عبد الناصر(١٥٣). على غداء في البيت الأبيض مع سفراء ست دول عربية محافظة، قدم "چونسون" الإجابة عن السؤال بعد أربعة أشهر من توقف القتال، فبينما كان يحاول إقناع ضيوفه بأن سياسة الولايات المتحدة ليست منحازة بالكلية لإسرائيل، دخل إلى قاعة الطعام أحد كلاب حراسة البيت الأبيض (وكان من نوع البيجل) بحثا عن فتات على الأرض، وحسب رواية أحد الضيوف، أن الرئيس نادى الكلب وراح يكلمه: "ماذا أفعل؟ شخص ما آذى جاره فضاق الجار ذرعا بذلك، فأمسك به وضربه علقة ساخنة، ماذا أفعل له؟(١٥٤) بالنسبة لـ"ليندون چونسون" كان الدرس واضحا. بمباركة أمريكا، استطاعت إسرائيل أخيرا أن تكشف عن إفلاس القومية العربية الثورية.

وبالرغم من أن أفكار كلب الحراسة في ذلك اليوم مرت دون تسجيل، فإن "عبد الناصر" سوف يمضي الأشهر الثمانية عشرة الأخيرة من حياته محاولا أن يثبت لخليفة "چونسون" أن ذلك الديمقراطي القادم من تكساس كان مخطئا. مثل "چونسون" كان "نيكسون"، ينظر إلى الماركسية بمزيج من الخوف والمقت. هذا الجمهوري القادم من كاليفورنيا كان قد بدأ يراقب الراديكاليين العرب قبل عقد من الزمان عندما استخدم نفوذه المحدود كنائب للرئيس "إيزنهاور" لكي يتقدم فجأة ويتزعم خطا متشددا ضد الثورة المصرية عندما كانت أزمة السويس في ذروتها. زيارة لمصر في سنة ١٩٦٣ والمهندسون السوڤيت على وشك الانتهاء من بناء السد العالي، تركت السيد "نيكسون" أكثر اقتناعا منه في أي وقت مضى، بأن "عبد

الناصر" كان نوعية مختلفة من ثوار العالم الثالث. "نيكسون" سجل فى مذكراته: "عبد الناصر"، مثل "نيكروما" و"سوكارنو"، يسخر كل طاقته من أجل الثورة، والآن كان أكثر اهتماما بالقيام بحملة ضخمة من أجل الوحدة العربية أكثر منه بتحسين البنية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لمصر"(١٥٥).

تعاملات "نيكسون" مع "عبد الناصر" بعد يناير ١٩٦٩ عززت شكوكه التى كان قد عبر عنها بعد زياراته لمصر قبل خمس سنوات ونصف السنة؛ وبينما كان الرئيس الجديد ما زال يحاول أن يوطد أركان إدارته فى المكتب البيضوى، بدأت المدفعية المصرية تدك المواقع الإسرائيلية على طول قناة السويس فى المرحلة الأولى لما سيصبح بنهاية العام حرب استنزاف شديدة الضراوة. قرار "عبد الناصر" بتصعيد الصراع مع إسرائيل يعكس إحباطه الخاص مع إدارة "نيكسون"، "لقد أصبح من الواضح لنا أن موقف أمريكا من العرب يسير من سيىء إلى أسوأ بالتدريج، وأن الولايات المتحدة قد وصلت فى النهاية إلى الانحياز الكامل لإسرائيل"، كما أبلغ حكومته فى ٢٨ يونيو ١٩٦٩، و"لا أرى أملا فى الأمريكيين إلى أن يصبحوا مقتنعين تماما بأننا قادرين على الصمود والمقاومة"(١٥٦).

فى أوائل السبعينيات كان الطيران الإسرائيلى يقوم بغارات فى عمق الأجواء المصرية تضرب المواقع العسكرية، وكان الزعيم العربى الثورى يتلقى شحنات الصواريخ أرض جو (SAM) السوفيتية، وبعد أن فقد البيت الأبيض صوابه أمام صفقة "عبد الناصر" الأخيرة مع "موسكو"، أرسل "جوزيف سيسكو – Joseph Sisco" إلى القاهرة فى أوائل أبريل، إلا أن "عبد الناصر" استقبل مبعوث "نيكسون" ببرود شديد وشن هجوما على سياسة الولايات المتحدة المنحازة لإسرائيل، و"ناطقا بلسان العرب"، تعهد بتحرير فلسطين؛ وأبرق "سيسكو" إلى واشنطن: "لقد قال بلغة واضحة ومباشرة إنه لا يثق بنا، وإنه يشعر أن لا بديل أمامه سوى الاعتماد على الاتحاد السوفيتى(١٥٧).

"نيكسون" ومستشاره للأمن القومى "هنرى كيسنجر" اعتبرا غزل مصر الأخير للروس دليلا إضافيا على أن "عبد الناصر" كان يفضل الثورة على السياسة الواقعية.

بعد ٩ سنوات، عندما أصيب "عبد الناصر" بأزمة قلبية قاتلة فى سبتمبر ١٩٧٠، قال كيسنجر "كان معتدا بثوريته التى كان يراها ضرورية لطموحاته العربية، ولذلك ربما كان يشعر بأنه مضطر للبقاء فى حالة مواجهة مستمرة معنا فى الشرق الأوسط" و"لم يستطع "عبد الناصر أن يختار بين طموحاته المتكلفة وحدسه بحدود قدرات مصر على تحقيق تلك الطوحات" و"قضى دون أن يحسم هذا الخيار"(١٥٨).

على الرغم من هذا الرثاء اللاذع، فإن "عبد الناصر" كان قد اختار بالفعل فى نهاية حياته أن يؤكد الأيديولوچية الثورية العربية التى كان قد كشف عنها قبل عقدين من الزمان. كان قد كتب فى فلسفة الثورة: "كل شعب على الأرض يمر بثورتين" ثورة سياسية وأخرى اجتماعية، و"بالنسبة لنا فإن التجربة المريرة التى يمر بها شعبنا هى أننا نمر بالثورتين فى الوقت نفسه"، لأنه "لم يكن بمقدورنا أن نقف على طريق التاريخ مثل شرطى المرور ونوقف مرور إحدى الثورتين إلى أن تمر الأخرى"، وخلص إلى أن "الشىء الوحيد الممكن أن نفعله هو أن نبذل كل ما فى استطاعتنا وأن نتجنب أن تطحننا الطواحين"(١٥٩)(*).

بعد خمس عشرة سنة من كتابة هذه العبارات، كان "عبد الناصر" يتذكر كيف حافظ على الثورة المصرية من الدمار، فنجده يقول فى فبراير ١٩٧٠ مثلا: "عند التفكير فى وسائل عملية لحماية الثورة، عليك أولا أن تحدد أصدقاءها وأعداءها"، ثم لابد من الاهتمام بإصلاح الاقتصاد، ولابد من أن تتلافى أى ركود اقتصادى"؛ وبالنسبة للعلاقات الخارجية فعلى الثورى الناجح أن يتذكر دائما أن "الولايات المتحدة سوف تحاول احتواءك لحماية مصالحها الاستراتيچية والاقتصادية، بينما سيعمل الاتحاد السوڤيتى على دعمك ومساعدتك". لم يكن لدى "عبد الناصر" كثير من الوهم بالنسبة لدوافع الكرملين، إذ قال وهو يضحك "اتجاه الاتجاه السوڤيتى نحونا ليس لسواد عيوننا، ولكن لأنه يعتمد على جهودنا للقضاء على الاستعمار الغربى فى

(*) للمزيد انظر ملحق رقم ٥ فى آخر الكتاب.

المنطقة"؛ وعندما مات بعد سبعة أشهر، كان التزامه بهذه الجهود الثورية ما زال قويا كما كان دائما[١٦٠].

مشاعر "عبد الناصر" المعادية للاستعمار بكل وضوح لم تكن مفاجئة لـ"چون بادو" الذى عاد من مهمته المحدودة مبعوثا لواشنطن فى القاهرة فى أوائل الستينيات ليكبت تقريرا سريا عن مهمته التى قام بها بين العرب؛ وفى ربيع ١٩٦٨ نشر السفير، الذى تحول إلى پروفيسور، كتابا بعنوان "التناول الأمريكى للعالم العربى"، وهو عمل دبلوماسى تمهيدى عن "الحرب الباردة السياسية والأيديولوچية" الدائرة فى الشرق الأوسط بين من كانوا يفضلون التغيير والمتشبثين بالأمر الواقع. كان القوميون الراديكاليون مثل "عبد الناصر" يتحدثون بصوت عال عن فضائل الثورة بينما كان المحافظون من الرباط إلى الرياض يتحدثون عن قيمة التقليد. كان "بادو" يقول إن "الرجال الجدد" الذين يستلهمون "قومية جديدة" أشعلو "ثورة الطبقات الوسطى والدنيا ضد النخبة القديمة"، فى مصر أولا ثم فى سوريا واليمن؛ وأن "عبد الناصر" ورفاقه لم يكونوا يجدون سببا لعدم قيام نهجهم فى التغيير الثورى بفعل السحر فى البلاد العربية الأخرى"؛ وحذر "بادو" قادته: "إذا كان قادة الثورة محقين، فإن الحكام التقليديين من المؤكد أنهم سيفقدون عروشهم فى النهاية... وربما رؤسهم"[١٦١].

قبل ثمانية أشهر من ظهور كتاب "بادو" فى مكتبات كاپيتول هيل، كان "ج. وليم فولبرايت" (وهو ديمقراطى من كانساس) قد خاطب جمهورا أوسع بكثير بكلمات مشابهة. فى كتابه "غطرسة القوة"، الذى شهد رواجا كبيرا، تتبع "فولبرايت" الذى رأس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، مواجهة أمريكا المتخبطة مع الفورات الاجتماعية فى العالم الثالث، وقال إن الأمريكيين، لأسباب عدة كانوا "معوقين عاطفيا وثقافيا" فى تعاملهم مع زعماء ثوريين مثل "كاسترو" و"ماوتسى تونج".. و"عبد الناصر" بالطبع؛ وبالرغم من أن معظم الأمريكيين كانوا كارهين للاعتراف بذلك، كانوا يعيشون فى "مجتمع غير ثورى" يخشون التغيير الجذرى، غير مستعدين للاعتراف بأن شعوب أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط كان من المرجح أن تسير فى طريق نحو

المستقبل، مختلف عن ذلك الذى تسير فيه الولايات المتحدة. وقال "فولبرايت" - بكل ثقة - إن مفهوم "الثورة السلمية" كان إردافا سياسيا؛ ورغم أن التغيير العنيف قد لا يكون حتميا فإنه كان ممكنا فى مجتمعات بعينها، وعلى أية حال، لم يستطيع الأمريكيون القيام بالكثير لتغيير المصير العادى. وخلص "فولبرايت" إلى أنه «من المهم أن نترك المقارنات الزائفة وأن نعترف بالثورات الاجتماعية فى "العالم الثالث" باعتبارها ظواهر غريبة عنا، ظواهر لا علاقة كبيرة لها بالتجربة الأمريكية، وإن كانت تبرر تعاطفنا ودعمنا»[١٦٢].

قبل أن يولد "فولبرايت" أو "عبد الناصر" بزمن طويل، كان "أليكس دى توكڤى"، على أية حال، قد تساءل ما إذا كان الأمريكيون على استعداد لقبول مثل تلك النصيحة. كان على ورثة أول ثورة ضد الاستعمار فى الحقبة الحديثة أن يتبنوا "الإصلاح"، كما لاحظ الأرستقراطى الفرنسى بقدر من السخرية فى ١٨٣١، إلا أنهم لم يكونوا على استعداد للتعاطف مع شىء بعيد وغريب، بعد وغرابة الثورة الاجتماعية[١٦٣]؛ والحقيقة أن قول "دى توكڤى" المأثور أن الأمريكيين يحبون التغيير ولكنهم يخشون الثورة، يساعدنا على أن نفهم أو نفسر سياسات "وودرو ويلسون" و"فرانكلين روزڤلت" اللذين كانا يبشران بتقرير المصير الوطنى للشيوخ العرب، بينما يذعنان للاستعمار الأوروبى، كما يساعدنا على فهم لماذا كان "سيروس سلزبيرجر" يعتبر "محمد نجيب" "كيرنسكى بطربوش"، ولماذا كان "دوايت إيزنهاور" يعتبر "عبد الناصر" "نفوذا شريرا"، كما يساعدنا على فهم لماذا لم يبد "ليندون چونسون" و"ريتشارد نيكسون" تعاطفا كبيرا وهما يتناولان "العشاء مع الشيطان" فى القاهرة.

منذ وفاة "عبد الناصر"، وخلفاؤه يستدعون استجابة أكثر تعاطفا مع واشنطن لأنهم كانوا مستعدين للتخلى عن الرومانسية الثورية وتبنى السلام والتقدم والبراجماتية، وكلها مواصفات يعتبرها "دى توكڤى" أمريكية فى جوهرها. فى أواخر السبعينيات أصبح "السادات" الذى كان قد ساعد عبد الناصر فى مطلع حياته فى الإطاحة بـ"فاروق" داعية سلام، وحصل على جائزة نوبل للسلام، كما أصبح ضيفا

دائما على العشاء فى البيت الأبيض، والعربى المفضل لدى أمريكا؛ وفى الثمانينيات انقض "مبارك" على الجماعات الإسلامية المسئولة عن اغتيال "السادات"، ونأى بنفسه عن الراديكاليين العرب وحصد معونات أمريكية تقدر ببلايين الدولارات. ومع اقتراب القرن العشرين من نهايته - برغم ذلك - كان بعض المراقبين للأوضاع فى مصر يرون "أزمة محدقة"، وقودها ثورة الإحباطات مع الرئيس المصرى الطاعن فى السن، الذى يقوم بدور "فاروق"؛ ففى أبريل ١٩٩٧ على سبيل المثال تنبأت لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس النواب الأمريكى أنه بالرغم من حملات "مبارك" التى لا تهدأ ضد الراديكاليين الإسلاميين فإن موجة العداء للأجانب ومعاداة السامية المكتسحة مصر، سوف تصبح أكثر عنفا شيئا فشيئا(١٦٤).

هذه النبوءة تحققت قبل نهاية العام، ففى ١٧ نوفمبر قتلت جماعة من المسلحين ينتمون إلى تنظيم الجهاد (وهو جماعة إرهابية يقودها "أيمن الظواهرى"، طبيب الأطفال الذى تحول إلى ثورى، وتربطه علاقات وثيقة بـ"أسامة بن لادن") ثمانية وخمسين سائحا أوروبيا فى الأقصر، وفى خلال الأشهر التسعة التالية كان "الظواهرى" يساعد "بن لادن" ليخطط وينفذ هجمات مدمرة بالقنابل على سفارتى الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا؛ ولم يكن مفاجئا لأحد أن تصدر الخارجية الأمريكية، على مشارف الألفية الجديدة، تحذيرات بأن إرهابيين مصريين مرتبطين بالقاعدة "يهددون بأعمال معادية ضد الولايات المتحدة" فى الشرق الأوسط، وكما يمكن أن يتوقع المرء بسهولة فإن "محمد عطا" المولود فى القاهرة، الذى صدم "البوينج ٧٦٧" الأولى ببرج مركز التجارة العالمى فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كانت تربطه علاقات بكل من تنظيم الجهاد الإسلامى فى مصر والجماعة الإسلامية. "منتصر الزيات"، المتحدث الرسمى باسم الجماعة الإسلامية قال لأحد مراسلى الصحف بعد أيام قليلة من مهمة "محمد عطا" الانتحارية: "ليس لدينا أى مشاعر كراهية ضد الشعب الأمريكى، وإنما مشاعر كراهية ضد حكومة الولايات المتحدة"، وذلك - جزئيا - بسبب علاقة أمريكا الوثيقة بنظام "حسنى مبارك" وكذلك "لأنكم تدعمون إسرائيل هكذا دون تفكير"(١٦٥).

بعد نصف القرن من استيلاء الضباط الأحرار على السلطة فى القاهرة، كان الرئيس المصرى محصورا بين تركة "عبد الناصر" وشبح "أسامة بن لادن". كان مستقبل مصر الاقتصادى يبدو كئيبا مثلما كان خلال السنوات الأولى من الألفية الجديدة وذلك بسبب البطالة، وقلة الاستثمار فى التكنولوچيا الحديثة، والسلطة المركزة فى يد دائرة صغيرة من الرأسماليين الأقارب الذين يسيطرون على البنوك والمؤسسات الرئيسية. الوضع السياسى كان كئيبا بالمثل، فالتأييد الشعبى للإخوان المسلمين يتصاعد بينما الرئيس، الذى بلغ الخامسة والسبعين من العمر فى ٢٠٠٣، مشغول بتمهيد الطريق لابنه لكى يخلفه، ولا يبدى كبير اهتمام بوضع أسس الانتقال من الأوتوقراطية إلى الديمقراطية؛ وبعد أن حصلت الأحزاب الإسلامية على خُمس المقاعد فى الانتخابات البرلمانية فى ٢٠٠٥، بدا واضحا أنه كلما تم تأجيل هذا الانتقال، أصبح أكثر صعوبة. عاجلا وليس آجلا، سيكون على الرئيس المصرى أن يختار بين القمع أو الثورة، وهو خيار كان الأمريكيون ينكصون عنه دائما كما يقول "أليكسس دى توكفى".

"دى توكفى" لا يلقى الضوء على الرد الأمريكى الملتبس على صيغة "عبد الناصر" القومية الثورية فحسب، وإنما على علاقات أمريكا المعقدة بالأنظمة الأكثر تقليدية فى الشرق الأوسط كذلك، وهو يساعدنا على فهم كلٍ من تلهف واشنطن لوصفة الإصلاح السياسى باعتبارها المضاد المناسب للناصرية، والدعم الأمريكى للتحديث الاقتصادى فى العراق وليبيا وإيران، الذى فجر الثورات المعادية لأمريكا دون قصد؛ كما يساعدنا على حل اللغز الذى كان يحير صناع السياسة الأمريكية على مدى أكثر من جيل: لماذا كان سعى أمريكا من أجل معادل مسلم لـ"توماس چيفرسون"، يقابل دائما بأمثال "صدام حسين" و"معمر القذافى" و"آية الله الخمينى"؟.

■ "إننا نعيش لحظة فارقة فى التاريخ، حيث نصف العالم الجنوبى بكامله.. وأمريكا اللاتينية وأفريقيا والشرق الأوسط وآسيا... كلهم أسرى مغامرات تأكيد استقلالهم وتحديث أساليب حياتهم القديمة... والمهمة الرئيسية لمعوناتنا الخارجية فى الستينيات ليست مقاومة الشيوعية على نحو سلبى، وإنما المساعدة على أن نثبت تاريخيا أنه فى القرن العشرين - ومثلما كان الأمر فى القرن التاسع عشر - فى نصف الكرة الشمالى كما فى الجنوبى - يمكن أن يسير النمو الاقتصادى يدا فى يد مع الديمقراطية السياسية".

(چون ف. كينيدى - ٢٢ مارس ١٩٦١)

■ "المضى من سيىء إلى أسوأ ليس دائما سبب ثورة المجتمع، بل يحدث غالبا أن يؤيد شعب ما أكثر القوانين ظلما دون شكوى وكأنه لا يشعر بها، ثم يهب ليتخلص منها بمجرد أن تخف وطأتها عليه. إن النظام الاجتماعى الذى تدمره ثورة ما، لهو أفضل دائما من ذلك السابق عليه مباشرة، كما تثبت التجربة أن أخطر اللحظات على حكم سيىء، هى عادة تلك التى يشرع فيها للإصلاح.

(أليكسس دى توكفى)

(L'Ancien Regime- 1856)

الفصل السادس

تحديث الشرق الأوسط

●من الإصلاح إلى الثورة فى العراق وليبيا وإيران

بعد معاناة شاقة طويلة لإعادة جنّى الناصرية فى مصر إلى القمقم، كان صناع السياسة الأمريكيون يتمنون أن تظل السدادة فى مكانها فى أماكن أخرى من العالم العربى بتلاوة تعويذة سحرية: إصلاح... تنمية... تحديث... إلخ؛ ومتشككين دائما فى أى شخصية راديكالية من العالم الثالث تنحرف عن مسار "چيفرسون"، كان مدراء الأمن القومى الأمريكيون يعتقدون أنهم بالجمع بين براعة اليانكى وبترو-دولارات الشرق الأوسط، يمكن للولايات المتحدة أن تحفز مجتمعات تقليدية مثل العراق وليبيا وإيران على طريق التغيير التدريجي، وبالتالى تجعل التغيير الثورى مستحيلا. لتحقيق هذا الهدف ستقدم واشنطن للزعماء الموالين للغرب، مثل "نورى السعيد" رئيس الوزراء العراقى والملك "إدريس السنوسى" فى ليبيا وشاه إيران ما يكفى من المساعدات العسكرية والاقتصادية من أجل القيام بإصلاحات سياسية واجتماعية طال انتظارها.

إلا أن وصف الإصلاح باعتباره ترياق التغيير الثورى فى العالم الإسلامى، كثيرا ما كانت له آثار جانبية سيئة؛ فسياسات "إيزنهاور" فى العراق مثلا ساعدت على الإسراع بثورة توقعات صاعدة بلغت أوجها فى يوليو ١٩٥٨ عندما أسقط "عبد الكريم قاسم" العرش الهاشمى، وحَرَفَ وجهة بغداد نحو موسكو. شبح البلشفية فى العراق حفز المسئولين الأمريكيين على مضاعفة جهودهم من أجل الإصلاح فى ليبيا وإيران قبل أن يأتى "عبد الناصر" أو "عبد الكريم قاسم" أو "الكرملين" بالثورة. وبالرغم من جهود الولايات المتحدة لتوجيه التطور السلمى فى طرابلس، قام العقيد "معمر القذافى"، الذى يستمد أيديولوچيته من تعاليم "النبى محمد" وليس من "ف. إ. لينين" بالانقلاب على الملك "إدريس السنوسى".

على أن الإمكانيات المتفجرة للإسلام الثورى سوف تبدو واضحة على نحو مؤلم بالنسبة للشعب الأمريكى وقياداته فى أواخر السبعينيات، ليس فى ليبيا ذات الكثافة

السكانية القليلة وإنما فى إيران على بعد ٢٠٠٠ ميل شرقا. وبالرغم من الأدلة المتزايدة على أن جهود الولايات المتحدة السابقة لإعطاء العراق وليبيا المصل المضاد للتغيير الراديكالى قد أخفقت، فإن واشنطن على مدى الخمس عشرة سنة بعد ١٩٦٢ كانت مع ثورة الشاه البيضاء، وهى برنامج طموح للغربنة والتنمية الاقتصادية لتجنب طوفان سياسى فى طهران، ومن سخرية القدر أن الإصلاحات نفسها التى كان الشاه ومؤيدوه الأمريكيون يأملون فى أن تجعل إيران آمنة من ثورة يسارية، أفادت فى آخر الأمر "آية الله روح الله الخمينى" الذى أقنعت خطبه الحماسية ٣٥ مليون إيرانى فى ١٩٧٨ بأن ملكهم خان قيم الإسلام العريقة وباع بلاده للغرب.

وبعد إصرارهم على مدى عشرين سنة على أن التنمية الاقتصادية والإصلاح السياسى يمكن أن تؤديا إلى احتواء الناصرية وأن تعود على العراق وليبيا وإيران بالاستقرار، أصيب صناع السياسة الأمريكيون بالذهول عندما جاء التحديث بقومية كارهة للأجانب وبإسلام ثورى بدلا من ذلك؛ وما كان لهم أن يدهشوا، ففى نهاية الأمر كان "أليكسس دى توكفى" قد أدرك قبل قرن من الزمان أن "أخطر اللحظات على حكم سيىء، هى تلك التى يشرع فيها للإصلاح"[1].

● التحديث: هل يجعل الحكومات السيئة أفضل؟

موجة القومية الثورية التى بلغت أوجها فى الشرق الأوسط بتأميم "عبد الناصر" لقناة السويس، ساعدت على إقناع قادة الولايات المتحدة والخبراء الأكاديميين الذين عادة ما كانوا ينصحونهم بأن مجتمعات العالم الثالث غير المستقرة من المرجح أن تكون هى ساحات القتال الرئيسية للحرب الباردة خلال العقود القادمة، ففى أواخر الأربعينيات وفى الخمسينيات رعى مجلس العلاقات الخارجية سلسلة من المجموعات الدراسية فى نيويورك سيتى حيث كان خبراء من داخل ومن خارج الولايات المتحدة يقومون بتحليل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التى كانت تواجه الدول الجديدة الناشئة فى آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط[2].

كان الرئيس "هارى ترومان" قد اعترف بالارتباط بين المعونة الخارجية والتحديث الاقتصادى والاستقرار السياسى منذ يناير ١٩٤٩، عندما أعلن برنامج النقطة الرابعة – Point Four Program الذى كان فى نهاية فترة إدارته الثانية يضخ خمسمائة مليون دولار سنويا كمعونة فنية ومالية للدول النامية، كان معظمها من أسيا(٣).

من ناحية أخرى، كان "دوايت إيزنهاور"، وهو محافظ من الناحية المالية، يعتقد أن التجارة وليس المعونة، هى المصل المضاد لكل أوجاع العالم الثالث؛ وعليه فقد حَوَّل تركيز البرنامج الأمريكى للأمن المتبادل الذى يقدر ببليون دولار من المعونة الاقتصادية إلى المعونة العسكرية، كما حَوَّل كفة موازنة المعونة الخارجية من المنح إلى القروض. وبحلول سنة ١٩٥٦ كان نمو استثمارات الولايات المتحدة فى التجارة ومع الدول النامية يؤكد أن المؤسسات الخاصة مستعدة لملء الفراغ الناجم عن التخفيض فى القطاع العام. الفورات السياسية التى هزت الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية وأفريقيا أثناء فترة إدارة "إيزنهاور" الثانية، على أية حال، استفزت نقد الليبراليين سواء من داخل أو خارج الحزب الجمهورى الذى كان يحمل على أسلوب اليد المغلولة فى المعونة الخارجية ويعتبره حماقة(٤).

كان من أبرز النقاد الجمهوريين "نيلسون روكفلر – Nelson Rockefeller"، عمدة نيويورك، الذى أدت به حالة حمى بوتوماك العضال أن يطلب من "هنرى كيسنجر"، عالم السياسة فى هارڤارد فى أوائل ١٩٥٦، أن ينسق سلسلة دراسات متنوعة عن التحديات التى من المرجح أن تواجه الولايات المتحدة فى الداخل والخارج؛ وقبل نهاية العقد سوف ينشر "كيسنجر" تقريرين يبرزان "ثورة فى أفق التوقعات تجتاح العالم الثالث حيث "إطاحة الحكم الاستعمارى تتضمن فى الوقت نفسه سقوط الإطار السياسى القائم، وغالبا الإطار الاجتماعى كذلك"؛ ومؤكِّدا أن "أمريكا لا يمكن أن تظل بعيدة عن هذه الثورة" كان من رأى "كيسنجر" وزملائه فى لجنة روكفلر أن أيا من كان سيشغل البيت الأبيض فى ١٩٦١ عليه إما أن يساعد تلك الدول لتكون قادرة على الحياة والنمو اقتصاديا واجتماعيا"، أو أن يراها تنزلق إلى مدار الكرملين(٥).

"وولت روستو" الذى جنده "كيسنجر" لمشروع "روكفلر" لخص كيف أن دول العالم الثالث يمكن أن تحقق القابلية للحياة والنمو فى مجموعة مقالات بعنوان "مراحل النمو الاقتصادى" نشرت فى ١٩٦٠ مع عنوان فرعى لافت للنظر هو "مانيفستو غير شيوعى". معرفا الشيوعية بأنها: "نوع من المرض يمكن أن يصيب مجتمعا فى حالة انتقال عندما يفشل... فى أن يسير مع التحديث"، ووصف ترياقا – هو جرعات مكثفة من المعونة الأمريكية – لضمان أن تتمكن الدول النامية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية من تعبئة الموارد اللازمة لتحقيق إقلاع مبكر نحو التنمية الاقتصادية الذاتية(٦).

كان "چون ف. كينيدى" أحد الذين راقت لهم هذه الأفكار بشدة، فجاء بـ"روستو" إلى واشنطن لكى يساعد فى وضع أسس هذا المجال الجديد؛ ومرددا ما جاء فى "مراحل النمو الاقتصادى كان "كينيدى" يصف الستينيات بأنها "عقد التنمية الحاسم" الذى ينبغى أن يبدأ فيه الأفارقة والآسيويون والأمريكيون اللاتينيون "تحديث أساليب حياتهم القديمة" بإثبات أن النمو الاقتصادى والديمقراطية السياسية يمكن أن يسيرا يدا فى يد. المعونات الاقتصادية من الولايات المتحدة ستكون حاسمة فى رحلة الإقلاع، وكذلك ستكون القيادة السياسية المستنيرة فى الدول الأقل نموا نفسها حيث "المساعدة الذاتية والإصلاح الداخلى" بما فى ذلك الإصلاح الزراعى والضرائب والتعليم والعدالة الاجتماعية التى تصبح كلها اهتمامات أولية على جدول الأعمال(٧). لم يقنع الخط الفكرى لـ"كينيدى" و"روستو" الكونجرس بأن يوسع نطاق مساعداته للدول الأقل نموا بنسبة ٨٠٪ فى أوائل الستينيات فحسب، بل إنه وضع الأساس المنطقى الفكرى لبرنامج أكثر طموحا "لبناء الدولة" بهدف علاج الأسقام الاقتصادية والسياسية المصابة بها المجتمعات الانتقالية فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا(٨).

وعندما أكمل "وولت روستو" فترة عمله كمستشار للأمن القومى لإدارة "ليندون چونسون" بعد ذلك بخمس سنوات، كان العالم الثالث يبدو منذورا لسقوط حاد وفى

فوضى سياسية وليس للإقلاع فى عملية نمو اقتصادى. كان "روستو" يعزو الفوران الثورى الذى يجتاح أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية إلى التخريب السوفيتى، وكان متمسكا برأيه بأن إصلاح الحكومات الفاسدة يظل هدفا جيدا[٩]؛ ولكن "هنرى كيسنجر" الذى سرعان ما برز ليكون "روستو الخاص بـ ريتشارد نيكسون" ربما يكون قد اقترب من الحقيقة عندما اعترف فى مذكراته بأن التجربة الأمريكية المؤسسة على تراث سياسى ليبرالى واقتصاد صناعى جيد وطبقة متوسطة قوية، لم تكن "مناسبة تماما" لمجتمعات العالم الثالث التى "كانت تخطو خطواتها الأولى المتعثرة نحو التحديث" خلال سنوات "كينيدى" و"چونسون". "كان بناء الدولة يعتمد بشكل أساسى على القدرة على تأسيس سلطة سياسية"، كما يتذكر "كيسنجر"، "فالمعونة الاقتصادية عندما تعجل بتآكل النظام القديم (الإقطاعى عادة)، غالبا ما تجعل من الصعب تحقيق الاستقرار السياسى"[١٠].

مفارقات التحديث لم تكن غائبة عن ذهن "زبيجنيو بريچنسكى – Zbigniew Brzezinski" أستاذ جامعة كولومبيا المتخصص فى الشئون السوفيتية، الذى سيصبح "كيسنجر الخاص بـ كارتر". فى مقال طويل بعنوان " بين عهدين" مواكب للتطورات عن بزوغ "الحقبة التكنوإليكترونية"، نشره أثناء فترة إدارة "نيكسون" الثانية، يشبه "بريچنسكى" دول العالم الثالث بـ"الجيتوهات الكونية التى دمرتها" انفجارات الغضب العشوائى الشديدة و"الطموحات المتعذر إشباعها" نحو حياة أفضل لا توجد سوى على شاشات التلفزيون. فالقيادة القوية، وربما حتى "الدكتاتورية الشخصية" القادرة على "فرض تحديث اقتصادى اجتماعى من أعلى" كانت هى السبيل الوحيد لإنقاذ أولئك الجيران، وإلا – كما كان "بريچنسكى" يتوقع – فإن "شعوب العالم المتقدم ستركن إلى الاعتقاد المريح للنفس وهو أن تعصب قادة الجيتوهات الكونية غير المنطقى هو الذى يحول دون التعاون"[١١].

ولأنهم كانوا مشغولين بالورطة الكبرى فى جنوب شرق آسيا، نادرا ما كان لدى "روستو" و"كيسنجر" و"بريچنسكى" الكثير الذى يمكن أن يقولوه عن التحديث فى

الشرق الأوسط؛ وإنما كان هناك أكاديميون أخرون يقولون ما هو أبعد من سلسلة الغذاء البيروقراطية، فـ"بايارد دودچ – Bayard Dodge"، رئيس الجامعة الأمريكية فى بيروت على سبيل المثال، كان قد حذر فى اجتماع لمجموعة دراسية عن العلاقات الخارجية من أن التحديث – على الأرجح – قد يكون نعمة ونقمة فى العالم الإسلامى، حيث إن "التغيير سريع جدا لدرجة أنه قد لا يكون صحيا"، وأنه كان يخشى من أن صعود تيار "القومية العنيفة" و"التوق الشديد لأى شىء جديد يكون هو الأكثر حداثة" قد يمهد الطريق نحو الإثارة والتحريض الشيوعى المتصاعد". كان "دودچ" باختصار، يعتقد أن الشرق الأوسط بشكل عام كان مثل قائد سيارة قام بتغيير سرعتها قبل أن يقرر اتجاه انعطافها"(١٢).

"چيمس لاندس – James Landis"، رئيس المجموعة الدراسية وأحد مبعوثى "روزفلت" الجوالين السابقين فى الشرق الأوسط، كان يشعر أن من واجب الولايات المتحدة أن تقدم التدريب الضرورى للسائق، إذ إنه قال لـ"دودچ" "من سوء الحظ أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تدعم الثورة فى هذا القرن كما كانت تفعل فى القرن الماضى"، ولكن ينبغى على واشنطن أيضا أن تدعم "ما هو موجود" وتقبل بالأمر الواقع؛ وخلص "لاندس" إلى أنه "بالنسبة لمن هو مهتم فعلا بالحفاظ على المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط، فأفضل أسلوب ليس دعم الحكومات الموجودة التى قد تنفجر فى وجهه فى أى لحظة، وإنما تغيير الموجود على نحو تدريجى تجنبا لأى تمرد شيوعى"(١٣).

خلال العقدين التاليين، كان الأكاديميون الخبراء بشئون الشرق الأوسط يؤيدون وصفة "لاندس" للإصلاح باعتبارها أفضل ترياق للثورة. وبحلول عام ١٩٥٨، كان دانييل ليرنر – Daniel Lerner (من MIT) قد أعد مسودة برنامج للتغيير التدريجى المدعوم من الولايات المتحدة فى كتابه واسع الانتشار "زوال المجتمع التقليدى: التحديث فى الشرق الأوسط". "ليرنر"، الذى زامل "وولت روستو" ذات يوم فى مركز الدراسات الدولية التابع لـ"MIT" كان مصرا على أن «الشرق أوسطيين أكثر

من أى وقت مضى كانوا يريدون استلام "طرد" التحديث» وكان تسليمه لهم يعتمد على تشجيع ودعم الولايات المتحدة، كما خلص إلى أن فرص تصدير الحلم الأمريكى إلى إيران وغيرها من دول الشرق الأوسط كانت تبدو جيدة[١٤].

بعد خمس سنوات قدم "مانفريد هالپيرن – Manfred Halpern" العالم السياسى بجامعة "پرنستون" تقييما أكثر تعقيدا، وإن كان أقل تفاؤلا، لأفق التحديث وذلك فى "طرائق التغيير السياسى فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا"، وباعتباره أحد المتمرسين فى إدارة البحوث والاستخبارات التابعة للخارجية الأمريكية الذين عادوا إلى البرج العاجى فى بداية عهد "كينيدى"، لم يكن لديه كثير من الوهم عن أن زملاءه السابقين يمكن أن يجدوا علاجا سريعا "لثورة التوقعات الناشئة" التى كانت تجتاح العالم الإسلامى. كان تشخيصه غير حصيف مثلما كانت وصفته العلاجية؛ ولأن "دول الشرق الأوسط كانت ما تزال تفتقر إلى القوة والمهارة لحل المشكلات المتعلقة بالسلام والاستقرار بمفردها" كان ينبغى على الولايات المتحدة أن تساعدها "حتى تنجح فى إقامة مجتمعاتها المتحولة على أسس جديدة ومستقرة"؛ كما حذر "هالپيرن": خشية أن يفترض صناع السياسة أن تناول "القومية ومساوئها" يمكن أن يكون سريعا أو رخيصا، فإن "تكلفة تحقيق نتائج متواضعة ستكون باهظة"[١٥].

كان "هالپيرن" يعتقد أن مسئولى الولايات المتحدة لكى يحققوا أعلى عائد لاستثمارهم السياسى والاقتصادى لابد من أن يرتبوا حقيبة أوراقهم المالية بعناية شديدة، وأشار إلى أن "معظم دول الشرق الأوسط تنتمى إلى عالم ملكة آليس الحمراء"، حيث ستكون على الجميع أن يركض سريعا بينما كان ينبغى عليه أن يقف ساكنا"، كما أشار بأسف أيضا إلى أن "السخط ينتشر على نحو أسرع من الفرص الاقتصادية... وربما حتى أسرع من الناس" فى أماكن مثل مصر وسوريا. من بين عدد صغير من الدول المرشحة لتحديث ناجح، كانت هناك إيران والعراق وليبيا حيث توجد عائدات نفطية يمكن أن تحقق مستويات معيشية أعلى إذا تم استثمارها بحكمة، إلا أن الدول الثلاث كانت تفتقر بداية إلى الإرادة السياسية لمواجهة

التغييرات الهيكلية بعيدة المدى فى السياسات والمجتمع التى كانت التنمية الاقتصادية تتطلبها". وكنتيجة، كما تنبأ "هالپيرن" فإن السؤال الرئيسى الذى كان يواجه أصدقاءه فى "فوجى بوتوم" فى الستينيات هو كيفية إقناع القادة التقليديين من طهران إلى طرابلس بتحديث مجتمعاتهم قبل فوات الأوان(١٦).

عند اقتراب العقد من نهايته، كانت الإجابة عن هذا السؤال ما زالت مراوغة، فقبل أشهر قليلة من قيام "ليندون چونسون" بإخلاء المكتب البيضوى لـ"ريتشارد نيكسون"، نجد "چون بادو" رجل "چون ف.كينيدى" فى القاهرة يكرر أهمية سؤال "هالپيرن" وذلك فى "الأسلوب الأمريكى للتعامل مع الشرق الأوسط". فى فصل بعنوان "تحديث الشرق الأوسط التقليدى" يقول "بادو" إن على المسئولين فى الولايات المتحدة، إذا كانوا يرغبون فى منع "هجوم ثورى ضارٍ على صيغ ومؤسسات الماضى" فعليهم أن يعملوا مع المعتدلين العرب مثل "الملك حسين" فى الأردن لإطلاق تحركات تقدمية ومؤسسات ليبرالية" ضرورية من أجل "تطور تدريجى نحو الحداثة": وفى الدول الأكثر محافظة مثل ليبيا لابد من أن يسعى الأمريكيون إلى تعيين "حكام يجمعون بين التقدمية والمحافظة" قادرين على "إثبات أن دولة عربية ما يمكنها الولوج إلى العالم الحديث وأن تحل مشكلاتها الأساسية دون الفوران الثورى المدمر". كانت واشنطن تفعل ذلك بالفعل فى إيران، الدولة الإسلامية غير العربية؛ حيث بمساعدة الولايات المتحدة كان الشاه يسير على طريق التحديث. ولكن خشية أن يكون هناك أى التباس، وحتى لا يبدو أن فعل شىء ما ينطوى على مخاطرة كبيرة يستوى مع عدم الفعل، أشار "بادو" إلى ما حدث فى العراق قبل عقد عندما قام المعتدلون الموالون للغرب بوضع بذور الإصلاح لكى يحصدوا الثورة(١٧).

• أمريكا والثورة العراقية

صوت المؤذن المنغم الذى كان يدعو الناس لصلاة فجر الرابع عشر من يوليو ١٩٥٨، قطعته دمدمة مدافع الماكينة وهدير الدبابات؛ وقبل غروب شمس اليوم كانت

قوات الكولونيل "عبد الكريم قاسم" (٤٤ سنة) قد قلبت نظام الحكم الملكى، وذبحت العشرات من السياسيين الموالين للغرب... وأصابت إدارة "إيزنهاور" بالذهول. كان المسئولون الأمريكيون يعتبرون العراق بقيادته المحافظة وتحالفه مع بريطانيا جزيرة استقرار فى بحر مضطرب. وحدها بين الدول العربية، كانت العراق هى الدولة الوحيدة التى انضمت إلى "حلف بغداد" تلك المنظمة الدفاعية الإقليمية المدعومة من الولايات المتحدة": ووحده من بين القيادات العربية كان رئيس وزرائها "نورى السعيد" هو الذى عمل بشكل علنى وصريح للمساعدة فى تحويل النموذج القومى الراديكالى على طريقة "عبد الناصر" الذى كان يجتاح المنطقة، فى اتجاه أكثر أمانا بالنسبة للمصالح الأمريكية: ووحده بين الجيوش العربية كان سلك الضباط العراقيين يبدو غير منفتح لكل من سلطوية اليسار الناصرى والبعثى، تلك الخلطة الاشتراكية القومية التى كانت متجذرة فى القوات المسلحة عند جيرانهم فى سوريا[١٨]. وخلف المظهر الخادع بالاستقرار الموالى للغرب، كانت الضغوط الثورية مستمرة فى التصاعد على امتداد أكثر من جيل. معظم العراقيين الذين كان تعدادهم يصل إلى خمسة ملايين نسمة لم يكونوا يعرفون غير الفقر المدقع منذ ١٩٢٠، عندما دمج "وايت هول" ثلاثة أقاليم عثمانية مختلفة (الموصل الكردية فى الجنوب وبغداد السنية فى الوسط والبصرة الشيعية فى الشمال) فى مندوبية بريطانية تحت قيادة الأمير "فيصل" الهاشمى، الذى كان رأس حربة التمرد العربى على الحكم العثمانى أثناء الحرب العالمية الأولى. على مدى اثنى عشرة سنة ساعدت بريطانيا العظمى الملك فيصل على تشكيل تحالف حكم، مكون من سياسيين مطلعين محترفين مثل "نورى السعيد" وشيوخ إقطاعيين أثرياء، يحميه جيش صغير بريطانى التدريب تنفق عليه شركة البترول العراقية (IPC) التى تسيطر عليها بريطانيا؛ وبالرغم من أن "وايت هول" ألغى الانتداب ومنح العراق الاستقلال فى ١٩٣٢، ظل البريطانيون يمارسون حماية غير رسمية محتفظين بقواعد جوية فى "الحبانية" و"الشعيبة" ويعملون مع "نورى السعيد" الذى سيشغل منصب رئيس الوزراء ثلاث عشرة مرة ليقمع الانتفاضات الوطنية مثل تمرد "الوطبة" بزعامة الشيوعيين الذى خَلَّف ٣٥٠ قتيلا فى أوائل ١٩٤٨[١٩].

مسكونا بهاجس "الوطبة"، وضع "نورى السعيد" ورعاته البريطانيون برنامجا أوتوقراطيا للتحديث فى أوائل الخمسينيات، وبمباركة من "وايت هول" وجه نورى السعيد عائدات النفط إلى خطة طموحة لإصلاح نظم الرى والنقل وغيرها من متطلبات البنية التحتية دون مساس بالهياكل السياسية والاجتماعية؛ وسرعان ما كان سفير الولايات المتحدة الذى وصل إلى بغداد فى ١٩٥٤ متفائلا بالأوضاع، ومعتقدا تمام الاعتقاد بأن سياسات العراق المتشددة ضد الشيوعية كانت ثمنا بسيطا تدفعه من أجل التقدم الاقتصادى. كان "والدمار جالمان - **Waldemar Gallman**" يتذكر "بالقرب من نهاية حياة "نورى السعيد" كانت الولاية العثمانية التى طال إهمالها قد بدأت تأخذ شكل بلاد الرافدين الكتابية.

كثيرون فى واشنطن على أية حال كانوا قد بدأوا يشكون أن تكون أكثر قصص التوراة صلة بـ"عراق نورى السعيد" هى "بابل نوح" عشية الطوفان الكبير. وبالرغم من أن مستشارى "إيزنهاور" كانوا سعداء لاستعداد العراق أن يضخ عائداته النفطية المزدهرة فى مشروعات بنية تحتية بعيدة المدى فى خلال ربيع ١٩٥٥، كانوا قلقين عند نهاية العام لأن الشعب العراقى "الفقير لدرجة البؤس، المصاب بالإحباط واللامبالاة السياسية يمكن أن يُسْتَغَل من قبل العملاء الشيوعيين" إذا لم يقم العرش الهاشمى بالمزيد من "المشروعات قصيرة المدى ذات النتائج السريعة"[٢١]. حتى السفير "جالمان" كان قد بدأ يساوره القلق فى أوائل ١٩٥٦ بشأن الأوضاع فى بغداد. وبالرغم من أن "نورى السعيد" ظل أهم الأصدقاء الذين يمكن أن يتوقعهم الغرب فى العراق فى المستقبل القريب"، كان "جالمان" يعترف فى ١٥ يناير بأن رئيس الوزراء غير القمعى كان قد أصبح "أقل قوة نوعا ما منه قبل عام"[٢٢]. "ويسلى نلسون - **Wesley Nelson**" الاقتصادى الأمريكى الذى رأس "هيئة التنمية العراقية" لم يكن يخفى قلقه المتزايد، فقد قال لأحد الصحفيين فى ٣ أبريل "فى حال اختفاء "نورى السعيد" من الصورة، قد تصبح البلاد مهيأة للدخول فى سلسلة من المشكلات"[٢٣]، بعد شهرين كان أحد تقارير المخابرات المركزية يشير إلى أن مصير المملكة الهاشمية كان فى يد الجيش العراقى (٥٣٠٠٠ جندى)، الذى كان يعتبر مواليا وجيد التدريب

وبعيدا عن السياسة، وخَلُصت الوكالة إلى أنه "ليس هناك دليل على وجود دائرة عسكرية صغيرة ذات عقلية ثورية بين الضباط العراقيين مثل تلك التى أطاحت الملك "فاروق" فى مصر"[٢٤].

أثار صدمة أزمة السويس التى هزت بغداد فيما بعد فى ذلك العام كان تشير إلى أن الشبه بين مصر "فاروق" وعراق الهاشميين لا يبدو بعيدا جدا، فقد انفجرت المظاهرات المعادية للغرب من الموصل فى الشمال إلى النجف فى الجنوب حيث كان العمال والطلبة يرددون شعارات موالية لـ"عبد الناصر" ويشتبكون مع الشرطة ويدعون إلى الثورة، ثم بدأت الأمور تتجه نحو الأسوأ. فى ٢٢ نوفمبر كان "آلن دالاس – Allen Dulles" مدير المخابرات المركزية يشير متشائما إلى "تقارير عن انتشار السخط فى الجيش العراقى، وبخاصة بين صغار الضباط"[٢٥]. وفى أواخر ١٩٥٦ كان الكولونيل "عبد الكريم قاسم" ومجموعة صغيرة من الضباط الأحرار المعادين للحكم الهاشمى ولبريطانيا، يجتمعون سرا فى بغداد. مستلهمين "عبد الناصر"، كان المتآمرون يتبنون أفكار تقرير المصير والتغيير الاجتماعى الجذرى وكلها مبادئ كانت تتطلب قلب نظام الحكم الهاشمى وطرد بريطانيا من قواعدها الجوية فى "الحبانية" و"الشعيبة" وإقامة جمهورية عربية مستقلة. وفى أوائل ١٩٥٨ كان لدى "عبد الكريم قاسم" ما يقرب من ٢٠٠ مؤيد بين صفوف ضباط القوات المسلحة العراقية، بمن فيهم قادة الكثير من الوحدات الرئيسية فى ضواحى العاصمة[٢٦].

خلال الأشهر التسعة عشر بين أزمة السويس وانقلاب "عبد الكريم قاسم" كانت إدارة "إيزنهاور" تتمنى تفادى الثورة بتشجيع "نورى السعيد" على تدعيم جهاز أمنه الداخلى والإسراع ببرنامج التنمية والإصلاح الاجتماعى؛ وعندما وصل "جيمس ريتشاردز – James Richards" مبعوث "أيك" الخاص فى الشرق الأوسط إلى بغداد فى أبريل ١٩٥٧، أبلغ رؤساءه فى تقاريره بأن "العراق يشهد ازدهارا ... على طريقة تكساس"؛ جزئيا، لأن الهاشميين كان يبدو أنهم يستخدمون عائدات النفط جيدا لصالح البلاد بشكل عام"، ولكن السبب الرئيسى هو أن "نورى السعيد" كان يفهم

"أهمية اليقظة والحذر إزاء محاولات التخريب الداخلي"[٢٧]. بعد شهرين تلقى "إيزنهاور" تقريرا من الاستخبارات يفيد أن السخط في المدن والإثارة والتحريض بين المزارعين ونفاد صبر العسكريين، كل ذلك كان قد بدأ يولد ضغوطا من أجل تغيير سياسي جذري يهدد بإطاحة "نوري السعيد" والهاشميين والدائرة الضيقة المحيطة بهم، وخلص تقرير وكالة المخابرات المركزية (CIA) إلى أن "التطور الطبيعي للعوامل الموجودة الآن في المجتمع العراقي، من المحتمل أن تواجه - على المدى البعيد - نظام الحكم ذا القبضة الحديدية الآن بتحديات قوية، مع عناصر تطالب بتوسيع دائرة المشاركة العامة في شئون الحكم"، كما أن الولايات المتحدة لا أمل لديها في أن تجعل العراق في مأمن من الثورة سوى بتشجيع عمليات الإصلاح[٢٨].

بحلول صيف ١٩٥٧، كان المسئولون الأمريكيون داخل العراق قد بدأ يساورهم الشك والقلق بأن النهج الإصلاحي الذي تؤيده واشنطن قد تكون له متضمنات ثورية في بغداد. إعادة توزيع الأراضي بأسلوب جذري، كما حذر السفير "جالمان" فوجي بوتوم في ٦ يوليو قد يفيد الآلاف من المزارعين بنظام المحاصة والمستأجرين، ولكنه في الوقت نفسه قد يضر بالمئات من شيوخ القبائل الإقطاعيين الذين يعتبرون "عامل توازن سياسي مهم" في العراق[٢٩]. مع اقتراب الشتاء سيصبح المأزق الأمريكي أكثر صعوبة، فبالرغم من أن "النظام الحالي يفتقر إلى التأييد الشعبي الواسع" كما اعترف خبراء الشرق الأوسط في الخارجية الأمريكية في ٣٠ أكتوبر، "فإن تغيير النظام أو فترة من عدم الاستقرار الحاد قد تنجم عن اضطراب مدني مؤثر، من شأنها أن تضر بمصالحنا". في ظل هذه الظروف، لم يكن أمام إدارة "إيزنهاور" سوى أن تدعم حكم "نوري السعيد" الاستبدادي بينما تعمل من وراء الستار من أجل "تغيير سلمي" و"نظام حكم أكثر اعتدالا وتقدمية"[٣٠].

إعلان الجمهورية العربية المتحدة في فبراير ١٩٥٨ كان ضربة موجعة، على نحو خاص، لـ"نوري السعيد" الذي كان نفطه يتدفق منذ وقت طويل عبر سوريا إلى البحر الأبيض من خلال خط أنابيب سيصبح من الآن تحت رحمة "عبد الناصر"

منافسه الرئيسى على زعامة العالم العربى. "سلوين لويد" وزير الخارجية البريطانى الذى زار بغداد فى أوائل مارس "وجد القيادات العربية فى حالة هياج عصبى بالغ"، وأبلغ "چون فوستر دالاس" وزير خارجية الولايات المتحدة بأن الهاشميين كانوا "يتصرفون كأنهم سوف يتم القضاء عليهم فى غضون ستة أشهر"(٣١). معظم خبراء "دالاس" المتخصصين فى شئون الشرق الأوسط ظلوا، بالرغم من ذلك، على ثقة من أنهم بتثبيت ودعم "مناخ للتنمية الاقتصادية" فى دول عربية شديدة الطبقية مثل العراق، يمكن أن تحقق الولايات المتحدة مستويات معيشة أعلى "تؤدى على المدى البعيد إلى إصلاحات تطورية وإلى إقامة قاعدة أوسع لدعم الحكم"(٣٢).

من ناحية أخرى كان الدبلوماسيون الأمريكيون الموجودون فى العواصم العربية يرسمون صورة أكثر كآبة، كما أمطروا وزارة الخارجية بمذكرات تحذير من انقلابات فى القصر أو فورانات سياسية أخرى، وبحلول شهر يونيو كان يبدو أن نقطة الاشتعال الأكثر ترجيحا هى لبنان وليس العراق، حيث كانت التوترات الطائفية الحادة بين المسيحيين والمسلمين قد تفجرت لتصبح حربا أهلية كاملة قبل أسابيع، أو الأردن حيث كانت الشائعات قد بدأت تسرى عن قرب الإطاحة بالملك "حسين" على يد ضباط موالين لـ"عبد الناصر". مقتنعة بأن نظام الحكم الموالى للغرب فى بغداد كان أقل عرضة للخطر منه سواء فى بيروت أو عمان، كان من رأى المخابرات المركزية فى ٣ يوليو ١٩٥٨ أن المعارضة العراقية ليس لها وجود داخل الجيش وتفتقر إلى القدرة المباشرة على قلب نظام الحكم(٣٣)؛ وبعد أحد عشر يوما هزت العراق ثورة دموية أثبتت أن خبراء إيزنهاور كانوا على خطأ.

بعد أن عرفا أن "عبد الكريم قاسم" وضباطه الأحرار قد أسقطوا العرش الهاشمى فى ١٤ يوليو، تحرك كل من "البيت الأبيض" و"وايت هول" فورا لعزل الثورة العراقية، وذلك لمنع العرب المحافظين الآخرين من مواجهة المصير نفسه، وفى غضون اثنين وسبعين ساعة من الانقلاب فى بغداد، سيرسل "إيزنهاور" قوات المارينز إلى لبنان، ويرسل "هارولد ماكميلان" رئيس الوزراء البريطانى قوات المظلات البريطانية

إلى الأردن لطمأنة القادة الموالين للغرب المرتعدين فى كل من بيروت وعمان(٣٤). وبنهاية الشهر كان صناع السياسة الأمريكية يعتقدون أن أفضل طريقة "لممارسة نفوذ بناء على النظام الجديد" هى الاعتراف به "دون إبطاء"، وهو ما فعله "إيزنهاور" فى ٣٠ يوليو. منطق مشابه جعل "وايت هول" يعترف رسميا بالنظام الجمهورى فى العراق بعد أشهر قليلة(٣٦).

وخلال خريف ١٩٥٨ وفى شتاء ١٩٥٩ مر العراق بتغيرات اجتماعية وسياسية عميقة، ودموية غالبا، جعلت الكثيرين فى واشنطن ولندن يعيدون النظر فى مسألة الاعتراف بالجمهورية الجديدة. ملتزما بتفكيك أوليجاركية شيوخ القبائل الإقطاعيين الموالين للهاشميين، الذين كانوا يساعدون ويدعمون "نورى السعيد"، نزع "عبد الكريم قاسم" ملكية مساحات واسعة من الأراضى وقام بتوزيع قطع صغيرة على المزارعين المعدمين، الذين رحبوا بانقلاب ١٤ يوليو؛ ومصرا على تدمير جهاز الأمن الداخلى القوى الذى كان النظام القديم قد استخدمه على امتداد أكثر من جيل للإبقاء على النظام القمعى، سمح "عبد الكريم قاسم" بسلسلة من المحاكمات الاستعراضية الهزلية، التى كان يقطعها أحيانا عمليات إعدام علنية لمسئولين عراقيين سابقين من المرتبطين ببريطانيا والولايات المتحدة. وفى تطورات فاجأت إدارة "إيزنهاور" التى كانت تفترض أن الضباط الأحرار فى العراق كانوا عازمين على أن تكون بلادهم العضو الثالث فى الجمهورية العربية المتحدة، نأى "عبد الكريم قاسم" بنفسه عن "عبد الناصر"، وسجن من كانوا ينادون بالوحدة مع مصر، وأجاز الحزب الشيوعى قانونيا كثقل يوازن به القوميين العرب من الراديكاليين العراقيين(٣٧).

كانت النظرة من واشنطن ترى العراق الجمهورى يتأرجح على حافة زلزال بلشفى. "روبرت ميرفى"، وكيل الخارجية الأمريكية الذى كان قد زار بغداد فى أغسطس ١٩٥٨ فى محاولة للحصول على تأييد العراق على تسوية سلمية فى لبنان، كان يعتقد أن "عبد الكريم قاسم" ومن معه «ربما يكونون عنصرا انتقاليا على طريقة "كيرنسكى"»(٣٨)، وبعد أن أعلن قاسم عن اتفاقيات عسكرية وتجارية مع "الكرملين"

فى أوائل أكتوبر، كان بعض المسئولين فى الخارجية الأمريكية يخشون "الوصول إلى نقطة اللاعودة فى غضون أشهر قليلة" ليصبح بعدها العراق دولة تابعة للاتحاد السوفيتى(٣٩). أصبح الموقف فى النهاية أكثر غموضا لدرجة أن إدارة "إيزنهاور" فكرت سرا فى أن تشجع "عبد الناصر على التدخل". وعندما اقترح بعض مستشارى "أيك" استخدام حزب البعث العراقى الصغير (الذى كان زعماؤه ينادون بالقومية العربية ومعاداة الشيوعية) لمواجهة زحف "الكرملين" فى بغداد، كان لدى رجل البيت الأبيض فكرة أبسط من ذلك بكثير. قبل عيد الميلاد بوقت قصير، كان من رأى "إيزنهاور" أنها "ربما تكون سياسة جيدة أن نساعد الجمهورية العربية المتحدة على تولى الأمور فى العراق"(٤٠).

ولأنه كان منذ فترة طويلة يعتبر العراق العقبة الرئيسية أمام زعامة مصر للعالم العربى، لم يكن "عبد الناصر" فى حاجة إلى كثير من الإيحاء من واشنطن لتشجيع خصوم "عبد الكريم قاسم"، ففى ٨ مارس ١٩٥٩ قام ضباط بعثيون فى الموصل، أبعد محافظات العراق شمالا، بمحاولة انقلابية لاجتثاث الشيوعية والانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة؛ وبعد ثلاثة أيام من حرب شوارع دامية تمكنت القوات الموالية لـ"عبد الكريم قاسم" تساعدها الميليشيات التى يسيطر عليها الشيوعيون من إخماد المحاولة التى انتهت بمقتل مائتين وإصابة أكثر من ثلاثمائة. فى الأسابيع التالية قام "عبد الكريم قاسم" بعملية تطهير فى الجيش من كل العناصر البعثية والناصرية وارتفعت عضوية الحزب الشيوعى العراقى لتصل إلى ٢٥٠٠٠ عضو، كما انضم قرابة نصف المليون مزارع وعامل إلى منظمات نقابية راديكالية معادية للغرب. "چون چى چيرنيجان – **John J. Jernegan**"، الذى كان قد خلف "والديمار جالمان" سفيرا للولايات المتحدة فى العراق قبل وقت قصير، نقل تلك الأخبار الكئيبة إلى واشنطن فى ٢٦ مارس، وخلص إلى أنه: مع "عبد الكريم قاسم" الذى قطع شوطا طويلا على طريق الشيوعية، بحيث أصبح الرجوع صعبا، "يبدو أن عام ١٩٥٩ سيكون عام الدب فى العراق"(٤١).

غير مروع بتوقع "چيرنيجان" المؤسف، تحرك "إيزنهاور" فورا لاحتواء الثورة في بغداد؛ وعلى أمل أن يتجنب "فقدان العراق تماما لصالح الشيوعية" كون مجموعة سرية داخل وكالة المخابرات المركزية في ٢ أبريل، لبحث عدة خيارات تتراوح بين العمل السري والتدخل العسكري(٤٢). بعد أسبوعين، راجع "الوضع الخطير في العراق" مع كبار مستشاريه. وزير الخزانة "روبرت أندرسن – **Robert Anderson**"، أحد كبار رجال النفط في تكساس، الذي عمل قبل ذلك مبعوثا سريا لـ"آيك" في كل من مصر وإسرائيل والمعروف بشدة صراحته، حذر من أن "الشرق الأوسط بكامله من المرجح أن يجرفه السيل"، إذا لم تتحرك الولايات المتحدة على نحو حاسم؛ وقال "أندرسن": "إننا في غنى عن "دايان بيان فو" أخرى" مذكرا بالوضع في ڤيتنام قبل خمس سنوات، "لقد خسرنا معظم جنوب شرق آسيا لصالح الشيوعيين ونحن جالسون هنا نتكلم ونخطط كيف ننقذها، الآن ينبغي علينا ألا نكرر هذا الخطأ في الشرق الأوسط"؛ وبالرغم من شبح "ديان بيان فو" شرق أوسطية، كان "إيزنهاور" يفضل سياسة الانتظار اليقظ لإعطاء "قاسم" "فرصة للتصدي للشيوعيين"(٤٣)، فالزعيم العراقي سوف ينتهز الفرصة في يوليو ١٩٥٩ لسحق انتفاضة الشيوعيين في كركوك، المركز البترولي في محافظة الموصل على بعد ١٨٠ ميلا شمالي بغداد، وكذلك العناصر الموالية للسوڤيت في صفوف القوات المسلحة(٤٤).

وعلى الرغم من مستقبل العراق المجهول، كان المسئولون على كلا جانبي الأطلنطي يجدون بعض السلوى لأن "بعض استقرار" كان قد بدأ يظهر في بغداد بعد اثنى عشر شهرا من ثورة يوليو ١٩٥٨. "الدرس المستفاد" من انقضاض "قاسم" المفاجئ على الشيوعيين، كما أخبر مساعد وزير الخارجية الأمريكي "لويس چونز – **Lewis Jones**" نظيره البريطاني سير "روچر ستيڤنز – **Roger Stevens**" في ٢٨ أغسطس ١٩٥٩ كان أن "وضعا سيئا بدأ في إصلاح نفسه في غيبة أي قدرات للولايات المتحدة وبريطانيا للسيطرة على الأحداث". ملاحظا أن "وايت هول" كان دائما واثقا نسبيا بأن القومية سوف تنتصر في النهاية على الشيوعية في بغداد، كان "ستيڤنز" يعتقد أن الصبر لابد من أن يكون كلمة السر في سياسات كل من بريطانيا

والولايات المتحدة بالنسبة للعراق، وأبلغ "چونز": "لابد من أن تظل أصابعنا متصالبة... وبعيدة"(٤٥).

الوضع المربك، والفوضوى أحيانا فى بغداد بين ١٩٥٩ وأوائل ١٩٦٣ جعل من الصعب - وعلى نحو متزايد - بالنسبة لصناع السياسة الأمريكية، التحكم فى أصابعهم التى كانت "تأكلهم". واجدا نفسه مستهدفا بالاغتيال من اليسار البعثى واليمين المتطرف فى الجيش، أعلن "عبد الكريم قاسم"، تلك الشخصية الملغزة الكاريزمية، نفسه "الزعيم الأوحد" فى شتاء ١٩٦٠ واتجه نحو نوع من عبادة الشخصية، وبنهاية العام كان العراقيون من مختلف الأطياف السياسية يشكون من أنهم برغم تلقيهم مساعدات فنية وعسكرية من "الكرملين" بما قيمته حوالى ٤٠٠ مليون دولار، فإن "زعيمهم الأوحد"، مثل النظام القديم الذى أطاح به فى يوليو ١٩٥٨ "قد فشل فى أن يقدم أى دليل مقنع على التقدم الاجتماعى والاقتصادى"(٤٦). كان المصدر الرئيسى للسخط العام هو برنامج "قاسم" المشئوم للإصلاح الزراعى الذى قلل الإنتاجية الزراعية دون قصد نتيجة تفتيت الملكيات الزراعية الكبيرة، مما أدى إلى نقص كبير فى الغذاء وارتفاع شديد فى أسعار بعض السلع الأساسية مثل القمح والأرز.

وعند اقتراب نهاية فترة إدارة "إيزنهاور" كان بعض خبراء شئون الشرق الأوسط يؤرقهم أن "ركود الاقتصاد العراقى المستمر" والتطلعات المتصاعدة للفلاحين والعمال العراقيين قد تغرى "قاسم" بالسعى نحو المزيد من السيطرة على إنتاج الخليج الفارسى من النفط(٤٧).

وبالرغم من أن مسألة العراق نادرا ما كانت من بين أهم قضايا السياسة الخارجية التى كانت تواجه "چون كينيدى" فى يناير ١٩٦١، فإنها كانت من أكثرها تعقدا. تهديد "قاسم" باحتلال الكويت بعد أن رفعت بريطانيا حمايتها عنها فى يونيو، استثار تأكيدات سرية من "البيت الأبيض" بأن الولايات المتحدة كانت على استعداد لمساعدة "وايت هول" فى حال "إذا ما أصبح العراقيون من الحماقة" لدرجة احتلال

الإمارة"[٤٨]؛ وبدلا من المخاطرة بحرب مع القوى الكبرى حول "قاسم" اهتمامه نحو هدف كان القوميون فى أنحاء العالم العربى يلعنونه وهو شركة البترول العراقية (IPC)، ذلك الكونسورتيوم الأنجلو-أمريكى الذى يسيطر على أهم موارد بلاده الطبيعية. على مدى أكثر من عام كان "قاسم" يلمح إلى أن المصادرة ليست بعيدة، وفَرَض ضرائب كان معظم مسئولى النفط الأمريكيين والبريطانيين يعتبرونها بمثابة مصادرة. خبراء شئون الشرق الأوسط فى إدارة "جون ف. كينيدى" كانوا يعتقدون أن "القيادة العراقية تحاول أن تلعب بورقة الاستيلاء على الكويت لكى تحصل على الأقل على ملكية جزئية فى "IPC"، كما كان "فيليبس تالبوت – **Phillips Talbot**" يقول غاضبا فى "فوجى بوتوم" فى أواخر ١٩٦١، و"يبدو أن الوضع فى العراق يعود إلى حال أشبه بفترة ما قبل الثورة فى ١٩٥٨ و١٩٥٩ حيث كان هناك انزعاج شديد لأن العراق كان متجها نحو الشيوعية"[٤٩].

مشغولا بمسألة شركة البترول العراقية، ومع زيادة اعتماده على الدعم الدبلوماسى الروسى، بدأ "عبد الكريم قاسم" يعتمد أكثر فأكثر على الحزب الشيوعى المنظم جيدا ليضع خصومه المحليين ومنتقديه الأجانب فى حالة استنفار دائم. العراقيون المعادون للشيوعية وجهوا ضربتهم المضادة القاضية فى ٨ فبراير ١٩٦٣ عندما استولى الضباط البعثيون على السلطة فى بغداد وأعدموا "عبد الكريم قاسم" ومئات من أتباعه وخلعوا البلاد من المدار السوفيتى. كانت صحيفة اتهام "قاسم" التى قدمها البعثيون تحتوى على ثلاثة اتهامات. أولا: الزعيم الأوحد ألحق الضرر بالوحدة العربية بسبب تقربه من "الكرملين" والشيوعيين العراقيين. ثانيا: أضعف الجيش باعتماده على الولاء وليس الكفاءة وشغل المناصب القيادية والمهمة لأتباعه. ثالثا: مثل "نورى السعيد" من قبله، قدم وعودا كثيرة ولم ينفذ شيئا فى ما يتعلق بالإصلاح السياسى والتنمية الاقتصادية. ومصرا على تحويل المسار بأسرع ما يمكن، قام "أحمد حسن البكر" ورفاقه من البعثيين باعتقال آلاف الشيوعيين واستأنفوا المباحثات مع "IPC" وبدأوا يجسون النبض من أجل الحصول على المساعدات الغربية[٥٠].

لم يذرف صناع السياسة الأمريكيون دموعا كثيرة على "عبد الكريم قاسم". "روبرت كومر – Robert Komer" عضو مجلس الأمن القومي أخبر "چون ف. كينيدى" بعد الانقلاب بوقت قصير "رغم أن الوقت ما زال مبكرا، يبدو أن الثورة العراقية قد نجحت، ولا شك فى أنها مكسب خالص لنا"(٥١). وافق "كينيدى" واعترف بالنظام الجديد فى ١١ فبراير؛ وبعد أربعة أيام أكد "فوجى بوتوم" أن البعثيين كانوا على استعداد "للمساومة بشروط معقولة نسبيا" مع شركة البترول العراقية، وأن "معدل التحديث والإصلاح سوف يتم الإسراع به"(٥٢). كان يبدو أن "البكر" وأعوانه أذكياء ومنظمين، وحاسمين فى تعاملهم مع بعض المشكلات ولكن يعوزهم التفكير السليم أحيانا [و] مؤيدين للدولانية مع ترك مساحة للقطاع الخاص"، كما أكد "روبرت سترونج – Robert Strong" من وزارة الخارجية، لأحد ممثلى بنك "تشيزمانهاتن" فى ٢٥ فبراير. وفى أخر الشهر كان "روى ملبورن – Roy Melbourne" القائم بالأعمال يقول بارتياح إن النظام البعثى "من وجهة نظرنا هو بالتأكيد أفضل ما كنا نتمنى أن يظهر بعد كابوس "عبد الكريم قاسم"، كما أن الروس يقدمون كل الدلائل على أنهم يعرفون ما نفعل، وبالتحديد على أنهم لقوا هزيمة كبيرة فى الشرق الأوسط"(٥٣).

وخلال الربيع، وفى صيف ١٩٦٣ كانت واشنطن تعمل بكل جد لكى تستغل هزيمة موسكو إلى أقصى حد. عندما سأل "كينيدى": "ماذا نفعل بالنسبة للنظام الجديد فى العراق؟" فى ٢ أبريل، كان رد مستشاريه فى مجلس الأمن القومى: "نحن نساعد قدر الإمكان، دون التورط فى برنامج معونات ضخم لا مبرر له"؛ وبهذا الهدف كانت "وكالة التنمية الدولية" تفضل أن تقدم المعونة الاقتصادية لبغداد "للمساعدة فى تبرير انقضاضها على الشيوعيين". أما "البنتاجون" فكان من جانبه مستعدا لأن يبيع نظام "البكر" ١٢ طائرة هيليكوبتر للاستخدام ضد أعوان "قاسم"، كما كان يفكر أيضا فى إمكانيات لتحسين الأمن الداخلى. فى منتصف أبريل، أكد "فوجى بوتوم" أن بغداد كانت تواصل "تقليل اعتمادها على الاتحاد السوفيتى"، وربما "تصل بالتدريج للاعتماد على الغرب من أجل التنمية الاقتصادية والتكنولوچيا". بعد شهرين كان المسئولون الأمريكيون والعراقيون يناقشون إمكانيات المساعدات الأمريكية التى

تتراوح بين فائض القمح المتوفر من خلال برنامج "الغذاء مقابل السلام" إلى قرض من بنك التصدير والاستيراد لشراء ثلاث طائرات "بوينج ٧٢٧". "روبرت كومر"، خبير شئون الشرق الأوسط بالبيت الأبيض أكد لـ"كينيدى" فى ١٠ يوليو أن الولايات المتحدة "كانت تستغل هذه الفرصة العراقية إلى أقصى درجة"(٥٤).

قبل أن ينتهى العام، كانت الفرصة العراقية بالنسبة لأمريكا قد تبخرت، والمؤكد أن "أحمد حسن البكر" قد رحب بالدعم الأمريكى، الذى كان يأمل أن يساعد مشروعاته لاستصلاح الأراضى والرى والتصنيع، كما طمأن رجال الأعمال أنه "سوف يتعاون مع رأس المال الخاص"، وقام بتطهير الجيش من "الضباط الشيوعيين"(٥٥). ولكن البكر لم يستطع أن يقضى على الشقاق الحزبى داخل البعث، ونتيجة لذلك أصبح بمثابة شخص منعزل بعد انقلاب عسكرى فى نوفمبر ١٩٦٣ دشن حقبة صراع سياسى حاد، كان نادرا ما تتردد فيها شعارات مثل "الإصلاح الاجتماعى" و"التنمية الاقتصادية". وعندما استعاد البكر السيطرة أخيرا فى يوليو ١٩٦٨ كان ذلك بمساعدة بعثى مفرط الحماسة، عنيف، معاد للغرب، اسمه "صدام حسين"، الذى كان التحديث بالنسبة له يأتى لاحقا، بعد أمر تقليدى فى بغداد هو السعى إلى السلطة(٥٦).

بعد أسبوعين من وصول ظهير "صدام" إلى السلطة، حذرت وكالة المخابرات المركزية بأن ما حدث للأسرة الهاشمية العراقية كان يمكن أن يحدث لعروش أخرى فى الشرق الأوسط. وبالرغم من أن الاستخبارات الأمريكية كانت ترى أن "فرص السوفيت والشيوعيين فى الدول العربية المحافظة – الأردن والسعودية وليبيا والكويت – كانت ضعيفة"، فإن البعثيين والراديكاليين المسلمين الآخرين كانوا يمثلون خطرا حقيقيا؛ وفى ٢٤ أبريل كانت وكالة المخابرات المركزية تتنبأ بأن "بعض الدول المحافظة تحاول أن تمنع الثورة عن طريق الإصلاح التدريجى، ولكن من المحتمل ألا يكونوا قادرين على منع شكل من أشكال الفوران الثورى فى السنوات القادمة"(٥٧). هذه النبوءة سوف تتحقق فى ليبيا مع نهاية العقد.

• الملك إدريس السنوسى والعقيد القذافى والثورة الليبية

كان صناع السياسة فى الولايات المتحدة يحدوهم الأمل أنهم بتأمل الدروس السيئة التى تعلموها فى العراق يمكنهم أن يوفروا على أنفسهم دروسا مؤلمة أخرى فى بلاد عربية أخرى مثل ليبيا، حيث كانت طفرة ازدهار نفطية فى الستينيات قد أفرزت مطالب التغيير الاجتماعي والإصلاح السياسى التى كان يتم دفع الملك "إدريس" دفعا لتلبيتها. وبالرغم من أن المسئولين الأمريكيين كانوا يقومون بمعايرة وصفتهم العلاجية للتحديث فى طرابلس على نحو أكثر دقة منهم فى بغداد، هز فوران قومى ليبيا فى ١٩٦٩، سرعان ما كان يمثل خطرا أشد من ثورتى "عبد الناصر" و"عبد الكريم قاسم" على المصالح الأمريكية. متبنيا أيديولوچية يرفدها الإسلام أكثر من الإشتراكية العربية، كان القذافى يسعى إلى استخدام عائدات النفط الليبى النامية لتطهير العالم الإسلامى من كل أثر للنفوذ الغربى، وبدء ثورة كانت تبدو أحيانا أشبه بحروب القرن السابع عشر الدينية منها بالصراع الطبقى فى القرن العشرين[٥٨].

ربما يكون معظم الأمريكيين قد سمعوا عن ليبيا فى ١٩٤٥ باعتبارها موقع قتال ضارٍ بين قوات الحلفاء وفيلق "هتلر" الأفريقى، ولكن قلة قليلة كانت هى التى يمكن أن تتصور أن تلك البلاد شبه الجرداء، ذات الكثافة السكانية القليلة، يمكن أن تصبح فى ظرف أربعة عقود واحدة من أغنى الدول فى العالم وأكثرها تقلبا. ليبيا الحديثة كانت من صنع بنّائى الإمبراطورية فى إيطاليا، الذين بحلول سنة ١٩١١ كانوا قد دمجوا ثلاثة أقاليم صحراوية كانت تحت الحكم العثمانى اسما (سيرينايكا فى الشرق وتريپوليتانيا فى الغرب وفزان فى الجنوب) فى مستعمرة واحدة كانت بمثابة رأس جسر لإيطاليا فى شمال أفريقيا. ولأنهم لم يكونوا على استعداد لقبول السيادة الإيطالية دون قتال، بدأ وطنيون عرب يقودهم "عمر المختار" حركة تحرير مسلحة فى عشرينيات القرن العشرين، وردّت إيطاليا "موسولينى" بأسلوب الأرض المحروقة العنيف لتثبيط همة الليبيين؛ وعندما توقف القتال فى ١٩٣١ كان "عمر المختار" وخمسة وعشرين ألفا من أتباعه قد قتلوا – كان بعضهم من الفدائيين ولكن أغلبهم كان من غير المقاتلين – وأصبحت ليبيا تحت الحكم الإيطالى[٥٩].

وبالرغم من مساعدة ودعم ألمانيا النازية، ضمرت سلطة موسوليني الليبية سريعا، وبنهاية الحرب العالمية الثانية كانت قوات الولايات المتحدة وبريطانيا قد استولت على قواعد جوية استراتيجية بالقرب من طرابلس وطبرق، ممكنة بذلك منظمة الأمم المتحدة الوليدة من بدء مهمتها الصعبة لإعداد ليبيا للاستقلال. ولأن المستعمرة الإيطالية السابقة كانت مقسمة إلى ثلاث مناطق تحت الاحتلال المشترك لم تنجح الولايات المتحدة إلا في ١٩٥١ في ابتكار صيغة عملية للحكم الذاتي، تجعل من ليبيا مملكة وراثية يرأسها الأمير "إدريس" (٦١ سنة) الذي كان كبير آل السنوسي، وهي عشيرة كانت تجمع صلات القربى الوثيقة فيها بين نشطاء دينيين تعهدوا تنقية الإسلام. سمح "إدريس" لبريطانيا والولايات المتحدة بالاحتفاظ بالمنشآت العسكرية في مملكته الجديدة مقابل بعض المساعدات البريطانية والأمريكية المتواضعة[٦٠].

من الواضح أن الملك "إدريس" كان، في وقت باكر من حكمه، في حاجة شديدة إلى كل المساعدات الاقتصادية التي أمكنه الحصول عليها؛ فمملكته التي تبلغ ثلاثة أمثال حجم تكساس كانت عبارة عن أرض جرداء شاسعة، أهم صادراتها في الخمسينيات الحديد الخردة الذي يتم جمعه من بقايا دبابات وعربات مدرعة وعتاد عسكري محترق كانت تملأ الفضاء الليبي. "عبد الحميد البكوش"، أحد المقربين من الملك كان يقول فيما بعد "كانت ليبيا في ١٩٥١ مجرد صينية من الرمال" و"كان دخلها حوالي ٣ ملايين دولار تحصل عليها من بريطانيا والولايات المتحدة سنويا مقابل استئجار قواعد على أراضيها"[٦١]. بالنسبة للمسئولين الأمريكيين، كان يبدو مبلغ المليون دولار ثمنا ضئيلا مقابل استخدام قاعدة "هويلس"، وهي مجمع عسكري ممتد بالقرب من طرابلس، حيث وضعت القوات الجوية الأمريكية عشرات القاذفات بعيدة المدى المحملة بالأسلحة النووية، في ما وصفه "چون فوستر دالاس" أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ في ٣ يونيو ١٩٥٣ بأنها "قاعدة جوية بالغة الأهمية.. من وجهة نظر العمليات الجوية الاستراتيچية... التي هي أسلوب هادئ للتحدث بلغة القصف الذري مع روسيا"[٦٢].

لم يكن باستطاعة الملك "إدريس" الموافقة على ما هو أكثر من ذلك، والواقع أنه أقنع كلا من "دالاس" و"إيزنهاور" بعد عام بأن قاعدة "هويلس" كانت مهمة جدا للپنتاجون بغرض توقيع عقد إيجار مدته ١٧ عاما، يدر على ليبيا ٤ ملايين دولار فى ١٩٦٠، ومليون دولار سنويا بعد ذلك[٦٣]. وبحلول صيف ١٩٥٦ كانت المخابرات المركزية الأمريكية قد باتت مقتنعة بأن هذا الاتفاق الذى يكلف الولايات المتحدة بلايين الدولارات، سوف يوفر لـ"إدريس" الموارد اللازمة "للحفاظ على استقرار سياسى كان محفوفا بالمخاطر" على المدى القصير، فإذا "لم تنجح الاستكشافات النفطية الحالية والمستقبلية" فإن مشكلات ليبيا الاقتصادية سوف تتفاقم على المدى البعيد، وتصبح المنشآت العسكرية الأمريكية والبريطانية أهدافا فى متناول الوطنيين الذين كانوا يشاركون "كل العالم العربى المشاعر المعادية للاستعمار"[٦٤].

المظاهرات المؤيدة لـ"عبد الناصر" والمعادية للغرب التى هزت طرابلس فى نوفمبر ١٩٥٦ على أثر تدخل بريطانيا فى مصر المجاورة عززت أهمية مواجهة مشكلات ليبيا الاقتصادية عاجلا وليس آجلا، وفى أول أيام عام ١٩٥٧ حذر "چون تاپن – John Tappin" سفير الولايات المتحدة لدى طرابلس بلاده من أن الرأى العام الليبى يميل ناحية السوڤيت على أساس الأحداث الأخيرة"، مؤكدا أن زيادة طفيفة فى المعونة الاقتصادية الأمريكية قد تعكس اتجاه المكاسب الروسية وتساعد على جعل ليبيا "واجهة عرض" موالية للغرب فى الشمال الأفريقى، وكان السفير يقول غاضبا "ألا يمكن أن نتخلى عن هذا التقتير والتأخير؟ ألا نستطيع أن ننتهز الفرصة عندما تلوح لنا؟"[٦٥]. على ضوء الحوار بين كبار المسئولين الليبيين و"چيمس ريتشاردز – James Richards"، مبعوث "إيزنهاور" إلى الشرق الأوسط يبدو أن الإجابة كانت "لا". وبالرغم من أن الملك "إدريس" ورئيس الوزراء "مصطفى بن حليم" كانا يبديان "ميلا شديدا" نحو الغرب، فإن "ريتشاردز كان يعتبرهما أصدقاء مؤقتين وعرض زيادة ٥٪ فقط فى المعونة التى كانت واشنطن قد اعتمدتها لليبيا، البالغ قيمتها ٤ ملايين دولار"[٦٦].

فى ٢٦ أبريل صرح "روبرت ميرفى" من "فوجى بوتوم" أن سياسة التقتير "قد تفتح الباب أمام الكرملين فى الشمال الأفريقى وعند حدود حلف شمال الأطلنطى"[٦٧]؛ وبعد أسبوع كان "إيزنهاور" يعترف بأن "الولايات المتحدة ستكون "فى مأزق حاد" إذا فقدنا ليبيا"[٦٨]، وفى محاولة لتجنب هذه النهاية أعلن "البيت الأبيض" فى أوائل مايو عن زيادة مقدارها ٢,٥ مليون دولار فى مساعدات البنتاجون لليبيا. هذا العرض المتواضع قوى قبضة الولايات المتحدة على قاعدة "هويلس"، وجعل الملك "إدريس" أكثر إصرارا من ذى قبل على دعم السياسات الموالية للغرب"[٦٩].

عندما كان "آيك" يقلب صفحات تقرير "سرى للغاية" عن سياسة الولايات المتحدة تجاه ليبيا، كان قد تم إعداده فى يونيو ١٩٥٧، لم يجد سوى القليل الذى يجعله يشعر بالرضا؛ وحسب تقرير لمجلس الأمن القومى يحمل رقم "NSC-5716" كان أكثر الأساليب تأثيرا بالنسبة للولايات المتحدة لتأمين وجود "ليبيا مستقرة ومستقلة" وخالية من النفوذ العادى للغرب (وبخاصة المصرى والسوفيتى) هو "تحمل - على مدى السنوات - مسئولية تطوير جيش ليبى مجهز ومدرب جيدا للحفاظ على الأمن الداخلى ومقاومة أى أعمال عدائية من العصابات والفدائيين"[٧٠]، وطوال يونيو ١٩٥٨ ظل إيزنهاور واثقا من أن الملك كان يتلقى معونة أمريكية كافية لحماية ليبيا من الوقوع تحت السيطرة السوفيتية"[٧١]. السقوط المفاجئ للأسرة الهاشمية فى العراق فى منتصف يوليو جعل كثيرين فى "البيت الأبيض" ووزارة الخارجية يتساءلون فى حيرة ما إذا كان الدور قد جاء على أسرة "السنوسى"؛ وما دام خصوم الملك قد بقوا على حالهم من "سوء التنظيم" لم يكن المسئولون الأمريكيون يتوقعون متاعب خطرة فى ليبيا، ولكن "قدرا كبيرا من قوة النظام الحالى يتوقف على طول عمر الملك إدريس" الذى لم "يعد خليفة له" بل كان يعزل نفسه عن الواقع السياسى فى قصور بعيدة"[٧٢].

بعد أن اكتشفت الشركات الأمريكية والبريطانية متعددة الجنسية كميات كبيرة من النفط على بعد مائتى ميل جنوب شرق طرابلس فى أواخر ١٩٥٨، زاد اهتمام الغرب بليبيا إلى حد بعيد؛ وبعد ملاحظة أن "الناصرية" كانت قد بدأت تحظى "بقبول

شعبى قوى" بين رعايا الملك، كان من رأى "إيزنهاور" وكبار مساعديه فى منتصف ديسمبر أن يعمل الدبلوماسيون وكبار المسئولين الأمريكيين عن النفط بكل قوة "لضمان أن يفيد الشعب الليبى من تلك الموارد الطبيعية، وليس الملك فقط وقلة من حوله"(٧٣).

وبالرغم من أن الخبراء كانوا يتوقعون أن يكون إنتاج ليبيا ٣٠٠٠٠٠ برميل من الخام يوميا فى غضون خمس سنوات، فإن الملك واجه أزمة سيولة فى وقت قصير، كانت مصحوبة بأصوات متعالية من الموالين لـ"عبد الناصر"، تطالب بالتنمية الاقتصادية والإصلاح السياسى. أما الملك الذى كان مصرا على علاج مشكلاته المالية عاجلا وليس آجلا، ففاجأ واشنطن فى شهر مايو ١٩٥٩ مطالبا بزيادة أحد عشر ضعفا فى الرسوم السنوية المقدرة بأربعة ملايين دولار التى كانت تدفعها الولايات المتحدة لليبيا مقابل استخدام قاعدة "هويلس"(٧٤).

وبحلول خريف ١٩٥٩ كان قد بات من الواضح أن "إدريس" لم يكن الليبى الوحيد الذى ارتفعت آفاق توقعاته السياسية والاقتصادية بسبب الطفرة النفطية. كان العمال المهرة وصغار الضباط وغيرهم من "جماعات النخب الصاعدة"، "مستائين وناقمين لاعتماد ليبيا على الغرب من أجل المعونة"، وكما لاحظ محللو الاستخبارات الأمريكية فى ٢٨ أغسطس، كان "من المرجح أن يصبحوا أكثر ضجرا ونقمة على الأوضاع السياسية مع نمو عائدات ليبيا النفطية"(٧٥). وكما أبلغ "كارل هار – Karl Harr" (من مجلس الأمن القومى) "آيك" وكبار مستشاريه بعد شهرين، كانت ليبيا "أضعف من أن يُعْتَمد عليها سياسيا فهى دولة مصابة بالفقر وتواجه احتمال أن تربكها الثروة"(٧٦).

ولضمان أن يتم الانتقال من العوز إلى الوفرة على نحو سلس قدر الإمكان، طلب "إيزنهاور" مراجعة سياسة الولايات المتحدة إزاء مملكة "السنوسى"؛ وبعد الانتهاء من ذلك فى مارس ١٩٦٠ أكد تقرير لمجلس الأمن القومى "NSC-6004" أن العائدات النفطية الهائلة كان من المرجح أن تحل مشكلات ليبيا المالية الحادة فى وقت

قصير، إلا أنه على المدى الطويل يمكن أن يؤدى تدفق البترودولارات إلى تنشيط التجارة والصناعة وهذا بدوره سوف يحفز على الانتقال إلى المدن.. مما يخلق أرضية خصبة للإثارة السياسية "بين الليبيين المتأثرين بتحريض إذاعة القاهرة. ولتحجيم نمو القومية ذات الصبغة اليسارية، وتدعيم مصالح الولايات المتحدة فى ليبيا، أوصى تقرير مجلس الأمن القومى السابق ذكره بأن تقوم واشنطن بمساعدة "إدريس" لكى يتعهد "تخطيطا عقلانيا موجها توجيها سليما لاستخدام رأس المال المتوفر" وتزويده بمساعدات عسكرية إضافية لكى "يحافظ على الأمن الداخلى". ومقتنعة بأن سقوط أسرة "السنوسى" كان يكفى "لخلق حالة فوضى"، أورثت إدارة "إيزنهاور" إدارة "كينيدى" مجموعة من السياسات التى ربطت الولايات المتحدة تماما بالوضع الليبى القائم(٧٧).

العائدات النفطية التى بدأت فى التدفق على الاقتصاد الليبى فى أوائل عقد الستينيات حفزت على ثورة فى التطلعات وجعلت مقاومة التغيير أمرا أكثر صعوبة بالنسبة لـ"إدريس" وأصدقائه الأمريكيين. "هاريسون سايمز - **Harrison Symmes**" الذى أمضى سنوات "كينيدى" فى سفارة الولايات المتحدة فى طرابلس كتب فى ما بعد: "إلى جانب القومية العربية، أصبح الليبيون مسيسين. الليبيون خارج دائرة الملك الخاصة كان يقلقهم "كيف سيتم استخدام أموال النفط وماذا كان ذلك يعنى بالنسبة لهم"(٧٨)، فإذا لم تكن الطفرة النفطية تعنى مستوى معيشة أفضل وتحديثا سياسيا فلربما انتهى أمر أسرة السنوسى. ويشير محللو المخابرات المركزية فى تقرير لهم فى مارس ١٩٦٢ إلى أن "ليبيا التى يحكمها ملك متهالك طاعن فى السن، "ليبيا الغنية بالنفط والمتاحة جغرافيا كانت هدفا مغريا" للراديكاليين العرب مثل "عبد الناصر"(٧٩)، وإذا كانت الولايات المتحدة تريد أن تمنع العناصر المعادية للغرب من أن تكون لها اليد العليا، فلابد من أن تشجع الليبيين لكى "يسعوا إلى التنمية الاقتصادية المنهجية فى البلاد"(٨٠) كما نصح خبراء الخارجية الأمريكية الرئيس بعد ثلاثة أشهر.

أجندة الإصلاح التى وضعها "فوجى بوتوم" لليبيا لمست وترا إيجابيا فى البيت الأبيض. قلقا بسبب وجود دلائل على أن الطفرة النفطية الليبية قد أدت إلى "إنفاق

سفه" و"كسب غير مشروع" و"فوضى مالية عارمة" ذكر ولى العهد، الأمير "حسن"، الرئيس كينيدى فى أكتوبر ١٩٦٢ بأهمية "تحقيق التقدم والرفاهية" لآل السنوسى ورعاياهم(٨١).

"إدريس" و"حسن" و"محى الدين الفكينى" رئيس الوزراء استمروا فى وضع البترودولارات الليبية فى جيوبهم بينما كانوا يتمنون تمويل تنمية اقتصاد البلاد عن طريق مدفوعات واشنطن نظير استغلال قاعدة "هويلس". لم يرق ذلك لـ"كينيدى" الذى ذكر رئيس الوزراء الليبى فى سبتمبر ١٩٦٣ بأن الملك "إدريس" كان "يسبح فى بحيرة من النفط"، ويصر فى الوقت نفسه على أن "ما تريده ليبيا ليس المال وإنما المعونة الفنية لمعرفة كيف يكون الإنفاق الرشيد للأموال التى تحصل عليها بالفعل ويتم تبديدها"(٨٢).

لم تلق كلمات "كينيدى" آذانا صاغية، وعندما نقل "ليندون چونسون" اهتمامه إلى ليبيا فى سنة ١٩٦٤ كانت الحكمة ما زالت غائبة؛ ومنزعجا بسبب الانتفاضات المعادية للولايات المتحدة فى أفريقيا، قام الرئيس الأمريكى بإرسال "أڤريل هاريمان"، وكيل الخارجية، فى رحلة لتقصى الحقائق فى العام الجديد، وبالرغم من أن الأمور فى جنوب الصحراء لم تكن على ما يرام بالنسبة للمصالح الأمريكية، فإن "هاريمان" كان يعتبر ليبيا "المشكلة الأكثر صعوبة وإلحاحا فى كل الدول التى زارها". كان "عبد الناصر" يصعد من دعايته المضادة للولايات المتحدة "مؤججا روحا عربية ومشاعر عداء ضد إسرائيل"، كما أبلغ "هاريمان" رئيسه فى ٣ أبريل، مما قد يجبر واشنطن على التخلى عن قاعدة "هويلس" سريعا، وربما يؤدى فى النهاية إلى "تعرض الاستثمارات الأمريكية النفطية فى ليبيا للخطر"(٨٣).

عندما زار "هاريمان" ليبيا فى ١٩٦٤، لم يكن لملكة السنوسى أى دور يذكر فى استراتيچية الولايات المتحدة للحرب الباردة مثلما كان الأمر قبل عقد، ولأن الولايات المتحدة كانت قد حولت بؤرة ردعها النووى من القاذفات بعيدة المدى إلى الصواريخ عابرة القارات فى أواخر الخمسينيات، ولم يعد البنتاجون يضع "B-52" فى

قاعدة "هويلس"، وكان يستخدم القاعدة الجوية أساسا لتخزين الوقود وللتدريب فى سنوات إدارة "چونسون"[٨٤]. ومع تضاؤل أهمية ليبيا الاستراتيچية تدريجيا، كانت أهميتها الاقتصادية تزداد بقوة: ففى سنة ١٩٦٥ كانت تصدر ١.٢ مليون برميل من الخام الخالى من الكبريت يوميا إلى أوروبا، ولأن هذه الصادرات لم تكن تمر عبر قناة السويس كانت مملكة "السنوسى" تمثل مصدرا أكثر رخصا يمكن الاعتماد عليه أكثر من السعودية وإيران.

ما دام السنوسى فى السلطة، كانت حصة أمريكا الكبيرة فى صناعة النفط الليبية ومنشآتها العسكرية فى "هويلس" تبدو فى أمان: وبالرغم من الانتفاضات والانتفاضات المعادية لأمريكا من وقت لآخر، كانت مصالح الولايات المتحدة "آمنة فى ظل الحكومة القائمة"، كما كتب السفير "ديڤيد نيوسوم – **David Newsom**" فى تقريره من طرابلس فى ديسمبر ١٩٦٦[٨٦]. دعم واشنطن الدبلوماسى لإسرائيل فى حرب الأيام الستة فى يونيو ١٩٦٧ أشعل موجة جديدة من المظاهرات المعادية لأمريكا فى ليبيا، كلفت الملك البالغ من العمر عتيا (٧٧ سنة) عرشه تقريبا. مستثارين ومدفوعين للعمل نتيجة ادعاءات "عبد الناصر" بأن الطائرات الأمريكية الرابضة فى "هويلس" ساعدت إسرائيل سرا فى غاراتها المدمرة على مصر، كان الراديكاليون الليبيون يوجهون الإهانات للدبلوماسيين الأمريكيين، وزحفوا نحو القاعدة مسلحين بالديناميت وقنابل المولوتوف وأجبروا الملك على وقف تصدير النفط الليبى إلى أوروبا الغربية "فورا"[٨٧].

كان المسئولون الأمريكيون فى شك بأن الملك قد يقدم على تأميم صناعة النفط، ولكنهم كانوا يتوقعون مطالبات جديدة بأن تتخلى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا عن منشآتها العسكرية فى ليبيا. هذه المطالب – كما حذر "وولت روستو" مستشار الأمن القومى "چونسون" فى يونيو ١٩٦٧ – أيقظت التوقع المخيف بأن "يستولى "عبد الناصر" على ليبيا بعد انسحاب القواعد الأمريكية – البريطانية منها"، الأمر الذى "يمكن أن يجعل النفط فى متناول "عبد الناصر". وبالرغم من أن الدبلوماسيين

الأمريكيين كانوا يعملون بكل قوة "لكسب الوقت"، كان "روستو" يؤكد أن "الكثير يتوقف على قدرة الملك على الصمود"[٨٨]. كان كبار المسئولين على جانبى الأطلنطى يعتقدون أن "إدريس" سرعان ما سيفقد أعصابه، وبعد أسبوع كان تقرير للمخابرات المركزية يقول: "إن البريطانيين يشكون بأن الملك سوف يتحرك سريعا قبل تدهور الأمن الداخلى". وكيل الخارجية الأمريكية "إيوچين روستو – Eugene Rostow" الشقيق الأكبر لـ"وولت روستو"، ورجل "فوجى بوتوم" المكلف بملف الشرق الأوسط، لم يكن لديه كذلك أمل كبير فى أن يمارس الملك قيادة حازمة أو أن يستطيع أحد إقناع "عبد الناصر" بترك ليبيا فى حالها"[٨٩].

بفضل عائدات النفط الليبية المرتفعة وكميات المعونة الأمريكية العسكرية المتواضعة، تمكنت إدارة "چونسون" من أن تحافظ على الملك فى السلطة إلى أن انتقل "ريتشارد نيكسون" إلى البيت الأبيض فى يناير ١٩٦٩، ولكن مستشارى "چونسون" كانوا يتوقعون أن تواجه الإدارة الجديدة مشكلات صعبة فى طرابلس عاجلا وليس آجلا، فقبل ترك وزارة الخارجية بوقت قصير كان "إيوچين روستو" يعترف "لقد كنت قلقا بخصوص ليبيا، كما كنت بخصوص إسرائيل طوال تلك الفترة". "روستو" قال لأحد الصحفيين إن "ليبيا غنية جدا، وهناك كميات من النفط تفوق الخيال، ولكنها مجتمع ضعيف، قليل الكثافة السكانية بجوار مصر"، مما يخلق وضعا خطرا فى طرابلس، حيث يمكن أن يؤدى "الضغط الجماهيرى الناصرى" إلى إسقاط الملك "إدريس" ونظامه الموالى للغرب[٩٠].

قبل شروق شمس صباح الأول من سبتمبر ١٩٦٩، أطاحت مجموعة صغيرة من الضباط يقودها العقيد "معمر القذافى" (٢٧ سنة) بأسرة "السنوسى" الواهنة؛ ورغم أن انقلاب "القذافى" الأبيض فاجأ الملك الذى كان يقضى إجازاته هو وبطانته فى بحر إيجة لدرجة الذهول، لم يكن هذا الانقلاب العسكرى مفاجئا لمن خلفوا "إيوچين روستو" فى "فوجى بوتوم". "ديڤيد نيوسوم" الذى كان قد غادر موقعه كسفير للولايات المتحدة فى طرابلس إلى منصب آخر فى الخارجية قبل ثلاثة أشهر فقط من انقلاب القذافى، كان يعتقد أن "الموقف فى ليبيا لم يكن "صحيا" من الناحية

السياسية"، وأبلغ كبار صناع السياسة الأمريكيين بذلك فى صيف ١٩٦٩[٩١]، كما اعترف "چيمس آكنز – James Akins" خبير النفط فى الخارجية الأمريكية بعد ذلك بسنوات بأن "من المؤكد أن نظام "إدريس" كان واحدا من أكثر الأنظمة فسادا فى المنطقة... وربما فى العالم، فقد سقط بسهولة مدهشة ولم تكن هناك أى مقاومة تقريبا"[٩٢]؛ ومن الواضح أن المخابرات المركزية أكدت هذا التقييم برصدها لنشاط "القذافى" والذين معه عشية الانقلاب[٩٣]. إدارة "نيكسون" لم تساعد "إدريس" لكى ينقذ عرشه، وفى يوليو ١٩٧٠ قال "ديڤيد نيوسوم" أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ إنه "برغم العلاقات الوثيقة بين الولايات المتحدة والعرش الليبى لم يكن التدخل مطروحا من جانب الولايات المتحدة عندما وقع الانقلاب فى سپتمبر ١٩٦٩"[٩٤].

بالرغم من ذلك، كان صناع السياسة الأمريكيون قلقين جدا بسبب متضمنات ثورة "القذافى" التى كانت تجمع بين عناصر الوطنية الليبية والاشتراكية العربية والإحياء الإسلامى. ابنا حقيقيا للصحراء، انضم والده إلى حملة "عمر المختار" الوطنية ضد الإيطاليين قبل جيل، كان "القذافى" كذلك مسلما مخلصا يعتقد أن نهضة الشعوب العربية لن تتحقق سوى من خلال رفض الغرب والعودة إلى أسس الإسلام، وبالرغم من أن "القذافى" كان فى شبابه معروفا عنه أنه ناصرى، فإن هزيمة مصر الساحقة فى حرب الأيام الستة فى ١٩٦٧ جعلته يعتقد أن المأزق العربى كان ناجما، على الأقل فى جزء منه، عن تركيز "عبد الناصر" على الإصلاح العلمانى وإهماله للتراث الدينى، ولأن المهيج الليبى الشاب كان يرى نفسه أكثر صلاحية لقيادة الأمة العربية من جاره المصرى، وحيث إن الإسلام يبدو غير متفق مع الشيوعية كان كثير من المراقبين فى واشنطن يأملون فى أن يحتفظ النظام الجديد فى طرابلس بمسافة عن القاهرة وموسكو[٩٥].

سرعان ما اتضح أن القومية الثورية على الطراز الليبى خطرة على المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط مثل الطراز المصرى، إذ لم يضيع "القذافى" وقتا طويلا

قبل أن يشير إلى أن على الولايات المتحدة وبريطانيا التخلى عن منشآتهما العسكرية فى ليبيا بأسرع وقت ممكن، معلنا أمام حشد جماهيرى فى ١٦ أكتوبر ١٩٦٩ "نحن لا نقبل قواعد ولا أجانب ولا استعمار ولا تدخلا وسوف نحرر أراضينا.. أيا كان الثمن"(٩٦). مقتنعين بأن أى صراع طويل من أجل الاحتفاظ بالتسهيلات العسكرية البريطانية فى طبرق من شأنه أن يشكل خطرا على وصول بريطانيا إلى النفط الليبى، عقد "وايت هول" صفقة سريعة لتسليم قاعدتهم لـ"القذافى" فى ٢٨ مارس ١٩٧٠؛ وأملا فى ألا يحدث احتكاك بين طرابلس وواشنطن، سارت إدارة "نيكسون" على نفس الدرب بعد عشرة أسابيع وقامت بإخلاء قاعدة "هويلس" فى ١١ يونيو، أى قبل ثمانية عشر شهرا من الموعد الذى كان "إيزنهاور" و"إدريس" قد اتفقا عليه قبل عام(٩٧).

اتضح بعد ذلك أن استعادة السيطرة على قاعدتى "طبرق" و"هويلس" لم تكن سوى القذائف التمهيدية فى حملة "القذافى" لتحويل دور ليبيا فى العالم؛ وبالرغم من أن واشنطن كانت تتوقع مشاكل أكثر من "النظام القومى العربى المناضل" فى طرابلس، كان كبار المسئولين الأمريكيين فى صيف ١٩٧٠ يعتقدون أن "الطبيعة الدينية الإسلامية" للثورة الليبية من شأنها أن تحول دون زحف "الكرملين" على ليبيا"(٩٨)، إلا أن ليبيا فى أواخر يوليو "بدأ تتلقى كميات كبيرة من الدبابات وغيرها من المعدات البرية من الاتحاد السوڤيتى" مما أثار قلق "ريتشارد نيكسون" و"وليم روچرز" وزير خارجيته(٩٩)، وبعد شهرين جاءت أخبار أسوأ عندما استهدف "القذافى" شركات النفط الأمريكية العاملة فى ليبيا ليدخل فى "لعبة شد حبل" حول الإنتاج والأسعار والأرباح، ثم أطلق رصاصة الرحمة فى ١ سبتمبر ١٩٧٣ (فى الذكرى الرابعة لانقلابه)، بإلغاء كل عقود الامتياز الأجنبية وتأميم كل صناعة النفط الليبية(١٠٠).

كان الأكثر إزعاجا من مصادرة القذافى لحصة أمريكا فى النفط الليبى التى تقدر بـ١,٥ بليون دولار، تعهده باستخدام البترودولارات فى تمويل الصحوة الإسلامية لإضعاف النفوذ الغربى فى الشرق الأوسط؛ وفى أبريل ١٩٧٣ أصدر

"الكتاب الأخضر" بأجزائه الثلاثة، الذى يلخص فيه مشروعه لـ"ثورة ثقافية" إسلامية. معظم أيديولوچية القذافى - نقده للاستعمار وتركيزه على الاشتراكية العربية ودعوته للديمقراطية المباشرة - كان مألوفا لصناع السياسة الأمريكيين، الذين كانوا يصارعون من أجل احتواء القومية الثورية فى العالم الإسلامى على مدى عقدين. كان الأبرز فى الكتاب الأخضر هو "النظرية العالمية الثالثة" التى كانت تزعم أنه بالعودة إلى أصول الإسلام سوف يتمكن الشعب الليبى من قيادة المسلمين فى كل مكان على "طريق ثالث" نحو التقدم الاقتصادى والتغيير السياسى الذى يرفض كلا من الرأسمالية والشيوعية[١٠١]. وبحلول أواخر السبعينيات، كان "القذافى" قد بدأ فى وضع النظرية فى مجال التطبيق وطرد الإيطاليين المقيمين وغيرهم من غير المسلمين من ليبيا وشن حرب تحرير إسلامية فى تشاد المجاورة وحول العالم تقريبا فى الفيلبين وراح يمول الإرهاب الفلسطينى[١٠٢].

عندما دخل "چيمى كارتر" المكتب البيضوى، كان الكثيرون من صناع السياسة الأمريكية يعتبرون "القذافى"، الذى لا يمكن التنبؤ بأفعاله، هو العدو رقم واحد؛ وفى ١٩٧٧ ضمت الخارجية الأمريكية ليبيا إلى جانب كوبا وكوريا الشمالية على قائمتها المختصرة للدول المارقة المتهمة بدعم الإرهاب العالمى؛ وبعد عامين اقتحم الثوار الإسلاميون المؤيدون لثورة الخمينى السفارة الأمريكية فى طرابلس وأحرقوها، وبنهاية فترة إدارة "كارتر" كان القلق الشديد يساور كبار المسئولين الأمريكيين "بشأن المتاعب الخارجية المتوقعة التى قد تسببها عائدات نفط القذافى"، كما قال "أنتونى ليك - An-thony Lake" مدير التخطيط فى الخارجية الأمريكية بعد ذلك، مضيفا "... ودعمه للإسلاميين خارج بلاده". فى ٢ مايو، سيقطع "كارتر" العلاقات السياسية مع نظام "القذافى" معدا المسرح بذلك لسلسلة من المناوشات العسكرية الخطرة أثناء إدارة "ريجان"[١٠٣].

وبعد عقد ونصف العقد فقط من محاولات "إيزنهاور" و"كينيدى" لتحويل مملكة "السنوسى" من أرض صحراوية يباب وممزقة إلى دولة مزدهرة موالية للغرب، انهار

الإصلاح السلمى فى ليبيا ليتحول إلى ثورة عنيفة معادية للغرب؛ ولأنهم منذ أمد بعيد كانوا مقتنعين بأن الراديكاليين العلمانيين مثل "عبد الناصر" و"عبد الكريم قاسم" كانوا يمثلون أخطر تهديد للمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط، لم يكن صناع السياسة الأمريكية على استعداد للتماشى مع إسلام "القذافى" الثورى. محاولة واشنطن الفاشلة لفصل الدين عن السياسة فى ليبيا بعد ١٩٦٩، كانت نذيرا بمواجهة أكثر تفجرا مع التطرف الإسلامى فى إيران بعد عشر سنوات.

• الإصلاح من أعلى: الشاه وثورة إيران البيضاء

لم تضغط الولايات المتحدة بقوة من أجل الإصلاح والتحديث فى أى مكان فى الشرق الأوسط بعد ١٩٤٥ كما كانت تضغط فى إيران، كما لم تفشل فشلا ذريعا فى ذلك مثلما فشلت هناك. أراض جبلية أكبر قليلا من ألاسكا تحتوى على احتياطيات نفطية هائلة، وموقع حاكم على امتداد الساحل الشمالى للخليج الفارسى، جذبت إيران التوسعيين البريطانيين والروس منذ القرن التاسع عشر. ومصمما على السيطرة على امتيازات النفط الحصرية التى حصلت عليها الشركات البريطانية من أسرة قاچار فى ١٩٠٢، قام "وايت هول" ببناء مصفاة تكرير ضخمة فى "عبدان"، وهى مدينة مزدهرة على الجانب الإيرانى من شط العرب. محبطا، نتيجة عشرين عاما من الإمبراطورية البريطانية غير الرسمية فى طهران، قام ضابط الخيالة الأمى "رضا خان" بانقلاب على أسرة "قاچار" فى ١٩٢١ وبعد أربع سنوات أعلن نفسه "رضا شاه بهلوى"، ولكى يوازن النفوذ القوى لبريطانيا العظمى وقع الحاكم الإيرانى الجديد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوڤيتى الذى كان متلهفا على الحصول على ميناء بحرى دافئ على الخليج الفارسى، وفى أواخر الثلاثينيات انحرف "رضا شاه" يمينا وتبنى "تركيبة" من التفوق الآرى ومعاداة الشيوعية، التى كان أول ظهور لها فى ألمانيا النازية[١٠٤].

وبحلول صيف ١٩٤١ كان المعجبون بـ"رضا شاه" قليلين سواء فى موسكو، حيث كان "ستالين" قلقا من غزل طهران مع برلين الذى قد يساعد النازية فى الالتفاف

حول حد روسيا الجنوبي، أو في لندن حيث كان "تشرشل" يخشى أن يساعد الألمان نظام "بهلوي" فيقوم بتأميم شركة النفط الإنجليزية الإيرانية "AIOC". في ٢٥ أغسطس احتلت القوات البريطانية والروسية إيران وأسقطت الشاه "المزعج" ووضعت مكانه ابنه "محمد رضا بهلوي" (٢١ سنة)، ولمنع هذه القوة "الأنجلو سوفيتية" من المقايضة على استقلال إيران، وحرصا على السلامة الإقليمية ساعدت الولايات المتحدة الشاه الشاب لتثبيت أوضاعه في طهران وصممت على أن توافق بريطانيا وروسيا على الانسحاب من إيران بعد الحرب العالمية الثانية. "وايت هول" نفذ تعهده ولكن الكرملين لم يفعل، وبقي الجيش الأحمر في شمال إيران حتى شهر مايو ١٩٤٦[١٠٥].

وبالرغم من القلق الشديد في طهران بشأن الخطر السوفيتي، كان كبار صناع السياسة الأمريكية يعتقدون أن التحديات الأكبر أمام إيران في أواخر الأربعينيات كانت هي التحديث الاقتصادي والإصلاح الزراعي. وبالرغم من الثراء الكبير لبلادهم كان معظم رعايا الشاه (٢٠ مليونا) من المزارعين الفقراء الذين كان مصيرهم في يد نخبة صغيرة من ملاك الأراضي الذين يسيطرون على "المجلس" (البرلمان)، وعندما قام الشاه بزيارة لواشنطن في خريف ١٩٤٩ في محاولة للحصول على زيادة كبيرة في المعونة العسكرية، أكد "دين أتشسون" وزير الخارجية "الضرورة الملحة لإعطاء الأولوية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية"، مشيرا إلى أن قيام الولايات المتحدة بتسليح "شيانج كاي شيك – Chiang Kai-Shek" لم يمنع "ماوتسي تونج" من الاستيلاء على السلطة في بكين قبل أسابيع قليلة. دون تحديث سياسي وتنمية اقتصادية، كما حذرت رئاسة الأركان المشتركة بعد ستة أشهر، سوف تظل إيران بمثابة "صين أولية"[١٠٦].

وبينما كانت قدم إدارة "ترومان" قد زلت نحو حرب غير معلنة مع الصين الحقيقية في ثلوج كوريا في أواخر ١٩٥٠، كان خصوم الشاه يتدفقون إلى الجبهة الوطنية، ذلك التحالف العريض الذي كان ينادي بالإصلاح الاجتماعي الذي يمكن تمويله من عائدات النفط نتيجة نزع ملكية شركة النفط الإنجليزية – الإيرانية

"AIOC". وفى أوائل العام الجديد قتل راديكاليون معادون للغرب رئيس الوزراء "على رازمارا" الذى كان يعارض تأميم شركة النفط البريطانية الضخمة، وكما توصل الخبراء بشئون الشرق الأوسط فى البيت الأبيض فى ١٤ مارس ١٩٥١ كان "الإحباط واليأس يهددان الاستقرار الداخلى للبلاد على نحو خطير" وإن لم تتمكن واشنطن من أن تجد أسلوبا "لتدعيم الإصلاح الاجتماعى والتوسع الاقتصادى" فقد يتمكن الثوار المرتبطون بموسكو من إسقاط نظام بهلوى[١٠٧].

كان لدى المسئولين الأمريكيين شكوك كثيرة فى "محمد مصدق" الزعيم الزئبقى للجبهة الوطنية، الذى عينه الشاه - على مضض - رئيسا للوزراء فى أبريل ١٩٥١؛ وبالرغم من أنه كان ينتمى إلى أصول إقطاعية غنية فى إيران، فإن مصدق (٦٩سنة) كان عضوا فى المجلس لمدة طويلة عُرِفَ خلالها بدعمه للإصلاح الزراعى ومعارضة المصالح النفطية الأجنبية، وبعد أن رفضت شركة النفط الإنجليزية الإيرانية إعادة النظر فى عقد الامتياز الخاص بها، كتب مصدق مشروع قرار تأميم مرره المجلس بالإجماع فى ١٥ مارس ١٩٥١، ومتجاهلا اعتراضات الشاه تحرك بسرعة لنزع ملكية "AIOC" محفزا بذلك "وايت هول" على تنظيم حظر دولى على النفط الإيرانى، وفى نهاية العام كانت هناك دراسة للبيت الأبيض تؤكد أن تأميم شركة النفط الإنجليزية الإيرانية "قَوَّى الرغبة فى الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى المنشود، وزاد من القلق الاجتماعى"؛ و"بانتزاع المبادرة السياسية من الشاه وملاك الأراضى وغيرهم من المتنفذين التقليديين"، ومد يده إلى حزب "توده" ذى التوجهات اليسارية أطلق "مصدق" عنان القوى الثورية الكامنة بما يؤكد أن إيران يمكن أن "تبتعد تماما عن العالم الحر"[١٠٨].

وعندما وجه "دوايت إيزنهاور" اهتمامه نحو إيران فى مطلع ١٩٥٣، كان معظم صناع السياسة الأمريكية يشعرون بضرورة القيام بعمل حاسم وفعال لإنقاذ عرش الشاه، وعندما دخلت أزمة النفط الإيرانية عامها الثالث حذرت المخابرات المركزية الرئيس الأمريكى بأن "انقلابا شيوعيا قد بات أكثر فأكثر احتمالا" وأن إيران إذا

استسلمت للشيوعيين"، كما قال "آلن دالاس" مدير المخابرات المركزية لـ"إيزنهاور" فى ٤ مارس ١٩٥٣، "فلن يكون هناك مجال كبير للشك فى وقوع مناطق الشرق الأوسط الأخرى بما فيها من احتياطى (٦٠٪ من النفط العالمى) تحت سيطرة الشيوعيين"(١٠٩)؛ وفى أوائل يونيو زادت الأزمة عمقا عندما وقع "مصدق" - الذى كانت خزانته خاوية تماما تقريبا بسبب الحظر الغربى على النفط - اتفاقا تجاريا مع الاتحاد السوفيتى. بعد شهرين، كانت هناك شائعات قوية بأن "مصدق"، بمساعدة حزب "توده"، سوف يجبر الشاه على التخلى عن العرش تاركا ذلك الوطنى السبعينى وأنصاره من اليساريين" يسيطرون تماما على طهران، وفى أواخر يوليو كان مسئولو السفارة الأمريكية يحذرون واشنطن "إذا استمرت التوجهات الحالية فترة من الوقت وكانت كل خطوة يتخذها "مصدق" تزيد اعتماده على حزب "توده" تدريجيا فإن النتائج معروفة"(١١٠)؛ وبدعم سرى من الولايات المتحدة، قام الجيش الإيرانى بانقلاب موال للغرب فى ١٩ أغسطس ١٩٥٣، وألقى الجنرال "فضل الله زاهدى" ورفاقه من الضباط الموالين لأسرة "بهلوى" القبض على "مصدق"، واستعادوا للشاه كل سلطاته، وغيروا بوصلة إيران السياسية، فجأة، من اليسار إلى اليمين(١١١).

بعد أن ساعدت إدارة "إيزنهاور" فى إطاحة "مصدق" بهدف بتر مد القومية الثورية فى إيران، كان القلق ما زال يساور المسئولين الأمريكيين بأن تكون سياسات الشاه الرجعية إرهاصا بالمزيد من الفوران، وبالرغم من أن "زاهدى"، رئيس الوزراء، كان قد "وضع عددا كبيرا من قيادات "توده" فى السجن، فإنه "لم يقدم سوى القليل إن لم يكن قد قدم شيئا على الإطلاق، فى مجال الإصلاحات الاقتصادية"(١١٢)، كما كان "آلن دالاس" يحذر الرئيس الأمريكى فى ٣٠ ديسمبر ١٩٥٣. مساعدات موسكو السخية لمصر وسوريا وتحرشاتها المستمرة بإيران والدول الإسلامية الموالية للغرب، جعلت من الصعب على واشنطن فى منتصف الخمسينيات أن تصر على أن يقوم الشاه بإعادة تخصيص موارده وتحويلها من الدفاع الوطنى إلى الإصلاح الاقتصادى. بالرغم من ذلك كان كثيرون فى واشنطن يعتبرون استيلاء "قاسم" على السلطة فى بغداد فى يوليو ١٩٥٨ تمهيدا لما هو قادم فى طهران المجاورة. فى

٢١ أغسطس ١٩٥٨ أبلغ "دالاس" رئيسه: "ما زلنا غير متفائلين بخصوص مستقبل الشاه، إلا إذا اقتنع بتعهد بعض الإصلاحات الجذرية" وبأن "المشكلة تشبه إلى حد بعيد ما حدث من قبل فى العراق وينبغى أن نقنع الشاه بأن يقوم بإصلاحات بينما ما زال هناك وقت"(١١٣).

وبالرغم من قدرة "إيزنهاور" على الإقناع، لم يحقق هو وإدارته سوى القليل لأجندتهم الإصلاحية فى طهران خلال العامين الأخيرين له فى الإدارة، فبعد أن نجحت الخارجية فى انتزاع صفقة قيمتها ١٢٥ مليون دولار مسحوبة من معونة التنمية الأمريكية والبنك الدولى لتحفيز التنمية الاقتصادية الإيرانية فى أواخر ١٩٥٨ مثلا، رد الشاه بطلب جديد للمزيد من المعونة العسكرية الأمريكية لمواجهة الخطر الذى تمثله العراق الذى كما زعم "كان يكاد أن يصبح قاعدة لنشاط حزب "توده" شيوعى جديد موجه ضد النظام فى طهران"(١١٤). بسبب تركيزه على الأخطار الخارجية وتجاهله للمشكلات الداخلية، وجدت أجهزة الاستخبارات الأمريكية أن "من غير المحتمل أن يقوم الشاه بمثل برنامج هذا الإصلاح الأساسى بما يفى بالمطالب العامة ويوسع دائرة مؤيديه بما يضمن استقرار نظامه"(١١٥)؛ والحقيقة أن "إيزنهاور" قد تحدث طويلا مع الشاه فى موضوع الإصلاح الزراعى" أثناء زيارته لطهران فى ديسمبر ١٩٥٩، مطلقا الأمل بأن نظام "بهلوى" سوف "يتخذ إجراءات بالغة الأهمية قريبا سيكون لها تأثير كبير على هذه المشكلة"(١١٦)، ولكن قانون الإصلاح الزراعى الذى دفعه الشاه من خلال المجلس فى أوائل ١٩٦٠، كان قليلا جدا بالنسبة للفلاحين وكثيرا جدا بالنسبة لأصحاب الأراضى؛ وفى ٧ أبريل أبلغت المخابرات المركزية "آيك" بأن "إجراءات الشاه الإصلاحية قد استبعدت مجموعات جديدة من الشعب دون أن تستميل أى جماعات من المعارضة إلى جانبه"(١١٧).

بعد فترة قصيرة أصدر "إيزنهاور" توجيهاته إلى مجلس الأمن القومى للقيام بعملية إعادة تقييم شاملة لسياسة الولايات المتحدة تجاه إيران، وكانت المحصلة النهائية تقريرا غير مريح يحمل رقم "NSC-6010"، خلص إلى أنه "بدون إصلاح

داخلى فمن المرجح أن يسقط النظام الملكى". كان تشخيص العلة الإيرانية واضحا: "السخط الحالى يقوم فى جزء منه على ارتفاع أفق التوقعات لدى الشعب بإصلاح البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وخيبة الأمل فى جهود الشاه المحدودة حتى الآن للتحرك فى هذا الاتجاه بسرعة وتصميم": كما وصف التقرير بعض الخيارات لتناول هذه العلل، "بالرغم من ضعف نظام الشاه، فإن غياب أى بديل بناء وموال للغرب الآن يجعل مساعدة الولايات المتحدة للنظام هى الأمل الأفضل لتعزيز مصالح الولايات المتحدة فى إيران"، وعن طريق الإسراع بالتنمية الاقتصادية فى إيران وتقوية جهاز الأمن الداخلى للشاه فحسب، تستطيع الولايات المتحدة أن تأمل فى السيطرة على ثورة التوقعات الصاعدة فى طهران وتستغل الوقت من أجل الإصلاح السلمى(١١٨).

سيعتمد "إيزنهاور" هذا التقرير "NSC-6010"، على مضض، فى أوائل يوليو. وهو يشكو من أن "كل مساعداتنا لا تفعل سوى أن تحافظ على الطبقة الحاكمة فى كثير من الدول. وتوسيع الفوارق الهائلة بين الأغنياء والفقراء"، كان "آيك" يتساءل "كيف يمكن أن نواصل دعم حكومات لا تستطيع أن تقوم بالإصلاح الزراعى أو تضع أى برامج بناءة لتحسين الأوضاع؟"، وبالرغم من ذلك فإن سحب المعونات الأمريكية من الأنظمة الاستبدادية الموالية للغرب كان مخاطرة بخلق وضع "نقف فيه موقف المتفرج بينما موجة الثورة تجتاح العالم"، وبالرغم من أن الشاه كان "بطيئا فى القيام بالإصلاحات الضرورية فى بلاده"، فإن "إيزنهاور" ترك الدولارات تتدفق، وترك "جون كينيدى" للتعامل مع الورطة الإيرانية فى يناير ١٩٦١(١١٩).

حشد "جون ف. كينيدى" فى إدارته مجموعة من أدعياء الثقافة الذين جعلهم انبهارهم بنظرية التحديث يتصورون أن الرئيس الجديد لن يقف مكتوف اليدين بينما مد القومية الثورى يجرف الشاه فى طريقه، فبعد أربعة أشهر فقط من دخوله البيت الأبيض، شكل "كينيدى" مجموعة عمل خاصة لتقييم الأصول المتردية فى طهران حيث كانت موجة جديدة من الفوضى تواصل إضعاف سلطة أسرة "بهلوى" على نحو سريع؛ وبهدف تقليل فرص الصراع الداخلى الذى قد يؤدى إلى الفوضى أو انقلابات

يمينية أو يسارية أو تخريب يديره السوفيت"، أوصت مجموعة العمل بمضاعفة جهود الولايات المتحدة لتقوية التنمية الاقتصادية والإصلاح الاجتماعى فى إيران(١٢٠). كانت الخطوة الأولى هى أن يتم إقناع الشاه بتعيين "على أمينى"، وهو واحد من التكنوقراط الموالين للغرب ذو سمعة طيبة "كإصلاحى قوى"، رئيسا للوزراء فى أواخر مايو؛ "وإذا نجح فى تحفيز عملية الإصلاح وإعادة توزيع الأراضى والقضاء على الفساد"، كما كان "فيليبس تالبوت – **Phillips Talbot**" وزير الخارجية الأمريكى يتوقع "فسوف تكون هناك حكومة أقوى ذات شعبية أوسع فى إيران"(١٢١).

ولكن الشاه كان له تحفظات مهمة على مسودة التغيير المقترحة من "أمينى" ورعاته الأمريكيين، فالإصلاح الزراعى المؤثر مثلا سوف يتطلب تجزئة ملكيات كبيرة كانت فى أيدى كبار مؤيدى نظام "بهلوى"، وتحفيز التنمية الاقتصادية سوف يعنى ضغط موازنة الشاه العسكرية، فى وقت كان يعتقد فيه أن إيران على وشك أن تصبح قوة مهيمنة فى الخليج الفارسى(١٢٢). چون "كينيدى" أثار المسألتين مع الشاه نفسه مباشرة فى اجتماع لهما فى المكتب البيضوى فى أبريل ١٩٦٢. مثمنا جهود "أمينى" لتحفيز التنمية الاقتصادية والتغيير الاجتماعى، كان "كينيدى" مصمما على أن "المشكلة الرئيسية فى إيران داخلية" وأنه "ليست هناك حاجة لجيش إيرانى كبير". أما الشاه الذى أشار إلى أن واشنطن كانت قد وافقت مؤخرا على معونة عسكرية ضخمة لحلفائها فى حلف شمال الأطلنطى فى أنقرة، فراح يشكو من أن "أمريكا تعامل تركيا كزوجة بينما تعامل إيران كمحظية". "كينيدى" الذى كان ذوقه فى المحظيات مختلفا، رد بأن الولايات المتحدة كانت على استعداد لحماية إيران من أى عدوان خارجى شريطة ألا يقف الشاه فى طريق التحديث أو الإصلاح الداخلى(١٢٣).

وهو ما زال مغتاظا من توجه "كينيدى" بالوصاية، عاد "محمد رضا بهلوى" إلى بلاده ليصطدم مرارا بـ"أمينى"؛ ومعتبرا انحياز رئيس وزرائه إلى الإصلاح الزراعى على حساب الدفاع القومى أمرا موحى به من الأمريكيين، أجبر الشاه رئيس وزرائه على الاستقالة فى ١٨ يوليو ١٩٦٢ ليعين بدلا منه "أسد الله علم" الذى كان صديقا حميما له لفترة طويلة(١٢٤).

مصرا على تجنب العودة للجدال كالعادة، أرسل البيت الأبيض "ليندون جونسون" نائب الرئيس إلى طهران بعد ذلك فى الصيف نفسه فى محاولة "لتوجيه الشاه حسب رغبتنا فى أن يواصل السير فى اتجاه التنمية الداخلية والإصلاح"(١٢٥)؛ وفى ٢٤ أغسطس قام "جونسون" بإبلاغ الشاه بأن إدارة "كينيدى" كانت مقتنعة بأن: "قوة ورفاهة واستقلال إيران سوف تتحقق بفضل النهضة فى ميادين الرفاهة الاقتصادية للناس والعدالة الاجتماعية"، وبأن الشاه إذا كان يريد الحصول على المزيد من "المساعدات المادية والمعنوية" فلابد من أن يتبنى أجندة الإصلاح الأمريكية(١٢٦).

بعد تفكير فى رسالة واشنطن استغرق عدة أشهر، كشف الشاه فى يناير ١٩٦٣ عن برنامج طموح للإصلاح الاجتماعى والتحديث الاقتصادى، وبصرف النظر عن السماح لضغوط التغيير بأن تفور من القاعدة كما كان يحدث فى حقبة "أمينى"، اقترح بدلا من ذلك "ثورة بيضاء" من أعلى إلى أسفل تكون تحت سيطرة محكمة، تستهدف تحويل المجتمع الإيرانى دون انتقاص من سلطاته ونفوذه. مستريحة لأنها تمكنت فى النهاية من "وضع الشاه على باب" القيام بثورة بيضاء بدلا من ثورة حمراء. بدأت إدارة "كينيدى" تطوير "استراتيچية شاملة لتحريك إيران بعد ذلك نحو حلول أكثر فعالية لمشكلاتها الداخلية الأكثر إلحاحا(١٢٧)؛ وفى ٢٠ أبريل سلم "دين راسك" وزير الخارجية تقريرين للرئيس "كينيدى" يلخصان أسلوبا أمريكيا ذا شقين: الأول: أن «الولايات المتحدة لابد من أن تستمر فى تشجيع الشاه فى "ثورته البيضاء" على مسار سريع بما يكفى للاحتفاظ بتأييد الطبقات الدنيا للنظام، ولكن بطيئا بما يكفى لتجنب الانهيار الاجتماعى و/أو الاقتصادى». ثانيا: لابد من أن يعمل خبراء الولايات المتحدة مع الإيرانيين «لتحسين قدرة الإيرانيين على الانقضاض المضاد وكذلك قدرات قوات الشرطة فى المدن والقرى». بتبنى مثل هذه الاستراتيچية لابد من أن تصبح الولايات المتحدة قادرة على الإبقاء على إيران "متحررة من أى نفوذ أجنبى وذات حكم مستقر موال للغرب واقتصاد قادر على الاعتماد على نفسه"(١٢٨).

ولكن المراقبين للشأن الإيرانى فى عهد "كينيدى" كانوا يبدون حذرا شديدا؛ فبالرغم من أن الولايات المتحدة كانت مرتبطة تماما بالنظام وببرنامج الإصلاح هناك،

كان على صناع السياسة الأمريكية أن يكونوا واعين "بمزالق التورط المباشر" فى تطبيق الإصلاح الزراعى وغيره من الجوانب الشائكة فى برنامج الشاه". كان لابد من أن تفهم الولايات المتحدة أن "تلك ثورة إيرانية سوف تدور بإيقاع فارسى وتتمخض عن نتائج فارسية" وأن "مثل أى ثورة، فإن تلك الأحداث سوف تأتى معها بمشكلات كبرى، ربما قد نساعد الإيرانيين على حلها أو مواجهتها ولكننا لن نستطيع أن نحلها بأنفسنا". خبراء شئون الشرق الأوسط فى إدارة كينيدى قدموا نبوءة سوف يتردد صداها فى شوارع طهران بعد خمسة عشر عاما. "نجاح برنامج الشاه على المدى البعيد ربما يعتمد على مدى اعتباره جهدا ذاتيا"؛ وباختصار فإن البيت الأبيض عليه أن يتذكر أن أعظم مسئولية لدى الشاه ستكون قدرته على مواجهة التحديات من كل من العناصر الرجعية والمعارضة الراديكالية واتهامه بأنه ألعوبة فى يد الأجانب"[١٢٩].

فى ٣ يونيو ١٩٦٣ خرج الإمام "آية الله روح الله الخمينى" رجل الدين البالغ من العمر ٦٤ عاما، صاحب العيون العميقة المتقدة واللحية البيضاء الكثة، من مسجده فى مدينة "قم" المقدسة ليندد بالجالس على عرش الطاووس باعتباره ألعوبة أمريكية. كان الإمام فى قمة الغضب بسبب وصف الشاه مؤخرا لرجال الدين فى إيران بأنهم عناصر "طفيلية للرجعية السوداء"، التقدم عندهم قرين الكفر، فطرح سؤالا بسيطا لم تكن هناك إجابة بسيطة عنه وهو "ماذا تعنى بالثورة البيضاء؟".

ناعتا مثل تلك المبادرات المدعومة من أمريكا بأنها تعاليم علمانية، وحقوق المرأة والإصلاح الزراعى بأنها تحد للتراث الإسلامى، سرعان ما أصبح "آية الله الخمينى" - المجهول نسبيا - الرمز القيادى للمعارضة لأسرة "بهلوى" بالنسبة للطلاب الثائرين وعمال النفط وأصحاب المتاجر الذين خرجوا إلى الشوارع فى مدن إيران الرئيسية. وبمساعدة الدبلوماسيين الأمريكيين أمر الشاه بانقضاض وحشى، خلَّف ما يقرب من ألف قتيل، ثم وضع "الخمينى" ومجموعة من رجال الدين تحت الإقامة الجبرية فى منازلهم[١٣٠]. أما "الخمينى" الذى لم يرعبه ذلك فاستمر فى حملاته الإسلامية بعد ستة عشر شهرا، "أنا لا أعرف أين هذه الثورة البيضاء التى يثيرون كل هذه الضجة

حولها"، هكذا كان "الخمينى" يزمجر فى ١٩٦٤ ولكن يبدو أن أجهزة الشاه القمعية كانت قد "خفضت الشعب الإيرانى إلى مستوى أقل من أن يكون كلبا أمريكيا"؛ ومصمما على أن يخلص نفسه من آية الله البرم هذا بأسرع ما يمكن، سيطرده الشاه قبل نهاية العام إلى المنفى.. إلى تركيا أولا ثم إلى العراق(١٣١).

نتيجة القراءة الخطأ لتحرك "الخمينى" شجعت إدارة "كينيدى" ومن جاؤوا بعدها الشاه على المضى فى ثورته البيضاء. مستنكرا الفوضى الأخيرة باعتبارها نتيجة "سخط ديماجوجى" سيزول تدريجيا بفعل برنامج منظم للإصلاح الزراعى وحقوق المرأة فى التصويت والتعليم العام، أخبر "فيليبس تالبوت – Phillips Talbot" (الخبير بالخارجية الأمريكية) لجنة من الكونجرس فى ١٧ يوليو ١٩٦٣ بأن مبادرات الشاه "تمثل ثورة سلمية بالفعل"(١٣٢). ولأنه كان مهموما على نحو متزايد بسبب الأوضاع المتردية فى ڤيتنام، التى ورثها عن إدارة "كينيدى"، كان "ليندون چونسون" قد أصبح بحلول صيف ١٩٦٤ يعتبر ثورة الشاه البيضاء إحدى النقاط القليلة المضيئة فى سياسة الولايات المتحدة الخارجية؛ حيث قال لأحد زائريه فى ١٦ يونيو إن "ما يحدث فى إيران هو تقريبا أفضل ما يحدث فى أى مكان فى العالم"(١٣٣)؛ وبعد عامين كان "آرمن ماير – Armin Meyer" سفير "چونسون" لدى طهران يؤكد أن الشاه "كان يجعل من طهران واجهة عرض للتحديث فى هذه البقعة من العالم"(١٣٤)، وما حدث هو أنه بنهاية عام ١٩٦٨ كانت إدارة "چونسون" تعتقد أن النمو الاقتصادى السريع فى إيران، المصحوب بالإصلاح الاجتماعى، كان قد زود الشاه بأساس قوى فى سعيه لأن يخلف بريطانيا العظمى لتكون بلاده العمود الرئيسى للاستقرار الموالى للغرب فى الخليج الفارسى.

• "همتى دمتى" يلتقى آية الله: الثورة الإيرانية

كان "ريتشارد نيكسون" الذى عرف الشاه وكان معجبا به أيما إعجاب منذ سنوات إدارة "إيزنهاور" يتمنى أن يصبح نظام "بهلوى" شريكا لأمريكا فى الشرق الأوسط. دعم العاهل الإيرانى المباشر لسياسة الولايات المتحدة فى جنوب شرق آسيا

ورفضه الصلب لمجاراة العرب فى حظر صادرات النفط إلى الولايات المتحدة كان يعكس مستوى الوفاء الشخصى الذى كان "نيكسون" يطلبه ونادرا ما يتلقاه. وبحسب "وليم سافير – William Safire" كاتب أحاديث "نيكسون" ومحل ثقته أحيانا، "كان الشاه تقريبا قد أصبح رجل الدولة المفضل لدى الرئيس فى العالم" فى أوائل السبعينيات؛ ومثل رئيسه فى المكتب البيضوى، كان "هنرى كيسنجر" يعتبر الشاه "عمود الاستقرار فى منطقة مضطربة تموج بالحيوية" وكان يراه "إصلاحيا مخلصا" برغم كل شىء؛ فالثورة البيضاء حققت، كما قال "كيسنجر" فى ١٩٧٩، إنجازات ممتازة فى مجالات مثل إعادة توزيع الأراضى وحقوق المرأة، فى الوقت الذى أثمرت فيه ازدهارا اقتصاديا شهد معدلات نمو سنوية تصل إلى ١٠٪، ولكن "الشاه لم يكن بعيد النظر بما يكفى لإقامة مؤسسات سياسية جديدة أو خلق ولاءات جديدة تحافظ على الاستقرار السياسى"[١٣٦].

وبالرغم من أن "كيسنجر" كان يكره الاعتراف بذلك، تفاقمت مشكلات الشاه بسبب قصر النظر الدبلوماسى لإدارة "نيكسون"، التى كانت تعتقد أن إيران بعد تحديثها ستصبح بمثابة وكيل لأمريكا فى الشرق الأوسط. أحد التقارير التى أعدتها أجهزة الاستخبارات فى صيف ١٩٧٠، وضع يده على فورة الحماسة فى واشنطن "نيكسون". "كان الشاه مصرا على أن يضمن لإيران وضعا قويا وقياديا فى الخليج الفارسى بعد انسحاب بريطانيا" كما أشار المحللون فى المخابرات المركزية فى ٣ سبتمبر، كما أن برنامجه الطموح للتحديث "الإصلاح الزراعى والتصنيع والتعليم على نطاق واسع" كان يمده "بثقة كبيرة بأنه سيد بيته"[١٣٧]. بعد عامين كان لرجل البيت الأبيض نظرة مباشرة لشريك أمريكا الجديد فى الخليج الفارسى وأعجب بما رأى، فأثناء زيارة لطهران فى مايو ١٩٧٢ استغرقت يومين، رفع "نيكسون" نخب الشاه فى صحة "خطواته التقدمية فى جميع المجالات من الإصلاح الزراعى إلى التعليم"، كما امتدح "سجل إيران، الجدير بالإعجاب، فى تنمية اقتصاد قوى و"التطبيق الناجح لثورة معاليه البيضاء"[١٣٨]. ومقتنعا بأن مشروعات التحديث هذه سوف تحقق لإيران التقدم والرفاهية، ومبتهجا لأن الشاه كان متلهفا على دعم المصالح الغربية فى المنطقة

وعد "نيكسون" و"كيسنجر" أن يبيعا الحاكم الإيراني كل ما يريده من ترسانة "البنتاجون" باستثناء الأسلحة النووية(١٣٩).

وبينما كان الشاه يستعرض عضلاته العسكرية الجديدة، كان سفه الإنفاق ببلايين الدولارات يفاقم التضخم في الداخل، مما هبط بدخول المستأجرين الزراعيين وعمال النفط وأصحاب المحلات. بالإضافة إلى ذلك فإن علاقاته الوثيقة بواشنطن جعلته عرضة للاتهامات من فئات الطبقات الوسطى والملالى والمعارضين، بأنه كان قد أصبح ألعوبة في أيدي الأمريكيين. رد نظام "بهلوى" على ذلك كله كان جولة جديدة من القمع واعتقال كبار معارضيه، وزيادة أعمال المراقبة من قبل الأجهزة السرية(١٤٠). قلة في واشنطن هي التي كانت تشعر بما كان يحتمل تحت السطح من انفجار مكتوم. "هنري كيسنجر"، على سبيل المثال، استمر في إبراز الجانب الإيجابي لنظام الشاه عندما أبلغ "چيرالدفورد" الذى خلف "نيكسون"، عشية زيارة الشاه للبيت الأبيض في ربيع ١٩٧٥، مؤكدا أن "الاقتصاد الإيراني يمر بمرحلة انتعاش" وأنه "حقق زيادة في إجمالي الناتج القومي بمعدل متوسط ١٥٪ سنويا لعدة سنوات"، وامتدح "كيسنجر" الشاه لأنه بدأ "إصلاحا زراعيا وعددا من المشروعات التنموية الأخرى التي تجعل فوائد الثورة البيضاء تعود على الشعب"؛ وبدرجة لا تقل حماسة امتدح "فورد" الشاه في ١٥ مايو ووصفه بـ"القيادة الحكيمة التي مكنت إيران من القيام بقفزات غير عادية في نموها الاقتصادي وعلاقاتها بالدول الأخرى في المنطقة"(١٤١). وبعد عشرة أشهر تعهد بتقوية "تلك العلاقة الخاصة التي ننعم بها مع إيران"(١٤٢).

الحقيقة أن "فورد" و"كيسنجر" كانا مفتونين بثورة الشاه البيضاء لدرجة أنه كان من الواضح أنهما كانا يشجعان على تصديرها إلى أفغانستان المجاورة. في يوليو ١٩٧٣ قام "محمد داود خان" أحد كبار الضباط الأفغان، الملتزم بالغربنة، بانقلاب أبيض على ابن عمه المحايد الملك "ظاهر شاه" وأعلن الجمهورية. وبمباركة من واشنطن قدم الشاه قرضا بأربعمائة مليون دولار لتشجيع الإصلاح السياسي وتقوية البنية الاقتصادية التحتية لأفغانستان والإسراع بتوجه "كابول" غربا. لم يكن البرنامج

الإصلاحى المدعوم من إيران يلقى ترحيبا من قبل كبار ملاك الأراضى ورجال الدين الذين بدأوا التعبئة ضد الغربنة، وعندما هبت احتجاجات عنيفة فى ١٩٧٥ طرد "داود" خصومه الإسلاميين إلى باكستان حيث ساعد ذلك على مدى عقدين فى إفراز المجاهدين.. ثم فى النهاية طالبان(١٤٣).

فى منتصف السبعينيات كان المسئولون الإيرانيون والأمريكيون أكثر قلقا بخصوص الخطر السوفيتى فى كابول أكثر منهم بشبح الإسلام المقاتل؛ وفى مارس ١٩٧٦ كان الشاه يعبر "عن قلق زائد بخصوص الوضع فى أفغانستان" مخبرا "نلسون روكفلر – **Nelson Rockefeller**" نائب "چيرالد فورد" والمعجب القديم بأسرة "بهلوى" بأن «وضع "داود خان" فى خطر وأن مجموعة من ضباط الجيش الشيوعيين فى صعود»(١٤٤). بعد سبعة عشر شهرا، أكدت المخابرات المركزية أن الحاكم الإيرانى كان يعتبر الرئيس الأفغانى "قريب ريفى ساذج ومتخلف يمكن أن يخدعه أى محتال من المدينة، والمحتال هنا هو الاتحاد السوفيتى"(١٤٥). مستوعبا نصيحة ابن عمه الرمزى، قام "داود خان" بتطهير الجيش من العناصر المعادية للغرب فى أوائل ١٩٧٨، وحاول إلقاء القبض على قيادات حزب الشعب الديمقراطى الموالى للسوفيت فى أفغانستان؛ ولكن مجموعة من الضباط اليساريين الموالين لحزب الشعب الديمقراطى أطاحوا "داود" فى ٢٧ أبريل وقتلوه فى انقلاب مسلح. مع اقتراب الصيف كانت أجواء الأزمة تخيم على كابول وطهران وواشنطن(١٤٦). "چيمى كارتر" الديمقراطى الچيورچى، الذى هزم "چيرالد فورد" فى نوفمبر ١٩٧٦ كان بداية أقل ميلا من سلفه الجمهورى لتبنى نموذج الشاه فى التحديث من أعلى إلى أسفل فى إيران وأفغانستان؛ وفى يناير ١٩٧٧ هبطت على مكتب "كارتر" مذكرة معلومات من الخارجية كانت تركز على التناقضات التى تنطوى عليها الثورة البيضاء. "على مدى ثلاثين عاما، وفى السنوات الخمسة عشر الثانية منها بخاصة، كان مجتمع تقليدى يمر بتغير اجتماعى واقتصادى شديد مثل أى دولة فى العالم"، كما أشار مراقبو الحالة الإيرانية فى "فوجى بوتوم"، وقد أدى مثل هذا التحديث السريع إلى "ارتفاع أفق التوقعات فى كل قطاعات الحياة الأهلية". المعارضة لثورة الشاه من أعلى لم

تنتشر بين المثقفين فحسب، وإنما أيضا بين آيات الله" الذين لا يقبلون بنظام الحكم الحالى ولا بسياساته الإصلاحية"[١٤٧]؛ وبعد ثمانية أشهر كانت المخابرات المركزية تؤكد أن التحدى الرئيسى الذى يواجه إدارة "كارتر" فى إيران سيكون "تحويل أذن الشاه إلى كيس من الحرير". وبالرغم من الضجة المصاحبة للثورة البيضاء كان الكثير والكثير من الإيرانيين يرفضون "إصلاحات" حاكمهم باعتبارها "ليست أكثر من ادعاءات مصطنعة لإعطاء شكل وليس حقيقة الحرية السياسية". كانت المخابرات المركزية ترى أن خصوم الشاه سوف يطالبون بالشىء الحقيقى عاجلا أو آجلا[١٤٨].

باعتباره مدافعا صلبا عن الديمقراطية وحقوق الإنسان فى الخارج، كان "كارتر" يشجع العاهل الإيرانى بهدوء خلال فصلى الصيف والخريف فى ١٩٧٧ على أن يخفف من قبضته السلطوية؛ وحيث إنه كان يدرك تماما أن "إصرار الشاه على السعى لتحقيق أهدافه قد ولد معارضة ضده بين صفوف المثقفين وغيرهم ممن كانوا يرغبون فى المزيد من المشاركة فى العملية السياسية"، طلب منه "كارتر" أثناء اجتماع فى البيت الأبيض فى منتصف نوفمبر أن يفكر فى إجراءات أقل قمعا ضد معارضيه؛ إلا أن "كارتر" عندما زار طهران بعد ستة أسابيع غير لهجته، ومثل "نيكسون" و"فورد" من قبله رفع الديمقراطى الجيورجى نخب الشاه الصديق الأكيد للغرب، وامتدح الثورة البيضاء، واعترف بقيمة "العلاقات الطيبة بين بلدينا"[١٤٩].

قبل عام، لم يكن "كارتر" ليستطيع أن يرفع مثل هذا النخب، وعندما تجمع الطلاب والملالى الموالين لآية الله الخمينى المنفى، فى الثامن من يناير ١٩٧٨ فى قم للتنديد بسياسات الشاه الاستبدادية الموالية للغرب، فتحت قوات الحكومة النار عليهم وقتلت العشرات من المتظاهرين وأشعلت بذلك موجة من الانتفاضات المضادة لنظام "بهلوى" بطول البلاد وعرضها. وبعد مرحلة دموية فى أواخر فبراير، كان "جارى سيك – Gary Sick" خبير شئون الشرق الأوسط فى البيت الأبيض يحذر "زبيجنيو بريچنسكى" مستشار "كارتر" للأمن القومى من أن الإصلاحات التى أحدثتها ثورة الشاه البيضاء يبدو أنها أخفقت وجاءت بنتائج عكسية. "وبالرغم من أن الحكومة

كانت تشير إلى الدعم الشيوعى والتدخل الأجنبى" أشار "سيك" بدلا من ذلك إلى "ما يحتمل أن يكون الخطر الحقيقى على نظام الشاه - الجناح اليمينى الإسلامى الرجعى الذى يرى فى برنامجه الإصلاحى ليبرالية زائدة وانحرافا سريعا عن القيم التقليدية للمجتمع الإيرانى"(١٥٠).

دقة تشخيص "سيك" تأكدت تماما فى ربيع وصيف ١٩٧٨ بسبب موجة من مظاهرات الشوارع التى استلهمت حملات الخمينى المسجلة على أشرطة الكاسيت وكانت توزع من قبل رجال الدين المسلمين الذين كانوا متلهفين على إقامة جمهورية إسلامية. وفى ٨ سبتمبر، فتحت قوات موالية للشاه النار على عشرين ألف متظاهر موالين للخمينى كانوا قد تجمعوا فى ميدان "چاله" فى طهران فقتلت ٤٠٠ وجرحت ما يقرب من أربعة آلاف شخص، وردا على ذلك قام الطلبة والتجار والملالى الغاضبون بتنظيم احتجاجات أكبر حجما ضد نظام "بهلوى"؛ وبنهاية الشهر كان "وليم سوليڤان" سفير أمريكا لدى طهران مصرا على أن "الإعصار المضاد للشاه "قد بلغ أوجه بسبب الإحباط والظلم والفساد وأفق التوقعات المجهضة التى أثارها برنامج الشاه للتنمية الاقتصادية والإصلاح حسب النموذج الغربى منذ ١٩٦٣"(١٥١).

الجحيم السياسى المتفجر فى طهران أطلق إنذاره فى واشنطن، حيث كان كبار صناع السياسة الأمريكية يقلقهم تصاعد موجة العنف التى كانت تمضى منطلقة فى مسارها الخاص. كان الشاه يستحق الثناء "لسعيه الجسور من أجل ترسيخ مبادئ الديمقراطية فى إيران" ولأنه "يتبنى توجها تقدميا من أجل حل المشكلات الاجتماعية"، كما قال "چيمى كارتر" أمام جمع من الصحفيين فى ١٠ أكتوبر، ولكن "ينبغى عليه ألا يتحرك سريعا من أجل البعض بينما يكون من الضرورى أن يتحرك على نحو أكثر سرعة من أجل البعض الآخر". بعد أسبوعين كان "كارتر" يفضفض فى مفكرته عن أن "الثورة البيضاء قد استبعدت الكثير من الجماعات القوية وبخاصة الجماعات الدينية اليمينية التى لا تريد التغيير"؛ ومع قليل من الخيارات الأخرى كان الديمقراطى الچيورچى يحث الشاه فى أوائل نوفمبر على أن "يظل ثابتا" وأن "يعتمد علينا"(١٥٢).

في طهران، كان السفير "وليم سليڤان" يفكر في المستحيل، فبالرغم من أنه كان قد أصبح أكثر ثقة في أن مؤيدي الخميني سوف يسقطون الشاه، كان ممثل "كارتر" في إيران يأمل في تجميع تحالف إصلاحي من الضباط الموالين للغرب وأبناء الطبقة المتوسطة والمعتدلين من رجال الدين القادرين على لجم المتطرفين الإسلاميين. في ٩ نوفمبر أبرق "سليڤان" إلى واشنطن "إذا كان لابد من أن يتنحى الشاه فلربما كان بالإمكان إقناع الخميني بقبول وضع مثل وضع غاندي في المرتبة السياسية" بينما تبقى الشئون اليومية في يد "شخصية مقبولة من العسكر غير نموذج عبد الناصر – القذافي الذي يمكن أن يكون المرشح الذي يفضله آيات الله". ربما يبدو ذلك «أقرب إلى سيناريو "پولياني"»، ولكن "سليڤان" كان مصرا على "إننا في حاجة إلى أن نفكر في المستحيل في هذا الوقت لكي نحدد أفكارنا بدقة في حال ظهور أي شيء غير متوقع"(١٥٣).

قليلون في إدارة "كارتر" هم الذين كانوا يرون أفكار "سليڤان" معقولة؛ وبعد ذلك بسنوات أشار "جارى سيك – Gary Sick"، (من مجلس الأمن القومي) إلى أن "الرئيس وكبار مستشاريه كانوا بعيدين عن إدراك أن الشاه سوف ينتهي، وكانوا يرغبون في أن يتجنبوا بأي ثمن فكرة أو حقيقة التخلي عن حليف قريب"، ونتيجة لذلك استمر البيت الأبيض في نوفمبر وأوائل ديسمبر في "توجيه كل جهوده لتدعيم وضع الشاه وإقناعه بأن يكون أكثر حزما"(١٥٤)؛ والواقع أنه بعد زيارة استمرت عشرة أيام قام بها "چورچ بول – George Ball"، وهو ديمقراطي "عاقل" تربطه علاقات وثيقة بـ"كارتر"، بعد عيد الشكر مباشرة، كان صناع السياسة الأمريكيون يدركون مدى خطورة الأزمة في إيران. بعد ذلك سجل "بول" في مذكراته: "لقد توصلت، وإن كان على مضض، إلى أن الشاه كان في طريقه إلى سقوط مدو، وأن نظامه كان مثل "همتي دامتي" يمكن أن يلتئم بعد ذلك". "بول" شرح الأسباب في تقرير صادم سلمه إلى "كارتر" في ١١ ديسمبر، كان يرى فيه "إننا نحن الذين جعلنا الشاه يصل إلى ما هو فيه، فقد تعهدنا بالرعاية حبه للمشروعات الچيوسياسية الكبرى وزودناه بالعتاد اللازم لكي يطلق العنان لرغباته" و"بمجرد أن اصطفيناه وكيلا لرعاية مصالحنا في

الخليج الفارسى أصبحنا نعتمد عليه، أما ونظامه يتمزق الآن تحت ضغط التحديث المستورد فإننا ألزمنا أنفسنا بألا يكون أمامنا بديل آخر"(١٥٥).

وبعد أن استعرض كبار مستشارى "كارتر" تقرير "بول" بعد ذلك بيومين، كان من رأيهم أن الوقت يمضى سريعا، وأن "فرصة الشاه فى البقاء قد أصبحت الآن أقل من خمسين بالمائة"، كما قال "وارن كريستوفر - **Warren Christopher**" وكيل الخارجية، وكان ذلك أيضا رأى "زبيجنيو بريچنسكى"، الذى كان يتساءل "ما إذا كان القيام بعملية تغيير سياسى مجديا" بهدف التوصل إلى نظام حكم مؤقت بواسطة ضباط موالين للغرب وعناصر معتدلة من بين خصوم الشاه(١٥٦).

ولكن قبل أن ينتهى العام، كان معظم صناع السياسة الأمريكية يدركون أن الصدام بين القوى الموالية للشاه وتلك الموالية للخمينى قد أصبح حادا وعنيفا بدرجة يستحيل معها التسوية؛ وعلى أمل تجنب حرب أهلية فى إيران، رفض "كارتر" دعوات اللحظة الأخيرة للقيام بانقلاب عسكرى فى طهران مدعوم من أمريكا، وراح يشجع الشاه سرا على مغادرة البلاد بدلا من ذلك، إلا أن النهاية جاءت بشكل مفاجئ.

فى السادس عشر من يناير ١٩٧٩، ودع "محمد رضا شاه بلهوى" رعاياه الجامحين وغادر إلى منفاه فى مصر، وبعد يومين كان "بريچنسكى" يقول حزينا لرجل البيت البيضوى "من المحتمل أن تتحول إيران تدريجيا إلى توجه مثل ذلك فى ليبيا، أو إلى الفوضى، والنتيجة أن وضعنا فى الخليج الفارسى سيصبح ضعيفا"(١٥٧).

فى نهاية الشهر، عاد "آية الله الخمينى" من منفاه مظفرا، وناعتا الولايات المتحدة الأمريكية بـ"الشيطان الأكبر"، ندد بالشاه "الخائن القذر" وشجب "الثورة البيضاء" باعتبارها تحديا للتراث الإسلامى؛ ومشيرا إلى أن الشاه كان قد وعد بتنمية اقتصادية ثم بدد عائدات النفط الإيرانى على العتاد العسكرى الأمريكى، خطب "الخمينى" فى حشد هائل بالقرب من طهران فى ٢ فبراير مؤكدا أن "محمد رضا قام بإصلاحاته المزعومة لخلق أسواق لأمريكا، ولزيادة اعتمادنا على أمريكا"(١٥٨)، ومتعهدا بأن يغير ذلك كله شرع "آية الله" فى إرساء الأسس لجمهورية إسلامية

ستكون بمثابة خطر أشد على مصالح الولايات المتحدة فى إيران، من نظام "محمد مصدق" الوطنى قبل جيل. وبحلول أواخر العام ١٩٧٩ احتجزت ميليشيات من الموالين للخمينى ٥٢ أمريكيا كرهائن فى السفارة الأمريكية فى طهران، وبدأت حكومة آيات الله توجيه عائدات النفط الإيرانى إلى أيدى إرهابيين معادين للولايات المتحدة.. من السعودية إلى لبنان(١٥٩) ومثلما فعلوا فى السابق فى كل من العراق وليبيا، كان صناع السياسة الأمريكية قد بذروا رياح الإصلاح فى إيران لكى يحصدوا عاصفة الثورة.

متشبثين بفكرة مفادها أن التنمية الاقتصادية والغربية يمكن أن تأتى بالاستقرار السياسى للأنظمة الموالية للولايات المتحدة من طهران إلى طرابلس، كانت كل الإدارات الأمريكية من "إيزنهاور" إلى "كارتر" تتبنى أجندة إصلاحية... جاءت بعواقب ثورية وخيمة.. لم تكن متوقعة. كثيرا ما كانت البرامج المدعومة من الولايات المتحدة، مثل ثورة الشاه البيضاء التى كانت مصممة بحيث ترفع مستويات المعيشة وتمنع التدخل الشيوعى، كثيرا ما كانت، فى غفلة منها، ترفع أفق التوقعات الشعبية إلى مستويات غير واقعية وتطلق ردود فعل عنيفة. فى تفسير – جاء بعد الأوان – لأسباب فشل أمريكا فى طهران والتورط فى أماكن مثل أفغانستان كذلك، اعترف "جارى سيك" بأن "قيام تحالف فى إيران بين قوى غير شيوعية، وقوى إسلامية غير متعصبة، ومعتدلين موالين للغرب يعمل فى إطار دستورى مسئول، كان أفضل من الثيوقراطية المعادية للغرب التى استولت على السلطة فى النهاية"(١٦٠).

بحلول صيف ١٩٨٠، كان هناك نقص شديد فى غير المتعصبين الموالين للغرب فى الخليج الفارسى، ومن سخرية القدر أن صناع السياسة الأمريكية عندما قاموا بعمل مسح للمنطقة بحثا عن شخصية قادرة على احتواء التطرف الإسلامى، كان أحد الاحتمالات أن تكون هذه الشخصية "صدام حسين"، رجل العراق العلمانى القوى الذى ساعد فى إسقاط نظام "عبد الكريم قاسم" المعادى للغرب قبل عقدين. وبالرغم من عدم ظهور دليل قوى على أن إدارة "كارتر" كانت قد شجعت العراق البعثى على

الهجوم على إيران الثيوقراطية فى أوائل سبتمبر، فإن المسئولين الأمريكيين كانوا يمنون أنفسهم بأن الصعوبات التى يواجهها "الخمينى" فى ميدان القتال، يمكن أن تجعله أكثر اهتماما ورغبة فى تحسين علاقاته بالولايات المتحدة التى كانت تتحكم فى إمدادات قطع الغيار اللازمة لمعظم أسلحة الترسانة الإيرانية. بعد أن تولى "رونالد ريجان" الإدارة فى يناير ١٩٨١، بدأت واشنطن تميل تدريجيا نحو بغداد، فقدمت للعراق نصف مليون دولار على هيئة ائتمانات زراعية وتكنولوچيا ثنائية الاستخدام المدنى والعسكرى، ويقول "چيوفرى كمب – Jeoffrey Kemp"، أحد كبار المسئولين فى مجلس الأمن القومى فى عهد إدارة "ريجان" فيما بعد: "لم يكن ذلك لأننا كنا نريد أن يكسب العراق الحرب، فقط لم نكن نريد للعراق أن يخسر" و«كنا نعرف أن "صدام حسين" شخصية قذرة، ولكن لحسابنا».

ولأن "ريجان" والذين معه كانوا ينظرون إلى الحرب العراقية الإيرانية من زاوية التحديث، فإنهم كانوا يرونها صراعا بين المستقبل والماضى، بين القرن العشرين والقرن الرابع عشر. عندما توقف القتال فى صيف ١٩٨٨ كان الوضع فى الخليج الفارسى قد اتخذ وجهة غريبة؛ إذ بعد عقد من الحكم الإسلامى وخروجها من الحرب مرهقة ومرعوبة لموت نصف المليون من الجنود، الحرب التى لم يكن يبدو فى أفقها أى منتصر، سئمت الجمهورية الإيرانية حكم "الخمينى". وبعد موته فى ١٩٨٩ اتجهت البلاد تدريجيا وجهة أكثر ليبرالية انتهت بفوز "محمد خاتمى" فى الانتخابات الرئاسية فى ١٩٩٧، وهو أحد المعتدلين "غير المتعصبين" والمهتم بعلاقات أفضل مع الولايات المتحدة. على الضفة الأخرى من شط العرب، خرج "صدام حسين" – رجل أمريكا القذر – من الحرب الإيرانية العراقية مقتنعا بأنه قد أصبح المتحكم فى ميزان القوى العسكرية والسياسية فى الخليج الفارسى. فى أغسطس ١٩٩٠ لجأ "صدام" إلى أسلوب قديم من أساليب الضرب والسلب والنهب فقام بغزو الكويت لتسوية نزاع حدودى على طريقة القرن الرابع عشر، وبذلك سيفجر رجل العراق القوى فى النهاية حربين، وليس حربا واحدة، مع الولايات المتحدة: الأولى قذرة ووحشية وقصيرة، والثانية أكثر قذارة ووحشية وطويلة على نحو لا يمكن احتماله.

■ ما زال فشلنا فى ڤيتنام يلقى بظلاله على تدخل الولايات المتحدة فى أى مكان، كما أن الانتكاسات الأخرى التى عانيناها - وخاصة فى لبنان - جعلت الكثيرين يميلون إلى التشاؤم بخصوص قدرتنا على الحفاظ على مصالح الولايات المتحدة فى العالم الثالث.

إذا لم نتمكن من لجم هذا الأثر أو عكس اتجاهه فى المستقبل، فإنه سوف يضعف قدرة الولايات المتحدة على الدفاع عن مصالحها فى أكثر المناطق حيوية مثل الخليج الفارسى والبحر الأبيض المتوسط وغرب الپاسيفيكى".

(من تقرير اللجنة الخاصة بالاستراتيچية المتكاملة بعيدة المدى - يناير ١٩٨٨)

■ "لقد تخلصنا - بحمد الله - مرة وإلى الأبد، من أعراض ڤيتنام"

(چورچ بوش)

- ١ مارس ١٩٩١ -

الفصل السابع

الخلاص من أعراض ڤيتنام

• شن حروب محدودة من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج الفارسى

ربما يكون من رأى خبراء الأمن القومى وواضعى الاستراتيجيات أن التحديث قد يؤدى إلى استقرار الشرق الأوسط ويجعل التدخل العسكرى غير ضرورى، ولكن الولايات المتحدة كانت، على مدى قرنين، تبدى استعدادا لاستخدام القوة المسلحة لحماية مصالحها، وذلك من مضايق جبل طارق إلى الخليج الفارسى. حضور أمريكا التجارى والثقافى المتنامى فى حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن التاسع عشر حفز "توماس چيفرسون – Thomas Jefferson" وخلفاءه على نشر سفن الولايات المتحدة الحربية من ساحل الشمال الأفريقى إلى آسيا الصغرى، وبعد ذلك أطلق اكتشاف الذهب الأسود فى الشرق الأوسط طفرة نفطية زادت من الأهمية الاستراتيچية لشمال أفريقيا التى كانت فى السابق ساحة قتال لقوات الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الثانية، كما أن المواجهة بين أمريكا والاتحاد السوفيتى إبان الحرب الباردة على امتداد الحد الشمالى أقنعت إدارة ترومان بضرورة استعراض بعض العضلات البحرية شرق المتوسط، بإنشاء الأسطول السادس فى ١٩٤٩. على مدى السنوات الأربعين التالية، كانت السفن الحربية الأمريكية تؤرق البحرية السوفيتية وترفع عملها من الدردنيل إلى خليج هرمز، كما كانت تلوح فى الأفق لطمأنة الأصدقاء مثل الملك حسين فى الأردن وإرهاب الأعداء مثل "معمر القذافى" فى ليبيا.

فى البداية، كان مثل هذه المغامرات العسكرية فى البحر الأبيض يبدو مؤثرا وإن بدرجة نسبية. لم يقتل جندى أمريكى واحد – مثلا – عندما أرسل "دوايت إيزنهاور" قوات أمريكية لإخماد حرب أهلية فى لبنان فى ١٩٥٨، ولكن مساعى أمريكا فى ڤيتنام كانت كارثية، حيث تصاعد تدخل محدود فجأة إلى ورطة دامية كما أثار الشكوك حول تدخلات عسكرية فى أماكن أخرى. فى عهد إدارة "كارتر" بدأ بعض الأمريكيين يتساءلون ما إذا كانت تكلفة التزامات بلادهم العسكرية المتسعة فى الشرق الأوسط ترجح الفوائد المتحققة منها كما كان الحال فى جنوب شرق آسيا. هذه

الشكوك كانت تتعمق فى الثمانينيات، وخاصة عندما حولت سيارة مفخخة مركز قيادة القوات الأمريكية فى مطار بيروت إلى مقبرة جماعية محترقة لكتيبة أمريكية من المارينز "حماة السلام"، وبعد أن هاجمت طائرة عسكرية عراقية بالمصادفة فرقاطة أمريكية دورية فى الخليج الفارسى.

غزو "صدام" المفاجئ للكويت فى أغسطس ١٩٩٠، أكد أنه كان يسير على طريق الصدام مع الولايات المتحدة، وأن حادث الفرقاطة لم يكن مصادفة، وبسرعة رد "چورچ بوش" وأرسل قوات أمريكية (نصف المليون جندى) إلى الخليج الفارسى كرأس حربة لتحالف عسكرى عريض ضد العراق، كان يضم كثيرين من الدول الأعضاء فى حلف شمال الأطلنطى والعديد من الدول العربية.

رافضا التصعيد التدريجى باعتباره طريقا مؤكدة نحو مستنقع صحراوى، قام البنتاجون بقصف جوى بأسلحة على درجة عالية من الكفاءة التكنولوچية على العراق فى أوائل ١٩٩١، قبل أن يطلق العنان لهجوم كاسح متعدد الجنسيات يفوق جيش "صدام" تسليحا وعددا ومهارة، وبإظهار أن الولايات المتحدة كانت ما تزال قادرة على التخطيط والانتصار فى حرب برية كبيرة، بدت عملية "عاصفة الصحراء" وكأنها تشفى الأمريكيين من أعراض ڤيتنام الموهنة التى كانت تظهر كلما فكرت الولايات المتحدة فى التدخل المسلح فى العالم الثالث.

وسواء كان الانتصار الذى تحقق فى الخليج الفارسى قد عكس أو لم يعكس اتجاه عصر من الشك فى النفس بسبب ڤيتنام، فإنه أكد أن المكونات اللازمة لانتصار عسكرى فى الشرق الأوسط فى التسعينيات كانت هى المكونات نفسها التى شكلت الانتصار على الساحل الشمالى الأفريقى قبل مائتى عام: تفوق تكنولوچى ساحق وأكبر حشد ممكن من الأسلحة. امتلاك العتاد الصحيح لن يكون ذا قيمة كبيرة إذا اعتمدت التكتيكات الخطأ، وبالرغم من أن المخططين فى البنتاجون كانوا قد تعلموا هذا الدرس بصعوبة فى أماكن مثل سايجون وبيروت، يبدو أيضا أنهم قد استوعبوا نتائج مهمة فى أماكن أخرى مثل طرابلس وبغداد. تدخل الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط كان ناجحا فقط عندما كانت التكنولوچيا والتكتيك متسقة مع أهداف مركزة

ومحددة. هذه الدروس كانت تبدو أكثر أهمية منها فى أى وقت مضى بحلول خريف ٢٠٠٠ عندما بدأ "چورچ بوش" حملة مفتوحة ضد القاعدة والإرهاب الإسلامى كان البعض يخشى أن تصبح ڤيتنام جديدة فى آسيا الوسطى.

• من شواطئ طرابلس إلى الأسطول السادس

لأن هناك ثلاثة آلاف ميل من مياه المحيط تفصلهم عن صراعات العالم القديم العسكرية، ولأنهم كانوا مشغولين بتحديات بناء الدولة فى العالم الجديد، لم يكن معظم الأمريكيين يرون سببا يضطر بلادهم إلى تنمية ترسانتها الضعيفة، إلى أن بدأت الجزائر وغيرها من دول الساحل الشمالى الأفريقى تشن حربا على تجارة الولايات المتحدة المنقولة فى مياه الشمال الأفريقى فى أواخر ثمانينيات القرن الثامن عشر. كان رد الكونجرس هو اعتماد مخصصات مالية لأول ثلاث سفن حربية أمريكية، سرعان ما بدأت تقوم بدوريات على شواطئ طرابلس كجزء من سرب بحر متوسطى جديد، هو أول مغامرة بحرية أمريكية مستمرة خارج المياه الإقليمية. بعد سنة ١٨٠١، شنت إدارتا "چيفرسون" و"ماديسون" حربا غير معلنة على دول ساحل الشمال الأفريقى التى كان حكامها المستبدون قد اعتادوا إغراق السفن التجارية الأمريكية والاستيلاء على الشحنات المنقولة من بوسطن ونيويورك إلى برشلونة ونابولى، وأسر البحارة الأمريكيين طلبا للفدية. وبفضل الجزية التى كان يتم دفعها أكثر مما هو بسبب الانتصار فى المعارك، ظلت للولايات المتحدة اليد العليا حتى سنة ١٨١٢ عندما نشبت الحرب مع بريطانيا، الأمر الذى مكن دول الشمال الأفريقى من استئناف عمليات السلب والنهب وهى مطمئنة إلى أن البحرية الأمريكية كان لديها ما يشغلها، وبمجرد أن عاد السلام بين واشنطن ولندن أرسل الرئيس "چيمس ماديسون" القائد البحرى الكومودور "ستيفن ديكاتير – Stephen Decatur" لتصفية بعض الحسابات القديمة"، وبعد قصف الجزائر فى يونيو ١٨١٥ لتأمين إطلاق سراح عدد من الأسرى الأمريكيين، أبحر سرب "ماديسون" مسافة ألف ميل شرقا إلى طرابلس، حيث جعل استعراض القوة هذا، يوسف باشا يعى فجأة حكمة احترام حرية البحار[1].

بالرغم من تخليد ذلك فى ترانيم السرب البحرى باعتباره انتصارا عظيما، أبرزت مواجهة أمريكا لدول البربر على الساحل الشمالى الأفريقى التكلفة الباهظة للتدخل العسكرى فى العالم الإسلامى، ونتيجة لذلك تبنت البحرية الأمريكية توجها محدودا فى البحر الأبيض المتوسط بعد ١٨١٥ محتفظة بسرب صغير متمركز فى "بورت ماهون" فى جزيرة "مينوركا" الصغيرة، مع التلويح بالعلم على مسافة أعمق قليلا فى اتجاه الشرق كلما كانت تبدو منغصات فى أماكن مثل كريت أو لبنان، واستمرت الولايات المتحدة فى المحافظة على حضورها ملموسا فى الشرق الأوسط بالرغم من ذلك بتزويد كل من تركيا ومصر بالسلاح والمستشارين. منذ أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر استأجر السلطان "محمود" بناة سفن أمريكيين لإنشاء بحرية تركية حديثة عوضا عن تلك التى غرقت فى معركة "ناڤارينو"، وبعد أربعين سنة عين الخديوى "إسماعيل" أحد أبطال الحرب الأهلية المرتزقة الكولونيل "تشارلز ستون – Charles Stone" رئيسا لأركان الجيش المصرى ووزيرا فعليا للدفاع. من ناحية أخرى كانت الجهود المبذولة من وقت لآخر لعكس توجه استيعاب التكتيكات الشرق أوسطية فى الترسانة الأمريكية أقل نجاحا؛ والحقيقة أن قرار إدارة الحرب الخطأ باستيراد ثلاثمائة جمل فى ١٨٥٥ كجزء من فيلق جمال تجريبى يعهد له بترويض الجنوب الغربى الأمريكى أصبح بالنسبة للخيالة الأمريكية مثالا أسطوريا على الفعل الخطأ فى المكان الخطأ فى التوقيت الخطأ(٢).

مع اقتناع واشنطن الثابت بالتعامل مع الشرق الأوسط كمنطقة نفوذ بريطانى فرنسى، استمر تدخل الولايات المتحدة فى المنطقة فى الاضمحلال خلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين؛ وفى أواخر ثلاثينيات القرن نفسه كان وجود الولايات المتحدة البحرى فى البحر الأبيض قد انخفض بشدة، لدرجة أن أشهرا بكاملها كانت تمر دون أن تمر سفينة حربية أمريكية واحدة من قناة السويس. سوف يتغير ذلك كله على أية حال فى سبتمبر ١٩٣٩ عندما تورط ألمانيا النازية العالم فى حرب أخرى، سوف تجعل "الجزائر" و"طرابلس" و"السويس" فى النهاية كلمات تتردد فى الولايات المتحدة للمرة الأولى فى مائة عام. مع حليفه "بنتيو موسولينى – Benito

Mussolini" الذى كان يسيطر تماما على إمبراطورية إيطالية صحراوية فى ليبيا، كان "هتلر" يعتبر الانتصار النازى السريع على فرنسا فى يونيو ١٩٤٩ فرصة ذهبية تمكنه من الوصول إلى شمال أفريقيا الفرنسى لتقوية شراكة المحور بين ألمانيا وإيطاليا، ولقطع شريان الحياة الإمبريالى البريطانى بغزو مصر والاستيلاء على قناة السويس[٣].

بالرغم من أن هجوم طوكيو الجبان على "پيرل هاربر" فى ديسمبر ١٩٤١ كان سببا فى الدعوة للقيام بحرب انتقامية فى الپسيفيك، فإن "فرانكلين روزفلت" ورئيس الوزراء البريطانى "ونستون تشرشل" سرعان ما اتفقا على أن هزيمة ألمانيا لابد من أن تكون لها الأولوية على تصفية الحساب مع اليابان، ولأن مخططى الحرب الأمريكيين والبريطانيين كانوا مقتنعين بأن الضربة الأولى لابد من أن تكون فى شمال أفريقيا، كانوا يعملون بكل عزمهم للاستيلاء على الجزائر من حكومة "فيشى" العميلة لـ"هتلر" وإيقاف الزحف النازى نحو الإسكندرية ودلتا النيل وبرزخ السويس فى مصر. وفى ٨ نوفمبر ١٩٤٨ كانت "الأرمادا" الأمريكية التى تحمل كل شىء (من ٣٥٠ طن طائرات و٥٢... طن سفن حربية) تلوح فى الأفق خارج الجزائر وميناء "أوران - Oran" لتقصف المنشآت البحرية لحكومة "فيشى" وإنزال ٨٤٠٠٠ جندى، وبحلول أعياد الميلاد كانت قوات التحالف تسيطر على الجزائر وتستهدف جيوش المحور فى العمق الشرقى، ومع سيطرة تامة للقوات الأمريكية والبريطانية على المسافة من تونس إلى ليبيا فى مايو ١٩٤٣، كان من الواضح أن آمال وفرص "هتلر" الكبيرة للاستيلاء على الشرق الأوسط قد فشلت؛ وإلى جانب ذلك فإن الزخم الذى حققه هذا الانتصار الصحراوى ساعد فى الإسراع بخطط الحلفاء لاحتلال صقلية فيما بعد فى الصيف نفسه، واحتلال إيطاليا نفسها فى وقت باكر من العام الجديد، وهما خطوتان رئيسيتان على طريق يوم النصر فى مايو ١٩٤٥.

بمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية، تصاعد الضغط العام من أجل تسريح سريع للقوات المسلحة الأمريكية وخفض حاد لتطورها العسكرى فى مرافئ الشرق

الأوسط، تلك المنطقة التى ظلت مجهولة بالنسبة لمعظم الأمريكيين؛ وبحلول ديسمبر ١٩٤٥ كان ٩٠٪ من الأسطول الأمريكى متمركزا فى الپاسيفيك، وكانت إدارة "ترومان" تتوقع أن تقوم البحرية الملكية بالحفاظ على الاستقرار، وأن تعبر عن القوة البحرية من جبل طارق إلى الخليج الفارسى. ولكن الضغوط السوفيتية المتزايدة على تركيا لكى تعطى البحرية الحمراء حرية العبور من الدردنيل، والدلالات المزعجة على أن بريطانيا كانت تنقصها الموارد المالية والإرادة السياسية للوفاء بالتزاماتها العسكرية فى شرق المتوسط، سرعان ما جعلت صناع السياسة الأمريكية يعيدون النظر فى تكتيكاتهم المنخفضة فى المنطقة. كان من أبرز الداعين إلى تعامل أمريكى أكثر قوة، وزير البحرية "چيمس فورستال –James Forrestal" أحد عتاة المعادين للشيوعية، الذى أرسل البارجة "ميسورى" إلى أثينا واستنبول (كما كانت تعرف القسطنطينية آنذاك) فى أبريل ١٩٤٦، وبعد فترة قصيرة أرسل ناقلة الطائرات "فرانكلين روزفلت" فى تجوال طويل فى البحر الأبيض(٥).

برغم عمليات استعراض القوة المتقطعة هذه، كان "فورستال" يعتقد أنه من خلال تحقيق حضور بحرى مخيف فى المنطقة فحسب، يمكن لواشنطن أن تمنع موسكو من محاولة الصيد فى الماء العكر. "فورستال" الذى لم يكن سعيدا لأن القوة البحرية الأمريكية من جبل طارق إلى السويس كانت "قد انخفضت درجة كفاءتها إلى مستوى خطر نتيجة التسريح السريع للقوات"، كان يسعى للحصول على موافقة البيت الأبيض والخارجية على تصريح صحفى فى ١ أكتوبر ١٩٤٦ للبحرية يؤكد أن "وحدات الأسطول الأمريكى موجودة فى البحر الأبيض وسوف تبقى هناك فى المستقبل"(٦). قرار "ترومان" بأن يجعل "فورستال" أول وزير دفاع للولايات المتحدة بعد عام، كان دليلا على التزام مؤكد بمشروعات الحرب الباردة، مثل رفع كفاءة وقدرات البحرية الأمريكية فى الشرق الأوسط. فى ٤ أغسطس ١٩٤٧، وبعد أيام قليلة فقط من تولى "فورستال" عمله فى "البنتاجون"، طلب منه وزير الخارجية "چورچ مارشال"، الذى قد يكون أكثر من يثق بهم "ترومان" من بين مستشاريه، "أن يبحث إمكانية زيادة قواتنا البحرية فى البحر الأبيض تدريجيا"(٧).

ولأن "فورستال" كان مقتنعا منذ فترة طويلة بأن الطريقة الوحيدة لاحتواء الكرملين هى القوة العسكرية المتفوقة، بدأ يعيد نشر سفن الولايات المتحدة الحربية من بروكلين ونيوپورت نيوز إلى أثينا وإستنبول. بعد إعادة تسميته بـ«أسطول المهام رقم"٦"» فى يونيو ١٩٤٨، أصبح أسطول البحر الأبيض النامى يضم ناقلة طائرات وثلاث طرادات وتسع مدمرات وكتيبة "مارينز" فى ناپولى بإيطاليا. الانهيار العصبى الذى أصاب "فورستال" وانتحاره فى مايو ١٩٤٩ حرماه الإشراف على خطط للمزيد من التوسع، وبعد تسعة أشهر أكملت واحدة من بنات أفكاره تطوير الأسطول الأمريكى السادس الذى أصبح فى منتصف الخمسينيات أسطولا ضخما مكونا من خمسين سفينة أشهرها "USS-Forrestal"، الناقلة التى تزن ستين ألف طن وتحمل مائة طائرة قاذفة مقاتلة.

• المصعد الدوار: عن الحروب الخاطفة والاستجابة المرنة

لأنه أنشئ فى أواخر الأربعينيات كجزء من دعوة للسلاح فى حرب باردة لردع الكرملين، سوف يمضى أسطول فورستال السادس العقدين الأولين من حياته فى إخماد الأزمات والتمردات أكثر منه لاحتواء البحرية السوفيتية التى لم تبدأ القيام بزيارات منتظمة لمياه البحر الأبيض حتى منتصف الستينيات، وعلى مدى السنوات الأخيرة من الخمسينيات كان الأسطول الأمريكى مشغولا باستمرار بعمليات "استعراض قوة" للتعبير عن استعداده لدعم الأنظمة الموالية للغرب فى الشرق الأوسط، فعندما طلب الملك "حسين" المساعدة لإحباط انقلاب موال لـ"عبد الناصر" فى أبريل ١٩٥٧ مثلا، حرك "إيزنهاور" قوة مهام محمولة من "فورستال" إلى مسافة تسمح بالتعامل مع الأزمة فى عمان، وكما يقول قائدها الأدميرال "تشارلز آر براون - Charles R.Brown"، كان الأسطول السادس هو "جهاز الموازنة الفولاذى الرمادى الذى أنقذ عرش حسين"[٩]، وعندما أثار انقلاب عسكرى يسارى فى دمشق قلق أصدقاء أمريكا فى عمان وبيروت وأنقرة بعد ذلك بأربعة أشهر، أمر "إيزنهاور" السفن الحربية الأمريكية بأن تكون فى وضع الاستعداد بالقرب من الساحل السورى[١٠].

أعلى مراحل تورط الأسطول السادس في الشرق الأوسط كانت عملية "الوطواط الأزرق" التي شهدت إنزال أربعة عشر ألف جندي من "المارينز" على شواطئ بيروت في ٥ يوليو ١٩٨٥ لدعم نظام موال لأمريكا كان تحت النار من راديكاليين معادين للغرب. لبنان، ذو النصف المسيحي والنصف المسلم، كان بمثابة برميل بارود ينتظر أن ينفجر في أي وقت. كان الرئيس "كميل شمعون" الجنرال الماروني ذو العلاقات الوثيقة بواشنطن، قد أشعل الفتيل نتيجة التلاعب بالانتخابات البرلمانية في ١٩٥٧ لكي يحصل على فترة رئاسة ثانية في سابقة هي الأولى من نوعها. الانفجار جاء في ربيع ١٩٥٨ عندما هب خصومه من السنة والشيعة على نحو يهدد بوصول حكومة مسلمة موالية لـ"عبد الناصر" إلى السلطة في بيروت. على مدى عدة شهور كان "شمعون" يقول للأمريكيين إنه "سيكون من المريح أن تتحرك بعض عناصر الأسطول السادس إلى شرق المتوسط"(١١)، وعلى أمل تجنب التدخل العسكري، قدمت إدارة "إيزنهاور" تأكيدات وتطمينات غائمة بأن الولايات المتحدة ستقف إلى جوار أصدقائها بينما تعمل بهدوء من وراء ستار لرعاية تسوية سلمية للنزاع اللبناني، ولكن الانقلاب الدموي الذي هز بغداد في ١٤ يوليو ١٩٥٨ كان يرسل موجاته الصادمة واحدة تلو الأخرى إلى بيروت، حيث طلب "شمعون" من "إيزنهاور" إرسال "المارينز"(١٢).

وبالرغم من أن طلب "شمعون" جاء مفاجئا وأسرع مما كان كثيرون في واشنطن يتوقعون، فإن كبار المسئولين في "البنتاجون" كانوا يتوقعون مثل تلك النتيجة منذ عام تقريبا؛ ففي نوفمبر ١٩٥٧ كانت رئاسة الأركان المشتركة قد بدأت على نحو عاجل "تطوير خطة لتدخل أمريكي بريطاني عسكري مشترك في حال توقع أو وقوع انقلاب في الأردن و/أو لبنان"(١٣)، وبحلول مايو ١٩٥٨، كان "البيت الأبيض" و"وايت هول" يضعان اللمسات الأخيرة لعملية "الوطواط الأزرق"، التي كانت تقضي بقيام القوات البريطانية المتمركزة في قبرص وقوات المارينز الأمريكية الموجودة على الأسطول السادس، بتأمين منطقة بيروت في حال حدوث أزمة(١٤).

وبالرغم من التخطيط الأنجلو أمريكى الشامل للظروف الطارئة، وبالرغم من سمعة "إيزنهاور" الحسنة التى يستحقها لربطه بين الوسائل العسكرية والأهداف الچيوپوليتيكية، كانت عملية "الوطواط الأزرق" مهددة بالخروج عن السيطرة بمجرد أن تبدأ، وبعد ساعات من طلب "شمعون" المساعدة هاتف "هارولد مكميلان" رئيس وزراء بريطانيا "إيزنهاور" مقترحا: بدلا من "البقاء فى هذا المكان ضئيل القيمة" الذى يقصد به لبنان، ينبغى أن "تواصل هذا الأمر وتنقله إلى الخليج الفارسى"، وأن تقوم "بعملية كبيرة مرورا بسوريا والعراق". ولكن "إيزنهاور" الذى كان يخشى أن يكون ذلك بمثابة "فتح صندوق پاندورا" دون معرفة حقيقية "بما فى القاع منه"، كان مصمما على أن التدخل ينبغى أن يكون مقصورا على لبنان - مؤقتا - حيث كان "المارينز" على وشك النزول إلى الشاطئ وإلى الأردن، بينما كان الملك "حسين" فى حالة عصبية شديدة، على وشك أن يطلب قوات بريطانية لإخماد انتفاضة معادية للغرب[١٥].

بالرغم من إصرار "إيزنهاور" على أن تكون عملية "الوطواط الأزرق" فى حدود معينة، فإن تجنب حرب واسعة النطاق فى الشرق الأوسط كان سببه حسن الحظ بقدر ما كانت إدارة الأزمة بحكمة. حتى قبل أن تجف أحذيتهم، دخل جنود المارينز فى تبادل للنيران مع الميليشيات الإسلامية التى كانت منتشرة لفترة قصيرة على رأس الشاطئ عند بيروت، إلى أن أقنعت السفن الحربية التابعة للأسطول السادس وتحذيرات الدبلوماسيين الأمريكيين خصوم "شمعون" بالانسحاب؛ وعندما نقلت الطائرات البريطانية ٣٧٠٠ جندى من قبرص إلى الأردن مرورا بالمجال الجوى الإسرائيلى بعد ذلك بثلاثة أيام دون إذن مسبق، وجد "وايت هول" نفسه فى أزمة شديدة مع الدولة اليهودية. الأكثر إنذارا بالسوء، كان التذمر فى الخليج الفارسى من أن النظام الثورى فى العراق كان على وشك الاستيلاء على دولة الكويت الغنية. تحرك "إيزنهاور" فى اتجاه ردع العراقيين بأن أصدر أوامره للأسطول السابع الأمريكى بالتحرك من "أوكيناوا" إلى المحيط الهندى، بينما كان وزير الخارجية "چون فوستر دالاس" ينصح المسئولين البريطانيين "ينبغى ألا نستبعد احتمال عمل عسكرى باكر لتأمين الكويت حتى وإن لم يكن المسئولون الكويتيون مستعدين لدعوتنا الآن للقيام

بذلك"[١٦]؛ وفى النهاية لم يتحقق هذا السيناريو الكابوسى، ورحلت القوات الأمريكية والبريطانية عن بيروت وعمان فى موعدها فى خريف ١٩٥٨ دون أية خسائر؛ وكما قال "روبرت ماك كلينتوك –Robert McClintock" السفير الأمريكى فى لبنان فى ٤نوفمبر، كانت عمليات الإنزال فى بيروت "تمريننا ناجحا جدا على الحرب المحدودة"[١٧]. "آيك" نفسه عبر عن هذا الرأى كما قال لـ"هارولد مكميلان" فى مارس ١٩٥٩ "كان تدخلا من النوع الذى لا يُخَلِّف وراءه طعما رديئا"[١٨].

وفى مذكراته التى نشرت بعد ست سنوات، عندما كان أحد خلفائه يستعد للنزول فى مستنقع ڤيتنام، كان "إيزنهاور" ما زال مصرا على أن عملية "الوطواط الأزرق" كانت مثالا ممتازا على كيفية التدخل الناجح فى العالم الثالث. كان يقول وعينه على جنوب شرق آسيا "لقد أظهرت عملية لبنان قدرة الولايات المتحدة على التصرف السريع بقوات مسلحة تقليدية لمواجهة مواقف عسكرية "محدودة" مثل تلك التى تتكشف الآن فى الهند الصينية"[١٩]. وبالرغم من أن "إيزنهاور" تمكن على المدى القصير من إخماد الحرب اللبنانية الصغيرة فى ١٩٨٥ بنشر الأسطول السادس وقوات المارينز الأمريكية، فإن عملية "الوطواط الأزرق" أضافت – على المدى الطويل – مادة الاشتعال التى ستؤجج جحيم ڤيتنام وتثير عاصفة نارية فى الخليج الفارسى بعد جيل. وباستخدام أيديولوچيا كونية وخطاب مضاد للشيوعية وقوة نيران كثيفة لمقاومة الخطر الإقليمى المتجذر فى قومية العالم الثالث، ساعد "آيك" على وضع قدم العم سام على الدرجة السفلى من سلم التصعيد الذى وُضِعَ بداية فى بيروت بواسطة سلالة جديدة من البيروقراطية العسكرية ومدراء الأمن القومى الذين سرعان ما سيشقون طريقهم نحو الكارثة فى سايجون.

"چون ف. كينيدى" استخدم السياسة الخارجية كأداة ثلمة يهاجم بها "ريتشارد نيكسون" نائب "إيزنهاور" وولى عهده فى انتخابات ١٩٦٠؛ وكنتيجة لذلك فإن نجاح "آيك" فى لبنان أصبح مطموسا فى نظر كثير من الأمريكيين بسبب فشله الذريع فى أماكن أخرى مثل كوبا والكونغو، حيث حول الراديكاليون اليساريون نيرانا

صغيرة إلى جحيم عداء للغرب[٢٠]؛ وبعد أن ملك قلوب وأصوات ناخبين كان يقلقهم أن الولايات المتحدة تخسر بسرعة أرضا للسوفيت فى العالم الثالث، لم يضيع "چون كينيدى" وقتا طويلا لكى ينمى قدرة الولايات المتحدة على شن حرب محدودة فى الأماكن المضطربة من جنوب شرق آسيا إلى جنوب غرب الجزيرة العربية. كان "كينيدى" يعتمد على عسكريين مستقلين محترفين مثل الچنرال "ماكسويل دى. تيلور – Maxwell D.Taylor" ومفكرين عسكريين مثل "ماك چورچ بندى – McGeorge Bundy" وخبراء التحليل العسكرى الدقيق مثل وزير الدفاع "روبرت مكنمارا –Robert McNamara" لاستشارتهم بشأن كيفية إطفاء الحرائق الصغيرة.

كان "ماكسويل تيلور" قد لفت انتباه "كينيدى" فى الستينيات عندما نشر "النفير الملتبس – "The Uncertain Trumpet" الذى كان من أكثر الكتب مبيعا لأنه كان يتحدى "**مبدأ إيزنهاور**" للانتقام الواسع ويعتمد تكتيكات وأساليب غير تقليدية للتعامل مع المناطق المضطربة فى العالم الثالث. وباعتباره قائد مظلات، أمضى معظم فترة إدارة إيزنهاور الثانية رئيسا لأركان الجيش الأمريكى، استبعد "تيلور" ذلك الكلام المرسل عن المعارك النووية الكبرى، وأصر على أن الصراعات العسكرية فى المستقبل من المرجح أن تكون محدودة مثل عملية "الوطواط الأزرق" فى بيروت. ومع اعترافه بأن "إيزنهاور" كان قد أدار تلك الأزمة على نحو جيد نسبيا، أشار إلى أن "حجم إنزالنا فى لبنان كان محكوما بطاقة استيعاب المجال الجوى الوحيد والميناء فى بيروت"، وأن البنتاجون إذا لم يطور "قدرته الاستراتيچية على الحركة" ويحسنها، ويحدِّث "قدرة قواته على الاستنزاف المضاد"، فربما لن يكون للأزمة القادمة فى العالم الثالث مثل تلك النهاية السعيدة؛ وباختصار، على ضوء مسئوليات أمريكا الكونية لابد من أن يعطى الرئيس القادم أولوية قصوى لـ"توسيع مجال رد فعلنا العسكرى المحتمل عبر كل أطياف التحديات الممكنة بما يتفق مع استراتيچية للاستجابة المرنة".

بعد خمسة أشهر من انتقاله للمكتب البيضوى، سوف يعين "چون كينيدى"، "ماكسويل تيلور" ممثلا عسكريا للبيت الأبيض[٢١].

كان من بين الأكثر ابتهاجا لرؤية "تيلور" ينضم إلى الجبهة الجديدة "ماك جورج بندى" الذى كان قد ترك منصب عميد الكلية فى "هارڤارد" ليصبح مستشارا للأمن القومى فى إدارة كينيدى فى يناير ١٩٦١، كما كان "كينيدى" مستريحا تماما لتلك الخلطة التى تجمع بين المعرفة البيروقراطية والصرامة الفكرية؛ وبعد أن وصفه أحد كتاب "نيويورك تيمز" بأنه "هارى هوپكنز.. ولكن يحمل قنابل يدوية"، كان يجد شبها بين الجبهة الجديدة والبرنامج الجديد، برز "بندى" بسرعة كأحد المدافعين البارزين عن الاستجابة المرنة فى واشنطن كينيدى[٢٢]. مواجهة التحديات العسكرية الجديدة للعقد القادم سوف تتطلب "مرونة فى كل شىء"، كما أبلغ "بندى" مستشار البيت الأبيض "تيودور سورنسن –Theodore Sorenson" فى مارس ١٩٦١؛ هذه المرونة سوف تتضمن "زيادة الإمكانيات اللازمة للحروب المحدودة" فى أماكن مثل جنوب شرق آسيا، وعلى نحو الخصوص "نحن فى حاجة إلى مجموعة أكثر تنوعا من التكتيكات"، كما يقول، "لأعمال حرب العصابات والعصابات المضادة"[٢٣].

وفى "البنتاجون"، على الضفة الأخرى من پوتوماك، وجد "بندى" و"تيلور" عنصرا قويا آخر من دعاة الاستجابة المرنة فى صورة وزير الدفاع "روبرت مكنمارا". نابغة فى الرياضيات كان قد حصل على الماجستير من "هارڤارد" قبل التحاقه بالقوات المسلحة الأمريكية فى الحرب العالمية الثانية، كان "مكنمارا" قد أصبح فى ١٩٦٠ رئيسا لشركة "فورد" للسيارات حيث كان يعتمد على تحليل "التكلفة – الفائدة" لتعظيم الأرباح واكتسب سمعة "العقل المدبر" فى مجال تجارة السيارات. مبهورا بالجمع بين الكفاءة الإدارية والذكاء الحاد والأفكار الجمهورية الليبرالية، كان "كينيدى" يريد أن يهز "مكنمارا" وزارة الدفاع[٢٤]. رجل الأعمال الذى أصبح من صناع السياسة لم يخيب ظنه. بعد فترة قصيرة من ترك البنتاجون إلى البنك الدولى فى ١٩٦٨ كان "مكنمارا" يقول "تقييمنا الأول جعلنا مقتنعين نحن وحلفاؤنا بضرورة بذل جهد أكبر من أجل بنية قوية يمكن أن تتعامل مع العدوان المحدود.. بدءا من حروب العصابات الصغيرة والأنشطة التخريبية إلى الهجمات المكشوفة بواسطة قوات عسكرية متوسطة"؛ ومصمما على "تقوية إمكانياتنا العسكرية المحدودة" كان يعمل على نحو

وثيق مع كل من "بندى" و"تيلور" أثناء سنوات إدارة "كينيدى" من أجل تطوير ترسانة قادرة على الحركة وتكتيكات مرنة بما يكفى لرفع وزيادة مستوى تدخل الولايات المتحدة العسكرى[٢٥].

كان المختبر الذى قام فيه "كينيدى" ورجال جبهته الجديدة بتجاربهم الأولى عن التصعيد العسكرى هو ڤيتنام الجنوبية، حيث كان ٨٥٠ مستشارا عسكريا أمريكيا يساعدون عميل أمريكا "نجو دنه دييم –Ngo Dinh Diem" لمحاربة رجال العصابات الشيوعيين فى يناير ١٩٦١؛ وخلال الألف يوم التالية أعد "تيلور" و"بندى" و"مكنمارا" خطة للتصعيد مع عدة خيارات تكتيكية ومجموعة من العتاد العسكرى المتطور، كان من المفترض أنها سوف تؤمن انتصارا سريعا فى ڤيتنام. إلا أن هذا المشروع سوف يثبت عدم جدواه بالنسبة لمستشارى "كينيدى" الأمريكيين فى سايجون، الذين كان عددهم قد وصل إلى ١٧٥٠٠ مستشار فى نوفمبر ١٩٦٣، وكذلك بالنسبة للقوات الأمريكية التى سيرسلها "ليندون چونسون" إلى الهند الصينية على مدار السنوات الأربع التالية، والتى كان عددها يربو على نصف المليون جندى. وفى حقول الأرز على امتداد نهر ميكونج، لم يؤد التصعيد العسكرى سوى إلى المزيد من التصعيد... وزيادة الخسائر الأمريكية[٢٦].

بالرغم من انشغالهما المتزايد بالحرب التى كانت تتصاعد فى جنوب شرق آسيا، كانت إدارتا "كينيدى" و"چونسون" جاهزتين ومستعدتين لفرد عضلات أمريكا العسكرية فى الشرق الأوسط كلما كانت تبدو المصالح الأمريكية معرضة للخطر. أوضح دليل على استعداد "چون كينيدى" لتصعيد التدخل الأمريكى فى المنطقة كان احتفاظ "البنتاجون" بقاعدة جوية ونقطة تموين بالقرب من الظهران على مدى عشرين عاما، وعندما قام ضباط يساريون بإسقاط الإمام "محمد البدر" فى اليمن المجاورة فى سبتمبر ١٩٦٢ وطلبوا من "عبد الناصر" إرسال قوات مصرية لمساعدتهم لتقوية سلطتهم، زاد قلق الدبلوماسيين والعسكريين الأمريكيين فى الرياض خشية أن يكون الدور قد جاء على "الملك سعود"، ومثلهم كان "فيصل" ولى العهد وزير الخارجية، الذى

كان قراره بتهريب السلاح لعصابات البدر فى اليمن الشمالى سببا جعل المصريين ينتقمون من المعسكرات والقواعد الملكية في نجران داخل الأراضى السعودية؛ وبدعوى أن الغارة على نجران قد أثبتت نية "عبد الناصر" على استخدام القوة المسلحة لتوسيع جمهوريته العربية المتحدة، طلب "فيصل" عشية رأس السنة الجديدة دلائل محددة على دعم الولايات المتحدة بما فى ذلك إرسال طائرات من القوات الجوية الأمريكية "USAF" إلى السعودية"[٢٧].

سرعان ما أكد المسئولون الأمريكيون التزام الولايات المتحدة بسلامة الأراضى السعودية ولكن أحدا من مستشارى "كينيدى" لم يكن متلهفا على إرسال الطائرات الأمريكية، وعندما اشتدت الحرب السعودية المصرية بالوكالة فى اليمن فى أوائل ١٩٦٣، تحركت واشنطن لتهدئة قلق "فيصل"، وقام "روبرت كومر – Robert Komer" خبير شئون الشرق الأوسط فى "البيت الأبيض" بإبلاغ الرئيس فى ٢١ فبراير "لقد قمنا فعلا بالكثير لردع الجمهورية العربية المتحدة لكى لا تصعد"، و"جعلنا المدمرات تقوم بزيارة الميناء السعودى، والقاذفات تحلق، كما يوجد فريق من القوات الخاصة هناك، لقد حذرنا "عبد الناصر" مرة أخرى من أن "يدوس" على أقدامنا"، وإذا لم تقم مصر بسحب قواتها وطائراتها، كما حذر "كومر"، فمن المحتمل أن يطلب السعوديون من "كينيدى" أن يفعل ما هو أكثر من ذلك[٢٨]. بعد أربعة أيام وافق "كينيدى" على مذكرة مجلس الأمن القومى "٢٢٧" التى قدمت لـ"فيصل" الدليل المادى الواضح على دعم الولايات المتحدة الذى كان يطلبه منذ شهور. بموجب هذه المذكرة سمح "كينيدى" بتمركز سرب دفاع جوى رمزى مع ما يلزمه من استعدادات أرضية فى غرب السعودية لردع أى عمليات جوية من قبل الجمهورية العربية المتحدة"، بشرط تعهد "فيصل" فى الوقت نفسه بأن "يوقف المساعدات التى يقدمها للملكيين فى اليمن"[٢٩].

بعد عدة شهور من المماحكات بين السعوديين والبنتاجون حول قواعد الاشتباك، أعطى البيت الأبيض إشارة البدء لعملية "السطح الصلب" كما كانت تعرف مهمة القوة الجوية الأمريكية فى السعودية آنذاك فى يوليو ١٩٦٣. عملية "السطح

الصلب" التى أعلن عن أنها "مهمة تدريبية" لمدة خمسة عشر أسبوعا سرعان ما ظهرت فيها طائرات أمريكية تقوم بدوريات مرئية لليمنيين، مما رفع الاحتمال المزعج بوقوع اشتباكات مصرية أمريكية، أما الجنرال "كيرتز لى ماى – Curtis Le May" رئيس أركان القوات الجوية الأمريكية فكان يريد أن يسمح لطياريه بالضرب عند مجرد الرؤية، كما كان مصرا على أنه إذا لم تتسع قواعد الاشتباك قبل ١٥ أكتوبر، فإنه سوف ينهى عملية "السطح الصلب"[٣٠]. وقبل أسبوع من الحد الأقصى الذى حدده "لى ماى"، قرر الرئيس "كينيدى" تخفيض القوة الجوية الرمزية الموجودة فى الظهران بالتدريج، على أن تتمركز قوة مقاتلات من الأسطول السادس وسرب قاذفات "B-47" شرق المتوسط والبحر الأحمر، واعترف الرئيس بأن "الغرض العاجل من هذا التمركز المسبق هو المساعدة على استقرار الأوضاع فى السعودية وتقليل زمن رد الفعل فى حال الحاجة لاستخدام هذه القوة"[٣١].

وبالرغم من أن "كينيدى" لم يعش طويلا ليرى تنفيذ قراراته، فإن "البنتاجون" تحرك بهدوء خلال الأسابيع الأخيرة من ١٩٦٣ لزيادة إمكانيات القوات البحرية والجوية فى الشرق الأوسط لكى يتم سحب طائرات "F-100" من السعودية فى أوائل العام الجديد. استمرت وزارة الخارجية فى مقاومة ما يقال عن "خذلان أصدقائنا السعوديين"، ولكن "ماكسويل تيلور – Maxwell Taylor"، وكان قد أصبح رئيسا للأركان المشتركة منذ وقت قريب، كسب الجدال بقوله: «إذا ظل "السطح الصلب" فى مكانه فسوف تكون الولايات المتحدة مضطرة للرد عسكريا، وإلا فإنها ستفقد مصداقية قوتها العسكرية فى العالم كله وليس فى الشرق الأوسط فقط»[٣٢]؛ وبعد أعياد الميلاد بوقت قصير وافق "ليندون جونسون" على مواصلة خطى سلفه، وأنهى عملية "السطح الصلب" فى ٣١ يناير ١٩٦٤، وفى الوقت نفسه حرك الأسطول السادس إلى شرق المتوسط. وعندما أبلغ الأمير "فيصل" بهذه الأخبار السيئة قبل ذلك بأربعة أيام، حاول أن يخفف من وقع الصدمة عليه ووعده بأن يبيعه أجهزة رادار للإنذار المبكر، وغيرها من أنظمة الدفاع الجوى المضاد للطائرات[٣٣].

أحد الأسباب غير المعلنة لقرار إدارة "جونسون" بإنهاء عملية "السطح الصلب" وتحديد دور أمريكا في جنوب غرب السعودية ببيع معدات عسكرية، هو أن الاستعدادات كانت تجري على قدم وساق في ربيع ١٩٦٤ للتصعيد على نحو كبير في تدخل أمريكا العسكري في جنوب شرق آسيا، وعندما هاجمت زوارق طوربيد ڤيتنام الشمالية مدمرتين أمريكيتين كانتا تقومان بدورية في خليج تونكين في أوائل أغسطس، وافق "ليندون جونسون" على القيام بغارات انتقامية على المنشآت الشاطئية المعادية، وحصل على دعم كامل من "كابيتول هيل" لتأمين موافقة "على بياض" من الكونجرس لشن حرب رئاسية في الهند الصينية؛ وفي أواخر ١٩٦٥ قامت قوة جوية أمريكية تحمل الاسم الكودي "الرعد المتدفق" بقصف ڤيتنام الشمالية بينما كان ٢٠٠٠٠٠ جندي أمريكي تقريبا يحاربون قوات "الڤيت كونج" في الجنوب(٣٤).

التصعيد السريع للحرب في جنوب شرق آسيا في ١٩٦٥ كان يؤكد حكمة وضع حد للتورط العسكري الأمريكي في الشرق الأوسط ليصبح مجرد مبيعات أسلحة. منذ وقعت إدارة "ترومان" الإعلان الثلاثي في ١٩٥٠ كان صناع السياسة الأمريكية يحاولون الحفاظ على توازن تقريبي بين الترسانتين الإسرائيلية والعربية بالتحكم في تدفق الأسلحة الأمريكية والبريطانية والفرنسية إلى المنطقة، وبعد أن بدأت مصر والعراق وسوريا استلام كميات كبيرة من العتاد العسكري السوڤيتي في أواخر الخمسينيات هرعت واشنطن لضمان أمن إسرائيل بإمداد الدولة اليهودية بسيارات چيپ وبنادق حديثة (عديمة الارتداد) في ١٩٥٨ وصواريخ "هوك" مضادة للطائرات في ١٩٦٢(٣٥)، وبنهاية العقد كان تسلح الطرفين قد كاد أن يخرج عن السيطرة، وفي محاولة للحفاظ على التوازن الهش بين إسرائيل والأردن وافقت واشنطن في فبراير ١٩٦٥ على بيع كليهما أكثر من مائتي دبابة من طراز "M-48". مغتاظا من الأدلة الجديدة على تزويد الولايات المتحدة أعداءه اليهود وخصومه العرب بالسلاح، ضغط "عبد الناصر" على "الكرملين" الذي كان قد زوده بأسلحة بما يعادل البليون دولار على مدى العقد السابق، لكي يسرع بتقديم المزيد من العتاد العسكري بما في ذلك زوارق الصواريخ المزودة بأجهزة التوجيه، والقاذفات متوسطة المدى.

بدورها، أثارت خطوة "عبد الناصر" المزيد من القلق للإسرائيليين الذين أسرعوا ببرنامجهم المحلى لإنتاج الصواريخ وجددوا مطالباتهم للولايات المتحدة لتزويدهم بمقاتلات لموازنة الخطر المصرى المتصاعد.

بحلول ربيع ١٩٦٧، سوف يواجه هذا التصاعد فى قوس التسلح صناع السياسة الأمريكية باحتمال استدراجهم إلى حرب شاملة فى الشرق الأوسط، بينما كان الوضع العسكرى فى جنوب شرق آسيا يسير بسرعة "من السيىء إلى المرعب"، وإذا وجدت إدارة "جونسون" نفسها فجأة متورطة فى حربين فسوف يكون من الجحيم بالنسبة لها أن تفى بمتطلبات "كابيتول هيل". "دين راسك" وزير الخارجية و"روبرت مكنمارا" ذكرا "ليندون جونسون" فى أواخر مايو بأن "مشكلة خليج تونكين ما زالت حادة" وبأن قيام "عبد الناصر" بطرد قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة من مراكزها الحدودية فى سيناء، وإغلاقه مضايق تيران فى وجه السفن الإسرائيلية، وحلفه الدفاعى مع الملك "حسين"، كل ذلك كان يجعل الحرب الثانية تبدو أكثر فأكثر احتمالا. يوم الاثنين الخامس من يونيو ١٩٦٧ ضربت الطائرات الإسرائيلية أهدافا مصرية، فى الوقت الذى كانت فيه الدبابات "M-48" تزأر عبر نهر الأردن لتضرب دبابات الملك "حسين" الـ"M-48" كذلك، وتستولى على معظم الضفة الغربية وتحتل القدس الشرقية العربية فى ظرف أربع وعشرين ساعة. إعلان أمريكا الحياد الصارم كان فى نظر الكثيرين من العرب نفاقا. وزير الخارجية المصرى "محمود رياض" قال بحدة للمسئولين الأمريكيين بالقاهرة: "لستم محايدين بالمرة، ولو كانت مصر هى المعتدية لكان الأسطول السادس على شواطئ مصر الآن"[٣٧].

حتى عندما كان "رياض" يتكلم كانت "ليبرتى"، وهى سفينة استخبارات أمريكية تتحرك بتثاقل فى موقعها على بعد ١٣ ميلا من ساحل سيناء فى مهمة استطلاعية، وعلى نحو كان على وشك أن يجر رجل الأسطول السادس فى حرب الأيام الستة. بعد رصد ومراقبة "ليبرتى" لعدة ساعات قامت السفن وزوارق الدوريات الإسرائيلية بالهجوم على الرصيف الطافى لسفينة الاستطلاع مساء ٨ يونيو

بالصواريخ والنابالم والطوربيد، لتقتل ٤٤ جنديا وتجرح ١٧١ آخرين، وقبل أن يضرب الطيارون الإسرائيليون العلم الأمريكى الصغير المرفوع على السفينة وطبق الاتصالات اللاقط، طلب قائدها النجدة من الأسطول السادس الذى كان على مبعدة ٤٠٠ ميل شمالى كريت[٣٨].

خشية أن يكون الروس أو أتباعهم من العرب وراء هذا الهجوم، أصدر قائد الأسطول أوامره لحاملة الطائرات "أميركا" بأن تطلق أربع مقاتلات "F-4" مزودة بصواريخ نووية لمساعدة "ليبرتى"، وعندما وصلت هذه الأخبار واشنطن، كان استياء "مكنمارا" وزير الدفاع شديدا وأصدر أوامره غاضبا "أبلغوا الأسطول السادس بأن يعيد تلك الطائرات فورا"، فنقل الأدميرال "ديفيد ماكدونالد – **David McDonald**" رئيس عمليات البحرية الأمر بعودة الطائرات إلى الحاملة "فورا"؛ وبينما كانت الطائرات الأربع تستدير عائدة ليعاد تجهيزها بأسلحة تقليدية، كان الإسرائيليون قد كشفوا عن الهجوم الذى قاموا به معتبرينه حالة مأساوية مؤسفة نتيجة خطأ، وسمحوا للسفينة "ليبرتى" المعطوبة بالإبحار إلى مالطة للإصلاح[٣٩].

قليل من المراقبين فى واشنطن هم الذين كانوا على استعداد لقبول هذا التفسير الإسرائيلى على محمله الظاهرى، فكان "كلارك كليفورد – **Clark Clifford**"، الصديق القديم للدولة اليهودية الذى رأس الهيئة الاستشارية الاستخباراتية فى إدارة "ليندون جونسون" يقول غاضبا يوم ٩ يونيو: "[ثلاث] موجات من القصف و[ثلاثة] زوارق طوربيد... من المستحيل أن يكون ذلك [مجرد] حادث"، "لابد من التعامل مع الموقف كما لو أن العرب أو الاتحاد السوفيتى هم الذين قاموا بذلك"[٤٠]. وبالرغم من أن الإسرائيليين اعتذروا بشدة ووافقوا فى النهاية على أن يدفعوا ٣,٣مليون دولار تعويضا، ظل بعض المسئولين الأمريكيين يساورهم الشك بأن يكون أحد كبار صناع السياسة الإسرائيلية – وربما وزير الدفاع "موشى دايان" شخصيا – وراء هذا الهجوم[٤١]. فيما بعد كتب "دين راسك" فى مذكراته "لم أكن مقتنعا أبدا بالتفسير الإسرائيلى، إن هجومهم المتواصل من أجل إصابة وإغراق "ليبرتى" يجعل من

المستحيل أن يكون ذلك هجوما بالمصادفة أو من تدبير قائد محلى صغير، لم أصدقهم آنذاك، وإلى الآن ما زلت لا أصدقهم، لقد كان الهجوم وحشيا"(٤٢).

ولأن معظم الوثائق الخاصة بقصة "ليبرتى" ما زال الإطلاع عليها محظورا حتى بعد مرور أكثر من ثلاثين سنة، يظل تفسير منطق أمريكا فى وضع السفينة فى مجال الخطر، أو هدف إسرائيل من إنزال الضرر بها فى حاجة إلى المزيد من البحث والتفكير على ضوء معلومات، وعندما سئل "وولت روستو" مستشار الأمن القومى فى إدارة "چونسون" بعد ذلك بفترة عما كانت تقوم به "ليبرتى" فى شرق المتوسط فى أتون حرب الأيام الستة، أجاب بصراحة: "لقد كنا نتجسس على الجميع.. الإسرائيليين والمصريين... وكانت البحرية السوڤيتية هناك كذلك"(٤٣). على أية حال، كانت الاستخبارات الأمريكية ترصد وتراقب الترددات العسكرية الإسرائيلية، ربما بحثا عن دليل على أن صقور الحرب مثل "موشى دايان" قد يجبروا رئيس الوزراء "ليڤى أشكول" على توسيع الصراع؛ وسواء كان قادة إسرائيل يخشون احتمال أن تزود "ليبرتى" واشنطن بالمزيد من الإنذار المبكر لمنع احتلالهم سوريا، أو أن أجهزة المراقبة المتقدمة "كانت تشوش على الاتصالات العسكرية الإسرائيلية»، كما كانت المخابرات المركزية تشك، يبدو الأمر أكثر من أن يكون مجرد مصادفة أن يرسل "دايان" قواته إلى مرتفعات الجولان بعد ١٥ ساعة فقط من إصابة العيون والآذان الإلكترونية للبحرية الأمريكية بالعمى والصمم(٤٤).

بحلول مساء ٩ يونيو، كانت دمشق قد أصبحت فى مرمى القوات الإسرائيلية، مما رفع إمكانية أن يهرع "الكرملين" لمساعدة أصدقائه السوريين وبدء سلسلة من ردود الفعل والمكاشفة بين القوى العظمى، وبعد عدة سنوات كان "دين راسك" يتذكر: "لقد ألمح السوڤيت إلى أنهم سوف يتدخلون بقواتهم إذا هاجم الإسرائيليون سوريا"(٤٥)، ولمنع مثل هذه النهاية، هرعت إدارة "چونسون" لطلب وقف إطلاق النار وحذرت الروس بأن يظلوا بعيدين؛ وعندما ألمح "الكرملين" فى ١٠ يونيو إلى أن إجراء عسكريا روسيا قد بات وشيكا، قرر "ليندون چونسون" أن "يعكس الأسطول السادس

وجهته لكى يبحر فى اتجاه شرق المتوسط" وهى الخطوة التى "رصدتها وراقبتها الغواصات السوفيتية وأبلغت موسكو بها على الفور". "هارولد سوندرز" خبير شئون الشرق الأوسط فى مجلس الأمن القومى قال فيما بعد إن السوفيت تراجعوا، وقبل الإسرائيليون وقف إطلاق النار "واسترخى الجميع إلى حد ما، حيث كان من الواضح أن القتال كان قد بدأ يتوقف تدريجيا"(٤٦).

حالة اللاسلم واللا حرب غير المريحة التى سادت الشرق الأوسط فى أواخر يونيو ١٩٦٧، عادت للتصاعد بسرعة شديدة بعد ست سنوات لدرجة أنها كادت أن تؤدى إلى تدخل عسكرى من قبل الولايات المتحدة. "السادات"، الذى أصبح رئيسا لمصر بعد موت "عبد الناصر" فى سپتمبر ١٩٧٠، كان مصرا على قلب نتائج حرب الأيام الستة بالدبلوماسية إن أمكن وبالقوات المسلحة إن كان ذلك ضروريا. محبطا بسبب عدم اهتمام الولايات المتحدة وإسرائيل بمحادثات السلام، أجرى السادات اتصالاته السرية بالرئيس السورى "حافظ الأسد" فى أوائل ١٩٧٣ للاستعداد للحرب(٤٧). وفى السادس من أكتوبر، بينما كان معظم الإسرائيليين يحتفلون بيوم "كيپور" شق الجيش المصرى طريقه عبر قناة السويس واندفع فى صحراء سيناء بينما اجتاحت القوات السورية مرتفعات الجولان. فى الأيام الأولى من حرب أكتوبر تراجع الإسرائيليون على كلتا الجبهتين وحلت بهم خسائر ثقيلة فقدوا فيها عشرات الطائرات ومئات الدبابات، وفى الساعات الأولى من يوم ٩ أكتوبر ناشدت رئيسة الوزراء الإسرائيلية "جولدا مائير" إدارة "نيكسون" للبدء فى سد نقص ترسانتها على الفور؛ وبعد محاولة فاشلة لنقل جوى بالاعتماد على الطيران التجارى، قرر الرئيس أن يقوم "البنتاجون" بمهمة الإمداد فى ١٣ أكتوبر. كان "نيكسون" يصرخ فى "هنرى كيسنجر" مستشار الأمن القومى: "أريد كل طائرة... العرب سوف يدينون ذلك على نحو أو آخر، وستكون ورطة، ولكننا نساعد إسرائيل بذلك.. انصرف فورا.. قل لأولئك الناس أن يتحركوا" وفى غضون ٢٤ ساعة كانت حاملة القوات الجوية الأمريكية "C-5A" تهبط بالقرب من تل أبيب محملة بالدبابات وغيرها من العتاد العسكرى(٤٨).

الجسر الجوى الأمريكى قلب الدفة بحسم لصالح إسرائيل ودفع الأعضاء العرب فى "الأويك" إلى فرض حظر على الولايات المتحدة وأغرى الكرملين بالتدخل خلال الأيام الأخيرة من حرب أكتوبر. بعد أن عادت الروح إلى الإسرائيليين نتيجة دعم إدارة نيكسون لهم، استعادوا زمام المبادرة على الضفتين، وعلى أمل استعادة نفوذ موسكو المتضائل فى القاهرة وغيرها من العواصم العربية بينما كانت واشنطن مشغولة بآثار فضيحة "ووتر جيت"، حذر الرئيس السوفيتى "ليونيد بريچنيف" البيت الأبيض فى ٢٤ أكتوبر بأنه سيكون على استعداد لإرسال قوات إلى مصر لمساعدة قوات "السادات" المحاصرة، إذا لم يقبل الإسرائيليون وقفا فوريا لإطلاق النار. بعد سنوات، قال الچنرال "ألكساندر هيج – **Alexander Haig**" رئيس الأركان فى إدارة نيكسون: "كل ما كان عليك هو أن تقرأ الإنذار لتعرف أننا كنا على أبواب حرب عالمية ثالثة". مصرا على الإبقاء على الاتحاد السوفيتى بعيدا عن الشرق الأوسط، رد "البيت الأبيض" بوضع القوات الأمريكية الاستراتيچية فى حالة "**DEFCON-3**" وهى أقصى حالات الاستعداد النووى قبل الحرب الشاملة "لكى يفهم الروس أننا كنا نعنى ما نقول". فى الوقت نفسه كان "هنرى كيسنجر" يحاول إقناع الإسرائيليين بوقف هجومهم مع الوعد بمساعدات عسكرية بما قيمته ٢.٢ بليون دولار. فى النهاية سكتت المدافع فى ٢٦ أكتوبر دون أن تطلق أى من القوتين رصاصة واحدة فى لحظة غضب[٤٩].

بالرغم من احتمال أن تكون الرطانة النووية للپنتاجون قد ساعدت على منع التدخل السوفيتى المسلح، فإن استعراض أمريكا عضلاتها العسكرية التقليدية من المرجح ألا يكون قد أقنع منتجى النفط العرب بالتخلى عن حظر خام الخليج الفارسى الذى فرضوه على أثر مساعدات الولايات المتحدة المنقولة جوا لإسرائيل. الذى لا شك فيه هو أن رئاسة الأركان المشتركة بدأت تطوير خطط طوارئ للاستيلاء على احتياطيات النفط فى المنطقة، كما بدأ مثقفون من الصقور مثل "روبرت تاكر – **Robert Tucker**" يروجون سيناريوهات تدعو القوات الأمريكية للاستيلاء على منطقة غنية بالنفط ممتدة على مساحة ٤٠٠ ميل من الكويت إلى

قطر[٥٠]. وفى مقابلة تم الترويج لها إعلاميا بشكل مكثف عقدها "هنرى كيسنجر" بعد عدة أشهر من موافقة الأعضاء العرب فى "الأوپك" على استئناف تصدير النفط للولايات المتحدة، ألمح إلى أن واشنطن كانت مستعدة للتدخل العسكرى عند الضرورة للابقاء على إمكانية وصولها إلى نفط الخليج الفارسى، و"لابد من أن نكون قد تعلمنا من درس ڤيتنام أن الدخول فى حرب أسهل من الخروج منها" كما قال لأحد مراسلى "نيوزويك" فى يناير ١٩٧٥، ثم لجأ إلى إحدى عبارات النفى الثلاثى التى أصبح مشهورا بها ليقول: "**لا** أقول إنه **ليست** هناك ظروف يمكن **ألا** نستخدم فيها القوة" وبخاصة "إذا كان هناك عمليات خانقة للعالم الصناعى بالفعل"[٥١].

وبالرغم من تبجح "كيسنجر"، كان المسئولون فى البينتاجون يعرفون حدود القوة العسكرية الأمريكية فى الشرق الأوسط فى مرحلة ما بعد ڤيتنام؛ فبعد قراءة دراسة للبحرية الأمريكية صادرة فى ١٩٧٤ بعنوان "الإجراءات الاقتصادية العسكرية المباشرة ردا على استخدام النفط الغربى" مثلا، كتب الأدميرال "چيمس ال. هولوواى – James L.Holloway" قائد العمليات البحرية على عجل: "أصبح من الواضح أننا لا نستطيع القيام بالكثير فى الشرق الأوسط"، وبعد أربع سنوات تحرك "چيمى كارتر" لعلاج هذا القصور بتوقيع مرسوم رئاسى (رقم ١٨) يدعو لإنشاء "قوة انتشار من الوحدات الخفيفة ذات القدرة على التحرك الاستراتيچى" للاستخدام فى المناطق المضطربة مثل كوريا أو الخليج الفارسى، وخلال الشهور الخمس عشرة التالية سيطور البنتاجون مشروعا طموحا لوحدة انتشار سريع قوية مزودة بطائرات هيليكوپتر مسلحة وطائرات برمائية هجومية محملة بكوماندوز من مشاة البحرية، مدعومة من الأسطول الخامس الجديد، متمركزة فى المحيط الهندى[٥٢].

وبالرغم من أن كل ذلك كان يبدو جيدا على الورق، فإن أحداث ١٩٧٩ الجلل كشفت عن "إدارة كارتر" كانت بلا حول ولا قوة فعلية لإخماد ثورة مضادة للولايات المتحدة فى إيران، أو لكى تمنع القوات السوڤيتية من احتلال أفغانستان، وبالرغم من الرطانة القتالية لمبدأ "كارتر" فى يناير ١٩٨٠، فإن فشل "عملية مخلب النسر" بعد

ثلاثة أشهر كان بمثابة رمز لمحدودية قوة أمريكا العسكرية فى الشرق الأوسط. فى الساعات الأولى من ٢٤ أبريل ١٩٨٠ كلفت ثمانية طائرات هيليكوبتر من البحرية الأمريكية من طراز "فحل البحر – Sea Stallion" مع ثلاث طائرات من القوة الجوية "C-130" بالقرب من طهران، للقيام بآخر محاولة فى مهمة إنقاذ لعدد ٥٢ من الأمريكيين كان الإيرانيون قد احتجزوهم رهائن؛ وعندما عطلت الرمال محركات الهيليكوبترات الثلاث كان على "كارتر" أن يوقف العملية فى اللحظة الأخيرة، وفى هذه الحالة من الارتباك والفوضى اصطدمت طائرتان ببعضهما وقتل ثمانية من جنود البحرية[٥٣]. أمام شعب كان ما زال يترنح على أثر كارثة فى ڤيتنام مات فيها ٥٧٠٠٠جندى فى محاولة فاشلة للقضاء على انقلاب شيوعى فى سايجون، كان فشل "كارتر" بمثابة صورة مصغرة أمام معظم الأمريكيين، لقدرة بلادهم المتضائلة على التدخل المسلح فى الخارج.

على مدى السنوات العشرين، تقريبا، منذ أن شن "دوايت إيزنهاور" حربا محدودة فى لبنان، كان دعاة الاستجابة المرنة فى البيت الأبيض ودعاة التصعيد التدريجى فى البنتاجون يضغطون فى اتجاه تدخل أمريكى أعمق، ليس فى جنوب شرق آسيا فقط، وإنما فى الشرق الأوسط كذلك، بينما كانت الإخفاقات التى تتحقق مثل فشل الهجوم على سفينة الاستطلاع "ليبرتى" أو"عملية مخلب النسر" تؤكد أن التدخل المسلح كان، فى الغالب، ثمنه كبيرا. حتى استعراض القوة والردع مثل عملية "السطح الصلب" فى ١٩٦٣ أو رفع درجة الاستعداد النووى القصوى "DEFCON-3" بعدها بعقد، كل ذلك كان يجعل الكثيرين يعتقدون أن مخاطر التصعيد كانت تفوق الفوائد بكثير، وعندما عاد "چيمى كارتر" إلى چورچيا فى يناير ١٩٨١، كانت الولايات المتحدة فى قبضة أعراض ڤيتنام، التى كانت أهم ملامحها نفور غريزى من التدخل العسكرى فى أى مكان؛ أما بالنسبة لعامل الإنقاذ القادم من الغرب الأوسط، الذى تحول إلى ممثل سينمائى وخلف "كارتر" فى الإدارة... فكان يبدو أحيانا أن التدخل العسكرى هو أبسط علاج... التدخل فى كل مكان تقريبا.. بما فى ذلك الخليج الفارسى.

• حركة محفوفة بالمخاطر: "ريجان" والحياد المسلح

انتخب "رونالد ريجان" رئيسا فى نوفمبر ١٩٨٠ لأنه، بشكل عام، كان يطرح حلولا بسيطة لمشكلات الولايات المتحدة المربكة سواء فى الداخل أو فى الخارج. كان علاج الوضع - معدلات البطالة المرتفعة والتضخم الناجم عن زيادة الأسعار التى فرضتها الأوبك - كما أكد ذلك الجمهورى القادم من كاليفورنيا للناخبين مع ضحكة وابتسامة، يتمثل فى ضرائب أقل؛ أما التخلص من أعراض ڤيتنام كما كان يصر فى حملته الانتخابية ثم فى البيت الأبيض فكانت وسائله هى الإرادة الأقوى من أجل الفوز والإنفاق العسكرى الأوسع(٥٤).

اللاعبون الرئيسيون فى فريق السياسة الخارجية الجديد كانوا مجمعين على أنهم بإحياء الروح القتالية للبلاد وتزويد ترسانتها بأنظمة التسليح ذات التكنولوچيا المتفوقة تستطيع إدارة ريجان أن تعيد أمريكا إلى القمة مرة أخرى وتكون رقم واحد. وزير الخارجية "ألكساندر هيج"، الذى تخرج فى "وست پوينت" وكان ما زال يحمل ندوب ڤيتنام و"ووترجيت"، تعهد بألا يخسر مرة أخرى، وكان يرطن بعبارات صاخبة عن سهام تحذير عبر أقواس الآخرين. "كاسپار واينبيرجر - Caspar Weinberger" الذى كان يرأس واحدة من أكبر شركات مقاولات الدفاع قبل وصوله إلى "الپنتاجون" فى أوائل ١٩٨١، استطاع أن يصبح مدافعا عنيدا عن التدخل المسلح بشرط أن يكون لدى الولايات المتحدة الهدف المحدد والعتاد العسكرى المناسب(٥٥). "روبرت مكفارلين - Robert McFarlane" خريج الأكاديمية البحرية الطموح الذى شق طريقه منذ أن كان مستشارا فى وزارة خارجية "هيج"، إلى أن أصبح مستشارا للأمن القومى فى "البيت الأبيض"، كان يفضل سياسة "الضرب أولا ثم طرح الأسئلة فيما بعد" منذ أن أدار مهمة الإنقاذ المعروفة ب الـ"Mayaguez" فى ١٩٧٥، وهى النقطة المضيئة الوحيدة خلال أحلك ساعات إدارة "فورد" فى جنوب شرق آسيا(٥٦).

وبينما كان "ريجان" وكبار مستشاريه يعملون من أجل توفير الإرادة والعتاد اللازمين لإعادة بناء قوة الولايات المتحدة العسكرية، كان الكولونيل "هارى سومرز -

Harry Sumers" أحد قادة حربى كوريا وڤيتنام، مشغولا بوضع الاستراتيچية، مقتنعا بأن الحرب المحدودة والتصعيد التدريجى وغيرها من المفاهيم التى كان يتبناها مثقفو الحرب فى إدارتى "كينيدى" و"چونسون" كانت وصفة لكارثة عسكرية فى جنوب شرق أسيا. كان "سومرز" يركز على "مثلث S: الأمن - المفاجأة - البساطة". - (Security - Surprise - Simplicity). فى كتاب بعنوان "فى الاستراتيچية - On Strategy" وهو أحد أكثر الكتب مبيعا فى ١٩٨٢، يؤكد "سومرز" أهمية تحديد أهداف تكون مرتبطة، بوضوح، بالمصالح الوطنية للولايات المتحدة، واستخدام تكتيكات غير متوقعة هى أقرب إلى الصينية الدوارة منها إلى المصعد المتحرك، وتبسيط وتحديث بيروقراطية "البنتاجون" حتى تتدفق الأوامر على نحو أفضل بحيث يمكن أن تنساب القرارات من أسفل إلى أعلى كذلك[٥٧]. أحد الأمثلة الأولى على فعالية أسلوب "سومرز" فى التدخل العسكرى كان ما حدث فى "جرينادا" عندما أرسل "ريجان" خمسة آلاف من جنود "المارينز" فى أكتوبر ١٩٨٣ للقضاء على انقلاب يسارى، وحماية قرابة ألف سائح وطالب أمريكى كانوا يمرحون على شواطئ عاصمة الكاريبى الشرقى الأشبه بجوزة الطيب، وكانت التكلفة لا تزيد عن ١٩ قتيلا أمريكيا و١١٥ جريحا[٥٨].

قبل يومين فقط من وصول أول جندى أمريكى إلى جرينادا أثبت انفجار عنيف هز لبنان أن التدخل العسكرى فى الشرق الأوسط نادرا ما يذهب فى الاتجاه المخطط له. كان الجنود الأمريكيون على طريق الخطر فى هذا الجزء من العالم منذ صيف ١٩٨٢ عندما اقترح "ريجان" إرسال قوة طوارئ من الجنود الأمريكيين إلى بيروت كجزء من قوة دولية تساعد على استعادة قدر من النظام بعد غزو إسرائيل للبنان. كان "واينبيرجر" وزير الدفاع و"چون ڤيسى - John Vessey" رئيس هيئة الأركان المشتركة يعتقدان أنهما أمام ڤيتنام جديدة فى طور التشكل و"جادلا بأنهما ينبغى ألا يكونا من المشاركين فى ذلك"[٥٩]، ولكن "ريجان" - حسب توصية چورچ شولتز - لم يعبأ بهواجس "البنتاجون"، وكان "شولتز" قد خلف "ألكساندر هيج" المتعطش للسلطة والنفوذ فى منصب وزير الخارجية قبل ستة أسابيع، وبحماية "ياسر عرفات" ومنظمة التحرير الفلسطينية أثناء خروجهم من بيروت، وحماية الفلسطينيين غير المقاتلين الذين

بقوا فى المخيمات خارج العاصمة اللبنانية، كان "شولتز" يعتقد أن القوات الأمريكية تمهد الطريق بذلك لانسحاب إسرائيلى سريع وتضع كلا الجانبين على طريق السلام الدائم. فى ٢٥ أغسطس أرسل ريجان ٨٠٠ جندى من المارينز إلى شواطئ لبنان لينضموا إلى جنود الطوارئ الفرنسيين والإيطاليين المشاركين فى القوة المتعددة الجنسية.

وعلى مدى الشهور الثلاثة عشر التالية ارتفع حجم القوات الأمريكية فى بيروت إلى ١٢٠٠ جندى، وتصاعدت أنشطتها من حفظ السلام بشكل سلبى إلى تدخل متقطع فى الحرب الأهلية اللبنانية، وخلال خريف ١٩٨٢ زاد شك المسئولين فى "البنتاجون" فى أن الوجود العسكرى الأمريكى الرمزى فى لبنان يمكن أن يمنع المزيد من سفك الدماء. وعلى حد تعبير الجنرال "ڤيسى" بعد ذلك بسنوات: "لا أعتقد أن أحدا كان لديه أى توقع بأننا يمكن أن نغير شيئا، كنا كلنا نشعر بالذنب وما زلنا نعتقد أن ذلك كان المكان الخطأ"[٦٢]. بمجرد أن بدأت قوات المارينز تبادل إطلاق النار مع المليشيات الإسلامية فى ربيع ١٩٨٣، استأنف "واينبيرجر" حملته من أجل إنهاء المهمة. "كان شعورى الخاص هو ألا نلزم القوات الأمريكية بأى وضع ما لم تكن الأهداف بالغة الأهمية بالنسبة للمصالح الأمريكية بحيث ينبغى علينا أن نقاتل"، وإذا حدث أن تم الوصول إلى هذه النقطة، كما كتب فى مذكراته، "سيكون علينا أن نلتزم، كملجأ أخير، ليس بقوات رمزية لتحقيق وجود أمريكى فحسب، وإنما بقوات كافية للفوز... الفوز الساحق"[٦٣]. ولكن، بالرغم من إصرار "شولتز" على أن الانسحاب المفاجئ كان يمكن أن يقلل من مصداقية الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، وبرغم استطلاعات الرأى التى كانت تؤكد أن الرأى العام الأمريكى لا يريد المزيد من التصعيد، كان "ريجان" يحاول أن يجد مخرجًا؛ وبنهاية الصيف كانت طلقات الهاون والقناصة المتقطعة قد أودت بحياة ستة من جنود المارينز مما دفع الرئيس أن يصدر أوامره للمدمرة "USS New Jersey" ببدء إطلاق ٢ طن من القنابل على المواقع المعادية فى جبال الشوف ذات القمم المغطاة بالثلوج المطلة على بيروت[٦٤].

بعد فجر ٢٣ أكتوبر ١٩٨٣ تبدد كل أمل فى أن تقلل دبلوماسية السفن المسلحة حجم الخطر المعرضة له القوات الأمريكية الموجودة فى لبنان، عندما دمرت شاحنة مفخخة مجمع قوات المارينز فى مطار بيروت وحولته إلى ركام وتخلف ٢٤١ قتيلا ومائة جريح؛ وعلى وجه السرعة أكدت المخابرات الأمريكية أن العملية كانت بتدبير من "الجهاد الإسلامى"، وهى جماعة من المتطرفين المعادين للولايات المتحدة ممولة من إيران ومتمركزة فى وادى البقاع اللبنانى، وأنها نفذت هذا العمل الإرهابى بينما كان جيش الاحتلال السورى يدير وجهه إلى الناحية الأخرى. بعد أن تعهد "ريجان" للشعب الأمريكى على شاشة التلفزيون "بأن الذين قاموا بهذا العمل لابد من أن ينالوا جزاءهم.. وسوف ينالونه"، أصدر أوامره لطائرات البحرية الأمريكية فى أوائل سپتمبر بأن تنطلق من الأسطول السادس لضرب أهداف مختارة فى بعلبك، إحدى مدن وادى البقاع التى كانت تأوى قيادات "الجهاد الإسلامى"[٦٥].

ومع نهاية صيف ١٩٨٣ كانت الضغوط تتزايد داخل وخارج إدارة "ريجان" لوقف الضربات الجوية ضد البقاع وسحب قوات المارينز من بيروت وتقليص التدخل الأمريكى فى لبنان قبل أن تصل الأوضاع إلى ما هو أكثر خطورة من ذلك، وبينما لم يكن أحد فى واشنطن متأكدا من أن استمرار استعراض القوة الجوية البحرية على البقاع يمكن أن يؤدى إلى ردع "الجهاد الإسلامى"، كان الكل يستشعر خطرا حقيقيا فى التورط اللاإرادى فى حرب أوسع، وخاصة بعد أن أسقطت صواريخ SAM السورية (التى حصلوا عليها من الروس) طائرتين أمريكيتين فى ٤ ديسمبر. حاول "ريجان" فى حديث له أمام الكونجرس بعد عشرة أيام أن يبرر حالة لبنان عندما قال "إن انسحابا يتم قبل أوانه للقوة متعددة الجنسية سيلحق ضررا شديدا بمصداقية الولايات المتحدة وشركائها أمام العالم، ويضع تعهد الغرب بتنفيذ مسئولياته لكى يساعد العالم الحر على الدفاع عن نفسه موضع المساءلة"[٦٦].

ولكن بعد الكشف عن تقرير للپنتاجون كان شديد الانتقاد لعملية قصف بيروت وللمهمة التى نفذت فى لبنان بكاملها، أصبح لدعاة الانسحاب المبكر الكلمة العليا، أما

وزير الدفاع "واينبيرجر" الذى كان محبطا بسبب ما كان يسميه "التركيز الأبله على خيارات عسكرية غير كافية كوسيلة للسيطرة بينما كان المشهد السياسى اللبنانى يتشقق تحت أقدامنا فى الواقع"، فقد بدأ فى وقت باكر من العام الجديد "يدفع بشدة نحو ضرورة إخراج رجالنا من ذلك الوضع المستحيل الذى أسهم كثيرا فى المأساة"(٦٧). هذه الحجج كان يؤيدها بشدة كبير مستشاريه، كولونيل طموح وزكى فى السادسة والأربعين من العمر اسمه "كولن پاول –Colin Powell" الذى كتب فى مذكراته: "كانت أمريكا تضع يدها فى عش زنابير عمره ألف سنة متصورة أن مجرد وجودها من شأنه أن يهدئ الزنابير" مضيفا أن "الرمز" أو "الوجود" الذى تقدمه "ليس جيدا بما يكفى" فى مستودع للجثث مثل لبنان(٦٨). وبعد ستة أسابيع من البحث عن وسيلة لحفظ ماء الوجه والخروج من هذا المستنقع، أعلن "ريجان" فى السابع من فبراير ١٩٨٤ "إعادة انتشار المارينز" من مطار بيروت إلى سفنهم بالقرب من الساحل "بأسرع ما يمكن"(٦٩)، مؤكدا للصحفيين بعد أسبوعين "إننا لا ننسحب وإنما ننتقل إلى وضع دفاعى أفضل"(٧٠). "روبرت ماكفارلين" مستشار الأمن القومى قدم تقريرا أكثر كآبة عن ورطة لبنان عندما قال بعد ذلك "لقد كانت واحدة من أكبر هزائم إدارة ريجان"(٧١).

بالرغم من أن آخر جندى من المارينز غادر بيروت فى ٢٦ فبراير ١٩٨٤ فإن التدخل فى لبنان كان مفيدا كدرس تحذيرى، كلما فكر صناع السياسة الأمريكية فى التدخل العسكرى مرة أخرى فى الشرق الأوسط فى فترة إدارة "ريجان" الثانية. أمضى "واينبيرجر" و"پاول" معظم الشهور التسعة التالية فى تطوير ستة اختبارات رئيسية يمكن تطبيقها عند التفكير فى استخدام القوات الأمريكية فى الخارج"، ومن بين الاعتبارات الأكثر أهمية كما قال "واينبيرجر" أمام نادى الصحافة الوطنية فى نوفمبر ١٩٨٤ "الأهداف السياسية والعسكرية المحددة بوضوح" و"الاستعداد لتوفير القوات والموارد الضرورية اللازمة لتحقيق أهدافنا" و"تأكد بنسبة معقولة من أننا سوف نحظى بتأييد الشعب الأمريكى" وممثليه فى "كاپيتول هيل"(٧٢)، وبعد ذلك، كان "پاول" يعلق على ذلك بقوله: "من المؤكد أن "كلاوزفيتز" كان ليصفق لذلك" و"فيما بعد،

عندما أصبح من بين مسئولياتى أن أقدم المشورة للرئيس بخصوص توفير قوات للقتال، كانت قواعد "واينبيرجر" دليلا عمليا لنا"[٧٣].

أول فرصة لكى يطبق "واينبيرجر" قواعده فى الشرق الأوسط سوف تجىء فى ربيع ١٩٨٦، عندما تدفع مساعدة ليبيا للهجمات الإرهابية على السائحين والجنود الأمريكيين فى أوروبا إلى الانتقام من "معمر القذافى". فى أواخر مارس حرك "ريجان" الأسطول السادس نحو خليج "سيدرا" المتنازع عليه، وهى المياه الدولية التى كان "القذافى" قد أعلن قبل وقت قليل أنها "منطقة الموت" التى ستكون فيها كل السفن الحربية والتجارية الأمريكية مستهدفة. وبعد أن أغرقت البحرية الأمريكية أربعا من زوارقه الصاروخية الموجهة وضربت معظم بطاريات صواريخ "SAM" التى أعطاها له السوفيت، دعا "القذافى" إلى المواجهة - من أجل الحرب" وتعهد توسيع النضال "فى كل العالم"[٧٤]، وبعد فترة قصيرة جدا كانت القنابل تنفجر على متن إحدى طائرات "TWA" التى كانت تحمل أمريكيين متجهين إلى أثينا، وأمام ناد ليلى فى برلين الغربية يرتاده الجنود الأمريكيون، مخلفة ستة قتلى وعشرات الجرحى، وبمجرد أن أكدت المخابرات المركزية الأمريكية أن الحادثين كانا من تدبير المخابرات الليبية أعطى "البيت الأبيض" الضوء الأخضر لـ"عملية وادى ألدورادو". يقول "واينبيرجر" فى مذكراته: "كان الهدف من خطتنا هو تلقين "القذافى" وغيره درسا بأن ممارسة الإرهاب لن تكون مجانية بالنسبة لهم وأنهم سيدفعون ثمنا باهظا عنها"[٧٥].

قبل فجر يوم ١٥ أبريل ١٩٨٦ مباشرة قامت ١٨ طائرة من طراز "F-111" القاذفة - المقاتلة من الموجودة فى إنجلترا وعشرات الطائرات من طراز "F-16" التابعة للأسطول السادس منطلقة من خليج سدرا لتدمير معظم قوة القذافى الجوية التى بناها له السوفيت كما دمرت استراحته الرسمية، وبالرغم من أن القذافى نجا من الموت فإن عشرات الليبيين قتلوا ومن بينهم ابنة له بالتبنى كان عمرها خمسة عشر شهرا، بينما لم تزد الخسائر الأمريكية عن طائرة واحدة من طراز "F-111" وطاقمها[٧٦]. مع ملاحظة أن "القذافى لم يقل شيئا على الإطلاق على مدى عدة أشهر

بعد الهجوم"، كان "واينبيرجر" يعتبر الغارة على ليبيا "عبارة عن كل ما يريده أى شخص لإثبات صواب ما نقوم به لإعادة بناء قوتنا العسكرية، واختيار الوقت الملائم لاستخدامها". كانت "عملية وادى ألدورادو" نموذجا دراسيا للتدخل الناجح كما كان يعتقد واينبيرجر، وذلك لأن كبار المسئولين فى البنتاجون، على عكس ما حدث فى لبنان، أصروا على "حشد قوات كافية والعمل بحسم وكفاءة لتحقيق كل الأهداف التى حددها الرئيس"(٧٧).

تطبيق قواعد "واينبيرجر" ضد "القذافى" فى حرب الساحل الشمالى المغربى باستخدام التكنولوجيا الحديثة، كان أسهل من تطبيقها على بعد ٢٠٠٠ ميل فى الجانب الآخر من الشرق الأوسط حيث كان صراع دموى بين العراق وإيران عمره ست سنوات، قد بدأ بحلول صيف ١٩٦٨ يهدد مصالح الولايات المتحدة القومية فى الخليج الفارسى. أسباب هجوم الدكتاتور العراقى "صدام حسين" المفاجئ على إيران "آية الله الخمينى" لم تكن عصية على الفهم. النزاع القديم الضارى بين بغداد وطهران على طريق شط العرب المائى على رأس الخليج الفارسى، والشكوك المتنامية بين النخبة العراقية السنية الحاكمة فى الأصولية الشيعية المجاورة لهم فى إيران، وطموحات "صدام" القومية المتزايدة، كل ذلك جعل الحرب تبدو خيارا جذابا فى سبتمبر ١٩٨٠(٧٨). على أية حال، لم يتحقق الانتصار العراقى الخاطف المتوقع على نظام إيرانى كان ما زال فى مخاض الثورة، ووقع البلدان أسرى حرب استنزاف ضارية، كانت تبدو فيها إيران الأكثر كثافة سكانية صاحبة اليد العليا، ولأن إدارة "ريجان" كانت مقتنعة تماما بأن انتصار "الخمينى" سيكون نذيرا بكارثة محققة للغرب، قامت سرا بتزويد "صدام حسين" بصور القمر الاصطناعى التى توضح أماكن انتشار القوات الإيرانية فى ١٩٨٢، وقدمت للعراق قرضا زراعيا فى ١٩٨٣ كما سَرَّبت – عن طريق السوق السوداء – الأسلحة للجيش العراقى المنهك فى ١٩٨٤(٧٩).

ما من شك فى أن هذا الانحياز لبغداد اهتز إبان قضية "إيران – كونترا" فى ١٩٨٥–١٩٨٦، فعلى أمل الفوز بإطلاق سراح سبعة أمريكيين كان قد تم اختطافهم

من قبل متطرفين من "حزب الله" الموالى لإيران في بيروت، وجمع عدة ملايين من الدولارات نقدا من أجل ثوار نيكاراجوا الذين كانوا يحاربون نظام "الساندينستا" فى "مانجوا"، قام "أوليفر نورث Oliver North" - من مجلس الأمن القومى - سرا بالترتيب لبيع الإيرانيين ٥٠٠ صاروخ أمريكى مضاد للدبابات لاستخدامها ضد العراقيين، وعندما فشل الوسطاء الإسرائيليون فى تسليم كل الصواريخ رفض "حزب الله" إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين، وفى النهاية فشلت "الفكرة النظيفة" (Neat Idea) لـ:"أوليفر نورث" فى أن تثبت أنها كانت نظيفة بالمرة. وبحلول خريف ١٩٨٦ كان الديمقراطيون فى مجلسى النواب والشيوخ يشتاطون غضبا لانتهاك إدارة "ريجان" الحظر التشريعى على معونات الولايات المتحدة للكونترا، كما كان "صدام حسين" قد شن هجوما آخر على إيران، و"آية الله الخمينى" قد صَعَّدَ "حرب الناقلات" التى كانت تهدف إلى عرقلة تدفق النفط إلى المستهلكين الأوروبيين عبر الخليج الفارسى(٨٠).

بين عامى ١٩٨٤ و١٩٨٦ دمرت الألغام وزوارق الطوربيد الإيرانية ٨٦ ناقلة نفط، بما فيها ثمانية مسجلة فى الكويت، ورفعت أسعار الجازولين ومعدلات التأمين البحرى إلى حد كبير، وفى ١٣ مايو ١٩٨٧ كانت حكومة الكويت تسأل ما إذا كان المسئولون الأمريكيون على استعداد للسماح لأحدى عشرة ناقلة كويتية بأن ترفع العلم الأمريكى، وبعد أن عرفت إدارة "ريجان" أن الكويتيين كانوا قد تقدموا للكرملين بالطلب نفسه وافقوا على طلب الكويت فى ٢٩ يناير، وأعلنت الإدارة بعد خمسة أسابيع أن البحرية الأمريكية سوف تصحب الناقلات المرفوع عليها العلم عبر منطقة القتال فى الخليج الفارسى(٨١). "كاسپار واينبيرجر" ذكر منتقدى قرار إدارة "ريجان" هذا بأنه إذا لم تقبل الولايات المتحدة طلب الكويت "فإننا بذلك نكون قد قبلنا حق إيران فى إغلاق المياه الدولية للخليج"، بل والأسوأ أننا نكون قد فتحنا الباب أمام الكرملين "الذى سيكون أكثر سعادة لأنه سيصبح الضامن الوحيد لأمن دول الخليج الصغيرة"(٨٢).

لم يكن من المستبعد أن تجر عملية رفع العلم الأمريكي واشنطن إلى حرب في الخليج الفارسي، بعد أن ضرب صاروخ عراقي ضل توجهه الغواصة الأمريكية "USS Stark" في ٧ مايو ١٩٨٧ ليقتل سبعة وثلاثين جنديا؛ وفي أوائل يونيو كان "سام نان – Sam Nun" (نائب ديمقراطي من چورچيا) الذي رأس لجنة الخدمات العسكرية في مجلس النواب يقول: "عدة مرات كنا في مواقف صعبة في الخارج وعَرَّضنا جنودنا لأخطار جسام دون تفكير، من وجهة نظر قيادتهم في ما تنطوي عليه هذه الخطوات"، وقبل أن يزداد تورط الولايات المتحدة في الخليج الفارسي كان "نان" يطلب الإجابة عن "بعض الأسئلة الأساسية" مثل: "هل تزيد هذه المبادرة لحماية الناقلات الكويتية من احتمالات جر رجل الولايات المتحدة مباشرة في الحرب بين العراق وإيران؟"(٨٣). وفي شهادة أمام لجنة "نان" في ٥ يونيو، كان الأدميرال "وليم كراو – William Crowe" الذي كان قد خلف "چون ڤيسي" قبل فترة قصيرة في رئاسة هيئة الأركان المشتركة، مصرا على أن "لدينا القدرة على المحافظة على خط النفط إلى الكويت مفتوحا، وأن نطمئن أصدقاءنا العرب على التزامنا وأن نجعل المخاطر في حدودها الدنيا"، إلا أن الأدميرال كان لابد من أن يعترف بأنه "لا توجد ضمانات نهائية بأن مثل هذه العملية سيكون بلا خسائر أو بأن إيران لن تصعِّدَ حرب البحر التي ستضعنا أمام خيارات صعبة"(٨٤).

على مدار الأسبوعين التاليين كان المسئولون في إدارة "ريجان" يحاولون بكل الطرق إقناع "نان" وغيره من المتشككين في "كاپيتول هيل" بأن عملية رفع العلم الأمريكي على الناقلات الكويتية كانت عملية حصيفة، كما أكد "مايكل آرماكوست – Michael Armacost" وكيل الخارجية أن "هدفنا هو الردع... وليس الاستثارة" "هذا ليس التزاما مفتوحا أمام كثير من الدول الأخرى"(٨٥). أعداء أمريكا في طهران وموسكو كما قال "ريتشارد أرميتاچ – Richard Armitage" مساعد وزير الدفاع أمام لجنة الخدمات العسكرية في ١٦ يونيو سيكونون أكبر الرابحين إذا تم إجبار "ريجان" على إلغاء "عملية العزم الصادق"، وهو المسمى الجديد الذي أصبحت تعرف به عملية رفع العلم الأمريكي على الناقلات الكويتية. كان الإلغاء يعني "إما تقوية موقف

الإيرانيين أكثر من ذلك لاستعداء الكويت، أو ترك السوفيت يتقدمون فى منطقة شديدة الحيوية بالنسبة لنا، كان ثمانية رؤساء قد نجحوا على مدى أربعين عاما فى إبعادهم عنها". كان ذلك هو آخر ما قاله "آرميتاچ" بعبارات "ملتفة" مثل سياسة الولايات المتحدة فى الخليج الفارسى[٨٦]. وبالرغم من أن مجلس الشيوخ كان منتبها لكلمات "آرما كوست" و"آرميتاچ"، ولم ينه عملية "العزم الصادق"، فإن تقريرا للجنة العلاقات الخارجية صادر فى نوفمبر ١٩٨٧ يشير إلى أن أهداف الولايات المتحدة ظلت "غامضة على نحو خطر" وتنذر بأن "هذه المغامرة قد تجرها للحرب"[٨٧].

وكما كان يتوقع "أنبياء كاپيتول هيل"، فإن عملية رفع العلم الأمريكى على الناقلات الكويتية جَرَّت البحرية الأمريكية إلى أوسع اشتباكات سطحية لها منذ الحرب العالمية الثانية؛ ففى الفترة الأخيرة من ١٩٨٧ وأوائل ١٩٨٨ ضاعف البنتاجون الوجود البحرى فى الخليج الفارسى من ست سفن حربية إلى ثلاث عشرة، ووافق على مائة مهمة حراسة فى إطار "عملية العزم الصادق"؛ وكان رد طهران المزيد من وضع الألغام فى طريق الناقلات وقصف القوافل من أرصفة الشحن البحرية ونشر صواريخ "دودة القز" الصينية الصنع بطول خليج هرمز عند مدخل الخليج الفارسى. وبعد أن اصطدمت فرقاطة كانت تحرس ناقلة كويتية بلغم بحرى فى منتصف أبريل وأوشكت على الغرق أطلق البنتاجون عملية جديدة باسم "فرس النبى المبتهل". وفى صباح ١٨أبريل نجحت البحرية الأمريكية فى إعطاب نصف القوة البحرية الإيرانية وشل حركتها (فرقاطتان وستة زوارق طوربيد فائقة السرعة)، كما دمرت اثنين من الحفارات الإيرانية الطافية العاملة فى الحقول البحرية، ودمرت بطاريات صواريخ "دودة القز"، بينما فقدت الولايات المتحدة طائرة استطلاع هيليكوبتر وطاقمها المكون من فردين[٨٨].

وبعد أن لدغتهم "فرس النبى المبتهل" أنهى الإيرانيون حرب الناقلات بالتدريج بينما كثفت الولايات المتحدة دورياتها فى الخليج. وفى فجر ٣ يوليو اكتشفت السفن الأمريكية طائرة ضخمة – غير محددة الهوية – متجهة نحوها. ومصمما على ألا يلقى

نفس مصير الغواصة "Stark"، أطلق قائد "Vincennes" صاروخين حراريين ليدمرا طائرة ركاب إيرانية وتقتل ٢٩٠ مسافرا كانوا على متنها. كشفت الكارثة الجوية الإيرانية، رغم الادعاء بأن ذلك لم يكن مصادفة، عن المدى الذى يمكن أن تذهب إليه الولايات المتحدة فى مساعدتها للعراق، فأعلن "آية الله الخمينى" فى ١٨ يوليو عن استعداد حكومته لقبول وقف لإطلاق النار فى الخليج الفارسى برعاية الولايات المتحدة حرصا على حياة "المدنيين الأبرياء" الآخرين. وبالرغم من خطاب "الخمينى" الإنسانى، ربما تكون آخر خسائر الحرب الإيرانية العراقية هى أرواح ٢٧٠ من "المدنيين الأبرياء"، لقوا حتفهم بعد أن استجاب إرهابيون ليبيون لدعوة "الخمينى" للثأر، وفجروا طائرة "پان أميركان ٧٤٧" فى الجو فوق "لوكيربى - استكلنده" بعد خمسة أشهر(٨٩).

باختصار، لم تكن كل مغامرات إدارة "ريجان" ناجحة فى الشرق الأوسط، ودائما كان للتدخل العسكرى ضحاياه من العسكريين والمدنيين ومن المسلمين والأمريكيين: والمؤكد أن "المارينز" لن ينسوا أحداث مطار بيروت، كما أن البحرية سوف تتذكر "Stark" دائما، ولكن عندما أكمل أكثر الرؤساء الأمريكيين شعبية على مدى جيل كامل فترة إدارته الثانية، كان على يقين من أن الأمريكيين كانوا يودعون كارثة ڤيتنام خلفهم. قبل أن يغادر المكتب البيضوى باثنى عشر شهرا تلقى "ريجان" تقريرا من اللجنة التى شكلها لوضع استراتيچية متكاملة بعيدة المدى. كانْ التقرير يؤكد استعادة الولايات المتحدة لقدرتها على الردع المتميز" تدريجيا، وعلى شن حروب صغيرة خاطفة؛ إلا أن "زبيجنيو بريچنسكى" و"هنرى كيسنجر" وغيرهما من نجوم الاستراتيچة الذين كانوا ضمن اللجنة كانت لهم شهادات مختلفة إلى حد ما، فقد أنهى أعضاء اللجنة تقريرهم بالعبارات التالية: "ما زال فشلنا فى ڤيتنام يلقى بظلاله على تدخل الولايات المتحدة فى أى مكان، كما أن الانتكاسات الأخرى التى لقيناها - وبخاصة تلك فى لبنان - جعلت البعض يجنح إلى التشاؤم بخصوص قدرتنا على الحفاظ على مصالح الولايات المتحدة فى العالم الثالث" و"إن لم نستطع أن نوقف هذا التأثير التراكمى أو أن نعكس اتجاهه فى المستقبل فسوف يضعف قدرة أمريكا على

الدفاع عن مصالحها فى أكثر المناطق حيوية مثل الخليج الفارسى والبحر الأبيض المتوسط وغرب الباسيفيك"(٩٠). إيقاف هذا التأثير التراكمى، مرة وإلى الأبد، سيكون أولى مهام خليفة "ريجان" بعد أغسطس ١٩٩٠.

• الخلاص من أعراض ڤيتنام: "چورچ بوش" وحرب الخليج

بالرغم من أن "رونالد ريجان" كان مسئولا، إلى حد كبير، عن إعادة بناء ترسانة أمريكا العسكرية وإذكاء الروح القتالية للأمة مجددا، فإن "چورچ بوش" استخدم هذا الإرث جيدا لكى يحقق انتصارا ساحقا فى الخليج الفارسى، كان يعدُّ - الانتصار - بعكس اتجاه أعراض ڤيتنام. خلال السنوات الثمانية التى عمل فيها نائبا لـ"ريجان" كان "بوش" يعمل كذلك على نحو وثيق مع "چورچ شولتز - George Shultz" و"روبرت ماكفارلين - Robert McFarlane" ومدير المخابرات المركزية "وليم كازى -William Casey" لتعزيز الوجود العسكرى الأمريكى فى الشرق الأوسط، كما كان شديد الحماسة والتقدير لاستعراض القوة الذى قدمه "البنتاجون" أثناء عمليات "وادى ألدورادو" و"فرس النبى المبتهل"، كما دعم قرار "ريجان" برفع العلم الأمريكى على ناقلات النفط الكويتية، وعمل، من وراء ستار، فى واشنطن من أجل المساعدة فى حصول "صدام حسين" على التكنولوچيا الحديثة ذات الاستخدام المزدوج، الأمر الذى حقق للعراق تفوقا عسكريا على إيران "الخمينى"(٩١).

عندما أصبحت للرئيس "چورچ بوش" ووزير خارجيته "چيمس بيكر - James Baker" السيطرة على السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى ٢٠ يناير ١٩٨٩، يبدو أنهما كانا يتصوران أن صدَام أمريكا الأخير مع إيران وحاجة "صدام حسين" للمساعدة الغربية من أجل إعادة بناء اقتصاده الذى مزقته الحرب هما الضمان لعلاقة أفضل بين واشنطن وبغداد، ولأنهما كانا مشغولين بإنهاء الحرب الباردة والحفاظ على علاقات طيبة مع الرئيس السوڤيتى "ميخائيل جورباتشوف"، وتشجيع الديمقراطية فى أوروبا الشرقية، لم يعط "بوش" ولا "بيكر" اهتماما كبيرا للشرق الأوسط خلال السنة

الأولى لهما في الإدارة، ولكن القرارات القليلة التي اتخذاها بشأن حرب الخليج الفارسي كانت مبنية على افتراض أنه كان بالإمكان التوصل إلى تسوية مع "صدام حسين". منذ يناير ١٩٨٩، كان فريق وزارة الخارجية الانتقالي يرى أنه "ربما تكون الدروس المستفادة من الحرب مع إيران قد غيرت العراق من دولة راديكالية تتحدى النظام إلى دولة أمر واقع مسئولة، تعمل مع النظام وتنتهج الاستقرار في المنطقة"[٩٢]. هذه الأفكار تحولت إلى سياسة بعد تسعة أشهر عندما وقع "بوش" التوجيه رقم ٢٦– أمن قومي (NSD-26) في ٢ أكتوبر. هذا التوجيه، الذي لم ينتبه إليه كثيرون آنذاك، كان يعطي تعليمات لصناع السياسة الأمريكية لوضع "حوافز اقتصادية وسياسية للعراق لكي تتبنى سلوكا معتدلا وتزيد من نفوذنا هناك"[٩٣].

والحقيقة أن أهم مبادرة لإدارة "بوش" في العالم الثالث في سنة ١٩٨٩ لم تكن في الخليج الفارسي وإنما في پنما، حيث أطلق "البنتاجون" عملية "القضية العادلة"؛ ففي أكبر مظهر لاستعراض القوة العسكرية الأمريكية منذ ڤيتنام، تم إنزال ٢٢٥٠٠ جندي أمريكي لتأمين قناة پنما وحماية أرواح وممتلكات الأمريكيين وإلقاء القبض على "مانويل نورييجا –Manuel Noriega" رئيس پنما، الذي وصفه رئيس هيئة الأركان العامة الجديد الكولونيل "كولن پاول – Colin Powell" بأنه "شمام أفيون وقاطع طريق"[٩٤] وبرغم حزنه على الثلاثة وعشرين أمريكيا والثلاثمائة پنمي الذين ماتوا في العملية، اعترف "پاول" بأن "القضية العادلة": "أكدت كل قناعاتي على مدى السنوات العشرين الماضية، منذ أيام الشك بخصوص مسألة ڤيتنام". كانت الدروس المستفادة من عملية پنما واضحة. "أن يكون لديك هدف سياسي واضح وتتمسك به. أن تستخدم كل القوة اللازمة ولا تعتذر عن استخدامها على نطاق واسع عندما يكون ذلك ضروريا" كما كتب في مذكراته، وأن "القوة الحاسمة تنهي الحروب بسرعة وتنقذ الكثيرين على المدى البعيد، كما كنت أنوي أن تكون هذه القواعد هي "الأساس الوطيد" لعملي العسكري في حال أي أخطار نواجهها في المستقبل"[٩٥].

غزو الكويت في ٢ أغسطس ١٩٩٠ أوضح لكل من "پاول" وللرئيس الذي كان يعمل معه نوع الخطر – بالضبط – الذي كان يمكن أن تواجهه الولايات المتحدة في

المستقبل. التخطيط والبناء السريع لعملية "درع الصحراء" خلال الأشهر الثلاثة التالية أكد أن كلا من "پاول" و"بوش" كانا متفقين على قاعدة واحدة للتدخل لها أساسها الوطيد: إذا كان للولايات المتحدة أن تتدخل فى الخليج الفارسى، فلابد من أن يكون ذلك على نحو أكبر وأكثر حسما مما كان فى پنما، وفى الضوء الواضح لكل السوابق، فإن هجوم "صدام حسين" على الكويت كان متوقعا أو كان يمكن التنبؤ به، مثلما كان هجومه على إيران قبل عقد. بعد أن أهدر ما يقرب من نصف تريليون دولار وربع مليون نفس عراقية ليحقق ورطة عسكرية مع إيران، لم يخف "صدام حسين" فى ربيع ١٩٩٠ أنه كان يتوقع أن يقوم الكويتيون وغيرهم من العرب الأغنياء بالنفط بمساعدته فى إعادة بناء ترسانته واقتصاده بإسقاط ما يقرب من مائة بليون دولار من الديون بسبب الحرب. وبرفع سعر خام الخليج الفارسى إلى ٢٥ دولارا للبرميل، ومع اقتراب فصل الصيف زاد درجة الحرارة بإشعال نزاعين حدوديين كامنين مع الكويت، الدولة التى كان معظم العراقيين يعتبرونها محافظة عراقية مفقودة، وفى ١٨ يوليو حذر "صدام حسين" أمير الكويت "جابر الأحمد الصباح" أنه ما لم تترك الكويت للعراق السيطرة الكاملة على حقل الرميلة الممتد عبر الحدود بين الدولتين وجزيرتى "واربه" و"بوبيان" اللتين كانتا تعوقان وصول بغداد إلى الخليج الفارسى، فإنه ستكون هناك مشكلات خطرة[٩٦].

بحلول أواخر يوليو، كان كبار صناع السياسة الأمريكية يعبرون عن قلقهم بسبب غرائب "صدام" القتالية المتصاعدة. المسئولون فى الخارجية الذين كان ما زال لديهم بعض الأمل فى إمكانية استيعاب "صدام" ضمن الأسرة الدولية من خلال الحوافز الاقتصادية مثل تلك التى حددها توجيه الأمن القومى "NSD-26" قبل عشرة أشهر، عملوا كثيرا فى فصل الصيف لتعطيل تشريع فى الكونجرس يلغى القرض الزراعى الأمريكى للعراق، الذى كانت تبلغ قيمته ما يقرب من ٤٠٠ مليون دولار بسبب انتهاك "صدام" لحقوق الإنسان فى بلاده، ولكن إدارة "بوش" أرادت أن تظهر التزاماتها لجيران العراق القلقين فى ٢١ يوليو بالموافقة على مشاركة الولايات المتحدة فى مناورات مشتركة فى الخليج الفارسى مع القوات المسلحة للإمارات العربية

المتحدة. شاعرا بالاستياء والضيق بسبب هذا الاستعراض العسكرى الأمريكى المتواضع، استدعى "صدام" السفيرة الأمريكية "أبريل جلاسپى – April Glaspie" إلى وزارة الخارجية العراقية بعد أربعة أيام، فى سابقة من أكثر السوابق الدبلوماسية تناقضا فى التاريخ الحديث(٩٧).

وبحسب الترجمة العراقية لاجتماع ٢٥ يوليو ١٩٩٠ أبلغ "صدام" السفيرة بأن على الولايات المتحدة أن تنأى بنفسها عن النزاعات العربية، مضيفا بلهجة حادة "ما معنى أن تقول أمريكا إذن إنها سوف تحمى أصدقاءها؟"، "هذا الموقف، بالإضافة إلى المناورات والتصريحات الصادرة شجع الإمارات والكويت على إهمال حقوق العراق"، ويبدو أن "جلاسپى" التى تتحدث العربية وكان قد سبق لها العمل فى الخارجية عندما عينت فى الخليج منذ الستينيات، اتخذت موقفا مهادنا، مؤكدة للدكتاتور العراقى أن "ليس لنا أى رأى فى الصراعات العربية –العربية مثل نزاعكم الحدودى مع الكويت"(٩٨)؛ وبعد عودتها إلى واشنطن، رفضت السفيرة الرواية العراقية للقاء ووصفتها بأنها "مفبركة"، و"مشوهة"، زاعمة أنها قالت لـ"صدام": "نحن مصممون على أن تتم التسوية بأسلوب بعيد عن العنف، وليس بالتهديد أو التخويف، وبالقطع ليس من خلال العدوان"؛ أما النص الذى يمكن الاطلاع عليه من تقرير "جلاسپى" عن لقاء ٢٥ يوليو فيؤكد أنها أبلغت الرئيس العراقى بـ"إننا لا يمكن أن نسمح بتسوية النزاعات بغير الوسائل السلمية"، وأنه أكد لها "لن يحدث أى شىء" قبل أوائل أغسطس، ولكن عندما سألها – بعد أشهر – "لى هاميلتون – Lee Hamilton" عضو الكونجرس (ديمقراطى من إنديانا كان يرأس اللجنة الفرعية الخاصة بالشرق الأوسط) ما إذا كانت قد قالت لصدام "إذا اجتزتم الحدود ودخلتم الكويت فسوف نحارب" أجابت "جلاسپى" مع وخزة ندم: "لا.. لم أقل ذلك"(٩٩).

فى الأيام التالية مباشرة للقاء "جلاسپى" الخطر مع "صدام" اكتشفت المخابرات المركزية أدلة قاطعة على أن الدكتاتور العراقى كان على وشك اجتياح الحدود، وفى ٣٠ يوليو أبلغ أحد محللى وكالة المخابرات العسكرية، المسئول عن رصد ومتابعة شئون الخليج الفارسى، محذرا رئيسه، بأن العراق قد حشد أكثر من مائة

ألف جندى بالإضافة إلى مئات مدافع الهاوتزر والدبابات وطائرات الهيليكوپتر على امتداد حدوده الجنوبية بما "يوفر له القدرة على اجتياح الكويت كلها والمنطقة الشرقية السعودية على نحو مفاجئ"، وختم تقريره "وباختصار، فإن "صدام حسين" قد حرك قوات لا تتناسب مع المهمة المستهدفة إذا كانت المسألة مجرد عملية خداع، ولذا هناك إجابة واحدة: إنه ينوى استخدامها"(١٠٠). هذه الأخبار المشئومة جعلت "كولن پاول" يستدعى الجنرال "نورمان شوارتزكوف - Norman Schwartzkopf" الذى كانت قيادته المركزية (CENTCOM) مسئولة عن الانتشار الأمريكى السريع فى الشرق الأوسط، إلى "البنتاجون" فى أغسطس(١٠١). بعد ساعات قليلة من انتهاء "شوارتزكوف" من إبلاغ رئيس الأركان العامة بخطة العمليات "90-1002" التى كانت تتطلب ثلاثين يوما كفترة إنذار مسبق لبدء انتشار القوات الأمريكية فى الخليج، قام جيش "صدام" بغزو الكويت(١٠٢).

كان جمعا يبدو عليه الوجوم والكآبة ذلك الذى حضر اجتماع مجلس الأمن القومى الذى عقده "چورچ بوش" فى قاعدة الحكومة فى الثامنة من صباح ٢ أغسطس ١٩٩٠. رجال إدارة ودبلوماسيون وعسكريون. كان العراقيون يسيطرون على الكويت تماما ويحركون قواتهم فى اتجاه الحدود السعودية. قال "وليم ويبستر - William Webster" مدير المخابرات المركزية وهو مقطب الجبين "إذا بقى "صدام" حيث هو الآن فمعنى ذلك أنه سوف يستولى على ٢٠٪ من احتياطى النفط فى العالم، وإذا تحرك أميالا قليلة يمكن أن يستولى على ٢٠٪ أخرى"، ورد "برنت سكوكروفت - Brent Scowcroft" مستشار المجلس بحدة: "لابد من أن نرد، ومجاملة "صدام" ليست أحد الخيارات، وهو ما وافق عليه "ريتشارد تشينى - Richard Cheney" وزير الدفاع وأضاف "لا يمكن أن نفصل الكويت عن السعودية، إذا اقتحم العراقيون الحدود السعودية فسوف يصبحون على مسافة ٤٠ كم من حقول النفط السعودية، وهنا احتمال صراع كبير"، وبالإنابة عن وزير الخارجية "بيكر" الذى كان فى طريقه عائدا إلى واشنطن بعد أن قطع زيارة قصيرة لعدد من العواصم الآسيوية، اقترح "لورانس إيجلبيرجر - Lawrence Eagleberger"، وهو من قيادات "فوجى بوتوم"، أن تعمل

إدارة بوش من خلال الأمم المتحدة وتطلب موافقة مجلس الأمن على فرض عقوبات اقتصادية ثم تدخلا عسكريا، ووافق "بوش" على "إننا لابد من أن نحشد المجتمع العالمى خلفنا"، وذكر أنه قد أجرى بالفعل اتصالات بكل من الرئيس "مبارك" فى مصر، والملك "حسين" فى الأردن، والملك "فهد" فى السعودية وأنهم كلهم "ما زالوا يقولون لى إنهم يستطيعون أن يجدوا حلا عربيا"(١٠٣).

متشككا فى إمكانية التوصل إلى حل دبلوماسى، عاد "بوش" إلى "كولن پاول" لتقييم الخيارت العسكرية، مقتنعا بأن الوقت كان قد حان "لوضع خط على الرمال بشأن السعودية"، وقام رئيس هيئة الأركان المشتركة بمراجعة خطة طوارئ القيادة المركزية - CENTCOM التى كانت فى حاجة إلى إعادة نظر (وهى الخطة 1002-90)؛ وبالرغم من أن "پاول" كان متأكدا من أن العراقيين "لم يكونوا يريدون حربا مع الولايات المتحدة"، فإنه كان مقتنعا فى الوقت نفسه بأن مجرد تراخى الولايات المتحدة سوف "يقوى موقف صدام أكثر مما هو"، وعليه فقد كان من المهم "زرع العلم الأمريكى فى الصحراء السعودية بأسرع ما يمكن بافتراض أننا نستطيع الحصول على موافقتهم". مستمعوه.. هزوا رؤوسهم بالموافقة، وقال "بوش": "نحن ملتزمون حيال السعودية" و"يمكن أن يبدأ البنتاجون توجيه القوات لكى تستعد لحماية البلاد"(١٠٤).

بعد ذلك عرض "پاول" ما أطلق عليه فيما بعد "مسألة كلاوزفتزية" مما جعل "قشعريرة تسرى فى القاعة كلها" وتقطيبة تملأ وجوه الجميع. سأل رئيس هيئة الأركان المشتركة: و"هل الأمر يستحق الدخول فى حرب لتحرير الكويت؟"، السؤال - كما اعترف "پاول" فى مذكراته - جاء قبل أوانه وكان لابد من أن يطرحه أحد مستشارى "بوش" من الدبلوماسيين وليس أعلى رتبة عسكرية أمريكية؛ ولكن ورطة الهند الصينية قبل عقدين كانت ما زالت تلقى بظلالها الكثيفة، وفيما بعد شرح "پاول" الوضع بقوله "لقد روعنى ضعف رئيس هيئة الأركان المشتركة الذى كان يحارب فى ڤيتنام، دون أن يطلب حتى من القادة السياسيين أن يحددوا أهدافا واضحة لهم".

وبعد أن انفض اجتماع مجلس الأمن القومى قبل الظهر، لم يكن الرئيس "بوش" قد أجاب عن تساؤل "كولن ڤون كلاوزڤتز"[١٠٥].

وعندما عقد الرئيس اجتماعا لمجلس الأمن القومى مرة أخرى بعد ثلاثين ساعة، كانت إجابته قد بدأت تتضح. مصرا على أن أساليب "صدام حسين" فى التخريب والسلب والنهب فى الكويت كانت تشكل خطرا على استقرار النظام الناشئ بعد الحرب الباردة، قال "برنت سكوكروفت" الذى كانت أسهمه ترتفع بسرعة باعتباره صديقا مقربا من "بوش": "فرصة التهدئة مع "صدام حسين" ينبغى ألا تكون من بين الخيارات السياسية" أما "كولن پاول" فكان من رأيه أن "جعل صدام بعيدا عن السعودية سيكون عملية أسهل من طرده من الكويت"، وشرح رئيس الأركان كيف أنه "بالنظر إلى هذا الخيار فإن ذلك يبدو أصعب من پنما وليبيا"، وأن رجل العراق القوى "محترف ومصاب بجنون العظمة" وليس "ديكتاتورا لعبة" مثل "نورييجا" و"القذافى"؛ ولأن "بوش" كان من رأيه تماما أن "صدام" بالفعل بمثابة "هتلر آخر على الفرات" فلم يكن على استعداد لأن يقبل بـ"ميونخ أخرى" على الخليج الفارسى[١٠٦]. أصبح ذلك واضحا بعد يومين عندما نزل من الهيليكوپتر فى حديقة البيت الأبيض عائدا من أسبوع عمل فى كامب ديڤيد، وهو يقول للصحفيين طاعنا الهواء بإصبعه، مؤكدا أن "هذا لن يستمر.. هذا العداون على الكويت"[١٠٧]، وعلى الضفة الأخرى من "پوتوماك" كان "كولن پاول" الذى شاهد ما قاله "بوش" على شاشة الـ"CNN" فى مكتبه يتساءل دون تفكير: "ترى هل ألزم الرئيس نفسه الآن بتحرير الكويت؟"[١٠٨] فى غضون ثلاثة أشهر سوف يتضح أن الإجابة عن هذا السؤال كانت "نعم" مدوية.

كانت المرحلة الأولى من تدخل أمريكا العسكرى فى الخليج الفارسى وهى عملية "درع الصحراء" تتطلب أن ينشر الپنتاجون ما يقرب من ٢٠٠٠٠٠ جندى فى السعودية فى خلال تسعين يوما لردع الغزو العراقى. فى البداية كان الملك "فهد" هو العقبة أمام درع الصحراء وسبق أن رفض أكثر من مرة أن يقوم الپنتاجون بتخزين أسلحة أو نشر قوات لوچستيه فى مملكته، ولأن الكويت ودولة الإمارات وغيرهما من

الدول الخليجية كانت ستتبع خطى السعودية، اضطرت وزارة الدفاع فى أوائل ١٩٨٣ أن تجعل المركز الرئيسى للقيادة المركزية "CENTCOM" فى مكان متوسط من العالم (فى تامبا – فلوريدا) وليس فى الخليج الفارسى[١٠٩]. ولكن بمجرد وصول وزير الدفاع "تشينى" و"نورمان شوارتزكوف" إلى جدة ومعهما صور الأقمار الاصطناعية، التى تظهر فيها طليعة جيش "صدام حسين" ذى المليون جندى، ورابع أكبر جيش فى العالم، متجهة من الكويت لضرب السعودية تغير موقف "آل سعود" فجاة. وبعد أن استمع الملك إلى "تشينى" و"شوارتزكوف" يشرحان خطة "عملية درع الصحراء" قال: "علينا أن نفعل ذلك، إن أهم شىء هو حماية بلدنا... مع الأمريكيين"[١١٠].

بمجرد أن أعطى الملك "فهد" الضوء الأخضر، أرسل الرئيس "بوش" قوات الجيش الثامن المحمولة جوا وقوتين جويتين مقاتلتين إلى الظهران وأمر بوجود ثلاث مجموعات من الناقلات البحرية المقاتلة فى الخليج الفارسى. خلال الأسابيع العشرة التالية سينقل البنتاجون جوا وبحرا قرابة ٢٥٠٠٠٠ جندى أمريكى وحوالى ٢ مليون طن من العتاد العسكرى والمؤن القتالية إلى السعودية[١١١]. فى الوقت نفسه بذل "جيمس بيكر" وزير الخارجية كثيرا من الجهد والوقت لتكوين أوسع تحالف ممكن ضد العراق، وبأواخر أكتوبر كانت قوات الولايات المتحدة فى الخليج قد لحقت بها قوات ودبابات أو طائرات من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والسعودية ومصر و٢٤ دولة أخرى تقريبا. هذا العرض المثير للتضامن الدولى بالإضافة إلى العقوبات الاقتصادية الصارمة التى فرضت بموجب قرار مجلس الأمن الدولى "رقم ٦٦١"، كان يبدو مؤكدا فى منتصف الخريف لمنع "صدام" من أن يجعل من "آل سعود" ضحيته الثانية[١١٢].

ولكن، مثلما كان شك صناع السياسة الأمريكية منذ أن تعهد "بوش" فى حديقة البيت الأبيض بأن عدوان "صدام حسين" لن يستمر، فبمجرد أن أصبح "درع الصحراء" راسخا فى مكانه فى السعودية سيكون الأمر مغريا للجالس فى المكتب البيضوى لكى يطلق عاصفة، من القوة بحيث تطرد جيش "صدام" من الكويت. كان الرئيس قد بدأ يضغط بشدة فى اتجاه خيار هجوم منذ ٢٤ سبتمبر، متسائلا ما إذا

كان "كولن پاول" يعتقد أن التفوق الجوى الساحق لأمريكا يمكن أن يضمن انتصارا سريعا نظيفا دون حرب أرضية طويلة ومربكة. على أية حال، كان من رأى "پاول" "الاستمرار فى التجهيز لحملة جوية وبرية وبحرية واسعة" على أمل هزيمة العراق فى الوقت نفسه" بإجبارها على الانسحاب عن طريق العقوبات الخانقة "قبل أن يكون الهجوم الأمريكى جاهزا فى العام الجديد. "بوش" أخبر "پاول" فى نهاية الاجتماع: "من المهم أن نضع كل الجوانب فى اعتبارنا، وإن كنت لا أعتقد أنه سيكون لدينا وقت لكى تُحْدِثُ العقوبات تأثيرها"(١١٣).

وبينما الوقت يمضى سريعا، استقل الجنرال "پاول" طائرته فى ٢٢ أكتوبر إلى السعودية حيث وضع مع "شاورتزكوف" اللمسات الأخيرة على خطة جسور لطرد "صدام" من الكويت. كان تخطيطهما لما سيصبح فى النهاية عملية "عاصفة الصحراء" بسيطا للغاية؛ تقوم القوات الجوية الأمريكية أولا بتدمير البنية العسكرية والاقتصادية العراقية التحتية بالصواريخ الموجهة بالليزر والقنابل الذكية، ثم تتخذ البحرية الأمريكية بعد ذلك مواقع لها على أنه استعداد لهجوم برمائى على القوات العراقية الموجودة فى خنادقها فى مدينة الكويت، وعندما تسرع بغداد بتعزيزات على الساحل يقوم الجيش وقوات المارينز بمناورة تطويق من الجبهة اليسرى فى المنطقة الصحراوية بين العراق والسعودية، يكون بمثابة فخ لجيش صدام فى الكويت لتدميره.

كانت خطة هذه الحرب البرية تعنى مضاعفة حجم حملة القوات الأمريكية فى الخليج الفارسى إلى حوالى خمسمائة ألف جندى، ولأنهما كانا قد مرا بتجربة مؤلمة ومحبطة فى الهند الصينية كضباط صغار، لم يكن "پاول" ولا "شوارتزكوف" من أنصار أنصاف التدابير. كتب "پاول" فى مذكراته يقول: "لقد تعلمنا درسا فى پنما، أن نذهب بعمل كبير وننتهى بسرعة" و"كان علينا ألا نجعل الولايات المتحدة تمر بڤيتنام أخرى"(١١٤).

طار رئيس هيئة الأركان المشتركة عائدا إلى واشنطن فى نهاية الشهر ليبلغ الرئيس "بوش" ووزير الخارجية "بيكر" بخطط عملية "عاصفة الصحراء". بيكر، الذى ولد فى "تكساس" ودرس فى "پرستون" وعمل ضابطا فى المارينز من قبل وكانت

نصائحه ومشورته تجد كل القبول فى المكتب البيضوى، كان يعتقد أن رئيسه سوف يحصد عائدا سياسيا كبيرا نتيجة تبنيه نظرية الضربة الكبرى التى وضعها "باول" و"شوارتزكوف". يتذكر "بيكر" أنه قال لـ"بوش" "نظام عالمى جديد... لابد من أن يقوم على مبادئ وأن يتصدى للعدوان، يجب ألا تقع فى الخطأ نفسه الذى ارتكبناه فى الثلاثينيات، ولا ذلك فى ڤيتنام... أن نكون غير واثقين، غير حاسمين...إلخ، إذا كنا سنتدخل... فليكن ذلك بقوة هائلة"(١١٥).

لم يكن ضابط البحرية السابق الذى كان يقوم بدور الطيار فى البيت الأبيض فى حاجة إلى المزيد لكى يقتنع، فبعد أن استمع إلى شرح "باول" وهو يضع التفاصيل التكتيكية والمتطلبات الجديدة من القوة البشرية فى ٣٠ أكتوبر، تنفس "بوش" بعمق وقال ببساطة ".O.k – نفذ"؛ وبعد أسبوع كان "البيت الأبيض" يعلن أن وجود أمريكا العسكرى فى الخليج الفارسى سوف يتسع ليصبح نصف المليون من الجنود (بين رجل وامرأة) قبل نهاية العام، أما "باول" فكان يقول لنفسه "سنذهب إلى الحرب فى غضون ثلاثة أشهر إن لم تُجْدِ العقوبات وكان العراقيون ما زالوا فى الكويت"(١١٦).

كانت دروس الماضى المتصارعة ماثلة فى أذهان رجال إدارة "بوش" ومعارضيها بينما العد التنازلى مستمر بسرعة شديدة نحو الحرب فى الأشهر الأخيرة من عام ١٩٩٠؛ وزير الدفاع "تشينى"، على سبيل المثال، أثار ذكريات "هتلر" و"ميونخ" و"التهدئة" أثناء شهادته أمام لجنة الخدمات العسكرية بمجلس الشيوخ، ففى ٣ديسمبر قال أمام المشرعين: "لقد تصرف "صدام حسين" على نحو يذكركم بالدكتاتور التقليدى"، وأن رجل العراق القوى باجتياحه المفاجئ للكويت "حقق لنفسه وضعا يجعله يبتز أى دولة لا تنفذ مطالبه"(١١٧).

وبعد وزير الدفاع تكلم "كولن باول" الذى كان مصرا على أن دروس ڤيتنام تثبت أن "إزاحة الجيش العراقى من الكويت" لن تتم بثمن بسيط. "إن الكثيرين من الخبراء والهواة فى هذه المدينة يعتقدون أن ذلك يمكن أن يتحقق بأمور من قبيل الضربات الجوية الجراحية... أو ربما بخيارات أخرى قد تنجح... تكون بسيطة

ومنظمة وقليلة التكلفة" كما كان يقول على نحو ساخر، "مثل هذه الاستراتيچيات تكون معدة على أمل أن تنجح ولكنها ليست معدة لكى تنجح"، ولكى يتم تجنب تكرار كارثة جنوب شرق آسيا، كانت إدارة "بوش" قد عقدت النية على تجهيز "حملة جوية برية بحرية مشتركة شاملة" بحيث تأخذ المبادرة وتحقق انتصارا سريعا؛ واعترف "پاول": أعرف أن صحارى الكويت والعراق مختلفة تماما عن الغابات الكثيفة فى ڤيتنام أو ألمانيا"، ولكن إذا لم يتم استكمال البنية العسكرية الكبيرة الموجودة فى الخليج، فإن الولايات المتحدة ستغامر بتكرار أخطائها السابقة: المبالغة فى تقدير كفاءة القوة الجوية والتهوين من شأن إرادة الانتصار عند العدو(١١٨).

إلا أن عددا كبيرا من النواب كانوا قد استوعبوا دروسا مختلفة من الماضى. "سام نان – Sam Nunn" كان مصرا على عقد جلسات استماع لأن التسرع الجمهورى فى اتخاذ قرارات الحرب فى النزاعات الأخيرة مع ليبيا وپنما جعله يعتقد أن إدارة "بوش" المتعجلة يمكن ألا تعطى العقوبات الاقتصادية الوقت الكافى لكى تكون مؤثرة فى العراق، "چون جلن –John Glenn" رجل الفضاء الذى تحول إلى مشرع بالمثل كان يتساءل بخصوص الأسلوب الضعيف الذى يتعامل به "بوش" مع العراق، كما راح النائب القادم من أوهايو يشكو: "السماء تسقط.. وهناك خيار واحد.. الحرب". أما "إدوارد كينيدى – Edward Kennedy" فاستشاط غضبا عندما سمع وزير الدفاع يقول إن الرئيس "بوش" يمكن أن يستخدم القوات البالغ قوامها نصف المليون جندى الموجودة فى السعودية ضد "صدام حسين" سواء كان الكونجرس يعجبه ذلك أو لا، كان النائب القادم من ماساشوستس يهدر غضبا: "نحن لا نتكلم عن ليبيا ولا عن جرينادا ولا عن پنما، نحن نتكلم عن تدخل عسكرى أمريكى كبير"، فهل كان "چورچ بوش" مستعدا بالفعل ليزعم "أنه... وأنه وحده هو الذى يستطيع أن يجعل هذا البلد يحارب؟"؛ ولكن "تشينى" الذى بدأ كلامه منوها بسلطات الرئيس الدستورية باعتباره القائد الأعلى، فقال إن "بوش" كان بالفعل "يعمل فى إطار سلطاته فى هذا السياق لينفذ مسئولياته" فى الخليج الفارسى(١١٩).

وتبقى لـ"ألبرت جور الابن – Albert Gore Jr" وهو أحد مجموعة قليلة ممن حاربوا فى ڤيتنام وأصبح عضوا فى مجلس الشيوخ، أن يعقد مقارنة بين خليج تونكين والخليج الفارسى، فأشار النائب الديمقراطى القادم من "تينسى" إلى أن "هذه ليست ڤيتنام، ولا هى پنما... ولكن بعض دروس تجربة الماضى يمكن تطبيقها هنا، وأحد دروس ڤيتنام هو أن حربا غير معلنة تشن مع تصاعد معارضة الشعب الأمريكى لها، لابد أن يقلل ذلك من فرص نجاحها، كما أنه يقسم البلاد": وبينما كان يدفع فى اتجاه ترك العقوبات تسير فى مجراها لكى تثمر، كان "جور" مصرا على أنه إذا أصبحت الحرب ضرورية "فإنه سيكون من الأفضل للبلاد أن يطلب الرئيس إعلان ذلك": إلا أنه مثل كثيرين غيره ممن سبق أن خدموا فى الهند الصينية، يبدو أن "جور" استراح إلى حد ما عندما عرف أن "چورچ بوش" "قد حشد قوة أكبر من تلك التى كانت قد حشدت للهجوم على القارة الأوروبية فى نورماندى. ومتذكرا جيدا ذلك الثمن الباهظ للحرب المحدودة فى ڤيتنام، كان "جور" يقلقه أمر واحد عندما سأل وزير الدفاع: "إذا قررنا القيام بعمل هجومى: هل نقطع الطريق حتى منتصفه فقط؟"(١٢٠).

الإجابة عن أسئلة جور وزملائه جاءت باكرا فى العام الجديد.. وعلى نحو واضح. مقتنعا بأن العقوبات الاقتصادية لن يكون لها تأثير كبير على "هتلر الفرات"، حدد "چورچ بوش" ١٥ يناير موعدا نهائيا لانسحاب العراق من الكويت، وأرسل "بيكر" وزير الخارجية إلى "چنيف" فى اللحظة الأخيرة ليبلغ وزير خارجية العراق "طارق عزيز" بأن "ذلك هو الحل الوحيد الذى يمكن أن نقبله"، ومذكرا الدبلوماسى العراقى بأن إدارة "بوش" حشدت تحالفا مكونا من الدول الأعضاء فى حلف شمال الأطلنطى والدول العربية المعتدلة، قام "بيكر" بالتحذير بأنه فى حال نشوب ما يطلق عليه رئيس "عزيز" "أم المعارك" فإنها "لن تكون حرب استنزاف مثل تلك التى حاربتموها مع إيران" فى الثمانينيات، كما أبلغ "عزيز" بأنها "لن تكون ڤيتنام أخرى، وأنها إذا بدأت "لا قدر الله"، فسوف تستمر حتى تصل إلى نهاية سريعة وحاسمة"(١٢١).

وبينما كان "عزيز" ينقل تحذير "بيكر" إلى بغداد، كان هناك قرار آخر يتبلور فى "كاپيتول هيل" للمصادقة على خطط "بوش" للحرب فى الخليج الفارسى. وبالرغم من أن البيت الأبيض كان ما زال على إصراره أن الرئيس بإمكانه أن يرسل قوات لكى تحارب ضد العراق دون موافقة رسمية من الكونجرس فإن حلفاء "بوش" فى البيت الأبيض ومجلس الشيوخ كانوا يعتقدون أن بإمكانهم الحصول على الأصوات اللازمة للتصريح له باللجوء إلى القوة الماحقة، وبعد ثلاثة أيام من الجدال الحاد، أصدر الكونجرس قرارا مشتركا فى ١٢ يناير يؤيد استخدام الولايات المتحدة القوة العسكرية لتحرير الكويت شريطة أن يكون قد تم استنفاد "كل السبل الدبلوماسية والسلمية فى العراق". كانت نسبة التصويت ٤٧:٥٢ فى مجلس الشيوخ، و١٨٣:٢٥٠ فى مجلس النواب، وفى "كاپيتول هيل" صوت ٨٩٪ من الجمهوريين إلى جانب القرار، ولكن لأن الديمقراطيين كانوا يسيطرون على الكونجرس كانت لهم الأصوات المرجحة.

عند المناداة على الأسماء انتقل عدد من الديمقراطيين إلى الجانب الآخر، البعض مثل السيناتور "جور" فعلوا ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن العقوبات الاقتصادية لن تجدى وأن الجيش العراقى كان يزداد تمركزا وتمكنا مع كل أسبوع يمر، وأن عدد القتلى العسكريين سوف يقل إذا قامت الحرب عاجلا وليس آجلا(١٢٣). آخرون مثل النائب "ستيفن سولارز – Stephen Solarz" فعلوا ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن الولايات المتحدة لابد من أن "تقاوم تحول الشرق الأوسط كله إلى "صدام حسين"". "سولارز"، عضو الكونجرس الذى كان على وعى تام بأن كثيرا من الديمقراطيين كانوا يعقدون مقارنة بين الخليج الفارسى وجنوب شرق آسيا، رفض تشبيه الوضع بـ"ڤيتنام" كما كتب فى "نيو ريپابليك – New Republic": "فى الهند الصينية كانت التكلفة المدفوعة دما ومالا أكبر بكثير من أى مكاسب كانت متوقعة"، ولكن غزو العراق للكويت كان يمثل "تحديا ليس فقط بالنسبة للمصالح الأمريكية الأساسية، وإنما بالنسبة للقيم الأمريكية الضرورية كذلك". بالإضافة إلى ذلك، كان "سولارز" يتوقع أن تكون نتائج الصراعين مختلفة تماما: "حرب ڤيتنام استمرت سنوات وانتهت بهزيمة أمريكية، أما حرب الخليج فإن لم يكن بالإمكان تجنبها فالمرجح أن تنتهى بانتصار

أمريكى حاسم فى غضون أشهر، إن لم يكن فى غضون أسابيع"؛ وبعين على خليج "تونكين" أنهى النائب الديمقراطى النيويوركى كلامه قائلا: "أحيانا تجد نفسك تكرر الماضى، هذا إذا كنت تتذكره، عندما لا تفيد من الدروس الخطأ، وتترك ذاكرة الماضى تشوه رؤيتك للحاضر"(١٢٤).

بعد ثلاثة أيام من تصويت "جور" و"سولارز" و٨٤ عضوا ديمقراطيا آخرين لصالح القرار المشترك، كان الموعد النهائى الذى حدده "چورچ بوش" لـ"صدام حسين" قد نفد، وقبل الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ١٧ يناير ١٩٩١ مباشرة، قامت صواريخ أمريكية من طراز "توما هوك" بتدمير أهداف عسكرية منتقاة حول بغداد، معلنة أن عملية "**درع الجزيرة**" قد أصبحت "**عاصفة الصحراء**". مضت الحرب كما تنبأ "بوش" و"پاول" و"سولارز". على مدى أكثر من شهر كانت مقاتلات "**F117**" المتقدمة وقاذفات **B-52** وطائرات حربية من دول أخرى مشاركة فى التحالف تدك جيش "صدام" وقواته الجوية وتدمر جزءا كبيرا من البنية الاقتصادية التحتية للعراق، ومع استمرار الحرب الجوية كان البنتاجون يجهز بشكل منهجى للحرب البرية التى ستتبع ذلك، وكما قال "كولن پاول" للصحفيين فى 23 يناير "استراتيچيتنا لتعقب هذا الجيش بسيطة جدا، سنمزقه إربا إربا أولا ثم نقضى عليه"(١٢٥)، وفى الرابعة من مساء ٢٤فبراير شن الچنرال "نورمان شوارتزكوف" الضربة الصاعقة التى سبق أن وعد بها "پاول"، بأن أصدر أوامره لثلاثين ألفا من جنود المارينز باقتحام مدينة الكويت، ودفع قوات محمولة جوا وفرقا مدرعة عبر الصحراء على بعد ثلاثمائة ميل غربا فى مناورة تطويق بارعة قطعت الطريق على الجيش العراقى المنسحب. وبعد أربعة أيام من توقف القتال كانت قوات التحالف تسيطر على الكويت بينما الدبابات وناقلات الجند وجثث العراقيين مبعثرة على "طريق الموت السريع" المتجه شمالا جنوب الفرات والقوات الأمريكية فى وضع الاستعداد للتقدم نحو بغداد(١٢٦).

فى مائة ساعة فقط حقق "البنتاجون" فى الخليج الفارسى ما عجز عن تحقيقه فى مائة شهر فى جنوب شرق آسيا، و"بعون الله تخلصنا من أعراض ڤيتنام مرة

وإلى الأبد"(١٢٧)، كما قال "بوش" مبتهجا لمسئولين فى الحكومة كانوا فى زيارة له يوم ١مارس: والحقيقة أن إدارته كانت قد حققت هدفها الرئيسى - تحرير الكويت من صدام حسين"- بتكلفة منخفضة بشكل مدهش. وبينما كانت الخسائر العراقية بعشرات الألوف من البشر، خلفت "عاصفة الصحراء" ١٤٨ قتيلا أمريكيا و٤٦٧جريحا فى العمليات، والمؤكد أن الخسائر الأمريكية كان يمكن أن تكون أكثر من ذلك لو أن البيت الأبيض كان قد استمع للنصيحة المتطرفة لبعض الخبراء وحاول دخول بغداد وإسقاط "صدام حسين"، إلا أن "كولن پاول" أقنع "بوش" بأن دخول العراق سيكون أسهل من الخروج منه. ويؤكد "پاول" فى مذكراته أن "الرئيس كان قد وعد الشعب الأمريكى بأن "عاصفة الصحراء" لن تكون ڤيتنام أخرى على الخليج الفارسى، وقد أوفى بوعده". وبالرغم من أن "چورچ بوش" ومستشاره العسكرى الرئيسى كانا يحتقران "صدام حسين"، فإن أيا منهما لم يكن على استعداد لإضاعة النصر الذى تحقق فى الكويت بالخوض فى مستنقع جديد فى العراق المجاورة؛ وكما لاحظ "پاول" فى أعقاب "عاصفة الصحراء" أن "الدولة كانت تتوق إلى انتصار بعد الورطة فى كوريا والمعاناة الطويلة فى جنوب شرق آسيا"، و"أننا قد حققنا لأمريكا انتصارا واضحا بخسائر قليلة فى قضية عادلة، ومرة أخرى وقع الشعب الأمريكى فى غرام قواته المسلحة"(١٢٨).

كان خبراء الاستراتيچية من أمثال "هارى سامرز -Harry Summers" من الرأى نفسه، فبعد عقد من معارضته لكارثة الهند الصينية، نشر الجزء الثانى من كتابه "فى الاستراتيچية - On Strategy" الذى جاء تقييما متوهجا لعملية "عاصفة الصحراء"، مهدى إلى "كولن باول" زميل الدراسة السابق فى "فورت ليفينويرث". بالاعتماد على الوصفة الثلاثية : المفاجأة "مبدأ المعركة الجوية البرية"، تمكن "البنتاجون" من أن يجهز لانتصار ساحق، حيث يقول "سامرز" لقرائه: "لكى تفهم انتصار أمريكا فى الخليج الفارسى، عليك أولا أن تفهم هزيمة أمريكا فى ڤيتنام". كان العسكريون الأمريكيون "محل سخرية شديدة فى وسائل الإعلام كعصابة فشلت فى التصويب بدقة"، حيث كان الشعب ينظر إليهم باعتبارهم خاسرين، هزمهم جيش

من رعاع الفلاحين فى ڤيتنام، مصابين بسلسلة من الأحداث المؤسفة فى عملية (صحراء "١") فى إيران وثكنات المارينز فى بيروت، كما أن انتصاراتهم فى جرينادا وپنما كانت قد طمستها تقارير عن أخطاء كثيرة. إلا أن عاصفة الصحراء غيرت ذلك كله، وينهى "سامرز" كلامه بقوله "وكما أثبتت الأحداث فإن فكرة أن أمريكا كانت مجرد نمر من ورق يبدو مفترسا بينما هو فى الحقيقة بلا أسنان (بكلمات: اتش. ال. منسكن – H.L. Mencken) كانت فكرة "دقيقة .. مقبولة ظاهريا... وخطأ"[١٢٩].

وبينما كان قليل من العراقيين يعتبرون "العم سام" مازال نمرا من ورق، فإن حرب الخليج لم تدفن كل الأسئلة الخاصة بتدخل الولايات المتحدة العسكرى فى الشرق الأوسط، أو فى العالم الثالث بشكل أكثر عمومية، وما من شك فى أن واشنطن، بعد عشر سنوات من عملية "عاصفة الصحراء" احتفظت بحضور عسكرى هائل فى الخليج الفارسى، فهناك سرب من القوة الجوية الأمريكية الموجود فى تركيا مستمر فى فرض منطقة "حظر جوى" فوق شمال العراق، كما عين البنتاجون "المنامة" فى البحرين لتكون الميناء المقر للأسطول الخامس الذى أنشئ حديثا، والذى كانت طائراته الحربية (٢١ طائرة مقاتلة) تقوم بدوريات فى الممرات البحرية من شط العرب إلى مضيق هرمز، كما تم وضع خمسة آلاف جندى فى الظهران كجزء من عملية "صقر الصحراء" رمزا للدعم الأمريكى المستمر للبيت السعودى[١٣٠].

ولكن بالرغم من الكلام الكثير عن دور أمريكا المركزى فى بناء نظام عالمى جديد فى نهاية القرن العشرين، فإن كلا من البنتاجون والشعب الأمريكى يصيبهم شحوب الخوف عندما يواجهون باحتمال إرسال قوات إلى أماكن بعيدة فى ما كان يبدو أنه نفس العالم القديم الذى يفتقر إلى النظام. وعندما زعم البعض أن الولايات المتحدة كانت ملتزمة أخلاقيا بالتدخل فى الحرب الأهلية فى يوغوسلافيا فى أواخر ١٩٩٢ مثلا، كان رد الجنرال پاول: "أصاب بالعصبية عندما يقول الخبراء المزعومون إن كل ما نحتاجه هو عملية قصف جراحية أو هجوم محدود"، وذلك لأن "التاريخ لم يرحم مثل هذا التوجه"[١٣١]؛ وعندما فكر "بيل كلينتون" لفترة قصيرة فى التدخل

العسكرى فى البوسنة لوقف موجة تطهير عرقى دموية فى أوائل ١٩٩٣، يقال إن المسئولين القلقين فى البنتاجون أبلغوا البيت الأبيض "نحن نقوم بعمليات صحراوية وليس عمليات جبلية"(١٣٢)، ولم يكن بالإمكان دفن ذكريات كابوس الهند الصينية، وكما أوضح "وارن زيمرمان– Warren Zimmermann" السفير الأمريكى السابق فى يوغوسلافيا "الدرس المستفاد من ڤيتنام كان هو أن يتحول ذلك إلى التزام ضخم وينتج عنه مستنقع"، وفى البلقان كما قال "لورانس إيجلبيرجر– Lawrence Eagleburger" آخر وزراء خارجية چورچ بوش، بأسى فى ١٩٩٤: "ڤيتنام ما زالت راسخة فى الذاكرة"(١٣٣). والحقيقة أنه عندما قرر أخيرا خليفة "چورچ بوش" إرسال ١٢٥٠٠ جندى إلى البوسنة بعد ذلك بعامين، كجزء من اتفاقية "دايتون"، كان خبراؤه العسكريون يحذرون قائلين إن الدخول ربما يكون أسهل من الخروج(١٣٤).

لم يكن الناس فى "مين ستريت – Main Street" أقل رغبة من چنرلات البنتاجون فى عدم رؤية الولايات المتحدة غارقة فى مستنقع ڤيتنام أخرى. قليل من الأمريكيين كانوا إلى جانب استخدام القوات الأمريكية لاستعادة النظام فى "هاييتى" فى خريف ١٩٩٣، والأقل منهم كانوا يجدون سببا للمخاطرة بحياة الأمريكيين لوقف الصراع العرقى المؤسف الذى كان يحرض قبائل "الهوتو – Hutu" ضد قبائل "التوتسى – Tutsi" فى رواندا فى الربيع التالى؛ وبالنسبة لمعظم الأمريكيين كانت هناك صورة واحدة مرعبة تبين لهم بوضوح شديد مخاطر التدخل العسكرى فى العالم الثالث: صورة بالألوان لجندى أمريكى ميت – أحد ثمانية عشر قتلوا فى تبادل للنيران مع عصابات صومالية – يجرون جثته فى شوارع مقديشيو فى أكتوبر ١٩٩٣، وذلك بعد عشرة أشهر من قيام "چورچ بوش" بإرسال القوات الأمريكية لاستعادة النظام هناك"(١٣٥).

هذه المعارضة العامة لإرسال قوات المارينز امتدت أيضا إلى الشرق الأوسط، فأثناء فترة إدارة "كلينتون" الأولى كانت هناك رسائل تذكير مزعجة بأن ثمن التدخل العسكرى غالبا ما يكون باهظا. فى أبريل ١٩٩٤ أسقطت نيران صديقة من طائرتين

"F-15" طائرتين هيليكوبتر فى منطقة الحظر الجوى العراقية وقتل فى الحادث ١٥أمريكيا، وفى يناير ١٩٩٦ تعرضت البحرين لسلسلة من القصف الجوى كانت تهدد حياة الجنود والبحارة الأمريكيين، وبعد أربعة أشهر انفجرت سيارة مفخخة أمام أبراج الخبر فى الظهران مخلفة ١٩ قتيلا من الجنود الأمريكيين، لتثير مجددا الشكوك حول الممارسات الأمنية السعودية(١٣٦).

الجدال الذى دار فى أثناء إدارة "كلينتون" الثانية حول أفضل السبل لإحباط سعى "صدام" للحصول على أسلحة بيولوجية، أظهر أنه لم يكن هناك إجماع بعد على التدخل العسكرى فى الخليج، وبينما كان البيت الأبيض يعد العدة لإطلاق القوة الجوية الأمريكية ضد منشآت التسليح العراقية فى فبراير ١٩٩٨، كان بعض المسئولين فى البنتاجون يتهامسون بأن ذلك لن يكون سوى "صنع ثقوب فى الصحراء"(١٣٧)؛ وعندما فجر عملاء "أسامة بن لادن" سفارات الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا بعد ستة أشهر ليقتلوا ٢٥٠ ويصيبوا ٥٥٠٠ فرد، أطلقت إدارة كلينتون صواريخ موجهة على معسكرات "القاعدة" فى أفغانستان مخلفة "ثقوبا" فى الجبال، ولكنها عجزت عن إرسال قوات لاستئصال البنية التحتية للإرهاب(١٣٨).

أبرز ما يدل على أن ملاحظة "كلينتون" بأن أعراض ڤيتنام كانت ما تزال حية وماثلة، جاء على أية حال فى ربيع ١٩٩٠ فى كوسوڤو، فعندما كانت الولايات المتحدة وحلفاؤها يعدون العدة للتدخل فى الأراضى الخالية جنوبى يوغوسلافيا حيث كانت القوات الصربية شبه العسكرية الموالية لـ"سلوبودان ميلوسيڤيتش – Slobodan Milo-sevic" تمارس عمليات التطهير العرقى ضد الأغلبية الألبانية، كان البيت الأبيض و"البنتاجون" قلقين من أن حربا برية قد تتحول إلى ڤيتنام بلقانية؛ ولتجنب مثل هذا المصير حافظت إدارة "كلينتون" على الجنود الأمريكيين بعيدا عن الخطر، معتمدة بدلا من ذلك على قوة جوية هائلة، نجحت فى آخر الأمر فى طرد الصرب من "كوسوڤو"، ولكن ليس قبل أن يذبحوا الآلاف من الألبان. وبالرغم من أن حملة القصف الواسعة أجبرت "ميلوسيڤيتش" على أن يعكس المسار، كان المسئولون الأمريكيون يسمعون

أصداء عملية "الرعد المتدفق" فى الهند الصينية قبل جيل. كان أحد الضباط الصغار يقول للچنرال "مايكل شورت - Michael Short" بينما كانت الطائرات الحربية تقصف بلجراد بعنف موجة بعد موجة: "لا أريدك أن تأخذ ذلك بشكل شخصى يا سيدى، لكن يبدو لى أن ما نقوم به هو قصف عشوائى لأهداف عسكرية دون استراتيچية واضحة"، وعندما كان من الصعب عليه ألا يوافق على ذلك، لم يحر رجل "كلينتون" الثانى فى البلقان جوابا سوى أن يقول: "أنت محق تماما... أيها الجحش الخبيث!"(١٣٩).

فى الأشهر الأولى له بالمكتب البيضوى لم يكن "چورچ دبليو بوش" يبدو أكثر ميلا من سلفه لاستخدام القوة البرية لدعم القوة الجوية لحماية الأمن القومى الأمريكى، فمجرد التلميح بأن الولايات المتحدة لابد من أن ترسل قوات لحفظ السلام وإخماد العنف فى الضفة الغربية مثلا قوبل بصمت مطبق من المكتب البيضوى. بعد الهجمات الإرهابية فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أعد - هذا الجمهورى القادم من تكساس - الخطط لاستئصال تنظيم "القاعدة" وتدمير "طالبان" التى تأويها؛ فبعد نشر مائة ألف جندى من قوات المارينز على متن مجموعات من الناقلات فى بحر العرب بالقرب من مضايق هرمز، وبعد نقل ١٥٠٠ جندى من القوات الخاصة جوا إلى أوزبكستان عبر الحدود الأفغانية، شن البنتاجون عملية "الحرية الراسخة" فى ٧ أكتوبر بواسطة صواريخ عابرة وطائرات B-52 ملأت سماء كابول، وبمقاتلين أمريكيين جواسيس جاهزين لتعقب "أسامة بن لادن"(١٤٠).

بعد أربعة أيام سأل أحد الصحفيين "چورچ دبليو بوش" "هل نستطيع أن نتجنب الاستدراج إلى مستنقع فى أفغانستان أشبه بذلك الذى كان فى ڤيتنام؟"، وكانت إجابة الرئيس الأمريكى الثالث والأربعين: "لقد تعلمنا بعض الدروس المهمة فى ڤيتنام، وربما يكون أهمها هو أنك لا تستطيع أن تخوض حرب عصابات بأسلحة تقليدية"؛ وبالرغم من أنه كان مصرا على إننا "نستطيع أن نخرج القاعدة من الكهوف بقنابل الدخان لكى نقدمهم للعدالة" اعترف بأن ذلك "قد يستغرق عاما أو عامين"(١٤١).

مع قدوم الشتاء كان يمكن التماس العذر لاستغرابهم تقدير "بوش" الذى كان مغرقا فى التفاؤل؛ ملاحظا أن "البنتاجون" قد استنفد بالفعل قائمة الأهداف العسكرية، كان السيناتور "جوزيف بيدن – Joseph Biden" (ديمقراطى من ديلاوار)، وهو فى حالة متوسطة من حمى البوتوماك، يحذر من أن القصف المتواصل على أفغانستان قد يجعل الولايات المتحدة تبدو مثل "بلطجى فائق التكنولوجيا"، كما أشار أحد المسئولين فى وزارة الدفاع، معترفا بأن القوة الجوية لم يكن من المرجح أن تنجح وحدها فى إسقاط طالبان أو إحباط "بن لادن"، مشيرا: "قمنا بقصف الڤيتناميين الشماليين لمدة ١٥ عاما ولم نستطع أن نجعلهم يركعوا". كان لابد من أن تكون الولايات المتحدة مستعدة لحرب طويلة ضد طالبان والقاعدة، كما قال "چون ستافلبيم – John Stuffle-beem" (من البنتاجون) للصحفيين فى ٢٤ أكتوبر. "العالم كله لابد من أن يدرك أن الإرهاب والإرهابيين يمثلون خطرا من نوع مختلف عن كل الأخطار التى سبق أن واجهناها"(١٤٢).

ودون شك، فإن نظام طالبان سقط على نحو مفاجئ بعد عدة أسابيع بفضل الحرب الجوية الأمريكية الضارية التى رجحت كفة الميزان على الأرض لصالح التحالف الشمالى المدعوم من أمريكا: وبالنسبة للأمريكيين الذين يستطيعون تذكر ڤيتنام، كانت تعليقات "ستافلبيم" تذكرهم على نحو مشئوم بأوائل الستينيات عندما أعدت واشنطن العدة لشن حرب محدودة ضد عصابات مراوغة فى أرض وعرة. على مدى أكثر من قرنين، كانت أفغانستان مقبرة للأجانب وهى حقيقة مؤسفة يؤكدها تدفق نعوش الألومنيوم التى بدأ "البنتاجون" ينقلها جوا من كابول وقندهار بعد أعياد الميلاد بفترة قصيرة. وبينما كان البيت الأبيض يعد الشعب لمعركة طويلة ضد أشباح إرهابية مثل "أسامة بن لادن"، لم يكن يبدو أن السؤال الأساسى هو "هل كانت القوات الأمريكية شجاعة؟" ولا "هل صناع السياسة الأمريكية أقوياء؟". كان السؤال هو: "هل كان الشعب الأمريكى وقادته عقلاء؟".

تصرفات "چورچ دبليو بوش" بعد ذلك فى الشرق الأوسط ستؤدى فى النهاية بمعظم المراقبين إلى أن يجيبوا عن السؤال بـ"لا" قاطعة: ففى مارس ٢٠٠٢ أطلق

"البنتاجون" عملية "أناكوندا"، (الأناكوندا أفعى موجودة فى أمريكا الجنوبية) هى آخر محاولة أمريكية لتدمير البنية التحتية للقاعدة وإلقاء القبض على "أسامة بن لادن" فى المناطق الجبلية على امتداد الحدود الأفغانية الباكستانية. بعد فترة قصيرة بدأت إدارة "بوش" إعادة نشر قوات أمريكية من أفغانستان إلى الخليج الفارسى كجزء من بناء مواجهة عسكرية مع "صدام حسين"؛ وتأسيسا على الدروس المستفادة من الحملة الخاطفة الحاسمة ضد طالبان فى خريف ٢٠٠١، كان "چورچ دبليو بوش" قد أصبح أكثر اقتناعا منه فى أى وقت مضى بأنه كما قال أبوه قبل عقد بعد حرب الخليج الأولى إن أمريكا قد تخلصت بالفعل من أعراض ڤيتنام مرة وإلى الأبد، وحيث إن عبارته لم تكن تحتوى على كلمات مثل "مستنقع" أو "عصيان" فإن الرئيس الأمريكى الثالث والأربعين كان يفترض أن إحداث تغيير فى النظام فى بغداد سيكون أمرا بسيطا كما كان الأمر فى كابول.

وبالرغم من تحذيرات المستشارين العسكريين والدبلوماسيين من أن الحرب فى العراق سوف تشتت جهود أمريكا عن الحرب ضد القاعدة، أطلقت إدارة "چورچ دبليو بوش" عملية "**حرية العراق**" فى مارس ٢٠٠٣.

بعد خمس سنوات لم تكن أوجه التناظر بين حربى ڤيتنام والعراق بعيدة، ففى خريف ٢٠٠٧ تم توريط ١٦٩٠٠٠ جندى أمريكى فى حرب خاسرة ضد متمردين عراقيين منظمين جدا، ومدعومين من سوريا وإيران، كما كان قلق الشعب الأمريكى يتزايد يوما بعد يوم، بينما كان القادة العسكريون والمسئولون المدنيون عن الأمن القومى كلهم يلومون بعضهم البعض على صنع هذا المستنقع. الكونجرس، الذى أعطى البنتاجون شيكا على بياض لشن حرب محدودة فى أكتوبر ٢٠٠٢، كان الآن بلا حول ولا قوة لكى يوقف الدفع بعد أن تخطى تعهد "چورچ دبليو بوش" المفتوح فى العراق كل الحسابات وأصبح "السحب على المكشوف". وباختصار، فإن حرب الخليج الثانية نجحت فى بعث أعراض ڤيتنام مجددا بعد أقل من خمس عشرة سنة كان من المفترض أن تكون حرب الخليج الأولى قد دفنتها فيها. من بين أهم الخسائر

الدبلوماسية لحرب "چورچ دبليو بوش" الطويلة القبيحة فى العراق، عملية السلام الإسرائيلى الفلسطينى، التى كانت قد اكتسبت زخما هائلا بعد الانتصار الصغير الرائع للرئيس "بوش" الأب فى الخليج الفارسى، وكانت تبدو على الطريق نحو تسوية شاملة... إلا أنها خرجت عن القضبان باكرا فى الألفية الجديدة.

■ "الفلسطينيون لا يضيعون أى فرصة... لكى يضيعوا فرصة"

"أبا إيبان - ١٩٦٨"

■ "كنا صغارا وضعافا فى تلك الأيام الباكرة، وأملنا فى البقاء كان مسألة إيمان أكثر منها منطق، ولكننا بقينا برؤية واضحة وصافية... فهمنا أن مهمتنا لم تكن تأكيد حقوقنا وإنما أن نجعلها منسجمة مع حقوق ومصالح الآخرين أيضا... ولذلك أعطينا، فى العقود الأولى، نبضا وتوجها جديدين للتاريخ اليهودى، ووضعنا إسرائيل على مسار كانت الفرص فيه تتجاوز الأخطار"

أبا إيبان: "شاهد عيان"
(١٩٩٢)

الفصل الثامن

الفرص الضائعة...
... الفرص السانحة.

• الولايات المتحدة وعملية السلام العربى الإسرائيلى

بعد ثمانية أشهر من إعلان الرئيس "چورچ بوش" أن الولايات المتحدة قد تخلصت من أعراض ڤيتنام فى حرب الخليج الأولى، افتتح مؤتمر للسلام فى الشرق الأوسط فى "كريستال پاڤيليون" فى وسط مدريد. نادرا ما كانت الآمال فى تسوية عربية إسرائيلية أكبر مما كانت عليه فى أكتوبر ١٩٩١. كانت الحرب الباردة قد انتهت، والاتحاد السوڤيتى يتقوض والراديكاليون العرب لم يعودوا يعولون على "الكرملين" لكى يبيعهم السلاح. كانت إسرائيل تبدى علامات مرونة ومنظمة التحرير الفلسطينية تبتعد عن حملتها العنيفة ضد الصهيونية، ولأول مرة كان ممثلو إسرائيل والفلسطينيون يجلسون معا على طاولة التفاوض، أما الولايات المتحدة، القوة العالمية العظمى الوحيدة الباقية فكانت تتعهد إقامة نظام عالمى جديد مؤسس على إيمان "ويلسونى" جديد بحق تقرير المصير الوطنى باعتباره معتقدا رئيسيا للوجود السياسى لكل من الإسرائيليين والفلسطينيين. وبالرغم من أن الطريق كان يبدو ملتويا أكثر مما كان يتوقع معظم صناع السياسة الأمريكية، فإن الإسرائيليين والفلسطينيين كانوا سيجدون فى النهاية طريقهم من سهل "كاستيل" عبر أزقة النرويج البحرية إلى بيت "كلينتون" الأبيض فى خريف ١٩٩٣.

اتفاقيات أوسلو التى وقعها كل من رئيس الوزراء الإسرائيلى "إسحق رابين" و"ياسر عرفات" رئيس منظمة التحرير الفلسطينية فى حديقة الورد فى ١٣ سبتمبر ١٩٩٣، كانت تقوم فى الأساس على صيغة بسيطة هى **"الأرض مقابل السلام"**؛ وبالنسبة لإسرائيل كانت الاتفاقيات لا تعنى فقط السماح بإقامة مقاطعات عربية فى قطاع غزة والضفة الغربية يمكن أن تتطور مع الزمن إلى "دويلة" فلسطينية، وإنما أيضا وضع حد للمستوطنات اليهودية فى تلك المناطق المحتلة نفسها؛ وبالنسبة للفلسطينيين لم تكن تعنى فقط القبول بحق إسرائيل فى العيش فى سلام مع جيرانها العرب خلف حدود آمنة، وإنما أن يعلنوا كذلك تخليهم عن أساليب الإرهاب التى كانت المنظمة قد اشتهرت بها، وبالنسبة للطرفين فإن ذلك المبدأ المكون من ثلاث كلمات

[**الأرض مقابل السلام**]، الذى كان وراء اتفاقيات أوسلو، فكان يعنى تخطى أخطار قصيرة المدى من أجل الإمساك بفرص بعيدة المدى من أجل شرق أوسط أكثر سلاما. وكما كان متوقعا، فإن محاولات وضع صيغة "**الأرض مقابل السلام**" موضع التنفيذ أججت الاتهامات المريرة المتبادلة بين القادة الإسرائيليين والفلسطينيين الذين كانوا حتى أواخر التسعينيات يبدون عاجزين عن الاتفاق على أمور أساسية مثل "أى أرض؟" و"أى سلام؟". والحقيقة أنه عندما كان الموعد النهائى للتسوية النهائية يلوح فى أوائل الألفية الجديدة كان يبدو أن لا "ياسر عرفات" ولا "أرئيل شارون" منافس "رابين" القديم، لديهما القدرة على استجماع شجاعة كافية أو خيال كافٍ من أجل تحقيق سلام دائم.

على مدى السنوات بالطبع لم يكن الإسرائيليون ولا الفلسطينيون يترددون أبدا لكى يجروا أقدامهم ويرفعوا أصواتهم أو أن يلوحوا بأسلحتهم كلما شعروا أن عملية السلام كانت تسير فى الاتجاه الخطأ. فى الأيام الأولى كان العرب هم العقبة الرئيسية أمام السلام فى الشرق الأوسط؛ فبعد رفض مشروع التقسيم الذى قدمته الأمم المتحدة فى ١٩٤٧، رفضت الدول العربية التفاوض مع الإسرائيليين على مدى عقدين وشنوا الحرب – بالكلام عادة وأحيانا بالسلاح – على دولة يهودية كان قادتها يبدون رغبة فى مبادلة الأرض بالسلام، على الأقل حتى يونيو ١٩٦٧؛ وربما يكون "أبا إيبان"، رجل الدولة الإسرائيلى، هو أفضل من عبر عن ذلك عندما قال إن العرب لم يضيعوا أى فرصة لكى يضيعوا فرصة. ومن المثير للسخرية أن ثمار النصر الإسرائيلى فى حرب الأيام الستة جعل كثيرا من الإسرائيليين راغبين فى الأرض أكثر من السلام. على مدى السنوات الثلاثين الماضية كانت الضفة الغربية ومرتفعات الجولان والقدس الشرقية العربية تبدو أكبر وأكثر إغراء فى خيال التوسعيين الإسرائيليين مثل "مناحيم بيجن" و"إسحق شامير" و"بنيامين نيتانياهو".

لم يكن كل الإسرائيليين على أية حال متفقين فى وجهات النظر مع دعاة إسرائيل الكبرى، ومقتنعا بكلمات وأفعال "أنور السادات" والملك "حسين" و"ياسر

عرفات" بأن العرب كانوا - أخيرا - مستعدين للسلام، كان ما يقلق "أبا إيبان" هو أن إسرائيل كانت على وشك الوقوع فى الخطأ نفسه الذى وقع فيه العرب قبل جيل. "لم تكن مهمتنا تأكيد حقوقنا وإنما أن نجعلها منسجمة مع حقوق ومصالح الآخرين أيضا"، هكذا كان يذكر قراء مذكراته فى ١٩٩٢. أولئك الذين كانوا ما يزالون ملتزمين بتحقيق هذه المهمة - كما أضاف - كان عليهم مرة أخرى أن يضعوا إسرائيل "على مسار كانت الفرص فيه تتجاوز الأخطار"(١). وضع كل من العرب والإسرائيليين على مثل هذا المسار كان يشغل من فى المكتب البيضوى وخبراء شئون الشرق الأوسط لديهم منذ أواخر الأربعينيات.

• هل هو "بلفور" معكوسا؟: "ترومان" وإسرائيل والفلسطينيون

ربما يكون "هارى ترومان" هو القابلة التى سهلت ولادة الدولة اليهودية فى أواخر فترة إدارته الأولى، ولكنه خلال الفترة الثانية كان يبدو أكثر شبها بطبيب الأسرة المحبط، لعجزه عن عقد تسوية بين الإسرائيليين والعرب الفلسطينيين الذين أزاحوهم من مكانهم. أثناء حرب ١٩٤٨ وما تمخضت عنه، ترك ٧٥٠٠٠٠ فلسطينى ديارهم داخل ما سوف يصبح إسرائيل، ليقيموا فى ما كانوا يأملون أن يكون مأوى مؤقتا فى جنوب لبنان أو الضفة الغربية(٢).

بعض اللاجئين كانوا تحت الضغط لكى يقطعوا جذورهم بسبب جيش التحرير العربى، وهو قوة فلسطينية لا نظامية بلغ قوامها ١٦٠٠٠ فرد مع عدد من المتطوعين من سوريا والعراق الذين كانوا يروعون المزارعين اليهود ويرهبون القرويين العرب منذ ١٩٤٨؛ ولكن معظم اللاجئين اختاروا المنفى ليتجنبوا العيش تحت الحكم اليهودى أو ليهربوا من الإرهاب والموت على أيدى منظمات متطرفة مثل "أرجون" مناحيم بيجن، التى ذبح أعضاؤها ٢٥٠ فلسطينيا بين رجل وامرأة وطفل فى قرية "دير ياسين" العربية غربى القدس عشية الاستقلال الإسرائيلى(٣).

كثيرا ما كان يؤكد الصهاينة الرواد من أمثال رئيس الوزراء "ديڤيد بن جوريون"، أن دولتهم الجديدة لابد من أن تكون كومنولث مسالما يتعايش فيه اليهود والعرب، ولكن موجة العنف والرعب المتصاعدة التى أطلقها كل من جيش التحرير العربى و"الأرجون" فى مارس وأبريل، وكذلك عملية الغزو الثلاثية الجوانب التى شنتها الدول العربية فى مايو ويونيو أقنعت قادة الدولة اليهودية أنه لا يمكن أن تكون هناك تسوية مع الفلسطينيين، ومع وجود القوات الإسرائيلية المتأهبة لتأمين ممر حيوى من الناحية الاستراتيچية يصل بين تل أبيب والقدس، التقى الچنرال "ايجال ألون – Yigal Allon" بـ"ديڤيد بن جوريون" فى ١٢ يوليو ١٩٤٨، وسأله ألون: "ماذا نحن فاعلون مع العرب؟"، وكان رد الرئيس "نطردهم!"(٤).

لم يكن قرار "بن جوريون" مريحا لإدارة "ترومان" ولا للكونت "فولك برنادوت – Folke Bernadotte"، رجل الدولة السويدى الذى كانت الأمم المتحدة قد عينته حديثا للتوسط بين العرب واليهود. كانت "مظاهر الغرور" تبدو على الدولة اليهودية كما شكا الوسيط فى أوائل أغسطس، بعد أن رفض "موشى شاريت – Moshe Sharett" وزير الخارجية مناقشة حتى مجرد إعادة بعض اللاجئين العرب إلى بيوتهم السابقة؛ وبعد شهر كان قلق وزير الخارجية الأمريكى "چورچ مارشال – George Marshall" يتزايد لأن "ضغينة العرب على إسرائيل بسبب مشكلة اللاجئين" كانت تتنامى لتصبح "عقبة رئيسية فى سبيل مفاوضات السلام تلك"، التى كان "شاريت" و"بن جوريون" يقولان إنهما راغبان فيها؛ وفى ١ سبتمبر كان ما توصل إليه "مارشال" هو أن "مشكلة اللاجئين العرب هى مشكلة حياة أو موت"، وأن حسابات قادة إسرائيل ستكون بالغة الخطأ، إذا كانوا يعتقدون أن العلاج القاسى لهذه القضية المأساوية سوف يمر دون اهتمام من الرأى العام العالمى". المتطرفون الإسرائيليون بعثوا برسالة إلى "مارشال" وإلى العالم كله باغتيال الكونت "برنادوت" فى عملية وحشية فى وضح النهار بينما كان يقود سيارته فى القدس فى ١٧ سبتمبر ١٩٤٨، ولكن بصرف النظر عن حل مسألة اللاجئين لصالح إسرائيل، فإن اغتيال "برنادوت" كان دافعا لمسئولى الأمم

المتحدة من أجل بذل المزيد من الجهد لمساعدة آلاف الفلسطينيين المكدسين فى مخيمات مؤقتة فى الضفة الغربية(٥).

بالرغم من أن الاعتبارات الإنسانية كانت نصب أعين صناع السياسة الأمريكية، فإن اعتبارات الحرب الباردة كانت لها الأولوية على أجندة واشنطن فى تناولها للمأساة الفلسطينية. على مدى شهور كانت الخارجية الأمريكية تتلقى تقارير كثيرة تحذر من أن اللاجئين الفلسطينيين - بكلمات سفير الولايات المتحدة فى دمشق - كانوا "مهيئين دون شك للفكر الشيوعى"(٦). وحيث إن إدارة "ترومان" كانت مقتنعة بأن سلاما عادلا دائما هو ترياق التسلل السوفيتى إلى الشرق الأوسط، وأن مثل هذا السلام كان معلقا على عكس اتجاه الشتات الفلسطينى، ساعدت الإدارة فى تمرير قرار الأمم المتحدة رقم "١٩٤" فى ١١ ديسمبر ١٩٤٨ الذى كان يعتمد إلى حد كبير على أفكار "برنادوت". هذا القرار أكد: "اللاجئون الذين يرغبون فى العودة إلى ديارهم ليعيشوا فى سلام مع جيرانهم ينبغى السماح لهم بذلك فى أقرب وقت ممكن"، كما شكل القرار لجنة ثلاثية من ممثلين لفرنسا وتركيا والولايات المتحدة لتسوية القضية الفلسطينية لكى تحقق هذه النتيجة(٧).

بمجرد أن انتظمت اللجنة فى عقد اجتماعاتها فى أوائل ١٩٤٩، اكتشف أعضاؤها أن تنفيذ القرار "١٩٤" لن يكون مهمة سهلة؛ وفى منتصف أبريل كان "مارك إثردج - Mark Ethridge" (أحد المتنفذين فى البيت الأبيض وممثل الولايات المتحدة فى اللجنة) يشكو لـ"هارى ترومان" أن "هذا بالفعل أصعب تكليف عهدت به إلى"، كما كتب فى تقريره: "من جانبهم، العرب مصدومون ومذهولون من جراء هزيمتهم، ويشعرون بمرارة شديدة تجاه الولايات المتحدة"، بينما الإسرائيليون "ما زال لديهم شعور قوى بأن القوة العسكرية، وليس العلاقات الحسنة مع جيرانهم، هى ما يحقق لهم أمنهم"؛ ومؤكدا أن "غياب السلام كان فى صالح الروس" كان "إثردج" يدفع فى اتجاه تنازلات إسرائيلية، كما حث "ترومان" على أن "يواصل الضغط". يبدو أن الديمقراطى الميسورى حاول أن يفعل ذلك عندما جلس لتناول الغداء مع الرئيس

الإسـرائـيـلى "حـايـيم وايـزمـان – Chaim Weizmann" فى ٢٥ أبـريل. أوضح له "وايزمان" تماما أن سياسة إسرائيل بخصوص اللاجئين الفلسطينيين لن تتغير، وبعد يومـين كتب إلى "ترومان": "كما قلت، فإن الحل ليس فى إعادة اللاجئين وإنما فى توطينهم" فى المناطق الخصبة ذات الكثافة السكانية القليلة" فى جنوب العراق وشمال سوريا أو غرب الأردن(٨).

كلما كان "ترومان" ومستشاروه يفكرون أكثر فى مشروع "وايزمان" لإعادة توطين الفلسطينيين كان يبدو لهم ذلك أفضل، ومن الواضح أن الدولة اليهودية لم تكن قادرة على إعادة استيعاب جميع اللاجئين العرب الذين كان عددهم قد وصل إلى نحو ٩٥٠ ألفا، ولكن إذا كانت إسرائيل لتوافق على إعادة حوالى ٢٠٠٠٠٠ منهم، فإن خبراء الخارجية الأمريكية كانوا يعتقدون أن دولارات الولايات المتحدة يمكن أن تساعد فى الوفاء باحتياجات الآخرين، "من خلال إعادة دمج اللاجئين على أساس الإعالة الذاتية" فى الدول العربية المجاورة. كان "بن جوريون" و"شاريت" مصممين بالطبع على أن: حتى عودة ٢٠٠٠٠٠ لاجئ يعتبر مطلبا كبيرا، ولكن بحلول أوائل مايو كانا يزودان واشنطن بهدوء بمعلومات عن "إعادة مبكرة لأسر عربية تعيش الآن فى مناطق تحت السيادة الإسرائيلية"(٩).

كانت إدارة "ترومان" تأمل فى أن تكون الدلائل المتواصلة على مرونة إسرائيل حافزا على رد إيجابى من العرب، وفى ٢٩ يوليو أكد السفير "إلياهو إبستاين – Elia-hu Spstein" شخصيا للرئيس "ترومان" أن إسرائيل كانت "متلهفة على إحراز تقدم فى مسألة اللاجئين"، وأنها كانت على استعداد لتوطين ما يقرب من مائة ألف فلسطينى من المبعدين عن ديارهم، إذا لم يجدو إقامة مناسبة فى الدول العربية المجاورة(١٠). ولكن عندما قدم المسئولون الأمريكيون فكرة "إبستاين" للمندوبين العرب فى محادثات الهدنة التى عقدتها لجنة التسوية فى "لوزان" بسويسرا بعد ذلك بأسبوع، كان هناك "رفض فورى". رافضا المشروع الإسرائيلى جملة وتفصيلا باعتباره "مجرد مشروع للدعاية"، كان أحد الدبلوماسيين السوريين يقول غاضبا إن

"اليهود إما تحت قدميك أو ممسكون بخناقك". قليلون فى واشنطن هم الذين كانوا يتوقعون أى تقدم دبلوماسى فى أى وقت سريع(١١).

ولأنه كان مقتنعا بأن الوسيلة الوحيدة لفتح هذا الطريق المسدود كان نقل التركيز من الدبلوماسية إلى التنمية، طلب "ترومان" من "جوردون كلاپ – Gordon Clapp" رئيس هيئة "وادى تينسى – Tennessee Valley Authority" (TVA)، أن يرأس بعثة إلى الشرق الأوسط فى أواخر أغسطس ١٩٤٩ تقوم بعملية مسح اقتصادى، وبعد جولة استمرت ثلاثة أسابيع فى الأرض المقدسة توصل "كلاپ" إلى أن مشروعا لتنمية نهر الأردن على نمط "TVA" تديره الأمم المتحدة، يمكن أن يجعل المكان مجديا اقتصاديا لتوطين معظم اللاجئين الفلسطينيين فى الصفة الغربية ويقلل الضغط من أجل إعادتهم إلى إسرائيل. ببناء سدود ومشروعات عامة أخرى، وبزيادة كمية المياه المتوفرة للرى يمكن أن يقوم المهندسون الأمريكيون بزيادة فرص العمل ومساحة الأراضى المتاحة للفلسطينيين الذين سيصبحون أقل حزنا على ديارهم المفقودة ومزارعهم التى تركوها فى الدولة اليهودية؛ وفى أوائل سپتمبر أصدرت الجمعية العامة قرار رقم "٣٠٢" بإنشاء وكالة الإغاثة والتشغيل "الأونروا" "UN. Relief and Works Agency -UNRWA" بموازنة قدرها ٥٥ مليون دولار وتكليف بتنفيذ المشروعات التى حددتها بعثة "كلاپ"(١٢).

وبالرغم من أن الإسرائيليين كانوا مهتمين باقتراحات "كلاپ" وأنشطة "الأونروا" ظل العرب محجمين. مشيرا إلى أن التناول الاقتصادى فقط للمشكلة كان يتجاهل الطموحات السياسية للفلسطينيين، كان "شارل مالك" وزير خارجية لبنان، المعروف بأنه من الأصوات المعتدلة فى منطقة ينتشر فيها العداء لأمريكا على وجه السرعة، كان يحذر من أن إدارة "ترومان" كانت تخلق الانطباع بأن "الولايات المتحدة غير مكترثة بالعرب بالمرة"، ولكى يبدد فكرة أن حكومة الولايات المتحدة سوف تستسلم للضغط الصهيونى فى كل سنة انتخابية"، اقترح "مالك" فى أغسطس ١٩٥٠ أن تصدر واشنطن «معكوس تصريح "بلفور"»، تلزم فيه نفسها بإقامة وطن قومى

للفلسطينيين[١٣]. ومع مناوشات على الحدود بين سوريا وإسرائيل كانت تتصاعد منذرة بالمزيد من التدهور، ومع الإغارات الفلسطينية على المستوطنات اليهودية فى الأراضى غير الآهلة حول القدس، كان عدد قليل من صناع السياسة الأمريكية يرون اقتراح "مالك" واقعيا. وبحلول أكتوبر ١٩٥١ كان مسئولو الخارجية الأمريكية القلقون يقولون متذمرين إن "مالك" والعرب الآخرين لابد من أن يواجهوا "الحقائق القائمة"، ويساعدوا فى إعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين خارج إسرائيل، وعندما سلم "ترومان" المكتب البيضوى لـ"دوايت إيزنهاور" بعد خمسة عشر شهرا، كانت عملية السلام ما زالت تراوح فى مكانها، وإلى حد كبير كان ذلك بفضل عدم استعداد العرب لقبول واقع جديد وهو أن إسرائيل كانت هناك لتبقى[١٤].

● ضربتان لـ"أيك": مشروع "جونستون" والخطة "ألفا"

بدأ "إيزنهاور" وفريقه للسياسة الخارجية فترة إدارتهم مقتنعين بأنهم بتبنيهم أسلوبا أكثر إنصافا للمسألة الفلسطينية أكثر منه لدى سلفهم، يمكنهم أن يرعوا تسوية عربية إسرائيلية تقوم على التنمية الاقتصادية وتعديلات حدودية طفيفة وقدر من الإنصاف للاجئين الفلسطينيين؛ وعلى الفور، لقيت هذه الغايات الطموحة مقاومة عنيدة، ليس فقط من الإسرائيليين الذين كانوا يعتبرون أى تنازلات حدودية بمثابة انتحار، وإنما أيضا من الراديكاليين العرب الذين كانوا ينكرون حق إسرائيل فى الوجود ورفضوا حتى مجرد التفاوض مع مندوبيها. وزير الخارجية "جون فوستر دالاس" عرف مدى ما يشعر به الفلسطينيون من مرارة فى مايو ١٩٥٣ أثناء زيارة للأردن عندما استمع إلى لاجئين يصفون الحياة فى المخيمات البائسة التى كانت تملأ الضفة الغربية. كان الفلسطينيون يخبرون زائرهم بأسى بأن "الدول الديمقراطية ظلت تتعامل مع مشكلة اللاجئين على مدى السنوات الخمس الماضية كما لو كانت مشكلة أكاديمية يمكن حلها بإعادة توطين اللاجئين فى الدول العربية ودفع نقود"، ومصرين على أن المشكلة لم تكن اقتصادية ولا إنسانية، وإنما سياسية، حذر اللاجئون "دالاس"

بكل وضوح بأن "أى قدر من المال مهما كان كبيرا لن يؤدى إلى حل للمشكلة ولن يوقف المد الشيوعى الذى كان يوشك أن يجتاح الشرق الأدنى"(١٥).

عاد "دالاس" إلى واشنطن مقتنعا بأنه إذا لم يتم حل المعضلة العربية الإسرائيلية بسرعة، فسوف يكون تغلغل "الكرملين" كبيرا فى المنطقة؛ وفى الأول من يوليو كان يقول فى حديث إذاعى إن "بعض هؤلاء اللاجئين يمكن توطينهم فى المنطقة التى تسيطر عليها إسرائيل الآن"، وإن "الغالبية يمكن استيعابهم بسرعة في الدول العربية المجاورة"(١٦). وفى جلسة استماع مغلقة فى مجلس الشيوخ بعد يومين، كان مصرا على أن "أى حل حقيقى" للمشكلة الفلسطينية يكمن فى التنمية التعاونية لمصادر المياه الإقليمية، ليس فى وادى الأردن فقط، وإنما فى حوضى دجلة والفرات كذلك حيث "يمكن تنمية مساحة كبيرة من الأراضى لاستيعاب هؤلاء اللاجئين"(١٧).

مقتنعا بأن التنمية الاقتصادية كانت هى مفتاح تسوية سياسية أوسع، وافق "إيزنهاور" على ٦٦ مليون دولار لمشروع مثل "TVA" لتنمية وادى الأردن، وعين "إيريك جونستون – Eric Johnston"، وهو رجل أعمال من "وست كوست" كان رئيسا لمؤسسة السينما الأمريكية، مبعوثا خاصا له. مملوءا بالتفاؤل، طار "جونسون" إلى الشرق الأوسط فى منتصف أكتوبر، وتنقل بين عمان وتل أبيب ودمشق وبيروت فى زيارات مكوكية، وفى ١٧ نوفمبر أخبر "إيزنهاور" بأن الإسرائيليين كانوا "متقلبين جدا" فى تعاملهم مع اقتراح الولايات المتحدة، وبالرغم من أن العرب كانوا يدعون علنا "لمقاومة التعاون مع إسرائيل"، كان الملك "حسين" والرئيس اللبنانى "كميل شمعون" فى قرارة نفسيهما مستعدين، على الأقل، للتفكير فى عملية تنمية اقتصادية(١٨). وعندما عاد "جونسون" إلى الشرق الأوسط بعد سبعة أشهر، كان الموقف الأردنى واللبنانى المتذبذب بخصوص المبادرة، قد تحول إلى معارضة شديدة، وكان لدى خبراء الخارجية الأمريكية قدر من الشك فى من يكون المسئول عن ذلك. بكلمات إحدى أوراق المعارضة التى أعدت فى نوفمبر ١٩٥٤، كان مثيرو الشغب الدائمين من العرب "مثل أحمد الشقيرى أحد كبار المسئولين فى جامعة الدول العربية والمهيج الفلسطينى الذى سيؤسس منظمة التحرير الفلسطينية بعد عقد، كانوا يخربون مشروع "جونستون".

لم يكن "دالاس" مختلفا، إذ كان يشكو فى ٩ مارس من أن "الدول العربية كانت تبقى على المشكلة كسلاح سياسى ضد إسرائيل والغرب"(٢٠)، والمؤكد أن "دالاس" استطاع أن يقنع "إيزنهاور" ليعيد "چونستون" إلى الشرق الأوسط مرتين فى ١٩٥٥ بحثا عن دعم عربى لمشروع وادى الأردن، وفى المرتين كان يعود خالى الوفاض. بعد أربع زيارات لعواصم عربية فى غضون عامين، كانت الأمور قد بدأت تتحسن فى هوليود. محبطا من جدل ومماحكات لا نهاية لها من قبل صناع المتاعب العرب، اعترف رجل السينما الذى قد تحول إلى دبلوماسى بأن مشروع "چونستون" ليس مرشحا للحصول على أى جائزة أوسكار فى وقت قريب، وعاد إلى "وست كوست" عندما كانت الفترة الأولى من إدارة "آيك" تقترب من نهايتها"(٢١).

مبادرة السلام السرية للغاية التى أطلقها "إيزنهاور" ورئيس الوزراء "أنتونى إيدن – Anthony Eden" فى أواخر ١٩٥٤ لن يكون مصيرها أفضل، على أيدى العرب، من محاولة الولايات المتحدة الانفرادية التى تجسدت فى مشروع "چونستون". قبل أعياد الميلاد بأربعة أيام اتفق "إيزنهاور" و"إيدن" على تشكيل مجموعة عمل أنجلو-أمريكية تحت الاسم الكودى "العملية ألفا"، وبعد شهر بدأ فى الظهور تصور أولى لما سيصبح فى النهاية "المبادرة ألفا"، وسيتم الضغط على إسرائيل للسماح لعدد صغير من الفلسطينيين المبعدين عن ديارهم بالعودة، ولكن الأغلبية العظمى سيعاد توطينهم بشكل دائم فى الدول العربية المجاورة؛ وكان المتوقع أن تقدم إسرائيل بعض التنازلات الحدودية البسيطة فى صحراء النقب تمكن من عمل جسر برى يربط بين مصر والأردن فى مقابل توقع أن يعترف العرب رسميا بحق الدولة اليهودية فى الوجود خلف حدود آمنة؛ ولكى تكون هذه الترتيبات "مبلوعة" بالنسبة للعرب ستكون هناك صفقة تنمية تقدر بعدة ملايين من الدولارات لمشروعات بدءا من سد أسوان إلى وادى الأردن، وبمجرد أن يقبل كل من العرب والإسرائيليين ذلك ستدعم بريطانيا والولايات المتحدة هذه التسوية الشاملة بضمانات أمنية واضحة(٢٢).

بعد أن ترك العمل الذى أنجزته المجموعة أثرا طيبا لدى كل من "إيزنهاور" و"دالاس" كان يحدوهما الأمل فى إقناع "عبد الناصر" بقبول "العملية ألفا" قبل بدء

الحملة الانتخابية الرئاسية للعام القادم؛ وفى ٢٧ يناير ١٩٥٥ كان "دالاس" يقول: "يجب إبلاغ العرب بأنهم إذا لم يعقدوا سلاما مع إسرائيل الآن فإنهم سيضيعون أفضل فرصهم"[٢٣]. وبالرغم من أن "آيك" "شعر بالرعب إلى حد ما" بسبب التكلفة المادية المقدرة للعملية ألفا وهى بليون دولار، وافق فى منتصف فبراير على أن "يبذل قصارى جهده من أجل التوصل إلى تسوية... إن أمكن قبل انتخابات ١٩٥٦"؛ وقبل أن ينتهى الشهر هاجمت إسرائيل موقعا عسكريا مصريا فى قطاع غزة، ما دفع "عبد الناصر" لتعطيل "العملية ألفا" لمدة ستة أشهر فى الوقت الذى كان يسعى فيه للحصول على أسلحة من الخارج[٢٤].

وبينما كان "عبد الناصر" يتسوق الدبابات والطائرات من واشنطن أولا ثم من موسكو بعد ذلك، كان صناع السياسة الأمريكيون يعملون من وراء ستار لإعادة مبادرتهم العربية الإسرائيلية الطموحة إلى طريقها مرة أخرى، ومع أفق السلام التى كانت تخبو بسرعة كان رئيس الوزراء "إيدن" يشبه الإسرائيليين والعرب بجماعات "هاتفيلد" و"ماكوى" فى "تينيسى" كما كان يحبذ التقدم بحذر[٢٥]. من ناحية أخرى كان "إيزنهاور" يريد التحرك بالفعل قبل انتهاء الصيف وسمح لـ"جون فوستر دالاس" بأن يروج لمشروع ألفا من خلال حديث له تم الإعداد لنشره جيدا فى نيويورك سيتى. كانت الولايات المتحدة، بمساعدة إسرائيل، مستعدة لأخذ زمام السبق فى تنمية الأراضى الصالحة للزراعة وخلق فرص عمل حقيقية وإيجاد مساكن مناسبة للفلسطينيين، كما قال "دالاس" أمام مجلس العلاقات الخارجية فى ٢٦ أغسطس ١٩٥٥، بشرط أن يقبل العرب "حدودا ثابتة دائمة" و"معاهدات رسمية"[٢٦].

كانت صيغة "**الأرض مقابل السلام**" التى لقيت ترحيبا فى مجلس العلاقات الخارجية مثار استهجان فى الدول العربية، وبعد شهر من إعلان "دالاس" للخطة "ألفا" وافق "الكرملين" على تزويد "عبد الناصر" بالسلاح عبر وساطة تشيكية ما جعله أقل اهتماما منه فى أى وقت مضى بشراء مشروع السلام الذى كانت واشنطن ولندن تسوقانه؛ وعلى العكس كان الإسرائيليون أكثر تلهفا على المشاركة فى "العملية ألفا"،

بل كانوا مستعدين للتفكير فى إعادة توطين بعض اللاجئين الفلسطينيين أو تقديم تنازلات حدودية طفيفة فى النقب لبدء محادثات مباشرة مع الزعيم المصرى، وبهدف انقاذ ما يمكن إنقاذه من عملية السلام المتوقفة قبل عام الانتخابات الذى سيعطل هذا المسار وربما يجعله مستحيلا، طلب "إيزنهاور" من نائب وزير الدفاع السابق "روبرت أندرسن – Robert Anderson" القيام بمهمة سرية فى الشرق الأوسط فى أوائل ١٩٥٦(٢٧).

طار "أندرسون" إلى القاهرة فى منتصف يناير، ولكن سرعان ما اتضح أن مضيفه لم يكن مستعدا للتسوية أو المساومة. كان "عبد الناصر" مصرا على أن المفاوضات المباشرة مع الإسرائيليين "مستحيلة" إذا لم يوافقوا وإلى أن يوافقوا على "عودة جميع اللاجئين" و"التخلى عن صحراء النقب بكاملها لمصر"(٢٨). وعندما رد "أندرسون" باقتراح نظام معقد لمعابر علوية ومعابر سفلية فى النقب الجنوبى توفر لمصر جسرا أرضيا للأردن دون أن يعوق ذلك مرور إسرائيل إلى خليج العقبة وجد "عبد الناصر" الأمر يدعو للسخرية "... ولنفرض أن أحد جنودنا أراد أن يبول... وفعلها من الممر العلوى على بعض الإسرائيليين تحت... ألن يشعل ذلك حربا؟"(٢٩). على العكس من ذلك كان رئيس الوزراء الإسرائيلى على استعداد لمناقشة مشروع "ألفا" عندما وصل "أندرسون" إلى إسرائيل فى أواخر يناير. متشجعا لما وجده من اهتمام جديد مستمر من الإسرائيليين، عاد مبعوث "آيك" إلى واشنطن للتشاور مع "فرانسيس راسل – Francis Russell" كبير خبراء "فوجى بوتوم" المتخصص فى شئون الشرق الأوسط. شاعرا بالضيق من «أسلوب "عبد الناصر" الذى ينم عن غرور وفرط ثقة» فى تعامله مع "أندرسون"، كان "راسل" يحذر "جون فوستر دالاس" فى أواخر فبراير بأن أفق عملية السلام كانت قد أصبحت "بين بين"(٣٠).

بالرغم من الخلافات الطويلة، عاد "أندرسون" إلى القاهرة فى رحلة ثانية فى أوائل مارس، إلا أن "عبد الناصر" رفض فكرة المحادثات المباشرة مع "بن جوريون" مصرا على أن إسرائيل لابد من أن تسلم معظم النقب، كما حيا "صمود اللاجئين"

الذين كانوا ضد التسوية مع الدولة اليهودية[٣١]. لم يكن شيء من ذلك كله مفاجئا لـ"إيزنهاور" الذى كتب فى مذكراته بعد لقاء مع "آندرسون" أطلعه فيه على الموقف فى ١٢ مارس "فرص التسوية السلمية تبدو بعيدة" إلى حد كبير حيث "اتضح أن عبد الناصر حجر عثرة تماما". وبسبب عناد العرب ماتت "العملية ألفا" مثلما مات مشروع "چونستون"[٣٢].

الجهود غير المجدية لكل من "إيريك چونستون" و"روبرت آندرسون" لرعاية السلام بين "هاتفيلد" و"ماكوى" الشرق الأوسط سرعان ما ألقت عليها أزمة السويس ونتائجها بظلالها لتصبح لها الأولوية على مشكلة اللاجئين فى فترة إدارة إيزنهاور الثانية. والمؤكد أن كبار المسئولين الأمريكيين كانوا على إصرارهم أنه "لابد من بذل كل جهد ممكن لتخفيض مدفوعات اللاجئين بأسرع ما يمكن وذلك بتطوير الفرص الاقتصادية" من خلال وكالات مثل "الأونروا" بحيث يصبح الفلسطينيون "قادرين على الاعتماد على أنفسهم". وبحلول أواخر ١٩٥٩ كان الكونجرس "يزداد ترددا" فى تمويل "الأونروا" التى كانت قد حصلت على ٢٥٠ مليون دولار من أموال دافعى الضرائب على مدى العقد السابق، "إلا إذا كانت هناك بارقة أمل فى حل ممكن"؛ ومع الوقت الذى كان يمضى سريعا لم يكن أمام خبراء الشرق الأوسط فى إدارة إيزنهاور سوى أن يأملوا فى مهمة أخرى «على غرار مهمة بوب "آندرسون"» وذلك "بعد أن تبدأ الإدارة الجديدة عملها"[٣٣].

• من الإنصاف إلى قبض الريح:

"چون اف. كينيدى" ومشروع چونسون

بعد سبعة أشهر من توليه مهام منصبه فى "١٦٠٠ – پنسلڤانيا أڤنيو"، بدأ "چون اف. كينيدى" سعيا هادئا لحل مشكلة اللاجئين مع "چوزيف چونسون – Joseph Johnson" رئيس وقفية كارينجى للسلام الدولى؛ فى طرح أشبه بدور "روبرت آندرسون". رؤية "كينيدى" للصراع العربى الإسرائيلى كانت قد تشكلت أثناء زيارتين

للأرض المقدسة فى ١٩٣١ و١٩٥١ كشفتا عن الخصوبة المدهشة للتربة والكراهية الشديدة بين العرب واليهود الذين كانوا يفلحونها. وبالرغم من أن الإعجاب الشديد بالتجربة الصهيونية ومن أن الطموحات الرئاسية الخاصة كانت قد جعلت من المرشح الديمقراطى القادم من ماساشوستس مؤيدا لإسرائيل منذ وقت باكر، لم يكن "كينيدى" غافلا عن معاناة الفلسطينيين، فقد ذَكَّر المدعوين إلى حفل عشاء فى إحدى المنظمات الصهيونية فى نيويورك سيتى فى فبراير ١٩٥٩ بأن مشكلة اللاجئين "كانت حاضرة دائما مثل سيف مسلول بين إسرائيل والدول العربية"، وتعهد بأنه إذا انتخب رئيسا سوف يكسر الجمود عن طريق "التفاوض وإعادة التوطين والمساعدات الدولية الخارجية"(٣٤).

لم يضيع الرئيس "كينيدى" وقتا طويلا لكى يحقق هذا التعهد، ففى أوائل مايو ١٩٦١ بعث برسائل إلى "جمال عبد الناصر" وخمسة رؤساء عرب آخرين يحثهم على العمل "من أجل تسوية نزيهة وإنسانية" لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين المأساوية"(٣٥)، كما ناشد رئيس الوزراء الإسرائيلى "بن جوريون" لكى يعيد النظر فى موقف إسرائيل من مسألة اللاجئين عندما التقيا فى فندق "والدورف استوريا" فى نيويورك سيتى فى آخر الشهر. كان معروفا عن "بن جوريون" أنه أكثر ميلا إلى إعادة التوطين من عودة اللاجئين إلى ديارهم؛ حيث كان العرب - كما قال - يعتبرون العودة "أفضل سلاح ممكن" لتدمير إسرائيل من الداخل، إلا أنه قال لـ"كينيدى" إن إسرائيل سوف تبذل قصارى جهدها(٣٦).

فى أوائل أغسطس رتب "كينيدى" ووزير خارجيته "دين راسك - **Dean Rusk**" لكى يقوم "داج همرشلد - **Dag Hammarskjöld**" الأمين العام للأمم المتحدة بتعيين "جوزيف جونسون" ممثلا خاصا له فى الشرق الأوسط. "جونسون"، الذى كان "راسك" قد عمل معه قبل خمس عشرة سنة فى قسم شئون الأمم المتحدة فى "فوجى بوتوم"، كان بارعا فى التلاعب بمسئولياته المتشابكة أمام كل من "همرشلد" و"كينيدى"(٣٧)، والواقع أن "جونسون" عاد من جولته الافتتاحية فى دبلوماسية المكوك

فى أواخر سبتمبر وهو مقتنع بأن وضعه المزدوج كممثل للأمم المتحدة ومبعوث غير رسمى للولايات المتحدة كان يقوى موقفه، ومما لا شك فيه أن العرب والإسرائيليين لم يكونوا متحمسين فى أول الأمر، ولكن بمجرد أن عرفوا أن "الولايات المتحدة ستوقع الفاتورة" دبت فيهم الحماسة. فى ٢٩ سبتمبر أخطر "چونسون" المسئولين فى الخارجية الأمريكية بأن "أصعب ما فى الأمر هو أن إسرائيل سيكون عليها أن تقبل فى مكان ما يقرب من عشرة آلاف لاجئ فى السنة على مدى فترة أولية تقدر بعامين أو ثلاثة"، و"فى النهاية طبعا يمكن أن يرفض العرب أى حل على أسس سياسية، كما حدث بالنسبة لمشروع "آيك چونستون" الخاص بمياه الأردن "ومع ذلك فإن الأمر يستحق محاولات أخرى"[٣٨].

بالرغم من الصدامات المؤسفة بين المزارعين الفلسطينيين والإسرائيليين فى أواخر ١٩٦١ ونزاعات الحدود الدموية بين سوريا وإسرائيل فى أوائل العام الجديد، واصل "چونسون" رحلاته المكوكية طوال ربيع ١٩٦٢؛ وفى أواخر يوليو جلس "دين راسك" مع رئيسه القديم لبحث تفاصيل صفقة "**الأرض مقابل السلام**" التى أصبحت تعرف بمشروع چونسون، وتحت شروط اقتراح "چونسون" ستقوم "الأونروا" بإجراء تصويت بين اللاجئين، وتقوم إسرائيل بإعادة توطين من يريد العودة منهم إلى دياره القديمة، وتقوم الدول العربية بتوطين من يريد بدء حياة جديدة فى مكان آخر بشكل دائم. وبالرغم من أن مشروع "چونسون" لم يكن يتضمن سقفا محددا لعدد الفلسطينيين الذين ستتم إعادتهم إلى إسرائيل، فإن صاحبه كان يتوقع ألا يقل العدد عن مائة ألف أو أقل من واحد من عشرة تقريبا؛ ولتحلية ما كان يبدو دواء مرا بالنسبة لإسرائيل، كان "چونسون" يعتقد أن الولايات المتحدة لابد من أن تكون مستعدة لتغطية نسبة معقولة من التكلفة المقدرة لإعادة اللاجئين ومشروع التوطين وهى قرابة البليون دولار على مدى السنوات العشر التالية[٣٩].

خوفا من "قيام العناصر المتطرفة فى الدول العربية، فى حال عدم وجود أى تقدم، بمحاولة استخدام اللاجئين لتحويل الصراع العربى الإسرائيلى إلى صراع

أشبه بما يحدث فى الجزائر"، قدم "راسك" مشروع "چونسون" إلى "چون اف. كينيدى" فى أغسطس ١٩٦٢[٤٠].

بعد أسبوع دعا الرئيس "چوزيف چونسون" إلى البيت الأبيض لمراجعة المأزق الفلسطينى مع "دين راسك" وعدد من كبار المستشارين كان من بينهم "ماير (مايك) فيلدمان" ضابط الاتصال مع المجتمع الأمريكى اليهودى. كان مفتاح الخطة كما أبلغ "چونسون" الرئيس ومساعديه هو تقديم خيار حقيقى للاجئين: العودة أو التوطين، وبعد ذلك يمنع كل من الإسرائيليين والعرب الآخرين من التدخل فى العملية. إذا وجد الفلسطينيون أمامهم هذين الخيارين فإن "عددا قليلا سيكون راغبا فى العودة" إلى إسرائيل، وهو ما سيكون على أية حال ڤيتو ضد مثيرى الشغب. وبينما كان صحيحا أن "العرب قد أضاعوا فرصا كثيرة"، كان "چونسون" يعتقد أن بعض اللاجئين على الأقل سوف يتدفقون على "وست بانك ليمتد" بمجرد أن يتضح أن الولايات المتحدة سوف تدفع تعويضا[٤١].

كان "كينيدى" أقل تفاؤلا من "چونسون". كان الجالس فى المكتب البيضوى يخشى أن يقوم الراديكاليون العرب "باستخدام الدعاية" لإجبار "جميع اللاجئين على العودة إلى إسرائيل". شحب وجه الرئيس أمام حجم حصة الولايات المتحدة فى تكلفة المشروع التى قدرها "چونسون" بسبعمائة مليون دولار على عشر سنوات، كان يقلقه احتمال قيام إسرائيل بحرب مكلفة فى حال عدم وجود سقف ثابت للعدد الكلى من اللاجئين الذين ستتم إعادتهم، وهو ما كان يريد أن يتجنبه قبل الانتخابات فى نوفمبر. كان "كينيدى" يتساءل أيضا ما إذا كان بالإمكان إقناع الإسرائيليين بقبول شروط العودة ذات النهاية المفتوحة لمشروع "چونسون". "ماير فيلدمان" الذى كان قد أمضى معظم الصيف فى الضغط على البنتاجون لبيع صواريخ "أرض - جو" لإسرائيل، كان يعتقد أن هناك فرصة، «لو استطعنا ربط ذلك بصواريخ "هوك"، قد تفلح الخطة»، كما أبلغ رئيسه[٤٢].

صباح اليوم التالى استقل "فيلدمان" الطائرة متجها إلى تل أبيب حاملا رسالة من "كينيدى" إلى "بن جوريون" يربط فيها - بلطف - بين بيع الولايات المتحدة

صواريخ "توما هوك" وإذعان إسرائيل لمشروع چونسون، وكما ذكر "فيلدمان" بعد ذلك «كانت إسرائيل مرحبة بالمشروع وقبل كلاهما - "بن جوريون" و"جولدامائير" - الشروط»، ثم تداعت الأشياء. "كان فيلدمان" مصرا، ولكنه قبل فقط بعد أن أقنع المسئولون فى الخارجية الرئيس، بالقيام باثنين وستين تعديلا "لكى يكون المشروع مقبولا إلى حد ما بالنسبة للعرب"(٤٤). "آرمن ماير - Armin Meyer"، أحد العناصر القيادية فى مشروع "چونسون" فى "فوجى بوتوم" يتذكر الأحداث على نحو مختلف. «خرج "مايك" وتحدث مع "ب.چ" الذى قال "لا"»، كما قال "ماير" مؤخرا فى لقاء مع أحد الصحفيين، و"بالرغم من أن الإسرائيليين ستكون لهم سلطة استخدام "الڤيتو" ضد أى عربى يفكر فى العودة" كان "بن جوريون" يقلقه "أن يكون لذلك أثر سلبى"(٤٥).

رغم صداقته لكل من "چوزيف چونسون"، و"آرمن ماير"، انحاز "دين راسك" لـ"ماير فيلدمان"، وكان يلوم العرب، وليس الإسرائيليين، على التوقف النهائى للمشروع حيث كتب راسك فى مذكراته أن مشروع "چونسون": "فشل أساسا لأن العرب لم يكونوا مستعدين للموافقة على أى رقم لعودة اللاجئين الفلسطينيين يمكن أن تقبله إسرائيل". التوطين الدائم خارج إسرائيل كان، بكل بساطة، "لعنة" فى نظر المتطرفين العرب، الذين كانوا يهددون بإبلاغ لاجئى المخيمات بأنهم إذا اختاروا أى شىء آخر غير البقاء حيث هم، فإنهم سيغامرون بحياتهم"(٤٦).

وإذا كان "فيلدمان" و"ماير" و"راسك" غير متفقين على سبب فشل مشروع "چونسون"، إلا أن ثلاثتهم كانوا فى غاية للأسف للنتائج، مثلما كان "فيلدمان" يشير بحزن "لقد كنا قاب قوسين أو أدنى من جعل إسرائيل ومصر تقبلان المشروع وتحلان مشكلة اللاجئين، وتفادى قيام منظمة التحرير الفلسطينية"، و"لو كنا قد تمكنا من إخراج هؤلاء اللاجئين من المخيمات وجعلناهم أفرادا منتجين فى المجتمع"، كما اعترف بعد ثلاثة عقود، "لكنا استطعنا أن "نذيب" مشكلة اللاجئين [على حد تعبير چو چونسون] وأن نخمد فى المهد ما أصبح منذ ذلك الحين "المشكلة الفلسطينية الكبرى"؛

ولعل "دين راسك" هو أفضل من عبر عن ذلك، حيث كتب وزير خارجية "چي. إف. كينيدي" في ١٩٩٠ يقول: "ما زلت أعتقد أن هذا الأسلوب - وهو ترك كل لاجئ يختار سرا وبمحض إرادته المكان الذي يريد أن يعيش فيه - كان يعد بحل نهائي". على أية حال، فإن مشروع "چونسون" "تم دفنه في مكان ما في أرشيف الآمال الضائعة بالنسبة للشرق الأوسط"، إلى جوار تقرير "كلاپ" ومشروع "چونستون" والعملية "ألفا"، كما كان يحب أن يقول(٤٧). ترك "كينيدي" إذن المكتب البيضوي خالي الوفاض مثل "ترومان" و"إيزنهاور" من قبله. عدم ثقة إسرائيل وتصلب العرب كانا سبب غرق أسلوبه المنصف في تناول القضية.

• "روبي جولد بيرج" يلتقي "هاك فن":

"ليندون چونسون" ومنظمة التحرير الفلسطينية وقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢

مشكلة اللاجئين الكامنة، التي ورثها "ليندون چونسون" عن "چ. إف كينيدي" في نوفمبر ١٩٦٣ سوف تنفجر في حرب عربية إسرائيلية واسعة في يونيو ١٩٦٧؛ ولأنه كان أقل تسامحا مع الراديكاليين العرب من سلفه وأكثر انشغالا بالتورط الأمريكي المتزايد في جنوب شرق آسيا، لم يكن أمام "ليندون ب. چونسون - Lyndon B.Johnson" سوى أن يهز رأسه عندما انحاز "عبد الناصر" إلى فكرة نضال "الڤيت كونج" ضد الاستعمار الأمريكي وحرض الفلسطينيين على أن يشنوا حربهم الخاصة من أجل التحرر الوطني. لم يكن الرئيس الجديد قد استقر تماما في المكتب البيضوي عندما كشف "عبد الناصر" في يناير ١٩٦٤ نوايا عن "كيان فلسطيني" غامض يرأسه "أحمد الشقيري"، وهي الفكرة التي كانت بمثابة شوكة قديمة تحت السرج الأمريكي(٤٨). بعد ثلاثة أشهر في القدس أسس "الشقيري" وعدد آخر من المهيجين الفلسطينيين، بمن فيهم "ياسر عرفات" منظمة التحرير الفلسطينية التي سيكون هدفها الرئيسي هو تدمير إسرائيل(٤٩).

عندما أصبح "عرفات" مع الزمن أحد الآباء المؤسسين لمنظمة التحرير الفلسطينية في مايو ١٩٦٤، كان يقوم هو ومجموعة من الراديكاليين الفلسطينيين

بإغارات ضد إسرائيل على مدى عقد. كان "عرفات" طالب الهندسة فى الثامنة عشرة من العمر عندما التحق بصفوف قوات فدائية مصرية وأطلق رصاصاته الأولى على قوات إسرائيلية فى مايو ١٩٤٨، وفى منتصف الخمسينيات كان يقود هجمات فدائية ضد المنشآت الإسرائيلية من قواعد فى مخيمات اللاجئين فى غزة؛ وبعد أزمة السويس فر إلى الكويت حيث أسس "فتح" فى ١٩٥٩، التى كانت تقوم بإصدار كتيبات الدعاية للقضية الفلسطينية وتجنيد أتباع مخلصين من بين اللاجئين فى غزة والضفة الغربية والسعى للحصول على دعم "عبد الناصر" والرئيس الجزائرى "أحمد بن بيللا" وغيرهما من الراديكاليين العرب، ولكن مع عدم ظهور وطن قومى فلسطينى فى الأفق، كان عرفات ورفاقه بحلول صيف ١٩٦٤، مستعدين لاستئناف حملتهم الفدائية ضد إسرائيل، متعهدين أن يجعلوا من "فتح" الذراع القتالية لمنظمة التحرير الفلسطينية الجديدة(٥٠).

فى البداية لم تأخذ واشنطن "فتح" ولا منظمة التحرير الفلسطينية على محمل الجد، وعندما أعلن "الشقيرى" عن إنشاء "جيش فلسطينى" بتدريب مصرى فى سبتمبر ١٩٦٤ مثلا، كان الدبلوماسيون الأمريكيون يتنبؤن بأن ذلك لم يكن يعنى أكثر من أن "عبد الناصر" سيصدر شارات جديدة للواء الفلسطينى الموجود فى سيناء ليعمق أسطورة التحرر الوطنى(٥١). أمريكيون قليلون هم الذين انتبهوا إلى "البيان العسكرى رقم ١" لـ"فتح"، الذى أعلن عن جولة جديدة من الإغارات على الدولة اليهودية يوم رأس السنة فى ١٩٦٥، ولكن بمجرد أن بدأ الفدائيون الفلسطينيون الموجودون فى الضفة الغربية يفجرون مصانع توليد الطاقة ويروعون القرى داخل إسرائيل فى ذلك الربيع، كان على وزير الخارجية "دين راسك" أن يعترف بأن تكتيكات "فتح" قد خلقت مناخا أكثر تفجرا فى "الشرق الأوسط" من أى وقت مضى يمكن تذكره(٥٢).

سرعان ما جعل "عبد الناصر" الأمور أكثر سوءا عندما ثنى على دعوة "فتح" لحرب تحرر وطنى فلسطينية، وفى خطاب حماسى أمام المؤتمر الثانى للمجلس

الوطنى الفلسطينى فى مايو ١٩٦٥، تعهد "بتعبئة أربعة ملايين من الجنود عند الضرورة" لهزيمة إسرائيل، وكان "عبد الناصر" يقول مهددا إن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة. تقييم الخارجية الأمريكية لأقوال "عبد الناصر" كان مثيرا للغضب فى البيت الأبيض، "كانت عبارات فظة خالية من الخطاب العربى المعتاد و – نعتقد – أنها كانت شديدة الجدية"(٥٣).

شاعرين بالرضا لوجود مثل هذا الدعم القوى فى القاهرة لأساليبهم المباشرة، سوف تجد كل من "فتح" ومنظمة التحرير الفلسطينية المزيد من التشجيع من دمشق وموسكو فى ١٩٦٦. وبعد أن هز انقلاب يسارى سوريا فى فبراير، كما يتذكر "هارولد سوندرز – **Harold Saunders**" خبير الشرق الأوسط بالبيت الأبيض، تبنى الضباط المعادون للغرب منظمة التحرير وأيدوا "حرب التحرير" باعتبارها الطريق الصحيح أمام الفلسطينيين لاستعادة "وطنهم"(٥٤). ولكى لا يسبقهم أولئك الراديكاليون السوريون، أعلن السوفيت عن دعمهم لجبهة "ثورية تقدمية" بين العرب ستكون منظمة التحرير الفلسطينية أداتها الثورية(٥٥). وبعد أن قويت واشتد عودها بدعم السوريين والسوفيت، صعدت المنظمة حرب العصابات ضد الصهيونية والاستعمار؛ وردت إسرائيل منتقمة فى ١٣ نوفمبر بهجوم ساحق على "سامو"، وهى قرية فى الضفة الغربية كان يشتبه فى أنها تأوى أحد معسكرات "فتح"(٥٦). بصرف النظر عن ترويع الفلسطينيين، أثارت الغارة على "سامو" المزيد من عداء العرب، الذى كانت المخابرات الأمريكية تتوقع أنه سوف يؤدى إلى المزيد من "الدعم السورى لمنظمة فتح الإرهابية وغاراتها الفدائية فى الأراضى الفلسطينية"؛ وعندما شن فدائيو منظمة التحرير الموجودون فى الجولان عدة هجمات فى أبريل ١٩٦٧، اندفعت الطائرات الإسرائيلية صوب دمشق لتشعل حرب الأيام الستة التى كانت جذورها – إلى حد بعيد – موجودة فى قضية اللاجئين الفلسطينيين التى لم تجد حلا(٥٧).

وبينما كانت نذر الحرب تلوح فى الأفق، كانت واشنطن تنحو باللائمة على العرب بسبب تعنتهم الذى جعل التسوية مستحيلة، وبعد زيارة للشرق الأوسط أكد

"هارولد سوندرز" أنه "لا توجد أى بادرة بين الفلسطينيين فى الضفة الغربية للأردن تدل على أنهم روضوا أنفسهم على فقدان بيوتهم التى تركوها فى إسرائيل"؛ وبعد أن عاشوا قرابة العقدين فى بيوت الصفيح والخيام القذرة، أصبح كرههم للصهيونية بلا حدود. مرارا وتكرارا كان "سوندرز" يسمع عبارات من قبيل "لا تقع فى خطأ الاعتقاد أن الزمن كفيل بحل مشكلة اللاجئين"، وذكّرَ رؤساءه فى ١٦ مايو ١٩٦٧ بأن "جماعة فتح الإرهابية ترسل مخربيها إلى إسرائيل وتختارهم من بين الأكثر مرارة وحقدا من هؤلاء اللاجئين"(٥٨).

كان من الخطأ أن تعتقد "فتح" ومن معها أنه كان هناك أمل فى استعادة وطنهم المفقود عن طريق القتال. انتصار إسرائيل الساحق فى يونيو ١٩٦٧ وضع غزة والضفة الغربية والقدس الشرقية العربية تحت السيطرة الإسرائيلية وهى تغيرات تمت على الأرض لم يكن صناع السياسة الأمريكية يتوقعون إبطالها بسهولة. منذ ٧ يونيو كان "دين راسك" يحذر "ليندون چونسون" من "جموح إسرائيل وبأن مطالبها ستكون كبيرة"؛ وبالرغم من وعيه بطموح إسرائيل فى ما يتعلق بالأرض، كان الرئيس يأمل فى ألا "يكون هناك أبطال كثيرون ومهزومون كثيرون بقدر الإمكان"(٥٩) وكان "هارولد سوندرز" من هذا الرأى أيضا. وفى وقت لاحق من اليوم نفسه عاد ليشير إلى أن "اللاجئين لابد أن يكونوا لب التسوية". كان الإسرائيليون يبدون أكثر تصميما على معاهدات سلام رسمية مع العرب وأنهم لن "يتخلوا عن الضفة الغربية ولا شرم الشيخ بسهولة"(٦٠).

حتى قبل توقف القتال، هرب ألوف اللاجئين الفلسطينيين عبر نهر الأردن إلى الضفة الغربية، وبعد أن أصبح وقف إطلاق النار ساريا فى ١٠ يونيو قامت القوات الإسرائيلية بإجلاء الأسر الفلسطينية وتسوية المساكن بالأرض فى القدس الشرقية وغيرها من مدن الضفة الغربية ذات الأهمية الاستراتيچية. محبذا "تقرير المصير" كخيار أفضل من التوسع الإسرائيلى، حذر "راسك" الرئيس الأمريكى فى ١٤ يونيو من أن تمسك إسرائيل بالأراضى التى احتلتها من شأنه أن يذكى روح الانتقام من

أجل استعادتها على مدى السنوات المتبقية من القرن العشرين[٦١]؛ ومع نهاية الشهر أكدت المخابرات المركزية أن "نزوح اللاجئين الجماعى من الضفة الغربية كان مستمرا" سواء "خوفا مما يمكن أن يفعله بهم الإسرائيليون" أو "بسبب إجبار الجنود الإسرائيليين لهم على المغادرة"[٦٢]؛ وكان عدد النازحين حتى ذلك الحين قد وصل إلى ١٣٠٠٠٠ نسمة كما قال الملك "حسين".

وعلى أمل منع التعنت العربى والنزعة التوسعية الإسرائيلية من إطلاق دورة جديدة من العنف والانتقام والقتال، قدم "ليندون جونسون" مسودة مشروعه للسلام فى ١٩ يونيو ١٩٦٧. لابد من أن يكون هناك "حق معترف به فى الحياة القومية" لكل من الدول، وكذلك "الاستقلال السياسى والسلامة الإقليمية للجميع"، ولكن لابد من أن يكون هناك كذلك "عدل بالنسبة للاجئين"، مضيفا أنه "لن يكون هناك سلام لأى طرف فى الشرق الأوسط ما لم يتم تناول هذه المشكلة بروح جديدة"[٦٣]. خلال الشهور الخمسة التالية سيجهد مستشاروه لتحويل هذه المسودة إلى إجراءات دبلوماسية ملموسة فى الأمم المتحدة. كانوا بداية، يتوقعون مقاومة شديدة من العرب الذين تفضلوا فى أواخر أغسطس بإصدار "لاءاتهم الثلاث" الشهيرة: لا اعتراف ولا تفاوض ولا سلام مع إسرائيل، وذلك فى قمتهم فى الخرطوم بالسودان.

وبالرغم من ذلك كان كل من "عبد الناصر" والملك "حسين" يسربان معلومات عن استعداد لتحقيق أهدافهما "بالوسائل السلمية أكثر منها بالوسائل العسكرية"، وكانت تلك فرصة لم تفلتها الولايات المتحدة حيث نصح "وولت روستو" الرئيس "ليندون جونسون" فى ٣ أكتوبر بأنه "مع طول بقاء إسرائيل فى الأراضى المحتلة وتمسكها بها، سوف يصبح من الصعب إقناع الدول العربية الصديقة بأننا لم ننكث بعهدنا والتزامنا بوحدة وسلامة الأراضى"[٦٤].

سرعان ما اتضحت صعوبة الحصول على دعم إسرائيل لصيغة "الأرض مقابل السلام" التى كان الدبلوماسيون يحاولون التوصل إليها فى الأمم المتحدة، وعشية زيارة "أبا إيبان" وزير الخارجية الإسرائيلى لواشنطن، كان "وولت روستو" يحذر

الرئيس "ليندون چونسون" بأن "إسرائيل مستمرة فى سياسة من شأنها أن تؤدى إلى انفجار آخر وليس إلى تسوية سلمية"؛ وكان الوقت قد حان للضغط على "أبا إيبان" وغيره من القادة الإسرائيليين "لحل مشكلة اللاجئين مرة وإلى الأبد" بالسماح لبعض أولئك المساكين بالعودة والعيش فى إسرائيل إذا كانوا يريدون ذلك"[٦٥]. وبالرغم من أنه لم يذهب بعيدا ويصر على السماح للاجئين بالعودة إلى ديارهم داخل الدولة اليهودية، فإن "چونسون" ذَكَّرَ "إيبان" فى أواخر أكتوبر بأن "على الإسرائيليين ألا ينسوا ما قلناه عن وحدة الأراضى والحدود"؛ وبعين على الأراضى المحتلة حذر وزير الخارجية الإسرائيلى قائلا "كلما ابتعدتم عن الخامس من يونيو فإنكم تبتعدون عن السلام"[٦٦].

على ضوء إذعان إسرائيل لصيغة "**الأرض مقابل السلام**" التى أقرها مجلس الأمن بعد شهر كانت الأمور تتضح بالنسبة للرئيس الأمريكى، وبعد اجتماعه بـ"الملك حسين" وغيره من العرب المعتدلين قام السفير "آرثر جولد بيرج – **Arthur Goldberg**" واللورد "كارادون – **Caradon**" زميله البريطانى فى الأمم المتحدة بالصياغة اللغوية لما سيصبح "القرار رقم ٢٤٢" فى منتصف نوفمبر، وكانت كلمات "جولد بيرج" و"كارادون" بالفعل شديدة البراعة. دون ذكر إسرائيل بالاسم فإن مسودة القرار كانت تعترف بـ"السيادة والسلامة الإقليمية والاستقلال السياسى لكل دول المنطقة"، ودون إدانة الإسرائيليين كمعتدين أكدت المسودة "عدم جواز ضم الأراضى بالحرب"، ودون توضيح لكل التفاصيل دعت الصياغة إلى "تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين"[٦٧].

كان الجزء الأكثر إثارة للجدل فى إنجاز "جولدبيرج" و"كارادون" الدبلوماسى، عبارة عن اثنتى عشرة كلمة تتناول مستقبل الضفة الغربية وغيرها من الممتلكات التى استولت عليها إسرائيل فى حرب الأيام الستة؛ ففى ما كان يبدو لغة مباشرة نسبيا دعت مسودة القرار لـ"انسحاب القوات الإسرائيلية من أراض محتلة فى الصراع الأخير". مقتنعين بأن إسرائيل لن تقبل العودة إلى الوضع الذى كان قائما قبل الحرب اقترح العرب إضافة كلمة "كل" أو أداة التعريف "الـ" قبل كلمة "أراض" وهو ما

اعترض عليه الإسرائيليون بشدة. أمام كلمتين كل منهما مكونة من ثلاثة أحرف تعطلان عملية السلام، عثر "جولدبيرج" و"كارادون" على حل سيصبح عند استعادته ذكيا أكثر مما ينبغي؛ وجدا، أولا، أن الترجمة الفرنسية التى لها نفس ثقل الصياغة الإنجليزية حسب نظم الأمم المتحدة مكتوبة على النحو التالى:

"Retrait de forces armées israeliennes des territoires occupés lors du recent conflit"

الأمر الذى يمكّن العرب من ادعاء أن الكلمة الفرنسية "des" تدل على حضور أداة التعريف "the" الناقصة فى النص الإنجليزى، وثانيا، فإن "جولدبيرج" أكد للملك "حسين" على انفراد أن العبارة الملتبسة قد تسمح فقط "بتعديلات حدودية طفيفة على الجانبين"، وأن "الولايات المتحدة لم تفكر فى إعمال أى تعديلات جوهرية على الخريطة"، وعندما سأل الملك ما إذا كان الإسرائيليون سيقبلون بهذا التفسير، أجابه "جولدبيرج" قائلا: "لا تقلق.. فهم فى نفس المركب"(٦٨).

لم يمر وقت طويل على حصول لورد "كارادون" على موافقة بالإجماع من مجلس الأمن على "القرار ٢٤٢" فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ حتى اكتشف المسئولون البريطانيون والأمريكيون أن الإسرائيليين قد "نزلوا من المركب"؛ وقبل عيد الميلاد بوقت قصير وصل "جونار يارنج - **Gunnar Jarring**"، الدبلوماسى السويدى الذى كان "يوثانت - **U Thant**" السكرتير العام للمنظمة الدولية قد عينه وسيطا من قبل الأمم المتحدة للإشراف على تطبيق صيغة "**الأرض مقابل السلام**" فى الشرق الأوسط: وبينما كان العرب متلهفين على المضى للأمام لم يكن الإسرائيليون كذلك وهو ما أبلغو به "يارنج"، وعندما طلب "ليندون جونسون" تأكيدات بأن الإسرائيليين "لن يحصنوا أنفسهم فى شبه قلعة" كان رد "ليفى أشكول" أن حملة حرب العصابات التى تشنها "فتح" تثبت أن العرب ليسوا راغبين فى السلام بالفعل"(٦٩)، وبعد أن أحكمت إسرائيل قبضتها على الأراضى المحتلة كان الرئيس الأمريكى يتساءل مستغربا «ما إذا كانت هناك أى فرصة لكى ينجح "يارنج" فى مهمته»، أما وزير الدفاع "روبرت مكنمارا" فكان رده فى ٢٦ فبراير هو أن فرصة السفير السويدى لم تكن أكثر من "٢٥٪"(٧٠).

بعد شهر، كانت فرص النجاح تبدو أكثر بعدا، عندما كبد فدائيو "فتح" القوات الإسرائيلية خسائر فادحة فى معركة الكرامة. بهدف أسر ياسر عرفات وغيره من قادة منظمة التحرير الفلسطينية شنت إسرائيل غارة على أحد معسكرات اللاجئين بالقرب من قرية الكرامة بالضفة الغربية فى ٢١ مارس؛ كان المسئولون الأردنيون يحثون "عرفات" على الفرار ولكنه رفض قائلا: "بعد هزيمة العرب فى ١٩٦٧ لابد من أن يكون هناك جماعة تستطيع إثبات أن فى أمتنا العربية من هم على استعداد لأن يقاتلوا وأن يموتوا". كانت "فتح" هى تلك الجماعة، وكان "عرفات" يتعهد "لن ننسحب، سنقاتل، سنموت"؛ وعندما اقتحمت الدبابات الإسرائيلية الموقع الفلسطينى عند الفجر حارب "عرفات" وثلاثمائة من الفدائيين تقريبا بمدافع الماكينة والصواريخ والديناميت، وفى وقت قصير كانت القوات الأردنية الموجودة بالقرب من مسرح العمليات قد انضمت إلى الاشتباك، وبعد ساعات قليلة من توقف القتال كان هناك ٢٨ قتيلا إسرائيليا و٩٣ فلسطينيا و١٢٨ أردنيا، بينما كان "عرفات" ورفاقه يَدَّعون وهم يعاينون هياكل الدبابات الإسرائيلية المتفحمة، أنهم قد حققوا انتصارا معنويا حاسما[٧١].

على أثر معركة الكرامة، أصبح الإسرائيليون أقل اهتماما ورغبة فى إعادة الأراضى المحتلة، وأكثر إصرارا على أن يوافق العرب على معاهدات سلام رسمية قبل القيام بأى تعديلات على الأرض؛ وكما كان "وولت روستو" يشكو فى ١٧ مايو، كانت إسرائيل قد أصبحت "أكثر لاهوتية" فى هذه الأمور، وأبلغ السفير الإسرائيلى "إسحق رابين" أن الولايات المتحدة لم تكن مع العودة إلى ترتيبات "روبى جولدبيرج" المكرورة "التى كانت قائمة قبل حرب الأيام الستة"؛ ولكن "روستو" كان يعتقد أن من غير الواقعى أن يصبح العرب «مثل "هاك فن" يمدون أصابعهم ويوقعون بالدم» قبل أن تبدأ المحادثات "على أنهم سيوقعون فى النهاية على معاهدات سلام"[٧٢]، ومثل "توم سوير" واقفا أمام العبد "چيم"، أبقى الإسرائيليون على الباب مغلقا أمام أى تسوية تقوم على **"الأرض مقابل السلام"** طوال فصلى الربيع والصيف؛ ففى منتصف يونيو

نقل عن أحد الدبلوماسيين الأمريكيين قوله: «ما نسمعه من المصريين وما نسمعه من "يارنج" وما نسمعه من الإسرائيليين يؤكد جمود الموقف بشكل محبط»(٧٣).

مع اقتراب فصل الخريف لم يكن لدى قلة من صناع السياسة الأمريكية أى أمل فى مهمة "يارنج"، وكان كثيرون يعتبرون إسرائيل مسئولة عن جمود الموقف أكثر من العرب. "إيوچين روستو" وكيل الخارجية الأمريكية، كان مثل شقيقه الأصغر "وولت روستو" مصرا على أن إسرائيل لابد من أن تغامر من أجل السلام، حيث قال لـ"رابين" فى ١٧ أغسطس "إن فشل الجهد لتنفيذ قرار مجلس الأمن الصادر فى ٢٢ نوفمبر سيكون بمثابة كارثة بالنسبة لـ"USG" (حكومة الولايات المتحدة) و"GOI" (الحكومة الإسرائيلية) كذلك وأن "بروز شخصية فلسطينية قوية فى المنطقة مع التركيز على نشاط الفدائيين، خطر يتهدد الاستقرار السياسى لكثير من الحكومات".

فى آخر العام، لم يكن الموقف أفضل، كما قال "وولت روستو" للرئيس "چونسون" وهما يستعدان لجلسة تشاورية مع الرئيس المنتخب "ريتشارد نيكسون – Richard Nixon" فى ١٢ ديسمبر ١٩٦٨: "يبدو أن إسرائيل عازمة على الاحتفاظ ببعض الأراضى المحتلة فى يونيو ١٩٦٧"، مضيفا أنها كانت تثبت أقدامها فى الضفة الغربية، وفى الوقت نفسه فإن الإرهاب وخرق وقف إطلاق النار مستمران مع خطر التصعيد"(٤٧)؛ وعندما انتقل "نيكسون" إلى البيت الأبيض بعد خمسة أسابيع كان من رأى معظم المسئولين الأمريكيين أن إسرائيل قد أصبحت عقبة كبيرة فى سبيل التسوية التى تعتمد صيغة "**الأرض مقابل السلام**"، مثلها فى ذلك مثل العرب.

• "نيكسون" و"كيسنجر" ومشروع "روچرز"

كان "ريتشارد نيكسون" قد أصبح ملما بالصراع العربى الإسرائيلى ومركزية القضية الفلسطينية وهو نائب للرئيس؛ وفى الفترة الأخيرة من إدارة "إيزنهاور" الثانية كان قد ذكر رئيس الوزراء الإسرائيلى "ديڤيد بن جوريون" بأن "العرب يستخدمون مشكلة اللاجئين جيدا كسلاح سياسى" مؤكدا "أهمية أن تجد إسرائيل وسيلة لإفشال ذلك"(٧٥). على مدى ثمانى سنوات فى قفر سياسى بعد فشله الموجع أمام "چون

كينيدى" فى نوفمبر ١٩٦٠، كان "نيكسون" قد زار الشرق الأوسط عدة مرات، وفى كل مرة كان يعود أكثر اقتناعا بأن أفضل سبيل أمام واشنطن لتحييد "سلاح اللاجئين" هذا، هو انتهاج سياسة متوازنة لا تكيل بمكيالين(٧٦).

كلاهما، مستشارا "نيكسون" الكبيران بخصوص السياسة الخارجية كانا، أقل دراية بالنزاع العربى الإسرائيلى من رئيسهما. "وليم پ. روچرز – William P. Rogers" المحامى الذى عمل مدعيا عاما فى إدارة "إيزنهاور"، أصبح وزيرا للخارجية أساسا بسبب تقدير "نيكسون" لذكائه وقدراته التفاوضية وحصافة رأيه"، وكلها صفات ستكون عرضة لامتحان صعب أمام العرب والإسرائيليين(٧٧). أما "هنرى كيسنجر – Henry Kissinger" أستاذ "هارڤارد" الذى درس السياسة الواقعية وعينه "نيكسون" مستشارا للأمن القومى، فقد زار إسرائيل عدة مرات ولم يكن لديه أى استيعاب حقيقى للقضايا المعقدة التى أرقت المنطقة على مدى جيلين، فها هو فى لحظة نادرة يعترف بعد عقد من الزمن "عندما بدأت عملى [فى مجلس الأمن القومى] لم أكن أعرف سوى القليل عن الشرق الأوسط"(٧٨).

بالرغم من أن هذه التعيينات لم تكن توحى بأن الإدارة الجديدة سوف تولى المنطقة اهتماما كبيرا، فإن الرئيس [المنتخب] "نيكسون" جعل من الواضح تماما أن كسر جمود الحالة العربية الإسرائيلية وحل مشكلة اللاجئين سيكون هدفا رئيسيا لسياسته الخارجية. قبل أن يقسم اليمين بستة أسابيع أرسل "نيكسون" النائب الجمهورى "وليم سكرانتون – William Scranton" (من پنسلڤانيا) الذى كان قد ترك المنصب الذى قَبِلَه "وليم روچرز"، أرسله فى مهمة تقصى حقائق إلى الشرق الأوسط. وبعد تسعة أيام من المحادثات خلف أبواب مغلقة عن مهمة "يارنج" والقرار رقم ٢٤٢ مع القادة العرب والإسرائيليين، قال "سكرانتون" فى مؤتمر صحفى مهم فى الضفة الغربية فى ٩ ديسمبر ١٩٦٨ إن "أمريكا ستبذل جهدا طيبا من أجل سياسة أكثر توازنا فى الشرق الأوسط، لا تكيل بمكيالين"(٧٩). وخشية أن تكون تصريحات "سكرانتون" إشارة إلى تحول جذرى فى أسلوب تعامل الولايات المتحدة فى المنطقة

طلبت إسرائيل وأصدقاؤها فى واشنطن من "نيكسون" توضيح هذا الأمر: وفى اليوم التالى كان "رونالد زيجلر – Ronald Ziegler" السكرتير الصحفى للرئيس المنتخب يصرح: «لقد كانت تلك ملاحظات "سكرانتون" ولم تكن ملاحظات "نيكسون"»(٨٠).

بالرغم من هذا التراجع الشديد، بقيت سياسات "نيكسون" الأولية أقرب إلى ملاحظات "سكرانتون" أكثر من اعترافاته؛ لم يضيع وزير الخارجية [روچرز] وقتا طويلا ليؤكد أن إدارة "نيكسون"، مثل الإدارة السابقة، كانت تعتبر قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ أفضل مسودة لتسوية عربية إسرائيلية، حيث قال أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ فى ٢٧ مارس ١٩٦٩ إن "هذا القرار سيكون أساس سياستنا"، وإن "التوصل إلى "حالة سلام" يتطلب من العرب القبول بحق إسرائيل فى العيش خلف حدود آمنة وإنهاء حالة الحرب، ولكنه يتطلب من إسرائيل، كذلك، الانسحاب من الأراضى المحتلة والنظر فى مطالب اللاجئين الفلسطينيين"(٨١). وبعد ستة أشهر كان يقول لـ"نيكسون" إن "سياسة إسرائيل المتصلبة ضارة بمصالح كل من الولايات المتحدة وإسرائيل" وإن "التسوية التى نتصورها لابد من أن تقوم على خريطة لا تختلف كثيرا عن تلك التى كانت هناك قبل حرب ١٩٦٧".

فى ٩ ديسمبر ١٩٦٩ كشف وزير الخارجية عن مسودة تسوية سوف تعرف لاحقا باسم "مشروع روچرز". مؤكدا التزام الولايات المتحدة بسياسة "متوازن وعادلة" تقوم على قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ تعهد، ليس فقط "بتشجيع العرب على قبول سلام دائم يقوم على اتفاق ملزم، وحث الإسرائيليين على الانسحاب من الأراضى المحتلة"، وإنما تعهد أيضا بمحاولة السعى من أجل "تسوية عادلة" لقضية اللاجئين. وأنهى "روچرز" كلامه بقوله إن "هناك وعيا جديدا بين الأجيال الجديدة من الفلسطينيين الذين شبوا منذ ١٩٤٨ فى حاجة إلى تحويل وجهته من الشعور بالأسى والإحباط إلى الأمل والعدل"(٨٢).

استقبل مشروع "روچرز" ببرود شديد فى إسرائيل، حيث جاء موت "ليڤى إشكول – Levi Eschkol" المفاجئ فى فبراير ١٩٦٩ بـ"جولدا مائير – Golda Meir"

(٧٠ سنة) رئيسا للوزراء. كانت "مائير" من مواليد "كييف" ونشأت فى "ميلووكى" وفى سنة ١٩٢١ كانت على متن سفينة متجهة إلى تل أبيب حيث عملت ما يقرب من نصف القرن بالقرب من "ديڤيد بن جوريون" الذى كانت تشاركه التزاما لا يلين بأمن إسرائيل، وسوء ظن شديدا بالفلسطينيين؛ وعندما عرفت ما كان يدور فى ذهن إدارة نيكسون بخصوص الشرق الأوسط طارت "مائير" إلى واشنطن فى سبتمبر ١٩٦٩ وتعهدت بعدم قبول صيغة "**الأرض مقابل السلام**" - سواء كانت مفروضة من الولايات المتحدة أو الأمم المتحدة أو القوى العظمى - التى قد تؤدى إلى إقامة دولة فلسطينية"(٨٤). قراءة مشروع "روچرز" أخيرا بعد ثلاثة أشهر أوصلت "مائير" المتطايرة لدرجة الغليان، وفى ٢٢ ديسمبر كانت تتفجر غضبا وهى تعلن "لا أحد فى العالم يستطيع أن يجعلنا نقبل ذلك، نحن لم ننج من ثلاثة حروب لكى ننتحر". أصدقاء إسرائيل الأمريكيون كانوا ينقلون ويرددون مخاوف "مائير". "أيباك - AIPAC" على نحو خاص كانت تحث زعماء اليهود على إغراق البيت الأبيض والكونجرس بالاحتجاجات. وبحلول فبراير ١٩٧٠ كان سبعون عضوا فى مجلس الشيوخ و٢٨٠ نائبا قد انضموا إلى الجوقة التى كان عددها يتزايد لتحث إدارة نيكسون على التوقف عن لوى ذراع إسرائيل على طاولة السلام، والبدء فى بيع السلاح لهم لاستخدامه فى ميدان القتال(٨٥).

تراجع "نيكسون" سريعا عن مشروع "روچرز"، ليس فقط لأن صيغة "**الأرض مقابل السلام**" لم تلق قبولا لدى "مائير" واللوبى الإسرائيلى، وإنما كذلك لأن التسوية الشاملة التى كان "فوجى بوتوم" يفضلها كانت تسير عكس دبلوماسية "الخطوة خطوة" التى كان يفضلها مستشاره للأمن القومى؛ وعندما وصل الأمر إلى ما أطلق عليه "هنرى كيسنجر" "طقوس مفاوضات الشرق الأوسط" كان الموقف غير مفهوم بالنسبة له، وربما لذلك كتب فى مذكراته يقول: "أقحم شخص ما اللغة الطقوسية السرية لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وراح يتمتم بكلمات عن الحاجة إلى سلام عادل ودائم مع حدود آمنة معترف بها" وكنت "أعتقد أن العبارة كانت مبتذلة لدرجة أننى اتهمت المتحدث بأنه كان يجر رجلى". كان "كيسنجر" يعرف بالطبع أن الإسرائيليين

سوف يبادلون الأرض بالسلام يوما ما، ولكن اللحظة لم تكن قد حانت بعد؛ وفى أواخر ١٩٦٩، حذر رئيسه بأن مشروع "روچرز" لا يمكن أن يأتى بحل دون ضغط شديد على إسرائيل" وأن الأمر "يسبب ما هو أكبر من زيادة العداء بين الطرفين، بل إنه قد يؤدى إلى الحرب"[٨٦] وافق "نيكسون" وطلب من "كيسنجر" أن يعمل مع "ليونارد جارمنت - Leonard Garment"، ضابط الاتصال غير الرسمى فى البيت الأبيض مع المجتمع اليهودى الأمريكى، من أجل ضمان مساعدة "جولدا مائير" فى نسف مبادرة وزارة الخارجية؛ وفى مطلع ١٩٧٠ قال "كيسنجر" لـ"جارمنت" أبلغها بأننا نريدها أن تهاجم "روچرز" ومشروعه بضراوة أينما ذهبت"، وعندما التقى بها "جارمنت" فى مطار لاجوارديا عشية جولة لها لإلقاء محاضرات، ردت عليه بكلمة واحدة "حسن!"[٨٧].

وبينما كانت "مائير" تهاجم مشروع "روچرز" من نيويورك إلى لوس أنجلوس، طار "چوزيف سيسكو" مساعد وزير الخارجية إلى الشرق الأوسط فى أبريل ١٩٧٠، حيث استقبله الإسرائيليون ببرود، مع شعور بالارتياح لمعرفة أن مشروع "روچرز" كان قد ولد ميتا. اضطر "سيسكو" إلى إلغاء توقفه فى الأردن عندما اقتحم فلسطينيون غاضبون مكتب وكالة الإعلام الأمريكية وأشعلوا فيه النار، وربما كان يتمنى إلغاء توقفه فى القاهرة كذلك فى ١٢ أبريل، بعد سلقه بألسنة حداد هناك. "عبد الناصر" الذى كان يشكو مر الشكوى من انحياز الولايات المتحدة لإسرائيل تماما، أبلغ "سيسكو" بأنه كان "مستعدا لقبول ما يدعو إليه قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، الاعتراف بإسرائيل" ولكنه «لا يمكن أن يغلق عينيه دون الفلسطينيين كما قالت "مائير"»، وكما كانت ترى أنه لابد من أن يفعل. وهو على أهبة الاستعداد للعودة إلى واشنطن، كان "سيسكو" يقول بأسى "كم من الفرص ضاع" على مدى العقدين الماضيين، "وهذه فرصة أخرى تضيع"، ولكن "عبد الناصر" الذى كان متفقا معه فى هذا الرأى، أكد أنه "لن يكون هناك سلام دون حل المشكلة الفلسطينية"[٨٨].

وبالفعل لم يكن هناك سلام.... ولم يكن هناك حل. وبحلول صيف ١٩٧٠ كان الفلسطينيون يلجئون إلى أساليب أكثر رعونة للفت الانتباه إلى قضيتهم؛ كانوا

يخطفون الطائرات ويقصفون المدارس ويحاولون اغتيال الملك "حسين" الذى كانوا يعتبرونه غير معاد لإسرائيل تماما. وبعد أن أرسل الملك قواته إلى مخيمات اللاجئين بالقرب من عمان بمباركة "نيكسون" و"كيسنجر" فى أوائل سبتمبر، كان هناك قتال ضار راح ضحيته ١٥٠٠ قتيل فلسطينى و٥٠٠٠ سجين و٥٠٠٠ فى المنفى فى لبنان. أفراد ممروررون من منظمة التحرير الفلسطينية وما يقرب من ١٢ جماعة منشقة عنها ردوا بإطلاق موجة شديدة من العنف والإرهاب، فاغتالوا رئيس الوزراء الأردنى "وصفى التل" فى القاهرة فى نوفمبر ١٩٧١، وقتلوا ١١ رياضيا إسرائيليا فى ميونخ فى سبتمبر ١٩٧٢، وأعدموا ثلاثة دبلوماسيين أمريكيين فى الخرطوم بعد ذلك بستة أشهر؛ لذلك لم يكن مثيرا للدهشة أن "عرفات" عندما عرض فى منتصف ١٩٧٣ فتح حوار سرى يقوم على أساس أن "إسرائيل وجدت لتبقى"، لم يأخذه أحد فى واشنطن "نيكسون" على محمل الجد(٨٩).

الحرب العربية الإسرائيلية التى اندلعت فى ذلك الخريف، غيرت المشهد السياسى فى الشرق الأوسط على نحو كبير، ولكنها لم تغير شيئا من ازدراء "نيكسون" أو "كيسنجر" للفلسطينيين. الرئيس المصرى الجديد "أنور السادات"، والرئيس السورى "حافظ الأسد" هاجما إسرائيل فى أكتوبر ١٩٧٣، ليس حبا فى حق تقرير المصير الفلسطينى وإنما بالأحرى من أجل استعادة سيناء ومرتفعات الجولان؛ ومن دواعى السخرية أن تعود هذه الحرب فى النهاية بفوائد أكبر على منظمة التحرير الفلسطينية منها على المصريين والسوريين؛ فبينما كان بإمكان "السادات" أن يدعى أنه حصل على مكاسب متواضعة على الأرض بينما لم يحصل "الأسد" على شىء، نجد "عرفات" يقنع القادة العرب فى قمة الرباط بالمغرب [٢٩ أكتوبر ١٩٧٤] بأن يعتبروا منظمة التحرير الفلسطينية "الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى"(٩٠).

فى ذلك الوقت كان على "نيكسون" أن يستقيل على أثر "فضيحة ووترجيت"، ولكن خليفته "چيرالد فورد" لم يكن لديه أسباب كافية تجعله يعتبر "عرفات" شرعيا. تحفظات "فورد" على المنظمة كان يرددها "هنرى كيسنجر"، الذى خلف "وليم روچرز"

وزيرا للخارجية عشية حرب أكتوبر، وعند قراءة ما كتبه "كيسنجر" مؤخرا عن المساومات الصعبة مع إسرائيل بخصوص تنازلات إقليمية فى ١٩٧٥، يعجب المرء ما إذا كان هذا البروفيسور الذى تحول إلى دبلوماسى قد شعر بالندم يوما ما لنسفه مبادرة "روجرز" بشرطها الرئيسى **"الأرض مقابل السلام"** قبل خمس سنوات؛ وللحصول - حتى - على انسحاب جزئى من سيناء فى سبتمبر ١٩٧٥ فإن إدارة "فورد" لم يكن عليها فقط أن تقدم سلاحا ونفطا للدولة اليهودية بما قيمته حوالى ٢بليون دولار، وإنما كان عليها كذلك أن تتعهد بألا تتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية إلى أن تعترف منظمة "عرفات" بحق إسرائيل فى الوجود[٩١].

بعد شهرين فقط، كان "هارولد سوندرز" أحد الذين بقوا من إدارة جونسون وأصبح من رجال "كيسنجر"، كان يحذر الكونجرس بأن الولايات المتحدة لم تعد تستطيع أن تتجاهل المسألة الفلسطينية، إذ قال أمام لجنة العلاقات الخارجية بالمجلس فى ١٢ نوفمبر "لابد من وضع الحقوق المشروعة للعرب الفلسطينيين فى الاعتبار فى مفاوضات السلام العربى الإسرائيلى"، مضيفا أن ذلك كان يعنى توضيح مستقبل الأراضى المحتلة بموجب قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢[٩٢].

ملاحظات "سوندرز" جاءت صادمة لأصدقاء إسرائيل فى "كابيتول هيل"، كما أغضبت "إسحق رابين" الذى خلف "جولدا مائير" رئيسا للوزراء بعد حرب أكتوبر. كما حذر رابين الدبلوماسيين الأمريكيين بأن إدارة "فورد" كانت تتصرف على نحو يعود بالفائدة على منظمة التحرير الفلسطينية ويعرض أمن إسرائيل للخطر: ولكن عندما أعلنت إسرائيل عن خطط لإنشاء مستوطنات دائمة فى الضفة الغربية فى أوائل ١٩٧٦، احتج بشدة "وليم سكرانتون"، الذى كان ذات يوم مبعوثا منصفا لـ"نيكسون" والآن سفيرا لدى الأمم المتحدة؛ ومستلهما روح القرار رقم ٢٤٢، أبلغ مجلس الأمن فى ٢٣ مارس بموافقة الولايات المتحدة على أن "إعادة توطين السكان الإسرائيليين المدنيين فى المناطق المحتلة بما فى ذلك القدس الشرقية عمل غير قانونى" بموجب القانون الدولى[٩٣]، وعندما انسحب فى هدوء كل من "چيرالد فورد" و"هنرى كيسنجر"

والباقون من عهد إدارة "نيكسون" من البيت الأبيض بعد عشرة أشهر، كانوا يتركون وراءهم نسخة رثة من مشروع "روچرز"، وكومة من أنقاض حرب أكتوبر، وقائمة غسيل ملأى بالشكاوى، سواء خاصة بالعرَب أو الإسرائيليين.

• "كارتر" وكامب ديفيد والسعى من أجل حكم ذاتى فلسطينى

النذر اليسير الذى أدلى به "چيمى كارتر" عن السلام فى الشرق الأوسط أثناء تجواله الطويل من "پلينز" إلى "پوتوماك"، لم يترك مجالا كبيرا للشك فى أن هذا الديمقراطى [القادم من چورچيا] سيكون على الأقل متشددا مع إسرائيل مثل ذلك الجمهورى [القادم من ميتشجن] الذى كان قبله فى المكتب البيضوى. بعد أن تقلد منصبه بوقت قصير، أيد "كارتر" مسودة مشروع مؤسسة "بروكنجز" فى ١٩٧٥ لتسوية عربية إسرائيلية تقوم على مبدأ "**الأرض مقابل السلام**". دون ذكر لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، كان تقرير "بروكنجز" ينص على ضرورة أن يقبل العرب بحق إسرائيل فى الوجود خلف حدود آمنة، وضرورة أن ينسحب الإسرائيليون من الأراضى المحتلة وأن يعمل الجانبان على حل مشكلة اللاجئين، ثم كشفت مؤسسة "بروكجنز" عما سيصبح فيما بعد أهم أركان سياسة "كارتر" فى الشرق الأوسط: "لابد من أن يكون هناك تدابير احتياطية من أجل حكم ذاتى فلسطينى يتوقف على قبول الفلسطينيين بسيادة وسلامة أراضى إسرائيل داخل حدود متفق عليها"[٩٤].

كانت "ووترجيت" وليس الشرق الأوسط هى القضية الحاسمة إبان الحملة الرئاسية فى ١٩٧٦. قبل يوم الانتخاب بأسبوع تلقى المرشح "چيمى كارتر" مشروع خطة للسياسة الخارجية مكونا من ١١٠٠٠ كلمة، يتناول كل شىء من الأرچنتين إلى زائير. كان التقرير من إعداد "سايروس ڤانس – Cyrus Vance"، خريج "هارڤارد" وأحد العالمين ببواطن الأمور فى واشنطن، والذى سيصبح وزيرا للخارجية فى الإدارة الجديدة. فى مجرد خمس فقرات وجيزة عن النزاع العربى الإسرائيلى، أكد "ڤانس" أن صيغة "**الأرض مقابل السلام**" كانت هى مفتاح أى تسوية دائمة، وذَكَّر "كارتر" بالاعتبارات السياسية الداخلية ذات الصلة، وحثه على "ألا يقوم بأى مبادرات

حاسمة"، وإنما "يدفع الموقف برفق"(٩٥). خلال الأيام القليلة التى تلت فوزه بفارق ضئيل فى ٢ نوفمبر، سيصبح الرئيس المنتخب مقتنعا بأن النزاع المعقد بين العرب واليهود يمكن تلخيصه فى ثلاث قضايا بسيطة: "أمن إسرائيل ومن يملك الأرض وحقوق الفلسطينيين".

تناول هذه القضايا كان أولوية بالنسبة للرئيس فى ربيع ١٩٧٧، وعندما أثار إمكانية مقايضة الأرض بالسلام فى اجتماع بالمكتب البيضوى مع رئيس الوزراء الإسرائيلى "رابين" فى ٧ مارس، قوبل بصمت مطبق؛ وعندما أشار عَرَضًا فى اجتماع فى "كلينتون - ماساشوستس" بعد ذلك بتسعة أيام، بأنه "لابد من أن يكون هناك وطن قومى للاجئين الفلسطينيين الذين عانوا على مدار سنوات عدة"، أثار ذلك غضب كثير من الأمريكيين المؤيدين لإسرائيل. كانت ملاحظات "كارتر" تأتى فى أسوأ وقت بالنسبة لـ"إسحق رابين" الذى كان يواجه تحديا كبيرا من "مناحيم بيجن" فى الانتخابات الإسرائيلية المقررة فى ١٧ مايو. معلنا أن كلمة "فلسطينى" ليست سوى المرادف لكلمة "إرهابى"، جعل "بيجن" من "كارتر" و"عرفات" كباش فداء، وعندما تم حساب الأصوات كان هناك رئيس وزراء جديد لإسرائيل(٩٧).

وباعتباره أحد كبار التوسعيين الذين كانوا يدافعون عن وجود المستوطنات اليهودية فى الأراضى العربية المحتلة، أبلغ "بيجن" الرئيس الأمريكى بعد ثلاثة أشهر بأن صيغة **"الأرض مقابل السلام"** فى القرار رقم ٢٤٢ كانت، حسب علمه، "رسالة ميتة" تعاد إلى مرسلها. المستوطنات الإسرائيلية الموجودة فى الضفة كانت دائمة كما أعلن "بيجن" فى أوائل أغسطس.. وسوف يتم بناء المزيد منها(٩٨). وعندما زار "موشيه دايان" وزير خارجية "بيجن" البيت الأبيض فى سبتمبر، كان "كارتر" يشكو من أن "موافقة إسرائيل غير المبررة على مجموعة جديدة من المستوطنات" فى الأراضى المحتلة، ورفضها مناقشة حقوق الفلسطينيين كانت تخلق "عقبات كؤود" فى طريق السلام(٩٩).

الطريق الإسرائيلى العربى المسدود لم يفتحه "كارتر" ولا "بيجن" وإنما "السادات"، الذى حركت زيارته غير المسبوقة للقدس فى نوفمبر ١٩٧٧ عملية سلام

ستؤدى إلى اتفاقيات "كامب ديفيد" بعد عشرة أشهر، وباعتباره أحد كبار مهندسى حرب أكتوبر، كان السادات يدرك الآن أنه الأوفر حظا لتحقيق أهدافه على طاولة المفاوضات. "جئت إليكم"، كما قال أمام الكنيسيت الإسرائيلى فى ٢٠ نوفمبر، "لكى نبنى معا سلاما دائما يقوم على العدل، لكى نتجنب سفك قطرة دم واحدة من كلا الجانبين". ماذا كان ذلك يعني؟ "الإجابة" كما قال أيضا "هى أن تعيش إسرائيل داخل حدودها بين جيرانها العرب فى سلام وأمان فى إطار كل الضمانات التى تقبلها والمقدمة لها"، ومن جانبها كانت مصر مستعدة للتفاوض من أجل اتفاقية سلام على أساس قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ بشرط أن تحل إسرائيل مشكلة فلسطين. "لا فائدة من الإحجام عن الاعتراف بالفلسطينيين وحقهم فى إقامة دولة وحقهم فى العودة"، كما قال "السادات" و"لقد واجهنا نحن العرب هذه التجربة معكم من قبل"، وقال أمام الكنيسيت إن مصر وإسرائيل معا لابد من أن يكسرا دائرة العنف، وأن "ننتهز هذه الفرصة اليوم من أجل سلام دائم يقوم على العدل"[١٠٠].

لقى خطاب السادات(*) استقبالا أكثر حرارة فى واشنطن أكثر منه فى القدس، فبعد أن عملوا على مدى عقد لتطبيق القرار رقم ٢٤٢، وجد المسئولون الأمريكيون مؤخرا صيغة "**الأرض مقابل السلام**" تتجسد فى شكل يمكن أن يسوى مسألة اللاجئين مرة وإلى الأبد. بقى القادة الإسرائيليون مقتنعين بأن الحكم الذاتى فى آخر المطاف يمكن أن يطلق الجهاد الفلسطينى، كما حاولوا أن يناوروا "السادات" لقبول سلام منفرد يعيد سيناء لمصر، بينما تبقى إسرائيل مسيطرة تماما على الضفة الغربية وقطاع غزة. كان "چيمى كارتر" يعزو الجمود الدبلوماسى المتعمق أساسا، لعدم مرونة "بيجن"، وقال ذلك فعلا فى ٢١ مارس، فقد صرح بكل وضوح بأن "العقبة أمام السلام كانت نية إسرائيل الواضحة للإبقاء على سيطرتها على الضفة الغربية"، وأن "بيجن" إذا لم ينتهز هذه الفرصة من أجل السلام فسوف تضيع سريعا"[١٠١].

(*) للمزيد، انظر نص خطاب الرئيس السادات فى الكنيسيت. ملحق رقم (١٢) فى آخر الكتاب.

بعد شـهور من اللغط المحبط، انتهز "كارتر" تلك الفرصة بنفسه لدعوة كل من "بيجن" و"السادات" إلى قمة شرق أوسطية فى "كامپ ديڤيد"، حيث وصل الوفدان المصرى والإسرائيلى فى ٥ سپتمبر لبدء أسبوعين، تقريبا، من المفاوضات المضنية التى كانت اختبارا عسيرا لإيمان "كارتر" وجلده. استطاع "كارتر" بسرعة أن يوصل الجانبين إلى عقد صفقة ثنائية تدعو لانسحاب إسرائيل الكامل من سيناء مقابل اتفاقية سلام رسمية مع مصر، ولكن القمة كانت على وشك الانهيار بسبب خلاف حاد حول مستقبل الضفة الغربية التى كان "السادات" يرى أنها لابد من أن تصبح وطنا للفلسطينيين. كان "بيجن" مصمما على أن "حرب ١٩٦٧ تعطى إسرائيل الحق فى تعديل الحدود" ورفض مناقشة الحكم الذاتى الفلسطينى، وفى ١٠ سپتمبر انفجر "كارتر": «ما تقولونه يجعلنى مقتنعا بأن "السادات" كان على حق – إن ما تريدونه هو الأرض، ولو أنكم كنتم قد تنصلتم صراحة من قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ لما دعوتكم إلى كامپ ديڤيد»[١٠٢].

رفض "بيجن" أن يتبرأ من القرار، ولكنه لن يوافق على تفكيك المستوطنات التى أقامتها إسرائيل فى الضفة الغربية أو أن يقبل مبدأ الحكم الذاتى الفلسطينى. وبسبب شعوره بالحساسية تجاه اتهامات منظمة التحرير الفلسطينية له بأنه سيبيع القضية الفلسطينية فى "كامپ ديڤيد" فى أخر الأمر، حزم "السادات" متاعه استعدادا للعودة إلى القاهرة. وعلى أمل تفادى فشل دبلوماسى، أعد المسئولون الأمريكيون مسودة جديدة لصيغة "**الأرض مقابل السلام**"، أكثر تشددا، حول الضفة الغربية والقدس الشرقية، نجحت فى تهدئة "السادات" وجعلت "بيجن" هو الذى يحزم متاعه. وفى لحظة ما، حتى "كارتر" كان على استعداد لفض اللقاء والعودة من الجبل خالى الوفاض. فى ١٥ سپتمبر قال لـ"سايروس ڤانس": "إن أفضل ما يمكننا أن نفعله لإنقاذ ما يمكن إنقاذه هو ألا نوقع على أى وثيقة مع أى من الدولتين وننهى المحادثات ونعلن أننا كلنا قد بذلنا كل ما فى وسعنا وفشلنا"[١٠٣].

بعد بدء القمة بثلاثة عشر يوما، استطاع "كارتر" بالرغم من ذلك أن يتوسط فى تسوية اللحظة الأخيرة التى بدت كفيلة بأن تعيد كل طرف إلى بلاده سعيدا نسبيا.

"السادات" و"بيجن" قبلا على مضض إطار عمل للسلام يدعو لانسحاب إسرائيل من سيناء، ويدعو المصريين لبحث اتفاقية سلام رسمى تنهى حالة العداء مع إسرائيل، ويدعو الطرفين للعمل على حل القضية الفلسطينية من كل جوانبها خلال فترة انتقالية مدتها خمس سنوات؛ ودون استخدام مصطلحات أو عبارات من قبيل "وطن قومى" و"حكم ذاتى"، كانت لغة "كارتر" "الوسطية" "تعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى، وتقدم "للممثلين المنتخبين عن السكان فى الضفة الغربية وغزة أن يقرروا كيف سيحكمون أنفسهم"(١٠٤). كان "كارتر" يعتقد أنه قد حل أكثر القضايا خلافية - سواء واصل الإسرائيليون توسيع جهودهم فى الضفة أو لا - من خلال مفاوضات ثنائية مع "بيجن". وحسب ما يقول "وليم كوانت - William Quandt"، أحد الأعضاء الرئيسيين فى فريق المفاوضات الأمريكى، فإن "بيجن" وافق على أن يرسل إلى "كارتر" رسالة جانبية بخصوص الضفة الغربية تؤكد أنه "بعد توقيع إطار العمل وأثناء المفاوضات لن يتم بناء مستوطنات إسرائيلية جديدة فى هذه المنطقة"(١٠٥).

لم يكن الحبر الذى كتبت به اتفاقيات "كامب ديڤيد" قد جف بعد، قبل أن يداهم "كارتر" شعور بالاكتئاب عميق، وبأن الإسرائيليين لم يكونوا صادقى النوايا. خلال الأسابيع التالية للقمة تحرك "بيجن" مندفعا نحو اتفاق سلام رسمى مع السادات ولكنه تراجع عن الحكم الذاتى الفلسطينى. ومنذ ٨ نوفمبر ١٩٧٨ كان "كارتر" يلاحظ أن "الإسرائيليين من الواضح أنهم يريدون اتفاقا منفصلا مع مصر، كما يريدون الاحتفاظ بالضفة وغزة بشكل دائم". وبمجرد أن وقَّعت مصر وإسرائيل اتفاقية السلام فى ٢٦ مارس ١٩٧٩، استأنف "بيجن" بناء المستوطنات اليهودية ورفض مناقشة قضية الحكم الذاتى إلى أن يعترف الفلسطينيون بالسيادة الإسرائيلية على الضفة الغربية، ولم يكن ذلك ليروق لمهندس اتفاقيات "كامپ ديڤيد"، فكتب [كارتر] فى مذكراته يقول: "كنا نعارض وجود أى مستوطنات إسرائيلية فى الأراضى المحتلة كما كنا نعتبرها غير قانونية وعقبة فى طريق السلام"(١٠٦).

بصرف النظر عن وقف تزايد المستوطنات اليهودية فى الأراضى المحتلة، فإن شكاوى "كارتر" أججت الاتهامات من قبل فريقه بأنه كان يتخلى عن إسرائيل، ولابد

أن يكون ذلك أخبارا سيئة بالنسبة لعام انتخابى، وعندما قام "بيجن" بآخر زيارة له لـ"كارتر" فى البيت الأبيض فى أبريل ١٩٨٠، كانت فكرة "**الأرض مقابل السلام**" بين الإسرائيليين والفلسطينيين تبدو أبعد منها فى أى وقت مضى؛ وبعد عدة سنوات كان "كارتر" يقول: "لقد أصبحت اتفاقيات كامپ ديڤيد مثل الكتاب المقدس، تكتسب كلماتها وعباراتها أهمية خاصة"، «المشكلة كانت أن الكلمات والعبارات الرئيسية مثل "الحكم الذاتى" و"الأمن" و"الحقوق الفلسطينية"... حتى "الضفة الغربية" كانت تعنى أشياء مختلفة لكل منا ولكل من نمثلهم»(١٠٧). محبطا لأن هذه الكلمات والعبارات لم تكن تعنى الكثير لزائره، لابد من أن "كارتر" كان لديه ما يغريه فى الفترة الأخيرة من إدارته، بإعادة صياغة عبارة "أبا إيبان"، أحد كبار منتقدى رئيس الوزراء الإسرائيلى، لتصبح: إن "مناحيم بيجن" لم يضيع فرصة لكى يضيع فرصة.

● تدريب عرفات كيف يقول "أونكل":
"ريجان" و"شولتز" ومنظمة التحرير الفلسطينية

لم يضيع أشد مؤيدى إسرائيل فى الولايات المتحدة الفرصة ليهزموا "كارتر" فى نوفمبر ١٩٨٠ بانتخاب "رونالد ريجان". منذ هيأ النائب الجمهورى الكاليفورنى نفسه لجولة فى "البيت الأبيض" فى أواخر السبعينيات، لم يخف أبدا أنه كان يعتبر قيام إسرائيل تحققا لنبوءة توراتية وتكفيرا عن جرائم الهولوكوست الوحشية، وكذلك لم يخف "ريجان" شكوكه فى مسألة الحكم الذاتى الفلسطينى الذى كان يخشى من أنه قد يُمَكِّن "المتعصبين المتعطشين للدماء" داخل منظمة التحرير الفلسطينية والجماعات المنشقة عنها من تصعيد حملاتهم الإرهابية ضد الدولة اليهودية(١٠٨).

خلال الشهور الثمانية عشرة له فى الإدارة، كان "ريجان" - ضمنا - يستهجن التزام "كارتر" بالحكم الذاتى الفلسطينى فى الضفة الغربية، وعندما سأله الصحفيون فى ٢ فبراير ١٩٨١ عن شعوره بالنسبة للمستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة مثلا كانت إجابته: "لم أكن موافقا عندما أشارت إليها الإدارة السابقة بأنها غير

قانونية، فهى ليست كذلك"، ومصرا على أن قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢" يترك الضفة الغربية مفتوحة أمام كل الناس - العرب والإسرائيليون على السواء-". كان "ريجان" يرفض دعوة "عرفات" لانسحاب إسرائيل بالإشارة إلى أن "لم يكن لدى الاعتقاد فى أى وقت أن منظمة التحرير الفلسطينية منتخبة من قبل الفلسطينيين". ولأنهم كانوا مقتنعين بأن لا "ريجان" ولا "بيجن" سوف يطبقان أبدا تلك البنود من اتفاقية "كامپ ديڤيد" التى تدعو إلى الحكم الذاتى الفلسطينى، كان إرهابيون مثل "أبو نضال" يواصلون سفك المزيد من الدماء فى خريف ١٩٨١، بينما اغتال متطرفون مصريون "أنور السادات" فى ٦ أكتوبر بزعم خيانته القضية العربية وقبوله سلاما منفردا مع إسرائيل"(١٠٩).

كان من شأن هذه التطورات أن تقوى قبضة "ألكساندر هيج - **Alexander Haig**" وزير الخارجية العنيد فى إدارة "ريجان"، والذى كان يعتبر إسرائيل أهم الأصول الثابتة للولايات المتحدة وأقواها فى حربها ضد الإرهاب العالمى. كان "هيج" يُشبِّه الجماعات الفلسطينية الراديكالية بـ"القنابل السياسية الموقوتة" لأنها "كانت تملك من الوسائل ما يجعلها تزعزع الشرق الأوسط كله من خلال الإرهاب" وذلك بمساعدة "الكرملين"، ومتلهفا على أن يجعل إسرائيل، إلى جانب العرب المعتدلين، ضمن إجماع استراتيچى معاد للسوڤيت، رضخ "هيج" أمام مشروعات "بيجن" لإقامة المزيد من المستوطنات فى الضفة الغربية ولم يبذل جهدا يذكر لإثناء "آرييل شارون" وزير الدفاع الإسرائيلى وأحد كبار الداعين للتوسع، عن غزو لبنان فى يونيو ٨٢ لاستئصال البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية(١١٠).

وبينما كان "هيج" و"ريجان" يتمنيان أن تنجح إسرائيل فى قطع رأس منظمة التحرير الفلسطينية وتدمير شبكة قواعدها الإرهابية فى لبنان، كانا يخشيان أن يقنع حجم ومدى الغزو الإسرائيلى القادة العرب بأن "بيجن" و"شارون" كانا أكثر اهتماما بغنائم الحرب منهما بآثار السلام. بدأت واشنطن الضغط لحمل الإسرائيليين على تحويل اهتمامهم من ميدان القتال إلى طاولة السلام فى منتصف يوليو عندما حل

"چورچ شولتز" محل "ألكساندر هيج" وزيرا للخارجية، وكان الأخير قد تقدم للرئيس باستقالته أكثر من مرة جراء معارك عنيفة مع أعضاء مجلس الأمن القومى. كان لدى "شولتز" قدر قليل من التعاطف مع منظمة التحرير التى كانت أساليبها فى التفاوض "مراوغة وملتبسة"، ولكنه لم يكن أكثر افتتانا بالإسرائيليين الذين وضعتهم مغامرتهم فى لبنان فى صورة رديئة أمام العالم"، والذين كان قادتهم فى حاجة إلى تناول القضية الفلسطينية بأسلوب "متسق مع اتفاقيات كامپ ديڤيد"(١١١).

طبيعة أسلوب التناول الذى كانت واشنطن تفضله ظهرت على نحو أكثر وضوحا بمجرد أن غادر "عرفات" و٨٥٠٠ من أتباعه بيروت إلى تونس فى أواخر أغسطس، ويقول "رونالد ريجان" فى مذكراته "مع توقف القتال كنت أعتبر هذه اللحظة من التاريخ المتفجر فى الشرق الأوسط فرصة ذهبية ممكنة لبداية جديدة نحو تحقيق تسوية طويلة المدى لمشكلات المنطقة"(١١٢). كان "چورچ شولتز" متفقا مع ذلك قلبا وقالبا، وقال لكبار مستشاريه: "عندما تغادر آخر سفينة الميناء حاملة آخر مقاتل من منظمة التحرير، لابد من أن نكون مستعدين للانتقال إلى القضية الفلسطينية الأكبر"(١١٣).

مقتنعين بأن "السلام لن يتحقق للشرق الأوسط ما دامت الأراضى المحتلة تحت السيطرة السياسية الإسرائيلية"، كشف "ريجان" و"شولتز" عن تصور جديد لصيغة "الأرض مقابل السلام" فى "١" سپتمبر ١٩٨٢. مشروع "ريجان" الذى جمع بين عناصر من القرار رقم ٢٤٢ واتفاقيات "كامپ ديڤيد" كان يدعو إسرائيل لسحب قواتها من الأراضى المحتلة وتجميد بناء المستوطنات هناك، فى مقابل اعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بحق الدولة اليهودية فى الوجود، أما بالنسبة للقضية الحساسة وهى "الحكم الذاتى الفلسطينى" فكان المشروع يقترح منح عرب الضفة الغربية وغزة حكما ذاتيا "فى إطار اتحاد مع الأردن"(١١٤).

كانت ردود الأفعال على مشروع "ريجان" مختلطة. بعد عقد كان "شولتز" يقول إنه "نقل عن السعوديين والمصريين والمغاربة ومنظمة التحرير أنهم كانوا مع ذلك

ومتحمسين له". وبالرغم من أن الأردنيين أصحاب أكبر حصة بين العرب لم يفصحوا عن موقفهم علنا، فإنهم كانوا مبتهجين فى السر. مساعد وزير الخارجية "نيكولاس فليوتيس – Nicholas Veliotes" أكد لـ"شولتز" أن "الملك حسين، شديد الاهتمام... يبدو كمن يريد أن يغطى سوأته"[١١٥]؛ من ناحية أخرى كان الإسرائيليون سلبيين ومستعدين بالسلاح. "موشى أرنيز – Moshe Arens" السفير الإسرائيلى لدى الولايات المتحدة قال للمسئولين الأمريكيين بعد علمه بمشروع "ريجان" فى أواخر أغسطس "لقد محونا منظمة التحرير الفلسطينية من المشهد، فلا تحاولوا أنتم الأمريكيين أن تجعلوها تقف مرة أخرى على قدميها وتنفضوا عنها الغبار وتساعدوها بالتنفس الصناعى"[١١٦]، وبعد أيام قليلة بعث "بيجن" إلى "عزيزى رون" برسالة لاذعة رافضا صيغة "**الأرض مقابل السلام**" ويصفها بأنها "دنسة". كان "بيجن" يهدر فى رسالته: «إن ما يطلق عليه البعض الضفة الغربية يا سيادة الرئيس هو "يهودا وساماريا – Judea and Samaria"، قبل خمسين سنة "حررنا بعون من الله هذا الجزء من وطننا القومى، ولن يعود مرة أخرى" جزءا من أى دولة أخرى غير إسرائيل»[١١٧].

فى غضون أسبوعين ظهرت عواقب رفض بيجن لمشروع "ريجان" وتصويره الفلسطينيين على هذا النحو الشرير بشكل مؤسف، ليس فى الضفة الغربية وإنما فى "صبرا وشاتيلا" وهى مخيمات للاجئين فى غرب بيروت، وباعتبارها مأوى لآلاف الفلسطينيين الفارين من الأردن فى سبتمبر ١٩٧٠، كانت تلك المخيمات مرتعا لنشاط منظمة التحرير الفلسطينية قبل أن يرحل "عرفات" ورفاقه إلى تونس فى أغسطس ١٩٨٢؛ وباعتبارهم مشبوهين فى نظر "بيجن" و"شارون" اللذين كانت قواتهما تحاصر المخيمات، كانت قوات "الكتائب" اللبنانية [وهم من اليمينيين المسيحيين المتطرفين المتحالفين مع إسرائيل] تعامل اللاجئين الفلسطينيين بازدراء، وفى ١٧ سبتمبر سمح الضباط الإسرائيليون لألف وخمسمائة جندى من قوات الكتائب بدخول "صبرا وشاتيلا" حيث قتلوا ما بين ٨٠٠:١٠٠٠ فلسطينى من العزل، كان معظمهم من النساء والأطفال. "موريس درابر – Morris Draper" الدبلوماسى الأمريكى كان يتوسل إلى "شارون" بأن يكبح جماح الكتائب... بلا فائدة، ولكنه كان يرد بدم بارد "يمكنهم أن

يقتلوا الإرهابيين، وإذا لم يفعلوا فسنقوم نحن بذلك"؛ وبمجرد انتشار أخبار المذبحة أنكر الإسرائيليون أى مسئولية عن القتل وحذروا واشنطن بأن أى ادعاءات بعكس ذلك "ستكون بمثابة تكدير للعلاقات الأمريكية الإسرائيلية"(١١٨).

مروعا بسبب المذبحة التى جرت فى "صبرا" و"شاتيلا" ونفى الإسرائيليين، كان وزير الخارجية "شولتز" واضحا عندما التقى "موشيه آرنز" بعد يومين وقال متذمرا للسفير الإسرائيلى: "واجهوا الحقائق، إنكم تتحملون المسئولية"(١١٩)، وبالرغم من أن "بيجن" وصف مثل تلك الملاحظات بأنها "تشهير واتهام بالقتل" فإن اللجنة القضائية التى حققت فى المجزرة كان لها نفس رأى "شولتز". مشبها عمليات القتل بمذابح معاداة السامية، فإن "إسحق كاهان – **Yitzhak Kahan**" القاضى الإسرائيلى الذى رأس اللجنة ذكّر "بيجن" فى فبراير ١٩٨٣ أن "موقف الشعب اليهودى دائما هو أن مسئولية مثل هذه الأعمال لا تقع على أولئك الذين أثاروا الشغب وارتكبوا الأعمال العدوانية فقط، بل وعلى من كانوا مسئولين عن الأمن والسلامة العامة الذين كان بوسعهم أن يمنعوا الاضطرابات ولم يفعلوا". ومؤكدة أن المسئولين الإسرائيليين كانوا على علم بأن "الكتائب سوف ترتكب المجازر وأعمال القتل ضد سكان المخيمات" أوصت "لجنة كاهان" بعزل "شارون" من منصبه كوزير للدفاع(١٢٠).

بالرغم من خروج "شارون" من الحكومة فى منتصف فبراير واستقالة "بيجن" بعد سبعة أشهر، مات مشروع "ريجان" وبقيت عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية معلقة خلال ١٩٨٣ ولعدة سنوات بعد ذلك. كان هذا الجمود راجعا فى جزء منه إلى تعنت رئيس وزراء إسرائيل الجديد "إسحق شامير – **Yitzhak Shamir**"، الذى كان أكثر معارضة لمبادلة الأرض بالسلام من سلفه؛ وحتى لو أن "شامير" كان منفتحا للتسوية، فإن إدارة "ريجان" كانت ستتراجع عن الدفاع عن القضية الفلسطينية خلال منتصف الثمانينيات، عندما كان إرهابيون على شاكلة "أبو نضال" يقومون باختطاف الطائرات والسفن ويفجرون المطارات والأندية الليلية دون شعور كبير بالندم، كما فعلت ميليشيات الكتائب فى "صبرا" و"شاتيلا". والواقع أنه عندما ضربت الطائرات

الحربية الإسرائيلية قيادة منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس فى أكتوبر ١٩٨٥ انتقاما للأحداث الإرهابية الأخيرة، اعترف "چورچ شولتز" بصورة شخصية بأن "ياسر عرفات" ورفاقه قد لقوا فى النهاية ما كانوا يستحقونه[١٢١].

فى آخر الأمر على أية حال لم يكن "شامير" ولا "عرفات" هو الذى جعل واشنطن تعيد اهتمامها مرة أخرى بعملية السلام المتوقفة، وإنما مجموعة من الصبية الفلسطينيين الذين كانوا يقومون بإلقاء الحجارة وزجاجات المولوتوف على القوات الإسرائيلية فى قطاع غزة فى ٨ ديسمبر ١٩٨٧ ليشعلو "الانتفاضة" بعد عشرين سنة من دخول الدبابات التى تحمل نجمة داود إلى الأراضى المحتلة. تخطى التلاميذ وأصحاب المحلات فى غزة والضفة الغربية منظمة التحرير الفلسطينية وبدأوا كفاحهم السياسى الخاص ضد الحكم الإسرائيلى. يقول "چورچ شولتز" فى مذكراته "كانت الانتفاضة بدون قيادة، ولكنها كانت تبدو متفجرة ومشتعلة باستمرار"؛ وبفضل تكنولوچيا الأقمار الإصطناعية سرعان ما أصبحت محاولات إسرائيل الوحشية لقمع الانفجار والسيطرة عليه هى الخبر الرئيسى فى أجهزة الإعلام[١٢٢].

وعندما كان عدد من لقوا حتفهم فى الانتفاضة يقترب من الخمسمائة، دعت الولايات المتحدة الطرفين لوقف القتال وبدء المحادثات على أساس صيغة **الأرض مقابل السلام**، ومصرا على أن "إجراءات إسرائيل الوحشية كانت تضر ضررا بالغا بمصالحها" كان "شولتز" يحث "شامير"، على انفراد، فى يناير ١٩٨٨ على "أن يوقف توسع المستوطنات فى الأراضى المحتلة"، وأن يعقد انتخابات حرة فى الضفة الغربية من أجل "سلطة حكم ذاتى فلسطينى" خلال عام، ومصرا كذلك على أن "منظمة التحرير الفلسطينية كانت مشكلة حقيقية" حذر "شولتز" اثنين من قادة الانتفاضة فى وقت لاحق من الشهر نفسه، بأن الفلسطينيين لابد من أن يكونوا مستعدين كذلك للقبول بحل وسط؛ كما أعلن أن الولايات المتحدة لن تعترف بمنظمة "عرفات" شريكا شرعيا للتفاوض "إلا إذا قبلت بحق إسرائيل فى الوجود وبالقرار رقم ٢٤٢ وأن تنبذ الإرهاب"[١٢٣].

رغم أن أيا من الطرفين لم يكن راغبا فى البداية فى تبنى صيغة "**الأرض مقابل السلام**"، مع استمرار الانتفاضة من أسابيع إلى أشهر غلبت الأحداث الإسرائيليين ومنظمة التحرير مرة أخرى لكى تجعل اقتراح "شولتز" يبدو أكثر جاذبية، وخلال ربيع ١٩٨٨ كان الإسرائيليون ينقلون أن الانتفاضة كانت تبدو أكثر قوة وتنظيما، وهو ما كانوا يعزونه إلى ظهور حركة المقاومة الإسلامية المعروفة - اختصارا للاسم - بـ"حماس". مستلهمة حركة الإخوان المسلمين فى مصر، كان قادة "حماس" ينددون بإسرائيل باعتبارها العدو اللدود للإسلام، ويدمغون منظمة التحرير بالفساد والعلمانية والبعد عن الواقع فى الأراضى المحتلة، كما تعهدوا الجهاد ضدهما (إسرائيل والمنظمة). منزعجا بشدة لانتشار الإسلام السياسى العنيف بين الكثيرين من رعاياه الفلسطينيين، تراجع الملك "حسين" فجأة عن أى مطالبات أردنية فى الضفة الغربية فى ٣١ يوليو ١٩٨٨ مخيبا آمال الإسرائيليين فى أن تعطش العرب لحق تقرير المصير قد ينطفئ بتعريف الأردن باعتبارها فلسطين؛ وبمجرد أن أعلنت "حماس" عن ميثاق يعلن أن "التفريط فى أى جزء من الوطن هو بمثابة التفريط فى جزء من العقيدة الدينية"، بدأ بعض الإسرائيليين وكثير من الأمريكيين يعتبرون منظمة التحرير الفلسطينية التابعة لـ"عرفات" هى الأهون بين شرين مستطيرين(١٢٤).

متخطيا اعتراضات "إسحق شامير" المتشكك دائما، أدخل "شولتز" الولايات المتحدة فى رهان خطر مع منظمة التحرير فى الأشهر الأخيرة من إدارة "ريجان"؛ وعندما كانت "حماس" تتحدى قيادة المنظمة فى الأرض المحتلة والإسرائيليون يقيدون خياراته فى الخارج، أخبر "ياسر عرفات" "شولتز" عبر الوسطاء السويديين بأنه فى مقابل المفاوضات المباشرة مع الولايات المتحدة يمكن أن توافق المنظمة على صيغة "**الأرض مقابل السلام**"، كما يمكن أن تقبل بحق إسرائيل فى الوجود. ولكى يمكن التوصل إلى جعل "عرفات" المراوغ يقول ذلك علنا ويلغى ذلك الجزء الذى يدعو إلى القضاء على إسرائيل من الميثاق الوطنى الفلسطينى، استغرق الأمر ستة أسابيع؛ وقبل أعياد الميلاد باثنى عشر يوما، كان "شولتز" يقول لـ"ريجان": "فى مكان ما يفأفأ عرفات: أونكـ.. أونكـ... وفى مكان آخر يقول: كل... كل... ولكنه حتى الآن

لا يستطيع أن يقولها "أونكل" كاملة فى أى مكان"(١٢٥). فى ١٤ ديسمبر ١٩٨٨، على أية حال، نطق عرفات بالكلمة السحرية أخيرا، ففى مؤتمر صحفى فى چنيف أكد أن منظمة التحرير "تتعهد بأن تعيش فى سلام مع إسرائيل" وأنها "تدين إرهاب الجماعات والدولة بكل أشكاله". كان "شولتز" سعيدا لأنه استطاع انتزاع بعض الكلمات المهمة من فم "عرفات"، كما كان يأمل أن يؤدى الحوار الأمريكى الجديد مع المنظمة إلى تسوية على أساس **"الأرض مقابل السلام"**. كذلك كان "چورچ بوش" نائب الرئيس، الذى كان يرقب مقامرة وزارة الخارجية مع منظمة التحرير الفلسطينية عن كثب منذ أن اقترب هو شخصيا من هذا اليانصيب السياسى يوم الانتخاب. "تقدم رائع"، كان ذلك هو تعليق "بوش" لوزير الخارجية "شولتز" فى تلك الأيام الشاحبة من إدارة "ريجان"... "سوف أدعم الحوار، أنا مع الحوار قلبا وقالبا"(١٢٦).

ولكن "اسحق شامير" و"موشيه آرنز" وزير خارجية إسرائيل الجديد اتهما "چورچ شولتز" بأنه كان "يلعب من تحت الطاولة". كان "شامير" الفظ بطبيعته، قد حذر "شولتز" فى منتصف ديسمبر، "ستكون هناك مصاعب كثيرة فى علاقتنا إذا تحركت الولايات المتحدة لفتح حوار مع منظمة التحرير الفلسطينية"(١٢٧). "آرنز" وهو من الصقور الإسرائيلية، وصاحب العلاقات القديمة الوثيقة بـ"AIPAC" إبان إقامته القصيرة فى واشنطن قبل خمس سنوات، رفض فكرة **"الأرض مقابل السلام"** فى الضفة الغربية كوسيلة للتسوية مع العرب(١٢٨). ومثل "بيجن" و"شارون" من قبله، لم يكن لدى "شامير" ولا "آرنز" اهتماما بالتسوية الإقليمية مع الفلسطينيين سواء تحت عباءة القرار رقم ٢٤٢ أو مشروع ريجان أو مبادرة "شولتز". الانتفاضة دفعت التوسعيين مثل "شامير" لإقامة المزيد من المستوطنات من "يهودا وساماريا" باعتبار ذلك أضمن وسيلة للأمن فى الأراضى الإسرائيلية. وبعد العمل طويلا وبكل جدية للتوصل إلى أن تقبل منظمة التحرير بحق إسرائيل فى الوجود، كان صناع السياسة الأمريكيون يعتبرون سعى إسرائيل لضم المزيد من الأراضى فى الضفة الغربية، العقبة الكبيرة الوحيدة فى طريق السلام.

●من مدريد إلى أوسلو:
"بوش" و"كلينتون"... والطريق إلى السلام

أثناء وجود "چورچ بوش" فى البيت الأبيض لفترة واحدة، كان يبدو أن انتهاء الحرب الباردة وانتصار أمريكا فى حرب الخليج يمهدان الطريق للسلام بين العرب واليهود. كانت أول مواجهة لـ"بوش" مع المشكلة الفلسطينية فى ١٩٧١ أثناء عمله لفترة قصيرة سفيرا لـ"نيكسون" فى الأمم المتحدة، عندما أدان المستوطنات الإسرائيلية فى القدس الشرقية (العربية) وحذر بأن "سياسة احتلال إسرائيلية تقوم على ممارسات من جانب واحد لا يمكن أن تساعد على تحقيق سلام عادل ودائم"[١٢٩]؛ وحسب رواية أحد الدبلوماسيين الإسرائيليين فإن "بوش" نائب الرئيس، "كان يبدو شديد التحفظ تجاه مواقف إسرائيل وسياستها"، كما "كان شديد الانتقاد" لقيامها بغزو لبنان فى ١٩٨٢، وكان مع فرض عقوبات عليها، إذا لم يقم "بيجن" و"شارون" بسحب قواتهم فورا"[١٣٠]. وأثناء الأشهر الأولى له فى المكتب البيضوى، وسع الرئيس "بوش" دائرة الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية، كما كان يدفع فى اتجاه تسوية سلمية شاملة تقوم على أساس "أمن إسرائيل وإنهاء الاحتلال وإقرار الحقوق السياسية للفلسطينيين"[١٣١].

أشد المدافعين عن مثل هذه التسوية فى إدارة "بوش" كان وزير الخارجية "چيمس بيكر – James Baker"، الذى كان يشكو من أن الإسرائيليين أكثر اهتماما بالأرض منهم بالسلام، ففى أثناء جلسة استماع فى مجلس الشيوخ فى ١٧ يناير كان يقول: "الحجارة تتطاير اليوم، والدم – دم فاسد – يتدفق بين الإسرائيليين والفلسطينيين"[١٣٢]. بمجرد استقرار "بيكر" فى "فوجى بوتوم" سوف يبذل هو و"بوش" كل الجهد لكبح جماح إسرائيل فى ضم الأراضى حتى لا تخرج عملية السلام عن مسارها، وبعد عدة سنوات كان "بيكر" يقول: "كلانا كان يعتقد أنه لن يكون هناك سلام أبدا فى الشرق الأوسط إلا إذا كانت إسرائيل على استعداد لقبول مبدأ مبادلة الأرض بالسلام كما يجسده قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢"[١٣٣]. وفى حديث له فى

٢٢ مايو أشار "بيكر"، وزير الخارجية، إلى تصاعد الشعور بعدم الرضا فى إدارة "بوش" بسبب سلوك إسرائيل: "الآن.. حان الوقت لكى تتخلى إسرائيل مرة وإلى الأبد عن التصور غير الواقعى لإسرائيل الكبرى"، كما قال أمام ١٢٠٠ عضو من الـ"AIPAC" فى مؤتمرهم السياسى السنوى فى واشنطن وناشدهم: "تخلوا عن سياسة ضم الأراضى، أوقفوا النشاط الاستيطانى، دعوا المدارس تفتح أبوابها، ومدوا أيديكم إلى الفلسطينيين كجيران أصحاب حقوق سياسية". ملاحظات "بيكر" ووجهت بصمت مطبق على مدى شهور من كل من إسرائيل وأصدقائها الأمريكيين[١٣٤].

ولأن الفلسطينيين كانوا قد باتوا مقتنعين بأن الدفع الدبلوماسى الأمريكى لن يجدى لإحداث التغيرات المرجوة فى سياسات إسرائيل، تولوا هم زمام أمورهم، ففى ٣٠ مايو اعترضت القوات البحرية الإسرائيلية قاربين محملين بإرهابيين من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (وهم منافسون قدامى لمنظمة التحرير) يحومان عند الساحل بالقرب من تل أبيب، وبعد أن رفض "عرفات" أن يدين العملية، قام "بوش" على مضض بتعليق الحوار بين أمريكا والمنظمة فى ٢٠ يونيو. الدعم الأعمق من قبل منظمة التحرير الفلسطينية لمغامرة "صدام حسين" فى الخليج بعد ذلك، كان حافزا أكبر لصناع السياسة الأمريكيين على عدم استئناف الحوار؛ ورافضا تشبيه احتلال "صدام" للكويت باحتلال إسرائيل للضفة الغربية واعتبار ذلك محاولة للتضليل، ذكّر "بوش" الصحفيين فى أعقاب عملية "عاصفة الصحراء" بأن عرفات والذين معه قد "راهنوا على الجواد الخطأ، للأسباب الخطأ"[١٣٥].

بمجرد أن استطاعت إدارة "بوش" أن تحول اهتمامها من شن الحرب فى الخليج الفارسى إلى صياغة السلام فى الأرض المقدسة، لم تعد تراهن على منظمة التحرير وإنما بالأحرى على المعتدلين فى الضفة الغربية مثل "حنان عشراوى"، أستاذ الأدب الإنجليزى فى جامعة "بيرزيت" بالضفة الغربية، وكانت قد برزت إلى الشهرة أثناء الانتفاضة كمدافعة صلبة عن الحقوق الفلسطينية وناقدة علنية للإرهاب الفلسطينى[١٣٦]. عندما وصل "چيم بيكر - Jim Baker" إلى القدس الشرقية فى يوليو

١٩٩١، سأل ما إذا كانت "عشراوى" مستعدة للمشاركة في وفد فلسطينى أردنى مشترك إلى مؤتمر الشرق الأوسط للسلام الذى كان يأمل فى أن ينعقد فى الخريف؛ كانت فى البداية متوجسة، وأشارت إلى أن معظم العرب كانوا ما زالوا يعتبرون منظمة التحرير الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى. لم يكن الإسرائيليون مستعدين بعد للجلوس مع منظمة التحرير كما قال "بيكر"، ولكنهم قد يكونون مستعدين للحوار مع القيادات الفلسطينية فى الضفة الغربية، وهو ما يمكن أن يكون تقدما كبيرا. كان "بيكر" يذكر "حنان عشراوى": "تعرفين جيدا مثلى ما يقال عن أن الفلسطينيين لا يضيعون فرصة لكى يضيعوا فرصة، أرجوك... لا تضيعى هذه الفرصة"(١٣٧).

وبينما كانت "عشراوى" تفكر فى اقتراح "بيكر"، توجه الأخير بالسيارة إلى القدس الغربية ليبدأ جولته مع "شامير". كان التفاوض على تسوية مع الفلسطينيين على أساس صيغة "**الأرض مقابل السلام**" فى يوليو ١٩٩١، أمرا مستبعدا تماما بالنسبة لرئيس الوزراء الإسرائيلى مثلما كان قبل عامين، وكانت ملاحظة "شامير" أن هناك "شكا كبيرا بين الإسرائيليين بأن الولايات المتحدة مصرة على طرد إسرائيل من الأراضى المحتلة"، وكان رد "بيكر"، "بل هناك شك كبير بين الأمريكيين بأنكم لستم جادين فى التفاوض من أجل السلام"، ومؤكدا أن كل جيران إسرائيل بمن فيهم العدو اللدود سوريا، كانوا ولأول مرة، مستعدين لبدء محادثات مباشرة من أجل السلام فى عدم وجود منظمة عرفات، أبلغ "بيكر" رئيس الوزراء الإسرائيلى بأن التطورات الأخيرة فى الشرق الأوسط "لم تكن أقل من التقدم الكبير الذى كنتم تسعون إليه على مدى عقود"(١٣٨). وبعد مراجعة كل خياراتهم جيدا، وافق الإسرائيليون فى أواخر يوليو على حضور مؤتمر السلام الذى اقترحه "بيكر" وتبعهم فلسطينيو الضفة الغربية فى أوائل أغسطس، وبعد ثلاثة أشهر كان الطرفان يجلسان متواجهين فى مدريد.

جاء مؤتمر مدريد مخيبا للآمال من عدة زوايا مهمة. واحدا تلو الآخر، قام ممثلو إسرائيل والعرب بإلقاء كلمات بليدة يحاول بها كل طرف تدعيم موقفه

التفاوضى. "چورچ بوش" ألقى "تعويذة طقسية" تطلب الأمن للإسرائيليين والعدل للفلسطينيين، مذكرا الجانبين بأن "التنازلات الإقليمية ضرورية من أجل السلام". فى مدريد لم تعقد أى صفقات ولم تصحح أية أخطاء ولم يتم تبادل أى شىء، ولكن ما حدث كان مثيرا - بمعناه الرمزى - لأنه وضع المسألة الفلسطينية فى القلب من عملية السلام على نحو مباشر، وعلى مدى نصف الساعة تقريبا، استطاع "حيدر عبد الشافى" عضو الوفد الفلسطينى أن يقدم صورة إنسانية لشعبه أمام العالم من خلال كلمة مؤثرة من إعداد "حنان عشراوى". بدأ "عبد الشافى": "طالما كان لدينا نحن الفلسطينيين ميل إلى السلام وحلم بالعدل والحرية". كان مصرا على أن بناء المستوطنات "لابد من أن يتوقف الآن"، مؤكدا أن "السلام لا يمكن أن يتحقق بينما تتم مصادرة الأراضى الفلسطينية بمختلف الوسائل، كما أن وضع الأراضى المحتلة تقرره البولدوزارات والأسلاك الشائكة كل يوم"؛ و"سواء كان الإسرائيليون يريدون أن يعترفوا أو لا، فإن من حق الفلسطينيين أن يقرروا مصيرهم"، معلنا بكلمات للشاعر "محمود درويش": "وطنى ليس حقيبه، وأنا لست مسافر"(١٣٩).

بعد ثمانية شهور من إلقاء "عبد الشافى" كلمات "محمود درويش" فى مدريد، خرجت "ناشونال چيوجرافيك" بتحقيق مصور على ثلاثين صفحة بعنوان "من هم الفلسطينيون؟"، حمل رسالة الشاعر إلى غرف المعيشة الأمريكية؛ وبالرغم من أن عددا قليلا من الصور جاء متسقا مع الأسلوب القديم للمجلة فى تقديمها للعرب باعتبارهم كائنات شرقية عجائبية، فإن معظمها قدم الفلسطينيين كأنماط عادية.. مألوفة بدرجة مقلقة: رئيس منظمة التحرير الفلسطينية يرتدى حلة عمل ثنائية الصدر، شاب رياضى يرتدى "تى شيرت"، أم فى مقتبل العمر ترتدى بلوزة مطرزة وتنورة، مغمى عليها تحت قدمى جندى إسرائيلى يشبه قوات العاصفة النازية. إلى جانب ذلك كان مضمون التحقيق المصور يصف التكلفة الإنسانية الباهظة للاحتلال الإسرائيلى: إعادة التوطين القسرية، انتشار البطالة، التعذيب والإبعاد منذ بدء الانتفاضة؛ وفى حوار مع أحد المسنين كان يقول: "تعلمون أننا نحن الفلسطينيين أناس متحضرون، ولكننا نعامل وكأننا مخلفات بدائية"؛ إلا أن المجلة وهى تعرض القضية من أجل سلام

عادل ودائم يقوم على تسوية إقليمية، كانت تذكر القراء بأن الفلسطينيين كانوا مسئولين جزئيا عن محنتهم. حنان عشراوى اعترفت "بصراحة وبعد فوات الأوان نقول إن أكبر خطأ ارتكبناه كان عدم قبولنا بالتقسيم" قبل أربعة عقود عندما كان الإسرائيليون على استعداد لقبول "حل الدولتين"(١٤٠).

وبحلول ربيع ١٩٩٢، كانت إدارة "بوش" قلقة خشية أن تكون إسرائيل على وشك الوقوع فى الخطأ نفسه، وبعد أن عرف "جيم بيكر" فى يناير أن "إسحق شامير" كان ينوى بناء ٥٥٠٠ وحدة سكنية جديدة فى الأراضى المحتلة، أوصى بأن يوقف البيت الأبيض التشريع الذى يمنح إسرائيل ١٠ بليون دولار قرضا بضمان، كان مطلوبا لإسكان التدفق الجديد من اليهود السوفيت. وعندما اقترح أصدقاء إسرائيل فى "كابيتول هيل" حلا وسطا، فى شهر مارس، يمكن أن يفرج عن ٢ بليون دولار فى ١٩٩٢، كان "بيكر" يشكو أن ذلك من شأنه أن يمكن "شامير" من "الاستمرار فى بناء المستوطنات بمعدل كبير لمدة عام آخر على الأقل" وهو تطور يمكن أن "يجعل العرب يتركون طاولة مفوضات السلام"(١٤١)، ووافقه "چورچ بوش" الرأى، حيث قال للصحفيين فى "يوم القديس پاتريك" إن "المستوطنات تضر بعملية السلام والكل يعرف ذلك"(١٤٢)، و"تعهد – على نحو سرى – بأن يعترض على أى تشريع بخصوص ضمانات قروض أخرى لا يتضمن شرط تجميد أعمال الاستيطان". وبالرغم من مناورات اللحظة الأخيرة من قبل "AIPAC" فى المجلسين، فإن مشروع المعونات الذى وقعه "بوش" ليصبح قانونا فى منتصف أبريل لم يكن يتضمن أى ضمانات بقروض لإسرائيل(١٤٣).

بعد شهرين، كان الناخبون الذين سئموا ضغائن "شامير" ضد واشنطن، قد صوتوا ضد تحالف "الليكود"، ليخرج رئيس الوزراء من السلطة ليأتى من حزب العمل رجل الدولة المقاتل "إسحق رابين"، الذى سرعان ما كشف عن أنه كان أكثر انفتاحا للتسوية الإقليمية من سلفه، وفى منتصف يوليو ذهب "چيم بيكر" إلى إسرائيل حيث وافق رئيس الوزراء الجديد على وقف بناء كل المستوطنات الجديدة فى غزة والضفة

الغربية، مبلغا "بيكر": "ينبغى ألا يكون مستقبل ٣,٩ مليون يهودى إسرائيلى ومليون عربى إسرائيلى معلقا بسبب مائة ألف مستوطن فى الأراضى المحتلة. كان تأثير ذلك على "بيكر" شديدا، إذ قال لـ"بوش" فى ٢١ يوليو "لقد زرت إسرائيل مختلفة"، كان "رابين" يحول أولويات إسرائيل من الأراضى المحتلة إلى إعادة إنعاش الاقتصاد الإسرائيلى"؛ وبالرغم من أن "رابين" لم يكن على استعداد للتفكير فى انسحاب إسرائيلى كامل من الضفة الغربية، فإنه شخصيا أكد لـ"بوش" فى اجتماع لهما فى منتصف أغسطس فى المقر الصيفى للبيت الأبيض (فى Maine) أنه "لن تنزع ملكية الأراضى العربية فى المناطق المحتلة من أجل بناء مستوطنات"(١٤٤).

سعادة "بوش" لنجاحه فى الحفاظ على عملية السلام فى مسارها تضاءلت بالطبع عندما خذل الناخبون خططه ليكون رئيسا لفترة ثانية، فى الخريف التالى. يبدو أن انشغال هذا الرئيس الجمهورى بالوضع الإسرائيلى الفلسطينى المعقد لم يكن له أى قيمة فى عملية انتخابية كان شعار معظم المشاركين فيها "إنه الاقتصاد أيها الأحمق!". على أية حال، لم يكن الرئيس "بيل كلينتون" ليجد سببا يجعله يعكس اتجاه المسار فى الشرق الأوسط عندما انتقل من مقر حاكم الولاية فى "ليتل رو" إلى البيت الأبيض فى يناير ١٩٩٣. فى الأشهر الأولى له فى المكتب البيضوى، واصل المتفاوضون الفلسطينيون والإسرائيليون اجتماعاتهم فى واشنطن، إلا أن الطرفين سرعان ما توصلا إلى أن المحادثات كانت تسير بطيئة، جزئيا لأن الاهتمام الإعلامى الشديد بها فى "بلت واى" جعل السرية غير ممكنة، وجزئيا لأن المسئولين الأمريكيين كانوا منزعجين بسبب ما أطلق عليه أحد الدبلوماسيين الفلسطينيين فيما بعد "عقدة بيجماليون" التى لم تفلح مع أى من تلاميذ أمريكا المتهورين(١٤٥).

لأنهما لم يكونا غير مقتنعين بأن الولايات المتحدة كانت تعرف أكثر منهما، عقد "اسحق رابين" و"ياسر عرفات" محادثاتهما السرية فى النرويج فى مطلع العام الجديد، وبحلول يونيو ويوليو كانت إسرائيل ومنظمة التحرير تقتربان بهدوء من صفقة "**الأرض مقابل السلام**" على أرض شمس منتصف الليل؛ ثم فى ٢٠ أغسطس ١٩٩٣

أكد وزير خارجية النرويج "يوهان يورجن هولست – Johann Jurgen Holst" أن الجانبين توصلا إلى اتفاق أولى يدعو منظمة التحرير للاعتراف بإسرائيل رسميا ونبذ الإرهاب، كما يدعو الإسرائيليين لتسليم قطاع غزة ومدينة أريحا فى الضفة الغربية للسلطة الفلسطينية الجديدة بنهاية العام، وبعد أن يتم الاعتراف الكامل والانسحاب الجزئى تبدأ السلطة الفلسطينية وإسرائيل المفاوضات حول الوضع النهائى لبقية الضفة الغربية، بما فى ذلك مصير المستوطنات اليهودية ومستقبل القدس، وبعد ثلاثة أسابيع وقع رئيس الوزراء "رابين" ووزير الخارجية "بيريز" ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية "عرفات" اتفاقيات أوسلو فى حديقة الورد فى البيت الأبيض[١٤٦].

لم يكن المشهد الأكثر بروزا فى احتفالية التوقيع فى ١٣ سبتمبر هو تعهد عرفات الرنان بالتسوية، ولا مباركة "كلينتون" المتأنقة، كان الأكثر بروزا هو صلاة "رابين" المؤثرة من أجل السلام. الرجل الذى اقتحمت قواته الضفة الغربية قبل ربع القرن، كان يعلن الآن للعالم أن إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية كانتا تقفان "على حافة فرصة"... فرصة للسلام... وربما لنهاية الحرب والعنف. كان "رابين" يقول مخاطبا عرفات "ولأن قدرنا أن نعيش معا على التربة نفسها، على الأرض نفسها، نحن الذين حاربناكم، أيها الفلسطينيون، نقول لكم اليوم بصوت عال وواضح... كفى دما ودموعا.. كفى!"؛ ومُذَكِّرا الجميع بأن الكثيرين جدا من الإسرائيليين والكثيرين جدا من الفلسطينيين قد عرفوا تكلفة الحرب الباهظة، أعلن "رابين": "إننا نعطى السلام اليوم فرصة"[١٤٧].

ومن أسف أن لم يكن الجميع يستمعون إلى صلوات "رابين"، أو منتبهين لوعوده لمبادلة الأرض بالسلام، باعتبارها نابعة من إيمان حقيقى. زاعمين أن "عرفات" قد "باع" القضية فى أوسلو، شن المتطرفون داخل صفوف "حماس" حربا "مقدسة" فى أواخر ١٩٩٣ ضد كل من إسرائيل والسلطة الفلسطينية ذات الخبرة القليلة، مخلفين وراءهم قنابل ودما وأشلاء، وزاعمين أن "رابين" قد "باع" الضفة الغربية بدأ المتطرفون الإسرائيليون كذلك حملة العنف والإرهاب ضد الفلسطينيين من الخليل إلى القدس فى

أوائل ١٩٩٤، وعندما توصلت المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية - على عكس كل التوقعات - إلى صفقة بعد ثمانية عشر شهرا، تضع معظم الضفة - وليس كلها - تحت سيطرة السلطة الفلسطينية، كان الدم ومازال يتدفق. وفى مساء ٤ نوفمبر ١٩٩٥ كان نداء "رابين" الأخير من أجل السلام، حيث قال أمام جمع كبير فى تل أبيب: "كنت أشن الحرب ما لم تكن هناك فرصة للسلام" ولكن فى مرحلة ما بين مدريد وأوسلو"، وجدنا شريكا بين الفلسطينيين هو منظمة التحرير الفلسطينية التى طالما كانت عدوا لنا، ومؤكدا أن "العنف يقوض أساس الديمقراطية الإسرائيلية" عَبَّر "رابين" عن أمله فى أن يظهر هذا التجمع للعالم كيف أن شعب إسرائيل يريد السلام". بعد لحظات أطلق عليه الرصاص "ييجال آمير - Yigal Amir"، طالب الحقوق الإسرائيلى اليمينى (٢٥ سنة) الذى يبدو أنه كان يريد شيئا آخر[١٤٨].

أصاب اغتيال "رابين" معظم الإسرائيليين بالذهول، وصدم صناع السياسة الأمريكيين، كما أصاب كثيرا من الفلسطينيين بالحزن. بعد أيام قليلة كتب "ياسر عرفات" إلى أرملة "رابين" يقول: "لقد خسرنا رجلا عظيما صنع معنا سلام الشجعان" و"كان شريكا لنا"[١٤٩]. "شيمون بيريز" الذى خلفه رئيسا للوزراء تعهد أن يحافظ على الشراكة بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية.. بل وتطويرها، ولكن المتطرفين فى كلا الجانبين كان لهم رأى آخر. دعاة إسرائيل الكبرى الذين كان أى انسحاب من الضفة الغربية يعتبر خيانة فى نظرهم، كانوا يتهامسون بخيانة "رابين" للصهيونية، ثم أعلنوا أن اتفاقيات أوسلو لم تكن أكثر من استرضاء للعرب، متعهدين بهزيمة "بيريز" فى انتخابات ربيع ١٩٩٦. من جانبها كانت "حركة حماس" التى تعمل تحت الأرض، كانت حريصة وهى تفوح منها رائحة الدم على أن تكون الحملة الانتخابية مصحوبة بالقنابل والرصاص، فخلقت مناخا من الخوف وعدم الشعور بالأمان جعل كثيرا من الناخبين يتخلون عن "بيريز" وسياسة "**الأرض مقابل السلام**" وأن يكونوا مع "بنيامين نيتانياهو" صاحب الميول التوسعية الذى خلف "شامير" رئيسا لـ"الليكود"، وفى أواخر مايو فاز "نيتانياهو" بفارق ضئيل كان يعتبره تفويضا لكى يبطئ بعملية السلام[١٥٠].

كان معظم الفلسطينيين وكثير من الأمريكيين يراقبون "نيتانياهو" ويستمعون إليه عن كثب، لأنهم كانوا فى شك من التزامه بمبدأ "**الأرض مقابل السلام**"، ولكن سلوكه فى العام الأول له لم يكن فيه ما يزيل هذه الشكوك، ففى سبتمبر ١٩٩٦ وافق على فتح نفق للحجاج الإسرائيليين تحت الحرم الإبراهيمى فى القدس، ليموت فى الاضطرابات الناجمة عن ذلك سبعون فلسطينيا. وفى مايو ١٩٩٧ أعلن عن مشروعات لبناء ٦٥٠٠ وحدة سكنية فى منطقة كانت ذات يوم القدس الشرقية العربية، وردّت "حماس" بموجة من العنف ففجرت منازل ومقاه، مما أدى إلى مصرع طالبات وسائحين. وبالرغم من بعض العبارات الخشنة من "بيل كلينتون" لم يكن "نيتانياهو" على استعداد للانسحاب من الضفة الغربية أو مناقشة مستقبل المدينة المقدسة التى كان كل من الإسرائيليين والفلسطينيين يزعم أنها كانت عاصمة لهم منذ البداية[١٥١].

وبحلول ربيع ١٩٩٨ كان "كلينتون" والدائرة القريبة منه ينشطون من أجل حسم دبلوماسى مع "نيتانياهو". وبينما كان البيت الأبيض مصرا على ضرورة أن تعيد إسرائيل معظم الضفة الغربية للفلسطينيين للإبقاء على عملية السلام حية، أطلقت "هيلارى كلينتون – **Hillary Clinton**" بالون اختبار عبر الأقمار الاصطناعية، حيث قالت أمام تجمع طلابى عربى إسرائيلى فى سويسرا فى ٥ مايو: "أعتقد أنه سيكون من صالح الشرق الأوسط على المدى البعيد أن تصبح فلسطين دولة". متشجعا بهذه التزكية من السيدة الأولى استغل "ياسر عرفات" الذكرى الخمسين لـ"النكبة" (المصطلح الذى يعبر به كل الفلسطينيين عن قيام دولة إسرائيل)، ليؤكد مطالبته بدولة، فقال فى حديث إذاعى فى ١٤ مايو "نحن لا نطلب المستحيل، نحن نطلب إغلاق ملف النكبة مرة وإلى الأبد، وأن يعود اللاجئون، وأن نقيم دولة فلسطينية مستقلة على أرضنا مثل كل الشعوب الأخرى"، وأنهى كلمته بقوله "نريد أن نحتفل فى عاصمتنا القدس الشريف"[١٥٢].

لم يكن "نيتانياهو" سعيدا بما وصفته "مادلين أولبرايت – **Madeline Albright**" وزيرة الخارجية الأمريكية بأنه "نوبة الإيقاظ" التى أطلقها "كلينتون"، فبينما كان يلمح

إلى أن مصير الضفة الغربية والقدس لن يكونا موضوعا للتفاوض، كان يدعو واشنطن، بشكل فظ، إلى "الخروج من اللعبة" حيث قال فى ١٥ مايو: لم "أكن أتصور أن أقول للولايات المتحدة كيف تدافع عن قواعدها فى الفيليپين أو أوروبا فى ذروة الحرب الباردة"[١٥٣]، وأعلن بعد شهر أن إسرائيل سوف تبسط نفوذها على "حارحوما" وغيرها من التجمعات المتنازع عليها فى ضواحى القدس. وعندما أشارت "أولبرايت" – على نحو مهذب – إلى أن ذلك "ليس فى صالح عملية السلام" لم يحر "نيتانياهو" جوابا، فقال للصحفيين فى ٢١ يونيو: اكتبوا ما أقوله"، "سترون المنازل فى "حارحوما"... منازل كثيرة... بحلول عام ٢٠٠٠"[١٥٤]. وبالرغم من أن "نيتانياهو" كان مصرا على "إننا نحاول أن نبطل اتفاقيات أوسلو"، فإن رفضه لمفهوم "**الأرض مقابل السلام**"، الذى كان جوهر الحوار الإسرائيلى الفلسطينيى جعل القلق يساور الكثيرين بأن تأتى الألفية الجديدة بالمزيد من الحرب[١٥٥].

الحقيقة أن "نيتانياهو" جلس بعد أربعة أشهر مع "عرفات" فى القمة المصغرة التى استضافها "كلينتون" على الشاطئ الشرقى لـ"ميريلاند" ووقع مذكرة واى "Wye" التى تعهد فيها بإعادة ١٣٪ أخرى من الضفة الغربية للفلسطينيين بنهاية العام، ولكن مؤيدى "نيتانياهو" من اليمين قابلوا التنازلات الجديدة بتوبيخ قاس، بينما كان منتقدوه من اليسار يؤكدون أنه لن يحافظ على تعهده. "إيهود باراك – Ehud Barak"، الذى خلف "پيريز" رئيسا لحزب العمل قال للصحفيين فى ٢٥ أكتوبر ١٩٩٨ "الدولة أصبحت ملطخة بالطين، لقد حان وقت العمل من أجل انتخابات باكرة وتشكيل حكومة تخرجنا من ذلك كله"[١٥٦]. مأخوذا بسبب عبارات "باراك" رد "نيتانياهو" "بتجميد" رضوخ إسرائيل لمذكرة "واى" بعد ستة أسابيع، وأعد بذلك المسرح لمعركة صعبة فى استفتاء على تطبيق أو عدم تطبيق صيغة "**الأرض مقابل السلام**". فى ٢٣ مايو فاز "إيهود باراك" بفارق كبير؛ إذ يبدو أن معظم الإسرائيليين كانوا يريدون السلام عاجلا وليس آجلا، كما كانوا على استعداد لمبادلته بالأرض. "باراك"، وهو مقاتل متمرس ذو نزعة پراجماتية مثل معلمه الشهير "رابين"، خاض عملية مساومة صعبة مع لبنان وسوريا فى عامه الأول فى السلطة، ومثلما كان الأمر على مدى أكثر من نصف القرن

ظلت القضية الرئيسية هى كيف يمكن صوغ تسوية عادلة ومنصفة بين إسرائيل والفلسطينيين. متحمسا فرصة لتسوية الوضع مرة وإلى الأبد، دعا "كلينتون" كلا من "باراك" و"عرفات" إلى "كامپ ديڤيد" فى يوليو ٢٠٠٠، وبالرغم من أن "باراك" أزعج الأمريكيين بمماحكات مستمرة حول التفاصيل، فإنه كان - على الأقل - مستعدا للتفكير فى مقايضة الأرض بالسلام، بما فى ذلك، حتى، جزء من القدس؛ ومن ناحية أخرى كان "عرفات" يرفض الموافقة على أى صيغة للأرض مقابل السلام، إلا إذا وافقت إسرائيل مسبقا على العودة إلى حدودها قبل ١٩٦٧[١٥٧].

بعد أن وصلت محادثات القمة إلى طريق مسدود، كان كل من الأمريكيين والإسرائيليين ينحون باللائمة على الفلسطينيين. "كلينتون: قال لـ"عرفات" بحدة: "إذا كان الإسرائيليون يقدمون تنازلات وأنت لا تستطيع أن تفعل ذلك فليس أمامى سوى أن أنصرف... أنت هنا منذ أربعة عشر يوما وتقول "لا" لكل شيء"، ومحذرا من أن "الفشل كان يعنى نهاية عملية السلام"، أشاح الديمقراطى القادم من أركانساس بيده وهو يصيح: "سنفتح أبواب الجحيم وسوف نتحمل النتائج"[١٥٨]. كان "باراك" ومستشاروه يشاركون "كلينتون" الإحباط. "إسحق هرزوج - **Yitzhak Herzog**"، سكرتير الحكومة الإسرائيلية، أبلغ الصحفيين فى ٢٠ يوليو "الكرة الآن فى ملعب "عرفات"... وذات مرة قال عمى "أبا إيبان" إن الفلسطينيين لا يضيعون فرصة لكى يضيعوا فرصة، وأنا أتمنى وأصلى كى لا يضيع أبناؤنا هذه الفرصة"[١٥٩]. ولكن "روبرت مالى - **Robert Malley**" خبير الشئون العربية الإسرائيلية فى البيت الأبيض، الذى هده الإرهاق مع "كلينتون" فى "كامپ ديڤيد"، كان يقول إن الأمور كانت أكثر تعقيدا. رافضا أن يعتبر "عرفات" المسئول الوحيد عن وصول المحادثات إلى طريق مسدود، كان "مالى" يلوم الطرفين، ويصف القمة الفاشلة مؤخرا بأنها "كانت فرصة أضاعها الجميع بالخطأ أكثر منهم بالإصرار، وبحسابات خطأ أكثر منها بالنزوع إلى الإيذاء"[١٦٠].

وكما كان "بيل كلينتون" يخشى، تفجرت بعد عشرة أسابيع من الأخطاء والحسابات الخطأ فى "كامپ ديڤيد" طاقات الجحيم، وفى ٢٨ سپتمبر دخل "آرئيل

شارون" الذى خلف "نيتانياهو" فى رئاسة تحالف الليكود وأكثر من ألف شرطى إسرائيلى من قوات مكافحة الشغب المسجد الأقصى، وفى اليوم التالى كانت المظاهرات وأعمال الشغب تهز الضفة الغربية والقوات الإسرائيلية تفتح النار لتقتل أربعة فلسطينيين وتصيب مائتين آخرين؛ ومع تزايد عدد القتلى والجرحى سعى "كلينتون" لإخماد أعمال العنف خلال تلك الأيام البائسة لإدارته بتشكيل لجنة لتقصى الحقائق برئاسة السيناتور السابق "چورچ ميتشيل – George Mitchell" الذى سبق أن توسط فى هدنة فى أيرلنده الشمالية، وبعد أن اختار الإسرائيليون "أرئيل شارون" رئيسا للوزراء فى أوائل العام الجديد، واجه أعضاء لجنة "ميتشيل" سلسلة طويلة من الخلافات.

فى ٣٠ أبريل ٢٠٠١ تسلم "چورچ دبليو بوش" تقرير اللجنة الذى كان يعتبر صيغة "**الأرض مقابل السلام**" أمرا رئيسيا فى سياسة أمريكا على مدى نصف القرن. مدركا أن أكثر من خمسمائة شخص قد قتلوا وأكثر من عشرة آلاف قد أصيبوا منذ بدء "انتفاضة الأقصى"، كان "ميتشيل" وزملاؤه يحثون السلطة الفلسطينية على أن "تبذل قصارى جهدها لمنع العمليات الإرهابية وأن تعاقب من يرتكبون تلك الأعمال" كما طلبوا من إسرائيل أن "تجمد كل النشاط الاستيطانى بما فى ذلك "النمو الطبيعى" للمستوطنات القائمة"(١٦١). أثناء الشهور الثلاث الأولى له فى البيت الأبيض كان خليفة "كلينتون" يحاول أن يتجنب الدم المسفوك بين "شارون" و"عرفات". أخبر "بوش" أعضاء مجلس الأمن القومى فى ٣٠ يناير بأن "كلينتون أخفق، وكل شىء انهار، وأعتقد أن الوقت قد حان لكى ننسحب من هذا الوضع"(١٦٢). وبعد تصفح تقرير "ميتشيل" أعلن الرئيس الجديد أنه سيظل ملتزما بمبدأ **الأرض مقابل السلام**، وأن "الشعب الفلسطينى من حقه تقرير مصيره وأن يعيش فى سلام وأمان فى دولته وفى وطنه" كما أكد لـ"عبد الله"، ولى العهد السعودى، فى لقاء خاص فى ٢٩ أغسطس ٢٠٠١؛ وبعد ستة أسابيع كان "بوش" يقول لجمع من الصحفيين: "إذا دخلنا فى عملية "ميتشيل"، أعتقد أنه لابد من أن تكون هناك دولة فلسطينية... تعترف بحق إسرائيل فى الوجود"(١٦٣).

ولأن رئيس الوزراء "آرئيل شارون" كان يربط حرب إسرائيل المحلية ضد الإرهاب الفلسطينى بحرب أمريكا الكونية ضد القاعدة، كانت إدارة "بوش" تتقدم ببطء فى عملية السلام خلال خريف ٢٠٠١. اختفى كل أمل فى أن تسير القضية الفلسطينية فى هدوء بعد أن أرسل "شارون" قواته ودباباته إلى الضفة الغربية ردا على موجة من العمليات الانتحارية داخل إسرائيل، وبعد دمار كبير فى "چنين" و"رام الله" وغيرهما من المدن فى الضفة الغربية أرسل "بوش" نائبه فى زيارة تقصى حقائق إلى العواصم العربية بهدف تقييم فرص السلام. وبحسب "مارتن إنديك – Martin Indyk" أحد مساعدى "كلينتون" فى الشرق الأوسط، سمع "ديك تشينى – Dick Cheney" "الأسطوانة" نفسها فى كل من عمان والقاهرة والرياض... "إنهم الفلسطينيون أيها الأحمق"[١٦٤]؛ وبالرغم مما قاله معارضوه لم يكن "چورج دبليو بوش" أحمق، فبعد ثلاثة أشهر أعاد تأكيد هدف "دولتين تعيشان جنبا إلى جنب فى أمان وسلام"، مصمما على أن "عرفات" لابد من أن يقبل بقيادة فلسطينية جديدة، كما حث "شارون" على وقف تدفق المستوطنين الإسرائيليين على غزة والضفة الغربية[١٦٥]. كان "چورج دبليو بوش" مبتهجا على أثر قرار "عرفات" بتعيين "محمود عباس" رئيسا للوزراء فى مارس ٢٠٠٣، وهو شخص براجماتى معتدل. وعلى أمل أن يعيد انتصار أمريكا السريع فى حرب الخليج الثانية إحياء روح مدريد وأوسلو التى كانت قد انتعشت بعد انتصار إبيه السابق على "صدام حسين"، كشف "چورج دبليو بوش" عن "خريطة طريق" من أجل السلام كانت معالمها الرئيسية هى وقف الأعمال الإرهابية وتجميد الاستيطان.

عندما وضع "بوش" خريطة الطريق أمام طرفى النزاع فى أوائل يونيو، كانت تبدو وكأنها لا تؤدى إلى شىء. تعهد "عباس" بلجم "حماس" والمتطرفين الإسلاميين، ولكن "شارون" رفض فكرة تجميد الاستيطان وكان يتساءل مستنكرا: "ماذا؟ لا نمو طبيعيا؟"، "هل علىَّ أن أطلب من امرأة حامل فى مستوطنة ما أن تجهض نفسها؟" وفى خلال أيام قليلة بدأ الإسرائيليون بناء حاجز ضد الإرهاب – جزء سور وجزء

جدار – يمتد ملتويا كالثعبان عبر الضفة الغربية عازلا المزارعين الفلسطينيين عن حقولهم وبساتينهم، قام العرب بتنبيه "چورچ دبليو بوش" إلى أن الجدار العازل سيؤدى إلى فشل الصفقة، وكما نقل أحد الدبلوماسيين الفلسطينيين فى منتصف يوليو "عندما أطلع "عباس" الرئيس "بوش" على خريطة الجدار.. نظر إليها ثم ألقى الورقة من يده قائلا.. بذلك لن تكون هناك دولتان"(١٦٦)؛ وعندما ذكروا "عباس" بعد فترة قصيرة بأن "الفلسطينيين لا يضيعون فرصة لكى يضيعوا فرصة" أجاب "سوف نتمسك بهذه الفرصة" بالرغم من الجدار العازل(١٦٧). وبالرغم من هذا التعهد استقال "محمود عباس" فى ٦ سبتمبر واستؤنفت العمليات الانتحارية، وكان "چورچ دبليو بوش" يزمجر "لن أبدد المزيد من رأسمالى السياسى على خاسرين... الفلسطينيين، وإنما على الفائزين فحسب(١٦٨).

بحلول خريف ٢٠٠٣، دخل الفلسطينيون والإسرائيليون دائرة عنف وانتقام لم يكن فيها فائز، وبالرغم من أن المسئولين الأمريكيين كانوا مشغولين، على نحو متزايد، بحربهم الخاصة فى العراق، فإنهم كانوا مصرين على أن المصدر النهائى لخريطة الطريق الفلسطينية الإسرائيلية هو "**الأرض مقابل السلام**". الدبلوماسيون الأمريكيون كانوا يدركون بالطبع أنه كان عليهم – كما كان فى الماضى – أن يحثوا الجانبين على التحرك من أجل إظهار حسن النوايا. جميع الإدارات من "هارى ترومان" إلى "چورچ دبليو بوش" كانت مصرة على أن مبادلة الأرض بالسلام تهيئ أفضل الفرص من أجل تسوية دائمة. ومن ١٩٤٧ إلى ١٩٦٧ كان العرب هم الذين لم يضيعوا فرصة لكى يضيعوا فرصة. رفضوا تقسيم فلسطين، رفضوا مبادرات مثل "العملية ألفا"، ومشروع "چونسون"... وتعهدوا بإلقاء اليهود فى البحر. بعد حرب الأيام الستة كان الإسرائيليون هم الذين برهنوا على عدم استعدادهم لمبادلة الأرض بالسلام، سواء بموجب القرار رقم ٢٤٢ أو معاهدات "كامپ ديڤيد" أو مشروع "ريجان". ومع فتح حوار مباشر فى أوسلو فى ١٩٩٣، كان كلا الطرفين يبدو على استعداد لانتهاز الفرصة التى كانت واضحة للكثيرين على مدى طويل؛ وبالرغم من ذلك كانت أفق

السلام تبدو فى بداية الألفية الجديدة أكثر كآبة منها فى أى وقت مضى، ومن أسف أنه ما لم يستطع الإسرائيليون والفلسطينيون أن يجدوا وسيلة لتنفيذ صيغة **الأرض مقابل السلام** بكل بساطتها، فالمؤكد أن أبناء "إسحق" وأبناء "إسماعيل" سيواصلون التضحية بحياتهم.

■ "لن تكون مثل حرب الخليج الفارسى التى شنها أبوك من قبل"

(شعار فى البنتاجون) - فبراير ٢٠٠٣

■ "لا أمريكا.. لا صدام.. كل الشعب مع الإسلام".

(هتاف فى بغداد) - يونيو

الفصل التاسع

ليست حرب "بابا" فى الخليج الفارسى!

• مبدأ "بوش" والعراق والإسلام الراديكالى

فى سبتمبر ١٩٤٣ قدمت شركة "وارنر برذرز" فيلما (أبيض وأسود) بعنوان "مغامرة فى العراق"، كان يصور الأعمال البطولية لنمر طائر والإنجليزية الجميلة المسافرة على متنه على جبهة منسية فى الحرب العالمية الثانية؛ وبعد هبوط اضطرارى تحطمت فيه الطائرة فى مملكة صحراوية تسمى "جاتسى" تقع على بعد ثلاثمائة ميل غربى بغداد، يقع "دو إيفرت" و"تس تورنس" فى أسر أحد الشيوخ الموالين للنازية، الذى يريد أتباعه من "عبدة الشيطان" أن يجعلا منهما قربانا بشريا. تأتى النهاية، بأسلوب هوليوود الكلاسيكى، عندما يتمكن هذان البطلان الجسوران من أن يخدعا عصابة من العرب الأغبياء قطاع الطرق، ليهربا من الموت فى اللحظة الأخيرة، ولم يكن ذلك سوى بفضل براعة أمريكية وفستان مقور الصدر وعدد قليل من القنابل زرعتها القوات الأمريكية فى أماكن تم اختيارها بعناية. الفيلم المكدس بالصور النمطية الاستشراقية والنزعة المعادية للفاشية يؤكد لجمهور فترة الحرب أن الذكاء والعضلات والتكنولوچيا والعلاقات الوثيقة مع البريطانيين كانت هى مفاتيح نجاح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، تلك المنطقة التى لم تكن سوى قلة من مشاهدى السينما فى أمريكا "روزفلت" يعرفون مكانها على الخريطة.

بعد ستين عاما، وافق صاحب العيون الفولاذية القادم من تكساس ليجلس فى المكتب البيضوى، وذلك الإنجليزى النموذجى المقيم فى "١٠ داوننج ستريت"، وافقا على شن عملية "حرية العراق" لتحرير "مملكة جاتسى" حقيقية من يد دكتاتور كان كثيرون يعتبرونه أكثر فظاعة من "أدولف هتلر"، وأكثر تعصبا من "أسامة بن لادن"؛ وبعد ثلاثة أسابيع فقط من تساقط القنابل شديدة الانفجار على بغداد مثل المطر فى ٢٠ مارس ٢٠٠٣، اجتاحت القوات الأمريكية العاصمة العراقية؛ وفى غمرة ابتهاج جمع من العراقيين فى ساحة الفردوس فى بغداد، قام جماعة من الجنود الأمريكيين بتطويق رقبة تمثال هائل لـ"صدام حسين" بسلسلة من الصلب لكى تجره عربة قطر مدرعة وتطيح كلا من التمثال ونظام البعث الذى يرمز إليه؛ وعلى خلاف عملية

"عاصفة الصحراء" التى كانت قد انتهت بنشيج خافت قبل اثنتى عشر عاما، انتهت عملية "حرية العراق" بضربة عنيفة تردد صداها فى أرجاء العالم، ومثلما كان قد تنبأ أحد كبار المسئولين فى "البنتاجون" قبل ستة أسابيع من بدء القتال فإنها "لن تكون مثل حرب الخليج الفارسى التى شنها أبوك من قبل"(١).

فى ملابس رياضية عسكرية، كان الرئيس "چورچ دبليو بوش" يقف فوق ظهر "ابراهام لينكولن" فى ١ مايو ٢٠٠٣ تحت لافتة مكتوب عليها بخط عريض "تم تنفيذ المهمة"، ليؤكد للألوف من جنود البحرية المبتهجين أن الانتصار الكاسح للعم سام فى بغداد قد "غير كل شيء فى الشرق الأوسط" وأننا "شهدنا مقدم حقبة جديدة فى صورة التماثيل الساقطة"، كما توقع أن يأتى الانتصار بالسلام والحرية لعالم أصابته أحداث الحادى عشر من سبتمبر بالذهول. كما قال الرئيس إن "تحرير العراق تقدم حاسم فى الحملة على الإرهاب"، لأنه بعث برسالة واضحة مفادها أن "أى نظام مارق له علاقة بالجماعات الإرهابية ويحاول الحصول على أسلحة دمار شامل أو امتلاكها، هو خطر داهم على العالم المتحضر وسوف تتم مواجهته"؛ ومعترفا بأن التحول من الدكتاتورية إلى الديمقراطية سوف يستغرق وقتا، تعهد "بوش" بأن يواصل الطريق حتى نهايته، و"بعد ذلك سوف نغادر لنترك وراءنا عراقا حرا"(٢). بعد أكثر من أربع سنوات تظل تلك كلها كلمات جوفاء، فمع حرب أهلية شرسة بين السنة والشيعة والأكراد، ومع معدلات قتلى بين الأمريكيين وصلت إلى ما يقرب من الأربعة آلاف جندى فى خريف ٢٠٠٧، كان هناك قلة من الأمريكيين الذين يعتقدون أن إدارة "بوش" سوف تغادر العراق فى وقت قريب، والأقل منهم كانوا يعتقدون أنه عندما يغادر آخر جندى أمريكى سيكون هناك عراق حر.

المستنقع الدموى فى بغداد فاجأ الكثيرين ممن كانوا يعادلون سقوط "صدام حسين" بانتصار سريع ونهائى فى الحرب الكونية ضد الإرهاب. من منظور تاريخى أبعد، تبدو بعض جوانب الحرب فى العراق بمثابة الذروة فى سياسة الولايات المتحدة الخارجية فى الشرق الأوسط على مدى نصف القرن. كانت معادلة قوية للنفط مضاف إليه إسرائيل، مضاف إليه الاستشراق المألوف لأى شخص فى الأربعينيات يمكن أن

يجعل واشنطن تتجه إلى تغيير النظام فى بغداد فى أوائل القرن الواحد والعشرين، إلا أن سياسات "چورچ دبليو بوش" من جانب آخر، كانت قطيعة جذرية مع الماضى. باختراع خطر أخضر جديد هو "الفاشية الإسلامية" ليحل محل الخطر الأحمر القديم "الشيوعية"، وبمحاولة تصدير الديمقراطية للعالم الإسلامى على فوهة مدفع، وبنبذ مبدأ الاحتواء الذى ساد فى زمن الحرب الباردة لصالح حرب وقائية، فإن إدارة "چورچ دبليو بوش" تبنت سياسة مختلفة تماما عن سياسات كل الرؤساء الأمريكيين من "هارى ترومان" إلى "بيل كلينتون"، وكانت النتيجة مغامرة طائشة فى العراق ذات موازنة ضخمة، تعد بنهاية مختلفة تماما عن نهاية "مغامرة فى العراق" التى أنتجتها "وارنر برذرز" بموازنة منخفضة من قبل.

• عقائد متصارعة: "دوبيا" و"أسامة" والطريق إلى الحادى عشر من سپتمبر

فى السادس من يوليو عام ١٩٤٦، بعد عشرة شهور فقط من يوم النصر، ولد "چورچ دبليو بوش" فى "نيوهاڤن" بولاية كونكتكت، الابن البكر المسمى على اسم ضابط بحرى كان قد حارب فى الپاسيفيك، ومثل الألوف من المحاربين لم يكن يتوقع أسس تورط أمريكا الشديد فى العراق بعد ستين عاما. فى صيف ١٩٤٨ انتقل رئيس المستقبل بأسرته إلى ميدلاند - تكساس، حيث كان أبوه، رئيس المستقبل أيضا، قد بدأ شركة نفط صغيرة؛ عندما أنهى "چورچ الصغير" هذا مدرسته المتوسطة، كانت مصالح أمريكا فى الشرق الأوسط قد أصبحت مركز اهتمام أكثر وضوحا. كلاهما، "ترومان" و"إيزنهاور" كانا ملتزمين بالحفاظ على إمكانية الوصول إلى نفط الخليج الفارسى ودعم إسرائيل واحتواء الشيوعية... وتحجيم القومية العربية كلما كان ذلك ممكنا. فى ١٩٥٩ انتقل "آل بوش" إلى هيوستن، العاصمة النفطية للولايات المتحدة، حيث سرعان ما أصبح "چورچ الكبير" لاعبا رئيسيا فى الحزب الجمهورى فى تكساس، وفى الوقت نفسه انتقل "چورچ دبليو بوش" إلى مدرسة تمهيدية فى "إندوڤ - ماساشوستس" حيث كان يلاحق البنات ويلعب كرة المضرب بينما كان "چون

إف.كينيدى" و"ليندون چونسون" يدعمان علاقة أمريكا الخاصة بإسرائيل؛ وقبل أن يمر وقت طويل عاد رئيس المستقبل إلى "نيوهاڤن" حيث التحق بجامعة "ييل" متخصصا فى التاريخ والانتظام فى عدة دورات فى الدبلوماسية الأوروبية والأمريكية فى القرنين التاسع عشر والعشرين. عندما تخرج "چورچ دبليو بوش" بتقدير "C" فى يونيو ١٩٦٨، كانت معلوماته فقيرة عن بقية مناطق العالم مثل الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا التى كانت تشغل الكثيرين من زملاء الدراسة، وبعد أن خدم فى سلاح الجو الوطنى فى تكساس وانغمس قليلا فى سياسات ألاباما، حصل رئيس المستقبل على الماچستير فى إدارة الأعمال من هارڤارد فى ١٩٧٥، ثم عاد إلى ميدلاند[٣].

عندما دخل المكتب البيضوى بعد ربع القرن، كان "چورچ دبليو بوش" قد كون نظرة للعالم شارك فى تشكيلها تجارب والده وإيمانه الشخصى، أما "چورچ الكبير" فبرز كشخصية كبيرة فى السياسة الأمريكية فى سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، كسفير لـ"نيكسون" فى الأمم المتحدة أولا، ثم مديرا للمخابرات المركزية فى إدارة "فورد"، وأخيرا كنائب للرئيس "ريجان"، وكانت توقعاته لابنه البكر كبيرة. فى البداية كان "چورچ الصغير" خيبة أمل كبيرة. كان بالكاد يستطيع أن يدير استثمارا نفطيا فى "وست تكساس أويل" ويشرب بإفراط، واشتهر بضيق الأفق فى أسرة كانت تتباهى بالانفتاح على العالم؛ وبعد أن أصبح "چورچ الكبير" رئيسا فى يناير ١٩٨٩، برز "دوبيا" بالرغم من ذلك كله كأحد الأوفياء والمخلصين المدافعين عن سياسات أبيه، يصارع أعداء إدارته فى واشنطن بينما يبنى لنفسه قاعدة سياسية فى دالاس حيث استطاع أن يشترى فريق البيس بول "تكساس - رينچرز". وعندما خسر "چورچ بوش" الانتخابات أمام "بيل كلينتون" فى ١٩٩٢ وفشل فى البقاء فى الإدارة لفترة ثانية، اعتبر ابنه ذلك "قضية شخصية" ولكنه تعهد بأن يتعلم من هذه الهزيمة. تحليل "دوبيا" للأحداث فيما بعد كان يرى أنه بالرغم من أن الركود الاقتصادى وانعدام الرؤية والفشل فى القضاء على "صدام حسين" بعد حرب الخليج الأولى قد كلفت والده أصواتا كثيرة، فإن عجزه عن تعبئة القاعدة المسيحية البروتستانتية للحزب الجمهورى كان هو سبب فشل حملته لإعادة انتخابه.

برز الإيمان الديني كجانب مهم في حياة "چورج دبليو بوش" مؤخرا، فبعد سنوات من حياة "الأنس والشرب والفرفشة"، قرر "دوبيا" أن يطلب المعونة من الرب في منتصف الثمانينيات، فأوكله "چورچ الكبير" إلى "بيلي جراهام - **Billy Graham**" "الإكليركي المبجل" صديق العائلة وأشهر رجل دين في أمريكا، ولم يمض وقت طويل حتى كان رئيس المستقبل قد أقلع عن الشراب، وبعد فترة كان يقول إن "الإيمان يغير الحياة، أعرف ذلك جيدا لأنه غير حياتي"[٤]؛ وعندما عاد إلى "دالاس" في أوائل ١٩٩٣ سرعان ما ألقى بنفسه في خضم السياسة في تكساس" وبدأ حملة "أساسها الإيمان" سوف تحمله إلى المجلس التشريعي في "أوستن" بعد ثمانية عشر شهرا؛ وبرغم الادعاءات بأن الحاكم الجديد كان يحاول استمالة أصوات المحافظين المسيحيين، كانت اقتناعات "چورچ دبليو بوش" الدينية تبدو خالصة وقوية وصادرة عن القلب. بمرور الوقت أصبح حاكم الولاية يتمسح في الدين أكثر فأكثر ويقتبس كثيرا من الإنجيل في كلماته[٥]. وبمجرد أن أصبح رئيسا في ٢٠٠١ أنشأ مكتبا للمبادرات المجتمعية القائمة على الإيمان، وبعد ثلاث سنوات سوف تزعم إدارته أن الإيمان له من القوة ما يمكنه من تغيير العالم بأسره وليس أمريكا فحسب، وكان أحد مستشاري البيت الأبيض يفسر ذلك في أكتوبر ٢٠٠٤ على النحو التالي: بالرغم من أن "المجتمع المؤسس على الواقع" يفضل أن يبني القرارات على "الدراسة الحصيفة للحقيقة التي يمكن إدراكها... فإن العالم لم يعد يعمل بهذا الأسلوب بالفعل"، والحقيقة هي "إننا الآن إمبراطورية، وعندما نعمل فإننا نصنع الحقيقة الخاصة بنا"، وخلص المتحدث باسم "بوش" إلى: "وبينما تدرسون هذه الحقيقة... سوف نعمل مرة أخرى لخلق حقائق أخرى جديدة"، فنحن "نمثل التاريخ"[٦].

في الجانب الآخر من العالم كان هناك ممثل آخر للتاريخ - أسامة بن لادن - يكرس وقته في مكان ما من منطقة ما غير مأهولة بين أفغانستان وباكستان، مقتنعا بأنه - أيضا - كان يغير العالم بقوة إيمانه. "أسامة" من مواليد يناير ١٩٥٨ بالرياض - السعودية، أحد ٥٤ ابنا لـ"محمد بن لادن" المقاول صاحب العلاقات الوثيقة بآل سعود. بعد دراسة الهندسة، أصبح "أسامة" ناشطا إسلاميا في أواخر

السبعينيات، واستلهم كتابات الداعية المصرى "سيد قطب"، الذى كان قد زار أمريكا "الآثمة" أيام "هارى ترومان" قبل جيل، ونما بداخله حقد شديد على العلمنة والتحضير وكل ما هو حديث وغربى. يقول "سيد قطب" فى عمله المهم "معالم فى الطريق (١٩٦٦) إن "الروح الصليبية التى تسرى فى دم كل الغربيين هى المسئولة عن خوفهم الاستعمارى من روح الإسلام وعن كل جهودهم لتدمير قوة الإسلام". بعد أن تبنى "بن لادن" أفكار "سيد قطب" عن الثقافة الغربية وعدائها للإسلام والمسلمين، اتجه إلى أفغانستان فى ١٩٨٣ حيث ساعد عصابات المجاهدين لشن حرب جهاد ضد السوفيت "الكفار"؛ بعد خمس سنوات، وبينما كان الجيش السوفيتى فى حالة تقهقر اجتمع "بن لادن" وآخرون من المتطرفين الإسلاميين على الحدود الإسلامية فى "بشاور" حيث أسسوا تنظيم القاعدة فى ٢٠ أغسطس ١٩٨٨[٧].

بمجرد خروج آخر جندى روسى من أفغانستان فى ١٥ فبراير ١٩٨٩، وجهت القاعدة اهتمامها إلى أمريكا التى كان يحلو لأسامة أن يدعوها بـ"العدو البعيد"؛ ومن دواعى السخرية أن المخابرات المركزية بمساعدة جهاز المخابرات الپاكستانية "ISI" كانت تقوم بتمرير السلاح والدعم المادى للمجاهدين الأفغان ولحلفائها العرب مثل "بن لادن" بموجب المبدأ القديم "عدو عدوى صديقى". ولأن "بن لادن" كان يضع كل النوايا الغربية موضع الشك، فقد كان يعتبر نشر نصف المليون جندى أمريكى فى السعودية عشية عملية عاصفة الصحراء، دليلا على أن الكفار لديهم النية لاحتلال الأماكن المقدسة فى مكة، وعندما بقى كثير من أولئك الجنود على الأراضى السعودية بعد حرب الخليج الأولى كان ينادى بالجهاد. الراديكاليون الإسلاميون الذين كانوا يستلهمون "بن لادن" ضربوا ضربتهم الأولى فى "نيويورك سيتى" فى فبراير ١٩٩٣، عندما فجروا شاحنة ملغومة فى مرآب للسيارات أسفل مركز التجارة العالمى حيث قتل ستة أشخاص وأصيب أكثر من ألف آخرين. فى الوقت نفسه (مارس ١٩٦٩) خرجت "طالبان"، وهى جماعة من المتطرفين الإسلاميين تتطابق أفكارهم مع أفكار "بن لادن"، منتصرة من الحرب الأهلية التى اجتاحت أفغانستان بعد الانسحاب السوفيتى، الأمر الذى مكن "القاعدة" من تأسيس قاعدة دائمة لعملياتها فى "كابول". بعد ثلاثة

أشهر هزت قنبلة ضخمة زرعها أتباع "بن لادن" قاعدة جوية أمريكية بالقرب من الظهران بالسعودية لتقتل تسعة عشر جنديا أمريكيا. تصاعد العنف فى ٧ أغسطس ١٩٩٨ عندما فجرت عملية للقاعدة سفارات الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا لتقتل ١٢ أمريكيا وأكثر من مائتى أفريقى ممن كانوا بالقرب من مكان الحادث؛ وبالرغم من نفورهم من الاعتراف العلنى بذلك، كان كبار المسئولين فى إدارة "كلينتون" يعترفون سرا بأن كلا من "بن لادن" و"طالبان" كان أشبه بوحوش فرانكشتاين التى جاءت كنتاج، غير مقصود، لانحياز أمريكا للراديكاليين الإسلاميين المعادين للسوفيت فى السنوات الأخيرة من الحرب الباردة، وهى السياسة التى ثبت بأثر رجعى أنها كانت حاذقة أكثر مما ينبغى(٨).

وكان الأسوأ فى الطريق! ففى أكتوبر ٢٠٠٠ اصطدم انتحاريان ينتميان للقاعدة على متن زورق بخارى سريع ملىء بعبوات شديدة الانفجار بالمدمرة الأمريكية "USS Cole"، وهى فرقاطة صواريخ موجهة، كان يتم تزويدها بالوقود فى ميناء عدن عند مدخل البحر الأحمر وهو ما أحدث ثقبا ضخما فى بدن البارجة وخلف سبعة عشر قتيلا من جنودها، ثم حدث ما لم يكن يتصوره أحد فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١. وبينما كان يشاهد ألسنة اللهب والدخان المتصاعد من مركز التجارة العالمى، كان "بن لادن" يسمى مختطفى الطائرات الذين ينتمون للقاعدة، الذين قتلوا فى الهجوم، كان يسميهم شهداء أثبتوا أن الإسلام بالفعل عقيدة قتالية(٩). بعد ثلاثة أيام، وبعد خضوع إيمانه لتجربة صعبة تعهد "چورچ دبليو بوش" بأن تقوم أمريكا بالرد، مؤكدا بذلك أمرا، كان قليل من الأمريكيين هم الذين يمكن أن يتصوروه قبل خمس وخمسين سنة، عندما ولد رئيسهم الثالث والأربعين، وهو أن الشرق الأوسط سيصبح بؤرة الاهتمام الرئيسية للسياسة الخارجية الأمريكية لزمن طويل.

• حكاية قديمة: النفط وإسرائيل والأرض مقابل السلام

ربما كانت بعض جوانب أسلوب تناول إدارة "چورچ دبليو بوش" للشرق الأوسط بعد الحادى عشر من سبتمبر معروفة بالنسبة لـ"هارى ترومان" ومن جاؤوا

بعده...، مثل النفط؛ فعلى مدى نصف القرن كان صناع السياسة الأمريكيون وخبراء النفط يتعاونون من أجل ضمان وصول أمريكا إلى بترول الخليج الفارسي دون عقبات، ومما لا شك فيه أن قيام "الأوبك" في السبعينيات قد حول ميزان القوة من الشركات متعددة الجنسية إلى الدول المنتجة، وبالتالي توترت علاقات العمل بين واشنطن و"وول ستريت". بعد عشرين سنة بدأ نفوذ "الأوبك" يضعف، وذلك جزئيا بسبب تدفق كميات كبيرة من الخام من حوض قزوين، حيث كانت الأنظمة السوفيتية السابقة تبيع بأسعار أقل من منافسيها من الخليج الفارسي إلى خليج المكسيك، ما جعل الأسعار الحقيقية للنفط تنخفض إلى مستويات ما قبل ١٩٧٣، ومع تجربة حديثة ومباشرة لازدهار وأزمة الذهب الأسود في "وست تكساس" دخل "چورچ دبليو بوش" المكتب البيضوي مقتنعا تماما بأنه إذا كان الأمر يتعلق بالنفط، فإن المؤسسة الخاصة والسياسة العامة لابد أن تكونا منسجمتين معا وتمضيان معا.

"ديك تشيني" نائب الرئيس الذي انتقل في منتصف التسعينيات من "البنتاجون" إلى مجلس إدارة "هاليبيرتون"، وهي شركة متعددة الجنسية لخدمات النفط مركزها "هيوستن"، كان يشاركه الرأي نفسه كما كان مصرا على تطبيقه في الشرق الأوسط. قبل تسعة أشهر من ترشحه نائبا للرئيس شرح السبب: كان الطلب العالمي على النفط يرتفع بحدة بينما كان الاحتياطي الموجود بالفعل في تناقص مضطرد، كما قال أمام معهد البترول في لندن في أواخر ١٩٩٩، وهو ما كان يعني أننا "سنكون في حاجة إلى خمسين مليون برميل إضافي يوميا" في غضون عشر سنوات، "فمن أين سيأتي هذا النفط؟". "هاليبيرتون" وغيرها من الشركات العملاقة كان لديهم إجابة واحدة: "بينما تقدم مناطق كثيرة من العالم فرصا جيدة للنفط، يظل الشرق الأوسط بما يحتويه من ثلثي الاحتياطي العالمي وتكلفته الأقل هو المكان الذي توجد فيه الغنيمة في آخر الأمر"[١٠]. تقرير مستقبل الطاقة الأمريكية الذي أعده "تشيني" نائب الرئيس وعرضه على رئيسه الجديد في مايو ٢٠٠١ كان يوصي بأن تضع الإدارة الغنيمة نصب عينيها تماما؛ وبالرغم من أن الولايات المتحدة كان ينبغي أن تقلل اعتمادها على نفط الخليج الفارسي، والتعويل بدرجة أكبر على واردات من

وسط آسيا وغرب أفريقيا وأمريكا اللاتينية أو بالتنقيب فى المنطقة القطبية فى "ألاسكا"، فإن تقرير "تشينى" كان يتوقع أن تقدم السعودية والعراق وجيرانهما "بين ٥٤ و٦٧٪ من نفط العالم" بحلول عام ٢٠٢٠، وأن أفضل وسيلة لتقليل المخاطر التى تواجه الولايات المتحدة هى الضغط على المنتجين فى الشرق الأوسط "لفتح مجالات فى قطاعات الطاقة لديهم أمام الاستثمار الأجنبى" من خلال الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية[١١].

على نحو ما، كان استيلاء الأمريكيين على حقول النفط العراقية بعد عامين يبدو وكأنه يحقق توصيات "تشينى"، وبعد تردد شائعات عن قيام الحرب فى سبتمبر ٢٠٠٢ أعلن "أحمد الچلبى"، (العراقى المولد) المنفى الذى كان "الپنتاجون" يعده ليكون خليفة "صدام حسين"، أن "الشركات الأمريكية سيكون لها جرعة كبيرة من النفط العراقى"؛ أما "دونالد رمسفيلد – **Donald Rumsfeld**" وزير الدفاع فرد ساخرا من السياسات البترولية، مصرا على أن تغيير النظام فى بغداد "لا علاقة له البتة بالنفط"[١٢]، إلا أن تطورات الأحداث خلال الأسابيع الأولى من الحرب كانت توحى بأن إدارة "چورچ دبليو بوش" كانت تضع عينها بالفعل على ١١٢ بليون برميل خام موجودة تحت سيطرة "صدام حسين". كانت قلة قليلة هى التى لم تدرك أن واشنطن كانت أكثر اهتماما بحماية حقول النفط العراقية والمصافى منها بحماية المرافق العامة ووزارات الدولة أو الآثار القديمة؛ والأقل.. هم الذين أدهشهم أن يروا "هاليبيرتون" تتقدم الصفوف لتوقيع عقد قيمته نصف البليون دولار للبدء فى إعادة البنية التحتية النفطية العراقية، ولم يرف جفن أحد عندما أرسل البيت الأبيض "فيليب چى. كارول – **Phillip J.Carroll**" رجل النفط (من تكساس) إلى بغداد فى أواخر أبريل ليعمل مستشارا لوزارة النفط العراقية الجديدة. كان "كارول" ومن يستشيرونه يتوقعون أن يضخ العراق فى غضون شهرين ١,٥ مليون برميل خام يوميا، وهو ما يمثل ٦٠٪ من رقم ما قبل الحرب، وأن الناتج اليومى سيكون أكثر من ٣ ملايين برميل فى غضون ثلاث سنوات وأن معظمه سوف يصدر لتأمين تكلفة إعادة العمران بعد الحرب[١٣].

بحلول صيف ٢٠٠٣ على أية حال، كان إنتاج العراق من النفط حوالى ٩٠٠٠٠٠ برميل يوميا، بينما كانت الأسعار العالمية تتجه نحو الارتفاع. "فرانسيس بروك – Francis Brooke" المستشار البترولى والصديق القديم لـ"أحمد الچلبى" ألح دون تردد إلى أن المسئولين الأمريكيين إذا تحلوا بقدر قليل من الصبر فإن صادرات النفط العراقية بعد التوسع يمكن أن تكسر تكتل "الأوپك" الذى تسيطر عليه، معلنة مرحلة جديدة للزيت الرخيص؛ وكما قال لأحد الصحفيين فى بغداد فى ١٧ يوليو "لدينا حليف جديد فى الشرق الأوسط.. حليف علمانى.. حديث.. مؤمن بالسوق الحرة" و"لقد حان الوقت لكى يحل العراقيون محل السعوديين"؛ ولكن – حتى – كما تكلم "بروك"، كان المعادون للولايات المتحدة يعبئون أنفسهم فى أرجاء العراق، يهاجمون المصافى ويخطفون الناقلات وينسفون خطوط الأنابيب؛ والنتيجة هى أنه بعد ثلاث سنوات من سقوط "صدام حسين"، كان إنتاج العراق من النفط يقف عند ١,٩مليون برميل يوميا، أى أقل من التقديرات السابقة بنسبة ٤٠٪.

فى الوقت نفسه احتفظت الرياض بإنتاجها مستقرا عند ١٠,٥ مليون برميل يوميا وأوضحت أن طلب واشنطن رفع سقف الإنتاج الحالى كان لابد من أن يكون متوازنا مع الرفاهة المالية للأجيال القادمة من السعوديين؛ وعندما أدى ذلك إلى انطلاق الشائعات بأن السعوديين إما أنهم كانوا يبالغون فى حجم احتياطياتهم أو يسعون مرة أخرى لشن سلاح البترول عن طريق "الأوپك"، كان المسئولون السعوديون يتخذون موقفا صارما ويشيرون إلى شهية أمريكا المفتوحة دائما للنفط؛ وفى أغسطس ٢٠٠٥ كان "سداد الحسينى"، الذى كان وزيرا للنفط السعودى، يقول لأحد الصحفيين: "الكل يطلب من المنتجين أن يمدوا أصابعهم لإخراج الكستناء من النار"، وإنها "ليست مسئوليتنا أن نقول لحكومة منتخبة ديمقراطيا: عليك أن تفعلى شيئا من أجل مستهلكين سريعى التقلب"[١٥]. بدا المنتجون الآخرون أكثر استعدادا للتعاون، ففى ديسمبر ٢٠٠٥ أعلن المسئولون الكويتيون عن خطط لدعوة الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية للاستثمار فى "مشروع الكويت"، وهو شراكة لزيادة إنتاج الدولة من النفط، وعلى مدى سنة ٢٠٠٦ كانت إدارة "بوش" تشجع صغار المنتجين من أذربيجان

إلى اليمن على ضخ أكبر كمية ممكنة من الخام[16]. وبالرغم من ذلك كان سعر برميل النفط بحلول نوفمبر ٢٠٠٧، يقترب من ٩٠ دولارا، أى ثلاثة أضعاف ما كان عليه قبل سبع سنوات عندما رشح الحزب الجمهورى "چورچ دبليو بوش" للرئاسة، كما كانت أسعار الجازولين قد تخطت الثلاثة دولارات للجالون. ورغم الجهود الكبيرة التى بذلها تجار النفط الذين تحولوا إلى صناع سياسة فى واشنطن، كان الحصول على ضمان للوصول إلى نفط الخليج الفارسى بأسعار معقولة، أمرا بعيد المنال عما كان عليه فى أى وقت مضى.

مثل النفط، ظلت علاقة أمريكا الخاصة بإسرائيل ملمحا رئيسيا فى سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط فى عهد "چورچ دبليو بوش"؛ وبالرغم من أنه نادرا ما كان يسافر إلى الخارج قبل انتقاله إلى "١٦٠٠ پنسلڤانيا أڤنيو"، قام "بوش" بزيارة إسرائيل فى ١٩٩٨. خلال ثلاثة أيام حج فيها إلى الأرض المقدسة، انطلق دون تردد كأنه خارج من كتاب "مارك توين": "السذج خارج الوطن"، سار فى شوارع المدينة القديمة وتسلق التل فى الجليل "حيث ألقى المسيح موعظة الجبل"[17]؛ وبعد أن صحب زعيم تكتل الليكون "آرئيل شارون" فى جولة بالهليكوپتر فوق الضفة الغربية لمس فيها خطورة وضع الدولة اليهودية الجغرافى وسهولة مهاجمتها، كان يقول مازحا "لدينا فى تكساس طرق أوسع من هذه"[18]؛ وبعد ستة وعشرين شهرا وأثناء أول اجتماع لمجلس الأمن القومى فى عهده علق على احتمال أن يصبح "شارون" رئيسا للوزراء بقوله إنها أخبار طيبة، و"سوف نقوم بتصحيح عدم توازن الإدارة السابق فى الشرق الأوسط ليكون لصالح إسرائيل"، كما قال لكبار مستشاريه فى ٣٠ يناير ٢٠٠١.

خلال السنوات الست التالية سوف يثبت هذا الجمهورى القادم من تكساس أنه كان يعنى ما يقول، وبالرغم من أنه تناطح مع رئيس الوزراء "شارون" بعد أحداث الحادى عشر من سپتمبر مباشرة، سرعان ما عاد ليعتبر إسرائيل حليف الولايات المتحدة الأهم فى الحرب على الإرهاب. كانت إسرائيل دائما متلهفة على تبادل

المعلومات الاستخباراتية عن تنظيم القاعدة مع واشنطن، كما أبلغ المسئولون الإسرائيليون البيت الأبيض أن بعض قيادات "حماس"، الحركة الإسلامية الراديكالية في غزة والضفة الغربية، كانوا يعتبرون "أسامة بن لادن" بطلا بعد هجومه الجوى على الولايات المتحدة. وعندما هزت إسرائيل موجة من هجمات الانتحاريين الفلسطينيين في ربيع ٢٠٠٢ وأجبرت "شارون" على الرد بغارات انتقامية، رفض "بوش" أن يدين مرشده السياحي القديم؛ في الوقت نفسه كانت استطلاعات الرأى تكشف عن تزايد التأييد للدولة اليهودية بين الشعب الأمريكي الذى وضع "حماس" مع "القاعدة" في سلة واحدة؛ وحيث إن أسلوب "شارون" المدوى في التعامل مع الإرهاب كان له صدى جيدا في واشنطن، فسوف تظل إسرائيل تتلقى معونات اقتصادية وعسكرية تزيد في المتوسط عن ٣ بلايين دولار سنويا خلال فترة إدارة "چورچ دبليو بوش"، وهو أكثر مما كانت تحصل عليه أى دولة أخرى[٢٠].

والحقيقة أن مساعدات الولايات المتحدة لإسرائيل لم يسبق أن كانت بمثل هذا الاتساع والعمق الذى شهدته بداية الألفية الجديدة؛ في "كابيتول هيل" كان الديمقراطيون يؤكدون دعمهم التقليدى للحلم الصهيونى بينما كان الجمهوريون يوثقون علاقاتهم باليمينيين البروتستانت عن طريق تبنى جماعات مثل "المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل" الذين كانوا يصفون الدعم الأمريكى للدولة اليهودية بأنه "السياسة الخارجية للرب"[٢١]، كما كانت شبكة متكاملة من الجماعات الداعمة لإسرائيل وجماعات الخبراء المرتبطة بعلاقات قوية بالمسئولين في البنتاجون والخارجية الأمريكية تساعد لكى تكون آراء "شارون" وخليفته "أولمرت" مسموعة في واشنطن[٢٢]. وعندما أرسل رئيس الوزراء "أولمرت" قوات ودبابات وطائرات حربية إلى لبنان في يوليو ٢٠٠٦ للقضاء على "حزب الله"، وهو جماعة شيعية راديكالية مدعومة من إيران، رفضت "كوندوليزا رايس – **Condoleeza Rice**" وزيرة الخارجية أن تدين العمل الإسرائيلى ووصفت سفك الدماء الناجم عن ذلك بأنه "مخاض شرق أوسط جديد"، كما قالت للصحفيين إنها كانت "متعاطفة مع ما يقوم به الإسرائيليون". كان دعم واشنطن الصريح ملحوظا في إسرائيل، حيث بقى "چورچ دبليو بوش" يحظى بشعبية

أكثر من أى رئيس أمريكى منذ "ليندون چونسون" [القادم من تكساس مثله] قبل أربعين عاما، ولعل "زالمان شوڤال – Zalman Shoval"، الذى عمل سفيرا لإسرائيل فى واشنطن أثناء حرب الخليج الأولى، هو أفضل من عبر عن ذلك عشية حرب لبنان القصيرة فى ٢٠٠٦ عندما قال إن "چورچ دبليو بوش" "ربما يكون أكثر الأصدقاء مودة فى تاريخنا"(٢٣).

وبالرغم من علاقة أمريكا بالدولة اليهودية، كانت شعبية "بوش" الشخصية فى القدس وتل أبيب تمر بفترات صعبة أثناء فترة إدارته الأولى بسبب خلافات حول أفضل السبل لحل الصراع الإسرائيلى الفلسطينى. ومثل كل من سبقوه منذ "هارى ترومان"، كان "چورچ دبليو بوش" يضع صيغة "**الأرض مقابل السلام**" فى القلب من سياسته فى الشرق الأوسط؛ وبحلول صيف ٢٠٠٣ سيأخذ ذلك شكل "خريطة طريق من أجل السلام" تربط بين إنهاء الإرهاب الإسرائيلى والتجميد الكلى لنشاط الاستيطان الإسرائيلى، إلا أن شارون بعد أن أصبح رئيسا للوزراء فى أوائل ٢٠٠١، شجع المستوطنين اليهود على بناء مراكز حدودية جديدة فى الضفة الغربية وبخاصة فى المناطق ذات الأهمية الاستراتيچية شرق القدس؛ ولأنه لم يكن على استعداد لقبول خريطة طريق "بوش" لأنها كانت تدعو لوقف نشاط الاستيطان، رد باقتراح صفقة "حاذقة" للأرض مقابل السلام من اختراعه، تجمع بين فك اشتباك إسرائيلى من جانب واحد والخروج من غزة، وإكمال حاجز أمنى جديد يضم أجزاء رئيسية من الضفة الغربية الفلسطينية لإسرائيل.

ولأن "چورچ دبليو بوش" كان مقتنعا بأن دويلة فى غزة تكون متصلة بالمقاطعات الفلسطينية فى الضفة الغربية يمكن أن تكون أفضل من لا شىء، بعث فى أواخر ٢٠٠٣ برسالة إلى "شارون" تحتوى على تفاصيل ذلك؛ ففى مقابل الانسحاب فى غزة وتفكيك مستوطنات الضفة الغربية التى لا يتجاوز عمرها ثلاث سنوات يمكن أن تحتفظ إسرائيل بمراكز سكانية رئيسية عديدة بالقرب من القدس، ولن تكون فى حاجة – حتى – إلى مناقشة أى عمليات انسحاب أخرى من الأراضى الفلسطينية إلى

أن تنتهى كل أشكال الإرهاب. "دوف ويزجلاس – Dov Weisglass"، كبير المفاوضين فى فريق "شارون" أوضح فحوى ذلك فى أكتوبر ٢٠٠٤ عندما قال لأحد الصحفيين "إن فك الاشتباك أشبه بغاز الفورمالديهايد، عديم اللون نافذ الرائحة، وهو يعطى شرعية لتمسكنا بعدم التفاوض مع الفلسطينيين... وإلى أن يصبحوا فنلنديين!"(٢٥)؛ بعد شهر، مات "ياسر عرفات" ليخلفه رئيسا للسلطة الفلسطينية "محمود عباس"، الذى فاجأ الجميع بإبداء الرغبة فى "تعلم الفنلندية"، وسرعان ما بدأ "شارون" و"ويزجلاس" اختبار صلابة واستقلالية الرئيس الجديد. فى يناير ٢٠٠٥ سأل صحفى أمريكى أحد ضباط المخابرات الإسرائيليين رأيه فى عباس فقال: "عفوا! أعتقد أن لديه حبتا زيتون.. وليس خصية!".

بمساعدة وتشجيع من واشنطن سرعان ما أظهر "عباس" كان لديه الاثنان، ففى غضون الأشهر القليلة التالية كانت قوات الأمن الفلسطينية قد استعادت النظام بالتدريج فى الضفة الغربية كما قل عدد العمليات الانتحارية وأعلن "عباس" عن خطط لانتخابات برلمانية، كان المسئولون الأمريكيون يتوقعون أن تفوز فيها "فتح" على "حماس"؛ وفى الوقت نفسه كانت إدارة "بوش" تعمل من أجل الإبقاء على خطة فك الاشتباك قائمة وانتقدت "شارون" عندما ألمح إلى أن إسرائيل قد تتمدد فى الضفة الغربية وأشادت به عندما انسحب من غزة فى أغسطس ٢٠٠٥ كما كان مقررا. تطوران غير متوقعين، على أية حال، أخرجا قطار السلام عن مساره، ففى – يناير ٢٠٠٦ أصيب "شارون" بسكتة دماغية خطيرة ليخلفه رئيسا للوزراء اليمينى المتطرف "إيهود أولمرت"، وبعد ثلاثة أسابيع خسر "عباس" و"فتح" الانتخابات أمام "حماس" ليصبح الراديكالى الإسلامى المعارض لحق إسرائيل فى الوجود "إسماعيل هنية"، رئيسا للوزراء. خلال ٢٠٠٦ وفى ٢٠٠٧ سيدخل فدائيو "حماس" فى معارك عدة مع ميليشيات "فتح"، ويطلقون صواريخ "القسام" على الأراضى الإسرائيلية، وفى ١٧ يونيو سيجبر "عباس" رئيس السلطة الفلسطينية، "إسماعيل هنية" رئيس الوزراء على الاستقالة، ويتخلى عن السيادة على غزة لـ"حماس"، ويطلب من "فتح" تشكيل حكومة جديدة فى الضفة الغربية؛ وفى منتصف سبتمبر ستطير وزيرة الخارجية

الأمريكية "كوندوليزا رايس" إلى الشرق الأوسط لتبلغ "عباس" و"أولمرت" بأن الجالس في المكتب البيضوى كان ما زال مقتنعا بأن صيغة "**الأرض مقابل السلام**" هى مفتاح الحل للصراع الإسرائيلى العربى، أما ما إذا كان المستمعان إليها من الرأى نفسه... فقد بقى ذلك سؤالا مفتوحا.

• حكاية جديدة: الخطر الأخضر وتسونامى الديمقراطية والحرب الوقائية

بالرغم من أن بعض سياسات "چورچ دبليو بوش" كانت تعتبر أخبارا قديمة (مثل اهتمامه بنفط الخليج الفارسى وصداقته لإسرائيل وإيمانه بحل الأرض مقابل السلام)، فإنه كان يعتقد أن سقوط الاتحاد السوڤيتى إبان فترة إدارة والده يعنى أن أمريكا قد استطاعت فى النهاية أن تتخلى عن سياسة الاحتواء لصالح أسلوب تعامل جديد مع الشرق الأوسط، وبينما كان "بيل كلينتون" يصارع فى التسعينيات لكى يعيد النظام لعالم غارق فى الفوضى تدمره الصراعات الدينية والعرقية، كان المراقبون يستشفون دلائل على أن "خطرا أخضر" جديدا [الإسلام الراديكالى] كان يحل محل "الخطر الأحمر" السابق [الشيوعية العالمية]، وهو الخطر الذى كان يؤرق كل رؤساء الولايات المتحدة من "هارى ترومان" إلى "رونالد ريجان". كان "چورچ دبليو بوش" قد ألمح بطريقته الرمزية المستفزة فى يناير ٢٠٠٠ إلى "تغير لون الخطر" عندما توقف فى "أيوا" أثناء حملته الانتخابية، يومها قال المرشح للرئاسة "عندما نشأت كان العالم خطرا، وكنتم تعرفون من "هم" بالتحديد، كنا نحن ضد**هم**، وكان واضحا من "**هم**"، اليوم نحن لسنا متأكدين من أولئك الـ"**هم**"... وإن كنا نعرف أن"**هم**" هناك"[٢٨].

على مدى عقد تقريبا، كانت هناك مجموعة من أصحاب الصوت العالى من كبار مراقبى شئون الشرق الأوسط يتنبأون بـ"صدام حضارات" بين الإسلام وأمريكا يمكن أن يجعل خصومه "نحن ضد"هم"" بين موسكو وواشنطن تبدو هينة بالمقارنة؛ ونتيجة قلقه لأن إدارة "كلينتون" كانت تعطى أهمية أكبر للعولمة الاقتصادية والقليل للأصولية الإسلامية، نشر عالم هارڤارد السياسى "صمويل پ هنتنجتون – **Samuel P.Huntington**" مقالا بعنوان "صدام الحضارات" فى ١٩٩٣ فى أحد أعداد "فورين

أفيرز" الواسعة الانتشار يقول فيه إن الثقافة قد أصبحت أهم من الاقتصاد والأيديولوچيا عشية الألفية الجديدة، وأن "العقيدة والأسرة والدم والإيمان هى ما يعرف الناس أنفسهم به وهو ما سوف يحاربون ويموتون من أجله" كما قال فى مقال لاحق، "وذلك هو الذى يجعل صدام الحضارات يحل محل الحرب الباردة كظاهرة مركزية فى السياسة الكونية"(٢٩) بعد عامين أفاض "هنتنجتون" فى شرح هذه الأفكار لتصدر فى كتاب أصبح من أكثر الكتب مبيعا. يقول المؤلف "أينما اتجه المرء ببصره على امتداد حدود الإسلام يجد هناك مشكلات فى أن يعيش المسلمون فى سلام مع جيرانهم، كما يشير وعينه على الصراع الحديث الممتد من جنوب شرق أوروبا إلى آسيا الوسطى إلى أن "حدود الإسلام دموية وكذلك الأحشاء"(٣٠). مرددين صوت "هنتنجتون" هب أكاديميون من المحافظين الجدد مثل "دانيل پايپس – **Daniel Pipes**" لوصف الإسلام الراديكالى بأنه آخر وأخطر الأيديولوچيات الشمولية التى ظهرت فى القرن العشرين واتهموا إدارة كلينتون بالمهادنة بسبب تفاوضها مع راديكاليين عرب مثل عرفات(٣١).

"برنارد لويس"، مؤرخ برنستون الذى كان أول من سك مصطلح "صدام الحضارات" فى مقاله الأساسى "جذور الغضب الإسلامى"، قدم صورة أكثر وضوحا عن ذلك "الخطر الأخضر" الذى كان يلوح فى الأفق، وذلك على صفحات "فورين أفيرز" فى أواخر ١٩٩٨، حيث كان مقاله القصير "رخصة بالقتل" يتضمن ترجمة لبعض ما جاء فى إعلان "أسامة بن لادن" عن "الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين". مستدعيا شبح حرب حضارات، كان "بن لادن" يزعم أن القوات الأمريكية الموجودة، آنذاك، فى السعودية، هم بالفعل صليبيو العصر الذين يحتلون وينهبون أكثر الأماكن الإسلامية قداسة ويذلون ملايين المسلمين. "برنارد لويس" ترجم سطور "بن لادن" التى تصيب المرء بالقشعريرة على النحو التالى: "إن قتل الأمريكيين وحلفاءهم سواء كانوا من المدنيين أو العسكريين فرض عين على كل مسلم قادر، إلى أن ترحل جيوشهم مدحورة مكسورة من أرض الإسلام عاجزة عن تهديد أى مسلم". وبالرغم من اعتراف "لويس" بأن المسلمين لم يكونوا كلهم يؤيدون رخصة "بن لادن"

بالقتل، فإنه كان مصرا على أن "الخطر حقيقى"، لأن الإرهاب فى نظره "ليس فى حاجة سوى لقلة وعلى الغرب أن يحمى نفسه بكل الوسائل الممكنة"(٣٢).

أما بالنسبة لـ"چورچ دبليو بوش"، فلم تكن هجمات الحادى عشر من سپتمبر سوى تأكيد لدقة تقديرات "هنتنجتون" و"پايپس" و"لويس"، وكان رد فعله السريع هو شن حرب دينية، ومتعهدا أن "يخلص العالم من الأشرار" قال "چورچ دبليو بوش" للصحفيين فى ١٦ سپتمبر إن "هذه الحملة الكاسحة، هذه الحرب على الإرهاب سوف تستغرق وقتا"، والحقيقة أن الرئيس كان مترددا أن يطرح نفسه بشكل علنى باعتباره "صليبيا" ولكنه فى قرارة نفسه كان مصمما على الضرب بشدة كما قال يوم تدمير البرجين(٣٣). الضربة الأولى جاءت فى أوائل أكتوبر عندما ضربت الطائرات العسكرية أفغانستان بعد أن رفضت "طالبان" إنذار "بوش" بطرد القاعدة. وبعد أن أدان "بن لادن" الأمم المتحدة لدعمها الحرب الأمريكية الجوية ضد مضيفيه الأفغان ودعا إلى "الجهاد العالمى"، كان "طوبى جاتى – Toby Gati" الرئيس السابق لمكتب الاستخبارات والبحوث بالخارجية الأمريكية يعتقد أن القاعدة كانت قريبة من الحصول على ما تريده – معركة حامية الوطيس بين الإسلام والغرب، وقال فى ٩ نوفمبر: "..وهذا يدعم اعتقادى بأننا نقوم بالفعل الصحيح عندما نضربه بالقنابل، لأننا إذا كنا لا نريد لذلك أن يكون حرب حضارات، فعلينا إذن أن نتخلص من شخص كله إصرار على أن يجعلها كذلك"(٣٤).

العسكرية الأمريكية قضت على نظام "طالبان" الذى سقط قبل عيد الشكر، لتحل محله حكومة موالية للغرب برئاسة "حميد كرزاى"، أما تخليص العالم من القاعدة وقائدها فقد اتضح أنه أكثر صعوبة، وبعد اقتفاء أثر "أسامة بن لادن" لعدة سنوات كان "البنتاجون" ووكالة المخابرات المركزية فى البداية يتوقعون نتائج سريعة. كان "كوفر بلاك – Cofer Black"، رجل المخابرات المركزية يقول لكل من يستمع إليه فى الأيام التالية لهجمات الحادى عشر من سپتمبر "أحضروا بن لادن، لابد من أن تجدوه... أريد رأسه فى صندوق... عندما ننتهى منه سيفقدون الرؤية"(٣٥). كان زعماء

القاعدة مستكنين فى كهوف حصينة فى تلك المناطق المجهولة شرقى أفغانستان قبل تسللهم عبر الحدود الباكستانية فى ديسمبر ٢٠٠١، وعندما سئل جندى أمريكى فى كابول بعد خمسة أشهر عن مكان "أسامة بن لادن" كان يقول: "إنه أشبه بالجن..! هنا! هناك! ميت! حى! لا أحد يعرف"[٣٦] بكل جراءة، كان "پول وولفوڤيتز – Paul Wolfowitz" نائب وزير الدفاع وأحد أبرز المحافظين الجدد الذى يعتبر كلا من "برنادر لويس" و"صمويل هنتنجتون" من بين أصدقائه، كان مصمما على أن إدارة "بوش" سوف تهزم "الخطر الأخضر" بالأسلوب نفسه الذى هزمت به "الخطر الأحمر" فى جنوب شرق آسيا إبان الحرب الباردة؛ حيث قال أمام إحدى لجان الكونجرس فى ٢٦ يونيو ٢٠٠٢ "القاعدة ليست حية يمكن قتلها بقطع رأسها، إنما هى أشبه بمرض استشرى فى أجزاء كثيرة من جسد سليم" و"عزمنا ليس مجرد حرمان الإرهابيين من ملاذ آمن فى أفغانستان حيث يمكنهم التخطيط والتدريب وتنظيم أنفسهم فى أمان، هدفنا أيضا هو أن نمسك بالإرهابيين... وأن نقتلهم... وأن نجفف ذلك المستنقع الذى يتكاثرون فيه"[٣٧]، وفى النهاية سوف تتمكن المخابرات المركزية من الإمساك بعشرات الأفراد من القاعدة وقتلهم، ولكن المستنقع كان كبيرا؛ وبالرغم من تبجح "وولفوڤيتز"، كان "أسامة بن لادن" بعد خمس سنوات ما زال يصدر نداءاته عبر أشرطة الڤيديو داعيا للجهاد ضد أمريكا.

فى الوقت نفسه كانت تجتاح الولايات المتحدة موجة "ذعر أخضر" مضادة للمسلمين، أقوى مما كانت عليه موجة "الذعر الأحمر" فى سنوات الحرب الباردة. كانت هناك إجراءات صارمة لتفتيش العرب فى المطارات وغيرها من الأماكن، ومراقبة مستفزة لمشاعر المسلمين فى طول البلاد وعرضها، وصفارات إنذار متكررة عند أدنى شك أو اشتباه... كل ذلك كان يثير الخوف العام من حدوث أعمال تخريبية على نحو لم يحدث منذ الخمسينيات. بعد ستة أسابيع من أحداث الحادى عشر من سبتمبر نشر "ستيڤن إمرسون – **Steven Emerson**"، أحد الخبراء بشئون الأصولية الإسلامية، تقريرا مرعبا بعنوان "الجهاد الأمريكى"، يدعى فيه أن "القاعدة" والجماعات المشابهة كانت قد شكلت مئات المنظمات الأمامية من نيويورك سيتى إلى

لوس أنجلس[٣٨]؛ ومن جانبه كان "دانييل پايپس" يذكر القراء بأن قانون "ماكارين – وولتر: McCarren - Walter"، وهى من بقايا هستريا فترة العداء للشيوعية، كان ما زال موجودا، ويمكن استخدامه لتبرير اعتقال الأمريكيين المسلمين أثناء فترات الطوارئ العامة[٣٩]. إدارة "چورچ دبليو بوش" أحجمت عن استخدام هذه الصلاحيات الطارئة، ولكن وزارة العدل ووزارة الأمن الداخلى – التى أنشئت حديثا – كانتا تستخدمان "قانون پاتريوت" بافتئات شديد، مع التلويح بشبح الإرهاب الإسلامى كلما علت الأصوات القلقة على انتهاك الحريات المدنية.

مع نشر كتاب "نورمان پدهورتز – Norman Podhoretz" "الحرب العالمية الرابعة"، فى الذكرى السادسة لهجمات الحادى عشر من سپتمبر، أخذ الخطر الأخضر الجديد اسما لافتا هو "الفاشية الإسلامية". "پدهورتز" وهو أحد الآباء المؤسسين لنزعة المحافظة الجديدة (وتضم قائمة تلاميذه أسماء مثل طستيفن إمرسون" و"دانييل پايپس")، قدم وصفة فجة لدحر الراديكاليين الإسلاميين فى الداخل والخارج وذلك فى سبتمبر ٢٠٠٧. على الأمريكيين أن يبدأوا "بتحديد العدو وهو الفاشية الإسلامية" ولابد من أن يقبلوا "أن يأخذ هذا الصراع ضد ذلك العدو الغامض اسم الحرب العالمية الرابعة"، ولابد من أن "يمنحوا البيت الأبيض كل الصلاحيات وكل ما هو ضرورى لتحقيق الانتصار فيها"[٤٠]. كان صدى رسالة "پدهورتز" جيدا لدى "بوش" الذى كان قد امتدح إسرائيل قبل عام لتوجيهها ضربة لحزب الله و"الفاشية الإسلامية" فى لبنان، وكان مصرا على أن "جزءا من التحدى الذى يواجهنا فى القرن العشرين هو أن نُذَكِّر الناس بأن فى وقت الهدوء ما تزال هناك جماعة إسلامية فاشية تتآمر وتخطط وتحاول أن تنشر أيديولوچيتها"[٤١].

كان هناك مراقبون آخرون، على أية حال، يقلقهم أن تصبح الحرب على الفاشية الإسلامية نبوءة بتحقيق الذات؛ فـ"كولن پاول" الذى عمل وزيرا للخارجية أثناء فترة إدارة "بوش" الأولى مثلا، كان صريحا عندما قال لأحد الصحفيين فى ربيع ٢٠٠٧ "انظر! لقد كانت أحداث الحادى عشر من سپتمبر صدمة شديدة بالنسبة لنا،

ولكن الحرب الباردة انتهت وكل اللاهوتيات والأيديولوچيات التى كانت ستحل محل ما لدينا قد انقضت.... الشيوعيون... الفاشيون... لنكن جادين! الأنظمة السلطوية القليلة المتبقية لا قيمة لها" وبعد أن ذكر ڤنزويلا وكوبا وبيلاروسيا، أضاف "پاول": "من المستحيل أن نترك الإرهاب لكى يصبح فجأة بديلا للصين الحمراء والاتحاد السوڤيتى كعدو يطوقنا؛ ذلك الكيان الإسلامى المتطرف الممتد من مكان ما فى موريتانيا إلى المسلمين فى الهند، كلهم مختلفون، لن يكون الأمر على ذلك النحو"(٤٢)؛ إلا أنه مع اقتراب فترة إدارة "بوش" من نهايتها كانت دعوة "بدهورتز" للسلاح تبدو هى الأرجح من كلمات "پاول" الحذرة.

كانت الخطوة الأولى نحو هزيمة الفاشية الإسلامية هى جعل ترسيخ الديمقراطية فى العالم الإسلامى ملمحا رئيسيا فى مبدأ الأمن القومى الجديد الذى ظهر فى واشنطن "بوش". "نورمان پدهورتز" سوف يعبر عن ذلك على النحو التالى فى كتابه "الحرب العالمية الرابعة": "الذين يؤيدون منا مبدأ "بوش" يعتقدون أن هذه الحالة - جعل الشرق الأوسط أمنا للديمقراطية لكى يكون أمنا بالنسبة للولايات المتحدة - لا يقبلون الجدل تقريبا"(٤٣). قبل عشر سنوات كان "پدهورتز" قد ساعد فى تأسيس مشروع القرن الأمريكى الجديد وهو جماعة من المفكرين من المحافظين الجدد، كانت أچندتهم تتضمن تصدير الديمقراطية للشرق الأوسط، وكان إعلان مبادئها قد وقعه كل من "ديك تشينى" و"دونالد رمسفيلد" و"پول وولفوڤتيز" وآخرون ممن سيقبلون فيما بعد مناصب مهمة فى إدارة "بوش"(٤٤). هذه المجموعة من المفكرين استدعت إرث "وودرو ويلسون"، الذى كان تعهده "أن يجعل العالم مهيئا للديمقراطية" قد حفز دعم الكونجرس للحرب فى سنة ١٩١٧، و"هنرى آر. لوس- Henry R.Luce" محرر مجلة "تايم" الذى كان قد تنبأ فى ١٩٤١ أنه بالانضمام إلى الحملة الديمقراطية ضد الفاشية، فإن الولايات المتحدة تعلن عن بدء "قرن أمريكى" بعد الحرب. الحقيقة أن أهداف مشروع القرن الأمريكى الجديد كان يمكن أن يكتبها "ويلسون". أو "لوس"، وفى ١٩٧٧ أكد "پدهورتز" وزملاؤه أن الأمريكيين ليسوا فى حاجة فقط إلى "تقوية علاقاتنا بحلفاء ديمقراطيين وتحدى الأنظمة المعادية لمصالحنا وقيمنا"، وإنما لابد لهم

أيضا من "رعاية قضية الحرية السياسية والاقتصادية فى الخارج" وبخاصة فى الشرق الأوسط[٤٥].

إلى حد ما، كان مشروع القرن الأمريكى الجديد رجع صدى لسياسات سابقة فى المنطقة، حيث كان المسئولون الأمريكيون على مدى أكثر من أربعين سنة يضغطون فى اتجاه الإصلاح السياسى والتنمية الاقتصادية والتحديث الاجتماعى بهدف تحصين الأنظمة الإسلامية الموالية للغرب ضد التغيير الثورى، وكانت جماعة المفكرين الجدد الذين أفرزتهم مدرسة المحافظة الجديدة من أوائل الذين مهدوا السبل أمام فكرة أن المصالح الأمريكية يمكن حمايتها أحيانا بتصدير الديمقراطية على فوهات المدافع إلى أماكن مثل العراق. كان "پول وولفوڤيتز" واحدا من أبرز مؤيدى إسقاط "صدام حسين"، وكثيرا ما كان يتحسر على فشل واشنطن فى فرض تغيير النظام فورا بعد حرب الخليج الأولى فى ١٩٩١، عندما كان العراق يبدو مؤهلا للديمقراطية، وبعد إحدى عشرة سنة كان "وولفوڤيتز" يقول فى الذكرى الأولى لأحداث الحادى عشر من سپتمبر "حتى إذا لم يكن العراق مؤهلا لديمقراطية من طراز ديمقراطية "چيفرسون" فإن إسقاط ذلك المستبد البعثى فى بغداد يمكن أن يكون إشارة مهمة للمنطقة بأسرها، "وأعتقد أن ذلك إذا كان مهما بالنسبة للعراق، فإنه سيلقى بظل كثيف بداية على كل من سوريا وإيران ثم على كل العالم العربى فى اعتقادى"[٤٦]؛ فى "١" أكتوبر ٢٠٠٢ سوف تضع "كوندوليزا رايس" هذا الرأى فى إطار أكثر شمولا "نحن لا نريد أن نفرض الديمقراطية على الآخرين، فرؤيتنا للمستقبل ليست أن يتناول كل فرد ساندوتشات "ماكدونالدز" ويشرب الكوكاكولا أو أن يكون لكل دولة تشريعا من مجلسين به ٥٢٥ عضوا"، كما قالت أمام مجلس العلاقات الخارجية، مؤكدة أن إدارة "چورچ دبليو بوش" إنما كانت تريد فقط "المساعدة فى خلق الظروف التى يستطيع أن يطالب الناس فيها بمستقبل أكثر حرية لأنفسهم". كانت "رايس" تتطلع إلى "الوقوف يوما ما مع هذه الطموحات فى عراق حر موحد"[٤٧]. قبل أيام قليلة كان "دونالد رمسفيلد" قد أسس مكتبا للمشروعات الخاصة فى "الپنتاجون" برئاسة "دوجلاس فيث – Douglas Feith" وكيل الخارجية، الذى كان يعمل على نحو وثيق مع

عراقيين في المنفى مثل "أحمد چلبي" و"على علاوى" لضمان أن تصبح رؤية "رايس" واقعا عاجلا وليس آجلا. "علاوى"، الذى سيشغل منصب وزير الدفاع في أول حكومة عراقية بعد "صدام" يتذكر أن الرجل الذى كان البنتاجون قد وضع العين عليه لابد من أن تكون لديه "المؤهلات الخاصة بشخص مكلف بتقرير مصير دولة عربية"، كما كان يساوره قلق خاص بسبب علاقة "فيث" الوثيقة بحزب "الليكود" الإسرائيلي، وحسب ما يقول [علاوى] فإن "فيث" كان يحمل معه صيغة متطرفة للجمعيات المحافظة الجديدة المعتادة مع مؤسسات ذات سياسات يمينية، واقتناعا ثابتا بأن "نظام ما بعد الحادى عشر من سبتمبر كان يقدم للولايات المتحدة فرصة فريدة لتغيير المشهد السياسي في الشرق الأوسط "الأكبر"، أى جميع الدول بين المغرب وباكستان"(٤٨). كان أبرز حلفاء "فيث" بين المنفيين "كنعان مكية"، الذى كان قد فضح جرائم نظام البعث قبل حرب الخليج الأولى مباشرة في كتابه "جمهورية الخوف" الذى تم نشره باسم مستعار لحماية المؤلف من بطش أجهزة "صدام" الأمنية، وبعد أن استمع إلى "مكية" يقول لخبراء البنتاجون في الأسابيع الأولى من ٢٠٠٣، إن تغيير النظام في العراق سوف يطلق العنان لسلسلة من التداعيات الديمقراطية في المنطقة، كان "پول وولفوفيتز" [رئيس "فيث"] يشبه ذلك بسقوط الإمبراطورية السوفيتية، ويتوقع أن يصبح الشرق الأوسط بعد "صدام" أشبه بـ"أوروبا الشرقية.... على الطراز العربي"(٤٩).

على الشاطئ الآخر من "پوتوماك" كانت الخارجية الأمريكية في "فوجى بوتوم" تستكمل مشروعها "الخاص بمستقبل العراق"، الذى سيصل إلى نتائج مختلفة تماما؛ فمنذ نوفمبر ٢٠٠٢ كان "ريتشارد هاس – **Richard Haass**" أحد أقرب مستشارى "كولن پاول" وزير الخارجية قد أشار إلى ضرورة أن يكون الأمريكيون على بينة مما يريدون، إذ "ينبغى ألا يخلط أحد بين تنمية الديمقراطية والانتخابات البرلمانية التى كانت ستجرى في اليوم التالى، والتى قد يفوز فيها الإسلاميون"(٥٠). وفي مارس ٢٠٠٣ كانت "لوس أنجلس تيمز" قد حصلت على نسخة من تقرير سرى للخارجية الأمريكية كان عنوانه يقول كل شىء "العراق والشرق الأوسط والتغيير: لا دومينو"، كان قد أعده "واين وايت – **Wayne White**" نائب مدير مكتب الاستخبارات والبحوث

فى "فوجى بوتوم". كان التقرير يحذر بأنه "قد يكون من الصعب تحقيق الديمقراطية الليبرالية" فى بغداد، كما أنها "يمكن أن تكون عرضة للاستغلال من قبل العناصر المعادية لأمريكا"، ولم تكن الاستنتاجات التى توصل إليها التقرير غير عادية إلى حد كبير"، كما قال "وايت" بعد ثلاث سنوات، لأن الدبلوماسيين الأمريكيين كانوا دائما على علم بأن "شعوب المنطقة كانت (..وما زالت) فى غالبيتها معادية لأمريكا ولإسرائيل، وذات توجهات إسلامية متشددة أكثر من حكوماتها"؛ وكان ذلك يعنى أنه "حتى الجهد الناجح فى العراق عسكريا وسياسيا لن يفشل فقط فى إطلاق تسونامى ديمقراطى فى المنطقة، بل ربما يعرِّض حلفاء أمريكا الدائمين فى الشرق الأوسط، مثل الأردن، للخطر وليس الحكام المستبدين المعادين للولايات المتحدة[٥١].

على أن تحذير "وايت" تم إحباطه بسبب جوقة عالية الصوت صاحبة خطاب نزاع للحرب، يقودها صقور من أمثال "توماس بارنت – Thomas Barnett" وهو أحد الأعضاء البارزين الذين يحظون بثقة "رمسفيلد"، والذى كان مقاله الطويل "خريطة البنتاجون الجديدة" قد ظهر على صفحات "اسكواير" قبل أيام قليلة من غزو العراق. مصرا على أن إسقاط "صدام حسين" "لم يكن فقط ضروريا وحتميا، وإنما أمرا جيدا كذلك"، كان "بارنت" يرى أن "الشىء الوحيد الذى سوف يغير تلك البيئة الرديئة ويفتح الباب على مصراعيه للتغيير هو أن تتقدم قوة خارجية وتقوم بدور "اللوياثان" طوال الوقت". واصفا العراق بأنه "يوغوسلافيا الشرق الأوسط" كان يتوقع ألا يكون هذا العمل بسيطا، مثلما يحدث فى حال العناية بالأطفال فى غياب ذويهم، ويجعل جهودنا الممتدة فى ألمانيا واليابان بعد الحرب تبدو بسيطة مقارنة به"[٥٢]. بعد عام، طور "بارنت" هذه الأفكار لتصبح كتابا رائجا، قدم فيه تكهنات أكثر بلادة. كان يقول "لا يكفى أن تقول إدارة "بوش" إن اهتمامنا الاستراتيجى مركز على "قوس عدم الاستقرار" الممتد عبر الأراضى التى تسودها أغلبية مسلمة فى شمال أفريقيا والخليج الفارسى وآسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا" وإن "أمريكا فى حاجة إلى أن تفهم الصراع الكونى الأكبر الذى نكون طرفا فيه عندما نريد أن نحول العراق من "نظام مارق" إلى نموذج لدولة عربية ديمقراطية، إنه صراع طويل بين من يريدون أن يروا

مجتمعات مفككة مثل نظام "صدام" فى العراق تلحق بمجتمع كونى فى إطار العولمة، وأولئك الذين يستخدمون كل ما لديهم من عنف لمنع هذه المجتمعات من أن تصبح - كما يخيل لهم - مُستوعَبَة فى "إمبراطورية اقتصادية كونية دنسة" تتسيدها الولايات المتحدة"[٥٣].

بالرغم من عجرفة "بارنت" ورطانته البليدة، سرعان ما كشف الصراع الدموى فى العراق عن أن نظرية الديمقراطية الأمريكية وواقع الشرق الأوسط السياسى كانا عالمين منفصلين بالفعل، فالمحافظين الجدد سواء داخل أو خارج إدارة "بوش" ظلوا ملتزمين تماما بتصدير الديمقراطية للعراق. أحد أهم المعبرين عن ذلك كان "فؤاد عجمى"، خبير الشئون العربية - من مواليد لبنان - الذى جعلت علاقته الوثيقة بالپنتاجون والبيت الأبيض، أحد النقاد يصفه عشية الحرب بأنه "راوية محلى"[٥٤]. فى مايو ٢٠٠٥، نشر عجمى عمود رأى فى "وول ستريت چورنال" بعنوان "بلد بوش"، عبر فيه عن اقتناعه الثابت بأن الديمقراطية كانت تنتشر فى المنطقة برغم العصيان العميق فى العراق، وذلك لأن "رئيسا أمريكيا محافظا جاء حاملا هبة الافتداء الويلسونى"[٥٥]. وبالرغم من أنه تبنى لهجة أكثر كآبة بعد عام، كان "عجمى" ما زال يثمن عاليا مقاصد إدارة "بوش" الخيرة وذلك فى كتابه الجديد "هبة الأجنبى - **The Foreigner's Gift**". كان زميل عجمى السابق "پول وولفوڤيتز" وغيره من المحافظين الجدد قد "جاؤوا إلى هذه الحرب باعتقاد حقيقى بأن العالم العربى الكبير كان فى حاجة ماسة إلى الإصلاح، وأن العراق كان هو المكان المناسب لحملة تخلص العالم العربى من أمراضه السياسية والثقافية الخبيثة"؛ وكان من رأى "عجمى" أن العرب سواء تغلبوا أو لم يتغلبوا على ما لديهم من عنف و"ثقافة الإرهاب"، وعبروا عن امتنانهم لهبة الديمقراطية، فإن قرار الولايات المتحدة بشن حرب وقائية فى العراق لم يكن خطأ"[٥٦].

كان الجانب الأكثر إرباكا وإثارة للجدل فى مبدأ الأمن القومى الجديد الذى وضعه خبراء الاستراتيچية من المحافظين الجدد أثناء العامين الأولين من إدارة

"بوش"، هو الموافقة على الحرب الوقائية. خبراء العلاقات الدولية كانوا واعين تماما للتمييز بين "الاستباق – Preemtion" و"الوقاية – Prevention"، الحرب الاستباقية هى "حرب ضرورة" تشن عندما تكتشف دولة ما خطرا محدقا واضحا على أمنها [كأن ترى جيوشا معادية يتم حشدها على حدودها أو سفنا حربية متجهة نحو شواطئها أو قاذفات معادية تطير نحو مجالها الجوى]، وتقوم بالضرب قبل أن تلحق تلك القوات بها الضرر، أما الحرب الوقائية فهى على العكس من ذلك. "هى حرب اختيار"، عندما لا يكون الخطر على الأمن القومى واضحا أو محدقا. فى هذه الحالة عندما يكون لدى دولة ما تفوق عسكرى واضح وتشك أن دولة أخرى تنوى إلحاق الضرر بها، فتختار أن تضرب هى أولا. الدولة هنا "تضرب فى حال الشك" لكى تمنع الدولة الأخرى من القيام بالهجوم. الهجوم المفاجئ على "بيرل هاربر" فى ٧ ديسمبر ١٩٤١ مثلا كان بداية حرب وقائية يابانية، وكان ينبغى على الأمريكيين استباقها لو أن "فرانكلين روزفلت" كان قد أدرك إلى أى مدى كان الخطر محدقا(٥٧).

خلال سنوات الحرب الباردة كان القادة الأمريكيون – من وقت لآخر يفكرون فى شن حرب وقائية ضد السوفيت والصينيين وغيرهم من الخصوم العسكريين، ولكنهم اختاروا فى النهاية ألا يضربوا لمجرد الشك، وبدلا من ذلك لجأوا إلى مبدأ الحرب الاستباقية، وبعد سقوط الاتحاد السوفيتى فى ١٩٩١ كان المفكرون الاستراتيجيون من المحافظين الجدد يزعمون أن الولايات المتحدة قد أصبحت القوة العسكرية العظمى الوحيدة المتبقية وأن مسئوليتها هى إرساء نظام عالمى جديد بفرض الديمقراطية ومنع انتشار الأسلحة النووية. وبداية من عام ١٩٩٧ كان مشروع القرن الأمريكى الجديد يصدر سلسلة من التقارير تبرز تعرض العالم لأخطار أسلحة الدمار الشامل، فى حال امتلاك دول مارقة مثل العراق وكوريا الشمالية صواريخ بالستية، وفى ٢٦ مارس ١٩٩٨ وَقَّع "دونالد رمسفيلد" و"بول وولفوفيتز" وعدد آخر من مؤسسى جماعة مفكرى المحافظين الجدد رسالة إلى الرئيس "كلينتون"، تقول إن رغبة "صدام حسين" الشديدة فى الحصول على أسلحة دمار شامل، ومعاملته الوحشية للشعب العراقى تجعل منه هدفا مشروعا لحرب وقائية. بعد ثلاث سنوات وبمجرد

استقرارهم فى مكاتبهم الجديدة فى البنتاجون، وضع "رمسفيلد" و"وولفوڤيتز" مخططات لتغيير النظام فى بغداد، كما كانوا يحلمون بنظام مضاد للصواريخ الباليستية عالى التقنية بهدف حماية الولايات المتحدة من أسلحة الدمار الشامل(٥٨).

وحيث إن إدارة "بوش" كانت مشغولة بحماية أمريكا من الدول المارقة مثل العراق، فإنها لم تول اهتماما كافيا للتقرير الذى أصدرته لجنة الأمن القومى للقرن الواحد والعشرين، وهى هيئة ممثلة للحزبين كان يرأسها كل من السيناتور السابق "جارى هارت – Gary hart" والسيناتور "وارن ردمان – Warren Rudman". فى هذا التقرير كان الرجلان يتنبآن بأن "الدول والإرهابيين وغيرهم من الجماعات الساخطة سوف تحصل على أسلحة تخريب ودمار شامل سوف يقوم بعضهم باستخدامها، وأن من المحتمل أن يموت أمريكيون على الأراضى الأمريكية وربما بأعداد كبيرة" ما لم تول الإدارة الجديدة اهتماما أكبر للتهديدات والأخطار التى تمثلها الدول الفاشلة والمتفسخة فى العالم الثالث حيث نما وترعرع الإرهابيون"(٥٩). وفى أوائل مايو، كان "ديك تشينى" نائب الرئيس يبدى قلقا مماثلا بشأن "تعرض نظامنا لخطر أشكال مختلفة من الهجوم" بعضها نما محليا، "والبعض الآخر من قبل إرهابيين من خارج الولايات المتحدة، مثل تفجير برجى مركز التجارة فى نيويورك فى ١٩٩٣، و"إذا كنتم ستكشفون النقاب عن الأخطار المحدقة بالولايات المتحدة وتتمنون إحباطها قبل أن تبدأ فإن الاستخبارات هى خط دفاعكم الأول"(٦٠)، إلا إنه حتى بعد أن سَلَّم "چورچ تينت – George Tenet" مدير المخابرات المركزية للرئيس "بوش" شخصيا تقريرا موجزا عن "القاعدة" فى ٦ أغسطس ٢٠٠١ بعنوان "بن لادن مصمم على ضرب الولايات المتحدة"، لم يربط أحد فى واشنطن بين كل هذه التفاصيل(٦١).

على أثر هجمات القاعدة المفاجئة فى الحادى عشر من سبتمبر، سرعان ما أصبحت الحرب الوقائية هى الخيار المفضل داخل البيت الأبيض. "چورچ دبليو بوش" فضفض فى مذكراته ليلة سقوط البرجين: "اليوم... وقعت بيرل هاربر القرن الواحد والعشرين" وعلى أمريكا أن تضمن ألا يحدث ذلك مرة أخرى(٦٢). وبعد أن أغفل

إشارات التحذير التى كان يمكن أن تحول دون أحداث الحادى عشر من سبتمبر، اتخذ "چورچ دبليو بوش" ومستشاروه وضع الهجوم فى "الحرب الكونية على الإرهاب" فى خريف ٢٠٠١ فى أفغانستان، ولأنهم كانوا على دراية بأن "أسامة بن لادن" كان متلهفا على الحصول على أسلحة دمار شامل، حدد "بوش" فى وقت باكر من العام الجديد الدول الثلاث المرجح أن تزود القاعدة بهذه الأسلحة [العراق وإيران وكوريا الشمالية] ووصفها بأنها "محور الشر"، كما وصف زعماءها بالمجرمين لتحريضهم على الإرهاب؛ ومع قدوم الصيف كان المحافظون الجدد فى "البنتاجون" قد أقنعوا الرئيس بأن أفضل وسيلة للدفاع هى الهجوم الجيد. هجمات الحادى عشر من سبتمبر، كما قال "بوش" أمام دفعة من الخريجين فى "وست پوينت" فى "١" يونيو ٢٠٠٢، أكدت أن منطق الحرب الباردة لم يعد مطبقا، وكشفت عن "أخطار جديدة"، تحتاج إلى "فكر جديد"، فى قرن جديد. "الردع – الوعد بانتقام واسع ضد الدول – لا معنى له ضد شبكات إرهابية شبحية ليس لها دولة ولا مواطنين يدافعون عنها"، و"الاحتواء غير ممكن فى وجود حكام طغاة مضطربى العقول يمتلكون أسلحة دمار شامل يمكن أن يقدموها لحلفائهم الإرهابيين أو يزودوهم بها فى السر"، ومصمما على أن "الحرب على الإرهاب لا يمكن الانتصار فيها عن طريق الدفاع"، قال "بوش": "لابد من نقل المعركة إلى حيث يوجد العدو، نحبط مخططاته، ونواجه أسوأ المخاطر قبل ظهورها"[٦٣].

بعد ثلاثة أشهر، أصبحت رطانة هذا الجمهورى القادم من تكساس سياسة رسمية عندما أصدر البيت الأبيض "استراتيچية الأمن القومى للولايات المتحدة الأمريكية"، وهى وثيقة تذكرنا بقرار "ترومان" رقم: "NSC-68"، هذه الوثيقة ستعرف فيما بعد بـ"**مبدأ بوش**"، محاججا بأن كلا من الإرهابيين والدول التى تشجعهم، هم "أعداء الحضارة لم يفرق هذا المبدأ بين العلمانيين الراديكاليين مثل "صدام حسين" والإسلاميين المتطرفين مثل "أسامة بن لادن"، كما طمس الفوارق بين **الحرب الوقائية والحرب الاستباقية**. لقد تبنت الولايات المتحدة طويلا خيار **الحرب الاستباقية** مقابل خطر كبير على أمننا القومى" ولكن هجمات الحادى عشر من سبتمبر أثبتت أن

"المفاهيم التقليدية للردع لن تكون مجدية ضد عدو إرهابى، تعتمد أساليبه المعلنة على التدمير المتعمد واستهداف الأبرياء". ومصرا على أنه كانت هناك آنذاك "ظروف اضطرارية لاتخاذ إجراء احترازى للدفاع عن أنفسنا، حتى وإن كان زمان ومكان الهجوم غير معلومين لنا"، أعلن "**مبدأ بوش**" أنه "بهدف سبق أو منع مثل هذه الأعمال العدائية من قبل أعدائنا، فإن الولايات المتحدة سوف تلجأ إلى الأسلوب الاستباقى عند الضرورة"(٦٤): وبقراءة ما بين السطور يتضح أن البيت الأبيض كان يعنى بـ"اتخاذ إجراء احترازى للدفاع عن أنفسنا": الحرب الاستباقية وليس الوقائية.

بعد الكشف عن استراتيچيته الجديدة للأمن القومى بوقت قصير، قام "چورچ دبليو بوش" بزيارة لـ"سينسيناتى" حيث قدم عرضا ميلودراميا لحججه لتغيير النظام فى العراق، ومشبها الوضع بأزمة الصواريخ الكوبية قبل أربعة عقود عندما لوح "چون اف. كينيدى" بشبح ضربة أمريكية أولى ضد القواعد الروسية فى الكاريبى، قال "بوش" أمام جمهوره فى "أوهيو" فى السابع من أكتوبر ٢٠٠٢: "أمريكا ينبغى ألا تتجاهل الخطر المحدق بنا" فى الخليج الفارسى، "فى مواجهة علامات واضحة على الخطر، لا نستطيع انتظار الدليل النهائى - مدفع الدخان. الذى يمكن أن يأتى على هيئة سحابة الفطر"(٦٥). وبرغم عدم وجود أدلة واضحة على أن "صدام" كان على وشك تطوير أسلحة دمار شامل أو على أنه كان يساعد "القاعدة"، فإن البيت الأبيض استخدم كل السبل للحصول على دعم "كاپيتول هيل" للحرب عشية سنة ٢٠٠٠ التى لا تجرى فيها الانتخابات الرئيسية. مدعية أن الشراء المزعوم لليورانيوم الأصفر، المستخدم فى صناعة الأسلحة، من النيجر فى غرب أفريقيا كان الخطوة النهائية فى مشروع بغداد لإنتاج قنبلة ذرية، تمكنت إدارة "بوش" من إقناع الكونجرس فى ١١ أكتوبر بالسماح باستخدام القوة العسكرية ضد العراق؛ وفى النهاية لن تجد القوات الأمريكية أى أسلحة للدمار الشامل، ثم يكشف "چوزيف ويلسون - Joseph Wilson" الدبلوماسى الأمريكى المتقاعد الذى كانت المخابرات المركزية قد أرسلته إلى النيجر فى يوليو ٢٠٠٢، عن أن إدارة "بوش" كانت تعلم قبل تسعة أشهر من سقوط بغداد أن شائعة سعى العراق للحصول على

اليورانيوم من غرب أفريقيا لم تكن صحيحة[٦٦]. ورغم خطاب الرئيس التحذيرى والمنزعج بخصوص "الاستباق" فإن غياب خطر واضح محدق كان يعنى أن "**عملية حرية العراق**"، كانت بالفعل حالة "**حرب وقائية**"، صحيح أنه فارق دقيق، ولكنه مهم وجدير بالتذكر عندما يفكر الأمريكيون فى مبدأ "بوش" الجديد.

• انبعاث أعراض ڤيتنام: مستنقع الفرات

نظريا، كان من المفترض أن تجتث **الحرب الوقائية** التى شنتها إدارة "چورچ دبليو بوش" فى العراق نظام "صدام حسين" "الإسلامى الفاشى"، لكى تحل محله دولة ديمقراطية تكون نموذجا لبقية العالم العربى؛ ولكن ما حدث فى الواقع هو أن "بوش" وجد نفسه يغوص فى مستنقع كان يبدو، أكثر فأكثر، أشبه بالورطة الأمريكية فى الهند الصينية قبل جيل، ومثلما كان الأمر فى خليج تونكين، كان الأمر فى الخليج الفارسى. سوف يحرف البيت الأبيض طبيعة الخطر الذى يواجه الولايات المتحدة ويشوه الحقائق. فى العراق أيضا وكما حدث فى ڤيتنام، لن يفهم "الپنتاجون" العدو وسوف يبالغ فى تقديره لأهمية التفوق التكنولوچى الأمريكى، وفى الشرق الأوسط أيضا وكما حدث فى جنوب شرق آسيا، سوف يقلل صناع السياسة الأمريكية من أهمية تحدى بناء الدولة فى خضم حرب أهلية ضروس. لم يكن هناك ما يدعو للدهشة أن يصبح الرجل الذى شن الحرب على العراق، بحلول عام ٢٠٠٧، أقل رؤساء أمريكا شعبية منذ "ليندون چونسون" و"ريتشارد نيكسون" اللذين أشرفا على حرب ڤيتنام.

كانت إزاحة "صدام حسين" من بين أولويات "چورچ دبليو بوش" قبل أحداث الحادى عشر من سپتمبر بوقت طويل، وكان الشرق الأوسط هو المادة الوحيدة على أجندة أول اجتماع لمجلس الأمن القومى للإدارة الجديدة فى ٣٠ يناير ٢٠٠١، كما كان الموضوع الرئيسى المطروح للنقاش فى ذلك اليوم هو "كيف يعمل العراق على عدم الاستقرار فى المنطقة". وحسب تقارير المخابرات المركزية لم يكن "صدام" قد استأنف مساعيه للحصول على أسلحة الدمار الشامل فحسب، بل إنه كان يمول الانتحاريين الفلسطينيين ويدعم الإرهابيين المعادين لأمريكا فى المنطقة. من جانبه كان "كولن

باول" وزير الخارجية يحث الرئيس ألا يبالغ أو يشتط، مصرا على أن عقوبات الأمم المتحدة الاقتصادية السارية منذ حرب الخليج الأولى، والوجود العسكرى الأمريكى فى شمال العراق، بما فى ذلك منطقة "حظر الطيران" التى تحتفظ بها القوة الجوية الأمريكية، قد نجحت فى احتواء "صدام"[٦٧]. طوال فصل الربيع وفى جزء من فصل الصيف كان كبار المسئولين فى مكتب نائب الرئيس وفى وزارة الدفاع يفكرون فى بلورة حجة لتغيير النظام فى بغداد. منذ الأول من أبريل ٢٠٠١، كان "بول وولفوفيتز"، رجل البنتاجون، قد فاجأ "ريتشارد كلاك – Richard Clarke" الذى عمل كأول منسق على المستوى القومى لمكافحة الإرهاب، بزعمه أن "صدام حسين" ساعد القاعدة فى التخطيط لضرب مركز التجارة العالمى قبل ثمان سنوات. ومصرا على أن "الإرهاب العراقى" كان خطرا حقيقيا كان "وولفوفيتز" يقول لـ"كلارك": "تقديرك لأسامه بن لادن أكثر مما يستحق"[٦٨].

بعد خمسة أشهر، كان رئيس "وولفوفيتز" فى مكتبه فى البنتاجون عندما صدم أفراد من القاعدة المبنى بطائرة مختطفة من طراز "بوينج ٧٥٧"، وفى غضون ساعات كان "دونالد رمسفيلد" يتحدث عن الانتقام، ليس فقط من "أسامة بن لادن" وإنما من "صدام" كذلك. "لابد من الحصول على معلومات أفضل على نحو أسرع... انظروا ما إذا كان من الأفضل ضرب "S.H." فى الوقت نفسه وليس فقط "U.B.L." ادخلوا بكل ثقل... اكتسحوا كل شىء"[٦٩]، كانت تلك كلماته فى اجتماع طارئ فى مركز القيادة العسكرية. بعد ستة أيام كان الرئيس نفسه يشير بإصبع الاتهام إلى "صدام حسين" "أعتقد أن العراق متورط إلا أننى لن أضربهم الآن.. ليس لدى دليل عن هذه النقطة"[٧٠]، كما قال لمستشاريه للأمن القومى؛ وبعد انتهاء الاجتماع قام وزير الدفاع "رمسفيلد" بإبلاغ "ريتشارد كلارك" بأن الدور سيكون على "صدام" بعد أن ينتهى البنتاجون من "بن لادن" فى أفغانستان، وكان رد "كلارك": «بعد أن هاجمتنا القاعدة فإن ذهابنا الآن لضرب العراق ردا على ذلك سيكون مثل احتلالنا المكسيك بعد أن هاجمنا اليابانيون فى "بيرل هاربر"»[٧١]. لم يكن هناك أدلة قوية عن علاقة للعراقيين بهجمات الحادى عشر من سبتمبر، ولكن مع تضييق القوات الأمريكية على "طالبان"

فى مواقعهم الحصينة فى كابول وقندهار بعد ذلك فى الخريف، أكد "بوش" وجود أهداف أبعد لديه فى العالم الإسلامى بما فى ذلك تغيير النظام فى بغداد، حيث صرح للصحفيين فى ٧ نوفمبر ٢٠٠١ أن أمريكا تواجه "صراعا طويلا وحربا من نوع مختلف "قد تستمر سنوات فى ميادين القتال الممتدة" إلى ما وراء أفغانستان".. إلى العراق ودول أخرى كثيرة، "إن اللحظة شديدة الجدية". بعد ثلاثة أسابيع قام الرئيس اليمنى "على عبد الله صالح" بزيارة للبيت الأبيض وسط شائعات بأن بلاده قد تصبح فى وقت قريب "أفغانستان أخرى" إذا لم تساعد الولايات المتحدة فى التخلص من معسكرات القاعدة فى جنوب غرب الجزيرة العربية؛ ومؤكدا تلهف اليمن على مساعدة أمريكا فى مكافحة الإرهاب حث "صالح" مضيفه على ألا يخلط بين "صدام" و"بن لادن" مستشهدا بمأثور عربى، مفاده أنك "عندما تحبس قطة فى قفص يمكن أن تتحول إلى أسد"، ولم يدع "بوش" الفرصة تمر ليرد بمأثور، هو أيضا من غرب تكساس مفاده أن القطة مصابة بالسعار و"علاج القطة المسعورة الوحيد هو قطع رأسها"(٧٢).

كان "پول وولفوڤيتز" من أسرع قتلة القطط، فهرع للتخطيط لحرب وقائية ضد العراق تحت مظلة مبدأ "بوش" الذى كان قد بدأ فى التبلور؛ وملقبا بـ"وولفوڤيتز العرب" لخص فيما بعد "أوجه القلق الثلاثة الرئيسية" التى كانت وراء احتلال العراق: "أولا: أسلحة الدمار الشامل، ثانيا: دعم الإرهاب، ثالثا: المعاملة الإجرامية للشعب العراقى"، وعلى حد تعبيره أمام بعض الصحفيين، "... والحقيقة أنه لأسباب تتعلق بالكثير من البيروقراطية الحكومية الأمريكية، فقد استقر الرأى على القضية التى يمكن أن تكون محل اتفاق من الجميع وهى أن تكون أسلحة الدمار الشامل هى السبب الرئيسى"، ولم يتردد "وولفوڤيتز" أن يشير بالرغم من ذلك إلى أن السببين الأول والثانى كانا فى الاعتبار إلى حد ما، و"ما أثبته لى الحادى عشر من سپتمبر هو أن تلك لم تكن سوى البداية لما يمكن أن يقوم به أولئك الأوغاد إذا ما وجدوا سبيلا إلى ما يسمى بالأسلحة الحديثة"، كما ينبغى ألا ينسى أحد أن "صدام" كان هو الشخص الوحيد فى العالم، باستثناء "أسامة بن لادن" الذى امتدح الهجمات "على نيويورك وواشنطن(٧٣).

وبالرغم من أن الدليل على امتلاك "صدام" لأسلحة دمار شامل، لم يكن أقوى من الدليل على مساعدته في التخطيط لهجمات الحادى عشر من سبتمبر الإرهابية، كان البيت الأبيض يدّعى غير ذلك وتحرك نحو الحسم دون تردد؛ وعندما سئل "چورچ دبليو بوش" فى خريف ٢٠٠٢ عن سبب إصراره على إسقاط "صدام"، ألمح إلى أن دوافعه قد تكون شخصية، ".. بعد كل شيء، فهذا رجل حاول قتل أبى ذات يوم". هكذا كان "دوبيا" يذكر الصحفيين مشيرا إلى شائعات كانت تقول إن الاستخبارات العراقية كانت قد خططت لاغتيال "چورچ الكبير" أثناء زيارة للكويت بعد حرب الخليج الأولى بوقت قصير[٧٤]. من دواعى السخرية أن والد "چورچ دبليو بوش" كان قد قرر بالفعل فى مارس ١٩٩١ أن يحتوى النظام البعثى فى بغداد بدلا من القضاء عليه، لأنه كما ذكر هو مستشاره للأمن القومى "برنت سكوكروفت – **Brent Scowcroft**" فى مذكرتهما المشتركة بعد سبع سنوات، كانا "قلقين بخصوص توازن قوى بعيد المدى على رأس الخليج "الفارسى"، كما كانا مقتنعين بأن "تفتيت الدولة العراقية سوف يفرض مشكلاته الخاصة بعدم الاستقرار"[٧٥]؛ وفى خبر نشرته "وول ستريت چورنال" فى ١٥ أغسطس ٢٠٠٢ قال "سكوكروفت"، لـ: "چورچ دبليو بوش": "لا تهاجم صدام" وقدم له نصيحة كان كثيرون يشكون بأنها جاءت عن طريق الرئيس الواحد والأربعين للولايات المتحدة، "من المؤكد أن الولايات المتحدة يمكن أن تهزم العسكرية العراقية وأن تدمر نظام "صدام"، ولكنها لن تكون رقصة زنجية"، هكذا كان تحذير "سكوكروفت" للبيت الأبيض، "على العكس من ذلك ستكون مكلفة دون شك" وربما أسوأ "فقد تقلل من شأن جهودنا فى مقاومة الإرهاب". وسواء كانت عبارات التحذير هذه قد نبعت من "چورچ الكبير" أو لا، فإن "دوبيا" اختار أن يتجاهلها. والحقيقة أن "بوب وودوارد – **Bob Woodward**" عندما سأل "چورچ دبليو بوش" ما إذا كان قد تشاور مع والده عن حكمة تغيير النظام فى العراق لم يكن يتذكر، ولكنه سارع إلى إضافة "أنت تعرف أنه الأب الخطأ الذى يمكن أن تلجأ إليه إذا كان الأمر يتعلق بالقوة، هناك أب أعلى ألجأ إليه"[٧٦].

الچنرال "أنتونى زينى – **Anthony Zinni**" الرئيس السابق للقيادة المركزية الأمريكية الذى كان قد استطاع أن يحافظ على السلام فى الخليج الفارسى فى

أواخر التسعينيات باحتواء "صدام حسين"، لم يكن مقتنعا بأن "چورچ دبليو بوش" كان يلجأ إلى "الأب" الصحيح، والحقيقة أنه عندما كان الچنرال "تومى فرانكس - Tommy Franks" قائد القيادة المركزية آنذاك يخطط للغزو، كان قلق سلفه يتزايد. "انظر إلى صدام! ماذا كان لديه؟.. إنه لم يهدد أحدا فى المنطقة"، كانت تلك كلمات "زينى" لأحد الصحفيين بعد فترة قصيرة من سقوط بغداد على أيدى القوات الأمريكية، "كان شوكة فى الظهر، ولكنه كان قد تم احتواؤه.. كانت قواته العسكرية متخلفة". أكثر ما كان يقلق الچنرال المتقاعد عشية الغزو هو قرار "فرانكس" تخفيض حجم القوات الأمريكية الغازية عما كان "زينى" نفسه قد قدره قبل خمس سنوات فى خطة: "CENTCOM'S OPLAN- 1003-98"(٧٧).

كان كبار الضباط الآخرين الذين ما زالوا فى الخدمة يشاركون "زينى" قلقه لأن إدارة "بوش" كانت تقدر حجم القوات المطلوبة لإسقاط نظام البعث والحفاظ على الأمن بعد ذلك بأقل مما ينبغى. فى يناير ٢٠٠١، وصل وزير الدفاع "دونالد رمسفيلد" إلى البنتاجون وكله إصرار على أن يجعل القوات العسكرية أقل عددا وأكثر كفاءة. على مدى أكثر من عقد كان "أندرو مارشال - Andrew Marshall" الذى رأس مكتب التقويم [مكون من مجموعة من الخبراء فى وزارة الدفاع] يقول: إن "هناك ثورة مستمرة فى الشئون العسكرية" تجعل الحجم الكبير فى القوات العسكرية كما حدث فى حرب الخليج الأولى أمرا غير ضرورى(٧٨)، وعندما طبق "رمسفيلد" نظرية "مارشال" على العراق توصل إلى أنه بالاعتماد على السرعة والتمويه والتكنولوچيا يمكن أن تكسب أمريكا حربا ثانية فى الخليج الفارسى بقوات أقل من الأربعمائة ألف جندى التى كانت مقررة فى الخطة: "OPLAN-1003-98"؛ وفى أوائل ٢٠٠٢، كان "رمسفيلد" و"فرانكس" و"وولفوڤيتز"، بعد أن أفادوا من الدروس الأخيرة فى حرب أفغانستان، يعتقدون أن قوة برية صغيرة سريعة الحركة [ربما لا تزيد عن ستين ألف جندى] تدعمها قوة جوية جيدة، يمكن أن تحقق النصر فى العراق بأقل خسائر ممكنة للقوات الأمريكية. "إيريك شينسكى - Eric Shinseki"، رئيس أركان الجيش الذى

سبق أن خدم فى فيتنام كان يقلقه أن تكون خطة الحرب الجديدة مقدمة على مستنقع جديد، وعندما سئل فى الكونجرس فى ٢٥ فبراير ٢٠٠٣ عن عدد الجنود الأمريكيين اللازمين لإسقاط "صدام" وإقامة عراق مستقر آمن بعد ذلك، أجاب الچنرال: "بضع مئات من الألوف... تقريبا"، ولكن "رمسفيلد" و"وولفوفيتز" كانا يعتقدان أن تقديراته مبالغ فيها وضغطا لكى يتقاعد باكرا، ثم قاما هما بوضع اللمسات الأخيرة على خططهما لحرب خاطفة[٧٩].

كان البيت الأبيض يعتبر الصراع الوشيك فى الخليج الفارسى الاختبار الحقيقى الأول لمبدأ "بوش" الجديد، ورافضا نداءات فرنسا وألمانيا والأمم المتحدة للقيام بالمزيد من عمليات التفتيش ومواصلة التفاوض بهدف التهدئة، قام "چورچ دبليو بوش" بتعبئة "تحالف المريدين"، وجهز قوات غزو قوامها ٢٤٠٠٠٠ جندى، كان ثلثاها من الأمريكيين وذلك فى أوائل مارس، وبمباركة من "تونى بلير – **Tony Blair**" رئيس الوزراء البريطانى أصدر "بوش" إنذارا يوم "سانت پاتريك" لـ"صدام حسين" بالتنحى، كما صادق على هجوم جوى تمهيدى على بغداد بعد ثمان وأربعين ساعة، ثم أصدر أوامره لـ"تونى فرانكس" ببدء عملية "حرية العراق" فى ٢٠ مارس، وعندما تعثر الزحف نحو بغداد قليلا لفترة قصيرة بعد أسبوع، كان بعض المعارضين يتساءلون ما إذا كان الرجل الجالس فى المكتب البيضوى يشعر بأى درجة من الندم. "بالقطع لا!" كان ذلك رد "رونالد بتس – **Roland Betts**" أحد الأصدقاء المقربين من "بوش" وكان قد ساعده فى إتمام صفقة شراء فريق "تكساس رينچرز" قبل خمسة عشر عاما؛ "بتس" قال للصحافة فى ١٥ مارس "المرة الوحيدة التى رأيته يراجع نفسه فيها، كانت عندما قال إننا ما كان يجب أن نشترى "سامى سوزا – **Sammy Sosa**"! وكما كان "رمسفيلد" يتوقع أثبتت أساليب البنتاجون القتالية الجديدة كفاءتها، ربما لدرجة أن يكون "صدام" نفسه كان يتمنى أن يباع لـ: "شيكاغو وايت سوكس" بدلا من "سوزا"! كان أداء الچنرال "فرانكس" وقواته رائعان بينما لم يكن أداء القوات العراقية كذلك، وبمجرد أن استعادت القوات الأمريكية قوة الدفع فى أوائل أبريل سقطت بغداد والمدن العراقية الأخرى تباعا... وبسرعة. وعندما أعلن الرئيس "بوش" فى "١" مايو أن

"العمليات القتالية الرئيسية" فى حرب الخليج الثانية قد انتهت، لم يكن قد قتل فى المعارك سوى ١٣٨ جنديا أمريكيا، وهو عدد أقل ممن قتلوا فى الحرب الأولى قبل اثنى عشر عاما.

بالرغم من أن الأساليب القتالية الجديدة جعلت الانتصار فى الحرب أكثر سهولة مما كان الجميع يتوقعون، فإن الخطط غير الكافية لإعادة البناء والإعمار بعد الحرب كانت تؤكد أن أمريكا سوف تخسر السلام والشعور بالأمان. التخطيط الجاد لعراق ما بعد "صدام" لم يبدأ حتى يناير ٢٠٠٣، عندما طلب البيت الأبيض من "چاى جارنر – Jay Garner"، الچنرال المتقاعد الذى كان قد رأس جهود الإغاثة فى كردستان العراق فى أوائل التسعينيات، أن يرأس مكتب إعادة البناء والمساعدات الإنسانية – Office of Reconstruction and Humanitarian Assistance (ORHA)؛ وبسبب الصعوبات اللوچستية والتنسيق الهزيل مع القوات الأمريكية، كان "جارنر" والمكتب لا حول لهم ولا قوة، بينما كان الألوف يقومون بسرقة ونهب المنازل المهدمة والمحلات ومبانى الوزارات فى بغداد ويدمرون البنية الأساسية للعاصمة، وعندما سئل "جارنر" ما إذا كان مكتب ORHA يستطيع القيام بما هو أكثر من ذلك لحفظ النظام، كان رده: "كان ينبغى أن ننظر فى المرآة ونزهو بأنفسنا ونبرز صدورنا ونشفط أبطننا ونقول: اللعنة! نحن الأمريكيين...."[٨١]؛ لم يكن الكل متحمسين على هذا النحو، فهذا مثلا الكابتن "توم هو – Tom Hough" الذى كان يحرس أحد مصافى النفط بالقرب من بغداد، يشكو بعد أسابيع قليلة ويقول: "كان من المفترض أن يتنبه أحد من مكتب "ORHA" لما يحدث، لا أعرف كيف تتم إعادة بناء الدول وإن كنت أتساءل... أين من يقومون بذلك؟" لم تكن هناك إجابة سهلة. "ليس لدى أى فكرة عن سياسة "بوش"... لا أعرف ماذا يخططون لمستقبل العراق... ليس لدى أى فكرة... كل ما أقوم به هو أن أجعل الأمور تسير هنا... ونفعل ذلك أثناء قيامنا بواجبنا"[٨٢].

عندما وجد أن "جارنر" و"ORHA" لم يستطيعا إنجاز المهمة، دفع "چورچ دبليو بوش" بالچنرال المتقاعد "ل. پول "چيرى" بريمر – L.Paul "Jerry" Bremer" خبير

مكافحة الإرهاب، إلى بغداد فى أوائل مايو لإدارة سلطة التحالف المؤقتة: Coalition Provisional Authority (CPA) التى يشرف عليها الأمريكيون، ومثل من سبقوهم فى "ORHA" كان المسئولون فى "CPA" يقومون بالتخطيط أثناء العمل وحسب الظروف وكيفما اتفق، مما جعل كثيرين يتندرون فى سخرية ويقولون أن "CPA" هى الأحرف الأولى لعبارة Can't Produce Anything (أى: لا يمكن إنجاز أى شىء)؛ أما بالنسبة لـ"بريمر" فسرعان ما انكشف أمره: متعجرف.. عنيد.. يدعى العلم بكل شىء..، ولأنه كان يشارك "بوش" الاعتقاد بأن الانتخابات الحرة والسوق الحرة يمكن أن تصنعا شعبا حرا، شرع فى "جرجرة" العراق على طريق الديمقراطية بسرعة وعلى نحو مربك. فى غضون ستين يوما من وصوله إلى بغداد، سرَّح بريمر الجيش العراقى وطهر الحياة العامة من البعثيين وعين مجلسا للحكم تم اختيار أعضائه بالاسم للتخطيط لأول انتخابات بعد "صدام"(٨٣). ولكن المزيد والمزيد من العراقيين كانوا قد أصبحوا يتساءلون ما إذا كان لدى "العم سام" أية حلول حقيقية لمشاكل وطنهم، وبدأ الكثيرون منهم التحول من السياسة إلى الدين، وفى أواخر يونيو كانت الجموع تهتف أمام مقر قيادة "بريمر" "لا أمريكا.. لا صدام.. كل الشعب مع الإسلام"(٨٤).

رد الفعل العراقى العام على تجربة الولايات المتحدة فى بناء الدولة ربما يكون أفضل تعبير عنه، هو ما جاء على لسان شاب، كان يقول لأحد الصحفيين فى أحد شوارع بغداد بعد وصول "بريمر" بوقت قصير: "عليك أن تبنى بلدك بنفسك وأن تطرد الأمريكيين"(٨٥).

بحلول صيف ٢٠٠٣ كان طرد الأمريكيين قد أصبح مطلبا يتصدر قائمة الواجبات فى العراق وأماكن أخرى فى الشرق الأوسط، المعدل البطىء لبناء الدولة فى "كابول" مثلا، كان يمثل مشكلة كبيرة للرئيس "حامد كرزاى"، رجل الإدارة الأمريكية المفضل، الذى كانت مواجهته لأمراء الحرب المعادين لأمريكا كفيلة بصنع ما يكفى من الفوضى، لإعطاء صدقية للشائعات التى تقول إن القاعدة كانت تعيد تجميع قواتها لجهاد جديد ضد ثمانية آلاف وخمسمائة جندى أمريكى كانوا فى أفغانستان. وعلى بعد خمسة عشر ميلا جنوب غرب الرياض تسبب انفجار شاحنتين ملغومتين فى مقتل

ثمانية أمريكيين وستة عشر شخصا" آخرين فى منتصف مايو. كانت تلك إشارة إلى أن "أسامة بن لادن" وأعوانه أكثر إصرارا من ذى قبل على طرد الولايات المتحدة من السعودية(٨٦). فى الوقت نفسه كان الرئيس الپاكستانى "برفيز مشرف" يمشى على حبل سياسى مشدود فى إسلام أباد، حيث كان تأييده لحرب "چورج دبليو بوش" على الإرهاب حافزا "للمتطرفين الإسلاميين لكى يعتبروه مرتدا، وللإصلاحيين العلمانيين لكى يعتبروه طاغية، وللجميع لكى يعتبروه عميلا "أمريكيا". ولكى يزداد الطين بلة، كانت هناك نذر شؤم قادمة من طهران بأن النظام المعتدل للرئيس "محمد خاتمى" [وهو إصلاحى عمل على مدى ست سنوات لتحجيم قوة الملالى وتحسين علاقات بلاده بواشنطن] كان يخسر أرضا" للمتطرفين الإسلاميين من أمثال "محمود أحمدى نجاد" الذى كان يرى لابد من أن تحصل بلاده على أسلحة نووية وأن تساعد إخوانها الشيعة عبر شط العرب من أجل هزيمة أمريكا(٨٧).

الأكثر مدعاة للقلق كان الوضع المتردى فى العراق نفسه حيث كان الإصلاح يسير بسرعة السلحفاة والحكم الذاتى الحقيقى يبدو بعيدا" وميليشيات البعث والشيعة قد بدأت هجماتها على القوات الأمريكية بالصواريخ ومدافع الهاون وأجهزة التفجير المبتكر المصنوعة ذاتيا بأساليب ارتجالية. وبحلول شهر يوليو ٢٠٠٣ كانت مجموعات صغيرة من المقاتلين ترشح فى بغداد لتصب وقودا جديدا للمقاومة المحلية المتزايدة، مع تصاعد الدعوات الحماسية للجهاد ضد جيش الكفر... جيش الاحتلال. وفى ١٦ يوليو كان الچنرال القادم من وست پوينت ويتحدث العربية "چون أبى زيد" الذى خلف "تومى فرانكس" قائدا للقيادة المركزية يعترف قائلا: "أعتقد أن هناك أفرادا من قيادات البعث الوسطى والمخابرات العراقية يديرون ما يمكن أن يوصف بأنه حملة حرب عصابات كلاسيكية ضدنا، إنه صراع محدود بمصطلحات عقيدتنا القتالية، ولكنها حرب... أيا كان وصفك لها"(٨٨).

بعد ثمانية أيام، اقشعر بدن "رمسفيلد" عندما كان المراقبون يشبهون "الصراع المحدود" فى العراق بالحرب فى ڤيتنام قبل جيل؛ ومشيرا إلى أنه "احتكم إلى

القاموس" لتحديد المعنى، كان وزير الدفاع مصرا على أن أمريكا لا تواجه "حرب عصابات" ولا تخوض فى "مستنقع" فى الشرق الأوسط، قائلا: "هذا شأن شخصى آخر، أنا لا أصنع مستنقعات!"(٨٩)، وقبل انتهاء فصل الصيف كان صناع السياسة الأمريكية لا يواجهون عصيانا وتمردا على نطاق واسع فحسب، بل عنفا طائفيا وحشيا بين السنة والشيعة مع انهيار البنية الاقتصادية الأساسية للعراق، الأمر الذى وضع خطة سلطة التحالف "CPA" لبناء الديمقراطية موضع المساءلة؛ وعندما رفضت إدارة "بوش" إعادة النظر فى مشروعها للتحويل الديمقراطى، اقترح "غسان سلامة"، المسئول الذى أوفدته الأمم المتحدة للعمل فى بغداد أن يكون هناك "مجمعا أيديولوچيا - صناعيا" مسئولا فى واشنطن "ليس فيلق المهندسين، وليس البراجماتيين حلالى المشكلات"، وإنما بالأحرى "مكون من أمريكيين غير معروفين، أمريكيين يمتلكون أيديولوچية... لهم اهتمامات... تبشيريون على نحو ما"(٩٠).

على مدى السنوات الأربع التالية، سوف يؤكد "چورچ دبليو بوش" مرارا وتكرارا أن الولايات المتحدة لابد من أن "تواصل إلى النهاية" فى العراق لكى تنتصر فى الحرب الكونية على الإرهاب، وبالرغم من ذلك فإن المؤشرات التى كان أول رئيس أمريكى حاصل على الماچستير فى إدارة الأعمال يقيس بها الأوضاع فى العراق، كانت كلها تؤكد أن لا شىء يسير على ما يرام. فى صيف ٢٠٠٤ كان هناك ١٣٥٠٠٠ جندى أمريكى فقط على الأرض، وهو عدد يكفى بالكاد للانتصار فى المعارك، وأقل كثيرا من أن يسيطر على مساحات يتم تحريرها من سيطرة المتمردين. بناء على ذلك، فإن الچنرال "ريكاردو سانشيز - Ricardo Sanchez" الذى عينه "أبى زيد" لقيادة القوات فى العراق تبنى استراتيچية استئصال مصممة لكى تجعل المقاومين المعادين لأمريكا فى حالة من اللاتوازن وعدم الاستقرار بضربهم بقوة أينما وجدوا؛ ولأنه كان يدرك أن زيادة حجم قوات الاحتلال الأمريكى كان يتطلب زيادة دورة الجندى فى الخدمة لتكون بلا حدود، لم يطلب "سانشيز" قوات إضافية وإنما اعتمد بدل ذلك على ٣٠٠٠٠ حارس أمنى من القطاع الخاص كانت تقدمهم شركات مثل "Blackwater USA" و"Dyn Corps Internationa" من أجل قوة نيران إضافية ومزيد

من الدعم اللوچستى. "كيل هيندريك – Kyle Hendrick"، الذى كان يعمل لحساب شركة ثالثة تدعى "Triple Canopy"، قال لأحد الصحفيين فى ٢٠٠٥ إن "البنتاجون" كان قد أوكل بالفعل جزءا من الحرب فى العراق لجنود من القطاع الخاص مسلحين تسليحا ثقيلا، وأنهم كانوا "أشبه" بالكومبارس المستأجرين للتمثيل فى فيلم "ميل چيبسون – Mel Gibson" المعروف "Road Warriors" وكلهم كانوا يطلقون النار أولا... ثم يطرحون الأسئلة بعد ذلك[٩١].

على المدى الأبعد، كانت إدارة "بوش" تتمنى أن تحل مشكلة القوى البشرية ببناء جيش عراقى جديد يستطيع أن "يقف" لكى "يجلس" الأمريكيون، ولكن على المدى القصير كان معظم الجنود الأمريكيين يشعرون كما لو كانوا قد وقعوا فى فخ نمط شرق أوسطى من أفلام هوليود عن حرب ڤيتنام مثل: "Apocalypse Now" أو "Full Metal Jacket". الجندى "كريس فروشيزر – Chris Frosheiser" على سبيل المثال أرسل إلى والديه بالبريد الإلكترونى قبل وقت قصير من موته نتيجة أحد أجهزة التفجير العشوائية يقول: «ما أراه من حولى يؤكد أن الأمر سوف يستغرق وقتا أطول بكثير مما يقوله "رمسفيلد" و"چورچ دبليو" قبل أن تنتهى هذه الورطة»[٩٢]؛ وعندما زاد حجم العنف فى بغداد والفالوجة والنجف عاد خبراء التخطيط فى البنتاجون، الذين كانوا يبحثون عن تكتيكات فعالة ضد مقاتلى الشوارع، إلى كتاب چيلو پونتيكورڤو Gillo Pontecorvo "معركة الجزائر" الذى يقدم تقريرا فى قالب روائى عن الحملة الفرنسية الوحشية ضد الثوار الجزائريين قبل نصف القرن، للاسترشاد بما فيه من معلومات[٩٣]. فى الوقت نفسه فر أكثر من المليون عراقى إلى سوريا والأردن ودول أخرى مجاورة خلال عام ٢٠٠٦ هربا من العنف، كما ترك مليون آخرون ديارهم نتيجة الأوضاع التى وصلت إلى ما يشبه التطهير العرقى بين السنة والشيعة، وبعد عامين تضاعفت الأعداد[٩٤]. حاولت إدارة "چورچ دبليو بوش" استعادة قوة الدفع المفقودة بإرسال "موجة جديدة" قوامها ثلاثون ألف جندى أمريكى جديد إلى العراق خلال ربيع ٢٠٠٧، ولكن القليل من العراقيين أو الأمريكيين هم الذين كانوا يتوقعون أن يقلب ذلك دفة الحرب؛ ففى أوائل سپتمبر كان الرقيب أول "تيموثى چونسون –

"Timothy Johnson" يقول للصحفيين فى بغداد: "الموقف سيىء ولن يتحسن، لن نغير شيئا، ليس فى المدى القريب... وربما لو بقينا هنا إلى الأبد"(٩٥).

وفى مشهد يذكر بمشهد آخر حدث قبل أربعين عاما، عندما أكد المسئولون فى البنتاجون للجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ أن الانتصار كان وشيكا فى فيتنام، جاء الجنرال "ديفيد بترايس – David Petraeus" والسفير "ريان كروكر – Ryan Crocker" إلى "كابيتول هيل" فى ١٠ سبتمبر ٢٠٠٧ يبحثان عن مواصلة دعم الحرب. الجنرال "بترايس"، الذى كان قد حظى بالتقدير خلال الأشهر الأولى التالية للغزو لاستخدامه تكتيكات "الاستئصال" بهدف قمع العنف فى الموصل قبل أن يخلف "ريكاردو سانشيز" قائدا عاما للعمليات كلها فى ٢٠٠٦، كان مقتنعا تمام الاقتناع بأن هناك ضوءا فى آخر النفق، فأكد للكونجرس أنه بالوصول بمستوى القوات الأمريكية إلى ١٦٩٠٠٠ جندى، يمكن الوصول بنجاح إلى الأنبار ومناطق أخرى فى العراق. فى المقابل، كان الوضع السياسى فى العراق أكثر كآبة. مؤكدا أن دعم حكومة رئيس الوزراء "نورى المالكى" الفاشلة كان يتضاءل بسرعة فى بغداد، كان السفير "كروكر" يعترف بأن "النزوح الواسع من العراق والقتل الطائفى على يد القاعدة وغيرها من الجماعات المتطرفة قد بات يأكل نسيج المجتمع والسياسة العراقية البالى بالفعل"، وبالرغم من ذلك كان "كروكر" يعتقد أن أمريكا إذا صبرت، فقد "يمكن الوصول إلى عراق آمن ومستقر وديمقراطى، يعيش فى سلام مع جيرانه"(٩٦).

قبل شهرين من شهادته على أية حال، كان "كروكر" قد اعترف بأن الصبر كان قد قارب على النفاد "فى الولايات المتحدة، نبدو وكأننا فى النصف الأخير من البكرة الثالثة من فيلم من ثلاث بكرات، وكل ما علينا هو أن نقرر أننا قد انتهينا هنا، فنترك المسرح وننتقل إلى شىء آخر"، كما قال فى مقابلة معه فى يوليو ٢٠٠٧. ولكن الأمور كانت تبدو مختلفة من مجثمه فى بغداد. "هنا أنت تبدأ مع البكرة الأولى من خمسة" كان يقول متنهدا، "ومثلما كانت البكرة الأولى قبيحة، ستكون البكرات الأربع ونصف البكرة المتبقية كلها أكثر قبحا"(٩٧). وسواء كانت ثلاث بكرات أو خمسة، فإن نقاد حرب العراق ومعارضيها فى كابيتول هيل" و"مين ستريت" لم يكونوا يرون نهاية

سعيدة لها، وفى أبريل ٢٠٠٤، عندما كانت إدارة "چورچ دبليو بوش" تستعد لتركيب البكرة الثانية كان تعليق "أنتونى زينى": لقد شاهدت هذا الفيلم من قبل.... اسمه ڤيتنام!"[٩٨].

• الاستشراق فى نهاية القرن الأمريكى

فى العراق، كما كان الأمر فى ڤيتنام، كلما طال أمد الحرب كانت كل الصور الاستشراقية النمطية القديمة عن الآسيويين والعرب تصبح أكثر قوة ورسوخا. خلال الأيام الأولى للاحتلال، جعل وباء السلب والنهب والسرقة الضحايا الأمريكيين التعساء يشبهون مهاجميهم بـ"على بابا والأربعين حرامى"[٩٩]. قبل أن يمر وقت طويل كانت القوات الأمريكية تعتبر أعداءها العراقيين: شرقيين غشاشين وقطاع طرق وخونة ومتعصبين دينيا. فى وطيس المعركة من السهل دائما أن تصف العدو بكل ما هو سيىء وشرير، وبخاصة فى مكان مثل العراق حيث كانت حملة "الپنتاجون" الأصغر من الحجم العادى تواجه سلسلة من السيارات المفخخة والكمائن وعمليات الاختطاف. وعندما سأل صحفى أحد الجنود فى نقطة تفتيش بالقرب من بغداد فى أكتوبر ٢٠٠٣ كيف كانت الأمور تسير، كان تقييمه للأوضاع بالغ السخرية: "إذا كنت تريد أن تعرف بالفعل، فأنا قد كرهت وجودى هنا فى بلد، الكذب فيه هو التسلية العامة"[١٠٠]. الرقيب أول "كارل ويذرنجتون – Karl Wetherington" كان له الملاحظة نفسها بعد ستة أشهر وإن بشكل أكثر تفصيلا، عندما قام مقاومون عراقيون باختطاف وقتل أربعة أفراد كانوا يعملون مع مقاولى شركة "بلاك ووتر" فى الفالوجة والتمثيل بجثثهم، ومصرا على أن هذه المجزرة كانت نتيجة طبيعية لثقافة إسلامية عنيفة متأصلة ووحشية، قال "ويذرنجتون" لأحد الصحفيين: "أكره أولئك الزناة بأمهاتهم... المسلمون حقراء... لست قلقا من ناحية العراقيين، العراقيون لا بأس بهم.... ولكن المسلمين..!!"[١٠١].

الفريق "چيرى بويكين – Jerry Boykin" الذى عينه وزير الدفاع "دونالد رمسفيلد" لقيادة وحدة البنتاجون الجديدة لمكافحة الإرهاب، كان يستخدم لغة أكثر

دبلوماسية نوعا ما، ليصف الحرب فى العراق بأسلوب "دينى"؛ فبعباراته اليمينية المتطرفة بهدف بث الحيوية ورفع معنويات الجنود كان مصرا على أن عدو أمريكا الأعظم ليس "أسامة بن لادن" ولا "صدام حسين".... ولكنه الإسلام ذاته. وبعد أحد عروضه مستخدما الفانوس السحرى كان يخاطب جمعا فى فلوريدا قائلا: "العدو ليس أحدا من أولئك فى العمل الذى عرضته أمامكم هنا، العدو شخص اسمه الشيطان"، والإسلاميون لم يستهدفوا الولايات المتحدة لأنهم ضد سياسة الولايات المتحدة، وإنما لأنهم يكرهون الأمريكيين، "إنهم يستهدفوننا لأننا دولة مسيحية". داعيا للقيام بما يصل إلى مستوى حملة صليبية جديدة ضد "كفر قديم"، كان يتذكر بكل فخر شعوره عندما كان يتحدث مع قائد صومالى أسير فى "مقديشيو" قبل عقد، مخاطبا جمهور المستعمين إليه: "أنتم تعرفون على أى حال ما كنت أعرفه... إلهى كان أكبر من إلهه... كنت أعرف أن إلهى "حقيقى"، أما إلهه فهو وثن"(١٠٢).

الأمريكيون الذين كانوا يريدون أن يفهموا دوافع المتعصبين الإسلاميين مثل "أسامة بن لادن" عادة ما كانوا يرجعون إلى خبراء متخصصين فى شئون الشرق الأوسط ممن كانت أفكارهم لا تختلف كثيرا فى جوهرها عن أفكار "بويكن"، إذا جردتها من الرطانة الأكاديمية. أحد هؤلاء الخبراء كان "رافائيل پاتاى - **Raphael Patai**" الذى يؤكد فى طبعة ثالثة من كتابه "العقل العربى - **The Arab Mind**" [ظهرت بعد وفاته] الطبيعة الوحشية والشبقة للعرب، وسرعان ما أصبح هذا الكتاب أحد الكتب الواجب قراءتها فى "الپنتاجون" عشية قيام إدارة "چورچ دبليو بوش" بالتحضير لحرب العراق(١٠٣). الكولونييل "نورڤيل دى آتكن - **Norvell De Atkine**" خريج "وست پوينت" الذى كان يقوم بتدريس الاستراتيچية فى المدرسة العسكرية الخاصة فى "فورت براج" - نورث كارولينا - يقول فى تقديمه: "كتاب العقل العربى هو بمثابة المادة الثقافية السياسية التى أقوم بتدريسها للضباط العسكريين فى المؤسسة التى أعمل بها"، فالعرب كانوا دائما أسرى الحماقات الدينية والقبلية التى حبستهم فى "بيئة ثقافية وسياسية عامة تخنق المبادرة والتفكير المستقل وتقتل الإبداع"(١٠٤)، وعندما أجرى "سيمور هيرش - **Seymour Hersh**" عميد المحققين

الصحفيين الأمريكيين مقابلات مع المسئولين العسكريين الأمريكيين عن عمليات التعذيب في سجن "أبو غريب" بعد عام، كان كثيرون يؤكدون له أن استخدام أساليب الامتهان الجنسى كوسيلة "لكسر" السجناء العراقيين كان مؤسسا على "قراءة بعناية" لكتاب "العقل العربى"(١٠٥)؛ وبالرغم من قول بعض النقاد إن "هيرش" يبالغ فى أهمية كتاب "باتاى" هذا، فإنه كان على قائمة الكتب المطلوب قراءتها فى "ندوة عملية حرية العراق" التى نظمتها سلطة التحالف (CPA) فى بغداد، وفى دورة عسكرية للجيش الأمريكى لمكافحة العصيان والتمرد فى فورت كارسون - كولورادو(١٠٦).

وبالرغم مما قالته مصادر "هيرش" عن كتاب "باتاى"، يظل "برنارد لويس - Bernard Lewis" [الأستاذ فى پرنستون] هو أكبر خبراء الشرق الأوسط الأكاديميين تأثيرا فى واشنطن "چورچ دبليو بوش". بعد أحداث الحادى عشر من سپتمبر بأربعة أشهر، نشرت "أتلانتك منثلى" مقالا لـ"لويس" بعنوان "أين الخطأ؟"؛ ومتجنبا استخدام "باتاى" لعلم النفس العام استهدف "لويس" الحكام العرب الطغاة مثل "صدام حسين". يقول: "بالنسبة للحكومات المستبدة والعقيمة التى تحكم معظم الشرق الأوسط، فإن إيجاد أهداف لتوجيه اللوم إليها يخدم غرضا مفيدا وضروريا فى الحقيقة، لتفسير الفقر الذى فشلوا فى التخفيف من وطأته ولتبرير الاستبداد الذى يمارسونه [....] إنهم يحاولون أن يزيفوا كنه الغضب المتصاعد من رعاياهم التعساء ويحرفوه نحو أهداف أخرى خارجية"(١٠٧).

كان "تشينى" نائب الرئيس، أحد الذين فتنتهم كتابات "لويس" الاستشراقية من بين دائرة "چورچ دبليو بوش"، وكان نجمه قد بدأ فى الصعود فى أواخر ٢٠٠٢ كأحد صقور الحرب الرئيسيين فى الإدارة. باحثا عن ذريعة لإسقاط "صدام حسين" كان "تشينى" يجعل من "لويس" رفيق عشاء دائما فى الأشهر السابقة على عملية حرية العراق، وقام أستاذ التاريخ برد الجميل بتقديم أساس منطقى بارع لتغيير النظام فى بغداد، مؤسس على ما حدث قبل ثمانين عاما فى تركيا عندما أطلق التحديثى العلمانى "مصطفى كمال أتاتورك" "ثورة من أعلى" من أجل غربنة بلاده سياسيا

واقتصاديا مع تنحية الإسلام جانبا. بعد سقوط "صدام" كان "لويس" يقول لأحد الصحفيين: "إن العالم الإسلامى الآن فى بداية القرن الخامس عشر"، بينما "العالم الغربى فى بداية القرن الواحد والعشرين". كما خلص إلى أن أفضل ترياق للإسلام الراديكالى هو "أتاتورك عربى" يستطيع أن يطلق عنان "الإصلاح" ويدخل العراق وجيرانه إلى العالم الحديث(١٠٨).

المسئولون فى الخارجية الأمريكية على أية حال كانوا يقولون إنه كانت هناك فرصة لنجاح سعى أمريكا لإيجاد "أتاتورك عربى" فى حال اعتماد واشنطن على العلاقات العامة والدبلوماسية، أكثر من اعتمادها على المناورات السياسية والقوة العسكرية؛ وبهذا الهدف شكل وزير الخارجية "كولن پاول" "مجموعة استشارية للدبلوماسية العامة فى العالم العربى والإسلامى" فى يناير ٢٠٠٣. تقرير المجموعة الذى جاء فى ثمانين صفحة تحت عنوان "تغيير العقول... كسب السلام"، ظهر بعد عشرة شهور، ولم يحظ بقراءة جيدة فى البيت الأبيض فى إدارة "بوش". مؤكدا أن "العداء لأمريكا قد وصل إلى مستويات صادمة" فى أرجاء الشرق الأوسط، كان التقرير يوضح أنه "قبل الحرب على "صدام" بفترة قصيرة، فإن المسلمين الذين تم استطلاع آرائهم فى كل من السعودية وقطر والأردن، كانوا بنسبة ٢:١ يرون فى الولايات المتحدة خطرا أكبر من العراق". وفى أرجاء العالم الإسلامى كان الرجال والنساء الذين أجرت معهم المجموعة الاستشارية لقاءات "يألمون بالفعل لمحنة الفلسطينيين وللدور الذى يلاحظون أن الولايات المتحدة تقوم به، كما يأسفون للوضع فى العراق"(١٠٩)، وباختصار كان التقرير يرى أنه برغم كل الاحترام الواجب لـ"چيرى بويكن" و"برنارد لويس" "فإنهم يكرهوننا بسبب سياساتنا وليس لأننا ما نحن عليه".

ربما يكون تشخيص المجموعة الاستشارية صحيحا، ولكن الوصفة العلاجية [حملة دبلوماسية عامة تتكلف ملايين الدولارات] سرعان ما فشلت. بعد الاستيلاء على شبكة التلفزيون التابعة لـ"صدام" مثلا، أطلقت الخارجية الأمريكية حملة إعلانية مكثفة عن "القيم المشتركة" وعن حياة عدد من مشاهير العرب الأمريكيين مثل "تونى شلهوب

– Tony Shaloub"، ولكن المشاهدين العراقيين كانوا يعتبرون ذلك كله محاولات لصرف الاهتمام عن الاحتلال الأمريكى[١١٠]. وعندما أطلق مفكرو البيت الأبيض هجومهم الذى يعتمد على العلاقات العامة فى ٢٠٠٣ للترويج فيى العالم العربى لأفكار "بوش" عن السوق الحرة كسبيل للتنمية الاقتصادية فشلت الحملة فشلا ذريعا وكانت المصطلحات المترجمة مثار سخرية من بغداد إلى بيروت[١١١].

وبينما كان العنف المنفلت يعم بغداد، كان "چيرى بريمر" يلمح بنزق فى ٢٠٠٣ إلى أن المجازر التى تواجه سلطة التحالف حتمية وشىء طبيعى مثل جرائم الشوارع فى المسلسلات الأمريكية "عندما تكون قوة احتلال، فلن تكون لديك مسئوليات فحسب لأنك عندما تمارس هذه المسئوليات فمن المحتم أن تكون هناك احتكاكات وصدامات"، كما قال لأحد الصحفيين، "يحدث ذلك عادة. كل ليلة يُقْتَل فى نيويورك أناس أكثر ممن يقتلون فى بغداد[١١٢]، وأثناء زيارة له لجامعة "كلارك" بعد عامين كان ما زال عند رأيه وهو أن تغيير النظام فى العراق جعل شوارع أمريكا أكثر أمانا باقتلاع جذور الإرهاب ومنع القاعدة من أن تجعل من بغداد "العاصمة العالمية لخلافة إسلامية معادية لأمريكا"؛ ومنكرا بشدة أن تكون عملية استئصال البعث خطأ كبيرا، راح يشبه "صدام حسين" بـ: "أدولف هتلر" ويحث الجميع على قراءة كتاب كان قد صدر حديثا بعنوان "نهاية للشر"، من تأليف اثنين من المحافظين المقربين من إدارة "بوش" هما "ريتشارد پيرل – Richard Perle" و"ديفيد فروم – David Frum" اللذين لخص افكارهما كما يلى: "لدى أمريكا مسئولية أخلاقية بتصدير الديمقراطية للعالم الإسلامى، بصرف النظر عما إذا كان ذلك على هوى الراديكاليين والإسلاميين العرب أو لا". إن نظرة سريعة على كتاب "پيرل" و"فروم" تؤكد أنهما يعتبران الإسلام الراديكالى القوة الدافعة التى تقف وراء "محور شر" جديد، أفكاره مثل تلك التى كانت للشيوعية والفاشية من قبل، وهى متعارضة مع كل ما تعتز به الولايات المتحدة. "پيرل" و"فروم" اعترفا بأن "لا أحد يعتقد أن حمل الديمقراطية إلى الشرق الأوسط سيكون عملية سريعة أو سهلة" ولكن إذا كان لأمريكا أن تكسب "حرب الأفكار" هذه، فلابد من أن يتقبل الأمريكيون فكرة الحرب[١١٣].

كان "ناتان شارانسكى – Natan Sharansky" المنشق السوفيتى الذى تحول إلى سياسى إسرائيلى يتصدر هو الآخر قائمة القراءة فى إدارة "بوش"، حيث كان كتابه الجديد "حالة الديمقراطية" يعبر عن الأفكار نفسها لدى "پيرل" و"فروم". يقول "شارانسكى": "الوضع اللاديمقراطى الحالى فى الشرق الأوسط يبدو مُرْغِما على التدخل"، والانتخابات الحرة، التسامح الدينى، حقوق المرأة... كلها مفاهيم غريبة فى معظم العالم الإسلامى، كما يرى أن الطغيان والاستبداد والدكتاتورية هى الأطر العامة من الرياض إلى الرباط، وبتوجيه ملائم من الولايات المتحدة، يعتقد أنه "حتى العرب" ربما يفضلون المجتمع الحر على مجتمع الخوف"(١١٤). الرئيس "چورچ دبليو بوش" دعا "شارانسكى" إلى البيت الأبيض عشية انتخابات نوفمبر ٢٠٠٤ وأشاد بأفكاره على سلالم "الكاپيتول" بعد شهرين، وفيما بعد كان يقول للصحفيين: "شعرت أن كتابه يؤكد ما أؤمن به، هذا الفكر... إنه جزء من حمضى النووى الرئاسى"(١١٥).

كانت هناك دلائل على أن هناك أمريكيين آخرين يشاركون "بوش" هذا الحمض النووى الاستشراقى، فعلى قائمة الكتب الأكثر مبيعا فى الأسابيع الأخيرة من ٢٠٠٤ مثلا، كانت هناك رواية "نيلسون دى ميل – Nelson DeMille" التى تحمل عنوان "الغسق". فى هذه الرواية يكتشف "چون كورى" مخبر نيويورك سيتى أن "القاعدة" أسقطت طائرة TWA [الرحلة رقم800] بصاروخ أرض جو فوق "لونج آيلاند ساوند" فى يوليو ١٩٩٦ كبروفة لما حدث فى الحادى عشر من سپتمبر؛ ويسأل "كورى" شريكه: "ما تعريف العربى المعتدل؟" وتأتى الإجابة "هو الشخص الذى نفدت ذخيرته"(١١٦). قبل أيام قليلة من بداية إدارة "بوش" الثانية، بدأ تلفزيون "فوكس" الموسم الرابع من سلسلة أفلام "الأكشن" بقصة تصور "كيفرسذرلاند" فى دور "چاكب أرو"، الذئب الوحيد الذى يطارد "طابورا خامسا" مسلما فى داخل أميركا، وبعد انطلاق إشارة من "القاعدة"، تقوم الخلايا الإسلامية النائمة باختطاف وزير الدفاع وتقتل بنات المدارس البريئات وتسعى لتحويل مختبرات الطاقة الذرية الأمريكية إلى أسلحة دمار شامل(١١٧). أما الأكثر مبالغة من شبكة "فوكس" فهى الكاتبة "آن كولتر – Ann Coulter" التى تسخر من الأمريكيين العرب الذين كانوا يعتبرون أساليب

إدارة "بوش" الوحشية ضد "العدو المزعوم" عمليات تعذيب ووصفت ذلك بأنه هراء، كما اتهمت الليبراليين بأنهم "يدافعون عن العرب... الكذابين"[١١٨]. وعندما كانت هذه الكاتبة تقوم بحملة دعاية لكتابها الجديد "بلا إله" بعد ذلك بعام، كانت تصف الانسحاب من العراق بأنه تنازل ومعارضي "بوش" بأنهم "جبناء يخشون التصدي للعرب المتوحشين"[١١٩].

وبالرغم من أن "جورج دبليو بوش" كان حذرا لكي لا يصف العرب أو المسلمين الآخرين بأنهم متوحشون مثلا، فإنه كان يتناول الحرب في العراق بفهم ديني، كجزء من معركة أشمل ضد الإرهاب العالمي؛ وتعهد بأن تنتصر الديمقراطية الأمريكية على الاستبداد الشرقي؛ وعندما أدى اليمين لفترة إدارة ثانية في ٢٠ يناير ٢٠٠٥، كان يذكر الشعب الأمريكي: "منذ اليوم الأول لتأسيس بلادنا أعلنا أن كل رجل وامرأة على هذه الأرض لهم حقوق وكرامة وقيمة لا نظير لها لأنهم يحملون صورة خالق السموات والأرض"، و"لذلك فإنها سياسة الولايات المتحدة أن تلتمس وتدعم نمو الحركات والمؤسسات الديمقراطية في كل أمة وفي كل ثقافة، بهدف نهائي وهو القضاء على الظلم في عالمنا"[١٢٠].

وعندما توجه العراقيون إلى صناديق الانتخاب بعد عشرة أيام لانتخاب أول برلمان بعد "صدام"، كان البيت الأبيض يعتبر الحبر الفوسفوري على إبهام الملايين دليلا على مضي الديمقراطية في طريقها في بغداد. ولأن معظم السُنَّة كانوا قد قاطعوا الانتخابات، كانت الأغلبية في الحكومة للشيعة والأكراد، الأمر الذي لم يمنع العراق من الانزلاق إلى حرب أهلية ملأت الشوارع بالجثث والطرق إلى خارج البلاد بالألوف من النازحين؛ وعندما قام إرهابيون ينتمون إلى الطائفة السنية بتدمير أحد المزارات المقدسة عند الشيعة في مسجد العسكرية في سامراء في فبراير ٢٠٠٦، تصاعد العنف وبدأ صناع السياسة الأمريكية يرددون سرا عبارات مثل "التطهير العرقي" و"المذابح الجماعية"، وطار صواب المسئولين في البيت الأبيض عندما اكتشفوا أن الحكومة العراقية ليست ندا لـ"مقتدى الصدر"، الذي كان جيش المهدي الشيعي

التابع له يسيطر على أحياء بغداد الفقيرة، أو "أبو مصعب الزرقاوى" السفاح السنى الذى كان يحلو له قطع رؤس الأمريكيين وعرض النتائج المروعة على "الإنترنت"؛ وفى مارس ٢٠٠٦ كان "چورچ دبليو بوش" يهدر محبطا: "أين "چورچ واشنطن"؟ أين "توماس چيفرسون"؟ أين "چون آدمز" للصراخ بأعلى صوت؟ إنه "حتى" لا يستطيع ذلك"(١٢١).

بالرغم من ذلك، ظل كثيرون من معارضى حرب "بوش" فى العراق مقتنعين بأن المشكلة الحقيقية كانت فى واشنطن وليس فى بغداد، وكان البعض يتساءلون ما إذا كان التساؤل الأفضل كان لابد من أن يكون: "أين "چون كوينسى آدمز – John Quincy Adams". بين "چون كوينسى آدمز" و"چورچ دبليو بوش" أوجه شبه كثيرة مشتركة: كلاهما تخرج فى "هارڤارد"، كلاهما شغل أبوه منصب الرئيس فترة واحدة، كلاهما أصبح رئيسا رغم خسارة التصويت الشعبى، إلا أن "چون كوينسى آدمز"، على خلاف "چورچ دبليو بوش" دخل البيت الأبيض فى ١٨٢٤ وهو يحمل خبرة طويلة فى الخارج وتجربة أكبر فى السياسة الخارجية، فأثناء عمله لمدة ثمانى سنوات وزيرا للخارجية فى إدارة "چيمس مونرو – James Monroe" فهم جيدا حدود القوة وقوة الأفكار، ولم يكن غريبا عندما دعا البعض فى "كاپيتول هيل" إلى أن تقوم أمريكا بالمساعدة فى تحرير أمريكا اللاتينية من الاستبداد الإسپانى أن يلتزم "آدمز" [وزير الخارجية] الحذر ويقول ٤ يوليو ١٨٢١: "بنفس الصوت الذى أكَّدَت من خلاله وجودها كأمة، أعلنت أمريكا للبشرية حقوق الطبيعة الإنسانية المتعذر القضاء عليها، ولكنها لا تذهب إلى الخارج بحثا عن وحوش لتقتلها". باختصار، كان "چون كوينسى آدمز" يقول إن تصدير الديمقراطية مسألة محفوفة بالمخاطر فى أماكن مثل أمريكا اللاتينية، حيث كانت قوى اجتماعية راديكالية جديدة قد أصبحت عصية على السيطرة أو الترويض(١٢٢).

وبالرغم من أن وحوشا لا يمكن السيطرة عليها أو ترويضها، بعضها من صنع أمريكا نفسها، كانت تبدو على وشك تدمير كل آمال الديمقراطية فى العراق فى أوائل

٢٠٠٧، فإن "چورچ دبليو بوش" كان ما زال مصمما أكثر من أى وقت مضى على الاستمرار حتى النهاية. فى ٢٧ فبراير كان "أندرو روبرتس – Andrew Roberts" الرجعى مؤلف كتاب "تاريخ الشعوب الناطقة بالإنجليزية منذ ١٩٠٠" قد تناول الغداء فى البيت الأبيض مع ساكن المكتب البيضوى الذى درس التاريخ القديم، الذى يبدو أنه كان يقرأ الكتاب الجديد فى وقت فراغه؛ وباعتباره أحد الذين يعتبرون الإسلام قوة من أجل التحضر، وضع "روبرتس" للفصل الأول من كتابه عنوان "حمل عبء الرجل الأبيض". وامتدح "ونستون تشرشل – Winston Churchill" لأنه صمد فى وجه الشمولية الفاشية والشيوعية واعتبر انسحاب بريطانيا من الشرق الأوسط بعد أزمة السويس استسلاما للقومية العربية الراديكالية، وهو ما أدى إلى أحداث الحادى عشر من سبتمبر فى ما بعد؛ وحسب ما تقول "سوزان چيل كرايست – Susan Gilchrist" زوجة "روبرتس" فإن "بوش" كان معجبا بالفعل بما قرأ، حيث قالت لأحد الصحفيين بعد ذلك: "كنت أظن أننى معجبة بزوجى، ولكن ذلك لم يكن شيئا أمام افتتان الرئيس "بوش" به"، وكان سبب ذلك أن "روبرتس" شبهه (من قبيل المجاملة) بكثير من شخصيات القرن التاسع عشر التاريخية الذين كان الرئيس الثالث والأربعين قد درسهم قبل أربعة عقود فى "يال"، وشرح "روبرتس" كيف أن نزعة "المحافظة الجديدة" لتصدير الديمقراطية الليبرالية هى التى كانت تحرك رجال الدولة البريطانية مثل "چورچ كاننج – George Canning" ولورد "پالمرستون – Palmerston"، تماما مثلما كانت البحرية الملكية تطبق مفهوم الأعمال العسكرية الاستباقية فى حروب نابليون"، والأهم من ذلك كله أن "روبرتس" كان مصرا على أن معركة "بوش" ضد الإرهاب هى مرادف القرن العشرين لمعركة "تشرشل" ضد النازية، وخَلُصَ إلى أن "چورچ دبليو بوش" "لم يخترع مبدأ جديدا وإنما قام بتكييف مبدأ قديم لكى يناسب ظروفا جديدة على نفس الدرجة من الرعب"[١٢٣].

وحيث إنه كان أمرا يدعو للسعادة أن يشبهه بـ"پالمرستون" و"تشرشل"، فلربما كان من الأفضل أن تتسع قراءاته قليلا، فإلى جانب برنامج يحتوى على أعمال من

تأليف "ناثان شارانسكى" و"أندرو روبرتس"، بالإضافة إلى قصة حياة "چون آدمز" التى كتبها "ديڤيد ماكلو – David McCullough" ربما يكون عليه أن يفكر فى إضافة عمل من الأدب القصصى وهو رواية "عبثستان" من تأليف "شتينجارت – Shteyn-gart" التى تجمع بين التراچيديا والكوميديا. عندما يصل بطل الرواية إلى جمهورية سوڤيتية سابقة (متخيلة) فى حوض بحر قزوين تشبه "أذربيچان" إلى حد ما، وهو أمريكى روسى يدعى "ميشا ڤينبرج"، فإنه يحاول وينجح فى حرب أهلية بين جماعتين عرقيتين [السيڤوز والسڤينز] كلتاهما مرتبطتان بشركات أمريكية متعددة الجنسية متنافسة تحاول السيطرة على نفط "عبثستان"؛ وقبل وقت قصير من إعدام الناشط "ساكا الديمقراطى" وهو من "السيڤوز"، على يد كتيبة إعدام من "السڤينز" نجده يفكر فى معنى الديمقراطية. "الأمريكيون كانوا يساعدوننا، ماكينات تصوير زيروكس... استخدام مجانى لخطوط الفاكس بعد التاسعة مساء... وجبات بسعر مخفض فى المطعم... خمسة آلاف نسخة مجانا من كتاب رونالد ريجان "حياة أمريكية"... إننا نعرف ما هى الديمقراطية... نقرأ عنها... لقد شهدنا القرن الواحد والعشرين، لكن كيف يمكن أن نجعلها تتحقق هنا؟ بصراحة يا مستر ڤينبرج... بمجرد أن يجف النفط... من فى هذا العالم سيعرف حتى ما إذا كان لنا وجود؟"(١٢٤).

قبل خمسة وثلاثين عاما من صدور "عبثستان" كتب الشاعر العربى الشهير "على أحمد سعيد"، المعروف فى العالم العربى والإسلامى بـ"أدونيس"، قصيدة "جنازة نيويورك(*)– The Funeral of New York" وهى مادة أخرى لعل "چورچ دبليو بوش" يفكر فى إضافتها إلى قائمة الكتب التى ينبغى أن يقرأها، أدونيس يبدأ القصيدة كما يلى: "سمها مدينة بأربعة أرجل تتقدم نحو القتل"، "نيويورك امرأة، تمسك كما يقول التاريخ بإحدى يديها مزقة يقال لها الحرية، وبالأخرى تخنق الأرض"، ثم يكمل بعد ذلك فى سطور تتنبأ بشكل مخيف بأحداث الحادى عشر من سبتمبر: "بالرغم من ذلك كله، فأنت تلهث فى فلسطين وهانوى، شرقا وغربا تنافس بشرا تاريخهم الوحيد هو

(*) انظر الملحق رقم ١١ فى آخر الكتاب. (المترجم)

النار... فلتتفتت تماثيل الحرية. من الجثث تنبت الآن المسامير كالزهور... ريح شرقية تقتلع الخيام وناطحات السحاب بأجنحتها"؛ وخشية أن يكون هناك أى شك فى رسالته، يخلط "أدونيس" الشعر بالسياسة الخارجية فى عباراته الموجعة: "للقطط والكلاب القرن الواحد والعشرون! وللناس الإبادة فى هذا القرن الأمريكى. لنكن نحن الجلادين.. دع الزمن يطفو فوق بحر هذه المعادلة: نيويورك زائد نيورك تساوى جنازة، نيويورك ناقص نيويورك تساوى الشمس". "أدونيس كتب قصيدته بالفعل فى "جرينوتش ڤيلدج"، على بعد أقل من ميلين من موقع البناء حيث كان العمال يضعون اللمسات الأخيرة على مركز التجارة العالمى، وأثناء إقامته القصيرة فى "نيويورك سيتى" صادق الشاعر أمريكيين كثيرين، ولكنه كان كذلك مغضبا بسبب السياسة الخارجية الأمريكية. كان يرى "هوشى منه" و"ياسر عرفات" إخوة فى النضال ضد الاستعمار، كان، باختصار، يمقت القرن الأمريكى الأصلى فى ١٩٧١ كما يمقت مشروع القرن الأمريكى الجديد اليوم[١٢٥].

بعد قراءة ما يتيسر له من الشعر العربى والأدب الأمريكى ربما يفكر الرئيس فى إلقاء نظرة عن كثب على كتيب صغير كان على رف مكتبته قبل عام تقريبا، وهو "تقرير مجموعة دراسة حالة العراق". فى مارس ٢٠٠٦ كان الكونجرس قد شكل لجنة فرعية خاصة بالعراق برئاسة "لى هاميلتون – **Lee Hamilton**" (ديمقراطى من إنديانا) و"چيمس أ. بيكر – **James A.Baker**" (جمهورى من تكساس) الذى كان وزيرا للخارجية عندما دخل والد "چورچ دبليو بوش" المكتب البيضوى. بعد تسعة أشهر أصدرت اللجنة تقريرا أحدثت قراءته هما وغما عظيمين فى البيت الأبيض. لجنة "بيكر – هاميلتون" التى وصفت الأوضاع فى العراق بأنها "خطيرة ومتدهورة" أوصت باستراتيچية من جزأين للخروج من الأزمة، كأفضل بديل من بين خيارات كانت كلها رديئة. أولا: لابد من أن تُدْخِلَ وزارة الخارجية دولتين جارتين للعراق [إيران وسوريا] فى حوار دبلوماسى بناء بهدف وقف تدفق الدعم الخارجى للمتمردين. ثانيا: لابد من أن يحول البنتاجون تركيزه من على قتال الميليشيات السنية والشيعية إلى تدريب الجيش العراقى والشرطة العراقية اللذين يمكنهما المساعدة فى دعم التهدئة الضرورية

لإيقاف سفك الدماء، وقبل كل شيء ينبغى "ألا يلتزم البيت الأبيض التزاما مفتوحا بالاحتفاظ بأعداد كبيرة من القوات المنتشرة فى العراق". كانت اللجنة الفرعية، وهى تعترف بأنه "لا يوجد مسار يضمن النجاح"، مقتنعة تمام الاقتناع بأن الجمع بين هذه المبادرات "الداخلية" و"الخارجية" يمكن أن يساعد على إعادة معظم الجنود الأمريكيين من العراق بحلول سبتمبر ٢٠٠٨[١٢٦]. وبعد تقليب صفحات التقرير، كان الرئيس يرى أن أمريكا "لابد من أن تواصل حتى النهاية" فى بغداد... وأكمل بدعوة "أندرو روبرتس" على الغداء فى البيت الأبيض.

الإضافة الأخيرة إلى مكتبة "چورچ دبليو بوش" الشخصية لابد من أن تكون كتاب "مارك توين": "السذج خارج الوطن"؛ وبالرغم من أن "توين" لم يذهب إلى بلاد الرافدين فإنه كان قد أمضى صيف ١٨٦٧ فى مصر وفى سوريا (مسقط رأس أدونيس) ورأى كيف يخدع الأمريكيون أنفسهم. منذ لحظة إبحار السفينة "كويكر سيتى" من مضيق جبل طارق متجهة إلى شرق المتوسط كان معظم الأمريكيين يفترضون أن ثروة بلادهم وقوتها تكفى لكى توفر لم السلطة المعنوية والأخلاقية اللازمة للسيطرة على الشرق الأوسط، وخلال النصف الأخير من القرن العشرين سيكون لدى أمريكا الفرصة لاختبار صحة هذا الافتراض، أما النتائج كما ظهرت فى العراق فى بداية الألفية الجديدة فكانت مؤلمة. وبالرغم من أن مؤلف "السذج خارج الوطن" كان يمكن أن يفهم طبيعة النزعة التوسعية الأمريكية التى جرَّت الولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط، فلربما كان يمكن بالمثل أن يرتاب فى حكمة الدخول بين العرب والإسرائيليين، ويرى حلولا مشتركة "لشفط النفط" من الخليج الفارسى، وثورات بيضاء فى إيران "محمد رضا بهلوى"، وقرارات من الأمم المتحدة لجلب السلام للأرض المقدسة... يرى ذلك كله أمورا صادرة عن نوايا طيبة ولكنها مضللة، والمؤكد أنه كان سيعتبر العمل السرى والتدخل العسكرى حماقة... وإن كانت متوقعة.

بالرغم من ذلك كله يمكن أن نكون على ثقة من أمر واحد، وهو أن صانع شخصية "هكلبرى فن" ومؤسس الرابطة الأمريكية ضد الاستعمار كان يمكن أن يعتبر

محاولة "چورچ دبليو بوش" لتصدير الديمقراطية على فوهات المدافع بمثابة القدوم الثانى لغزو "تيودور روزفلت" للفيليپين قبل قرن من الزمان - حرب ضرورة أخرى مضللة كان يمكن ألا تكون، ضحاياها يُعتقدُ أنهم متخلفون وبرابرة وفى حاجة ماسة إلى مساعدة الولايات المتحدة. من الصعب أن نعرف أى الرقمين كان سيصيب "توين" بالفزع أكثر من الآخر: هل هو التريليون دولار التى سوف يتحملها دافع الضرائب الأمريكى من جراء حرب العراق، أم الـ٦٥٥٠٠٠ قتيل (وأكثر) من المدنيين العراقيين؟[١٢٧].

بسخريته المعروفة عنه مثل ماركة مسجلة باسمه، لخص "مارك توين" لقاءه المباشر بشعوب الشرق الأوسط قبل مائة وأربعين عاما: "لقد نزلنا عليهم بكل عظمة أمريكا حتى دمرناهم". وبينما يفكر "چورچ دبليو بوش" فى المستنقع الذى يزداد عمقا فى العراق فلربما كان من الأفضل له أن يقرأ "أندرو روبرتس" قليلا ويقرأ "مارك توين كثيرا".

الهوامش

1. To avoid confusion, the current occupant of the Oval Office will be referred to as George W. Bush. His father, who was president from 1989 to 1993, will be referred to as George Bush.

2. "Text of President Bush's Address," *New York Times*, 21 Sept. 2001.

3. Painter, *Oil and the American Century*; David Schoenbaum, *United States and Israel*; Bill, *Eagle and the Lion*.

4. Hahn, *United States, Great Britain, and Egypt*; Kunz, *Economic Diplomacy of the Suez Crisis*; Neff, *Warriors for Jerusalem*; Freedman and Karsh, *Gulf Conflict*.

5. Fraser, *USA and the Middle East since World War 2*; Lenczowski, *American Presidents and the Middle East*; Brands, *Into the Labyrinth*. An exception to this rule is Tillman, *United States in the Middle East*, whose topical approach combines the depth of a monograph with the breadth of a survey.

Chapter One

1. Hunt, *Ideology and U.S. Foreign Policy*, 79, 163, 177.

2. Said, *Orientalism*, 31–49, 284–328. For an interesting discussion of Said's analytical approach, see Rotter, "Saidism without Said."

3. Lutz and Collins, *Reading National Geographic*, 11–14, 119–53.

4. On the earliest English translations, see the introductory essay in Haddawy, *Arabian Nights*, xv–xvii.

5. Allison, *Crescent Obscured*, xiv–xviii, 190–92.

6. Ibid., 204–6.

7. "Affairs of Greece," *North American Review*, 41 (Oct. 1823): 420.

8. Field, *America and the Mediterranean World*, 154–65.

9. Diary entry, 6 Jan. 1839, in Charles Francis Adams, *Memoirs of John Quincy Adams*, 10:90–91.

10. Sachar, *History of the Jews in America*, 48–51, 72–75.

11. Field, *America and the Mediterranean World*, 274–85.

12. "The Dead Sea, Sodom, and Gomorrah," *Harper's New Monthly Magazine*, Jan. 1855, quoted in Davis, *Landscape of Belief*, 5.

13. Sha'ban, *Islam and Arabs in Early American Thought*, xiii–xxi.

14. Davis, *Landscape of Belief*, 101–48.

15. Edwards, *Noble Dreams, Wicked Pleasures*, 12–18, 31–34, 77–82.

16. Twain, *Innocents Abroad*, 516.

17. Ibid., 101, 431, 433, 499.

18. For the impact of Twain's *Innocents Abroad* and other nineteenth-century travel literature on U.S. popular culture, see Christison, *Perceptions of Palestine*, 16–25.

19. Quoted in Field, *America and the Mediterranean World*, 311.

20. Ibid., 345–59.

21. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom*, 45.

22. Pearson to DOS, 12 Aug. 1906, *FRUS 1906*, 2:1216–17.

23. Leishman to DOS, 8 Aug. 1908, *FRUS 1908*, 747–48, and 15 Apr. 1909, *FRUS 1909*, 563–65.

24. Roosevelt to Spring Rice, 1 July 1907, and to Silas McBee, 27 Aug. 1907, in Morison, *Letters of Theodore Roosevelt*, 5:698–99, 774–75. On Roosevelt's orientalized views of Egypt and the Arabs, see Brands, *Last Romantic*, 33–36, 660–61.

25. Roosevelt to Lyman Abbott, 29 May 1908, in Morison, *Letters of Theodore Roosevelt*, 6:1042–43. For more on Roosevelt and Jews, see Blum, *Republican Roosevelt*, 37–38.

26. Roosevelt to Lioubomir Michailovitch, 11 July 1918, and to Julian H. Miller, 16 Sept. 1918, in Morison, *Letters of Theodore Roosevelt*, 8:1350, 1372.

27. Sanders, *Shores of Refuge*, 116–17.

28. Morris, *Righteous Victims*, 20–26, 56–59. For the 85,000 figure, see Hourani, *History of the Arab Peoples*, 288–89, and Tessler, *History of the Israeli-Palestinian Conflict*, 145.

29. Grose, *Israel in the Mind of America*, 46–71.

30. Balfour to William Wiseman, 6 Oct. 1917, and Wilson to Edward House, 13 Oct. 1917, in Link, *Papers of Woodrow Wilson*, 44:324–25, 371; Lebow, "Wilson and the Balfour Declaration," 507–13.

31. Sanders, *High Walls of Jerusalem*, 594–613.

32. Fromkin, *Peace to End All Peace*, 396–98; Howard, *King-Crane Commission*, 36–51, 270–75.

33. James Harbord, "Report of the American Military Mission to Armenia," 16 Oct. 1919, *FRUS 1919*, 2:849–50, 859–60, 865, 874.

34. Michalek, "Arab in American Cinema"; Edwards, *Noble Dreams, Wicked Pleasures*, 99–117.

35. Lawrence, *Revolt in the Desert*. On the reaction to Lawrence's two books, see Liddell Hart, *T. E. Lawrence*, 403, and Jeremy Wilson, *Lawrence of Arabia*, 782–90.

36. *National Geographic Magazine*, May 1923, 568. For an account of the discovery of King Tut's tomb and its impact on the popular imagination, see John A. Wilson, *Signs and Wonders upon Pharaoh*, 159–66.

37. Williams, "East of Suez," 737.

38. Harnet Chalmers Adams, "Cirenaica," 692, 714–15.

39. Van Der Meulen, "Into Burning Hadhramaut," 387.

40. Whiting, "Among the Bethlehem Shepherds" and "Bethlehem and the Christmas Story"; Keith-Roche, "Pageant of Jerusalem."

41. Keith-Roche, "Changing Palestine," 521, 527.

42. Simpich, "Change Comes to Bible Lands," 708, 710, 730, 748.

43. Grose, *Israel in the Mind of America*, 93–104.

44. Zionist Organization of America membership figures are from David Schoen-

baum, *United States and Israel*, 19. See also Grose, *Israel in the Mind of America*, 225–31.

45. Murray to Acting Secretary of State R. Walton Moore, and Moore memcon, 18 Nov. 1936, *FRUS 1936*, 3:455–59.

46. Burleigh and Wippermann, *Racial State*, 77–86.

47. Cohen, *Palestine: Retreat from the Mandate*, 66–87.

48. Quoted in Grose, *Israel in the Mind of America*, 134.

49. FDR to Hull, 17 May 1939, *FRUS 1939*, 4:757–58.

50. Baram, *Department of State in the Middle East*, 249–54.

51. Wyman, *Abandonment of the Jews*, 19–41.

52. Grose, *Israel in the Mind of America*, 169–76; Wyman, *Abandonment of the Jews*, 157–77.

53. Quoted in David Schoenbaum, *United States and Israel*, 29.

54. FDR to Wagner, 15 Oct. 1944, *FRUS 1944*, 5:615–16. This letter was evidently drafted by Stephen Wise. See Halperin and Oder, "United States in Search of a Policy," 335.

55. Edward Stettinius phone call to Stephen Wise, 15 Nov. 1944, and Stettinius memcon, 23 Nov. 1944, "ERS Calendar Notes and Records of Phone Conversations, 11/15/44–11/27/44," box 243, Stettinius Papers; FDR to Wagner, 3 Dec. 1944, in Roosevelt, *F.D.R.*, 2:1559.

56. William Eddy memcon, 14 Feb. 1945, *FRUS 1945*, 8:2–3.

57. Diary entry, 14 Mar. 1945, in Berle and Jacobs, *Navigating the Rapids*, 475–76.

58. Wise, *Challenging Years*, 232.

59. Murray to Acting Secretary of State Joseph Grew, 20 Mar. 1945, *FRUS 1945*, 8:694–95.

60. Unsigned account of liberation of Buchenwald, n.d. [probably late May 1945], in Hackett, *Buchenwald Report*, 331–34. See also Abzug, *Inside the Vicious Heart*, 45–60.

61. Simpich, "Americans Help Liberated Europe Live Again," 748, 755, 757.

62. Chase, "Palestine Today," 501, 504, 507, 509.

63. Ibid., 511, 516.

64. Villiers, "Sailing with Sindbad's Sons," 679, 686.

65. Glueck, "Archaeologist Looks at Palestine," 740–43, 751.

66. "Arab Lands beyond the Jordan."

67. Clark, "Yemen," 632, 644, 672.

68. Truman to Bess, 14 Aug. 1946, in Ferrell, *Dear Bess*, 531.

69. Clifford to Truman, 8 Mar. 1948, *FRUS 1948*, 5:695.

70. McClintock to Dean Rusk, 1 July 1948, ibid., 1173.

71. Kennan, *Memoirs*, 184, 380.

72. CIA Report SR-13, "Arab World," 27 Sept. 1949, Office of Privacy Coordination, CIA.

73. Coon quoted in Kaplan, *Arabists*, 110.

74. Diary entry, 13 Aug. 1952, in Berle and Jacobs, *Navigating the Rapids*, 607.

75. Troutbeck to Eden, 31 Oct. 1952, quoted in Louis, "British and the Origins of the Iraqi Revolution," 35.

76. Ike to Mamie, 27 Nov. 1942, in John S. D. Eisenhower, *Letters to Mamie*, 66.

77. Dwight D. Eisenhower, *The White House Years: Mandate for Change*, 150.

78. Eisenhower quoted in Goodpaster memcon, 31 July 1956, *FRUS 1955–57*, 16:
79. Eisenhower quoted in Goodpaster memcon, 23 July 1958, *FRUS 1958–60*, 12:
80. Eisenhower quoted in the minutes of the 410th NSC meeting, 18 June 1959, ib 16:101.
81. John Foster Dulles to Walter Bedell Smith, tel., 13 May 1953, and minutes of 147th NSC meeting, 1 June 1953, *FRUS 1952–54*, 9:25–26, 383–384.
82. Dulles quoted in Heiss, *Empire and Nationhood*, 180.
83. Murphy, *Diplomat among Warriors*, 394, 412–13, 418.
84. Villard to DOS, tel., 12 June 1954, *FRUS 1952–54*, 11:588.
85. Byroade to Foster Dulles, tel., 14 Mar. 1956, "Briefing for Cairo Visit, 3rd And son Visit," box 34, Alpha Files, lot 59D 518, NA.
86. NSC-6011, "U.S. Policy toward the Near East," 19 July 1960, *FRUS 1958–* 12:269.
87. On the rapid transformation of Israelis from "feminized" victims to "hyperm culine" Cold Warriors in U.S. popular culture during the 1950s, see Mart, "Tough G and American Cold War Policy."
88. For the script of the play, see Goodrich and Hackett, *Diary of Anne Frank*.
89. Raviv and Melman, *Every Spy a Prince*, 114–18. For a best-selling contempor account of Eichmann's arrest, trial, and execution, see Arendt, *Eichmann in Jerusaler*
90. Shor, "Crusader Road to Jerusalem," "Conquest of the Holy City," and "Holy L Today."
91. Abercrombie, "Behind the Veil of Troubled Yemen," 402–5, 407, 416.
92. Scofield, "Israel," 396.
93. CIA, NIE 36-61, "Nasser and the Future of Arab Nationalism," 27 June 1961, ' Arab World," box 6, NIE, NSF, LBJL.
94. Komer to JFK, 28 Nov. 1962, *FRUS 1961–63*, 18:238.
95. Komer memcon, 14 Nov. 1963, ibid., 782–83.
96. Glidden quoted in Robert Estabrook to *Washington Post*, tel., 23 May 1963, "(bled Materials," folder 3, box 5, Estabrook Papers.
97. LBJ toast, 14 Apr. 1964, *PPP, Lyndon B. Johnson, 1963–64*, 1:462.
98. B. K. Smith memcon, 22 Jan. 1965, "Miscellaneous Meetings," vol. 1, box Bundy Files, NSF, LBJL.
99. Heikal, *Cairo Documents*, 229–30.
100. Johnson, *Vantage Point*, 289.
101. Roche to LBJ, 22 May 1967, "Middle East Crisis," vol. 1, box 17, NSC Histc Files, NSF, LBJL.
102. Rusk cirtel, 3 June 1967, quoted in Quandt, *Peace Process*, 519 n. 83.
103. Badeau, *American Approach to the Arab World*, 177–78.
104. "CIA Post-Mortem," n.d. [autumn 1973], quoted in Pike, *CIA*, 146 n. 293.
105. Suleiman, *Arabs in the Mind of America*, 119–22.
106. Michener, *The Source*, 882. The first Fawcett paperback edition of *The Source* a peared in January 1967.
107. Harbutt, "Eyewitness to War in the Holy Land," 786.
108. Diary entry, 5 Sept. 1972, in Haldeman, *Diaries*, 501; Nixon remarks to reporte 5 Sept. 1972, *PPP, Richard M. Nixon, 1972*, 857–58.
109. Kissinger, *Years of Upheaval*, 202–3.

110. Nixon, *RN*, 1011–12.

111. Ford, *Time to Heal*, 290–91. For Ford's gaffe, see his toast, 27 Oct. 1975, *PPP, Gerald R. Ford, 1975*, 2:1728.

112. Carter, *Keeping Faith*, 328.

113. Arden, "Eternal Sinai," 453–56.

114. Diary entry, 6 Oct. 1981, in Carter, *Keeping Faith*, 269.

115. Carter, *Blood of Abraham*, 170.

116. Glidden, "Arab World."

117. Patai, *Arab Mind* (1973), 1–5, 30–32, 129, 312–13.

118. Laffin, *Arab Mind Considered*, 15, 22–23, 106–8.

119. Brown, *Last Crusade*, 30–31.

120. Said, *Orientalism*, 287, 291.

121. Said, *Culture and Imperialism*, 260–61.

122. Patai, *Arab Mind* (1983), 356.

123. Pryce-Jones, *Closed Circle*, 16–18.

124. Bernard Lewis, "Roots of Muslim Rage," 50, 52, 59, 60.

125. Table of contents, *Atlantic Monthly*, Sept. 1990, 2; Esposito, *Islamic Threat*, 3–5.

126. Shaheen, *TV Arab*, 59–60.

127. Ibid., 61–62.

128. Stockton, "Ethnic Archetypes and the Arab Image," 133–34, 139, 140, 148. See also Lendenmann, "Arab Stereotyping in Contemporary Political Cartoons."

129. Interview with Jim Hoaglund, in Ghareeb, *Split Vision*, 227–28.

130. Interview with John Cooley, in ibid., 210–11.

131. Interview with Peter Jennings, in ibid., 105–6.

132. Interview with Jim Lehrer, in ibid., 259–60.

133. Ibid. For a critique of PBS coverage of the Iranian revolution and the hostage crisis, see Said, *Covering Islam*, 89–91.

134. Interview with Anthony Lewis, in Ghareeb, *Split Vision*, 199–200.

135. Uris, *The Haj*, 81. For a fuller examination of these orientalist themes in other novels, see Christison, "Arab in Recent Popular Fiction."

136. For an discussion of the "jihad" themes implicit in *True Lies* and other Hollywood fare, see Rahme, "Ethnocentric and Stereotypical Concepts in the Study of Islamic and World History."

137. Ray Hanania, "My Turn: One of the Bad Guys?," *Newsweek*, 2 Nov. 1998, 14. See also "Again, Islam Is an Easy Villain," *New York Times*, 10 Nov. 1998.

138. Chafets, *Double Vision*, 177–78; Karetzky, *Media's War against Israel*, 16–23, 85–89.

139. Arens, *Broken Covenant*, 59.

140. "Islamic Nations Move to Keep Out 'Schindler's List,'" *New York Times*, 7 Apr. 1994.

141. "'Aladdin' Bows to a Protest," *New York Times*, 11 July 1993; "It's Racist, but Hey, It's Disney," *New York Times* editorial, 14 July 1993. For more on the reaction to *Aladdin*, see Schrag and Javidi, "Through a Glass Darkly," 216–20.

142. Bush remarks, 17 Sept. 2001, and address, 20 Sept. 2001, http://www.whitehouse.gov/news.

143. Bush address, 20 Sept. 2001, http://www.whitehouse.gov/news. On the fallout from the events of 11 September among Arab Americans, see Singer, "Home Is Here."

Chapter Two

1. Alfred Hippisley to W. W. Rockhill, 25 July 1899, quoted in Griswold, *Far Eastern Policy of the United States*, 65–66.

2. Yergin, *Prize*, 108–13.

3. Gibb and Knowlton, *History of Standard Oil*, 359–408; Yergin, *Prize*, 134–57, 233–37; Sampson, *Seven Sisters*, 59–69, 78–79.

4. John W. Davis to Lord Curzon, 12 May 1920, and Colby to Curzon, 20 Nov. 1920, *FRUS 1920*, 2:651–52, 669–73.

5. Gibb and Knowlton, *History of Standard Oil*, 284–91.

6. Stivers, *Supremacy and Oil*, 110–12.

7. Yergin, *Prize*, 201–4.

8. Sampson, *Seven Sisters*, 80–84; Yergin, *Prize*, 204–5.

9. Anderson, *Aramco*, 22–29.

10. Yergin, *Prize*, 295–98.

11. FDR to Jesse Jones, 18 July 1941, *FRUS 1941*, 3:642–43.

12. Barnhart, *Japan Prepares for Total War*, 165–69; Yergin, *Prize*, 334–38.

13. James A. Moffett (CASOC) to FDR, 16 Apr. 1941, *FRUS 1941*, 3:624–25.

14. Anderson, *Aramco*, 46–49.

15. Yergin, *Prize*, 400–402.

16. Anderson, *Aramco*, 95–107; Sampson, *Seven Sisters*, 112–19.

17. Feis to Hull, 22 Mar. 1943, quoted in Hull, *Memoirs*, 2:1517.

18. DeGolyer quoted in Stoff, *Oil, War, and American Security*, 135–36.

19. FDR to Churchill, tel., 22 Feb. 1944, in Kimball, *Churchill and Roosevelt*, 2:744–45; Yergin, *Prize*, 407.

20. Pew quoted in Stoff, *Oil, War, and American Security*, 182.

21. Painter, *Oil and the American Century*, 66–69.

22. Loftus to John Linebaugh, 31 May 1945, *FRUS 1945*, 8:51–54.

23. Murray to DOS, 25 Sept. 1945, ibid., 417–19.

24. Forrestal quoted in Yergin, *Prize*, 407.

25. Loftus, "Oil in United States Foreign Policy." On the relationship between U.S. consumption and reserves during the 1940s, see Painter, *Oil and the American Century*, 97.

26. Bonnet to Byrnes, 4 Jan. 1947; DOS memcon, 9 Jan. 1947; and Acheson to Bonnet, 10 Apr. 1947, *FRUS 1947*, 5:627–31, 657–60.

27. Anderson, *Aramco*, 154–59; Stoff, *Oil, War, and American Security*, 205–6.

28. Justice Department ruling quoted in Yergin, *Prize*, 416.

29. Forrestal testimony, 29 Jan. 1948, in U.S. Congress, Senate, Special Committee Investigating the National Defense Program, *Investigation of the National Defense Program*, 25290–91.

30. Diary entry, 16 Jan. 1948, box 4, James Forrestal Diaries, Forrestal Papers.

31. Little, "Pipeline Politics," 261–68.

32. DOS, "Current Economic Developments," 23 May 1949, *FRUS, Current Economic Developments, 1945–54* (microfiche ed.), fiche 40; Little, "Pipeline Politics," 277–81.

33. Shwadran, *Middle East, Oil, and the Great Powers,* 343–45.

34. McGhee quoted in Yergin, *Prize,* 447.

35. DOS memcon, 6 Nov. 1950, *FRUS 1950,* 5:106–9.

36. Yergin, *Prize,* 446–47; Painter, *Oil and the American Century,* 165–71.

37. Quoted in Engler, *Politics of Oil,* 211–12.

38. Kaufman, "Mideast Multinational Oil," 946–49.

39. "Security and International Issues Arising from the Current Situation in Petroleum," 6 Jan. 1953, *FRUS 1952–54,* 9:637–48.

40. Department of Justice, "The Grand Jury Investigation of the International Oil Cartel," 6 Jan. 1953, ibid., 650–55.

41. Charles Bohlen, "National Security Council Meeting," 9 Jan. 1953, and Truman to McGranery, 12 Jan. 1953, ibid., 655–56.

42. Engler, *Politics of Oil,* 203; Heiss, *Empire and Nationhood,* 45–76.

43. Acheson, *Present at the Creation,* 503.

44. Yergin, *Prize,* 464.

45. Heiss, *Empire and Nationhood,* 188–201; Shwadran, *Middle East, Oil, and the Great Powers,* 142–49.

46. Minutes of the 180th NSC meeting, 14 Jan. 1954, *FRUS 1952–54,* 10:897–98.

47. Heiss, *Empire and Nationhood,* 203.

48. Kyle, *Suez,* 314–70; minutes of the 303rd NSC meeting, 8 Nov. 1956, *FRUS 1955–57,* 16:1075.

49. Yergin, *Prize,* 486–95; minutes of the 303rd NSC meeting, 8 Nov. 1956, *FRUS 1955–57,* 16:1077–78.

50. On alternative pipeline routes, see DOS memcon, 25 Jan. 1957, *FRUS 1955–57,* 12:443–44.

51. Fraser Wilkins (NEA) to Ike, "Outline of Short Term and Long Term United States Plans in the Middle East," 21 Nov. 1956, 611.80/11-2156, State Department Central Decimal File, RG59, NA.

52. DOS Policy Planning Staff, "United States Objectives with Respect to the Near East," 30 Oct. 1957, *FRUS 1955–57,* 12:646.

53. DOS, INR Report 8091, "Economic and Political Significance of North African Discoveries," 27 Aug. 1959, in *OSS/State Department Intelligence and Research Reports,* pt. 12, reel 3.

54. Terzian, *OPEC,* 42–44.

55. Dulles phone call to John J. McCloy, 2 Jan. 1958, *FRUS 1958–60,* 12:1–2.

56. NSC briefing note, 25 July 1958, "Middle East, 1957–59 (1)," box 13, Records of the Office of the Special Adviser for National Security Affairs, DDEL.

57. DOS memcon, 18 Mar. 1959, *FRUS 1958–60,* 12:214–15.

58. Walter Schwinn (Dhahran) to DOS, tel., 23 Apr. 1959, 886A.2553/4-2359, State Department Central Decimal File, RG59, NA.

59. Yergin, *Prize,* 513–18.

60. Tariki quoted in Engler, *Politics of Oil,* 186.

61. Minutes of the 406th NSC meeting, 13 May 1959, *FRUS 1958–60,* 4:595–606, 610–16.

62. Jones to DOS legal adviser Eric Hager, 20 Apr. 1960, ibid., 12:251–53.

63. Minutes of the 444th NSC meeting, 9 May 1960, and NSC Action 2233, 13 May 1960, ibid., 257–58.

64. Minutes of the 451st NSC meeting, 15 July 1960, ibid., 260–62.

65. Rodger Davies (Baghdad) to DOS, tel., 15 Sept. 1960, and minutes of the 460th NSC meeting, 21 Sept. 1960, ibid., 274, 276.

66. DOS memcon, 19 Oct. 1960, ibid., 277–79.

67. NIE 30-60, "Middle East Oil," 13 Dec. 1960, *FRUS 1958–60*, 4:674–77.

68. Qassim quoted in Skeet, *Opec*, 1.

69. Stork, *Middle East Oil and the Energy Crisis*, 102–4; Yergin, *Prize*, 535.

70. Talbot to George Ball, 18 Dec. 1961, *FRUS 1961–63*, 17:364–66.

71. Jernegan Oral History, 19–20.

72. Robert Komer to McGeorge Bundy, 29 Dec. 1961, *FRUS 1961–63*, 17:378–80.

73. Stork, *Middle East Oil and the Energy Crisis*, 105–7.

74. For oil production figures for the early 1960s, see United Nations, Department of Economic and Social Affairs, *United Nations Statistical Yearbook*, 207.

75. DOS memcon, 13 Jan. 1965, "Near East," vol. 1, box 116, Country Files, NSF, LBJL.

76. Harold Saunders to LBJ, 24 May 1967, *FRUS 1964–68*, 34:419.

77. Ahmed Zaki Yamani to ARAMCO, 7 June 1967, "Middle East Crisis," vol. 4, Memos (1 of 2), box 116, Country Files, NSF, LBJL.

78. Yergin, *Prize*, 555; Brenchley, *Britain and the Middle East*, 150.

79. Rostow to LBJ, 29 May 1967, "Rostow," vol. 2, Memos to the President, box 16, NSF, LBJL.

80. Yergin, *Prize*, 554–56.

81. CIA, "Arab-Israeli Situation Report," 3 July 1967, "Middle East Crisis," vol. 11, box 21, NSC History Files, NSF, LBJL; Little, "Choosing Sides," 179–80.

82. For an excellent discussion of the impact of the 1959 quota on U.S. energy consumption and the pattern of oil imports, see Blair, *Control of Oil*, 169–84.

83. Yergin, *Prize*, 590–94.

84. Terzian, *OPEC*, 108–10.

85. Yergin, *Prize*, 639–42.

86. Sampson, *Seven Sisters*, 248–73.

87. Terzian, *OPEC*, 118–20; Yergin, *Prize*, 577–80.

88. McCloy to Jerome Levinson, 12 July 1974, in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, Subcommittee on Multinational Corporations, *Multinational Corporations and United States Foreign Policy*, pt. 8, 767–68.

89. Testimony of Deputy Secretary of State John Irwin, 31 Jan. 1974, in ibid., pt. 5, 145–51.

90. Yergin, *Prize*, 580–85.

91. McCloy memcon, 21 Jan. 1972, in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, Subcommittee on Multinational Corporations, *Multinational Corporations and United States Foreign Policy*, pt. 6, 303–4.

92. Terzian, *OPEC*, 151–57.

93. Yamani quoted in Yergin, *Prize*, 584.

94. Akins, "Oil Crisis," 467.

95. Exxon officials quoted in Sampson, *Seven Sisters*, 293. See also Terzian, *OPEC*, 166.

96. Faisal quoted in Terzian, *OPEC*, 167.

97. Transcript of 5 Sept. 1973 press conference, *PPP, Richard M. Nixon, 1973*, 735–36.

98. John J. McCloy, "Meeting at Auditorium (Exxon)," 10 Oct. 1973, "Correspondence 1973," folder 15, Oil, box 3, McCloy Papers; Terzian, *OPEC*, 169; Yergin, *Prize*, 639–42.

99. Terzian, *OPEC*, 170, 184–85.

100. Kissinger, *Years of Upheaval*, 854–58.

101. Ibid., 854.

102. Yergin, *Prize*, 657–58; McCloy to Church, 25 Mar. 1974, in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, Subcommittee on Multinational Corporations, *Multinational Corporations and United States Foreign Policy*, pt. 6, 290–93.

103. Church to McCloy, 11 Apr. 1974, in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, Subcommittee on Multinational Corporations, *Multinational Corporations and United States Foreign Policy*, pt. 6, 293–94.

104. Piercy quoted in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, Subcommittee on Multinational Corporations, *Multinational Oil Corporations and U.S. Foreign Policy*, 15.

105. McCloy to Church, 30 May 1974, in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, Subcommittee on Multinational Corporations, *Multinational Corporations and United States Foreign Policy*, pt. 6, 294–96.

106. U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, Subcommittee on Multinational Corporations, *Multinational Oil Corporations and U.S. Foreign Policy*, 17–18.

107. Yergin, *Prize*, 592, 615, 622, 625–26, 681–98.

108. Ibid., 703–14.

109. For an inside account of the impact of growing competitive forces on the Arab oil-producing states, see Chalabi, "World Oil Price Collapse of 1986." Chalabi served as OPEC's deputy secretary general from 1978 to 1989.

110. Freedman and Karsh, *Gulf Conflict*, 180–88.

111. George Bush, "Address to Joint Session of Congress," 11 Sept. 1990, *PPP, George Bush, 1990*, 2:1219.

112. Gause, "Saudi Arabia over a Barrel"; "Oil Price Exceeds $30 a Barrel for First Time since 1991," *New York Times*, 15 Feb. 2000.

113. Hersh, "Annals of National Security," 39. See also "Fears, Again, of Oil Supplies at Risk," *New York Times*, 14 Oct. 2001.

Chapter Three

1. John Winthrop lay sermon, in Merrill and Paterson, *Major Problems in American Foreign Relations*, 30–31.

2. Melville, *White Jacket*, 189.

3. Zahniser, *Uncertain Friendship*, 17–53.

4. For the text of Washington's "Farewell Address," see Merrill and Paterson, *Major Problems in American Foreign Relations*, 74–76.

5. For a concise account of the Anglo-American reconciliation during the early twentieth century, see Hathaway, *Great Britain and the United States*, 1–8.

6. Wise, *Challenging Years*, 232; Wallace Murray to Joseph Grew, 20 Mar. 1945, and FDR to Ibn Saud, 5 Apr. 1945, *FRUS 1945*, 8:694–95, 698.

7. Cohen, *Palestine and the Great Powers*, 56–58.

8. "Report of Earl G. Harrison."

9. Truman, *Years of Trial and Hope*, 138–40; Truman to Attlee, 31 Aug. 1945, *FRUS 1945*, 8:737–39.

10. Stettinius to Truman, 18 Apr. 1945, ibid., 704–5.

11. Truman, *Years of Trial and Hope*, 136–37.

12. Louis, *British Empire in the Middle East*, 397–419.

13. Cohen, "Zionist Perspective," 82–93; Silver, *Begin*, 81–87.

14. Truman quoted in Eddy, *F. D. R. Meets Ibn Saud*, 37.

15. Grose, "President versus the Diplomats," 39; Cohen, *Truman and Israel*, 130–31.

16. Diary entry, 30 July 1946, in Blum, *Price of Vision*, 606–7.

17. Baruch quoted in Ganin, *Truman, American Jewry, and Israel*, 101 (ellipsis in original).

18. Goldmann quoted in ibid., 90; Truman statement, 4 Oct. 1946, *PPP, Harry S. Truman, 1946*, 442–44.

19. Bevin to Marshall, n.d., attached to Henderson to Acheson, 17 Feb. 1947; Marshall to Truman, 17 Apr. 1947; "Report of the First Committee on a Special Committee on Palestine," 13 May 1947; and Marshall to Truman, 16 May 1947, *FRUS 1947*, 5:1051–53, 1070–73, 1083–84, 1085–86. The eleven members of UNSCOP were Australia, Canada, Czechoslovakia, Guatemala, India, Iran, the Netherlands, Peru, Sweden, Uruguay, and Yugoslavia.

20. Cohen, *Truman and Israel*, 149–59.

21. Grose, *Israel in the Mind of America*, 244–54.

22. Macatee to DOS, 31 Dec. 1947, *FRUS 1947*, 5:1322–28; PPS/19, 19 Jan. 1948, attached to George Kennan to George Marshall, 20 Jan. 1948, *FRUS 1948*, 5:545–54; Cohen, *Palestine and the Great Powers*, 301–6, 312–13.

23. Forrestal, 2 memcons, 21 Jan. 1948, "Correspondence: Lovett," box 80, Forrestal Papers.

24. Marshall to Ambassador Warren Austin (USUN), tel., 16 Mar. 1948, *FRUS 1948*, 5:728–29; Truman, *Years of Trial and Hope*, 161; Cohen, *Truman and Israel*, 179–87.

25. Diary entry, 20 Mar. 1948, in Ferrell, *Off the Record*, 127; McCullough, *Truman*, 610–11.

26. Clifford, *Counsel to the President*, 8–9.

27. Clifford quoted in Cohen, *Truman and Israel*, 193.

28. Ibid., 90–91, 195–210. The quote by Dean Alfange is at 208–9.

29. George M. Elsey memcon and DOS memcon, both 12 May 1948, *FRUS 1948*, 5:972–76.

30. Clifford quoted in Daniels, *Man of Independence*, 319.

31. Clifford, *Counsel to the President*, 15.

32. DOS memcon, 12 May 1948, *FRUS 1948*, 5:975.

33. Clifford, *Counsel to the President*, 16–17.

34. Ibid., 21.

35. Lovett memcon, 17 May 1948, *FRUS 1948*, 5:1005–7.

36. Ibid.

37. Quoted in McCullough, *Truman*, 601.

38. Truman to Dean Alfange, 18 May 1948, quoted in Cohen, *Truman and Israel*, 209.

39. Cohen, *Palestine and the Great Powers*, 301–12; Consul General John MacDonald (Jerusalem) to DOS, 17 Sept. 1948, *FRUS 1948*, 5:1412–13; Stanger, "Haunting Legacy," 264–66.

40. Lovett to Marshall, tel., 29 Oct. 1948; Truman to Ben Gurion, in DOS to Special Representative James G. McDonald (Tel Aviv), tel., 30 Dec. 1948, *FRUS 1948*, 5:1528, 1704–5.

41. Ben Gurion quoted in McDonald to DOS, tel., 1 Jan. 1949, *FRUS 1949*, 6:594–95.

42. Kenen, *Israel's Defense Line*, 66–91. Kenen was one of the chief architects of AIPAC.

43. DOS memcon, 14 May 1953, *FRUS 1952–54*, 9:36–40.

44. Dulles, "Report on the Near East"; minutes of the 153rd NSC meeting, 9 July 1953, and NSC-155/1, "U.S. Objectives and Policies with Respect to the Near East," 14 July 1953, *FRUS 1952–54*, 9:397–98, 401–2.

45. DOS to Francis Russell (Tel Aviv), tel., 8 Sept. 1953; Acting Secretary of State Walter Bedell Smith to Eisenhower, 21 Oct. 1953; and DOS memcon, 21 Oct. 1953, *FRUS 1952–54*, 9:1303, 1371–73.

46. DOS memcon, 26 Oct. 1953, and DOS press release, "Aid to Israel," 28 Oct. 1953, ibid., 1384–87, 1390–91.

47. Green, *Taking Sides*, 107–14.

48. Minutes of the 239th NSC meeting, 3 Mar. 1955, and Ambassador Edward Lawson (Tel Aviv) to DOS, 4 Mar. 1955, *FRUS 1955–57*, 14:81–82, 83–86.

49. Neff, *Warriors at Suez*, 112–14; Shlaim, "Conflicting Approaches to Israel's Relations with the Arabs," 191–98 (Sharett quote on 195–96). On the planning for Operation Omer, see Bar-On, *Gates of Gaza*, 48–52. Bar-On served as Dayan's private secretary.

50. Goodpaster memcon, 27 Oct. 1956, and Eisenhower to Ben Gurion, tel., 27 Oct. 1956, *FRUS 1955–57*, 16:793–95.

51. Hughes, *Ordeal of Power*, 211–12.

52. Eisenhower to Ben Gurion, tel., 28 Oct. 1956, and Goodpaster memcon, 29 Oct. 1956, *FRUS 1955–57*, 16:801, 833–34.

53. Goodpaster memcon, 29 Oct. 1956, ibid., 833–39.

54. Eisenhower to Ben Gurion, tel., 7 Nov. 1956, ibid., 1063–64; Eisenhower phone call to Herbert Hoover Jr., 7 Nov. 1956, "Israel (4)," box 29, International Series, AWF, DDEL.

55. Ben Gurion to Eisenhower, 8 Nov. 1956, *FRUS 1955–57*, 16:1095–96.

56. DDE to Ben Gurion, 3 Feb. 1957, "Israel (3)," International Series, AWF, DDEL.

57. Ben Gurion quoted in Bar-Zohar, *Ben-Gurion*, 254.

58. Kenen, *Israel's Defense Line*, 133–37; Knowland to JFD, phone calls, 14, 16, 18 Feb. 1957, and LBJ to JFD, phone call, 14 Feb. 1957, Memoranda of Telephone Calls, Dulles Papers, DDEL.

59. JFD memcon, 16 Feb. 1957, White House Memoranda Series, Dulles Papers, DDEL.

60. Minnich, "Minutes of Bipartisan Legislative Meeting," 20 Feb. 1957, "Feb. 57 Misc. (3)," DDE Diary Series, AWF, DDEL; Sherman Adams, *Firsthand Report*, 280–81.

61. Eisenhower address, 20 Feb. 1957, *Department of State Bulletin* 36 (11 Mar. 1957): 387–90.

62. Eban, *Autobiography*, 244–46; JFD to Lodge, phone call, 24 Feb. 1957, Memoranda of Telephone Calls, Dulles Papers, DDEL.

63. JFD to Hammarskjöld, two phone calls, 25 Feb. 1957, and Lodge to JFD, phone call, 1 Mar. 1957, Dulles Papers, DDEL; Eban, *Autobiography*, 249–53; Rafael, *Destination Peace*, 62–67.

64. Little, "Puppet in Search of a Puppeteer?," 525–28.

65. Eban, *Autobiography*, 263–64; Ben Gurion to Eisenhower, 24 July 1958, "Middle East July 1958 (4)," box 36, International Series, AWF, DDEL.

66. Dulles to Ben Gurion, 1 Aug. 1958, *FRUS 1958–60*, 13:77–79. See also Rountree to Dulles, 22 Aug., 10 Sept. 1958, 784A.56/8-2258 and /9-1058, State Department Central Decimal File, RG59, NA. For the sandbag analogy, see Herzog, *People That Dwells Alone*, 249–50. Herzog was Israel's deputy chief of mission in Washington.

67. Rountree to Dulles, 22 Aug. 1958, and Rountree, "U.S. Response to Israel's Arms Request," 26 Aug. 1958, 784A.56/8-2258 and /8-2658, State Department Central Decimal File, RG59, NA.

68. Eban, *Autobiography*, 263–64.

69. Kenen, *Israel's Defense Line*, 66, 110, 144.

70. Rountree to Herter, 21 Apr. 1959, 784A MSP.5/4-2159, State Department Central Decimal File, RG59, NA. See also Kenen, *Israel's Defense Line*, 148–53.

71. OCB report on the Near East, 3 Feb. 1960, *DDRS 1984*, item 2567.

72. State Department memcon, 10 Mar. 1960, "Israel (2)," box 8, International Series, White House Office of the Staff Secretary, DDEL; "Considerations Bearing on Israel's Request for Hawk Missiles," n.d. [July 1960], *DDRS 1989*, item 187; Herter to Ben Gurion, 4 Aug. 1960, *DDRS 1987*, item 1462.

73. Eban, *Autobiography*, 272.

74. On the background to the Dimona imbroglio, see Clifton to JFK, "Ben Gurion's Resignation," 8 Feb. 1961, *DDRS 1979*, item 352A; Quester, "Nuclear Weapons and Israel," 548–49; Hersh, *Samson Option*, 47–81.

75. Herter testimony, 6 Jan. 1961, in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, *Executive Sessions*, 13:7; Eisenhower's message and Ben Gurion's rejoinder are quoted in Bar-Zohar, *Ben-Gurion*, 271–72.

76. Memo for the record, 6 Dec. 1960, "Memos of the Staff re Change of Administration," box 1, Transition Series, AWF, DDEL.

77. Bundy to Kennedy, 29 May 1961, *FRUS 1961–63*, 17:132–33.

78. DOS memcon, 30 May 1961, ibid., 134–41.

79. Talbot to Feldman, 9 Aug. 1962; Feldman to JFK, 10 Aug. 1962; JFK to Ben Gurion, 15 Aug. 1962; and Feldman to JFK and Rusk, 19 Aug. 1962, all in Countries: Israel, box 119, NSF, JFKL.

80. Bundy, *Danger and Survival*, 510. Feldman confirmed the link between the Hawks and the Dimona reactor six years after he visited Tel Aviv. See *New York Times*, 16 June 1968.

81. DOS cirtel, 31 Oct. 1962, *FRUS 1961–63*, 18:196–98.

82. State Department memcon, "Conversation with Foreign Minister Meir," 27 Dec. 1962, Countries: Israel, box 119, NSF, JFKL. See also Hersh, *Samson Option*, 118.

83. DOS, "Near East Tour d'Horizon," 2 Apr. 1963, Countries: Israel, box 119, NSF, JFKL; Sherman Kent (CIA), "Consequences of Israel Acquisition of Nuclear Capability," 6 Mar. 1963, *FRUS 1961–63*, 18:398–401. On the disarmament task force, see Talbot to Rusk, 14 May 1963, Countries: Israel, box 119, NSF, JFKL.

84. JFK to Ben Gurion, tel., 4 May 1963, *FRUS 1961–63*, 18:511–14; DOS cirtel, 9 May 1963, Countries: Israel, box 119, NSF, JFKL.

85. Komer to McGeorge Bundy, 6 May 1963, box 322, Meetings and Memoranda: Komer, and Komer, "Memorandum for the Record," 14 May 1963, Countries: Israel, box 119, NSF, JFKL; Komer Oral History, 75–76.

86. Talbot to Rusk, 14 May 1963, and Rusk to JFK, 16 May 1963, both in Countries: Israel, box 119, NSF, JFKL.

87. Burns, *Economic Aid and American Policy toward Egypt*, 141–43; remarks by Hermann Eilts at the New England Historical Association Conference, 21 Oct. 1989, Smith College, Northampton, Mass.

88. Komer to McGeorge Bundy, 14 May 1963, Meetings and Memoranda: Komer, box 322, and Glenn Seaborg to Bundy, 1 July 1963; Barbour to Rusk, tel., 16 Aug. 1963; and Read to Bundy, 24 Sept. 1963, Countries: Israel, box 119, all in NSF, JFKL.

89. Rodger Davies (NEA), "U.S. Security Guarantee for Israel," 11 Sept. 1963, Countries: Israel, box 119, NSF, JFKL.

90. JFK to Eshkol, 2 Oct. 1963, and Komer memcon, 21 Nov. 1963, *FRUS 1961–63*, 18:720–22, 797–801.

91. Talbot memcon, 25 Nov. 1963, in *Lyndon B. Johnson National Security Files*, reel 1, frame 44.

92. On pro-Israel sentiment among LBJ's advisers and friends, see Spiegel, *Other Arab-Israeli Conflict*, 128–29; Neff, *Warriors for Jerusalem*, 83–84, 110–11; and Tivnan, *Lobby*, 59–60.

93. Rusk to LBJ, 25 Feb. 1964, Country Files: UAR, box 158, NSF, LBJL.

94. Feldman to LBJ, 14 Mar. 1964; Komer to LBJ, 4 Mar. 1964; and McGeorge Bundy to LBJ, 12 May 1964, Memos to the President, box 1, NSF, LBJL; Peres, *David's Sling*, 103–7.

95. Deputy Assistant Secretary of Defense for International Security Affairs Peter Solbert to McGeorge Bundy, 8 Mar. 1965, in *Lyndon B. Johnson National Security Files*, reel 3, frames 150–56.

96. "U.S. Draft Memorandum of Understanding," n.d. [late Mar. 1965], and Rusk to Talbot, tel., 21 Apr. 1965, in *Lyndon B. Johnson National Security Files*, reel 1, frames 239–44, 378–80.

97. Rusk to Barbour, tel., 14 Oct. 1965; Barbour to Rusk, tel., 29 Oct. 1965; and Benjamin Read (State Department Secretariat) to Walt Rostow, 30 Apr. 1966, all in *Lyndon B. Johnson National Security Files*, reel 1, frames 282, 353–54, 513–15.

98. "U.S. Arms Sale to Israel," n.d., attached to Rusk to LBJ, 29 July 1966, in *Lyndon B. Johnson National Security Files*, reel 3, frames 318, 336–37.

99. Spiegel, *Other Arab-Israeli Conflict*, 136–37; Neff, *Warriors for Jerusalem*, 40–46, 57–58; Dann, *King Hussein and the Challenge of Arab Radicalism*, 154–57.

100. Harold Saunders, "The President's Stake in the Middle East," 16 May 1967, Memos to the President, box 16, NSF, LBJL.

101. Ibid.

102. Johnson, *Vantage Point*, 290–93.

103. "United States Policy and Diplomacy in the Middle East Crisis, May 15–June 10, 1967," vol. 1, appendix P, box 20, NSC History Files: 1967 Middle East Crisis, NSF, LBJL, 34–35.

104. Miller, *Lyndon*, 478–79.

105. Minutes of the NSC Meeting, 24 May 1967, vol. 4, tab. 52, ME Crisis, box 2, NSC Meeting File, NSF, LBJL.

106. For the latest sanitized account of this meeting, see DOS memcon, 26 May 1967, *DDRS 1993*, item 546.

107. Miller, *Lyndon*, 480.

108. "United States Policy and Diplomacy in the Middle East Crisis, May 15–June 10, 1967," vol. 1, appendix P, box 20, NSC History Files: 1967 Middle East Crisis, NSF, LBJL, 97.

109. Quandt, "Lyndon Johnson and the June 1967 War," 221.

110. Eban, *Personal Witness*, 405.

111. Evron quoted in Melman and Raviv, *Friends in Deed*, 119–20.

112. Rusk to Gromyko, tel., 5 June 1967, 72D 192, box 927, Rusk Papers.

113. Johnson, *Vantage Point*, 303–4.

114. Rusk and Eban are quoted in Thomas J. Schoenbaum, *Waging Peace and War*, 463. For further evidence of Rusk's concerns about Israeli territorial and nuclear ambitions, see Rusk, *As I Saw It*, 343, 389.

115. Saunders to Rostow, "Rough Sketch of Package for Eshkol," 29 Dec. 1967, Country Files: Israel, box 144, NSF, LBJL.

116. Rostow to LBJ, "The Issues for Eshkol," 5 Jan. 1968, and "Notes on Meeting between LBJ & Eshkol," 7–8 Jan. 1968, both in Country Files: Israel, box 143, NSF, LBJL.

117. Bick, "Ethnic Linkages and Foreign Policy," 166–67.

118. Rusk to Hart, tel., 19 Sept. 1968, Country Files: Israel, box 142, NSF, LBJL.

119. LBJ to Eshkol, 23 Oct. 1968, *DDRS 1996*, item 1719.

120. Warnke, "Negotiations with Israel: F-4 and Advanced Weapons," 4 Nov. 1968, Country Files: Israel, box 142, NSF, LBJL.

121. Warnke to author, 12 Sept. 1989, in author's possession. On AIPAC's role in the Phantom negotiations, see Spiegel, *Other Arab-Israeli Conflict*, 161–64.

122. Safire, *Before the Fall*, 565.

123. NSSM 2, "Middle East Policy," 21 Jan. 1969, Information Policy Directorate, National Security Memoranda, NSC.

124. Nixon news conference, 27 Jan. 1969, *PPP, Richard M. Nixon, 1969*, 18.

125. Nixon quoted in Kissinger, *White House Years*, 372–73.

126. Rabin, *Memoirs*, 156.

127. Rogers, "Lasting Peace in the Middle East."

128. Rabin, *Memoirs*, 158–62. Meir is quoted on 158.

129. Kenen, *Israel's Defense Line*, 238.

130. Nixon, *RN*, 479–81.

131. Ibid., 481.

132. Kissinger, *White House Years*, 571.

133. Spiegel, *Other Arab-Israeli Conflict*, 195; Quandt, *Decade of Decisions*, 112.

134. Kissinger, *White House Years*, 625.

135. Kissinger quoted in Rabin, *Memoirs*, 189.

136. Quandt, *Decade of Decisions*, 143–47; Cockburn and Cockburn, *Dangerous Liaisons*, 170–73.

137. Nixon quoted in Sulzberger, *World and Richard Nixon*, 185.

138. For the details on the airlift, see Quandt, *Decade of Decisions*, 185 n. 46.

139. Nixon, *RN*, 923–24; Kenen, *Israel's Defense Line*, 300–303.

140. Schlesinger interview, 25 Apr. 1989, quoted in Hersh, *Samson Option*, 230, 330.

141. Spiegel, *Other Arab-Israeli Conflict*, 251–55.

142. Kissinger, *Years of Upheaval*, 1136–37.

143. Nixon, *RN*, 1017–19.

144. Ford quoted in Golden, *Quiet Diplomat*, 314–15. Max Fisher was Ford's liaison with the American Jewish community.

145. Ford to Rabin, 21 Mar. 1975, quoted in Rabin, *Memoirs*, 256; David Schoenbaum, *United States and Israel*, 233–34.

146. Minutes of the NSC meeting, 28 Mar. 1975, *DDRS 1996*, item 506.

147. Ford, *Time to Heal*, 308.

148. Rabin, *Memoirs*, 261.

149. NSC, "Middle East Interim Agreement," 4 Sept. 1975, *DDRS 1996*, item 1042.

150. Carter remarks at Clinton, Mass., 16 Mar. 1977, *PPP, Jimmy Carter, 1977*, 1:387.

151. Rabin, *Memoirs*, 298–300.

152. Carter, *Keeping Faith*, 288, 292–93.

153. Brzezinski, *Power and Principle*, 247–49; Tivnan, *Lobby*, 124–29.

154. David Schoenbaum, *United States and Israel*, 260–73; Spiegel, *Other Arab-Israeli Conflict*, 361–79.

155. Reagan, *American Life*, 410; Spiegel, *Other Arab-Israeli Conflict*, 406.

156. Haig, *Caveat*, 165–71, 325–28; "U.S.-Israel Memorandum of Understanding," 30 Nov. 1981, in Laqueur and Rubin, *Israel-Arab Reader*, 420–21.

157. Begin quoted in Haig, *Caveat*, 328–29. On Reagan, Begin, and the battle over AWACS, see Tivnan, *Lobby*, 138–61, and Samuel Lewis, "United States and Israel," 233–36.

158. Sharon and Habib quoted in Schiff and Ya'ari, *Israel's Lebanon War*, 65–66.

159. Haig, *Caveat*, 335.

160. Lewis and Tanter quoted in Melman and Raviv, *Friends in Deed*, 218–19.

161. *New York Times*, 21, 26 Jan. 1983.

162. On NSDD-111 and the Eagleburger mission, see Gwertzman, "Reagan Turns to Israel," 62–64.

163. On the Shamir government's involvement in the Pollard case, see Blitzer, *Territory of Lies*, 289–92. On Israel's role in the Iran-Contra affair, see Draper, *Very Thin Line*, 137–54, 181–82.

164. Melman and Raviv, *Friends in Deed*, 381–91, 406–15.

165. James A. Baker, *Politics of Diplomacy*, 556.

166. Clinton remarks to the Israeli news media, 13 Sept. 1993, *PPP, William J. Clinton, 1993*, 2:1481.

167. Rabinovich quoted in Remnick, "Letter from Jerusalem," 95. Netanyahu quoted in Schmemann, "Outside In," 59.

168. Netanyahu, *Place among Nations*, 391.

169. Nagourney, "Sound Bites over Jerusalem," 44–47; *New York Times*, 16, 19 July 1999; *Washington Post*, 20 July 1999.

170. Malley and Agha, "Camp David," 60.

171. *New York Times*, 6, 7 Oct. 2001.

1. Monroe, "Annual Message to Congress," 2 Dec. 1823, in Richardson, *Compilation of the Messages and Papers of the Presidents*, 2:209–220.

2. Crabb, *Doctrines of American Foreign Policy*, 37–38.

3. Mahan, "Persian Gulf and International Relations," 234–37.

4. FDR to Churchill, tel., 9 Mar. 1942, in Kimball, *Churchill and Roosevelt*, 1:399.

5. Hurley to FDR, 13 May 1943, *FRUS 1943*, 4:368–69.

6. OSS Research Report 1749, "Communist and Pro-Russian Trends in the Near East," 23 May 1944, in *OSS/State Department Intelligence and Research Reports*, pt. 7, reel 1, item 11.

7. DOS, "American Economic Policy in the Middle East," 2 May 1945, *FRUS 1945*, 8:38.

8. DOS, "Draft Memorandum for President Truman," n.d., attached to Dean Acheson to Secretary of State James F Byrnes, 9 Oct. 1945, ibid., 45–48.

9. Henderson, "The Present Situation in the Near East: A Danger to World Peace," n.d. [28 Dec. 1945], *FRUS 1946*, 7:1–6.

10. Truman, *Years of Trial and Hope*, 94. For the text of the protest, see Byrnes to Molotov, 5 Mar. 1946, *FRUS 1946*, 7:340–42.

11. Byrnes quoted in Edwin M. Wright, "Events Relative to the Azerbaijan Issue, March 1946," 16 Aug. 1945, printed in editorial note, *FRUS 1946*, 7:346–48.

12. Kennan to DOS, tel., 22 Feb. 1946, ibid., 699–702. For the background to and implications of Kennan's then unprecedented 8,000-word telegram, see Kennan, *Memoirs*, 290–307.

13. Acheson to Byrnes (Paris), tel., 15 Aug. 1946, *FRUS 1946*, 7:840–42.

14. Ambassador Edwin Wilson (Ankara) to DOS, tels., 15, 18 Aug. 1946; DOS to Byrnes (Paris), tel., 17 Aug. 1946; Acheson to Orekhov, 19 Aug. 1946; and Bevin to the Soviet chargé d'affaires, 21 Aug. 1946, ibid., 842, 845, 846–48, 850–51.

15. DOS, "Memorandum on Turkey," 21 Oct. 1946, ibid., 894–97.

16. British Embassy to DOS, 21 Feb. 1947, *FRUS 1947*, 5:35–37.

17. Ethridge to DOS, tel., 17 Feb. 1947, ibid., 23–25.

18. Acheson, "Crisis and Imminent Possibility of Collapse in Greece," 21 Feb. 1947, ibid., 29–31.

19. Marshall quoted in Forrestal Diaries, 24 Feb. 1947, in Wittner, *American Intervention in Greece*, 67–68.

20. Acheson, *Present at the Creation*, 219.

21. Truman, *Years of Trial and Hope*, 103.

22. Truman address, 12 Mar. 1947, *PPP, Harry S. Truman, 1947*, 176–80.

23. Leffler, *Preponderance of Power* 142–64, 174–79.

24. Foreign Office Steering Brief, n.d. [Oct. 1947], quoted in Louis, *British Empire in the Middle East*, 111.

25. DOS, "The British and American Positions," n.d. [Oct. 1947], *FRUS 1947*, 5:511–14.

26. DOS, "The American Paper," n.d., and Foreign Office, "Memorandum on Policy in the Middle East and the Eastern Mediterranean," n.d. [both Nov. 1947], ibid., 575–76, 580–82.

27. "Statement by the U.S. and U.K. Groups," 14 Nov. 1949, *FRUS 1949*, 6:61–64.

28. Truman to Acheson, 31 Jan. 1950, *FRUS 1950*, 1:141–42.

29. NSC-68, 7 Apr. 1950, ibid., 234–92. The quoted passage is on 249.

30. NSC-65, "U.S. Policy toward Arms Shipments to the Near East," 28 Mar. 1950, ibid., 5:131–35.

31. Memorandum by Lucius Battle, 14 Apr. 1950, ibid., 135 n. 6.

32. Acheson to Undersecretary of State James Webb, 12 May 1950, and DOS cirtel, 20 May 1950, ibid., 161–62, 167–68; "The Tripartite Declaration," *DOSB*, 5 June 1950, 886.

33. DOS, "Minutes of the U.S.-U.K. Political Military Conversations," 26 Oct. 1950, *FRUS 1950*, 5:233–38.

34. Ibid.

35. DOS memcon, 17 May 1951, and editorial note, *FRUS 1951*, 5:134–39, 3:522–24.

36. Draft Study by the National Security Council, 27 Dec. 1951, ibid., 5:257–64.

37. Acheson to Ambassador Walter Gifford (London), tel., 21 June 1952, and Acheson (London) to DOS, tel., 27 June 1952, *FRUS 1952–54*, 9:247–49, 251–54.

38. Byroade memcon, 8 Aug. 1952, ibid., 262–66.

39. Minutes of the 147th NSC meeting, 1 June 1953, ibid., 383–86.

40. Eden quoted in Theodore Achilles (Paris) to DOS, tel., 16 Dec. 1953, ibid., 2174–75.

41. Churchill quoted in Louis, "Anglo-Egyptian Settlement of 1954," 69.

42. Eisenhower-Churchill memcon, 25 June 1954, *FRUS 1952–54*, 6:1081–83.

43. DOS memcon, "Egypt," 26 June 1954, ibid., 1104–7.

44. NIE 30-54, "Prospects for Creation of a Middle East Defense Grouping," 22 June 1954, *FRUS 1952–54*, 9:518.

45. NSC-5428, "U.S. Objectives and Policies with Respect to the Near East," 23 July 1954, ibid., 525–30; minutes of the 207th NSC meeting, 22 July 1954, box 5, NSC Series, AWF, DDEL.

46. Ashton, "Hijacking of a Pact," 125–28.

47. Foster Dulles to Ambassador Avra Warren (Ankara), tel., 7 Oct. 1954, *FRUS 1952–54*, 9:549–50.

48. Robert Murphy memcon, 15 Dec. 1954, and DOS to Ambassador Loy Henderson (Tehran), tel., 15 Dec. 1954, ibid., 10:1074–76.

49. Minutes of the 247th NSC meeting, 5 May 1955, *FRUS 1955–57*, 12:54.

50. On Stalin's and Khrushchev's differing approaches to the Arab world, see Smolansky, *Soviet Union and the Arab East under Khrushchev*, 15–17, and Golan, *Soviet Policies in the Middle East from World War II to Gorbachev*, 29–43.

51. NIE 30-55, "Middle East Defense Problems and Prospects," 21 June 1955, *FRUS 1955–57*, 12:79–80, 91–92.

52. Eisenhower-Dulles telcon, 7 Apr. 1956, ibid., 270.

53. Goodpaster memcon, 25 Nov. 1956, *FRUS 1955–57*, 16:1194–95.

54. Dulles-Macmillan memcon (Paris), 12 Dec. 1956, ibid., 27:677–78.

55. Eisenhower-Dulles telcon, 8 Dec. 1956, "Dec. 1956 Phone Calls," DDE Diary Series, AWF, DDEL.

56. Goodpaster memcon, 20 Dec. 1956, "Dec. 1956 Diary," ibid.

57. "Minutes of the Bipartisan Congressional Leadership Meeting," 1 Jan. 1957, "Jan. 1957, Misc (3)," ibid.

58. Dulles testimony, 2 Jan. 1957, in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, *Executive Sessions*, 9:10–12, 21–22, 25.

59. Dulles's exchanges with Russell and Humphrey are in ibid., 18, 19, 22.

60. "Joint Congressional Resolution to Promote Peace and Stability in the Middle East," 9 Mar. 1957, U.S. Department of State, *United States Policy in the Middle East*, 44–46. For the vote, see editorial note, *FRUS 1955–57*, 12:452.

61. On Turkey, see Richards to DOS, tel., 22 Mar. 1957, *FRUS 1955–57*, 24:710–12. On Iran, see Bill, *Eagle and the Lion*, 118. On Lebanon, see Richards to DOS, tel., 15 Mar. 1957, *FRUS 1955–57*, 13:208–9. On Iraq, see Gallman, *Iraq under General Nuri*, 79–81.

62. Minutes of the Intelligence Advisory Committee, 23 Apr. 1957; DDE to JFD, phone call, 24 Apr. 1957; and JFD memcon, 24 Apr. 1957, *FRUS 1955–57*, 13:102–3.

63. Dulles to Ike, 20 Aug. 1957, "Dulles, Aug. 1957 (1)," Dulles-Herter Series, AWF, DDEL.

64. Dwight D. Eisenhower, *The White House Years: Waging Peace*, 199; Dulles to Henderson, tel., 23 Aug. 1957, *FRUS 1955–57*, 13:650–51.

65. Henderson to JFD, tel., 26 Aug. 1957, *FRUS 1955–57*, 13:656–57.

66. Macmillan, *Riding the Storm*, 277–81.

67. Dulles to Macmillan, 5 Sept. 1957, *FRUS 1955–57*, 13:681–82.

68. Goodpaster memcon, 7 Sept. 1957, ibid., 685–89.

69. Lesch, *Syria and the United States*, 152–65; Little, "Cold War and Covert Action," 72–74.

70. Dulles to Macmillan, 19 Sept. 1957, "Dulles, Aug. 1957 (2)," box 7, Dulles-Herter Series, AWF, DDEL.

71. PPS, "U.S. Objectives and Policies with Respect to the Near East," 30 Oct. 1957, *FRUS 1955–57*, 12:626, 642.

72. "Meeting re Iraq," 14 July 1958, *DDRS: Retrospective Collection*, item 628H.

73. Eisenhower quoted in "Timetable of Events of Week of July 14–19," n.d., "Mideast, July 1958 (7)," International Series, AWF, DDEL. See also Cutler, *No Time for Rest*, 362–63.

74. Goodpaster memcon, 14 July 1958, *DDRS 1984*, item 1391.

75. Eisenhower to Macmillan, phone call, 14 July 1958, "Mideast, July 1958 (8)," International Series, AWF, DDEL; Macmillan, *Riding the Storm*, 504–5, 512; Dulles to Ike, 21 Oct. 1957, and Dulles to Whitney, tel., 9 Dec. 1957, *FRUS 1955–57*, 13:510 n. 2, 511–12.

76. Macmillan, *Riding the Storm*, 513, 523; Dulles to Eisenhower, phone call, 15 July 1958, "Telephone Calls, July 1958," DDE Diary Series, AWF, DDEL.

77. Diary entry, 16 July 1958, in Macmillan, *Riding the Storm*, 516–17 (emphasis in original).

78. Reinhardt memcon, 17 July 1958, and Eisenhower to Macmillan, appended to Dulles to Whitney, tel., 18 July 1958, "Mideast, July 1958 (2)," International Series, AWF, DDEL.

79. Hall (Ankara) to JFD, tel., 16 July 1958, "Iran, 1953–59 (4)," ibid.

80. Little, "His Finest Hour?"; Johnston, *Brink of Jordan*, 101–4. Johnston was the British ambassador to Jordan in 1958.

81. Staff notes, 15 July 1958, "Mideast, July 1958 (8)," International Series, AWF, DDEL.

82. DDE to JFD, tel., n.d. [27 July 1958], "Middle East, July 1958 (4)," and "Declaration," 28 July 1958, "Mideast," ibid.

83. Annex A, "General Considerations Affecting U.S. Policy toward the Near East," NSC-5820, 3 Oct. 1958, *DDRS 1988*, item 388.

84. NSC-5820/1, "U.S. Policy toward the Near East," 4 Nov. 1958, *FRUS 1958–60*, 12:187–89.

85. Lloyd-Herter memcon, 29 Apr. 1959, V1074/5, vol. 141841, FO371, PRO.

86. NSC-6011, "U.S. Policy toward the Near East," 17 June 1960, *Documents of the National Security Council*, reel 3.

87. NSC-6010, "Statement of U.S. Policy toward Iran," 6 July 1960, *FRUS 1958–60*, 12:685.

88. Hart memcon, 29 June 1961, *FRUS 1961–63*, 17:169–71.

89. Minutes of the 486th NSC meeting, 29 June 1961, and Rusk to Foreign Secretary Douglas Home, tel., 29 June 1961, ibid., 172, editorial note 73.

90. Talbot memcon, 24 July 1961, ibid., 197–99.

91. Hart Oral History, 4–5.

92. Lucius Battle to Ralph Dungan, 21 Mar. 1961, *FRUS 1961–63*, 17:51–53.

93. DOS memcon, 13 Apr. 1962, "Iran Subjects: Shah Visits 4/16/62–5/14/62," Countries, box 116/117, NSF, JFKL.

94. LBJ to JFK, 10 Sept. 1962, "Middle East Memos," box 10, Vice Presidential Security Series, LBJL.

95. Komer to JFK, 19 June 1963, Subject File: Komer, box 481, JFK-LBJ Series, Harriman Papers.

96. Komer to Harriman, 10 Aug. 1963, ibid.

97. Komer to Bundy and Harriman, 6 Sept. 1963, ibid.

98. For a discussion of NSAM 289, "Western Pacific and Indian Ocean Base Study," 19 Mar. 1964, see Stivers, *America's Confrontation with Revolutionary Change in the Middle East*, 43–44, 53, 114.

99. Walt W. Rostow, "Alternatives for the US in the Persian Gulf–Arabian Sea Area Stemming from UK Defense Review," 4 Oct. 1965, quoted in Pieragostini, *Britain, Aden, and South Arabia*, 167.

100. Stivers, *America's Confrontation with Revolutionary Change in the Middle East*, 51–53.

101. DOS memcon, "Visit of Prime Minister Wilson, December 15–19, 1965," n.d., *DDRS 1995*, item 210.

102. Kaiser to DOS, "A View of US-UK Policy Relations," 23 May 1966, *DDRS 1995*, item 891.

103. Rostow to LBJ, 20, 22 June 1966, "Saudi Arabia, Faisal Trip," box 155, Country Files, NSF, LBJL; Safran, *Saudi Arabia*, 119, 121–22, 198, 200–201.

104. Walt Rostow to LBJ, 19 July 1966, *DDRS 1991*, item 457; Walt Rostow to LBJ, 10 Aug. 1966, "Iran," vol. 2, box 136, Country Files, NSF, LBJL.

105. Dean to Paul Gore Booth, 25 Oct. 1967, vol. 771, FCO 7, PRO.

106. Minutes of a Meeting in the Foreign Secretary's Room, House of Commons, 20 Dec. 1967, vol. 1999, PREM 13, and Cabinet Minutes, 4 Jan. 1968, CC1(68), CAB 128/143, PRO.

107. Brown to Wilson, tel., 11 Jan. 1968, vol. 1999, PREM 13, PRO.

108. Undersecretary of State Nicholas Katzenbach to LBJ, 11 Jan. 1968, *DDRS 1995*, item 895.

109. LBJ to Wilson, 12, 15 Jan. 1968, vol. 63, Bruce Diary, Bruce Papers.

110. Bruce to William Bundy, tel., 15 Jan. 1968, ibid.

111. Wilson to LBJ, tel., 15 Jan. 1968, vol. 1999, PREM 13, PRO.

112. Harriman memcon, 16 Jan. 1968, Subject File: Macmillan, box 486, JFK-LBJ Series, Harriman Papers.

113. Rostow to LBJ, 16 Jan. 1968, "Rostow Memos," box 7, Name File, NSF, LBJL.

114. Rusk to LBJ, "Release of Arms for Saudi Arabia," 19 Jan. 1968, and Consul Dhahran to Rusk, tel., 31 Jan. 1968, "Saudi Arabia," vol. 2, box 155, and Meyer to Rusk, tel., 9 Feb. 1968, and Eugene Rostow to Meyer, tel., 8 Mar. 1968, "Iran," vol. 2, box 136, all in Country Files, NSF, LBJL.

115. Rusk to Meyer, 12 June 1968, "Iran," vol. 2, box 136, and "Briefing Paper," n.d., attached to Read to Rostow, 22 June 1968, "Saudi Arabia," vol. 2, box 155, ibid.

116. State Department cirtel, 18 June 1968, "Saudi Arabia," vol. 2, box 155, ibid.

117. FO memcon, 13 Sept. 1968, vol. 37, FCO 8, PRO.

118. Nixon, "Informal Remarks on Guam with Newsmen," 25 July 1969, *PPP, Richard M. Nixon, 1969*, 549.

119. NSSM 66, "Policy toward the Persian Gulf," 12 July 1969, in National Security Archive, *Iran*, fiche 319, item 1375; Litwak, *Detente and the Nixon Doctrine*, 140.

120. Safran, *Saudi Arabia*, 182–83, 196–205.

121. Litwak, *Detente and the Nixon Doctrine*, 139–40.

122. CIA, SNIE 34-70, "Iran's International Position," 3 Sept. 1970, CIA, Office of Information and Privacy Coordination.

123. Rogers, *United States Foreign Policy*, 85, 89.

124. Noyes, *Clouded Lens*, 54–55.

125. Kissinger, *White House Years*, 1262–64.

126. DOS briefing paper, "Iran's Role in Regional Security," May 1972, attached to Rogers to Nixon, 12 May 1972, in National Security Archive, *Iran*, fiche 123, item 767.

127. Nixon quoted in Sick, *All Fall Down*, 14. Sick's source (344 n. 14) was "an individual in the Nixon administration who was personally familiar with the events of the Tehran visit."

128. Kissinger, *White House Years*, 1263–64.

129. Kissinger to William Rogers and Melvin Laird, 15 June, 25 July 1972, in National Security Archive, *Iran*, fiche 124, item 778, and fiche 126, item 782.

130. On Oman, see Saikal, *Rise and Fall of the Shah*, 178–79, and Bill, *Eagle and the Lion*, 202–7. For the checkmate analogy, see Kissinger, *Years of Renewal*, 582–83.

131. Kissinger to Ford, "Strategy for Your Discussions with the Shah of Iran," 13 May 1975, in National Security Archive, *Iran*, fiche 154, item 955.

132. CIA, "The Soviets in the Persian Gulf/Arabian Peninsula: Assets and Prospects," Dec. 1976, in ibid., fiche 185, item 1127.

133. DOS, "Iran," 3 Jan. 1977, in ibid., fiche 187, item 1138.

134. Vance, *Hard Choices*, 314–16.

135. Brzezinski, *Power and Principle*, 356–57.

136. Sick, *All Fall Down*, 18, 21.

137. Vance, *Hard Choices*, 317–19.

138. Vance to Embassy Tehran, tel., 29 May 1977, in National Security Archive, *Iran*, fiche 195, item 1184.

139. Carter, *Keeping Faith*, 433–37; Sick, *All Fall Down*, 28–29.

140. Carter toast, 15 Nov. 1977, *PPP, Jimmy Carter, 1977*, 2:2029–30.

141. Carter toast, 31 Dec. 1977, ibid., 2220–21; Sick, *All Fall Down*, 29–31.

142. Sick, *All Fall Down*, 34–35, 38–41.

143. Vance, *Hard Choices*, 384; Hammond, *Red Flag over Afghanistan*, 49–55.

144. Sick, *All Fall Down*, 36.

145. Carter, *Keeping Faith*, 254–55.

146. Gromyko-Andropov-Ustinov-Ponomarev Report, 31 Dec. 1979, *Cold War International History Project Bulletin*, 160–61. For more on Soviet motives, see Garthoff, *Détente and Confrontation*, 1034–43.

147. Brzezinski to Carter, 26 Dec. 1979, in Westad, *Fall of Détente*, 329.

148. Brzezinski, *Power and Principle*, 429–30, 446–47.

149. Vance, *Hard Choices*, 388.

150. Jordan, *Crisis*, 98–99.

151. Carter, *Keeping Faith*, 471–72.

152. Carter, "State of the Union Address," 23 Jan. 1980, *PPP, Jimmy Carter, 1980–81*, 1:196.

153. Brzezinski to Carter, 3, 9 Jan. 1980, *DDRS 1997*, items 460, 1672.

154. Brzezinski, *Power and Principle*, 444–45.

155. Ibid., 426–27.

156. Slocombe quoted in Gates, *From the Shadows*, 144–45.

157. Ibid., 143–44. For an inside account of the ISI's relationship with the CIA during the Afghan war, see Yousaf with Adkin, *Bear Trap*, 78–112.

158. Gates, *From the Shadows*, 145–47. On the origins of the Special Coordination Committee, see Brzezinski, *Power and Principle*, 59–62.

159. Gates, *From the Shadows*, 147–49. For a firsthand account of activities in Peshawar during early 1980, see Brzezinski, *Power and Principle*, 449.

160. McFarlane with Smardz, *Special Trust*, 69. On Saudi financial assistance to the mujahadeen, see Weaver, "Children of the Jihad," 41. On bin Laden's activities in Afghanistan during the 1980s, see Bodansky, *Bin Laden*, 12–15, and Rashid, *Taliban*, 131–33.

161. NSDD-75, "U.S. Relations with the USSR," 17 Jan. 1983, in McFarlane, *Special Trust*, 372–80.

162. Cogan, "Partners in Time," 76–79.

163. See Weiner, "Blowback from the Afghan Battlefield"; Weaver, "Blowback"; "In Afghanistan, Triumph of Fundamentalism," *New York Times*, 26 May 1997.

164. Brzezinski quoted in "The CIA's Intervention in Afghanistan," http://globalresearch.ca/articles/BRZ110A.html, posted 15 Oct. 2001. For the original interview, see *Le Nouvel Observateur*, 15–21 Jan. 1998.

Chapter Five

1. Badeau, "Middle East," 240.

2. Wilson address to joint session of Congress, 2 Apr. 1917, *FRUS 1917, Supplement 1*, 200; V. I. Lenin, "The Socialist Revolution and the Right of Nations to Self-Determi-

nation," in Lenin, *National Liberation, Socialism, and Imperialism,* 118–19. On Wilson's rivalry with Lenin, see McFadden, *Alternative Paths,* 50–54.

3. Wilson, "The Final Draft of the Fourteen Points Address," 7 Jan. 1918, in Link, *Papers of Woodrow Wilson,* 45:528. For a more general discussion of Wilson's views on these matters, see Heater, *National Self-Determination.*

4. On the intellectual origins of Arab nationalism, see Dawn, *From Ottomanism to Arabism,* 122–79, and Haddad, "Rise of Arab Nationalism Reconsidered." For a classic account of the Arab revolt, see Antonius, *Arab Awakening,* 164–215.

5. Minutes of the Council of Ten Meeting, 6 Feb. 1919, *FRUS: Paris Peace Conference 1919,* 3:888–94.

6. Fromkin, *Peace to End All Peace,* 188–96, 389–402.

7. Lansing, *Peace Negotiations,* 97–98.

8. For a discussion of Wilson's second thoughts, see Buchheit, *Secession,* 63–66, 113–15.

9. Howard, *King-Crane Commission,* 31–43.

10. Fromkin, *Peace to End All Peace,* 435–54.

11. Zaghlul to Wilson, 6 June 1919, in Noble, "Voice of Egypt"; Manela, "Friction from the Sidelines," 42–53; Eran, "Negotiating the Anglo-Egyptian Relationship between the World Wars."

12. Gordon, *Nasser's Blessed Movement,* 17–20; Raymond William Baker, *Egypt's Uncertain Revolution,* 5–9.

13. For the background and the text of the Atlantic Charter, see Undersecretary of State Sumner Welles, two memcons, 11 Aug. 1941, and Joint Statement by Roosevelt and Churchill, 14 Aug. 1941, *FRUS 1941,* 1:356–69.

14. Sumner Welles to Wallace Murray, 5 Feb. 1942, *FRUS 1942,* 4:70. See also Hahn, *United States, Great Britain, and Egypt,* 11–18.

15. Hurley to FDR, 21 Dec. 1943, *FRUS 1943,* 4:420–26.

16. Acheson to Undersecretary of State Edward R. Stettinius, 28 Jan. 1944, "NEA (Mr. Murray, Jan 1944)," box 217, Stettinius Papers.

17. Wadsworth quoted in Henderson to Byrnes, 13 Nov. 1945, *FRUS 1945,* 8:11–18.

18. NEA position paper, "The British and American Positions," n.d. [late Sept. 1947], *FRUS 1947,* 5:513.

19. Chargé d'Affaires Julius Holmes (London) to DOS, tel., 22 Dec. 1948, *FRUS 1948,* 5:1680–85.

20. DOS, OIR Report #4904.4, "Potentials of World Communism: Middle and Near East," 1 Aug. 1949, *OSS/State Department Intelligence and Research Reports,* pt. 7, reel 1; CIA, SR-13, "The Arab States," 27 Sept. 1949, CIA, Office of Privacy Coordination.

21. McGhee, "Introductory Discussions on the Middle East between US and UK Groups," 14 Nov. 1949, *FRUS 1949,* 6:62–63.

22. NSC, "Position Paper on the Middle East," 27 Dec. 1951, *FRUS 1951,* 5:257–64.

23. Hoskins to Byroade, 7 Apr. 1952, *FRUS 1952–54,* 9:204–8 (emphasis in original). On Hoskins, FDR, and the Atlantic Charter, see Cordell Hull to John Winant (London), 2 tels., 27 Aug. 1942; Winant to Hull, tel., 15 Sept. 1942; and Sumner Welles to Alexander Kirk (Cairo), tel., 20 Nov. 1942, *FRUS 1942,* 4:26–33, 35–36.

24. Churchill quoted in diary entry, 16 Dec. 1951, in Shuckburgh, *Descent to Suez,* 28–29. On the Anglo-Egyptian impasse, see Hahn, *United States, Great Britain, and Egypt,* 132–39, and Louis, *British Empire in the Middle East,* 691–735.

25. Caffery to DOS, tel., 7 Dec. 1951, 641.74/12-751, State Department Central Decimal File, RG59, NA.

26. Acheson memcon, 5 Jan. 1952, *FRUS 1952–54*, 6:737–38.

27. Gordon, *Nasser's Blessed Movement*, 27–34; Hahn, *United States, Great Britain, and Egypt*, 138–41.

28. Acheson telcon, 27 Jan. 1952, *FRUS 1952–54*, 9:1755.

29. Caffery to DOS, tel., 21 Feb. 1952, 774.00/2-2152, State Department Central Decimal File, RG59, NA.

30. Gordon, *Nasser's Blessed Movement*, 34–37.

31. DOS memcon, 7 Mar. 1952, 774.00/3-752; Caffery to DOS, 14 Apr. 1952, 774.00/4-1452; and C. Robert Payne (Cairo) to DOS, 16 June 1952, 774.00/6-1652, State Department Central Decimal File, RG59, NA; Acheson, *Present at the Creation*, 566.

32. Caffery to DOS, tel., 3 July 1952, 774.00/7-352, State Department Central Decimal File, RG59, NA.

33. Alta F. Fowler (NEA), "Weekly Summary of Events, Egypt and the Sudan," 28 July 1952, *FRUS 1952–54*, 9:1844–47. For details on Nasser's coup, see Raymond William Baker, *Egypt's Uncertain Revolution*, 18–31, and Gordon, *Nasser's Blessed Movement*, 39–57.

34. Caffery to DOS, 18 Aug. 1952, 774.00/8-1852, State Department Central Decimal File, RG59, NA.

35. Acheson's remarks of 3 September quoted in *DOSB*, 15 Sept. 1952, 406.

36. Acheson, *Present at the Creation*, 566.

37. Acheson memcon, 7 Jan. 1953, *FRUS 1952–54*, 9:1954–55.

38. Dulles-Naguib memcon, 11 May 1953, ibid., 8–18.

39. Dulles-Nasser memcon, 12 May 1953, ibid., 19–25 (emphasis in original).

40. Nasser quoted in Heikal, *Cairo Documents*, 41.

41. Dulles to Bedell Smith, tel., 13 May 1953; Dulles to Ike, tel., 17 May 1953; and Dulles quoted in the minutes of the 147th NSC meeting, 1 June 1953, *FRUS 1952–54*, 9:25–26, 88–89, 380–81.

42. Caffery to DOS, tel., 22 June 1953, and Ike to Churchill, 6 July 1953, ibid., 2104, 2110.

43. Caffery to DOS, tels., 25, 26 Feb. 1954, ibid., 2221–23.

44. Caffery to DOS, 9, 23 Mar. 1954, ibid., 2226, 2242–44.

45. Gordon, *Nasser's Blessed Movement*, 175–87.

46. C. L. Sulzberger, "Foreign Affairs," *New York Times*, 17 Nov. 1954.

47. Nasser, *Egypt's Liberation*, 98–114.

48. Nasser, "Egyptian Revolution," 210–11.

49. William Burdett (NEA), "Measures to Counter Communist Threat in Arab Countries," 28 Jan. 1955, Alpha Files, lot 518D, RG59, NA; Byroade to DOS, tel., 21 Mar. 1955, *FRUS 1955–57*, 14:117.

50. Donald Neff, *Warriors at Suez*, 74–93; Hahn, *United States, Great Britain, and Egypt*, 180–210.

51. Dulles-Macmillan memcons, 26 Sept., 26 Oct. 1955, *FRUS 1955–57*, 14:516–17, 655.

52. Minutes of the 267th NSC meeting, 21 Nov. 1955, box 7, NSC Series, AWF, DDEL; minutes of the 268th NSC meeting, 1 Dec. 1955, ibid., 812–17.

53. Anderson to DOS, tel., 19 Jan. 1956, *FRUS 1955–57*, 15:28–36.

54. Ike and Lloyd quoted in diary entry, 30 Jan. 1956, in Shuckburgh, *Descent to Suez*, 229.

55. Dulles quoted in DOS memcon, 30 Jan. 1956, *FRUS 1955–57*, 12:244.

56. Eden to Lloyd, tel., 7 Mar. 1956, V1075/61A, vol. 121271, FO371, PRO.

57. Diary entry, 8 Mar. 1956, "Diary, March 1956," box 13, DDE Diary Series, AWF, DDEL. For Ike's appeal, see Eisenhower to Nasser, 27 Feb. 1956, *FRUS 1955–57*, 15:243.

58. Lloyd to Dulles, n.d., attached to Makins to Dulles, 21 Mar. 1956, *FRUS 1955–57*, 15:384–87.

59. Chargé Evan Wilson (London) to DOS, 21 Mar. 1956, ibid., 389–91.

60. Rountree memcon, 28 Mar. 1956, ibid., 421–23.

61. Eisenhower diary entry, 28 Mar. 1956, ibid., 425.

62. Goodpaster memcon, 3 Apr. 1956, ibid., 446–48.

63. Minutes of the 284th NSC meeting, 10 May 1956, NSC Series, AWF, DDEL.

64. Dulles-Hussein memcon, 17 May 1956, *FRUS 1955–57*, 15:645–50.

65. Middle East Committee, "High Aswan Dam," 11 June 1956, vol. 119055, FO371, PRO.

66. Allen Dulles to Foster Dulles, "Shepilov's Visit to Egypt," 27 June 1956, *FRUS 1955–57*, 15:751–54.

67. Heikal, *Cutting the Lion's Tail*, 110; Russell to Foster Dulles, 19 July 1956, *FRUS 1955–57*, 15:865.

68. George Allen to Foster Dulles, 17 July 1956, *FRUS 1955–57*, 15:849–51.

69. Dulles-Eisenhower memcon, 19 July 1956, and Dulles-Makins memcon, 19 July 1956, ibid., 861–64.

70. Minute by Ross, 20 July 1956, JE1422/243A, vol. 119056, FO371, PRO.

71. Dulles-Hussein memcon, 19 July 1956, *FRUS 1955–57*, 15:867–73.

72. Nasser and Byroade quoted in Heikal, *Cutting the Lion's Tail*, 116.

73. Nasser quoted in Neff, *Warriors at Suez*, 270–71.

74. Cabinet Minutes, 27 July 1956, CM(56)54, CAB 128/30, PRO. See also Chargé Andrew Foster (London) to DOS, tel., 27 July 1956, *FRUS 1955–57*, 16:3–5. Foster attended the Cabinet meeting at Eden's invitation.

75. Dulles phone call to C. D. Jackson, 20 July 1956, quoted in Kyle, *Suez*, 130; Dulles to DOS, tel., 27 July 1956, *FRUS 1955–57*, 16:6 n. 3.

76. Hoover quoted in Goodpaster memcon, 27 July 1956, *FRUS 1955–57*, 16:6–7.

77. CIA, SNIE 30-3-56, "Nasser and the Middle East Situation," 31 July 1956, ibid., 79, 89.

78. Goodpaster memcon, 31 July 1956, ibid., 62–68.

79. Lloyd-Dulles memcon, 1 Aug. 1956, folder 1098, PREM 11, PRO.

80. Dulles-Eden memcon, 1 Aug. 1956, *FRUS 1955–57*, 16:98–100.

81. Minutes of the 292nd NSC meeting, 9 Aug. 1956, ibid., 165–76.

82. Kyle, *Suez*, 249–52.

83. Arthur Minnich, "Minutes of the Bipartisan Meeting," 12 Aug. 1956, *FRUS 1955–57*, 16:188–96.

84. Dulles to DOS, tel., and Dulles to Ike, 16 Aug. 1956, ibid., 203–5, 210–11.

85. Minutes of the 21st meeting of the Egypt Committee, 24 Aug. 1956, E.C.(56), CAB 143/1216, PRO.

86. Eisenhower to Eden, 2 Sept. 1956, *FRUS 1955–57*, 16:355–58.

87. Heikal, *Cutting the Lion's Tail*, 149–51.

88. Dulles memcon, 6 Sept. 1956, *FRUS 1955–57*, 16:396–98.

89. Dulles-Eisenhower memcon, 22 Sept. 1956, ibid., 566; Macmillan memcon, 25 Sept. 1956, folder 1102, PREM 11, PRO.

90. Kyle, *Suez*, 291–331; Lucas, *Divided We Stand*, 227–56.

91. Neff, *Warriors at Suez*, 341–48; Kyle, *Suez*, 332–47.

92. Dwight D. Eisenhower, *The White House Years: Waging Peace*, 68–74; Eisenhower to Ben Gurion, tel., 28 Oct. 1956; Dulles-Eban memcon, 28 Oct. 1956; and Goodpaster memcon, 29 Oct. 1956, *FRUS 1955–57*, 16:801, 808–10, 833–39. Eisenhower's angry remarks to Dulles are quoted in Love, *Suez*, 503.

93. Goodpaster memcon, 29 Oct. 1956, *FRUS 1955–57*, 16:833–39.

94. Makins to Lloyd, 9 Sept. 1956, quoted in Kyle, *Suez*, 229.

95. Makins to Eden, tel., 4 Oct. 1956, quoted in Louis, "Dulles, Suez, and the British," 133–34.

96. Acheson, *Present at the Creation*, 567; Acheson quoted in diary entry, 17 Oct. 1956, in Sulzberger, *Last of the Giants*, 331.

97. Goodpaster memcon, 30 Oct. 1956, 10:06 A.M., *FRUS 1955–57*, 16:851–55.

98. Dulles-Eisenhower telcon, 30 Oct. 1956, 2:17 P.M., ibid., 863.

99. Goodpaster memcon, 30 Oct. 1956, 4:25 P.M., ibid., 873–74.

100. Ike quoted in Cooper, *Lion's Last Roar*, 171. See also Divine, *Eisenhower and the Cold War*, 85–86, and Love, *Suez*, 504.

101. Eisenhower address, 31 Oct. 1956, *PPP, Dwight D. Eisenhower, 1956*, 1060–66.

102. Annex to NSC-5608, "U.S. Policy toward the Soviet Satellites in Eastern Europe," 6 July 1956; Chargé Spencer Barnes (Budapest) to DOS, 30 Aug. 1956; and Barnes to DOS, tel., 23 Oct. 1956, *FRUS 1955–57*, 25:198–210, 231–41, 263–65; Eisenhower address, 31 Oct. 1956, *PPP, Dwight D. Eisenhower, 1956*, 1061.

103. "Notes on the 42nd Meeting of the Special Committee on Soviet and Related Problems," 1 Nov. 1956, and Minutes of the 302nd NSC meeting, 1 Nov. 1956, *FRUS 1955–57*, 25:359–60, 16:902–16.

104. Minutes of the 302nd NSC meeting, 1 Nov. 1956, ibid., 16:902–16.

105. Dulles-Lodge telcon, 2 Nov. 1956, ibid., 938.

106. Békés, "New Findings on the 1956 Hungarian Revolution."

107. Eden to Eisenhower, tel., 5 Nov. 1956, *FRUS 1955–57*, 16:984–86.

108. Eisenhower quoted in Hughes, *Ordeal of Power*, 223–24.

109. Goodpaster memcon, 5 Nov. 1956, *FRUS 1955–57*, 16:1000–1001.

110. Ike-Eden telcon, 6 Nov. 1956, 12:55 P.M., ibid., 1025–27.

111. Kunz, *Economic Diplomacy of the Suez Crisis*, 138–62; Neff, *Warriors at Suez*, 424–29.

112. MacArthur to Hoover, 20 Nov. 1956, and DOS cirtel, 24 Nov. 1956, *FRUS 1955–57*, 16:1165, 1191–92.

113. Ike to Dulles, 12 Dec. 1956, ibid., 1296–98.

114. Hare to DOS, tel., 10 Jan. 1957, *FRUS 1955–57*, 17:16–19.

115. Dulles testimony, 14 Jan. 1957, in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, 85th Cong., 1st sess., *President's Proposal on the Middle East*, 5.

116. DOS memcon, 5 Feb. 1957, *FRUS 1955–57*, 13:202.

117. OCB, "Analysis of Internal Security Situation in Syria," 7 July 1955, ibid., 530–31. See also Lesch, *Syria and the United States*, 17–56.

118. DOS memcon, 19 Aug. 1957, *FRUS 1955–57*, 13:640–41; Dulles to Ike, 20 Aug. 1957, "Dulles, Aug. 1957 (1)," box 7, Dulles-Herter Series, AWF, DDEL. For a more detailed discussion of this episode, see Little, "Cold War and Covert Action," 69–74.

119. Dwight D. Eisenhower, *The White House Years: Waging Peace*, 196–97.

120. DOS memcon, "US-Syrian Relations," 7 Nov. 1957, *FRUS 1955–57*, 13:740–44. The two best accounts of the formation of the UAR remain Seale, *Struggle for Syria*, 307–26, and Kerr, *Arab Cold War*, 7–19.

121. Herter to Dulles, tel., 25 Jan. 1958, *FRUS 1958–60*, 13:408.

122. Hare to DOS, tel., 10 Feb. 1958, ibid., 422–25.

123. DOS cirtels, 15, 21 Feb. 1958, ibid., 425–26, 430–32.

124. Eisenhower and Lloyd quoted in DOS memcon, 22 Mar. 1959, ibid., 12:217. On Eisenhower and Nasser, see Burns, *Economic Aid and American Policy toward Egypt*, 108–20.

125. Goodpaster memcon, 26 Sept. 1960, "United Arab Republic," box 49, International Series, AWF, DDEL.

126. JFK quoted in Goodwin, *Remembering America*, 135.

127. Burns, *Economic Aid and American Policy toward Egypt*, 121–31; Little, "New Frontier on the Nile," 504–7.

128. Bowles to JFK, Rusk, and Hamilton, tel., 21 Feb. 1962, *FRUS 1961–63*, 17:482, 486; Burns, *Economic Aid and American Policy toward Egypt*, 131–34.

129. Little, "From Even-Handed to Empty-Handed," 167–70.

130. Davies memcon, 3 Jan. 1963, 780.00/1-363, State Department Central Decimal File, RG59, NA.

131. Faisal quoted in Hart Oral History, 18.

132. JFK to Macmillan, 26 Jan. 1963, *FRUS 1961–63*, 18:324–25.

133. JFK to Nasser, enclosed in DOS to Badeau, tel., 19 Oct. 1963, ibid., 752. See also Little, "New Frontier on the Nile," 523–25.

134. Bundy to Fulbright, 11 Nov. 1963, *FRUS 1961–63*, 18:775.

135. Johnson, *Vantage Point*, 289–90.

136. "Major Issues in U.S.-U.A.R. Relations," n.d., attached to Rusk to LBJ, 21 Aug. 1964, "UAR Memos," vol. 2, box 159, Country Files, NSF, LBJL.

137. Embassy Cairo to DOS, tel., 12 Sept. 1964, ibid.; Heikal, *Cairo Documents*, 226–27.

138. Heikal, *Cairo Documents*, 229–30.

139. "President's Meeting with Congressional Leaders," 22 Jan. 1965, "Misc. Meetings," vol. 1, box 18, Bundy Files, NSF, LBJL.

140. Heikal, *Cairo Documents*, 348–49.

141. Nasser quoted in Read to Bundy, 5 June 1965, "UAR Cables," vol. 4, box 159, Country Files, NSF, LBJL.

142. "Protection of American Interests in the Near East," n.d., attached to Rusk to LBJ, 23 Sept. 1965, "UAR Memos," vol. 4, ibid.

143. Battle to DOS, tel., 13 May 1966, "UAR Cables," ibid.

144. CIA, "The Arab Threat to Iran," 21 May 1966, "UAR Memos," ibid.

145. CIA, "Egyptian-Soviet Relations," 28 May 1966, ibid.

146. Rostow to LBJ, 18 June 1966, ibid.

147. Johnson, *Vantage Point*, 288.

148. Saunders to Rostow, 16 May 1967, attached to Rostow to LBJ, 17 May 1967, "Saunders Memos," box 7, Name File, NSF, LBJL (emphasis in original).

149. Little, "Choosing Sides," 174–76.

150. Walt Rostow to LBJ, "NSC Discussion: South Arabia," 23 May 1967, "Briefing Papers NSC Mtgs," box 1, Meeting Notes File, NSF, LBJL.

151. Walt Rostow to LBJ, 4 June 1967, 11:30 A.M., *DDRS 1995*, item 1143.

152. Ambassador Walworth Barbour to DOS, tel., 7 June 1967, "Middle East Crisis, Cables," vol. 4, box 107, Country Files, NSF, LBJL.

153. Shah quoted in "U.S. Policy and Diplomacy in the Middle East Crisis, May 15–June 10, 1967," box 20, NSC History Files: 1967 Middle East Crisis, NSF, LBJL, 115.

154. Heikal, *Cairo Documents*, 249.

155. Nixon, *RN*, 179, 249.

156. Nasser quoted in minutes of cabinet meeting, 8 June 1969, in Farid, *Nasser*, 137.

157. Sisco to Nixon and Rogers, tel., 12 Apr. 1970, "ORG 7 NEA," State Department Alpha-Numeric File, RG59, NA; Parker, *Politics of Miscalculation in the Middle East*, 125–47; Quandt, *Peace Process*, 85–91.

158. Kissinger, *White House Years*, 361.

159. Nasser, *Egypt's Liberation*, 39–40.

160. Nasser memcon, 14 Feb. 1970, in Farid, *Nasser*, 168–69.

161. Badeau, *American Approach to the Arab World*, 45–46, 53–55.

162. Fulbright, *Arrogance of Power*, 69–73.

163. Tocqueville, *Democracy in America*, 2:270.

164. Cassandra [pseud.], "Impending Crisis in Egypt"; U.S. Congress, House Committee on International Relations, *U.S. Policy toward Egypt*, 1–17.

165. Bodansky, *Bin Laden*, 210–12, 236–37, 247–49; U.S. Department of State, *Patterns of Global Terrorism 1999*; Goldberg, "Letter from Cairo," 53–55.

Chapter Six

1. Tocqueville, *L'Ancien Regime*, 186.

2. For a general account of the council's activities during the Truman and Eisenhower years, see Schulzinger, *Wise Men of Foreign Affairs*, 135–41, 145–48, 165–73. Materials relating to the study groups, which covered topics such as "Non-Self-Governing Territories," "Emerging African Problems," and "The Middle East and Modern Islam," are available in Council on Foreign Relations, Archives, Records of Groups.

3. Truman, "Inaugural Address," 20 Jan. 1949, *PPP, Harry S. Truman, 1949*, 114. On Truman, Point Four, and foreign aid for developing countries, see Packenham, *Liberal America and the Third World*, 35–49.

4. On Eisenhower's approach to foreign aid, see Kaufman, *Trade and Aid*, 12–33, 95–112, 207–11, and Packenham, *Liberal America and the Third World*, 49–58.

5. Rockefeller Brothers Fund, *Prospect for America*, 54–56, 165–71. On Kissinger's role in the Rockefeller study, see Schulzinger, *Henry Kissinger*, 13–14.

6. Rostow, *Stages of Economic Growth*, 164–66.

7. JFK, "Special Message on Foreign Aid," 22 Mar. 1961, *PPP, John F. Kennedy, 1961*,

208; Rostow, *Diffusion of Power*, 185–88. For an excellent account of the impact of modernization theory on the New Frontier, see Latham, "Ideology, Social Science, and Destiny."

8. On the Peace Corps in Africa, see Cobbs Hoffman, "Diplomatic History and the Meaning of Life." On the Kennedy administration's efforts to modernize Latin America, see Latham, "Ideology, Social Science, and Destiny," 207–19. For an inside account of early attempts at nation building in Vietnam, see Rostow, *Diffusion of Power*, 264–76.

9. On America's good intentions and bad results in the Third World during the Johnson years, see Rostow, *Diffusion of Power*, 406–34.

10. Kissinger, *White House Years*, 69.

11. Brzezinski, *Between Two Ages*, 9, 35–36, 50–51.

12. Dodge quoted in "Discussion Meeting Report: The Moslem World," 9 May 1949, vol. 28, Council on Foreign Relations, Archives, Records of Groups.

13. Landis quoted in ibid. On Landis's activities during the war, see Baram, *Department of State in the Middle East*, 164–65, 191–92.

14. Lerner, *Passing of Traditional Society*, vii–viii, 44–45, 78–79, 399–400.

15. Halpern, *Politics of Social Change in the Middle East*, vii, 415, 418, 420. For Halpern's discussion of his ties with the State Department, see xvii–xviii and 55 n. 4. For a critique of Halpern's and Lerner's thinking, see Said, *Orientalism*, 310–11.

16. Halpern, *Politics of Social Change in the Middle East*, 357–58, 420.

17. Badeau, *American Approach to the Arab World*, 53–56, 108–9.

18. On Qassim and the coup, see Khadduri, *Republican Iraq*, 38–61; Batatu, *Old Social Classes and Revolutionary Movements of Iraq*, 778–79, 783–88, 800–807; and Thacher, "Reflections on US Foreign Policy towards Iraq in the 1950s."

19. Simon, *Iraq between the World Wars*, 1–7, 45–57, 145–65; Louis, *British Empire in the Middle East*, 331–44; Batatu, *Old Social Classes and Revolutionary Movements of Iraq*, 545–66.

20. Louis, "British and the Origins of the Iraqi Revolution"; Gallman, *Iraq under General Nuri*, xi–xiii, 92–93.

21. OCB Report, 14 Dec. 1955, *FRUS 1955–57*, 12:979–86.

22. Gallman to DOS, tel., 15 Jan. 1956, ibid., 988–92.

23. Nelson quoted in Sam Pope Brewer Diary entry, 3 Apr. 1956, box 24, Brewer Papers.

24. SNIE 36.2-56, "Outlook for Iraq's Stability," 17 July 1956, *FRUS 1955–57*, 12:997–1010.

25. Allen Dulles to Herbert Hoover Jr., 22 Nov. 1956, ibid., 1012–14.

26. Batatu, *Old Social Classes and Revolutionary Movements of Iraq*, 749–57, 776–83, 788.

27. Richards to DOS, tel., 9 Apr. 1957, *FRUS 1955–57*, 12:1044–47.

28. SNIE 36.2-57, "The Outlook for Iraq," 4 June 1957, ibid., 1048–58.

29. Gallman to DOS, 6 July 1957, ibid., 1062–63.

30. DOS Staff Study, "U.S. Objectives and Policies with Respect to the Near East," 30 Oct. 1957, ibid., 639–40.

31. Dulles to DOS, tel., 11 Mar. 1958, *FRUS 1958–60*, 12:294–96.

32. Stuart Rockwell (NEA) to Rountree, 26 Mar. 1958, ibid., 11:282–86.

33. Dulles memcon, 15 June 1958, and Frank Wisner (CIA) to Hugh Cumming (DOS), 3 July 1958, ibid., 11:136–37, 12:304–5.

34. Ovendale, "Great Britain and the Anglo-American Invasion of Jordan and Lebanon"; Tal, "Britain and the Jordan Crisis of 1958"; Little, "His Finest Hour?"

35. John Foster Dulles–Allen Dulles phone call, 25 July 1958, and Foster Dulles to Ike, 30 July 1958, *FRUS 1958–60*, 12:333–34, editorial note 131.

36. Ambassador Michael Wright (Baghdad) to FO, tel., 27 July 1958, and FO cirtel, 30 July 1958, folder 2368, PREM 11, PRO.

37. Farouk-Sluglett and Sluglett, *Iraq since 1958*, 51–66; Batatu, *Old Social Classes and Revolutionary Movements of Iraq*, 832–60.

38. Murphy memo, 15 Aug. 1958, *FRUS 1958–60*, 12:146.

39. Minutes of the 383rd NSC meeting, 16 Oct. 1958, *DDRS 1990*, item 332.

40. Minutes of the 391st NSC meeting, 18 Dec. 1958, *FRUS 1958–60*, 12:363–64.

41. Jernegan to DOS, tel., 26 Mar. 1959, ibid., 395–98. On the Mosul rebellion, see Batatu, *Old Social Classes and Revolutionary Movements of Iraq*, 866–89.

42. Minutes of the 401st NSC meeting, 2 Apr. 1959, and Gray, "Iraq," 3 Apr. 1959, *FRUS 1958–60*, 12:402–6, 410.

43. Anderson quoted in minutes of the 402nd NSC meeting, 17 Apr. 1959, and John Eisenhower, "Synopsis of State and Intelligence Material," 14 May 1959, ibid., 423–37, 450.

44. Jernegan to DOS, tel., 9 Aug. 1959, ibid., 474–77.

45. Stevens memcon, 29 Aug. 1959, vol. 141841, FO371, PRO.

46. Jernegan to DOS, tel., 26 Feb. 1960, and NIE 36.2-60, "Outlook for Iraq," 1 Nov. 1960, *FRUS 1958–60*, 12:502–6, 516–23.

47. OCB, "Operations Plan for Iraq," 14 Dec. 1960, ibid., 524–30.

48. Jernegan Oral History, 13–15.

49. Talbot to Ball, 18 Dec. 1961, *FRUS 1961–63*, 17:364–65. For the background to Qassim's assault on IPC, see Stork, *Middle East Oil and the Energy Crisis*, 102–8, and Blair, *Control of Oil*, 80–90.

50. Khadduri, *Republican Iraq*, 188–200; Batatu, *Old Social Classes and Revolutionary Movements of Iraq*, 974–94; Farouk-Sluglett and Sluglett, *Iraq since 1958*, 82–84.

51. Komer to JFK, 8 Feb. 1963, *FRUS 1961–63*, 18:342 n. 1.

52. DOS cirtel, 10 Feb. 1963, ibid., 345 n. 3; William Brubeck to McGeorge Bundy, 15 Feb. 1963, POL 26 IRAQ, State Department Alpha-Numeric File, RG59, NA.

53. Strong memcon, 25 Feb. 1963, POL 26 IRAQ, State Department Alpha-Numeric File, RG59, NA; Melbourne to Jernegan, 28 Feb. 1963, "Iraq: Misc," Subject File, box 10, Henderson Papers.

54. Saunders to Bundy, 2 Apr. 1963; DOS cirtel 18 Apr. 1963; Brubeck to Bundy, 19 July 1963; and Komer to JFK, 10 July 1963, *FRUS 1961–63*, 18:445–46, 470–73, 595–96, 638.

55. Ambassador Robert Strong (Baghdad) to DOS, tel., 17 July 1963, POL 15-4 IRAQ, and Strong to DOS, tel., 3 Sept. 1963, POL 26 IRAQ, State Department Alpha-Numeric File, RG59, NA.

56. Miller and Mylroie, *Saddam Hussein and the Crisis in the Gulf*, 85–105; Sciolino, *Outlaw State*, 62–63, 87–88; Karsh and Rautsi, *Saddam Hussein*, 22–50.

57. CIA, NIE 11-6-63, "The Soviet Role in the Arab World," 24 Apr. 1963, Office of Privacy Coordination, CIA.

58. The best account of Qaddafi's coup remains Cooley, *Libyan Sandstorm*, 1–20.

59. Khadduri, *Modern Libya*, 10–27; First, *Libya*, 45–55; John Wright, *Libya*, 25–43.

60. Louis, *British Empire in the Middle East*, 265–306; First, *Libya*, 56–74. For a detailed but very narrow account of great power rivalry over Libya during the late 1940s, see Bills, *Libyan Arena*.

61. Bakoush quoted in Blundy and Lycett, *Qaddafi and the Libyan Revolution*, 39.

62. DOS memcon, 28 May 1953, and minutes of the 147th NSC meeting, 1 June 1953, *FRUS 1952–54*, 9:162–66, 383; Dulles testimony, 3 June 1953, in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, *Executive Sessions*, 5:437–38.

63. Ambassador Henry Villard to DOS, tel., 12 June 1954, and DOS to Villard, tels., 20, 29 July 1954, *FRUS 1952–54*, 11:588–94.

64. NIE 36.5-56, "Outlook for US Interests in Libya," 19 June 1956, *FRUS 1955–57*, 18:454–55.

65. Tappin to DOS, tel., 22 Nov. 1956, and to Joseph Palmer (NEA), 1 Jan. 1957, ibid., 456–57, 459–61.

66. Richards to DOS, tel., 21 Mar. 1957, and Tappin to DOS, tel., 22 Mar. 1957, *FRUS 1955–57*, 12:472–79.

67. Murphy memo, 26 Apr. 1957, ibid., 18:482 n. 7.

68. Minutes of the 321st NSC meeting, 2 May 1957, ibid., 481–85.

69. Richards to DOS, tel., 4 May 1957, ibid., 478 n. 5; "Staff Notes," 18 May 1957, "May 57 Diary: Staff Memos," box 24, DDE Diary Series, AWF, DDEL.

70. NSC-5716/1, "U.S. Policy toward Libya," 25 June 1957, *FRUS 1955–57*, 18:490–95.

71. DOS memcon, 23 June 1958, "Staff Notes (2), June 1958," box 33, DDE Diary Series, AWF, DDEL.

72. DOS, INR Report 7792, "Moderate Leadership on the Defensive in North Africa," 28 Aug. 1958, *OSS/State Department Intelligence Reports*, reel 6.

73. Minutes of the 390th NSC meeting, 11 Dec. 1958, *FRUS 1958–60*, 13:727–29.

74. Douglas Dillon to Neil McElroy, 22 May 1959, ibid., 731–33.

75. DOS, INR Report 8091, "Economic and Political Significance of North African Oil Discoveries," *OSS/State Department Intelligence Reports*, reel 6.

76. Minutes of the 422nd NSC meeting, 29 Oct. 1959, *FRUS 1958–60*, 13:733–34.

77. NSC-6004/1, "U.S. Policy toward Libya," 15 Mar. 1960, ibid., 740–49.

78. Symmes Oral History.

79. SNIE 36.1-62, "Prospects for Nasser," 28 Mar. 1962, "36.1 United Arab Republic," box 6, National Intelligence Estimates, NSF, LBJL.

80. DOS memo, "Libya," June 1962, "Libya, 1961–63," Countries, box 121A, POF, JFKL.

81. Komer to JFK, 16 Oct. 1962, and "Kennedy-Hasan Joint Communiqué," 17 Oct. 1962, ibid.

82. Benjamin Read to Bundy, 27 Sept. 1963, and Komer to JFK, 28 Sept. 1963, ibid.

83. William Brubeck memcon, 3 Apr. 1964, "Memos of Meetings with the President," vol. 1, box 19, Bundy Files, NSF, LBJL.

84. Robert Komer to JFK, 30 Sept. 1963, "Libya 1961–63," Countries, box 121A, POF, JFKL; Symmes Oral History.

85. Cooley, *Libyan Sandstorm*, 42–58; Yergin, *Prize*, 527–30.

86. Newsom quoted in Bruce Diary entry, 15 Dec. 1966, vol. 58, Bruce Papers.

87. First, *Libya*, 81–86; Little, "Choosing Sides," 177–79.

88. Newsom to DOS, tel., 16 June 1967, and Rostow to LBJ, 17 June 1967, "Rostow," vol. 3, Memos to the President, box 17, NSF, LBJL.

89. CIA, Arab-Israeli Situation Report, 29 June 1967, "Middle East Crisis," vol. 11, appendix Q (V), box 21, NSC History Files, and Eugene Rostow, "UAR Pressure on Libya," 30 June 1967, UAR, vol. 5, box 60, Country Files, ibid.

90. Eugene Rostow Oral History.

91. Newsom testimony, 20 July 1970, in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, *U.S. Security Agreements and Commitments Abroad*, 2002. On the last days of Idris's rule and Qaddafi's takeover, see First, *Libya*, 99–113.

92. Akins testimony, 11 Oct. 1973, U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, Subcommittee on Multinational Corporations, *Multinational Corporations and United States Foreign Policy*, pt. 5, 1–2.

93. Seale and McConville, *Hilton Assignment*, 174–75; Cooley, *Libyan Sandstorm*, 83–86; Blundy and Lycett, *Qaddafi and the Libyan Revolution*, 55.

94. Newsom testimony, 20 July 1970, in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, *U.S. Security Agreements and Commitments Abroad*, 1993.

95. First, *Libya*, 13–26; Cooley, *Libyan Sandstorm*, 8–15.

96. Qaddafi speech, 16 Oct. 1969, in "The Libyan Revolution in the Words of Its Leaders."

97. Newsom testimony, 20 July 1970, in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, *U.S. Security Agreements and Commitments Abroad*, 1990–93.

98. Ibid., 2004.

99. Rogers, *United States Foreign Policy*, 145–46.

100. Yergin, *Prize*, 577–85; Cooley, *Libyan Sandstorm*, 62–79.

101. Qaddafi, *Green Book*, 83–103.

102. Burgat and Dowell, *Islamic Movement in North Africa*, 153–60; Cooley, *Libyan Sandstorm*, 134–57, 188–218, 223–27; First, *Libya*, 119–40.

103. Lake, *Third World Radical Regimes*, 22–23.

104. Keddie, *Roots of Revolution*, 86–112; Rubin, *Paved with Good Intentions*, 3–18; Yergin, *Prize*, 134–49, 269–71, 450.

105. Lytle, *Origins of the Iranian-American Alliance*, 120–55; Bill, *Eagle and the Lion*, 18–41.

106. DOS memcon, 18 Nov. 1949, *FRUS 1949*, 6:574–79; JCS to Louis Johnson, "Iran," 2 May 1950, quoted in Poole, *History of the Joint Chiefs of Staff*, 354. See also Goode, *United States and Iran*, 52–60.

107. NSC Staff Study, "The Position of the United States with Respect to Iran," n.d. [14 Mar. 1951], and NSC-107, "Iran," 14 Mar. 1951, *FRUS 1952–54*, 10:11–23.

108. NSC-136/1, "Present Situation in Iran," 20 Nov. 1952, ibid., 529–34; Heiss, *Empire and Nationhood*, 15–44, 107–34.

109. CIA to Eisenhower, "The Iranian Situation," 1 Mar. 1953, and minutes of the 135th NSC meeting, 4 Mar. 1953, *FRUS 1952–54*, 10:689–93.

110. Gordon Mattison to DOS, tel., 25 July 1953, ibid., 738–39.

111. The best accounts of the events of August 1953 remain Gasiorowski, "The 1953 Coup d'Etat in Iran," and Bill, *Eagle and the Lion*, 86–97.

112. Minutes of the 178th NSC meeting, 30 Dec. 1953, box 5, NSC Series, AWF, DDEL.

113. Minutes of the 377th NSC meeting, 21 Aug. 1958, *DDRS 1990*, item 352.

114. DOS memcon, "Iranian Budgetary Situation," 9 Dec. 1958, and minutes of the 394th NSC meeting, 22 Jan. 1959, *FRUS 1958–60*, 12:619–21, 625–26.

115. NIE 34-59, "The Outlook for Iran," 3 Mar. 1959, ibid., 643–45.

116. Eisenhower-Shah memcon, 14 Dec. 1959, ibid., 658–59.

117. John Eisenhower, "Synopsis of State and Intelligence Material," 22 Mar. 1960, and minutes of the 440th NSC meeting, 7 Apr. 1960, ibid., 671.

118. NSC-6010, "Statement of U.S. Policy toward Iran," 6 July 1960, ibid., 680–88.

119. Minutes of the 449th NSC meeting, 30 June 1960, and James Lay memo, 6 July 1960, ibid., 676–78, 681.

120. "A Review of Problems in Iran and Recommendations for the National Security Council," 15 May 1961, "Iran, 5/15/61," box 115, Countries, NSF, JFKL; "Study Group Report: Iran," 25 Oct. 1961, vol. 84, Council on Foreign Relations, Archives, Records of Groups; Goode, "Reforming Iran during the Kennedy Years."

121. Talbot testimony, 12 June 1961, in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, *International Development and Security*, 499–500.

122. Chester Bowles to JFK, Rusk, and Fowler, tel., 17 Feb. 1962, "White House Correspondence: JFK, Jan.–Mar. 1962," folder 497, box 297, Bowles Papers.

123. JFK-Shah memcon, 12 Apr. 1962, "Iran: Shah Visit, 1962," box 117, Countries, NSF, JFKL.

124. Komer Oral History, 10–11.

125. "Substantive Points to Make to the Shah," n.d. [early Aug. 1962], "Middle East Trip 1962," box 2, Vice Presidential Security Series, LBJL.

126. Ambassador Julius Holmes (Tehran) to DOS, tel., 25 Aug. 1962, ibid.

127. JFK to State, Defense, and CIA, 14 Mar. 1963, "NSAM 228, Review of the Iranian Situation," box 340, Meetings and Memoranda, NSF, JFKL.

128. "Our Current Policy toward Iran," n.d., and "U.S. Strategy for Iran," n.d., both enclosed in Rusk to JFK, 20 Apr. 1963, "NSAM 228, Review of the Iranian Situation, May 1963," ibid.

129. "U.S. Strategy for Iran," n.d., enclosed in ibid.

130. Khomeini speech, 3 June 1963, in Algar, *Islam and Revolution*, 178–79. On Khomeini's meteoric rise during the summer of 1963, see Bill, *Eagle and the Lion*, 152–53.

131. Khomeini speech, 27 Oct. 1964, in Algar, *Islam and Revolution*, 181–85; Bill, *Eagle and the Lion*, 154–61.

132. Talbot testimony, 17 July 1963, in U.S. Congress, House Committee on Appropriations, Subcommittee on Foreign Operations, *Foreign Operations Appropriations for 1964*, 1137–38.

133. LBJ quoted in Bill, *Eagle and the Lion*, 178.

134. Meyer to LBJ, tel., 23 May 1966, "Iran," vol. 2, box 136, Country Files, NSF, LBJL.

135. Safire, *Before the Fall*, 458.

136. Kissinger, *White House Years*, 1259–60.

137. CIA, "Iran's International Position," SNIE 34-70, Office of Privacy Coordination, CIA.

138. Nixon toast, 30 May 1972, and Nixon-Shah Joint Communiqué, 31 May 1972, *PPP, Richard M. Nixon, 1972*, 646, 651–52.

139. Bill, *Eagle and the Lion*, 200–15; Rubin, *Paved with Good Intentions*, 158–89.

140. Saikal, *Rise and Fall of the Shah*, 182–201; Hunt, *Crises in U.S. Foreign Policy*, 365–73.

141. Kissinger to Ford, 13 May 1975, in National Security Archive, *Iran*, fiche 154, item 955; Ford toast, 15 May 1975, *PPP, Gerald R. Ford, 1975*, 1:675.

142. Ford to Shah, 21 Feb. 1976, quoted in Rubin, *Paved with Good Intentions*, 154.

143. On Afghanistan under Daoud, see Garthoff, *Détente and Confrontation*, 982–85; Hammond, *Red Flag over Afghanistan*, 35–45; and Rashid, *Taliban*, 12–13.

144. Diary entry, 24 Mar. 1976, in Alam, *Shah and I*, 477. Alam served as the shah's minister of court from 1969 to 1977.

145. CIA, "Iran in the 1980s," Aug. 1977, in National Security Archive, *Iran*, fiche 199/200, item 1210.

146. Vance, *Hard Choices*, 384; Hammond, *Red Flag over Afghanistan*, 49–55.

147. DOS, "Iran Briefing Paper," 3 Jan. 1977, in National Security Archive, *Iran*, fiche 187, item 1138.

148. CIA, "Iran: New Political Activity—Making a Silk Purse out of a Shah's Ear," 12 Aug. 1977, in ibid., fiche 200, item 1213.

149. Carter, *Keeping Faith*, 435–37.

150. Sick, *All Fall Down*, 34–35.

151. Sullivan to DOS, tel., 21 Sept. 1978, in National Security Archive, *Iran*, fiche 254, item 1538.

152. Carter remarks at press conference, 10 Oct. 1978, *PPP, Jimmy Carter, 1978*, 2:1750; Carter diary entries for 25 Oct., 2 Nov. 1978, in Carter, *Keeping Faith*, 438–39.

153. Sullivan to DOS, tel., 9 Nov. 1978, in National Security Archive, *Iran*, fiche 279, item 1711.

154. Sick, *All Fall Down*, 86–87.

155. Ball, *Past Has Another Pattern*, 455–59.

156. Sick, *All Fall Down*, 116–17. See also Brzezinski, *Power and Principle*, 372–74, and Ball, *Past Has Another Pattern*, 460–62.

157. Brzezinski, *Power and Principle*, 385–86.

158. Khomeini speech, 2 Feb. 1979, in Algar, *Islam and Revolution*, 254–57.

159. Bill, *Eagle and the Lion*, 261–97; Keddie, *Roots of Revolution*, 258–72.

160. Sick, *All Fall Down*, 83.

161. Kemp quoted in Miller and Mylroie, *Saddam Hussein and the Crisis in the Gulf*, 143.

Chapter Seven

1. Bryson, *Tars, Turks, and Tankers*, 2–5; Irwin, *Diplomatic Relations of the United States with the Barbary Powers*, 171–86; Allen, *Our Navy and the Barbary Corsairs*, 281–302.

2. Bryson, *Tars, Turks, and Tankers*, 35–38; Field, *America and the Mediterranean World*, 165–75, 219, 238, 244–45, 313–22, 389–409.

3. Bryson, *Tars, Turks, and Tankers*, 43–46, 52–55, 60–61.

4. Howe, *Northwest Africa*, 35, 487–90, 548–56; Bryson, *Tars, Turks, and Tankers*, 62–85.

5. Bryson, *Tars, Turks, and Tankers*, 86–97; Hoopes and Brinkley, *Driven Patriot*, 293–95.

6. Diary entries for 22 Aug., 30 Sept. 1946, in Millis, *Forrestal Diaries*, 196, 211; Hoopes and Brinkley, *Driven Patriot*, 295.

7. Diary entry, 4 Aug. 1947, in Millis, *Forrestal Diaries*, 301–2.

8. Bryson, *Tars, Turks, and Tankers*, 100–4. On Forrestal's suicide, see Hoopes and Brinkley, *Driven Patriot*, 446–68.

9. Brown to chief of naval operations, 5 Sept. 1959, quoted in Bryson, *Tars, Turks, and Tankers*, 125. On the background to the crisis in Jordan, see Little, "Puppet in Search of a Puppeteer?," 523–25.

10. Little, "Cold War and Covert Action," 71–73.

11. Ambassador Robert McClintock to DOS, tel., 30 Jan. 1958, *FRUS 1958–60*, 11:8–9.

12. On the background to the Lebanese crisis, see Little, "His Finest Hour?," and Gendzier, *Notes from the Minefield*, 264–304.

13. Assistant Secretary of Defense John Irwin to Undersecretary of State Robert Murphy, 6 Feb. 1958, *FRUS 1958–60*, 11:9–10.

14. E. M. Rose (Eastern Department), "Lebanon," 9 May 1958, vol. 134156, FO371, PRO; JCS 2293/1, "Review of Actions Related to U.S. Military Intervention in Lebanon (U)," 23 Oct. 1958, *DDRS 1983*, item 2324.

15. "Conversation between the President and Prime Minister," 10:30 P.M., 14 July 1958, vol. 134159, FO371, PRO. For the White House version of the conversation, which also contains the reference to Pandora's box, see *FRUS 1958–60*, 11:231–34.

16. Lloyd to Macmillan, 17 July 1958, PREM 11, folder 2380, and Lloyd memcon, 19 July 1958, vol. 133823, FO371, PRO.

17. McClintock to DOS, tel., 4 Nov. 1958, *FRUS 1958–60*, 11:626–27.

18. Eisenhower quoted in DOS memcon, "Middle East," 22 Mar. 1959, ibid., 12:218.

19. Dwight D. Eisenhower, *The White House Years: Waging Peace*, 290.

20. For Kennedy's critique of Republican foreign policies during his campaign for the presidency, see "Conventional Forces in the Atomic Age," 16 Oct. 1959, in Kennedy, *Strategy of Peace*, 183–86, and Matthews, *Kennedy and Nixon*, 57–69.

21. Taylor, *Uncertain Trumpet*, 92–93, 151–53. On Taylor's background, see Halberstam, *Best and Brightest*, 162–65. On JFK's interest in Taylor's ideas, see Kinnard, *Certain Trumpet*, 56–58, and Taylor, *Swords and Ploughshares*, 204–6.

22. For Bundy's background and an early assessment of his role in the Kennedy administration, including the Harry Hopkins metaphor, see Hyman, "When Bundy Says"; Gardner, "Harry Hopkins with Hand Grenades?," 204–10; and Halberstam, *Best and Brightest*, 47–63.

23. Bundy to Sorensen, 13 Mar. 1961, *FRUS 1961–63*, 8:66–67. On the need for limited war options in Southeast Asia, see Bundy to JFK, 31 Jan. 1961, ibid., 18. Nearly thirty years later Bundy confirmed that "improved conventional readiness was a first clear objective" for Kennedy's military strategists. See Bundy, *Danger and Survival*, 352.

24. On McNamara's background, see Shapely, *Promise and Power*, 28–44, 52–74, and Halberstam, *Best and Brightest*, 213–39.

25. McNamara, *Essence of Security*, 78–81.

26. On JFK and Vietnam, see Bassett and Pelz, "Failed Search for Victory." For an excellent discussion of the debate over escalation inside the Pentagon during the Johnson years, see Buzzanco, *Masters of War*.

27. DOS to Ambassador Parker Hart (Riyadh), tel., 31 Dec. 1962, *FRUS 1961–63*, 18:290.

28. Komer to JFK, 21 Feb. 1963, ibid., 352–53.

29. NSAM 227, "Decisions Taken at the President's Meeting on Yemen Crisis, 25 February 1963," 27 Feb. 1963, ibid., 366–67.

30. Minutes of DOS-JCS Staff Meeting, 16 Aug. 1963, ibid., 675–80.

31. DOD memcon, 8 Oct. 1963, ibid., 726–27.

32. DOS, "Appraisal and Recommended Course of Action Regarding Yemen," 11 Dec. 1963, and Taylor to McNamara, 12 Dec. 1963, ibid., 837–40, 856–58.

33. Johnson's 19 January 1964 letter to Faisal is summarized in Komer to LBJ, 31 Jan. 1964, "Yemen," vol. 1, box 161, Country Files, NSF, LBJL. On the antiaircraft equipment, see "Summary of Recommendations of the U.S. Air Defense Survey Team to Saudi Arabia," January 1964, "Saudi Arabia," vol. 1, "Memos and Cables, 12/63–1/69," box 155, ibid.

34. For the text of the Gulf of Tonkin Resolution, see *DOSB*, 24 Aug. 1964, 268. For a detailed examination of the "structural dynamics of escalation," see Gibson, *Perfect War*, 320–56.

35. Little, "Making of a Special Relationship."

36. Rusk and McNamara to LBJ, 30 May 1967, "Middle East Crisis," vol. 3, tabs. 81–95, box 18, NSC History Files, NSF, LBJL.

37. Riad quoted in Neff, *Warriors for Jerusalem*, 221.

38. Ibid., 253–60.

39. Ennes, *Assault on the Liberty*, 61–103. McNamara and McDonald are quoted on 78.

40. Clifford quoted in Harold Saunders, "Minutes of NSC Special Committee, 9 June 1967," in "Middle East Crisis," vol. 7, appendix I (1–3), box 19, NSC History Files, NSF, LBJL.

41. Confidential Israeli sources informed the CIA in November 1967 "that Dayan personally ordered the attack on the ship and that one of his generals adamantly opposed the action and said, 'This is pure murder'" (CIA intelligence report, 9 Nov. 1967, quoted in Bamford, *Puzzle Palace*, 293. For Bamford's latest thinking on the *Liberty* episode, see his *Body of Secrets*, 187–239).

42. Rusk, *As I Saw It*, 388.

43. Walt W. Rostow Interview.

44. On the jamming, see CIA information cable, 22 June 1967, "Israel/Turkey/USA," in Kesaris, *CIA Research Reports*, reel 3.

45. Rusk, *As I Saw It*, 386.

46. Harold Saunders, "Hot Line Meeting, June 10, 1967," 22 Oct. 1968, "Middle East Crisis," vol. 7, box 19, NSC History Files, NSF, LBJL.

47. On the origins of the October War, see Neff, *Warriors against Israel*, 43–47, 82–90, 99–109, and Quandt, *Peace Process*, 117–47.

48. Nixon quoted by White House counsel Leonard Garment in Strober and Strober, *Nixon*, 152–53.

49. Haig quoted in ibid., 154–55. On the endgame of the October War, see Kissinger, *Years of Upheaval*, 591–611.

50. Palmer, *Guardians of the Gulf*, 97–99; Tucker, "Oil."

51. "Kissinger on Oil, Food, and Trade," *Business Week*, 13 Jan. 1975, 69.

52. Holloway and Carter quoted in Palmer, *Guardians of the Gulf*, 100–101.

53. Carter, *Keeping Faith*, 506–22, and Palmer, *Guardians of the Gulf*, 108–9, 285–86 n. 84.

54. For a brief discussion of Reagan's campaign rhetoric about U.S. intervention in Vietnam, which he called "a noble cause," see Barrett, *Gambling with History*, 40–42.

55. Cannon, *President Reagan*,77–82; Haig, *Caveat*, 9–15; Weinberger, *Fighting for Peace*, 23–39.

56. McFarlane with Smardz, *Special Trust*, 161–63.

57. Summers, *On Strategy*, 196–206.

58. McFarlane with Smardz, *Special Trust*, 257–67. For two brief accounts of U.S. intervention in Grenada, see Spector, *U.S. Marines in Grenada*, 1–12, and Pastor, "United States and the Grenada Revolution."

59. Weinberger, *Fighting for Peace*, 143–44.

60. Shultz, *Turmoil and Triumph*, 62–84; Cannon, *President Reagan*, 389–406.

61. McFarlane with Smardz, *Special Trust*, 209–13; Shultz, *Turmoil and Triumph*, 78–84, 107–12.

62. Vessey quoted in Martin and Walcott, *Best Laid Plans*, 96.

63. Weinberger, *Fighting for Peace*, 159–60.

64. McFarlane with Smardz, *Special Trust*, 248–53.

65. For Reagan's vow, see "Address to the Nation on Events in Lebanon and Grenada," 27 Oct. 1983, *PPP, Ronald Reagan, 1983*, 2:1519.

66. "Lebanon Report," 12 Dec. 1983, attached to Reagan to Speaker of the House Thomas P. O'Neill, 14 Dec. 1983, "Misc. Reagan: Lebanon," box 10, Miscellaneous Documents, Records of the National Security Council, RG273, NA.

67. Weinberger, *Fighting for Peace*, 163–64.

68. Powell, *My American Journey*, 281.

69. Reagan statement, 7 Feb. 1984, *PPP, Ronald Reagan, 1984*, 1:185.

70. Reagan remarks at news conference, 22 Feb. 1984, ibid., 1:247.

71. McFarlane with Smardz, *Special Trust*, 273.

72. For the text of Weinberger's remarks, see Weinberger, *Fighting for Peace*, 433–45. On Powell's role, see his *My American Journey*, 292.

73. Powell, *My American Journey*, 293.

74. Martin and Walcott, *Best Laid Plans*, 274–85. Qaddafi is quoted on 284.

75. Weinberger, *Fighting for Peace*, 188–89. See also Martin and Walcott, *Best Laid Plans*, 285–88.

76. Martin and Walcott, *Best Laid Plans*, 297–311; Hersh, "Target Qaddafi."

77. Weinberger, *Fighting for Peace*, 199–201.

78. Claudia Wright, "Behind Iraq's Bold Bid."

79. Jentleson, *With Friends Like These*, 31–56.

80. The definitive account of these events remains Draper, *Very Thin Line*, 129–46, 164–83, 272–283. North's "neat idea" quote is on 274. See also Prados, *Keepers of the Keys*, 530–45.

81. For the sequence of events leading to Reagan's decision, see Richard Armitage testimony, 16 June 1987, in U.S. Congress, Senate Committee on Armed Services, *U.S. Military Forces to Protect "Re-Flagged" Kuwaiti Oil Tankers*, 89.

82. Weinberger, *Fighting for Peace*, 387–89.

83. Nunn statement, 5 June 1987, in U.S. Congress, Senate Armed Services Committee, *U.S. Military Forces to Protect "Re-Flagged" Kuwaiti Oil Tankers*, 3.

84. Crowe testimony, 5 June 1987, in ibid., 18.

85. Armacost testimony, 11 June 1987, in ibid., 31, 56–57. For a critique of the Reagan administration's attempt to deter Iran with the reflagging operation, see Stein, "Wrong Strategy in the Right Place."

86. Armitage testimony, 16 June 1987, in U.S. Congress, Senate Armed Services Committee, *U.S. Military Forces to Protect "Re-Flagged" Kuwaiti Oil Tankers*, 95.

87. U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, *War in the Persian Gulf: The U.S. Takes Sides*, vii.

88. Palmer, *Guardians of the Gulf*, 138–44.

89. Ibid., 144–48. On Iranian involvement in the bombing of Pan American flight 103, see Rubin, *Cauldron of Turmoil*, 108–9.

90. Commission on Integrated Long-Term Strategy, *Discriminate Deterrence*, 13.

91. On military intervention against Libya, see Bush, "Unity against Terrorism." On dual-use technology, see Jentleson, *With Friends Like These*, 60–61.

92. DOS, "Guidelines for U.S.-Iraq Policy," n.d. [probably January 1989], quoted in Jentleson, *With Friends Like These*, 98.

93. NSD-26, 2 Oct. 1989, quoted in ibid., 94.

94. Powell quoted in Woodward, *Commanders*, 191.

95. Powell, *My American Journey*, 420–21.

96. On Saddam Hussein's relations with Kuwait, see Freedman and Karsh, *Gulf Conflict*, 19–63.

97. Miller and Mylroie, *Saddam Hussein and the Crisis in the Gulf*, 149–52; Woodward, *Commanders*, 205–10.

98. "Excerpts from Iraqi Transcript of Meeting with U.S. Envoy," *New York Times*, 23 Sept. 1990.

99. Glaspie and Hamilton quoted in Jentleson, *With Friends Like These*, 170–71.

100. Lang quoted in Woodward, *Commanders*, 216–17.

101. Powell, *My American Journey*, 444–45.

102. Woodward, *Commanders*, 220–21.

103. All quotes are from Powell, *My American Journey*, 450–51. See also Woodward, *Commanders*, 225–27.

104. Powell, *My American Journey*, 451.

105. Ibid.

106. Bush and Scowcroft, *World Transformed*, 322–26.

107. Bush remarks to reporters, 5 Aug. 1990, *PPP, George Bush, 1990*, 2:1102.

108. Powell, *My American Journey*, 453.

109. On the establishment of CENTCOM, see Palmer, *Guardians of the Gulf*, 113–17.

110. Woodward, *Commanders*, 266–71.
111. Palmer, *Guardians of the Gulf*, 170–74.
112. James A. Baker, *Politics of Diplomacy*, 275–99.
113. Powell, *My American Journey*, 466–67.
114. Ibid., 473–74.
115. James A. Baker, *Politics of Diplomacy*, 303 (emphasis in original).
116. Powell, *My American Journey*, 474–76.
117. Cheney testimony, 3 Dec. 1990, in U.S. Congress, Senate Committee on Armed Services, *Crisis in the Persian Gulf Region*, 639, 643–44.
118. Powell testimony, 3 Dec. 1990, in ibid., 662–63.
119. Nunn, Glenn, Kennedy, and Cheney remarks in ibid., 681, 701–2, 718.
120. Gore remarks, 3 Dec. 1990, in ibid., 722–23.
121. James A. Baker, *Politics of Diplomacy*, 358–59.
122. Freedman and Karsh, *Gulf Conflict*, 283–95; *New York Times*, 13 Jan. 1991.
123. See Gore's remarks, 12 Jan. 1991, quoted in *New York Times*, 13 Jan. 1991.
124. Solarz, "Stakes in the Gulf."
125. Powell, *My American Journey*, 495.
126. Schwartzkopf, *It Doesn't Take a Hero*, 451–61.
127. Bush remarks, 1 Mar. 1991, *PPP, George Bush, 1991*, 1:197.
128. Powell, *My American Journey*, 512, 518.
129. Summers, *On Strategy II*, vii, 1–3, 139–49.
130. "U.S. Struggles to Clarify Policy on Persian Gulf," *New York Times*, 20 Apr. 1997; "At a Saudi Base, U.S. Digs in, Gingerly, for Longer Stay," ibid., 29 Dec. 1997; Kagan, "Benevolent Empire."
131. Colin Powell, "Why Generals Get Nervous," *New York Times*, 8 Oct. 1992.
132. Quoted in Newhouse, "No Exit, No Entrance," 46.
133. Zimmermann and Eagleburger are quoted in Danner, "America and the Bosnia Genocide," 58.
134. Danner, "Slouching toward Dayton."
135. For an excellent analysis of the perils of meddling in ethnic strife from the Balkans to Africa, see Callahan, *Unwinnable Wars*. On Clinton's decision not to intervene in Rwanda, see Power, "Bystanders to Genocide," 90–98. For a detailed account of the botched intervention in Somalia and the impact of media coverage, see Bowden, *Black Hawk Down*.
136. "U.S. Jets over Iraq Attack Own Helicopters in Error," *New York Times*, 26 Apr. 1994; "Bahrain Rulers Say They're Determined to End Village Unrest," ibid., 28 Jan. 1996; "Saudi Kingdom Shows Cracks, U.S. Aides Fear," ibid., 30 June 1996.
137. Pentagon sources quoted in Bernard Trainor, "Force May Not Achieve U.S. Goal in Iraq," ibid., 13 Feb. 1998.
138. Bodansky, *Bin Laden*, 231–32, 283–87.
139. Halberstam, *War in a Time of Peace*, 444–51.
140. "A Month in a Difficult Battlefield: Assessing U.S. War Strategy," *New York Times*, 8 Nov. 2001.
141. Bush remarks, 11 Oct. 2001, http://www.whitehouse.gov/news.
142. "Pentagon Says Taliban Is Ready for Long Fight," *Washington Post*, 25 Oct. 2001.

1. Eban, *Personal Witness*, 656.

2. At the end of the year State Department officials placed the total number of Palestinian refugees at between 650,000 and 750,000. See DOS cirtel, 29 Dec. 1948, *FRUS 1948*, 5:1696.

3. On Deir Yassin and the brutal struggle between the Irgun and the Arab Liberation Army, see Morris, *Birth of the Palestinian Refugee Problem*, 111–18.

4. Allon and Ben Gurion quoted in ibid., 207.

5. Bernadotte quoted in Jefferson Patterson (Cairo) to DOS, tel., 7 Aug. 1948; Marshall to James McDonald (Jerusalem), tel., 1 Sept. 1948; and McDonald to Truman, 17 Oct. 1948, *FRUS 1948*, 5:1295, 1367, 1486.

6. Ambassador James Keeley to DOS, tel., 24 Aug. 1948, 890D.00/8-2448, State Department Central Decimal File, RG59, NA.

7. U.N. Resolution 194 (III), 11 Dec. 1948, quoted in editorial note, *FRUS 1948*, 5:1661–62.

8. Ethridge to Truman, 11 Apr. 1949; Acheson memcon, 25 Apr. 1949; and Weizmann to Truman, 27 Apr. 1949, *FRUS 1949*, 6:905, 943–44, 947–48.

9. George McGhee, "Palestine Refugee Problem," 22 Apr. 1949, and Acheson to Ethridge, tel., 12 May 1949, ibid., 934–37, 1004–5.

10. Acheson, "Conference with the President, July 29," 1 Aug. 1949, ibid., 1272.

11. Paul Porter (Lausanne) to DOS, tel., 5 Aug. 1949, and Stuart Rockwell (Lausanne) to DOS, tel., 11 Aug. 1949, ibid., 1287, 1300.

12. DOS, "Interim Report of the Economic Survey Mission to the Near East," 9 Nov. 1949, and editorial note, ibid., 1476–79, 1529–30; Truman statement, 30 Dec. 1949, *PPP, Harry S. Truman, 1949*, 592–93.

13. Malik quoted in DOS memcon, 1 Aug. 1950, *FRUS 1950*, 5:1104–5.

14. DOS position paper, "The Palestine Question," 12 Oct. 1951, *FRUS 1951*, 5:894.

15. DOS memcon, 15 May 1953, *FRUS 1952–54*, 9:51–54.

16. Dulles, "Report on the Near East," 832–34.

17. Dulles testimony, 3 June 1953, in U.S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, *Executive Sessions*, 5:445–47.

18. Eisenhower to Johnston, 7 Oct. 1953; DOS cirtel, 11 Oct. 1953; Dulles to Johnston, 13 Oct. 1953; and Johnston, "Report to the President on Near East Mission," 17 Nov. 1953, *FRUS 1952–54*, 9:1348 n. 1, 1345–46, 1348–53, 1418–23.

19. DOS position paper, 10 Nov. 1954, ibid., 1690.

20. DOS memcon, 9 Dec. 1954, ibid., 1706–7.

21. Johnston to Dulles, tel., 20 Feb. 1955; Dulles to Mallory (Amman), tel., 3 June 1955; Dulles phone call to Johnston, 18 Aug. 1955; and Johnston to DOS, tel., 7 Oct. 1955, *FRUS 1955–57*, 14:65–66, 218–19, 363–64, 565–67. For an account of the rise and fall of the Johnston Plan more critical of Israel, see Gerner, "Missed Opportunities and Roads Not Taken," 84–86.

22. Russell to Walter Butterworth (London), 21 Dec. 1955, *FRUS 1952–54*, 9:1732; DOS memcon, 27 Jan. 1955, *FRUS 1955–57*, 14:24–28.

23. Dulles quoted in Shuckburgh diary entry, 27 Jan. 1955, in Shuckburgh, *Descent to*

Suez, 247. For a less colorful version of Dulles's remarks, see DOS memcon, 27 Jan. 1955, *FRUS 1955–57*, 14:30–32.

24. Dulles memcon, 14 Feb. 1955, *FRUS 1955–57*, 14:53–54.

25. National Security Advisor Dillon Anderson to Herbert Hoover Jr., 26 July 1955, ibid., 322–23.

26. Dulles, "Middle East."

27. Dulles memcon, 11 Jan. 1956, and Eisenhower diary entry, 11 Jan. 1956, *FRUS 1955–57*, 15:20–23.

28. Anderson to DOS, tel., 21 Jan. 1956, ibid., 43–47.

29. Nasser quoted in Heikal, *Cutting the Lion's Tail*, 93.

30. Anderson to DOS, tel., 25 Jan. 1956, and Russell to Dulles, 20 Feb. 1956, *FRUS 1955–57*, 15:68–70, 189–91.

31. Anderson to DOS, tel., 7 Mar. 1956, ibid., 320–22.

32. Ike diary entry, 13 Mar. 1956, "Diary, March 1956," box 13, DDE Diary Series, AWF, DDEL.

33. Villard to Herter, 28 Apr. 1959, and DOS memcons, 10 Nov. 1959, 25 May 1960, *FRUS 1958–60*, 13:54, 217, 323–25.

34. Kennedy, *Strategy of Peace*, 118, 121.

35. JFK to Nasser, in Bowles to Badeau (Cairo), tel., 11 May 1961, *FRUS 1961–63*, 17:110–13; 110 n. 1 describes the five other letters.

36. JFK-Ben Gurion memcon, 30 May 1961, ibid., 139–40.

37. On Johnson's background and appointment, see Meyer Oral History, 34; Rusk, *As I Saw It*, 125; and DOS to Rusk, tel., 9 Aug. 1961, *FRUS 1961–63*, 17:221.

38. DOS memcon, 29 Sept. 1961, *FRUS 1961–63*, 17:264–66.

39. DOS memcons, 7 June, 28, 31 July, 6 Aug. 1962, ibid., 17:707–10, 18:17–19.

40. "The Johnson Plan: Considerations for the United States," n.d., attached to Rusk to JFK, 7 Aug. 1962, ibid., 18:33–39.

41. "White House Conference on the Johnson Plan," 14 Aug. 1962, ibid., 54–58.

42. Ibid.

43. Feldman to author, 20 Aug. 1985, in author's possession.

44. Feldman Oral History.

45. Meyer Oral History, 35.

46. Rusk, *As I Saw It*, 382–83.

47. Feldman to author, 20 Aug. 1985, in author's possession; Meyer Oral History, 35; Rusk, *As I Saw It*, 383.

48. Benjamin Read to McGeorge Bundy, "U.S. Influence on the Arab Summit Conference," 12 Feb. 1964, "UAR Cables," vol. 1, Nov. 1963–May 1964, box 158, Country Files, NSF, LBJL.

49. Dann, *King Hussein and the Challenge of Arab Radicalism*, 137, 140–42; Nutting, *Nasser*, 364–65; Tessler, *History of the Israeli-Palestinian Conflict*, 372–74.

50. On Arafat and the rise of Fatah, see Hart, *Arafat*, 67–80, 106–30, and Quandt, Jabber, and Lesch, *Politics of Palestinian Nationalism*, 55–56.

51. Boswell (Cairo) to DOS, tel., 12 Sept. 1964, "UAR Cables," vol. 2, June–Dec. 1964, box 159, Country Files, NSF, LBJL.

52. Rusk quoted in DOS memcon, 28 May 1965, *Lyndon B. Johnson National Security*

Files, reel 1, frame 408. By the spring of 1965 Fatah commandos were calling themselves "fedayeen," an Arabic word meaning "self-sacrificer." On early fedayeen raids, see Neff, *Warriors for Jerusalem*, 31–36; Khouri, "Policy of Retaliation in Arab-Israeli Relations," 448–50; and Quandt, Jabber, and Lesch, *Politics of Palestinian Nationalism*, 157–59.

53. Read to Bundy, 5 June 1965, "UAR Memos," vol. 4, June 1965–June 1966, box 159, Country Files, NSF, LBJL.

54. Saunders, "Terrorist Origins of the Present Crisis," n.d. [mid-June 1967], "Middle East Crisis," vol. 1, tabs. 1–10, box 17, NSC History Files, NSF, LBJL.

55. Stephens, *Nasser*, 459–60.

56. Saunders, "Terrorist Origins of the Present Crisis," n.d. [mid-June 1967], "Middle East Crisis," vol. 1, tabs. 1–10, box 17, NSC History Files, NSF, LBJL. On the Samu raid, see Mutawi, *Jordan in the 1967 War*, 79–84, and Mackey, *Passion and Politics*, 199.

57. CIA Report, "Syria: A Center of Instability," 24 Mar. 1967, "Syria," vol. 1, box 156, Country Files, NSF, LBJL; CIA National Intelligence Estimate, "The Arab-Israeli Dispute: Current Phase," 13 Apr. 1967, Office of Information and Privacy Coordination, CIA. On Nasser's actions, see Parker, *Six Day War*, 17–19.

58. Saunders to Rostow, "The President's Stake in the Middle East," 16 May 1967, attached to Rostow to LBJ, 17 May 1967, "Saunders Memos," box 7, Name File, NSF, LBJL (emphasis in original).

59. Saunders, "NSC Meeting, Wednesday, June 7, 1967," 7 Jan. 1969, vol. 4, tab. 53, "Middle East War," box 2, NSC Meeting File, NSF, LBJL.

60. Saunders to Bundy, 7 June 1967, "Middle East Crisis, Cables," vol. 4, box 116, Country Files, NSF, LBJL.

61. Neff, *Warriors for Jerusalem*, 289–300; Rusk quoted in Saunders, "Minutes of the NSC Special Committee," 14 June 1967, "Middle East Crisis," vol. 7, appendix I (1–3), box 19, NSC History Files, NSF, LBJL.

62. CIA, "Arab-Israeli Situation Report," 23 June 1967, "Middle East Crisis," vol. 11, appendix Q (V), box 21, NSC History Files, NSF, LBJL. See also DOS/CIA, "Comprehensive Picture of Refugee Situation in Jordan," 3 July 1967, "Memos to NSC Committee, July 1967," "NSC Meeting Files, 1966–1970," box 1, Top Secret Records of the Assistant Secretary of State, RG59, NA.

63. LBJ address, 19 June 1967, *PPP Lyndon B. Johnson, 1967*, 1:633–34.

64. Rostow to LBJ, 3 Oct. 1967, *DDRS 1991*, item 499.

65. Rostow to LBJ (2 memos), 17 Oct. 1967, "Rostow," vol. 46 (2 of 2), Memos to the President, box 24, NSF, LBJL.

66. DOS memcon, 24 Oct. 1967, "Israel," vol. 7, Aug.–Dec. 1967, box 140, Country Files, and George Christian memcon, 24 Oct. 1967, "Mtg. with Abba Eban," box 2, Meeting Notes File, NSF, LBJL. On the Palestinian refugees from the Six Day War, see Day, *East Bank/West Bank*, 31–32.

67. Neff, *Warriors for Jerusalem*, 335–40; Spiegel, *Other Arab-Israeli Conflict*, 155–57. For the English and French texts of Resolution 242, see Moore, *Arab-Israeli Conflict*, 3:1034–35.

68. Rostow to LBJ, 8 Nov. 1967, "Rostow," vol. 50 (2 of 2), Memos to the President, box 25, NSF, LBJL; Goldberg and Hussein quoted in Neff, *Warriors for Jerusalem*, 341–43.

69. Rostow to LBJ, "Issues for Eshkol," 5 Jan. 1968, "Israel: Eshkol Visit Briefing Book," box 144, Country Files, NSF, LBJL.

70. Harold Saunders, Minutes of NSC Meeting, 26 Feb. 1968, *DDRS 1988*, item 390.

71. Hart, *Arafat*, 254–63. (The Arafat quote is on 260).

72. Rostow quoted in Saunders memcon, 17 May 1968, "Israel Memos," vol. 10, June–Nov. 1968, box 142, Country Files, NSF, LBJL.

73. Donald Bergus (Cairo) to DOS, tel., 15 June 1968, "UAR Cables," vol. 6, box 160, ibid.

74. Eugene Rostow to Barbour, tel., 17 Aug. 1968, "Israel Cables," vol. 10, box 142, Country Files, NSF, LBJL; Walt Rostow to LBJ, "Notes for 5:30 Briefing of Mr. Nixon," 12 Dec. 1968, *DDRS 1996*, item 1798.

75. DOS memcon, 13 Mar. 1960, *FRUS 1958–60*, 13:295.

76. Nixon, *RN*, 249–50.

77. Nixon notes, 9 Dec. 1968, quoted in Safire, *Before the Fall*, 108–9.

78. Kissinger, *White House Years*, 341.

79. Scranton quoted in Lenczowski, *American Presidents and the Middle East*, 120. On Scranton declining Nixon's offer to become secretary of state, see Parmet, *Richard Nixon and His America*, 538.

80. Ziegler quoted in Thomas, "From Orientalism to Professionalism," 522.

81. Rogers remarks, 27 Mar. 1969, in *DOSB*, 14 Apr. 1969, 305–6.

82. Rogers to Nixon, "Suggested Position to Take with Israeli Prime Minister," 16 Sept. 1969, and "Scope and Objectives," n.d. [probably 16 Sept. 1969], "Top Secret 1969," box 1, Top Secret Records of the Assistant Secretary of State, RG59, NA.

83. Rogers, "A Lasting Peace in the Middle East," *DOSB*, 5 Jan. 1970, 7–11.

84. Meir, *My Life*, 389–90.

85. Kenen, *Israel's Defense Line*, 237–40. Meir quoted on 238.

86. Kissinger, *White House Years*, 341, 356, 374.

87. Garment, *Crazy Rhythm*, 192–93.

88. Sisco to DOS, tel., 14 Apr. 1970, "ORG 7 NEA," State Department Alpha-Numeric File, RG59, NA.

89. Kissinger, *White House Years*, 626.

90. Arab League Summit Communiqué, 29 Oct. 1974, in Lukacs, *Documents on the Israeli-Palestinian Conflict*, 223–24.

91. Kissinger, *Years of Renewal*, 422–59; "U.S.-Israeli Memorandum of Understanding," 1 Sept. 1975, in Sheehan, *Arabs, Israelis, and Kissinger*, 253–57.

92. Saunders, *Other Walls*, 9.

93. Scranton remarks, 23 Mar. 1976, in Lukacs, *Documents on the Israeli-Palestinian Conflict*, 30–32.

94. Brookings Institution Study Group, *Toward Peace in the Middle East*, 1–12. The quotation is on 2. On Carter's endorsement of the Brookings study, see Brzezinski, *Power and Principle*, 84–85, and David Schoenbaum, *United States and Israel*, 246.

95. "Overview of Foreign Policy Issues and Positions," 24 Oct. 1976, in Vance, *Hard Choices*, 443, 447–48.

96. Carter, *Keeping Faith*, 279.

97. Ibid., 279–81; Carter remarks, 16 Mar. 1977, *PPP, Jimmy Carter, 1977*, 1:386–87. On the Israeli elections, see Rabin, *Memoirs*, 291–97, 315–18.

98. Vance, *Hard Choices*, 188–90.

99. Carter, *Keeping Faith*, 292–93.

100. Sadat address to the Knesset, 20 Nov. 1977, in Quandt, *Camp David*, 351–53.

101. Vance, *Hard Choices*, 208–11.
102. Carter, *Keeping Faith*, 374–75.
103. Ibid., 391–93.
104. "Camp David Accords," 17 September 1978, in Quandt, *Camp David*, 376–83.
105. Ibid., 247–48.
106. Carter, *Keeping Faith*, 409, 492.
107. Ibid., 495.
108. Cannon, *President Reagan*, 288–89, 391; Reagan, *American Life*, 408–9.
109. "Excerpts from Interview with President Reagan," *New York Times*, 3 Feb. 1981; Neff, *Fallen Pillars*, 119–24, 159–61.
110. Haig, *Caveat*, 123, 171–72. On Haig, Sharon, and the invasion of Lebanon, see Schiff, "Green Light," 77–83.
111. Shultz, *Turmoil and Triumph*, 49–51.
112. Reagan, *American Life*, 430.
113. Shultz, *Turmoil and Triumph*, 86.
114. Reagan, *American Life*, 430–31; Shultz, *Turmoil and Triumph*, 96–98.
115. Shultz, *Turmoil and Triumph*, 92–93, 98. Veliotes is quoted on 92.
116. Arens quoted in ibid., 91, 95–96.
117. Begin to Reagan, n.d. [early Sept. 1982], quoted in Reagan, *American Life*, 432–34.
118. Shultz, *Turmoil and Triumph*, 104–7, 110. Sharon is quoted on 105. The best accounts of the Sabra and Shatilla massacres are Schiff and Ya'ari, *Israel's Lebanon War*, 250–85, and Friedman, *From Beirut to Jerusalem*, 160–66.
119. Shultz, *Turmoil and Triumph*, 110.
120. Kahan commission report quoted in ibid., 111–13.
121. Ibid., 457–58.
122. Ibid., 949.
123. Ibid., 1017–20.
124. Abu-Amr, "Hamas," 10–14.
125. Shultz, *Turmoil and Triumph*, 1034–35, 1043.
126. Ibid., 1040–45.
127. Ibid., 1043.
128. Arens, *Broken Covenant*, 30–31, 38–39.
129. Bush statement, 25 Sept. 1971, *DOSB*, 25 Oct. 1971, 469–70. See also Bush statement, 10 Dec. 1971, *DOSB*, 17 Jan. 1972, 72.
130. Arens, *Broken Covenant*, 28.
131. Bush remarks, 3 Apr. 1989, *PPP, George Bush, 1989*, 1:348.
132. "Secretary-Designate's Confirmation Hearings," 17 Jan. 1989, *DOSB*, Apr. 1989, 15.
133. James A. Baker, *Politics of Diplomacy*, 118.
134. James A. Baker, "Principles and Pragmatism: American Policy toward the Arab-Israeli Conflict," 22 May 1989, *DOSB*, July 1989, 24–27.
135. James A. Baker, *Politics of Diplomacy*, 129–30; Bush remarks, 10 Mar. 1991, *PPP, George Bush, 1991*, 1:233–34.
136. For sympathetic portraits of Ashrawi, see Victor, *Voice of Reason*, and Shlaim, "Woman of the Year."
137. James A. Baker, *Politics of Diplomacy*, 491. For Ashrawi's version of the meeting, see Ashrawi, *This Side of Peace*, 80–87.

138. James A. Baker, *Politics of Diplomacy*, 493.

139. "Excerpts of Haidar Abdel-Shafi's Remarks," *New York Times*, 1 Nov. 1991. On Ashrawi's authorship, see Ashrawi, *This Side of Peace*, 145–48.

140. Tad Szulc, "Who Are the Palestinians?" The quotations are on 94 and 98.

141. James A. Baker, *Politics of Diplomacy*, 553–54.

142. Bush remarks, 17 Mar. 1992, *PPP, George Bush, 1992–93*, 1:467.

143. James A. Baker, *Politics of Diplomacy*, 554–55.

144. Ibid., 555–57.

145. "Interview with Nabil Shaath." Shaath was the chief Palestinian negotiator in Washington. For a critical account of Clinton's handling of the peace process, see Neff, "Clinton Administration and UN Resolution 242."

146. For two inside accounts of the Oslo negotiations, see Peres, *New Middle East*, 18–32, and Savir, "Why Oslo Still Matters."

147. For the full text of the remarks of the three men on 13 September, see *Middle East Policy*, 2, no. 3 (1993): 183–88.

148. "Rabin's Last Speech," *New York Times*, 5 Nov. 1995. On Amir and the Israeli right, see Amos Elon, "Israel's Demons."

149. Arafat to Leah Rabin, 9 Nov. 1995, in Arzt, *Refugees into Citizens*, vii.

150. Peretz and Doron, "Israel's 1996 Elections."

151. For three excellent analyses of Netanyahu's hard-line approach to the peace process, see Elon, "Israel and the End of Zionism," 24–25; Schmemann, "Outside In," 55–59, 74–77; and Remnick, "Letter from Jerusalem."

152. "Hillary Clinton Says Palestinians Deserve an Independent State," *Jerusalem Post*, 8 May 1998. Arafat quoted in "9 Palestinians Killed, Scores Wounded by Israelis," *New York Times*, 15 May 1998.

153. Albright quoted in "Israel Torn by Competing Israeli Concerns on Settlements," *New York Times*, 14 May 1998. Netanyahu quoted in "Netanyahu Expresses Newfound Optimism on Peace Talks," ibid., 16 May 1998.

154. Albright and Netanyahu quoted in Serge Schmemann, "Plan to Expand Jerusalem's Municipal Control Is Approved," ibid., 22 June 1998.

155. Netanyahu quoted in "PM Raps Albright," *Jerusalem Post*, 22 June 1998.

156. Barak quoted in "Returning Home, Netanyahu Faces the Real Battle As Settlers Stage Protests," *New York Times*, 26 Oct. 1998.

157. "Quest for Mideast Peace: How and Why It Failed," *New York Times*, 26 July 2001.

158. Clinton quoted in Malley and Agha, "Camp David," 62–63.

159. Herzog quoted in "Stalled but Alive, Peace Talks on the Mideast Reach 10th Day," *New York Times*, 21 July 2000. See also "'Unique Opportunity' Lost at Camp David," *Washington Post*, 30 July 2000.

160. Malley and Agha, "Camp David," 65.

161. U.S. Department of State, *Report of the Sharm El-Sheikh [Mitchell] Fact-Finding Committee*.

162. Bush quoted in Suskind, *Price of Loyalty*, 71.

163. Bush to Abdullah, 29 Aug. 2001, quoted in Walsh, "The Prince," 59; Bush remarks, 11 Oct. 2001, http://www.whitehouse.gov/news.

164. Indyk quoted in "In Mideast Diplomacy, Few Secrets or Solutions," *New York Times*, 16 June 2002.

165. "President Bush Calls for New Palestinian Leadership," 24 June 2002, http://www.whitehouse.gov/news.

166. Sharon and Bush quoted in Bruck, "Back Roads," 93, 95.

167. Abbas interview with Lally Weymouth, *Newsweek*, 4 Aug. 2003, 41.

168. Bush quoted in Bruck, "Back Roads," 95.

Chapter 9

1. "War Plans Call for Precision Bombing Wave to Break Iraq Army Early in Attack," *New York Times*, 2 Feb. 2003.

2. "President Bush Announces Major Combat Operations in Iraq Have Ended," 1 May 2003, www.whitehouse.gov/news.

3. Minutaglio, *First Son*, 61–71, 86–109, 125–32, 154–63.

4. Bush, *A Charge to Keep*, 139. For more on Bush's drinking problem, see Minutaglio, *First Son*, 209–10, and Draper, *Dead Certain*, xiii, 35–36, 38–39.

5. Bush, A *Charge to Keep*, 44–45.

6. Suskind, "Without a Doubt," 50–51.

7. On Qutb, bin Laden, and the rise of al-Qaeda, see Wright, *Looming Tower*, 7–31. 99–144. The quote from Qutb's *Milestones* is in Doran, "Somebody Else's Civil War," 30. On anti-Western stereotypes popular among Islamic extremists, see Buruma and Margalit, "Occidentalism," 4–7.

8. Marsden, *Taliban*, 128–29; Coll, *Ghost Wars*, 371–450; Wright, *Looming Tower*, 224–86. On the links between the Pakistani ISI and the CIA, see Gates, *From the Shadows*, 143–44, and Yousaf with Adkin, *Bear Trap*, 78–112.

9. On the attack on the USS *Cole*, see Wright, *Looming Tower*, 319–31.

10. Cheney, "Speech to London Petroleum Institute."

11. National Energy Policy Development Group, *Reliable, Affordable, and Environmentally Sound Energy*, x, 8.1–8.13.

12. Rumsfeld and Chalabi quoted in Renner, "Post-Saddam Iraq," 5.

13. "OPEC Leaves Production Levels Unchanged," *New York Times*, 12 June 2003; Cassidy, "Beneath the Sand," 64–72.

14. Brooke quoted in Cassidy, "Beneath the Sand," 73. On the difficulties that American firms faced in resurrecting the Iraqi oil industry after Saddam's fall, see Rutledge, *Addicted to Oil*, 178–96.

15. Cassidy, "Pump Dreams," 45–47; Maass, "The Breaking Point," 56, 59.

16. "Foreigners May Soon Play a Part in Kuwait Oil," *New York Times*, 23 Dec. 2005; "Once Marginal but Now Kings of the Oil World," *New York Times*, 23 Apr. 2006.

17. Bush, *A Charge to Keep*, 138–39.

18. "Bush's Embrace of Israel Shows Gap with Father," *New York Times*, 2 Aug. 2006.

19. Bush quoted in Suskind, *Price of Loyalty*, 71–72.

20. Delinda C. Hanley, "Israel Asks Strapped U.S. Taxpayers for $14 Billion—No Strings Attached," *Washington Report on Middle East Affairs*, Jan./Feb. 2003, 6, 26; "House and Senate Support Israel in Strong Resolutions," *New York Times*, 3 May 2002; "Shock of September 11 Is Making Americans More Supportive of Israel," *New York Times*, 13 May 2002.

21. "For Evangelicals, Supporting Israel is 'God's Foreign Policy,'" *New York Times*, 14 Nov. 2006.

22. Mearsheimer and Walt, *The Israel Lobby*, 199–279.

23. Rice and Shoval quoted in "In the New Middle East, Tests for an Old Friendship," *New York Times*, 13 Nov. 2006.

24. Bennet, "Sharon's Wars," 36–37, 52, 67.

25. Weisglass quoted in Samuels, "Grand Illusions," 65.

26. Remnick, "Checkpoint," 57.

27. "As Her Star Wanes, Rice Tries to Reshape Legacy," *New York Times*, 1 Sept. 2007.

28. Bush speech at Iowa Western Community College, 21 Jan. 2000, quoted in Miller, *The Bush Dyslexicon*, 207–8.

29. Lewis, "Roots of Muslim Rage," 47–60; Huntington, "Clash of Civilizations?," 22–49, and "If Not Civilizations, What?," 194. On the roots of Huntington's worldview, see Kaplan, "Looking the World in the Eye," 68–82. For an excellent analysis of Huntington, Lewis, and the Bush administration's policies in the Middle East, see John Trumpbour, "Clash of Civilizations."

30. Huntington, *Clash of Civilizations*, 256–58.

31. Pipes, "There Are No Moderates," 48–57. For an updated account of this article including the events of the late 1990s, see Pipes, *Militant Islam Reaches America*, 38–51.

32. Lewis, "License to Kill," 15, 19.

33. "Remarks by the President Upon Arrival," 16 Sept. 2001, www.whitehouse.gov/news. On Bush's desire to "kick some ass" on 9/11, see Clarke, *Against All Enemies*, 24.

34. Gati quoted in "As U.N. Meets, Bin Laden Tape Sets Off Alarms," *New York Times*, 9 Nov. 2001.

35. Black quoted in Woodward, *Bush at War*, 52, 141.

36. Colonel Wayland Parker quoted in Ron Nordland and Scott Johnson, "Secret Hunt, Elusive Prey," *Newsweek*, 13 May 2002, 33.

37. Wolfowitz statement, 26 June 2002, in U.S. Congress, Senate, Committee on Foreign Relations, *Afghanistan: Building Stability, Avoiding Chaos*, 9–11.

38. Emerson, *American Jihad*, 177–220.

39. Pipes, *Militant Islam Reaches America*, xvi, 141–42.

40. Podhoretz, *World War IV*, 8–9.

41. "President Bush and Secretary of State Rice Discuss the Middle East Crisis," 7 Aug. 2006, www.whitehouse.gov/news.

42. Powell quoted in Samuels, "Grand Illusions," 52.

43. Podhoretz, *World War IV*, 213.

44. The best account of the rise of neoconservatives and the Project for the New American Century is Mann, *Rise of the Vulcans*, 234–60.

45. Project for the New American Century, "Statement of Principles," 3 June 1997, www.newamericancentury.org.

46. Wolfowitz quoted in Keller, "Sunshine Warrior," 51.

47. "Dr. Condoleeza Rice Discusses President's National Security Strategy," 1 Oct. 2002, www.whitehouse.gov/news.

48. Allawi, *The Occupation of Iraq*, 83.

49. Packer, *Assassins' Gate*, 116.

50. Haass quoted in Lemann, "Order of Battle," 46.

51. White, "Testimony." Portions of White's still-classified report dated 26 Feb. 2003 were quoted in "Showdown with Iraq: Democracy Domino Theory Not Credible," *Los Angeles Times*, 14 Mar. 2003.

52. Barnett, "The Pentagon's New Map," 174–75, 227–28.

53. Barnett, *The Pentagon's New Map*, 43.

54. Shatz, "Native Informant."

55. Fouad Ajami, "Bush Country," *Wall Street Journal*, 16 May 2005.

56. Ajami, *Foreigner's Gift*, xi, xix, 122.

57. For the differences between preemption and prevention and the debate over "shooting on suspicion" in Iraq, see Silverstone, *Preventive War and American Democracy*, 1–24, 171–97; Gray, *Implications of Preemptive and Preventive War Doctrines*, iv–x, 26–34; and Gaddis, *Surprise, Security, and the American Experience*, 122–23, n. 12.

58. Project for the New American Century, "Letter to President Clinton," 26 Jan. 1998, www.newamericancentury.org. On Rumsfeld and Wolfowitz's first months in office, see Mann, *Rise of the Vulcans*, 261–93.

59. U.S. Commission on National Security/21st Century, *Road Map for National Security*, 2–7.

60. Cheney quoted in Lemann, "The Quiet Man," 59.

61. President's Daily Brief, "Bin Ladin Determined to Strike in US," 6 Aug. 2001, www.cnn.com/2004/images. For the Bush administration's handling of intelligence reports prior to the 9/11 attacks, see National Commission on Terrorist Attacks, *The 9/11 Commission Report*, 254–65, and Tenet, *In the Center of the Storm*, 133–60.

62. Bush diary entry for 11 Sept. 2001, quoted in Woodward, *Bush at War*, 37.

63. "President Bush Delivers Graduation Address at West Point," 1 June 2002, www.whitehouse.gov/news.

64. Bush, *The National Security Strategy of the United States of America*, 1, 14–15.

65. "President Bush Outlines Iraqi Threat," 7 Oct. 2002, www.whitehouse.gov/news.

66. Wilson, *Politics of Truth*, 325–41.

67. Suskind, *Price of Loyalty*, 72–75.

68. Clarke, *Against All Enemies*, 231–32.

69. Meeting notes, 11 Sept. 2001, quoted in Packer, *Assassins' Gate*, 40.

70. Bush quoted in Woodward, *Bush at War*, 99.

71. Clarke, *Against All Enemies*, 30–31.

72. "Remarks by President Bush and Prime Minister Tony Blair," 7 Nov. 2001, www.whitehouse.gov/news. For rumors about Yemen becoming "a second Afghanistan," see Draper, *Dead Certain*, 164. Saleh and Bush quoted in "Yemen, an Uneasy Ally, Proves Adept at Playing Off Old Rivals," *New York Times*, 19 Dec. 2002.

73. "Deputy Secretary Wolfowitz Interview with Sam Tannenhaus, Vanity Fair," 9 May 2003, www.dod.mil/transcripts/2003. For the "Wolfowitz of Arabia" moniker, see "Iraqi Shadow Government Cools Its Heels in Kuwait," *New York Times*, 3 Apr. 2003.

74. "Remarks by President Bush in Houston, Texas," 26 Sept. 2002, www.whitehouse.gov/news; Lemann, "Iraq Factor," 34–38.

75. Bush and Scowcroft, *A World Transformed*, 489.

76. Scowcroft, "Don't Attack Saddam," *Wall Street Journal*, 15 Aug. 2002; George W. Bush quoted in Woodward, *Plan of Attack*, 421.

77. Zinni quoted in Ricks, *Fiasco*, 22.

78. On Rumsfeld, Marshall, and warfare in the twenty-first century, see Lemann, "Dreaming About War," 32–37, and Gordon and Trainor, *Cobra II*, 3–24.

79. Ricks, *Fiasco*, 85–111, 156–57.

80. Betts quoted in "President, No Matter Where, Keeps Battlefield Close," *New York Times*, 30 Mar. 2003.

81. Garner quoted in "Rumsfeld Visits 2 Cities in Iraq, Meeting Troops," *New York Times*, 1 May 2003. On Garner's background and attitudes, see Packer, *Assassins' Gate*, 121–34.

82. Hough quoted in Maass, "Meet the New Boss," 55, 106 (emphasis added).

83. Ricks, *Fiasco*, 203–13.

84. "2,000 at Rally Demand Islamic Supervision of Elections," *New York Times*, 22 June 2003.

85. "U.S. Overhauls Administration to Govern Iraq," *New York Times*, 12 May 2003.

86. On Afghanistan, see Bearak, "Unreconstructed," 40–47, 62, 96, 101–2. On the attacks in Saudi Arabia, see "U.S. Agents Arrive to Join Saudi Bombing Investigation," *New York Times*, 16 May 2003, and "U.S. Suggests al-Qaeda Cell in Iran Directed Saudi Bombings," *New York Times*, 21 May 2003.

87. On Pakistan, see Bearak, "Journey Through a State of Disequilibrium," 65–67, 82–83. On Iran, see "A Change of Heart in Tehran? Is It Time to Talk?" *New York Times*, 29 Oct. 2003.

88. Abizaid remarks, 16 July 2003, www.dod.mil/transcripts/2003.

89. Rumsfeld remarks, 24 July 2003, www.defenselink.mil/transcripts/2003.

90. Salamé quoted in Packer, *Assassins' Gate*, 214–15.

91. Hendrick quoted in Bergner, "The Other Army," 50. On the rise of the private security firms, see Singer, *Corporate Warriors*, 48–87.

92. Frosheiser quoted in Packer, *Assassins' Gate*, 372.

93. "What Does the Pentagon See in 'Battle of Algiers'?" *New York Times*, 7 Sept. 2003.

94. Rosen, "Flight from Iraq," 33–41.

95. Johnson quoted in "At Street Level, Unmet Goals in Iraq," *New York Times*, 9 Sept. 2007.

96. Crocker, "Report on the Situation in Iraq," 10 Sept. 2007, www.state.gov/p/nea.

97. Crocker quoted in "U.S. Envoy Offers Grim Prediction on Iraq Pullout," *New York Times*, 10 July 2007.

98. Zinni quoted in Ricks, *Fiasco*, 362.

99. "A Brush with 'Ali Baba' Reveals the Rule of Lawlessness," *New York Times*, 29 June 2003.

100. "Baffled Occupiers, or the Missed Understandings," *New York Times*, 22 Oct. 2003.

101. Wetherington quoted in Packer, *Assassins' Gate*, 330–31.

102. Lisa Myers, "Top Terrorist Hunter's Divisive Views," MSNBC.com, 15 Oct, 2003.

103. Lee Smith, "Inside the Arab Mind," *Slate*, 27 May 2004; Brian Whitaker, "The Arab Mind in Neoconservative Ideology and Military Doctrine," *Guardian*, 24 May 2004.

104. De Atkine, "Foreword," in *The Arab Mind*.

105. Hersh, "Gray Zone," p. 42.

106. Captain Charles Kyle, "Operation Iraqi Freedom Seminar—Read Ahead," May

2004, www.chuckkyle.com/EWA; Colonel H. R. McMaster, "Brave Rifles Reading List Operation Iraqi Freedom," 1 Nov. 2004, www.carson.army.mil/UNITS/3RD%20ACR

107. Lewis, "What Went Wrong?," 45.

108. Hersh, "Misreading Islam."

109. Advisory Group on Public Diplomacy, *Changing Minds, Winning Peace*, 15–2

110. "Washington's Sour Sales Pitch," *New York Times*, 4 Oct. 2003.

111. Quoted in Haddad, "Islam in the Mind of America."

112. Bremer quoted in Anderson, "Letter from Iraq," 74.

113. Frum and Perle, *An End to Evil*, 160, 278.

114. Sharansky, *The Case for Democracy*, 37–38 (emphasis in the original).

115. "Bush's Book Club Picks a New Favorite," *New York Times*, 31 Jan. 2005.

116. DeMille, *Night Fall*, 112.

117. "We'll Win This War—On '24,'" *New York Times*, 9 Jan. 2005.

118. Coulter quoted in "Ms. Right," *Time*, 25 Apr. 2005.

119. Coulter, *Godless*, 131.

120. Bush, "Inaugural Address," 20 Jan. 2005, www.whitehouse.gov/news.

121. Bush quoted in Woodward, *State of Denial*, 447.

122. Adams, "Address of July 4, 1821," in LaFeber, ed., *John Quincy Adams and Ame ican Continental Empire*, 42–46.

123. Jacob Weisberg, "George Bush's Favorite Historian: The Strange Views of Andr Roberts," *Slate*, 28 Mar. 2007, www.slate.com; Johann Hari, "White Man for the Jo *New Republic*, 23 Apr. 2007, 7–10; Roberts, *History of the English-Speaking Peopl* 640; Gilchrist quoted in "Why Do Brits Hate American Honesty?" *Observer*, 1 Apr. 20

124. Shteyngart, *Absurdistan*, 139.

125. Adonis, "The Funeral of New York," in *Pages of Day and Night*, 57, 58, 60, 70, 7 "An Arab Poet Who Dares to Differ," *New York Times*, 13 July 2002. For an excelle analysis of the background and the poetry of Adonis, see Ajami, *Dream Palace of t Arabs*, 114–24.

126. Baker and Hamilton, *Report of the Iraq Study Group*, www.usip.org, 6–8, 48–5

127. "Analysis Says War Could Cost $1 Trillion," *Boston Globe*, 1 Aug. 2007; "Stu Claims Iraq's 'Excess' Death Toll Has Reached 655,000," *Washington Post*, 11 Oct. 20

ببليوجرافيا

Primary Sources

Private Papers

Acheson, Dean G. Harry Truman Presidential Library, Independence, Mo.
Ball, George W. Telephone Notes File. Lyndon B. Johnson Presidential Library, Austin, Tex.
Bowles, Chester W. Sterling Library, Yale University, New Haven, Conn.
Brewer, Sam Pope. Wisconsin State Historical Society, Madison.
Bruce, David K. E. Virginia Historical Society, Richmond.
Council on Foreign Relations. Archives, Records of Groups. Pratt House, New York, N.Y.
Dulles, John Foster. Dwight D. Eisenhower Presidential Library, Abilene, Kans.
Estabrook, Robert. Wisconsin State Historical Society, Madison.
Forrestal, James A. Firestone Library, Princeton University, Princeton, N.J.
Fulbright, J. William. University of Arkansas Library, Fayetteville.
Harriman, W. Averell. Library of Congress, Washington, D.C.
Henderson, Loy W. Library of Congress, Washington, D.C.
Herter, Christian A. Dwight D. Eisenhower Presidential Library, Abilene, Kans.
Humphrey, Hubert H. Minnesota Historical Society, St. Paul.

McCloy, John J. Amherst College, Amherst, Mass.
Rusk, Dean. Office of Freedom of Information, Privacy, and Classification, U.S. Department of State, Washington, D.C.
Stettinius, Edward R., Jr. University of Virginia Library, Charlottesville.

Unpublished Government Documents

Central Intelligence Agency, Office of Information and Privacy Coordination, Washington, D.C.
National Intelligence Estimates
Dwight D. Eisenhower Presidential Library, Abilene, Kans.
John Foster Dulles Papers
Records of the Office of the Special Adviser for National Security Affairs
White House Office of the Staff Secretary, Records, 1952–61
Ann Whitman Files
Dulles-Herter Series
Dwight D. Eisenhower Diary Series
International Series
National Security Council Series
Transition Series
Lyndon B. Johnson Presidential Library, Austin, Tex.
National Security Files
McGeorge Bundy Files
Country Files
Meeting Notes File
Memos to the President
Name File
National Intelligence Estimates
National Security Council History Files
National Security Council Meeting File
Vice Presidential Security Series
John F. Kennedy Presidential Library, Boston, Mass.
National Security Files
Countries
Meetings and Memoranda
Meetings and Memoranda: Robert Komer
President's Office Files
National Archives II, College Park, Md.
RG59
Alpha Files, Lot 59D 518
State Department Alpha-Numeric File
State Department Central Decimal File
Top Secret Records of the Assistant Secretary of State for Near Eastern and South Asian Affairs, 1965–73, Lot 80D234
RG273
Records of the National Security Council

National Security Council, Washington, D.C.
Information Policy Directorate, National Security Memoranda
Public Record Office, Kew, Surrey, England
CAB 128, Cabinet Minutes
CAB 143, Records of the Egypt Committee
FCO 7, Records of the Foreign and Commonwealth Office: American and Latin American Departments, 1967–
FCO 8, Records of the Foreign and Commonwealth Office: Arabian Department, 1967–
FO 371, General Correspondence of the Foreign Office, 1906–66
PREM 11, Records of the Prime Minister's Office: Correspondence and Papers, 1951–64
PREM 13, Records of the Prime Minister's Office: Correspondence and Papers, 1964–70

Oral Histories and Interviews

Feldman, Myer. Oral History. John F. Kennedy Presidential Library, Boston, Mass.
Hart, Parker T. Oral History. John F. Kennedy Presidential Library, Boston, Mass.
Jernegan, John. Oral History. John F. Kennedy Presidential Library, Boston, Mass.
Komer, Robert. Oral History. John F. Kennedy Presidential Library, Boston, Mass.
Meyer, Armin. Foreign Service Oral History Project. Georgetown University, Washington, D.C.
Rostow, Eugene. Oral History. Lyndon B. Johnson Presidential Library, Austin, Tex.
Rostow, Walt W. Interview with author, 25 July 1991, Austin, Tex.
Symmes, Harrison. Foreign Service Oral History Project. Georgetown University, Washington, D.C.

Published Documents

Advisory Group on Public Diplomacy for the Arab and Muslim World. *Changing Minds, Winning Peace*, 1 October 2003. http://www.state.gov/documents.
Brookings Institution Study Group. *Toward Peace in the Middle East*. Washington, D.C.: Brookings Institution, 1975.
Bush, George W. *The National Security Strategy of the United States of America*. Washington, D.C.: Government Printing Office, 2002.
Cold War International History Project Bulletin 8/9 (winter 1996/97).
Commission on Integrated Long-Term Strategy. *Discriminate Deterrence*. Washington, D.C.: Government Printing Office, 1988.
Declassified Documents Reference System (microfiche). Arlington, Va.: Carrollton Press, 1975–96.
Declassified Documents Reference System: Retrospective Collection (microfiche). Arlington, Va.: Carrollton Press, 1976.
Documents of the National Security Council, 2nd Supplement (microfilm). Frederick, Md.: University Publications of America, 1983.
Kesaris, Paul, ed. *CIA Research Reports: The Middle East, 1946–1976* (microfilm). Washington, D.C.: University Publications of America, 1980.

Lukacs, Yehuda, ed. *Documents on the Israeli-Palestinian Conflict, 1967–1983*. New York: Cambridge University Press, 1984.
Lyndon B. Johnson National Security Files: Israel (microfilm). Fredericktown, Md.: University Publications of America, 1982.
Moore, John Norton, ed. *The Arab-Israeli Conflict*. 4 vols. Princeton: Princeton University Press, 1975.
National Energy Policy Development Group. *Reliable, Affordable, and Environmentally Sound Energy for America's Future*. Washington, D.C.: Government Printing Office, 2001.
National Security Archive. *Iran: The Making of U.S. Policy, 1977–80* (microfiche). Alexandria, Va.: Chadwyck Healey, 1990.
OSS/State Department Intelligence and Research Reports. Pt. 7, *The Middle East, 1941–1976*. Washington, D.C.: University Publications of America, 1977.
OSS/State Department Intelligence and Research Reports. Pt. 12, *The Middle East, 1950–1961, Supplement*. Washington, D.C.: University Publications of America, 1980.
OSS/State Department Intelligence Reports. Pt. 13, *Africa, 1941–1961*. Washington, D.C.: University Publications of America, 1980.
Pike, Otis. *CIA: The Pike Report*. Nottingham, England: Bertrand Russell Peace Foundation, 1977.
Public Papers of the President. Washington, D.C.: Government Printing Office, 1946–2000.
Richardson, James D., ed. *A Compilation of the Messages and Papers of the Presidents, 1789–1897*. 10 vols. Washington, D.C.: Bureau of National Literature, 1911.
United Nations. Department of Economic and Social Affairs. *United Nations Statistical Yearbook, 1968*. New York, 1969.
U.S. Commission on National Security/21st Century. *Road Map for National Security: Imperative for Change*. Washington, D.C.: Government Printing Office, 2001.
U.S. Congress. House. Committee on Appropriations. Subcommittee on Foreign Operations. *Foreign Operations Appropriations for 1964*. Washington, D.C.: Government Printing Office, 1963.
U.S. Congress. House. Committee on International Relations. *U.S. Policy toward Egypt*. Washington, D.C.: Government Printing Office, 1997.
U.S. Congress. Senate. Committee on Armed Services. 101st Cong., 2d sess. *Crisis in the Persian Gulf Region: U.S. Policy Options and Implications*. Washington, D.C.: Government Printing Office, 1990.
———. *U.S. Military Forces to Protect "Re-Flagged" Kuwaiti Oil Tankers*. Washington, D.C.: Government Printing Office, 1987.
U.S. Congress. Senate. Committee on Foreign Relations. *Afghanistan: Building Stability, Avoiding Chaos*. Washington, D.C.: Government Printing Office, 2002.
———. *Executive Sessions of the Senate Foreign Relations Committee (Historical Series)*. 18 vols. Washington D.C.: Government Printing Office, 1976–97.
———. *International Development and Security: Hearings on Senate Resolution 1983*. Washington, D.C.: Government Printing Office, 1961.
———. 85th Cong., 1st sess. *The President's Proposal on the Middle East*. Washington, D.C.: Government Printing Office, 1957.

———. *U.S. Security Agreements and Commitments Abroad.* Pt. 9, *Morocco and Libya.* Washington, D.C.: Government Printing Office, 1969.
———. *War in the Persian Gulf: The U.S. Takes Sides.* Washington, D.C.: Government Printing Office, 1987.
U.S. Congress. Senate. Committee on Foreign Relations. Subcommittee on Multinational Corporations. *Multinational Corporations and United States Foreign Policy.* Washington, D.C.: Government Printing Office, 1974.
———. *Multinational Oil Corporations and U.S. Foreign Policy.* Washington, D.C.: Government Printing Office, 1975.
U.S. Congress. Senate. Special Committee Investigating the National Defense Program. *Investigation of the National Defense Program.* Pt. 41, *Petroleum Arrangements with Saudi Arabia.* Washington, D.C.: Government Printing Office, 1948.
U.S. Department of State. *Foreign Relations of the United States.* Washington, D.C.: Government Printing Office, 1908–2001.
———. *Patterns of Global Terrorism, 1999.* Washington, D.C.: Government Printing Office, 2000. www.state.gov/www/globalterrorism/1999report.
———. *Report of the Sharm El-Sheikh [Mitchell] Fact-Finding Committee,* 30 April 2001. http://usinfo.state.gov/regional/nea/mitchell.htm.
———. *United States Policy in the Middle East, September 1956–June 1957.* Washington, D.C.: Government Printing Office, 1957.

Published Memoirs, Reports, Letters, Speeches, and Papers

Acheson, Dean G. *Present at the Creation: My Years in the State Department.* New York: Norton, 1969.
Adams, Charles Francis, ed. *The Memoirs of John Quincy Adams.* 12 vols. 1874–77. Reprint, New York: AMS Press, 1970.
Adams, Sherman. *Firsthand Report: The Story of the Eisenhower Administration.* New York: Harper and Row, 1961.
Alam, Asadollah. *The Shah and I: The Confidential Diary of Iran's Royal Court, 1969–1977.* Edited and translated by Alinagh Alikhani. London: I. B. Tauris, 1991.
Algar, Hamid, ed. and trans. *Islam and Revolution: Writings and Declarations of Imam Khomeini.* 1981. Reprint, London: KPI, 1985.
Arens, Moshe. *Broken Covenant: American Foreign Policy and the Crisis between the U.S. and Israel.* New York: Simon and Schuster, 1995.
Ashrawi, Hanan. *This Side of Peace: A Personal Account.* New York: Simon and Schuster, 1995.
Badeau, John S. *The American Approach to the Arab World.* New York: Harper and Row, 1968.
Baker, James A. *The Politics of Diplomacy: Revolution, War, and Peace, 1989–1992.* New York: Putnam, 1995.
Baker, James A., and Lee H. Hamilton. *The Iraq Study Group Report: The Way Forward—A New Approach.* www.usip.org.
Ball, George W. *The Past Has Another Pattern: Memoirs.* New York: Norton, 1982.
Bar-On, Mordechai. *The Gates of Gaza: Israel's Road to Suez and Back, 1955–1957.* New York: St. Martin's Press, 1994.

Berle, Beatrice Bishop, and Travis Beal Jacobs, eds. *Navigating the Rapids, 1918–1971: From the Papers of Adolf A. Berle.* New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1973.

Blum, John Morton, ed. *The Price of Vision: The Diary of Henry A. Wallace.* Boston: Houghton Mifflin, 1973.

Brown, William R. *The Last Crusade: A Middle East Negotiator's Handbook.* Chicago: Nelson-Hall, 1980.

Brzezinski, Zbigniew. *Power and Principle: Memoirs of the National Security Adviser, 1977–1981.* New York: Farrar, Straus and Giroux, 1983.

Bush, George H. W. "Unity against Terrorism." *Department of State Bulletin* 87 (April 1987): 3–5.

Bush, George H. W., and Brent Scowcroft. *A World Transformed.* New York: Knopf, 1998.

Bush, George W. *A Charge to Keep.* New York: William Morrow, 1999.

Carter, Jimmy. *The Blood of Abraham.* Boston: Houghton Mifflin, 1985.

———. *Keeping Faith: Memoirs of a President.* New York: Bantam, 1982.

Cheney, Richard. "Speech to London Petroleum Institute." Autumn Lunch 1999. http://www.energybulletin.net/559.html (accessed 10 September 2007).

Clarke, Richard A. *Against All Enemies: Inside America's War on Terror.* New York: Free Press, 2004.

Clifford, Clark. *Counsel to the President: A Memoir.* New York: Random House, 1991.

Cutler, Robert. *No Time for Rest.* Boston: Little, Brown, 1966.

Dulles, John Foster. "The Middle East." *Department of State Bulletin* 33 (5 September 1955): 378–80.

———. "Report on the Near East." *Department of State Bulletin* 28 (15 June 1953): 831–35.

Eban, Abba. *An Autobiography.* New York: Random House, 1977.

———. *Personal Witness: Israel through My Eyes.* New York: Putnam, 1992.

Eisenhower, Dwight D. *The White House Years: Mandate for Change, 1953–1956.* Garden City, N.Y.: Doubleday, 1963.

———. *The White House Years: Waging Peace, 1956–1961.* Garden City, N.Y.: Doubleday, 1965.

Eisenhower, John S. D., ed. *Letters to Mamie.* Garden City, N.Y.: Doubleday, 1978.

Ennes, James M., Jr. *Assault on the Liberty.* New York: Random House, 1979.

Ferrell, Robert, ed. *Dear Bess: Letters from Harry to Bess Truman, 1910–1959.* New York: Norton, 1983.

———. *Off the Record: The Private Papers of Harry Truman.* New York: Harper and Row, 1980.

Ford, Gerald R. *A Time to Heal.* New York: Harper and Row, 1979.

Gallman, Waldemar J. *Iraq under General Nuri: My Recollections of Nuri al-Said, 1954–1958.* Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1964.

Garment, Leonard. *Crazy Rhythm.* New York: Times Books, 1997.

Gates, Robert M. *From the Shadows: The Ultimate Insider's Story of Five Presidents and How They Won the Cold War.* New York: Simon and Schuster, 1996.

Goodwin, Richard N. *Remembering America: A Voice from the Sixties.* Boston: Little, Brown, 1980.

Haig, Alexander M., Jr. *Caveat: Realism, Reagan, and Foreign Policy*. New York: Macmillan, 1984.
Haldeman, H. R. *The Haldeman Diaries: Inside the Nixon White House*. New York: Putnam, 1994.
Herzog, Yaacov. *A People That Dwells Alone: Speeches and Writings of Yaacov Herzog*. Edited by Misha Louvish. London: Weidenfeld and Nicolson, 1975.
Hughes, Emmet John. *The Ordeal of Power: A Political Memoir of the Eisenhower Years*. New York: Atheneum, 1963.
Hull, Cordell. *Memoirs*. 2 vols. New York: Macmillan, 1948.
Johnson, Lyndon B. *The Vantage Point: Perspectives on the Presidency, 1963–1969*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1971.
Johnston, Charles. *The Brink of Jordan*. London: Hamish Hamilton, 1972.
Jordan, Hamilton. *Crisis: The Last Year of the Carter Presidency*. New York: Putnam, 1982.
Kennan, George F. *Memoirs, 1925–1950*. Boston: Atlantic, Little, Brown, 1967.
Kennedy, John F. *The Strategy of Peace*. New York: Harper and Brothers, 1960.
Kimball, Warren F., ed. *Churchill and Roosevelt: The Complete Correspondence*. Princeton: Princeton University Press, 1984.
Kissinger, Henry. *White House Years*. Boston: Little, Brown, 1979.
———. *Years of Renewal*. New York: Simon and Schuster, 1999.
———. *Years of Upheaval*. Boston: Little, Brown, 1982.
Lansing, Robert. *The Peace Negotiations: A Personal Narrative*. Boston: Houghton Mifflin, 1921.
Laqueur, Walter, and Barry Rubin, eds. *The Israel-Arab Reader: A Documentary History of the Middle East Conflict*. 5th ed. New York: Penguin, 1995.
Lenin, V. I. *National Liberation, Socialism, and Imperialism: Selected Writings*. New York: International Publishers, 1968.
Link, Arthur S., ed. *Papers of Woodrow Wilson*. 67 vols. Princeton: Princeton University Press, 1966–94.
Macmillan, Harold. *Riding the Storm, 1956–1959*. New York: Harper and Row, 1971.
McFarlane, Robert C., with Zofia Smardz. *Special Trust*. New York: Cadell and Davies, 1994.
McNamara, Robert S. *The Essence of Security: Reflections in Office*. New York: Harper and Row, 1968.
Meir, Golda. *My Life*. New York: Putnam, 1975.
Millis, Walter. *The Forrestal Diaries*. New York: Viking, 1951.
Morison, Elting B., ed. *The Letters of Theodore Roosevelt*. 8 vols. Cambridge: Harvard University Press, 1952.
Murphy, Robert. *Diplomat among Warriors*. Garden City, N.Y.: Doubleday, 1964.
Nasser, Gamal Abdel. "The Egyptian Revolution." *Foreign Affairs* 33 (January 1955): 199–211.
———. *Egypt's Liberation: The Philosophy of the Revolution*. Washington, D.C.: Public Affairs Press, 1955.
National Commission on Terrorist Attacks upon the United States. *The 9/11 Commission Report*. New York: W.W. Norton, 2004.

Netanyahu, Benjamin. *A Place among Nations: Israel and the World.* New York: Bantam, 1993.
Nixon, Richard. *RN: The Memoirs of Richard Nixon.* New York: Grosset and Dunlap, 1978.
Peres, Shimon. *David's Sling.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1970.
———. *The New Middle East.* New York: Henry Holt, 1993.
Powell, Colin L. *My American Journey.* New York: Random House, 1996.
Qaddafi, Muammar al. *The Green Book.* Tripoli: World Center for Research and Study, 1973.
Rabin, Yitzhak. *The Rabin Memoirs.* Boston: Little, Brown, 1979.
Rafael, Gideon. *Destination Peace: Three Decades of Israeli Foreign Policy, a Personal Memoir.* New York: Stein and Day, 1981.
Reagan, Ronald. *An American Life.* New York: Simon and Schuster, 1990.
Rogers, William P. "A Lasting Peace in the Middle East: An American View." *Department of State Bulletin* 62 (5 January 1970): 7–11.
———. *United States Foreign Policy, 1969–1970: A Report by the Secretary of State.* Washington, D.C.: Government Printing Office, 1971.
Roosevelt, Elliot, ed. *F.D.R.: His Personal Letters, 1928–1945.* 2 vols. New York: Duell, Sloan and Pearce, 1947–50.
Rusk, Dean. *As I Saw It.* New York: Norton, 1990.
Safire, William. *Before the Fall: An Inside View of the Pre-Watergate White House.* Garden City, N.Y.: Doubleday, 1975.
Shuckburgh, Evelyn. *Descent to Suez: Foreign Office Diaries, 1951–1956.* New York: Norton, 1986.
Shultz, George P. *Turmoil and Triumph: My Year As Secretary of State.* New York: Scribner's, 1993.
Sick, Gary. *All Fall Down: America's Tragic Encounter with Iran.* New York: Random House, 1985.
Taylor, Maxwell D. *Swords and Ploughshares.* New York: Norton, 1972.
———. *The Uncertain Trumpet.* New York: Harper, 1960.
Tenet, George. *In the Center of the Storm: My Years at the CIA.* New York: Harper Collins, 2007.
Truman, Harry S. *Years of Trial and Hope.* Vol. 2 of *Memoirs.* Garden City, N.Y.: Doubleday, 1956.
Vance, Cyrus. *Hard Choices: Critical Years in America's Foreign Policy.* New York: Simon and Schuster, 1983.
Weinberger, Caspar W. *Fighting for Peace: Seven Critical Years in the Pentagon.* New York: Warner Books, 1990.
White, Wayne. "Testimony," 26 June 2006, in "Warnings Went Unheeded," *MEI Publications,* www.mideasti.org/articles/doc535.
Wise, Stephen Samuel. *Challenging Years: The Autobiography of Stephen Wise.* New York: Putnam, 1949.

Newspapers, Magazines, and Websites

Atlantic Monthly
Boston Globe

Business Week
CNN.com
Guardian
Jerusalem Post
Los Angeles Times
Middle East Policy
MSNBC.com
Nation
National Geographic Magazine
New Republic
Newsweek
New York Times
North American Review
Observer
Slate.com
Washington Post
Washington Report on Middle East Affairs
www.carson.army.mil
www.chuckkyle.com

Secondary Sources

Books

Abzug, Robert H. *Inside the Vicious Heart: Americans and the Liberation of the Nazi Concentration Camps.* New York: Oxford University Press, 1985.

Adonis [Ali Ahmed Said]. *The Pages of Day and Night.* Translated by Samuel Hazo. Evanston, Ill.: Northwestern University Press, 1994.

Ajami, Fouad. *The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey.* New York: Random House, 1998.

———. *The Foreigner's Gift: The Americans, the Arabs, and the Iraqis in Iraq.* New York: Free Press, 2006.

Allawi, Ali A. *The Occupation of Iraq: Winning the War, Losing the Peace.* New Haven: Yale University Press, 2007.

Allen, Gardner W. *Our Navy and the Barbary Corsairs.* 1905. Reprint, Hamden, Conn.: Archon Books, 1965.

Allison, Robert J. *The Crescent Obscured: The United States and the Muslim World, 1776–1815.* New York: Oxford University Press, 1995.

Anderson, Irvine H. *Aramco, the United States, and Saudi Arabia: A Study of the Dynamics of Foreign Policy, 1933–1950.* Princeton: Princeton University Press, 1981.

Antonius, George. *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement.* New York: Lippincott, 1939.

Arendt, Hannah. *Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil.* New York: Viking, 1963.

Arzt, Donna E. *Refugees into Citizens: Palestinians and the End of the Arab-Israeli Conflict.* New York: Council on Foreign Relations, 1997.

Baker, Raymond William. *Egypt's Uncertain Revolution under Nasser and Sadat.* Cambridge: Harvard University Press, 1978.

Bamford, James. *Body of Secrets: Anatomy of the Ultra-Secret National Security Agency from the Cold War through the Dawn of a New Century.* New York: Doubleday, 2001.

———. *The Puzzle Palace.* Boston: Houghton Mifflin, 1983.

Baram, Phillip J. *The Department of State in the Middle East, 1919–1945.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1978.

Barnett, Thomas P. M. *The Pentagon's New Map: War and Peace in the Twenty-First Century.* New York: G. P. Putnam's Sons, 2004.

Barnhart, Michael A. *Japan Prepares for Total War: The Search for Economic Security, 1919–1941.* Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1987.

Barrett, Laurence I. *Gambling with History: Ronald Reagan in the White House.* Garden City, N.Y.: Doubleday, 1983.

Bar-Zohar, Michael. *Ben-Gurion: A Biography.* New York: Delacorte Press, 1978.

Batatu, Hanna. *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq.* Princeton: Princeton University Press, 1978.

Bill, James A. *The Eagle and the Lion: The Tragedy of American-Iranian Relations.* New Haven: Yale University Press, 1988.

Bills, Scott L. *The Libyan Arena: The United States, Britain, and the Council of Foreign Ministers, 1945–1948.* Kent, Ohio: Kent State University Press, 1995.

Blair, John M. *The Control of Oil.* New York: Random House, 1976.

Blitzer, Wolf. *Territory of Lies.* New York: Harper and Row, 1989.

Blum, John Morton. *The Republican Roosevelt.* 1954. Reprint, Cambridge: Harvard University Press, 1977.

Blundy, David, and Andrew Lycett. *Qaddafi and the Libyan Revolution.* Boston: Little, Brown, 1987.

Bodansky, Yossef. *Bin Laden: The Man Who Declared War on America.* Roseville, Calif.: Prima Publishing, 1999.

Bowden, Mark. *Black Hawk Down: A Story of Modern War.* New York: Simon and Schuster, 1999.

Brands, H. W., Jr. *Into the Labyrinth: The United States and the Middle East, 1945–1993.* New York: McGraw Hill, 1994.

———. *T. R.: The Last Romantic.* New York: Basic Books, 1997.

Brenchley, Frank. *Britain and the Middle East: An Economic History, 1945–87.* London: Lester Cook, 1989.

Bryson, Thomas A. *Tars, Turks, and Tankers: The Role of the United States Navy in the Middle East, 1800–1979.* Metuchen, N.J.: Scarecrow Press, 1980.

Brzezinski, Zbigniew. *Between Two Ages: America's Role in the Technetronic Era.* 1970. Reprint, Westport, Conn.: Greenwood Press, 1982.

Buchheit, Lee C. *Secession: The Legitimacy of Self-Determination.* New Haven: Yale University Press, 1978.

Bundy, McGeorge. *Danger and Survival: Choices about the Bomb in the First Fifty Years.* New York: Random House, 1988.

Burgat, François, and William Dowell. *The Islamic Movement in North Africa.* Austin: Center for Middle East Studies, University of Texas at Austin, 1993.

Burleigh, Michael, and Wolfgang Wippermann. *The Racial State: Germany, 1933–1945*. New York: Cambridge University Press, 1991.
Burns, William J. *Economic Aid and American Policy toward Egypt, 1955–1981*. Albany: State University of New York Press, 1985.
Buzzanco, Robert. *Masters of War: Military Dissent and Politics in the Vietnam Era*. New York: Cambridge University Press, 1996.
Callahan, David. *Unwinnable Wars: American Power and Ethnic Conflict*. New York: Hill and Wang, 1998.
Cannon, Lou. *President Reagan: The Role of a Lifetime*. New York: Simon and Schuster, 1991.
Chafets, Ze'ev. *Double Vision: How the Press Distorts America's View of the Middle East*. New York: Morrow, 1985.
Christison, Kathleen. *Perceptions of Palestine: Their Influence on U.S. Middle East Policy*. Berkeley: University of California Press, 1999.
Cockburn, Andrew, and Leslie Cockburn. *Dangerous Liaisons: The Inside Story of the U.S.-Israeli Covert Relationship*. New York: Harper Collins, 1991.
Cohen, Michael J. *Palestine: Retreat from the Mandate—the Making of British Policy, 1936–45*. New York: Holmes and Meier, 1978.
———. *Palestine and the Great Powers, 1945–1948*. Princeton: Princeton University Press, 1982.
———. *Truman and Israel*. Berkeley: University of California Press, 1990.
Coll, Steve. *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and bin Laden from the Soviet Invasion to September 10, 2001*. New York: Penguin, 2004.
Cooley, John K. *Libyan Sandstorm*. Boston: Holt, Rinehart and Winston, 1982.
Cooper, Chester L. *The Lion's Last Roar: Suez, 1956*. New York: Harper and Row, 1978.
Coulter, Ann. *Godless: The Church of Liberalism*. New York: Crown Forum, 2006.
Crabb, Cecil V., Jr. *The Doctrines of American Foreign Policy: Their Meaning, Role, and Future*. Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1982.
Daniels, Jonathan. *The Man of Independence*. New York: Lippincott, 1950.
Dann, Uriel. *King Hussein and the Challenge of Arab Radicalism: Jordan, 1955–1967*. New York: Oxford University Press, 1989.
Davis, John. *The Landscape of Belief: Encountering the Holy Land in Nineteenth-Century American Art and Culture*. Princeton: Princeton University Press, 1995.
Dawn, C. Ernest. *From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism*. Urbana: University of Illinois Press, 1973.
Day, Arthur R. *East Bank/West Bank: Jordan and the Prospects for Peace*. New York: Council on Foreign Relations, 1986.
DeMille, Nelson. *Night Fall*. New York: Warner Books, 2004.
Divine, Robert A. *Eisenhower and the Cold War*. New York: Oxford University Press, 1981.
Draper, Robert. *Dead Certain: The Presidency of George W. Bush*. New York: Free Press, 2007.
Draper, Theodore. *A Very Thin Line: The Iran-Contra Affairs*. New York: Simon and Schuster, 1991.

Eddy, William A. *F. D. R. Meets Ibn Saud.* New York: American Friends of the Middle East, 1954.
Edwards, Holly, ed. *Noble Dreams, Wicked Pleasures: Orientalism in America, 1870–1930.* Princeton: Princeton University Press, 2000.
Emerson, Steven. *American Jihad: The Terrorists Living Among Us.* New York: Free Press, 2002.
Engler, Robert. *The Politics of Oil: A Study of Private Power and Democratic Directions.* Chicago: University of Chicago Press, 1961.
Esposito, John L. *The Islamic Threat: Myth or Reality?* New York: Oxford University Press, 1992.
Farid, Abdel Magid. *Nasser: The Final Years.* Reading: Ithaca Press, 1994.
Farouk-Sluglett, Marion, and Peter Sluglett. *Iraq since 1958: From Revolution to Dictatorship.* New York: KPI, 1987.
Field, James A., Jr. *America and the Mediterranean World, 1776–1882.* Princeton: Princeton University Press, 1969.
First, Ruth. *Libya: The Elusive Revolution.* Middlesex: Penguin, 1974.
Fraser, T. G. *The USA and the Middle East since World War 2.* New York: St. Martin's Press, 1989.
Freedman, Lawrence, and Efraim Karsh. *The Gulf Conflict, 1990–1991: Diplomacy and War in the New World Order.* Princeton: Princeton University Press, 1993.
Friedman, Thomas L. *From Beirut to Jerusalem.* New York: Doubleday, 1990.
Fromkin, David. *A Peace to End All Peace: Creating the Modern Middle East, 1914–1922.* New York: Henry Holt, 1989.
Frum, David, and Richard Perle. *An End to Evil: How to Win the War on Terror.* New York: Random House, 2003.
Fulbright, J. William. *The Arrogance of Power.* New York: Vintage, 1966.
Gaddis, John Lewis. *Surprise, Security, and the American Experience.* Cambridge: Harvard University Press, 2004.
Ganin, Zvi. *Truman, American Jewry, and Israel, 1945–1948.* New York: Holmes and Meier, 1979.
Garthoff, Raymond L. *Détente and Confrontation: American Soviet Relations from Nixon to Reagan.* Rev. ed. Washington, D.C.: Brookings Institution, 1994.
Gendzier, Irene. *Notes From the Minefield: United States Intervention in Lebanon and the Middle East, 1945–1958.* New York: Columbia University Press, 1997.
Ghareeb, Edmund, ed. *Split Vision: The Portrayal of Arabs in the American Media.* Washington, D.C.: American Arab Affairs Council, 1983.
Gibb, George Sweet, and Evelyn H. Knowlton. *History of the Standard Oil Company (New Jersey).* Vol. 2., *The Resurgent Years, 1911–1927.* New York: Harper and Row, 1956.
Gibson, James William. *The Perfect War: The War We Couldn't Lose and How We Did.* New York: Atlantic Monthly Press, 1986.
Golan, Galia. *Soviet Policies in the Middle East from World War II to Gorbachev.* Cambridge: Cambridge University Press, 1990.
Golden, Peter. *Quiet Diplomat: A Biography of Max M. Fisher.* New York: Cornwall Books, 1992.

Goode, James F. *The United States and Iran, 1946–51: The Diplomacy of Neglect.* New York: St. Martin's Press, 1989.
Goodrich, Frances, and Albert Hackett. *The Diary of Anne Frank.* New York: Random House, 1956.
Gordon, Joel. *Nasser's Blessed Movement: Egypt's Free Officers and the July Revolution.* New York: Oxford University Press, 1992.
Gordon, Michael R., and Bernard E. Trainor. *Cobra II: The Inside Story of the Invasion and Occupation of Iraq.* New York: Pantheon, 2006.
Gray, Colin S. *Implications of Preemptive and Preventive War Doctrines: A Reconsideration.* Carlisle Barracks, Pa.: Strategic Studies Institute, U.S. Army War College, 2007.
Green, Stephen. *Taking Sides: America's Relations with a Militant Israel.* New York: Morrow, 1984.
Griswold, A. Whitney. *The Far Eastern Policy of the United States.* New York: Harcourt Brace, 1938.
Grose, Peter. *Israel in the Mind of America.* New York: Knopf, 1983.
Hackett, David A., ed. and trans. *The Buchenwald Report.* Boulder, Colo.: Westview, 1995.
Haddawy, Husain, trans. *The Arabian Nights.* New York: Norton, 1990.
Hahn, Peter L. *The United States, Great Britain, and Egypt, 1945–1956: Strategy and Diplomacy in the Early Cold War.* Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1991.
Halberstam, David. *The Best and the Brightest.* New York: Random House, 1972.
———. *War in a Time of Peace: Bush, Clinton, and the Generals.* New York: Scribner, 2001.
Halpern, Manfred. *The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa.* Princeton: Princeton University Press, 1963.
Hammond, Thomas. *Red Flag over Afghanistan: The Communist Coup, the Soviet Invasion, and the Consequences.* Boulder, Colo.: Westview, 1984.
Hart, Alan. *Arafat: A Political Biography.* Bloomington: Indiana University Press, 1989.
Hathaway, Robert M. *Great Britain and the United States: Special Relations since World War II.* Boston: Twayne, 1990.
Heater, Derek. *National Self-Determination: Woodrow Wilson and His Legacy.* New York: St. Martin's Press, 1994.
Heikal, Mohamed H. *The Cairo Documents: The Inside Story of Nasser and His Relationship with World Leaders, Rebels, and Statesmen.* Garden City, N.Y.: Doubleday, 1973.
———. *Cutting the Lion's Tail: Suez through Egyptian Eyes.* London: Andre Deutsch, 1986.
Heiss, Mary Ann. *Empire and Nationhood: The United States, Great Britain, and Iranian Oil, 1950–1954.* New York: Columbia University Press, 1997.
Hersh, Seymour M. *The Samson Option: Israel's Nuclear Arsenal and American Foreign Policy.* New York: Random House, 1991.
Hoopes, Townsend, and Douglas Brinkley. *Driven Patriot: The Life and Times of James Forrestal.* New York: Random House, 1992.

Hourani, Albert. *A History of the Arab Peoples.* Cambridge: Harvard University Press, 1991.
Howard, Harry N. *The King-Crane Commission: An American Inquiry in the Middle East.* Beirut: Khayats, 1963.
Howe, George F. *Northwest Africa: Seizing the Initiative in the West—United States Army in World War II: The Mediterranean Theater of Operations.* Washington, D.C.: Department of the Army, 1957.
Hunt, Michael H. *Crises in U.S. Foreign Policy: An International History Reader.* New Haven: Yale University Press, 1996.
———. *Ideology and U.S. Foreign Policy.* New Haven: Yale University Press, 1987.
Huntington, Samuel P. *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order.* New York: Simon and Schuster, 1996.
Irwin, Ray W. *The Diplomatic Relations of the United States with the Barbary Powers, 1776–1816.* 1931. Reprint, New York: Russell and Russell, 1970.
Jentleson, Bruce W. *With Friends Like These: Reagan, Bush, and Saddam, 1982–1990.* New York: Norton, 1994.
Kaplan, Robert. *The Arabists: The Romance of an American Elite.* New York: Free Press, 1993.
Karetzky, Stephen, ed. *The Media's War against Israel.* New York: Steimatzky Shapolsky, 1986.
Karsh, Efraim, and Inari Rautsi. *Saddam Hussein: A Political Biography.* New York: Free Press, 1991.
Kaufman, Burton I. *Trade and Aid: Eisenhower's Foreign Economic Policy, 1953–1961.* Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1982.
Keddie, Nikki R. *Roots of Revolution: An Interpretive History of Modern Iran.* New Haven: Yale University Press, 1981.
Kenen, I. L. *Israel's Defense Line: Her Friends and Foes in Washington.* Buffalo, N.Y.: Prometheus Books, 1981.
Kerr, Malcolm H. *The Arab Cold War: Gamal 'Abd al-Nasir and His Rivals, 1958–1970.* 3rd ed. New York: Oxford University Press, 1971.
Khadduri, Majid. *Modern Libya: A Study in Political Development.* Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1963.
———. *Republican Iraq: A Study of Iraqi Politics since the Revolution of 1958.* New York: Oxford University Press, 1969.
Kinnard, Douglas. *The Certain Trumpet: Maxwell Taylor and the American Experience in Vietnam.* New York: Brassey's, 1991.
Kunz, Diane B. *The Economic Diplomacy of the Suez Crisis.* Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1991.
Kyle, Keith. *Suez.* New York: St. Martin's Press, 1991.
LaFeber, Walter, ed. *John Quincy Adams and American Continental Empire: Letters, Speeches and Papers.* Chicago: Quadrangle, 1965.
Laffin, John. *The Arab Mind Considered: A Need for Understanding.* New York: Cassell, 1975.
Lake, Anthony. *Third World Radical Regimes: U.S. Policy under Carter and Reagan.* New York: Foreign Policy Association, 1985.
Lawrence, T. E. *Revolt in the Desert.* London: G. H. Doran, 1927.

———. *The Seven Pillars of Wisdom.* 1926. Reprint, New York: Doubleday, 1935.
Leffler, Melvyn P. *A Preponderance of Power: National Security, the Truman Administration, and the Cold War.* Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1991.
Lenczowski, George. *American Presidents and the Middle East.* Durham, N.C.: Duke University Press, 1990.
Lerner, Daniel. *The Passing of Traditional Society: Modernizing the Middle East.* Glencoe, Ill.: Free Press, 1958.
Lesch, David. *Syria and the United States: Eisenhower's Cold War in the Middle East.* Boulder, Colo.: Westview, 1992.
Lewis, Bernard. *What Went Wrong? Western Impact and Middle Eastern Response.* New York: Oxford University Press, 2002.
Liddell Hart, B. H. *T. E. Lawrence: In Arabia and After.* London: Jonathan Cape, 1934.
Litwak, Robert. *Detente and the Nixon Doctrine: American Foreign Policy and the Pursuit of Stability, 1969–1976.* New York: Cambridge University Press, 1984.
Louis, William Roger. *The British Empire in the Middle East, 1945–1951: Arab Nationalism, the United States, and Postwar Imperialism.* New York: Oxford University Press, 1984.
Love, Kennett. *Suez: The Twice-Fought War.* New York: McGraw Hill, 1969.
Lucas, W. Scott. *Divided We Stand: Britain, the U.S., and the Suez Crisis.* London: Hodder and Stoughton, 1991.
Lutz, Catherine A., and Jane L. Collins. *Reading National Geographic.* Chicago: University of Chicago Press, 1993.
Lytle, Mark Hamilton. *The Origins of the Iranian-American Alliance, 1941–1953.* New York: Holmes and Meier, 1987.
Mackey, Sandra. *Passion and Politics: The Turbulent World of the Arabs.* New York: Dutton, 1992.
Mann, James. *Rise of the Vulcans: The History of Bush's War Cabinet.* New York: Viking, 2004.
Marsden, Peter. *Taliban: War, Religion, and the New Order in Afghanistan.* New York: Zed Books, 1998.
Martin, David C., and John Walcott. *Best Laid Plans: The Inside Story of America's War against Terrorism.* New York: Harper and Row, 1988.
Matthews, Christopher. *Kennedy and Nixon: The Rivalry That Shaped Postwar America.* New York: Simon and Schuster, 1996.
McCullough, David. *Truman.* New York: Simon and Schuster, 1992.
McFadden, David. *Alternative Paths: Soviets and Americans, 1917–1920.* New York: Oxford University Press, 1993.
Mearsheimer, John J., and Stephen M. Walt. *The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy.* New York: Farrar, Straus and Giroux, 2007.
Melman, Yossi, and Dan Raviv. *Friends in Deed: Inside the U.S.-Israel Alliance.* New York: Hyperion, 1994.
Melville, Herman. *The White Jacket, or the World in a Man-of-War.* 1849. Reprint, London: Constable, 1922.
Merrill, Dennis, and Thomas G. Paterson, eds. *Major Problems in American Foreign Relations.* 5th ed. Boston: Houghton Mifflin, 2000.
Michener, James. *The Source.* New York: Random House, 1965.

Miller, Judith, and Laurie Mylroie. *Saddam Hussein and the Crisis in the Gulf.* New York: Times Books, 1990.
Miller, Mark Crispin. *The Bush Dyslexicon: Observations on a National Disorder.* New York: W. W. Norton, 2002.
Miller, Merle. *Lyndon: An Oral Biography.* New York: Putnam, 1980.
Minutaglio, Bill. *First Son: George W. Bush and the Bush Family Dynasty.* New York: Times Books, 1999.
Morris, Benny. *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947–1949.* New York: Cambridge University Press, 1987.
———. *Righteous Victims: A History of the Zionist-Arab Conflict, 1881–1999.* New York: Knopf, 1999.
Mutawi, Samir. *Jordan in the 1967 War.* New York: Oxford University Press, 1987.
Neff, Donald. *Fallen Pillars: U.S. Policy towards Palestine and Israel since 1945.* Washington, D.C.: Institute for Palestine Studies, 1995.
———. *Warriors against Israel.* Brattleboro, Vt.: Amana Books, 1988.
———. *Warriors at Suez: Eisenhower Takes America into the Middle East.* New York: Simon and Schuster, 1981.
———. *Warriors for Jerusalem: The Six Days That Changed the Middle East.* New York: Simon and Schuster, 1984.
Noyes, James H. *The Clouded Lens: Persian Gulf Security and U.S. Policy.* 2nd ed. Stanford, Calif.: Hoover Institution Press, 1982.
Nutting, Anthony. *Nasser.* New York: E. P. Dutton, 1972.
Packenham, Robert A. *Liberal America and the Third World: Political Development Ideas in Foreign Aid and Social Science.* Princeton: Princeton University Press, 1973.
Packer, George. *The Assassins' Gate: America in Iraq.* New York: Farrar, Straus and Giroux, 2005.
Painter, David. *Oil and the American Century: The Political Economy of U.S. Foreign Oil Policy, 1941–1954.* Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1986.
Palmer, Michael A. *Guardians of the Gulf: A History of America's Expanding Role in the Persian Gulf, 1833–1992.* New York: Free Press, 1992.
Parker, Richard B. *Politics of Miscalculation in the Middle East.* Bloomington: Indiana University Press, 1993.
———, ed. *The Six Day War: A Retrospective.* Tallahassee: University of Florida Press, 1996.
Parmet, Herbert S. *Richard Nixon and His America.* Boston: Little, Brown, 1990.
Patai, Raphael. *The Arab Mind.* New York: Scribner, 1973.
———. *The Arab Mind.* Rev. ed. New York: Scribner, 1983.
Pieragostini, Karl. *Britain, Aden, and South Arabia: Abandoning Empire.* New York: St. Martin's Press, 1991.
Pipes, Daniel. *Militant Islam Reaches America.* New York: W. W. Norton, 2002.
Podhoretz, Norman. *World War IV: The Long Struggle Against Islamofascism.* New York: Doubleday, 2007.
Poole, Walter S. *The History of the Joint Chiefs of Staff: The JCS and National Policy.* Vol. 4, *1950–1952.* Washington, D.C.: Office of Joint History, Office of the Chairman of the Joint Chiefs of Staff, 1979.

Prados, John. *Keepers of the Keys: A History of the National Security Council from Truman to Bush*. New York: Morrow, 1991.

Pryce-Jones, David. *The Closed Circle: An Interpretation of the Arabs*. New York: Harper, 1989.

Quandt, William B. *Camp David: Peacemaking and Politics*. Washington, D.C.: Brookings Institution, 1986.

———. *Decade of Decisions: American Policy toward the Arab-Israeli Conflict, 1967–1976*. Berkeley: University of California Press, 1977.

———. *Peace Process: American Diplomacy and the Arab-Israeli Conflict since 1967*. Washington, D.C.: Brookings Institution, 1993.

Quandt, William B., Fuad Jabber, and Ann Mosely Lesch. *The Politics of Palestinian Nationalism*. Berkeley: University of California Press, 1973.

Rashid, Ahmed. *Taliban: Militant Islam, Oil, and Fundamentalism in Central Asia*. New Haven: Yale University Press, 2000.

Raviv, Dan, and Yossi Melman. *Every Spy a Prince: The Complete History of Israel's Intelligence Community*. Boston: Houghton Mifflin, 1990.

Ricks, Thomas E. *Fiasco: The American Military Adventure in Iraq*. New York: Penguin, 2006.

Roberts, Andrew. *A History of the English-Speaking Peoples since 1900*. New York: Harper Collins, 2007.

Rockefeller Brothers Fund. *Prospect for America: The Rockefeller Panel Reports*. Garden City, N.Y.: Doubleday, 1961.

Rostow, W. W. *The Diffusion of Power: An Essay in Recent History*. New York: Macmillan, 1972.

———. *The Stages of Economic Growth: A Non-Communist Manifesto*. Cambridge: Cambridge University Press, 1960.

Rubin, Barry. *Cauldron of Turmoil: America in the Middle East*. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1992.

———. *Paved with Good Intentions: The American Experience and Iran*. New York: Oxford University Press, 1980.

Rutledge, Ian. *Addicted to Oil: America's Relentless Drive for Energy Security*. London: I. B. Tauris, 2005.

Sachar, Howard M. *A History of the Jews in America*. New York: Knopf, 1992.

Safran, Nadav. *Saudi Arabia: The Ceaseless Quest for Security*. Cambridge: Harvard University Press, 1985.

Said, Edward W. *Covering Islam: How the Media and Its Experts Determine How We See the Rest of the World*. New York: Pantheon, 1981.

———. *Culture and Imperialism*. New York: Knopf, 1993.

———. *Orientalism*. New York: Random House, 1978.

Saikal, Amin. *The Rise and Fall of the Shah*. Princeton: Princeton University Press, 1980.

Sampson, Anthony. *The Seven Sisters: The Great Oil Companies and the World They Shaped*. New York: Bantam, 1976.

Sanders, Ronald. *The High Walls of Jerusalem: A History of the Balfour Declaration and the Birth of the British Mandate in Palestine*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1983.

———. *Shores of Refuge: A Hundred Years of Jewish Emigration.* New York: Holt, Rinehart and Winston, 1988.

Saunders, Harold H. *The Other Walls: The Politics of the Arab-Israeli Peace Process.* Washington, D.C.: American Enterprise Institute, 1985.

Schiff, Ze'ev, and Ehud Ya'ari. *Israel's Lebanon War.* New York: Simon and Schuster, 1984.

Schoenbaum, David. *The United States and the State of Israel.* New York: Oxford University Press, 1993.

Schoenbaum, Thomas J. *Waging Peace and War: Dean Rusk in the Truman, Kennedy, and Johnson Years.* New York: Simon and Schuster, 1988.

Schulzinger, Robert D. *Henry Kissinger: Doctor of Diplomacy.* New York: Columbia University Press, 1989.

———. *The Wise Men of Foreign Affairs: The History of the Council on Foreign Relations.* New York: Columbia University Press, 1984.

Schwartzkopf, H. Norman, Jr. *It Doesn't Take a Hero.* New York: Bantam, 1992.

Sciolino, Elaine. *The Outlaw State: Saddam Hussein's Quest for Power and the Gulf Crisis.* New York: Wiley, 1991.

Seale, Patrick. *The Struggle for Syria: A Study of Post-War Arab Politics, 1945–1958.* New Haven: Yale University Press, 1965.

Seale, Patrick, and Maureen McConville. *The Hilton Assignment.* New York: Praeger, 1973.

Sha'ban, Fuad. *Islam and Arabs in Early American Thought: The Roots of Orientalism in America.* Durham, N.C.: Acorn Press, 1991.

Shaheen, Jack G. *The TV Arab.* Bowling Green, Ohio: Bowling Green University Popular Press, 1984.

Shapely, Deborah. *Promise and Power: The Life and Times of Robert McNamara.* Boston: Little, Brown, 1993.

Sharansky, Natan, with Ron Dermer. *The Case for Democracy: The Power of Freedom to Overcome Tyranny and Terror.* New York: Public Affairs Press, 2004.

Sheehan, Edward R. F. *The Arabs, Israelis, and Kissinger.* New York: Reader's Digest Press, 1976.

Shlaim, Avi. *The Iron Wall: Israel and the Arab World.* New York: Norton, 2000.

Shteyngart, Gary. *Absurdistan.* New York: Random House, 2006.

Shwadran, Benjamin. *The Middle East, Oil, and the Great Powers.* New York: Praeger, 1955.

Silver, Eric. *Begin: The Haunted Prophet.* New York: Random House, 1984.

Silverstone, Scott A. *Preventive War and American Democracy.* New York: Routledge, 2007.

Simon, Reeva S. *Iraq between the World Wars: The Creation and Implementation of a Nationalist Ideology.* New York: Columbia University Press, 1986.

Singer, P[eter] W. *Corporate Warriors: The Rise of the Privatized Military Industry.* Ithaca: Cornell University Press, 2004.

Skeet, Ian. *Opec: Twenty-five Years of Prices and Politics.* London: Faber and Faber, 1988.

Smolansky, Oles. *The Soviet Union and the Arab East under Khrushchev.* Lewisburg, Pa.: Bucknell University Press, 1974.

Spector, Ronald H. *U.S. Marines in Grenada, 1983*. Washington, D.C.: Government Printing Office, 1987.

Spiegel, Steven L. *The Other Arab-Israeli Conflict: Making America's Middle East Policy, from Truman to Reagan*. Chicago: University of Chicago Press, 1985.

Stephens, Robert. *Nasser: A Political Biography*. New York: Simon and Schuster, 1971.

Stivers, William. *America's Confrontation with Revolutionary Change in the Middle East, 1948–83*. New York: St. Martin's Press, 1986.

———. *Supremacy and Oil: Iraq, Turkey, and the Anglo-American World Order, 1918–1930*. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1982.

Stoff, Michael B. *Oil, War, and American Security: The Search for a National Policy on Foreign Oil, 1941–47*. New Haven: Yale University Press, 1980.

Stork, Joe. *Middle East Oil and the Energy Crisis*. New York: Monthly Review Press, 1975.

Strober, Gerald S., and Deborah H. Strober. *Nixon: An Oral History*. New York: Harper Collins, 1994.

Suleiman, Michael W. *The Arabs in the Mind of America*. Brattleboro, Vt.: Amana Books, 1988.

Sulzberger, C. L. *The Last of the Giants*. New York: Macmillan, 1970.

———. *The World and Richard Nixon*. New York: Prentice Hall, 1987.

Summers, Harry G., Jr. *On Strategy: A Critical Analysis of the Vietnam War*. Novato, Calif.: Presidio Press, 1982.

———. *On Strategy II: A Critical Analysis of the Gulf War*. New York: Dell Books, 1992.

Suskind, Ron. *The Price of Loyalty: George W. Bush, the White House, and the Education of Paul O'Neill*. New York: Simon and Schuster, 2004.

Terzian, Pierre. *OPEC: The Inside Story*. Translated by Michael Pallis..London: Zed Books, 1985.

Tessler, Mark A. *A History of the Israeli-Palestinian Conflict*. Bloomington: Indiana University Press, 1994.

Tillman, Seth P. *The United States in the Middle East: Interests and Obstacles*. Bloomington: Indiana University Press, 1982.

Tivnan, Edward. *The Lobby: Jewish Political Power and American Foreign Policy*. New York: Simon and Schuster, 1987.

Tocqueville, Alexis de. *L'Ancien Regime*. 1856. Translated by M. W. Patterson. Oxford: Basil Blackwell, 1952.

———. *Democracy in America*. 2 vols. 1831. Reprint, New York: Knopf, 1945.

Twain, Mark. *The Innocents Abroad: Roughing It*. 1869. Reprint, New York: Viking, 1984.

Uris, Leon. *The Haj*. Garden City, N.Y.: Doubleday, 1984.

Victor, Barbara. *A Voice of Reason: Hanan Ashrawi and Peace in the Middle East*. New York: Harcourt Brace, 1994.

Westad, Odd Arne, ed. *The Fall of Détente: Soviet-American Relations during the Carter Years*. Oslo: Scandinavian University Press, 1997.

Wilson, Jeremy. *Lawrence of Arabia: The Authorized Biography of T. E. Lawrence*. New York: Atheneum, 1990.

Wilson, John A. *Signs and Wonders upon Pharaoh: A History of American Egyptology*. Chicago: University of Chicago Press, 1964.
Wilson, Joseph. *The Politics of Truth: Inside the Lies that Led to War and Betrayed My Wife's CIA Identity*. New York: Carroll and Graff, 2004.
Wittner, Lawrence S. *American Intervention in Greece, 1943–1949*. New York: Columbia University Press, 1982.
Woodward, Bob. *Bush at War*. New York: Simon and Schuster, 2002.
———. *The Commanders*. New York: Simon and Schuster, 1991.
———. *Plan of Attack*. New York: Simon and Schuster, 2004.
———. *State of Denial: Bush at War, Part III*. New York: Simon and Schuster, 2006.
Wright, John. *Libya: A Modern History*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1982.
Wright, Lawrence. *The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11*. New York: Knopf, 2006.
Wyman, David S. *The Abandonment of the Jews: America and the Holocaust, 1941–1945*. New York: Pantheon, 1984.
Yergin, Daniel. *The Prize: The Epic Quest for Oil, Money, and Power*. New York: Simon and Schuster, 1991.
Yousaf, Mohammad, with Mark Adkin. *The Bear Trap: Afghanistan's Untold Story*. London: L. Cooper, 1992.
Zahniser, Marvin. *Uncertain Friendship: American-French Relations through the Cold War*. New York: Wiley, 1975.

Articles

Abercrombie, Thomas J. "Behind the Veil of Troubled Yemen." *National Geographic Magazine*, March 1964, 402–45.
Abu-Amr, Ziad. "Hamas: A Historical and Political Background." *Journal of Palestine Studies* 22 (summer 1993): 5–19.
Adams, Harnet Chalmers. "Cirenaica, Eastern Wing of Italian Libia." *National Geographic Magazine*, December 1930, 689–726.
Akins, James E. "The Oil Crisis: This Time the Wolf Is Here." *Foreign Affairs* 51 (April 1973): 462–90.
Anderson, Jon Lee. "Letter from Iraq: Out on the Street." *New Yorker*, 15 November 2004, 72–79.
"Arab Lands beyond the Jordan." *National Geographic Magazine*, December 1947, 753–68.
Arden, Harvey. "Eternal Sinai." *National Geographic Magazine*, April 1982, 420–61.
Ashton, Nigel John. "The Hijacking of a Pact: The Formation of the Baghdad Pact and Anglo-American Tensions in the Middle East, 1955–1958." *Review of International Studies* 19 (1993): 123–27.
Badeau, John S. "The Middle East: Conflict in Priorities." *Foreign Affairs* 36 (January 1958): 232–40.
Barnett, Thomas P. M. "The Pentagon's New Map." *Esquire*, March 2003, 174–79, 227–28.
Bassett, Lawrence J., and Stephen E. Pelz. "The Failed Search for Victory: Vietnam and the Politics of War." In *Kennedy's Quest for Victory: American Foreign Policy,*

1961–1963, edited by Thomas G. Paterson, 223–52. New York: Oxford University Press, 1989.

Bearak, Barry. "A Journey Through a State of Disequilibrium." *New York Times Magazine,* 7 December 2003, 62–67, 82–83, 121–24, 128–31.

———. "Unreconstructed." *New York Times Magazine,* 1 June 2003, 40–47, 62, 96, 101–2.

Békés, Csaba. "New Findings on the 1956 Hungarian Revolution." *Cold War International History Project Bulletin* 2 (fall 1992): 1–3.

Bennet, James. "Sharon's Wars." *New York Times Magazine,* 15 August 2004, 31–37, 52, 67–68.

Bergner, Daniel. "The Other Army." *New York Times Magazine,* 14 August 2005, 28–35, 50, 54–57.

Bruck, Connie. "Back Roads." *New Yorker,* 15 December 2003, 86–97.

Buruma, Ian, and Avishai Margalit. "Occidentalism." *New York Review of Books,* 17 January 2002, 4–7.

Cassandra [pseud.]. "The Impending Crisis in Egypt." *Middle East Journal* 49 (winter 1995): 9–27.

Cassidy, John. "Beneath the Sand." *New Yorker,* 14 & 21 July 2003, 64–75.

———. "Pump Dreams." *New Yorker,* 11 October 2004, 42–47.

Chalabi, Fadhil J. Al. "The World Oil Price Collapse of 1986: Causes and Implications for the Future of OPEC." In *After the Oil Price Collapse: OPEC, the United States, and the World Oil Market,* edited by Wilfrid L. Kohl, 1–27. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1991.

Chase, Francis, Jr. "Palestine Today." *National Geographic Magazine,* October 1946, 501–16.

Christison, Kathleen. "The Arab in Recent Popular Fiction." *Middle East Journal* 41 (summer 1987): 397–411.

Clark, Harlan B. "Yemen: Southern Arabia's Mountain Wonderland." *National Geographic Magazine,* October 1947, 631–72.

Cobbs Hoffman, Elizabeth. "Diplomatic History and the Meaning of Life: Toward a Global American History." *Diplomatic History* 21 (fall 1997): 503–18.

Cogan, Charles G. "Partners in Time: The CIA and Afghanistan since 1979." *World Policy Journal* 10, no. 2 (summer 1993): 73–82.

Cohen, Michael J. "The Zionist Perspective." In *The End of the Palestine Mandate,* edited by William Roger Louis and Robert Stookey, 79–103. Austin: University of Texas Press, 1986.

Danner, Mark. "America and the Bosnia Genocide." *New York Review of Books,* 4 December 1997, 55–65.

———. "Slouching toward Dayton." *New York Review of Books,* 23 April 1998, 59–65.

De Atkine, Norvell. "Foreword." In *The Arab Mind* by Raphael Patai. 3rd ed. Long Island City: Hatherleigh Press, 2002.

Doran, Michael Scott. "Somebody Else's Civil War." *Foreign Affairs* 81 (January/February 2002): 22–42.

Elon, Amos. "Israel and the End of Zionism." *New York Review of Books,* 19 December 1996, 22–27.

———. "Israel's Demons." *New York Review of Books*, 21 December 1995, 42–46.
Eran, Obed. "Negotiating the Anglo-Egyptian Relationship between the World Wars." In *Imperialism and Nationalism in the Middle East: The Anglo-Egyptian Experience, 1882–1982*, edited by Keith M. Wilson, 56–75. London: Mansell, 1983.
Gardner, Lloyd C. "Harry Hopkins with Hand Grenades? McGeorge Bundy in the Kennedy and Johnson Years." In *Behind the Throne: Servants of Power to Imperial Presidents, 1898–1968*, edited by Thomas J. McCormick and Walter LaFeber, 204–31. Madison: University of Wisconsin Press, 1993.
Gasiorowski, Mark. "The 1953 Coup d'Etat in Iran." *International Journal of Middle East Studies* 19 (August 1987): 261–86.
Gause, F. Gregory. "Saudi Arabia over a Barrel." *Foreign Affairs* 79 (May/June 2000): 80–94.
Gerner, Deborah J. "Missed Opportunities and Roads Not Taken: The Eisenhower Administration and the Palestinians." *Arab Studies Quarterly* 12 (winter/spring 1990): 67–100.
Glidden, Harold. "The Arab World." *American Journal of Psychiatry* 128 (February 1972): 99.
Glueck, Nelson. "An Archaeologist Looks at Palestine." *National Geographic Magazine*, November 1947, 739–52.
Goldberg, Jeffrey. "Letter from Cairo: Behind Mubarak." *New Yorker*, 8 October 2001, 48–55.
Goode, James F. "Reforming Iran during the Kennedy Years." *Diplomatic History* 15 (winter 1991): 13–29.
Grose, Peter. "The President versus the Diplomats." In *The End of the Palestine Mandate*, edited by William Roger Louis and Robert Stookey, 32–60. Austin: University of Texas Press, 1986.
Gwertzman, Bernard. "Reagan Turns to Israel." *New York Times Magazine*, 27 November 1983, 63–88.
Haddad, Mahmoud. "The Rise of Arab Nationalism Reconsidered." *International Journal of Middle East Studies* 26 (May 1994): 201–22.
Halperin, Samuel, and Irvin Oder. "The United States in Search of a Policy: Franklin D. Roosevelt and Palestine." *Review of Politics* 24 (July 1962): 320–41.
Harbutt, Charles. "Eyewitness to War in the Holy Land." *National Geographic Magazine*, December 1967, 782–97.
Hersh, Michael. "Misreading Islam," 12 November 2004, alternet.org.module/printversion/20488.
Hersh, Seymour. "Annals of National Security: King's Ransom." *New Yorker*, 22 October 2001, 35–39.
———. "The Gray Zone." *New Yorker*, 24 May 2004, 38–44.
———. "Target Qaddafi." *New York Times Magazine*, 22 February 1987, 17–26, 48, 71–74, 84.
Huntington, Samuel P. "The Clash of Civilizations?" *Foreign Affairs* 72 (summer 1993): 22–49.
———. "If Not Civilizations, What? Paradigms of the Post–Cold War World." *Foreign Affairs* 72 (November/December 1993): 186–94.

Hyman, Sidney. "When Bundy Says, 'The President Wants—,'" *New York Times Magazine*, 2 December 1962, 30, 131–33.
"An Interview with Nabil Shaath." *Journal of Palestine Studies* 23 (autumn 1993): 5–6.
Kagan, Robert. "The Benevolent Empire." *Foreign Policy* 111 (summer 1998): 36–47.
Kaplan, Robert D. "Looking the World in the Eye." *Atlantic Monthly*, December 2001, 68–82.
Kaufman, Burton I. "Mideast Multinational Oil, U.S. Foreign Policy, and Antitrust: The 1950s." *Journal of American History* 63 (March 1977): 937–59.
Keith-Roche, Edward. "Changing Palestine." *National Geographic Magazine*, April 1934, 493–527.
———. "The Pageant of Jerusalem." *National Geographic Magazine*, December 1927, 635–81.
Keller, Bill. "The Sunshine Warrior." *New York Times Magazine*, 22 September 2002, 48–55, 84, 88, 96–97.
Khouri, Fred J. "The Policy of Retaliation in Arab-Israeli Relations." *Middle East Journal* 20 (autumn 1966): 435–55.
Latham, Michael E. "Ideology, Social Science, and Destiny: Modernization and the Kennedy-Era Alliance for Progress." *Diplomatic History* 22 (spring 1998): 199–229.
Lebow, Richard Ned. "Woodrow Wilson and the Balfour Declaration." *Journal of Modern History* 40 (December 1968): 501–23.
Lemann, Nicholas. "Dreaming About War." *New Yorker*, 16 July 2001, 32–37.
———. "The Iraq Factor." *New Yorker*, January 22, 2001, 34–38.
———. "Order of Battle." *New Yorker*, 18 November 2002, 42–47.
———. "The Quiet Man." *New Yorker*, 7 May 2001, 56–71.
Lendenmann, G. Neal. "Arab Stereotyping in Contemporary Political Cartoons." In *Split Vision: The Portrayal of Arabs in the American Media*, edited by Edmund Ghareeb, 345–53. Washington, D.C.: American-Arab Affairs Council, 1983.
Lewis, Bernard. "License to Kill: Usama bin Laden's Declaration of Jihad." *Foreign Affairs* 77 (November/December 1998): 14–19.
———. "The Roots of Muslim Rage." *Atlantic Monthly*, September 1990, 47–60.
———. "What Went Wrong?" *Atlantic Monthly*, January 2002, 43–45.
Lewis, Samuel. "The United States and Israel: Constancy and Change." In *The Middle East: Ten Years after Camp David*, edited by William Quandt, 217–57. Washington, D.C.: Brookings Institution, 1988.
"The Libyan Revolution in the Words of Its Leaders." *Middle East Journal* 24 (spring 1970): 212–19.
Little, Douglas. "Choosing Sides: Lyndon Johnson and the Middle East." In *The Johnson Years*, edited by Robert A. Divine, vol. 3, *LBJ at Home and Abroad*, 150–97. Lawrence: University of Kansas Press, 1994.
———. "Cold War and Covert Action: The United States and Syria, 1945–1958." *Middle East Journal* 44 (winter 1990): 51–75.
———. "From Even-Handed to Empty-Handed: Seeking Order in the Middle East." In *Kennedy's Quest for Victory: American Foreign Policy, 1961–1963*, edited by Thomas G. Paterson, 156–77. New York: Oxford University Press, 1989.
———. "His Finest Hour? Eisenhower, Lebanon, and the 1958 Middle East Crisis." *Diplomatic History* 20 (winter 1996): 27–54.

———. "The Making of a Special Relationship: The United States and Israel, 1957–68." *International Journal of Middle East Studies* 25 (November 1993): 564–85.
———. "The New Frontier on the Nile: JFK, Nasser, and Arab Nationalism." *Journal of American History* 75 (September 1988): 501–27.
———. "Pipeline Politics: America, TAPLINE, and the Arabs." *Business History Review* 64 (summer 1990): 255–85.
———. "A Puppet in Search of a Puppeteer? The United States, King Hussein, and Jordan, 1953–1970." *International History Review* 17 (August 1995): 512–44.
Loftus, John A. "Oil in United States Foreign Policy." *Department of State Bulletin* 15 (11 August 1946): 276–81.
Louis, William Roger. "The British and the Origins of the Iraqi Revolution." In *The Iraqi Revolution of 1958: The Old Social Classes Revisited*, edited by Robert Fernea and William Roger Louis, 31–61. London: I. B. Tauris, 1991.
———. "Dulles, Suez, and the British." In *John Foster Dulles and the Diplomacy of the Cold War*, edited by Richard H. Immerman, 133–58. Princeton: Princeton University Press, 1990.
———. "The Tragedy of the Anglo-Egyptian Settlement of 1954." In *Suez 1956: The Crisis and Its Consequences*, edited by William Roger Louis and Roger Owen, 43–71. New York: Oxford University Press, 1989.
Maass, Peter. "The Breaking Point." *New York Times Magazine*, 21 August 2005, 30–59.
———. "Meet the New Boss." *New York Times Magazine*, 8 June 2003, 52–56, 104–6.
Mahan, Alfred Thayer. "The Persian Gulf and International Relations." In *Retrospect and Prospect: Studies in International Relations Naval and Political*, edited by Alfred Thayer Mahan, 209–51. Boston: Little, Brown, 1902.
Malley, Robert, and Hussein Agha. "Camp David: The Tragedy of Errors." *New York Review of Books*, 9 August 2001, 59–65.
Manela, Erez. "Friction from the Sidelines: Diplomacy, Religion, and Culture in American-Egyptian Relations, 1919–1939." In *The United States and the Middle East: Diplomatic and Economic Relations in Historical Perspective*, edited by Abbas Amanas, 39–68. New Haven: Yale Center for Area Studies, 2000.
Mart, Michelle. "Tough Guys and American Cold War Policy: Images of Israel, 1948–1960." *Diplomatic History* 20 (summer 1996): 357–80.
Michalek, Laurence. "The Arab in American Cinema: A Century of Otherness." *The Arab Image in American Film and Television*, special supplement to *Cineaste* 17, no. 1 (1989): 3–4.
Nagourney, Adam. "Sound Bites over Jerusalem." *New York Times Magazine*, 25 April 1999, 42–70.
Neff, Donald. "The Clinton Administration and UN Resolution 242." *Journal of Palestine Studies* 23 (winter 1994): 20–30.
Newhouse, John. "No Exit, No Entrance." *New Yorker*, 28 June 1993, 44–51.
Noble, George B. "The Voice of Egypt." *Nation*, 3 January 1920, 861–64.
Ovendale, Ritchie. "Great Britain and the Anglo-American Invasion of Jordan and Lebanon." *International History Review* 16 (May 1994): 284–303.
Pastor, Robert. "The United States and the Grenada Revolution: Who Pushed First and

Why?" In *Revolution Aborted: The Lessons of Grenada,* edited by Jorge Heine, 181–214. Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1990.
Peretz, Don, and Gideon Doron. "Israel's 1996 Elections: A Second Political Earthquake?" *Middle East Journal* 50 (autumn 1996): 529–46.
Pipes, Daniel. "There Are No Moderates: Dealing with Fundamentalist Islam." *The National Interest* 41 (fall 1995): 48–57.
Power, Samantha. "Bystanders to Genocide: Why the United States Let the Rwandan Tragedy Happen." *Atlantic Monthly,* September 2001, 84–108.
Quandt, William B. "Lyndon Johnson and the June 1967 War: What Color Was the Light?" *Middle East Journal* 46 (spring 1992): 198–228.
Quester, George H. "Nuclear Weapons and Israel." *Middle East Journal* 37 (autumn 1983): 547–64.
Rahme, Joseph G. "Ethnocentric and Stereotypical Concepts in the Study of Islamic and World History." *History Teacher* 32, no. 4 (August 1999): 483–85.
Remnick, David. "Checkpoint." *New Yorker,* 7 February 2005, 52–67.
———. "Letter from Jerusalem: The Outsider." *New Yorker,* 25 May 1998, 80–95.
Renner, Michael. "Post-Saddam Iraq: Linchpin of a New Oil Order." *Foreign Policy In Focus,* January 2003, http://www.fpif.org/papers/oil.html.
"Report of Earl G. Harrison." *Department of State Bulletin* 13 (30 September 1945): 455–63.
Rosen, Nir. "The Flight from Iraq." *New York Times Magazine,* 13 May 2007, 33–41, 56, 74–78.
Rotter, Andrew J. "Saidism without Said: Orientalism and U.S. Diplomatic History." *American Historical Review* 105, no. 4 (October 2000): 1205–17.
Samuels, David. "Grand Illusions." *Atlantic Monthly,* June 2007, 46–76.
Savir, Uri. "Why Oslo Still Matters." *New York Times Magazine,* 3 May 1998, 50–54.
Schiff, Zeev. "The Green Light." *Foreign Policy* 50 (spring 1983): 73–85.
Schmemann, Serge. "Outside In." *New York Times Magazine,* 23 November 1997, 55–59, 74–77.
Schrag, Robert L., and Manoocher N. Javidi. "Through a Glass Darkly: American Media Images of Middle Eastern Cultures and Their Potential Impact on Young Children." In *The U.S. Media and the Middle East: Image and Perception,* edited by Yahya R. Kamalipour, 212–21. Westport, Conn.: Praeger, 1995.
Scofield, John. "Israel: Land of Promise." *National Geographic Magazine,* March 1965, 395–434.
Shatz, Adam. "The Native Informant." *The Nation,* 28 April 2003, www.thenation.com.
Shlaim, Avi. "Conflicting Approaches to Israel's Relations with the Arabs: Ben Gurion and Sharett, 1953–1956." *Middle East Journal* 37 (spring 1983): 180–201.
———. "Woman of the Year." *New York Review of Books,* 8 June 1995, 24–27.
Shor, Franc. "Crusader Road to Jerusalem," "Conquest of the Holy City," and "Holy Land Today." *National Geographic Magazine,* December 1963, 797–857.
Simpich, Frederick, Jr. "Americans Help Liberated Europe Live Again." *National Geographic Magazine,* June 1945, 747–68.
———. "Change Comes to Bible Lands." *National Geographic Magazine,* December 1938, 695–750.

Singer, Mark. "Home Is Here." *New Yorker*, 15 October 2001, 62–70.
Solarz, Stephen J. "The Stakes in the Gulf." *New Republic*, 7, 14 January 1991, 18–25.
Stanger, Cary David. "A Haunting Legacy: The Assassination of Count Bernadotte." *Middle East Journal* 42 (spring 1988): 260–72.
Stein, Janice Gross. "The Wrong Strategy in the Right Place: The United States in the Gulf." *International Security* 13 (winter 1988/1989): 142–67.
Stockton, Ronald. "Ethnic Archetypes and the Arab Image." In *The Development of Arab-American Identity*, edited by Ernest McCarus, 119–53. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1995.
Suskind, Ron. "Without a Doubt." *New York Times Magazine*, 17 October 2004, 44–51, 64, 102, 106.
Szulc, Tad. "Who Are the Palestinians?" *National Geographic Magazine*, June 1992, 84–113.
Tal, Lawrence. "Britain and the Jordan Crisis of 1958." *Middle Eastern Studies* 31 (January 1995): 39–57.
Thacher, Nicholas G. "Reflections on US Foreign Policy towards Iraq in the 1950s." In *The Iraqi Revolution of 1958: The Old Social Classes Revisited*, edited by Robert Fernea and William Roger Louis, 62–76. London: I. B. Tauris, 1991.
Trumpbour, John. "The Clash of Civilizations: Samuel P. Huntington, Bernard Lewis, and the Remaking of the Post–Cold War World Order." In *The New Crusades: Constructing the Muslim Enemy*, edited by Emran Qureshi and Michael A. Sells, 88–130. New York: Columbia University Press, 2003.
Tucker, Robert. "Oil: The Issue of American Intervention." *Commentary*, January 1975, 21–31.
Van Der Meulen, D. "Into Burning Hadhramaut." *National Geographic Magazine*, October 1932, 387–429.
Villiers, Alan. "Sailing with Sindbad's Sons." *National Geographic Magazine*, November 1948, 675–88.
Walsh, Elsa. "The Prince." *New Yorker*, 24 March 2003, 48–63.
Weaver, Mary Anne. "Blowback." *Atlantic Monthly*, May 1996, 24–36.
———. "Children of the Jihad." *New Yorker*, 12 June 1995, 40–48.
Weiner, Tim. "Blowback from the Afghan Battlefield." *New York Times Magazine*, 13 March 1994, 52–55.
Whiting, John D. "Among the Bethlehem Shepherds." *National Geographic Magazine*, December 1926, 729–53.
———. "Bethlehem and the Christmas Story." *National Geographic Magazine*, October 1932, 699–735.
Williams, Maynard Owen. "East of Suez to the Mount of the Decalogue." *National Geographic Magazine*, December 1927, 709–43.
Wright, Claudia. "Behind Iraq's Bold Bid." *New York Times Magazine*, 26 October 1980, 43, 109–17.

Dissertations and Unpublished Papers

Bick, Etta Zablocki. "Ethnic Linkages and Foreign Policy: A Study of the Linkage Role of American Jews in Relations between the United States and Israel, 1956–1968." Ph.D. dissertation, City University of New York, 1983.

Haddad, Yvonne. "Islam in the Mind of America." Paper presented at the Annual Conference of the German Association of American Studies, 4 June 2004, University of Mannheim, Mannheim, Germany.
Thomas, Teresa Ann. "From Orientalism to Professionalism: U.S. Foreign Service Officers in the Middle East since 1946." Ph. D. dissertation, Clark University, 1996.

ملاحق إضافية خاصة بالطبعة العربية
(من إعداد المترجم)

ملحق رقم (١) : المؤلف والمترجم

ملحق رقم (٢) : مسرد الكلمات والمصطلحات والاختصارات

ملحق رقم (٣) : رؤساء الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥

ملحق رقم (٤) : أماكن ومواقع تشير إلى ما بها من مؤسسات

ملحق رقم (٥) : الفقرات التى اقتبس عنها المؤلف من كتاب "فلسفة الثورة"

ملحق رقم (٦) : قرار تأميم قناة السويس

ملحق رقم (٧) : لقاء "عبد الناصر" وبعثة "منزيس"

ملحق رقم (٨) : تعليق "عبد الناصر" على تهديد الرئيس الأمريكى بوقف المعونة

ملحق رقم (٩) : استراتيچية الأمن القومى الأمريكى فى عهد إدارة "چورچ دبليو بوش"

ملحق رقم (١٠) : مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط

ملحق رقم (١١) : عن قصيدة "أدونيس" "قبر من أجل نيويورك"

ملحق رقم (١٢) : خطاب "السادات" فى الكنيسيت

ملحق رقم (١٣) : خطاب "أوباما" فى القاهرة (٤ يونيو ٢٠٠٩)

ملـحق رقم (١)

■ المؤلف فى سطور:

دوجلاس ليتل

Douglas Little,PhD.

Professor,Department of History

Clark University

- تخرج فى جامعة "Wisconsin" فى ١٩٧٢ وحصل على الماچستير والدكتوراه فى ١٩٧٥ و١٩٧٨ من جامعة "Cornell".

- يعمل أستاذا بقسم التاريخ بجامعة "Clark" منذ ذلك الحين، وهو زميل برنامج دراسات السلام.

- متخصص فى تاريخ الدبلوماسية الأمريكية، ويحاضر فى علاقات أمريكا والولايات المتحدة بالشرق الأوسط فى القرن العشرين، وله اهتمام خاص بموقف الولايات المتحدة من الإسلام الراديكالى فى الفترة ما بين حرب ١٩٦٧ والثورة الإيرانية فى ١٩٧٩.

- إلى جانب العديد من الأبحاث والدراسات له كتاب مهم بعنوان:

"Malevolent Neutrality:The United States,Great Britain and the Origins of the Spanish Civil War"

("حياد الضغينة: الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وأصول الحرب الأهلية الإسبانية"، صادر عن **Cornell University Press** فى ١٩٨٥).

■ المترجم فى سطور:

طلعت الشايب

- كاتب ومترجم مصرى من مواليد ١٩٤٢.

- تخرج فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية المعلمين بالقاهرة - ١٩٦٢.

- عمل بالتدريس والترجمة والصحافة الثقافية فى مصر والكويت وقطر.

- عمل مترجما بالقيادة العامة للقوات المسلحة المصرية فى الفترة من ١٩٦٨-١٩٧٤ حيث شارك فى ترجمة عدد كبير من الوثائق والمراجع العسكرية (.........) من وإلى العربية والإنجليزية والروسية.

- عمل مستشارا للمشروع القومى للترجمة فى الفترة من ٢٠٠٣ إلى ٢٠٠٦، وهو الآن مساعد مدير المركز القومى للترجمة (منذ إنشائه).

- عضو اتحاد كتاب مصر، ولجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، ومجلس تحرير مجلة "أدب ونقد"، ورئيس تحرير سلسلة "آفاق عالمية" [الهيئة العامة لقصور الثقافة] ومحرر سلسلة "ميراث الترجمة" [المركز القومى للترجمة].

- حاصل على جائزة أفضل عمل مترجم (١٩٩٧)، من هيئة قصور الثقافة، وذلك عن ترجمة رواية "البطء" لميلان كونديرا، حاصل على جائزة اتحاد الكتاب للترجمة (٢٠٠٣).

- المحرر الرئيسى لموسوعة الأعمال الكاملة للدكتور "مهاتير محمد" رئيس وزراء ماليزيا السابق، كما قام بترجمة ثلاثة أعمال منها هى: "التحدى" و"الإسلام والأمة الإسلامية" و"خطة جديدة لآسيا"، الموسوعة صادرة عن دار الكتاب المصرى - دار الكتاب اللبنانى (١٩٩٦).

- **ترجم نحو ثلاثين عملا من بينها:**

• "**حدود حرية التعبير**: تجربة كتاب القصة والرواية فى مصر فى عهدى

عبد الناصر والسادات". رسالة دكتوراه للمستعربة السويدية: مارينا ستاج – صادر عن "شرقيات" بالقاهرة – ١٩٩٥.

- "**المثقفون**"، تأليف: پول چونسون – شرقيات بالقاهرة – ١٩٩٨.
- "**صدام الحضارات**" تأليف: صمويل هنتنجتون – سطور بالقاهرة – طبعة أولى ١٩٩٨ – طبعة ثانية ١٩٩٩.
- "**فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى**" تأليف: آرثر هيرمان – المشروع القومى للترجمة. طبعة أولى ٢٠٠٠ – طبعة ثانية ٢٠٠٩.
- "**الحرب الباردة الثقافية**: دور المخابرات المركزية الأمريكية فى الفنون والآداب" تأليف: ف.س.سوندرز" – المشروع القومى للترجمة – طبعة أولى ٢٠٠٢، طبعة ثانية ٢٠٠٣، طبعة ثالثة ٢٠٠٤، طبعة رابعة ٢٠٠٩.
- "**فى طفولتى: الطفولة فى السيرة الذاتية العربية**" رسالة دكتوراه للمستعرب السويدى "تيتز روكى" – المشروع القومى لترجمة – طبعة أولى ٢٠٠٢، طبعة ثانية ٢٠٠٩.
- **غياب السلام**: تأليف نيكولاس جويات، المشروع القومى للترجمة – ٢٠٠٥.
- "**الفنون والآداب تحت ضغط العولمة**"، تأليف چووست سمايرز. المشروع القومى للترجمة. ٢٠٠٥.
- "**محنة الكاتب الأفريقى**" تأليف تشارلز لارسون، المشروع القومى للترجمة – ٢٠٠٥.

– من ترجماته فى الإبداع:

- **البطء** – رواية ميلان كونديرا – شرقيات – ١٩٩٦.
- **الملاك الصامت** – رواية هينرش بول – هـ. قصور الثقافة – ١٩٩٧.
- **فتاة عادية** – رواية آرثر ميللر – شرقيات – ١٩٩٧.
- **عاريا أمام الآلهة** – رواية شيف كومار – شرقيات – ١٩٩٨.

- **الحرير** - رواية أليساندرو باريكو - هـ. قصور الثقافة - ١٩٩٨.
- **الخوف من المرايا** - روراية طارق على - المشروع القومى للترجمة - ٢٠٠٠.
- **اتبعى قلبك** - رواية سوزانا تامارو - شرقيات - ٢٠٠٠.
- **بقايا اليوم** - رواية كازو إيشيجورو - المشروع القومى للترجمة ٢٠٠١، طبعة ثانية ٢٠٠٩.
- **هوس العمق** - قصص قصيرة لپاتريك زوسكيند - توت - ٢٠٠٣.
- **أنا القمر** - مختارات من الخرافة الصينية - هـ. قصور الثقافة - ١٩٩٩.
- **أصوات الضمير** - مختارات من شعر القمع - سما - ١٩٩٩.
- **مكتوب** - مختارات من پاولو كويليو - ميريت - ٢٠٠٤.

- قام بمراجعة ترجمة نحو عشرين عملا من بينها:

- "**ربما فى حلب ذات يوم**"، مختارات من القصة القصيرة الأمريكية - ترجمة د.أحمد الشيمى.
- **عالم آخر ممكن** - تأليف هـ. باتوماكى وت.تيڤاينن - ترجمة محمد على فرج.
- **موسوعة كمبردج: تاريخ الفكر السياسى فى القرن العشرين** - ترجمة مى مقلد.
- **جدل الإسلام والمعرفة فى عالم متغير** (ماليزيا ومصر نموذجا): تأليف منى أباظة وترجمة ملك حماد.

ملـــحق رقم (٢)

■ [أ] مسرد لأهم الكلمات والمصطلحات

"A"

Adventurism	نزعة المغامرة
Advisory group	مجموعة استشارية
Agrarian reform	إصلاح زراعى
Alignment	انحياز
Alliance	تحالف
Ally	حليف
Americanization	أمركة
Antagonism	عداء
Anti-Americanism	معاداة كل ما هو أمريكى
Anti-Semitism	معاداة السامية
Antitrust Laws	قوانين مكافحة الاحتكار
Apolitical	لاسياسى
Appeasement	تهدئة
Arabization	تعريب
Armament	تسلح
Arms race	سباق تسلح
Attrition war	حرب استنزاف
Authoritarianism	سلطوية
Authority	سلطة

Autocracy	الأوتوقراطية (حكم الفرد)
Autonomy	حكم ذاتى
Axis of Evil	محور الشر

"B"

Baghdad Pact	حلف بغداد
Balance of Power	ميزان القوى
Balfour Declaration	تصريح بلفور
Biological Warfare	حرب بيولوچية
Boycott	مقاطعة
Brainstorming	شحذ الأفكار
Buffer State	دولة حاجزة

"C"

Camp David Accords	اتفاقيات كامپ ديڤيد
Cape of Good Hope	رأس الرجاء الصالح
Civil War	حرب أهلية
Clash of Civilizations	صدام الحضارات
Class Conflict	صراع طبقى
Coalition	تحالف
Collective mind	العقل الجمعى
Colonialism	الاستعمار
Compliance	إذعان
Comprehensive Peace	سلام شامل
Compromise	حل وسط

Concentration Camps	معسكرات الاعتقال
Condemnation	إدانة
Confederation	اتحاد كونفدرالى
Confidence Building Measures	إجراءات بناء الثقة
Confrontation	مواجهة
Containment	احتواء
Council for Foreign Relations	مجلس العلاقات الخارجية
Coup de grace	ضربة قاضية
Coup d'état	انقلاب
Credibility	صدقية
Cultural Cold War	الحرب الباردة الثقافية

"D"

Dead letter	رسالة تعاد إلى مرسلها (بسبب نقص أو خطأ فى العنوان)
Dehumanize	يجرد من الصفات الإنسانية
Déjà vu	شيء مألوف
Demonize	يحول إلى شيطان
Despotism	استبداد
Destabilize	يزعزع
Détente	انفراج
Deterrence	ردع
Diaspora	الشتات
Dictatorship	دكتاتورية
Diplomatic Wizardry	سحر دبلوماسى

Disaffected groups	الجماعات الساخطة
Disarmament	نزع السلاح
Discrimination	تمييز
Doctrine	مبدأ
Dogma	عقيدة
Domination	سيطرة
Dysfunctional cabinet	حكومة فاشلة

"E"

Economic recession	انحسار اقتصادى
Economic sanctions	عقوبات اقتصادية
Energy crunch	أزمة طاقة
Escalation	تصعيد
Ethnic cleansing	تطهير عرقى
Ethnicity	عرقية
European Recovery Programme	برنامج الإنعاش الأوروبى
Evil Empire	إمبراطورية الشر
Exodus	الخروج
Expansionism	التوسعية
Expropriation	مصادرة الملكية
Exporting Democracy	تصدير الديمقراطية
Extremism	التطرف

"F"

Fact Finding Mission	مهمة تقصى حقائق
Failed States	الدول الفاشلة
Fait accompli	الأمر المقضى
Fanaticism	تعصب
Fascism	الفاشية
Feasibility Study	دراسة جدوى
Federal Trade Committee	لجنة التجارة الفيدرالية
Filling the vacuum policy	سياسة ملء الفراغ
Flexibility	مرونة
Fossilization	تحجر
Friendly Fire	نيران صديقة
Fundamentalism	أصولية

"G"

Gangsterism	قطع الطرق
Genocide	إبادة جماعية
Geopolitical	چيوپوليتيكى
Grand Alliance	التحالف الكبير
Gratifying decision	قرار مرضٍ
Greater Israel	إسرائيل الكبرى
Green Threat	الخطر الأخضر (المقصود الإسلام)
Gunboat Diplomacy	دبلوماسية مدافع الأسطول

"H"

Hegemony	هيمنة
Holocaust	الهولوكوست
Humanitarian assistance	مساعدات إنسانية
Hyper Power	القوة المفرطة

"I"

Inalienable rights	حقوق ثابتة
Ineffectual governments	حكومات عاجزة
Infrastructure	البنية الأساسية
Internationalization	تدويل
Interventionism	سياسة التدخل
Intransigence	عناد
Islamic Group	الجماعة الإسلامية
Islamic Revivalism	الإحياء الإسلامى
Islamofashism	الفاشية الإسلامية

"J"

Jewish Commonwealth	كومنولث يهودى

"L"

Lasting peace	سلام دائم
Legacy	إرث
Legality	شرعية
Lend Lease Act	قانون الإقراض والتأجير فى زمن الحرب
Liberalism	الليبرالية
Litigation	التقاضى

"M"

Mandate	انتداب
Marshall Plan	مشروع مارشال
Martial Law	الأحكام العرفية
Memorandum of understanding	مذكرة تفاهم
Militarianism	النزعة العسكرية
Military Assistance Programme	برنامج المساعدات العسكرية
Military Balance	توازن عسكرى
Military retaliation	انتقام عسكرى
Military supremacy	تفوق عسكرى
Minisummit	قمة مصغرة
Missianic globaloney	نزعة مسيحية كلية
Mobilization	تعبئة
Modernism	الحداثة
Modernity	العصرية
Modernization	تحديث
Momentum	قوة الدفع
Monopoly	احتكار
Moral Commitment	التزام أخلاقى
Multilateralism	تعددية
Mutual Security Programme	برنامج الأمن المتبادل

"N"

Nativism	الأهلانية
Nazism	النازية
Negotiations	مفاوضات
Neoconservatism	المحافظة الجديدة
Neoliberalism	الليبرالية الجديدة
Neutrality	حياد
New Deal	البرنامج الجديد
New World Order	النظام العالمى الجديد
Nonbelligerent state	دولة غير محاربة
Nuclear deterrence	ردع نووى
Nuclear option	خيار نووى

"O"

Obscurantism	الظلامية
Occidentalism	الاستغراب
Offer and Demand	العرض والطلب
Oil embargo	خطر نفطى
Opportunism	انتهازية
Opposition	معارضة
Oriental despotism	الاستبداد الشرقى
Orientalism	الاستشراق
Orientalist Stereotypes	صور نمطية استشراقية
Oslo Accords	اتفاقيات أوسلو
Otherness	الآخرية

"P"

Pan-Arab Skullduggery	خداع عربى
Parochialism	ضيق أفق (فى التفكير)
Peace for Land Formula	صيغة الأرض مقابل السلام
Peace Process	عملية السلام
Petrodollars	دولارات النفط
Petroleum concessions	امتيازات بترولية
Point of no return	نقطة اللاعودة
Polarity	قطبية
Polarization	استقطاب
Political Cataclysm	جائحة سياسية
Political constellation	تجمع سياسى
Political framework	إطار سياسى
Postmodernism	ما بعد الحداثة
Preemptive war	حرب استباقية
Preventive war	حرب وقائية
Prosecution	مقاضاة
Protectorate	حماية
Prowestern Muslim Regimes	النظم الإسلامية الموالية للغرب

"Q"

Quagmire	مستنقع

"R"

Rapid Deployment Force	قوة انتشار سريع
Radicalism	الراديكالية
Rapprochement	تقارب
Realpolitik	سياسة واقعية
Recession	انحسار
Recognition	اعتراف
Reconciliation	مصالحة
Reform	إصلاح
Refugees	اللاجئون
Regime change	تغيير النظام
Religious zealotry	حماسة دينية
Republicanism	الحكم الجمهورى
Retaliation	انتقام
Road Map	خريطة طريق
Rogue State	دولة مارقة

"S"

Sanctions	عقوبات
Secretary of State	وزير الخارجية
Secular	علمانى
Secularization	علمنه
Self determination	تقرير المصير
Self government	حكم ذاتى

Settlement	تسوية
Seven Pillars of Wisdom	أعمدة الحكمة السبعة
Shared values	قيم مشتركة
Soft Power	القوة الناعمة
Sole Leader	الزعيم الأوحد
Spot market	السوق الفورية
Stability	استقرار
Stagflation	تضخم مصحوب بالركود
State Department	وزارة الخارجية (الأمريكية)
Strategic Asset	أصل استراتيچي ثابت
Suez Crisis	أزمة السويس

"T"

Tentative Agreement	اتفاق مؤقت
Terra incognita	أرض مجهولة
Territorial integrity	سلامة الأراضي
Terrorism	الإرهاب
Thaw	ذوبان الجليد (انفراج)
Theocracy	ثيوقراطية (حكم ديني)
Theocratic rule	حكم ديني
Theology	اللاهوت
Think tanks	مستودعات الأفكار
Totalitarianism	الشمولية
Tribalism	القبلية

Tripartite Aggression	عدوان ثلاثي
Tripartite Declaration	إعلان ثلاثي
Trusteeship	وصاية

"U"

Ultimatum	إنذار
Underdevelopment	تخلف
Unilateralism	أحادية
Utilitarianism	مذهب المنفعة

"V"

Vietnam Syndrom	أعراض ڤيتنام
Violation	انتهاك (خرق)
Violence	عنف

"W"

Wailing Wall	حائط المبكى
Wake-up call	نداء إيقاظ
War of Choice	حرب اختيار
War of ideas	حرب أفكار
War of necessity	حرب ضرورة
Watergate scandal	فضيحة ووترجيت
Westernization	غربنة
White Man's Burden	عبء الرجل الأبيض
White Revolution	ثورة بيضاء

"X"

Xenophobia	رهاب الأجانب

■ [ب] مسرد الاختصارات

AFB : Air Force Base: قاعدة جوية

AIOC : Anglo Iranian Oil Company شركة النفط الإنجليزية البريطانية

AIPAC : American Israeli Public Affairs Committee

لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية

APOC : Anglo-Persian Oil Company شركة النفط الإنجليزية الفارسية

ARAMCO : Arabian American Oil Company (أرامكو) الشركة العربية الأمريكية للبترول

AWACS : Airborn Warning and Control System جهاز الإنذار والتحكم المحمول جوا

B. P. : British Petroleum Company شركة البترول البريطانية

CASOC : California Arabian Standard Oil Company

شركة ستاندارد أويل كاليفورنيا العربية للبترول (كاسوك)

CENTCOM: Central Command القيادة المركزية

CENTO : Central Treaty Organization منظمة الحلف المركزى

CFP : Compagnie Francaise des Petroles الشركة الفرنسية للبترول

CIA : Central Intelligence Agency وكالة المخابرات المركزية

Conoco : Continental Oil Company شركة كونتيننتال للبترول

CPA : Coalition Provisional Authority سلطة الاحتلال المؤقتة

GDP : Gross Domestic Production الناتج المحلى الإجمالى

GNP : Gross National Product الناتج القومى الإجمالى

INOC : Iraq National Oil Company الشركة الوطنية الإيرانية للنفط

IPC : Iraq Petroleum Company شركة البترول العراقية

IRS : Internal Revenue Service إدارة العائدات الداخلية

ISI : Inter-Services Intelligence Agency جهاز المخابرات الباكستانى

JCS : Joint Chiefs of Staff رئاسة الأركان المشتركة

MEC : Middle East Command قيادة الشرق الأوسط

MEDO : Middle East Defence Organization منظمة دفاع الشرق الأوسط

NAM : Non Aligned Movement حركة عدم الانحياز

NATO : North Atlantic Treaty Organization منظمة حلف شمال الأطلنطى

NIOC : National Iranian Oil Company الشركة الإيرانية الوطنية للنفط

NPT : Non Proliferation Treaty اتفاقية منع الانتشار

NSC : National Security Council مجلس الأمن القومى

OAPEC : Organization of Arab Petroleum Exporting Countries
منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول

OECD : Organization for Economic Cooperation and Development
منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية

OPEC : Organization of Petroleum Exporting Countries
منظمة الدول المصدرة للبترول

ORHA : Office of Reconstruction and Humanitarian Assistance
مكتب الإعمار والمساعدات الإنسانية

LPO : Palestine Liberation Organization منظمة التحرير الفلسطينية

PRC : Petroleum Reserves Corporation مؤسسة الاحتياطيات البترولية

RCC : Revolutionary Command Council مجلس قيادة الثورة

SALT : Strategic Arms Limitation Treaty اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيجية

SAM : Surface - to - Air Missile صاروخ أرض جو

SOCONY : Standard Oil Company for New York ستاندارد للبترول – نيويورك

SSM : Surface - to - Surface Missile صاروخ أرض أرض

TAPLINE : Trans - Arabian Pipelines (تاپلاين) شركة خطوط أنابيب البترول العربية

TPC : Turkish Petroleum Company شركة البترول التركية

TVA : Tennessee Valley Authority هيئة وادى تينسى

UNISCOP : United Nations Special Commttee on Palestine

منظمة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين

UNIEMF : United Nations International Emergency forces

قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة

UNRWA : United Nations Relief and Works Agency

وكالة الإغاثة والتشغيل التابعة للأمم المتحدة

USIA : U.S Information Agency وكالة الإعلام الأمريكية

USIP : United States Institute of Peace معهد الولايات المتحدة للسلام

WMD : Weapons of Mass Destruction أسلحة الدمار الشامل

ملـــحق رقم (٣)

■ رؤساء الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥

١ - فرانكلين ديلانو روزفلت

Roosevelt, Franklin D (FDR)

٣٠ يناير ١٨٨٢ - ١٢ أبريل ١٩٤٥

من مواليد هايدپارك - نيويورك

ديمقراطى

شغل المنصب من ١٩٣٣ - ١٩٤٥

(الرئيس الوحيد الذى انتخب ٤ مرات وتوفى بعد ٨٣ يوما من انتخابه للمرة الرابعة)

٢ - هارى ترومان

Truman, Harry S.

٨ مايو ١٨٨٤ - ٢٦ ديسمبر ١٩٧٢

من مواليد لامار - ميسورى

ديمقراطى

شغل المنصب من ١٩٤٥ - ١٩٥٣

٣ - دوايت ديڤيد إيزنهاور

Eisenhower, Dwight D. ("Ike")

١٤ أكتوبر ١٨٩٠ - ٢٨ مارس ١٩٦٩

من مواليد دنيسون - تكساس

جمهورى

شغل المنصب من ١٩٥٣ - ١٩٦١

٤ – چون فيتز جيرالد كينيدى

Kennedy, John F. (JFK)

٢٩ مايو ١٩١٧ – ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣

من مواليد بروكلين – ماساشوستس

ديمقراطى

شغل المنصب من ١٩٦١ – ١٩٦٣

٥ – ليندون چونسون

Johnson, Lyndon B. (LBG)

٢٧ أغسطس ١٩٠٨ – ٢٢ يناير ١٩٧٣

من مواليد ستونول – تكساس

ديمقراطى

شغل المنصب من ١٩٦٣ – ١٩٦٩

٦ – ريتشارد نيكسون

Nixon, Richard

٩ يناير ١٩١٣ – ٢٢ أبريل ١٩٩٤

من مواليد يوربا ليندا – كاليفورنيا

جمهورى

شغل المنصب من ١٩٦٩ – ١٩٧٤

٧ – چيرالد فورد

Ford, Gerald

١٤ يوليو ١٩١٣ – ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٦

من مواليد أوماها – نبراسكا

جمهورى

شغل المنصب من ١٩٧٤ – ١٩٧٧

٨ - چيمى كارتر

Carter, Jimmy

١ أكتوبر ١٩٤٢ - ......

من مواليد بلينز - چورچيا

ديمقراطى

شغل المنصب من ١٩٧٧ - ١٩٨١

٩ - رونالد ريجان

Reagan, Ronald

٦ فبراير ١٩١١ - ٥ يونيو ٢٠٠٤

من مواليد تامبيكو - إلينوى

جمهورى

شغل المنصب من ١٩٨١ - ١٩٨٩

١٠ - چورج بوش

Bush, George

١٢ يونيو ١٩٢٤ - ......

من مواليد ميلتون - ماساشوستس

جمهورى

شغل المنصب من ١٩٨٩ - ١٩٩٣

١١ - بل كلينتون

Clinton, William ("Bill")

١٩ أغسطس ١٩٤٦ - .....

من مواليد هوپ - أركانساس

ديمقراطى

شغل المنصب من ١٩٩٣ - ٢٠٠١

١٢ – چورچ دبليو بوش

Bush, George W.

٦ يوليو ١٩٤٦ – .....

من مواليد نيوهاڤن – كونيكتكت

جمهورى

شغل المنصب من ٢٠٠١ – ٢٠٠٨

١٣ – باراك حسين أوباما

Obama, Barack H.

٤ أغسطس ١٩٦١ – ......

من مواليد هاواى

ديمقراطى

يشغل المنصب منذ ٢٠٠٩

ملـــحق رقم (٤)

■ أماكن ومواقع تشير إلى ما يوجد بها من مؤسسات سيادية كما هى مستخدمة فى الكتاب

"**بلت واى**": للإشارة إلى الدوائر والسياسات الحكومية	1 . Belt way
"**بلير هاوس**": بيت الضيافة الرسمى للرئيس الأمريكى	2 . Blair House
كابيتول هيل: كناية عن الكونجرس	3 . Capitol Hill
داوننج ستريت: كناية عن رئيس الوزراء البريطانى (أو مكتبه)	4 . Downing Street
فوجى بوتوم: كناية عن وزارة الخارجية الأمريكية	5 . Foggy Bottom
مجلس النواب	6 . The House
المكتب البيضوى: المكتب الرسمى للرئيس الأمريكى	7 . The Oval Office
البنتاجون: كناية عن وزارة الدفاع الأمريكية	8 . The Pentagon
مجلس الشيوخ	9 . The Senate
البيت الأبيض: مقر الإقامة الرسمى ومقر العمل للرئيس الأمريكى	10. The White House
وول ستريت: كناية عن سوق المال	11. Wall Street
وايت هول: كناية عن الإدارة الحكومية للملكة المتحدة	12. White Hall

مــلــحق رقم (٥)

■ الفقرات التى اقتبس عنها المؤلف
[من كتاب: فلسفة الثورة]

● .... ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان: ثورة سياسية يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه أو من جيش معتد أقام فى أرضه دون رضاه، وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد.

لقد سبقتنا على طريق التقدم البشرى شعوب مرت بالثورتين ولكنها لم تعشهما معا، وإنما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين، أما نحن فإن التجربة الهائلة التى امتحن بها شعبنا هى أن تعيش الثورتان معا فى وقت واحد.

● .... ولقد أدركت منذ البداية أن نجاحنا يتوقف على إدراكنا الكامل لطبيعة الظروف التى نعيش فيها من تاريخ وطننا، فإننا لم نكن نستطيع أن نغير هذه الظروف بجرة قلم، وكذلك لم نكن نستطيع أن نؤخر عقارب الساعة أو أن نقدمها ونتحكم فى الزمن، وكذلك لم يكن فى استطاعتنا أن نقوم على طريق التاريخ بمهمة جندى المرور فنوقف مرور ثورة حتى تمر ثورة أخرى ونحول بذلك دون وقوع حادث اصطدام، وإنما كان الشىء الوحيد الذى نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الإمكان وننجو من أن يطحننا شقا الرحى.

● إن القدر لا يهزل، وليست هناك أحداث من صنع الصدفة ولا وجود يصنعه الهباء، ولن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان. أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا وأن هذه الدائرة منا ونحن منها، امتزج تاريخها بتاريخنا، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام؟ أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة أفريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها وشاء أيضا أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول

مستقبلها، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد؟ أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالما إسلاميا تجمعنا وإياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية فحسب وإنما تشدها حقائق التاريخ؟

ملـــحق رقم (٦)

■قرار تأميم قناة السويس

(كما قرأه الرئيس عبد الناصر على الجماهير في خطابه بالإسكندرية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦)

باسم الأمة..

رئيس الجمهورية..

مادة ١: تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية، وينتقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات، وتحل جميع الهيئات واللجان القائمة حالياً على إدارتها، ويعوض المساهمون وحملة حصص التأسيس عما يملكونه من أسهم وحصص بقيمتها، مقدرة بحسب سعر الإقفال السابق على تاريخ العمل بهذا القانون فى بورصة الأوراق المالية بباريس، ويتم دفع هذا التعويض بعد إتمام استلام الدولة لجميع أموال وممتلكات الشركة المؤممة.

مادة ٢: يتولى إدارة مرفق المرور بقناة السويس هيئة مستقلة تكون لها الشخصية الاعتبارية، وتلحق بوزارة التجارة، ويصدر بتشكيل هذه الهيئة قرار من رئيس الجمهورية، ويكون لها - فى سبيل إدارة المرفق - جميع السلطات اللازمة لهذا الغرض، دون التقيد بالنظم والأوضاع الحكومية. ومع عدم الإخلال برقابة ديوان المحاسبة على الحساب الختامى، يكون للهيئة ميزانية مستقلة، يتبع فى وضعها القواعد المعمول بها فى المشروعات التجارية، وتبدأ السنة المالية فى أول يونيو، وتنتهى فى آخر يونيو من كل عام، وتعتمد الميزانية والحساب الختامى بقرار من رئيس الجمهورية. وتبدأ السنة المالية الأولى من تاريخ العمل بهذا القانون وتنتهى فى آخر يونيو سنة ١٩٥٧. ويجوز للهيئة أن تنتدب من بين أعضائها واحداً أو أكثر لتنفيذ قراراتها أو للقيام بما تعهد إليه من أعمال، كما يجوز لها أن تؤلف من بين أعضائها

أو من غيرهم لجانًا فنية للاستعانة بها فى البحوث والدراسات. يمثل الهيئة رئيسها أمام الهيئات القضائية والحكومية وغيرها، وينوب عنها فى معاملتها مع الغير.

مادة ٣: تجمد أموال الشركة المؤممة وحقوقها فى جمهورية مصر وفى الخارج، ويحظر على البنوك والهيئات والأفراد التصرف فى تلك الأموال بأى وجه من الوجوه، أو صرف أى مبالغ أو أداء أية مطالبات أو مستحقات عليها إلا بقرار من الهيئة المنصوص عليها فى المادة الثانية.

مادة ٤: تحتفظ الهيئة بجميع موظفى الشركة المؤممة ومستخدميها وعمالها الحاليين، وعليهم الاستمرار فى أداء أعمالهم، ولا يجوز لأى منهم ترك عمله أو التخلى عنه بأى وجه من الوجوه، أو لأى سبب من الأسباب؛ إلا بإذن من الهيئة المنصوص عليها فى المادة الثانية.

مادة ٥: كل مخالفة لأحكام المادة الثالثة يعاقب مرتكبها بالسجن والغرامة توازى ثلاثة أمثال قيمة المال موضوع المخالفة. وكل مخالفة لأحكام المادة الرابعة يعاقب مرتكبها بالسجن، فضلاً عن حرمانه من أى حق فى المكافأة أو المعاش أو التعويض.

مادة ٦: ينشر هذا القرار فى الجريدة الرسمية، ويكون له قوة القانون، ويعمل به من تاريخ نشره، ولوزير التجارة إصدار القرارات اللازمة لتنفيذه.

ملحق رقم (٧)

■ لقاء عبد الناصر وبعثة "منزيس"

.... ثم جاءت لحظة الحقيقة والصدام فى الجلسة الثالثة، فقد تطرق الحديث إلى فكرة تدويل القناة بقصد فصلها عن سياسة أى دولة واحدة، وقال "عبد الناصر": "إن فصل القناة عن السياسة المصرية غير ممكن لأن القناة فى أرض مصر وخاضعة للحكومة المصرية منذ إنشائها ولا يمكن أن نفصلها عن سياسة الدولة التى تملكها إلا إذا فصلناها عن سيادة هذه الدولة، ثم لماذا لم يثر هذا الموضوع قبل الآن ولماذا لم يثر أيام وجود شركة قناة السويس مع أن القناة لم تكن خاضعة لسيادة هذه الشركة؟

وعقب "منزيس" بقوله إن "الغرض هو إزالة التوتر الحادث فعلا وهذه حقيقة واقعة ولذلك يجب إيجاد حل له"، ورد عليه "عبد الناصر" "إن إيجاد حل رغم إرادة الشعب المصرى غير عملى، ولذلك فإن المشاكل ستبدأ فعلا إذا فرضنا هذا الحل على الشعب المصرى"، ومال "منزيس" على المكتب الذى كان يجلس أمامه فى مواجهة الرئيس "عبد الناصر" وركز نظره عليه وقال: "إن عدم الوصول إلى اتفاق هو الذى سيكون بداية المشاكل".

كانت نبرة التهديد واضحة، ومد "جمال عبد الناصر" يده فأغلق ملفا كان مفتوحا أمامه وقال لـ"منزيس": "إذا قبلت وجهة نظركم فسوف تبدأ المشاكل من الشعب المصرى، وإذا لم أقبلها فسوف تبدأ المشاكل من جانبكم، وهكذا يظهر لى أننا سنواجه مشاكل فى كل الأحوال، وإذا كان ذلك كذلك فلنواجهها من الآن ونحن مستعدون لمواجهتها. إننى قبلت التحدث معكم فى مفاوضات حرة فإذا أحسست بالتهديد فإن واجبى يحتم على "أن أطلب وقفها". وتكهرب جو الاجتماع، وحاول

"منزيس" أن يوضح أنه لم يقصد أى تهديد، وتبارى بقية أعضاء البعثة، كل منهم ينأى بنفسه عن مظنة أى تهديد.

[عن نص محضر الجلسة الثالثة من اجتماعات بعثة منزيس.

المصدر: ملفات السويس: حرب الثلاثين سنة. محمد حسنين هيكل - مركز الأهرام للترجمة والنشر - الطبعة الأولى ١٩٨٦ - ص٥٠٠، ٥٠١]

مـلـحق رقم (٨)

■تعليق الرئيس عبد الناصر على تهديد الرئيس الأمريكى "چونسون" بوقف المعونة الاقتصادية

• دى سياستنا.. سياسة مستقلة، واحنا بنقول إن احنا أما بنتعامل مع دول العالم بنتعامل معاها على أساس إن ما حدش يتدخل فى شئوننا، ولكن إذا كانوا الأمريكان بيفهموا أنهم بيدونا شوية معونة علشان ييجوا يتحكموا فينا ويتحكموا فى سياستنا، أنا باقول لهم احنا متأسفين، إحنا مستعدين ننزل الشاى شوية، بنقلل من استهلاكنا فى الشاى، بنقلل من استهلاكنا فى البن، وبنقلل من استهلاكنا فى بعض حاجات ونحافظ على استقلالنا، وإلا نضيع استقلالنا خالص يبقى معركة سنة ٥٦ ما فيهاش أى فايدة. ليه أنا باقول احنا بناخد من الأمريكان قمح، لازم نعرف المواضيع بالمفتوح، قمح، ولحمة، وفراخ، ما بناخدش مصانع، والله أبداً يعنى ما بيدوناش مصانع، بيدونا بحوالى ٥٠ مليون جنيه فى السنة، احنا ميزانيتنا فى السنة ١١٠٠ مليون جنيه، بنصرف على الخطة حوالى ٤٠٠ مليون جنيه أو ٥٠٠ مليون جنيه؛ إذا دعى الأمر إن احنا نوفر الـ٥٠ مليون جنيه بنوفرها على الجزمة، ولا بتهمنا والله العظيم.

ليه أنا باقول هذا الكلام؟ أنا باقول هذا الكلام النهارده بمناسبة ان امبارح السفير الأمريكى قابل نائب رئيس الوزارة للتموين وراح عنده مقموص وزعلان وقعد عنده دقيقتين، وكان مفروض حيكلمه على التموين - المواد التموينية اللى احنا بنجيبها من أمريكا حسب قانون الحاصلات - وقال له والله إن أنا ما باقدرش أتكلم أبداً دلوقت فى هذا الموضوع.. ليه؟ لأن سلوكنا يعنى - احنا - هنا فى مصر مش عاجبهم. أنا باقول له هنا اللى سلوكنا مش عاجبه يشرب.. يشرب منين؟ (وترد الجماهير من البحر) يشرب من البحر وإن ماكفهوش.. وقلت هنا اللى ما يكفيهوش البحر الأبيض بندى له البحر الأحمر يشربه كمان!

اللى أنا بدى أقوله ان احنا لا يمكن نبيع استقلالنا علشان ٣٠ مليون جنيه واللا ٤٠ مليون واللا ٥٠ مليون جنيه، إن احنا مش مستعدين نقبل من واحد أى كلمة، اللى بيكلمنا أى كلمة بنقطع له لسانه؛ كده كلام واضح وكلام صريح، إذا كنا النهارده بنشرب شاى ٧ أيام نشرب ٥ أيام لغاية ما نبنى بلدنا، إذا كنا بنشرب قهوة ٧ أيام نشرب ٤ أيام، إذا كنا بناكل لحمة ٤ أيام ناكل لحمة ٣ أيام.

اللى أنا بدى أقوله إن طبعًا مناسبة هذا الكلام فى الوقت اللى بيقولوا إن احنا عندنا أزمة تموين وعندنا كذا وعندنا كذا إن دل على شيء فيدل على إنه طريقة من طرق الضغط، إحنا متأسفين ما بنقبلش الضغط، وما بنقبلش الكلام السخيف، وما نقبلش الرذالة أبدًا، واحنا ناس خلقنا ضيق، خلقتنا كده وطبيعتنا كده. (هتاف من الجماهير ناصر.. ناصر.. ناصر...).

....

....

- إذن المعونة الأمريكية زى ما قال السفير امبارح إنهم هم مش مستعدين يتكلموا، بنقول لهم والله متشكرين وكتر خيركم، لكن احنا مش مستعدين نقبل كلام ولا نقبل أنزحة احنا بنقدر نوفر الـ٥٠ مليون جنيه، وبنقدر يكون عندنا كفاية ذاتية، والشعب المصرى بيستطيع أنه يصبر ويكافح. نذكر فى سنة ٥٦ ماكانش عندنا أدوية وما ادوناش فلوس علشان الأدوية، تفتكروا فى سنة ٥٦ ماكانش عندنا قمح كان عندنا احتياطى ١٥ يوم ووقفوا توريد القمح، ما بننساش احنا الأيام دى، وأنا أذكر أن الاتحاد السوفيتى فى سنة ٥٦ - وأنا بعت جواب فى هذا الوقت - بعت لنا قمح قبل ما يخلص الـ١٥ يوم اللى موجود عندنا.

(**المصدر**: خطاب الرئيس عبد الناصر فى بورسعيد فى ٢٣ ديسمبر ٦٤ احتفالا بعيد النصر)

ملـــحق رقم (٩)

■ استراتيچية الأمن القومى للولايات المتحدة الأميريكية

نص التقرير الذى وجهه الرئيس بوش إلى الكونجرس فى ٢٠ أيلول/ سبتمبر، ٢٠٠٢

واشنطن ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر – فى ما يلى نص تقرير استراتيچية الأمن القومى للولايات المتحدة الذى كان الرئيس بوش قد بعث به إلى الكونجرس فى ٢٠ أيلول/ سبتمبر الماضى.

المحتويات

المقدمة

١- نظرة إجمالية حول الاستراتيچية الدولية للولايات المتحدة.

٢- مناصرة الطموحات إلى الكرامة الإنسانية.

٣- تقوية التحالفات لدحر الإرهاب العالمى والعمل لمنع الاعتداءات علينا وعلى أصدقائنا.

٤- العمل مع الآخرين لنزع فتيل النزاعات الإقليمية.

٥- منع أعدائنا من تهديدنا وتهديد حلفائنا وأصدقائنا بأسلحة الدمار الشامل.

٦- إطلاق حقبة جديدة من النمو الاقتصادى العالمى عبر الأسواق الحرة والتجارة الحرة.

٧- توسيع دائرة التطور الاقتصادى من خلال انفتاح المجتمعات وإنشاء البنى التحتية للديمقراطية.

٨- تطوير برامج عمل للتعاون مع المراكز الرئيسية الأخرى للقوى العالمية.

٩- تحويل مؤسسات الأمن القومى الأمريكى لمواجهة التحديات والفرص المتاحة فى القرن الواحد والعشرين.

المقدمة

انتهت الصراعات الكبرى للقرن العشرين بين الحرية والدكتاتورية بانتصار حاسم لقوى الحرية – وبقيام نموذج واحد للنجاح القومى قابل للاستدامة: الحرية، والديمقراطية، والأعمال الحرة. فى القرن الواحد والعشرين، سوف لن تتمكن إلاّ الدول التى تشارك فى الالتزام بحماية حقوق الإنسان الأساسية، وضمان الحرية السياسية والاقتصادية من إطلاق قدرات شعوبها وتأمين رخائها فى المستقبل. يتوق الناس فى كل مكان إلى حرية الكلام والتعبير، واختيار من سيحكمهم، وحرية العبادة، وتعليم أولادهم – ذكوراً وإناثاً، وتأمين الملكية الخاصة، والاستفادة من جهدهم. هذه القيم صحيحة وصادقة بالنسبة لكل إنسان وفى كل مجتمع، ويمثل واجب الدفاع عن هذه القيم ضد أعدائها هدفاً مشتركاً للشعوب المحبة للحرية عبر العالم وعبر العصور.

واليوم، تتمتع الولايات المتحدة الأمريكية بامتلاك قوة عسكرية لا نظير لها وبنفوذ اقتصادى وسياسى عظيمين. وانسجاماً مع ما يمليه علينا تراثنا ومبادئنا، لا نستخدم قوتنا للضغط باتجاه تأمين أفضلية أحادية. نسعى بدلاً من ذلك إلى خلق توازن قوى يساند الحرية الإنسانية: الظروف التى تتمكن فى ظلها جميع الدول والمجتمعات من اختيار المكافآت والتحديات التى تطرحها الحرية السياسية والاقتصادية. ففى عالم آمن، يستطيع الناس جعل حياتهم أفضل. سوف ندافع عن السلام من خلال محاربة الإرهابيين والطغاة. سوف نحافظ على السلام من خلال إقامة علاقات جيدة بين الدول الكبرى. سوف نوسع أفق السلام من خلال تشجيع المجتمعات الحرة والمنفتحة فى كل قارة.

إن الدفاع عن بلادنا ضد أعدائها هو الالتزام الأول والأساسى للحكومة الفيدرالية. واليوم تغيرت هذه المهمة بدرجة كبيرة. كان الأعداء فى الماضى يحتاجون إلى جيوش جرارة وقدرات صناعية هائلة للتمكن من تهديد أمن الولايات المتحدة، أما

الآن فتستطيع شبكات متسترة من الأفراد الزج بالفوضى والألم عبر شواطئ بلدنا بثمن يقل عن ثمن شراء دبابة واحدة، فقد أمسى الإرهابيون منظمين للتغلغل فى المجتمعات المنفتحة واستغلال التكنولوچيات العصرية ضدنا.

بغية دحر هذا التهديد، علينا استخدام كل أداة متوفرة فى ترسانتنا - القوة العسكرية، وأنظمة دفاعية أفضل لوطننا، وفرض تطبيق القوانين، والاستخبارات، وجهود نشطة لقطع التمويل المالى عن الإرهابيين. إن الحرب ضد الإرهابيين الذين يملكون قدرات عالية هو مشروع، على مستوى مجمل، عالمى شامل ولا حدود زمنية له. سوف تساعد الولايات المتحدة الدول التى تحتاج إلى مساعدتنا فى محاربة الإرهاب. وسوف تحاسب الولايات المتحدة الدول التى تتورط فى الإرهاب، بضمنها تلك التى تمنح ملاذًا آمنًا للإرهابيين - لأن حلفاء الإرهاب هم أعداء الحضارة. يجب أن لا تسمح الولايات المتحدة ولا الدول المتعاونة معنا للإرهابيين بتطوير قواعد انطلاق جديدة. سوف نسعى معًا لحرمانهم من الملاذ الآمن فى كل حالة (من كل ناحية).

يكمن الخطر الأعظم الذى تواجهه أمتنا عند مفترقى طرق الراديكالية والتكنولوجيا. لقد صرح أعداؤنا بصورة علنية أنهم يسعون لامتلاك أسلحة الدمار الشامل، وتشير الدلائل إلى أنهم يسعون لذلك بتصميم أكيد. لن تسمح الولايات المتحدة بنجاح هذه الجهود. سوف نبنى دفاعات ضد الصواريخ البالستية وغيرها من وسائل إطلاقها. سوف نتعاون مع دول أخرى لحرمان، واحتواء، وتقليص جهود أعدائنا فى الحصول على تكنولوچيات خطيرة. وبحكم البديهة السليمة والحاجة للدفاع عن النفس، سوف تعمل الولايات المتحدة ضد أى تهديدات ناشئة كهذه قبل أن تتبلور فى شكلها الكامل. لن نستطيع الدفاع عن الولايات المتحدة وعن أصدقائنا من خلال الأمل بأن الأفضل سوف يحصل؛ ولهذا علينا أن نكون مستعدين لدحر خطط أعدائنا باستخدام أفضل أنظمة الاستخبارات والعمل بتروٍ. سوف يحاكم التاريخ بقسوة أولئك الذين يرون هذا الخطر الداهم ولا يعملون شيئًا. إن مسار العمل فى هذا العالم الجديد الذى ولجناه هو المسار الوحيد المؤدى إلى السلام والأمن.

وفى حين ندافع عن السلام، سوف نستغل أيضًا الفرصة التاريخية السانحة للمحافظة على ذلك السلام. فاليوم، تتوفر للمجتمع الدولى أفضل فرصة منذ نشوء نظام الدولة القومية فى القرن السابع عشر لبناء عالم تتنافس فيه الدول العظمى بسلام بدلاً من الاستعداد المتواصل للحرب. واليوم، تجد جميع القوى العظمى فى العالم أننا نقف فى نفس الخط - توحدنا الأخطار المشتركة للعنف الإرهابى والفوضى الإرهابية. سوف تبنى الولايات المتحدة على هذه المصالح المشتركة لتعزيز الأمن العالمى. كما توحدنا أيضا وبشكل متزايد القيم المشتركة. تجرى فى روسيا عملية تحول مأمول تهدف للوصول إلى مستقبل ديمقراطى ولتصبح شريكة فى الحرب على الإرهاب. ويكتشف الزعماء الصينيون أن الحرية الاقتصادية هى المصدر الوحيد للثروة القومية. وبمرور الزمن، سوف يجدون أن الحرية الاجتماعية والسياسية هى المنبع الوحيد لولوج العظمة القومية. سوف تشجع الولايات المتحدة تقدم الديمقراطية والانفتاح الاقتصادى فى هاتين الدولتين لأن هذين المبدأين هما أفضل الأسس للاستقرار الداخلى والتنظيم والانتظام الدولى. سوف نقاوم بقوة عدوان دول كبرى أخرى - بينما نستمر فى الترحيب بسعيها السلمى لتحقيق الازدهار، والتقدم التجارى والثقافى.

وأخيراً، سوف تستغل الولايات المتحدة هذه الفرصة لنشر فوائد الحرية عبر العالم. سوف نعمل بنشاط لإدخال الأمل بمبادئ الديمقراطية، والتطور الاقتصادى، والأسواق الحرة، والتجارة الحرة إلى كل ركن من أركان العالم. لقد علمتنا أحداث ١١ أيلول / سبتمبر أن بمقدور الدول الضعيفة، مثل أفغانستان، أن تشكل خطراً عظيماً على مصالحنا القومية مثلها مثل الدول القوية. لا يصنع الفقر من الفقراء إرهابيين وقتلة. إلاّ أن الفقر، والمؤسسات الضعيفة، والفساد يمكنها أن تعرض دولاً ضعيفة لأخطار قيام شبكات إرهابية، وكارتيلات للمخدرات تعمل ضمن حدودها القومية.

سوف تقف الولايات المتحدة بجانب أى دولة تصمم على بناء مستقبل أفضل من خلال السعى للحصول على مكافآت الحرية لشعبها. لقد أثبتت التجارة الحرة

والأسواق الحرة قدرتها على انتشال مجتمعات بكاملها من حالة الفقر – ولهذا سوف تعمل الولايات المتحدة مع دول بمفردها، ومع مناطق بأكملها، ومع المجتمع التجارى العالمى كله لبناء عالم يمارس التجارة بحرية وبالتالى ينمو فى ازدهار. سوف تقدم الولايات المتحدة مساعدات إنمائية أكبر عبر "حساب تحدى الألفية الجديدة" إلى دول تحكم بالعدل، وتستثمر فى قدرات شعوبها، وتشجع الحرية الاقتصادية. سوف نستمر فى قيادة العالم فى جهود تهدف إلى خفض الثمن المخيف لوباء الإيدز وغيره من الأمراض المعدية.

سوف تسترشد الولايات المتحدة، خلال بنائها لتوازن قوى يساند الحرية، بإيمانها الراسخ بأن هناك مسئوليات مهمة تقع على عاتق جميع الدول. على الدول التى تنعم بالحرية أن تعمل بنشاط فى مكافحة الإرهاب. على الدول التى تعتمد على الاستقرار الدولى أن تساعد فى منع انتشار أسلحة الدمار الشامل. على الدول التى تسعى للحصول على مساعدات دولية أن تحكم نفسها بحكمة كى يتم إنفاق هذه المساعدات بشكل سليم. ولكى تزدهر الحرية، علينا توقّع مبدأ المحاسبة وفرضه.

نسترشد أيضًا بالقناعة القائمة على أن ما من دولة يمكنها بناء عالم أفضل وأكثر أمانًا بمفردها؛ فالأحلاف والمؤسسات المتعددة الأطراف يمكنها مضاعفة قوة الدول المحبة للحرية. تلتزم الولايات المتحدة بدعم مؤسسات ثابتة مثل الأمم المتحدة، ومنظمة التجارة العالمية، ومنظمة الدول الأمريكية، والحلف الأطلسى وغيرها من التحالفات القائمة منذ زمن طويل. إن الائتلافات بين الراغبين بذلك يمكنها أن تزيد من هذه المؤسسات الدائمة. وفى جميع الحالات، يجب أخذ الواجبات الدولية بصورة جدية. لا يجب التعهد بتنفيذها رمزيًا بغية جمع التأييد لمثل أعلى ثم عدم العمل على تحقيقه.

الحرية هى مطلب الكرامة الإنسانية غير القابل للتفاوض؛ إنه حق مكتسب لكل إنسان، فى كل حضارة. عبر التاريخ، هددت الحروب ثم الإرهاب استمرار الحرية؛ وتم تحدى وجودها بتصادم الإرادات للدول القوية والخطط الشريرة للطغاة، وجرى اختبار

قوتها تجاه الفقر والمرض المنتشر. واليوم، تملك الإنسانية بين يديها الفرصة لتعزيز انتصار الحرية على كل هؤلاء الأعداء. الولايات المتحدة ترحب بمسئوليتها لإدارة هذه المهمة العظيمة.

چورج دبليو بوش – البيت الأبيض،

١٧ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٢

المصدر: موقع وزارة الخارجية الأمريكية على شبكة المعلومات الدولية.

ملحق رقم (١٠)

■ مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط
ديسمبر ٢٠٠٢

أعلن وزير الخارجية كولن باول فى خطاب رئيسى ألقاه فى مؤسسة التراث بواشنطن العاصمة يوم ١٢ ديسمبر ما يسمى بمبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط، وأوضح أن هذه المبادرة تتوخى تشجيع المشاركة الشعبية فى العملية السياسية ومساعدة المؤسسات التعليمية والتربوية فى سائر أرجاء الشرق الأوسط ومكافحة الأمية ومؤازرة حقوق المرأة ودعم القطاعين العام والخاص فى العالم العربى على تحقيق الإصلاحات الاقتصادية والاستثمار، فضلا عن دفع عجلة التفاهم والشراكة بين شعب الولايات المتحدة والشعوب العربية.

["شكرا جزيلا، يا إيد لتلك المقدمة الحارة. شكرا لك ولمؤسسة التراث لدعوتى إلى هنا لكى أناقش الآمال والتطلعات التى نتقاسمها مع شعوب الشرق الأوسط".

وأود أيضا أن أرحب بضيوفنا الممتازين الآخرين من السلك الدبلوماسى، والعاملين فى الكونجرس، والمنظمات غير الحكومية، والقطاع الخاص. شكرا لكم لتخصيصكم الوقت للمجىء اليوم؛ وإنه لمن المناسب أن نجتمع فى مؤسسة التراث؛ ذلك أن رؤيا المؤسسة ببناء وطن "تزدهر فيه الحرية والفرص والرخاء والمجتمع المدنى"، هى نفس الرؤيا التى نتقاسمها مع شعوب الشرق الأوسط لبلدانها. الشرق الأوسط منطقة شاسعة فائقة الأهمية للشعب الأمريكى.

فالملايين منا يتعبدون فى كنائس ومساجد ومعابد يهودية، مبشرين بالديانات العظيمة الثلاث التى ولدت فى الأراضى الممتدة بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسى. ولغتنا وتقاليدنا حافلة بإشارات إلى بيت المقدس وبيت لحم ومكة المكرمة. ودليل الهاتف لدينا يحمل تلك الأسماء أمثال موساقى وليقى، وشاهين التى تتحدث عن

جذور عائلات عريقة فى الشرق الأوسط. ومزارعونا يزرعون القمح، وعمالنا يصنعون طائرات وأجهزة كمبيوتر ومنتجات أخرى عديدة نبيعها لدول المنطقة، بينما الأموال تتدفق من مستثمرين فى الشرق الأوسط إلى بلدنا.

ومن المفجع أن آلافا من رجالنا ونسائنا ماتوا فى ١١ أيلول/ سبتمبر، ٢٠٠١، على أيدى إرهابيين ولدوا وأصبحوا راديكاليين هناك. واعترافا منا بأهمية المنطقة، كرّسنا دمنا ومالنا لمساعدة شعوب وحكومات الشرق الأوسط على مدى نصف قرن من الزمن وأكثر.

والحقيقة، أن سيرتى فى الخدمة العامة صاغتها الأحداث هناك؛ فقد كان لى امتياز أن أكون رئيس هيئة الأركان المشتركة عندما قادت الولايات المتحدة التحالف الدولى، بما فيه عدد كبير من الدول العربية، الذى أخرج الغزاة العراقيين من الكويت. واليوم، كوزير للخارجية، يتطلب الشرق الأوسط قدرا عظيما من اهتمامى. وقد شددت سياستنا الشرق أوسطية كحكومة، على كسب الحرب ضد الإرهاب، وتجريد العراق من الأسلحة، وإنهاء النزاع بين إسرائيل والفلسطينيين.

والحرب على الإرهاب لا تقتصر على الشرق الأوسط، طبعا، غير أن أصدقاءنا هناك لهم مصلحة مهمة بها بوجه خاص. فقد عانى كثيرون من بلاء الإرهاب مباشرة. ويسرنى أن أصدقاءنا سارعوا لمواجهة التحدى بأن منحوا حقوق إنشاء قواعد لعملية "الحرية المستديمة" فى أفغانستان، ومبادلتهم المعلومات الاستخباراتية المتعلقة بتنفيذ القانون، واعتقالهم إرهابيين مشتبها بهم، وفرضهم قيودا على التمويل الإرهابى.

وعلينا أيضا، مع دول الشرق الأوسط، ومع أصدقائنا وحلفائنا، ومجتمع الدول، أن نعالج أيضا الخطر الجسيم والمتنامى الذى يشكله نظام "صدام حسين" العراقى. وقد أعطى مجلس الأمن الدولى، بموافقته الاجماعية على القرار ١٤٤١، العراق فرصة أخيرة للوفاء بالتزاماته؛ فالنظام العراقى يمكنه إما أن ينزع أسلحته، أو أنه سيجرّد منها. الخيار خيارهم، لكنه لا يمكن أن يؤجل بعد الآن.

ولدينا أيضا اهتمام قومى عميق وثابت بإنهاء النزاع الإسرائيلى الفلسطينى، ونحن نعمل مع أصدقائنا فى المنطقة ومع المجتمع الدولى، لتحقيق سلام دائم يرتكز على رؤيا الرئيس بوش لدولتين تعيشان جنبا إلى جنب، فى سلام وأمن. وهذا السلام سيتطلب من الفلسطينيين قيادة جديدة ومختلفة، ومؤسسات جديدة، ونهاية للإرهاب والعنف. وإذ يحقق الفلسطينيون تقدما فى هذا الاتجاه، سيكون مطلوبا من إسرائيل أيضا أن تجرى خيارات صعبة، بما فيها إنهاء جميع أوجه النشاط المتعلق بالاستيطان، بصورة تتمشى مع تقرير ميتشل.

وكما قال الرئيس "بوش"، إنه بجهد مكثف من قبل الجميع، سيكون إيجاد دولة فلسطينية قابلة للحياة أمرا ممكنا فى عام ٢٠٠٥، إن هدفنا النهائى هو تسوية عادلة وشاملة عربية - إسرائيلية، تكون فيها جميع شعوب المنطقة مقبولة كجيران، تعيش فى سلام وأمن. وقد كانت هذه التحديات ولا تزال فى مقدمة سياسة الولايات المتحدة الشرق أوسطية، ولسبب وجيه. فكل منها يؤثر تأثيرا عميقا فى مصالحنا القومية، وفى مصالح الشعوب التى تعتبر الشرق الأوسط وطنا لها. ونحن ما زلنا ملتزمين التزاما عميقا بمواجهة كل واحد من هذه التحديات بهمة وعزم وتصميم.

وفى الوقت نفسه أصبح واضحا بصورة متزايدة أنه يجب علينا أن نوسع تعاطينا مع المنطقة إذا كان لنا أن نحقق نجاحا. وعلينا خصوصا أن نوجه اهتماما متواصلا ونشيطا إلى الإصلاح الاقتصادى، والسياسى، والتعليمى. وعلينا أن نعمل مع شعوب وحكومات لسد الفجوة بين التوقع والواقع، التى دعتها الملكة رانيا ملكة الأردن بصورة بليغة، "فجوة الأمل". وقد أوجد انتشار الديمقراطية والأسواق الحرة، التى ألهبتها عجائب الثورة التكنولوجية، قوة محركة تستطيع أن تولد ازدهارا ورفاهياً إنسانيا على نطاق لم يسبق له مثيل. إلا أن هذه الثورة خلفت الشرق الأوسط وراءها إلى حد كبير.

لقد قدمت دول الشرق الأوسط على مدى التاريخ، مساهمات لا تقدر بثمن للعلوم والفنون. لكن اليوم، توجد شعوب كثيرة هناك تفتقر إلى ذات الحرية السياسية

والاقتصادية، وفاعلية المرأة، والتعليم الحديث التى تحتاج إليها لكى تزدهر فى القرن الـ٢١. وكما جاء فى تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٢، الذى وضعه أساتذة عرب بارزون وأصدرته الأمم المتحدة، فإن سكان المنطقة يواجهون خيارا أساسيا – بين "كسل وجمود... (و) نهضة عربية تبنى مستقبلا زاهرا لجميع العرب".

هذه ليست كلماتى. إنها كلمات خبراء عرب نظروا بعمق إلى القضايا. وهى تستند إلى الحقائق الصارخة. إن حوالى ١٤ مليون راشد عربى يفتقرون إلى وظائف هم بحاجة إليها لوضع طعام على موائدهم، وسقوف فوق رءوسهم، وأمل فى قلوبهم. وسيدخل زهاء ٥٠ مليون عربى آخر من الشبان والشابات سوق الوظائف المزدحم أصلا خلال الأعوام الثمانية القادمة.

إلا أن الاقتصاديات لا تولد ما يكفى من الوظائف؛ فالنمو ضعيف، والناتج المحلى الإجمالى لـ٢٦٠ مليون عربى هو أقل من ذاك الذى لأربعين مليون إسبانى، كما أنه آخذ فى التدهور حتى أكثر من ذلك. أضيفوا إلى ذلك إنتاج الـ٦٧ مليون إيرانى والنتيجة تبقى مجرد ثلثى الناتج الإيطالى.

داخليا، كثير من الاقتصاديات تخنقها التنظيمات والمحسوبيات، وتنغلق فى وجه مغامرات فى التجارة والأعمال، وفى وجه استثمار وتجارة. ودول الشرق الأوسط غائبة أيضا إلى حد كبير عن الأسواق العالمية. إنها بالكاد تولّد ١٪ من صادرات العالم غير النفطية، وهناك عشر دول شرق أوسطية فقط تنتمى إلى منظمة التجارة العالمية. وكما حذر الرئيس المصرى "حسنى مبارك"، "إعطاء دعم للصادرات هو قضية حياة أو موت".

إن العجز فى الفرص الاقتصادية هو تذكرة إلى اليأس. وهو، إضافة إلى الأنظمة السياسية المتصلبة، خميرة خطرة حقا. وإلى جانب اقتصاديات أكثر تحررا، يحتاج كثير من شعوب الشرق الأوسط إلى صوت سياسى أقوى. إننا نرفض الفكرة المتعالية القائلة إن الحرية لن تنمو فى الشرق الأوسط، أو إن هناك أى منطقة فى العالم لا تستطيع أن تحتمل الديمقراطية. وقد جسد الرئيس "بوش" تطلعات الشعوب

فى كل مكان عندما قال فى خطابه فى "وست پوينت"، إنه عندما يتعلق الأمر بالحقوق والحاجات المشتركة للرجال والنساء، ليس هناك تصادم حضارات. فمتطلبات الحرية تنطبق كليا على إفريقيا وأمريكا اللاتينية وكامل العالم الإسلامى". وإذا أعطيت الشعوب خيارا بين الطغيان والحرية، فإنها تختار الحرية. علينا فقط أن ننظر إلى شوارع كابول المزدحمة بأشخاص يحتفلون بانتهاء حكم طالبان فى العام الماضى. وهناك بصيص أمل فى الشرق الأوسط أيضا؛ فدول أمثال البحرين، وقطر، والمغرب قامت بإصلاحات سياسية جريئة. والمنظمات المدنية ناشطة بصورة متزايدة فى كثير من الدول العربية، تعمل فى قضايا تتعلق بالخبز والزبد مثل تأمين بطاقات هوية للنساء توجد حاجة ماسة إليها.

ونحن نرى أيضا ثورة عارمة فى وسائل الإعلام، من محطات التلفزيون الفضائية إلى مجلات أسبوعية صغيرة الحجم. وعلى الرغم من أن البعض منها لم يرق بعد إلى مستوى مسئولياته للقيام بتغطية مسئولة وتقديم معلومات واقعية، فإنه يجعل المعلومات فى متناول أعداد من السكان أكثر من أى وقت مضى. ومع ذلك، ما زالت تحكم كثيرا من الشرق الأوسط أنظمة سياسة مغلقة. وكثير من الحكومات يكافح مؤسسات المجتمع المدنى باعتبارها تهديدا، بدلا من أن يرحب بها كأساس لمجتمع حر، ديناميكى، ومبشر بالأمل. ناهيك عن أن لغة الكراهية والاستبعاد والتحريض على العنف لا تزال هى اللغة السائدة.

وكما قال الملك "محمد" عاهل المغرب لبرلمان بلده قبل سنتين، إنه "لتحقيق التنمية، والديمقراطية، والتحديث، من الضرورى تحسين وتقوية الأحزاب السياسية، والنقابات العمالية، والجمعيات، ووسائل الإعلام وتوسيع مدى المشاركة".

وأخيرا، إن عددا كبيرا من أطفال المنطقة يفتقر إلى المعرفة ليستفيد من عالم من الحرية الاقتصادية والسياسية. فعشرة ملايين طالب فى سن الدراسة هم إما فى المنازل، أو يعملون، أو فى الشوارع بدلا من أن يكونوا فى صفوفهم المدرسية. وحوالى ٦٥مليونًا من آبائهم لا يحسنون القراءة أو الكتابة، دع عنك مساعدتهم فى دروسهم.

وبالكاد يستطيع شخص واحد من كل مائة الوصول إلى كمبيوتر، ومن أولئك النصف فقط يستطيع الوصول إلى العالم الأوسع عبر الإنترنت. وحتى عندما يذهب الأطفال فعلا إلى المدرسة، غالبا ما يتعذر عليهم تعلم المهارات التى يحتاجون إليها لكى ينجحوا فى القرن الـ٢١ "التعليم" غالبا ما يعنى الاستظهار من غير فهم بدلا من التفكير الخلاق الحيوى الضرورى للنجاح فى عالمنا المتصف بالعولمة. وقد وجد واضعو تقرير التنمية العربية أن "التعليم أخذ يفقد دوره الهام كوسيلة لتحقيق تنمية اجتماعية فى الدول العربية، متحولا عوضا عن ذلك إلى وسيلة لاستدامة الفقر والطبقات الاجتماعية"، وتلك إدانة دامغة ودعوة للعمل. وهناك موضوع دائم يبرز من خلال هذه التحديات، ألا وهو تهميش المرأة فى كثير من دول الشرق الأوسط، فأكثر من نصف نساء العالم العربى هن أميات، ويعانين أكثر من جراء البطالة والافتقار إلى فرص اقتصادية. وتشكل النساء أيضا نسبة من أعضاء البرلمانات فى العالم العربى أصغر منها فى أى منطقة أخرى فى العالم.

وإلى أن تطلق دول الشرق الأوسط العنان لقدرات نساءهن، لن تبنى مستقبلا من الأمل. إن أى معالجة للشرق الأوسط تتجاهل تخلفه السياسى والاقتصادى والتعليمى ستكون مبنية على رمال.

سيداتى، سادتى، حان الوقت لوضع أساس متين من الأمل. إننى أعلن اليوم مبادرة تضع الولايات المتحدة بثبات فى جانب تغيير، وإصلاح، ومستقبل حديث للشرق الأوسط.

خلال زيارة الرئيس "مبارك" لواشنطن فى آذار/ مارس الماضى، طلب منى الرئيس بوش أن أتولى رئاسة جهد جديد للحكومة الأمريكية لدعم شعوب وحكومات الشرق الأوسط فى جهودها لمواجهة هذه التحديات الإنسانية الملحة.

ويسرنى أن أعلن النتائج الأولية لعملنا - مجموعة مبتكرة من البرامج وإطار لتعاون مستقبلى نسميها مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط. إن مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط هى جسر بين الولايات المتحدة

والشرق الأوسط، بين حكومتينا وشعبينا، يسد فجوة الأمل بالطاقة والأفكار والأموال. ومبادرة شراكتنا هى استمرار، وتصعيد لالتزامنا القائم منذ زمن طويل بالعمل مع جميع شعوب الشرق الأوسط لتحسين حياتها اليومية ومواجهة المستقبل بأمل. وكما أن قرارنا إعادة الانتساب إلى اليونسكو هو رمز على التزامنا بتعزيز حقوق الإنسان والتسامح والتعلم، فإن هذه المبادرة هى دليل قوى على التزامنا بكرامة الإنسان فى الشرق الأوسط، إننا سنخصص بصورة أولية مبلغ ٢٩مليون دولار لجعل هذه المبادرة تنطلق بقوة، وسنعمل مع الكونجرس للحصول على تمويل جوهرى إضافى للعام القادم. وهذه الأموال ستكون زيادة على الأكثر من مبلغ الألف مليون دولار الذى نقدمه كمساعدة اقتصادية للعالم العربى كل عام.

وتستند مبادرتنا إلى ثلاث ركائز:

إننا سنشترك مع مجموعات من القطاعين الخاص والعام لسد فجوات الوظائف بإصلاح اقتصادى، واستثمار للأعمال، وتنمية القطا ع الخاص. وسنشترك مع قادة المجتمع لسد فجوة الحرية بمشاريع لتقوية المجتمع المدنى، وتوسيع المشاركة السياسية، ورفع أصوات النساء. وسنعمل مع المربين لسد فجوة المعرفة بمدارس أفضل ومزيد من الفرص للتعليم العالى.

سيداتى، سادتى، الأمل يبدأ براتب عمل. وذلك يتطلب اقتصادا مليئا بالحيوية والنشاط. وعن طريق مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط، سنعمل مع حكومات لإنشاء أحكام وأنظمة اقتصادية ستجتذب الاستثمار الأجنبى وتتيح للقطا ع الخاص أن يزدهر. وسنساعد شركات الأعمال الصغيرة والمتوسطة على تحقيق وصول إلى الرأسمال الذى هو قوام الحياة. وكخطوة أولى، يسرنى أن أعلن أننا سننشئ صناديق أموال للمشاريع فى الشرق الأوسط، على غرار المشاريع البولندية - الأمريكية الناجحة، للبدء فى الاستثمار فورا فى أعمال جديدة واعدة. وسنساعد أيضا مزيدا من الدول على المشاركة فى رخاء الاقتصاد العالمى؛ وذلك يعنى تقديم مساعدة فنية إلى الدول الأعضاء الطموحة فى منظمة التجارة العالمية كالمملكة

العربية السعودية، والجزائر، ولبنان، واليمن، لتلبية معايير منظمة التجارة العالمية. وهو يعنى البناء على اتفاقنا الناجح للتجارة الحرة مع الأردن بالبدء بمفاوضات اتفاق تجارة حرة مع المغرب. وهو يعنى الاستمرار فى العمل مع دول كمصر والبحرين لاستكشاف طرق لتعزيز علاقتنا الثنائية من التجارة الاقتصادية، بما فى ذلك عبر اتفاقات تجارة حرة ممكنة. وتتطلب الاقتصادات المنفتحة أنظمة سياسية منفتحة. وعليه فإن الركيزة الثانية لمبادرتنا من الشراكة ستدعم المواطنين عبر المنطقة الذين يطالبون بأصواتهم السياسية.

وقد بدأنا المشروع الاختبارى الأول فى هذا المجال الشهر الماضى، عندما أحضرنا وفدا من ٥٥ زعيمة سياسية عربية إلى الولايات المتحدة لمشاهدة انتخاباتنا النصفية. وقد عقدت اجتماعا عظيما جدا مع هذه المجموعة الرائعة، وكان التزامها وطاقتها مصدر إلهام لى. وقد وجهت إلىَّ أسئلة صعبة، وناقشنا القضايا كما يفعل الناس فى مجتمعات حرة. وقد تحدث هؤلاء النساء إلىَّ ببلاغة عن قلقهن بالنسبة إلى المستقبل وأحلامهن بعالم حيث يمكن لأطفالهن أن يعيشوا فى سلام. وحدثننى عن أملهن بأن يرين نهاية للنزاعات التى تشل منطقتهن، وتحدثن إلىَّ كيف يردن أن يتحكمن بحياتهن ومصائرهن، وطلبن أن يعرفن المزيد عن الديمقراطية الأمريكية، وكيف يجعلن أصواتهن أكثر فعالية.

وتتطلب زيادة المشاركة السياسية أيضا تقوية المؤسسات المدنية التى تحمى حقوق الأفراد وتوفر فرصا للمشاركة. وعن طريق مبادرتنا للمشاركة سندعم هذه الجهود. ولكى تعمل الاقتصادات الحرة والأنظمة السياسية بنجاح فإنها تحتاج إلى مواطنين متعلمين، وعليه ستركز الركيزة الثالثة لمبادرة التعاون بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط على إصلاح تعليمى، وستشدد برامجنا على تعليم الفتيات؛ فعندما تتحسن نسبة التعليم بين الفتيات، تتحسن كذلك جميع مؤشرات التنمية المهمة الأخرى فى أى بلد، ولقد أصاب شاعر النيل "حافظ إبراهيم" عندما قال: "الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق".

وسنوفر منحا دراسية لإبقاء الفتيات فى المدارس وتوسيع التعليم للفتيات والنساء. وبصورة أوسع، سنعمل مع الأبوين والمربين لتعزيز الإشراف المحلى وإشراف الأبوين على الأنظمة المدرسية. وفى كل واحد من هذه المجالات الثلاثة، نحن ملتزمون بمشاركة أصيلة فى اتجاهين: مشاركة مع المواطنين ودول المنطقة، ومع الكونجرس، وحتى مع جهات مانحة أخرى بينما ننفذ هذه الأجندة. إن هذه المبادرة هى من المشاريع الأكثر تحديا التى درسناها نحن وشركاؤنا فى المنطقة، وعلينا أن نكون واقعيين بشأن العقبات القائمة على الطريق أمامنا، وبشأن الوقت الذى ستستغرقه لرؤية تغير حقيقى يتجذر، وبشأن الدور المحدود الذى تستطيع جهات خارجية أن تقوم به. وعلينا أن ندرك بأن مصلحة الشرق الأوسط الحقيقية يجب أن تدفع بهذه المبادرة إلى الأمام، وأن المشاركة الشرق أوسطية هى وحدها التى ستحافظ عليها. لكن علينا أيضا ألا نقنع بتوقعات منخفضة. فكما يظهر الاختمار فى المنطقة، فإن شعوب الشرق الأوسط نفسها تتملكها هذه القضايا، ونحن لا نبدأ من لا شىء؛ فإننا نعمل الآن بنجاح فعلا مع مجموعة واسعة من الشركاء. مثلا، أعلنا فى الشهر الماضى إنشاء "مؤسسة ليد" التى تشترك فيها الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية مع البنك الدولى والقطاع الخاص المصرى لدعم إقراض المشاريع الصغيرة فى مصر. إضافة إلى ذلك، نشترك فعلا، عن طريق شراكتنا من أجل التعلم، مع دول المنطقة فى تدريب المعلمين، وتعليم اللغة الإنجليزية، وبرامج أخرى لتقوية أنظمتها التعليمية. والحقيقة أن جزءا مهما من عملنا سيتناول مراجعة برامجنا القائمة للاستفادة منها والتأكد من أن برامجنا الحالية تلامس أكبر عدد ممكن من الأرواح.

كما أننا لا ندافع عن الأسلوب القائل إن "حجما واحدا يلائم الجميع". فالمنطقة كثيرة التنوع بالنسبة إلى ذلك الأمر. لكننا سنكون على الأرض نصغى ونعمل للتأكد من أن برامجنا مفصلة لتلائم حاجات الشعوب حيثما كانت تعيش. وإننا بمبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط نعترف بأن الأمل المبنى على فرصة اقتصادية، وسياسية، وتعليمية هو حاسم لنجاح جميع جهودنا، وأن نجاح هذه الجهود الأخرى هو، بدوره، ضرورى لإيجاد أمل.

لقد شاهدت خلال جولاتي في الشرق الأوسط، في الحياة العامة والخاصة، عن كثب طاقة، وإبداع، وتفاني الأبوين وهما يحاولان بناء مستقبل أفضل لأطفالهما، لكنني شاهدت أيضا إحباطهما عندما كان التقدم بطيئا جدا. علينا أن نسير قدما بخطى أسرع، ولسوف نسير بخطى أسرع. إننا عبر مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط، نضيف أملا إلى أجندة الولايات المتحدة والشرق الأوسط. وإننا سنستخدم طاقتنا، وقدراتنا، ومثاليتنا لجلب الأمل إلى جميع عباد الله الذين يعتبرون الشرق الأوسط وطنا لهم".

شكرا لكم

المصدر: شبكة المعلومات الدولية

http://usinfo.state.gov/arabic/mena/11212 pwmp.htm.

ملـحق رقم (١١)

■ قبر من أجل نيويورك

العبارات التى اقتبسها المؤلف من قصيدة أدونيس (فى الفصل التاسع من الكتاب) منقولة عن ترجمة غير دقيقة نشرتها "نيويورك تيمز" فى عددها الصادر فى ١٢ يونيو ٢٠٠٢، كما أن عنوان نص أدونيس الأصلى هو "قبر من أجل نيويورك" وليس "جنازة نيويورك The Funeral of NewYork". هنا المقاطع التى اقتبست عنها الجريدة... والمؤلف...

[١] حتى الآن، ترسم الأرض إجاصة

أعنى ثديا

لكن ليس بين الثدى والشاهدة إلا حيلة هندسية:

نيويورك

حضارة بأربعة أرجل، كل جهة قتل وقتل وطريق

إلى القتل، وفى المسافات أنين الغرقى.

نيويورك

امرأة – تمثال امرأة

فى يد ترفع خرقة يسميها الحرية ورقٌ نسميه التاريخ

وفى يد تختنق طفلة اسمها الأرض

[٢] ... وأعترف: نيويورك، لك فى بلادى الرواق

والسرير، الكرسى والرأس. وكل شىء للبيع:

النهار والليل، حجر مكة وماء دجلة. وأعلن:

مع ذلك تلهثين – تسابقين فى فلسطين، فى هانوى،

فى الشمال والجنوب، الشرق والغرب، أشخاصا

لا تاريخ لهم غير النار، وأقول: منذ يوحنا

المعمدان، يحمل كل منا رأسه المقطوع فى

صحن وينتظر الولادة الثانية.

[٣] تفتتى يا تماثيل الحرية، أيتها المسامير المغروسة

فى الصدور بحكمة تقلد حكمة الورد. الريح تهب

ثانية من الشرق، تقتلع الخيام وناطحات السحاب

[٤] وولت ويتمان

ألمح رسائل إليك تتطاير فى شوارع منهاتن،

كل رسالة عربة ملأى بالقطط والكلاب.

للقطط والكلاب القرن الواحد والعشرين

وللبشر الإبادة:

هذا هو العصر الأميركى

......

......

ليكن دورنا الآن، وليسبح الزمن فى ماء

هذه المعادلة:

نيويورك + نيويورك = القبر أو أى شىء يجىء من القبر،

نيويورك - نيويورك = الشمس.

(**المصدر**: مجموعة أدونيس "هذا هو اسمى"

الصادرة عن دار الآداب - بيروت - طبعة جديدة

- ١٩٨٨)

ملحق رقم (١٢)

■ خطاب الرئيس السادات أمام الكنيسيت
(٢٠ نوفمبر ١٩٧٧)

السيد الرئيس

أيها السيدات والسادة

السلام عليكم.. ورحمة الله

والسلام لنا جميعا.. بإذن الله

السلام لنا جميعا.. على الأرض العربية وفى إسرائيل.. وفى كل مكان من أرض هذا العالم الكبير المعقد بصراعاته الدامية، المضطرب بتناقضاته الحادة، المهدد بين الحين والحين بالحروب المدمرة، تلك التى يصنعها الإنسان ليقضى بها على أخيه الإنسان. وفى النهاية، وبين أنقاض ما بنى الإنسان وبين أشلاء الضحايا من بنى الإنسان، فلا غالب ولا مغلوب، بل إن المغلوب الحقيقى دائما هو الإنسان.. أرقى ما خلق الله.. الإنسان الذى خلقه الله - كما يقول غاندى قديس السلام - "لكى يسعى على قدميه، يبنى الحياة.. ويعبد الله".

قد جئت إليكم اليوم على قدمين ثابتتين، لكى نبنى حياة جديدة لكى نقيم السلام وكلنا على هذه الأرض، أرض الله، كلنا مسلمون ومسيحيون ويهود.. نعبد الله ولا نشرك به أحدا، وتعاليم الله، ووصاياه.. هى حب وصدق وطهارة وسلام.

إننى ألتمس لكل من استقبل قرارى عندما أعلنته للعالم كله أمام مجلس الشعب المصرى، بالدهشة، بل الذهول؛ بل إن البعض قد صورت له المفاجأة العنيفة أن قرارى ليس أكثر من مناورة كلامية للاستهلاك أمام الرأى العام العالمى، بل وصفه بعض آخر بأنه تكتيك سياسى لكى أخفى به نواياى فى شن حرب جديدة. ولا أخفى

عليكم أن أحد مساعدى فى مكتب رئيس الجمهورية اتصل بى فى ساعة متأخرة من الليل بعد عودتى إلى بيتى من مجلس الشعب، ليسألنى فى قلق: وماذا تفعل يا سيادة الرئيس لو وجهت إليك إسرائيل الدعوة فعلا؟ فأجبته بكل هدوء: سأقبلها على الفور. لقد أعلنت أننى سأذهب إلى آخر العالم.. سأذهب إلى إسرائيل لأننى أريد أن أطرح الحقائق كاملة أمام شعب إسرائيل.

إننى ألتمس العذر لكل من أذهله القرار، أو تشكك فى سلامة النوايا وراء إعلان القرار، فلم يكن أحد يتصور أن رئيس أكبر دولة عربية، تتحمل العبء الأكبر والمسئولية الأولى فى قضية الحرب والسلام، فى منطقة الشرق الأوسط يمكن أن يعرض قراره بالاستعداد إلى الذهاب إلى أرض الخصم، ونحن لا نزال فى حالة حرب، بل نحن جميعا لا نزال نعانى من آثار أربع حروب قاسية خلال ثلاثين عاما، بل إن أسر ضحايا حرب أكتوبر ١٩٧٣ لا تزال تعيش فى مآسى الترمل وفقد الأبناء واستشهاد الآباء والأخوات.

كما أننى - كما سبق أن أعلنت من قبل - لم أتداول فى هذا القرار مع أحد من زملائى وإخوتى رؤساء الدول العربية أو دول المواجهة.. ولقد اعترض من اتصل بى منهم بعد إعلان القرار، لأن حالة الشك الكاملة وفقدان الثقة الكاملة، بين الدول العربية والشعب الفلسطينى من جهة وبين إسرائيل من جهة أخرى، لا تزال قائمة فى كل النفوس؛ ويكفى أن أشهرا طويلة كان يمكن أن يحل فيها السلام قد ضاعت سدى، فى خلافات ومناقشات لا طائل منها حول إجراءات عقد مؤتمر جنيف، وكلها تعبر عن الشك الكامل، وفقدان الثقة الكاملة.

ولكننى - أصارحكم القول بكل الصدق - أننى اتخذت هذا القرار بعد تفكير طويل، وأنا أعلم أنه مخاطرة كبيرة، لأنه إذا كان الله كتب لى قدرى أن أتولى المسئولية عن شعب مصر، وأن أشارك فى مسئولية المصير بالنسبة للشعب العربى وشعب فلسطين، فإن أول واجبات هذه المسئولية أن أستنفد كل السبل، لكى أجنب

شعبى المصرى العربى، وكل الشعب العربى، ويلات حروب أخرى محطمة، مدمرة، لا يعلم مداها إلا الله.

وقد اقتنعت بعد تفكير طويل، أن أمانة المسئولية أمام الله وأمام الشعب، تفرض على أن أذهب إلى آخر مكان فى العالم.. بل أن أحضر إلى بيت المقدس، لأخاطب أعضاء الكنيسيت ممثلى شعب إسرائيل بكل الحقائق التى تعتمل فى نفسى، وأترككم بعد ذلك لكى تقرروا لأنفسكم وليفعل الله بنا بعد ذلك ما يشاء.

أيها السيدات والسادة:

إن فى حياة الأمم والشعوب لحظات يتعين فيها على هؤلاء الذين يتصفون بالحكمة والرؤية الثاقبة أن ينظروا إلى ما وراء الماضى بتعقيداته ورواسبه من أجل انطلاقة جسورة نحو آفاق جديدة. وهؤلاء الذين يتحملون مثلنا تلك المسئولية الملقاة على عاتقنا هم أول من يجب أن تتوافر لديهم الشجاعة لاتخاذ القرارات المصيرية التى تتناسب مع جلال الموقف، ويجب أن نرتفع جميعا فوق جميع صور التعصب وفوق خداع النفس وفوق نظريات التفوق البالية فمن المهم ألا ننسى أبدا أن العصمة لله وحده. وإذا قلت إننى أريد أن أجنب كل الشعب العربى ويلات حروب جديدة مفجعة، فإننى أعلن أمامكم بكل الصدق، إننى أحمل نفس المشاعر، وأحمل نفس المسئولية، لكل إنسان فى العالم وبالتأكيد نحو الشعب الإسرائيلى.

إن الروح التى تزهق فى الحرب، هى روح إنسان، سواء كان عربيا أو إسرائيليا. إن الزوجة التى تترمل.. هى إنسانة من حقها أن تعيش فى أسرة سعيدة سواء كانت عربية أو إسرائيلية.

إن الأطفال الأبرياء الذين يفقدون رعاية الآباء وعطفهم هم أطفالنا جميعا على أرض العرب أو فى إسرائيل، لهم علينا المسئولية الكبرى فى أن نوفر لهم الحاضر الهانئ والغد الجميل. من أجل كل هذا، ومن أجل أن نحمى حياة أبنائنا وأخوتنا جميعا. من أجل أن تنتج مجتمعاتنا، وهى آمنة مطمئنة.. من أجل تطور الإنسان

وإسعاده وإعطائه حقه فى الحياة الكريمة.. من أجل مسئوليتنا أمام الأجيال المقبلة.. من أجل بسمة كل طفل يولد على أرضنا.. من أجل كل هذا اتخذت قرارى أن أحضر إليكم، رغم كل المحاذير، لكى أقول كلمتى. ولقد تحملت وأتحمل متطلبات المسئولية التاريخية.

من أجل ذلك أعلنت من قبل ومنذ أعوام وبالتحديد فى ٤ فبراير ١٩٧١، أننى مستعد لتوقيع اتفاق سلام مع إسرائيل، وكان هذا هو أول إعلان يصدر عن مسئول عربى منذ أن بدأ الصراع العربى الإسرائيلى. وبكل هذه الدوافع، التى تفرضها مسئولية القيادة أعلنت فى السادس عشر من أكتوبر ١٩٧٣ وأمام مجلس الشعب المصرى، الدعوة إلى مؤتمر دولى يتقرر فيه السلام العادل الدائم، ولم أكن فى ذلك الوقت فى وضع من يستجدى السلام، أو يطلب وقف النار.

بهذه الدوافع كلها، التى يلزم بها الواجب التاريخى والقيادى، وقعنا اتفاق فك الاشتباك الأول، ثم اتفاق فك الاشتباك الثانى فى سيناء، ثم سعينا نطرق الأبواب المفتوحة والمغلقة لإيجاد طريق معين نحو سلام دائم عادل وفتحنا قلوبنا لشعوب العالم كله لكى تتفهم دوافعنا وأهدافنا، ولكى تقتنع فعلا أننا دعاة عدل وصناع سلام.

وبهذه الدوافع كلها، قررت أن أحضر إليكم، بعقل مفتوح، وقلب مفتوح، وإرادة واعية، لكى نقيم السلام الدائم القائم على العدل.

وشاءت المقادير أن تجىء رحلتى إليكم، رحلة السلام فى يوم العيد الإسلامى الكبير عيد الأضحى المبارك عيد التضحية والفداء، حين أسلم إبراهيم عليه السلام، جد العرب واليهود. أقول حين أمره الله، وتوجه إليه بكل جوارحه، لا عن ضعف بل عن قوة روحية هائلة وعن اختيار حر للتضحية بفلذة كبده، بدافع من إيمانه الراسخ الذى لا يتزعزع بمثل عليا تعطى الحياة مغزى عميقا. ولعل هذه المصادفة تحمل معنى جديدا، فى نفوسنا جميعا، لعله يصبح أملا حقيقيا فى تباشير الأمن والأمان والسلام.

أيها السيدات والسادة..

دعونا نتصارح بالكلمة المستقيمة والفكرة الواضحة التى لا تحمل أى التواء. دعونا نتصارح اليوم، والعالم كله بغربه وشرقه يتابع هذه اللحظات الفريدة، التى يمكن أن تكون نقطة تحول جذرى فى مسار التاريخ فى هذه المنطقة من العالم، إن لم يكن فى العالم كله. دعونا نتصارح ونحن نجيب عن السؤال الكبير: كيف يمكن أن نحقق السلام الدائم العادل؟

لقد جئت إليكم أحمل جوابى الواضح الصريح عن هذا السؤال الكبير. لكى يسمعه الشعب فى إسرائيل، ولكى يسمعه العالم أجمع، ولكى يسمعه أيضا كل أولئك الذين تصل أصوات دعوات أصواتهم المخلصة إلى أذنى، أملا فى أن تتحقق فى النهاية النتائج التى ترجوها الملايين من هذا الاجتماع التاريخى. وقبل أن أعلن لكم جوابى، أرجو أن أؤكد لكم، أننى أعتمد فى هذا الجواب الواضح الصريح، على عدة حقائق لا مهرب لأحد من الاعتراف بها.

الحقيقة الأولى: أنه لا سعادة لأحد على حساب شقاء الآخرين.

الحقيقة الثانية: أننى لم أتحدث، ولن أتحدث بلغتين. ولم أتعامل ولن أتعامل بسياستين. ولست ألتقى بأحد، إلا بلغة واحدة، وسياسة واحدة، ووجه واحد.

الحقيقة الثالثة: أن المواجهة المباشرة، وأن الخط المستقيم، هما أقرب الطرق وأنجحها للوصول إلى الهدف الواضح.

الحقيقة الرابعة: أن دعوة السلام الدائم العادل، المبنى على احترام قرارات الأمم المتحدة، أصبحت اليوم دعوة العالم كله، وأصبحت تعبيرا واضحا عن إرادة المجتمع الدولى، سواء فى العواصم الرسمية التى تصنع السياسة والقرار، أو على مستوى الرأى العام العالمى الشعبى، ذلك الرأى العام الذى يؤثر فى صنع السياسة واتخاذ القرار.

الحقيقة الخامسة: ولعلها أبرز الحقائق وأوضحها، أن الأمة العربية لا تتحرك

فى سعيها من أجل السلام الدائم العادل، من موقع ضعف أو اهتزاز، بل إنها على العكس تماما تملك من مقومات القوة والاستقرار، ما يجعل كلمتها نابعة من إرادة صادقة نحو السلام، صادرة عن إدراك حضارى بأنه لكى نتجنب كارثة محققة، علينا وعليكم وعلى العالم كله، فإنه لا بديل عن إقرار سلام دائم وعادل، لا تزعزعه الأنواء ولا تعبث به الشكوك، ولا يهزه سوء المقاصد أو التواء النوايا.

من واقع هذه الحقائق، التى أردت أن أضعكم فى صورتها كما أراها، أرجو أيضا أن أحذركم بكل الصدق، أحذركم من بعض الخواطر التى يمكن أن تطرأ على أذهانكم.

إن واجب المصارحة يقتضى أن أقول لكم ما يلى:

أولا: إننى لم أجئ لكى أعقد اتفاقا منفردا بين مصر وإسرائيل. ليس هذا واردا فى سياسة مصر، فليست المشكلة هى مصر وإسرائيل، وأى سلام منفرد بين مصر وإسرائيل أو بين أية دولة من دول المواجهة وإسرائيل لن يقيم السلام الدائم العادل فى المنطقة كلها. بل أكثر من ذلك، فإنه حتى لو تحقق السلام بين دول المواجهة كلها وإسرائيل، بغير حل عادل للمشكلة الفلسطينية، فإن ذلك لن يحقق أبدا السلام الدائم الذى يلح العالم كله اليوم عليه.

ثانيا: إننى لم أجئ إليكم كى أسعى إلى سلام جزئى، بمعنى أن ننهى حالة الحرب فى هذه المرحلة، ثم نرجئ المشكلة برمتها إلى مرحلة تالية. فليس هذا هو الحل الجذرى الذى يصل بنا إلى السلام الدائم.

ويرتبط بهذا أننى لم أجئ إليكم، لكى نتفق على فض اشتباك ثالث فى سيناء، أو فى سيناء والجولان والضفة الغربية، فإن هذا يعنى أننا نؤجل فقط اشتعال الفتيل إلى أى وقت مقبل.

بل هو يعنى، أننا نفتقد شجاعة مواجهة السلام، وأننا أضعف من أن نتحمل أعباء ومسئوليات السلام الدائم العادل.

لقد جئت إليكم، لكى نبنى معا، السلام الدائم العادل، حتى لا تراق نقطة دم واحدة من جسد عربى أو إسرائيلى.

ومن أجل هذا أعلنت أننى مستعد لأن أذهب إلى آخر العالم.

وهنا، أعود إلى الإجابة عن السؤال الكبير:

كيف نحقق السلام الدائم العادل؟

فى رأيى.. وأعلنها من هذا المنبر للعالم كله، أن الإجابة ليست مستحيلة ولا هى بالعسيرة، على الرغم من مرور أعوام طويلة، من ثأر الدم، والأحقاد والكراهية، وتنشئة أجيال على القطيعة الكاملة والعداء المستحكم.

الإجابة ليست عسيرة ولا هى مستحيلة، إذا طرقنا سبيل الخط المستقيم، بكل الصدق والإيمان.

أنتم تريدون العيش معنا فى هذه المنطقة من العالم.

وأنا أقول لكم بكل الإخلاص: إننا نرحب بكم بيننا.. بكل الأمن والأمان.

إن هذا فى حد ذاته يشكل نقطة تحول هائلة، من علامات تحول تاريخى حاسم. لقد كنا نرفضكم، وكانت لنا أسبابنا ودعوانا.. نعم!. لقد كنا نرفض الاجتماع بكم.. فى أى مكان.. نعم!. لقد كنا نصفكم بإسرائيل المزعومة.. نعم!.

لقد كانت تجمعنا المؤتمرات أو المنظمات الدولية، وكان ممثلونا، ولا يزالون، لا يتبادلون التحية والسلام.

نعم!. حدث هذا ولا يزال يحدث. لقد كنا نشترك لأى مباحثات، وسيطا يلتقى بكل طرف على انفراد. نعم!. هكذا تمت مباحثات فض الاشتباك الأول، وهكذا أيضا تمت مباحثات فض الاشتباك الثانى. كما أن ممثلينا التقوا فى مؤتمر جنيف الأول، دون تبادل كلمة مباشرة. نعم!.

هذا حدث.

ولكننى أقول لكم اليوم.. وأعلن للعالم كله.. إننا نقبل بالعيش معكم فى سلام دائم وعادل، ولا نريد أن تحيطونا بالصواريخ المستعدة للتدمير، أو بقذائف الأحقاد والكراهية. ولقد أعلنت أكثر من مرة، أن إسرائيل أصبحت حقيقة واقعة، اعترف بها العالم، وحملت القوتان الأعظم مسئولية أمنها وحماية وجودها. ولما كنا نريد السلام فعلا وحقا فإننا نرحب بأن تعيشوا بيننا فى أمن وسلام، فعلا وحقا.

لقد كان بيننا وبينكم جدار ضخم مرتفع، حاولتم أن تبنوه على مدى ربع قرن من الزمان، ولكنه تحطم فى عام ١٩٧٣. كان جدارا من الحرب النفسية المستمرة فى التهابها وتصاعدها. كان جدارا من التخويف بالقوة القادرة على اكتساح الأمة العربية من أقصاها إلى أقصاها. كان جدارا من الترويج بأننا أمة تحولت إلى جثة بلا حراك. بل إن منكم من قال إنه حتى بعد مضى خمسين عاما مقبلة لن تقوم للعرب قائمة من جديد.

كان جدارا يهدد دائما بالذراع الطويلة القادرة على الوصول إلى أى موقع وإلى أى بعد. كان جدارا يحذرنا من الإبادة والفناء، إذا نحن حاولنا أن نستخدم حقنا المشروع فى تحرير أرضنا المحتلة.

علينا أن نعترف معا، بأن هذا الجدار قد وقع وتحطم فى عام ١٩٧٣، ولكن بقى جدار آخر.

هذا الجدار الآخر، يشكل حاجزا نفسيا معقدا بيننا وبينكم حاجزاً من الشكوك، حاجزاً من النفور حاجزاً من خشية الخداع، حاجزا من الأوهام حول أى تصرف أو فعل أو قرار، حاجزاً من التفسير الحذر الخاطئ لكل حدث أو حديث. وهذا الحاجز النفسى هو الذى عبرت عنه، فى تصريحات رسمية، بأنه يشكل سبعين فى المائة من المشكلة.

وإننى أسألكم اليوم - بزيارتى لكم - لماذا لا نمد أيادينا، بصدق وإيمان

وإخلاص، لكى نحطم هذا الحاجز معا؟ لماذا لا تتفق إرادتنا، بصدق وإيمان وإخلاص، لكى نزيل معا كل شكوك الخوف والغدر والتواء المقاصد وإخفاء حقائق النوايا؟ لماذا لا نتصدى معا بشجاعة الرجال، وبجسارة الأبطال الذين يهبون حياتهم لهدف أسمى؟ لماذا لا نتصدى معا بهذه الشجاعة والجسارة لكى نقيم صرحا شامخا للسلام، يحمى ولا يهدد.. يشع لأجيالنا القادمة أضواء الرسالة الإنسانية نحو البناء والتطور ورفعة الإنسان؟.. لماذا نورث هذه الأجيال نتائج سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وتيتيم الأطفال، وترمل الزوجات، وهدم الأسر، وأنين الضحايا. لماذا لا نؤمن بحكمة الخالق التى أوردها فى أمثال سليمان الحكيم.

"الغش فى قلب الذين يفكرون فى الشر، أما المبشرون بالسلام فلهم فرح".

"لقمة يابسة ومعها سلامة، خير من بيت ملىء بالذبائح مع الخصام".

لماذا لا نردد معا من مزامير داود النبى:

"إليك يا رب أصرخ.. اسمع صوت تضرعى إذا استغثت بك، وأرفع يدى إلى محراب قدسك، لا تجذبنى مع الأشرار، ومع فعلة الإثم، المخاطبين أصحابهم بالسلام والشر فى قلوبهم أعطهم حسب فعلهم، وحسب شر أعمالهم، أطلب السلامة وأسعى وراءها"

أيها السادة..

الحق أقول لكم أن السلام لن يكون اسما على مسمى ما لم يكن قائما على العدالة وليس على احتلال أرض الغير، ولا يسوغ أن تطلبوا لأنفسكم ما تنكرونه على غيركم.

وبكل صراحة، وبالروح التى حدت بى إلى القدوم إليكم اليوم فإنى أقول لكم: إن عليكم أن تتخلوا نهائيا عن أحلام الغزو وأن تتخلوا أيضا عن الاعتقاد بأن القوة هى خير وسيلة للتعامل مع العرب. إن عليكم أن تستوعبوا جيدا دروس المواجهة بيننا وبينكم فلن يجديكم التوسع شيئا.

ولكى نتكلم بوضوح فإن أرضنا لا تقبل المساومة، وليست عرضة للجدل. إن التراب الوطنى والقومى يعتبر لدينا فى منزلة الوادى المقدس طوى الذى كلم فيه الله موسى عليه السلام.. ولا يملك أى منا، ولا يقبل، أن يتنازل عن شبر واحد منه، أو أن يقبل مبدأ الجدل والمساومة عليه.

والحق أقول لكم أيضا: إن أمامنا اليوم الفرصة السانحة للسلام وهى فرصة لا يمكن أن يجود بمثلها الزمان إذا كنا جادين حقا فى النضال من أجل السلام.

وهى فرصة، لو أضعناها أو بددناها، فلسوف تحل بالتآمر عليها، لعنة الإنسانية ولعنة التاريخ.

ما السلام بالنسبة لإسرائيل؟

أن تعيش فى المنطقة مع جيرانها العرب.. فى أمن واطمئنان.

هذا منطق أقول له نعم.

أن تعيش إسرائيل فى حدودها، آمنة من أى عدوان. هذا منطق أقول له نعم.

أن تحصل إسرائيل على كل أنوا ع الضمانات التى تؤمن لها هاتين الحقيقتين.

هذا مطلب أقول له نعم.

بل إننا نعلن أننا نقبل كل الضمانات الدولية التى تتصورونها وممن ترضونه أنتم. نعلن أننا نقبل كل الضمانات التى تريدونها من القوتين العظميين، أو من إحداهما، أو من الخمسة الكبار، أو من بعضهم. وأعود فأعلن بكل الوضوح إننا قابلون بأى ضمانات ترضونها لأننا فى المقابل، سنأخذ نفس الضمانات.

خلاصة القول إذن عندما نسأل: ما السلام بالنسبة لإسرائيل؟

يكون الرد هو أن تعيش إسرائيل فى حدودها مع جيرانها العرب فى أمن وأمان وفى إطار كل ما ترتضيه من ضمانات يحصل عليها الطرف الآخر.

ولكن كيف يتحقق هذا؟ كيف يمكن أن نصل إلى هذه النتيجة لكى نصل بها إلى السلام الدائم العادل؟

هناك حقائق لابد من مواجهتها بكل شجاعة ووضوح.

هناك أرض عربية احتلتها - ولا تزال تحتلها - إسرائيل بالقوة المسلحة ونحن نصر على تحقيق الانسحاب الكامل منها بما فيها القدس العربية.. القدس التى حضرت إليها باعتبارها مدينة السلام، والتى كانت وسوف تظل على الدوام التجسيد الحى للتعايش بين المؤمنين بالديانات الثلاث؛ وليس من المقبول أن يفكر أحد فى الوضع الخاص لمدينة القدس فى إطار الضم أو التوسع، وإنما يجب أن تكون مدينة حرة مفتوحة لجميع المؤمنين.

وأهم من كل هذا فإن تلك المدينة يجب ألا تفصل عن هؤلاء الذين اختاروها مقرا ومقاما لعدة قرون. وبدلا من أحقاد الحروب الصليبية، فإننا يجب أن نحيى روح عمر بن الخطاب وصلاح الدين.. أى روح التسامح واحترام الحقوق.

إن دور العبادة الإسلامية والمسيحية ليست مجرد أماكن لأداء الفرائض والشعائر، بل إنها تقوم شاهد صدق على وجودنا الذى لم ينقطع فى هذا المكان سياسيا وروحيا وفكريا. وهنا، فإنه يجب ألا يخطئ أحد تقدير الأهمية والإجلال اللذين نكنهما للقدس، نحن معشر المسيحيين والمسلمين.

ودعونى أقول لكم بلا أدنى تردد، إننى لم أجئ إليكم تحت هذه القبة لكى أتقدم برجاء أن تجلوا قواتكم من الأرض المحتلة. إن الانسحاب الكامل من الأرض العربية المحتلة بعد ١٩٦٧ أمر بديهى لا نقبل فيه الجدل ولا رجاء فيه لأحد أو من أحد، ولا معنى لأى حديث عن السلام الدائم العادل، ولا معنى لأى خطوة لضمان حياتنا معا فى هذه المنطقة من العالم فى أمن وأمان، وأنتم تحتلون أرضا عربية بالقوة المسلحة، فليس هناك سلام يستقيم أو يبنى مع احتلال أرض الغير.

نعم!.

هذه بديهية لا تقبل الجدل والنقاش إذا خلصت النوايا، وصدق النضال لإقرار السلام الدائم العادل لجيلنا ولكل الأجيال من بعدنا. أما بالنسبة للقضية الفلسطينية، فليس هناك من ينكر أنها جوهر المشكلة كلها، وليس هناك من يقبل اليوم فى العالم كله شعارات رفعت هنا فى إسرائيل تتجاهل وجود شعب فلسطين بل وتتساءل أين هو هذا الشعب؟

إن قضية شعب فلسطين وحقوق شعب فلسطين المشروعة لم تعد اليوم موضع تجاهل أو إنكار من أحد، بل لا يحتمل عقل يفكر أن تكون موضع تجاهل أو إنكار.

إنها وضع استقبله المجتمع الدولى، غربا وشرقا، بالتأييد والمساندة والاعتراف فى مواثيق دولية، وبيانات رسمية لن يجدى أحدا أن يصم آذانه عن دويها المسموع ليل نهار أو أن يغمض عينيه عن حقيقتها التاريخية، حتى الولايات المتحدة الأمريكية، حليفكم الأول التى تحمل قمة الالتزام لحماية وجود إسرائيل وأمنها والتى قدمت - وتقدم إلى إسرائيل - كل عون معنوى ومادى وعسكرى.

أقول حتى الولايات المتحدة اختارت أن تواجه الحقيقة والواقع، وأن تعترف بأن للشعب الفلسطينى حقوقا مشروعة وأن المشكلة الفلسطينية هى قلب الصراع وجوهره، وطالما بقيت معلقة دون حل، فإن النزاع سوف يتزايد ويتصاعد ليبلغ أبعادا جديدة، وبكل الصدق أقول لكم إن السلام لا يمكن أن يتحقق بغير الفلسطينيين وإنه لخطأ جسيم ولا يعلم مداه أحد أن نغض الطرف عن تلك القضية أو أن ننحيها جانبا.

ولن أستطرد فى سرد أحداث الماضى منذ صدر وعد بلفور لستين عاما خلت، فأنتم على بينة من الحقائق جيدا، وإذا كنتم قد وجدتم المبرر القانونى والأخلاقى لإقامة وطن قومى على أرض لم تكن كلها ملكا لكم. فأولى بكم أن تتفهموا إصرار شعب فلسطين على إقامة دولته من جديد فى وطنه.

وحين يطالب بعض الغلاة والمتطرفين أن يتخلى الفلسطينيون عن هذا الهدف الأسمى، فإن معناه فى الواقع وحقيقة الأمر مطالبة لهم بالتخلى عن هويتهم، وعن كل أمل لهم فى المستقبل.

إننى أحيى أصواتا إسرائيلية، طالبت بالاعتراف بحقوق الشعب الفلسطينى، وصولا إلى السلام، وضمانا له.

ولذلك، فإننى أقول لكم أيها السيدات والسادة إنه لا طائل من وراء عدم الاعتراف بالشعب الفلسطينى وحقوقه فى إقامة دولته وفى العودة.

لقد مررنا نحن العرب بهذه التجربة من قبل، معكم، ومع حقيقة الوجود الإسرائيلى، وانتقل بنا الصراع، من حرب إلى حرب، ومن ضحايا إلى مزيد من الضحايا حتى وصلنا اليوم - نحن وأنتم - إلى حافة هاوية رهيبة، وكارثة مروعة إذا نحن لم نغتنم اليوم معا فرصة السلام الدائم العادل.

عليكم أن تواجهوا الواقع مواجهة شجاعة، كما واجهته أنا. لا حل لمشكلة أبدا بالهروب منها أو التعالى عليها، ولا يمكن أن يستقر سلام، بمحاولة فرض أوضاع وهمية، أدار لها العالم كله ظهره، وأعلن نداءه الجماعى بوجوب احترام الحق والحقيقة، ولا داعى للدخول فى الحلقة المفرغة مع الحق الفلسطينى، ولا جدوى من خلق العقبات، إلا أن تتأخر مسيرة السلام أو أن يقتل السلام. وكما قلت لكم، فلا سعادة لأحد على حساب شقاء الآخرين، كما أن المواجهة المباشرة والخط المستقيم هما أقرب الطرق وأنجحها للوصول إلى الهدف الواضح. والمواجهة المباشرة للمشكلة الفلسطينية، واللغة الواحدة لعلاجها نحو سلام دائم عادل، هى فى أن تقوم دولتهم.

ومع كل الضمانات الدولية التى تطلبونها، فلا يجوز أن يكون هناك خوف من دولة وليدة تحتاج إلى معونة كل دول العالم لقيامها، وعندما تدق أجراس السلام فلن توجد يد لتدق طبول الحرب وإذا وجدت فلن يسمع لها صوت.

تصوروا معى اتفاق سلام فى جنيف، نزفه إلى العالم المتعطش إلى السلام.

اتفاق سلام يقوم على:

أولا: إنهاء الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية التى احتلت فى عام ١٩٦٧.

ثانيا: تحقيق الحقوق الأساسية للشعب الفلسطينى وحقه فى تقرير المصير بما فى ذلك حقه فى إقامة دولته.

ثالثا: حق كل دول المنطقة فى سلام داخل حدودها الآمنة والمضمونة عن طريق إجراءات يتفق عليها الأمن المناسب للحدود الدولية، بالإضافة إلى الضمانات الدولية المناسبة.

رابعا: تلتزم كل دول المنطقة بإدارة العلاقات فيما بينها طبقا لأهداف مبادئ ميثاق الأمم المتحدة، وبصفة خاصة عدم الالتجاء إلى القوة، وحل الخلافات بينها بالوسائل السليمة.

خامسا: إنهاء حالة الحرب القائمة فى المنطقة.

أيها السيدات والسادة..

إن السلام ليس توقيعا على سطور مكتوبة، بل إنه كتابة جديدة للتاريخ.

إن السلام ليس مباراة فى المناداة به للدفاع عن أية شهوات، أو لستر أية أطماع، فالسلام فى جوهره نضال جبار ضد كل الأطماع والشهوات.

ولعل تجارب التاريخ القديم والحديث تعلمنا جميعا، أن الصواريخ والبوارج والأسلحة النووية لا يمكن أن تقيم الأمن، ولكنها على العكس تحطم كل ما يبنيه الأمن.

وعلينا..

من أجل شعوبنا..

من أجل حضارة صنعها الإنسان، أن نحمى الإنسان فى كل مكان.. من سلطان قوة السلاح.

علينا أن نعلى سلطان الإنسانية بكل قوة القيم والمبادئ التى تعلى مكانة الإنسان.

وإذا سمحتم لى، أن أتوجه بندائى من هذا المنبر إلى شعب إسرائيل.. فإننى أتوجه بالكلمة الصادقة الخالصة إلى كل رجل وامرأة وطفل فى إسرائيل.

إننى أحمل إليكم من شعب مصر الذى يبارك هذه الرسالة المقدسة من أجل السلام. أحمل إليكم رسالة السلام، رسالة شعب مصر الذى لا يعرف التعصب، والذى يعيش أبناؤه من مسلمين ومسيحيين ويهود بروح المودة والحب والتسامح. هذه هى مصر، التى حملنى شعبها أمانة الرسالة المقدسة.. رسالة الأمن والأمان والسلام.

فيا كل رجل وامرأة وطفل فى إسرائيل. شجعوا قيادتكم على نضال سلام.

ولتتجه الجهود إلى بناء صرح شامخ للسلام، بدلا من بناء القلاع والمخابئ المحصنة بصواريخ الدمار. قدموا للعالم كله، صورة الإنسان الجديد، فى هذه المنطقة من العالم لكى يكون قدوة لإنسان العصر. إنسان السلام فى كل موقع ومكان.

بشروا أبناءكم.. إن ما مضى، هو آخر الحروب ونهاية الآلام، وإن ما هو قادم هو البداية الجديدة، للحياة الجديدة.. حياة الحب والخير والحرية والسلام.

ويا أيتها الأم الثكلى..

ويا أيتها الزوجة المترملة..

ويا أيها الابن الذى فقد الأخ والأب..

يا كل ضحايا الحروب..

املأوا الأرض والفضاء، بتراتيل السلام..

املأوا الصدور والقلوب، بآمال السلام..

اجعلوا الأنشودة حقيقة تعيش وتثمر..

اجعلوا الأمل دستور عمل ونضال..

إن إرادة الشعوب هى من إرادة الله..

أيها السيدات والسادة..

قبل أن أصل إلى هذا المكان، توجهت بكل نبضة فى قلبى، وبكل خلجة فى ضميرى، إلى الله سبحانه وتعالى، وأنا أؤدى صلاة العيد فى المسجد الأقصى، وأنا أزور كنيسة القيامة، توجهت إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء أن يلهمنى القوة، وأن يؤكد يقين إيمانى، بأن تحقق هذه الزيارة أهدافها، التى أرجوها من أجل حاضر سعيد، ومستقبل أكثر سعادة.. لقد اخترت أن أخرج على كل السوابق والتقاليد التى عرفتها الدول المتحاربة، ورغم أن احتلال الأرض العربية ما زال قائما، بل كان إعلانى عن استعدادى للحضور إلى إسرائيل مفاجأة كبرى هزت كثيرا من المشاعر وأذهلت كثيرا من العقول، بل شككت فى نواياها بعض الآراء، برغم كل ذلك فإننى استلهمت القرار بكل صفاء الإيمان وطهارته، وبكل التعبير الصادق عن إرادة شعبى ونواياه، واخترت هذا الطريق الصعب، بل إنه فى نظر الكثيرين أصعب طريق.

اخترت أن أحضر إليكم.. بالقلب المفتوح والفكر المفتوح.

اخترت أن أعطى هذه الدفعة لكل الجهود العالمية المبذولة من أجل السلام.

اخترت أن أقدم لكم - وفى بيتكم - الحقائق المجردة من الأغراض والأهواء.

لا لكى أناور، ولا لكى أكسب جولة.

ولكن لكى نكسب معا، أخطر الجولات والمعارك فى التاريخ المعاصر. معركة السلام العادل والدائم.

إنها ليست معركتى فقط، ولا هى معركة القيادات فقط فى إسرائيل. ولكنها معركة كل مواطن على أرضنا جميعا، من حقه أن يعيش فى سلام.

إنها التزام الضمير والمسئولية فى قلوب الملايين.

لقد تساءل الكثيرون، عندما طرحت هذه المبادرة، عن تصورى لما يمكن إنجازه فى هذه الزيارة، وتوقعاتى منها؛ وكما أجبت السائلين، فإننى أعلن أمامكم أننى لم

أفكر فى القيام بهذه المبادرة من منطلق ما يمكن تحقيقه أثناء الزيارة، وإنما جئت هنا لكى أبلغ رسالة.

ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

اللهم إننى أردد مع زكريا قوله: "أحبوا الحق والسلام".

وأستلهم أيات الله العزيز الحكيم حين قال: "أحبوا الحق والسلام".

وأستلهم أيات الله العزيز الحكيم حين قال: "قل أمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون".

صدق الله العظيم

والسلام عليكم...

ملحق رقم (١٣)

■خطاب باراك أوباما فى مصر
(٤ يونيو ٢٠٠٩)

إنه لمن دواعى شرفى أن أزور مدينة القاهرة الأزلية حيث تستضيفنى فيها مؤسستان مرموقتان للغاية إحداهما الأزهر الذى بقى لأكثر من ألف سنة منارة العلوم الإسلامية، بينما كانت جامعة القاهرة على مدى أكثر من قرن بمثابة منهل من مناهل التقدم فى مصر، ومعا تمثلان حسن الاتساق والانسجام ما بين التقاليد والتقدم.

وإننى ممتن لكم لحسن ضيافتكم ولحفاوة شعب مصر، كما أننى فخور بنقل أطيب مشاعر الشعب الأمريكى لكم مقرونة بتحية السلام من المجتمعات المحلية المسلمة فى بلدى: السلام عليكم.

إننا نلتقى فى وقت يشوبه التوتر بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى، وهو توتر تمتد جذوره إلى قوى تاريخية تتجاوز أى نقاش سياسى راهن. وتشمل العلاقة بين الإسلام والغرب قرونا سادها حسن التعايش والتعاون، كما تشمل هذه العلاقة صراعات وحروبا دينية.

وساهم الاستعمار خلال العصر الحديث فى تغذية لتوتر بسبب حرمان العديد من المسلمين من الحقوق والفرص، كما ساهم فى ذلك الحرب الباردة التى عوملت فيها كثير من البلدان ذات الأغلبية المسلمة - بلا حق - كأنها مجرد دول وكيلة يجب عدم مراعاة تطلعاتها الخاصة. وعلاوة على ذلك حدا التغيير الكاسح الذى رافقته الحداثة والعولمة بالعديد من المسلمين إلى اعتبار الغرب معاديا لتقاليد الإسلام.

لقد استغل المتطرفون الذين يمارسون العنف هذه التوترات فى قطاع صغير من العالم الإسلامى بشكل فعال، ثم وقعت أحداث ١١ سبتمبر / أيلول ٢٠٠١. واستمر هؤلاء المتطرفون فى مساعيهم الرامية إلى ارتكاب أعمال العنف ضد المدنيين،

الأمر الذى حدا بالبعض فى بلدى إلى اعتبار الإسلام معاديا لا محالة، ليس فقط لأمريكا والبلدان الغربية، وإنما أيضا لحقوق الإنسان، ونتج عن ذلك مزيد من الخوف وعدم الثقة.

هذا، وما لم نتوقف عن تحديد مفهوم علاقاتنا المشتركة من خلال أوجه الاختلاف فيما بيننا، فإننا سنساهم فى تمكين أولئك الذين يزرعون الكراهية ويرجحونها على السلام ويروجون للصراعات ويرجحونها على التعاون الذى من شأنه أن يساعد شعوبنا على تحقيق الازدهار.

هذه هى دائرة الارتياب والشقاق التى يجب علينا إنهاؤها.. لقد أتيت إلى هنا للبحث عن بداية جديدة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى استنادا إلى المصلحة المشتركة والاحترام المتبادل، وهى بداية مبنية على أساس حقيقة أن أمريكا والإسلام لا يتعارضان بعضهما مع بعض، ولا داعى أبدا للتنافس فيما بينهما، بل إن لهما قواسم ومبادئ مشتركة يلتقيان عبرها ألا وهى مبادئ العدالة والتقدم والتسامح وكرامة كل إنسان.

إننى أقوم بذلك وأنا أدرك أن التغيير لا يحدث بين ليلة وضحاها، ولا يمكن لخطاب واحد أن يلغى سنوات من عدم الثقة، كما لا يمكننى أن أقدم الإجابة على كافة المسائل المعقدة التى أدت بنا إلى هذه النقطة، غير أننى على يقين من أنه يجب علينا من أجل المضى قدما أن نعبر بصراحة عما هو فى قلوبنا وعما هو لا يقال إلا خلف الأبواب المغلقة.

كما يجب أن يتم بذل جهود مستديمة للاستماع إلى بعضنا البعض وللتعلم من بعضنا البعض وللاحترام المتبادل والبحث عن أرضية مشتركة، وينص القرآن الكريم على ما يلى "اتقوا الله وقولوا قولا سديدا" وهذا ما سأحاول - بما فى وسعى - أن أفعله، وأن أقول الحقيقة بكل تواضع أمام المهمة التى نحن بصددها اعتقادا منى كل الاعتقاد أن المصالح المشتركة بيننا كبشر هى أقوى بكثير من القوى الفاصلة بيننا.

يعود جزء من اعتقادى هذا إلى تجربتى الشخصية، أننى مسيحى بينما كان

والدى من أسرة كينية تشمل أجيالا من المسلمين، ولما كنت صبيا قضيت عدة سنوات فى إندونيسيا واستمعت إلى الآذان ساعات الفجر والمغرب، ولما كنت شابا عملت فى المجتمعات المحلية بمدينة شيكاغو حيث وجد الكثير من المسلمين فى عقيدتهم روح الكرامة والسلام.

إننى أدرك بحكم دراستى للتاريخ أن الحضارة مدينة للإسلام الذى حمل معه فى أماكن - مثل جامعة الأزهر - نور العلم عبر قرون عدة، الأمر الذى مهد الطريق أمام النهضة الأوروبية وعصر التنوير، ونجد روح الابتكار الذى ساد المجتمعات الإسلامية وراء تطوير علم الجبر وكذلك البوصلة المغناطيسية وأدوات الملاحة وفن الأقلام والطباعة، بالإضافة إلى فهمنا لانتشار الأمراض وتوفير العلاج المناسب لها.

حصلنا بفضل الثقافة الإسلامية على أروقة عظيمة وقمم مستدقة عالية الارتفاع، وكذلك على أشعار وموسيقى خالدة الذكر وفن الخط الراقى وأماكن التأمل السلمى، وأظهر الإسلام على مدى التاريخ قلبا وقالبا الفرص الكامنة فى التسامح الدينى والمساواة بين الأعراق.

أعلم كذلك أن الإسلام كان دائما جزءا لا يتجزأ من قصة أمريكا، حيث كان المغرب أول بلد اعترف بالولايات المتحدة الأمريكية، وبمناسبة توقيع الرئيس الأمريكى الثانى جون أدامز عام ١٩٧٦ على معاهدة طرابلس فقد كتب ذلك الرئيس أن "الولايات المتحدة لا تكنّ أى نوع من العداوة تجاه قوانين أو ديانة المسلمين أو حتى راحتهم".

منذ عصر تأسيس بلدنا ساهم المسلمون الأمريكيون فى إثراء الولايات المتحدة.. لقد قاتلوا فى حروبنا وخدموا فى المناصب الحكومية ودافعوا عن الحقوق المدنية وأسسوا المؤسسات التجارية، كما قاموا بالتدريس فى جامعاتنا وتفوقوا فى الملاعب الرياضية وفازوا بجوائز نوبل وبنوا أكثر عماراتنا ارتفاعا وأشعلوا الشعلة الأولمبية، وعندما تم أخيرا انتخاب أول مسلم أمريكى فى الكونجرس قام ذلك النائب بأداء اليمين الدستورية مستخدما نفس النسخة من القرآن الكريم التى احتفظ بها أحد آبائنا المؤسسين "توماس جيفرسون" فى مكتبته الخاصة.

إننى إذن تعرفت على الإسلام فى قارات ثلاث قبل مجيئى إلى المنطقة التى نشأ فيها الإسلام، ومن منطلق تجربتى الشخصية أستمد اعتقادى بأن الشراكة بين أمريكا والإسلام يجب أن تستند إلى حقيقة الإسلام وليس إلى ما هو غير إسلامى، وأرى فى ذلك جزءا من مسؤوليتى كرئيس للولايات المتحدة حتى أتصدى للصور النمطية السلبية عن الإسلام أينما ظهرت.

لكن نفس المبدأ يجب أن ينطبق على صورة أمريكا لدى الآخرين، ومثلما لا تنطبق على المسلمين الصورة النمطية البدائية فإن الصورة النمطية البدائية للإمبراطورية التى لا تهتم إلا بمصالح نفسها لا تنطبق على أمريكا، فقد كانت الولايات المتحدة أحد أكبر المناهل للتقدم عبر تاريخ العالم، وقمنا بثورة ضد إحدى الإمبراطوريات، وأسست دولتنا على أساس مثال مفاده أن جميع البشر قد خلقوا سواسية، كما سالت دماؤنا فى الصراعات عبر القرون لإضفاء المعنى على هذه الكلمات داخل حدودنا وفى مختلف أرجاء العالم.

وقد ساهمت جميع الثقافات من كل أنحاء الكرة الأرضية فى تكويننا تكريسا لمفهوم بالغ البساطة باللغة اللاتينية: من الكثير واحد. لقد تم تعليق أهمية كبيرة على إمكانية انتخاب شخص من أصل أمريكى أفريقى يدعى باراك حسين أوباما إلى منصب الرئيس، ولكن قصتى الشخصية ليست فريدة إلى هذا الحد، ولم يتحقق حلم الفرص المتاحة للجميع بالنسبة لكل فرد فى أمريكا، ولكن الوعد القائم بالنسبة لكل من يصل إلى شواطئنا، ويشمل ذلك ما يضاهى سبعة ملايين من المسلمين الأمريكيين فى بلدنا اليوم. ويحظى المسلمون الأمريكيون بدخل ومستوى للتعليم يعتبران أعلى مما يحظى به معدل السكان.

علاوة على ذلك لا يمكن فصل الحرية فى أمريكا عن حرية إقامة الشعائر الدينية، كما أن ذلك السبب وراء وجود مسجد فى كل ولاية من الولايات المتحدة ووجود أكثر من ١٢٠٠ مسجد داخل حدودنا، وهو أيضا السبب وراء خوض الحكومة

الأمريكية إجراءات المقاضاة من أجل صون حق النساء والفتيات فى ارتداء الحجاب ومعاقبة من يتجرأ على حرمانهن من ذلك الحق.

ليس هناك أى شك فى أن الإسلام جزء لا يتجزأ من أمريكا، وأعتقد أن أمريكا تمثل التطلعات المشتركة بيننا جميعا بغض النظر عن العرق أو الديانة و المكانة الاجتماعية، ألا وهى تطلعات العيش فى ظل السلام والأمن والحصول على التعليم والعمل بكرامة والتعبير عن المحبة التى نكنها لعائلاتنا ومجتمعاتنا وكذلك لربنا، هذه هى قواسمنا المشتركة وهى تمثل أيضا آمال البشرية جمعاء.

يمثل إدراك أوجه الإنسانية المشتركة فيما بيننا بطبيعة الحال مجرد البداية لمهمتنا.. إن الكلمات وحدها لا تستطيع سد احتياجات شعوبنا، ولن نسد هذه الاحتياجات إلا إذا عملنا بشجاعة على مدى السنين القادمة وإذا أدركنا حقيقة أن التحديات التى نواجهها تحديات مشتركة، وإذا أخفقنا فى التصدى لها سيلحق ذلك الأذى بنا جميعا.

لقد تعلمنا من تجاربنا الأخيرة ما يحدث من إلحاق الضرر بالرفاهية فى كل مكان إذا ضعف النظام المالى فى بلد واحد، وإذا أصيب شخص واحد بالإنفلونزا فسيعرض ذلك الجميع للخطر، وإذا سعى بلد واحد وراء امتلاك السلاح النووى فسيزداد خطر وقوع هجوم نووى بالنسبة لكل الدول، وعندما يمارس المتطرفون العنف فى منطقة جبلية واحدة سيعرض ذلك الناس من وراء البحار للخطر، وعندما يتم ذبح الأبرياء فى دارفور والبوسنة سيسبب ذلك وصمة فى ضميرنا المشترك، هذا هو معنى التشارك فى هذا العالم فى القرن الحادى والعشرين، وهذه هى المسؤولية التى يتحملها كل منا تجاه الآخر كأبناء البشرية.

إنها مسؤولية تصعب مباشرتها، وكان تاريخ البشرية فى كثير من الأحيان بمثابة سجل من الشعوب والقبائل التى قمعت بعضها البعض لخدمة تحقيق مصلحتها الخاصة، ولكن فى عصرنا الحديث تؤدى مثل هذه التوجهات إلى إلحاق الهزيمة بالنفس؛ ونظرا إلى الاعتماد الدولى المتبادل، فأى نظام عالمى يعلى شعبا أو مجموعة

من البشر فوق غيرهم سيبوء بالفشل لا محالة، وبغض النظر عن أفكارنا حول أحداث الماضى يجب أن لا نصبح أبدا سجناء لأحداث مضت، وإنما يجب معالجة مشاكلنا بواسطة شراكة كما يجب أن نحقق التقدم بصفة مشتركة.

لا يعنى ذلك بالنسبة لنا أن نفضل التغاضى عن مصادر التوتر، وفى الحقيقة فإن العكس هو الأرجح، يجب علينا مجابهة هذه التوترات بصفة مفتوحة، واسمحوا لى انطلاقا من هذه الروح أن أتطرق بمنتهى الصراحة وأكبر قدر ممكن من البساطة إلى بعض الأمور المحددة التى أعتقد أنه يتعين علينا مواجهتها فى نهاية المطاف بجهد مشترك.

المسألة الأولى التى يجب أن نجابهها هى التطرف العنيف بجميع أشكاله، وقد صرحت فى مدينة أنقرة بكل وضوح أن أمريكا ليست ولن تكون أبدا فى حالة حرب مع الإسلام، وعلى أية حال سنتصدى لمتطرفى العنف الذين يشكلون تهديدا جسيما لأمننا، والسبب هو أننا نرفض ما يرفضه أهل جميع المعتقدات: قتل الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال. ومن واجباتى كرئيس أن أتولى حماية الشعب الأمريكى.

يبين الوضع فى أفغانستان أهداف أمريكا وحاجتنا إلى العمل المشترك، وقبل أكثر من سبع سنوات قامت الولايات المتحدة بملاحقة تنظيم القاعدة ونظام طالبان بدعم دولى واسع النطاق.. لم نذهب إلى هناك باختيارنا وإنما بسبب الضرورة.

إننى على وعى بالتساؤلات التى يطرحها البعض بالنسبة لأحداث ١١ سبتمبر أو حتى تبريرهم لتلك الأحداث، ولكن دعونا نكون صرحاء.. قتل تنظيم القاعدة قرابة ٣٠٠٠ شخص فى ذلك اليوم، وكان الضحايا من الرجال والنساء والأطفال الأبرياء، ورغم ذلك اختارت القاعدة بلا ضمير قتل هؤلاء البرياء، وتباهت بالهجوم وتؤكد -إلى الآن -عزمها على ارتكاب القتل مجددا وبأعداد ضخمة.

إن هناك للقاعدة من ينتسبون لها فى عدة بلدان ومن يسعون إلى توسعة نطاق أنشطتهم، وما أقوله ليس بآراء قابلة للنقاش وإنما هى حقائق يجب معالجتها، ولابد

أن تكونوا على علم بأننا لا نريد لجيشنا أن يبقى فى أفغانستان ولا نسعى لإقامة قواعد عسكرية هناك.. خسائرنا بين الشباب والشابات هناك تسبب لأمريكا بالغ الأذى، كما يسبب استمرار هذا النزاع تكاليف باهظة ومصاعب سياسية جمة، ونريد بكل سرور أن نرحب بجميع جنودنا وهم عائدون إلى الوطن إذا استطعنا أن نكون واثقين من عدم وجود متطرفى العنف فى كل من أفغانستان وباكستان والذين يحرصون على قتل أكبر عدد ممكن من الأمريكيين.

ورغم ذلك كله لن تشهد أمريكا أى حالة من الضعف لإرادتها، ولا ينبغى لأحد منا أن يتسامح مع أولئك المتطرفين.. لقد مارسوا القتل فى كثير من البلدان، لقد قتلوا أبناء مختلف العقائد ومعظم ضحاياهم من المسلمين.. إن أعمالهم غير متطابقة على الإطلاق مع كل من حقوق البشر وتقدم الأمم والإسلام، إذ ينص القرآن الكريم على أن "من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا".

ولا شك أن العقيدة التى يتحلى بها أكثر من مليار مسلم تفوق عظمتها بشكل كبير الكراهية الضيقة التى يكنها البعض.. إن الإسلام ليس جزءا من المشكلة المتلخصة فى مكافحة التطرف العنيف، وإنما يجب أن يكون الإسلام جزءا من حل هذه المشكلة.

علاوة على ذلك نعلم أن القوة العسكرية وحدها لن تكفى لحل المشاكل فى كل من أفغانستان وباكستان، ولذلك وضعنا خطة لاستثمار ١,٥ مليار دولار سنويا على مدى السنوات الخمس القادمة لإقامة شراكة مع الباكستانيين لبناء المدارس والمستشفيات والطرق والمؤسسات التجارية، وكذلك توفير مئات الملايين لمساعدة النازحين، وهذا أيضا السبب وراء قيامنا بتخصيص ما يربو على ٢,٨ مليار دولار لمساعدة الأفغان على تنمية اقتصادهم وتوفير خدمات يعتمد عليها الشعب.

اسمحوا لى أيضا أن أتطرق إلى موضوع العراق، لقد اختلف الوضع هناك عن الوضع فى أفغانستان؛ حيث وقع القرار بحرب العراق بصفة اختيارية مما أثار

خلافات شديدة سواء فى بلدى أو فى الخارج، ورغم اعتقادى بأن الشعب العراقى فى نهاية المطاف هو الطرف المستفيد فى معادلة التخلص من الطاغية صدام حسين، فإننى أعتقد أيضا أن أحداث العراق قد ذكرت أمريكا بضرورة استخدام الدبلوماسية لتسوية مشاكلنا كلما كان ذلك ممكنا. وفى الحقيقة إننا نستذكر كلمات أحد كبار رؤسائنا توماس جيفرسون الذى قال: "إننى أتمنى أن تنمو حكمتنا بقدر ما تنمو قوتنا، وأن تعلمنا هذه الحكمة درسا مفاده أن القوة ستزداد عظمة كلما قل استخدامها".

تتحمل أمريكا اليوم مسؤولية مزدوجة تتلخص فى مساعدة العراق على بناء مستقبل أفضل وترك العراق للعراقيين.. إننى أوضحت للشعب العراقى أننا لا نسعى لإقامة أية قواعد فى العراق أو لمطالبة العراق بأى من أراضيه أو موارده، فالعراق يتمتع بسيادته الخاصة به بمفرده، لذا أصدرت الأوامر بسحب الوحدات القتالية مع حلول شهر أغسطس/آب القادم، ولذا سنحترم الاتفاق المبرم مع الحكومة العراقية المنتخبة بأسلوب ديمقراطى والذى يقضى بسحب القوات القتالية من المدن العراقية بحلول شهر يوليو/ تموز، وكذلك سحب جميع قواتنا بحلول عام ٢٠١٢.. سنساعد العراق على تدريب قواته الأمنية وتنمية اقتصاده، ولكننا سنقدم الدعم للعراق الآمن والموحد بصفتنا شريكا له وليس بصفة الراعى.

وأخيرا مثلما لا يمكن لأمريكا أن تتسامح مع عنف المتطرفين يجب علينا أن لا نغير مبادئنا أبدا. قد ألحقت أحداث ١١ سبتمبر إصابة ضخمة ببلدنا، حيث يمكن تفهم مدى الخوف والغضب الذى خلفته تلك الأحداث، ولكن فى بعض الحالات أدى ذلك إلى القيام بأعمال تخالف مبادئنا.. إننا نتخذ إجراءات محددة لتغيير الاتجاه وقد قمت بمنع استخدام أساليب التعذيب من قبل الولايات المتحدة منعا باتا، كما أصدرت الأوامر بإغلاق السجن فى خليج جوانتانامو مع حلول مطلع العام القادم.

نحن فى أمريكا سندافع عن أنفسنا محترمين فى ذلك سيادة الدول وحكم القانون، وسنقوم بذلك فى إطار الشراكة بيننا وبين المجتمعات الإسلامية التى يحدق

بها الخطر أيضا لأننا سنحقق مستوى أعلى من الأمن فى وقت أقرب إذا نجحنا بصفة سريعة فى عزل المتطرفين، مع عدم التسامح معهم داخل المجتمعات الإسلامية.

أما المصدر الرئيسى الثانى للتوتر الذى أود مناقشته هو الوضع بين الإسرائيليين والفلسطينيين والعالم العربى.

إن متانة الأواصر الرابطة بين أمريكا وإسرائيل معروفة على نطاق واسع ولا يمكن قطع هذه الأواصر أبدا، وهى تستند إلى علاقات ثقافية وتاريخية، وكذلك الاعتراف بأن رغبة اليهود فى وجود وطن خاص لهم هى رغبة متأصلة فى تاريخ مأساوى لا يمكن لأحد نفيه.

لقد تعرض اليهود على مر القرون للاضطهاد وتفاقمت أحوال معاداة السامية بوقوع المحرقة التى لم يسبق لها عبر التاريخ أى مثيل، وإننى سأقوم غدا بزيارة معسكر بوخنفالد الذى كان جزءا من شبكة معسكرات الموت التى استخدمت لاسترقاق وتعذيب وقتل اليهود رميا بالأسلحة النارية وتسميما بالغازات. لقد تم قتل ٦ملايين من اليهود، يعنى أكثر من إجمالى عدد اليهود بين سكان إسرائيل اليوم.

إن نفى هذه الحقيقة أمر لا أساس له وينم عن الجهل وبالغ الكراهية، كما أن تهديد إسرائيل بتدميرها أو تكرار الصور النمطية الحقيرة عن اليهود هما أمران ظالمان للغاية ولا يخدمان إلا غرض استحضار تلك الأحداث الأكثر إيذاء إلى أذهان الإسرائيليين، وكذلك منع حلول السلام الذى يستحقه سكان هذه المنطقة.

أما من ناحية أخرى فلا يمكن نفى أن الشعب الفلسطينى بمسلميه ومسيحييه قد عانى أيضا فى سعيه لإقامة وطن خاص له، وقد تحمل الفلسطينيون آلام النزوح على مدى أكثر من ٦٠ عاما، حيث ينتظر العديد منهم فى الضفة الغربية وغزة والبلدان المجاورة لكى يعيشوا حياة يسودها السلام والأمن، هذه الحياة التى لم يستطيعوا عيشها حتى الآن.. يتحمل الفلسطينيون الإهانات اليومية - صغيرة كانت

أم كبيرة - الناتجة عن الاحتلال، وليس هناك أى شك فى أن وضع الفلسطينيين لا يطاق، ولن تدير أمريكا ظهرها للتطلعات المشروعة للفلسطينيين ألا وهى تطلعات الكرامة ووجود الفرص ودولة خاصة بهم.

لقد استمرت حالة الجمود لعشرات السنوات: شعبان لكل منهما طموحاته المشروعة ولكل منهما تاريخ مؤلم يجعل التراضى أمرا صعب المنال. إن توجيه اللوم أمر سهل، إذ يشير الفلسطينيون إلى تأسيس دولة إسرائيل وما أدى إليه ذلك من تشريد للفلسطينيين، ويشير الإسرائيليون إلى العداء المستمر والاعتداءات التى يتعرضون لها داخل حدود إسرائيل وخارج هذه الحدود على مدى التاريخ، ولكننا إذا نظرنا إلى هذا الصراع من هذا الجانب أو ذاك، فإننا لن نتمكن من رؤية الحقيقة لأن السبيل الوحيد للتوصل إلى تحقيق طموحات الطرفين يكون من خلال دولتين يستطيع فيهما الإسرائيليون والفلسطينيون أن يعيشوا فى سلام وأمن.

إن هذا السبيل يخدم مصلحة إسرائيل ومصلحة فلسطين ومصلحة أمريكا، ولذلك سأسعى شخصيًا للوصول إلى هذه النتيجة متحليا بالقدر اللازم من الصبر الذى تقتضيه هذه المهمة.

إن الالتزامات التى وافق عليها الطرفان بموجب خريطة الطريق هى التزامات واضحة. لقد آن الأوان - من أجل إحلال السلام - لكى يتحمل الجانبان مسؤولياتهما، ولكى نتحمل جميعنا مسؤولياتنا.

كما يجب على الفلسطينيين أن يتخلوا عن العنف.. إن المقاومة عن طريق العنف والقتل أسلوب خاطئ ولا يؤدى إلى النجاح.

لقد عانى السود فى أمريكا طوال قرون من الزمن من سوط العبودية ومن مهانة التفرقة والفصل بين البيض والسود، ولكن العنف لم يكن السبيل الذى مكنهم من الحصول على حقوقهم الكاملة والمتساوية، بل كان السبيل إلى ذلك إصرارهم وعزمهم السلمى على الالتزام بالمثل التى كانت بمثابة الركيزة التى اعتمد عليها

مؤسسو أمريكا، وهذا هو ذات التاريخ الذى شاهدته شعوب كثيرة تشمل شعب جنوب أفريقيا وجنوب آسيا وأوروبا الشرقية وإندونيسيا.

وينطوى هذا التاريخ على حقيقة بسيطة ألا وهى أن طريق العنف طريق مسدود وأن إطلاق الصواريخ على الأطفال الإسرائيليين فى مضاجعهم أو تفجير حافلة على متنها سيدات مسنات لا يعبر عن الشجاعة أو عن القوة، ولا يمكن اكتساب سلطة التأثير المعنوى عبر مثل هذه الأعمال، إذ يؤدى هذا الأسلوب إلى التنازل عن هذه السلطة.

والآن على الفلسطينيين تركيز اهتمامهم على الأشياء التى يستطيعون إنجازها، ويجب على السلطة الفلسطينية تنمية قدرتها على ممارسة الحكم من خلال مؤسسات تقدم خدمات للشعب وتلبى احتياجاته.

إن حركة حماس تحظى بالدعم من قبل بعض الفلسطينيين، ولكنها تتحمل مسؤوليات كذلك. ويتعين على حركة حماس حتى تؤدى دورها فى تلبية طموحات الفلسطينيين وتوحيد الشعب الفلسطينى، أن تضع حداً للعنف وأن تعترف بالاتفاقات السابقة وأن تعترف بحق إسرائيل فى البقاء.

وفى نفس الوقت يجب على الإسرائيليين الإقرار بأن حق فلسطين فى البقاء حق لا يمكن إنكاره، مثلما لا يمكن إنكار حق إسرائيل فى البقاء.

إن الولايات المتحدة لا تقبل مشروعية من يتحدثون عن إلقاء إسرائيل فى البحر، كما أننا لا نقبل مشروعية استمرار المستوطنات الإسرائيلية. إن عمليات البناء هذه تنتهك الاتفاقات السابقة وتقوض الجهود المبذولة لتحقيق السلام.. لقد آن الأوان لكى تتوقف هذه المستوطنات.

كما يجب على إسرائيل أن تفى بالتزاماتها لتأمين تمكين الفلسطينيين من أن يعيشوا ويعملوا ويطوروا مجتمعهم، لأن أمن إسرائيل لا يتحقق عبر الأزمة الإنسانية فى غزة التى تصيب الأسر الفلسطينية بالهلاك أو عبر انعدام الفرص فى الضفة الغربية.

إن التقدم فى الحياة اليومية التى يعيشها الشعب الفلسطينى يجب أن يكون جزءا من الطريق المؤدى إلى السلام، ويجب على إسرائيل أن تتخذ خطوات ملموسة لتحقيق مثل هذا التقدم.

وأخيرا يجب على الدول العربية أن تعترف بأن مبادرة السلام العربية كانت بداية هامة، وأن مسؤولياتها لا تنتهى بهذه المبادرة، كما ينبغى عليها أن لا تستخدم الصراع بين العرب وإسرائيل لإلهاء الشعوب العربية عن مشاكلها الأخرى، بل يجب أن تكون هذه المبادرة سببا لحثهم على العمل لمساعدة الشعب الفلسطينى على تطوير مؤسساته التى ستعمل على مساندة الدولة الفلسطينية ومساعدة الشعب الفلسطينى على الاعتراف بشرعية إسرائيل، واختيار سبيل التقدم بدلا من السبيل الانهزامى الذى يركز الاهتمام على الماضى.

ستنسق أمريكا سياساتها مع سياسات أولئك الذين يسعون من أجل السلام، وستكون تصريحاتنا التى تصدر علنا هى ذات التصريحات التى نعبر عنها فى اجتماعاتنا الخاصة مع الإسرائيليين والفلسطينيين والعرب.. إننا لا نستطيع أن نفرض السلام، ويدرك الكثير من المسلمين فى قرارة أنفسهم أن إسرائيل لن تختفى، وبالمثل يدرك الكثير من الإسرائيليين أن دولة فلسطينية أمر ضرورى.

لقد آن الأوان للقيام بعمل يعتمد على الحقيقة التى يدركها الجميع.. لقد تدفقت دموع الكثيرين وسالت دماء الكثيرين، وعلينا جميعا تقع مسؤولية العمل من أجل ذلك اليوم الذى تستطيع فيه أمهات الإسرائيليين والفلسطينيين مشاهدة أبنائهم يتقدمون فى حياتهم دون خوف، وعندها تصبح الأرض المقدسة التى نشأت فيها الأديان الثلاثة العظيمة مكانا للسلام الذى أراده الله لها، وعندها تصبح مدينة القدس وطنا دائما لليهود والمسيحيين والمسلمين، المكان الذى يستطيع فيه أبناء سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يتعايشوا فى سلام تماما كما ورد فى قصة الإسراء عندما أقام الأنبياء موسى وعيسى ومحمد سلام الله عليهم الصلاة معا.

إن المصدر الثالث للتوتر يتعلق باهتمامنا المشترك بحقوق الدول ومسؤولياتها بشأن الأسلحة النووية.. لقد كان هذا الموضوع مصدرا للتوتر الذى طرأ مؤخرا على العلاقات بين الولايات المتحدة وجمهورية إيران الإسلامية التى ظلت لسنوات كثيرة تعبر عن هويتها من خلال موقفها المناهض لبلدى، والتاريخ بين بلدينا تاريخ عاصف بالفعل، إذ لعبت الولايات المتحدة إبان فترة الحرب الباردة دورا فى الإطاحة بالحكومة الإيرانية المنتخبة بأسلوب ديمقراطى.

أما إيران فإنها لعبت دورا منذ قيام الثورة الإسلامية بأعمال اختطاف الرهائن وأعمال العنف ضد الجنود والمدنيين الأمريكيين..

هذا التاريخ معروف.. لقد أعلنت بوضوح لقادة إيران وشعبها أن بلدى بدلا من أن يتقيد بالماضى يقف مستعدا للمضى قدما.

والسؤال المطروح الآن لا يتعلق بالأمور التى تناهضها إيران، ولكنه يرتبط بالمستقبل الذى تريد إيران أن تبنيه. إن التغلب على فقدان الثقة الذى استمر لعشرات السنوات سيكون صعبا، ولكننا سنمضى قدما مسلحين بالشجاعة واستقامة النوايا والعزم. سيكون هناك الكثير من القضايا التى سيناقشها البلدان، ونحن مستعدون للمضى قدما دون شروط مسبقة على أساس الاحترام المتبادل.

إن الأمر الواضح لجميع المعنيين بموضوع الأسلحة النووية أننا قد وصلنا إلى نقطة تتطلب الحسم، وهى ببساطة لا ترتبط بمصالح أمريكا ولكنها ترتبط بمنع سباق للتسلح النووى قد يدفع بالمنطقة إلى طريق محفوف بالمخاطر ويدمر النظام العالمى لمنع انتشار الأسلحة النووية.

إننى مدرك أن البعض يعترض على حيازة بعض الدول لأسلحة لا توجد مثلها لدى دول أخرى، ولا ينبغى على أية دولة أن تختار الدول التى تملك أسلحة نووية، وهذا هو سبب تأكيدى مجددا وبشدة على التزام أمريكا بالسعى من أجل عدم امتلاك أى من الدول للأسلحة النووية، وينبغى على أية دولة بما فيها إيران أن يكون لها حق الوصول إلى الطاقة النووية السلمية إذا امتثلت لمسؤولياتها بموجب معاهدة منع

انتشار الأسلحة النووية، وهذا الالتزام جوهرى فى المعاهدة ويجب الحفاظ عليه من أجل جميع الملتزمين به.

الموضوع الرابع الذى أريد أن أتطرق إليه هو الديمقراطية..

إن نظام الحكم الذى يسمع صوت الشعب ويحترم حكم القانون وحقوق جميع البشر هو النظام الذى أؤمن به، وأعلم أن جدلا حول تعزيز الديمقراطية وحقوق جميع البشر كان يدور خلال السنوات الأخيرة، وأن جزءا كبيرا من هذا الجدل كان متصلا بالحرب فى العراق.

اسمحوا لى أن أتحدث بوضوح وأقول ما يلى: لا يمكن لأية دولة ولا ينبغى لأية دولة أن تفرض نظاما للحكم على أية دولة أخرى، ومع ذلك لن يقلل ذلك من التزامى تجاه الحكومات التى تعبر عن إرادة الشعب، حيث يتم التعبير عن هذا المبدأ فى كل دولة وفقا لتقاليد شعبها.

إن أمريكا لا تفترض أنها تعرف ما هو الأفضل بالنسبة للجميع، كما أننا لا نفترض أن تكون نتائج الانتخابات السلمية هى النتائج التى نختارها، ومع ذلك يلازمنى اعتقاد راسخ بأن جميع البشر يتطلعون لامتلاك قدرة التعبير عن أفكارهم وآرائهم فى أسلوب الحكم المتبع فى بلدهم، ويتطلعون للشعور بالثقة فى حكم القانون وفى الالتزام بالعدالة والمساواة فى تطبيقه، ويتطلعون كذلك لشفافية الحكومة وامتناعها عن نهب أموال الشعب، ويتطلعون لحرية اختيار طريقهم فى الحياة.

إن هذه الأفكار ليست أفكارا أمريكية فحسب، بل هى حقوق إنسانية، وهى لذلك الحقوق التى سندعمها فى كل مكان.

لا يوجد طريق سهل ومستقيم لتلبية هذا الوعد، ولكن الأمر الواضح بالتأكيد هو أن الحكومات التى تحمى هذه الحقوق هى فى نهاية المطاف الحكومات التى تتمتع بقدر أكبر من الاستقرار والنجاح والأمن. إن قمع الأفكار لا ينجح أبدا فى القضاء عليها.. إن أمريكا تحترم حق جميع من يرفعون أصواتهم حول العالم للتعبير عن

آرائهم بأسلوب سلمى يراعى القانون، حتى لو كانت آراؤهم مخالفة لآرائنا، وسنرحب بجميع الحكومات السلمية المنتخبة شرط أن تحترم جميع أفراد الشعب فى ممارستها للحكم.

هذه النقطة لها أهميتها لأن البعض لا ينادون بالديمقراطية إلا عندما يكونون خارج مراكز السلطة، ولا يرحمون الغير فى ممارساتهم القمعية لحقوق الآخرين عند وصولهم إلى السلطة.

إن الحكومة التى تتكون من أفراد الشعب وتدار بواسطة الشعب هى المعيار الوحيد لجميع من يشغلون مراكز السلطة، بغض النظر عن المكان الذى تتولى فيه مثل هذه الحكومة ممارسة مهامها، إذ يجب على الحكام أن يمارسوا سلطاتهم عبر الاتفاق فى الرأى وليس عبر الإكراه، ويجب على الحكام أن يحترموا حقوق الأقليات وأن يعطوا مصالح الشعب الأولوية على مصالح الحزب الذى ينتمون إليه.

أما الموضوع الخامس الذى يجب علينا الوقوف أمامه معا، فهو موضوع الحرية الدينية.

إن التسامح تقليد عريق يفخر به الإسلام.. لقد شاهدت بنفسى هذا التسامح عندما كنت طفلا فى إندونيسيا، إذ كان المسيحيون فى ذلك البلد الذى يشكل فيه المسلمون الغالبية يمارسون طقوسهم الدينية بحرية. إن روح التسامح التى شاهدتها هناك هى ما نحتاجه اليوم، إذ يجب أن تتمتع الشعوب فى جميع البلدان بحرية اختيار العقيدة وأسلوب الحياة القائم على ما تمليه عليهم عقولهم وقلوبهم وأرواحهم بغض النظر عن العقيدة التى يختارونها لأنفسهم، لأن روح التسامح هذه ضرورية لازدهار الدين.

ومع ذلك تواجه روح التسامح هذه تحديات مختلفة.. ثمة توجه فى بعض أماكن العالم الإسلامى ينزع إلى تحديد قوة عقيدة الشخص وفقا لموقفه الرافض لعقيدة الآخر..

إن التعددية الدينية ثروة يجب الحفاظ عليها ويجب أن يشمل ذلك الموارنة فى لبنان أو الأقباط فى مصر، ويجب إصلاح خطوط الانفصال فى أوساط المسلمين كذلك لأن الانقسام بين السنة والشيعة قد أدى إلى عنف مأساوى ولا سيما فى العراق.

إن الحرية الدينية هى الحرية الأساسية التى تمكن الشعوب من التعايش، ويجب علينا دائما أن نفحص الأساليب التى نتبعها لحماية هذه الحرية، فالقواعد التى تنظم التبرعات الخيرية فى الولايات المتحدة على سبيل المثال أدت إلى تصعيب تأدية فريضة الزكاة بالنسبة للمسلمين، وهذا هو سبب التزامى بالعمل مع الأمريكيين المسلمين لضمان تمكينهم من تأدية فريضة الزكاة.

وبالمثل، فمن الأهمية بمكان أن تمتنع البلدان الغربية عن وضع العقبات أمام المواطنين المسلمين لمنعهم من التعبير عن دينهم على النحو الذى يعتبرونه مناسبا، فعلى سبيل المثال عن طريق فرض الثياب التى ينبغى على المرأة المسلمة أن ترتديها.

إننا ببساطة لا نستطيع التظاهر بالليبرالية عبر التستر على معاداة أى دين.. ينبغى أن يكون الإيمان عاملا للتقارب فيما بيننا، ولذلك نعمل الآن على تأسيس مشاريع جديدة تطوعية فى أمريكا من شأنها التقريب فيما بين المسيحيين والمسلمين واليهود.

إننا لذلك نرحب بالجهود المماثلة لمبادرة جلالة الملك عبد الله المتمثلة فى حوار الأديان، كما نرحب بالموقف الريادى الذى اتخذته تركيا فى تحالف الحضارات. إننا نستطيع أن نقوم بجهود حول العالم لتحويل حوار الأديان إلى خدمات تقدمها الأديان يكون من شأنها بناء الجسور التى تربط بين الشعوب وتؤدى بهم إلى تأدية أعمال تدفع إلى الأمام عجلة التقدم لجهودنا الإنسانية المشتركة، سواء كان ذلك فى مجال مكافحة الملاريا فى أفريقيا أو توفير الإغاثة فى أعقاب كارثة طبيعية.

الموضوع السادس الذى أريد التطرق إليه هو موضوع حقوق المرأة.

أعلم أن الجدل يدور حول هذا الموضوع، وأرفض الرأى الذى يعبر عنه البعض

فى الغرب ويعتبر المرأة التى تختار غطاء لشعرها أقل شأنا من غيرها، ولكننى أعتقد أن المرأة التى تحرم من التعليم تحرم كذلك من المساواة. إن البلدان التى تحصل فيها المرأة على تعليم جيد هى غالبا بلدان تتمتع بقدر أكبر من الرفاهية، وهذا ليس من باب الصدفة.

اسمحوا لى أن أتحدث بوضوح.. إن قضايا مساواة المرأة ليست ببساطة قضايا للإسلام وحده.. لقد شاهدنا بلدانا غالبية سكانها من المسلمين مثل تركيا وباكستان وبنغلاديش وإندونيسيا تنتخب المرأة لتولى قيادة البلد، وفى نفس الوقت يستمر الكفاح من أجل تحقيق المساواة للمرأة فى بعض جوانب الحياة الأمريكية وفى بلدان العالم، ولذلك ستعمل الولايات المتحدة مع أى بلد غالبية سكانه من المسلمين من خلال شراكة لدعم توسيع برامج محو الأمية للفتيات ومساعدتهن على السعى فى سبيل العمل عبر توفير التمويل الأصغر الذى يساعد الناس على تحقيق أحلامهم.

باستطاعة بناتنا تقديم مساهمات إلى مجتمعاتنا تتساوى مع ما يقدمه لها أبناؤنا، وسيتم تحقيق التقدم فى رفاهيتنا المشتركة من خلال إتاحة الفرصة لجميع الرجال والنساء لتحقيق كل ما يستطيعون تحقيقه من إنجازات.

أنا لا أعتقد أن على المرأة أن تسلك ذات الطريق الذى يختاره الرجل لكى تحقق المساواة معه، كما أحترم كل امرأة تختار ممارسة دور تقليدى فى حياتها، ولكن هذا الخيار ينبغى أن يكون للمرأة نفسها.

وأخيرا أريد أن أتحدث عن التنمية الاقتصادية وتنمية الفرص.. أعلم أن الكثيرين يشاهدون تناقضات فى مظاهر العولمة لأن شبكة الإنترنت وقنوات التلفزيون لديها قدرات لنقل المعرفة والمعلومات ولديها كذلك قدرات لبث مشاهد جنسية منفرة وفظة وعنف غير عقلانى، وباستطاعة التجارة أن تأتى بثروات وفرص جديدة ولكنها فى ذات الوقت تحدث فى المجتمعات اختلالات وتغييرات كبيرة.

وتأتى مشاعر الخوف فى جميع البلدان حتى فى بلدى مع هذه التغييرات، وهذا الخوف هو خوف من أن تؤدى الحداثة إلى فقدان السيطرة على خياراتنا الاقتصادية

وسياساتنا، والأهم من ذلك على هوياتنا، وهى الأشياء التى نعتز بها فى مجتمعاتنا وفى أسرنا وفى تقاليدنا وفى عقيدتنا.

ولكنى أعلم أيضا أن التقدم البشرى لا يمكن إنكاره، فالتناقض بين التطور والتقاليد ليس أمرا ضروريا، إذ تمكنت بلدان مثل اليابان وكوريا الجنوبية من تنمية أنظمتها الاقتصادية والحفاظ على ثقافتها المتميزة فى ذات الوقت، وينطبق ذلك على التقدم الباهر الذى شاهده العالم الإسلامى من كوالالمبور إلى دبى.. لقد أثبتت المجتمعات الإسلامية منذ قديم الزمان وفى عصرنا الحالى أنها تستطيع أن تتبوأ مركز الطليعة فى الابتكار والتعليم، وهذا أمر هام إذ لا يمكن أن تعتمد أية إستراتيجية للتنمية على الثروات المستخرجة من تحت الأرض، ولا يمكن إدامة التنمية مع وجود البطالة فى أوساط الشباب.

لقد استمتع عدد كبير من دول الخليج بالثراء المتولد عن النفط، وتبدأ بعض هذه الدول الآن بالتركيز على قدر أكبر من التنمية، ولكن علينا جميعا أن ندرك أن التعليم والابتكار سيكونان مفتاحا للثروة فى القرن الواحد والعشرين.

إننى أؤكد على ذلك فى بلدى.. كانت أمريكا فى الماضى تركز اهتمامها على النفط والغاز فى هذا الجزء من العالم، ولكننا نسعى الآن للتعامل مع أمور تشمل أكثر من ذلك فيما يتعلق بالتعليم.. سنتوسع فى برامج التبادل ونرفع عدد المنح الدراسية مثل تلك التى أتت بوالدى إلى أمريكا، وسنقوم فى نفس الوقت بتشجيع عدد كبير من الأمريكيين على الدراسة فى المجتمعات الإسلامية وسنوفر للطلاب المسلمين الواعدين فرصا للتدريب فى أمريكا، وستستثمر فى سبل التعليم الافتراضى للمعلمين والتلاميذ فى جميع أنحاء العالم عبر الفضاء الإلكترونى، وسنستحدث شبكة إلكترونية جديدة لتمكين المراهقين والمراهقات فى ولاية كنساس فى الاتصال المباشر مع نظرائهم فى القاهرة.

وفيما يتعلق بالتنمية الاقتصادية سنستحدث هيئة جديدة من رجال الأعمال المتطوعين لتكوين شراكة مع نظرائهم فى البلدان التى يشكل فيها المسلمون أغلبية

السكان، وسأستضيف مؤتمر قمة لأصحاب المشاريع المبتكرة هذا العام لتحديد كيفية تعميق العلاقات بين الشخصيات القيادية فى مجال العمل التجارى والمهنى والمؤسسات وأصحاب المشاريع الابتكارية الاجتماعية فى الولايات المتحدة وفى المجتمعات الإسلامية فى جميع أنحاء العالم.

وفيما يتعلق بالعلوم والتقنية سنؤسس صندوقا ماليا جديدا لدعم التنمية والتطور التقنى فى البلدان التى يشكل فيها المسلمون غالبية السكان، وللمساهمة فى نقل الأفكار إلى السوق حتى تستطيع هذه البلدان استحداث فرص للعمل، وسنفتتح مراكز للتفوق العلمى فى أفريقيا والشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا، وسنعين موفدين علميين للتعاون فى برامج من شأنها تطوير مصادر جديدة للطاقة واستحداث فرص خضراء للعمل لا تضر بالبيئة، وكذا سبل لترقيم السجلات وتنظيف المياه وزراعة محاصيل جديدة.

واليوم أعلن عن جهود عالمية جديدة مع منظمة المؤتمر الإسلامى للقضاء على مرض شلل الأطفال، وسنسعى من أجل توسيع الشراكة مع المجتمعات الإسلامية لتعزيز صحة الأطفال والأمهات.

يجب إنجاز جميع هذه الأمور عبر الشراكة. إن الأمريكيين مستعدون للعمل مع المواطنين والحكومات ومع المنظمات الأهلية والقيادات الدينية والشركات التجارية والمهنية فى المجتمعات الإسلامية حول العالم من أجل مساعدة شعوبنا فى مساعيها الرامية إلى تحقيق حياة أفضل.

إن معالجة الأمور التى وصفتها لن تكون سهلة، ولكننا نتحمل معا مسؤولية ضم صفوفنا والعمل معا نيابة عن العالم الذى نسعى من أجله، وهو عالم لا يهدد فيه المتطرفون شعوبنا، عالم تعود فيه القوات الأمريكية إلى ديارها، عالم ينعم فيه الفلسطينيون والإسرائيليون بالأمان فى دولة لكل منهم، عالم تستخدم فيه الطاقة النووية لأغراض سلمية، عالم تعمل فيه الحكومات على خدمة المواطنين، عالم تحظى فيه حقوق جميع البشر بالاحترام.

هذه هى مصالحنا المشتركة وهذا هو العالم الذى نسعى من أجله، والسبيل الوحيد لتحقيق هذا العالم هو العمل معا.

أعلم أن هناك الكثير من المسلمين وغير المسلمين الذين تراودهم الشكوك حول قدرتنا على استهلال هذه البداية، وهناك البعض الذين يسعون إلى تأجيج نيران الفرقة والانقسام والوقوف فى وجه تحقيق التقدم، ويقترح البعض أن الجهود المبذولة فى هذا الصدد غير مجدية ويقولون إن الاختلاف فيما بيننا أمر محتم وإن الحضارات ستصطدم حتما، وهناك الكثيرون كذلك الذين يتشككون ببساطة فى إمكانية تحقيق التغيير الحقيقى، فالمخاوف كثيرة وانعدام الثقة كبير، ولكننا لن نتقدم أبدا إلى الأمام إذا اخترنا التقيد بالماضى.

إن الفترة الزمنية التى نعيش فيها جميعا مع بعضنا البعض فى هذا العالم هى فترة قصيرة، والسؤال المطروح علينا هو: هل سنركز اهتمامنا خلال هذه الفترة الزمنية على الأمور التى تفرق بيننا أم سنلتزم بجهود مستديمة للوصول إلى موقف مشترك وتركيز اهتمامنا على المستقبل الذى نسعى إليه من أجل أبنائنا واحترام كرامة جميع البشر؟ هذه الأمور ليست أمورا سهلة..

إن خوض الحروب أسهل من إنهائها، كما أن توجيه اللوم للآخرين أسهل من أن ننظر إلى ما يدور فى أعماقنا، كما أن ملاحظة الجوانب التى نختلف فيها مع الآخرين أسهل من العثور على الجوانب المشتركة بيننا، ولكل دين من الأديان قاعدة جوهرية تدعونا لأن نعامل الناس مثلما نريد منهم أن يعاملونا، وتعلو هذه الحقيقة على البلدان والشعوب وهى عقيدة ليست بجديدة، كما أنها ليست عقيدة السود أو البيض أو السمر، وليست عقيدة مسيحية أو مسلمة أو يهودية، هى عقيدة الإيمان الذى بدأت نبضاتها فى مهد الحضارة والتى ما زالت تنبض اليوم فى قلوب آلاف الملايين من البشر، هى الإيمان بالآخرين، الإيمان الذى أتى بى إلى هنا اليوم.

إننا نملك القدرة على تشكيل العالم الذى نسعى من أجله، ولكن يتطلب ذلك منا أن نتحلى بالشجاعة اللازمة لاستحداث هذه البداية الجديدة، آخذين بعين الاعتبار ما

جاء فى القرآن الكريم: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا"، ونقرأ فى التلمود ما يلى: "إن الغرض من النص الكامل للتوراة هو تعزيز السلام". ويقول لنا الكتاب المقدس: "هنيئا لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يُدعون".

باستطاعة شعوب العالم أن تعيش معا فى سلام.. إننا نعلم أن هذه رؤية الرب، وعلينا الآن أن نعمل على الأرض لتحقيق هذه الرؤية.

شكرا لكم والسلام عليكم.

(**المصدر**: الموقع الإلكترونى لقناة الجزيرة القطرية)

التصحيح اللغوى: أحمد نزيه
الإشراف الفنى: حسن كامل